عبد الكريم الخطيب

التفسير القرآني للقرآن

الكتاب العاشر

الجزءان التاسع عشر والعشرون

من مباحث هذا الكتاب

- الماء والماء .... والناس والناس
- التكرار ..... والقصص القرآني
- كلمات الله .... وكيف تلقاها النبي
- الشعر ...... ونظرة الإسلام إليه
- سليمان .... والنملة .... والهدهد
- الدابة ... التي تكلم الناس ... ما هي؟
- موسى ...... والقتيل الذي قتله

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مطبعة السنة المحمدية
١٧ ش شريف باشا الكبير – عابدين
تليفون ٩٠٦٠١٧

الآيات : (٢١ — ٢٩)

* « وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا (٢٣) أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا (٢٥) ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا (٢٩) »



التفسير :

قوله تعالى :

* «وقال الذين لا يَرْجُون لِقاءَنا لَوْلآ أُنزِلَ علينا الملائكةُ أو نَرَى رَبنا لقد استكبروا فى أنفسهم وَعَتوْا عُتوًّا كبيراً » .

هو بيان لمقولة من مقولات المشركين ، فى مواجهة الدّعوة التى يدعوهم إليها رسول الله ، وما يحمل اليهم من كلمات ربّه وآياته . . من هدى ونور .. فقد قالوا فى آيات الله وكلماته : « إنْ هذا إلّا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون » . . وقالوا فيها أيضاً : « أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بُكرةً وأصيلاً » . وقالوا فى رسول الله : « مالِ هذا الرسول يأكل الطعام

ويمشى فى الأسواق لولا أُنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً . أو يلقى إليه كَنزٌ أو تكون له جنّة يأ كل منها » .

وهم هنا يقولون أكثر مما قالوا . . يقولون : « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرَى ربّنا » . . فهم لا يجدون فيما اقترحوه من قبلُ مَقْنعاً لهم ، للتصديق بالرسول ، وبرسالته . . بل يطلبون أن يكون المبعوث إليهم من الله ، مَلَكاً من ملائكته . . « لَولا أنزل علينا الملائكةُ » ثم يمدّون فى حبل الأمانىّ ، فلا يجدون فى إنزال الملائكة إليهم ما يقيم حجة بأنهم من عند ربّهم . . إنهم يريدون أن يرَوا الله عِياناً . « أو نرَى ربّنا » ! فيالِ لضلال القوم ، ويالِ لعتوّهم وغرورهم ! !

وقد ردّ الله سبحانه عليهم بقوله : «لقد استكبروا فى أنفسهم وعَتَوْا عُتُوّاً كبيراً» فكشف عن الغرور الذى استبدّ بهم ، وملَك عليهم أمرهم . . إنهم سادةٌ فى الناس ، ورؤساء فى القوم ، وزعماء فى العشيرة . . وإنه إذا كان للسماء حديث معهم ، فليكن بلسان جنود الله فيها ، وهم الملائكة . . فهذا أقلّ ما يقبلونه من السماء إذا أرادت السماء أن تتحدث إليهم . . وإنهم ليَعُدُّون هذا تنازلاً منهم ، وإلّا فإنهم فى المستوى الذى ينبغى أن يلقاهم فيه الله لقاء مباشراً . . هكذا بلغ بهم السّفه والجهل والغرور ! .

— وفى قوله تعالى : « لقد استكبروا فى أنفسهم » إشارة إلى أن هذا الكبر الذى أرام فى أنفسهم هذا الرأى — هو داء سكن فى كيانهم ، فأشاع فيهم مشاعر كاذبة ، من ضلالات وأوهام ، وَرِمتْ بها أنفسهم ، كما يتورم الجسد بالمرض الخبيث! وهذا هو بعض السرّ فى ذكر النفوس ، وإسناد الاستكبار إليها ، دِون إطلاقه ليكون كِبراً لهم ، فقال تعالى : « لقد استكبروا فى أنفسهم» . . وهذا الذى جاء عليه النظم القرآنى، يبين أن استكبارهم استكبار يعيشون به فى نفوسهم ،

وأنه لا أثر له فى الخارج ، إذ لا يَرى الرائى منهم ، إلا سفهاً وجهلاً ، تخف به موازينهم فى الحياة ، وينزل به قدرهم فى أعين الناس . .

وقوله تعالى : « وعَتَوْا عُتُوًّا كبيرا » — إشارة إلى مخلّفات هذا الاستكبار الكاذب ، وأنه أغرى القوم بأن يلبسوا ثوبَ الجبابرة العُتاة المتكبرين . .

فإذا نظرنا إلى القوم فى هذا الوصف الكاشف ، الذى وصفهم الله به ، ثم نظرنا فى قوله تعالى : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا » ـ رأينا أن قولهم : « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا » إنما هو منطلق من قلوب لا تؤمن بالبعث ، ولا بالحساب والجزاء ، ومن هنا أطلقوا العِنان لسفههم وتطاولهم على الله ، حتى تمثّلوه واحداً منهم !

قوله تعالى :

* « يَوْمَ يرون الملائكة لا بُشْرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً » .

إن هؤلاء السفهاء طلبوا مَطْلَبَيْن ، لكى يصدّقوا بما ينزل عليهم من السماء . . إما أن تأتيهم الملائكة ، أو يأتيهم الله !

وقد رَدَّ الله سبحانه وتعالى على المطلب الأول ، وهو نزول الملائكة ، وأضرب عن المطلب الثانى ، إذ لا سبيل إليه ، وهو رؤية الله !

وإنه إذا كان من الممكن أن تنزل عليهم الملائكةَ ، فإنها لا تنزل عليهم إلا بالهلاك والدمار . . فذلك ما كانت تَنْزل به الملائكة على الأقوام الظالمين قبلهم ، كما يقول سبحانه : « ما نُنَزّل الملائكة إلا بالحقّ وما كانوا إذاً مُنْظَرين » (٨ : الحجر) والحقّ هنا ، هو ما حُقّ على الضالين من عذاب الله ، بعد أن كفروا بالله ، وكذّبوا برسله..

فلو أن الله سبحانه استجاب لهؤلاء المشركين ، ورأوا الملائكة ، لكان ذلك إيذاناً ببلاء واقع بهم ، فلا تُرى لهم بعد هذا من باقية .

وقوله تعالى : « لا بشرى يومئذ للمجرمين » . . أى أن هذا اليوم الذى يرى فيه هؤلاء المجرمون الملائكة ، هو يوم عَسِر ، لا يطلع عليهم إلا بما يسوءهم ، سواء أكان ذلك فى الدنيا ، أو فى الآخرة . . فلا شىء من البشريات المسعِدة لهم فى هذا اليوم الذى يرون فيه الملائكة . .

وقوله تعالى : « ويقولون حجراً محجوراً » .

الحجر : المنع ، ومنه سُمى العقل حجراً ، لأنه يحجر صاحبه عن العِثار ، والزلل . .

والضمير فى « يقولون » يعود إلى الملائكة . . و « حجراً محجوراً » هو مقول قولهم للمجرمين . . أى أنهم يقولون للمجرمين : « حجراً محجوراً » أى ادخلوا هذا الحجر الضيّق ، الذى لا تستطيعون الهرب منه . .

ويجوز أن يكون الضمير فى : « يقولون » عائداً على المجرمين أنفسهم ، ويكون ذلك من مقولاتهم ، حين يروْن الملائكة ، وما بين أيديهم من نُذُر الهلاك ، والعذاب ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وإذا أُلقُوا منها مكاناً ضيقاً مقرّنين دعوْا هنالك ثبوراً » . . فقولهم : « حِجراً محجورًا » بمعنى قولهم : ثبورًا ثبورًا ، أى هلاكاً مُهلكا . .

قوله تعالى:

* « وقَدِمْنا إلى ما عَمِلوا من عَمَلٍ فجعلناه هباءً منثورًا » .

القدوم على الشىء : الورود عليه ، والوصول إليه من مكان بعيد عنه . .

وقدوم الله سبحانه وتعالى إلى أعمال هؤلاء المجرمين ، لا يعنى أنها كانت

بعيدة عن الله ، إذ كل شىء حاضر بين يدى الله سبحانه ، وإنما بعدها عن الله ، هو بعدها عن موضع الرضا والقبول منه سبحانه وتعالى . . فهو بُعد معنوى ، استعير للبعد الحسىّ .. وذلك مثل قوله تعالى : « ولا ينظر إليهم يوم القيامة » (٧٧ : آل عمران) . . فالمراد بالنظر ، هو نظر الرضا والرحمة . .

وفى التعبير بقدوم الله سبحانه وتعالى إلى أعمال الـكافرين ، دون التعبير بقدومها هى إلى الله سبحانه وتعالى ـ إشارة إلى سوء هذه الأعمال ، وكراهية الله سبحانه وتعالى لها ، وأنها لا ترد عليه ، ولا تنزل بحماه ، وإنمـا تظل بمعزل عن هذا الحمى حتى يجىء اليوم الموعود ، ويُعرض أصحابها على الحساب ، فيجاء لهم بأعمالهم تلك من مكانها المنعزل البعيد . . وإذا هى هباء منثور .

والهباء : الغبار الدقيق الذى لا يُرى إلاّ على أشعة الشمس .

والمنثور : المنتشر المتطاير..

وهذا يعنى ، أن هذه الأعمال إذ تُعرض على أصحابها ، لا يرونها إلا هباءً لا يُمسكون منه بشىء ، ولا يحصلون منه على ما ينفع ، فى هذا الموقف الحرج .

والمراد بالعمل هنا ، هو العمل الذى يُحسب فى الأعمال الصالحة المؤمنين ، على حين أنه لا يعتدّ به إذا كان من عمل غير المؤمنين بالله . . لأن كل عمل لا يزكيه الإيمان ، هو عمل مردودعلى صاحبه ، لأنه لم يُرد به وجه الله ، فهو ـ كما قلنا فى غير موضع ـ أشبه بالميْتة من الحيوان ، قد خبُث لحمه ، لأنه لم يُزَكَّ بالذبح ، ولو زُكِّىَ بالذبح لـكان طيِّباً ، حَلالاً . .

قوله تعالى :

* « أصحاب الجنّةِ يومئذٍ خيرٌ مُستقَرّاً وأحسنُ مَقيلاً » .

هو عرض لأهل الإيمان ، الذين تقبل الله سبحانه منهم أحسنَ ما عملوا ، وتجاوز عن سيئاتهم ، وأدخلهم منازل رضوانه . .

وهذا العرض لأصحاب الجنة ، وما يلقوْن عند الله من رضوان ـ هو مما يضاعِف فى حسرة الكافرين ، ويزيد فى قسوة البلاء المحيط بهم . . فإن أهل البؤس ، يزداد بؤسهم ، حين يرَوْن النعيم الذى يعيش فيه غيرهم ، ولو أنهم كانوا يعيشون وحدهم ، فى عزلة مع بؤسهم ، لخفّف ذلك كثيرًا من عَناء مايُعانون من قسوة الحرمان . .

وفى التعبير عن المؤمنين النازلين بالجنة ، بأنهم أصحاب الجنة ـ إشارة إلى التمكين لهم من كلّ ما فيها من نعيم ، وأنهم أصحابها المالكون لها ، يتصرّفون فيها تصرّف المالك فيما ملك ، من غير مراجعة أو حساب ، كما يقول سبحانه وتعالى لهم : « تلكم الجنة ، أورثتموها بما كنتم تعملون » (٤٣ الأعراف) .

والمستقرّ : مكان الاستقرار ، والأمن ، والطمأنينة ، حيث لا يجد الإنسان داعية للتحول عنه . .

والمقيل : مكان القيلولة وقت الظهيرة ، حيث الظلّ الذى يفرّ إليه الإنسان من الحرور فى ذلك الوقت .

فأصحاب الجنة فى أمنٍ واستقرار ، وفى ظلٍّ ظليل من حرّ الشمس ، ولفح الهجير . . وتلك أمنية يتمنّاها الذين يُعانون حياة الصحراء ، ويكتوون بنار شمسها المحرقة ، كما يقول سبحانه وتعالى : « ودانيةً عليهم ظلالها وذُلِّلَتْ قطوفُها تذليلاً » (١٤ : الإنسان) . . أما الذين يُعانون حياةَ البرد ولَفحات الزّمهرير ، فإنهم سيجدون أمنيتهم فى جوّ معتدل ، لاتحرقهم شمسه ، ولا يَلفَحهم بَرده ، كما يقول سبحانه : « لا يَروْن فيها شمسًا ولا زمهريرًا » (١٣ : الإنسان) .

وكلّ ما جاء فى القرآن الكريم من أوصاف الجنة ونعيمها ، هو مما كان يتمنّاه المؤمنون فى الدنيا ، وتقصُر عنه أيديهم . . فإذا مَنّ الله عليهم بالجنّة ، كان من تمام هذه النعمة ، أن يجدوا كل ما فاتهم فى الدنيا حاضراً بين أيديهم ، إلى جانب ما أعدّ الله لهم من نعيم ، لم يكن يخطر على قلب بشر . . وإذا كلّ نعيم هذه الدنيا الذى كانوا يتشهّونه ، لا يوازى مثقال ذرةٍ من هذا النعيم الذى لم يروْه من قبل ، ولم يتخيّلوه !

وكذلك الشأن فى عذاب الآخرة ، . فإن ما يُساق منه إلى أهل النار ، هو مما كان يراه أهلها واقعاً بالمؤمنين فى الدنيا ، ومما كان يأخذ به الظالمون أولياء الله ـ هو شىء لا يُذكر ، إلى جانب ما يَلْقَون هم اليومَ من عذاب فوق هذا العذاب . . فالسياط من النار ، والمقامع من الحديد ، والسلاسل والأغلال ، وغيرها مما تحدّث به القرآن من ألوان النكال لأهل النار ، هو مما كانوا يعذّبون به أهل الإيمان . . كما فعل المشركون بالسابقين الأولين من المؤمنين ، كبلال وآل ياسر وغيرهم .

قوله تعالى :

* « ويوم تَشَقّق السماء بالغمام ونُزِّل الملائكة تنزيلاً * الملك يومئذٍ الحقّ للرحْمٰن وكان يوماً على الكافرين عسيراً » .

تَشقّق السماء بالغمام : أى يأخذ الغمام فيها طُرقاً ، فيتشقق بهذه الطرق أديمُها ، ويتغير وجهها ، وتتلوّن صفحتها . .

والمراد بالغمام هنا ، هو ما يشبه السّحاب ، الذى ينزل الملائكة على هيئته يوم القيامة ، فلا يراهم الناس يومئذ إلا فى هذه الظلَل من الغمام .

كما يقول الله تعالى : « هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله فى ظُلَلٍ من الغمام والملائكة » (٢١٠ : البقرة) .

ففى يوم القيامة ، يتشقق أديم السماء ، حين يتنزل الملائكة فى صورة محسوسة ، يراهم الناس فيها كما يرون قِطَع السحاب ..

وفى هذا اليوم ، يجىء الناس إلى موقف الحساب ، مجردين من كل شىء .. عراةً حفاة ، كما ولدتهم أمهاتهم . . فإن ما كانوا يملكونه فى الدنيا هو ملك زائل . . أما المُلْك الحق ، فهو للرحمن ، سبحانه وتعالى . . كما يقول سبحانه يوم القيامة : « لمن المُلْك اليوم ؟ . . » فلا يكون إلا جواب واحد ، هو : « لله الواحد القهار » (١٦ : غافر) .

وفى إضافة المُلْك إلى « الرحْمٰن » ـ دون ما لله سبحانه من صفات أخرى ـ فى هذا إشارة إلى ما لله سبحانه وتعالى من رحمةٍ بعباده ، فى ذلك اليوم ، الذى تُلتمس فيه الرحمة ، ويلاذُ فيه بجناب الرحمن الرحيم . . فحساب الناس ، فى هذا اليوم ، هو إلى ربّ رحْمٰنٍ ، رحيمٍ ، وأن ما ينال العصاةَ والمذنبين ، والمنحرفين من عذاب ، هو ممسوس برحمة الله ، لا يُراد منه ، إلا تطهير هذه النفوس الخبيثة ، وإلاّ شفاء هذه القلوب المريضة . . وليست النقمة ولا التشفى مما يتصل بهذا العذاب الذى يلقاه العصاة . . فإنه لا ينتقم ولا يتشفّى إلا من كان عاجزاً فَقَدَر ، وإلاّ من كان عَدُوّا ، فَقَهِر ، ثم انتصر . . وتعالى الله عن ذلك علوّا كبيراً . . فالناس خَلْقُه ، وصَنْعة يَدِه . . هو الذى أوجدهم ، وربّاهم ، وأسبغ عليهم نِعمه ظاهرةً وباطنة .. ولا يتفق الانتقام والتشفّى ، مع الإنعام والإحسان . وإن صحّ ولزم الإصلاح ، والتقويم !

وفى قوله تعالى : « وكان يوماً على الكافرين عسيراً » — إشارة إلى

ما يلقى العُصاة والمجرمون ، فى هذا اليوم — يوم القيامة — من شدائد وأهوال ، وما يطلعُ عليهم منه ، من بلاء ، وعذاب . . مع الرحمة المحفوفة به من الرحمن الرحيم . . فكيف بهذا العذاب لو جاءهم خالصاً من غير رحمة الرحمن ؟

قوله تعالى :

* « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالمُ على يَدَيْه يَقول ياليتنى اتخذْتُ مع الرسول سبيلاً * يا وَيْلَتى ليتنى لم أتخذ فُلاناً خليلا * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خَذُولا » .

هو معطوف على قوله تعالى : « ويوم تشقق السماء بالغمام » . . وكلا الظرفين متعلّق بقوله تعالى : « الملك يومئذ الحق للرحمن » . . أى أنه يتجلّى للناس عِياناً فى هذا اليوم ، يوم تشقق السماء بالغمام ، ويوم يَعضّ الظالم على يديه ـ يتجلى لهم أن الملك الحق ، هو لِله ، وأن ما كانوا يملكونه فى الدنيا ، لاشيء فى أيديهم منه اليوم ، وأنه باطل الأباطيل وقبض الريح . .

وعَضُّ الظالم على يديه ، كناية عن الحسرة والندم ، على ما فاته من خيرٍ ، ولا يمكنه الآن دَرْكه . .

وقوله تعالى : « يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً » جملة حالية ، تكشف عن سبب الحسرة ، التى تملأ قلب الظالم فى هذا اليوم ، وهو أنه قد كان على طريق مخالف لطريق النبىّ ، وأنه دُعى إلى الإيمان فأبَى ، ولم يتخذ مع الرسول سبيلاً ، بل اتخذ سبيلَه مع الضالين ، والظالمين من أمثاله ، الذين أغوَوْه ، وأغواهم ، فكانوا حِزْباً على النبىّ والمؤمنين . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ، على لسان هذا الظالم : « ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً » . .

وفلان : كناية عن إنسان ، يعرفه المتحدّث عنه ، ولا يريد ذكر اسمه

كراهية له . . وهو هنا كناية عن كل ضالّ أضلّ صاحبه ، كما يقول الله تعالى : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلاّ المتّقين » (٦٧ : الزخرف) . فالأخلاّء فى الدنيا ، إذا كانت الخالّة بينهم قائمة على الخير، وعلى الإيمان والتقوى ، كانت فى الآخرة رَوْحاً وأنساً . .أما إذا كانت قد جمعت بينهم على طريق الضلال والغَواية ، فإنها تكون يوم القيامة حسرة وندامة ، وعداوة بادية ، وتراميا باللّعن والسّباب . . وفى هذا يقول الله تعالى فى الكافرين : « ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين » (٢٥ : العنكبوت) .

رُوى أن بعض الصالحين ، افتتن بامرأة ، حتى كاد يُجنّ بها ، ولم يستطع مغالبة هواه ، وجعل يتوسل إليها بوسائل كثيرة ، وهى تأبى عليه ، حتى إذا استجابت له بعد لأى ، وأمكنته من نفسها ، أعرض عنها ، وفرّ من وجهها ، فسألته : لم هذا الإعراض والفرار ، بعد الطلب الملحّ والملاحقة المتصلة ؟ فقال : لقد ذكرتُ قولَ الله تعالى : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين » . . وأنا أريد أن أحرص على هذا الحبّ الذى لك فى قلبى ، وأحتفظ بذلك الإعزاز الذى لك فى نفسى ، وإلاّ ينقلب هذا الحب وذلك الإعزاز إلى عداوة وخصام ، ولِعان . . يوم القيامة ! !

وقوله تعالى : « لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى » ـ هو مقولات الظالم يوم القيامة ، حيث ينحى باللاّئمة على كل من كان سبباً فى إضلاله وغوايته. « والذكر » هو ذكر الله ، والاتجاه إليه ، والإيمان به . . وقد جاء ذلك الذكر على لسان الرسول الكريم فى آيات الله المنزلة عليه . . فالقرآن الكريم ، هو ذِكرٌ فى ذاته ، وهو منبع الذكر ، ومصدره ، كما يقول الله تعالى : « والقرآنِ ذى الذكر » (١ : ص) .

وقوله تعالى : « وكان الشيطان للإنسان خَذُولاً » — يجوز أن يكون من كلام الظالم ، تعقيباً على الصفات التى وصَفَ بها صاحبَه . وأنه شيطان ، يُغوى ، ويُضل ، كما يُغوى الشيطان ويُضلّ .. فمن الناس من هو أقدر من الشيطان فتنة ، وغواية ، لمن يصحبه ، ويستجيب له .. ومن هذا كان على الإنسان ، أن يتخير الأخيار من الناس ، ليصل بهم نفسَه ، ويَشُدّ بهم ظهره ، على طريق الاستقامة والهُدى . . فالإنسان على دين من يصاحب ، وعلى هوَى من يخالط ويعاشر ..

يروى عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، أنها كانت تحدّث فتقول : « إن امرأة كانت تدخل على نساء قريش ، تُضحكهم .. فلما هاجرت إلى المدينة ، قدمت علىّ ، فقلتُ لها : أين نزلتِ ؟ قالت على فلانة (وكانت تضحك الناس بالمدينة) فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : فلانة المضحكة عندكم ؟ قلت نعم ! قال : عَلَى من نزلت ؟ قلت على فلانة المضحكة ، فقال : الحمد لله . . إن الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ! » ..

الآيات : (٣٠ — ٣٤)

* « وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا هَـٰذَا ٱلْقُرْآنَ مَهْجُوراً (٣٠) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيراً (٣١) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَـٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وقال الرسول يا ربّ إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » ..

هو أسلوب من أساليب القرآن ، فى تنويع العرض ، وفى إثارة المشاعر ، وتحريك العواطف ، فى مجال الدعوة إلى الله ، وذلك بعرض الناس على مشاهد القيامة ، وما يَلقَوْن هناك من حساب وجزاء ، ثم العودة بهم إلى حياتهم الدنيا ، حيث تواجههم الآيات بما هم متلبسون به من كفر وعنادٍ ، فيكون لذلك وقْعُه فى كثير من القلوب القاسية ، والعقول المظلمة .. حيث تلين القلوب ، وتنقشع الضلالات عن العقول ..

وهنا فى هذه الآية ، تَقْرَع آذان المشركين كلمات الله ، صارخةً بشكوى الرسول الكريم من إعراض قومه عنه ، وسخريتهم به ، واستهزائهم بكلمات الله .. ذلك ، وما زالت مشاهد القيامة ، التى كانوا بين يديها منذ قليل — مازالت تَلْبَس كيانهم ، وما زال العرق المتصبب من هولها يَرْشَحُ على وجوههم ! ..

وانظر فى قوله تعالى : « وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » وإلى هذه الكلمات الشاكية الضارعة ، وإلى ما تحمل من مشاعر الألم والضيق اللذين يجدهما الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — من هذا الموقف الذى يقفه قومه ، من مركب النجاة ، التى يدعوهم إليها الرسول ، وهم غرقَى ، يتخبطون فى أمواج الضلال ، والهلاك ..!

إنك لتستشعر لتلك الكلمات حرارة هذا الدعاء الذى يدعو به الرسول ربّه ، إلى هداية قومه ، وإلى إنقاذهم مما هم فيه .. إنها رحمات يستمطرها الرسول

— صلوات الله ورحمته وبركاته عليه — من السماء ، لِتلين هذه القلوب القاسية ، ولتُبصر هذه العيون العُمْى ! .

وإنك لتجد فى كلمة « قومى » من الحنو الممزوج بالحسرة والألم ، ما تجده فى قول نوح :

« ربّ إن ابنى من أهلى ! » .. إن هذا من ذاك ، سواء بسواء !

وفى قوله تعالى : « هذا القرآن » .. إشارة إلى أن هذا الخير الذى يتجنبه القوم ، بل ويرمونه بالفحش من القول ، والهجر من الكلام ، وهو اليد البَرّة الرحيمة ، الودود .. فما أبعد ما بين القوم ، وبين هذا القرآن ! إنه يحسن ويسيئون ، ويتودد إليهم ويَحْزِنون ، ويروّض ويجمحون ، ويُسمع ولا يَسمعون !

وفى قوله تعالى : « مهجوراً » .. بيان جامع لموقف المشركين من القرآن . وهو أنهم اتخذوه ، كما يتخذون الأماكن المهجورة ، يُلقون فيها بالنفايات ، والقاذورات .. فإن ما يخرج من ألسنتهم فى شأن هذا القرآن ، هو من ساقط القول ، وسَخَف الكلام ، وهُجر الحديث !

قوله تعالى » :

* « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوّاً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً» ..

هذا عزاء كريم ، من ربّ كريم ، للنبىّ الكريم ، عن مصابه فى قومه ، الذين تفيض نفسه الرحيمة عطفاً عليهم ، ورحمة بهم .. فهذا حكم الله فى الضالين المعاندين منهم .. وتلك هى سنة الله فى الذين خلوا من قبل .. وأنه مما قضى الله به فى الناس ، أن يكون منهم المؤمنون ، والكافرون ، وأولياء الأنبياء وأعداؤهم ..

فلكلّ نبيّ أعداء من المجرمين ، يقفون من دعوته موقف الخلاف ، والعداء .. وفى هذا ابتلاء للنبىّ ، وللمؤمنين ، ليميز الله الخبيث من الطيب ، كما يقول سبحانه : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة .. أتصبرون ؟ وكان ربك بصيراً » (٢٠ : الفرقان) .

وكما تحمل الآية الكريمة عزاء للنبىّ ، تحمل كذلك التهديدَ والوعيد للمجرمين ، الذين يقفون منه ، ومن دعوته ، هذا الموقف العنادىّ الأثيم .. وكفى أن يكون الوصف الذى لهم ، هو أنهم مجرمون ، قد حملوا أبشع جريمة تعرفها الحياة فى عالم البشر .. وهى قتل أنفسهم بأيديهم .. !

وقوله تعالى : « وكفى بربك هادياً » يهدى من يشاء من عباده .. « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً .. أولئك الذين لم يُرد الله أن يطهر قلوبهم .. لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » (٤١ : المائدة) .

وفى قوله تعالى : « ونصيراً » تثبيت للنبىّ وللمؤمنين ، ودعوة لهم إلى الصبر على أذى « المجرمين » .. فالله سبحانه وتعالى هو الذى يتولّى نصرَ النبىّ ومن معه ، وكفى بالله نصيراً .. « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » (١٦٠ : آل عمران) ..

قوله تعالى :

* « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة .. كذلك لنثبّت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » ..

وهذه مقولة أخرى من مقولات المشركين فى القرآن ، ومن مما حكاتهم

الفئة الباردة حوله .. لقد أخزاهم قولهم فيه : « إنْ هذا إلاّ إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون » .. وقولهم : « أساطير الأولين اكتتبها فهى تُملى عليه بُكرةً وأصيلا » ـ لقد أخزاهم هذا القول ، ولم يجدوا له بينهم أذناً تسمع ، أو إنساناً يصدّق .. فجاءوا إلى ماحول القرآن ، لا إلى القرآن نفسه ، إذ لم يجدوا للزُّور فيه مقالا ، وبَدَالهم أن الصورة التى يَنْزِل عليها القرآن ، يمكن أن ينظروا إليها على أنها دليل على العجز ، والقصور ، وعلى معاودة النظر ، ومعاناة البحث ، حتى يقع النبىّ على الكلمات المناسبة ، والظرف المناسب ، ثم يَطلع على الناس بها . هذا ، وإلاّ لماذا جاء هذا القرآن مُنجّماً هكذا ، تتنزّل آياته قطراتٍ قطرات ، ولا تنزل جملة واحدة ؟ إنه لو كان هذا القرآن من عند الله لأنزله الله جملة واحدة ، إذ أن قدرة الله لايكون منها هذا العجز البادى فى نزول القرآن قطعاً متناثرة !... هكذا فكروا وهكذا قدّروا .. وإنه لبئس التفكير ولبئس التقدير !

وفى قولهم « نُزِّل » بدل أنزل ، الذى يناسب قولهم : « جُمْلة واحدة » . لأن « نُزّل » يفيد تقطيع الفعل ، ووقوع النزول حالا بعد حال ـ فى قولهم هـذا تعريض بالتهمة التى يتّهم بها القرآن عندهم ، وهو أنه نُزّل لا أُنزل ، فهم يحكون الصورة التى نَزّل عليها القرآن ، ثم ينكرونها بقولهم : « جملة واحدة » ..

وقد ردّ سبحانه وتعالى عليهم هذا الإنكار ، مبيّناً الحكمةَ من نزول القرآن منجّماً ، على هذا الأسلوب ، بقوله سبحانه :

« كذلك .. لنثبت به فؤادك ورتّلناه ترتيلا * ولا يأتونك بِمَثَلٍ إلاجئناك بالحقّ وأحسنَ تفسيرا » .

فقوله تعالى : « كذلك » ـ إشارة إلى الصورة التى نَزل عليها القرآن ..

أى أنزلناه على هذا الأسلوب المنجم : « لنثبّت به فؤادك » .. وذلك التثبيت ، هو بهذا الاتصال الدائم بالسماء ، وبتلقى ماينزل منها ، حالا بعد حال ، على مدى ثلاث وعشرين سنة ، تنتظم مسيرة الدعوة ، من مبدأ الرسالة إلى خاتمتها .. فعلى كلّ خطوة فى هذه المسيرة ، وعند كل موقف من مواقفها ، كان الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يتلقى أمداد السماء ، ويفتح قلبه وسمعه ، لنداء الحق جل وعلا ، فيما يحمل إليه الملَكُ من كلمات ربّه ، فيجد الرَّوْحَ لرُوحه، والأنس لنفسه ، والعزاء الجميل لكل مايلاقى من ضرّ وأذًى .. « كذلك لنثبت به فؤادَك » .. ولو نزل القرآن جملة واحدة ، لمَا وجد الرسولُ هذا الذى كان يجده منه ، من أنس دائم ، ومدد ممتد ، من تلك الثمرات الطيبة ، التى ينال غذاءه الروحى منها ، كلّما أحسّ جوعاً ، وَهَفَت رُوحه إلى زاد من مائدة السماء ! !

إنه لو نزل القرآن جملةً واحدة ، لكان على النبىّ ، أن يحمل هذا الزاد الكثير معه على كاهله ، ثم كان عليه ـ كلما أحسّ جوعاً ـ أن يتخير من هذا الزاد طعامه .. ثم كان عليه أن يُعدّ هذا الطعام ، وأن يهيئه .. ثم كان عليه أيضاً أن يحدد القدر المناسب لحاجته . . وهذه كلّها عمليات تستنفد جهداً كبيراً من النبىّ ، وتذهب بكثير من طاقاته الروحية فى البحث والإعداد.. وهذا على خلاف نزول القرآن منجّماً ، حسب الحاجة ، وعند الظروف الداعية .. حيث يجد النبىّ فى تلك الحال وجودَه كلّه مع آيات الله المنزلة عليه ، فتشتمل عليه ، وتنسكب فى مشاعره ووجدانه ، وتملأ عقله ، وتلبس روحه .. وشتان بين طعام محفوظ فى علب ، وبين هذا الطعام الجنَى من مغارسه لساعته !

قوله تعالى : « ورتلناه ترتيلا » إشارة إلى الصورة التى نزل عليها القرآن ، وأنه جاء أرتالا متواكبة ، ومواكب يتبع بعضها بعضاً ، حيث تستطيع العين

أن نشهد كل ما فى هذه المواكب ، وأن تتبيّن شخوصها ، وملامحها ، وما تحمل معها من متاع ، وذلك على خلاف ما لوجاءت هذه الحشود فى موكب واحد ، يَزْحَم بعضُه بعضاً ، ويختلط بعضه ببعض ، فإن أخذت العين جانباً ، فاتها كثير من الجوانب ، وإن أمسكت بطَرَف ، أفلت منها كثير من الأطراف .

والترتيل : ـ كما يقول الراغب فى مفرداته « هو اتساق الشىء وانتظامه على استقامة واحدة . . يقال رجل رَتَل الأسنان (أى منتظمها) والترتيل : إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة » .

ومن هنا كان « ترتيل القرآن » .. وهو قراءته ، قراءة مستأنية ، فى أنغام متساوقة ، يأخذ بعضها بِحُجُز بعض ، فيتألف منها نغمٌ علوىّ ، هو أشبه بتسابيح الملائكة ، يجده المرتّل لآيات الله فى أذنه ، وفى قلبه ، وفى كل خالجة منه ..

قوله تعالى :

* «ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسنَ تفسيرا » ـ هو بيان لحكمة أخرى من حِكم نزول القرآن منجماً ، وهو أن هذا النزول على تلك الصورة ، يرصد الأحداث الواقعة على طريق الدعوة الإسلامية ، من مبدئها إلى ختامها .. ثم يطلُع على كل حَدَث ، بما هو مناسب له .. فيُحقّ حقًّا ، ويبطل باطلا ، ويزيل شبهة ، ويحيي سُنة ، ويُميت بدعة .. وهكذا ..

ونكتفى هنا بأن نضرب لهذا مثلا واحداً ..

فقد كان من مقولات المشركين . فى إنكارهم للبعث ، قولهم : كيف تُبعث هذه العظام النّخرة ، وتلبسها الحياة مرة أخرى ؟. وذلك ما حكاه القرآن عنهم فى قوله تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خَلْقه قال من يحيي العظام وهى رميم »

فجاء قوله تعالى : « قل يحييها الذى أنشأها أولَ مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون * أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم .. بلى وهو الخلاق العليم » (٧٩ — ٨١ : يس) .

فكان ذلك ردًّا على هذا المثل الذى ضربوه ، وإبطالا له ، وإطفاء لنار الفتنة المنطلقة منه ، قبل أن يعظم لهيبها ، ويشتدّ ضرامها .

قوله تعالى :

* « الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ سبيلاً » ..

« الذين » بدل من الضمير فى قوله تعالى فى الآية السابقة : « ولا يأتونك بمثل » . . فهؤلاء الذين يضربون الأمثال للنبىّ الكريم ، يجادلونه بها ، ويشوّشون على دعوته ، ويثيرون الشكوك والريب عند صغار الأحلام ومرضى القلوب — هؤلاء الذين يجيئون بتلك الأمثال ، هم الذين يُحشرون على وجوههم إلى جهنم ، وهم شر الناس مكاناً فى هذه الحياة الدنيا ، وأضلهم سبيلاً ، إذ عُزلوا عن طريق الحق ، وركبوا طرق الغواية والضلال . . وحشرهم على وجوههم ، هو تنكيل بهم ، وامتهان لهم ، حيث يعاملون معاملة الحيوانات الميتة ، تُجَرّ من أرجلها ، ويلقى بها فى مكان بعيد . . وفى هذا يقول الله تعالى فى هؤلاء الظالمين : «يوم يُسْحَبُون فى النار على وجوههم ذوقوا مسّ سقر» (٤٨ : القمر)

الآيات : (٣٥ — ٤٤)

* « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦)

وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيراً * فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً » .

مناسبة هذه الآية وما بعدها ، لما قبلها من آيات،هى أن الآيات السابقة كانت تحدّث عن موقف المشركين من النبىّ الكريم ، وخلافهم عليه ، ومقولاتهم المنكرة فيه ، وفى الكتاب الذى نزل عليه — فجاءت هذه الآية وما بعدها ، تحدّث عن الظالمين من الأمم السابقة ، وموقفهم من رسلهم ، وكيف أخذهم الله سبحانه بعذابه ، وأوقع بهم بلاءه .

وفرعون والملأ الذين معه ، هم الظّلْم ممثلا فى أبشع صورة . وهم الأئمة فى الضلال ، والعناد ، والكفر . . ولهذا نجد القرآن الكريم ، يعرض فرعون ،

وعناده ، وضلاله ، وما انتهى إليه أمره ، من الهلاك غرقًا — يعرضه فى مواجهة المشركين من قريش ،وفى المواقف التى يكشف فيها القرآن عن عنادهم وضلالهم، حيث يلقاهم بهذا العرض الكاشف لفرعون ، وموقفه من آيات الله وما أخذه الله من نكال ، وما ينتظرهم ، هم ، من بلاء وعذاب، قد رأوه فيمن كذبوا بآيات الله وعصوا رسله . . !

فهذا موسى رسول الله ، قد آتاه الله كتابًا من عنده ، وشد آزره بأخيه هرون ، حتى يلقى فرعون ويبلغه رسالة ربّه .. ولكن فرعون أبى واستكبر ، وكذّب بآيات الله التى طلع بها موسى عليه ، وهى آيات مادية محسوسة ، كتلك الآيات التى يقترحها المشركون على النبىّ ، ويجعلونها شرطًا لازمًا لتصديقهم به . . وما موقف القوم إزاء هذه الآيات بأحسن من موقف فرعون . . إنهم لن يؤمنوا بها ، وسيكون لهم فيها مقال ، كما كان لفرعون فيها مقال ! وكذلك شأن الظالمين جميعًا مع آيات الله .. إنهم على موقف سواء إزاءها ، هو الاتهام والتكذيب !

وفى كلمات معدودات ، تُعرض قصة موسى مع فرعون ، هذا العرض الذى يُمسك بالصميم منها : « اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرًا »

وفى هذا ما يُسأل عنه :

— كيف يوصف فرعون وقومه بأنهم كذبوا بآيات الله ، ولم يكن موسى قد التقى بهم ، وعَرَض عليهم آيات الله . . والله سبحانه يقول : « اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا » ؟

والجواب ، هو أن فرعون لم يؤمن بآيات الله المبثوثة فى هذا الوجود ، وهى آيات تتمثل له فى كل شىء . . فى نفسه ، وفى عالم الجماد والنبات والحيوان .

وفى ظواهر الطبيعة ، وفى الكواكب والنجوم . . وفى كل مايقع عليه النظر ، من قريب وبعيد . .

وفى كل شىء له آية   تدل على أنه الواحد

فإغفاله لهذه الآيات ، وعدم استنطاقها بما تحدّث به من جلال الخالق وعظمته ، هو تكذيب بها . . ولو نظر نظراً باحثاً عن الحقيقة ، لآمن واهتدى . .

ومن جهة أخرى . . فإن الآية حديث إلى هؤلاء المشركين ، وعرْض لما انتهى إليه أمر فرعون ، وأنه قد كذّب بالآيات التى عرضها عليه موسى ، فكان أن قال له : «أجئتنا لتُخرِجَنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ فلنأتينّك بسحرٍ مثله ! » (٥٧ — ٥٨ : طه) .

— لماذا لم يذكر القرآن فرعون وملأه ، واقتصر على الإشارة إليهم بقوله تعالى : « الذين كذبوا بآياتنا ؟ » ألا يمكن أن ينصرف هذا الوصف إلى غير فرعون وملائه ، كبنى إسرائيل مثلا ؟

والجواب ، من وجوه :

أولاً : أن بنى إسرائيل ، لم يدمَّروا تدميراً ، حين آذوْا موسى ، ومكروا به ، وعبدوا العجل من ورائه ، بل كان عقابهم أن صبّ الله عليهم اللعنة ، ومسخهم مسخاً ، وهم أحياء .

وثانياً : أن هذا الوصف ، وهو التكذيب بآياتِ الله التى جاء بها موسى ، إنما كانت من فرعون وملائه ، وقد تحدّث عنها القرآن فى غير موضع، تفصيلا ، وإجمالاً . . ومن هنا كان هذا الوصف عَلَماً على فرعون وملائه ، لايشاركهم أحد فيه ، فى هذا الموقف .

وثالثاً : أنه ليست العبرة هنا فى ذوات الأشخاص ، وإنما العبرة بالصفة التى يكونون عليها مع آيات الله . . فحيث كان التكذيب بها ، كان التدمير ، وكان الهلاك . . يستوى فى هذا فرعون وغير فرعون . . فما دمّر الله فرعون لأنه فرعون ، وإنما لأنه كذّب بآيات الله . . وهؤلاء الذين يكذبون بآيات الله من المشركين ، هم فراعين ، يَلقون مالقى فرعون !

وفى هذا العرض الموجز للقصة كلها : « اذهبا إلى القوم الذين كذّبوا بآياتنا فدمّرناهم تدميراً » تهديد بهذا البلاء المطلّ على رءوس المشركين ، وأنه منهم كلمح البصر أو هو أقرب . . إنه التكذيب ، فالهلاك والتدمير . .

قوله تعالى :

* « وقومَ نوحٍ لمّا كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آيةً وأعتدنا للظالمين عذاباً أليما » .

الواو فى قوله تعالى : « وقوم نوح » للعطف ، و « قوم نوح » معطوف على قوله تعالى : « فدمرناهم » أى وكذلك دمّرنا قوم نوح لمّا كذّبوا الرسل .

والتدمير الذى وقع على فرعون ، وعلى قوم نوح ، هو الإغراق .. ومن هنا كان عطفُ الحدَثين وجمعُهما فى سياق واحد ..

وعلى هذا يكون قوله تعالى : « أغرقناهم » هو جواب عن سؤال : كيف كان تدمير هؤلاء وهؤلاء ؟ فكان الجواب : « أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليما » .. فالإغراق والعبرة الماثلة للناس من هذا الإغراق ، هو حكم واقع على الفريقين معاً .. وكذلك التعقيب على هذا الحكم : « وأعتدنا للظالمين عذاباً أليما » هو تعقيب على مَهلك السّابقين واللاّحقين .. ثم هو تهديد ووعيد للحاضرين ، والآتين !

قوله تعالى :

* « وعادًا وثمودَ وأصحاب الرَّسِّ وقرونا بين ذلك كثيراً » .

هو معطوف على قوله تعالى : « وقومَ نوح » أى وكذلك دمّرنا عاداً وثمودَ وأصحاب الرسّ وقروناً بين ذلك كثيراً ..

والقرون : جمع قرن ، والمراد الجيل من الناس .

وقد اختُلف فى أصحاب الرسّ .. فقيل إنهم أهل قرية باليمامة يقال لها الرسّ ، وقيل هم بقية عاد وثمود ،وقيل هم وأصحاب الأيكة قومان ، أُرسل إليهما شعيب . .

وفى مفردات الراغب : الرّس : الأثر القليل الموجود فى الشىء .. يقال سمعت رسًّا من خبر أى قليلاً منه . .

وفى القرآن الكريم لم يرد ذِكر لهذه الجماعة إلا فى هذه الآية ، وفى آية أخرى فى سورة (ق) هى قوله تعالى : « كذّبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسّ وثمودُ » .

ويلاحظ أن « أصحاب الرسّ » قُدّموا على ثمود فى سورة (ق) على حين جاء عكس هذا فى سورة الفرقان ، فجاء ذكرهم بعد ذكر ثمودَ .

ويمكن أن يتخذ من هذا قرينة على أن أصحاب الرسّ وثمود متجاوران زمانا ، أو مكانا ، أو زمانا ومكانا معا ..

كما يلاحظ أنه لم يُذكر فى الموضعين الرسولُ الذى أرسل إلى أصحاب الرسّ . .

والخلاف الذى وقع فى « أصحاب الرسّ » وقع فى « الرسّ » نفسه . . ماهو ؟ وأين هو ؟ وهل هو مكان ، كما فى قوله تعالى : « كذب أصحاب الأيكة

المرسلين » (١٧٦ : الشعراء) ؟ أم هو اسم حيوان ، كما فى قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » ؟ أم هو سِمة من سِمات القوم الغالبة فيهم ، كما فى قوله تعالى : « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين » (٨٠ : الحجر) ؟

وليس فى التعرف على « أصحاب الرس » وفى الكشف عن موطنهم ، وزمنهم ، ورسلهم ، ما يزيد فى حجم أو أثر العبرة والعظة من مَهلكهم . . فما هم إلا جماعة من تلك الجماعات التى شردَت عن الحقّ ، وتأبّت على المدى ، ووقفت من آيات الله ، ومن رسل الله ، موقف اللجاج والعناد . . وفى ذكرهم مع عاد ، وثمود ، ما يصبغهم بهذا الصِّبغ الذى اصطبغ به هؤلاء وهؤلاء ، من الضلال ، والعناد . . فهم ، ومن سبقهم ، أو لَحِقَ بهم من الأقوام الضالين ـ على سواء فى الكفر والضلال . .

وفى قوله تعالى : « وقروناً بين ذلك كثيراً » إضافة للكثير من الأقوام الضالين ، الذين احتواهم الزّمن بين قوم نوح ، وبين عادٍ وثمود وأصحاب الرس . . فهناك كثيرون من الرسل ، قد بعثهم الله سبحانه وتعالى إلى أقوامٍ عديدين ، فى تلك الحقبة ، بين نوح ، وبين عاد وثمود وأصحاب الرس . . وأن هؤلاء الأقوام لم يختلف موقفهم مع رسلهم ، عن موقف عادٍ وثمود وأصحاب الرسّ ، من رسلهم . .

وعلى هذا ، فإنه إذا كشف الزمن عن وجه أصحاب الرس ـ فليكونوا كعادٍ وثمود ، وإذا لم يكشف الزمن عن وجوههم فليكونوا فى هؤلاء الأقوام الذين احتواهم الزمن ، بين نوح وبين عاد وثمود . . ! وهذا هو بعض السرّ فى وضع « أصحاب الرسّ » فى هذا الوضع من الآية . . فهم بين معلومين علماً قاطعاً ، وبين مجهولين جهلاً تاماً . . وكذلك كان وضعهم فى آية « ق » : « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسّ وثمود » . . فقد أخذوا وضعاً وسطاً بين

معلومين قد ذهبت آثارهم، وبين معلومين قد بقيت من آثارهم بقية، هى أطلال دائرة، يمرّ عليها المشركون!

قوله تعالى:

* «وكلاّ ضَرَبْنَا له الأمثالَ وكلاًّ تبرّنا تتبيراً».

أى وكلّ قوم من هؤلاء الأقوام الذين أهلكهم الله، ودمدم عليهم ـ قدضرب الله لهم الأمثال، وأراهم العِبَر فيمن سبقهم من الهالكين، حيث ذكّرهم بهم، وبما كان منهم من ضلال وعنادٍ، وما أثمر لهم هذا الضلال وذلك العناد من ثمر نَكِد.. هو «التتبير» أى الهلاك والعذاب.

قوله تعالى:

* «ولقد أتوْا على القرية التى أُمطرت مَطَر السَّوْء.. أفــلم يكونوا يرونها؟ بل كانوا لا يَرْجُون نشوراً».

أتوْا: أى مرُّوا، ووقفوا على هـذه القرية.. والضمير، يعود إلى المشركين من أهل مكة.. والقرية التى أمطرت مطر السوْء: هى قرية لوط.. فقد أهلكها الله سبحانه، بما صبّ عليها من حجارة من سجيل، كما يقول سبحانه وتعالى: «فلما جاء أمرنا جعلنا عالِيَها سافِلها وأمطرنا عليها حِجارةً من سِجيل منضود» (٨٢: هود).

والمعنى: أن هؤلاء المشركين، قد مرّوا على هذه القرية، قرية لوط، وهم فى تجارتهم إلى الشام، ورأوا من آثار هـذه القرية ما يحـدّث عن مصارع أهلها..

وفى قوله تعالى: «أفلم يكونوا يرَوْنها؟» استفهام يُراد به التقريع والتوبيخ. فهم كانوا يَرَون هذه الآثار، وما تنطق به، ولـكنهم كانوا ينظرون بأبصار

ترى ولا تعقل ، فلم يك ينفعهم هذا النظر شيئاً . . كما يقول سبحانه وتعالى : « وكأيّن من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » (١٠٥ : يوسف) .

وفى قوله تعالى : « بل كانوا لا يرجون نشوراً » إضراب عن الاستفهام فى قوله تعالى : « أفلم يكونوا يَرَوْنها » — والمعنى ، أنهم كانوا يرون هذه القرية بأعينهم ، ولكنهم كانوا لا يرجون نشوراً ، ولا يتوقعون حياة بعد الموت .. وتلك هى علّتهم فى حَجْب الرؤية النافذة إلى مواقع العبرة فى قلوبهم ، من تلك القرية . . إنهم ينظرون إليها ويروْن مصارع أهلها ، ولم يَرِد على خاطرهم ، ما وراء هذا البلاء الذى نزل بهؤلاء القوم ؟ ، إذ كانوا لا يروْن أن وراء هذا شيئاً آخر . . ولو أنهم كانوا يؤمنون بالبعث ، وبالحياة الآخرة ، لتمثل لهم العذاب الذى ينتظر هؤلاء الذين ضمّهم الثرى ،وأصبحوا تراباً .. ولأذن لهالهم الأمر ، واستولى عليهم الفزع ، ولطلبوا لأنفسهم النجاة من أن يصيروا إلى هذا المصير ، الذى ينتهى إليه كل متكبر جبار ، لا يؤمن بالله ، ولا باليوم الآخر . .

قوله تعالى :

* « وإذا رأوْك إن يتخذونك إلا هُزُوًا . . أهذا الذى بعث اللهُ رسولا * إنْ كاد ليُضلّنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها . . »

إنه لقاء مع المشركين ، بعد أن وقفوا على مصارع القوم الظالمين ، وما سيلقونه من عذاب أليم ، يوم البعث والجزاء . .

وفى هذا اللقاء يستمع المشركون إلى مقولاتهم المنكرة ، التى يقولونها فى رسولهم ، الذى جاء ليستنقذهم من مصير كهذا المصير ، الذى رأوه فى أصحاب

القرية ، الذين أعنتوا رسولهم ، وسفِهوا عليه ، كما يُعنت هؤلاء المشركون رسولهم ويسفهون عليه . .

وفى قوله تعالى : « إن يتخذونك إلا هُزُوًا » . . إعلان بالجرم الذى أجرمه المشركون فى حقّ الرسول . . وأنهم اتخذوه هزُوًا وسخرية . . وأن من هزئهم وسخريتهم به ، هو الإشارة إليه تلك الإشارة المنكِرة له ، المستحقّة به ، المستصغرة لشأنه : « أهذا الذى بعث الله رسولاً » ؟ .

و « إن يتخذونك » جملة منفية ، و « إن » حرف يفيد النفى ، أى ما يتخذونك إلا هزوا . .

وفى التعبير عن هُزء المشركين بالنبى بقوله تعالى : « يتخذونك » إشارة إلى أنهم يجعلون النبى غَرَضاً لسهام السخرية ، كلما لاح لهم ، وبدا لأعينهم . . فذلك هو دأبهم معه . وفى هذا تشنيع عليهم ، وتهويل لجرمهم .

وقوله تعالى : « إن كاد ليضلّنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها » . . « إن » أداة تفيد التوكيد ، وهى المخففة من إنّ الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، وتقديره : إنه كاد ليضلنا عن آلهتنا . .

وهذه الجملة هى بقية مقول القول : « أهذا الذى بعث الله رسولا » . . أى قائلين أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ إنه كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها . . ! !

وإنهم ليحمدون لأنفسهم هذا الوقوف فى وجه النبىّ ، وهذا الثبات على ما هم عليه مع آلهتهم ، وأنه لولا هذا، لجرفهم هذا التيار الجديد ، ولأفسد النبىّ ما بينهم وبين آلهتهم ، كما أفسد كثيراً ممن ليس لهم مثل ما عندهم من قوة وإرادة ! هكذا ظنهم بأنفسهم ، وبما أمسكوا به من ضلال !

وفى قولهم : « ليضلنا عن آلهتنا » ما يكشف عن مَدَى ما رَكِب القومَ من سفه وضلال ، إذ يرون أن ماهم فيه من ولاء لهذه الأصنام ، هو المدى ، وأن ما يدعوهم إليه النبىّ من الانخلاع عنها ، هو الضـــــلال !! ألا ساء ما يحكمون .

وفى قوله تعالى : « وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا » هو ردٌّ على مقولة المشركين : « ليضلّنا » .. فإن الضلال هو ما هم فيه .. وسوف يعلمون ذلك ، حين ينكشف الغطاء ، ويساقون إلى جهنم .. حيث لا ينفع العلم ، ولا ينصلح ما فسد ..

قوله تعالى :

* « أرأيتَ من اتخذ إلٰهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا » .

هو استفهام يراد به الإغراء برؤية هذا الأمر العجيب المنكر ، الذى يتلبس به ذلك الإنسان الضال ، الذى اتخذ إلٰهه هواه ، وجعله معبوداً ، يعطيه ولاءه ، ويُسلم إليه إرادته .

والخطاب للنبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — والتفات له إلى هؤلاء الضالين من قومه ، الذين لعبت بهم الأهواء فلم تكن لهم أعين يبصرون بها ، إلى هذا الوجود ، وما فيه من آيات تحدث عن أن لهذا العالم خالقاً خلقه ، ومدبراً حكيما أقامه على هذا النظام المحكم الدقيق ، ولم يكن لهم آذان يسمعون بها ما يُتلى عليهم من آيات الله ، فصمّوا عنها ، واستمعوا إلى ما تحدثهم به أهواؤهم ، — فكان منهم هذا السخف ، وهذا الضلال الذى هم فيه .. !

وفى قوله تعالى : « أفأنت تكون عليه وكيلا » إزاحة لهـذا العبء الثقيل من الهمّ الذى كان يجده النبىّ ، وهو ينظر إلى سفاهة قومه ، وضلالهم ، ويعانى من ذلك ما يعانى من آلام .. إنه ليس وكيلا عليهم ، يحمل عنهم

ما حَملوا من أوزار .. إنهم مسئولون عن أنفسهم ، بعد أن بلّغتهم رسالةَ ربك .. فتخفف من هذه المشاعر الثقيلة الضاغطة عليك ، ودَعْهم وما حملوا : « ولا تَـكسِبُ كل نفس إلا عليها » (١٦٤ : الأنعام) .. « فلا تَذهبْ نفسُك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون » (٨ : فاطر) .

قوله تعالى :

* « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون .. إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً » .

هو بيان لهذا الهوى الذى استولى على القوم ، واستبدّ بعقولهم ، وأن أكثرهم لايسمعون ، ولا يعقلون.. فما هم إلا كالأنعام، فيما يسمعون أو يعقلون .. إن أجهزة السمع عندهم لا تنقل إليهم إلا أصواتاً ، وإن عقولهم لاتنقل إلا خواطر مبهمة غائمة .. فهم — والحال كذلك — دون الأنعام قدراً ، وأنزل منها منزلة فى عالم الأحياء .. إذ كانت الأنعام مستقيمة على فطرتها التى فطرها الله عليها .. أما هؤلاء ، فقد أفسدوا فطرتهم ، واتخذوا أهواءهم قائداً يقودهم إلى كل مهلـكة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً ! . وفى هذا تخفيف عن النبىّ فى مصابه فى قومه ، هؤلاء الضالين .. إنهم شىء تافه ، وأجسام تعرّت من آدميّتها ، فليس فى فقدهم ما تخف به موازين الإنسانية أبداً ..

الآيات : (٤٥ — ٥٢)

* « أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا (٤٧)

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا (٤٨) لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلا * ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً »

مناسبة هذه الآيات لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة ، تحدثت عن الضالين ، الذين لهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، وكل ما لهم ، هو هوًى مطاع متسلط عليهم ، مستبد بهم ، لا يملكون معه نظراً عاقلاً ، أو سمعاً واعياً ..

وهنا فى هذه الآيات ، عرض لصورة كريمة ، للإنسان الذي يرى فيعتبر ، ويسمع فيعقل ، ثم ينتفع بما عقل .

والخطاب ، وإن كان للنبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فإنه خطاب عام لكل من يستجيب لهذا النداء العلوىّ ، ويلقاه بقلب سليم ، ونظر مستقيم .

والاستفهام ، إنما يراد به الأمر بالنظر فى هذه الظاهرة ، التى تحدثت عنها الآية الكريمة ، ولفتت الأنظار إليها ..

ومجىء الأمر ، على هذا الأسلوب الاستفهامى ، هو إغراء بهذا الأمر .. حيث يطلع من هذا الاستفهام إنكار ، واستغراب من عدم النظر إلى الظل ، وكيف مَدّه الله .. ثم يطلع من هذا الإنكار والاستغراب داع يدعو إلى المبادرة بالنظر ، وإدراك مافات .. والتقدير هكذا : ألم تَرَ إلى ربّك كيف مدّ الظل ؟ ماذا صرفك عن هذا ؟ فيأيها الإنسان إذا كنت إلى الآن لم تكن قد نظرت فيها ، فذلك أمر لاينبغى أن يفوت ذا عقل !

وقوله تعالى : « إلى ربّك » أى إلى قدرة ربّك ، وحكمته ورحمته .. وهذا يعنى النظر إلى الله سبحانه وتعالى من خلال آثاره ، وما يتجلّى على هذه الآثار ، من صفات الكمال والجلال ، التى تفرّد بها ، الإله الواحد ، الفرد الصمد .. وفى إضافة النبىّ الكريم إلى ربّه ، تكريم له ، وأنس لوحشته ، فى هذا الوقت العصيب ، الذى كان يعيش فيه مع قومه ، وقد وصفوه بالجنون والسّفه .

وقوله تعالى : « مدّ الظلّ ولو شاء لجعله ساكناً » أى نشره ، وبسطه .. حتى ليكاد يغمر الكائنات .

وقوله تعالى : « ثم جعلنا الشمس عليه دليلا » ـ إشارة إلى أنه لولا الشمس ، لمَا عُرف الظل ، فظهور الشمس ، هو الذى يدل على أن هناك ظلاً يُطوى ، فتحرك الظلّ مع الشمس هو الذى يدل على وجوده ، وإن كان موجوداً فى ذاته .. وهذا يعنى أن التضادّ بين الأشياء ، هو الذى يَدل على وجودها ، ويجعل لهذا الوجود صفاتٍ ، تحدد شخصيته ، وذاتيته .. وهذا يعنى أيضاً أن التضادّ أمرٌ لازم فى نظام حياتنا البشرية ـ على الأقل ـ حتى نميز بين الأشياء ونحدّد سلوكنا إزاءها .. فهناك الخير والشر ، والهُدى والضلال ، والكفر والإيمان ، والنور والظلام ، والجميل والقبيح ، والحلو والمرّ .. إلى مالا يحصى من محسوسات ومعنويات .. حتى لانكاد نجد معنًى من المعانى ، أو محسوساً من

المحسوسات إلاّ وفى الجانب الآخر ، الوجه المضاد له .. فإن لم نجد هذا الوجه ، بحثنا عنه ، حتى نعثر عليه ، واقعاً أو متخيّلا .

وفى قوله تعالى : « ولو شاء لجعله ساكناً » إشارة إلى أن هذا الظل هو فى يد الله ، وتحت سلطان مشيئته ، وأنه سبحانه لوشاء أن يجعله ساكناً ، أى مقيما أبداً على حال واحدة لاينسخه ضوء ـ لوشاء سبحانه ذلك ، لنفذت مشيئته ، ولأظلّنا هذا الظلّ أبداً .. ولكنه سبحانه قضى ـ بحكمته ورحمته ـ أن ينسخ الظلّ بالنور ، وأن ينسخ النور بالظل ، فنلبس فى حياتنا هذين الثوبين على التناوب ، كل يوم ..

وفى قوله تعالى : « ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً » ـ إشارة إلى حركة التناسخ بين الظل والنور .. وأن يد القدرة تقبض الظلّ شيئاً فشيئاً ، على حين تبسط النور بقدْر ماتقبض من الظل ..

وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سَرْمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جَعَل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (٧١ ـ ٧٣ : القصص) ..

والصورتان ، وإن كانتا تدلان على مدلول واحد ، إلاأن الصورة الأولى ـ على صغرها ـ فيها حركة ، وفيها تفصيل ، أريد بهما الالتفات إلى تلك العملية ، التى تُجريها يد القدرة فى تناسُخ الليل والنهار ، أو الظلام ، والنور ، على حين أن الصورة ثانية كانت غايتها الكشف عن الحكمة فى هذا التناسخ ، وبهذا تتآلف الصورتان ، وتتكون منهما صورة واحدة .. وإن كانت كل صورة منهما قائمة على التمام والكمال ، لاينقصها شىء من الألوان أو الظلال ..

قوله تعالى : * « وهو الذى جعل الليل لباساً والنومَ سباتاً وجعل النهار نشوراً » ـ هو بيان لتلك الحكمة العالية فى هذا التدبير الحكيم ، من قبض الظل ، وبسطه فحدث من هذا القبض والبسط ، الليلُ ، والنهار ..

ـــ وفى قوله تعالى : «جعل الليل لباساً » ـ إشارة إلى مافى الليل من ظلمة ، تلبس الكائنات ، وتسترها ، وكأنه بهذا يضم الكائنات الحية تحت جناحه ، لتأخذ حظها من الراحة ، والهدوء ، بعد سعيها ، وتعبها خلال النهار .. فهى تحت هذا الجناح لاتملك إلا أن تستسلم للدعة والسكون ، حتى يتجدد نشاطها ، ويتجمع ماذهب من قوتها ، لتستقبل صبحها الجديد بالعمل الجادّ والسعى المتصل .. فهذا نظام تفرضه الطبيعة ، ومن مصلحة الكائن الحىّ أن يأخذ به ويلتزمه .

ـــ وفى قوله تعالى : « والنوم سباتاً » إشارة إلى أن النوم ظاهرة غير ظاهرة الراحة والسكون .. فقد يستريح الإنسان ويسكن ، ولكن وجودَه كلَّه حركة عن طريق العقل ، الذى لا يكفّ عن العمل والتفكير ، إلا بالنوم المستغرِق ، الذى يسكنَ فيه العقل ، كما تسكن الجوارح . فالسبات ، هو السكون التام .. الذى يمثل صورة مصغرة للموت .

ـــ وقوله تعالى : « وجعل النهار نشوراً » أى تنتشر فيه الكائنات الحية ، وتُبعث من مرقدها ، كما يبعث الموتى من القبور ..

وفى هذه الصورة التى تعرضها الآية الكريمة ، للنوم ، واليقظة ، إشارة إلى صورة أخرى ينبغى أن يستحضرها أولئك الذين ينكرون البعث .. فما النوم إلا الموت ، وما اليقظة إلا البعث !

قوله تعالى :

* « وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً » . .

هو امتداد لهذا العرض ، الذى تحدّث فيه الآيات عن قدرة الله .. وعن إحسانه إلى عباده ، ورحمته بهم .. وأنّ من سوابغ إحسانه ، سبحانه ، ومن فواضل رحمته ، أنه يرسل الرياح فيجد الناس فيها بشريات الغيث ، الذى يوشك أن ينزل ، فيحيي الأرض بعد موتها ..

— وفى قوله تعالى : « بين يدى رحمته » — إشارة أن إلى الريح ،وإن كان يدفع السحاب ، فإنه هو الذى ينشىء السحاب ، وأنه لولا الريح ، ماانشأ السحاب .. فإذا هبت الريح ، أثارت وجْهَ البحار ، وحدث البخار الذى يتصاعد فى السماء ، ويكوّن السحاب .. ثم يدفعه الريح إلى حيث يشاء الله سبحانه وتعالى ..

وفى التعبير عن المطر بالرحمة ، إشارة إلى أنه رحمة خالصة ، إذ لولا هذا الماء الذى ينزل من السماء ، ما كان للحياة أثر على هذه الأرض ..

وفى قوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء طهوراً » هو بيان لرحمة الله ، التى تقدّمتها « الرياح » معلنةً البشرى بمسيرتها إلى الناس ..

وفى وصف ماء المطر بأنه ماء طهور ، إشارة إلى أنه ماء خالص ، لم يختلط به شىء مما على الأرض ، ولم تعلق به شائبة من شوائبها .. فهو ماء نقىّ صاف ، طهور ..

وفى قوله تعالى : « أنزلنا » بدلا من قوله « أنزل » الذى يجرى مع السياق لقوله تعالى : « أرسل الرياح » — التفات إلى جلال الله ، وإلى عظمته ، وقدرته ، وإلى مابين يديه من رحمة ، يجود بها على عباده ، ويدعوهم إلى تناولها من يدى

رحمته .. فهذا الحضور الوجود كله ، بين يدى رحمة الله ، هو دعوة جامعة إلى صلاة شكر ، وحمد ، وثناء . . لله رب العالمين .

قوله تعالى :

* « لنحييَ به بلدةً مَيْتاً ونُسْقِيَه مِمّا خَلَقْنَا أنعاماً وأناسِيَّ كثيراً » .

هو بيان للحكمة من سَوق هذه الرحمة إلى الناس .. إنها حياة لكل ميتٍ ، وبعث لكل هامد ..

فى قوله تعالى : « لنحيي به بلدة ميتاً » إشارة إلى أن الماء هو أصل الحياة ، ومبعثها ، كما يقول سبحانه : « وجعلنا من الماء كل شيء حيّ » .

وفى قوله سبحانه : « ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيراً » — إشارة إلى أن الماء ، هو الذى يمسك الحياة على الأحياء ، بعد أن قامت به الحياة ذاتها . . فهو الذى يقيم الحياة بقدرة الله ، وهو الذى يمسكها ، برحمة الله ! ..

وفى تقديم الأنعام على الناس - إشارة إلى أن رحمة الله ، تسرى فى الكائنات كلها ، وأنها ليست ، للناس وحدهم ، كما يقع ذلك عند بعض ذوى العقول القاصرة .. والله سبحانه وتعالى يقول :

« وما من دابةٍ فى الأرض إلا على الله رزقها » (٦ : هود) .

وليس هذا فحسب ، فإنه مع تقديم الأنعام على الناس ، استعمل القرآن لفظ « ما » الذى هو لغير العقلاء ، بدلاً من « مَن » الذى للعقلاء ، فقال تعالى : « مما خلقنا » بدلاً « ممن خلقنا » وذلك لتوكيد المعنى المقصود هنا ، وهو أن الأنعام لها عند الله سبحانه وتعالى وزنها وتقديرها ، وأنها إذ كانت أقل حيلةً من الإنسان ، فقد كفل الله سبحانه لها حاجتها ، وقدم مطلوبها على مطلوب

الإنسان ، شأن الأب ، يرعى صغاره ، وينظر فى حاجة الصغير قبل الكبير .. إذ كان الصغير لاحيلة له ، على حين أن الكبير يستطيع أن يدبر أمره ، ويرعى شئونه .. ومع هذا فإن الأب لايحرم الكبير ـ وإن بلغ مبلغ الرجال ، أو الشيوخ ـ عطفَه ، وحنانه ، ورحمته !

وهذه النظرة إلى الآية الكريمة ، جديرة بأن تفتح الأعين على حقيقة ينبغى أن يعيها المجتمع الإنسانى ، وأن يجعلها أساساً من أسس النظام الذى يقوم عليه المجتمع ، وتلك الحقيقة ، هى أن ضِعاف المجتمع ، الذين لاحول لهم ولا حيلة فى جلب خير ، أو دفع ضر ، هم أولى الناس بالرعاية وبتوفير أسباب الحياة لهم ، حتى يأخذوا مكانهم فى المجتمع ، فينتظم خطوهم ، ويجتمع شملهم مع شمله فى أسرة واحدة ، متكافلة ، متساندة ..

قوله تعالى :

* « ولقد صرّفناه بينهم ليذّكّروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً » .

الضمير فى « صرفناه » يراد به القرآن الكريم ، وهو إن لم يجر له ذكر صريح فى الآيات السابقة ، فإنه مذكور فى كل كلمة ، وفى كل آية .. فهذه الآيات السابقة ، هى بعض القرآن الكريم فى مجموعه ، وهى القرآن الكريم كله فى مضمونه ..

وتصريف القرآن ، هو تنويع معارضه ، وعرض حقائقه ومقرراته فى صور متعددة ، بين الإيجاز والبسط ، والإجمال والتفصيل ، والتصريح والتلميح ، إلى غير ذلك من أساليب البيان ، التى ملك القرآن زمامها ، واستولى على غايتها ..

وقوله تعالى : « ليذكروا » بيان للحكمة من هذا التصريف ، وهو أن يجد

للمستمع لكلمات الله ، والناظر فى هذه المعارض المتعددة ، ما يكشف له وجه الحقيقة ، ويطلعه على جوانبها كلها ، وفى ذلك ما يفتح له الطريق إلى التعرف على الله والإيمان به . .

وقوله تعالى : « فأبى أكثر الناس إلا كفوراً » هو عرض لموقف هؤلاء المعاندين الضالين ، إزاء آيات الله ، وأن هذا البيان المبين الذى يخاطبهم به القرآن الكريم ، لم يزدهم إلا نفوراً من الدعوة التى يدعوهم إليها ، وإلا إمعانا فى الضلال والسفه .. وذلك هو الشأن الغالب على الناس ، وقليل هم أولئك الذين يرون النور ، ويهتدون به . .

قوله تعالى :

* « ولو شئنا لبعثنا فى كلّ قرية نذيراً » ..

أى أنه سبحانه وتعالى الذى صرف القرآن ، وعرض حقائقه هذا العرض الكاشف المضىء ، الذى ليس بعد نوره نور ، ولا وراء هداه هدى ــ الله سبحانه الذى نزل هذا القرآن المبين ، لو شاء لجعل فى كل قرية نذيراً ، يحمل إلى أهلها ما حمل محمد إلى الناس جميعاً ، من هذا النور .. ولكن ذلك لم يكن من مشيئة الله ، ولا مما اقتضته حكمته .. فإن نذيراً واحداً يحمل آيات الله وكلماته فيه بلاغ مبين ، لكل ذى نظر وعقل ، لأن مع كل إنسان نذيراً فى كيانه ، هو ما أودعه الله سبحانه وتعالى فيه من عقل ، يميز به بين الخير والشر ، وبين الهدى والضلال ، والحق والباطل :. فمن كان معه هذا النذير فإن أية إشارة من إشارات الحق تكفى لإيقاظه إن كان نائماً ، ولتنبيهه إن كان غافلا ، ولهدايته إن كان ضالا .. أما من فقد هذا النذير ، فإنه لن تنفعه النُّذُر أبداً ، ولو جاءه رسول خاص به من عند الله ..

فالقرآن الكريم ـ مثلا ـ ليس نذيراً واحداً ، وإنما فى كل آية منه نذير، ولكل نذير ذاتيته ، وشخصيته ، حتى لكأن كل آية رسول ينشر بين الناس رسالته .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : «ولقد صرفناه بينهم ليذكروا».. فهذا التصريف والتنويع فى معارض القول ، ووجوه النذر ، هو بمثابة أعداد كثيرة من الرسل ، تجىء إلى الناس من كل جهة ، وتلقاهم على كل طريق ، ومع هذا فإن كثيرا من الناس لم يستجيبوا لتلك الآيات التى يلقاهم من كل آية منها رسول كريم ونذير مبين ..

وإذن ، فإن كثرة الرسل ، فى الناس ، واختصاص كل رسول بقرية من القرى ، أو جماعة من الجماعات لا يغنى كثيرا فى مجال الهداية إلى الإيمان بالله، وإقامة الناس على طريق الحق ، والخير . .

ولو كان ذلك مغنياً فى هذا المقام لكان فى القرآن الكريم ، وفى النذر العديدة التى تحملها آياته وكلماته ، مايَنْزِعُ هؤلاء الضالين الغاوين عن ضلالهم وغوايتهم .. والله سبحانه وتعالى يقول : « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » (٩٥ ــ ٩٦ : يونس) ويقول سبحانه : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنُّذُر عن قوم لا يؤمنون » (١٠١ : يونس) . .

قوله تعالى :

* « فلا تُطِعِ الكافرين وجاهِدْهم به جهاداً كبيراً » .

هو التفات كريم إلى النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وتوجيه له إلى الوجهة التى ينبغى أن يأخذها من موقف هؤلاء الكافرين المشركين من قومه »

وهو ألا يلتفت إلى عنادهم ، وألا يُلقى بالاً إلى لَغْوهم وسفههم ، وما يتقوّلونه عليه ، وعلى القرآن الذى بين يديه ، وأن يتصدّى لهم ، ويقف فى وجههم بهذا الحق الذى معه ، وأن يجاهدهم به ، ويرميهم بنذره ، كما يقول الله تعالى : « فتوكل على الله .. إنّك على الحقّ المبين » (٧٩ : النمل) وكما يقول جلّ شأنه « فاصدعْ بما تؤمر وأعرِض عن المشركين » (٩٤ : الحجر) .

وقد امتثل النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أمر ربّه ، فوقف من المشركين ، وقفة الجبل الراسخ الأشمّ فى وجه الرياح الهوج ، والأعاصير العاتيات .. وقال قولته الخالدة ، لعمّه أبى طالب ، حين جاء يَعْرض عليه مهادنة قريش ، وله عندها مايشاء من جاه ، ومال ، وسلطان ، فقال : « والله ياعمّ ، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى شمالى ، على أن أترك هذا الأمر ، ماتركته ، أو أهلك دونه » .

وفى قوله تعالى : « وجاهدهم به جهاداً كبيراً » ـ إشارة إلى ما كان ينتظر النبى من أعباء ثقال ، فى مواجهة قومه ، وفى الصبر على المكاره التى يرمونه بها ، فى قسوة ، وحنَق ، وجنون .

الآيات : (٥٣ — ٥٩)

* « وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا (٥٥) وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ

إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وهو الذى مَرَجَ البحرين هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائغ شرابُه وهذا ملحٌ أجاجٌ وَجَعَل بينهما برزخاً وحِجراً محجوراً » .

مَرَجَ البحرين : المَرْج ، خَلْط الشىء بالشىء ، ومَرَجَ الخاتَمُ فى اليد ، أى اضطرب ، وأمر مَرِيج ، أى مختلط . . ومرج البحرين : أى خلطهما ، وجمع بعضهما ببعض . .

والعذب : الحلو ، الطيب . . والفرات : العذب أيضاً . . وهو توكيد للعذب ، أى عذب عذب .

والسائغ : الذى تقبله النفس وتستطيبه . .

والأجاج : الشديد الملوحة .

والبرزخ : الحاجز بين الشيئين . .

والحِجر المحجور : المحتجز ، المحجوز ، الذى لاسبيل له إلى الخروج من هذا الحجاز . .

والآية الكريمة ، مَثَل واقع محسوس ، لقدرة الله ، ولسلطانه القائم على

هذا الوجود ، حيث تُرى فى لقاء الماء بالماء قدرةُ القادر الحكيم ، فى عزل أجزاء هذا السائل المائع ، الذى يشبه الهواء فى سيولته . . فالماء الملح فى جانب ، والماء العذب الفرات فى جانب ، وهما حيث ترى العين ، ماء واحد ، لا يُعرف أيهما هذا أو ذاك ، إلا بالمذاق باللسان . . ! فما أروع هذه القدرة ، وما أعظم سلطانها الذى يحجز هذين السائلين بعضهما عن بعض ، فلا يطغى أحدهما على الآخر ، ولا يختلط العذب بالملح . . وفى هذا يقول الحقّ جلّ وعَلاَ : « مَرَجَ البحرين يلتقيان * بينهما برزخٌ لا يبغيان » (١٩ — ٢٠ : الرحمن) .

وفى هذا المثل صورة للمجتمع الإنسانى ، حيث الأخيار والأشرار ، والمؤمنون والكافرون ، والهواة والضالون . . إنهما فى محيط حياةٍ واحدة ، حيث يموج بعضهم فى بعض ، وحيث تتشابه وجوههم وصورهم ، تشابه الماء والماء ، ومع هذا فإن بين الأخيار والأشرار ، حجاز ، وبرزخ ، أشبه بهذا البرزخ غير المنظور ، الذى يحجز بين الماء والماء : « هذا عذب فرات سائغ شرابُه وهذا ملحٌ أجاجٌ » . .

[الماء والماء . . والناس والناس]

ومن إعجاز القرآن الكريم ، ما تكشف عنه هذه الآية ، من روعة التصوير ، ودقة التمثيل ، فيما بين مجتمع الماء والماء ، والناس والناس :

فأولا : هذا التشابه فى الصورة بين الماء العذب ، والماء الملح ، وبين الأخيار والأشرار من الناس . . وأن التطابق يكاد يكون تامًّا فى الظاهر ، بين المتناقضين ، فى كل من وجهى الصورة . . فعلى أحد وجهيها ، ماء عذب فرات ، وماء ملح أجاج ، وعلى الوجه الآخر . . مؤمنون ، أخيار ،

طيبون ، وكافرون ، أشرار ، خبيثون . . لايُعرف أى من هذه الأطراف ، إلا بالمذاق والاختبار ، ولا يبين فضل أىٌّ منها إلا فى موقع العمل والتجربة . .

وعلى هذا ، فإن مافى كيان المؤمنين من إيمان وخير وطيب ، إنما تظهر آثاره فى مجال العمل ، وفى موقع التجربة والاحتكاك بالحياة وبالناس . . وكذلك ما عند الكافرين من كفر وشر وخبث ، إنما يُعرف حسابُه ، ويَأخذ الوصف الذى له ، حين يتحول إلى عمل ، واقع فى الحياة . . وإلا فالناس جميعاً على سواء ، مالم ينكشف ما بداخلهم من خير أو شر ، ومن إيمان وكفر ، فى صورة سلوك ، وعمل . . ! « وقل اعملوا . . فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

وثانياً : الناس — وإن ظهروا فى صورة واحدة — هم فى حقيقتهم ، فريقان : مؤمن وكافر ، ومستقيم ، ومعوج ، ومهتد وضال ، وطيب وخبيث.. سواء اختُبروا أم لم يختبروا ، وجُرِّبوا أم لم يجرّبوا . . هكذا خلقهم الله ، وإن توالد بعضهم من بعض ، كما يتولد الماء العذب ، من الماء الملح .. « يُخرج الحىّ من الميت ، ومُخْرِج الميت من الحىّ » (٩٥ : الأنعام) . . « هو الذى خلقكم فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمن » (٢ : التغابن) .

وفى هذا يقول الرسول الكريم : « النّاس معادن .. خيارهم فى الجاهلية ، خيارهم فى الإسلام » ..

وثالثاً : المؤمنون الأخيار فى المجتمع الإنسانى ، وهم مادة الحياة ، وهم الروح الذى يسرى فى شرايين كل ماهو نافع ، وصالح ، لإنبات شجرة الحياة ، وإروائها ، وإزهارها ، وإثمارها ، ولو افتقدتهم هذه الأرض ، لما كان للحياة أثرٌ فيها — إنهم الماء العذب ، الذى هو حياة الأحياء ، من نبات ، وجماد ،

وإنسان .. « وجعلنا من الماء كلَّ شيء حيّ » (٣٠ : الأنبياء) .. وفى هذا يقول بعض العارفين : « الماء العذب،ماوقع منه على الأرض أنبت البُرّ ، وماوقع فى البحر وَلَد الدُرّ » أى اللؤلؤ والمرجان ..

ورابعاً : المؤمنون الأخيار ، فى المجتمع الإنسانى ، هم قلّة ـ فى كل زمان ومكان ـ بالإضافة إلى الضالين ، والأشرار .. وتكاد نسبتهم تعدل نسبة الماء العذب ، إلى الماء الملح ..

وفى هذا يقول الحقّ تبارك وتعالى : « وما أكثرُ الناس ولو حرصتَ بمؤمنين » (١٠٣ : يوسف) ويقول سبحانه : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » (١١٠ : آل عمران) .

ويقول : « وإن كثيراً من الناس بلقاء ربّهم لكافرون » (٨ : الروم) ويقول : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ ما هم » (٢٤ : ص) .

وخامساً : ليس فى الناس من هو شر خالص ، أو خير محض . . ففى الأشرار الماء مافى الملح ، من عناصر الماء العذب . . بل إن من هذا الماء الملح ، مايرقّ ويصفو ، ويتحول إلى بخار ، وسحاب ، ثم ينزل على الأرض ماء عذباً فُراتاً .. وفى الأخيار مافى الماء العذب الفرات من قابلية للاختلاط بما يفسده ويغير طبيعته وهو يسلك مسالكه فى الأرض .. فتارة يسلك مجرّى طيّباً . فيكدُر ، ثم يصفو .. وتارة يقع فى مستنقع ، فيركد ، ثم يتعفن .. وهكذا ..

قوله تعالى :

* « وهُوَ الّذى خَلَقَ من المآء بَشَراً فجعله نَسَباً وصهراً وكان ربّك قديراً » .

هو مضمون من مضامين هذا المثل ، الذى ضَرَبه الله سبحانه وتعالى فى

الآية السابقة ، المؤمنين والكافرين ، فيما بين الماء العذب، والماء الملح ، من تشابه ، وتضادّ فى آنٍ واحد ..

فالماء العذب . والماء الملح .. هما ماء واحد .. وهما فى الوقت نفسه ماءان .. فالصلة بينهما قريبة ، وبعيدة معاً ..!!

والناس ، مؤمنون ، وكافرون .. من أصلٍ واحد .. هم أبناء هذا الماء ..

وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « فجعله نسباً » .. أى فجعل هذا الماء هو صلة القرابة القريبة ، التى تجمع الإنسان إلى الإنسان ، كما تجمع الأخ إلى أخيه . .

والناس ، مؤمنون وكافرون .. هم صنفان ، وكان من الممكن ، أن يفرق بينهما هذا الاختلاف ، ولكن مابينهما من نسب قريب ، يمنع هذه الفرقة ، ويرفع هذا الاختلاف ..

ومن هنا ، فإنه إذا كان لكلٍّ من المؤمنين والكافرين ذاتيته ، وطريقه فى الحياة ، فإن مابينهما من تلاقٍ فى الأصل يجعل طريقيهما كالخطّين المتقابلين ، يلتقيان ، عند نقطة هندسية ، أشبه بهذا اللقاء بين الماء العذب والماء الملح ، وليس كالخطين المتوازيين اللذين لايلتقيان أبداً .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وصهراً » !

فالصهر : أهل بيت المرأة بالنسبة لزوجها .. وأصهر إلى فلان : أى تزوج ابنته أو أخته ..

وفى قوله تعالى : « وكان ربّك قديراً » ـ إشارة إلى قدرة الله سبحانه وتعالى ، فى الجمع ، بين المختلفين ، والتفرقة بين المتشابهين فى حالٍ معاً . !

قوله تعالى :

* « ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرّهم وكان الكافر على ربّه ظهيراً » ..

الضمير فى قوله تعالى : « ويعبدون » يعود إلى الكافرين ، الذين ذكرهم الله سبحانه فى قوله : « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً » .. فهؤلاء الكافرون ، لايستمعون إلى هذا القرآن ، ولا ينتفعون بما يضرب لهم من أمثال ، وما يكشف لهم من جلال الله وقدرته .. وإذاهم على ماهم عليه من ضلال الجاهلية وشركها ، لم ينكشف لعقولهم من هذا النور السماوى ، ماهم فيه من عمًى وضلال .. وهاهم أولاء ـ كما عَهِدتهم الحياة من قبل ـ عاكفون على عبادة هذه الدُّمَى وتلك الأحجار ، التى لاتنفع ولا تضرّ ، إذا دعاها عابدها لجلب خير ، أو دفع ضرّ ..

وقوله تعالى : « وكان الكافر على ربّه ظهيراً » إشارة إلى جناية من يكفر بربّه ويعبد إلهاً غيره . إنه يحارب خالقه ، إذ يكون حرباً على أولياء الله ، من الرسل ، وأتباع الرسل سواء أكان ذلك باتباع سبيل غير المؤمنين ، أم كان بالوقوف فى وجه المؤمنين ، وإعلان الحرب سافرة عليهم ..

وهو بهذا يظاهر أعداء الله على أوليائه ، وفى هذا حربٌ لله ، ومظاهرة لأعدائه المحاربين له ، على حربه .

فالظهير ، هو المعين الذى يسند ظهر غيره .. والكافر بكفره ، وبانتظامه فى صفوف الكافرين المحاربين لله ، هو يظاهر على الله ، ولا يظاهر لله .. وذلك كما يقول سبحانه : « رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين » (١٧ : القصص) .

قوله تعالى :

* « وما أرسلناك إلاّ مبشّراً ونذيراً » .

هو عزاء النبيّ الكريم ، لما يلقى فى تبليغ رسالته من عنت هؤلاء المشركين ، وضلالهم ، وما يسوءه من خلافهم عليه ، وهم فى هذا الضلال الذى لن يُسلمهم إلا إلى الهلاك والبوار ..

وماذا يفعل الرسول أكثر ممّا فعل مع هؤلاء المعاندين الضالّين .. إنه لايملك بين يديه قوة تحركهم على أن يركبوا سفينة النجاة معه ، وإن كلّ مايملكه هو كلمات الله ، يبشر بها المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً ، ويُنذر الضالين المكذّبين بأن لهم عذاباً أليما .. « فذكر إنما أنت مذكّر * لست عليهم بمسيطر » (٢١ — ٢٢ : الغاشية) .

قوله تعالى :

* « قل ما أسألكم عليه من أجرٍ إلاّ من شآء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلا » .

أى أن الرسول الذى يحمل عبء هذه الرسالة ، ويحتمل الأذى فى سبيلها من الضالين والمعاندين ، والسفهاء — لايطلب لذلك أجراً على هذا الجهد المضنى الذى يبذله ، كما يطلب الناس أجراً لكل عمل يعملونه .. إنه يؤدى رسالة الله خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى ، وهو الذى يتولى جزاءه ، وحسن مثوبته .

وقوله تعالى : « من أجرٍ » .. مِن هنا لاستغراق النّفى ، للشىء الذى وقع عليه النفى ، وهو الأجر .. وهذا يعنى أنه لايَسأل على هذا العمل الذى يقدمه لهم أى أجرٍ ، وإن قلّ ، سواء أكان أجراً ماديا من مال ومتاع ، أم أجراً معنويا ، من جاه وسلطان ..

وقوله تعالى : « إلا من شاء أن يتخذ إلى ربّه سبيلاً » ..

إلا هنا أداة استثناء عاملة ، وما بعدها مستثنى من عموم النفى الواقع على كلمة أجرٍ ..

والتقدير : لا أسألكم أجراً على ما أقدم لكم من خير، إلا أجرَ من شاء أن يتخذ إلى ربّه سبيلاً ، بالإنفاق فى سبيل الله ، والإحسان إلى الفقراء والمساكين ، والضعفاء . . فذلك هو الأجر الذى أناله منكم ، فهو وإن لم يكن لى ، فإنى أحتسبه لى ، لأن مايقدّم لله ، ومايؤدّى لعباد الله ، هو لى .. ومايُنفق فى سبيل الله ، هو كأنما ينفق فى سبيلى . . . إذ ليس لى سبيل إلا سبيلَ الله . . وهذا مثل قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّةَ فى القربى » (٢٣ : الشورى) فالإحسان إلى ذوى القربى ، كالوالدين، والإخوة والأعمام والعمات ونحوهم ـ هو إحسان إلى النبىّ ، وتحقيق لدعوة الخير التى يدعو إليها . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحساناً » (٢٣ : الإسراء) . .

فالإحسان إلى الوالدين ، هو من تمام الإيمان بالله ، وكأن ذلك الإحسان هو إحسان إلى النبىّ ، وهو الأجر الذى يناله من المؤمنين ، الذين هداهم الله إلى الإيمان على يديه . .

قوله تعالى :

* « وتوكل على الحىّ الذى لايموت وسبّح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً » .

هو معطوف على قوله تعالى : « قلْ ما أسألكم عليه من أجرٍ » ـ أى : قل لهم هذا القول ، ودعهم وما يشاءون ، متوكلا على الحىّ الذى لا يموت . . أما كلّ حىّ سواه ، ففى كيانه معاول هدمه وفنائه : « كل شىء هالك إلاّ وجهه » (٨٨ : القصص) .. وسبّح بحمد ربك ، منزّها له عن الشريك والولد ، حامداً له أن هداك إلى الإيمان ، وأن جعلك السّراج المنير الذى يهتدى به الضالون ، ويسير على سنا ضوئه المؤمنون . .

— وقوله تعالى : « وكفى به بذنوب عباده خبيراً » . . هو تهديد للكافرين والضالين ، وما يقترفون من آثام ، وأن الله سبحانه وتعالى عليم بما يعملون ، خبير . . لايختلط عليه المحسنون بالمسيئين . .

قوله تعالى :

* « الذى خَلَق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمنُ فاسأل به خبيراً » .

هو من صفات الله سبحانه وتعالى ، الذى دُعى النبىّ إلى التوكّل عليه ، وتفويض أمره إليه . . فهو سبحانه ، حىّ لا يموت ، خَلَق السموات والأرض ، وما بينهما من عوالم ، فى ستة أيام . .

وقد قلنا من قبل ، إن هذه الأيام الستة ، هى الظرف الحاوى ، الذى تمّ فيه ميلاد المخلوقات ، جميعها ، أى الوجود كله ، فى أرضه وسماواته ، ومافى أرضه وسماواته . . وليس هذا الزّمن مرتبطاً بقدرة الله سبحانه وتعالى فى خلق المخلوقات . . ولو شاء — سبحانه — لخلق العالم كله فى لحظة واحدة : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » (٨٢ : يس) .

— وقوله تعالى : « ثم استوى على العرش الرحمن » .

الاستواء على العرش ، هو القيام على هذا الوجود ، والاستيلاء على مركز القوة والسلطان فيه . فلا تخرج ذَرّةٌ من ذرات هذا الوجود عن سلطان الله ، وعن علم الله : « وماتسقط من ورقةٍ إلاّ يعلمها ولا حبّةٍ فى ظلماتِ الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا فى كتاب مبين » (٥٩ : الأنعام) .

وقوله تعالى : « الرحمنُ » هوفاعل الفعل « استوى » .. وهو يعنى أن صاحب السلطان القائم على هذا الوجود هو « الرحمنُ » الذى أفاض رحمته

على الوجود .. فبالرحمة أقام الوجود وأوجده ، وبالرحمة ملك أمر الموجودات ، ودبّر شئونها ، وقدّر مقام كل موجود بين الموجودات .

— وقوله تعالى : « فاسْأل به خبيراً » الأمر هنا إلى كل إنسان غابت عنه هذه الحقيقة ، وهى رحمانية الرحمن ، القائم على هذا الوجود .. فمن غابت عنه هذه الحقيقة ، ولم يُدرك آثارها فى هذا الوجود ، وفى كل موجود .. فليسأل أهلَ العلم والخبرة ، الذين يَقْدُرون الله حق قدره ، ويعرفون مواقع رحمته فى خلقه .. والله سبحانه وتعالى يقول : « فاسألوا أهلَ الذكر إن كنتم لاتعلمون » (٧ : الأنبياء) .

الآيات : (٦٠ — ٧٧)

* « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ

وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً » ..

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الله سبحانه وتعالى ، قد ذكر فى الآية السابقة عليها ، أنه ـ جل شأنه ـ هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، وأنه استوى على العرش ، برحمانيته ، ثم دعا — سبحانه — من غابت عنه هذه الحقيقة من رحمانية الرحمن ، أن يسأل أهل العلم والخبرة فى هذا المقام ..فناسب ذلك أن يدعو إليه ـ سبحانه ـ الضالين ، باسم « الرحمن » الذى له فى كل مخلوق أثره ، وله فى كل حىّ نفحة من رحمته .. وبهذا يظهر ماعندهم من علم بالرحمن ، سواء أكان هذا العلم مما أدركوه بعقولهم ، وعرفوه بنظرهم ، أو أخذوه عن أهل العلم والخبرة ..

وقد كشف هذا الامتحان ، عن جحود هؤلاء الضالين على ضلالهم ، وأنهم لم يهتدوا إلى هذه الحقيقة بأنفسهم ، ولم يسألوا عنها أهل الذكر .. وأنهم إذا قيل لهم : « اسجدوا للرحمن » وآمنوا به ، واجعلوا ولاء كم له ـ أنكروا هذا الاسم ، ولم يعرفوا مدلوله ومسماه الذى يسمى به ، فقالوا منكرين : « وما الرحمن » ؟ فيا لخسران القوم ، ويا لتطاولهم على الله !! إن الرحمن هو الذى رحمهم برحمته ، فلم يأخذهم بعاجل عذابه ، وهم ينكرونه إنكار المستخفّ المستهزىء .. وكلمة منه — سبحانه ـ تمسخهم قردة وخنازير ، أو تسلبهم السمع والبصر والكلام ، فيعيشون صُمّاً ، عمياً ، بكما ، بين الأحياء !! فما أوسع رحمة الرحمن ، التى يعيش فى ظلها أعداء الرحمن ، المحاربون له ، المستكبرون عن عبادته ..

— وفى قوله تعالى : « أنسجد لما تأمرنا ؟ » بيان لجريمة أخرى من جرائم هؤلاء المجرمين . . إنهم لن يسجدوا للرحمن ، لأنهم لا يعرفونه ، وإنهم لو عرفوه لا يسجدون له ، لأن الذى يدعوهم إليه بَشَرٌ مثلهم ، ورجل منهم !! إنه الكبر والعناد ، إلى جانب الجهل والضلال . .

وقوله تعالى : « وزادهم نفوراً » أى زادهم هذا الطلب الموجّه إليهم من النبى نفوراً إلى نفورهم ، فهم نَفَروا أولًا ، لأنهم لا يعرفون الرحمن ، وهم نفروا ثانياً ، لأن الذى يدعوهم إليه إنسان ، من الناس ، وليس مَلَكاً من الملائكة ، كما كانوا يقترحون !

قوله تعالى :

* « تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجَعَل فيها سراجاً وقمراً منيراً » .

هو عرض لبعض آثار رحمة الرحمن فى خلقه ، وأنه سبحانه ، « جعل فى السماء بروجاً وجَعَل فيها سِراجاً وقمراً منيراً » . أفليس ذلك من آثار

رحمة الله ؟ وكيف كانت تكون الحياة على هذه الأرض ، ولا شمس ولا قمر ؟

وقوله تعالى : « تبارك » أي تمجد ، وتقدّس ، وكثرت آلاؤه ونعمه .. فهو - سبحانه - يمجّد ذاته ، وإن لم يمجده الضالون المجرمون من خلقه وهو سبحانه جدير بأن يُحمد ويمجّد من عباده الذين أسبغ عليهم نعمه ظاهرة ، وباطنة

والبروج : هي مدارات الكواكب ، ومنازلها . .

والسراج : هي الشمس ..

والقمر المنير : هو القمر ، الذي يستمد نوره من الشمس . . وقد وصف بأنه منير ، ولم يوصف بأنه مضيء ، لأن النور خلاف الضوء .. فالنور لا حرارة فيه ، على خلاف الضوء ، والنور ليس ذاتياً ، وإنما هو متولد من وقوع الضوء على الأجسام . . وقد أشرنا إلى ذلك في سورة يونس ، عند تفسير قوله تعالى : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً » (الآية : ٥) .

قوله تعالى :

* « وهو الذي جَعَل الليلَ والنهار خِلْفَةً لمن أراد أن يذّكر أو أرادَ شكوراً » .

ومن آثار رحمة الله ، أنه جعل الزمن على هذه الأرض خِلْفَةً بين الليل والنهار ، حيث يَخْلُف أحدهما الآخر ، ويحِلّ محلّه . .

وفي هذا آية لمن أراد أن يتذكر ، ويتعظ ، إذا لم يكن قد وَجَد في آيات الله المبثوثة في الكون طريقاً إلى التذكر والاعتبار ، أما من وجد التذكر والاعتبار في غير هذه الآية ، فإنها تزيده تذكراً واعتباراً ، كما تزيده شكراً وحمداً ، لآلاء الله . ونعمائه . .

قوله تعالى :

« وعباد الرحمن الذين يَمشون على الأرض هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » تعرض هذه الآية والآيات التى بعدها ، الصفات الكريمة التى يتصف بها أولئك الذين استحقوا أن يضافوا إلى الله سبحانه ، وأن يُحسَبوا فى عباده ، أما غيرهم ممن لا يتحلّون بهذه الصفات ، فإنهم ليسوا أهلاً لهذا المقام ولا موضعاً لهذا الشرف العظيم . . وأن هؤلاء الذين قيل لهم اسجدوا للرحمن فأنكروا هذا ، وقالوا : وما الرحمن ؟ — هؤلاء ليسوا من عباد الرحمن ، ولن يكونوا من عباده ، ماداموا على حالهم تلك . .

[عباد الرحمن . . من هم ؟]

أما عباد الرحمن الذين يستحقون هذا الشرف العظيم ، فهم هؤلاء الذين جاءت تلك الآيات ، تكشف عن صفاتهم التى يتحلّوْن بها ، والتى تؤهلهم لهذا المقام الكريم . .

وهذه الصفات التى يتحلّى بها عباد الرحمن ، هى أنهم :

— « يمشون على الأرض هَوْناً . . وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

والمشى الهيّن على الأرض ، هو دليل على التواضع ، ولين الجانب ، وسماحة الخلق . . بخلاف المشى الذى يضرب وجه الأرض ، تِيهاً وفخراً ، وقد نهى الله تعالى عنه فى قوله : « ولا تمش فى الأرض مَرَحاً . . إنك لن تَخرِق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً » (٣٧ : الإسراء) .

— « وإذا خاطبهم الجاهلونَ قالوا سلاماً » . . أى أن عباد الرحمن لا يلقَوْن فحشَ القول وهُجْره ، بفُحش ، وهجر مثله . . فإذا رماهم السفهاء بالكلمة الخبيثة أعرضوا عنهم ، وقالوا : « سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » (٥٥ : القصص) .

وليس هذا المشى الهيّن ، ، أو الإمساك عن الفحش من القول ، هو عن

ضعف وذلّة ، وإنما هو عن قوة نفس ، ومتانة خُلق ، وكرم طبيعة . . وكلّ إناء ينضح بما فيه . . وكل شجرة لا تعطى إلا من ثمرها . . فالشجرة الطيبة تعطى ثمرًا طيباً ، والشجرة الخبيثة لا تعطى إلا ثمراً خبيثاً . .

— « والذين يبيتون لربهم سُجّداً وقياماً » .

أى ومن صفات عباد الرحمن أن قلوبهم لاتخلو من ذكر الله أبدًا ، وأنهم يقضون نهارهم فى كفاح وعمل ، فإذا جنّهم الليل أقبلوا على ربّهم بالعبادة والذكر ، راكعين ساجدين . . والليل هو أنسب الأوقات للعبادة ، ومناجاة الله سبحانه وتعالى ، حيث تسكن النفوس ، وتجتمع الخواطر ، وتهدأ القلوب ، فيجد الإنسان مُنْطلقه فى عالم الروح ، وقد انزاحت من طريقه السدود التى يقيمها ضجيج الحياة ، ولَغَطُ الأحياء أثناء النهار . . وقد نوه القرآن الكريم فى أكثر من موضع بشأن العبادة فى أوقات الليل ، وما للعابدين عند الله فى تلك الأوقات ، من رضا ورضوان ، فيقول سبحانه للنبى الكريم . « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا * ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محمودا » (٧٨ — ٧٩: الإسراء) . ويقول له سبحانه : « يأيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً * نصفه أو انقصْ منه قليلاً * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنُلقى عَليكَ قولاً ثقيلاً . إن ناشئةَ الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا » (١ — ٦ : المزمل) ويقول سبحانه فى وصف المتقين من عباده ، وما أعدّ لهم من جزاء عظيم : « إن المتقين فى جناتٍ وعيون * آخذين ما آتاهم ربّهم إنهم كانوا قبلَ ذلك محسنين * كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون » (١٥ — ١٨ : الذاريات) .

وفى قوله تعالى : « لربهم » — إشارة إلى أنهم يقصرون عَملَهم كله بالليل

على ذكر الله ، لا يذكرون إلا الله جلّ وعلا ، لا يشغلهم شيء عن ذكره . . فاللام هنا للاختصاص .

— «والذين يقولون ربنا اصْرِفْ عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً» إنها ساءت مستقراً ومقاماً » أى أن عباد الرحمن هؤلاء ، إنما يعبدون ربّهم ، وهم من عذاب ربّهم مشفقون . . إن عذاب ربّهم غير مأمون . . فهم مع طمع ورجاء فى رحمته ، وخشية وخوف من بأسه وعقابه . . هكذا حال المؤمنين بالله ، لا يأسَ من رَوْح الله ، ولا أمنَ من بأسه وعذابه . .

وقوله تعالى : « إنها ساءت مستقرًّا ومقاماً » أى أنها ـ نعوذ بالله منها ـ لا يَلْقى أهلها إلا السوء والوبال ، فهى أشأم وأسوأ مكان . . فكيف إذا كان هذا المكان مستقراً ومقاماً لا يتحول عنه أهله ؟ إن أهله أشقى خلق الله ، وأنكدهم حظًّا ، وأشأمهم مصيراً . .

— « والذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » .

وهذه صفة أخرى من صفات عباد الرحمن .. إنهم يَلْزمَون الطريق الوسط فى حياتهم ، وفى كل شأن من شئونهم ، فلا إفراط ، ولا تفريط ، فإن خير الأمور أوساطها .. وأكثر ما يتجلّى هذا المبدأ فى إنفاق المال ، حيث هو عملية مستمرة ، يقوم بها الإنسان مرات كل يوم ، سواء أكان غنياً أم فقيراً . . كلٌّ ينفق حسب ما معه من مال . .

والإسراف ، هو مجاوزة الحدّ فى زيادة المطلوب فى النفقة

والتقتير ، هو الإمساك دون الحدّ المطلوب . .

وقوله تعالى : « وكان بين ذلك قَوَاماً » أى وكان إنفاقهم وَسَطا ، وقواماً ، بين الإسراف ، والتقتير . .

— « والذين لا يَدْعون مع الله إلٰهاً آخر ولا يقتلون النَّفْس التى حرّم الله ،

إلا بالحق ولا يزنون.. ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذابُ يوم القيامة ويخلدْ فيه مهاناً * إلاَّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً * ومن تاب و عمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متابا » .

ومن صفات عباد الرحمن أيضاً ، أنهم لايشركون بالله شيئاً ، ولا يدْعون معه إلٰها آخر ، بل عبادتهم خالصة لله ، ودعاؤهم متجه إليه وحده . . وأنهم لا يقتُلون النفس التى حرّم الله إلا قصاصاً ، وأنهم يُحْصِنون فروجهم فلا يأتون الفاحشة . . فإن من يفعل شيئاً من هذه الكبائر ، لن يكون فى عباد الله هؤلاء المكرمين ، بل إنه سينزل منازل المجرمين ، أصحاب النار ..

وقوله تعالى : « يلْق أثاماً » أى أن من يفعل هذه الآثام يلق أثاماً مثلها ، فهذه الآثام منكرات ، والعذاب الذى يُساق إلى فاعلها ، ويلقاه ، هو عذاب منكر شديد . .

وقوله تعالى : « يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً » بيان لما يلقى مرتكبو هذه المنكرات الغليظة من العذاب ، والهوان يوم القيامة . . فهم أكثر الناس عذاباً يومئذ ، لأن جرائمهم الثلاث تلك ، من أعظم الجرائم.. وهى الشرك بالله ، وقتل النفس التى حرم الله ، والزنا .. فإذا عذب غيرهم من المعذبين بألوان من العذاب ، فإن ما يلقاه هؤلاء ، أضعافُ ما يلقاه المعذبون من أهل النار غيرهم ..

وقوله تعالى : « ويخلد فيها مهاناً » الخلد والخلود ، هو اللصوق بالأرض فى ذلة ومهانة . . والضمير فى « فيه » يعود إلى العذاب الذى لايخرج منه ، بل يعيش فيه ،مستكيناً ، ضارعاً ، ذليلا ، مهيناً . .

وقوله تعالى :

* « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيما » .

— هو استثناء من عموم الضمير الواقع فاعلا فى قوله تعالى : «يلق أثاماً» أى ويستثنى من الوقوع فى هذا العذاب ، من تاب من هؤلاء المرتكبين لتلك الآثام من آثامه ، ورجع إلى الله ، مؤمناً به غير مشرك ، مستقيما على ما أمر به ، من عدل وإحسان .. فلا يقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنى .. فمن اجتنب هذه الكبائر ، فإنه لن يلقى هذا المصير ، بل يخرج من زمرة هؤلاء المجرمين ، ويأخذ طريقه مع عباد الله المكرمين ..

وقوله تعالى : « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » — إشارة إلى أن هؤلاء التائبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قد قبلهم الله فى عباده ، وأنه سيبدل سيئاتهم تلك حسنات ، فإنه سبحانه كريم يعفو عن طالبى عفوه ومغفرته ، رحيم بعباده ، يرحم ضعفهم ، وما غلبتهم عليه أهواؤهم ، إذا هم رجعوا إليه تائبين ، مؤمنين ، مصلحين ـ ما أفسدوا .. والله سبحانه وتعالى يقول : « إن الحسنات يذهبن السيئات » (١١٤ : هود) ولهذا قدم سبحانه التوبة ـ

فقال سبحانه : « إلا من تاب » أى عقَد النية ، وعزم على التوبة ، ثم أتبعها بقوله تعالى : « وآمن » أى وقرَن النية بالتوبة بالإيمان بالله ، وبكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، فإن التوبة من غير إيمان بالله ، لامتوجّه إليها ، ولا محصل لها . .

ثم جاء قوله تعالى : « وعمل عملا صالحاً » شرطاً ثالثاً لقبول التوبة ، وتصحيح الإيمان ، وهو العمل الصالح .. فالإيمان بلا عمل ، زرع بلا ثمر ..

وقوله تعالى : « ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً » . . لم يجىء هنا ذكر للإيمان مع التوبة ، لأنه ذُكر فى الآية السابقة ، ولأن التوبة لاتكون إلا من مؤمن .. وذكر الإيمان فى الآية السابقة للإلفات إليه ، والتنويه

به ، وبأنه لا تقبل توبة إلا إذا زكاها الإيمان بالله ..

وقوله تعالى : « فإنه يتوب إلى الله متاباً » — أى يتوب توبة ، فمتاباً توكيد ، وفى هذا إشارة إلى أن الذين ارتكبوا هذه المنكرات ، قد بعدوا عن الله ، وشردوا عن الطريق إليه ، وأنهم حين عدلوا عن طريقهم ، وأخذوا الطريق إلى الله — قد رجعوا إلى الله رجوعاً حقًّا ، وأصبحوا فى عباده المؤمنين المكرمين ، غير منظور إلى شىء من حياتهم الماضية ، التى كانوا عليها قبل أن يتوبوا .. إنهم بعد التوبة والعمل الصالح ، قد وُلدوا ميلاداً جديداً ، ذهب به كل ما كان عليهم من أدران وأوزار .. فتوبتهم حينئذ توبة مثمرة ثمراً طيباً ، لأنها أثمرت هذه الأعمال الصالحة التى أتوا بها بعد توبتهم تلك ..

— « والذين لا يشهدون الزّور وإذا مرّوا باللغو مروا كراماً » ..

وصفة أخرى من صفات عباد الرحمن ..

إنهم لا يشهدون الزور ، أى لا يحضرون مجالس الفُحش ، والهجر ، ولا يستمعون لمقالات الكذب والبهتان .. وإنهم إذا وقع لهم فى طريقهم مشهد من مشاهد العبث واللهو ، لم يقفوا عنده ، ولم يُلقوا بآذانهم ، أو أبصارهم إليه ، بل مرّوا به وهم كرامٌ مترفعون بإيمانهم ، وبمروءاتهم ، عن أن يشاركوا فى هذا الباطل من قريب أو بعيد !

— « والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صماً وعمياناً » ..

وصفة سادسة من صفات عباد الرحمن ، وهى أنهم يحْيَون مع آيات الله حياة عاقلة واعية ، ويعايشونها معايشة ودوداً طيبة .. فإذا قرءوا ، وسمعوا آيات الله تتلى عليهم ، أعطوْها عقولهم وقلوبهم ، وفقهوا ماتتسع له عقولهم وقلوبهم من نورها ، وهديها .. وهذا غيرُ مايلقى به الغافلون والجاهلون آيات الله ، حيث يخرون بين

يديها كما يخر عابد الوثن على وثنه ، من غير أن يكون معه نظر أو رأى ، فيما هو عاكف عليه . .

فآيات الله لاتُسمع الصم ، ولاتَهدى العمى ، وإنما تهدى من نظر إليها بعقله، وأعطاها وجدانه ومشاعره، وعندئذ يُؤْذَن له بأن يجنى من ثمارها ، ويقطف من زهرها ، وينشق من طيبها . .

ومن هنا ، كان واجباً على المسلم أن يطلب العلم ، والمعرفة ، حتى يأخذ حظه من النظر فى آيات الله ، وحتى ينتفع بهديها ، ويستضىء بنورها . . وإلا فإنه أشبه بالأعمى الذى يستوى عنده طلوع الشمس ومغيبها .. والله سبحانه وتعالى يقول : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » (٤٣ : العنكبوت) .

ويقول سبحانه : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (٢٨ فاطر) إذ لا خشية لله إلا عن علم بجلاله ، وعظمته ، وعلمه ، وقدرته . . ولا علم إلا مع أهل العلم !

— « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً * أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقّون فيها تحية وسلاما * خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً » .

وصفة سابعة من صفات عباد الله الرحمن . .

إنهم أهل صلاح وتقوى ، ومن تمام صلاحهم وتقواهم أن يكون أزواجهم وأولادهم ـ وهم بعض منهم ـ على حال من الصلاح والتقوى ، أقربَ إليهم ، وأشبه بهم ، حتى يأتلف جمعهم ، وتتوحد مشاعرهم ، ولا يقع فى محيطهم مايثير شقاقا ، أو يبعث ألماً وحسرة ، لخلاف زوجة ، وضلال ولد . . فإن هذا من شأنه أن يجور على صلة المؤمن بربه ويشغله كثيراً أو قليلا عن ذكره . . ومن هنا كان من دعاء المؤمنين : « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذريتى » (١٥ : الأحقاف) .

وكان مما امتن به الله سبحانه وتعالى على نبى كريم من أنبيائه ، هو زكريا عليه السلام ـ أن وهب له الولد الصالح ، وأن أصلح له زوجه ، كما يقول سبحانه : « فاستجبنا له .. ووهبنا له يحيى ، وأصلحنا له زوجه » (٩٠ : الأنبياء)

« وقرة الأعين » ما تقَرّ به ، وتطمئن . . وذلك لايكون إلا عن هدوء النفس ، واطمئنان القلب ، وراحة الضمير . . الأمر الذى يجعل العين تنظر إلى الحياة نظراً هادئاً مطمئنا . . أما المذعور الخائف المضطرب ، فإنه ينظر بعين زائغة مضطربة .. ومن هنا كان للعيون لغتها التى يعرفها أهل البصيرة والرأى ، حيث يكون للرضا نظرة ، وللغضب نظرة ، وللحب نظرة ، وللبغض نظرة . . وهكذا تنطبع الأحاسيس والمشاعر على مرآة العين ، كما تنطبع صور الأشياء على المرايا ..

قوله تعالى : « واجعلنا للمتقين » ـ أى ومما يدعو به عباد الرحمن ربهم ، أن يجعلهم قدوة لأهل الإيمان ، فى الخير والإحسان ، وأن تكون أعمالهم قائمة على طريق الحق والعدل ، حتى يكونوا أسوة فى الطريق إلى الله .. وبذلك يكون لهم ثوابهم ، وثواب من اقتدى بهم .. على خلاف أهل الضلال ، الذين يكون عليهم وزر ضلالهم ، ووزر من ضل بضلالهم .. وفى الحديث : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ؛ ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

قوله تعالى : « أولئك يُجزَوْن الغُرْفة بما صبروا » ـ الإشارة هنا إلى عباد الرحمن ، الذين ذُكرت أوصافهم فى الآيات السابقة . . فهؤلاء المكرمون من عباد الله ، الذين أضافهم سبحانه وتعالى إليه ، سيُجْزون الغرفة بما صبروا على التكاليف ، والعبادات ، وعلى مغالبة أهوائهم وشهواتهم . . وإنه لولا الصبر لانحلّت عزائمهم ، وفترت هممهم ، واختلّ توازنهم على الصراط المستقيم . .

فبالصبر ، استطاعوا أن يَصْمُدوا أمام الشدائد ، وأن يحتملوا ما يصابون به فى أموالهم وأنفسهم ، مستسلمين لأمر الله ، راضين بقضائه . . وبالصبر قهروا نوازع أهوائهم . . فالصبر ، هو زاد المؤمن على طريق الإيمان ، وهو القوّة التى تشدّه إلى الله ، وتمسك به على طريق الحق والخير . .

والغرفة ، أعلى مكان فى الجنة ، وهى فى البيت أعلى موضع منه . . وهى فى الجنة ليست غرفة واحدة ، وإنما هى غرفات ، كما يقول الله تعالى : « وهم فى الغُرفات آمنون » . . وإنما أفردت هنا لأن المراد بها ، المنزلة ، أى يُجزوْن المنزلة التى فيها الغرفة ، وفيها الغرفات ، لأنها جميعها فى درجة واحدة .

قوله تعالى : « ويُلقّون فيها تحية وسلاماً » أى أن الذين ينزلون بهذه الغرفة ، هم فى موضع احتفاء وتكريم ، وأن مما يكون لهم فيها من صور الإحسان ، أن تتردد عليهم الملائكة ، وتغشى مجالسهم ، بالتحية والسلام . . وفى ذلك ما فيه من أنس ورَوْح لهم . .

قوله تعالى : « خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً » . . أى أنهم ساكنون وادعون فى هذه الغرفة ، سكون أمن وطمأنينة وقرار . . لا يريدون التحول عنها ، فقد حسن فيها مستقرّهم ، وطاب فيها مقامهم . .

هذا ، ويلاحظ أن عرض صفات المؤمنين ، الذين استحقوا ، أن يُضيفهم الله سبحانه وتعالى إليه ، وأن يُنزلهم منازل رحمته ، وأن يكونوا عباد الرحمن ـ يلاحظ أن هذه الصفات لم تجىء مرتبة ترتيباً تصاعدياً أو تنازلياً .. وذلك لغاية قصد إليها القرآن ، كما سنرى .

فأول صفة لعباد الرحمن.. أنهم « يمشون على الأرض هَوْناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » . .

فهذا هو الوجه الظاهر لإيمان المؤمنين .. فيهم تواضع ، وتعفف عن السّفه والفحش .. وهذا حالهم مع الناس ..

والصفة الثانية ، هي حالهم مع الله .. فهم يقطعون الليل عبادةً وتسبيحاً لِله ، فيما بينهم وبين خالقهم .. « والذين يبيتون لربهم سُجّداً وقياماً » ..

فالصفتان ، تمثلان صورة كريمة للإنسان ، الذي رضى عنه الناس ، ورضى عنه ربّه .. وتلك غايةُ ما يمكن أن يدركه أحسن الناس ، وأكمل الناس ..

والصفة الثالثة .. خاصة بهم : إذ يطلبون لأنفسهم النّجاةَ من النّار ، والخلاصَ من عذاب جهنم ..

فقد أدّوا أولاً حقّ الله عندهم لعباده ، ثم أدّوا حقه لذاته .. ثم طلبوا من الله ما هو مطلوب لهم .. ! « والذين يقولون ربنا اصرف عنّا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما * إنها ساءت مستقراً ومقاماً » وهذه الصفات الثلاث ، صفات وجوب .. أي صفات عاملة ، يقوم عليها سلوكهم ..

ثم تأتى بعد ذلك صفة تجمع بين الإيجاب والسّلب ، وهى أنهم يلزمون فى الإنفاق طريقاً بين الإسراف والتقتير ، وهو التوسط والاعتدال بين الأمرين ، وتلك صفة موجبة ، متولدة من صفتين سالبتين .. وهما الإسراف والتقتير .. وهما من صفات غير المؤمنين ، من عباد الرحمن ! .

ثم تجىء بعد ذلك صفة سلبية ، .. هى فى إيجابها صفة خاصة بغير المؤمنين .. أو بالمؤمنين الذين ليسوا عباداً للرحمن .

فهم ليسوا ممن يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله

إلا بالحق ولا يزنون . . على حين أن من غير المؤمنين أو الذين ليسوا عباداً الرحمن ، مَن يتصف بهذه الصفات كلها ، أو بعضها .

ثم تأتى بعد ذلك صفة متولدة من حال ، يذهب غير المؤمنين بشرّها ، على حين لا ينال المؤمنين سوء منها . . وتلك الصفة هى شهود مجالس الإثم واللغو. فغير المؤمنين يَعْمُرون هذه المجالس ، ويطعمون من زادها الخبيث ، والمؤمنون ، عبادُ الرحمن . . يُعطونها ظهورهم ، ويُصمّون عنها آذانهم . .

ثم تجىء صفة سلبية ، يتصف بها عباد الرحمن سلباً ، على حين يتصف بها الجاهلون من المؤمنين إيجاباً . . : « والذين إذا ذكّروا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صمًّا وعميانا » .

فعباد الرحمن ، إذا ذُكروا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صمًّا وعميانا ، على حين أن المؤمنين الذين لم يدخلوا فى عباد الرحمن ، يَخرّون عليها صمًّا وعميانا . .

ففى صفات السلب الثلاث هذه ، تعريض بغير المؤمنين أصلاً ، وبغير المؤمنين الذين لم يكمل إيمانهم ، ولم يصبحوا أهلا لأن يكونوا من عباد الرحمن . .

ثم تُختم هذه الصفات الإيجابية والسلبية التى وصف بها المؤمنون — تختم بهذا الوصف الذى تسوّى به صورتهم على أحسن حالٍ وأكمله ، حتى يُصبحوا قدوةً للناس فى الخير والإحسان — « واجعلنا للمتقين إماماً » فهم على حال من الكمال الإنسانى ، بحيث يكونون فيه أئمة ، يدعون الناس إلى الهدى ، ويقودونهم إلى البرّ والتقوى . .

وارجع البصر كرة أخرى إلى هذه الآيات ، وإلى سلاسة نظمها ، وتدفق

سلسالها ، وروعة بيانها ، وصلصلة أنغامها ، ثم استروحْ أنسام هذا الإعجاز الذى يطلع عليك ، من هذا المنطق المحكم ، الذى يستولى بسلطانه على كل نفس ، وينفذ بقدرته إلى كل قلب ..

فإنك إن فعلت ـ وخيرٌ لك أن تفعل — رجعت وملء إهابك خشوع وولاء ، لآيات الله ، ولكلمات الله ، وكنت فى هذا الموكب الكريم ، الذى ينتظم عباد الرحمن ، الذين إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا .. « ويخرون للأذقان يبكون ويزيدُهم خشوعاً » (١٠٩ : الإسراء) ..

* قوله تعالى : « قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً » ..

وبهذه الآية تختم السورة ، وهى إعلان عام للناس جميعاً — مؤمنين وكافرين ، مهتدين وضالين — إعلان لهم أنهم ما خلقوا إلا ليعبدوا الله ، وأن مَنْ لا يعبد الله ، فكأنه غير مخلوق ، لأنه لم يؤدّ ما خُلِقَ له .

وعَبَأ بالشىء يعبأ به : إذا اهتمّ به ، وعمل له حساباً . . والعِبء : الحمل الثقيل ، من ماديات أو معنويات . .

والمعنى : أنكم أيها الناس ، إنما خُلقتم لتعبدوا الله ، وتسبّحوا بحمده ، وأن من فاتته هذه الغاية ، فقد سقط من حساب المخلوقات . . فقيمتكم أيها الناس عند الله هى فى عبادتكم له ، واتجاه وجوهكم إليه ، فى السّرّاء والضّرّاء ، وأنه لولا هذا ، ولولا أن فيكم مؤمنين بالله ، عابدين له ، لما كان لكم وزن فى عالم المخلوقات . . فإذا اعتدل ميزانكم ، وأقيم لكم وزن ، فإنما ذلك بفضل المؤمنين منكم .

وفى تسليط حرف النفى «ما» على الفعل «يعبأ» بدلاً من « لا » الذى يتسلط على الفعل المضارع ، على حين يتسلط الحرف « ما » على الفعل الماضى ـ وذلك

للمبالغة فى النفى ، وأنه نفى لازم لا يتعلق بزمن ، بل هو واقع فى الزمان كله ، ماضيه وحاضره ومستقبله ، على خلاف النفى بلا الذى يقيّد النفى بالمستقبل وحده . . تقول : لا أفعل هذا الأمر ، إذا كنت على نيةِ ألا تفعله ، حالًا أو استقبالاً ، فإذا قلت : ما أفعل هذا الأمر ، كان المعنى ، أنه لا يليق بك ، ولا ينبغى منك أن تفعله أبداً ، وأنه ما كان منك فعله فى الماضى ، ولن تفعله حالًا أو مستقبلًا . . وعلى هذا جاء قوله تعالى لنبيه الكريم : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » (٨٦ : ص) . . أى ليس لى أن أسألكم أى أجر على ما بلغتكم من رسالة ربِّى فى أى وقت من الأوقات.. ومنه قوله فى هذه السورة ــ سورة الفرقان ــ « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربِّه سبيلًا » . (٧٥)

وعلى هذا ، فإن تسلط حرف النفى « ما » على الفعل « يعبأ » يعنى أن خَلق الناس إنما كان لحكمة أرادها الله ، وأنه لولا هذه الحكمة لما اتجهت إرادة الله سبحانه إلى خلقهم ، وهذه الحكمة هى أن يعبدوه ، وفى هذا يقول الله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الجِنّ وَالإِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ » (٥٦ : الذاريات) ، فَخَلْقُ النّاس ، وقيومة الله سبحانه وتعالى عليهم ، وتسخير ما سخّر لهم ، وإنعامه بما أنعم به عليهم — إنما كان ليعبدوه ، ولتتجلّى فيهم آياتُ قدرته ، وعلمه ، ومن أجل هذا عبأ الله سبحانه وتعالى بهم ، ونظر إليهم ، وجعلهم خلقاً من خلقه ! ! .

وقد يسأل سائل : فيقول : إن أكثر الناس لا يعبدون الله أى لا يدعونه ، ولا يعترفون بوجوده ، فكيف تتحقق حكمة الله من خلق الناس ؟ وكيف يعبأ بهم ، وهم لا يعبدونه ولا يدعونه ؟ .

وقد أجبنا على هذا الاعتراض من قبل ، إذ قلنا : إن الذين آمنوا بالله ،

وولّوا وجوههم إليه - وإن كانوا قلّة فى النّاس - هم وجه الإنسانية ، ومن أجلهم كانت رحمة الله بالناس جميعاً .

ومن جهة أخرى ، فإن الناس جميعاً ، مؤمنَهم وكافرَهم ، منقادون لله ، طوعاً أو كرهاً ، كما يقول سبحانه : « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهًا وظلالهم بالغدوّ والآصال » (١٥ : الرعد) .

وكما يقول جلّ شأنه : « ولله يَسْجُدُ ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكةُ وهم لا يستكبرون » (٤٩ : النحل)

فالناسَ جميعاً ، والخَلْقُ كلُّهُم ، منقادون للهِ ، خاضعون لسلطانه ، مسبحون بحمده ، كما يقول سبحانه : « وإن من شىء إلاّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » (٤٤ : الإسراء) .

وقوله تعالى : « فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً » .

هو تهديد ووعيد للكافرين المكذبين ، الذين دعوا إلى عبادة الله ليحققو الغاية من خلقهم ، ولكنهم كذبوا رسول الله وأبوْا أن يؤمنوا بالله ، ويوجّهوا وجوههم إليه ، فحقّ عليهم العذاب ، ولزمهم ما قضى الله سبحانه وتعالى به فى أهل الكفر والضلال .

* * *

٢٦ – سورة الشعراء

نزولها : مكية ، وقيل إن آية « والشعراء يتبعهم » وما بعدها إلى
: آخر السورة مدنية .

عدد آياتها : مائتان وسبع وعشرون آية .

عدد كلماتها : ألف ومائتان وسبع وسبعون كلمة .

عدد حروفها : خمسة آلاف وخمسمائة وثلثان وأربعون . . حرفا .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ – ٩)

* « طسٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَـٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٩) »

التفسير :

المناسبة بين هذه السورة ، والتي قبلها ، واضحة ، بحيث يمكن أن تتصل السورتان في سورة واحدة .

فقد كانت سورة الفرقان معرضاً لمقولات المشركين الحمقاء الطائشة ، فى رسول الله ، وفى القرآن الكريم . . ثم كانت مقولتهم حين دُعوا إلى أن يسجدوا للرحمن ، فأنكروا الرحمن ! وقالوا : « وما الرحمن ؟ » ثم كان ختام السورة كاشفاً عن الغاية التى خلق من أجلها الإنسان ، وهى عبادة الله والتسبيح بحمده . . وأن هؤلاء المشركين لم يستجيبوا لله ، ولم يؤمنوا به ، وكذبوا رسوله وإذن فهم فى عداد السَّقَط ، الذى لا يؤبه له ، ولا يُحسب له حساب .

وقد جاء بدء سورة الشعراء ، متلاقياً مع هذه المعانى التى ضُمّت عليها سورة الفرقان . .

فأولا : فى قوله تعالى : « طسم ، تلك آيات الكتاب المبين » ـ هو ردّ على قول المشركين ، فى سورة الفرقان : « إن هذا إلاّ إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون .... »

وثانياً : قوله تعالى « لعلك باخعٌ نفسك ألا يكونوا مؤمنين » ـ هو نتيجة لازمة لما تضمنه قوله تعالى ، فى ختام سورة الفرقان : « قل مايعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم » . . أى أنه لاوزن ولا حساب لمن لا يؤمن به ، ولا يقيم وجهه عليه ، إنه شىء تافه ، لا يُحرص على الإمساك به ، ولا يحزن على فقده .. وهؤلاء المشركون وقد رضوا لأنفسهم أن يكونوا على هذا الوصف فإنهم لا يستحقون منك ـ أيها النبى ـ هذا الحرصَ الشديد على هدايتهم ، ولا هذا الأسى المضنِى على ماهم فيه من ضلال . . فإنك لو نظرت إليهم حسب وضعهم عند الله بين المخلوقات ، لوجدتهم فى منزلة دون منزلة الهوام والحشرات . . فكيف تهلك نفسَك أسىً على هلاكهم وضياعهم .

وثالثاً : فى قوله تعالى : « وما يأتيهم من ذِكر من الرحمن محدَثٍ إلا كانوا عنه معرضين » ـ توكيد لتلك الصفة من صفات الله ، التى أنكرها

المشركون ، حين قيل لهم : اسجدوا للرحمن ، فقالوا : « وما الرحمن » .

وهكذا ، تلتقى السورتان فى أكثر من موضع ، لقاء تطابق أو تكامل .

قوله تعالى :

* « طسم * تلك آيات الكتاب المبين » .. هو مِثلُ قوله تعالى : « الر .. تلك آيات الكتاب المبين » (يوسف) .

وقوله تعالى : « المر .. تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق » (الرعد) .

وقوله تعالى : « الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » (إبراهيم) .

وقوله سبحانه : « الر .. تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » (الحجر) .

وقد قلنا ، إن هذه الحروف التى بدئت بها تلك السور ، هى إشارة إلى مادة القرآن الكريم ، وأنها من هذه الحروف ، التى تتألف منها الكلمات ، والعبارات ، التى يحتويها قاموس اللغة العربية ، ويتعامل بها اللسان العربى .. وأن هذه المقاطع من الحروف مبتدأ ، وما بعدها خبر .

وقوله تعالى : « تلك آيات الكتاب المبين » — هو ردٌّ على المشركين ، الذين قالوا فى هذا القرآن : « إنْ هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون » فإن الأمر ليس فى حاجة إلى افتراء .. فمادة هذا الكلام هى بين يدى كلّ عربى ، وكلماته ، وعباراته ، تجرى على ألسنتهم .. فالأمر لا يحتاج إلى أكثر من صياغة الكلمات والعبارات التى هى مِلْكٌ مشاع للعرب جميعا ، فليفعلوا هذا ، متفرقين ، أو مجتمعين ، وليأتوا بمثل هذا النظم القرآنى ، وهم أرباب البيان ، وفيهم الشعراء والخطباء .. هذه هى آيات الكتاب المبين ، فى معرض التحدى .. فهل من مبارز ؟ وأين الأبطال فى هذا الميدان ؟ .

قوله تعالى :

* « لعلّكَ بَاخعٌ نَفْسَكَ ألاّ يكونوا مؤمنين » . . البخع : الهلاك غمًّا وكمدا . . والأسلوب أسلوب ورجاء ، يراد به الإنكار . .

والمعنى ، لِمَ تُهلك نفسك أسىً وحسرة ، على أهلك وقومك إذ لم يؤمنوا بالله ، ولم يستجيبوا لك ؟ إنهم لايستأهلون هذا ، ولا يستحقون من أحد أن يحرص عليهم ، فهم ممن لاوزن لهم فى ميزان الإنسانية .

وفى التعبير عن هذا الإنكار ، بأسلوب الرجاء ، ما يكشف للنبى عن موقفه العجيب من قومه ، وأنه إذ يرجو لهم النجاة ، كأنما يرجو لنفسه — فى الوقت ذاته — الهلاك ، والتلف ! وفى هذا مافيه من التناقض . . فإن من الظلم للنفس أن يطلب الإنسان لغيره السلامة بعطب نفسه وتلفها . . فارفق بنفسك أيها النبى ، ولا عليك أن يضل الضالون ، ويهلك الظالمون . . « إن عليك إلا البلاغ » .

قوله تعالى :

* « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » .

أى إن حرصك أيها النبى على هداية قومك الضالين المشركين ، لن يخرج بهم عما هم فيه من ضلال وشرك ، لأن الله سبحانه وتعالى لم يرد هدايتهم : « إن تحرص على هداهم فإن الله لايهدى من يضل وما لهم من ناصرين » (٣٧ : النحل)

وإن الله سبحانه وتعالى ، لو أراد أن يهديهم لهداهم قهراً وقسراً ، ولأنزل عليهم آية لايملكون معها قولاً ، ولا يستطيعون من يديها إفلاتا ، تلك الآيات المهلكة التى تقطع على الناس سبيل الخروج من سلطانها ، فإذا عاينوا آية من تلك الآيات خضعوا لها ، وذلوا لسلطانها ، وجاءوا إلى الله مؤمنين ، كما جاء فرعون إلى الله مؤمنا ، حين أدركه الغرق .. فقال : « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » (٩٠ : يونس)

وخضوع الأعناق : كناية عن الذلة والخضوع، لما يقع على الإنسان من شدائد وأهوال ، حيث تثقل الرأس ، ويضعف العنق عن حملها ، وحمل مابها من هموم .

قوله تعالى :

* « وما يأتيهم من ذكرٍ من الرحمن محدَثٍ إلا كانوا عنه معرضين » .

أى أن هؤلاء المشركين ، لا يتأثرون إلا بما هو مادىّ ، يقع على أجسادهم ويصيبهم فى جوارحهم ، شأنهم فى هذا شأن الحيوان .. أما ما يقع لعقولهم من آيات الله وكلماته ، فإنهم لايتأثرون له ، ولا يفقهون مواقع العبرة والعظة منه .. وهذه آيات الله وكلماته ، تجيئهم يوماً بعد يوم ، وتطلع عليهم حالاً بعد حال ، فلا يزيدهم ذلك إلا إعراضاً عنها ، وكفراً بها .. وإذن فإن تطاول الزّمن بهم ، وتوارد الآيات عليهم ، لا يغيرّ من أمرهم شيئاً . وإن حرصك ـ أيها النبىّ ـ على هداهم ، وجَرْيَك وراءهم ، والقاءك إياهم بكل ما ينزل عليك من السماء ـ إن كل هذا لايغنى شيئاً ، ولا يحقق الغاية التى تسعى إليها من أجلهم .. وآية واحدة تفتح القلوب المستعدة للإيمان ، المتفتحة للخير .. وعشرات الآيات ، ومئاتها ، وألوفها لا تغيرّ من حال القلوب المريضة ، والنفوس السقيمة ، التى تلتقط كل دواء .. « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » (٩٦ ـ ٩٧ : يونس) ..

قوله تعالى :

* « فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » ..

أى فقد كذبوا بالآيات السابقة التى تلقوها منك ـ أيها النبى ـ فأنكروها وأنكروك . وإذن فلا ينفعهم ما سينزل عليك من آياتٍ بعد هذا ، وإذن فلينتظروا البلاء والعذاب ، وسيعلمون علماً متيقناً ، حقيقة هذا الذى يكذبون به من آيات الله ، وأنه الحق من ربهم .. ولكن ذلك يكون بعد فوات الأوان ..

« يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفساً إيمانها لم تـكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً » (١٥٨ : الأنعام) .

قوله تعالى :

* « أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم » .

أىْ أعَمِىَ هؤلاء المشركون عن أن ينظروا إلى هذه الأرض الميتة ، كيف يُنْزل الله سبحانه وتعالى عليها الماء من السماء ، فتحيا ، وتهتزّ ، وتَرْبُو ، وتنبت من كل زوج بهيج ؛ وإذا كانت عقولهم قد عَمِيت عن أن ترى ما فى آيات الله وكلماته من هدًى ونور ، أفعميت أبصارهم عن أن ترى هذه الظاهرة الحية ، التى تطلع عليهم فى كل أفق من آفاق الأرض ؟ فإذا كانوا قد عَمُوا عن هذا الواقع المحسوس ، فإنهم أشد عمى من أن يروا شيئاً من آيات الله ، وكلمات الله !

قوله تعالى :

* « إن فى ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين » ..

إن فى هذه الظاهرة لآية مبصرة ، يرى فيها أصحاب النظر والعقل من الناس ، آثارَ رحمة الله ، وقدرته ، وحكمته .. ولـكن أكثر الناس لا يلتفتون إليها ، وإن التفتوا لايروا شيئاً ، وإن رأوا شيئاً أنكروه ، وتأوّلوه تأويلاً فاسداً . وهذا هو شأن هؤلاء العُتاةِ المتـكبرين للشركين ..

قوله تعالى :

* « وإن ربك لهو العزيز الرحيم » ..

وإن هؤلاء الذين لايؤمنون بالله ، ولا ينقادون لسلطانه ، لن يُعجزوا الله، وان يخرجوا من سلطانه .. فهم فى قبضته ، لأنه هو العزيز ، الذى لا يُغلب ،

القوىّ » الذى لا يحتاج إلى ناصرٍ ينصره من خلقه ، وهو ـ مع عزته ، وقوته، ونفاذ سلطانه ـ « رحيم » يعفو عن المسيئين ، ويتوب على الضالين ، ويقبل العاصين ، إذا هم رجعوا إليه واستقاموا على صراطه المستقيم . إن الطريق أمامهم مفتوح . فمن شاء فليدخل !!

الآيات : (١٠ — ٢٢)

« وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) »

التفسير :

هذه الآيات ، والآيات التى بعدها ، تعرض قصة موسى وفرعون ، وقد وردت هذه القصة فى معارض متعددة من القرآن الكريم ، تختلف بسطاً وإيجازاً ، ولا تختلف محتوى ومضموناً ..

وهذا الاختلاف فى العرض ، هو من تصريف القول ، الذى أشار إليه سبحانه وتعالى ، وأشار إلى الغاية منه ..

فى قوله تعالى : « ولقد وصّلنا لهم القول لعلهم يتذكرون »(٥١: القصص) وقوله تعالى : « وكذلك أنزلناه قرآنا عربيًّا وصرفنا فيه من الوعيد لعلّهم يتقون أو يُحدث لهم ذكراً » (١١٣ : طه) وقوله سبحانه : « ولقد صرّفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً » (٥٠ : الفرقان) .

وقد كان هذا التكرار فى القصص القرآنى ، موطناً من المواطن التى دخل منها المستشرقون ، وأشباه المستشرقين ، من أعداء الإسلام ، للطعن فى القرآن ، وأن هذا التكرار ، هو اختلال فى النظم ، جاء نتيجة للحالات العصبية والنفسية التى كانت تعترى النبىّ ، كما يقولون ، كذباً وبهتاناً ..

وسنعرض لموضوع التكرار القصصى فى القرآن ، بعد أن ننتهى من عرض هذه القصة ..

ومناسبة هذه القصة لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة عرضت لموقف المشركين من النبىّ ، وخلافهم عليه ؛ مع حرصه على هدايتهم واستنقاذهم . فكان أشبهَ الناس بخلافهم ، وعنادهم ، وعتوهم ـ فرعونُ ، الذى جاءه موسى بآياتٍ مادية محسوسة ـ كتلك الآيات التى كان يقترحها المشركون على النبىّ ـ فما زاده ذلك إلا لجاجاً وعناداً .. فناسب ذلك أن يُذكر هذا الحديث عن فرعون ، فى معرض الحديث عنهم ، ليَرَوْا على مرآة الزمن وجههم واضحاً ، فى أعْتى العُتاة ، وأظلم الظالمين .. وليروا مصيرهم فى هذا المصير الذى صار إليه صاحبهم ، وأقرب الناس إليهم . . فرعون ، وهامان ، وقارون .

وتبدأ القصة هنا ، بالمرحلة الثانية من حياة موسى ، بعد أن بلغ أشدّه ، وتلقى الرسالة من ربه .. فلم يجىء فيها هنا ذكر ، لميلاده ، وإلقاء أمه إياه فى

اليمّ ، خوفاً من فرعون ، ثم التقاط آل فرعون له ، واتخاذ فرعون له ولداً .. ثم قَتْله المصرى ، وفراره إلى مَدْين ، ثم زواجه من ابنة شعيب ـ عليه السلام ـ ثم عودته إلى مصر .. ثم تلقيه رسالة السماء وهو فى طريق العودة ـ كل هذا لم تعرض له القصّة هنا ، لأنه عرض فى مواضع أخرى من القرآن الكريم ..

وتبدأ أحداث القصة هنا ، بهذا الأمر يتلقاه موسى من ربّه : « أن ائت القومَ الظالمين .. قوم فرعون » .. فهـذا هو الوصف الذى لهم فى المجتمع الإنسانى .. ثم جاء التعقيب على هذا الأمر بقوله تعالى : « ألاَ يتقون » كاشفاً عن بغيهم وظلمهم ، وأنهم لايتقون .. وقد أُطلق فعل التقوى ، فلم يقَيّد بمفعول ، الدلالة على أن قلوبهم قد خَلَت من كل أثرٍ للتقوى ، فى أى قولٍ أو عمل ، مع الله ، أو مع الناس .. فهم على بغى وعدوان فى كل أمرٍ ، وفى كل حال ..

ويتلقى موسى أمر ربّه ، وإذا صورة فرعون تطلُع عليه ، بوجه ظالم غَشُومٍ فتعتريه رهبة ، واضطراب ، من هذا اللقاء ، الذى سيكون بينه وبين فرعون ، فَيضرع إلى ربه قائلا : « ربّ إِنّى أخافُ أن يكذّبون * ويَضيق صَدْرِى ولا ينطلق لسانِى فأرسل إلى هرون * ولهم علىّ ذنب فأخاف أن يقتلون » .

إن هناك أكثر من جهـة يطلع منها الخوف على موسى من فرعون .. ففرعون ظالم جبار ، لايدنو منه أحدٌ إلا افترسه ، كما يفترس الأسد فريسته .. إنه لايُسأل عما يَفْعل ، وما هى إلا كلمة ، أو إشارة تَصْدر منه ، حتى يُمضى زبانيتُه أمره .. وفوق هذا ، فإن موسى مطلوبٌ لفرعون فى دم القتيل المصرى الذى قتله .. إن الأبرياء لاتشفع لهم براءتهم أمام ظلم فرعون وبغيه ، فـكيف بأرباب التهم الذين يقعون ليده ؟ وموسى مطلوب منه أن يمتثل أمر ربّه ، وأنه لممتثل لهذا الأمر ، صادع به ، ولـكنه يسأل الله العون والمدد .. وذلك بأن

يبعث معه أخاه هرون ، وأن يجعله شريكا له فى هذا الأمر ، حتى يشتدّ به أزره ، ويثبت به جنانه ، إذا أخذه هول الموقف ورهبته .

ويتلقى موسى أمداد السماء ، ويستمع إلى قول الحق جلّ وعلا : « كلاّ » أى لن يقتلوك ، « إنا معكم مستمعون » ولن ينالوا منك شيئاً ، فالله معك ، يسمع ويرى .. « فأتيا فرعون » أنت وهارون ، الذى جعلناه رسولا معك إلى فرعون : « فقولا إنّا رسول ربّ العالمين » أى إننا ـ وإن كنا اثنين ـ فنحن شخص واحد ، يحمل إليك رسالة الله إليك .. « أن أرسل معنا بنى إسرائيل » .. فهذه هى رسالتنا التى أمرنا الله بتبليغها إياك ، وهى أن تدع بنى إسرائيل وشأنَهم ، لنمضى بهم إلى حيث يشاء الله ، بعيداً عن محيط ملكك وسلطانك !

وتنتقل الأحداث فى سرعة يُطوى فيها الزمن .. وإذا موسى وهرون وجهاً لوجه مع فرعون ، وإذا بهذه الرسالة قد أعلنت إلى فرعون .. ولا يظهر على مسرح الأحداث شىء من هذا ، وإذا المشهد يعرض فرعون ، وقد جابه موسى بهذه المجابهة التى تمسّ أضعف جانب منه ، ضاربا صفحا عن هرون ، متجاهلا الرسالة التى أفضيا إليه بمضمونها .. فيُلقى إلى موسى بهذه القذائف :

— « ألم نربِّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين » ؟

— « وفعلت فَعْلتك التى فعلتَ وأنت من الكافرين » ؟

فمَنَ أنت حتى تجىء إلينا اليوم فى صورة مبعوث سماوىّ ؟ ألست ربيب نعمتنا ، وغذِىّ فضلنا وإحساننا ؟ فكيف تجىء إلينا من هذا العلوّ ، وتطلب إلينا هذا الطلب ، الذى هو من خاصة شئوننا ، ومن بعض سلطاننا فى رعيتنا ؟

ثم كيف تحدّثك نفسك بالجرأة علينا ، وبالنجاة من عقوبتنا ، وقد فعلتَ

ما فعلت بارتكاب هذه الجريمة ، والاعتداء على أحد رعايانا ؟ أليس هذا كفراً بنعمتنا ، وإحساننا ؟ أليس هذا عدواناً على سلطاننا واستخفافاً بناموسه ؟ .

ويضطرب موسى أمام هذه المفاجأة ، وفى مواجهة هذا الاتهام .. ولكنه يذكر قول الله له .. « إنا معكم مستمعون » .. فيسكن جأشُه ، ويطمئن قلبُه .. ويَرمى فرعونَ ، بأشدّ مما رماه به ..

— « فعلتُها إذاً وأنا من الضّالين .. !!

— « ففررتُ منكم لما خِفتكم .. فوهب لى ربّى حُكماً وجعلنى من المرسلين ..

— « وتلك نعمةٌ تمنّها علىّ أن عبّدتَ بنى إسرائيل ؟

إنه يعتذر من قتل المصرى بأن ذلك كان عن جهلٍ منه ، وضلال .. لأن الله سبحانه وتعالى لم يكن قد خرج به عن هذا الضلال الذى يعيش فيه فرعون ، ومن يضمه سلطانه .. فهذه الفَعلة هى أثرٌ من آثار تلك الحياة التى يحياها المجتمع الفرعونى ، حيث لا حرمة فيه للدماء .. وهكذا يلقى موسى بهذه التهمة فى وجه فرعون ، لأنه هو الذى أرخص دماء الناس ، وأغرى بعضهم ببعض ، وأن موسى قد مسّه شىء من هذا الذى رمى به فرعون المجتمع كله !! وأنه ـ أى موسى ـ حين فرّ من وجه فرعون ، طالباً النجاة لنفسه منه ، وخرج من هذا الظلام المطبق ـ رأى النور ، وأبصَرَ المدى .. وهناك ، فى أفق بعيد عن آفاق فرعون ، تلقى الكرامة والإحسان من ربّه،وتزوّد بزاد طيب كريم ، غير هذا الزّاد الذى تداوله من يد فرعون .. فوهب الله له « حكماً » ـ أى جعل له سلطاناً على بنى إسرائيل ، يقودهم ، ويسوس أمرهم ، وجعله من المرسلين ، إلى هداية الناس ..

وهذه غمزة أخرى ، يغمز بها موسى فرعون ، وأنه إنما تلقى الخير من السماء حين فارق هذا الجوّ المظلم الفاسد ، ولو بقى فيه لما أصاب خيراً أبداً ، ولما كان له هذا السلطان . .

وبهذا السلطان الذى وضعه الله فى يد موسى على بنى إسرائيل ، أقبل على فرعون ، يحاسبه على هذا الجُرم الشنيع الذى أجرمه فى حقّ هذه الجماعة ، التى أصبح ليد موسى أمُرها . . لقد استعبدهم فرعون وأذلهم ، وأن موسى إذا كان قد قتل واحداً من رعايا فرعون ، فإن فرعون قد قتل معالم الإنسانية ، فى هذه الجماعة ، وأحالها إلى قطيع من الحيوان ، الذليل المهين ! !

إن موسى قتل نفساً خطأ من غير قصد . . أما فرعون فقد قتل نفوسا لا حصر لها ، عن عمدٍ وإصرار ! ! .

فإذا كان هناك من يحاسَب ويُدان ، فهو فرعون . . وليس موسى ! .

وهكذا يتحول الموقف ، ويصبح الطالب مطلوباً ، والمدَّعِى متَّهماً . . !

وسنرى بقية المشهد فى الآيات التالية . .

الآيات : (٢٣ — ٣٧)

* « قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ

إن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوٓا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) »

التفسير :

ولا يلتفت فرعون إلى هذه التّهم التى وجهها إليه موسى ، وكأنه يَعُدّ هذا لغواً من القول ، فما كان لموسى أن يحاجّ فرعون ، أو يجادله فيما هو من سلطانه ! إن فرعون لم يسمع شيئاً ! !

ويسأل فرعونُ موسَى ، عن مضمون هذا القول الذى ألقى به إليه ، حين واجهه برسالته ، فقال : « إنا رسول ربّ العالمين » فيقول فرعون :

« وما ربّ العالمين ؟ » مُجهِّلاً هذا الربّ ، منكِّرا ومُنكِراً له : « وما ربّ العالمين » ؟

إنه لا يمكن أن يكون هذا الربّ عاقلاً . . وكيف وفرعون هو الربّ القائم على رقاب العباد ؟ أليس هو القائل : « يـٰأيها الملأُ ما علمتُ لكم من إلٰهٍ غيرى ! » (٣٨ : القصص) .

ويجىء جواب موسى :

* « ربّ السمواتِ والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين » : أى كنتم ممن يطلبون الحقّ ويستيقنونه ! فهذا هو ربّ العالمين .

ويعجب فرعون لهذا الكلام ، ويستثير عجب مَن حوله :

« قال لمن حوله . ألا تستمعون » ؟ . فما هذا اللغو ؟ وما هذا الهذيان ؟ أهناك ربّ غيرى ؟ .

ولا يكاد القوم يتجهون بعقولهم إلى ما يدعوهم إليه فرعون ، حتى يلقاهم موسى بالجواب الذى كان ينبغى أن يلقَوْا به هذا السؤال الذى ألقاه إليهم فرعون ،فى تعجّب ودهش :

* « قال ربّكم وربّ آبائكم الأوّلين » . .

هذا هو الربّ الذى ينكره فرعون ، ويعجب من أمره . . أفتنكرونه أنتم كذلك ؟ فأين عقولكم حتى تنقادوا إلى هذا الضلال ؟ .

ويأخذ فرعون الطريقَ على موسى إلى الملأ . . فيقول لهم :

«إن رسولكم الّذى أُرسل إليكم لمجنون » . . إنّه رسول إليهم ، لا إلى فرعون .. ثم إنه لمجنون يهذى بهذا القول . . فلا تستمعوا إليه ، ولا تأخذوا كلامه إلّا على أنه كلام مجانين ! .

ويردّ موسى على فرعون هذا الاتهام بقوله :

* « ربّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » . .

إنه يدعوهم جميعاً ، ومعهم فرعون ، إلى أن يستمعوا ويعقلوا ، وإنهم لو كانوا عقلاء حقًّا لعرفوا أن لهذا الوجود ربًّا ، وأنه ربّ المشرق والمغرب ، وما بين المشرق والمغرب ، من كائنات .

ويقطع فرعون هذا الجدل ، ويجرد سيف بأسه وسلطانه ، ليفحم موسى ، ويسكته . . فيقول :

* « لئن اتخذت إلٰهاً غيرى لأجعلنّك من المسجونين » . . هكذا منطق القوة الغاشمة . . إنها لا تحتكم إلى عقل ، ولا تخضع لمنطق ، إلّا منطق القهر والتسلّط ! .

وماذا يصنع موسى ، فى مواجهة هذا السلطان الغشوم ؟ إن لفرعون أن يسجنه ، وأن يقتله . . إنه لا يعترض على هذا ، ولكن كلمة أخيرة ، يريد موسى أن يستمع إليها فرعون ، ثم ليفعل ما يشاء . .

* « قال : أو لو جئتك بشىء مبين ؟ » ـ أى أتنفّذ فىّ هذا الحكم ، ولو كان معى شىء مبين ، وحجة واضحة على هذه الأقوال التى استمعت إليها ، وأنكرتها ؟

وهنا يسيل لعاب فرعون إلى هذا السلطان العظيم الذى بين يدى موسى ، وهو يخفيه عنه . . فما هو هذا السلطان ؟ وكيف يكون مع موسى سلطان وفى يد فرعون كل سلطان ؟ أين هو ؟ لابد أن يستولى عليه ، ويضيفه إلى سلطانه . . ! !

وفى لهفة ، وحزم ، وقوة . . يقول فرعون . .

* « فأت به إن كنتَ من الصّادقين ! » .

ولا يقول موسى كلمة .. بل يضرب ضربته فى غير تراخٍ أو تردد . .

* « فألقى عصاه . . فإذا هى ثُعبانٌ مبين . .

* « ونَزَع يدَه . . فإذا هى بيْضاء للناظرين . .

ولا تعرض القصة هنا لما كان من فرعون ، وما لَبِسه من اضطراب وفزع . . فذلك أمر معلوم ، فى مثل هذه الأحوال . . وليس فرعونُ بِدْعاً من الناس ، فيما يطلع عليهم من عالم المجهول .

ويظهر أثر هذا الفزع الذى استولى على فرعون ، فى استنجاده بمن حولَه ، وتعلّقه بهم قبل أن يهوى من هول المفاجأة . . فيشركهم معه فى هذه المعركة ، بل ويجعل إليهمَ لا إليه ـ الرأىَ فيها ، وهو الذى كان يتولى كلَّ شىء ، ويأمر بما يرى . . أما هنا فإنه صاغر ذليل ، يطلب الرأى ، وينتظر الأمر ، ليفعل ما يؤمر به . .

* «قال للملأ حوله .. إنّ هذا لساحرٌ عليمٌ * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ؟ » .

إنه يستسلم للملأ حوله ، ويسلّم بأن الأرض أرضهم ، وقد كانوا منذ قليل هم والأرض مِلكاً خالصاً ليده .

وإذا كانت الأرض أرضهم ، وموسى يريد أن يخرجهم من أرضهم هذه بسحره .. فالأمر إذن أمرهم .. فماذا يرونْ ؟ وبماذا يأمرون ؟

* « قالوا أرْجِهِ وأخاه وابعثْ فى المدائن حاشِرِين * يأتوك بكل سحّار عليم » .

هذا هو الرأى الذى ارتآه القوم فى موسى .. إنه ساحرٌ .. فَلْيَلْقَوْه بسلاح مثل سلاحه .. وليجمعوا له السحرة من كل مكان !

وهكذا انتهى هذا المشهد ، ليبدأ مشهد آخر ، على مسيرة الأحداث المتتابعة للقصة .. كما سنرى فى الآيات التالية :

الآيات : (٣٨ — ٤٢)

« فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ ٱلْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٢) »

التفسير :

وفى هذا المشهد نرى حركات سريعة متلاحقة ، بعضها خفىّ ، وبعضها ظاهرٌ .. ويتشكل من خيوط هذه الحركات صور شتى ، تظهر على مسرح الأحداث ..

فهاهم أولاء السحرة قد جيء بهم من كل مكان، وقد أنذروا بالسحر الذى سيلقونه وبالساحر الذى سيرميهم بسحره، وباليوم المعلوم الذى تلتحم فيه المعركة :

* « فجُمع السحرة لميقات يوم معلوم » .

ثم هاهم أولاء دعاةُ فرعون، ينطلقون بين الناس، يغْرونهم بالاحتشاد لهذا اليوم، وبشهود تلك المعركة . . بين السحرة، وبين الساحر . .

وهذا الحشد للناس .. غايته، هو شدّ ظهر هؤلاء السّحرة، وإلقاء الرعب فى قلب موسى ؛ بهذه الحشود التى تتربص به، وتنتظر الهزيمة له، لتسخر منه أو تفتك به .

* « وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون، لعلنا نتّبع السحرة إن كانوا هم الغالبين » ! .

ثم هاهم أولاء السحرة، يلتقون بفرعون قبل المعركة، ليتلقّوْا كلمته، وليعرضوا بين يديه ما معهم من أسلحة قد أعدوها للقاء هذا الساحر . . ثم إذ ينتهى هذا العرض، يعرضون على فرعون مطلباً خاصًّا بهم، وهو الجزاء الذى سيجزيهم به فرعون إذا هم جاءوا له بالنصر المبين ..

* « قالوا أئنّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين » . . ولا يتردد فرعون فى بذل الجزاء الحسن لهم . . إنه ليس جزاء ماديًّا وحسب ، بل إنهم سيكونون من خاصة فرعون، ومن المقربين عنده « قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين »

وينتهى هذا المشهد، ليُخلى مكانه لمشهد آخر . . تعرضه الآيات الآتية :

الآيات : (٤٣ — ٥١)

* « قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ

عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓا آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥١) »

التفسير :

وينتقل المشهد إلى خارج المدينة ، حيث احتشد الناس ، ليشهدوا هذا اليوم العظيم . .

وفى ميدان المعركة ، التقى موسى بالسحرة . . ثم ماهى إلا كلمات يتبادلها الطرفان ، حتى يلتحم القتال . . ويدعو موسى السحرة إلى أن يبدءوا المعركة ، وليصدموه الصدمة الأولى بكل مامعهم . .

* « قال لهم موسى . . ألقوا ما أنتم ملقون » . .

ويلقى السحرة كل أسلحتهم . . !

* « فألقوا حبالهم وعصيّهم وقالوا بعزّة فرعون إنا لنحن الغالبون » !

إن كل مامعهم هى حبال وعصىّ ، شكلوها على صفات خاصة ، حتى إذا ألقوا بها اضطربت اضطراب الأفاعى والحيّات . . فلما ألقَوْها ، أطلقوا وراءها مشاعر إيمانهم بفرعون ، واستمدادهم القوة من قوته . . وهم بهذا الشعور لا بسحرهم ـ سيغلبون ، وينتصرون !

ولا يذكر القرآن هنا ماذا كان لهذه الحبال وتلك العصى من أفاعيل ، وما كان لها من آثار فى مشاعر الناس ، وفى موسى نفسه . . وقد ذكر القرآن

ذلك فى مواضع أخرى . . فقال تعالى فى سورة الأعراف : « فلمَّا ألقَوْا سحروا أعيُنَ الناسِ واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم » (الآية : ١١٦) .

وقال فى سورة طه ، عما وقع فى نفس موسى من هذا السحر : « فأوجس فى نفسه خيفةً موسى » (الآية : ٦٧) .

* « فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف مايأفِكُون » .. والإفك : ما كان من واردات الضلال والبهتان . .

وهكذا فى لمحة خاطفة ، يتبدد هذا السراب ، وتختفى أشباح هذا الضلال . وإذا موسى وقد مَلَكَ الموقف ، واستولى على كل مافى الميدان من مغانم . . !

وإذا هذا الهرْج والمرْج ، وهذا الصخب والعجب ، يتحول إلى صمت رهيب ، وسكون موحش ، لايقطعه إلا السحرة ، وقد استبدت بهم نشوة غامرة ، وغشيتهم صحوة مشرقة ، وإذا هم يخرجون من أحشاء هذا الصمت الرهيب ، ويتحركون فى وسط هذا السكون الموحش .

* « فألقى السَّحرة ساجدين * قالوا آمنا بربّ العالمين * ربّ موسى وهرون . . » !

ويعود الهرْج والمرْج ، وتختلط أصوات الاستهجان بالاستحسان ، ثم تخمد الأنفاس فجأة ، وتحتبس الكلمات على الألسنة ، وتموت المشاعر فى الصدور ، ويفيق القوم من وقع هذه الصاعقة ، إذ يذكرون أنهم فى حضرة « فرعون » فتتعلق به الأبصار . . ليطلّ الناس منها على مايصنع فرعون ، أو يقول .

والحساب هنا مع السحرة أولا ، الذين خذلوا فرعون ، وأذلوا كبرياءه ، وأعلنوا فضيحته على الملأ .

* « قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلَسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين » ؟

إن خذلانهم على يد موسى ، ليس هو الأمر الذى ينظر إليه فرعون الآن ، ويحاسب السحرة عليه . . لأنه رأى بعينه ، هذه القوى القاهرة التى بين يدى موسى ، والتى لاقِبَلَ لبشر بمواجهتها . . ولكن الذى يعنيه من أمر السحرة فى هذا الموقف ، هو خروجهم عن أمره ، ومتابعة موسى من غير إذن منه ؟ إذ كيف يكون لهم وجود خاص ، وكيف يكون لعقولهم ومشاعرهم سلطان عليهم مع سلطانه ؟ إنه يملكهم ويملك ووجودهم الخارجى والداخلى جميعاً ! !

— « آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ » إنها مؤامرة مدبرة ، ومكر مبيت بينكم وبينه . . إنه الساحر الأكبر ، الذى علمكم السحر . . وهكذا استجبتم له ولم تخرجوا عن سلطانه عليكم ، شأن التلميذ مع أستاذه . .

« إنه لكبيركم الذى علمكم السحر . . فلسوف تعلمون » ! !

ولا ينتظر ، حتى يعود إلى كرسىّ سلطانه ، ويقدّمهم للمحاكمة . . بل إنه يقيم المحكمة فى موقع الجريمة ، وينفذ الحكم على أعين الجماهير التى شهدت الحادثة ، حتى يكون فيها عبرة وعظة . . إنه يضرب والحديد ساخن كما يقولون . .

« لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ! » .

وإذا وقع الإيمان فى القلب موقعاً صحيحاً ، وجاء إليه عن حجة قاطعة ، وبرهان ساطع ، لم تستطع قوى الأرض كلها مجتمعة أن تنتزع هذا الإيمان ، أو تزحزحه من موضعه . .

وبهذا الإيمان يَلْقَىَ السحرةُ تهديد فرعون ووعيده فى استخفاف ، وغير مبالاة . . إن كل شىء هيّن ، ما داموا قد حصلوا على الإيمان ، وأنزلوه هذا المنزل المكين من قلوبهم . .

* « قالوا لا ضير » . . أى لا ضيم ، ولا خسران علينا ، إذا ذهب من بين أيدينا كل شىء ، ولو كانت حياتنا ، وسلم لنا إيماننا الذى أشرقت شمسه بين جوانحنا .

* « إنا إلى ربنا منقلبون » . .

فلتذهب هذه الحياة غير مأسوف عليها . . فإن لنا حياةً أخرى ، أفضل ، وأكرم . . إنها حياتنا الآخرة . . والآخرة خير وأبقى . . !

* « إنا نطمع أن يغفر لنا ربّنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين » . .

إننا بإيماننا هذا نفتح طريقا من النور وسط هذا الظلام الكثيف ، فيهتدى بنا الضالون الحائرون . . وبهذا نطمع فى مغفرة ربنا ، لما كان لنا من خطايا فى السير معك على طريق الضلال . .

ثم ينتهى هذا المشهد ، ويخيل المشاهد أن المعركة قد انتهت . . وأن فرعون قد جمع وجوده الممزّق ، وجرّ وراءه فَلّه المهزوم . . ولكن الأحداث تتصل ، وتأخذ مسرحاً آخر غير هذا المسرح . . كما سنرى فى الآيات التالية . .

الآيات : (٥٢ — ٦٨)

* « وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ

ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦٨) »

التفسير :

لم تكن تلك المعركة التى أقامها فرعون بين موسى والسحرة ، والتى انتهت بتلك الهزيمة المنكرة للسحر والساحرين ـ لم تكن هذه المعركة ، لتحسم الموقف بين موسى وفرعون ، فما زاد فرعون بعدها إلا كفراً ، وكبراً ، واستعلاءً ، وإلا ضراوة وبَغْياً وعدواناً على بنى إسرائيل .. !

وإذا لم يكن فى هذه الحرب السافرة ، وفى الآية الكبرى التى رآها فرعون رأى العين ، ما يقيم له دليلاً على أن موسى مرسل من ربّ العالمين ، وأن سلطان هذا الربّ سلطان عظيم ، يخضع له كل ذى سلطان ـ فقد قامت من وراء هذه الحرب حربٌ خفية ، لا يرى الناس مشاهدها ، ولكن يشهدون آثارها .. إنهم لا يرون سيوفاً تُسَلُّ ، ولا حِراباً تُشْرع ، ولكن يَرَوْن رُءوساً تقطع ، وجراحاً تفور ، ودماء تسيل ، وأشلاء تتمزق وتتطاير .. !

فلقد سلّط الله على فرعون وملائه ألواناً من البلاء ، وصب عليهم مُرْسَلاتٍ من النقم ، وأخذهم بها حالا بعد حال ، وواحدة بعد أخرى .. فما استكانوا ، وما تضرّعوا ، وما لانت منهم القلوب ، ولا استنارت البصائر .. وفى هذا يقول الله تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم

يذكرون * فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون * وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين * فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم . آياتٍ مفصلات . فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين » . (١٣٠ — ١٣٣ : الأعراف) ..

وكان فرعون كلما نزلت به نازلة طلب إلى موسى أن يَدْعو إلٰهه بأن يرفع هذا البلاء ، وفى مقابل هذا سيؤمِن به فرعون ، ويُرْسل معه بنى إسرائيل.. وفى هذا يقول الله تعالى : « ولما وقع عليهم الرّجز قالوا يا موسى : ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل » (١٣٤ : الأعراف) .

ولكن ما إن يرفع البلاء ، وتسكن العاصفة ، حتى يعود فرعون إلى سيرته الأولى ، فيصب على بنى إسرائيل نقمته ويزيد فى قهرهم وإذلالهم، ضراوة وقسوة .. « فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون » (١٣٥ : الأعراف) ..

فيشتد بهذا البلاء على بنى إسرائيل ، وتزداد محنتهم ، كما يقول الله تعالى على لسانهم إلى موسى : « قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون» (١٢٩ : الأعراف) .

وفى ضوء هذا نستطيع أن نفهم قوله تعالى :

* « وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون » .. وأن هذا الأمر من الله سبحانه وتعالى إلى موسى ، لم يكن بعد التقاء السحرة بموسى

وإيمانهم به مباشرة . وإنما كان ذلك بعد زمنٍ ، رأى فيه فرعون هذه الآيات من النقم والبلايا .. حتى إذا بلغ الكتاب أجله ، أمر الله موسى أن يسرى بقومه ليلا وأن يخرج بهم من مصر ..

— وفى قوله تعالى : «إنكم متبعون» إشارة إلى أن يأخذ موسى وقومه حِذرهم ، وأن يخرجوا من مصر فى خفيةٍ وحَذَرٍ ، فإن عيون فرعون ترقبهم ، ولهذا جاء الأمر بأن يكون خروجهم ليلا ، من غير أن يراهم أحد ..

قوله تعالى :

* «فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين * إن هؤلاء لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجميع حاذرون » ..

لقد كان فرعون فى أثناء هذه البلايا التى صبت عليه — يُعدّ العُـدة ليضرب بنى إسرائيل ضربة قاضية ، فأرسل رسله فى البلاد يُغْرون الناس ببنى إسرائيل ، ويحذرونهم الشر الذى ينجم عن وجودهم بينهم ، وأن هذه الجماعة ، وإن كانت شرذمة ، أى جماعة مفرقة ، متناثرة هنا وهنا ـ إلا أنه يجب الحذر منها ، والانتباه إلى خطرها ..

قوله تعالى :

* « فأخرجناهم من جناتٍ وعيون * وكنوزٍ ومقام كريم * كذلك وأورثناها بنى إسرائيل » .

يكاد يُجمع المفسرون هنا على أن إخراج فرعون وقومه من هذه الجنات والعيون ، إنما كان بغرقهم وهلاكهم ، حين تبعوا بنى إسرائيل ، وعبروا وراءهم البحر ، فأطبق عليهم وأغرقهم .. ثم يقولون : إن بنى إسرائيل قد عادوا إلى مصر مرةً أخرى ، بعد أن رأوا ما حلّ بفرعون وقومه ، وأنهم ورثوا ما كان فى يد فرعون وقومه !

وهذا ، مخالف لصريح آيات القرآن الكريم ، التى تحدثت فى أكثر من موضع عن حياة موسى وبنى إسرائيل فى الصحراء ، وتيههم فى الصحراء أربعين سنة ، بعد أن أمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة ، فأبوا ، وخافوا أن يدخلوها على أهلها ، وقالوا : « ياموسى إنّ فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » (٢٢ : المائدة) وقالوا « إنّا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهبْ أنت وربُّك فقاتلا إنّا هٰهنا قاعدون » (٢٤:المائدة) .

ثم كيف يكون مع بنى إسرائيل من المشاعر مايُلْفِتهم إلى مصر مرة أخرى ، وقد ابسهم فيها الذل والهوان ، وسكن إلى كيانهم الرعب والفزع ؟ ذلك بعيد بعيد ! ! وهل إذا غرق فرعون وجنوده .. هل خَلَت مصر من أهلها ؟ وهل خَلَت البلاد من الجنود ؟

ثم إن التاريخ يؤيد هذا ، ويشهد بصدق القرآن الكريم ، وأنه لم تكن لبنى إسرائيل عودة إلى مصر ، بعد أن خرجوا منها فارين مذعورين ..

— أما قوله تعالى : « فأخرجناهم من جنّاتٍ وعيون * وكنوز ومقام كريم » فهو — والله أعلم — ما كان من نقم الله التى حلّت بفرعون وملائه .. من جَدب ، ونقص فى الثمرات ، ومن طوفان ، وجراد وقمّل .. فهذه النقم قد سلبت القوم ما كان فى أيديهم من نعم ، فأحالت الخصب جدباً ، والنعيم والرفه بلاء وكرباً .. وبهذا كان خروجهم مما كانوا فيه من جناتٍ وعيون ، وكنوز ومقام كريم .. على حين أن بنى إسرائيل لم يمسهم شىء من هذا البلاء ، وهم يعايشون المصريين ، ويحيون معهم ، فكأنهم بهذا ، قد ورثوا ما كان فى أيدى المصريين،من هذه النعم والكنوز ! إذ كانوا هم الذين يأخذون بحظّهم منها ، على حين حُرمها فرعونُ والملأُ الذين معه . .

ولهذا جاء ذكر خروج بنى إسرائيل من مصر بعد هذا الميراث لاقبله ، كما ترى ذلك فى قوله تعالى بعد هذا :

* « فأتبعوهم مشرقين » .. أى متجهين جهة الشرق ..

* « فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون » .. أى فلما رأى الجمعان ـ جمع فرعون ، وجمع بنى إسرائيل ـ بعضهم بعضاً . . قال أصحاب موسى : إنا لمدركون .

* « قال كلا .. إن مَعِيَ ربى سيهدين ..

* « فأوحينآ إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر .. فانفَلق .. فكان كل فرق كالطود العظيم » ..

* « وأزلَفْنا ثم الآخرين .. » أى جذبناهم إلى البحر ، وأغرقناهم ، « ثَمَّ » أى هناك و « الآخرين » فرعون وقومه ، إذ كانوا فى المؤخرة من القوم .

* « وأنجينا موسى ومن معه أجمعين » .

وهكذا تختتم القصّة ، فيغرق فرعون وجنوده ، وينجو موسى ومن معه ولاَ تذكر لبنى إسرائيل عودة إلى مصر ، ولو كان ذلك لما غفل القرآن الكريم عن ذكره ، إذ أن ذلك لا يكون إلا بعد أن يضرب موسى بعصاه البحر مرةً أخرى ، فينفلق .. ويكون ذلك آيةً لا يُغفل القرآن ذكرها ..

هذا ، وقد جاء فى أكثر من موضع من القرآن الكريم ، ذِكر ميراث بنى إسرائيل ، لما ورّثهم الله إياه ، سابقاً لخروجهم من مصر ، ونجاتهم من يد فرعون .

ففى سورة الأعراف يجىء قوله تعالى : « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارِقَ الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » .. ثم يجىء بعد ذلك مباشرة قوله تعالى : « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر » (الآيتان : ١٣٧ ـ ١٣٨) .. وفى سورة الدخان .. يقول الله تعالى :

عن فرعون وملائه : « كم تركوا من جناتٍ وعيون * وزروع ومَقام كريم * ونعمةٍ كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين * فما بكت عليهم السمآء والأرض وما كانوا مُنظرين » .. ثم يجىء بعد هذا قوله تعالى : « ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذابِ المهين * من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين » الآيات: (٢٥ ـ ٣١) ..

فالميراث الذى تتحدث عنه الآيات فى هذه المواضع ، كان ميراث ما فى أيدى المصريين من خيرات مصر ، التى سلط الله عليها آفاتٍ تحرمهم الانتفاع بها ، على حين كان ينتفع بها بنو إسرائيل ، إلى أن خرجوا من مصر .. وتلك آية من آيات الله ، حيث تجتمع النعمة والنقمة فى الشىء الواحد .. تتناوله يد ، فيتحول فيها إلى نقمة ، وتمسك به يد أخرى ، فإذا هو نعمة !

ولا يدفع هذا ، ماوصفت به الأرض فى قوله تعالى : « التى باركنا فيها » إذ قد يقع فى بعض الأفهام أن « البَرَكة » تعنى أرضاً مخصوصة ، هى الأرض المقدسة .. وفى رأينا أنه إذا اجتمع للأرض المقدسة ، القداسة والبركة ، فإنه لاينفى أن يشاركها غيرها بعضَ صفاتها ، فقد وصف البيت الحرام بأنه مبارك وهدًى للعالمين ، كما يقول تعالى : « إن أول بيتٍ وُضِعَ للناس للذى ببكة مباركاً وهدًى للعالمين » (٩٦ : آل عمران) . ومصرُ بلد مبارك ، لاشك فى هذا .. فقد رُبى فى حجره ، النبيان الكريمان موسى وعيسى عليهما السلام .. حتى إذ طلعت شمس الإسلام كان مصر البلد المبارك الذى سبق إلى الإسلام ، وأمدّ بخيراته المسلمين ، وأعزّ برجاله جيوش المجاهدين .. ثم كان بعد هذا حمى الإسلام وملاذه فى الشدائد والمحن ، كما كان ـ ولايزال ـ الحفيظَ الأمين على شريعته ولُغته ، حيث ينشر علوم الشريعة فى آفاق الإسلام ، ويفِد إليه طلاب علوم الدين واللغة من كل قطر ، فينهلون من المعارف ، ثم يعودون إلى أقوامهم أساتذةً معلمين ، وهداةً مرشدين ..

فهل كثير على مصر بعد هذا أن توصف أنها البلد المبارك ؟ وأى بركة أعظم من أن تكون مصر هى اليوم مركز الإسلام ، والراية التى يجتمع إليها المسلمون ؟

وإذا لم يصح الحديث بأن : « مصر كنانة الله فى أرضه ، من أرادها بسوء قَصمه الله » . فإنه يصح كلمحة من لمحات الغيب ، كشف عنها قلبُ مؤمنٍ ، ونطق بها لسان صِدّيق !!

* * *

وقد آن لنا بعد هذا ، أن نقف وقفة ، عند التكرار فى القصص القرآنى ، وما يقال فيه ، وأن نجعل من تكرار قصة موسى فى القرآن مثلا لهذا التكرار إذ كانت تلك القصة أكثر القصص القرآنى تكراراً ..

[التكرار فى القصص القرآنى [(1)]]

التكرار فى القصص القرآنى ظاهرة واضحة ، مُلفِتة للنظر ، وداعية الكثير من التساؤل والبحث ..

وقد وجد أصحاب الأهواء ، ومرضى القلوب ، من الملحدين وأعداء الإسلام فى هذا التكرار مدخلا ملتوياً ، يدخلون منه على هذا الدين ، للطعن فى القرآن الكريم ، والنيل من بلاغته ، وإسقاط القول بإعجازه،وليقولوا إن هذا التكرار قد أدخل الاضطراب على أسلوب القرآن ، وجعله ثقيلا على اللســان وعلى السمع معاً ..ثم يُخلُصُون من هذا إلى القول بأن أسلوب القرآن ليس على المستوى البلاغى الرفيع ، الذى يتسع للدعوى التى يدعيها له المسلمون بأنه معجز

(1) اقرأ فى هذا كتابنا : القصص القرآنى .

وبأنه منزل من السماء ، من كلام ربّ العالمين ! ثم يتمادون فى هذا الضلال ، فيقولون : إن هذا الخلط الذى وقع فيه التكرار ، إنما هو أثر من آثار تلك الأحوال النفسية التى كانت تنتاب محمداً ، فتخرج به عن وعيه ، وتجيء الكلمات التى ينطق بها فى تلك الحـــال ، مردّدة مقطعة ، كما يقع هذا للمحمومين والمصروعين ، وأنه لايكاد يبدأ القصة حتى ينصرف عنها ، ثم يذكرها فيعود إليها ، ثم ينصرف عنها .. وهكذا ..

وإن الذين يقولون هذا القول ، أو يحكونه عنهم ، هم أعاجم أو أشباه أعاجم ، لم يذوقوا البلاغة العربية ، ولم يتصلوا بأسرارها .. ولو أنهم رُزقوا شيئاً من هذا لما اتسع لهم باب الخروج عن الحياء ، لأن يقولوا هذا القول ، وأن ينطقوا بهذا البهتان العظيم ، ولردّهم أقلّ الحياء أن يقولوا قولا لم يقع فى حساب « قريش » نفسها ، وهى تتصيد التهم والمفتريات على القرآن الكريم ، وحتى لقد بلغ بها الأمر فى هذا ، أنها لو وجدت زوراً من القول لقالته فيه ، ورمته به .. ولكن الزور نفسه أعياها أن تمسك به ، فى وجه هذا الحق المشرق المبين .

فكان أكثر قول القوم فيه ماحكاه القرآن عنهم : « وقالوا إن هذا إلاّ إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون » .

وقد ردّ عليهم القرآن هذا القول ، فقال تعالى : « فقد جاءوا ظلماً وزوراً » .

وإذا لم يكن لقريش أن تقول هذا القول ، فى وجه عداوتها وحربها للنبىّ ، وهى مرجع الفصاحة والبلاغة وموطنهما ، فكيف يُساغ هذا القول من أعاجم وتلاميذ أعاجم ؟ إن ذلك لهو الضلال البعيد .

وندع الردّ على هذه المفتريات ، ويكفى أن نعرض وجوهاً من هذا التكرار ، لنرى مايطالعنا من بعض أسراره ، التى هى وجه من وجوه إعجازه ، وفيها الرد أبلغ الردّ على هذا الضلال المبين .

ماداعية هذا التكرار :

كانت هذه الظاهرة ـ ظاهرة تكرار القصص القرآنى ـ على تلك الصورة الواضحة ، مما استرعى أنظار العلماء إليها ، وحرك عقولهم وألسنتهم للكشف عن أسرارها ودواعيها ..

فهذا أبو بكر الباقلانىّ ، يقول فى كتابه « إعجاز القرآن » :

إن إعادة القصّة الواحدة بألفاظ مختلفة ، تؤدّى معنًى واحداً ـ من الأمر الصعب ، الذى تظهر فيه الفصاحة ، وتَبِين البلاغة » .

وهو يريد بهذا القول أن يقول : إن عرض الموضوع الواحد بأساليب مختلفة من القول ، دون أن تتغيّر معالمه ، ودون أن يضعف أسلوب عرضه ، هو من العسير ، الذى لايقدر عليه إلا من كان ذا مَلَكة بيانيّة ، واقتدار بلاغى ، وذلك فى حدود لونين أو ثلاثة من ألوان العرض ، فإذا جاوز ذلك اضطرب الأسلوب ، وبَهتت المعانى ، إلا أن يكون ذلك من تدبير الحكيم العليم .. رب العالمين .

ثم يقول « الباقلانى » :

« وأعيدَ كثير من القصص (القرآنى) فى مواضع مختلفة ، ونُبّهوا ـ أى العرب ـ بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله ، مبتدأ ، ومكررا » .

ويريد الباقلانى بهذا ، أن يقرر : أن من صور التحدى الذى عجز العرب عنه ، إزاء القرآن ، هو عرض القصص القرآنى ، عرضا متفاوتا بين الطول والقصر ، والبسط والقبض ، وقد وسّع عليهم بهذا مجالَ المعارضة والمحاكاة .. فلم يكن منهم إلاّ العجز والاستخزاء !

وهذا القول من « الباقلانىّ » لايكشف عن السرّ الذى نراه فى التكرار

الذى جاء عليه القصص القرآنى ، والذى سنعرض له ، بعد أن ننظر فى بعض الآراء الأخرى ، التى عرضها أصحابها فى هذا المقام .

ويقول « الزركشى » فى كتابه : « البرهان فى علوم القرآن » :

« ومنه ـ أى من التكرار ـ تكرار القصص فى القرآن ، كقصة إبليس فى السجود لآدم ، وقصة موسى ، وغيره من الأنبياء .. قال بعض العلماء : ذَكَرَ الله موسى فى القرآن فى مائة وعشرين موضعاً » !!

ثم يكشف الزركشىّ عن وجوهٍ لبعض أسرار هذا التكرار فيقول :
« وإنما كرّرها ـ أى القصة ـ لفائدة خَلَتْ عنه فى الموضع الآخر ، وهى أمور :

أحدها : أنه ـ أى القرآن ـ إذا كرر القصّة زاد فيها شيئاً .. ألا ترى أنه ذكر « الحيّة » فى عصا موسى عليه السلام ، وذكرها فى موضع آخر ثعباناً ؟ .

ثم يذكر الزركشى أمرين آخرين . . نتجاوزهما إلى ما بعدهما . .

الرابعة : إبرازُ الكلام الواحد فى فنون كثيرة ، وأساليب مختلفة ـ لايخفى مافيه من الفصاحة !

الخامسة : أن الله سبحانه أنزل هذا القرآن ، وعجز القومَ عن الإتيان بمثل آيه ، لصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بيّن وأوضح الأمر فى عجزهم ، بأن كرر ذِكر القصة فى مواضع ، إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله ، بأى نظم جاءوا ، وبأى عبارة عبّروا » .

والإشارة المقتضبة التى أشار إليها الزركشى ، وكأنها جاءت عفواً من غير قصد فى قوله : « إنه ـ أى القرآن ـ إذا كرر القصة زاد فيها » ـ هذه الإشارة هى فى نظرنا أبرز داعية من دواعى التكرار فى القصص القرآنى ، وأوضح وجه يُطلّ علينا منه ..

ولم يذكر « الزركشىّ » مالهذه الزيادة من قيمة فى عرض القصة ، وفى

إبراز مايراد إبرازه من أحداثها ، واكتفى بالقول : بأن القرآن كلما كرّر قصة جاء فيهـا بجديد لم يكن موجوداً فى العرض الأول ، أو الثانى أو الثالث . . وهـكذا . .

دعوى وبرهانها :

والدعوى التى ندّعيها لداعية التـكرار فى القصص القرآنى ، وفى كل تـكرار فى القرآن الـكريم ـ هى أن هذه الصور المـكررة يُـكمّل بعضها بعضاً ، وأنها فى مجموعها تعطى صورة واضحة ، كاملة ، مجسِّمة ، أو شبه مجسِّمة للحدث ، وأن مايبدو من أنه اختلاف بين المقولات ، فى الواقعة ، الواحدة ، أو الحدَث الواحد ، ليس إلا تجميعاً لمتناثر الأقوال من هذه الواقعة أو ليس إلا التقاطاً لظاهر القول ، وما يكمن وراءه من خواطر وخلجات ، لايستطيع أن يمسك بها إلا النظم القرآنى وحده ، على هذا الأسلوب من التـكرار الذى جاء به . .

فالتـكرار الذى يحدث فى بعض مشاهد القصة القرآنية ، يؤدّى وظيفة حيويّة ، فى إبراز جوانب لايمكن إبرازها على وجه واحد من وجوه النظم ، بل لابدّ أن تُعاد العبارة ، مرّة ومرّةً ، لـكى تَحْمِل فى كل مرة بعضاً من مُشَخّصات المشهد ، وإن كانت كل عبارة منها تعطى صورة مقاربة للمشهد كله .

ولنا أن نشبه ذلك ـ على بعـــد مابين المشبّه والمشبّه به ـ بالتصوير « الفتوغرافى » والتصوير « السينمائى » أو « التليفزيونى » ..

فى التصوير « الفتوغرافى » .. اللقطة الواحدة تصوّر المشهد كله ، تصويراً كاملا .. صامتاً ..

والصورة هنا ، وإن أعطت جميع ملامح المشهد ، فإنها تحتاج فى قراءتها

إلى مهارة وحذق للكشف عن مضمونها ، أو بعض مضمونها .. إذ كانت إنما تكشف المقطع السّطحى للحدث ، أو الجسم الذى تصوّره .. منقطعاً عن الحركة ، والتجسيد .

أما الصورة السينمائية ، فإنها تتشكل من مئاتٍ وآلاف من « اللقطات » حتى تتجسم الأحداث والشخوص ، وتتكشف كل خافية كانت مختفية وراء الصورة « الفتوغرافية » ، فإذا هى تجمع بين الحركة والتجسيد ..

إن تكرار الأحداث القصصية فى القصص القرآنى ، هو إعجاز من إعجاز القرآن الكريم ، تتجلّى فيه روعة الكلمة وجلالها ، بحيث لايُرى لها وجه فى أية لغة ، وفى أية صورة من صور البيان ، يقارب هذا الوجه ، فى جلاله ، وروعته ، وسطوته .

وهل شهدت الحياة « الكلمة » تؤدّى مايؤديه العمل « السينمائى » اليوم فى نقل المشاهد والشّخوص بأبعادها الثلاثة : (طولها ، وعرضها ، وعمقها) ، وبحركاتها ، وسكناتها ، ونطقها ، وصمتها ؟ وكم تتكلف السينما لهذا العمل من لقطات ؟ مئات وألوفاً ! !

أما النظم القرآنى ، فإنه يعرض المشاهد بأبعادها ، وأعماقها ، وحركاتها ، وسكناتها ، وبنطقها وصمتها ، وبوسوسة خواطرها ، وهجسات نفوسها ، وخلجات قلوبها ، ثم لا يكون ذلك كله إلا بعدد محدود من اللقطات ، لا يكاد يتجاوز أصابع اليد عدًّا .

ومن تدبير القرآن الكريم فى هذا ، أنه لم يجمع هذه « اللقطات » فى معرض واحد ، حتى لاتتراكب وتتراكم ، بل جعلها موزعة فى مواضع متباعدة أو متقاربة فى القرآن الكريم ، بحيث يمكن أن تستقل كل « لقطة » منها بذاتها مستغنية عن كل تفصيل ، ثم بحيث لو نظر ناظر إليها من خلال « اللقطات »

الأخرى المماثلة أو المناظرة لها ، لوجد منها جميعاً تجاوباً ، واتساقاً ، وائتلافاً . . حتى لـكأنها اللحن الموسيقى يتألف من أنغام شتى ، تجمعها الوحدة التى يسير فى مجراها اللحن .

اعتراضات وتمويهات :

وهناك اعتراضات كثيرة ، يلقيها بعض الدارسين والباحثين فى وجه القول الذى عليه المسلمون فى شأن القصص القرآنى ، وأن هذا القصص هو تسجيل لأحداث واقعة ، وأنه ـ لـكى يقصّ الحق ـ جاء بالأحداث كما وقعت ، دون أن يدخل عليها بشىء من التحويل والتبديل ، أو الزيادة ، والحذف ، حتى لايغير من وجوهها ، أو يخرجها عن أن تـكون حقًّا . .

وتتلخص هذه الاعتراضات ، فى القول باستحالة نقل أى حَدَث من الأحداث مع جميع ملابساته . . فهناك كثير من الأمور التى تصحب وقوع الحدث ، ثم لايكون لها ذكر ، إذ لا حاجة إليها فى عرض المحتوى المشخِّص له .

ولو أنّ نقل الحدث كان يعنى الإمساك بكل جزئية من جزئياته ، لـكان ذلك — على استحالته — ضربا ، بل ضروبا من العبث ، الذى يدعو إلى الملل والسآمة ، ويذهب بكل مافى النفس من طاقات الاحتمال لهذا اللغو والسُّخف ! .

تصوّر ـ مثلا ـ حادثة عابرة ، من الحوادث التى تقع وتتـكرر كل يوم ، بل كل ساعة ، على مرأى ومشهد من الناس ، ولـكن « سيارة » صدمت شخصاً ما ، طفلا ، أو رجلا ، أو امرأة ، فى أحد شوارع القاهرة ، وفى وقت من أوقات ازدحامها بالحركة والحياة .

وانظر . . أتستطيع قوة بشرية أن ترصد مجريات هذا الحادث ، وتمسك بكل قريب وبعيد منه ؟ .

السيارة . . لونها ، وشكلها ، ورقمها . . وسائقها . . هيئته ، وطوله ، وعمره ، وزيه . . ثم الشخص الذى صُدم ، وأين كانت الصدمة ، ومدى آثارها ثم اجتماع الناس ، والتفافهم حول الحادثة ، ثم بعض ما كان من تعليقات عليها . . ثم عملية رجال الشرطة والإسعاف . . ثم انجلاء الموقف وعودة الحياة إلى سيرتها فى هذا المكان .

ذلك أقصى ما يمكن أن يمسك به إنسان من شهود هذه الحادثة ، وما دار فى محيطها .

وإن ذلك لقليل إلى كثير جداً ، مما وقع هناك ، ولم يلتفت إليه أحد ، ولم يكن فى حساب أحد . .

فكم من الناس من شهدوا هذا الحادث مثلا ؟ وكم الذكور وكم الإناث منهم ؟ وكم الصغار وكم الكبار ؟ وما أسماؤهم ؟ وماذا يلبس كل واحد ؟ وأين يسكن ؟ وأين يعمل ؟ ثم ما شأن كل واحد من شهود هذه الحادثة ؟ إلى أين كانت وجهته ؟ وماذا تركت الحادثة فى نفسه ؟ وهل انطلق بعدها إلى غايته ، أم صرف نفسه إلى غاية أخرى ؟ . . وهكذا . . وهكذا . .

إن لكل إنسان من هؤلاء قصة طويلة ، لا تكاد تنتهى . .

وهل ينتهى الأمر من هذه الحادثة عند هذا الحد ؟ كلا . . فهناك مئات ، بل ألوف من الأمور الصغيرة أو الكبيرة ، التى تتصل بهذه الحادثة ، يمكن أن يجتمع من أىٍّ منها كتاب ضخم ، لو تَتَبَّعها متتبع ، ثم يبقى بعد ذلك كثير من

مجريات الأمور قد أفلت منه، ولم يقدر على الإمساك به، ولو استعان بمئات من الأشخاص والأدوات المسجلة والمصورة .

وهذا يكشف لنا عن أمرين :

أولهما : استحالة نقل الحَدَث، مهما صَغُر، نقلاً كاملا بملابساته جميعها، مما حواه زمانه، واشتمل عليه مكانه .

وثانيهما : أن نقل الملابسات التى تتلبس بالحادث ـ على فرض إمكانها ـ لاداعية إليه فى التعرف على وجه الحادثة، والاستدلال على مشخصاتها، والوقوف على ما يحتاج إليه منها، إذ يكفى من هذه المشخصات ما يصور الملامح الواضحة، للحادث، ويشخّصه .

* * *

وبَدَهِىّ أن القصص القرآنى إذ ينقل صوراً من أحداث الماضى، فإنه لا ينقل كل ما تلبّس بها من قريب وبعيد، وإنما يأخذ منها ما كان ذا دِلالة واضحة عليها، فى الكشف عن الوجه المعبر منها عن الحدث، والمضمون الذى اشتمل عليه . .

وإذا كان ذلك كذلك فى القصص القرآنى، فإنه يعنى أن هذا القصص لم يجىء بالواقع كله، بل أخذ منه بعضاً وأعرض عن بعض، ويعنى أيضاً أن هناك تفاوتاً واختلافاً كثيراً أو قليلاً بين هذا القصص وبين الواقع . .

وهذا يعنى — مرة ثالثة — أن القصص القرآنى مغاير للواقع على نحو ما .

وهذا يعنى — مرّة رابعة — أن هذا القصص قد تصرّف فى الأحداث، كما يتصرف القصصىّ فى الأحداث الواقعة، حين يؤلف منها قصة من

القصص ، أو رواية من الروايات . . وهذا يعنى أخيراً أن أنباء القصص القرآنى ،ليست هى الواقع ـ كما وقع، أو بعبارة أخرى أنها ليست الصدق كلّ الصدق !!

هذا مدخل من المداخل التى رآها بعض الباحثين آذنةً لهم بالقول بأن القصص القرآنى ـ شأنه شأن القصص الأدبى ـ لم يقف عند حدود الأحداث الواقعة ، بل تصرف فيها على الوجه الذى يقيم منه قصصاً « فنيًّا !! » . . الأمر الذى جعله يغير من وجوه الواقع ، ويخرج به على غير مألوف الحياة ، حتى تجد النفس إقبالا عليه ، لِما فيه من جِدّة وغرابة ، ولما فى الجِدّة والغرابة من طرافة !!

هكذا يذهب هذا التصور المريض، الذى يقع فى نفوس أهل الغفلة عن جلال الله وقدرته ، يذهب بهؤلاء السفهاء أن يجعلوا الله سبحانه وتعالى ، مع الأدباء والقصاصين ، على كفتى ميزان ، حتى ليضطر الخالق — كما يضطر المخلوقون — إلى خلط الحق بالباطل ، وتزويق الحقيقة بالخيال ، وتمويه الواقع بالكذب والاختلاق ، حتى يكون له طعم جديد ، غير ما اعتاد الناس تذوقه من طعوم الحياة وواقعها !!

وماذا بقى لله سبحانه وتعالى إذن من تفاوت بينه وبين خلقه ؟

أفتعجز كلمات الله عن أن تمسك بالصدق ، وتشتمل عليه ؟ ثم أيليق بكلمات الله أن تتلبّس بالكذب والاختلاق ، وتتزوّق بالخيال وتتجمل به ، حتى يكون لها وجه مقبول غير مردود ؟ .

يا لَلسفاهة والضلال ، ويا لَلحمق والجهالة . . بل يا لَلجرأة على الله ، والتطاول على من خلق من التراب لساناً ينطق بهذا البهتان العظيم !!

هذا ، ومما يراه أصحاب هذا الرأى الأحمق الجهول مؤيداً لوجهة نظرهم هذه ، الضالة المضلة — أن القرآن الكريم جاء بلسان عربى مبين ، والشخصيات التى وردت فى القصص القرآنى ، لم يكن لسانها عربياً ، كموسى وفرعون مثلا . .

وقد نطق القصص القرآنى عن هؤلاء الأشخاص ، وأنطقهم بهذا اللسان العربى . . وطبيعى أن ما نطقت به هذه الشخصيات فى القرآن ، لم يكن هو نفس منطوقها ، وإنما هو ترجمة أمينة وصادقة لما نطقت به .

وهذه الترجمة ، وهذا النقل ـ أيًّا كان من الدقة والإحكام فى نقل المعانى من لسان إلى لسان ـ هو على أى حال مخالفة للواقع ، فى الصورة والشكل ، وإن لم يكن فى المضمون والمحتوى !

وأى مخالفة أكبر من أن تتبدل ألسنة الناس ، فينطقوا بغير اللغة التى نطقوا بها ؟ ففرعون — ولغته المصرية القديمة — ينطق بالعربية الفصحى ! وأصحاب الكهف ـ ولغتهم غير عربية على وجه قاطع ـ قد أنطقهم القرآن بلسان عربى مبين . . وهكذا .

وأكثر من هذا . . الحيوانات والجمادات ، يُنطقها القرآن بهذا البيان المبين . . إذ يقول سبحانه فيما أنطق به السماء والأرض : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » (١١ : فصلت) .

ويقول سبحانه فيما أنطق به النملة : « قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنّكُمْ سليمانُ وجنوده وهم لايشعرون » (١٨ : النمل) .

فهذه المفارقات وأشباهها ، قد جعل منها بعض الدارسين المجددين أو المجدفين

منفذاً ينفذون به إلى القول بأن القصص القرآنى — شأنه شأن القصص التاريخى — لا يكون قصصاً إلا إذا لوّنه القاصّ بألوان من خارج الواقع ، وجعل لنفسه سلطاناً على الأحداث ، فيغيّر ويبدّل ، كما تقتضى الحال ، ويستدعى المقام ، حتى تكون القصة مقبولة مستساغة ، بما فيها من فنٍّ وإبداع ! !

دعاوى متهافتة :

والحق أن هذه الاعتراضات كلها مما حكات باطلة ، وتلبيسات فاسدة ، لاتقوم على أساس من الحجة الواضحة ، والمنطق السليم . .

فالقول بأن القصص القرآنى لم يحمل فى أطوائه الأحداث التى جاء بها ، متلبسة بكلٍّ ماصحبها من صور وأشكال ، ساكنة ومتحركة ، فى مجال الزمان والمكان على السواء — هذا القول — على تسليمنا به ، لاتقوم منه حجة أبداً على أن القصص القرآنى قد بعد — مع هذا — عن الواقع فى كثير أو قليل . . بل إنه احتوى الواقع كلّه ، واشتمل عليه ، وأخذ لبّه ، والصميم منه ..

ذلك أن الحياة كلها ، بأزمنتها وأمكنتها ، وأشخاصها وأحداثها ، حاضرة عتيدة كلها ، بين يدى الحكيم العليم ، واقعة فى علم من لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . .

وهذا القصص الذى جاء به القرآن ، لم يكن تأريخاً للحياة كلها ، وأحداثها وإنما هو عرض لبعض المواقف ، وكشف عن بعض الأحداث ، التى من شأنها أن تحدث فى النفس أثراً ، وتقيم فى الضمير وازعاً ، وتفتح على العقل والقلب مواقع ماثلة للعبرة والفطنة .

فالقصص القرآنى . لايمسك بالأحداث الواقعة فى الحياة كلها ، وإنما يمسك من الأحداث والوقائع ، بما يراه مُجلّيًا عن عبرة ، كاشفاً عن عظة ،

لتنتفع بها الدعوة الإسلامية ، فى مقام الدعوة إلى الله ، والتعرّف عليه . . وليس يَعْنيه — فى هذا المقام — أن يكون الحدث مدوِّيًا صارخا ، أو مزلزلا عاتيًا ، بقدر ماتعنيه الدلالة التى يدلّ عليها ، والعظة التى تتكشف للناس منه .

ولاشك أن هذه الأحداث والوقائع التى يقتطعها القرآن الكريم من « شريط » الحياة ، هى الصدقُ الخالص ، والحق الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . يقتطعها القرآن . . زمانًا ، ومكانًا ، وأشخاصًا ، وملابسات . . ثم ينفخ فيها نفخة الحياة ، فتنبعث من مرقدها ، وقد تساقط منها ماجفّ من أوراقها ، وماذَبل من أغصانها ، وإذا هى ثمر دانى القطوف ، تأخذه العين وتشتهيه النفس . .

وإذن ، فليس تخليص القصص القرآنى من الزوائد والحواشى التى لاتغنى شيئًا فى تصوير الحدث ، وعرضه فى معرض الاعتبار والعظة — ليس هذا التخليص إلا عملية غربلة وتصفية ، غايتها تنقية الحدث من الشوائب ، وتخليصه من الغُثاء والزَّبَد ، ليصفوَ مورده ، ويَسوغ مذاقه للواردين — وليس ذلك عن عجز أو غفلة ، عن جميع الملابسات التى اتصلت بالحدث من جميع جهاته ، والتقت به من قريب أو بعيد .

وهذا التصرف الذى كان من صنيع القرآن الكريم ، فى عرض الأحداث وفى أخذ بعضها ، والإعراض عن بعض ـ هذا التصرف لايصح أن يكون مسوغا لقائل أن يقول : إن القرآن — وقد أباح التصرف على أى وجه من الوجوه — قد أدخل فى القصص القرآنى ماليس من صميم الواقع ، وأنه غير وبدّل فى معالمه . .

فهذه مغالطة سفيهة — كما قلنا — لأن ماجاء به القصص القرآنى ، هو

الصميم من الواقع ، واللباب من الحدث ، وإن يكن قد ترك ماترك من حواشٍ وأطراف ، وزوائد ، وقشور !

* * *

وأما القول بأن القرآن قد تحدث بلسانه العربى ، عن ألسنة غير عربية ، أو نطق بلسانه العربى عن دلالة الحال ، كما فى تحديثه عن الجماد والحيوان ، فهذا لا يمكن أن يجىء منه الادعاء بأن القرآن قد تقوّل على من نطق عنه . . وإنما هذا الذى نطق به القرآن ، مترجِمًا به عما نطق الناطقون ، أَو نطقت به دلالة الحال ـ إنما هو المضمون الحق ، والمحتوى الصادق الأمين ، لما تلبّست به الخواطر ، وجمجمت به الصدور ، قبل أن تنطق به ألسنة المقال ، أو تُهمهم به ألسنة الحال . .

فإذا جاءت كلمات الله ناطقة بما نطقت به ألسنة الحال أو المقال ، كانت تلك الكلمات هى الصورة الكاملة ـ روحا وشكلا ، ومضمونا ومحتوى ـ لما نطق به الناطقون ، ولما أراد أن ينطق به الناطقون ، وأعجزهم العجز عن النطق به !

ثم ماذا يمكن أن يكون غير هذا فى مثل هذه الأحوال ، إذا أريد نقلها وعرضها للحياة ؟

أكان من التدبير الحكيم هنا أن يجىء القرآن الكريم بالأشخاص والأحداث ، فيبعثها من مرقدها ، ويحركها على مسرح الحياة من جديد ، لتنطق بما كانت قد نطقت به ، أو لتشير إلى ما كانت قد أشارت إليه ؟

إن قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يعجزها شىء . ولكن أتحتمل الحياة هذا ، لوأنه حدث ؟ وهل يلقاه الناس فلا يُفتَتَنون به ، ولا يخرجون عن عقولهم ، فى تخبط مجنون؟ ثم لو استمع العرب إلى هذه المقولات التى نطق بها

أصحابها ، كما نطقوها بألسنتهم،أو خواطرهم ـ أ كانوا يفهمون شيئاً ،أو ينتفعون مما استمعوا بشىء ؟

إن القصص القرآنى — لكى يكون قصصاً نافعاً مثمراً — قد جاء على سُنّة الحياة التى يحياها الناس ، ولم يخرج على مألوفها ، ولو جاء على غير هذا لما كان للناس التفات إليه ، ولو أنهم التفتوا إليه لما كان منهم إلا الاضطراب والبلبلة . !

فالناس ، يتداولون الأنباء ، ويروون الأخبار ، ويتناقلونها ، على تعدد الأشخاص ، واختلاف الألسنة . . ثم لا يكون شىء من ذلك التعدد وهذا الاختلاف ، حائلا بينهم وبين أن يفيدوا منها ، وينتفعوا بها ، ويخلُصوا إلى مضامينها .

وغاية ما يمكن أن يُنظر إليه فى هذه الأحوال ، هو الصدق فى الرواية ، والأمانة فى النقل ، والدقة فى التصوير والتعبير .

وإنه إذا كان هناك ملتمس تُلتمس فيه هذه الغاية ، على أتم تمامها ، وأكمل كمالها ، فلن يكون ذلك ، إلاّ فى القرآن ، وفيما نطق به القرآن ، وإلا فى كلمات الله ، وما نطقت به كلمات الله . . « ومن أصدق من الله قيلا ؟ » . . « ومن أصدق الله حديثاً ؟ » .

إن القصص القرآنى ، وإن يكن سماوىّ المطلع ، فهو بشرىّ الصورة ، إنسانىّ المنازع والعواطف ، يتحدث عن الناس إلى الناس ، ويأخذ من الحياة للحياة . . يقرؤه الناس ويسمعونه ، فكأنما يقرءون أطواء نفوسهم ، ويسمعون همس ضمائرهم ، ووسوسة خواطرهم . . ومن هنا ، فهم يحيْوْن معه ، وينتفعون به انتفاع الأرض يصوبها الغيث ، فيقع منها مواقع مختلفة ، بين وديان وسهول ، وجبال وقيعان ، وأحراش وسهوب ، وخصب وجديب !

وأحسب أننا بَعُدنا بهذا الاستطراد عن موضوعنا : « التكرار فى القصص القرآنى » .. ولكنه كان استطراداً لابدّ منه ، ونحن ننظر من هذا القصص ، فى معارض شتّى من البيان .. بين الإيجاز والتفصيل ، فى القصة الواحدة ، والحدث الواحد ، بل والإشارة الواحدة .. إذ كانت معرفة الأصول التى قام عليها القصص القرآنى أمراً لازماً لمن يتصدّى لدراسة هذا القصص ، وضبط موارده ومصادره ، على ميزان الحق الذى نزل به القرآن الكريم .. ثم كانت تلك المعرفة لازمة أيضاً لدفع تلك المفتريات التى يفتريها السفهاء والجهلاء من الأعداء والأصدقاء ، على القرآن الكريم ، وما يقولونه فى القصص القرآنى بالذات ، وما وقع فيه من تكرار ، وما اشتمل عليه — كما يتخرصون — من أساطير ..

وقد فرغنا من الردّ على هذا القول الضالّ الآثم ، الذى يقوله القائلون عن مادة القصص القرآنى ، وما اشتملت عليه من أساطير .. ورأينا فى هذا الردّ — على إيجازه — مايخرس تلك الألسنة التى نطقت الزور ، وجاءت بهذا البهتان العظيم ..

أما مايتخرّص به المتخرصون فى شأن التكرار فى القصص القرآنى ، فقد عرضنا فى أول هذا البحث مايتعلق به أولئك الذين يطعنون فى بلاغة القرآن ، من مُدّعياتٍ ومفتريات ، لم تثبت لأول لمحة من النظر ، حتى بان عُوارها ، وانكشف زَيفها عن المنطق السليم ، الذى يُتعامل به فى قضايا العلم ومقررات الفنّ . وبقى بعد هذا أن نعرض نموذجاً من التكرار القصصى فى القرآن ، لننظر وينظر معنا الذين يأخذون على بلاغة القرآن هذا التكرار — كيف كان هذا التكرار إعجازًا من إعجاز النظم القرآنى ، إلى جانب إعجاز النظم فى ذاته ، قبل التكرار ، وبعد التكرار ..

ولا نتخير هذا النموذج من بين القصص القرآنى ، بل نأخذ قصة موسى التى عشنا معها فى هذه السورة « سورة الشعراء » — إذ كانت قصة موسى أكثر قصص القرآن تكراراً ، فقد ذُكرت — كما قيل — فى مئة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم ..

ولا نعرض قصة موسى كلها — بل نأخذ منها هذا المقطع ، الذى واجه فيه موسى فرعونَ وسحرته ، إلى أن خرج بنى إسرائيل من مصر .. إذ كان هذا المقطع هو أول ماواجهنا من حديثٍ عن موسى وموقفه من فرعون ، وسحرة فرعون . .

* * *

وهذا المقطع الذى نقف عنده من قصة موسى مع فرعون ، قد جاء فى عدة معارض فى القرآن الكريم .

وهانحن أولاء نعرضها حسب ترتيب نزولها ، كما وقع لنا ، وكما هو الرأى الراجح فى القول بترتيب هذا النزول ..

أولا : فى سورة طه

بعد أن يدخل موسى وهرون على فرعون ، ليبلغاه رسالة ربهما إليه .. يبدأ الموقف هكذا :

« إنا قد أوحى إلينا أن العذابَ على من كذّب وتولى .

« قال فمن ربكما ياموسى .

« قال ربنا الذى أعطى كلّ شىء خَلْقه ثم هدى .

« قال فما بال القرون الأولى ؟

• « قال علمُها عند ربِّى فى كتابٍ لا يضلُّ ربى ولا ينْسَى * الذى جعل لكم الأرض مهداً وسَلَكَ لكم فيها سُبُلاً وأنْزَلَ من السَّمآء مآء فأخرجْنا به أزواجاً من نباتٍ شتّى * كلوا وارعوا أنعامَكم إن فى ذلك لآياتٍ لأُولى النُّهَى * منها خلقناكُمْ وفيها نُعيدُكم ومنها نُخرِجكم تارةً أُخرى .

• « ولقد أريناه آياتنا كلَّها فكذبَ وأبَى .

• « قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى * فلنأتينك بسحرٍ مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نُخلفه نحنُ ولا أنتَ مكاناً سُوًى .

• « قال موعُدكم يوم الزينة وأن يُحشر الناس ضُحىً .

• « فتولى فرعونُ فجمع كيده ثم أتى .

• « قال لهم موسى ويلكم لاَ تفْتروا على الله كذباً * فيُسحتكم بعذابٍ وقد خابَ من افترى .

• « فتنازعوا أمرهم بينَهم وأسرُّوا النَّجوى .

• « قالُوآ إنْ هذان لساحران يريدان أن يخرجا كم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المُثلى * فأجمعوا كيدكم ثم أْتُوا صفًّا وقد أفلح اليوم من استَعلَى . .

• « قالوا ياموسى . . إمّا أن تلقى وإمّا أن نكون أولَ من ألقَى.

• « قال بل ألقوا فإذا حبالُهم وعصيهم يُخيل إليه من سحرهم أنها تَسْعى .

• « فأوْجَسَ فى نفسه خيفةً موسى .

• « قلنا لا تخفْ إنك أنت الأعلى * وألقِ مافى يمينك تلْقفْ ماصَنَعُوا إنما إنما صنعوا كيْدُ ساحرٍ ولا يفلح الساحر حيث أتى .

• « فألقى السَّحرة سجَّداً .

• « قالوا آمنا بِرَبِّ هرون وموسى .

• « قالَ : آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأُقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أيُّنا أشدُّ عذابًا وأبقَى .

• « قالوا لَنْ نُؤثِرَكَ على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاضٍ إنما تقضى هــذه الحياةَ الدنيا إنا آمنَّا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى » : (الآيات : ٤٨ — ٧١) .

ثانياً — سورة الشعراء

[الآيات : ١٦ — ١٥]

فى هذا الموقف ، ينتقل المشهد الذى كان عليه موسى بين يدى ربه ، إلى فرعون ، دون فاصل ما . . وإذا موسى وهرون وجهاً لوجه ، يسمعان من فرعون ، ولا يذكر الموقف أنهما قالا له شيئاً . .

• « فأتيا فرعون فقولاَ إنا رسول رب العالمين * أن أرسل معنا بنى إسرائيل .

• « قال : ألم نُرَبِّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين !

• « قال فعلتها إذًا وأنا من الضالين . . !

• « ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكماً وجعلنى من المرسلين . .

• «وتلك نعمة تَمُنُّها على أن عبدت بنى إسرائيل ؟

• « قال فرعون : وما رب العالمين ؟

• « قال ربُّ السموات والأرض وما بينَهُما إن كنتُم مُوقِنِين .

• « قال : لمن حوله : ألا تستمعون ؟

• « قال : ربكم وربُّ آبائكم الأولين .

• « قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون .

• « قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون .

• « قال : لئن اتخذت إلٰها غيرى لأجْعَلَنَّكَ من المسجونين .

• « قال : أوَلَوْ جئتُكَ بشىء مُبين ؟

• « قال : فأتِ بِهِ إنْ كنْتَ من الصادقين . .

• « فألقى عصاهُ فإذا هِيَ ثعبانٌ مبينٌ * ونزع يَدَهُ فإذا هى بيضاء للناظرين .

« قال الملأ حوله : إن هذا لساحرٌ عليمٌ * يريدُ أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ؟

« قالوا : أرْجِهِ وأخاهُ وابعثْ فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحّارٍ عليم .

• « فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين .

• « فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟

• « قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين .

• « قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون !

• « فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . .

• « فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون .

• « فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون .

• « فألقى السحرة ساجدين .

• « قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهرون.

• « قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر .

« فلسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ولأصلبنكم أجمعين . .

• « قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربُّنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين » .

ثالثاً : سورة الأعراف

[الآيات : ١٠٣ — ١٢٦]

وجاء الموقف فى سورة الأعراف هكذا :

• « ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين *

• « وقال موسى : يافرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل •

• « قال : إن كنت جئت بآية فأتِ بها إن كنت من الصادقين .

• « فألقى عصاهُ فإذا هى ثعبانٌ مبين * ونزع يدهُ فإذا هى بيضاء للناظرين .

• « قال : الملأُ من قوم فرعون إن هذا لساحرٌ عليمٌ * يريدُ أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . ؟

• « قالوا : أرجِهْ وأخاهُ وأرسل فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحرٍ عليم .

• « وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين .

• « قال : نعم وإنكم لمن المقرَّبين .

• « قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ؟

• « قال : ألقوا .

« فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم .

• « وأوحينا إلى موسى أن ألقِ عصاك فإذا هى تلقف مايأفِكون .

• « فوَقَعَ الحقُّ وبطل ما كانوا يعملون .

• « فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السَّحرَةُ ساجدين .

• « قالوا آمنا برَبِّ العالمين * ربِّ موسى وهرون .

• « قال فرعون آمنتم به قبلَ أن آذن لكم ؟ إن هذا لمكرٌ مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعَنَّ أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ثم لأصلبنَّكم أجمعين .

• « قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقمُ منا إلاّ أن آمنا بآياتِ ربنا لما جاءتنا ربنا أفرِغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين .

رابعاً : سورة الإسراء

[الآيتان : ١٠١ — ١٠٢]

ويُعرضُ الموقف فى سورة الإسراء عرضاً موجزاً . . هكذا . .

• « ولقد آتينا موسى تِسعَ آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحوراً .

• « قال : لقد علمتَ ما أنزل هؤلاءِ إلا ربُّ السموات والأرضِ بصائرَ وإنى لأظنك يافرعون مثبورا »

خامساً : سورة يونس

[الآيات : ٧٥ — ٨٢]

ويجىء الموقف فى سورة يونس ، بين الإجمال والتفصيل ، هكذا :

• « ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . .

• « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إنّ هذا لَسحرٌ مبين .

• « قال موسى : أتقولون للحق لما جاءكم ؟ أسِحرٌ هذا ؟ ولا يُفْلحُ الساحرون . .

• « قالوا : أجئتنا لتَلفِتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرضِ وما نحن لكما بمؤمنين .

• « وقال فرعون : ائتوني بكلِّ ساحرٍ عليم .

• « فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقونَ .

• « فلما ألقوا قال موسى ماجئتم به السّحرُ إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون » .

سادساً : سورة النازعات

[الآيات ١٧ — ٢٥]

وفي سورة النازعات يجيء الموقف في عرض قصير ، سريع .. هكذا :

• « اذهبْ إلى فرعون إنه طغى * فقلْ هل لك إلى أن تزَكّىٰ * وأهْديَك إلى ربك فتَخْشى * فأراه الآية الكُبرى * فكذب وعَصَى * ثم أدْبَرَ يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخَذَه الله نكال الآخرةِ والأولى » .

سابعاً : سورة الذاريات

وفي الذّاريات ، تُعرض القصة كلها في لمحة خاطفة .. هكذا ..

« وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين * فتولى بركنه وقال ساحرٌ أو مجنون » (٣٨ — ٣٩) .

***

هذه معارض سبعة ، قد عُرض فيها هذا الموقف الذى كان بين موسى وفرعون ، عرضاً مبسوطاً اتسع لأهم الأحداث التى جرت فيه ، والتقط أدقّ الخلجات النفسية التى تحركت فى صدور الناس الذين كان لهم مكان فى هذا الحدث . . مباشراً أو غير مباشر . .

فهذه المعارض السبعة إذا ضُمّ بعضها إلى بعض، قامت منها صورة واحدة ، هى صورة مكبرة ، لكل واحدة من هذه الصور على حدة . .

فإنك إذ تنظر فى الصورة التى تجمع هذه الصور كلها ، ثم تنظر فى أىّ من الصور الصغيرة ، تجد الملامح هى الملامح ، والصورةَ هى الصورة ، وإن حملت الصورة الكبيرة ألواناً أكثر ، وشغلت مساحة أوسع .

ومن صنيع الإعجاز القرآنى فى هذا ، أنه مع تفرّق هذه الصور ، وبُعد ما بينها من مسافاتٍ ، فى عرض القرآن الكريم لها — أنه يمكن أن تضمّ هذه الصور بعضها إلى بعض ، على أى ترتيب تقع فيه ، وعلى أى وضع تأخذه كل واحدة منها بين أخَوَاتها ، ثم يقرؤها القارىء أو يرتلها المرتل وكأنها صورة واحدة ، دون أن يشعر أنه يعيد ما قرأ ، أو يكرّر مارتل !

وهذه هى الصور السبع كما عرضناها من قبل ، دون التفات إلى ترتيب خاص لها — وإن لك أن تقرأها قراءة أو ترتلها ترتيلا ، ثم انظر فيما تجد لِما تقرأ ، من هذا التلاحم والتوافق الذى بينها ، وستجد — كلما أعدت القراءة أو الترتيل — أكثر من هذا الذى حدثتك عنه من توافق وتلاحم بين هذه المعارض . .

على أننى أودّ أن أصنع صنيعاً آخر مع هذه الآيات جميعا ، حتى يتضح لنا — بصورة أكثر وضوحاً — خلوّ القصص القرآنى من التكرار ، بالمعنى الذى فُهم عليه ، والذى كان فى نظر الأغبياء والأدعياء تهمةً يُرمى بها القرآن فى

أعزّ ما يعتز به من فصاحة وبيان .

وننظر فى الواقعة ذاتها ، فنجد أنها تشتمل على عناصر أربعة :

١ — موسى ومعه أخوه هرون ، وما عرضا على فرعون من مقولات وآيات .

٢ — فرعون ، والملأ الذين معه من قومه وسَحَرتِه ، وما استقبلوا به موسى من مقولات وتحدّيات .

٣ — ما كان من موسى والسحرة ، وما انتهى إليه أمرهم ، من عجز وتسليم ، وإيمان ..

٤ — ما كان من فرعون حين خذله سحرته ، وخرجوا عن طاعته وأمره .. وما توعدهم به من عذاب ونكال ، وما كان منهم من استخفاف بهذا الوعيد وعدم التفات إليه .

والذى سنصنعه هنا ، هو أن نجمع لكل عنصر من هذه العناصر ما كان له من ذكر فى هذه السور الست التى عرض فيها القرآن هذه المواقف..

فأولاً : موسى وهرون فى مواجهة فرعون . .

• « إنا قد أوحِىَ إلينا أن العذاب على من كذب وتولّى » ..

(٤٨) (من سورة طه)

• « إنا رسولُ رب العالمين • أن أرسل مَعَنا بنى إسرائيل » ..

(١٦ — ١٧) (من سورة الشعراء)

• « يا فرعون .. إنى رسول من رب العالمين • حقيق على ألا أقول على الله إلا الحقّ قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل » ..

(١٠٥ من سورة الأعراف)

* « هل لك إلى أن تزكّى • وأهديَكَ إلى ربِّك فتخشى » ..

(١٨ — ١٩) (من سورة النازعات)

واقرأ هذه المقولات الأربع ، واحدة بعد أخرى ، اقرأها على أى ترتيب شئت .. فهل تجد فيها تكراراً ؟ وهل يمكن أن تستغنى عن واحدة منها ، ثم لا يفوتك شيء مما يتطلبه الموقف ، وما حملت تلك الصورة من رؤية جديدة له ، ومن مشاعر وخلجات تلبست به ؟

والذى أود الإشارة إليه ، هو أن هذه المقولات الأربع ليست قولا واحداً جاء به القرآن الكريم فى معارض مختلفة من القول ، وإنما هى أقوال أربعة فعلا ، كل قولٍ منها مستقل بنفسه ، قائم بذاته ، وإن كان مكملا لغيره .. شارحاً له ، أو مؤكداً ..

١ — فهذا موسى ومعه أخوه هرون ، يدخلان على فرعون ، ويتحدثان إليه بصوت واحد معاً .. إذ كان ذلك هو شعور موسى من لقاء فرعون ، قبل أن يلقاه ، فقد طلب إلى الله أن يشدّ أزره بأخيه هرون ، فهو أفصح منه لساناً ..

ويدخل موسى وهرون على فرعون .. فينظر إليهما نظرة من يقول : ماذا تريدان ؟ ..

فيقولان معاً وبصوت واحد : « إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولّى » ..

(٤٨) (سورة طه)

٢ — ثم ها هما وقد أخذت تزايلهما رهبةُ الموقف ودهشة اللقاء فيَلقيان فرعون لقاءمباشرا ، ويُلقيان إليه بهذا الأمر العظيم ، فيقولان معا :

« إنا رسول ربّ العالمين • أن أرسل مَعَنا بنى إسرائيل !! »

(١٦ — ١٧) (سورة الشعراء)

ونستشعر من هذا أن « موسى » لا يزال يجد الرهبة والخوف من فرعون ، وأنه لم تزايله رهبة الموقف بعد ، ولا يزال فى حاجة إلى هرون يسنده ، ويشدّ أزره ، ويثبت جنانه .

٣ — ثم ها هو ذا « موسى » بعد أن تمرّس بالموقف ، وارتاد الطريق ، واختبر المواجهة ، واحتمل الصدمات الأولى لها — هاهو ذا يَلْقى فرعونَ وحده ، ويُسمعه بلسانه مضمون رسالته ، فى قوة وصراحة ، وتحدّ :

« يافرعونُ ..

« إنى رسول من ربّ العالمين ..

« حقيقٌ علىّ ألا أقول على الله إلا الحق ..

« قد جئتكم ببينه من ربكم ..

« فأرسلْ مَعِىَ بنى إسرائيل .. (١٠٤ — ١٠٥) (الإسراء)

فيا للاعجاز الذى تَذلّ لجلاله جباه الجبابرة ، وتخضع له أعناق المكابرين ، وتعنو له وجوه السفهاء المتطاولين ..

« يا فرعون » !

هكذا يقولها موسى فى وجه فرعون .. يناديه باسمه ، متحدّياً ، وينتزعه من سلطانه وجبروته انتزاعاً . . فى غير تلطف أو رفق ، أو مبالاة .

إنّها فَعلةُ مَن يقدم على أمرٍ محفوفٍ بالمخاطر ، بعد خوفٍ ، وتردد ، حتى إذا لم يجد من المواجهة بدّاً ألقى بنفسه إليه ، مخاطراً ، يتوقع مايطلع عليه وراء فَعلته تلك من أهوال .

وماكان لموسى أن يقول هذه القولة : « يافرعون » ولا أن يقول بعدها : « إنى » بهذا الضمير المحقّق لشخصيته ، المؤكد لذاته : « إنّى » لا أحد غيرى

« رسول من ربّ العالمين » .. ولحرف الجر « مِن » هنا ماله من الإشعار بهذا الاعتزاز بتلك الشخصية ، والرسالة التى تحملها ، والجهة التى جاءت منها .. ففيها ماليس فى قوله لوقال : « إنى رسول رب العالمين » من الشّحنة القوية ، المليئة بالاعتزاز بهذا السلطان ، الذى يستند إليه ، وهو سلطان رب العالمين .

ما كان لموسى أن يقول هذا ، ثم يمضى فيقول :

« حقيق على ألاّ أقول على الله إلا الحق » .. وهذا اعتزاز بعد اعتزاز لشخصه الذى يحمل رسالة السماء ..

ما كان لموسى أن يقول هذا ، لولا أن دخل على فرعون هذا المدخل الذى اختبر به الأرض التى تحت قدميه .

ومن هذا الأفق العالى ، يتنزل أمر موسى هادراً مدوياً فى وجه فرعون : « فأرسلْ معى بنى إسرائيل » .

ولك أن تضع هذا الأمر الصادع ، إلى جانب هذا الرجاء الذى أسمعاه — موسى وهرون — لفرعون من قبل ، فى قولهما : « أن أرسل معنا بنى إسرائيل » وسيتضح لك بُعد مابين الأمرين .

ويستشعر موسى أنّه وقع بين فكى الأسد وبراثنه .. وأن فرعون لن يدعه ينجو من العقاب الأليم ، على هذه الجرأة التى اقتحم بها هذا الحمى الذى لا يقتحم .

٤ — وهنا لايجد موسى بدًّا من أن يصحح موقفه ، وأن يَلْقَى فرعون مترفقاً متلطفاً ، كما أمره الله سبحانه بقوله : « فقولا له قولا ليناً لعلّه يتذكر أو يخشى » ..

وهنا يلقاه موسى بهذا الأسلوب الليّن الرقيق ، لعله يكسر بهذا حدّة الموقف ، الذى وصل إلى هذا الحدّ من الخطر .. فيقول له :

« هل لكَ إلى أن تزَكّى ؟ وأهديَكَ إلى ربك فتخشى » ؟

(١٧ — ١٨) [سورة النازعات]

وإلى هنا لم نجد حديثاً عن فرعون .. ولـكنا نقرأ فى وجهه ، ومن حركاته أكثر من حديث ..

ثانياً : فرعون وقومه وسحرته

وماذا يكون من فرعون بعد أن سمع ما سمع مما لم يعهد سماعَه من أحدٍ من قبل ؟

ننظر فنرى :

أن فرعون — فى هذا الموقف — يواجه موسى وتحدياته ، فيلقاه دَهِشاً عجباً ، لهذا التطاول عليه ، والخروج على المألوف فى حضرته .

ثم هو — قبل هذا كله ، وبعد هذا كله — هو فرعون ! يبسط سلطانه على أهل المجلس .. يلقى نظرة هنا ، ونظرة هنا ، ويرمى بكلمة هنا وكلمة هنا .. إنه المحور الذى تدور به ومن حوله الأحداث .

وطبيعىٌّ ألا يأخذ الحديثُ اتجـاهاً واحداً ، فى هذا الموقف ، لتعدّد الأطراف المشتركة فيه .. فرعون ، وموسى ، وحاشية فرعون ، وشهود هذه المساجلة من الملأ ..

ونودّ أن نشير هنا إلى أن هذه الصور التى عرضها القرآن لهذا الموقف ، ليست للقاء واحد بين موسى وفرعون .. وإنما هى « لقطات » مركزة مجمّعة لأكثر من لقـاء .. إذ أنه من غير الطبيعى أن ينحسم الأمر بين موسى وفرعون فى لقاء واحد .. ولـكن المقدّر فى هذه الحالة أن يتكرر لقاء موسى وفرعون ، ويتكرر الأخذ والعطاء بينهما ، إلى أن ييْئَس كل منهما من الوصول إلى وِفاق مع خصمه ، فلا يكون بعد هذا إلا التحدّى والصراع .

ومع هذا فإن اقتدار القرآن وإعجازَه ، فى تصوير مشاهد هذا الموقف فى

أزمنةٍ مختلفة ، وأحوالٍ مختلفةٍ أيضاً ، قد جعل منها مشهداً واحداً ، يُمسك بتلك المشاعر التي كان يعيش بها أصحابها في هذا الموقف ، دون أن يُحدث الانفصال الزمانيّ أو المكانيّ فيها خلخلة ، أو ازدواجاً .

ومع هذا — أيضاً — فإننا سنعرض هذه المشاهد ، على أنها صورة واحدة ، في موقف واحد ، وسنرى أنها تقبل مثل هذا العرض ، وتتلاقى فيه وجوهها ، دون أن تتصادم ، أو تتدافع !

* * *

ولقد رأينا في المشهد السابق ، أن فرعون ، قد أخذ بالمباغتة ، التي طلع بها موسى وهرون عليه، وأنه حين أسمعاه هذا القول ، الذي قالاه له في قوّة وجرأة — وجِمَ ، ولم ينطق .

ثم صحا من هذا الذهول ، وتنبه لحقيقة الموقف ، فاتجه إلى موسى بهذه الأسئلة الهازئة الساخرة :

* « ألَمْ نربِّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين » (الشعراء) ١٨ — ١٩) .

وقد قدّر فرعون أن هذه الكلمات ستصيب موسى في الصميم منه ، وأنها ستخفض رأسه في حضرته .. إذ أنه سيذكر من هذه الكلمات، طفولتَه وضياعه ووقوعه ليد فرعون .. ثم إنه ستطلع عليه من هذا الكلام صورة مخيفة لفعلته التي فعلها ، وهي قتل المصري ، وأن فرعون إذا لم يأخذه بجرأته عليه ، أخذه بهذا المصريّ الذي قتله .

ولا يقف موسى عند ما ذكره له فرعون ، من تربيته له ، وضمه إليه ، بل يجعل همّه كلّه دفع هذا الخطر الذي يتهدّده من حادثة القتل .. فيقول مجيباً فرعون : !

« فعلتها إذاً وأنا من الضالين • ففررت منكم لمّا خفتكم فوهب لى ربّى حكما وجعلنى من المرسلين • وتلك نعمة تمنّها علىّ أن عبدت بنى إسرائيل ؟ » (الشعراء) .

وهنا يلقاه فرعون سائلا :

« فمن ربكما ياموسى ؟ » .

وانظر إلى كيد فرعون فى هذا السؤال الماكر .. إنه يطلب الجواب من موسى ، وهو يعلم ما فى لسانه من حبسة ، وذلك أمام الجمع ..

ويجيب موسى .. وقد أطلق الله سبحانه حبسة لسانه :

« ربّنا الذى أعطى كلّ شىء خلقه ثم هدى » . . (٢٠)[طه]

ويماجله فرعون بسؤال آخر :

« فما بالُ القرون الأولى ؟ » . . . (٢١)[طه]

ويردّ موسى هذا الردّ المفحم :

« علمها عند ربّى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى • الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سُبُلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى • كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى • منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » . . [طه]

وانظر كيف عدَل موسى عن الجواب على سؤال فرعون ، والدخول معه فى هذا المجال ، الذى يكثر فيه اللجاج ، ولا يستطيع أحد الخصمين — فى موقف العناد والجدل — أن ينال موقفاً حاسماً ..

« مابال القرون الأولى » ؟ إنه طوفان يغرق فيه من يتصدى للجواب عليه ، إلا إذا كان مع من يطلب الهدى ، ويسأل ليَعلم ، لا ليُفحِم .

وانظر كيف خَلَصَ موسى من هذا الموقف الذى كان يدفعه فرعون إليه دفعاً — إلى هذا العرض المحسوس الذى لا ينكَر، لقدرة الله، و ما لهذه القدرة من آثار تملأُ وجوه الحياة !

ويضيق فرعون بهذا التدبير الذى أفلت به موسى من المصيدة . . فيجىء إلى موسى من طريق آخر . . فيسأله :

« وما ربُّ العالمين » ؟ (٢٣) [الشعراء] .

ويكون جواب موسى حاضرا :

« رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين » [الشعراء]

ويتلفت فرعون حوله عجباً ، ودهشاً ، مستنكراً .. يقول لأهل مجلسه « ألا تستمعون » ؟ . . . [الشعراء]

وإلى هذه الجبهة الجديدة التى فتحها فرعون يتجه موسى قائلا :

« ربكم وربُّ آبائكم الأولين » . . . [الشعراء]

وتثير هذه الجرأة حَنَق فرعون .. إذ كيف يجرؤ موسى على تخطى فرعون ومخاطبة غيره فى حضرته .. أهناك من يكون له وجود مع وجود فرعون ؟

ثم إن فرعون يخشى — من جهة أخرى — أن يكون لقول موسى أثر فى الملأُ الذين حوله .. فيقول لهم :

« إن رسولكم الذى أُرسل إليكم لمجنون » ! . . . [الشعراء]

ويردّ موسى قول فرعون هذا ، ويؤكد لمستمعيه ماقال من قبل ، فيقول :

« ربّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » [الشعراء]

وفى قولة موسى هذه تحريض لهؤلاء الأتباع من قوم فرعون ، أن يستقلّوا بوجودهم ، وأن يحتفظوا بعقولهم ، وأن يفكروا لأنفسهم ، وألا يدعوا أحداً يفكّر لهم ، ولو كان فرعون .. « إن كنتم تعقلون » !

ويُجنّ جنون فرعون لما يريد موسى أن يبلغه من القوم - قوم فرعون - من إغرائهم على الخروج عن طاعته ، والخلاف عليه ، فيلقاه بهذا الوعيد . .

« لئن اتخذتَ إلٓها غيرى لأجعلنّك من المسجونين » [الشعراء]

ويلَقى موسى هذا الوعيد بقوله :

« أوَ لَوْ جئتُك بشىء مبين ؟ » . . . [الشعراء]

ويجيبه فرعون :

« فأت به إن كنت من الصّادقين . » . . . . [الشعراء]

ويتوقف موسى قليلا يستجمع قواه ، ويهيء نفسه لهذا الامتحان الذى يُلقى فيه بكل ماممه من أسلحة ، وهو على حذر وإشفاق من أن تخونه عصاه ، أو لاتستجيب له يده . .

ويرى فرعون هذه الحال من موسى ، ويخيّل إليه أن موسى لا يملك شيئاً بين يديه ، فيجدها فرصةً للطعنة القاضية ، يطعن بها موسى . فيقول له :
« إن كنت جِئتَ بآية فأتِ بها إن كنتَ من الصّادقين » (١٠٦) [الأعراف]

وعندها يكون موسى قد استجمع نفسه ، واستردّ عزمه الذى ذهب به الموقف . . ولا يتكلم موسى . . بل يدع للآيات التى معه أن تتكلم عنه ، وتنطق ببيان أفصح من كل بيان . .

« فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين »
(١٠٧ — ١٠٨ الأعراف) (٣٢ — ٣٣ الشعراء)

هكذا يجيء المشهد فى كلٍّ من سورتى الأعراف والشعراء ، على نسقٍ واحدٍ فى النظم ، لم يقع فيه أى خلافٍ بحرفٍ أو كلمة ، أو تقديم أو تأخير . .

وهذا أمر يلفت النظر ، ويدعو إلى التأمل والبحث . . حيث لا يلتزم

القرآن الاحتفاظ بصورة النظم إلا عن قصد، ولغاية مُرادة ، لا تتحقق إلا بهذا الالتزام ، بحيث لو اختلفت صورة النظم قليلاً أو كثيراً ، لفات الغرض ، ولم تتحقق الغاية ..

فإن من مألوف النظم القرآنى ، أن ينوّع الأساليب ، ويغاير بينها ، إذا لم يكن فى هذا التنويع ، وتلك المغايرة، ما يجور على المعنى ، أو ينتقص شيئاً منه .. أى شىء .. وإلا فإن القرآن يكرر اللفظ ويعيده كما هو ولو عشرات المرات ، كما فى قوله تعالى : « فبأىّ آلاء ربكما تكذبان » من سورة « الرحمن » التى تكررت فيها هذه الآية بنظمها هذا ، إحدى وثلاثين مرة .

والسؤال هنا :

ما سرُّ التزام القرآن لهذا النظم ، الذى جاء على هذه الصورة ، فى كل من سورتى الأعراف والشعراء ؟

والجواب — والله أعلم — أن المشهد الذى وقع من كل من العصا واليد ، ظلّ على حالة واحدة ثابتة ، لم يطرأ عليها تغيير من أول ما وقعت إلى أن رُفعت .

فالعصا .. ألقى بها موسى من يده .. فإذا هى فى الحال ثعبان مبين ، مرةً واحدة . لم تتحول من حال إلى حال ، ولم تتغيّر من صورة إلى صورة . كأن تبدأ صغيرة — كما هو المتوقع عادة فى كلِ عمل إنسانى — ثم تظهر آثار التفاعل فيها ، فتكبر شيئاً فشيئاً حتى تبلغ غايتها ..

واليد .. أخرجها موسى من جيبه ، فإذا هى كوكب درىّ متألّق .. مرة واحدة .. هكذا !!

وهكذا شأن آيات الله ومعجزاته ، التى يضعها بين يدى رسله .. تُولَد كاملة، وتظلّ محتفظة بهذا الكمال ، دون أن يدخل عليها أى تغيير ، حتى تزايل الموقف ، فى الزمن المقدور لها أن تزايله ..

فثبات المعجزتين ـ العصا واليد ـ على هذا الوجه الذى ثبتتا عليه ، اقتضى أن يكون النظم المصوِّر لهما ، والضابط لوقوعهما ، ثابتاً لا يتغير ، قليلاً أو كثيراً ..

وهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن ، كما أنه وجه آخر من وجوه صِدْقه ، فى نقل الأحداث وضبطها . .

وتكرار النظم لهذه الصورة وعرضها فى معرضين على هيئة واحدة ، هو الذى يكشف عن هذا المعنى الذى نلحظه فى هذا الإعجاز الذى حملته المعجزتين ، وبانتا به عن كل ما هو فى مستطاع البشر أن يبلغه فى مجالهما ..

***

وإذ يرى فرعون والملأ حوله هذا الذى كان من عصا موسى ويده ، تدور به الأرض ، وتعتريه رِعشة الخوف ، ممزوجة بالغضب والحنق والنقمة ، ثم لا يجد بدّاً من أن يقول قولا يمسك به وجوده ، ووجود الملأ من حوله ، وإلا استولى موسى على هذا الموقف ، وأصبح السيد المتصرف فيه ..

« قال للملأ حوله ..

« إنّ هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره .. فماذا تأمرون » ؟ (٣٤ — ٣٥ الشعراء)

وتعمل هذه القولة عملها فى قوم فرعون ، ويصحو القوم من هذا الذهول الذى استولى عليهم ، ولكنها صحوة أشبه بصحوة المخمور ، يطلع عليه ما يزعجه ، فيمسك بأى شىء ، ويلقى بنفسه إلى أى شىء !

والقوم لا يجدون شيئاً يمسكون به إلا كلمة فرعون تلك ، التى ألقى بها إليهم ، إنه . يسألهم فيجيبون بما سألهم . . إذ لا يملكون ـ فى تلك الحال المستولية عليهم ـ عقلاً يفكر ، أو رأياً يسعف . .

« قال الملأ من قوم فرعون :

« إن هذا لساحرٌ عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ؟ » . (١٠٩ — ١١٠ : الأعراف)

نفس الـكلمات التى نطق بها فرعون . . يلتقطها القوم ، ويجعلونها جواباً على ما سأل . .

وهكذا يكشف القرآن الـكريم عن المعجزة وأثرها فى القوم ، واستيلائها على وجودهم كلّه ، بما لم ينكشف حتى لمن شهد الواقعة عِياناً ، أو وقع تحت تأثيرها مباشرة .

ويُمسك فرعون مرة أخرى بخيوط واهية من الموقف الذى كاد يفلت منه ، وقد شاع فى قومه هذا الشعور بأن موسى ساحر عليم ، فيجسّد لهم هذه المشاعر فى تلك الـكلمات المتحدّية المهدّدة . . يواجه بها موسى !

« قال :

* « أجِئْتَنا لِتُخْرِجَنَا من أرْضِنَا بِسِحْرِكَ يا مُوسى ؟ فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سُوًى » (٥٧ — ٥٨) (طه)

ويفزع القوم لما يسمعون من فرعون ، وأن موسى يريد أن يخرجهم وفرعون معهم ـ من أرضهم ، بقوة هذا السحر الذى بين يديه ، ويتمثل لهم من هذا أنهم فى وجه خطر داهم .. إن هم لم يعاجلوه بالعزم والحسم ، عاجلهم بالبلاء والتشريد من ديارهم ، والخروج عما هم فيه من دولة وسلطان فى ظِلّ من دولة فرعون وسلطانه . . إن الأمر جدٌّ ليس بالهزل ، وإن فرعون يرى أنها معركة ، وها هو ذا يحدد زمانها ومكانها .

وهنا يصحو القوم صحوة أشبه بصحوة المحتضر . . وإذا هم صوت واحدٌ يهدّد ويتوعد ، وإذا القرآن الـكريم يمسك بالصميم من هذا الصوت ، ويجمع

ما تفرق منه على كل لسان ، وإذا هو ما حكاه الله عنهم فى قوله تعالى :
« قالوا :
« أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَآءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآء فِى الأرضِ وما نحن لكما بمؤمنين » [يونس]

ونلاحظ أن القوم قد أفاقوا شيئاً من هذه الضربة ، التى فاجأهم بها موسى ، فكان لهم قول ، لم يأخذوه من لسان فرعون.

وانظر فى هذا الإعجاز الذى تتقطع دونه الأعناق .

لقد وزع القرآن هذا المشهد فى أربع سور . . فجعل قولة فرعون عن موسى وسحره ، فى سورة « الشعراء » . . ثم أعاد هذه القولة نفسها على لسان الملأ من قومه فى سورة « الأعراف » . . ثم جعل مواجهة فرعون لموسى مهدداً متوعداً فى سورة « طه » . . ثم جعل ما ردّده القوم من تهديد فرعون ووعيده ، فى سورة « يونس » . . وذلك حتى لا تتراكم الصّور وتتراكب ، وحتى لا يقع التكرار على أية صورة . . لفظية ، أو معنوية . .

ثم انظر مرة أخرى ، فى هذه المقولة : « فماذا تأمرون » ؟ .

لقد جاءت على لسان « فرعون » يسأل بها « الملأ » حوله فى سورة الشعراء ، كما جاءت على لسان « الملأ » يسألون بها « فرعون» فى سورة الأعراف .

إنها الكلمة التى كانت تدور على كل لسان فى هذا الموقف . . لا يملك أحدٌ غيرها . . يقولها لنفسه ، ويقولها لكل من يلقاه : « ما العمل » ؟

ثم يجىء الجواب مُمْسِكاً بالاتجاه الغالب الذى يكاد يستقرّ عليه الرأى ، وتجتمع عليه الأكثرية :

« قالوا :
« أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحّار عليم »
[٣٦ ـ ٣٧ : الشعراء]

« قالوا :

* « أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يأتوك بكل ساحر عليم » [١١١ - ١١٢ الأعراف]

وقال فرعون :

* « ائتونى بكل ساحرٍ عليم » [٧٩ يونس]

وإذا كان الرأى قد غلب فى إرجاء موسى وأخيه حتى يُعدّ فرعون العدّة للقائه ، فإن الرأى يكاد يتوازن بين دعوة كل ساحرٍ له أىّ إلمام وعلم بالسحر ، وبين دعوة كل من مهر فى السحر . . فقال فريق بدعوة كل ساحر ، وقال فريق آخر بدعوة كل سحّار . .

ثم يجىء أمر فرعون وحكمه قاضياً بدعوة كلّ ساحرٍ ، أى كل قادرٍ على حمل السلاح فى هذه المعركة الفاصلة : « ائتونى بكل ساحرٍ عليم » !

هذان مشهدان من المشاهد الأربعة التى ضمّ عليها هذا المقطع الذى اقتطعناه من قصة موسى ، وهو لقاؤه مع فرعون ، ودعوته إلى الله ، وإلى أن يرفع يده عن بنى إسرائيل ، ويرسلهم معه إلى حيث يخرج بهم إلى وجه آخر من الأرض غير أرض مصر . .

وقد رأينا فى هذين المشهدين ، كيف تجتمع الصور فيهما ، وكيف تتفرق ، وهى فى اجتماعها وافتراقها على سواء ، فى عرض المشهد ، وفى دقة تصويره ، والإمساك بكل خاطرة وقعت فيه . .

ولا أريد أن أمضى معك فى عرض المشهدين الآخرين ، حتى لا يطول بنا الوقوف هنا ، ونبعد عن الغاية التى نحن على طريقها ، مع تفسير كتاب الله . .

فاصنع أنت صنيعك مع هذين المشهدين ، على نحو ما رأيت فى صنيعنا

بالمشهدين السابقين ، أو على أى نحو تراه أنت .. وستجد بين يديك ألوانا مشرقة من الإعجاز القرآنى ، تطالع وجوهها ، فى كل وجه تلقاها عليه ..

فإن أنت آثرت ألا تكلف نفسك هذا الجهد ، ورأيت أن تقطف الثمر من قريب ، فإنك ستجد ذلك بين يديك فى كتابنا : «القصص القرآنى[1]» ..

والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل .

الآيات : (٦٩ — ٨٩)

* «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)»

---

(١) صفحة ٢٧٥ وما بعدها .

التفسير :

مناسبة ذكر قصة إبراهيم ، بعد قصة موسى ، هى أنه فى قصة موسى ، قد رأى فيها المشركون أسوأ وجه لهم فى فرعون ، وما ركبه من عناد واستكبار واستبداد .. كما رأوا المصير الذى صار إليه هو ومن اتبعه ..

وفى قصة إبراهيم يرى المشركون الجانب الآخر من هذا الوجه السيء الذى يعيشون به فى الناس .. فهم إذا كانوا قد رأوا فى قوم فرعون عتوّهم واستكبارهم ، فإنهم يَرون فى قوم إبراهيم جَهْلهم ، وصغارَ عقولهم ، وسفاهة أحلامهم ، وضآلة قدرهم فى الناس .. إذ ينقادون لأحجار صمّاء ، ويعفّرون جباههم بين يدى ودمًى خرساء . . !

وفى قوله تعالى : « واتل عليهم نبأ إبراهيم » ـ يعود الضمير فى « عليهم » إلى المشركين من أهل مكة .. والنبأ : الخبر عن غائب . .

وفى إضافة النبأ إلى إبراهيم ، دون إشراك قومه معه ، مع أن القصة حديث عنه وعنهم ـ إشارة إلى أن المنظور إليه هو « إبراهيم » ، وأنه هو الذى يجب أن يكون موضع القدوة والأسوة ، للمؤمنين ، ولأصحاب الرسالات الطيبة الداعية إلى الخير . . وعلى رأس أصحاب هذه الرسالات النبى محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حيث يجتمع فى قومه ، كِبرْ فرعون واستعلاؤه ، وصَغار قوم إبراهيم ، وحماقتهم . .

قوله تعالى :

* « إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون ؟ قالوا نعبدُ أصنَاماً فنظل لها عاكفين »

إن سؤال إبراهيم ، هو من تجاهل العارف ، الذى يَسأل عن الشيء ، وهو يعرف الجواب عنه . . ولكنه يريد بهذا السؤال أن يأخذ الجواب عن هذا الجرم ، مِن فِم المجرمين أنفسهم ، ليكون ذلك موضعاً للمساءلة والمحاسبة

على ما نطقت به ألسنتهم .. ولهذا كان تعقيب إبراهيم على هذا الجواب ، بأن سألهم قائلا :

* « قال هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ * أو ينفعونكم أو يَضُرون » ؟

وفى قولهم : « نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين » تحدٍّ وَقاح لإبراهيم ، وإصرار على عبادة هذه المعبودات التى ينكرها إبراهيم .. فهو الذى يقول عنها إنها أصنام ، وهو الذى يقول عنها إنما تماثيل ، كما يقول : « ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون » (٥٢ : الأنبياء) .. ونعم إنهم يعبدون الأصنام والتماثيل .. فما شأن إبراهيم ؟ وماذا يريد ؟ هكذا يردّون فى تحدٍّ وسفه .

ويضع إبراهيم القومَ أمامَ واقع يفضح ضلالهم ، ويكشف صَغَار عقولهم ، وسفاهة أحلامهم .. إن هذه الأصنام التى يظلّون عاكفين عليها ، جاثمين بين يديها — لا تسمع ما يقولون .. وإذن فلا يمكن أن تستجيب لما يدعونها إليه ، من جلب خير ، أو دفع ضر .. هذا ما تمثّل لهم فى هذا الموقف ، وهذا ما انكشف لهم من أصنامهم ، حتى لكأنّهم يرون هذا منها لأول مرّة !
ولا يجد القوم مخرجاً من هذا الطريق المسدود ، إلاّ أن يُحيلوا الأمر إلى غيرهم ، ويعلقوا الجواب المطلوب على هذه الأسئلة برقاب آبائهم وأجدادهم !

* « قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ! » .. وإذن فنحن نفعل ما كان يفعل آباؤنا من قبل .. وما يفعله آباؤنا هو حجة علينا إن لم نفعله ، ثم هو حجة لنا فى وجه من ينتقص من فعلنا هذا ! .

ويخيّل إليهم بهذا المنطق الصبيانى أنهم أفحموا الخصم ، وأسقطوا حجته عليهم ! وإذا إبراهيم يواجههم بهذا التحدى لهم ، ولما يعبدون هم وآباؤهم .

* « قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدوٌّ لى إلاّ رَبَّ العالمين » .

العدُوُّ : يطلق على الواحد والجمع . . والضمير فى « إنهم » يعود إلى « ما » فى قوله تعالى : « ما كنتم » أى الذى كنتم تعبدون ، وهو الأصنام . .

فالعدوّ لإبراهيم ، هو تلك المعبودات من الأصنام . . وعداوة إبراهيم لهذه الأصنام ، ليست عداوةً ذاتية لهذه المعبودات ، من حيث هى نُصُب قائمة ، وإنما لأنها مضَلّة لهؤلاء الضّالين . . أما هى فى ذاتها ، فلا تعادَى ، لأنها لا تعقل ، ولم يكن منها فعل تُعادى من أجله .

— وفى قوله تعالى : « إلا ربَّ العالمين » هو استثناء من العداوة التى أوقعها إبراهيم على ما كانوا يعبدون هم وآباؤهم الأقدمون من معبودات . . ولما كان من بين هذه المعبودات التى كان يعبدها القوم فى مرحلة من مراحل حياتهم ، الله سُبحانه وتعالى ، فقد استثنى إبراهيمُ هذا المعبودَ الحق ، من تلك العداوة التى تقوم بينه وبين معبودات القوم . . وفى هذا ما يكشف للقوم على أن من بين ما كانوا يعبدون هم وآباؤهم ، معبوداً واحداً ، هو الذى ينبغى أن يُعبد ، وهو الله ربّ العالمين ، وأن ما سواه من معبودات هو باطل وضلال ، وهو ما لا يمكن أن تقوم بينه وبين إبراهيم صِلة ، إلا أن تكون صلة عداوة وقطيعة ! .

— وفى قول إبراهيم : « فإنهم عدوٌّ لى » دون أن يقول : « فإنى عدوٌّ لهم » حيث جعل العداوة منهم هم إليه ، ولم يجعلها منه هو إليهم ، كما يقضى بذلك ظاهر الأمر — فى هذا إشارة إلى أمور منها :

أولًا : أنه لما كان الله سبحانه وتعالى فى هذه المعبودات التى ذكرها إبراهيم ، فقد حَسُنَ أن يجعل إبراهيم العداوة صادرة من تلك المعبودات ، إلى من تُعاديه . لأن المعبود ، لا العابد ، هو الذى يُقام لعداوته ، أو رضاه ،

وزن ، ويكون لعداوته أو رضاه أثر . . أما العابد ، فلا وزن ، ولا أثر لعداوته أو رضاه ، فى من يعبده . . هكذا يجب أن يكون الحساب والتقدير . .

وثانياً : أنه لما كان الوجه البارز من هذه المعبودات هو هذه الأصنام الصمّاء الخرساء ـ فقد حَسُن أيضاً ألا يكون من عاقل أن يُعاديها ، لأنها لم يكن لها أن تفعل شيئاً تُعادَى أو تحبّ من أجله . . وأنه إذا كان فيها مَن يفعل ، وهو الله سبحانه وتعالى ، فإن عداوته لمن يعادى أو رضاه عمن يرضى عنه ، هو من أمره وحده ، إذ المعتبر هنا ، هو عداوته لمن يعادى ، أو رضاه عمن يَرْضى ، لا عداوة من يعاديه ، ورِضَا من يَرضى عنه ! .

ثم إنه بعد أن استصفى إبراهيم من بين تلك المعبودات ، المعبودَ الحقّ ، الذى يعبده ، والذى ينبغى أن يعبده العابدون . . أخذ يعرض صفات هذا المعبود ، وما بين يديه من سلطان مطلق ، يحكم به فى عباده . . فقال :

* « الذى خَلَقَنِي فَهُوَ يَهدِينِ * والذى هو يطعمنى ويَسْقِين * وَإِذَا مَرِضْتُ فهو يشفين * والذى يميتنى ثمّ يُحْيِينِ * وَالذِى أَطْمَعُ أن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » .

هذا هو الإله الحق ، مالك الملك ، ومن بيده النفع والضرّ . .

ويلاحظ هنا أن إبراهيم قد ذَكر من صفات الله ـ سبحانه ـ ما يتناسب وربوبية الربّ لعباده . . فهو الذى يربّى عباده ، ويحوطهم بنعمه وآلائه . . فيهدى الضالّين ، ويطعم الجائمين ، وَيَلْقَى خطايا المخطئين من عباده بالعفو والغفران ، يوم الحساب والجزاء . . ويروى الظّمآء ، ويشفى المرضى ، ويحيى الموتى . . وفى هذا ما يكشف للقوم عن نعم الله وإحسانه إلى عباده . . وفى هذا ما يُغريهم باللّياذ به ، واللّجأ إليه ، حتى لا يُحرَموا هذا الخير الكثير الذى فى يديه .

وإذ يُفتح لإبراهيم هذا البابُ الواسع من رحمة الله وإحسانه ، فإنه يُبادر بالدخول إلى هذا الجناب الرحيم ، ليأخذ حظّه من الخير الممدود هناك . . فيمدّ يده طالباً الفضل والإحسان ، من صاحب الفضل والإحسان .

* « ربِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ * وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ ولا بنون * إلا من أتى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

وأول ما طلبه إبراهيم من عطاء ربّه في هذه الدنيا ، هوأن يهب الله له حكماً أى سلطاناً من العلم والحكمة ، يمسك به حقائق الأشياء ، ويقيمها على ميزانه ، وبهذا يكون فى المقربين الصالحين من عباد الله . ثم كان الطلب الثانى له من ربّه أن يجعل له لسانَ صِدْقٍ فى الآخرين . أى يُبقى له ذِكراً طيباً فى الحياة من بعده ، وذلك لا يكون إلاّ لأهل الخير ، والصلاح ، من الناس . . ففى هذا الذكر الطيب ، طريق من طرق الهداية للناس ، حيث ينتصب لهم منه المثلُ الطيب ، والقدوة الصالحة ، وهذا ما علّمَ الله عباده المتقين أن يسألوه إياه ، ويدعوه به ، كما يقول سبحانه على لسانهم « واجعلنا للمتقين إماماً » (٧٤ : الفرقان) . ثم يجىء الطلب الذى تُختم به خاتمة الإنسان فى هذه الآية ، ويُدرك به غاية مسعاه ، وهو الفوز برضوان الله وجنات النعيم . « واجعلنى من ورثة جنة النعيم » . . وفى هذا النعيم العظيم ، لا ينسى إبراهيم أباه ، وما حَرَمَ نفسَه منه ، بضلاله ، وشروده عن الله . . فيسأل ربّه أن يغفر لأبيه ، حتى يذوق حلاوة هـذا الرضوان : « واغفر لأبى إنّهُ كان من الضّآلّين » . ثم عاد إبراهيم إلى نفسه ، وقد خاف أن يُحرم هذا النعيم الذى هو أحرص ما يكون على أن ينال حظّه منه : « ولا تُخْزِنِى يَوْمَ

يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » . . أى قلبٍ خالص من الشرك ، معافًى من الضلال .

الآيات : (٩٠ — ١٠٤)

* « وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) »

التفسير :

هذه الآيات ، هى تعقيب على هذه المشاهد ، التى شهد فيها المشركون من قريش ، موقف أهل الضلال ، كقوم فرعون وقوم إبراهيم ، وما يعبدون من دون الله . . وتأبّيهم على الهدى ، وخلافهم لمن يدعونهم إلى الله . . وفى هذا التعقيب ، تنكشف عواقب الأمور ، المحسنين والمسيئين جميعاً ، فينزل كلٌّ منزلته ، وينال كل جزاء ما عمل .

فأما المؤمنون المتقون ، فتُزلَف لهم الجنّة ، أى تدنو منهم ، وتفتح أبوابها لهم فيدخلونها ، وينعمون بما أعد الله سبحانه وتعالى لهم فيها من نعيم مقيم . . وكأن هذه الجنّة التى أُزْلِفَتْ ودنت المتقين ، كأنما هى جواب على سؤال

إبراهيم ، واستجابة لدعوته فى قوله : «واجعلنى من ورثة جنة النعيم » . . وكأن الجواب : هذه هى الجنة قد أُزلفت لك وللمتقين ، فتبوأْ منها حيث تشاء . .

وأما أهل الشقاء ، والضلال ، فها هى ذى الجحيم تبرز لهم ، أى تَطّلُع عليهم ، وتحيط بهم سُرادقها . . ثم يقال لهم : أين ما كنتم تعبدون من دون الله ؟ أين هم ؟ وما حيلتهم لكم فى هذا البلاء الذى تُساقون إليه ؟ « هل ينصرونكم » ؟ وهل يَمُدُّون إليكم يداً تخرجكم مما أنتم فيه ؟ « أو ينتصرون » هم لأنفسهم ، إذا وقعوا فيما أنتم فيه من مهالك ؟ لقد تقطع بينكم ، وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون ! وإذن فإلى مصيركم المشئوم : « إن عذابَ رَبِّكَ لواقع * ماله من دافع » (٧ ـ ٨ : الطور) .

« فكبكبوا فيها هم والغاوُون * وجنود إبليس أجمعون » .

والكبكبة : أصلها الكبّ ، وهو إلقاء الشىء على وجهه ، والكبكبة : تدهور الشىء وسقوطه فى هوّة ، حيث يكبّ مرة ومرة ومرات .

ثم إذ تجتمع هذه الأخلاط من الضلال بعضها إلى بعض ، تتصارع وتتناهش كما تتناهش الحيات ، يسوقها سائق عنيف إلى جحر واحد ! وفى هذا الجحر الضيق الخانق ، يكثر اللدغ والنَّهْش ، ويعلو الصّراخ والعويل ! « ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » (٢٥ : العنكبوت) .

الآيات : (١٠٥ — ١٢٢)

* « كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى

رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) »

التفسير :

وعلى نهج القرآن الكريم ، فى تنويع المعارض ، والانتقال بالناس من مشاهد الحياة الدنيا ، إلى مشاهد القيامة ، ثم العودة بهم إلى حيث هم فى حياتهم الدنيا ، وما هم فيه من غفلة ، حيث تعرض عليهم الآياتُ والنذر ، ليكون لهم فيها عبرة ومُزْدَجر ـ على هذا النهج ، جاءت قصة نوح وما بعدها من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، ليرى فيها هؤلاء المشركون من أهل مكة ، بعد أن عادوا لتوّهم من مشاهد القيامة ، وما يلقى فيها أهل الضلال من عذاب ونكال . . لعلّ فى هذا ما يفتح لهم طريقاً إلى الهدى والإيمان . .

وفى قصة نوح صورة واضحة ، تجرى فيها الأحداث على نحو مماثل تماماً لما يجرى بين النبىّ وقومه . . يدعوهم إلى الله ـ وهو أخوهم ـ فلا تعطفهم عليه عاطفة النسب والقرابة ، ولا ينكشف لأبصارهم شعاع من هذا النور

المشرق الذى بين يديه ، ولا يستجيب له منهم إلاّ قليل من حاشية القوم ، من عبيد وإماء ، وصغار ، وإلا بعض من أهل اللين والتواضع ، ممن لا يراهم القوم من أصحاب الجاه والسلطان فيهم ! وهؤلاء الذين آمنوا من المستضعفين وأشباه المستضعفين ، هم علة أخرى من العلل المريضة التى تدعو القوم إلى خلاف النبىّ ، والوقوف فى الجانب الآخر المعادى له . . « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » ؟ وهذا ضلال فى التفكير ، وسفاهة فى الرأى . . فإن أول المستجيبين لأنبياء الله ورسله ، كانوا دائماً من عامة الناس ، ممن لا يمسكهم الخوف على جاه أو سلطان أن يذهب به الدين الجديد . . وهكذا الشأن فى دعوات الإصلاح والتجديد . . إن أكثر الناس حرباً عليها ، ووقوفاً فى وجهها ، هم أصحاب المصالح من ذوى الرياسات المدنية أو الدينية . . على حين يكون أقربُ الناس إليها ، وأكثرهم استجابةً لها هم من خلَت أيديهم من كل سلطان مادِّىّ ، أو روحىّ ! هكذا موقف النبىّ مع قومه ، وهكذا كان موقف نوح مع قومه . .

ولا يملك نوح إزاء هذا العناد الغاشم ، إلا أن يرفع شكاته إلى ربّه ، قائلاً : « رَبِّ إنّ قومى كذّبون » . . وإلا أن يسأله الحكم بينه وبينهم فى هذا الموقف ، الذى بلغ الغاية من التأزم والحرج بينه وبينهم . . فهو إما أن يمسك عن الدعوة إلى الله ، وإما أن يرجموه . . ولا ثالث غير هذين . . « فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجّنى ومن معى من المؤمنين » . . أى فاحكم بينى وبينهم ، فإن الله هو الحكم العدل ، الذى يقضى بهلاك الظالمين ، ونجاة المؤمنين . . ولهذا طلب نوح النجاة له ، ولمن معه من المؤمنين ، من هذا البلاء الذى يحمله حكم الله فى القوم الكافرين . . وقد نجّى الله نوحاً ومن معه ، وأغرق الكافرين الضالين .

وإن فى ذلك لآية ، فيها العبرة والموعظة ، لهؤلاء المشركين من أهل مكة ، ولكن أكثرهم لا يؤمنون بهذه الآيات ، ولا يقفون عندها ، ليطالعوا وجه العبرة فيها .

الآيات : (١٢٣ — ١٤٠)

* « كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَٱتَّقُوا ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٤٠) »

التفسير :

وآية أخرى من آيات الله .. هى فى هذا الصراع الذى كان بين « هود » عليه السلام ، وبين قومه .. إن قوم « هود » على شاكلة قوم نوح .. سواء بسواء .. فهل يجد فيها المشركون عبرةً لهم ؟ .

« إن هودًا» يدعوهم إلى الله ، وإلى أن يستقيموا على طريقه المستقيم ، وهو فى هذا الذى يدعوهم إليه ، لا يريد إلاّ الخير لهم ، والنجاة لأنفسهم ، من عذاب الله .. وليس له أجرٌ على هذا ، يقتضيه منهم ، وإنما أجره على ربّه ، الذى حمّله رسالته تلك .. إنه الطبيب الذى يكشف لهم عللهم وأدواءهم ، ويقدّم لهم الدواء الذى إن قبلوه وتعاطوه ، كان فيه شفاؤهم وسلامتهم .

وإن الداء المتمكن منهم ، هو تكالبهم على الدنيا ، واستعبادهم لزخارفها ، دون أن يكون لهم نظر إلى ما وراء هذه الحياة ..

* « أتبنون بكل رِيعٍ آيةً تعبثون » . ؟

الرِّيع : المكان المرتفع ، وواحده رِيعة .

فهذا هو بعض ما يشغلهم فى دنياهم .. الافتنان فى بناء مجالس اللهو والسَّمَر ، والإبداع فى تصويرها ونقشها ، وجلب كلّ غريب نفيس إليها .. حتى لتبدو وكأنها آية فى الحسن والجمال .. ومن شأن الآيات أن تثير العقل ، وتغذّى الوجدان ، وتعلو بالنفس عن مدارج الأرض إلى معارج السماء ! ولكن تلك الآيات ، التى يُبدعها القوم ، هى آيات لاهية عابثة ، تعلو بحيوانية الإنسان على آدميته ، وتنتصر لجسده على روحه !

* « وتتخذون مصانع لعلكم تخلُدون » . ؟

المصانع : الأمكنة الجيدة الصنع ، وهى التى للإنسان فيها تقدير وتدبير ، كما يقال : « صُنْعَ الله » .. ويقال : رجل صَنَع ، أى حاذق الصنعة جيّدها ، وامرأة صَنَاع .. والصنيعة : ما يُصْنَع من خير للغير ..

وهذا وجه آخر من الوجوه التى يصرف القوم فيها جهدهم ، وهو أنهم يجوِّدون فى صناعة منازلهم وأمتعتهم ، وأدوات ركوبهم .. حتى لكأنهم خالدون فى هذه الدنيا ، لا يموتون أبداً .. فليتهم إذ أجادوا الصنعة وأحسنوا

العمل فيما هو لدنيام ـ أن يجيدوا بعض الإجادة ، ويحسنوا بعض الإحسان ، لِما بعد هذه الحياة الفانية .

* « وإذا بطشتم بطشتم جبّارين » .

فقد كان القوم على بَسطة خارقة فى الجسم ، ومع هذه البسطة الخارقة فى الجسم قوة طاغية فى الحرب والقتـال . . وتلك نعمة أساءوا استعمالها ، فاستبدّوا بِمن حولهم ، وأزعجوا أمْن جيرانهم ، بغياً وعدواناً فى غير رحمة . . فـكانوا أشبه بالوحوش الـكاسرة ، تقتل كل ما يقع ليدها من حيوان أو إنسان ، فى حال جوعها وشبعها على السّواء . . إنها تغذّى طبيعة الافتراس على أية حال . . وشأن القوم مع هذه العظات ، شأن كل غوىّ ضال ، قد استبدّ به ضلاله ، فلم يرَ إلا ما يراه ، وهو الأعمى الذى لا يرى إلا ظلاماً وأوهاماً . .

يلقاهم الداعى الـكريم بهذا النذير : « إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » فيلقونه بهذا الرد الهازىء الساخر .

* « سواء علينا أوعظت أم لم تـكن من الواعظين » ! !

إننا لا نسمع لك قولا ، ولا نقبل منك رأياً .

* « إنْ هذا إلا خلق الأولين » .

أى فما هذا الذى تحدث به إلا أكاذيب وأضاليل ، تحدّثَ بهـا أناسٌ قبلك ، وتوعدوا الناس بالعذاب ، فلم يقع شىء مما تحدثوا به .

* « وما نحن بمعذبين »

إن كان هناك حقاً عذاب . فنحن أقوى الناس قوة ، وأعزهم مكاناً ، وأمنعهم سلطاناً ـ فـكيف نعذب ؟ إنما يعذب هؤلاء الضعفاء ، الذين لا يملـكون ما يدفعون به عن أنفسهم الأيدى التى تمتد إليهم بأذى ! . . ذلك ظن من غرهم

ما أنعم الله به عليهم من نعم ، فاستكبروا ، وعتوا ، وقالوا ما قال صاحب الجنتين لصاحبه : «ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلباً» (٣٥ ـ ٣٦ : الكهف)

الآيات : (١٤١ — ١٥٩)

* «كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ آمِنِينَ (١٤٦) فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٥٩)»

التفسير :

وتلك آية أخرى . . فى هذا الموقف الذى كان بين نبى الله صالح عليه السلام ، وبين قومه «ثمود» .. ! «وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون (١٠١ : يونس)

« وفى سورة هود » عرض لهذه القصة ، فى معرض قصص الأنبياء .. نوح ، وهود ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب ، وموسى .

والعرض الذى جاء هنا ، هو مماثل فى مضمونه للعرض الذى جاء فى سورة هود ، كما هو مماثل للمعارض التى جاءت فى مواضع أخرى من القرآن ، والتى تختلف بسطاً وقبضاً - ومع هذا ، فإن فى كل معرض دلالة جديدة ، هى فى معرضها روح يسرى فى كيان الحدث كله ، فإذا انضمت إلى غيرها ، امتزجت بالروح السارى هناك ، كما ينضم النور إلى النور ، فتتسع رقعة الضوء ، ولا تتغير صفته ، أو كما تجتمع قطرات المطر بعضها إلى بعض ، فيكثر كمها ، والماء ، هو الماء ، صفاء ، ونقاء ، وطهراً .

وقد عرضنا لهذا فى مبحثنا : « التكرار فى القصص القرآنى » وعرضنا نموذجاً للتكرار الذى جاء فى قصة موسى : ورأينا كيف كان هذا التكرار مجسّما للأحداث ، محركا لها ، كاشفا عن ظاهرها وباطنها جميعاً .. وهذا ما نجده فى كل تكرار جاء فى القصص القرآنى ، أو فى غيره من الموضوعات التى عُنى القرآن الكريم بإبرازها ، فى جميع وجوهها .. وهذا ما سنراه فى قصة صالح ، إذا نحن جمعنا المواضع التى ورد فيها ذكر من هذه القصة ..

هذا ، ويلاحظ التشابه القوى بين مواقف الأقوام من رسلهم ، على اختلاف أزمانهم وأوطانهم . إن رسلهم عندهم موضع تهمة .. فهذا ساحر ، أو مسحور ، وهذا شاعر أو مجنون ، وذلك دعى يتلقى من غيره ما يحدّث الناسَ به .. إلى غير ذلك ، مما يرمونهم به ، من بذىء القول ، وسفيه الحديث .. كما يلاحظ الشبه الكبير بين قوم عاد ، وقوم ثمود .. من حيث فراهة الأجسام وقوة البناء . وذلك مما يقوم شاهداً على أنهم كانوا على قرابة قريبة فى النسب والجوار .

ومن مفردات هذه الآيات :

قوله تعالى : « ونخل طلعها هضيم » : أى داخل بعضه فى بعض ، كأنما شُدِخ ، والطلع من النخلة أول ما يبدو من ثمرها ، وهو حين تزهر ، فيخرج منها الطلع على هيئة كيزان ، تنشقق جوانبه ، وتتفتق كما يتفتق الزهر عن أكمامه . .

وقوله سبحانه : « بيوتاً فارهين » أى حاذقين فى صناعتها ونحتها

وقوله سبحانه : « من المسحرين » أى ممن أصابهم السحر ، ومسهم أثره . .

وقوله جل شأن : « هذه ناقة لها شرب» : أى مورد ، تشرب منه فى يوم معين لها . .

وقوله تعالى : « فعقروها» أى ذبحوها . .

الآيات : (١٦٠ — ١٧٥)

* « كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا

ٱلْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٧٥) »

التفسير :

ولا تختلف قصة لوط مع قومه ، عن قصة كل نبى سبقه ، أو جاء بعده مع قومه . . إنه داعية يدعو باسم ربه إلى خير ، وإلى هدى ، وقومه — إلا قليلا منهم — يتصدون له ، ويقفون فى وجه دعوته ، مهددين ، متوعدين ، بالهلاك ، أو الطرد من الديار . .

وإذا كان ثمة اختلاف بين قوم وقوم ، فهو فى نوع الداء المتمكن منهم ، والذى يتسلط عليهم ، ويحكم تصرفاتهم فى الحياة . . فهم — أى الأقوام جميعا — يحملون فى كيانهم عللا نفسية ، وأمراضا روحية ، وعقلية ، ولكنّ لكل قوم داءهم الغالب عليهم ، وعلتهم المتمكنة منهم ، إلى جانب العلة الغليظة المشتركة بينهم ، وهى الكفر أو الشرك بالله .

والداء المتمكن من قوم « لوط » إلى جانب الكفر بالله ، هو هذا المنكر الذى كانوا يعيشون فيه ، ويأتونه جهرة من غير حياء أو خجل ، وكانوا فى ذلك أول من حمل هذا الداء ، الذى تفشّى فى الناس فيما بعد ، كما تتفشى الأمراض الجسدية ، التى تظهر فى الناس زمنا بعد زمن . . وفى هذا يقول الله تعالى على لسان لوط ، مخاطبا إيّاهم بهذا القول : « أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » (٨٠ : الأعراف)

ومن مفردات هذه الآيات :

قوله تعالى : « أتأتون الذّكران من العالمين » أى أتتصلون بالذكور ، من

بين العالمين ، وبهذا تكونون أول من يذيع هذه الفاحشة فى المجتمع الإنسانى !

وقوله تعالى : « بل أنتم قوم عادون » .. عادون : جمع عادٍ ، وفعله : عَدَا يعدو عدواناً ، والعدوان : مجاوزة الحد ، والخروج عن الطريق القويم .

وقوله سبحانه : « قال إنى لعملكم من القالين » .. القالى : المجانب للشىء الكاره له . .

وقوله تعالى : « إلا عجوزا فى الغابرين » . ! العجوز : هى امرأة لوط ، فقد كانت من المخالفين للوط ، فأهلكها الله بما أهلك به القوم..وفى هذا يقول الله تعالى : « إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك . كانت من الغابرين» (٣٣ : العنكبوت) . والغابرون : أى الماضون ، الذى هلكوا .

وقوله تعالى : « وأمطرنا عليهم مطراً » المطر هنا ، هو ما رماهم الله سبحانه وتعالى به من حجارة . أتت على القوم ، وعلى ديارهم جميعاً . . كما يقول سبحانه « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك » (٨٢-٨٣ : هود) .. ولهذا وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله : « فساء مطر المنذرين » . . أى أنه مطر يسوء من يحلّ به ، ويقع عليه ، وليس هو المطر الذى ينزل بالخصب والخير . . ونسبة السوء إلى المطر . . لأنه هكذا كان مطلعه عليهم ، وأثره فيهم . .

الآيات : (١٧٦ — ١٩١)

* « كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ

إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلاَ تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٩١) »

التفسير :

والداء الذى تمكّن من قوم شعيب ، وتسلط على سلوكهم فى الحياة ، إلى جانب الداء الغليظ ، وهو الكفر ـ هذا الداء ، هو التلاعب بالمكاييل والموازين، والتعدّى على حقوق الغير بهذه السرقة الخفية ، وخيانة الأمانة فى الكيل والوزن . .

ومع مَن هذا العدوان ؟ إنه مع بعضهم . . فكل منهم يخون صاحبه . . فهذا يخسر الكيل وينقص الميزان مع غيره إذا كال له ، أو وزن . . ثم هو يُلقىَ نفسَ العمل إذا كيل له أو وُزن له..إنه يَسرِق ، ويُسرَق .. وتلك حال لا ينتظم بها أمر مجتمع ، ولا تقوم عليها صلة مودة،وإخاء، بين الناس والناس.. فكل منهم على اتهام لكل الناس ، وعلى عداوة لكل من يتعامل معه .. آخذاً أو معطياً .

ولا يلقى شعيب من قومه ـ إذ يدعوهم إلى التى هى أحسن ـ لا يلقى منهم إلا التهديد والتكذيب ، وإلا السَّفَه والتطاول ، وإلا التحدى بنزول العذاب عليهم ، إن كان صادقاً .. « فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين » .
وقد سقط عليهم العذاب الذى طلبوه . . فهلكوا به !

ومن مفردات هذه الآيات :

قوله تعالى : « أصحاب الأيكة » الأيكة : الأرض ذات الشجر الكثير الكثيف ، وكان أصحابها من أرض مدين بالشام .

وقوله تعالى : « القسطاس المستقيم » : الميزان المعتدل ، القائم على الحق ..

وقوله سبحانه : « والجبلّة الأولين » : الخلْق الذين كانوا قبلهم ..
وقوله تعالى : « كسفاً من السماء » : أى قطعاً تنزل من السماء ، من حجارة أو نحوها .

وقوله سبحانه « عذابُ يومِ الظلة » . . الظلة ما أظلهم وأطبق عليهم فى هذا اليوم من عذاب الله .

هذا ، ويلاحظ أنه لم يقترن « شعيب » بالوصف الذى وصف به الأنبياء ، بأنه أخو القوم ، فقد جاء النظم القرآنى هكذا : « إذ قال لهم شعيب » . . ولم يجىء على هذا النظم : « إذ قال لهم أخوهم شعيب » .

وليس هناك من سبب ـ والله أعلم ـ إلا البعد عن الرتابة ، والتكرار الذى يخلو من الفائدة ، التى تلازم دائما كل تكرار جاء فى النظم القرآنى .. فقد ذكر فى غير موضع أن شعيباً ، هو من القوم وهو بهذا أخ لهم ، كما جاء فى قوله تعالى : « وإلى مدين أخاهم شعيباً » (٨٤ : هود) .

وفى قوله سبحانه : « وإلى مدين أخاهم شعيباً » (٨٥ : الأعراف) .

* * *

وملاحظة أخرى فى التعقيب الذى لزم كل قصة من هذه القصص جميعاً ، بلا استثناء ، وهو قوله تعالى : « إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم » ..

ففى كل قصة من هذه القصص ، آية ، فيها مُزدجَر لمن سبقت فيهم القصة ولمن يأتى بعدهم . . ولكن لم يكن فى هذه الآية ولا فى الآيات التى تلتها ، ما يفتح هذه العقول المغلقة ، ولا ما يهدى هذه العيون العمى . . فأبى أكثر الناس إلا كفورا .. وقليل هم أولئك الذين نفعتهم هذه الآيات ، وأغنتهم تلك النذر ، فآمنوا ، واهتدوْا ، ونجوْا من بلاء الدنيا ، وعذاب الآخرة ..

أما التعقيب على القصص بقوله تعالى : « وإن ربك لهو العزيز الرحيم » . فإن وصف الله سبحانه وتعالى بالعزة ، يكشف عما لله سبحانه وتعالى من سلطان قاهر عزيز ، بحيث يأخذ بناصية كل من يخرج عن سلطانه ، ويكذب رسله . . ولكن مع هذه العزة القاهرة ، رحمةُ الرحيم ، الذى أمهل الظالمين ، ومدّ لهم فى العمر ، وبسط لهم فى الرزق ، ولو أخذهم بذنوبهم لحرمهم شَرْبة الماء ، ونَفَسَ الهواء . .

الآيات : (١٩٢ — ٢٠٩)

* « وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُا۟

بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

« وإنه لتنزيل رب العالمين » . . الضمير فى «إنه » يعود إلى هذا القصص الذى قصه الله سبحانه وتعالى على نبيه الكريم ، فى هذه الآيات ، كما يقول سبحانه وتعالى : « إن هذا لهو القصص الحق » (٦٢ : آل عمران) .

وكما يقول جل شأنه : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » (١٣ : الكهف) وكما يقول سبحانه وتعالى « نحن نقص عليك أحسن القصص » (٣ : يوسف) .

فالتعقيب على هذا القصص الذى اشتمل على أخبار سبعة أنبياء ، مع أقوامهم ، ومن أرسلوا إليهم ، وهم حسب ترتيب ذكرهم : موسى ، وإبراهيم ، ونوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ـ التعقيب على هذا القصص بهذه الآيات ، هو رد على مايدور فى خواطر المشركين ، وما يتهامسون به حينا ، ويجهرون به حينا ، من أن هذا القصص ، إنما هو من أساطير الأولين ، ومن

واردات هذا المورد الذى ينبع من الأوهام والخيالات ..

وقوله تعالى : « نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين *. بلسان عربي مبين » .

هو بيان لمتنزل هذا القصص ، والمصدر الذى جاءت منه أخباره .. وأن متنزلَ هذا القصص ، هو السماء ، وأن مصدره ، هو الله رب العالمين ، وأن حامله إلى الرسول ، هو الروح الأمين ، وهو جبريل عليه السلام .. الذى هو أمين على أداء ما اؤتمن على أدائه ، من كلمات الله ، إلى رسول الله ..

وفى قوله تعالى : « على قلبك » إشارة تمكن وصول كلمات الله إلى الرسول ، وأنها لم تُلقَ على سمعه وحسب ، بل إنها نفذت إلى أعماقه ، وخالطت مشاعره ، واستقرت فى قلبه ..

[كلمات الله .. وكيف تلقاها النبى ؟]

كان أكبر همِّ الذين صوبوا سهامهم إلى سيرة النبى ، وإلى الرسالة الكريمة التى تلقاها من ربه ، وقام بتبليغها للعالمين ـ كان أكبر همهم ، أن يقطعوا صلة النبي بالسماء ، وأن يَنفوا عن القرآن أنه كلام الله ، وأنه كتاب سماوى لشريعة الإسلام .. ثم لاحرج عندهم بعد هذا أن يسلّموا « لمحمد » بكل شىء.. فليكن مشرّعاً عظيما ، وليكن مصلحاً عبقريا .. ليكن كما يشاء ويشاء له أتباعه ، إلا أن يكون نبياً ورسولا ، وإلا أن يكون صاحب رسالة سماوية ، منزلة من رب العالمين .. فذلك ما يَكثُر شغبهم عليه ، وتُشرع سهامهم له ، ولو كان فى ذلك مصرعهم !

وغاية هذا المكر الخبيث ، هو أن ينفوا عن شريعة الإسلام صفة القداسة ،

وأن ينزلوها منزلة الشرائع والمذاهب الوضعية ، ليكون ذلك داعيةً إلى الجرأة على العبث بها ، وجعلها في معرض التجريح والتعديل ، والتبديل ، حسب مقتضيات الأهواء والنوازع . .

ومن عجبٍ أن يعوّل الطاعنون في نبوة النبي من المستشرقين ، والملحدين ـ من عجب أن يعولوا في دراستهم لأحوال النبي مع الوحي ، على الأحاديث والأخبار التي رواها الثقات من المسلمين ، عن رسول الله ، ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أو شاهدوها من أحواله عند الوحي ، ثم يجعلوا هذه الأخبار ، والأحاديث دليلا على نفي الوحي ، الذي كانت تلك الحالات أعراضاً له ، وشواهد عليه . .

وقد يكون من المستساغ أن يخلي هؤلاء الطاعنون أيديهم من الأحاديث والأخبار ، التي تحدّث عن الوحي ، وعن الأحوال التي كانت تعرض للنبي منه ، ثم لينسجوا من مقولاتهم ومفترياتهم ما يشاءون ، للطعن في حقيقة الوحي ، وفي صحة ما يوحى إلى النبي . . فذلك على ما فيه من تلفيق وتزييف ، أقرب إلى المنطق ، من معالجة الحقائق الثابتة ، وتحويلها إلى مخلوقات من الباطل الصريح . .

إن خَلْق الشيء ابتداء أيسر من إقامته من أنقاض شيء آخر . . إنه بناء من أول الامر ، ولو كان هذا البناء على شفا جرف هار . . أما الخلق من شيء آخر . . فهو هدم وبناء . . يهدم الشيء ثم يبنيه من أنقاض ما هدم . . إنه أشبه بالثوب الجديد ، يمزق قطعا ثم يعاد جمعه من تلك الأمزاق . . ولثوب بال مهلهل ، خير من هذا الثوب المرقع . . كذلك فعل الملحدون الطاعنون في رسالة الرسول ، وفيما تلقاه وحياً من ربه . .

جاءوا إلى هـذا النسج المتين المتلاحم ، فجعلوه أمزاقاً ، ثم وصلوا تلك الأمزاق بعضهـا ببعض ، فـكشف ذلك عن جنـايتهم ، وفَضَح مكرهم وسوء تدبيرهم . .

إنهم ينقلون الأخبار الصحيحة ، ويعمدون إلى الحقائق الثابتة من أوثق المصادر الإسلامية ، ثم يتناولونها كما يتناول الحيوان فريسته ، بمخالبه وأنيابه حتى إذا أسالوا دمها ، وأخذوا أنفاسها ، ومزقوا أشلاءها ـ حاولوا أن يجمعوا من أشلاء هذه الحقائق الممزقة المتناثرة كائنا آخر ، هو هذا الباطل ، الذى يريدون أن يقيموه مقام الحق . .

وهم — هنا — فى حقيقة الوحى ، يعمدون إلى الأحاديث المروية عن الرسول ، والأخبار المشاهدة من أحواله مع الوحى ثم يصوِّبون إلى هذه الأحاديث وتلك الأخبار ، سهاماً مسمومة ، يحرفون بها الكلم عن مواضعه ، ليُفسحوا لباطلهم ، مكاناً يشوّه الحق ، ويشوش عليه . .

فمن الأحاديث المروية عن الوحى وكيف كان ينزل على النبى ، ما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن السيدة عائشة ، أن الحارث بن هشام ، سأل النبى صلى الله عليه وسلم : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال : « أحياناً يأتينى فى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدّه على ، ثم يفصم عنى وقد وعيته . . وأحياناً يتمثل لى الملك رجلا ، فيكلمنى ، فأعى ما يقول »

ومن ذلك ما يروى عن السيدة عائشة أيضاً أنها كانت تقول : « إنْ كان لينزل — أى الوحى — على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى الغداة الباردة ثم تفيض جبهته عرَقا »

ومن ذلك ما يروى عن عبادة بن الصامت ، أنه قال : « كان نبى الله

صلى الله عليه وسلم — إذا نزل عليه الوحى كُرِب لذلك ، وتَرَبَّد وجهه » . .
أى تغير .

وهذا يعنى — كما هو ظاهر — أن اتصال النبى بالوحى ، كان يستدعى منه مجاهدة روحية ، ونفسية ، وجسدية ، كى تتيح له هذه المجاهدة ، حالا مناسبة للعالم الروحى ، الذى يتصل به . . إنه لقـاء بين طبيعتين مختلفتين . . طبيعة بشرية ، وطبيعة مَلَـكية . . ولا بد أن يُحدِث هذا اللقاء احتكاكا ، وتفاعلا ، وفورانا . . فى الطبيعتين على السواء ، حتى يلتقيا لقاء ، يتم به التجاوب ، والتفاهم !

يقول « ابن خلدون » ، فيما يعرض للأنبياء عامة عند تلقى الوحى :
« وعلامة هذا الصنف ـ أى الأنبياء ـ من البشر ، أن توجد لهم فى حال الوحى غيْبة عن الحاضرين معهم . . مع غطيط ، كأنها ـ أى الحال ـ غَشْى أو إغماء فى رأى العين ، وليست منهما فى شىء ، وإنما هى فى الحقيقة ، استغراق فى لقاء المَلَك الروحانى ، بإدراكهم المناسب لهم ، الخارج عن مدارك البشر بالـكلية . ، ثم يتنزل إلى المدارك البشرية ، بسماع دوىٍّ من الـكلام ، فيتفهمه ،أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بمـا جاء به من عند الله . . تنجلى عنه تلك الحال ، وقد وَعَى ما ألقى إليه . . ويدركه ـ النبى ـ أثناء ذلك من الشدة والغطّ ما لا يعبر عنه : ففى الحديث : « كان مما يعالج من التنزيل شدة » . . وقالت عائشة : « كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصّد عرقاً » وقال تعالى : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا »(٥ : المزمل)

ثم يقول ابن خلدون : «ولأجل هذه الحالة فى تنزل الوحى ،كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنـون ، ويقولون : « له رِئىٌّ » أى تابع من الجن . . وإنما

لُبِّس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الأحوال[1] » .

ثم يمضى ابن خلدون ، فى تقدير هذا الرأى ، فيقول : « وهؤلاء الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم - قد جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية فى تلك اللمحة ، فطرة فطرهم الله عليها ، وجبلّة صورهم فيها ، ونزههم عن موانع البدن وعوائقه ، ماداموا ملابسين لها - أى الموانع - بالبشرية ، بما ركب فى غرائزهم من القصد والاستقامة ، التى يُحازون بها تلك الوجهة - أى الوجهة الملكية - وركز فى طباعهم رغبة فى العبادة ، تَـكْـلَف بتلك الوجهة ، وتسيح[2] نحوها .. فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ ، متى جاءوا - بتلك الفطرة التى فطروا عليها ، لا باكتساب ولا صناعة . . فلهذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم ، وتلقوا فى ذلك الملأ الأعلى ما يتلقونه ، وعاجوا - أى مالوا - به على المدارك البشرية ، منزلا فى قواها ، لحكمة التبليغ للعباد . . فتارة يسمع دويا ، كأنه رمز من الكلام ، يأخذ منه المعنى الذى ألقى إليه ، فلا ينقضى الدوىّ ، إلا وقد وعاه وفهمه ، وتارة يمثل له الملك الذى يلقى إليه ، رجلا ، فيكلمه ، ويعى ما يقوله .

ثم يقول : « واعلم أن الأولى - وهى رتبة الأنبياء غير المرسلين ، على ما حققوه - أى العلماء - والثانية - وهى حالة تمثل الملك رجلا يخاطب النبى - هى رتبة الأنبياء المرسلين ، ولذلك كانت أكمل من الأول . .

« إنما كانت الأولى أشد ، لأنها مبدأ الخروج ، فى ذلك الاتصال من القوة

---

(١) مقدمة ابن خلدون صفحة ٨٨ .

(٢) فى الأصل ، تكشف ، وتسبغ .. وهو تحريف .

إلى الفعل ، فيعسر بعض العسر . . ولذلك كان يحدث عنه فى تلك الحالة من الغيبة والغطيط ، ما هو معروف .

«وسبب ذلك، أن الوحى ، كما قررناه،مفارقة البشرية ، إلى المدارك الملكية، وتلقى كلام الملك ، فيحدث عنه شدة ، من مفارقة الذات ذاتها ، وانسلاخها عنها ، من أفقها ، إلى الأفق الآخر ، وهذا معنى الغط الذى عبر عنه النبى فى مبدأ الوحى فى قوله : « فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء ، وكذا ثانية ، وثالثة . . كما فى الحديث » .

ثم يقول ابن خلدون : « وقد يفضى الاعتياد بالتدريج فيه شيئاً فشيئاً ، إلى السهولة ، بالقياس إلى ما قبله . . ولذلك كانت تنزل نجوم القرآن ، وسوره، وآيه ــ حين كان بمكة ــ أقصرَ منها ، وهو بالمدينة . .

« وانظر إلى ما نُقل ــ أى روى ــ فى نزول سورة « براءة » فى غزوة « تبوك » وأنها نزلت كلها ، أو أكثرها ،عليه ــ أى على النبى ــ وهو يسير على ناقة ، بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصار المفصّل : فى وقت ، وينزل عليه الباقى ، فى حين آخر . . وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدَّين ، وهى ما هى فى الطول ، بعد أن كانت الآية تنزل بمكة ، مثل آيات الرحمن ، والذاريات ، والمدثر ، والضحى ، والفلق ، وأمثالها . . . »[1]

* * *

هذه بعض الأحاديث والأخبار ، التى روتها كتب الحديث والسيرة ، فى شأن الوحى ، واتصال النبى به . . وقد عرضنا رأى عالم مفكر من علماء المسلمين ، ومفكريهم ، فى هذه الأحاديث ، وفهمه لها ، وتصوره للوحى ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص : ٩٤

وللصلة التى بين النبى، وبين المَلَك المبلِّغ له كلمات ربه ، على نحو ما يفهمه المسلمون من هذه الأحاديث ، وما يتفق ومقررات الشريعة الإسلامية . .

وقد اتخذ الملحدون ـ كما قلنا ـ من هذه الأحاديث ، وتلك الأخبار ، مادة لخلق المفتريات ، والأكاذيب ، للطعن فى رسالة الرسول ، والتشكيك فى صدق ما جاء به . . إذ كان عندهم ، أن ذلك الذى نطق به النبى ، وسماه قرآنا ، ليس إلا هذيانَ محموم ، وأخلاطَ مصروع ، لا يعى ما يقول . .

وشاهدُهم على هذا ، تلك الأحوال الجسدية ، التى كانت تعرض للنبى ، حين ينزل عليه الوحى ، ويُلْقى إليه بما أمر الله أن يبلغه إياه . .

وأعجب ما فى هذا الموقف من أولئك الملحدين ، الذين يقولون هذه المقولات ، أنهم يلتقطون من الآيات ، والأحاديث ، والأخبار ، كلماتٍ ، يتخيرونها ، ويقتطعونها من الكيان الكلى للحقيقة ، ويعزلونها عن السياق الذى تجرى فيه ، ثم يقيمون عليها ما يقيمون من دعاوى ومفتريات . .

والذى كان يقتضيه الأسلوب العلمى ، فى البحث عن الحقيقة هنا ، هو التثبت أولاً من هذه الآثار ، والوصول إلى حكم قاطع فيها ، وفى مصادرها . . أهى صادقة ، أم كاذبة ؟ ثم يأتى بعد ذلك دور التطبيق لها ، والتعامل بها . . فإما أن تُقبل جميعاً ، أو تردّ جميعاً ، ـ أما أن يؤخذ من الخبر بعضه ، ويترك بعضه ، فذلك هو التلفيق ، الذى لا تقوم به حقيقة أبداً !

ونسأل أولاً :

ما رأى هؤلاء الملحدين فى هذه الأحاديث وتلك الأخبار ـ ما رأيهم فيها ؟ وما مقدار اطمئنانهم إليها ؟ أهى من الوثائق الصادقة فى نظرهم ؟ أم هى أحاديث موضوعة مكذوبة ؟ فإن كانت الأولى ، كان من المنطق والعدل ، أن يأخذوا

بها ، وبكل ما جاء فيها . . وإن كانت الثانية ، طرحوها ، وبحثوا عن وثائق أخرى ، يجدون فيها الصدق الذى يطمئنون إليه . . !

* * *

ولو أننا تركنا هذه المفتريات جانباً ، وضربنا صفحاً عنها ، لمَا وقع عندنا أن أحداً يعقل — مجرد العقل — أو يفهم — أدنى الفهم ـ يأخذ بهذه المقولات ، ويضيف شيئاً منها إلى سيرة الرسول ، يمس جانب النبوة فيه ، أو يغمز الصلة القائمة بينه وبين السماء ، ورسول السماء !

فليس يصح فى عقل عاقل أن تجىء المصادر الإسلامية ، بما يتهم الرسولَ بالصرع والجنون . . إذ كيف يسُوغ لمؤمن ، أن يروى حديثا عن رسول الله ، أو ينقله عنه إمام من أئمة الحديث ، ويكون فى هذا الحديث ، ما يعزل النبى عن النبوة . . ثم يصدّق بنبوته ، ويَدين بشريعته ، ويتعبّد بالقرآن الذى نزل عليه ؟ .

هذه واحدة ، تفضح فَهْم الملحدين لهذه الأخبار ، وتَخريجهم الملتوى السقيم لها . . وأخرى . . يسجلها الواقع ، ويشهد لها التاريخ شهادةً ناطقة بلسان بيّن على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان ـ وهى أنه ما كان لمصروع أو مجنون أن يقيم مجتمعاً يدين لرسالته بالولاء ، تلك الأجيالَ المتعاقبة عبرَ القرون ، وتزداد مع الأيام اتساعاً وامتداداً . . لا بعصبيّة أهله ، ولا بقوة أتباعه ، وإنما بما فى الرسالة ذاتها من قوى ذاتية ، تلقى الناس فى كل أفق من آفاق حياتهم ، وتلتقى مع كل طريق يتجهون فيه إلى الحق والخير ، والعدل ، والإحسان !

ويكفى هذا وحده : فى فضح هذا الزور ، وإلباس أهله الخزى والصغار ! أمجنون ، مصروع ، يبنى دولة ، وينشىء نظاماً ، ويقيم ديناً يعيش فى الناس

منذ قام إلى اليوم ، دون أن يصاب بنكسة أو خلل ؟ ثم أمجنون ، مصروع ، ثبت لهذه العواصف العاتية المزمجرة ، وحيداً فى وجه أمة صحراوية النفوس صخرية الطباع ، ثم لا يكون منه فى حال من الأحوال ، تخاذل أو ضعف ، حتى تُخصب هذه النفوس ، وتلين تلك الطباع ، وتخرج من أحشاء هذه الصحراء قادة الإنسانية ، وأساتها ، ومطلع شموس العلم والمدنية فيها ؟

ثم !

ثم أمجنون مصروع ، مختلط العقل ، هذا الذى يأسر قلوب معاشريه ، ويملك أنفسهم ، فإذا القلوب خافقة بحبه ، وإذا النفوس لا تعرف لها غذاء إلا من ينابيع الحبّ له ، والولاء لشخصه ، والتفانى فى سبيل مرضاته ؟

إن التاريخ ، لا يذكر فى سجله يوماً ، أن إنساناً كان له فى الناس رصيد من الحب والولاء ، ما كان لمحمد فى هذه الدنيا من حب وولاء . . !

ولا نسوق لهذا كثيراً من الأمثال ، ففى كل خطوة من خطوات النبى ، على مسيرة دعوته ، شواهدُ تقوم من كل جانب ، تنطق بما كان لمحمد ـ صلوات الله وسلامه عليه — من سلطان على النفوس ، مَلَكها بالإعجاب ، والحب والولاء . .

ففى بيعة الرضوان ، ومعسكر الرسول بالحديبية ، يريد دخول مكة ، زائرا للبيت الحرام ، وقريش تقف له ، وتصده عن بيت الله . . وكادت تكون الحرب . . ثم بعثت قريش عروة بن مسعود ، ليجدمع النبى سبيلا للخروج من هذا الموقف .. وقد التقى عروة بالنبى ، وتحدث إليه ، ورأى عن قرب ما للرسول الكريم عند أصحابه . من حب ، يعلو كل حب عرفه الناس بين محب ومحبوب .. فلا يتوضأ النبى إلا ابتدر أصحابهُ وضوءه ، وتسابقوا إليه ، ولا يبصق بصاقاً إلا تلقّوه ، ولا يسقط من شعره شىء إلا تهافتوا عليه — رأى عروة هذا ، رأىَ

العين ، فلما عاد إلى قريش ، حدثهم بما رأى ، وما وقع فى نفسه من هذا الذى رآه ، فقال : « يامعشر قريش . . إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشىّ فى ملكه .. وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قوم قط ، مثل « محمد » فى أصحابه .. ولقد رأيت قوماً لا يُسلمونه لشىء أبداً ، فَرُوا رأيكم »[١]

وخذ مثلا آخر

وقع خبّاب بن عدىّ ـ رضى الله عنه ـ فى يد قوم من المشركين قبل الفتح ، وأراد القوم أن يتقربوا به إلى قريش ، ليكون فى ذلك بعضُ الشفاء لهم مما فى قلوبهم من موقعة بدر . . وحين قُدّم خباب للقتل ، قال له أبو سفيان ، فى شماتة واستخفاف : « أيسرّك أن محمداً هنا تضرب عنقه ، وأنك فى أهلك ؟ » فقال خبّاب فى ثبات جنان ، وقوة إيمان : لا ، والله مايسرنى أنى فى أهلى وأن « محمداً » فى مكانه الذى هو فيه ، تصيبه شوكة تؤذيه . »[٢]

فانظر إلى هذا الحب ، وإلى تلك المشاعر القوية الصادقة المنبعثة منه ، والتى تعلو بصاحبها فوق كل ما يحرص عليه الناس فى دنياهم من نفس ، وأهل ، ومال . .

رجل بين النطع والسيف ، يُهيج فيه أبو سفيان غريزة الحب للأهل والولد ، فى تلك الساعة ، والموت منه بمرصد ، ويعرض عليه أمنية يكون فيها خباب بين أهله ، ومحمد فى هذا الموقف الذى فيه خباب . . فيندفع خباب يهدر فى غيظ وحنق . . لا والله لا أرضى أن أكون فى أهلى ، على أن تصيب « محمدا » شوكة وهو فى أهله!!

---

(١) السيرة لابن هشام : جزء / ٣ ص ٥٦

(٢) زاد المعاد ، من هدى خير العباد / جزء / ٢ ص ٢٧

ومثل ثالث . .

« أم حبيبة » زوج النبي ، وبنت أبي سفيان ، يدخل عليها أبوها في منزلها بالمدينة ، قبل أن يدخل في الإسلام ، وكانت قريش قد بعثته ، ليوثق الهدنة التي كانت بينها وبين المسلمين وليزيد في مدتها . .

وليس هذا ، هو المهم . . وإنما المهم هو الآتي :

عندما دخل أبو سفيان على ابنته أم حبيبة ، أراد أن يجلس ، ولم يكن في البيت غير فراش الرسول شيء يمكن أن يصلح للجلوس . . فهمَّ أن يجلس على هذا الفراش ، ولكن ابنته ردته عنه ، وطوته دونه . . فعجب لذلك ، وقال : يابنية . . ما أدرى أرغبت بي عن هـذا الفراش ، أم رغبت به عني ؟ قالت بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك . . نجس . . ولا أحب أن تجلس على فراش رسول الله ! فقال : والله لقد أصابك يابنية بعدى شر[1] ! ! » .

والصورة في غنًى عن كل تعليق . . وحسبنا أن ننظر فنرى أبا سفيان سيد قريش ، يُدفع عن أن يلمس فراش رسول الله ، ثم أن تكون اليد التي تدفعه ، هي يد ابنته . !

* * *

وليس هذا الحب والتقدير للنبي ، وقفا على أتباعه ، بل إن كثيراً من أحرار العقول والقلوب ، من مفكرى الغرب ، قد انتصروا للحق ، فرأوا « محمداً » على صورة أقرب إلى تلك الصورة التي يراها عليه أكثر أتباعه معرفةً به ، وحباً وإكباراً له . .

(١) زاد المعاد . جزء ١ ص ٥٦ .

يقول « برنارد شو » فيلسوف الغرب فى القرن العشرين الميلادى :
« لقد كان دين محمد موضع تقديرى السامى ، دائما . . لما ينطوى عليه من حيوية مدهشة . . لأنه ـ على ما يلوح لى — هو الدين الوحيد الذى له مَلَـكَةُ الهضم لأطوار الحياة المختلفة . . ولذلك فإنه يستطيع أن يجلب إليه كل جيل من الناس . .

ثم يقول : لقد عمد رجال « الاكليروس » فى العصور الوسطى ، إلى تصوير الإسلام فى أحلك الألوان ، وذلك بسبب الجهل أو التعصب الذميم . . والواقع أنهم كانوا يسرفون فى كراهية محمد ، وكراهية دينه ، ويعدّونه خصما للمسيح . أما أنا ، فأرى واجباً أن يُدْعى محمد منقذ الإنسانية . . وأعتقد أن رجلا مثله ، لو تولى زعامة العالم الحديث ، فإنه سينجح فى حل مشكلاته ، وإحلال السلام والسعادة ، فى العالم ، وما أشد حاجة العالم إليها اليوم » . .

وحسبنا هذه الشهادة ، من رجل لا يدين بالإسلام ، ولا يتهم بتعصب لنبى الإسلام ، تحت مشاعر الولاء الدينى له . . بل إنه ليقول هذه الحقيقة عن منطق العقل الحر ، البعيد عن كل تأثير عاطفى . .

* * *

بقيت هنا مسألة ، هى فى الواقع كانت مبعث هذا البحث ، وهى صورة الوحى الذى كان ينزل على النبى : أهو القرآن الكريم بكلماته ومعانيه ؟ أم هو معانى القرآن ، ثم يصوغها النبى فى قوالب لفظية ؟ أو بمعنى آخر . . هل القرآن لفظاً ومعنى ، كان وحياً من السماء ، وليس للنبى إلا تلقى هذا الوحى وتبليغه .. أم أن المعنى من الله ، واللفظ من محمد ؟ .

وقد أثار هذه المسألة ، ما جاء فى قوله تعالى : « نزل به الروح الأمين على

قلبك ، لتكون من المنذرين » « ١٩٣ : الشعراء » . . فكان من مقولات بعض المفسرين فى هذه الآية ، أن النبى صلوات الله وسلامه عليه ، كان يتلقى من الوحى معانى القرآن ، ثم ينقل هذه المعانى إلى كلمات . . وهذا يعنى أن القرآن سماوى المعنى ، أرضى اللفظ ! .

وهذه المقولة من بعض المفسرين ، هى ضمن مقولات كثيرة ، ينقلونها حكاية عن بعض الرواة ونقلة الأخبار ، وهم يريدون بهذا أن يضعوا كل ما بلغهم من مقولات ، دون أن يتحملوا تبعة تجريحها أو تعديلها ، تاركين لغيرهم مهمة القبول أو الرد ، والتعديل أو التجريح . . ونسوا أن هناك متربصين بكتاب الله وبرسول الله ، مهمتهم هى اصطياد هذه المقولات المريضة ، ثم محاجّة المسلمين بها ، لأنها أبلغ حجة ، إذ كانت مما قاله المسلمون فى كتابهم . .

وندع هذا ، لنقول : إن معنى الآية واضح صريح ، فى أن القلب هو وعاء الإدراك السليم ، والفهم الصحيح ، وهو موطن المعتقدات القائمة على الفهم والإدراك . . فنزول كلمات الله على قلب النبى ، معناه تمكن هذه الكلمات من القلب ، ونفاذها إليه مباشرة ، من غير معوّقات . . فليس كل كلام ينفذ من السمع إلى القلب . وليس كل مستمع بأذنه مُصْغيًا بقلبه .. فهناك كلام هو مجرد ألفاظ جوفاء ، تَطِنّ فى الأذن ، دون أن تجد طريقها إلى القلوب . . ومن هذا ما يروى عن الحسن البصرى — رضى الله عنه — أنه سمع واعظا يعظ فى مسجد البصرة ، فوقف مليًا يستمع إليه ، فلما لم يجد ما ينفذ إلى قلبه منه ، انصرف عنه قائلا : « ياهذا .. بقلبك شىء أو بقلبى » !

وكم من كلام طيب ، لايجد الآذان التى تسمع ، وإن وجد الآذان السامعة

لم يجد القلوب الواعية الفاقهة .. وفى هذا يقول الغزالى :

غزلت لهم غزلا رفيعاً فلم أجد لغزلى نسَّاجاً فكسَّرت مِغزلى

وقد كانت قلوب كثير من المشركين من هذه القلوب المغلقة ، التى لا تقبل الهدى ، ولا تطمئن إليه . . فكانوا يستمعون إلى كلمات الله دون أن ينفذ إلى قلوبهم شىء من شعاعها السنىّ الوضىء . . وفى هـــذا يقول الله تعالى : « إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً » (٥٧ : الكهف)

إن بين الأذن والقلب مابين السماء والأرض . . فإذا نزل الماء بالأرض الصلد ، زال عنها ، وأخذ طريقه إلى غيرها ، وإذا نزل بالأرض الطيبة ، سكن إليها ، فاهتزت به ، وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج . . وكذلك كلمات الله ، إذا مرت بالقلوب القاسية المظلمة ، لم تترك فيها أثراً ، ولم تثر منها إلا ما كمن فيها من ظلم وظلام ، كما يقول سبحانه : « كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين * لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم» « ٢٠٠ : الشعراء » أما إذا نزلت هذه الآيات فى القلوب السليمة ، الطيبة ، هشّت لها ، وغردت بلابل أيكها لهذا الحيا الذى يحيى موات القلوب ! « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله .. ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (٢٨ : الرعد) .

فالقلوب ، هى مستودع المعتقدات ، وموطن المعقولات ، من كل طيب وفاسد ، وصحيح ، وسقيم . . ولهذا كان نطق الأعراب بكلمة الإسلام ، دون أن تسكن هذه الكلمة إلى مكانها من قلوبهم ـ كان هذا مجرد مدخل يدخلون به إلى الإسلام ، فتُعصَم به دماؤهم وأموالهم ، أما الإيمان ، فليس لهم بعدُ نصيب منه ، حتى يدخل الإيمان فى قلوبهم . . وفى هذا يقول الله تعالى :

« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » (١٤ : الحجرات) .. ومنه قوله تعالى فى المنافقين : « يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم » (١١ : الفتح) .. أما المؤمنون ، فالإيمان ملء قلوبهم ، يعمرها باليقين، والسكينة ، والرضا .. كما يقول سبحانه : « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان » (٢٢ : المجادلة) .. أى مكنه من قلوبهم ، وثبته فيها كما يثبت الشىء بالكتابة .. ! وأصله من الكتب ، وهو ضم الشىء إلى الشىء، ووصله به .

وعلى هذا ، يكون معنى قوله تعالى : « نَزَلَ به الروحُ الأمينُ على قلبك » أنه ثبّت ما نزل به الوحى فى قلبه ، ومكن له فيه ــ فكان قلبه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ مستودع كلمات الله ، تجد فيه مستقرها ومستودعها ، حيث تعطى أكثر ما فيها من ثمر مبارك طيب ، وحيث تنزل الكلمة الطيبة ، فى هذا القلب الطيب المصفى من كل دَخَل ، فتكون كما وصفها الله فى قوله تعالى : « كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء .. تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » (٢٤ ــ ٢٥ : إبراهيم) ومن هنا تتحول كلمات الله فى قلب الرسول إلى معان شريفة كريمة ، وإلى سلوك شريف كريم .. فكان الرسول بهذا الأدب الربانى ، كما يقول عن نفسه ، صلوات الله وسلامه عليه : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » . وكما تقول السيدة عائشة ، رضى الله عنها ، عنه : « كان خُلُقه القرآن » هذه واحدة ..

وأخرى .. هى أن إعجاز القرآن ، ليس فى معانيه ، وإن كانت تلك المعانى معجزة فى سموها ، واستوائها على ميزان ، الحق، والعدل ، والإحسان .. ولكن المعجزة المتحدية فى القرآن هى نظمه الذى جاء عليه ، وبلاغة هذا النظم هو الذى أعجز منطق العرب ، وأخرس ألسنتهم .. ولهذا فقد تحداهم القرآن أن

يأتوا بعشر سور من مثله ، فى أى معنى يرد على خواطرهم ، ولو كان من صيد الوهم والخيال . . « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » (١٣ : هود) .

وثالثة . .

وهى أن النبى ، صلوات الله وسلامه عليه ، كان يتلقى من جبريل كلمات ربه ، فيحمله الحرص على الإمساك بها أن يبادر بترديدها على لسانه ، قبل أن يفرغ جبريل من إلقاء ما أمر بإلقائه إليه ، وفى هذا يقول الله تعالى له : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضَى إليك وحيه » (١١٤ : طه) ويقول : « لا تحرّك به لسانك لتعجل به . . إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » (١٦ ــ ١٨ : القيامة) فأى شىء كان يقرؤه جبريل على النبى ، حتى يتّبع ما يقرؤه عليه ؟ أكان معانى مجردة من ألفاظ ؟ ثم هل يمكن أن يقوم المعنى مجرداً من اللفظ الدال عليه ، الكاشف عن حقيقته ؟ . ، كيف ؟ كيف ؟

ورابعة . .

وهى أن هذا القرآن وصف بأنه كلام الله ، وذلك فى أكثر من موضع فى القرآن نفسه .

فقال تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله » (٦ : التوبة) .

ويقول سبحانه : « سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله » (١٥ : الفتح) ويقول سبحانه : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » (٧٥ : البقرة) .

فكيف يصحّ مع هذا أن ينسب القرآن إلى الله ، بهذا الوصف ، فيقال عنه إنه كلام الله ، إذا كان المعنى من عند الله ، واللفظ من عمل محمد ؟ وهل الكلام إلا هذه الألفاظ التى صيغت فيها هذه المعانى ، وصُبّت فى قوالبها ؟

إننا نأسف كثيراً ، إذ نرى مثل هذه المقولات ، تأخذ مكانها فى كتب التفسير ، ولو كانت على سبيل الحكاية لمقولات غير المؤمنين .. فكيف وهى تنسب إلى أئمة أعلام ، وتدس عليهم من أعداء الإسلام . ثم تؤخذ هكذا على علاتها ، دون أن تُوءدَ فى مهدها ، وترد على المفترين والمروجين لها ؟

* * *

قوله تعالى :

* « وإنه لفى زُبُرِ الأوّلين * أو لم يكن لهم آيةً أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ؟ » .

الضمير فى « إنه » يعود أيضاً إلى القصص القرآنى ، كما عاد إليه الضمير فى قوله تعالى : « وإنه لتنزيل ربّ العالمين » .

وقد خالَفْنا فى هذا أكثر المفسرين ، الذين جعلوا الضمير فى الموضعين عائدا على القرآن الكريم .. وجعلناه نحن عائداً على القصص القرآنى وحده .. وقد رَجحَ عندنا هذا الرأى لأمرين :

أولا : أن أكثر ما كان يتهم به النبى عند المشركين فى شأن القرآن ، هو ما جاء فيه من أخبار وحوادث ، من القرون الغابرة ، والعصور السحيقة .. ولهذا ، فقد كان الأمر فى تقديرهم لا يعدو أن يكون استماعاً من النبى لهذه الأخبار ، ثم تشكيلها ، وتلوينها بألوان الخيال ، وإخراجها على الصورة التى يتصورها ..

ومن أجل هذا حسبوا أنهم قادرون على أن يفعلوا فعله هذا ، فقالوا ماحكاه القرآن الكريم عنهم : « لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين » (٣١ : الأنفال) . . ثم كان من هذا ، أيضاً أنهم كانوا يهاجمون النبي من هذا الجانب ويمتحنون صدقه من هذا الباب .. فكانوا يسألون اليهود عن أخبار ماضية ، ثم يأتون النبي يسألونه عنها ، ويطلبون ماعنده من علم بها، إن كان على صلة بالسماء ، كما يدعى . . فقد سألوا الرسول عن ذى القرنين ، كما سألوه عن الساعة ، وعن الروح ، وغيرها من الغيبيات . .

وثانياً : ما جاء فى قوله تعالى بعد ذلك : « وإنه لفى زبر الأولين » . . وفى قوله : « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل » . . ففى هذا إشارة إلى أن هذه الأخبار ، ليست من واردات الوهم والخيال ، وأنها ليست من أساطير الأولين ، كما يقولون . . فهى من الأخبار التى دونت ، وسجلت فى زبر الأولين .

والزبر ، جمع زبور . والزبور القطعة من الكتاب . !

ومعنى هذا ، أن هذه الأخبار ، هى من بعض ما ضمت عليه الكتب السابقة ، وليست هى كل ما فى هذه الكتب ، إذ أن الكتب المنزلة على أهل الكتاب ، كانت تحوى كثيراً من الشرائع والأحكام ، والآداب ، إلى جانب هذه الأخبار ، فالأخبار ، جزء من هذه الكتب ، وزبر ـ أى قطع ـ منها .

ومن جهة أخرى ، فإن هذه الأخبار التى جاء بها القصص القرآنى ، كانت معلومة عند علماء بنى إسرائيل ، الذين يلجأ إليهم المشركون فى اصطياد الأخبار ، التى يختبرون بها النبي . فإذا كانت هذه الأخبار التى جاء بها القرآن لا تخرج فى مضمونها عما عند علماء أهل الكتاب ، الذين هم موضع ثقتهم . .

فكيف تكون من جهة النبي أكاذيب وأساطير، ثم تكون هي ذاتها عند أهل الكتاب حقًّا وصدقاً ؟

فالذى يدافع عنه القرآن الكريم هنا، هو دفع التهمة عن هذا القصص القرآنى،وقول المشركين عنه: «إنْ هذا إلا أساطير الأولين» . . وفى هذا الموقف ينكشف تعنّت المشركين، وضلالهم، وأنهم يقولون فى الخبر يتلقونه من النبيّ بأنه كذب واختلاق، على حين أنهم يأخذونه من أهل الكتاب على أنه الصدق الذى لا جدال لهم فيه ؟ أفليس هذا جَوْراً فى القضاء، واعوجاجاً فى الحكم ؟ وإذا كان هذا شأنهم فى هذا القصص، فإن هذا هو شأنهم فى كلّ موقف لهم مع آيات الله وكلماته . .

والسؤال هنا، هو : ماذا للنبيّ فى هذا القصص، وما حجته على المشركين وغيرهم به، إذا كان مدوّنا فى الكتب السابقة، وكان معلوماً لعلماء بنى إسرائيل؟ إنه ـ والأمر كذلك ـ ليس للنبي فضلٌ يَبين به على القوم، حتى يأخذ مكان القيادة، فى الدعوة إلى الله، ويدّعى فيهم هذه الدعوى بأنه رسول ربّ العالمين ؟ إن الأمر لا يعجز أيّامنهم أن ينقل هذا الأخبار من الكتب السابقة، أو أن يتلقّاها عن أحد علماء بنى إسرائيل . . فما حجة النبيّ على القوم بهذا القصص، وهو سلعة معروضة لمن يشترى بأقل ثمن، وأقل جهد ؟

والجواب ـ والله أعلم ـ هو أن حجة النبيّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بهذا القصص، ليس فى مجرد الأخبار التى ضُمّ عليها . . فهذه الأخبار ـ وإن كانت ذات دلالة عظيمة، على صدق النبيّ، من حيث صِدْقها الخالص، المصفّى من المفتريات، والأباطيل، التى عند أهل الكتاب ـ قد جاءت على هذا النظم المعجز من الكلام، الأمر الذى قام به التحدى، والذى استخزى أمامه القوم،وعجزوا عن أن يأتوا بشىء من مثله . . وهذا ما يشير إليه،قوله تعالى :

« أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشرِ سُوَرٍ مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين* فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنّما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون » (١٣ ـ ١٤ : هود) . . ثم تحدّاهم ـ سبحانه ـ بسورة واحدة ، فقال تعالى : « وإن كنتم فى ريبٍ مما نَزّلنا على عَبْدِنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » (٢٣ : البقرة) .

وإذ عجز القوم أن يقفوا هذا الموقف ، وأن ينزلوا إلى هذا الميدان ، إذ رأوا أن ما ينسجونه من تلك الأخبار ، لا يعدو أن يكون رقعاً مهلهلة ، وخِرَقاً بالية ، لا يلتفت إليها أحد ، وهى فى مواجهة هذا النسج الإلٰهى ، المعجب ، المعجز ـ نقول إذ عجز القوم عن هذا ، فإنهم لجأوا إلى أسلوب آخر ، يروّجون به لهذا الزيف ، ويغْرون الناس بالإقبال عليه ، بهذا الأسلوب الذى يقدمونه به ، ويعرضونه فيه . . فجلبوا القيان ، وعقدوا لهنّ مجالس السّمَر والغناء ، حيث يغنُون ويرقصون ، ثم يجىء فى أثناء ذلك مَن يقصّ عليهم ضروباً من القصص الخرافىّ ، لاتجد لها مساغاً فى الآذان إلا فى هذا الجوّ الذى دارت فيه الرءوس ، وغابت العقول ، بين الكأس ، والرقص ! . . حتى إذا صحا القوم من خمارهم ، طارت هذه الخرافات ، كما تطير أضغاث الأحلام.. وإلى هذا يشير قوله تعالى : « ومن النّاس من يشترى لَهْوَ الحديث ليُضلّ عن سبيل الله بغير علمٍ ويتخذها هُزُواً أولئك لهم عذابٌ مهين » (٦ : لقمان) .

قوله تعالى :

* « ولو نَزّلناه على بعض الأعجمين* فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين » .

والضمير فى « نزلناه » يعود أيضاً إلى هذا القصص ، الذى جاء فى الآيات السابقة . . كما يمكن أن يعود إلى القرآن الكريم كلّه ، إذ كان هذا القصص

بعضاً منه . . وما يصدق على بعضه يصدق عليه كلّه . .

والمعنى : أن هذا القصص ، أو هذا القرآن ، لو نزل على بعض الأعجمين ، ممن لا يعرفون العربية ، ولا ينطقون باللسان العربى ، فقرأ على القوم هذا القصص أو هذا القرآن ، بلسانٍ عربىٍّ مبين ، ما صدّقوه ، وما كان لهم من ذلك آيةً ، على أن هذا الكلام ليس من عند هذا الأعجمى ، وإنما هو آية من آيات الله، تجلّت فيه . . وإلا فمن أين له هذا البيان المبين باللسان العربى ، وهو الأعجمى الذى لا يحسن أن ينطق بكلمة عربية ؟ ولكن القوم قد استبدّ الضلال بعقولهم ، واستولى العناد على منطقهم . . !

وفى الآية إشارة إلى أن النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هو بالنسبة إلى هذا القرآن أشبه بالأعجمى . . إذ أنه لا يعرف من ذاته شيئاً من تلك الأخبار ، التى يحدّث بها هذا القصص الذى يتلوه على القوم.. تماماً كما لا يحسن أن ينطق باللسان العربى من لم يتعلم هذا اللسان ويتقنه . . ومن جهة أخرى ، فإن النبىّ لو عرف هذه الأخبار ، ما أمكنه نسجُها ، وإخراجها على هذا النظم البديع المعجز . . فهو بالنسبة إلى هذا البيان القرآنى ، أشبه بالأعجمىّ كذلك حين يكلّف أن ينطق باللسان العربى !

قوله تعالى :

* « كذلك سلكناه فى قلوبِ المجرمين * لا يؤمنون به حتى يَرَوُا العذاب الأليم »

سَلْكُ الشىء فى الشىء ، أو معه .. نظامه معه ، وضمه إليه .. ومنه قوله تعالى : « اسلك يدك فى جيبك » أى أدخلها إلى جيبك ، وأسقطها إسقاطاً ، كما تسقط الحبة على الحبّة فى نظم العقد . .

والإشارة فى قوله تعالى : « كذلك سلكناه » ـ يشار بها إلى تلك الصورة المتمثلة للمشركين ، وهم يستمعون إلى رجلٍ أعجمىٍّ خالص العجمة ، لم ينطق أبداً

بكلمة عربية ، ثم يطلع عليهم فجأة ، دون أن يبرح مكانه ، وقد نطق بهذا اللسان العربى المبين ، من آيات الله وكلماته ـ ثم هم مع هذا لا يجدون فى هذا آيةً ، لهم تدلّ على صدقه ، وأن هذا الكلام ليس من عنده !

فهذا القرآن يقع من قلوبهم ، ويسلك فيها هذا المسلك ، حين يسمعونه من رجل منهم ، لم يكن يتلو من قبله من كتاب ، ولا يخطه بيمينه . . إنه أشبه بأعجمى ينطق بلسان عربى مبين ، كأنما ولد بهذا اللسان ، وعاش بين أهله . . ومع هذا فإنهم لا يجدون فيما يتلوه عليهم النبى الأمى آية ، كما لا يجدون فيما يسمعهم إياه الأعجمى من لسانهم العربى المبين آية . . وهكذا تنتظم هذه الصورة الواقعة إلى تلك الصورة المفتَرضَة وتُسلك معها فى خيط واحد . . النبى الذى يحدث بهذه الآيات ، والأعجمى الذى ينطق بها لسانه . . إنهم لا يؤمنون بهذا أوذاك ، ولا يجدون آية فى حديث النبى ، أو منطق الأعجمى ! ولهذا جاء قوله تعالى : « لا يؤمنون به » أى لا يؤمنون بهذا الحديث ، سواء أكان من أمى ، أو أعجمى ..وهذا لا يكون إلا من قلوب قد ضمت على داء خبيث ، يغتال كل خير يمر بها ، ويدفع كل هدى يطرق بابها ، ولذا وُصفوا بالإجرام . . « فى قلوب المجرمين »

وقوله تعالى : « يروا العذاب الأليم » ـ إشارة إلى أنهم لن يؤمنوا أبداً ، ولو جاءتهم كل آية . . وذلك حتى يروا بأعينهم ما أنذروا به من عذاب أليم ، وعندئذ يؤمنون إيمان المضطر المكره ، والذى لا حيلة من النجاة من هذا العذاب ، إلا بأن يتعلق بحبل الإيمان ، الذى كان ممدودا له من قبل . . ولكن قد فات الأوان ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون !

قوله تعالى :

* « فيأتيهم بغتةً وهم لا يشعرون * فيقولوا هل نحن منظَرون »

أى أن هذا العذاب الأليم سيقع بهم فجاءة ، على غير توقع ، أو انتظار . . وعندها يكربهم الكرب، ويأخذهم الفزع ، فيسألون ، الإمهال والانتظار ، حتى يؤمنوا ، ويصلحوا ما أفسدوا . . ولكن ذلك لن يكون . . « إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر . . لو كنتم تعلمون » (٤ : نوح)

والمُنظَر : هو من يؤخّر الوقت الموقوت له ، لقاء دين أو نحوه . . ومنه قوله تعالى : « فنظِرة إلى ميسرة » (٢٨٠ : البقرة)

قوله تعالى :

* « أفبعذابنا يستعجلون ؟ » هو استفهام تهديدى للمشركين ، الذين يستخفون بعذاب الله ، أو ينكرون وقوعه . . فهم لا يؤمنون به حتى يقع بهم ويروه عيانا . . وإن لهذا العذاب وقتا موقوتا يقع فيه . . وإنه إذا كان إيمانهم لا يقع حتى يقع بهم العذاب ـ أفنعجل لهم هذا العذاب حتى يؤمنوا ؟ إننا قد فعلنا ذلك بكثير من الأمم قبلهم ، فعجلنا لهم العذاب فى هذه الدنيا ، وأخذناهم بما كذبوا ، فآمنوا حين رأوا هذا العذاب الواقع بهم ، ولكن لم ينفعهم إيمانهم بما كذبوا به من قبل .. أما هؤلاء المشركون ، فإن الله سبحانه ـ قد وعد نبيه الكريم ألا يعذب قومه ، وهو فيهم ، كما يقول سبحانه : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » (٣٣ : الأنفال) حتى لا يسوءه ما يراه من مصارعهم ، وخراب ديارهم ، وهو الذى قد جاء ليحيي مواتهم ، وليرفع خسيستهم ، ويكشف الجهل والظلام المطبق عليهم . . ولكن هذا الإمهال ، إلى حين . . فإنهم إن أفلتوا من عذاب الدنيا ، فإن هناك العذاب العظيم الذى ينتظرهم فى الآخرة . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى الآيات التالية . .

* « أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون » أى إننا إذا أمهلناهم فى هذه الدنيا ، ولم نرسل عليهم

المهلكات ، التي أرسلناها على المكذبين قبلهم . . ثم هم إذا تركوا ، حتى آخر يوم من أيام حياتهم - أليس بعد هذه السنين التي يقضونها في هذه الدنيا ، موت ؟ ثم إذاهم ماتوا ، وجاءهم العذاب الذي أعدّلهم في الآخرة ، أينفعهم شيء مما كانوا فيه في دنياهم، من مال وبنين ، وجاه وسلطان ، وأهل وعشير ؟ إنه لن يغني عنهم من عذاب شيء مما كانوا فيه . .

وقد نسب الاستعجال بالعذاب إليهم ، لأنهم بكفرهم وعنادهم ، قد أوجبوا وقوع العذاب عليهم ، وتعجيله لهم . . لأن هذا المعجل هو انتقام منهم لتكذيبهم بآيات الله ، وتحديهم لرسول الله ، والله سبحانه وتعالى يقول في فرعون وآله : « فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين » (٥٥ : الزخرف) ويقول في ثمود ، قوم صالح : « فعقروها . . فأصبحوا نادمين . . فأخذهم العذاب » (١٥٧—١٥٨ : الشعراء)

ويجوز أن تكون نسبة تعجيل العذاب إليهم، على سبيل الحقيقة ، لأنهم كانوا يستعجلون العذاب فعلا على سبيل التحدّى ، كما يقول الله سبحانه وتعالى : « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة أو ائتنا بعذاب أليم » (٣٢ : الأنفال)

قوله تعالى :

* « وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون * ذكرى وما كنا ظالمين »

هو تعقيب على التهديد الذي حملته الآيات السابقة إلى المشركين ، في قوله تعالى : « أفبعذابنا يستعجلون . . الآيات » . . أي أن هذا العذاب المرصود لمن يكذب برسل الله ، ويمكر بآياته ، إنما يقع في أعقاب ما يحمل الرسول إلى قومه من نُذُر بين يدى دعوته إياهم ، إلى الإيمان بالله ، حتى إذا بلغهم ما أنذروا

به ، ولم يتحولوا عن موقفهم الضال الذى هم عليه ـ أخذهم الله بالعذاب المقدر لهم . . وقد رأى المشركون فى القصص الذى قصه الله عليهم ، لسبعة أنبياء كرام ، ماحل بالمخالفين لكل نبى ، من بلاء ونكال ، كما يقول سبحانه : « فكلاًّ أخذنا بذنبه .. فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً .. ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض . . ومنهم من أغرقنا . . وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٤٠ : العنكبوت)

وهؤلاء المشركون ، قد أنذروا ، كما أنذر هؤلاء المكذبون المهلَكون قبلَهم . . وإنهم بهذا الإنذار ليقفون على حافة الهوة التى تردّى منها المكذبون إلى العذاب ، ويردون المورد الذى ذاقوا منه البلاء ، وكانوا فى الهالكين ! !

فماذا ينتظر هؤلاء المشركون بعد هذا ؟ إنه لا شىء غير العذاب . . فإذا لم يحل بهم فى مصبحهم أو ممساهم ، فذلك من إكرام الله سبحانه لنبيه الكريم ، ومنزلته عنده . . أما إذا أهلكوا فإنما يهلكون بذنوبهم . . « وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . .

وقوله تعالى : « ذِكرى وما كنا ظالمين » هو خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره ، هو ذكرى . . أى هذا الذى نقدمه بين يدى الإهلاك من نُذُر ، هو ذِكرى ، لِما فى الناس من فطرة تدعوهم إلى الإيمان بالله . . فهذا الإنذار بالرسل ، هو إيقاظ لهذه الفطرة الغافية ، أو الغافلة ، وتنبيه لها ، وتذكير !

وقوله تعالى : « وما كنا ظالمين » هو جملة حالية ، لبيان فضل الله على الناس ، وأنه سبحانه ، قد أقام فى كيانهم رسلاً تهديهم إلى الله ، وتكشف لهم الطريق إليه ، وهى هذه الفِطَر ، وتلك العقول . . وأنه سبحانه لو أهلك الكافرين منهم ، لكان ذلك جزاءاً وِفاقاً لهم ، على هذا الانحراف ، الذى

خرجوا به عن داعى الفطرة ، ومنطق العقل . . ولكنه سبحانه ، عزز هذه الرسل المودعة فى كيان الناس ، برسل من عنده ، يحملون إلى الناس آياته ، ويذكرونهم بما عهد الله به إليهم فى النشأة الأولى، فى قوله سبحانه : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم . ألستُ بربكم ؟ قالوا بلى . . شهدنا ! » (١٧٢ : الأعراف) .. وهذا ما يشير إليه بعض المتصوفة فى تفسيرهم لقوله تعالى : « واضرب لهم مثلاً أصحابَ القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون » (١٣ — ١٤ يس) . . فهم ـ أى الصوفية ـ يقولون : إن الاثنين ، هما العقل والقلب ، والقرية ، هى الجسد . . والرسول الثالث هو رسول الله . . وهذا المعنى ، وإن كان بعيداً ، إلا أنه يشير إلى أن فى الإنسان فطرة هى أشبه برسول من رسل الله إليه . .

الآيات : (٢١٠ — ٢٢٠)

« وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٢١٧) ٱلَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٢٢٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وما تنزّلت به الشياطين » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، من أكثر من جهة . .

فأولاً : أنه جاء فى آيات سابقة قوله تعالى : « إنه لتنزيلُ ربّ العالمين نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين » . . ثم أعقب هذه الآيات تعقيب على موقف المشركين من هذا الكتاب ، المنزل من ربّ العالمين ، ومقولاتهم المفتراة عليه . . فكان قوله تعالى : « وما تنزّلت به الشياطين » توكيداً لقوله تعالى : « وإنه لتنزيل ربّ العالمين » .

وثانياً : فى قوله تعالى : « ذكرى وما كنا ظالمين » — إشارة إلى أن المشركين قد جاءهم ما جاء المنذَرين قبلَهم ، من آيات الله . . ليكون لهم منها موعظة وذكرى . . وأن هذا الذى جاء إلى المشركين ، هو كتاب الله ، الذى تلقاه محمد وحياً من ربه . . وأنه ليس مما تنزلت به الشياطين ، كما يتنزّل على الكهان والسحرة . .

قوله تعالى :

* « وما ينبغى لهم وما يستطيعون * إنهم عن السّمع لَمَعْزُولون » .

أى أنه ما ينبغى للشياطين ، أن يأخذوا هذا الموقف ، وأن يكونوا سفراء بين الله وبين من يتخيرهم من عباده لرسالته . . إن الشياطين يعرفون قَدْرهم ، والحدّ الذى ينبغى أن يقفوا عنده . . ومن جهة أخرى ، فإنهم إذا أرادوا أن يخرجوا عن طورهم ، ويتجاوزوا حدودهم ، فإنهم لن يستطيعوا

أن يرتقوا هذا المرتَقَى ، وأن يبلغوا تلك المنزلة .. إنهم معزولون عن أن يسمعوا شيئاً مما فى الملأ الأعلى . . إذا أن بينهم وبين ملائكة الرحمن حجازاً ، كما أن بين الناس وبين الشياطين حجاباً . . فكلٌّ يعيش فى عالم ، دون أن ينفذ الى العالم والآخر . .

قوله تعالى :

* « فلا تَدْعُ على الله إلٰها آخَرَ فتكونَ من المعَذَّبين » .

هو تهديد للمشركين ، بهذا الوعيد الموجّه إلى النبىّ فى مواجهتهم . . فالنبىّ الذى يعرف المشركون ـ كما يقول لهم ـ هذه الصلة التى بينه وبين ربه ، يتلقى هذا التهديد ، إذا هو دعا مع الله إلٰها آخر ، كما يفعل هؤلاء المشركون ـ فكيف يكون حال غيره ممن ليس لهم عند الله هذا المقام الذى له ؟

فليس المراد بهذا النهى ، وبهذا الوعيد ، النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إذ كان أبعدَ الناس من أن يَطُوف به طائف من الشرك بالله . . ولكن ذلك للتعريض ، بالمشركين ، والتلويح لهم بهذا العذاب الراصد لكل من يُشرك بالله ، ولو كان من أقرب المقرّبين إلى الله . . !

قوله تعالى :

* « وأنذِرْ عشيرتك الأقربين » .

هو دعوة إلى هؤلاء المشركين ، الذين انكشف لهم حالهم ، وهم فى مواجهة هذا العذاب ، الذى يتهدّد به الله كلّ من يشرك به . .

فهذه الدعوة إلى إنذارهم وتخويفهم من عذاب الله ، تلقاهم وهم يتحسّسون أنفسهم ، ليُجْلوا عنها هذا الشرك ، الذى يوقعهم فى العذاب الأليم .

ثم إنّ في قوله تعالى : « عشيرتك الأقربين » داعيةً أخرى تدعوهم إلى الاستجابة للرسول ، وفتح عقولهم وقلوبهم لما يدعوهم إليه . . إنهم عشيرته ، وهم أقرب الناس إليه من عشيرته ، وهو ـ بحكم هذه الصلة ـ لا يريد لهم إلا الخير ، ولا يرتاد بهم إلا مواقع الرشاد .. وبخاصة فى تلك البيئة التي يعيش كل فردٍ فيها من أجل أهله وعشيرته ، لأن حياته مرتبطة بها ، وإن أى خطر يتهدّدها هو خطر عليه ، وعلى كل فردٍ فيها . .

قوله تعالى :

* « واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين » .

هو أمر بما يقضى به العدل ، فى التسوية بين عباد الله ، فيما يَنزِل عليهم من آيات الله ، وفيما يُفيضه رسول الله على الناس من بر ورحمة . .

فالرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وإن بدأ بدعوة أهله إليه ، فلأن ذلك الذى يدعوهم إليه هو برٌّ وضعه الله بين يديه ، والأهل والأقربون هم أولى الناس بهذا البرّ ، بعد نفسه ، كما فى الحديث الشريف : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » ثم إنه إذ كان هذا الخير هو مما لا ينفد أبداً بالعطاء ، والإنفاق ، بل إنه يزيد على الإنفاق ، ويحلو طعمه كلّما كثرت الأيدى الممدودة إليه ـ فقد كان على النبيّ أن يَسَعَ بهذا الخير الذى بين يديه الناسَ جميعاً ، قريبَهم وبعيدهم . . وأنه إذا بدأ بدعوة أهله إلى هذا الخير ، فإن ذلك لا يجعله يقف عند أهله ، ولا أن ينتظر حتى يجتمع أهله على هذا الخير ، بل إن عليه أن يحتفى بهؤلاء الضيوف الذى سبقوا أهله إلى هذه المائدة التى أعدّها ، ودعا الناس إليها .. فمن سبق كان أولى الناس بأن يأخذ مكان الصدارة منها ، وأن يكون بموضع الحفاوة والتكريم من ربّ الدعوة ، وصاحب المائدة . . سواء أكانوا من الأقربين ، أو الأبعدين . . ! « والسابقون السابقون . أولئك المقرّبون » .

قوله تعالى :

« فإن عَصَوْكَ فقل إنى برىء مما تعملون » .

هذا هو الموقف الذى ينبغى أن يأخذه النبى من أهله الذين لا يستجيبون له ، ولا يقبلون على دعوته . . إنهم حينئذ لا أهلَ ولا أقارب ، وإن عليه أن يتبرأ مما هم فيه من ضلال ، وألا يمد بصره إليهم ، بل ينبغى أن يكون نظره قائما على هؤلاء الذين استجابوا له ، واتبعوا سبيله !

قوله تعالى :

* « وتوكل على العزيز الرحيم * الذى يراك حين تقوم * وتقلبك فى الساجدين * إنه هو السميع العليم » .

أى دع هؤلاء المتأبّين عليك من أهلك وعشيرتك ، وما هم فيه من شرك ، وتوكل على الله وحده ، فهو الذى يشد أزرك ، ويمدك بأمداد القوة والعزة ، فهو « العزيز » الذى من اعتز به عزّ « الرحيم » الذى يلقاك برحمته، ولا يدَعك لأيدى الباغين والسفهاء من قومك ..

وفى قوله تعالى : « الذى يراك حين تقوم » — تأكيد لرعاية الله سبحانه وتعالى للنبى ، وإحاطته بعزته ورحمته . . فالله سبحانه وتعالى يراه ، ويطلع على كل حال منه ، فى سر وجهر ، وفى نوم ويقظة ..وخُصّت الرؤية بحال القيام، لأنها أشرف الأحوال ، التى يحبّ النبى أن يراه الله عليها ، وهو حال قيامه بين يدى ربه للصلاة .

وقوله تعالى : « وتقلبك فى الساجدين » — معطوف على الكاف فى « يراك » أى يراك فى قيامك ، ويرى تقلبك فى الساجدين ..

وتقلّب النبى فى الساجدين ، هو لقاء للمؤمنين فى الصلاة . وترديد نظاره فيهم ، وملاحظة كل منهم ، وإعطاؤه حظّه من عنايته ورعايته .. وخُصت حال السجود من أحوال المؤمنين ، لأنها الحال التى تقربهم من الرسول ، هذا القرب ، وتُنزلهم منه تلك المنزلة ..

هذا ما نحب أن نفهم الآية الكريمة عليه .. أما مايذهب إليه كثير من المفسرين من أن المراد بتقلّب النبى فى الساجدين ، هو تنقله من الأصلاب الزّاكية إلى الأرحام الطاهرة ، منذ آدم ، إلى مولده ، صلوات الله وسلامه عليه .. فهذا لا يَزيد من شرف النبى ، إن صحّ ، ولا ينُقص مَن قدره ، إن لم يصح .. فإن شرفه — صلوات الله وسلامه عليه — فى ذاته ، وفيما اختصه الله به من فضله وإحسانه .

وقد تحدث القرآن ، عن إبراهيم ، خليل الرحمن ، وأبى الأنبياء ، بما يدمغ أباه بالكفر ، وبعداوته لله . . كما تحدث عن ابن نوح عليه السلام ، بأنه من الذين حق عليهم العذاب !

وفى هذا ما يقطع بأن الأنساب لا شأن لها فيما يريد الله بعباده من خير وإحسان ، أو ما يرميهم به من بلاء وهلاك . . !

وفى قوله تعالى : « إنه هو السميع العليم » — تأكيد لرعاية الله سبحانه وتعالى ، للنبى ، وملاحظته له ، وأنه فى ضمانِ ربٍّ عزيز رحيم ، سميع عليم ..

الآيات : (٢٢١ — ٢٢٧)

* « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ

يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين » .

هو توكيد للنفى الوارد فى قوله تعالى : « وما تنزلت من الشياطين ».. فهذا النفى كان رداً على التهم التى يرمى بها المشركون النبى صلى الله عليه وسلم من مخالطة الشياطين له ، وتآخيهم معه ، وأن معه رِئيًا منهم يلقى إليه بهذه المقولات التى يحدثهم بها . . فقد كان من تصورات الجاهليين ، أن الشياطين والجن يخالطون بعض الناس ، ويعيشون معهم ، وأن الشعراء خاصة هم أقرب الناس إلى هذا العالم الخفى ، وأكثرهم اتصالا به ، وأن مع كل شاعر فحلٍ ، شيطاناً ، ينظم له الشعر .. وفى تاريخ الأدب العربى كثير من الشعر الذى ينسب إلى الجن ، إذ لم يعلم له قائل .. ومن هذا مايروى من الشعر فى حديث الهجرة وما كان من نزول الرسول — صلى الله عليه وسلم — وصاحبه أبى بكر ، بأمّ معبد . . ومما يُروى من هذا الشعر ، قولهم :

جزى الله ربُّ الناس خير جزائه رفيقين حلاَّ خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبِرّ ثم ترحلا فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهْنِ بنى كعب مكانُ فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد

ومن هذا أيضاً ، ذلك الشعر الذى قيل إن الجن رثت به أبا بكر .. ومثله هذا الشعر الذى ينسب إلى الجن فى رثاء عمر .. وغير ذلك كثير ، يمكن أن يجتمع منه ديوان كامل ..

فقوله تعالى : « وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغى لهم وما يستطيعون » هو عزل للقرآن الكريم ، عن أن يكون من تلك المصادر التى يتلقى منها الشعراء شعرهم ، كما يزعم العرب .. ثم إن قوله تعالى : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم » — هو عزل للرسول الكريم ، عن أن يكون على شاكلة هؤلاء الشعراء الذين يأخذون شعرهم عن الشياطين ، كما يزعمون .

فالقرآن الكريم ، فى علوه الذى لا يُنال ، أبعدُ من أن يدخل فى وهم الشياطين أن يتطلعوا إليه ، وأن يطوفوا بحرمه .. ثم على فرض أنهم أرادوا ذلك — تطاولا وسفها — فإنهم لن يبلغوا من هذا مأرباً ..

وقد تحدى القرآن الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، فقال تعالى :

« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (٨٨ : الإسراء) فما لهم لا يتصلون بالجن ، ويأخذون عنهم مثل ما أخذ النبى ؟

وشأن الرسول فى هذا شأن القرآن ، فهو فى مقام عال ، وفى حراسة من طهره ، وسموه ، من أن تُلِمّ به الأرواح الخبيثة ، أو تتعامل معه .. لبعد ما بينها وبينه ، وللاختلاف الشديد الذى بين طبيعتها وطبيعته ..

إن الشياطين ، إنما تتنزل ، وتتعامل مع أقرب الناس شبهاً بها ، وأكثرهم

تجاوباً معها، فى الاتجاه إلى غايات الشر، ومواقع الضلال.. «تنزّل على كلّ أفّاكٍ أثيم».. فهذا هو متنزل الشياطين ومهبط وحيهم. أن يتنزّلوا على أهل الإفك والإثم، وعلى من يتعامل بالإفك والإثم، الذى هو كل بضاعتهم.. وفى هذا يقول الله تعالى: «وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم» (١٢١: الأنعام)

والأفّاك: كثير الإفك، وهو افتراء الأحاديث واختلاقها ونسجها من خيوط الباطل والبهتان..

والأثيم: كثير الإثم، وهو المِقراف للآثام والمنكرات، دون تحرّج أو تأثم..

وإذن، فالقرآن ــ فى ذاته ــ بمعزل عن الشياطين، لا يدنون منه، ولا يطوفون بحرمه.

والنبىّ ــ فى ذاته ــ على طبيعة من الصفاء والنّقاء والطهر، لا يقترب منها الشيطان، الذى هو طبيعة خبيثة قذرة، لا تميل إلا إلى الخَبَث والقَذَر.. شأن الذباب الذى يتهافت على الأقذار، ويتجنب كل نظيف طاهر! وإذن، فإن ما يتحدث به الرسول لن يكوّن من تلقيات الشياطين أبداً، سواء أكان ما يتحدث به منسوباً إلى السماء، أو منسوباً إليه.

قوله تعالى:

* «يلقون السمع وأكثرهم كاذبون».

الضمير فى «يُلْقُونَ» يعود إلى الشياطين.. والمراد بإلقائهم السّمع، أنهم يتجهون بأسماعهم إلى الملأ الأعلى، ليسترقوا السّمع، ويتحسّسوا ما يكون من أنباء عن العالم الأرضى هناك.. حتى إذا وقع لهم شىء من ذلك ألقَوْا به إلى أوليائهم من الإنس، ليضلّوهم، ويجعلوا منهم صنائع لهم..

وقد كان الشياطين يفعلون ذلك قبل نزول القرآن ، فيقع لهم شىء من بعض أخبار السماء ، فيحدّثون به أولياءهم ، حديثاً مختلطاً ، يجمع بين الصدق والكذب ، والحق ، والباطل ، وفى هذا يقول الله تعالى على لسان الجنّ ، « وَأَنَّا كُنَّا نقعد منها مقاعد للسَّمْع فمن يستمع الآن يجدْ له شِهاباً رصداً » (٩ : الجن) .

وقوله تعالى : « وأكثرهم كاذبون » جملة حالية من الضمير فى « يلقون » أى أن أكثر هؤلاء الشياطين الذين يتسمعون إلى أخبار السماء ، كاذبون فيما يُلقُون إلى أوليائهم من الناس من أخبار ، فالمستمع إليهم ، والمتلقى عنهم ضالٌّ ، ومضِلٌّ لغيره ، إذ يقع فى يقينه أن ما سمعه هو الصدق كلّه ، فيأخذ به جيمه ، فتسوء العاقبة ، وينكشف الحال عما يجلب الحسرة والندم . .

والسؤال هنا : إذا كان أكثر الذين يتسمعون إلى أخبار السماء كاذبين ، فهل هناك قِلّة منهم لا تتصف بهذه الصفة ؟

والجواب : نعم ، فإنّ من الجن ، مؤمنين صادقى الإيمان ، يتحرّون الصّدْق ، ويُلزمون أنفسهم به ، شأنهم فى هذا شأن المؤمنين الصادقين من الناس . .

قوله تعالى:

* « والشعراء يتّبعهم الغاوون ألم ترَ أنّهم فى كل واد يَهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

هو تأكيد لبُعد النبيّ صلوات الله وسلامه عليه ، عن أن يكون على أية صلة قريبة أو بعيدة من الشياطين ، وما يتنزلون به على أوليائهم — إنهم لا يتنزلون إلا على كل أفّاكٍ أثيم .. وقد عرفت قريش فى « محمد » مالم تعرفه فى إنسانٍ

قط ، من صدق الحديث ، واستقامة السلوك ، وطهارة النفس ، حتى لقد كانت تلقبه قبل البعثة بالصادق الأمين .

وإذا كانت قريش ، وكان الجاهليون عموماً ، يزعمون أن الشعراء ، يتلقون أشعارهم مما يوحيه إليهم شياطينهم ، فإن محمداً ليس شاعراً ، لا بالقوة ولا بالفعل .

فمحمد لم يقل شعراً فى حياته أبداً . . لا قبل البعثة ولا بعدها .

ومحمد ليس من طبيعته أن يكون شاعراً ، كما عرفت قريش من حياته معها ، ومعاشرتها له ، واطلاعها على كل شأن من شئونه . . إذ كان فى بيئة عارية ، لا يختفى فيها شىء عن أبصار الناس وسمعهم . .

فمحمد أبعد الناس عن أن يكون شاعراً ، بطبعه ، أو بلسانه . . وهذا الكلام الذى يحدّث الناس به ، ليس من واردات الشعر ، سواء أكانت نسبته إلى السماء . أم إلى محمد نفسه . .

فالقول ، الذى تقوله قريش على محمد بأنه شاعر ، كما يقول الله سبحانه وتعالى عنهم : « أم يقولون شاعر نتربّص به ريب المنون » (٣٠ : الطور) وكما يقول جلّ شأنه : « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه . . بل هو شاعر . . فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » (٥ : الأنبياء) ــ هذا القول الذي تقوله قريش ــ ساقط ، يكذّبه الواقع الذى تعرفه قريش ، وتستيقنه من أمر محمد . . وفى هذا يقول الحق جلّ وعلا : « وما علمناه الشعر ، وما ينبغى له ، إن هو إلاّ ذكرٌ وقرآن مبين » (٦٩ : يس)

وفى قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون » . . إلفات لقريش ، إلى هؤلاء الذين اتبعوا محمداً وآمنوا به ، وأنهم جميعاً كانوا على حالٍ من الاستقامة والقصد ، بحيث لا تميل بهم أنفسهم إلى جانب الشعراء ، ولا تهفو

طباعهم إلى أن يكونوا فى موكبهم ، ومن بطانتهم ، أو شيعتهم . . وفى هذا دليل مادى آخر ، على أن محمداً ليس بشاعر ، وأن ما يحدّث به ليس من قبيل الشعر ، وإلا لكان أتباعه من الشعراء .. لساناً ، وطبيعة . . فالشعراء إنما ينضوى إليهم من كان على شاكلتهم ، من أهل الغواية ، والبطالة . .

وقوله تعالى : « ألم تر أنهم فى كلّ وادٍ يهيمون » . . هو بيان الصفة الغالبة على الشعراء ، وأنهم لا يلتزمون الواقع ، ولا يتحرّون الصدق، وذلك لما فى طبيعة الشاعر من توفّز الشعور ، وجموح الخيال ، وتقلّب العاطفة . . فيخرج به ذلك كله عن أن يرى الأمور على حقيقتها ، بل يلونها بخياله ، ويصفيها بمشاعره ، ويتعامل معها كما تقع فى وجدانه . . ومن هنا جاء القول المشهور : « أعذب الشعر أكذبه » . . كاشفاً عن الصفة الغالبة على الشعر ، وهو الخيال الذى يلوّن الحقيقة ، ويضع عليها من الأصباغ ما يغير وجهها ، فيبدو القبيح جميلا ، والجميل قبيحاً ، كما تفعل الأصباغ والألوان التى تلوّن بها وجوه الممثلين ، والثياب التى يلبسونها ، والشّعر المستعار لرءوسهم ، ولحاهم ـ كما يفعل ذلك كله فى إخفاء شخصية الممثل ، وإظهاره فى الصورة التى يقتضيها الدور الذى يقوم به على مسرح التمثيل . .

قوله تعالى :

• « وأنهم يقولون مالا يفعلون » . . هو بيان لحالٍ من تلك الأحوال التى تلبس الشعراء التى أشارت التى إليها الآية السابقة :

« ألم تر أنهم فى كل وادٍ يهيمون » . . إذا أن من مقتضى هيامهم فى كل وادٍ ، أنهم لا يستقرون على حال ، ولا يثبتون على رأى ، ولا يتقيدون بأى قيد . .

ومن القيود التي يتقيد بها الناس ـ غير الشعراء — قيدُ الكلمة ، وإخراجها من حيِّز الكلام إلى عالم الواقع . . أما أن يُرسل المرء الكلام هكذا ، من غير أن يكون هذا الكلام صادراً عن إحساس به ، وتصور له في صورة عمل يعمله الإنسان ، وسلوك يعيش به في الناس ، فهو من غير الشعراء ، كذب ونفاق ، ثم هو من الشعراء خيال ، هو من مستلزمات هذا الضرب من الكلام ، الذي لا يطلب منه الناس الحقيقة عارية ، وإنما يروقهم أن يرَوْها في هذا الجوّ الشاعريّ الحالم ! !

يُروى أن عبد الملك بن مروان سمع الفرزدق الشاعر ، وهو ينشد بين يديه هذه الأبيات ، من قصيدة له :

ثلاثٌ واثنتان فهنّ خمسٌ ... وواحدة تميل إلى شمام

فَبِتْنَ بجانبيّ مصرّعات ... وبتّ أفض أغلاق الختام

فقال عبد الملك ، يافرزدق ، قد أوجبت عليك حدّ الزنا ، ولا بدّ من رجمك ، فقال وبم أوجبت عليّ الحدّ يا أمير المؤمنين ؟ قال بكتاب الله . . قال فإن كتاب الله يدرأ عني الحدّ ! قال وكيف ؟ قال فإن الله سبحانه وتعالى يقول في الشعراء : « وأنهم يقولون مالا يفعلون » وأنا هنا شاعر ، وقد قلت مالم أفعله ! هكذا يرى الشاعر نفسه ، وكهذا ينبغي أن يراه الناس !

قوله تعالى :

• « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعدِ ما ظُلموا وسيعلم الذين ظلَموا أى منقلب ينقلبون » — هو استثناء من الحكم العام الذي أوقعته الآيات الثلاث السابقة ، على الشعراء . . ووصفتهم بتلك الصفة الغالبة عليهم ، وهي أنهم غُواة يتبعهم الغاوون ؛ لأنهم يهيمون في كل واد من أودية الخيال ، والضلال ، وأنهم يقولون ولا يلتزمون بما يقولون .

فهذه هى الصفات الغالبة على أكثر الشعراء ، ولكن مِن الشعراء مَن غلبت طبيعتهم شياطينَ الشعر ، وقهرت النوازع التى تحركها فيهم هذه الشياطين ، فكان لهم من خلقهم ، عاصم يعصمهم من الانزلاق فى مهاترات الشعراء ولهوهم ومجونهم ، قولاً ، وفعلاً . . وليس هنا عاصم يعصم الإنسان من المزالق والعثرات ، مثلُ الإيمان بالله ، والتمسك بآداب الدين وأحكامه .. حيث يجد الإنسان من دينه وازعاً يزعه عن الشر ، ويمسك لسانه عن الفحش والهجر . .

فالذين آمنوا بالله ، وذكروا الله كثيراً ، أى استحضروا دائماً جلاله وعظمته . . هم ـ وإن كانوا شعراء ـ مستَثنَوْن من تلك الأوصاف التى وُصف بها عامة الشعراء ، لأنهم ليسوا غواةً ولا دعاةً إلى غواية . ولأنهم لا يقولون إلا ما يفعلون . . فلا كذب . ولا نفاق . . حيث لا يجتمع الإيمان وذكر الله كثيراً ، مع شىء من هذا الضلال . .

وفى قوله تعالى : « وانتصروا من بعد ما ظُلموا » . . إشارة إلى ما يكون من الشعراء المسلمين ، إذا حاربهم المشركون بالشعر ، وسلقوهم منه بألسنةٍ حداد . . فماذا يكون عليه موقف الشعراء المسلمين هنا ؟ أيسكتون على هؤلاء الذين يرمونهم بهذه الطعنات المسمومة القاتلة من شعر الهجاء ، الذى يشيع على ألسنة الناس ، ويصبح حديث المحافل ، وسمر السمار ، وحُدَاء الحداة ، ونشيد الرعاة والصبيان ؟ وكيف وفى أيديهم السلاح الذى يفلّ هذه الأسلحة ، ويخرس تلك الأفواه التى تنفث هذه السموم ؟ ومن أجل هذا فقد أذن الله سبحانه للشعراء المسلمين أن يدفعوا عن أنفسهم هذا الشرّ بالشرّ ، وأن يضربوا الشعر بالشعر . . انتصاراً من ظلم ، وردْعاً للظالمين . . والله سبحانه وتعالى يقول : « لا يحبّ الله الجهر بالسوء من القول إلاّ من ظلم » (١٤٨ : النساء) ويقول

سبحانه : « ولَمَن انتصر بعدَ ظُلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل » (٤١ : الشورى) .

وفى قوله تعالى : « وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون » . . تهديد لهؤلاء الشعراء من المشركين ، الذين يعتدون بشعرهم الآثم على النـاس ، ويمزّقون الحرمات ، ويهتكون الأعراض . . ثم هو من جهة أخرى ـ تحذير لشعراء المسلمين من أن يعتدوا ويظلموا ، وأن يجاوزوا الحدّ الذى يأخذون فيه بحقّهم ، والله سبحانه وتعالى يقول : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونـكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (١٩٠ : البقرة)

وقد فهم كثير من الناس ـ ومن المسلمين ـ نظرةَ الإسلام إلى الشعر ، وإلى الفنون عامة ، فهماً خاطئاً ، إذ أخذوا بظاهر النصّ القرآنى ، ولم ينفذوا إلى شىء من وراء هذا الظاهر ، الأمر الذى يدعونا إلى أن نقف وقفة قصيرة عند هذه القضية ، قضية الشعر ، وموقف الإسلام منه .

(الشعر . . ونظرة الإسلام إليه)

الشعر طبيعة فى الإنسان ، وهو فن من الفنون الإنسانية الجميلة ، وليس هناك أمة من الأمم أو جماعة من الجماعات ، لم يكن الشعر أداةً من أدوات التعبير الجارية على لسانها . . والأمة العربية ، بخاصة ـ كان الشعر إدامَ حياتها فى هذه الحياة القاسية المجدبة ، التى كانت تعيش فيها قبل الإسلام . . ـ كما سنعرض لذلك بعد قليل ـ وإذا كان الشعر على تلك الصفة فى حياة الناس ، وفى حيـاة العرب بخاصة ، فإن الإسلام بسماحته وإنسانيته ، لا يمكن أن يقيم حظرا على هذا المتنَفَّس ، الذى تنطلق منه مشاعر الناس ، وتغرد على أوتار ألسنتهم بلا بُله . . !

والذى كان من الإسلام هنا ، فى هذا الوصف الذى وصف به الشعراء ،

هو تخليص هذا الفن الجميل ، مما دخل عليه من تلك الألوان الصارخة من الفحش ، والمذر واللغو ، حتى تصفو موارده ، ويكون للكلمة الصادقة فيه ، وزنها وقدرها ، في تربية النفوس ، وتقويم الأخلاق ، إذ كان للثوب الذى تلبسه الكلمة فى القالب الشعرى ، تأثير عظيم فى كشف مضمونها ، وتجسيد محتواها ، حتى لتكاد تتمثل كائنا حياً ، يعيش فى وجدان السامع ، ويتحرك فى كيانه . . ومن هنا كان موقف الإسلام من الشعر ، قائماً على تقديره له ، ووزن خطره وأثره فى النفوس ، وسلطانه على العقول والقلوب . . فإذا لم يقم على هذا الفن حارس من خُلق أو دِين ، كان قوة من قوى الشر المدمرة ، التى تأتى على كل صالحة فى المجتمع ، الذى تتحرك فيه شياطين هذا الفن !

وهناك كلمة مضلّة ، وبما أغرت كثيراً من الشعراء ـ أعنى صغار الرجال من الشعراء ـ أن يأخذوا بها ، وأن يتلقوا الدرس الأول عنها ، تلك الكلمة ، هى قولهم : « أعذب الشعر أكذبه » يعنون بهذا أن أجمل الشعر وأرقه ، ما اصطاد بشباك الخيال ، الغرائبَ والعجائب ، وموّه الحق والواقع ، بألوان وأصباغ ، تغير صورته ، وتطمس معالمه ، فيُرى على غير ما هو . . ومن هنا كان التعامل بالصور التى يرسمها مثل هذا الشعر ، مزلقةً إلى الضلال ، والانحراف عن قصد السبيل !

والحق ، أن الكذب هو الكذب . . أيا كان الزى الذى يتزيا به . . فى الفنون والعلوم على السواء .

وفى المأثور : « ما كان الصدق فى شىء إلاّ زانه ، وما كان الكذب فى شىء إلا شانه » . فكيف يزدان قول أو عمل ، يكون الزور لُحمته والباطل سَدَاه ؟

وإذن فأحق ما ينبغى أن يقال فى الشعر — من حيث هو فن رفيع من

الفنون الجميلة — أن يقال : « أعذب الشعر أصدقه » . . فبقدر ما يحمل الشعر من الصدق ، بقدر ما تكون عذوبته وحلاوته ، وبقدر ما يكون بهاؤه وجلاله . .

إن الحق — فى ذاته — مستغنٍ عن الزيف والبهرج ، وفى غير حاجة إلى هذا الطلاء المموه ، من الزور والبهتان .

إن الفنون الرخيصة المبتذلة ، هى التى يتستر ضعفها وهُزالها ، وراء هذا الطلاء الزائف ، من الزور والبهتان . .

أما الفنون الرفيعة العالية ، فهى لا تكون على هذا الوصف من العلوّ والرفعة ، إلا إذا كانت حقاً خالصاً ، وصدقاً مصفّى

وفى الأعمال الفنية المصوغة من الكلمة ، أو الحجر ، أو الوتر ، أو اللون — شاهد لهذا . . فما لبس ثوبَ الحقيقة منها ، فهو الخالد الذى يعيش فى الإنسانية ، ويُطلّ عليها من عليائه ، كما يطل شعاع الشمس فى يوم قارس البرد ، لافح الزمهرير ، فينعش النفوس ، ويثير المشاعر ، ويحرك الهمم ، ويشد العزائم . . وعلى عكس هذا ، ما تزيا بالكذب والخداع من الفنون ، فإنما هو سراب خادع ، يلوح فى العين ببريقه ، فيحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

فصِدْق الشاعر مع نفسه ، وإلزامها طريق الحق — أيا كان وقعه عليه ، وأثره فيه — يجعله يصدق مع الناس ، ومع الأشياء . . فإذا قال شعراً جاء شعره ممسكا بالصميم من الحق ، كاشفا عن أسرار هذا الوجود ، فى عوالمه الحية والجامدة ، على السواء . . فيحدّث عن دخائل النفس الإنسانية ، كما يحدث عن أحلام هذا الحجر الملقى فى عرض الطريق !

والصدق لا ينزل إلا حيث النفوس العظيمة ، التى ، تتسع له ، وتحتمل تبعاته ،

وتقدِر على الوفاء به ، على المَنْشَط والمـكره . . أمَّا صغار النفوس ؛ فإنها تضيق بكلمة الصدق، وتضعف عن أن تحتملها . . إن طريقها لا تستقيم أبداً مع الطريق المستقيم . . تماماً كالجبان يتحرك نحو ساحة القتال ، ولقاء الأبطال . . إنه يتقدم ويتأخر ، ويستقيم ويلتوى . . وهيهات أن يكون الثعلب والأسد على سواء . . فى مواجهة الواقع وتحديه !

وهكذا نجد شاعراً من أصحاب النفوس الـكبيرة ، كالمتنبى ، مثلا ، تحمله نفسه الـكبيرة على أن يقف موقف النِدّ مع ممدوحه سيف الدولة ، أمير الدولة الحمدانية ، ولا يرضى أن يكون حاشية من حواشيه . . حتى إذا التقى بـكافور صاحب مصر ، نظر إليه من سماء عالية ، ولم يستطع أن يـكتم ما بنفسه ، من مشاعر العظمة لذاته ، والإحقار لكافور ، فيظهر ذلك فى كل شعر قاله فيه . . ومن هنا لم يلتقيا على طريق ، فافترقا من أول لقاء !

وأكثر من هذا . .

فإن المتنبى ، أبَى عليه صدقه مع نفسه ، أن يلتزم ما التزمه الشعر العربى من مطالع الغزل فى كل قصيدة ، مدحاً كانت ، أو ذماً ، أو رثاء . . فصرخ من أعماقه تلك الصرخة المدوية ، التى رمى بها فى وجه هذا الغزل المصطنع ، وقال :

إذا كان مدحٌ فالنسيب المقدم ؟ أكل فصيح قال شعراً متيّم ؟

بل إنه ليذهب إلى أبعدَ من هذا ، فلم يرتض من أسلوب الحياة إلاّ ما كان صميم الحياة ذاتها ، ومن واقعها البعيد عن الصنعة والدَّخل ، حتى إنه ليعيب المرأة المتجمّلة بغير جمال الفطرة ، الأمر الذى يكاد يكون طبيعة فى بنات حواء . . فيقول :

أفدِى ظباء فلاةٍ ما عرفن بها مَضغَ الـكلام ولا صبغَ الحواجيب
حسنُ الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ وفى البداوة حسنٌ غير مجلوبِ

والمتنبي فى هذا ، لا يقول ما لا يفعل ، كما هو الشأن الغالب فى الشعراء الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم : « وأنهم يقولون ما لا يفعلون ». بل إنه ليأخذ نفسه بالصدق قولًا وعملًا ، وإنه ليأبى ـ مثلًا ـ أن يغيّرلون شعره ، حين نسخ الشيب سوادَه . . فيقول :

ومن هَوَى الصِّدق فى قولى وعادتِهِ

رغبْتُ عن شَعَرٍ فى الرأس مكذوبِ

وقل مثل هذا ، فى « أبى العلاء المعرِّى » الذى وقف أمّة وحده من الناس ، ومن الدهر ، موقف التحدّى ، قولًا ، وعملًا ، فأعلنها حربًا مشبوبة الأوار ، على كل ما لم يقبله عقله ، أو تستسغه نفسه ، من آراء ومعتقدات ، وعادات ، حتى إذا وجد الحياة كلها حربًا عليه ، انسحب إلى بيته ، أو محبسه ، وأغلق عليه بابه ، وأخذ يرمى الناس والحياة برجوم وصواعق ، لا تزال منطلقة إلى اليوم ، تدور فى كل مدار ، وتصدم أو تصطدم بكل ما يعوقها ، أو يعترض طريقها .

نقول هذا ، لنصحح هذا الخطأ الذى وقع فيه كثير من الدارسين للأدب العربى ، الذين نسبوا إلى الدعوة الإسلامية ، أنها أصابت الشعر العربى فى الصميم من حياته ، وأنها دمغت الشعراء بهذا الوصف الذى يخرجهم من دائرة الإسلام، وينأى بهم بعيداً عن المثل الفاضلة ، التى يتمثلها الإسلام فى أهله . ! أليس القرآن الكريم يقول فى الشعراء : « والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ » ؟ فأى مسلم حريص على سلامة دينه يرضى لنفسه أن يكون من زمرة الشعراء ؟ وعلى هذا فقد حبس كثير من المسلمين فى صدر الإسلام ، مَلَكةَ الشعر التى كانت تفرد فى صدورهم ، ومن كان منهم شاعراً فى الجاهلية ، أمسك عن قول الشعر جملة فى الإسلام ،

ويضربون لهذا مثلا ، بالشاعر لبيد،أحد أصحاب المعلقات ، ويحكون أنه لم يقل بيتاً من الشعر ، منذ أن دخل فى الإسلام . .

هذا وكثير غيره مما يقال ، فى موقف الإسلام من الشعر والشعراء . . وهو — فى رأينا — قول يخالف الحقيقة ويظلم الإسلام بتلك التهمة ! .

فالقرآن الكريم . بأسلوبه المبين المعجز ، هو الذى رفع قدر الكلمة العربية، وجعل للبيان العربى هذه المكانة العالية الرفيعة ، حتى ليكاد يكون معجزة، لا يلقاه فى ميدان الإعجاز ، إلا كلمات الله ، متحدية ، قاهرة . .

والشعر العربى ، هو مَجْلَى اللغة العربية ، ومظهر بيانها ، وشاهد بلاغتها . . فكيف يجىء القرآن الكريم ، ليقتل هذا الشاهد الوحيد ، الذى ينطق بإعجازه ، ويحكى عن وجه الإعجاز فيه؟وإذا مات هذا الشعر العربى ، أو اختفى من الميدان ، فمن أين يُعرف للقرآن الكريم ،إعجازه ، ومن أين يؤخذ الدليل على مواقع الإعجاز فيه ؟

إن القرآن الكريم ، إذا وقف وحده فى الميدان ، فكيف يُستدلّ على إعجازه ؟ وبم يَبين فضلهُ على غيره من الكلام ، وليس ثمة كلام غيره ؟ .

وندع هذا ، لنقول : إن الإسلام لم يكن له موقف من الشعر العربى ، من حيث هو شعر ، وإنما كان موقفه هذا ، من الشعر الذى غلب عليه الكذب ، والذى اتخذ منه أصحابه أسلحة لنهش الأعراض ، وفضح الحرائر ، وبهت الشرفاء والأمجاد من الناس ، وإلباسهم لباس الخزى والمذلة .. ببيت من الشعر ، يصير . مثلا فى الناس ـ ويصبح المقول فيه أمثولة .. فلا تقوم له بعد

ذلك قائمة ! ! فهذا هو الشعر الذى عابه الإسلام ، وأبى على المسلم أن يتخذ منه زاداً له ، لأنه زاد خبيث ، تجتمع على مائدته الخبائث.. من كذب ، وبهتان، وبغى وعدوان . . وكلها أطعمة يحرّمها الدين ، كما تأباها النفوس الطيبة ، التى لا تدين بدين ! .

أما ماطاب من الشعر ، وخلص من هذه الخبائث ، فإن الإسلام حفىٌّ به ، مكرم له ، احتفاءه بالكلمة الطيبة ، وإكرامه للقول الطيب .

ولقد سجل التاريخ الإسلامى ، للصحابة رضوان الله عليهم ، مواقف من الشعر الجاهلى ، تدل على تقديرهم له ، وحرصهم عليه ، بل وتعلقهم به ! .

فعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان يحفظ كثيراً من الشعر الجاهلى ، ينشره حيناً ، ويستمع إليه أحياناً ، ويسأل الوفود القادمة عليه ، من قبائل العرب ، عن شعرائهم ، وعن أحسن ما عندهم من شعرهم . .

بل وأكثر من هذا ، فإن عمر رضى الله عنه — كان إذا حضره موقف من المواقف ، وهو يخطب على منبر رسول الله — صلى الله عليه وسلم ـ واستدعى هذا الموقف شاهداً لمعنى من معانى القرآن الكريم ، فى بيت من الشعر — استمع إليه ، ووعاه ، وأخذ به ! .

رُوى أنه — رضى الله — قرأ . . وهو على المنبر — قول الله تعالى : « أو يأخذهم على تخوّف » (٤٧ : النحل) — فسئل عن معنى التخوف ، فقال ، وقيل له . . فقام رجل من هُذيل ، فقال : التخوف عندنا : النقص . . ثم أنشد :

تخوف الرحْلُ منها تامكا قَرِداً كما تخوف عود النبعة السَّفِن[1]

فقال عمر : « أيها الناس . . تمسكوا بديوان شعركم فى جاهليتكم ، فإن فيه تفسيرَ كتابكم » .

وأمر ابن العباس — رضى الله عنه — فى موقفه من الشعر الجاهلى ، وحفظه له ، وإنشاده إياه فى مسجد الرسول — أظهر من أن ينبه عليه ، فلقد كان صدره — رضوان الله عليه — خزانة هـذا الشعر ، كما كان قلبه ، مستودع القرآن الكريم ، حفظا ، وعلماً .

ونشكّ كثيراً فى أنّ أحداً من الصحابة ، لم يلتفت إلى هذا الشعر ، ويتمثل به فى موقف أو أكثر من موقف ! .

وكيف يُعقل أن يكون الأمر فى شأن الشعر على غير هذا ، وقد كان الصحابة — رضوان الله عليهم — يرون الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — يلتفت إلى الشعر ، ويُلفت إليه ، وإن لم يكن شاعراً ، وما ينبغى له أن يكون ، كما يقول سبحانه وتعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » (٦٩ : يس) . ذلك لأن فى الشعر — كما قلنا — خيالا ، وفيه شطحات بعيدة مغربة عن الواقع . . وهذا ما لا يطوف منه طائف بآيات الله وكلماته . . ولهـذا جاء قوله تعالى تعقيبا على هـذه الآية : « إنْ هو إلا ذكر وقرآن مبين » .

ولكن — مع هذا ، فإن فى الشعر عيونا متخيرة من الحكمة . . ومن أجل هذا ، كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه — يلتفت إلى الشعر ، ويُلفت إليه

---

(١) هذا الشعر فى وصف ناقة ، طالت بها الأسفار ، فنحل وبرها ، وهزل جسمها . . والتامك : السنام . . والقرد : الذى تجعد شعره من الهزال والضعف والنبع : شجر القسى ، والسفن : أداة تنحت بها العصى ونحوها حتى تسوى وتصقل.

لتُلتقط منه هذه الحكم ، وتؤخذ منه تلك الدرر ، من بين هذا الغُثاء الكثير ، الذى كان يحمله هذا السيل المتدفق من الشعر !

يُروى عن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها كانت تقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كثيراً ما يقول لى : « أبياتك » ! (أى أنشدى أبياتك المعهودة) .

تقول السيدة عائشة . . فأقول :

ارفعْ ضعيفَك لا يحربنّك ضعفُه يوماً فتدركه العواقبُ قد نما
يَجزيك ، أو يثنى عليك ، وإنّ من أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

ففى هذا الشعر الذى كان يستمع إليه الرسول الكريم ، دعوةٌ كريمة من من دعوات البرّ ، التى دعا إليها الإسلام . . فلا غرابة فى أن يَهَشّ الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — لسماعه ، والإصغاء إليه .

وروى الزبير بن بكار ، قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه ، برجل ، ينشد فى بعض طرق مكة ، هذا البيت :

يأيها الرجلَ المحول رحلَه هلاَّ نزلت بآل عبد الدار ؟

فقال — صلوات الله وسلامه عليه — يا أبا بكر . . أهكذا قال الشاعر ؟ قال لا ، يا رسول الله ، ولكنه قال :

يأيها الرجل المحول رحله هلاّ نزلت بآل عبد مناف

فقال صلوات الله وسلامه عليه : « هكذا كنا نسمعها[1] » .

---

(١) أى القصيدة التى فيها هذا البيت ، ورويها حرف الفاء . . وبعد هذا البيت :

ثكلتك أمك لو نزلت بحيهم منعوك من عدم ومن إقراف

وأكثر من هذا ، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، يستمع إلى الشعر ، ويجيز على الطيب العفيف منه ، كما استمع إلى قصيدة كعب بن زهير ، وكان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد أهدر دمه .. فلما جاءه مستخفيا وأنشده قصيدته التى مطلعها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول مُتَيَّم إثْرَها ، لم يُفْدَ ، مكبول

والتى يقول فيها :

نبئت أن رسول الله أوعدنى والعذر عند رسول الله مقبول

هشّ النبى — صلوات الله وسلامه عليه — له ، وعفا عنه ، وخلع عليه بردته التى كان يلبسها .. وأكثر من هذا فقد كان للنبى صلوات الله وسلامه عليه شعراء ، على رأسهم حسان ابن ثابت ، يردّون بشعرهم على شعراء المشركين ، ويلقونهم فى ميدان القول ، كما كانوا يلقونهم فى ميدان الحرب ، وكان ـ صلوات الله وسلامه عليه — يقول لحسان : « اهجهم وروح القدس معك » ! !

فكيف يكون روح القدس (وهو جبريل عليه السلام) مع شاعر يقول هذا الشعر الهجائى ، ويطعن به فى وجوه القوم وأعراضهم ؟ أليس ذلك لأنه سلاح من أسلحة الحرب ، وأنه بهذا السلاح إنما يقاتل المشركين بمثل أسلحتهم ؟ ولهذا جاء قوله تعالى معقباً على آية الشعراء .. « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا » .

إن لكل مقام مقالا . . وإذا كان هذا المقام — فى حرب المشركين — يقتضى أن يكون لشعر الهجاء مكانه ، فإن للشعر فى مقام الخير ، والإحسان ، مكاناً أوسع وأرحب !

* * *

٢٧ – سورة النّمل

نزولها : مكية . نزلت بعد الشعراء . .

عدد آياتها : ثلاث وتسعون آية ، وقيل أربع وتسعون ، وقيل خمس وتسعون .

عدد كلماتها : ألف ومائة وتسع وأربعون كلمة .

عدد حروفها : أربعة آلاف وسبعمائة وتسعة وتسعون حرفاً .

مناسبتها لما قبلها

كانت الآيات التي خُتمت بها سورة الشعراء ، دفاعاً عن القرآن الكريم ، من أن يكون من واردات الشعر ، كما كانت دفاعاً عن النبيّ ، أن يكون من زمرة الشعراء .. فمعدن القرآن ، غير هذا المعدن الذى يصاغ منه الشعر ، ونسيج القرآن ، غير نسيج الشعر . . نظمًا ومَعْنًى . . والنبيّ على طبيعة تخالف كل المخالفة طبيعة الشعراء . . قولاً وفعلاً . . سلوكًا وخلقًا !

وكان بدء سورة « النّمل » . . حديثاً عن هذا القرآن ، الذى هو منقطع عن كل سبيل يصله بالشعر ، حيث أنه هدًى وبشرى المؤمنين الذين يؤمنون به ، يتعاملون بأحكامه وآدابه ، على حين أن الشعر يقوم عموده على غير هذا الطريق الجادّ المستقيم . . كما كان هذا البدء حديثاً عن النبيّ ، بأنه بمعزلٍ عن الموارد التي يردها الشعراء ، ويملئون دِلاءهم منها . . إنهم يأخذون ما توحيه إليهم شياطينهم ، على حين أن النبيّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يتلقى هذا القرآن وحيًا من لدن حكيم عليم . . « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » .

فالمناسبة بين بدء سورة النمل ، وختام سورة الشعراء ، ظاهرة ، والالتحام بينهما ، قويّ ، كما ترى .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٦)

« طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) »

التفسير :

يُلفتنا هذا البدء الذى بدئت به هذه السورة إلى ما بدئت به سورة « الحجر » فقد كان بدء سورة « الحجر » هكذا : « آلر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » على حين جاء بدء النمل كما ترى . « طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين » . .

فقد اختلفت صورة النظم فيهما ، بالمغايرة بين وضع الألفاظ المشتركة بينهما ، هنا وهناك . .

فالكلمات فى الآيتين واحدة ، هى آيات ، والكتاب ، وقرآن ، ومبين . ولكن نظم هذه الكلمات فى السورتين قد اختلف ، فقُدم هنا ما أخر هناك .

وإنه لا بد من سرّ وراء هذه المغايرة بين وضع الألفاظ ، فى الآيتين .

تلك آيات القرآن وكتاب مبين (النمل) .

تلك آيات الكتاب وقرآن مبين (الحجر) .

أذلك لأن اختلاف الحروف المقطعة التى بدئت بهما السورتان ، اقتضى هذه المغايرة فى نظم الكلمات المشتركة بينهما . . ؟

فكان من المناسب للحرفين : الطاء والسين ، أن يجىء بعدها . . « تلك آيات وقرآن وكتاب مبين » كما كان من المناسب للأحرف : ألف ، لام ، راء ، أن يجىء بعدها . . « تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » ؟

قد يكون هذا ، ولكن لامفهوم له عندنا ، مادمنا عاجزين عن فهم الدلالة القاطعة لهذه الحروف المقطعة . !

والذى يبدو لنا وراء هذا السر المختفى ، الذى لا سبيل إليه ، والذى ندع تأويله للراسخين فى العلم — هو أن الآيتين تصوران صورة واحدة — القرآن الكريم . .

فالقرآن ، والكتاب ، آيات . . مقروءة ، أو مكتوبة . .

والقرآن . . هو كتاب مبين . . وقرآن مبين . .

وهذا يعنى أن القرآن يجب أن يدوّن ، ويكتب فى صحف ، احتفاء به ، وحرصاً عليه . .

وهذا يعنى أيضاً ، أن هذا الكتاب الذى تدوّن فيه آيات الله ، ينبغى أن يُقرأ ، ويتعبد بقراءته . . وأنه ليس الغرض من كتابته مجردَ الكتابة للصيانة والحفظ ، وإنما ليكون بموضع أنظار المسلمين فى كل وقت .

وهذا يعنى مرة ثالثة . . ألا يقف القارئون لآيات القرآن ، أو المرتلون لها ، عند حدود القراءة أو الترتيل ، بل يجب أن يفقهوا آياته ، وأن يتدبروا كلماته ، وأن يلتمسوا عندها البيان لكل ماخفى عنهم ، سواء كانوا قارئين أو مرتلين . . فآياته بينة لمن يقرأ أو يرتل . . إنه قرآن مبين ، وكتاب مبين . . فمن لم يجد

البيان فيما يقرأ أو يرتل منه ؛ فما أعطى القرآن أو الكتاب حقّه .

قوله تعالى :

* « هُدًى وبشرى للمؤمنين • الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون »

هو بيان لما فى القرآن من هدى وبشرى ، لمن يؤمن بهذا القرآن ، ويتدبر آياته ، حيث يجد فى آياته البينة ما يكشف له معالم الطريق إلى كل ما هو حق ، وخير ، وإحسان ، وحيث يصله القرآن بالملأ الأعلى ، ويصل حياته الدنيا ، بالحياة الآخرة ، وما أعد الله من جنات النعيم للمؤمنين ، الذين سكن الإيمان قلوبهم ، فامتثلوا ما أمرهم الله به ، واستقاموا على طريقه المستقيم ، فأقاموا الصلاة على وجهها ، وأدوا الزكاة على ما أمر الله أن تؤدّى عليه ، واستيقنوا أن هناك حياة آخرة ، وأن فيها حساباً وجزاء ، وجنة وناراً . . فعملوا لهذا اليوم العظيم بما ينجيهم من هوله ، ويدنيهم من رحمة الله ورضوانه . .

قوله تعالى :

* « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يَعْمَهون »

العَمَه : الضلال ، وعمى البصيرة . .

والآية هنا تكشف عن الوجه الآخر ، المعتم الضال ، من وجهى الإنسانية ، المقابل للمؤمنين بالله واليوم الآخر . . وهو وجه الذين لا يؤمنون بالآخرة . . وأنه إذا كان فى القرآن الكريم هدى وبشرى للمؤمنين ، فإن هذا القرآن لا يزيد الكافرين الضالين إلا كفراً وضلالاً . .

وقوله تعالى : « زينا لهم أعمالهم » — إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى قد أخلاهم لأنفسهم ، وما توسوس لهم به أهواؤهم ، فرأوا السيء حسنا ، والقبيح

جيلاً ، والشرّ خيراً » والله سبحانه وتعالى يقول : « أفمن زين له سُوءُ عمله فرآه حسناً » (٨ : فاطر) .

— وقوله تعالى : « فهم يعمهون » أى يمشَوْنَ عن طريق الهدى ، فلا يقيمون وجوههم عليه ، بل يتخبطون فى ظلمات الجهل والضلال .

وفى قَصْر عدم إيمانهم ، على الآخرة ، ما يشير إلى أن الإيمان بالآخرة لا يكون إلا بعد الإيمان بالله . . فمن لم يؤمن بالله ، وبقدرته على البعث ، فلن يؤمن أبداً ببعث أو حساب وجزاء ، أو جنةٍ ونار . .

قوله تعالى :

• « أولئك الذين لهم سُوء العذاب وَهُمْ فى الآخرة هم الأخسرون » .

هو الجزاء الذى يلقاه المكذّبون بالآخرة ، الكافرون بالله ، الذين أعمتهم أهواؤهم وشهواتهم عن أن يفكروا ، ويتدبروا فى خلق السموات والأرض ، وأن يستمعوا إلى آيات الله التى تُتلى عليهم . .

قوله تعالى :

• « وإنك لتُلَقَّى القرآن من لَدُنْ حكيمٍ عليم » .

هو بيان لمتنزّل القرآن ، وأن هذا المتنزّل هو مقام عالٍ لا يُنال . . فالله سبحانه وتعالى ، هو الذى ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده . . وهذا القرآن هو منزّل من ربّ العالمين . . وإذن فالقول بأن القرآن شعر ، هو باطل الأباطيل ، حيث لا وجه للشّبه بينه وبين الشعر ، من حيث نظم الكلام ، ومحتوى هذا الكلام ، ، وما يحمل من معانٍ .

وفى وصف الله سبحانه وتعالى فى هذا المقام ، بهاتين الصفتين : حكيم ، وعليم . . إشارة إلى مافى القرآن من حكمة وعلم . . حكمة ، فى تقرير الحقائق ، وفى وزن التكاليف ، ورسم الحدود الشرعية ، وضبط ذلك كله بميزان دقيق ،

يضع الإنسان بموضعه الصحيح ، فيعطى منه للجسد حقه ، وللروح مطلبه . ـ وعلم ، يحيط بكل شيء ، ويمسك بأسباب كل شيء . . فلا يرى الأمر — مهما صغر — إلاّ فى مواجهة الوجود كلّه ، حيث يأخذ مكانه فيه ، وبهـــذا تـكون الرؤية موصولة بماضى هذا الأمر ، وحاضره ، ومستقبله ، جميعاً . . !

الآيات : (٧ — ١٤)

* « إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إذ قال موسى لأهله إنى آنَسْتُ نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم

بشهاب قَبَسٍ لعلكم تصطلون » الظرف « إذ » متعلق بمحذوف يدل عليه قوله تعالى : « وإنك لتلقَّى القرآن من لدن حكيم عليم » أى مما يُلقيه عليك الحكيم العليم ، ما كان من أخبار الرسل ، ، وها نحن أولاء نُلْقى عليك خبراً من أخبار موسى . .

• « إذ قال موسى لأهله إنى آنستُ ناراً » .

آنس النار أحسّها ، ووجد من إحساسه بها أنساً ، وهو فى وحشة مطبقة من صمت الصحراء ، وظلام الليل . . فلما رأى النار استشعر الأنيس عندها ، وأحسّ الأنس من جهتها ، إذ لا توقد نار إلا وعندها من أوقدها ، ليستدفىء بها ، أو يهيىء لنفسه طعاماً عليها . .

وفى قول موسى لأهله : « سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهابٍ قَبَس لعلكم تصطلون » ما يشير إلى أنّ موسى لم يكن على بيّنة من أمر هذه النار ، وهل سيجد عندها أحداً أم لا . . فقد تكون بقيةَ نارٍ أشعلها قوم أول الليل ثم ارتحلوا عنها . . ولهذا فهو يتردد فيما سيجىء به إلى أهله منها . . فهو إن لم يجد عندها أحداً ، فلا أقلّ من أن يجىء بجذوة . . أى قطعة من النار . . لعلهم يصطلون بها ، أى يستدفئون .

وقد جاء ذكر هذا الحدَث فى غير هذا الموضع هكذا :

* « إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا . . إنى آنستُ ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجِدُ على النار هُدًى » (١٠ : طه) .

وجاء فى موضع ثالث هكذا :

* « آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا . . إنى آنَسْتُ ناراً . . لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » (٢٩ : القصص) .

والصور الثلاث التى صور بها هذا الحدث ، هى صورة واحدة ، وإن استقلّت كل صورة بملامحها ومُشخّصاتها . .

فعناصر هذا الحديث هى :

موسى ، والنار ، وأهله ، وما قال لأهله ، وما عوّل على التماسه من النار . .

أما موسى . . فإنه قد رأى ناراً . . وقد ذُكرت هذه الرؤية فى هذين الموضعين حكايةً عن موسى ولم تذكر فى الموضع الثالث ، اكتفاء بالإشارة إليها فى الموضعين المذكورين . .

فجاء فى سورة طه : « إذ رأى ناراً » .

وجاء فى سورة القصص : « آنس من جانب الطور ناراً » .

وهاتان الصورتان تمثلان الواقع أدق تمثيل ، وأكمله . . فأول ما كان من موسى أنه رأى ناراً . . مجرد رؤية . . ثم دخل عليه من هذه الرؤية أنس واطمئنان . .

ثم كان بيان للمكان الذى رأى فيه النار ، وهو « جانب الطور » مما تتم به الصورة ، التى سيكون لها شأن فى نسيج الحدَث كله . .

وكان من تدبير موسى إذ رأى النار ، أن ينطلق إليها وحده ، وأن يدع أهله حيث هم ، لأنه لا يدرى مَن يكون عند النار ، وهل هم ركب مسافر ، أم قطّاع طريق ؟ . . إن من الحكمة أن يذهب وحده ، ويتحسس الأمر ، من غير أن يُقحم أهله ، ويدفع بهم إلى هذا المصير المجهول . . فينطلق وحده ، بعد أن يعلن أهله بهذا . .

ويصور القرآن الكريم ، هذه الجزئية ، من هذا المشهد فى ثلاثة مواضع . .

فى سورة النمل هكذا : « إذ قال موسى لأهله . . إنى آنست ناراً » .

وفى سورة طه : « إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا . . إنى آنست ناراً »

وفى سورة القصص : « آنس من جانب الطور ناراً . . قال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً »

وهذه المقولات الثلاث هى من مقولات موسى ، وليست من قَبيل التكرار لقولة واحدة . . فهذا مالا يكون فى القرآن الكريم . .

فهو إذ يرى النار ، فى هذا المكان القفر ، المظلم الموحش — تعروه حال من النشوة ، وتأخذه الفرحة . . فيُلقى إلى أهله بهذا الخبر المسعد . . إنى آنست ناراً . . امكثوا . . إنى آنست ناراً . . امكثوا . . إنى آنست ناراً . .

إنها فرحةُ من جاءه الخير على يأس . . أشبه بالطالب يدخل الامتحان ، ويخرج منه ، وهو على يأس من النجاح ، ثم إذا به يرى نفسه فى الناجحين ، فينطلق بلا شعور ، يحدث كلّ من يلقاه : نجحت ! أنا نجحت . . أنا نجحت !! كأنه يريد أن يمسك بهذا النجاح أن يفلت منه ، بعد أن ظفر به على يأس !

وفى قوله لأهله : « امكثوا » « امكثوا » — هو تأكيد لهم بأن يظلوا مكانهم ، وألا يتحولوا عنه ، بحال . . يقول هذا ، وهو منطلق إلى حيث رأى النار . .

وفى تحرك موسى نحو هذه النار . . يُلقى إلى أهله ، الذين أمرهم بالانتظار ، بما يريد من انطلاقه هذا . . إنه منطلق ، وإنه لعائد إليهم . .

« سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون . . (النمل)

« لعلى آتيكم منها بقبس . . أو أجد على النار هدى . . . (طه)

« لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . . . (القصص)

إن هذه المقولات جميعها ، هى مما ألقى به موسى إلى أهله . . مما كان يجرى فى خاطره ، وهو يتجه نحو هذه النار . .

وإذا أخذنا هذه المقولات بترتيبها هذا — الذى لم يقم على حساب عندنا ، إذ لا سبيل إلى تحقيق هذا الترتيب ـ نقول إذا أخذناها بهذا الترتيب ، وجدنا أن موسى كان أول أمره عند رؤية النار ، فى حال من الدّهش ، والنشوة ، لم يتبين معها الموقف على وجهه ، فوقع فى نفسه ما كان فى شوق إليه ، وهو العثور على من يؤنسه فى هذا المكان الموحش ، فلما رأى النار أمسك بهذا الأمل الذى طلع عليه منها ، ورآه شيئاً محققاً ، فقال لأهله على سبيل القطع . . «سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » . . ثم ماهى إلا لحظة حتى يطرقه الشعور المضادّ لهذا الأمل المحبوب أن يفلت من يده ، فقال لأهله : « لعلى آتيكم منها بقبس . . أو أجد على النار هدى » . . على سبيل الرجاء ، لا القطع . . ثم هو لا يجيئهم بشهاب قبس ، بل سيجيئهم بقبس !! لقد تضاءل هذا الشهاب الساطع من الأمل ، فصار مجرد قبس . . ثم يعاوده الأمل مرة أخرى ، ولكن بصورة تجمع بين الرجاء والقطع بهذا الرجاء : « لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » !

هذا ، وإن لك أن تغير من أوضاع هذه المقولات الثلاث ، فتقدم وتؤخر ، وإذا هى فى كل حال ، تصوير دقيق لمشاعر الإنسان ، فى مثل هذا الموقف ، الذى يحوطه القلق والاضطراب ، وتغمره الوحشة ، ويحتويه الظلام . .

وهذا التصوير الدقيق لأحوال النفس ، ومسارب الخاطر ، لا يمكن أن يكون فى صورة كلامية ، إلا فى كلمات القرآن ، ولا يمكن أن يحتمله نظم غير نظم القرآن !

ثم إنه — فى القرآن — لا يكون على صورة مقبولة مع هذا التكرار ، إلا إذا جاء موزعاً ، كما هو واقع فى هذه المعارض الثلاثة ، وإلا تراكمت ألوان الصورة وتدافعت ، وغطى بعضها وجه بعض !

قوله تعالى :

• « فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحانَ اللهِ رب العالمين * ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم » . . أى وحين اقترب موسى من النار ، سمع نداء ، لا يعرف مصدره ، ولهذا جاء الفعل مبنيا للمجهول : « نُودى » والنداء الذى سمعه : هو أن هذه النار نار مباركة ، قد بُورك فيها ، وبورك فيمن حولها من عوالم ، جامدة ، أو حية ، وهذا يعنى أن موسى ، قد مسَّتْه هذه البركة ، إذ كان فيمن حول النار . .

وقد جاء فى سورة طه : «نُودى يا موسى . . إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى » وجاء فى سورة القصص : « نودى من شاطىء الوادالأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله ربّ العالمين . . » (٣٠)

وواضح أن هذه النداءات الأربع قد تلقاها موسى فى هذا الموقف .

فأولا : نودى هذا النداء المجهول ، ومن غير أن يُذكر اسمه . . وإنما سمع نشيداً علويًّا ، يحدث عن هذه النار بأنها نار قد بورك فيها وفيمن حولها . . « أن بورك من فى النار ومن حولها . . »

وثانياً : أُتبع هذا النداء بنداء آخر أكثر وضوحاً وتحديداً : « ياموسى . . إنه أنا الله العزيز الحكيم » ثم أُتبع ذلك بنداء ثالث . . « ياموسى ، إنى أنا الله ربّ العالمين » .

ولا شك أن هذه النداءات تثير كثيرا من الاضطراب والفزع ، فى هذا الجوّ الرهيب . . فكان النداء الرابع والأخير : « يا موسى . . إنّى أنا ربك . . فاخلع نعليك . . إنك بالواد المقدس طوًى * وأنا اخترتك فاستمع لِما يوحى »

فهذا النداء ، يُدعى به موسى إلى ربه ، ويُضاف إليه ، ثم يؤمر بما ينبغى أن يكون من أدب ، فى لقاء ربه ، والاستماع إلى خطابه ! .

وواضح أن هذه النداءات المتكررة ، مصحوبة بذكر الله . . « ياموسى إنى أنا ربك ... إنه لا إله إلا أنا فاعبدنى » . « ياموسى إنى أنا الله رب العالمين » « ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم » . . واضح أن هذه النداءات المتكررة فى سرعة وانطلاق . . على أى ترتيب تكون عليه . . إنما اقتضاها هذا الموقف الذى اهتز له موسى من أقطاره ، فكان صوت الحق سبحانه وتعالى فى هذه النداءات المتكررة ، سكناً لقلب موسى ، وإمساكاً لنفسه التى تكاد تذهب شعاعاً . وفى كل نداء كان يذكر « موسى » باسمه ، وفى هذا تطمين له ، وأنه إنما ينادَى ممن يعرفه ، ويعرف أحواله . . وإذن ، فلا خوف عليه . .

الأمر إذن جدٌ ليس بالهزل ، وما يسمعه موسى هو حقيقة ، وليس وهماً ، ولا حلماً . . وإذن فعلى موسى أن يستيقظ ، وأن يصحو صحوة مشرقة لاستقبال هذا العطاء العظيم . .

قوله تعالى :

• « وألقِ عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولّى مُدْبِراً ولم يُعقِّبْ . ياموسى لا تخف إنّى لا يَخاف لَدَىَّ المرسلون » .

الجانُّ : فرخ الحيات ، وهو أخفها حركة ، وأسرعها انطلاقاً على الأرض . .

وقد جاء فى سورة طه : « فألقاها فإذا هى حيّة تسعى » . .

وهذا يعنى ، أن العصا صارت حيّة فى ضخامتها ، وجانًّا فى سرعتها ، وخفتها ، ولهذا وُصفت بأنها « تَسْعى » فالحيات حين تكبر وتضخم : لا تكاد تتحرك من مكانها ، فضلا عن أن تسعى .

وقوله تعالى : « ولّى مدبراً ولم يعقّب » أى انطلق مسرعاً ، فأعطاها ظهره ، وأطلق ساقيه للريح . . فراراً من هذا الهول الذى طلع عليه من

تلك العصا التى كانت خشبة جامدة فى يده منذ لحظات . . وفى قوله تعالى : « ولم يُعقّب » . إشارة إلى أنه لم يتراجع إلى الوراء قليلاً ، على عقبه ، حتى ينكشف له الأمر ، ويتبين إن كان سيقبل أم يدبر . . بل إنه اتخذ هذا القرار دون شعور ، إذ لم يكن له أمام هذا الهول وقت يفكر فيه . . ثم هل هناك ما يحتاج إلى تفكير ؟ إنه رأىٌ واحد ، وهو الفرار من الهول العظيم !

وقوله تعالى : « يا موسى لا تَخَفْ . . إنّى لا يخاف لدىّ المرسلون * إلا من ظلم ثم بدّل حسناً بعد سوء فإنى غفور رحيم » .

هو صوت الحقّ ، الذى تبع موسى فى مُنطَلَقه هذا ، وأمسك به على طريق الفرار ، وأنزَلَ على قلبه الطمأنينة والسكينة . .

إنه ليس وحده مع هذا الثعبان العظيم . . وهذا هو صوت الحق يملأ هذه الوحشة أنساً ، ويُحيل هذا الفزع والهلع طمأنينة وأمناً . . . « يا موسى . . لا تخفْ » . . وإنّ كلمة « موسى » لتفعل فعلها فى هذا الموقف ، إذ أن المنادى يعرف موسى . وإذن فلا يخاف منه ، لأنه فى حضرة من يعرفه ، ومن كان من شأن هذه المعرفة لا يجىء منها ما يسوء . . إن الإنسان فى مثل هذا العالم الموحش ليتلمس أى وجه كان له به معرفة ، من قريب أو بعيد . من إنسان ، أو حيوان أو جماد . . إن أى شىء من هذا ، يبعث الأنس ، ويذهب بكثير من وحشة الغربة . . !

ويفىء موسى ، إلى شىء من الطمأنينة ، ويذهب عنه كثير مما استولى عليه من الخوف . . « ياموسى . . لا تخف » . . !

ثم لا تكاد نوازع الخوف تعود إلى موسى مرة أخرى . بعد أن سكت هذا النداء المؤنس ، حتى يجىء النداء مرة أخرى يملأ الوجود كله من حوله : « إنى لا يخاف لدى المرسلون » . . وهنا يعلم موسى أنه قد اختير لرسالة

سماوية من رب العالمين ، وأنه سيدخل مدخل الرسل ، منذ ذلك الوقت . . والمرسلون لا ينالهم من الله مايخيفهم ، ولا يطلع عليهم فى حضرته إلا مايؤنسهم ، ويملأ كيانهم رضا وأمناً . .

ثم لا يكاد موسى ، يسعد بهذه البشرى ، التى يجد بها نفسه فى حضرة الله سبحانه وتعالى ، حتى يعود فيسمع من قِبَل الحق جل وعلا : « إلا من ظلم ثم بدّل حسناً بعد سوء فإنى غفور رحيم » . . !! وهنا تدور فى رأسه الظنون ، وتتحرك فى صدره الوساوس المتسائلة : ما هذا الاستثناء الذى يزعجه عن هذا المكان الذى اطمأن فيه إلى جوار ربه ، وإلى ما وجد من أنس وروْح فى ظلال فضله وإحسانه ؟ أهو من الظالمين ، الذين لا يستحقّون أن ينزلوا هذا المنزل ؟ أهو مطالب بأن يبدِّل حسناً بعد ما كان منه سوء ، حتى ينال عفو الله ومغفرته ؟

إن الاستثناء لا شك واقع على المرسلين . . فهل من المرسلين من يظلم ؟ وهل كان موسى ـ وهو من المرسلين ـ ممن ظلم ؟

نذكر هنا حادثة موسى ، مع المصرى الذى قتله . . !

فقد قتل موسى ، المصرى خطأً ، حين وجده يعتدى على إسرائيلى . . كما يقول الله سبحانه وتعالى : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه »(١٥ — القصص)

وقد استشعر موسى الندمَ على هذه الفعلة . . فقال : « هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين » . . ثم طلب المغفرة من ربه لهذا الذنب الذى ارتكبه . . « قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى . . فغفر له . . إنه هو الغفور الرحيم » (١٦ : القصص)

فهذا الاستثناء يذكّر موسى بهذه الحادثة التى كانت منه ، كما يذكّره بأن الله قد غفر له . . !

وأكثر من هذا ، فإن موسى سيُدعى من ربه فى هذا الموقف إلى لقاء فرعون ، ومازالت نفسه تفيض بمشاعر الخوف التى وقع فيها من قتل المصرى ، وأنه مطلوب من فرعون ليقتله ، بهذا المصرى ، وهو من أجل هذا قد فر من وجه فرعون ، كما يقول الله تعالى : « فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب » (١٨ : القصص) أى يترقب القصاص منه . . ثم جاء مَن ينصح له بأن يخرج من المدينة ، ويطلب النجاة لنفسه بالفرار منها . . « فخرج منها خائفاً يترقب » (٢١ : القصص) . .

فهذا هو شعور موسى ، وهذا ما يطلع عليه من مخاوف ، إذا هو دُعى إلى لقاء فرعون . . وقد كان من تدبير الله سبحانه وتعالى ، أن يصفّى هذه المشاعر من نفسه ، قبل أن يحمّله رسالته إلى فرعون . . فقد ظلم موسى نفسَه فعلاً بهذا الذى كان منه من قتل المصرى . . ولكنه ندم ، ورجع إلى الله تائباً مستغفراً ، وقد غفر الله له . . ! وإذن فلا خوف عليه ، لأنه من المرسلين ، والمرسلون فى رعاية الله وحراسته . .

إن موسى سيدخل فى تجربة قاسية مع فرعون ، إذ يحمل إليه دعوة من الله ، بأن يؤمن بالله ، وبأن يطلق بنى إسرائيل من يده ، ويرسلهم مع موسى ، إلى حيث يخرج بهم من سلطان فرعون ! وإن الخوف من فرعون ليكاد يكون كائناً يعيش مع موسى . . حتى إنه ، مع هذا الأنس الذى وجده فى حضرة ربه ، ومع هذا الوعد بأنه من المرسلين الذين يحرسهم الله ، ويدفع عنهم ما يخيفهم — مع هذا كله ، فإنه ما يكاد يتلقى أمر ربه : « اذهب إلى فرعون إنه طغى »(٢٤ : طه) حتى تطل عليه وجوه الخوف من كل جهة ، فيقول

« رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون » (٣٣ . القصص) .

وإذن فقد كانت هذه المواجهة لموسى بفعلتــه ، وبمغفرة الله له ، وبذهاب كل أثر لهذه الحادثة — كانت هذه المواجهة من تدبير الحــكيم العليم ، لانتزاع هذا الخوف ، الذى غاصت جذوره فى أعماق موسى . وخالطت وجوده .

قوله تعالى :

* « وأدخل يدك فى جَيْبك تخرج بيضَاء من غير سوء فى تسعِ آياتٍ إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين » .

وتجربة أخرى ، يجريها موسى ، بعد تجربة العصا ، وهى يده ، التى كانت تمسك بهذه العصا .. إن يده هذه نفسها، يمكن أن تــكون شيئاً آخر ، كما كان ذلك شأن العصا .

العصا يلقيها على الأرض . . فإذا هى جانٌ ، وإذا هى ثعبان مبين ، وإذا هى حية تسعى . .

ويده . . ماذا يفعل بها ؟

إنه يدخلها فى جيبه ، أى يَدُسها فى صدره ، تحت ثوبه ، إذ يدخلها من جيبه ـ أى الفتحة التى يُلبس منها الثوب ـ ثم يخرجها ، فإذا هى بيضاء بياضاً ناصعاً ، مشرقاً ، « من غير سوء » أى ليس هذا البياض عن داء كداء البَرَص مثلا ، وإنما هو بياض يشع نوراً ، ويتلألأ صفاء . . كما تتلألأ اللآلى .

وقدّمت تجربة العصا ، على تجربة اليد ، لأن العصا — مهما كان التحول الذى يحدث لها — لا تثير فى نفس موسى من رعب ما تثيره يده ، وقد تغيرت صفتها على هذه الصورة التى تحولت إليها . .

إنه مع العصا ، قد استطاع أن يجد لمخاوفه مَهْرَبا . . فولى مدبراً ، يبتعد

عن موطن الخطر الذى تمثله منها . . أما مع يده ، فكيف السبيل إلى مهرب منها ؟ ولكنها إذ جاءت بعد تجربة العصا ، وبعد أن ذهبت مخاوفه ، فإن أمرها يكون هيناً محتملا !

وقوله تعالى : « فى تسع آيات » . . أى أن هذه الآية ، آية اليد ، واحدة من تسع آيات ، أوفى إطار من تسع آيات ، هى جميعا أشبه بآية واحدة .. فى إعجازها ، وتحديها لقوى البشر جميعاً . . وهذا هو السر فى حرف الجر « فى » الذى يفيد الظرفية .

وقوله تعالى : « إلى فرعون وقومه » . . الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره : هذه اليد آية ، تدخل فى تسع آيات تحملها إلى فرعون وقومه .

وقد كانت الدعوة هنا موجهة إلى فرعون وقومه : « فى تسع آيات إلى فرعون وقومه » على حين جاء الأمر فى بعض القصص بلقاء فرعون وملائه : « فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه .. إنهم كانوا قوماً فاسقين » . . (٣٢ : القصص) أما فى سورة طه ، فقد كانت الدعوة إلى فرعون وحده : « اذهب إلى فرعون إنه طغى » .

والسرّ فى هذا والله أعلم ، أن موسى ، حين التقى فرعون لأول مرة ، لقيه فى حاشيته ثم مع سحرته ، وما حشد من جموع ليوم المعركة ، بين موسى ، والسحرة . . ولم يُظهر موسى من الآيات التى بين يديه ، إلا العصا ، ويده . . ولهذا كان الذين شهدوا هاتين الآيتين ، هم أعداد قليلة .. هم فرعون وحاشيته ، وخاصة أتباعه ، فناسب أن يكون فرعون وحده ، أو فرعون والملأ حوله هم الذين يذكرون فى مواجهة هاتين المعجزتين .

أما الآيات التسع ، وفيها العصا واليد ، فقد شهدها القوم جميعاً ، ووقع

أثرها، على الشعب كله ، وشمل مُلك فرعون جميعه ، فناسب أن يذكر القوم ، مع فرعون ، لأن هذه الآيات التسع موجهة إلى فرعون وقومه جميعاً .

والآيات التسع ، هى العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والجدب ، والعقم .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : «فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . . آيات مفصلات » (١٣٣ : الأعراف) وقوله سبحانه : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذّكرون » (١٣٠ : الأعراف) . . فالسنون هى سنو الجدب ، التى تغيض فيها مياه النيل ، وتجف مياه الآبار والعيون . . ونقص الثمرات ، هو العقم ، الذى أصاب الزروع ، والحيوان ، والإنسان . . وكان هذا وذاك آية من آيات الله . . ! وقد شملت هذه الآيات فرعون وقومه جميعاً .

وقوله تعالى : « إنهم كانوا قوماً فاسقين » — إشارة إلى كان عليه القوم من ضلال ، وفسق ، أى خروج عن جادة الطريق ، إذ كانوا جميعاً متابعين لفرعون ، وعلى إيمان بألوهيته . . « وأضـلّ فرعونُ قومه وما هدى » . (٧٩ : طه) .

قوله تعالى :

* « فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين » .

وصف الآيات بأنها مبصرة ، إشارة إلى ما فيها من هدى مشرق واضح ، وأنها تكاد تكون عيونا شاخصة تبصر ، وتقود العُمْىَ إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم . .

قوله تعالى :

* « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً . . فانظر كيف كان

عاقبة المفسدين » . الجحد ، والجحود : الإنكار ، القائم على المكابرة ، والتحدّى للحق والواقع .

والاستيقاز : التثبت من الشيء ، ورؤيته رؤية كاشفة محققة . .

فالقوم ، قد أنكروا هذه الآيات ، وتنكروا لها ، ورموْها بالسحر والخديعة ، مع أنهم فى قرارة أنفسهم على غير هذا الذى تنطق بهم ألسنتهم فى شأنها .. إنهم يرونها أبعد ما تكون عن السحر ، وأنها مما لا تطوله يد بشر .. ولكن لِما عندهم من جرأة على العدوان ، واستكبار على الخضوع للحق ، والولاء له . . أنكروا هذا الذى يجدونه فى دخيلة أنفسهم لهذه الآيات .

وقوله تعالى : « فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » . . الأمر هنا هو إلفات للنبى ، ولكل من عنده استعداد للنظر السليم فى وجه الحق وتقبله . .

فالذى ينظر ، بعين مبصرة ، إلى ما حل بهؤلاء القوم ، يرى العبرة فيما أخذهم الله به ، وأن مصرعهم كان حتما مقضياً به ، على كل من يذهب مذهبهم ، ويأخذ طريقهم ، الذى لا يصلح عليه أمرُ من يسير عليه ، لأنه طريق فاسد ، لا يُرى عليه إلا المفسدون ..

الآيات : (١٥ — ١٩)

* « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ

فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٩) »

التفسير :

[سليمان . . والنملة . . والهدهد]

مناسبة هذه القصة ، لقصة فرعون ، هى أن الله سبحانه وتعالى ، يبتلى بنعمه من يشاء من عباده ، فمنهم من يكفر بهذه النعم ، ويتخذ منها أسلحة يحارب بها فى مواقع الحق ، والخير ، ويضرب بها فى وجه المحقين والأخيار من عباد الله .. ومنهم من يتلقى هذه النعم بالشكران لله ، والولاء لطريق الله ، ولمن يسلك هذا الطريق من عباده . .

فهذا فرعون يمكّن الله له فى الأرض ، ويبسط له الرزق ، فيتحول من إنسان إلى شيطان مريد ، وإلى إعصار عاصف ، يأتى على كل ما يُزرع فى منابت الحق والخير .. ثم يبعث الله إليه نبياً كريماً ، يحمل إليه دعوة كريمة ، فى رفق ولين ، حتى إن الله سبحانه وتعالى — كرما منه ، وفضلا — يوصى رسوله أن يتلطف ، ويترفق بهذا الإنسان ، الذى ملأه الغرور ، واستبد به الكفر ، فيقول له الحق جل وعلا :

« اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى ؟ * وأهديك إلى ربك فتخشى ؟ » (١٧ — ١٩ : النازعات) .

فيلقى هذا النداء الكريم ، وهذا اللطف اللطيف بهذا العناد اللئيم ، الذى وصفه الله تعالى فى قوله : « فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى » (٢١ — ٢٤ النازعات) .

وعلى غير هذا تماماً ، كان موقف عباد الله المؤمنين ، الذين يعرفون لله قدره ، ويذكرون له فضله . .

ومن هؤلاء داود وسليمان . . عليهما السلام . . لقد آتاهما الله خير مايؤتَى الإنسان من فضل وإحسان ، وهو العلم ، الذى من مَلَكه ، ملك أقوى ما على هذه الأرض من قوة ، يستطيع بها أن يستولى على سلطان هذا العالم كله . . ومع هذا ، فإنهما استقبلا هذه النعمة الجليلة العظيمة ، بالحمد ، والشكر ، والولاء لله ، وخفض الجناح لعباد الله ، ولكل ما خلق الله . . حتى إن سليمان عليه السلام ، وهو فى أروع مظاهر سلطانه ، وفى أعظم مجالى قدرته وقوته ، يقف بين يدى أضعف مخلوقات الله ، وهى النملة . . فيأخذ منها العبرة والعظة ، وينظر من خلال ملكها إلى ملكه العريض ، فيرى أن لها سلطاناً كسلطانه ، وملكاً كملكه ، وسياسة رفيقة رحيمة ، أروع وأعظم من سياسته ، فلا يملك إلا أن يخشع لسلطان الله بين يديها ، ويسبح بحمده وجلاله . فيقول فى محراب مُلكها الذى تسبح فيه بحمد الله : « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » !

فأين موقف فرعون ، من هذا الموقف ؟ وأين الأرض من السماء ؟ وأين الباطل من الحق ، والعمى من الهدى ؟ وأين أعداء الله من أولياء الله ؟ .

وفى قوله تعالى : « ولقد آتينا داود وسليمان علماً » إشارة إلى أن الذى أعطاهما الله إياه من العلم ، هو — على عظمته وجلاله — شىء قليل ، لا يكاد يذكر

إلى ما لله سبحانه وتعالى من علم ، وهذا ما يدل عليه تنكير كلمة « علم » . . فهو علم قليل قليل ، مما عند الله من علم . .

وفى قوله تعالى : « وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » — إشارة أخرى إلى أن العلم الذى كان عندهما ، هو وإن علوَا به عن كثير من عباد الله ، فإن فى عباد الله من أوتى علماً أكثر من علمهما . . فهما أكثر من كثير من الناس علماً ، وأقل من بعض الناس علماً . .

والله سبحانه وتعالى يقول : « وفوق كل ذى علم عليم » (٧٦ : يوسف) وبهذه النظرة كانا ينظران إلى علمهما ، وأنهما لم يستوليا على غاية العلم ، مما هو متاح للناس ، وإنما أخذا حظاً كبيراً من هذا العلم .

قوله تعالى :

* « وورث سليمان داود ، وقال يأيها الناس عُلّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين » .

ميراث سليمان لداود ، هو وراثة الملك من بعده ، دون إخوته . . ثم اختياره للنبوة ، فى قومه ، كما كان أبوه نبياً فيهم .. فالملك وراثة ، والنبوة اصطفاء ، لا ميراث . وقد جمعهما الله سبحانه لسليمان ، كما جمعهما لداود . . فتلقى سليمان من الله ما كان لداود من ملك ونبوة ، وكان بهذا قد ورث أباه فى كل ما كان له من ملك ونبوة .

وقوله تعالى : « وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء .. إن هذا لهو الفضل المبين » . . هو تحدثٌ بنعمة الله عليه ، واستعراض لهذه النعم التى أسبغها الله عليه ، ليكون فى ذلك داعية له إلى القيام بشكرها ، ورعايتها حق الرعاية .

وفى الحديث عن نفسه « بنا » الدالة على الجمع ، فى قوله « علمنا » . . « وأوتينا » . . هو دعوة إلى الناس ، أن يشاركوا معه فى هذا التحدث بنعمة الله ، والاستعراض لأفضاله ، فما هو إلا واحد من هؤلاء الناس ، وما الفضل الذى فَضَل الله به عليه ، إلا فضل يأخذ منه الناس حظهم ، فلا يختص به نفسه ، وإنما هم شركاء له ، فيما يعود عليه من هذا العلم لمنطق الطير ، ولهذه النعم التى أوتى منها كل شىء ! . . وهكذا شأن أهل العلم ، وأرباب الجاه والسلطان من عباد الله . . إن ما يفتح الله عليهم به من علم ، وما يمكّن لهم به من جاه وسلطان فى هذا الوجود ، هو خير متاح للناس جميعاً ، وتمكين لخلافتهم على هذه الأرض . .

— وقوله تعالى : « وأوتينا من كل شىء » أى أوتينا من كل شىء من أشياء هذه الدنيا مما ينصلح به أمرنا ، ويقوم عليه وجودنا ، وسلطاننا . . فهو لم يؤت كل شىء ، وإنما أوتى شيئاً من كل شىء هو فى حاجة إليه . .

قوله تعالى :

* « وحُشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير . . فهم يوزعون »

الحشر : الجمع والحشد . .

يوزعون : من الوزع ، وهو السوق ، والدفع ، بفعل قوة خارجة ، أو طبيعة غالبة . . .

وقد ذُكر من جنود سليمان هنا : الجن ، والإنس ، والطير . . إذ كانت هي القوى العاملة معه فى دولته . .

فالجن كانوا مسخرين له ، فى عمل ما يريد منهم . . « يعملون له ما يشاء من محاريبَ وتماثيل وجفان كالجوابِ وقدور راسيات » (١٣ : سبأ) .

والإنس : هم من تضمهم دولته من رعيته .

والطير : هى أجناس من الطيور ، التى تعيش فى جو مملكته ، ويسخرها لخدمته . .

وبهذا يكون له ملك ما على أرض مملكته ، وما فى جوها . .

وطبيعى ، أنه ليس كلّ الجنّ قد سُخروا لسليمان ، وإنما بعضهم ، شأنهم فى هذا شأن الناس . . فليس كل الناس ، كانوا فى سلطان سليمان . . وإنما هم الذين كانوا يعيشون فى دائرة مملكته . .

وكذلك الطير . . فليس كلُّ الطير كان مسخَّراً له . . وإنما هى بعض الطيور التى كانت تعيش فى هذه المملكة . .

وكان سليمان يستعرض وجوه مملكته . . من الجنّ ، والإنس ، والطير ، ويحشدهم بين يديه ، بسلطانه ، الذى مكن الله سبحانه وتعالى له به ، فى هذه الرعايا، فلا يقدر أحد على أن يخرج عن هذا السلطان ، الذى يَزَعُ هذه الرعايا ، ويأخذ من يخالف منها بالعقاب الذى يستحقه !

وفى ثمان كلمات صُوّر هذا العرض العظيم ، الذى جمع عوالم الجن والإنسان، والطير ، وحشرها فى موقف واحد ، وجىء بها من كل صوب ، فى حركة هادفة منتظمة ، أشبه بحركات الأفلاك فى مداراتها ، يمسكها نظام ، وتظلها سكينة وجلال . .

* « وحُشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون » . .

ثمانى كلمات لا غير ، يقوم بها هذا المشهد ، الذى تعجز أدوات البيان والتصوير كلها عن أن تأتى له بنظير ، وأن تمسك بهذه الروعة وهذا الجلال .

فهذه الكلمات الثمان ، قد استُدعيت بها كل هذه الحشود الحاشدة ، من

الجن ، والإنس ، والطير ، وقد أمسكتها يد القوة القادرة بكلمة واحدة . . هى « يوزعون » التى قامت على هذه الأمم مقام الحرس والقادة ، فى أحدث ماعرفت الجيوش من حراسة ، وضبط ، وقيادة !

قوله تعالى :

• « حتى إذا أتوا على وادِ النَّمل قالت نملةٌ يأيها النَّمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجُنوده وهم لا يشعرون » .

« حتى » إشارة إلى غاية من غايات للسيرة التى يسير إليها سليمان ، بهذه الحشود التى احتشدت له ، من الجنّ والإنس والطير . .

وقد انتهت به هذه الغاية هو وجنوده إلى « واد النَّمل » أى قرية من قراه ، حيث يعيش النمل جماعات ، وفى نظام أشبه بنظام المجتمع الإنسانى !

وقد أراد سبحانه وتعالى ، أن يُصغّر فى عينى سليمان هذا الملك العريض الذى بين يديه ، وأن يكسر من حدّة هذا السلطان المندفع كالشهاب ، لا يمسكه شىء ، ولا يعترض سبيله معترض، وذلك كى لا يدخل على نفسه شىء من العجب والزهو . . فتقف له النملة هذا الموقف الذى يرى منه سليمان عجباً عاجباً . . فيرى سليمان من النملة مالم يرَ أحد من جنده ، ويسمع منها ، مالم يسمعه أحد غير النمل الذى يعيش معها . . « يأيّها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » . .

هذا هو صوت النذير ، الذى أنذرت به النملة جماعتها . .

إن الهلاك مقبل على جماعة النمل ، من هذه الحشود الحاشدة ، التى تسير فى ركب سليمان . . فلتأخذ الجماعة حِذرها ، ولتدخل مساكنها ، وتنجحر فى مساربها ، وإلا فالهلاك المحقق !

وممن هذا الهلاك ؟

من جماعة عالية ، لا تنظر إلى ما تحتها ، ولا تلتفت إلى مواطىء أقدامها ، ولا تشعر بما تصيب أو تقتل ، من تلك الكائنات الضعيفة !

وهل يشعر من يسكن القصر ، بما يُعانى ساكن الكوخ ؟ وكم فى دنيا الناس من المستضعفين من تطؤهم أقدم الأقوياء ، دون أن يشعروا بهم ، وهم فى طريقهم إلى التمكين لسلطانهم ، والاستزادة من جاههم وقوتهم ؟ وكم من مجتمعات بشرية بأسرها جرفها تيارٌ عاتٍ من تيارات الطغاة والمستبدّين ؟ وكم من مدن عامرة دمّرتها رَحَى الحروب التى يوقد نارَها من يملكون الحطب والوقود ؟ وكم ؟ وكم ؟

إنها حكمة بالغة ، ودرس عظيم ، تلقيه « النملة » ــ أضأل مخلوقات الله ، وأقلها شأناً ــ على الإنسانية ، فى أحسن أحوالها ، وأعدل أزمانها ، وأقوى سلطانها ! .

ولكن أين من يتعظ ويعتبر ؟

ولقد أخذ سليمان العبرة والعظة . . ! فحاد بركبه عن وادى النّمل ، وهو يضع ابتسامة على فمه ، ويرسل ضحكة رقيقة واعية من صدره ، ويحرك لسانه بكلمات شاكرة ، ذاكرة فضل الله ، ونعمته .. فيقول : « ربّ أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » . . ومِن شكر النعمة ، حراستُها من أن تكون سلاح بغى وقهر . ومن العمل الصالح ، إرسال هذه النعم فى وجوه الخير والإحسان .

إن للنملة سلطاناً كسلطان سليمان ، ودولة كدولته ، وجنداً كجنده .. ثم إنها تقوم على هذه الدولة وترعاها رعاية الأم لأبنائها ، وإنها لتضع عينها دائماً على مواقع الخير ، ترتاده لرعيتها ، وإلى مواطن الشر ، فتدفعها عنها ، وتحذرها منها .. فهل تجد رعايا سليمان فى ظله ، مثل هذه الرعاية التى تجدها جماعة النمل فى ظل

هذا السلطان الحكيم ؟ وهل تنال رعيته مثل هذا العطف والحنو الذى تناله جماعة النمل من ملكتها ؟ إن مقاييس الحكمة والرشاد لا تقاس بالكم ولا تحسب بالعدد . . ومتى كانت المعانى كمًّا وعدداً ؟

والعجب أن مشيخة المفسرين يدعون مثل هذه المعانى الدقيقة ، التى جاءت هذه القصة وأمثالها لها ، من حيث الوقوف على مواقع العبرة والعظة فيها ، ثم يَشغلون أنفسهم ، ويشغلون الناس معهم ، بالبحث عن النملة ، وهل هى ذكر أم أنثى ، وعن الموضع الذى كانت فيه مملكتها ، واسم الوادى الذى قامت فيه تلك المملكة .. ثم اسم النملة ! ! إى والله اسم النملة ! ! حتى لكأنها لا تكون نملة إلا إذا حملت اسماً لها ، وحتى لا يكون منها هذا التدبير لمملكتها إلا إذا كانت من ذوات الأسماء ! ! ثم ما أكثر الأسماء التى تُجلب لها من كل واد من أودية الخيال . .

فمن أسمائها « حَرَس » وأنها من قبيلة بنى الشَّيصان ، وأنها كانت عرجاء ، وكانت فى حجم الذئب . . وقد نُسب هذا القول إلى الحسن البصرى !

ومن أسمائها « طاخية » و « منذرة » ! وهكذا تكثر لها الأسماء والصفات ، حتى لتخرج عن أن تكون نملة من هذه النِّمال التى يعرفها النّاس ، وحتى لتخرج بها ذلك عن أن تكون موضعاً للعبرة والعظة ! !

الآيات : (٢٠ — ٢٧)

* « وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا

عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) »

التفسير :

وما يكاد سليمان يخرج من هذا الموقف الذى وقفه مع النملة ، حتى يلقاه موقف آخر ، مع طائر ، وديع لطيف ، أقرب إلى النملة فى لطفهـا ، وحُسن مدخلها للأمور التى تعالجها . . وهو « الهدهد » .

وكأن سليمان قد نسى هذا الموقف الذى كان فيه مع جماعة النمل منذ قليل ، وزايلته تلك المشاعر التى وقعت فى نفسه هنـاك . . وها هو ذا يلبس سلطان الجلال ، ويُمسك بصولجان الملك ، ويضرب بسيفه !

• « وتفقد الطير فقال مالىَ لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين * لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين . »

الهدهد . . هذا الطائر الوديع المسكين . . يتخلّف عن هذا الحشد ، ولا يحضر هذا الحفل ، فيتوعّده ، صاحب السلطان بأشدّ العـــذاب والنقمة ! « لأعذبنّه عذاباً شديداً . . أو لأذبحنّه . . أو ليأتينى بسلطان مبين » ! !

أمَا للهدهد عذر يمكن أن يقوم لتخلفه هذا ، ويدفع عنه هذا العذاب ؟ ألا يجوز أن يكون مريضاً ؟ ألا يصح أن يكون قد وقع فى شباك صائد ؟ ألا يعرض للهدهد ما يعرض للناس من أمور تعطل إرادتهم ، أو تدفع بهم إلى غير

ما يريدون ؟ ألاَ سأل سليمان عن الهدهد أولاً ، وطلب إلى بعض جنده أن يأتوه بالخبر اليقين عنه ؟ ألاَ اطمأن إلى سلامته قبل أن يسأل عن تأخره عن أخذ مكانه فى هذا الحشد ؟ وماذا يغنى الهدهد فى هذا الجمع العظيم ؟ وماذا يجدى أو يضير إذا هو حضر أو تخلف ، وبين يدى سليمان من الحشود والقوى مالا حصر له ؟ .

إنه سلطة السلطان ، وناموس الملك . . الطاعة والولاء ، لحساب الطاعة والولاء ، ولسلطان الهيبة والجلال . . !

وفى قول سليمان : « مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين » ـ هو عِلم من علم سليمان الذى آتاه الله . . فهو حين ينظر فلا يرى الهدهد ، يتهم نفسه أولاً ، ويتشكك فى أن تكون حواسه قد خدعته : « مالى لا أرى الهدهد ؟ » ولم يقلْ : « أين الهدهد ؟ » ولم يقل : « إن الهدهد غائب ! » . . وهذا هو شأن أصحاب العلم ، إذا التمسوا حقيقة من الحقائق ، فلم يجدوها بين أيديهم ، تشككوا فى أسلوب تفكيرهم الذى لم يصل بهم إلى الحقيقة ، ثم أعادوا البحث والنظر . . حتى يجدوا ما يطلبون . . أما إذا التمس المرء الحقيقة ثم لم يجدها ، ثم كان ذلك مدعاة له إلى إنكارها ، فذلك ليس من أسلوب العلماء ، ولا من طرق تحصيل العلم .

فسليمان ، إذ لم ير الهدهد . . وقف موقف الشك . حتى ينجلى الموقف . . إنه لم يَرَهُ ، وقد يكون موجوداً ، وقد يكون غائباً !

ثم استبان له بعد هذا ، أن الهدهد غائب ! . . ومن هنا كان هذا الوعيد بالعقاب الأليم له !

ويطلُع « الهدهد » على سليمان بما لم يكن يحتسب ، ويهجم عليه ، وهو

الأعزل الضعيف ، بسلطان أقوى من سلطانه ، وجيش أعز وأقوى من جيشه ، وعِلم أكثر وأشمل من علمه . .

* « فمكث غير بعيد . . فقال أحطت بما لم تحط به . وجئتك من سبإٍ بنبأ يقين !! »

لقد انقلبت الآية ، وانعكس الوضع . وهاهو ذا « الهدهد » الضعيف الأعزل ، الذى تنتظر هذه الحشود الحاشدة من الجن والإنس والطير ، مصيرَه ، ومصرَعه ، بين مشفق ، وشامت ، ولاه ـ هذا الهدهد، يحاكم سليمان ، وينتقص قدرته ، ويتهمه بالقصور عن أن يرى ما حوله ، وأن يدير هذه القوى التى بين يديه الدعوة إلى الله ، وهداية الضالين من عباده ، لا فى هذه المظاهر الاستعراضية ، التى لا ثمرة لها . .

لقد حاكم ، هذا المخلوقُ الضعيف الأعزلُ ، ملكَ الملوك فى عصره . . حاكمه ، ووضعه موضع الاتهام ، وهو فى أبهة ملكه . . وعلى أعين الملأ من جنده . . من الجن والإنس والطير !!

* « إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون * ألاّ يسجدوا لله الذى يخرج الخبْ ء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون * الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » !

فلم يكن هذا الطائر الضعيف الصغير ، مجردَ مكتشف ، وعالم ، بما لم يعلم به سليمان وحسب ، بل إنه كان داعية إلى الله ، وإلى الإيمان به . . فهو ينكر على المشركين شركهم ، ويسفه أحلامهم ، ويحقـر آلهتهم وما يعبدون من دون الله ! .

إنه يُدين سليمان فى هذه الإنسانية الضالة ، التى ينتمى إليها سليمان ، باعتباره واحداً من عالم الناس !

ثم ماذا بقى لسليمان من فضل على هذا المخلوق الضعيف ؟

إن سلطان سليمان ـ كملك ـ قصر عن أن يمتد إلى ما وصل إليه سلطان الهدهد ، وأحاط به علمه ! .

وإن دعوته كنبىّ . . لا تقوم على أكثر من هذه الدعوة التى يدعو بها الهدهد . . وإن حجته على دعوته ، ليست بأقوى من حجة هذا الهدهد !

. فماذا بقى للإنسان فى أكمل صوره ، وأحسن أحواله ، وأعلى منازله . ؟ ماذا بقى له من فضل ، على أضعف مخلوقات الله وأقلها شأناً . . كالنملة والهدهد؟

إن جهل الإنسان بأسرار هذا الوجود ، هو الذى يخيل إليه أنه سيّد هذا العالم ، وأنه قد علم مالم يعلمه غيره من مخلوقات الله . .

وهذا ـ لا شك ـ رحمة من رحمة الله بالإنسان . . إذ لو انكشف له الغطاء عن أسرار هذا الوجود ، وما أودع الخالق فى مخلوقاته من عجائب وأسرار ـ لمات الإنسان حسرة وكمداً ، على ضآلة شأنه ، وكثافة جهله ، ولانطفأت فى نفسه شعلة الأمل التى تدفىء صدره ، وتغريه بالاندفاع وراء المجهول ، لكشف السُتر المحجّب وراءها ، ولوقف من هذا الوجود موقف الذليل المهين أمام سلطان جليل مهيب . . وصدق الله العظيم : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » . (٨٥ : الإسراء)

ولعل خيرَ شاهد لهذا الذى نقول ، ما يعانيه الغرب اليوم من قلق نفسى ، وحيرة فكرية ، واضطراب سلوكىّ . . ومردّ هذا كله ـ فيما نرى ـ إلى هذا القدر الضئيل ، الذى انكشف للعقل من أسرار الوجود ، دون أن يرتبط ذلك بالإيمان بالله ، وإضافة هذا إلى علمه وقدرته ، وإبداعه فى خلقه . . فكان

الأثر المباشر لهذا ، هو ضمور شخصية الإنسان ، وصغاره ، وضآلة شأنه بين عوالم الوجود . .

وليست هذه النظرات المتشائمة ، التى قامت عليها هذه المذاهب المادية السوداء ، التى يعيش فيها الغرب اليوم — ليست إلا أثراً من آثار هذه الكشوف العلمية ، التى ألقت أضواء خافتة على أسرار هذا الوجود ، فظهر الإنسان فى شعاعاتها المضطربة المتراقصة ، كأنه حشرة حقيرة ، أو دودة هزيلة ، أو قرد خلقه الله ليتسلى به فى أبديته الطويلة المملة ، كما يقول كبير الفلاسفة « نيتشه » ! .

ونعود إلى القصة !

فهذا سليمان ، يلَقى الهدهد ، بعد أن تلقى منه هذا الدرس القاسى — يلقاه بشىء من اللطف والموادعة ، فيقول له :

« سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين » .

وسليمان يعلم أن الهدهد صادق فيما جاء به من أنباء ! ومن أين تعرف الطيور الكذب ، وليس بينها وبين الإنسان قرابة أو نسب ؟

« سليمان » ، يعلم أن الهدهد شهد بما علم ، وتحدث بما رأى ، ولكن سلطان الملك تُخرج كبرياؤه إن هو تعرّى أمام الرعية . . فكان من السياسة أن يلقاه بهذا القول الذى ينبىء عن أن سليمان ما زال هو صاحب الدولة والسلطان . . « سننظر ! ! » . . إنها كلمة صاحب الأمر ، وقاموس أرباب السلطان !

وفيم سينظر ؟ إنه سينظر فى أمر هذا « الهدهد » . . أصَدَق فيما يقول . . أم كان من الكاذبين ؟ ! إنها كلمة جارحة ، تَكْلِم فؤاد هذا « المخلوق » . .

وتجرح كرامته . . إنه فى معرض الاتهام بالكذب !! وإنه لا يزال واقعاً تحت سيف العقاب الراصد له !!

وأكثر من هذا ، فإن سليمان لم يقل له : أصدقت أم كذبت ، فيكون اتهامه واقعاً على تلك الحادثة ، وإنما رماه بهذه الكلمة « أم كنت من الكاذبين » أى ممن شأنهم الكذب فى كل حال . . إنه إحقار للهدهد ، وإلقاء به إلى التراب ، بعد أن ارتفع فى عين هذه الحشود الحاشدة بسبب ما جاء به من أنباء

الآيات : (٢٨ — ٤٤)

* « اذْهَب بِّكِتَابِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَٰأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَٰأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِىَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَٰأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ

أمِينٌ (٣٩) قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٤٤) »

التفسير :

ولا ينظر سليمان شاهداً يجىء به الهدهد ، ليشهد له بصدق ما يقول ، ولا يسمح له بمزيد من الوقت ، يَعرض فيه مزيداً من علمه ، وبيانه ، وحكمته ، أمام هذه الرعية ، التى تقف كلها فى ولاء وخشوع بين يديه . . فكيف لهذا المخلوق الضعيف أن يصول ويجول ، ويعرض من علمه مالم يكن لسليمان به علم ؟ وأين إذن صولة الملك وصولجانه ؟ وأين هيبته وأين سلطانه ؟

لقد قطع سليمانُ على الهدهد السبيل إلى هــذا المرتقَى الذى ارتقاه . . وبكلمة واحدة آمرة ، أنزله من هذا المكان، وأزاله عنه . . وسرعان ما أصبح الهدهد ، فى هذا الوضع الذى كان له بين أبناء جنسه . . جندياً من جنود سليمان ، وخادماً من خدَمه . . وها هو ذا يتلقى من سليمان أمراً بالذهاب إلى حيث يريد منه أن يذهب .

* « اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون » .

وإلى هنا ينتهى دور الهدهد فى القصة ، ويغرب وجهه الذى كان منذ لحظات ، الوجهَ الذى تعلقت به أنظار مملكة سليمان كلها ، فلا يرى له أحد وجهاً ، بعد هذا ! !

ولا تتعرض القصة لشىء من رحلة الهدهد إلى سبأ ، يحمل كتاب سليمان إلى القوم ، كما لا تذكر شيئاً عن ملكة سبأ ، وهى تجد كتاب سليمان بين يديها ، وما وقع فى رُوعها من هذا الأمر العجيب ، الذى طلع عليها من حيث لا تدرى ! كما لم يذكر القرآن ما كان بينها وبين أهل سرها من حديث فى هذا الحدث العظيم .. كل ذلك لم تعرض له القصة القرآنية ، فتلك أمور مقدر لها أن تقع حتما ، على صورة أو أكثر من صورة . . وفى هذا الفراغ يتحرك ذهن القارىء ، وتستيقظ مشاعره ، حيث يرى لزاماً عليه أن يملأ هذا الفراغ بأية صورة يجدها مناسبة لهذا المكان ، وبهذا يتاح للناس — فى كل زمان ومكان — أن يتصوروا ويتخيلوا ، وأن يشاركوا بهذا التصور والتخيل ، فى بناء القصة ، وألا يظلوا فى عزلة عنها ، غرباء عن مجريات أحداثها . . وبهذا تتقيد الخواطر بالقصة ، وتتفتح لها المشاعر ، ويستيقظ لها الوجدان ، الأمر الذى تتكشف به مواقع العبرة والعظة منها . .

وتنتقل القصة إلى مشهد جديد . .

فهذه ملكة سبأ ، قد دعت إليها وجوه القوم فى مملكتها ، ثم ها هى ذى تطلع عليهم بهذا الكتاب الذى ألقى إليها ، وتفضى إليهم بما فيه !.

* « قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلىّ كتاب كريم * إنه من سليمان وإنه : بسم الله الرحمن الرحيم * ألاّ تعلوا علىّ وأتونى مسلمين » .

ولأول مرة نعرف — نحن النظارة — مضمون هذا الكتاب الذى حمله الهدهد .. إنه رسالة من ملك إلى ملكة .. والهدهد ، وهو حامل هذه الرسالة ، ليس من شأنه أن يسأل عن مضمونها ، وليس من وضعه فى القصة أن يعرف محتواها .. وبهذا ظلت الرسالة سراً محجباً ، حتى بلغت الجهة الموجهة إليها .. وهذا تدبير تقضى به الحكمة والكياسة ، وتفرضه أصول الحكم ومقتضيات السياسة .

ومن جهة أخرى .. فإن الملكة كذلك ، لم تُفصح لقومها عن الأسلوب الذى بلغتها به هذه الرسالة ، ولم تكشف عن وجه الرسول الذى حملها إليها .. بل ألقت إليهم الخبر مجهّلا هكذا : « إنى ألقى إلى كتاب كريم » وفى هذا التجهيل للمصدر الذى جاء بالكتاب ، ما فيه من إيحاءات كثيرة بأنها الملكة الساهرة على رعيتها ، الحافظة لأمن دولتها ، وأنها تملك من القوى الخفية التى لا يراها قومها — ما يعينها على ضبط أمورها وحياطة شعبها .. وهكذا يُضفَى على الملكة بهذه الحركة البليغة البارعة ، جلال فوق جلالها ، وروعة فوق روعة سلطانها ..

وفى وصف الرسالة بأنها كتاب كريم ، أدب من أدب الملوك ، تقابل به الملكة مافى الرسالة من أدب النبوة والملك معاً .. فقد كانت الرسالة موجزة العبارة ، وضحة المعنى ، بيّنة القصد ، لا تحمل وعيداً ، ولا تهديداً ، وإنما تحمل دعوة إلى السلام والإسلام ..

وحين يستمع القوم إلى هذا الخبر الذى ألقت به الملكة إليهم ، تدور الرءوس ، ويكثر الهمس ، واللغط وتتقلب العيون ، تتفرس فى الوجوه ، وما انطبع عليها من آثار هذا الخبر المثير ! .

ويجىء صوت الملكة حازماً محكما ، يقطع مسارب الخواطر ، ومجريات الأفكار :

* « يأيها الملأ . . أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون » . .

إنها لم تَدْعُهم إليها لتُلقى إليهم بهذا الخبر لمجرد العلم به ، وإنما ليشاركوها الرأى فيه ، وليشيروا عليها بما ينبغى أن تواجه به هذا الموقف . .

صورة كريمة ، للحاكم الحكيم . . الذى يتوخى الخير ، والأصلح لرعيته . . فلا يبرم أمراً إلا عن رأى ومشورة ، يشارك فيها أهلُ الرأى والمشورة . . « ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون » أى حتى تشهدوا معى هذا الأمر ، وتروا فيه رأيكم . .

* « قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين » . ؟

وصورة كريمة نبيلة للمحكومين ، الذين يبادلون الحاكم إخلاصاً بإخلاص ، وحباً ، بطاعة وحب معاً ! .

ومع هذا ، فإنها لم تشأ أن تقطع برأى ، بعد أن فوض إليها القوم الرأىَ والأمر . . بل جاءت تعرض عليهم وجهة نظرها . .

* « قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزةَ أهلها أذلة وكذلك يفعلون » .

وهنا فراغ كبير تتركه القصة لميلاء القوم بهمساتهم وهمهماتهم ، ومحاوراتهم . وإذ لم يرتفع صوت يعارض هذا الرأى الذى تراه الملكة

فى الملوك ، وتعنى بالملوك هنا ، الملوك الذين كانوا على دولة سليمان .. مثل طالوت ، وداود ، وسليمان .. وهذا يعنى أن الملكة كانت على علم بأحوال سليمان ودولته ، وما بين يديه من سلطان ، على حين لم يكن لسليمان علم بها ، وبما عليه سلطانها !! .

— نقول إن الملكة إذ لم تر صوتا يرتفع بمعارضة رأيها هذا ، صرحت بما اعتزمت أن ترد به على تلك الرسالة ..

* « وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون » .

إنها حركة تريد بها اختبار ما عند سليمان ، وتستطلع النية التى ينتويها معها ..

وتنتقل أحداث القصة من سبأ إلى بيت المقدس ، فى لحظة خاطفة .. وها نحن أولاء نرى الرسول وما معه من هدايا بين يدى سليمان ..

* « فلما جاء سليمان .. قال : أتمدونَنِ بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون * ارجع إليهم . فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » .

لقد وقع ما كانت تقدره الملكة ، وما كانت تحذّر قومها منه : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » .. وقد رجع مبعوثهم الذى بعثوا به إلى سليمان لينقل إليهم ماتهددهم به : « فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » ..

ثم تجرى الأحداث لاهثة متلاحقة ..

فما كاد رسول الملكة يبرح مجلس سليمان ، حتى يسبقه سليمان إلى تنفيذ وعيده الذى توعدهم به ..

* « قال يـأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين * قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين * قال الذى عنده علم من الـكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم » .

انظر كيف تجرى الأحداث منطلقة كأنها ومضات برق خاطف ؟

فهذه القوى الهائلة المسخرة لسليمان ، تتسابق إلى تلبية ندائه ، وتحقيق رغباته . . وأنت ترى هنا عظمة هذا السلطان وروعته ، حيث يطلب سليمان الشىء ، فتتزاحم بين يديه القوى القادرة على تنفيذه ، وتتخاضع وتتخاشع بين يديه ، ثم لا يحوجه الأمر — مع هذا — أن يتكلف له كلمة واحدة يقولها ، أو إشارة يشير بها . . وإنما هو يأمر ، فيجد ما أمر به حاضراً عتيداً بين يديه !

* « قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين * قال الذى عنده علم من الـكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » .

ولم يفعل سليمان شيئاً ، وإنما وجد العرش الذى طلبه مستقراً عنده !

والعفريت من الجن ، هو أقوى جماعة الجن وأشدهم بأساً . .

والذى عنده علم من الـكتاب . . قد يكون أحد رعايا سليمان ، من الذين أخلصوا دينهم لله ، فأتاهم الله من العلم ما يقدرون به على مالا يقدر عليه الجن . . وقد يكون سليمان نفسه ، وهو الأرجح عندنا ، وذلك لأمور منها :

أولا : أن سليمان أراد بقوله « يـأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى

مسلمين » . . أراد أن يلفت الملأ إلى تلك المعجزة القاهرة التي سيظهرها الله على يديه . . فدعا من عنده قوة منهم ، أن يتصدى لهذا الامتحان ، وأن يأتيه بالعرش . . وكان العفريت من الجن ، هو الذي ندب نفسه لامتثال هذا الأمر ، فقال : « أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » . . وكان هذا آخر ما في جهد الملأ من إنس وجن وطير أن تفعله . . وهنا واجه سليمان هذه القوة التي أذهلت الجمع بما مكن الله له من قوة ، وما آتاه من علم ، فقال مخاطباً صاحب القوة الخارقة : « أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » . ، فهذا الخطاب للعفريت ، هو خطاب للجماعة كلها في شخصه ، إذ كان هو ممثل أقوى قوة بين يديها .

وثانياً : أن الله سبحانه وتعالى ذكر في آية سابقة أنه آتى داود وسليمان علماً ، فقال تعالى : « ولقد آتينا داود وسليمان علماً . . » فبهذا العلم فعل سليمان ما فعل ، وبهذا العلم اتصل سليمان بالعوالم الأخرى ، فعرف لغة الطير ، وسمع همس النملة ، واطلع على ما يجرى في محيطها .

وثالثاً : قوله تعالى على لسان سليمان : « فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر » ، هو إقرار بفضل الله عليه ، أن آتاه هذا العلم ، الذي صنع به هذه المعجزة !

أما الكتاب ، فهو كتاب الله ، وهو ما في اللوح المحفوظ من خزائن علمه .. فمن هذا العلم يتلقى أهل العلم علمهم : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » . .

وفي هذه الحادثة يتجلى فضل العلم ، وما يبلغ به أهله من مقامات عالية ، تتخاضع بين يديها كل قوة ، يذل لها كل سلطان . إذا كان هذا العلم من

موارد الحق ، وجرى فى قلوب سليمة ونفوس طيبة . ا وإن الإنسان بهذا العلم يقهر أعتى قوة خفية ، هى الجن .

والذين يستكثرون على العلم أن ينقل عرش ملكة سبأ من اليمن إلى الشام فى غمضة عين ، والذين يقفون من هذا الخبر القرآنى موقف التوقف ، أو التشكك أو الاتهام ، حسبهم أن ينظروا فى آيات العلم الحديث ، وما حقق من معجزات فى عالم المادة ، حيث ينقل صور الأشياء من سطح القمر إلى الأرض فى لحظة خاطفة على لوح « التليفزيون » . .

فإذا كان هذا هو سلطان العلم المادى على المادة ، فهل ينكَر أن يكون سلطان العلم الروحى على المادة أضعاف ما للعلم المادى عليها ؟ إن العلم المادى ما هو إلا إشارة خافتة من إشارات العلم الروحى ، وليس إلا ومضة خاطفة من سناه المتألق !

أما كيف يتم هذا ، فإن تصوره ممكن — فى ضوء العلم المادى — !

فالمادة كما نعرف — وكما أشرنا إلى ذلك من قبل ، هى نور ، تجسد من اجتماع الذرات ، وتركيبها على وجه خاص ، وإذا كان ذلك كذلك ، فإنه من اليسير على العلم الروحى أنه ينفخ فى أية صورة من صور المادة ، فتتحول إلى ضوء ، ثم يستقبل هذا الضوء فى أى مكان يريده ، فينفخ فيه مرة أخرى فإذا هو على صورته الأولى .

ومن يدرى ! فلعل العلم المادى يبلغ يوماً ، شيئاً من هذا الذى فى مجال العلم الروحى ! .

ونعود إلى القصة :

وها هى ذى ملكة سبأ بين يدى سليمان . . وقد دبر لها سليمان امتحاناً ، يختبر

به عقلها وذكاءها . .

* « قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتدون » . .

لقد أجرى سليمان بعض التغيير فى عرشها ، دون أن يمس الصميم منه . .

وحين ترى الملكة هذا العرش ، ويسألها سليمان : « أهكذا عرشك؟ » لم تشأ أن تقطع برأى ، فهو أشبه شىء بعرشها فعلا . . ولكن كيف انتقل عرشها ، وقد خلفته وراءها فى مسيرتها إلى سليمان ؟ . ثم هى من جهة أخرى تعلم ما مع سليمان من قوى تفعل الأعاجيب ، وتأتى بالمذهلات . . ألم تأتها رسالته على يد جند من جنوده ، هو الهدهد ؟ . فكان جوابها هذا الجواب الحكيم ، الذى توسط الأمر ، فلم تنف ولم تثبت ، بل قالت : « كأنه هو ! »

وقد أعجب سليمان بهذا الرد الذكى الحصيف ، وعدّه من آيات العلم ، وثمرة من ثمراته . . فذكر بذلك ، العلمَ الذى آتاه الله فقال ، فيما بينه وبين نفسه .

* « وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » !

ولم يقف بسليمان العجب من ذكاء الملكة ، وعقلها عند هذا الحد . . بل إنه رأى أن هذا العقل الكبير ، وما وعى من علم ، كان جديراً به أن يهدى صاحبته إلى الإيمان بالله ، وأن يقيم وجهها للدين القيم . . فكيف لم تؤمن بالله ؟ وكيف تسجد للشمس من دون الله ؟ أهذا ما يقضى به هذا العقل الكبير ويقبله ؟ ويطمئن إليه ؟ لابد أن فى الأمر شيئاً !

وينظر سليمان ، فيرى الآفة التى تسلطت على هذا العقل ، فاغتالت منطقه ، وأفسدت عليه وجوه الرأى ، حتى ضلت صاحبته هذا الضلال ، وركبت هذا السفه .

إن موروثات الآباء والأجداد ، من الضلال ، هى التى غلبت على هذا العقل وما فيه من ذكاء ، وما اجتمع له من علم . . !

* « وصدّها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين » . أى حجبها عن الإيمان بالله ، ما نشأت على عبادته من دون الله ، لأنها وُلدت فى قوم كافرين ، فورثت الكفر عنهم ، ونشأت عليه منذ طفولتها ، فخالط عقلها ، وسكن فى مشاعرها ! . .

وتلك هى الآفة التى تسلطت على عقول كثير من ذى العقول ، فأفسدتها ، وأضلتها عن سواء السبيل .. وهذا من شأنه أن يدعو الإنسان إلى طلب التحرر من موروثات الآباء والأجداد ، وأن يعيد بناء عقله — متى بلغ الرشد — على البحث والنظر ، فما رآه صالحاً ، قَبِله ، وما وجده فاسداً ، دفعه وتخلى عنه . .

وحين وجد سليمان نفسه أمام هذا العقل الذكى ، لم يشأ أن يُدخلها فى دين الله بسلطانه عليها ، وامتلاكه لأمرها ، بل رأى أن يقودها إلى الإيمان بعقلها ، لتتعرف إلى الله سبحانه وتعالى بنفسها ، فيكون هذا أقومَ لدينها ، وأثبت لإيمانها . .

* « قيل لها ادخلى الصّرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرَّدٌ من قوارير قالت ربِّ إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » . .

والصرح هو البناء العالى المزخرف ، وسمى بذلك لأنه صريح خالص من الشوائب والعيوب . . والممرد : الأملس ، ومنه الأمرد ، وهو الذى لم ينبت شعر عارضيه ..

إن هذا الصرح الذى دعاها سليمان إلى دخوله ، والذى حسبته — لصفائه

ونقاء جوهره — لجة ماء رقراق — هذا الصرح لا يمكن أن يقوم بيد بشرية ، ولا يمكن أن يكون من صنع بشر . . إنه من قوة فوق قوة الإنسان ، ومن تدبير فوق تدبيره . . وإذن فهى أمام معجزة قاهرة . . لا يستطيع العقل السليم إلا أن يسلم بها . .

وإذن فلابد من التسليم . . وقد سلمت . .

وإذن فلابد من أن تؤمن بمن آمن به سليمان ، وأن تعبده . . وقد آمنت ! فقالت : « رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

وانظر كيف كانت ثقتها بسليمان ، بعد أن أراها من آيات الله التى بين يديه ، ما جعلها تطمئن إليه ، وتصدق دعوته بأنه نبى . . ولهذا فإنها تبادر إلى الإيمان بالله من قبل أن يدعوها إليه ، لأنها قد عرفت أن سليمان على الحق ، ومع الحق . . ولهذا قالت : « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » ! إنها مع سليمان ، لأن سليمان مع الحق !

وهكذا تنتهى أحداث القصة بهذه النتيجة ، التى يحصلها العقل من مجريات هذه الأحداث . .

وإذا كان مساق القصة إلى قريش ، وإلى العرب ، ثم إلى الناس جميعاً — فإنها بهذا الأسلوب الذى يجىء بالموعظة فى رقائق من المعانى ، تخطر فى براعة ، وخفة ، وتتحرك فى وداعة ولطف ، حيث تصيد الخواطر ، وتملك المشاعر ، وتأسر القلوب ، دون أن تثير حرباً ، أو تريق دماً — إنها — أى القصة — بهذا الأسلوب ، هى رسالة قائمة بنفسها ، لتدخل إلى مواقع الإقناع من العقول السليمة ، فتسكن إليها ، وتجد برد الطمأنينة والسلام فى ظلها . .

الآيات : (٤٥ — ٥٥)

* « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون » .

هنا أمران ، نود أن نقف عندهما ، وهما :

أولا : مناسبة هذه القصة لما قبلها .

وثانيا : إفراد هذه القصة بالذكر وحدها ، من غير أن تتصل بها قصة عاد، حيث يجرى دائما ذكرهما معاً ، فى كل موضع ذكرت فيه إحداهما فى القرآن الكريم . .

فما مناسبة هذه القصة لما قبلها ؟

المناسبة — والله أعلم — هى أن ملكة سبأ ، مع ما كانت عليه من كفر موروث ، حين رأت الصرح الممرد ، عرفت صدق سليمان ، وأنه على صلة بالسماء ، فآمنت بما آمن به هو ، واتبعت سبيله .. وأن « ثمود » قد طلع عليهم نبيهم بآية من آيات الله ، هى « الناقة » ، فلم يروا فيها ما رأت ملكة سبأ فى الصرح الممرد ، بل كذبوا صالحا ، ورموه بالسفه. فهذا موقف ، وذاك موقف.. وكلا الموقفين بين يدى آية من آيات الله . . فيكون فى تلك الآية عبرة وعظة لقوم ، وضلال ومهلكة لآخرين .

ولعل هذا هو السر أيضاً فى ذكر قوم صالح ، دون قوم هود ، إذ لم يكن مع هود آية كهذه الآية التى جاء بها صالح .

وقوله تعالى : « فإذا هم فريقان يختصمون » . .

« إذا » فجائية ، وفيها إشارة إلى مبادرة القوم بالتكذيب ، وإعلان الحرب على « صالح » بمجرد سماعهم لدعوة الحق التى يدعوهم إليها بقوله :

« أن اعبدوا الله » . .

والفريقان المختصمان ، هما صالح ومن اتبعه ، وقومه الذين وقفوا منه موقف العناد والتحدى . . فكان بين الفريقين خصام وشقاق .

قوله تعالى :

* « قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون » .

هو مما كان يراجع به صالح قومه ، ليكشف لهم عن موقفهم الضال ، الذى يرد بهم موارد التهلكة . . فقد استعجلوا العذاب الذى كان يتوعدهم به ، إذا هم ظلوا على ماهم عليه من كفر وضلال ..

وهذا ماذكره الله سبحانه وتعالى ، عنهم فى قوله سبحانه : « فعقروا الناقة وعتوْا عن أمر ربهم وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين » (٧٧ : الأعراف) وقد كان الأولى بهم أن يطلبوا جانب الأمن والسلامة ، وأن يدخلوا فى هذه الدعوة التى يدعوهم إليها نبيهم ، فإن وجدوا خيراً ، عاشوا فيه ، واطمأنوا إليه ، وإلا كان فى يدهم أن يخرجوا من هذا الدين الذى دخلوا فيه .. أما أن يبدءوا بجانب الوعيد من الدعوة ، فذلك هو الضلال ، والسفه جميعاً ..

قوله تعالى :

* « قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون » . .

هذا هو جواب الحمقى السفهاء على دعوة الخير والهدى .. إنهم يستولدون من دعوة الخير التى يدعوهم إليها نبيهم ، مواليد شؤم ، تنعق فى ديارهم ، وتنعب فوق رءوسهم ، بالويل والبلاء . . وهكذا تتغاير حقائق الأشياء فى النفوس المريضة ، تماماً كما تتغاير طعوم المطعومات فى الفم السقيم ، كما يقول الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

ويلقى « صالح » — عليه السلام — هذا الرد الغبى السفيه ، بإلفاتهم

إلى الله الذى يدعوهم إليه وأنه — سبحانه — هو الذى بيده كل شىء يساق للناس ، من نفع أو ضر ، ثم بإلفاتهم إلى أنفسهم الغارقة فى الفتنة والضلال، حيث لم يروا هذه الحقيقة من قدرة الله ، وسلطان الله .. فقال : « طائركم عند الله ولكنكم قوم تفتنون » أى أن حظكم المقسوم لكم من الخير والشر ، هو عند الله تعالى ، وفى خزائن علمه .. فى كتاب مبين ، ولكنكم فى فتنة وعمًى عن هذا الذى أقوله لكم ..

وفى ذكر كلمة « قوم » — إشارة إلى أنهم كتلة واحدة متضخمة من الفساد وأنهم كيان واحد ، تحتويه فتنة ، لا مخرج له منها .

ويستدل من هذا على أن القوم كانوا يزجرون الطير ، ويتعرفون منه على ما سيقع لهم من خير أو شر ، حسب تصورهم الفاسد . . وذلك أنهم كانوا إذا أراد أحدهم أمراً ، ترصد لطير واقع على الأرض ، ثم زجره ، أى أشار إليه بيده أو بعصاً ، حتى يطير . . فإذا طار إلى يمينه ، تفاءل به ، ومضى لغايته ، وإن طار إلى يساره تشاءم منه ، وأمسك عن الغاية التى يريدا .

كما يستدل من هذا أيضاً على أن قوم صالح كانوا عرباً ، وأن — صالحاً عليه السلام — كان نبياً عربياً ، وذلك قبل إبراهيم وإسماعيل عليه السلام .. أيام العرب العاربة ..

قوله تعالى :

* « وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » .

وكما فى كل جماعة رأس أو رءوس ، تقودها ، وتتولى تدبير أمرها ،

فكذلك كان فى هـذه الجماعة أكثر من رأس ، لقد كان فيها تسعة رءوس ، كلهـا فاســـد ، لا يدعو إلا إلى الشر ، ولا يعمل إلا فيما هو شر ..

والرهط ، من الثلاثة إلى العشرة ..

وليس المراد بالرهط هنا العدد ، وإنما المراد به « النفر » أى الواحد ، الذى يطلق على الجماعة أيضاً .. وإنما ذكّر الرهط ، للإشارة إلى أن الواحد من هؤلاء التسعة كان رأساً فى القوم ، وأنه أشبه برهط ، من حيث أثره فى الجماعة ، وفى الشر الذى يخرج من بين يديه .

* قوله تعالى :

« قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون » .

قرىء : « لتبيتنه » ثم « لتقولنّ » بضمير الخطاب ..

والتقاسم : تفاعل من القسم ، وهو الحلف .. وذلك بأن يحلف كل واحد منهم للجماعة بما يحلفون عليه .. والبَيات : الهجوم ليلا .. والولى : هو الناصر والقريب ، والمراد به هنا ولىّ الدم .

والمعنى ، أن هؤلاء النفر ، قد ائتمروا فيما بينهم ، على أن يهلـكوا صالحاً وأهله ، فأقسموا على ذلك ، وجعلوا لتنفيذ هذه المؤامرة وقتـاً ، هو الليل .. ثم اتفقوا كذلك على الموقف الذى يلقون به ولى الدم ، لصالح وأهله ، وذلك بأن ينـكروا أنهم شهدوا مصرع صالح ومن معه ..

وقوله : « ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله » .. والضمير فى أهله

يعود على الولى ، أى أنهم يقولون لهـذا الولى ، المطالب بالدم ما شهدنا مهلك أهله هؤلاء الذين تطالب بدمهم ، ومنهم صالح . .

وهذا أولى — فى تقديرنا — من عود الضمير على صالح ، وأنهم يقولون لولى الدم ما شهدنا مهلك أهـل صالح ، كما يقول بذلك المفسرون — وذلك ليتحقق قولهم : « وإنا لصادقون » على تقدير أنهم لم يشهدوا فعلا مهلك أهله وحدهم ، وإنما شهدوا مهلكه ومهلك أهله معه . . وإذن فهم صادقون بهذا التلبيس الذى لبسوا به شهادتهم !! هكذا يقول المفسرون ، كأن القوم يتحرون الصدق فى شهادتهم ، فيخرجونها على هـذا الوجه الذى هو الـكذب فى صميمه ، وإن طلى بهذا الزيف المفضوح . .

والقوم فى قولهم : « وإنا لصادقون » إنما يؤكدون الـكذب الذى جاءوا به فى قولهم لولى الدم ما شهدنا مهلك أهلك هؤلاء — وفيهم صالح وأهله « وإنا لصادقون » فيما نقول .. فهكذا الـكاذب دائماً يحرص أشد الحرص على أن يزكى كـذبه بمثل هذه الادعاءات ، وأنه إنما يقول الصدق ويقسم عليه ، كما يقول تعالى فى شأن اليهود : « ويحلفون على الـكذب وهم يعلمون » (١٤ : المجادلة) .

والسؤال هنا : كيف يتقاسمون بالله ، ويحلفون به وهم كافرون ؟

والجواب على هـذا أنهم كانوا يعرفون الله ، ولـكن معرفتهم تلك قد اختلطت بالضلال ، فلم يعرفوا الله حق معرفته ، بل عبدوا معه آلهة أخرى ، وجعلوه إلها من آلهتهم ، أو كبيراً لهذه الآلهة التى يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى ، كما كان ذلك شأن مشركى العرب ، ولهذا كانت دعوة صالح إليهم هى : « اعبدوا الله مالـكم من إله غيره » (٦١ : هود) ، أى أخلصوا العبادة له وحده ، فما لـكم إله غير الله .

قوله تعالى :

* « ومكروا مكراً ومكرنا مكراًوهم لا يشعرون » . .

المكر : التدبير للأمر ، والإعداد له قبل الأخذ فى تنفيذه .

أى أنهم دبروا تدبيراً ، ودبر الله تدبيراً .. والله سبحانه يعلم ما دبروا من أمر ، وما أحكموا من خطط ، وهم لا يعلمون ما قد دبر الله ، وما أعد لهم من نكال وبلاء .

قوله تعالى :

* « فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين » .

الخطاب هنا للنبى ، صلوات الله وسلامه عليه ، ولكل من كان أهلا للنظر والاعتبار .. وفى هذا النظر إلى مكر هؤلاء الرهط ، وإلى ما أعقب هذا المكر ، يرى ما نزل بهم من نقم الله، وما حل بهم وبقومهم جميعاً من هلاك لهم ، وتدمير لديارهم ! وهكذا يصيب الشرّ أهله ، ثم يمتد فيشمل من كان معهم ، ممن لم يشاركوا فى هذا الشرّ ، ولكنهم لم يتصدّوا للأشرار ، ولم يأخذوا على أيديهم . . والله سبحانه وتعالى يقول : « واتقوا فتنةً لا تُصيبَن الذين ظلموا منكم خاصة » (٢٥ : الأنفال) ويقول سبحانه : « وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمَرْنا مُترفيها ففسقُوا فِيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميراً » (١٦ : الإسراء) .

وهكذا أرادوا الهلاك لصالح وأهله ، فأهلكهم الله ، وأهلك أهلهم جميعاً . .

قوله تعالى :

* « فتلك بيوتهُم خاويةً بما ظلموا إنّ فى ذلك لآيةً لقوم يعلمون » .

* «خاوية» أي ساقطة متهدّمة، لا أثر لحياة فيها.. وهى منصوبة على الحال من «بيوتهم».

والإشارة هنا، لفتٌ للأنظار، إلى هـذه الديار الخاوية، حيث ينظر المشركون إلى حيث متجه الإشارة، فلا يرون إلا أطلالاً، يرى فيها أولو العلم وأهل النظر، آيةً من آياتِ الله، فيما يحل بالظالمين من بأسه، وما يرميهم به من عذابه!

قوله تعالى:

* «وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتّقون» — هو أشبه بالاستثناء من تلك الصورة التى تتمثل لعين الناظر.. مما حلّ بهؤلاء الظالمين المفسدين.. فهناك إلى جانب هذه الصورة للدّمار والهلاك، صورة أخرى لأهلَ السلامة والعافية، الذى نجوْا من هذا البلاء، وخَلَصُوا من هذا العذاب، وذلك بإيمانهم بالله، وباتّقائهم بأسَه وعذابه، بالأعمال الطيبة الصالحة..

فإلى جانب الشر دائماً خير، وفى مجتمع الأشرار.. دائماً أخيار..

وهذا الخير وإن صغُر حجمه، هو الرُّوح الذى يحفظ الحياة فى هـذا الوجود.. وهؤلاء الأخيار — وإن قلّ عددهم — هم الشعاع الذى يسرى فى وسط هذا الظلام الكثيف.

قوله تعالى:

* «ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون».؟

أي واذكر لوطاً إذ قال لقومه. «أتأتون الفاحشة» وهى هذا المنكر الذى عُرفوا به، والذى سيكشف عنه فى الآية التالية..

وسمى هذا المنكر «فاحشة» و«فحشاء» لشناعته وقبحه، ظاهراً وباطناً..

وفى قوله : « وأنتم تُبصرون » . . إشارة إلى ما بلغ من استهتار القوم ، واستخفافهم بهذا المنكر ، حتى إنهم ليأتونه عِياناً وجهرةً بحيث يَرَى بعضهم بعضاً وهم عاكفون على هذا الفُحش ، دون حياء أو خجل . . وإن بعض الحيوانات ، لتدعوها طبيعتها إلى أن تتخفى وتستتر ، فلا تطلع عليها عين ، حين تتصل ذكورها بإناثها . . أما هذه الحيوانات الآدمية ، فقد نزلت إلى هذا المستوى الخسيس ، الذى لا ينزله إلا أدنى الحيوانات وأخسّها . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وتأتون فى ناديكم المنكر » (٢٩ : العنكبوت) أى يأتون هذا المنكر عَلَناً فى مجتمعاتهم وأنديتهم ، كأنهم يأتون مكرمة من المكرمات . .

قوله تعالى :

* « أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون »

هذه هى الفاحشة التى يأتيها القوم جهرة على أعين الناس ، وهى « اللواط » واتصال الرجل بالرجل ، كما يتصل الرجل بالمرأة ، والذكر بالأنثى فى عالم الحيوان . . وفى قوله « بل أنتم قوم تجهلون » . . إشارة إلى أن هذا الضلال الذى هم فيه ، وهذه الحيوانية الطاغية التى لبستهم ، إنما هى من واردات الجهل . . وليس بين الإنسان والحيوان من فرق ، إلا العلم ، وأنه بقدر ما يحصّل الإنسان من العلم ، بقدر ما تكون منزلته فى الإنسانية ، وبقدر ما يكون بُعده عن عالم الحيوان . . !

* * *

الآيات : (٥٦ — ٥٨)

* « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَخْرِجُوٓا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨) »

٢٠٤

التفسير :

قوله تعالى :

• « فما كان جوابَ قومه إلاّ أن قالوا أخرجُوا آل لوطٍ من قريتكم إنهم أناس يتطهرون » .

هذا هو الجواب الذى أجابَ به القومُ لوطاً ، حين أنكر عليهم هذا المنكر الذى يعيشون فيه ، ويتعاملون به جهرة ، وهو جواب ينطوى على استخفاف واستهزاء ، فوق ما يحتوى عليه من بغى وعدوان . . إنهم لم يجيبوا على ما أنكره عليهم لوط ، ولم يقبلوا ما دعاهم إليه ، وإنما كان فعلهم الذى أرادوه به وبمن معه ، هو الردّ العملىّ على هذا النصح الذى نصح لهم به .

— « أخرجوا آل لوط من قريتكم » .

فلقد تنادَوْا فيما بينهم إلى أن يُخرجوا آل لوط من القرية ، واعتبروا لوطاً ومن معه كائنات غريبة تعيش فى هذا المجتمع . .

— « إنهم أناس يتطَهَّرُون » أي يَدّعون التّطهر والتعفف ، ويكرهون أن يعيشوا فى هذا الجوّ الذى نعيش فيه . . وإذن فليخرجوا من بيننا ، وإذالم

يخرجوا أخرجناهم . . فهذه القرية هي قريتنا ، وليس لهم مقام فيها ما داموا لا يحيون حياتنا !! هكذا كان منطق القوم . . إنهم كثرة ، وآل لوط قلة . . وما كان للقلة أن تتحكم في الكثرة . . وإذا كانت القرية لا تحتملها وتحتملهم على هذا الخلاف الذي بيننا وبينهم ، فليخرجوا منها مكرهين ، غير مأسوف عليهم.

وليس هذا وحده هو جواب القوم . . فقد كان للقوم أجوبة كثيرة ، أجابوا بها على دعوة لوط ، كما ذكر القرآن عنهم ذلك في أكثر من موضع ، كقولهم . « ما لنا في بناتك من حقٍّ وإنك لتعلم ما نريدُ » (٧٩ : هود) . . وقولهم له أيضاً : « أولم ننهك عن العالمين » (٧٠ : الحجر)وقولهم : « لئن لم تنته يالوطُ لتكونَنَّ من المخرجين » (١٦٧ : الشعراء) .

فهذه أجوبة كثيرة كان يَلْقى بها القوم لوطاً . . ولكن هذا الجواب ، الذي جاء في قوله تعالى : « فما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم » . . هو تلخيص جامع لهذه الأجوبة كلها ، وهو النهاية التي انتهت إليها كل هذه الأجوبة ، فكان هذا الجواب هو جوابهم القاطع ، الذي لا جواب لهم غيره ، ولهذا جاء به النظم القرآني على هذه الصورة التي تفيد القصر . . « فما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا أخرجوا آل لوطٍ من قريتكم إنهم أناسٌ يتطهرون » أي ما كان لهم إلا هذا الجواب . .

قوله تعالى :

« فأنجيناه وأهله إلاَّ امرأته قدرناها من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذَرين » .

لقد أرادوا إخراج لوطٍ والمؤمنين معه من القرية ، ودبّروا لهذا الأمر ومكروا مكرهم له ، فكان أن أخرجهم الله سبحانه من هذه الدنيا كلها ،

لا من القرية وحدها ، فأمطر عليهم حجارة من سجيل ، أتت على قريتهم ، وعلى كلّ نَسمة حياة فيها ، على حين نجا لوط ومن معه ، إلا امرأته ، فقد كانت حرباً عليه ، وعلى المؤمنين ، فأخذها الله بما أخذ به القوم ، فكانت من الهالكين .

الآيات : (٥٩ — ٦٤)

* « قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٦٤) »

التفسير :

بعد هذا العرض الكاشف ، الذى عرضت فيه السّورة مواقف المشركين والكافرين ، من دعوة الحقّ التى يحملها إليهم رسل الله ، ويقدّمون بين

يديها الآيات المحسوسة التى تنطق بقدرة الله وعظمته ، وتشهد لرسله بأنهم مؤيدون من عند الله ، وأن ما على ألسنتهم هو من كلمات الله،وأن ما بأيديهم هو من آيات الله ـ مع هذا ، فقد عميت من الضالين الأبصار ، وزاغت القلوب ، فـكان العناد والتحدّى ، ثم التطاول والتعدّى . . وكان ذلك هو الجواب المحمّل بألوان التـكذيب ، والتهديد ، الذى تلقاه الرسل من أقوامهم ، إلا قليلا ممن شرح الله صدره للإيمان منهم ، فنجا بنفسه ، وكان من المفلحين فى الدنيا والآخرة جميعاً .

ـ بعد هذا العرض ، جاءت آيات الله ، لتُعَقب على هذه الأحداث ، ولتُلفت الأنظار إلى الله وعظمته ، وإلى ماله فى عباده من آيات . . فى هذا التعقيب يرى المؤمنون والمشركون جميعاً ما تحمل كلمات الله ،من بيان ، تتجلّى فيه نعم الله عليهم ، ويبين منها فضله الذى أفاضه على هذا الوجود ! .

وقوله تعالى :

* « قل الحمدُ لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أمّا يشركون »

هو خطاب خاص للنبى ، ثم هو عام إلى كل مؤمن بالله . . وفى هذا الخطاب دعوة إلى ذكر الله بالحمد على نعمه التى لاتحصى ، والتى أجلّها وأعظمها ، هو الإيمان الذى عمرت به قلوب المؤمنين . .

— وفى قوله تعالى : « وسلام على عباده الذين اصطفى » ذكرٌ يقترن مع ذكر الله ، بالتسليم على عباد الله الذين اصطفاهم ، واختصهم بالمزيد من فضله ،وهم رسله الـكرام ، كما يقول سبحانه : « سبحان ربّك ربّ العزّة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله ربّ العالمين » (١٨٠ — ١٨٢ الصافات)

وفى اقتران ذكر الله بالحمد والثناء عليه ، بذكر المرسلين ، والدعاء بالسّلام

عليهم ـ فى هذا تكريم لرسل الله ، واعتراف بفضلهم على الناس ، إذ كانوا مصابيح هدى ، ودعاة أمن وسلام للعباد . . وهذا من شأنه أن يجعلهم موضع إعزاز ، وحبّ ، وإكرام ، من أقوامهم خاصة ، ومن الإنسانية كلها عامة ، لا أن ترجمهم الأيدى الآثمة ، وتسلقهم الألسنة الفاجرة ، وتزدريهم العيون البلهاء ، كما يفعل السفهاء ، والحمقى ، من أهل الشرك والضلال . . !

ـ وقوله تعالى : « آللهُ خيرٌ أمّا يشركون » ـ هو استفهام تقريرى ، يُراد به أخذ الجواب من كل لسان ، على هذا السؤال . .

وأصل الاستفهام « أألله » قلبت همزة الوصل فى لفظ الجلالة ألفا ، للتسهيل ، فصارت مع همزة الاستفهام مَدّة . .

و « أمّا » أصلها « أم » حرف العطف الذى يقع بعد همزة التسوية ، « ما » الموصولة . . فأدغمت الميم فى الميم . . وجىء باسم الموصول « ما » بدلَ « مَن » للإشارة إلى مايعبد المشركون من معبودات ، لا تعقل ، من الحيوان ، والجماد ، وغيرها ، وذلك أكثر ما يُشرك به المشركون .

قوله تعالى :

* « أمّن خَلَق السموات والأرضَ وأنزل لكم من السّماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذاتَ بهجةٍ ما كان لكم أن تنبتوا شجَرَها أإله مع الله ؟ بل هم قومٌ يعدلون » .

فى الجواب على الآية السابقة جوابان :

جواب لأهل البصائر وأصحاب العقول . . وهو أن الله هو وحده المستحقّ للعبادة . .

وجواب لأهل الشرك ، الذين ران الضلال على قلوبهم . . وهو أنهم يُؤثرون آلهتهم التى يعبدونها ، ولا يلتفتون إلى غيرها .

— وقد جاءت هذه الآية : « أمن خلق السموات والأرض ... » والآيات التى بعدها ، لتلتقى هؤلاء المشركين مع آلهتهم ، ولتضع أمام أعينهم موازنة بينهم ، وبين الله سبحانه وتعالى ، لينظروا فيروا إن كان هناك من آلهتهم من يشارك الله فى هذه الصفات التى لله سبحانه وتعالى . . فإن كان يقع لأيديهم أو لأبصارهم ، أو لعقولهم شىء من هذا ، فليمسكوا بآلهتهم ، وإلّا فَلْيَرَوْا رأيهم فيها ، إن كان لهم — مع أهوائهم المتسلطة عليهم — رأىٌ . .

— فقوله تعالى : «أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء .. » — هو معادل لمستفهم عنه محذوف ، وهو الآلهة التى يمسك بها هؤلاء المشركون ، والتقدير : أ آلهتهم هذه ، أم من خلق السموات والأرض وأنزل لهم من السماء ماء . . . ؟ .

— وفى قوله تعالى : «فأنبتنا به حدائق ذات بهجة» — هو إلفاتٌ إلى ما أودع الله سبحانه وتعالى من أسرار فى هذا الماء ، الذى ينزله من السماء ، فيحيى به الأرض بعد موتها ، ويكسو عُرِيَهَا حُللاً زاهية رائعة ، ذات ألوان وأصباغ ، تبهج النفس ، وتشرح الصّدر .

وفى العدول عن ضمير الغائب المفرد فى « أنزل » إلى ضمير المتكلم المعظم ذاته فى « فأنبتنا » — إشارة إلى أمرين :

أولهما : أن إنزال المطر عملية ، قد لا يشهدها كثير من الناس ، وإذا شهدوها فإن كثيراً منهم قد لا يلتفتون إليها . أما هذه الزروع ، وتلك الجنات التى تزين وجه الأرض ، فإنه قل فى الناس من لا يشهد هذه الظاهرة ، ويملأ عينيه ، ومشاعره منها ، ومما فيها من حسن وروعة . . فكان من المناسب هنا أن يرى الناس يد القدرة القادرة ، وهى تنسج هذه الحلل الجميلة الرائعة التى تكسو الأرض ، وتجلوها كما تجلى العروس فى ليل زفافها . . ففى قوله تعالى :

«أنبتنا» حضور لله سبحانه ، فى هذه الزروع والجنات التى تزين وجه الأرض ، وتقع لعينى كل إنسان . .

وثانيهما : أن هذه الزروع وتلك الجنات.. ليست على صورة واحدة ، فهى مختلفة الألوان والأشكال ، متعددة الأنواع والأجناس ، . كما يقول الله سبحانه « فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صباً * ثم شققنا الأرض شقاً * فأنبتنا فيها حباً * وعنباً وقضباً * وزيتوناً ونخلاً * وحدائق غلباً * وفاكهة وأبًّا » (٢٤ — ٣١ عبس)

فهذه الصور التى لا تكاد تحصى من الزروع والأشجار ، فى مسرح العين ، تبدو وكأن آلافاً من الأيدى ، عملت على إخراجها من الأرض ، واستيلادها من بطنها ، وصبغها بهذه الأصباغ . . وإن الأمر لعلى خلاف هذا الظاهر ، فهى يد واحدة قادرة ، هى يد الحكيم العليم ، التى تفردت بكل هذا . . ومن هنا حَسُن أن يذكر الله سبحانه وتعالى بضمير الحضور ، وبصيغة الجمع ، حيث تُرى قدرة الله قائمةً على كل نبتة ، وكل شجرة . . وليس كذلك الشأن فى المطر ، ونزوله . . إنه صورة واحدة فى كل أحواله . . !

— وقوله تعالى : « ما كان لكم أن تنبتوا شجرها »

الضمير « فى شجرها » يعود إلى الحدائق . .

والمعنى ، أن هذه الحدائق ذات الروعة والبهجة ، ليس فى مقدور الناس جميعاً أن ينبتوا شجرها ، وأن يخرجوه من الأرض ، فضلا عن أن يمسكوا عليه حياته ، ويبلغوا به هذا المدى من النماء ، والإزهار ، والإثمار ، وتنوع الألوان والأشكال . .

— وفى قوله تعالى : « أ إله مع الله ؟ » سؤال تقريرى ، يُراد الجواب عليه ،

بعد النظر إلى هذه المعارض التى عرضتها الآية الكريمة لبعض قدرة الله ، وآثار رحمته !

وجواب أهل العناد والضلال ، هو جواب كل معاند ضال . . وهو العمى عن الحق ، والتشبث بالباطل . . ولهذا جاء قوله تعالى : « بل هم قوم يعدِلون » مسجلاً عليهم هذا الضلال ، آخذا من أفواههم جوابهم على هذا السؤال . . وهو أنهم قوم يعدلون عن الحق إلى الباطل ، ويولون وجوههم إلى معبوداتهم التى يعكفون عليها . .

قوله تعالى :

* « أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً . . أ إله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون ! »

وهذه معادلة أخرى ، يوازن فيها المشركون بين الله ، وبين آلهتهم . .

أىٌّ أحق بالألوهة ، وأولى بالعبادة ؟ . أ آلهتكم تلك الخرساء الصماء ، أم الله الذى جعل الأرض قراراً ؟ أى موضعاً صالحاً لحياة الإنسان ، واستقراره عليها ، « وجعل خلالها أنهاراً » أى وأجرى بين شعاب الأرض أنهاراً ، تخلل أجزاءها ، بحيث يأخذ كل جزء منها حظه من هذه الأنهار « وجعل لها رواسى » أى جبالا راسية ، تمسك بها أن تميد أو تضطرب . . « وجعل بين البحرين حاجزاً » أى فصل بين ماء البحار ، وماء الأنهار ، حيث يلتقيان ، فلا يطغى أحدهما على الآخر . . بل يبقى ماء الأنهار عذباً سائغاً ، ويظل ماء البحار ملحاً أجاجاً . .

هذا هو صنع الله ، وتلك آيات قدرته ، وسوابغ رحمته . . فأين ما للآلهة التى تعبدونها ، أيها المشركون الضالون ؟

« أ إله مع الله ؟ » . . أجيبوا !

وقد أجابوا جواب الأغبياء الجاهلين ، الذين لاحظّ لهم من علم . . فهم والحيوان على سواء . . ولو أنهم كانوا على شىء من العلم ، لأنار لهم علمهم الطريق إلى الحق ، ولنطقوا بما ينبغى أن ينطق به أهل العلم ، وهو أنه « لا إله إلا الله » . . ولكن أنّى لهم هذا ، وهم فى هذا الجهل المظلم ؟ : « بل أكثرهم لا يعلمون » .

وفى الآية الكريمة إعجاز من إعجاز النظم القرآنى . . فقد تكررت كلمة « جعل » أربع مرات ، تخللت عشر كلمات ، دون أن يشعر أحد بهذا التكرار ، أو يجد له أى أثر فى النطق بهذه الكلمات ، التى تناغم لحنها،وتوازن نظمها ، فكانت لحناً علوى النغم ، يأسر الآذان بوقعه ، ويملك المشاعر ، بسرّه وجهره . . . !

اقرأ الآية الكريمة ورتلها ترتيلا !

« أمن جعل الأرض قراراً . . وجعل خلالها أنهاراً . . وجعل لها رواسى . . وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ أ إله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . . » . . ثم ألا تسجد بعد هذا لهذا الإعجاز من كلام رب العالمين ؟

قوله تعالى :

* « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون » . .

ومعادلة ثالثة . . بين ما لله ، وبين ما يكون لهذه المعبودات من دون الله . . أفهذه الآلهة ، التى لا تملك ضرّا ولا نفعاً ، أم الإله الواحد ، القادر ،

السميع ، البصير ، الذى تفزعون إليه ـ أيها الضالون المكذبون ـ عند كل كرب ، وتدعونه عند كل شدّة ، فيستجيب لكم ، ويكشف الضرّ عنكم ؟ كما يقول سبحانه : « قل من ينجيكم من ظلمات البرّ والبحر . . تدعونه تَضَرُّعاً وخُفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين * قل الله ينجّيكم منها ومن كل كربٍ ثم أنتم تشركون » (٦٣ — ٦٤ : الأنعام)

أآلهتكم هذه ؟ أم الله ربّ العالمين ، الذى أعطاكم هذه الصورة البشرية السوّية ، ومنحكم العقل ، والمنطق ، وأقامكم على هذه الأرض خلفاء لله فيها ؟ ألا تذكرون فضل الله عليكم ، ولا تنظرون إلى نعمه إليكم ؟ ألا تشكرون له أن أخرجكم من العدم إلى الوجود ، ثم أعطاكم من الوجود الأرضى أحسن وأكرم ما خَلق فيه ؟

أجيبوا . أيها الضالون المكذّبون ، الجاحدون ؟

وقد أجابوا بما يجيب به كل جاحد لنعمة الله . . لا يذكر الله إلا عند الشدّة ، فإذا انجلى الكرب ، وذهبت الشدّة « نَسِىَ ما كان يدعو إليه من قبلُ وجعل لله أنداداً ليُضِلّ عن سبيله » (٨ : الزمر) .

ولهذا جاءت فاصلة الآية : « قليلا ما تذكرون » لتسجل عليهم هذا التنكر لنعمة الله عليهم ، وإحسانه إليهم . . فهم لا يذكرون لله هذه النعمة ، ولا يتذكرون هذا الإحسان . .

قوله تعالى :

* « أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بُشراً بين يدى رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون » .

ومعادلة أو موازنة رابعة . .

أ آلهتكم هذه الجاثمة الجامدة، أم الله الذى يهديكم فى ظلمات البر والبحر، بما أقام لكم من معالم فى السماء والأرض، تتعرفون بها وجهتكم، فى تنقلكم على ظهر الأرض أو البحر؟ أآلهتكم هذه المستخزية العاجزة.. أم الإله الذى يرسل الرياح فتثير السحاب، وتدفعه إلى حيث ينزل ماء من السماء، فيحيي الأرض ومن عليها؟

ماذا تقولون؟

أجيبوا.. أيها اللاّهون الغافلون!

ويجيبون بهذا الصمت الغبى.. ويجيب الوجود كله من حولهم، بهذا الجواب، الناطق بوحدانية الله، المنزه لله عن الشريك، والصاحبة والولد.. «تعالى الله عما يشركون»

قوله تعالى:

* «أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض؟ أإله مع الله؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين»؟

وهذه معادلة أو موازنة خامسة..

أ آلهتكم هذه العجماء، الصماء.. أم الله الذى يبدأ الخلق، وينشئه ابتداء على غير مثال، ثم يعيده خلقاً آخر كما بدأه، بعد أن يبلى، وتذهب معالمه؟

ماذا تقولون؟

أتقولون بعد هذا.. إن مع الله إلها، يصنع ما يصنع الله، ويتصرف معه فى هذا الوجود، أو يشاطره بعضاً منه؟

«قل هاتوا برهانكم.. إن كنتم صادقين».

فأين الحجة على ما بين أيديكم ؟ وأين البرهان على ما تقولون من أن مع الله إلها أو آلهة أخرى ؟ إن القول بلا حجة يستند إليها ، وبلا دليل يقوم عليه — هو كلام ، لا معقول له ، ولا حياة فيه ، ولا نفع لمن يتعلق به : « ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه . . إنه لا يفلح الكافرون » (١١٧ : المؤمنون) .

وفى هذا العرض الممتد ، المختلف الصور والألوان ، لآيات الله فى الأرض وفى السماء ، وفى البر والبحر ، لا يجد المكابرون والمعاندون ، سبيلا إلى الإفلات والهروب من الإقرار بوحدانية الله .. إذ كانوا كلما أخذوا وجهاً من وجوه الضلال ، لقيهم معرض من معارض قدرة الله . . حتى إذا كان آخر المطاف كانت كل ظنونهم وأوهامهم فى آلهتهم قد ضلت عنهم ، وفرت من بين أيديهم ، فوقفوا فى حيرة ، بين الاتجاه إلى الله الذى يحجبهم عنه كبرهم وعنادهم ، وبين الجرى وراء آلهتهم بعد أن انكشف لهم أمرها .. وهذا لا يطالبهم القرآن بأكثر من أن يستعملوا شيئاً من العقل والمنطق ، وأن يحترموا إنسانيتهم ، فلا يؤمنوا إلا بما يقبله العقل ، ويطمئن إليه القلب ، وإلا بما يقوم للعقل منه برهان على أنه الحق !

لقد أقامهم القرآن فى هذا العرض مقام الشك ، والشك — كما يقولون — أول مراتب اليقين ،

الآيات : (٦٥ — ٧٨)

* « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا

بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥) إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (٧٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون » .

هو تعقيب على هذه المعارض ،التى عرضت فيها الآيات السابقة للمشركين وغباءهم وضلالهم ، وآلهتهم وما هى عليه من عجز وضعف ، أمام جلال الله وعظمته وقدرته . .

وفى هذه الآية عرض للمخلوقات جميعاً ، أمام علم الخالق ، المحيط بكل شىء ، وأن من فى السموات والأرض من مخلوقات لا تعلم مما استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه شيئاً . . فأهل الأرض مهما علموا من علم فإن علمهم

بهذا الكوكب الذى يعيشون فيه ، لا يعدو أن يكون قطرة من محيط الأسرار المودعة فى هذا الكوكب ، فكيف علمهم بما فى هذا الوجود الذى هم قطرة فى محيطه الذى لا حدود له ؟ وكذلك مخلوقات العوالم الأخرى ، علمها كعلم أهل الأرض ، هو محدود محصور فى دائرة وجودها . .

وقوله تعالى : « إلاّ الله » إلا هنا ملغاة .. والمعنى أنه لا يعلم الغيب إلا الله وحده . . أما من فى السموات والأرض فمنفى عنهم هذا العلم . . وإن علموا شيئاً فهو بالاضافة إلى علم الله ، وإلى ماجهلوه من هذا العلم — لا وزن له ، ولا اعتداد به ..

— وقوله تعالى : « وما يشعرون أيّان يبعثون » — تأكيد لنفى علم الغيب عن أهل السموات والأرض . . وذلك أن الناس وهم أكثر خلق الله ادعاء للعلم ، لا يعلمون متى يبعثون من قبورهم إذا ماتوا ، وهذا البعث هو أمر يتصل بهم ، ويعنى كلّ واحد منهم . فإذا جهلوا ماهو من شأنهم فهم لغيره أجهل ، وإذا جهل الناس فغيرهم من المخلوقات أشد جهلا .

ويجوز أن يكون المراد هنا هم الناس وحدهم ، ويكون نفى العلم عنهم بميقات بعثهم حجة قائمة على أنهم لا يعلمون الغيب . . فليؤمنوا إذن بعالم الغيب والشهادة إيمانهم بكل غيب ، وليدعوا هذه الآلهة التى يجسدونها ، ويتعاملون معها ، كما يتعاملون مع أموالهم وأمتعتهم . .

فالله سبحانه وتعالى ، وإن لم يروه ، فإن كثيراً من الحقائق التى بين أيديهم لم يروها ، ولم يقع فى علمهم شىء منها . .

إن الإنسان ليستبين كثيرا من الأمور التى لا تقع لحواسة ، بما يلوح

العقل من شواهد عليها .. فلم لا يؤمن المشركون بالله ، وهذا الوجود كله شاهد لله ؟

قوله تعالى :

* « بل ادّارك علمهم فى الآخرة .. بل هم فى شَك منها .. بل هم منها عَمُونَ »

* هذا تعقيب على قوله تعالى : « وما يشعرون أيان يبعثون » .. وذلك أن البعث وإن لم يُعلم يومه فإنه آت لاريب فيه ، وعدم العلم بيومه ، لايستدعى إنكارَه وجحودهَ .. ولكن ذلك هو الذى فتن كثيراً من الناس ، وأضلهم ، فكفروا بهذا اليوم، إذ لم يعلموه علماً واقعاً محققاً .. وهذا غيب من الغيوب التى استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمها .. فالذين ينكرون يوم البعث ، إنما ينكرون أمراً قامت عليه الأدلةَ ، وتظاهرت له البراهين ، وإن كان لا يشعر بها الغافلون الضالون ، ولهذا جاء قوله تعالى فى الآية السابقة « وما يشعرون أيان يبعثون » منبها إلى هذه الغفلة التى عليها هؤلاء المشركون المنكرون ليوم البعث .. إنهم لا يشعرون به ، مع أن كثيراً من الإشارات الدالة عليه تمر بهم ، ولكنهم فى غمرة ساهون !

— وقوله تعالى : « بل ادّارك علمهم فى الآخرة » إضراب على الصفة التى وُصفوا بها من قبل ، وهى عدم شعورهم بالبعث ، وإلقاء صفة أخرى عليهم فوق هذه الصفة ، وهى أن ما لديهم من علم فى شأن الساعة ، كثير ، والشواهد عليه بين أيديهم لا تحصى ، ولكن هذا العلم ، وتلك الشواهد لم تحقق لهم علماً بها .. وهذا هو بعض السر — والله أعلم — فى تعدية المصدر « علمهم » بحرف الجر فى ، بدلا من البـاء .. فى النظم القرآنى « بل ادّارك علمهم

فى الآخرة » ولم يجىء هكذا : بل إدراك علمهم بالآخرة . . فالعلم الذى عندهم بالاخرة كثير ، ولكنهم يمارون فى هذا العلم ، ويجادلون فيه ..

وقوله تعالى : « بل هم فى شك منهـا » هو وصف آخر يضاف إلى أوصافهم التى تكشف عن موقفهم من أمر الآخرة . . « إنهم فى شك منها » لا يقيم لهم العلم الذى بين أيديهم عنها ، إلا أوهاماً وظنوناً .

ومعنى ادّارك علمهم ، أى كثر ، وتتابع ، وجاءهم داركا ، أى متلاحقاً . . تختلف وجوهه فى تصورهم ، وتتغاير صوره فى عقولهم ، وتتوارد عليهم الخواطر فيه بين الشك واليقين.

وقوله تعالى « بل هم منها عَمُون » — وصف ثالث يلحق بالوصفين السابقين ، وهو أنهم فى عمى وضلال عن الآخرة ، فلا يرون لها وجوداً ، ولا يحسون لها أثراً ..

والصورة التى تتمثل من هؤلاء المنكرين ليوم البعث ، هى صورة مائجة مضطربة ، كما يموج السراب فى الصحراء ..

فهناك شواهد قائمة على البعث والحساب والجزاء . . ولكن المشركين لا يشعرون بها ، ولا يلتفتون إليها .

وهناك علم كثير ، تحدثهم به آيات الله التى يتلوها عليهم رسول الله ، فى أمر البعث والحساب والجزاء . . « بل ادارك علمهم فى الآخرة »

وهذا العلم لا يستقبله المشركون إلا بقلوب مريضة ، وعقول ضالة . . فلا تقع منه إلا على ظنون . . « بل هم فى شك منها » .

وهذه الظنون التى تقع لهم من هذا العلم ، سرعان ما يطغى عليها الضلال والجهل ، فتختفى ، ويختفى معها كل شىء عن هذا اليوم ، وإذا هم فى عمى ، فلا

يرون الآخرة ظلا ، أو خيالا ، فى أنفسهم . . « بل هم منها عَمُون » .

وفى تعدية المصدر « عَمٍ » ، بمعنى أعمى — بحرف الجر « من » بدلا من « عن » الذى هو للفعل ، إذ يقال : عمى عن الشىء : ولا يقال عمى منه ، إلا إذا كان الشىء هو السبب فى العمى ، الذى جاء من جهته.. وهذا ـ والله أعلم ـ ما أريد هنا ، وهو أن الآخرة ، كانت سببا فى عمى الضالين والمشركين . . وذلك أن أمر البعث، والحساب والجزاء ، هو مضلة الضالين ، وغواية الغاوين .

وليس الإيمان بالله هو السبب فى تردد المشركين وتوقفهم عن الإيمان .. وإنما كان ترددهم وتوقفهم عن الإيمان بالله ، لأن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بالبعث والحساب والجزاء . . وهذا هو الذى يتردد إزاءه المترددون ، ويتوقف عنده المتوقفون .. وإنه ليسير غاية اليسر على المشركين أن يستبدلوا إلها بإله ، وربا برب .. وليس من اليسير أبداً أن يقبلوا ربًّا لايقبلهم إلا إذا آمنوا بالبعث بعد الموت ، ثم الحساب والجزاء .. فذلك هو الذى لا تقبله عقولهم ولا تتصوره مدركاتهم . . ولقد كان أكثر جدلهم واقعاً على البعث بعد الموت ، و فى هذا ما حكاه القرآن عن المشركين والمكذبين بيوم البعث : « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد * أفترى على الله كذبا أم به جنة ؟ » (٧ — ٨ سبأ) إنهم يعرفون الله ، وإن كانت معرفة سقيمة معتمة ، وإنهم ليقرون بوجوده ، ويتهمون النبى بالافتراء على الله ، ولكنهم ينكرون أشد الإنكار أن يُبعث الناس ، بعد أن يصيروا عظاماً ورفاتاً .

وفى الآية الكريمة إعجاز من إعجاز القرآن الكريم ، يحتاج الوقوف عليه إلى شىء من النظر الخاشع بين يدى هذا الجلال المشرق من سماوات الحق . .

ففى الآية الكريمة ثلاثة مفاهيم لموقف واحد . . هو موقف المشركين من يوم القيامة .. فالمشركون وإن كانوا على موقف واحد من إنكارهم للبعث ، فإنهم فى إنكارهم ليسوا على صورة واحدة . . إذ يكاد يكون لكل منكر للبعث تصور خاص به ، ومفهوم استقلّ به ، وأقام إنكاره للبعث عليه .

ولتصوير هذه التصورات ، وتلك المفاهيم فى جميع مستوياتها ، وعلى اختلاف منازلها ، ينبغى أن يكون لكل إنسان صورة خاصة به ، ووصف محدّد له . .

ولكن هذا أمر لا يُضبط ، بل يقع موقع الاستحالة المطلقة . .

ولو أنه ضُبط ، لما كان له كبيرُ قيمة فى كشف الموقف العام للمشركين المكذبين بهذا اليوم ، إذ ما أكثر الصور المتشابهة المتكررة ، التى لا يكاد يلمح فيما بينها فرق ، إلا تحت النظر « الميكرسكوبى » .

وإذن ، فالعمل الذى يُجدى فى هذه الحال ، هو ضبط هؤلاء المكذبين فى مجاميع ، كل مجموعة تمثل اتجاها معينا له صفته ، وله وجهه فى هذا المقام .. وهذا هو الذى فعله القرآن فى هذه الآية .

فقد قسم المكذبين بيوم البعث ، حسب مشاعرهم له ـ إلى ثلاث مجموعات ، كما نرى فى الآية الكريمة : « بل ادارك علمهم فى الآخرة . بل هم فى شك منها بل هم منها عمون » .

فالمجموعة الأولى ، تأخذ علمها عن الساعة من مدلول النظر العقلى المجرد ، دون التفات إلى عالم الغيب ، الذى تحتجب وراء ستره أمور كثيرة .. منها البعث ، والقيامة . . فمن لا يؤمن بعالم الغيب ، لا يهديه عقله وعلمه إلى الإيمان بيوم

القيامة . . وهؤلاء هم العلماء الذين يحتكمون إلى العقل وحده ، وعلى الحجج الاستدلالية التي ينقض بعضها بعضاً .

والمجموعة الثانية ، هي التي تخرج من المجموعة الأولى — بعد تضارب الحجج في عقولها — إلى التوقف والشك .

والمجموعة الثالثة ، هي التي لم ترفع رأسها للبحث والنظر ، ولم تفتح قلبها للإيمان والتسليم ، بل هي في شغل وغفلة بما هي فيه ، من حياة مادية ، لا ترتفع كثيراً عن حياة الأنعام .

قوله تعالى :

* « وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون ؟ . لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » .

هذا هو موقف المشركين من البعث وما وراءه . . إنه الإنكار الغليظ له ، وإنه الجدل العنيف فيه . . ولم يجادل المشركون في الله ، ولم ينكروا ألوهيته . . ولكنهم ينكرون أشد الإنكار أن يبعثوا . .

والاستفهام هنا إنكاري ، إذ يرون استحالة عودتهم إلى الحياة مرة أخرى ، بعد أن يصيروا عظاماً نخرة ، ورفاتاً بالية . .

ثم يستدلون على مقولتهم تلك ، بما هو واقع مشاهد . . فهؤلاء آباؤهم وأسلافهم الذي مضوا من قرون طويلة — قد وُعدوا بالبعث . . فأين هم الآن ؟ وأين البعث الذي وعدوا به ! .

« إنْ هذا إلا أساطير الأولين » . . أي ما هذا القول إلا من خرافات قديمة ، وأساطير بالية !

قوله تعالى :

* « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين » .

هو تهديد لهؤلاء المشركين المكذبين بيوم الدين ، وأنهم بتكذيبهم هذا قد انتظموا فى سلك المجرمين ، وحُق عليهم ما حُق على المجرمين من بلاء وعذاب ! . .

قوله تعالى :

* « ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون » .

هو عزاء للنبى الكريم ، فى قومه هؤلاء الذين أجرموا ، والذين حق عليهم العذاب .. فليدعْهم النبىّ لمصيرهم المشئوم هذا ، وليخل نفسه من لذعات الأسى والحزن عليهم . . فإنهم ليسوا من أهله . . إنهم عمل غير صالح .

وفى هذا العزاء تهديد آخر للمشركين ، وتحقيق للعذاب الواقع بهم ، واستحضار له ، حتى لكأنه وقع بهم فعلا ، وإن النبى ليجد الأسى عليهم ، ويتقبل العزاء فيهم ! !

وقوله تعالى : « ولا تكن فى ضَيْق مما يمكرون » — هو تسرية عن نفس النبى ، لِما كان يجد من ضيق ، لما يرميه به قومه من أذى ، وما يدبرون له من كيد . . فالله سبحانه وتعالى ناظر إليه ، ومؤيد له ، وآخذ بيده إلى طريق النصر والعزة . . ولله ولرسوله وللمؤمنين .

قوله تعالى :

* « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين »

وهذا الاستفهام إنكارى ، يقوله المشركون فى استهزاء وسخرية واستنكار : « متى هذا الوعد ؟ » أى متى يوم البعث الذى تعدنا به ، وتهددنا بما نلقى من عذاب فيه ؟ . . فقد استبعدوا أولاً أن يكون فى الإمكان بعث الأموات من القبور بعد أن تتحلل أجسادهم وتضيع فى التراب . . فقالوا ماحكاه القرآن عنهم فى الآيات السابقة : « لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » ثم هم ثانياً يؤكدون هذا الإنكار بمنطق سقيم،وهو أنه لو كان فى الإمكان بعث الموتى ، فما الضرورة لبعثهم ؟ إنهم كانوا أحياء فى هذه الدنيا ، فلم يموتون ثم يبعثون ، إذا كان من بعثهم حكمة ؟ ألا كان خيرا من هذا أن يظلوا أحياء إلى ما شاء الله ، بدلا من أن يميتهم الله ثم يحييهم ؟ فلم الموت ثم الحياة ، إذا كانت نهاية الإنسان هى الحياة ؟

ثم يسلمهم هذا المنطق السقيم إلى القول ، بأنه لو كان البعث ممكنا ، وكان لهذا البعث حكمة — فلم لم يقع هذا البعث ولو مرة واحدة فى حياة الإنسانية ، منذ آلاف السنين ؟ . . إنه لو كان البعث أمراً سيقع — مع التسليم بإمكان وقوعه — لما قطعت الإنسانية هذه الآماد الطويلة من حياتها على هذه الأرض ، ولما غُيب الثرى هذه الأعداد التى لا حصر لها من أجيال الناس ! ! فمتى يأتى هذا اليوم ؟ . . إنه وعد كاذب ، وسلاح خادع يتهددنا به محمد ! ! وفى هذا يقول شاعرهم :

حياة ثم موت ثم بعث حديثُ خرافة يا أم عمرو ! !

وفى قولهم « إن كنتم صادقين » — مواجهة للنبى والمؤمنين ، بهذا الإنكار المتحدّى . . فهم لا يلقون النبى وحده بهذا التحدى الساخر ، وإنما يلقون به

النبى ، وكل من آمن به ، ودان بيوم البعث وعمل له .. إنهم يبشرن فى الناس بأن لا بعث ، وينشرون فيهم هذا المعتقد الفاسد ، حتى يكثر الواردون معهم على مراتع الحياة الدنيا . . « يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » (١٢ : محمد)

قوله تعالى :

• « قل عَسَى أن يكون رَدِفَ لكم بعضُ الذى تستعجلون »

هو ردّ على هؤلاء المشركين المنكرين ليوم البعث ، الساخرين بالمؤمنين به . . وقد أعطى الله سبحانه نبيه الكريم هذا الجواب الذى يجيب به على سؤالهم المتهكم المنكر . . وهو جواب يحمل إليهم نُذر هذا اليوم ، ويذيقهم جرعات من بعض العذاب المعدّ لهم فيه . .

وقوله تعالى : « عَسَى » هو يقين واقع ، لارجاء متوقع . . فما يَعِدُ الله سبحانه وتعالى به فهو واقع لاشك فيه ، على أية صورة جاء عليها الوعد . .

وإنما جاء هذا الوعد فى صورة الرجاء ، استهزاءً بالمشركين المكذّبين ، ليقابل استهزاءهم الذى جاء فى هذا الاستفهام الإنكارى فى قولهم : « متى هذا الوعد ؟ » . . ثم هو مطاولة لهم فى طغيانهم ، وإملاء لهم فيما هم فيه من تكذيب .

وقوله تعالى . . « رَدِفَ لكم » أى وقع لكم ، وَعَلِقَ بكم ، بعض هذا العذاب الذى تنكرونه وتستعجلونه . . ولكنكم لا تشعرون به ، لأنكم فى غمرة من جهلكم وضلالكم . .

وأصل الرّدف : ما يجىء فى عقب غيره . . ومنه الرديف ، وهو من

يركب خلف الراكب . . ومنه سمى الرِّدف ، وهو مؤخّرة الإنسان ، وجمعه أرداف . .

وفى التعبير بالفعل « رَدِفَ » دون غيره من الأفعال التى بمعناه . . ما يشير إلى أمور . . منها :

أولاً : أن هذا العذاب سيجىء من وراء ظنونهم ، ويقع من حيث لا يتوقعون . . كما يجىء الرديف من الخلف ، وكما يقع الرّدف من وراء . .

وثانياً : أن الرّدف ، أو الرديف ، يلتصق بصاحبه . . وأن هذا العذاب هو ملتصق بهم ، وممسك بكيانهم ، لا يُفلتون منه أبداً .

وثالثاً : أن الردف ، أو الرديف ، هو عبء ثقيل ، قد يبهظ المتعلق به . . وهذا العذاب المعجّل لهم فى الدنيا ، سيلاقون منه بلاء وشدّة . .

وقوله تعالى : « بعضَ الذى تستعجلون » . . هو إشارة إلى ما سيحلّ بالمشركين من خِزْىٍ فى الدنيا ، ومن خذلان فى مواقع القتال بينهم وبين المسلمين ، حتى تضيق عليهم الأرض بما رحبت ، ويدخل عليهم الرسول والمؤمنون مكة فاتحين . . إنه بعض العذاب الملتصق بهم . . وهو قليل من كثير . . مما يلقاه أهل الضلال فى الآخرة .

وقوله تعالى :

• « وإن ربّك لذو فضلٍ على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون » .

هو إشارة إلى ما يسوق الله سبحانه وتعالى إلى الناس من فضلٍ وما يُمدّهم به من نِعَم . . وإن من أجلّ هذه النعم ، رسولَه المبعوثَ إليهم ، وآياتِه التى يتلوها عليهم ، ولكنّ أكثرهم يَلقَوْن هذه النعم بالجحود والكفران . .

وفى إضافة النبى الكريم إلى ربّه ، بهذا الخطاب الذى يُفرِده فيه وحده ـ

فى هذا تكريم للنبى ، واحتفاء به ، والتفات إليه بعين العناية والرعاية .

قوله تعالى :

• « وإن ربّك ليعلم ما تُكنّ صدورهم وما يُعلنون » .

هو تهديد للمشركين ، وأنهم لن يفلتوا من يد الله ، ولن يخلصوا من عذابه لما هم فيه من كفر وضلال ، يمتلىء به صدورهم ، وتنطق به ألسنتهم ، وتتشكل منه أعمالهم . . والله سبحانه يعلم ما يخفون وما يعلنون . . فأين يذهبون ؟ وفى تكرار الإضافة للنبى إلى ربه وبضمير الخطاب لا بضمير الغيبة — فى هذا توكيد لهذا التكريم للنبيّ وإيناس له فى حضرة ربّه . .

قوله تعالى ،

• « وما من غائبةٍ فى السماء الأرض إلا فى كتاب مبين »

ذلك هو بعض علم الله ، الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . فما من غائبة تغيب عن علم كل عالِم فى الأرض أو فى السماء ، إلا ويعلمها الله ، لأنها مودعة فى كتاب مبين من قبل أن توجد . . كما يقول سبحانه : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتابٍ من قبل أن نَبْرَأها إن ذلك على الله يسير » (٢٢ : الحديد) .

قوله تعالى :

• « إن هـذا القرآن يَقُصُّ على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » .

مناسبة هذه الآية لِما قبلها وما بعدها من هـذه الآيات ، هى أن بنى إسرائيل كانوا فى نظر المشركين أصحابَ علم ، وأهل كتاب ، وكانوا يسمعون منهم ، ويتلقون عنهم كثيراً من الأخبار . فلما جاء القرآن الكريم ، وحمل

إليهم كثيراً من أخبار الأولين ، وعرض عليهم صوراً من الحياة الآخرة . والحساب ، والجنة والنار ، ورأوا فيما سمعوا من آيات الله كثيراً من وجوه الاختلاف مع ما كانوا قد سمعوه من اليهود — لمّـا كان هذا ، وقع فى نفوس المشركين أن النبىّ إنما يأخذ من تلك الأخبار التى عند اليهود ، وينقلها نقلاً مضطرباً ، يخالف فيه الأصل الذى أخذ منه ، ولهذا جاء قوله تعالى : « وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين » ثم جاء قوله تعالى : « إن هذا القرآن يقصّ على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » ليلفت هؤلاء المشركين إلى علوّ هذا القرآن ، وإلى أنه هو الذى يصحح لبنى إسرائيل ما أحدثوا فى الكتاب الذى بين أيديهم ، من تحريف وتبديل ، حتى وقع بينهم هذا الاضطراب والاختلاف ، لأنه من علم الله الذى لا تخفى عليه خافيـة فى الأرض ولا فى السماء . .

هذا ، ولم يكن القرآن الكريم قد اتّجه إلى أهل الكتاب بعد ، فى هذا الدور من الرسالة الإسلامية ، ولم يكن لقى اليهود لقاء مباشراً .. فكانت هذه الآية إشارة إلى أن القرآن لم يجىء للمشركين وحدهم ، وإنما جاء كذلك إلى أهل الكتاب ، ليصحح ما دخل على هؤلاء وهؤلاء من أباطيل ، أفسدت العقيدة ، وغيّرت معالم الحق فيها . . وأكثر ما اختلف فيه بنو إسرائيل مقولاتهم فى المسيح ، وأنه ابن زنا ، وأنه ابن يوسف النجار ، وأنهم صلبوه . . فجاء القرآن الكريم يقرر أن المسيح عبد الله ورسوله ، وأنه نفخة من روح الحق ، وأنهم ماقتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم . .

ومما اختلف فيه اليهود والنصارى قولهم : « نحن أبناء الله وأحباؤه » فجاء القرآن يكذب هذا الادعاء .

فقال تعالى لنبيه: «قل فلم يعذبكم بذنوبكم؟ بل أنتم بشرٌ ممن خلق» (١٨: المائدة)

ومن ذلك أيضاً قولهم فى الأطعمة التى حرمها الله عليهم ، نكالا بهم ، وإصْرًا عليهم ، وادعاؤهم أن هذه الأطعمة إنما حرمت على آبائهم الأولين ، قبل أن تنزل التوراة ، وأنها شريعة ، وليست عقوبة . . وقد كذبهم القرآن فى هذا ، فقال تعالى : « كل الطعام كان حِلاً لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه . . من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين * فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون * قل صدق الله . . فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » (٩٣ — ٩٥ : آل عمران).

ففى قوله تعالى : « فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » — هو دعوة إلى اليهود أن يخرجوا . هذا الإصر المضروب عليهم ، وذلك بأن يدينوا بالإسلام الذى هو ملة إبراهيم ، وبغير هذا فسيكون ما حرم عليهم من طعام ، هو نكال بهم ، لا يرفع عنهم أبداً . .

والطعام الذى حرمه الله على اليهود خاصة ، عقابا لهم ، هو ما أشار إليه سبحانه وتعالى فى قوله : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومَهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون * فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » (١٤٦ — ١٤٧ : الأنعام).

ومن ذلك افتراؤهم على الله ، بأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات ، وأنهم مهما فعلوا من منكرات وآثام ، فلن يمسهم من عذاب الله إلا هذا العذاب الهين ، الذى لا يتجاوز مداه أياماً معدودات ، فكذبهم الله بقوله : « وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا

فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون * بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٨٠ — ٨١ : البقرة) .

وهكذا جاء القرآن يقصّ على بنى إسرائيل ، ويكشف لهم مفترياتهم على الله ، وما خالفوا فيه شريعته ، وكان موضع خلاف بين أهل العلم ، فيهم ..

قوله تعالى :

* « وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين » .

إشارة إلى هذا القرآن ، وما تحمل آياته من الحق والهدى . . وأن الذين يؤمنون به من المشركين ، ومن أهل الكتاب ، سيجدون الهدى مما هم فيه ، من زيغ وضلال ، واختلاف .

قوله تعالى :

* « إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم » .

وإذ كان القرآن الكريم هو الحق ، فإن من ينحرف عنه سيضل ، ومن ضل فإنما يضل على نفسه ، وسيقضى الله سبحانه وتعالى فيه بحكمه ، ويأخذه بعدله : « وهو العزيز العليم » العزيز الذى لا يخرج عن سلطانه أحد ، العليم الذى لا يغيب عن علمه ما يعمل الظالمون . .

الآيات : (٧٩ — ٨٥)

* « فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم

مُسْلِمُونَ (٨١) * وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

« فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ المبين » .

هو تثبيت لقلب النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وتوثيق للصلة التى بينه وبين الكتاب المنزل عليه ، وأن ما يُلقى به اليهود إلى المشركين من تلبيسات ، يحاجّون بها النبىّ ، ويُدخلون بها الشك فى قلوب الضعفاء ـ لاينبغى أن يلتفت إليه النبىّ ، ولا أن يعطيه شيئاً من التوقير والاحترام ـ على اعتبار أن ذلك من واردات الكتاب السماوىّ الذى فى أيدى اليهود . . فهذا الكتاب قد عبث به اليهود ، وغيّروا معالمه ، وقد جاء القرآن الكريم بالحق المبين ، الذى يكشف مفتريات القوم ، ويفضح أكاذيبهم : « إن هذا القرآن يقصّ على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » .

وإذن فليمض النبىّ فى طريقه ، متوكّلاً على ربّه ، غير ملتفتٍ إلى تلك المقولات التى فى أيدى اليهود ، أو على ألسنة المشركين الذين أخذوها عنهم . . فهو على هدًى وبصيرة من ربّه ، وعلى صراط مستقيم بهذا الكتاب الذى بين يديه . . وليس عليه من أمر هؤلاء المعاندين المخالفين شىء . .

قوله تعالى :

* : « إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الموتَى ولا تُسْمِعُ الصمَّ الدُّعَاءَ إذا ولَّوْا مدبرين » .

هو تحريض للنبىّ على المضىّ فى طريقه ، غيرَ ملتفت إلى أهل المِرَاء والخلاف . . وغير آسفٍ على ما يُوردهم به هذا المِراء والخلاف من موارد الهلاك والبلاء . . فإنهم موتَى ، إذا نُودوا لا يسمعون ، وإنهم صُمٌّ ، لا تقع الكلمات على آذانهم إلا كما تقع على الحجر الأصمّ . .

وفى تشبيه القوم بالأموات ، وفى وصفهم بعد ذلك بالصمم — إشارة إلى أنهم درجات فى الإعراض عن آيات الله . فنهم من لا يستمع إلى آيات الله أبداً ، ولا يدنو من صوت يرتل كلمات الله ، خوفاً على نفسه أن يقع تحت تأثيرها ، فهو يهرب منها ، ويقيم على نفسه حجاباً بينه وبينها . . وهذا هو والميت سواء بالنسبة لما يتلو الرسول من قرآن . . ومنهم من يسمع القرآن ، لا ليتدبّر آياته ، ولا ليعرض ما يسمع على عقله ، وإنما ليقع على كلمة ، يدبرها على غير وجهها ، ويتخذ منها مادة للهزء والسخرية . . فهو بهذا أصمّ ، وإن كان ذا أذنين يسمعان !

وقوله تعالى : « إذا ولّوا مدبرين » ـ هو شرط لإفادة الحكم بعدم سماعهم ، وهو ـ فى معناه ـ قيد وارد على هذا الحكم ، أشبه بالحال .. أى أنهم لا يسمعون ما يُلقى إليهم وهم يولّونَ مدبرين . .

والسؤال هنا : كيف يكون عدم سماعهم مقيداً بهذا القيد ، وهم صُمٌّ ، والأصمّ لا يسمع مطلقاً ، سواء أقبل أو أدبر ؟

والجواب على هذا — والله أعلم — أن الأصم وإن كان لا يسمع بأذنيه ، فإنه إذا أقبل على محدثه ، ربما فهم عنه بالإشارة ، وربما قرأ على حركة شفتيه

بعض الكلمات ، فوقع له من هذا وذاك شيء من الإدراك والفهم . . وهؤلاء القوم قد ولوا على أدبارهم ، وأعطوا ظهورهم لما يتلى عليهم،فلم يسمعوا شيئاً ،وهذا فى آذانهم من وَقْرٍ ، ولم يروا شيئاً وقد أعطوا ظهورهم لما يلقى إليهم !

قوله تعالى :

* « وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » .

فقوله تعالى : « وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم » — هو استكمال للوصف الذى عليه هؤلاء المشركون وأمثالهم . . فهم أموات ، وإن كانوا فى الأحياء ، وهم صم وإن كانوا فى السامعين ، وهم عمى وإن كانوا فى المبصرين . . « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » (٤٦ : الحج)

وفى تعديه اسم الفاعل : « بهادى » بحرف الجرّ « عن » بدلا من حرف الجر « من » الذى يتعدى به الفعل ، فيقال هداه من ضلاله — فى هذا إشارة إلى أن هدى القوم لا يكون بأضواء الحق ، وأنوار المعرفة ، فهذه معنويات تهتدى بها العقول السليمة ، وتستضىء بها البصائر المبصرة . . أما هؤلاء القوم ، فقد غابت عقولهم ، فانطمست بصائرهم ، وأصبحوا فى عداد الحيوان ، الذى يقاد من مقوده ، حتى يستقيم إلى الطريق . .

ومن هذا ضُمّن اسم الفاعل « هاد » معنى «حاجز» أو «مبعد» ـ الأمر الذى يكون بمعالجة حسية ، وبقهر مادى .. وهذا ما ليس من رسالة الرسول . الذى تقوم دعوته على الحكمة،والموعظة الحسنة ، كما يقول له الحق جل وعلا : «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (١٢٥:النحل)

وفى قوله تعالى : « إنْ تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » تحديد

لمهمة الرسول ، وبيان لمنهج دعوته ، وهو أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه ، وأن يُسمع الذين إذا سمعوا ودعوا واستجابوا ..

و « إن » هنا نافية بمعنى « ما » . . أى ما يبلُغ تبليغك إلا أسماعَ أهل السلامة والعافية فى عقولهم وقلوبهم — فهؤلاء إذا سمعوا وجدوا لما يسمعون جواباً حاضراً ، فى أنفسهم .. وهو التسليم ، والإسلام . .

وقوله تعالى : « إنْ تُسمع إلا من يؤمن بآياتنا » أى لا يسمع هذه الآيات إلا من كان عنده استعداد لتقبل الحق ، والاهتداء بالهدى إذا التقى به .

وقوله تعالى : « فهم مسلمون » جملة من مبتدأ وخبر ، والفاء للسببية ، أى أنهم يسمعون كلام الله ، ويملئون به عقولهم وقلوبهم ، لأنهم مسلمون بالفطرة ، وبما عندهم من استعداد للإيمان . . أما من فسدت فطرته ، فإنه لن يسمع ، وإن سمع لا يعقل !

قوله تعالى :

* « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » .

(الدابة التى تكلم الناس .. ما هى ؟)

اضطرب المفسرون فى تفسير هذه الآية ، وأكثروا من المقولات فى هذه الدابة ، وفى أوصافها العجيبة ، وفى كيفية نطقها ، وفيما نطقت به . . وهل يكون ذلك فى الدنيا أم فى الآخرة .. فهم يقولون إنها من أشراط الساعة ، ويذكرون لذلك أحاديث تنسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم .. ويقولون إنه يخرج فى كل بلدة دابة ، مما هو مبثوث من نوعها فى الأرض . وفى أوصافها .. يقولون : إنها

من الإنس ، وينسبون إلى على كرم الله وجهه أنه سئل عنها فقال : « أما والله إنها ليست بدابة لها ذنب ، ولكن لها لحية[(١)] » ! ويقولون : إنها الحية التى كانت فى جوف الكعبة وخطفتها العقاب حين أرادت قريش بناء البيت الحرام . . ويقولون رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيل[(٢)] ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هرة ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير . . بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً . . ويزيد ابن جرير على ذلك ، أنها بذراع آدم عليه السلام . . ! !

وهكذا تُجمع فى الدابة جميع الحيوانات ، ومختلف الدواب !

ويروى عن أبى هريرة أن فيها من كل لون ، وما بين قرنيها فرسخ لراكب . .

ويروى عن ابن عباس أن لها عنقا مشرفاً ، يراها من بالشرق ، كما يراها من بالغرب ! . .

وعشرات من الأخبار ، والأحاديث ، غير هذا ، بحيث يجتمع منها متحف ، يضم أروع وأعجب ما وقع عليه الخيال .

وهذه المقولات فى كثرتها ، وتناقضها ، توقع الحيرة والبلبال ، فما يدرى المرء ماذا يأخذ منها ، وماذا يدع ؟ ولو أنه اقتصر منها على مقولة واحدة ، مهما كانت غرابتها ، وإغراقها فى الخيال — لكان ذلك — على ما فيه — أقرب

---

(١) أى أنها إنسان . . إذ أن من شأن الإنسان أن تكون له لحية .

(٢) الأيل : بفتح الهمزة ، وضمها ، وتشديد الياء ، حيوان من ذوات الظلف أشبه بالثور وله قرون طويلة متشعبة ، وجمعه أيايل .

إلى السلامة من التخبط بين هذه المقولات التي يلطم بعضها وجه بعض .

ولو أننا نظرنا إلى الآية الكريمة ، نظراً مقارباً ، دون شدها إلى أودية الغرائب والعجائب ، لرأينا أنها لا تحمل شيئاً تستخرج منه هذه المقولات ، ولا تحتمل شيئاً يساق إليها مما قيل . .

فالآية الكريمة ترسم مع الآيات التي قبلها ، صورةً واضحة الألوان والظلال لأولئك المشركين ، الضالين ، الذين ماتت مشاعرهم ، وعميت أبصارهم وصُمّتْ آذانهم . . فلا يعقلون ، ولا يبصرون ، ولا يسمعون شيئاً مما يتلى عليهم من آيات الله . . فهكذا صورتهم الآيتان في قوله تعالى لنبيه الكريم : «فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين*وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا . . فهم مسلمون » « ٥٢ — ٥٣ : الروم »

وهنا في هذه الآية تكتمل الصورة ، حين تصل حياتهم الجارية في ريح الأمن والسلامة ، بحياتهم التي يطرقهم فيها طارق الموت . . وفي هذه الحالة ينكشف لهم كل شيء . . وإذا عقولهم عاقلة ، وآذانهم سامعة ، وعيونهم مبصرة . . كما يقول الله تعالى : « لقد كنتَ في غفلة من هذا ، فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » . « ٢٢ : ق »

ففي هذا الوقت ينكشف الغطاء عن الحق الذي ضلوا عنه ، وإذا دواب الأرض تنطق ، وإذا هم يفقهون حديثها ، ويفهمون نطقها ، وكانوا في دنياهم قد عجزوا عن أن يفقهوا أو يفهموا ما تحدثهم به آيات الله بلسان عربي مبين . . وفي هذا يقول الله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (٥٣ : فصلت) .

فنى هذا العرض يرى المشركون أنهم فى وضع مقلوب ، حيث لا يفهمون حديث الناس ، حتى لـكأنهم لا يعيشون بين الناس ، وأنهم — وهم كما يزعمون أصحاب عقول — لا يعرفون الحق الذى تعرفه دواب الأرض التى تعيش معهم . . فهذه الدواب ، تعرف ما لله سبحانه وتعالى من جلال وعظمة ، وهى تدين لله سبحانه بالولاء ، وتسبح بحمده ، كما يقول جل شأنه : « ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكـثير من الناس ، وكـثير حق عليه العذاب . . ومن يُهن الله فما له من مكرم » (١٨ : الحج) .

فهذه الدواب ، سيفجؤهم أمرها ، عندما تطلع عليهم بهذا الحديث الذى تحدثهم به فى العالم الآخر ، والذى هو منطق كل موجود بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل .

فقوله تعالى : « وإذا وقع القول عليهم » إشارة إلى نزول الموت بهم . . فوقوع الشىء : مجيئه . من جهة عالية ، حيث لا يملك أحد رده ، كـقوله تعالى : « إذا وقعت الواقعة » . .

والمراد بالقول هنا ، هو حكم الله ، وأمره فيهم ، كما يقول سبحانه : « لقد حق القول على أكـثرهم فهم لا يؤمنون » (٧ : يس) وكـقوله تعالى: « فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون » (٣١ : الصافات) . .

وقوله تعالى : « تـكلمهم » أى توحى إليهم ، بما يفهمون منه هـذه الحقيقة التى ضلوا عنهـا ، وهم أحياء ، والتى كانت مستقرة فى كيان كل كائن ، حاضرةً فى حياة كل موجود . . إلا هؤلاء الضالين المـكذبين !

وقد جاء فى قراءةٍ : « تَـكْلمهم » . . وهو من الـكَلْم ، والجرح . . أى

أن ما يفهمونه يومئذ من الدابة فيه كلم وأذى لهم ، بما ينكشف لهم من سوء حالهم ، وأنهم دون هـــــذه الدواب العجماء فهمـا ، وأقصر منها إدراكا . .

وليس المراد بالدابة ، دابة واحدة ، وإنما المراد جنسها ، وهى كل مايدب على الأرض من حيوان .. من حشرات ، وأنعام ، وطيور .. وغيرها . .

وقوله تعالى : « أن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون » — هو تعليل لقوله تعالى : « أخرجنا لهم دابة من الأرض تـكلمهم » — أى تـكلمهم الدابة لأنهم كانوا لايوقنون بآيات الله ، ولا يؤمنون بها . . والمراد بالناس هنا هم هؤلاء المشركون والضالون ، وكل من كفر بالله وأعرض عن آياته . .

هذا هو المفهوم الذى نستريح إليه من معنى الآية الـكريمة ، وهو مفهوم كما ترى يعطى دلالة تُعين على تأكيد المعنى الذى قصدت إليه الآيات التى سبقتها ، والآيات التى لحقتها ، كما سنرى . . ومما يستأنس به لهذا الفهم الذى فهمنا عليه الآية الـكريمة ، هو أن هذه الآية قد جاءت فى تلك السورة « سورة النمل » التى كان من آياتها ، حديث النملة ، وحديث الهدهد ، مع سليمان عليه السلام ، فقد وقف هذان الحيوانان الضعيفان وهما دابتان من دواب الأرض — وقفا من سليمان هذا الموقف ، الذى صغر فيه لعينى سليمان ملـكه وما حشد له فيه من الجن والإنس والطير ، أمام هذين المخلوقين الضعيفين ، وما أودع فيهما الخالق العظيم . . من علم ، وحكمة ، وبصيرة !

وقد نطق الهدهد ، بوحدانية الله ، وأنـكر على الناس كفرهم وضلالهم ، وسجودهم للشمس والقمر ، شأنهم فى هذا شأن هؤلاء المشركين ، الذين يعبدون من دون الله أصناما ، فقال : « ألاّ يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض . . » ؟ (٢٥ : النمل)

وهذا يشير من بعيد إلى أنه إذا كان سليمان قد تلقى علماً وحكمة ، إلى ما آتاه الله من علم وحكمة ، من هذين المخلوقين الضعيفين — فإن معنى هذا أن هناك علماً كثيرا مستقًى من موارد الحق الذى لا يشوبه شىء من الباطل ، تعلمه دواب الأرض ، ولا يعلمه كثير من الناس ، وأنه من الممكن أن يتلقى الإنسان من هذه الدواب علماً ، بدلالة الإشارة أو العبارة ، كما وقع ذلك لسليمان ، وكما يقع ذلك للناس ، يوم يكشف الغطاء ، وترفع الحجب التى بين الناس وبين عالم الحق . . فينطق كل شىء ، شاهدا بأن الله هو الحقّ !

قوله تعالى :

* « ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون * حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علماً أم ماذا كنتم تعملون » .

الفوج : الجماعة المتحركة فى سرعة .

يوزعون : أى يساقون ، ومن ورائهم وازع يزعهم ، ويدفع بهم دفعاً إلى موقف المساءلة والحساب . .

ويُنقل المشركون هنا فى هذه الآية من حال الموت ، وما يرون فيه من الحق الذى كانوا عنه معرضين ، حين يتحدث إليهم الوجود كله ، حتى دواب الأرض ، تنطق بألوهية الإله الواحد القهار — ينقلون إلى المحشر ، حيث يبعثون من قبورهم ، ويساقون سوقاً عنيفاً إلى موقف الحساب والجزاء . . حتى إذا جاءوا ، سألهم الحق جل وعلا : « أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون » ؟ . . إنهم يُسألون ممن كانوا ينكرونه ، أو يشركون به ، ويكذبون بآياته ، ويمكرون برسله . . وهذا السؤال من الله

سبحانه — هو مواجهة لهم بالحق الذى أنكروه، وعموا عنه.. وفى هذا بلاء عظيم لهم، حيث يسقط فى أيديهم، ولا يجدون قولا يقولونه للذى اعتدوا عليه، وقد جاء بهم ليأخذ بحقه منهم!

وفى الاستفهام: «أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما» تقريع لهم، وتقطيع لأكبادهم أسى وحسرة على ما كان منهم..

وفى قوله تعالى: «ولم تحيطوا بها علما» — إشارة إلى أنهم لم ينظروا فى آيات الله، ولم يعرضوها على عقولهم، بل واجهوها بالبهت والتكذيب، ورموها بالسخرية والاستهزاء، من قبل أن ينظروا فيها..

وقوله تعالى: «أم ماذا كنتم تعملون» — أى ماذا كان عملكم فى هذه الدنيا، إذا كنتم لم تستعملوا عقولكم، ولم تؤمنوا بى وبرسلى؟ ألِلإنسان عمل آخر غير هذا؟ أم أنكم لستم من عالم الإنسان؟

واختصاص المكذبين بآيات الله، بالحشر، وإن كان الحشر للناس جميعا، هو عرض لهذا القطيع الضال من الإنسانية، فى كل أمة من الأمم، حيث تبدو منهم العبرة لكل معتبر! «ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا»

قوله تعالى:

* «ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون».

لقد وجم القوم، وتبلدت مشاعرهم، وطارت عقولهم، وانعقدت ألسنتهم، فى هذا الموقف الرهيب، الذى وقفوا فيه موقف الحساب بين يدى رب العالمين، فلم ينطقوا بكلمة.. «ووقع القول عليهم بما ظلموا» أى وجب عليهم العقاب، وحق عليهم العذاب، بما كان منهم من ظلم وعدوان على الله، وعلى آيات الله، وعلى رسل الله..

الآيات : (٨٦ — ٩٣)

* « أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

هذه الآية تعقيب على تلك المشاهد ، التى رأى فيها المشركون والذين يكذبون بآيات الله ، ما رأوا من معالم الحق ، وهم على طريقهم إلى الدار الآخرة ، وإلى موقف الحساب والجزاء . . وفى هذا التعقيب نخسة توقظهم من

هذا الحلم المزعج ، وإذا هم مع شركهم الذى أوردهم هذا المورد الوبيل ، وإذا كانوا قد عموا عن كلمات الله التى تعرض عليهم آيات الله ، تسطع هدى ونوراً لمن أراد الهدى والنور .. فهذا الليل الذى جعله الله سكناً لهم ، وهذا النهار الذى جعله الله ضياء يكشف ظلام الليل..أليس فى هذا شاهد يشهد بالحق ، وينطق بوجود إله متفرد بالقيام على هذا الوجود ؟ بلى .. إن فى ذلك لآيات ـلا آية واحدة ـلقوم يؤمنون .. أى قد تهيأت نفوسهم للإيمان .. أما من فسدت فطرتهم ، وعميت بصيرتهم ، فلن تغنى عنهم الآيات شيئا . « وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » (١٠١ : يونس) ..

وفى تخير هذه الآية ـ آية الليل والنهار — من بين الآيات كلها ، وقصر العرض عليها وحدها — لأنها تجمع الآيات المحسوسة والمعقولة ، من جهة ، ولأنها واقع مشترك بين الناس جميعاً .. حيث يحتويهم جميعاً .. الليل والنهار.. من جهة أخرى ..

قوله تعالى:

* « ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله .. وكل أتوه داخرين » .

وفى هذه الآية يُردّ المشركون مرة أخرى إلى الدار الآخرة ، وإلى ما كانوا فيه من هول وفزع ، مستصحبين معهم ما سمعوا لتوّهم من قوله تعالى : « ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً » .. فإذا كانوا قد نسوا ، ما رأوا من مشاهد القيامة التى عرضت عليهم من قبل ، فهذا مشهد من مشاهدها .. وهذه آية من آيات الله ، الدالة على قدرته ، ورحمته ، وحكمته .. فليأخذوا طريقهم إلى الإيمان » ولا يمسكوا بما هم عليه من شرك ، ولا عذر لهم بعد هذا البلاغ المبين ..

والصُّور : هو القرن ، الذى يؤخذ من الحيوان ، ثم يخرق من أعلاه ، وينفخ فيه . .

والنفخ فى الصور يوم القيامة ، هو دعوة الحق سبحانه وتعالى للأموات ، أن يبعثوا من قبورهم . .

— وقوله تعالى . « إلا من شاء الله » هو استثناء لبعض خلق الله من الفزع الذى يستولى على أهل السموات والأرض ، حين يدعو داعى الحق إلى البعث والنشور . . وهؤلاء المستثنون هم عباد الله الذين آمنوا به واستقاموا على طريقه المستقيم . . كما يقول سبحانه فيهم : « لا يَحزنهم الفزع الأكبر » (١٠٣ : الأنبياء) وكما يقول سبحانه فى هذه الآيات : « وهم من فزع يومئذ آمنون » .

— وقوله تعالى : « وكل أتوه داخرين » أى أذلاء ، صاغرين . .

قوله تعالى :

* « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون » .

هو استعراض لبعض مظاهر قدرة الله . وحكمته ، وتدبيره فى خلقه . .

فهذه الجبال التى يراها الرائى فيحسبها هامدة جامدة لا حراك بها ، هى فى الواقع على غير هذا الظاهر الذى يبدو للعين منها . . إنها تتحرك حركة حرة منطلقة ، فى يسر وفى انتظام ، كما يمر السحاب ! . . فما تراه العين منها شىء ، وما هو واقعها شىء آخر . .

وإذن ففى الجبال حقيقة لا تُرى بالعين ، ولا تحسّ بالنظر والمشاهدة . . وتلك الحقيقة أنها متحركة ، وأنها تمر مر السحاب !

وهنا سؤال :

إذا كنا نحن فى هذا العصر نرى بعين العلم أن الجبال تمر مر السحاب ، وأنها متحركة بحركة الأرض ، وأن الذى ينظر إليها من الجو ، يرى أنها تسير كما يسير السحاب فعلا . . فكيف كان مفهوم العرب الذين خوطبوا بهذه الآية ، وهم لم يكونوا قد عرفوا أن الأرض متحركة تدور حول نفسها مرة كل يوم ؟ ألم يكن فى إعلان هذه الحقيقة ما يُدخل اللبس على قلوب المؤمنين ، فوق ما يحرك ألسنة المشركين بالبهت والتكذيب !

والجواب — والله أعلم — أن النظم القرآنى ، قد جاء على صورة تدفع هذا الاحتمال من جانبيه جميعاً !

فأولا : يقرر القرآن صراحة أن الجبال ثابتة فى مرأى العين . . وهذا لا يجادل فيه أحد ، وهذا هو السرّ فى قوله تعالى : « تحسبها جامدة » . . وكما يقول سبحانه : « والجبالَ أرساها » (٣٢ : النازعات) ، وكما يقول جل شأنه : « والجبالَ أوتاداً » (٧ : النبأ) .

وثانياً : إن هذه الجبال الثابتة فى مرأى العين ، هى فى حقيقتها متحركة ، وهذه الحركة حقيقة لا تنكشف إلا بالعلم والبحث ، لأنها قائمة وراء هذا الظاهر . . فمن كان فى استطاعته أن يبحث ويدرس ، فليفعل ، وسيجد مصداق ذلك . . ومن لم يكن عنده هذا الاستعداد ، فهو بين رجلين : مؤمن بالله ، وبآياته ، مصدق بكل ما نزل على الرسول من ربه . . وهذا لا يمارى فى هذه الحقيقة ، ولا يشك فيها ، وإنما هو مؤمن بها ، مسلِّم بما تحدث به القرآن عنها ، ناظراً إلى اليوم الذى يقع له من العلم ما يكشف له عن وجه هذه الحقيقة . ومشرك ، أو كافر بالله ، فهو مكذب بآيات الله كلها . . جليها وخفيها . . فلا يدخل عليه

من هذه الآية إلا ما امتلأ به قلبه من جحود وإنكار . .

وقوله تعالى : « صُنْعَ اللهِ الذى أتقن كلّ شىء » . . « صنعَ الله » منصوب على الإغراء بفعل محذوف تقديره : انظر ، أو تأمل ، أو نحو هذا.

وفى هذا دعوة إلى البحث عن هذه الحقيقة التى أشارت إليها الآية الكريمة من أمر الجبال ، وتحركها مع تحرك الأرض فى دورتها اليومية . . فالذين يؤمنون بالله ، ويصدقون بكلماته ، يستيقنون أن هنا حقيقة كامنة ، تشير إليها الآية الكريمة ، ولا تكشف عن وجهها ، وأن على المؤمن أن يطلب هذه الحقيقة ، وأن يشهد بعض جلال الله منها . .

والمفسرون مجمعون على أن ذلك الذى تحدث عنه الآية فى شأن الجبال ، إنما يقع يوم القيامة ، حين تتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وكما يقول الله تعالى : « وسيرت الجبال فكانت سرابا » (٢٠ : النبأ) .

على أن الذى حملنا على مخالفة هذا الإجماع ، هو ما جاء فى قوله تعالى : « صُنْعَ الله الذى أتقن كل شىء » فإن ذلك إلفات إلى روعة الصنعة وإحكامها ، وهذا لايكون واقعاً فى نظر الإنسان يوم القيامة وهو يرى الجبال وقد تناثرت أشلاء ! .

وإنما يرى ذلك ، وهى قائمة ثابتة ، ثم هى فى نفس الوقت متحركة تدور مع الأرض فى دورانها ، دون أن تسقط وتهوى ! وفى هذا يتجلى إحكام الصنع وإتقانه . .

وهنا سؤال أيضاً وهو : إذا كان ذلك كذلك ، فلم لم تنكشف هذه الحقيقة للمسلمين الأولين ؟ ولِمَ لم يطلبها الصحابة ، ولم يكلفوا أنفسهم البحثَ عنها . وهم أعرف الناس بكتاب الله ، وأقربهم من مواقع الحق فيه ؟

ونقول : إن صحابة رسول الله ــ رضوان الله عليهم ــ كان متعلّقهم بآيات الله ، هو الجانب الروحى منها ، ولم يكن يعنيهم من هذا الوجود

ظواهره ، وإنما كان همهم حقيقته ، ولُبابه ، وما انطوى عليه من علم ، وحكمة ، وتقدير . . إنهم كانوا فى مستوى روحى رفيع ، بحيث يصغر فى أعينهم كل ما هو مادىّ ، وإن بهر العيون ، وخلب الألباب ! وإذن فلا نسأل إذا كان صحابة رسول الله قد اطلعوا على هذه الحقيقة من أمر الجبال أم لم يطلعوا ، لأنها كانت أقل الحقائق التى اطلعوا عليها ، وشُغلوا بها ، من عالم الحق .

ومن جهة أخرى . . فإن من كان يعرف هذه الحقيقة لم يكن يرى من الحكمة التحدثّ بها ، وإذاعتها فى المجتمع ، إذ كانت مما لا تصدّقه العقول يومئذ ، فالحديث به فتنة ، تَشْغَل النـاس ، وتثير دخاناً كثيفاً من الشكوك والريب . . ذلك فى الوقت الذى كانت فيه وجهة الدعوة الإسلامية ، هى محاربة الشرك والإلحاد ، وتوجيه العقول والقلوب إلى وحدانية الإله الواحد ، المتفرد بالخلق والأمر ، رب العالمين . . فـكل ما من شأنه أن يشغل عن هذه الغاية ، هو فى الواقع حركة مضادة لدعوة الإسلام ، وحرب خفية عليها . . ولعلّ هذا هو السر فى أن المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية ، قد خلت تماماً من التعرض للحقائق العلمية ، التى تشغل العقول عن النظر المباشر إلى جلال الله سبحانه وتعالى ، فى صفحة هذا الوجود ، نظراً يملأ القلوب روعة وخشوعاً، ورهبة لهذا الإبداع الذى يتمثل فى كل كائن من تلك الـكائنات المبثوثة فى الأرض أو فى السماء . . فإن زهرة واحدة . . مثلا ، فى جمال ألوانها ، وتناسق أصباغها ، وتماثل أجزائها . . جديرة بأن تفتح للإنسان طريقاً إلى الله ، وإلى الإيمان به ، إيماناً وثيقاً ، مبرّأ من كل شرك ، وشك ! . .

ومن أجل هذا ، لم يَلْقَ القرآن الـكريم أولئك الذين كانوا يريدون أن يدخلوا معه فى ميدان المماحكة والجدل — لم يلقهم محاجاً أو مجادلاً ، بل صرف وجهه عنهم ، ودعاهم إلى أن يلتمسوا الطهر لقلوبهم من داء الشرك

أولا ، فإذا فعلوا ذلك ، كان كل شيء يقع لهم من علم — وإن قل — مباركَ العطاء ، طيب الثمر . . وفى هذا يقول الله تعالى ردًّا على من سألوا هذا السؤال المتعنّت عن الأهلّة : مابالها تبدو صغيرة ، ثم تكبر ، ثم تعود فتصغر ؟ : « قل هى مواقيت للناس والحج » (١٨٩ : البقرة)

ومن أجل هذا أيضاً أمسك كثير من صحابة رسول الله ، بما كشف لهم الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — من أسرار هذا الوجود ، فى العالم الأرضى والسماوى ، لأنها كانت فوق أن يحتملها غيرهم . . ولو أنها ذاعت فى الناس يومئذٍ لكانت فتنة لهم . . وكذلك فعل كثير من أهل العلم ، الذين حلقت أرواحهم فى سماوات عالية ، فرأوا بشفافية أرواحهم مالا يراه غيرهم ، وفى هذا يقول قائلهم :

يا رُبَّ جَوْهرِ علمٍ لو أبوح به ... لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولا ستباح رجال مسلمون دمى ... يرون أكثر ما يأتونه حسنا

قوله تعالى :

* « من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزعٍ يومئذ آمنون * ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تُجْزَوْنَ إلا ما كنتم تعملون » .

فى هاتين الآيتين عرض لمحصول الدعوة الإسلامية فى المجتمع الإنسانى . . فالناس مؤمنون ، أو كافرون . . محسنون ، أو مسيئون .

أما المؤمنون المحسنون ، الذين يعملون الصالحات ، فلهم جزاء ما عملوا ، أضعافاً مضاعفة ، من رحمة الله ورضوانه . . وأما أهل الزيغ والضلال والفساد ، فجزاؤهم جهنم ، حيث يساقون إليها سوقاً عنيفاً ، فيسقطون على وجوههم فى النار . . وهذا جزاء ما كانوا يعملون . .

وفى إفراد الضمير لأهل الإحسان وأهل السوء أولًا ، ثم عوده جمعاً

عليهما ثانياً — فى هذا إشارة إلى أن لكل إنسان حسابه وجزاءه . . فهم — محسنون ومسيئون — محاسبون ، فرداً فرداً . . ثم يلتقى أهل الإحسان بأهل الإحسان ، ويلتقى أهل السوء بأهل السوء . .

قوله تعالى :

* « إنما أمرت أن أعبد ربّ هذه البلدة الذى حرّمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين * وأن أتلو القرآن .. فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذِرين * وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون » .

بهذه الآيات الثلاث تختم سورة النمل ، فيلتقى ختامها مع بدئها . . حيث بدئت بعرض كتاب الله الكريم ، ومافيه من هدى وبشرى للمؤمنين ، ومن خزى ووعيد للمشركين الضالين .

ثم عرضت السورة بعد هذا معارض للدعوة إلى الله على لسان هذا الطائر الضئيل الضعيف « الهدهد » ليُرى فى هذا العرض ما فى الإنسان من سفاهة وحمق ، حين يضل طريقه إلى الله ، فيعبد الشمس والقمر ، ويأبى أن يعبد ربّ الشمس والقمر . . ! ثم تختم السورة بهذا الموقف الذى ينهى به النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه — ما بينه وبين قومه . . إنه قد دعاهم إلى الله ، وبلغهم رسالة ربه ، وأسمعهم آياته ، فليس لهم بعد هذا على الله حجة .. وإنه ـ وهو رسول الله ـ مدعوٌّ مثلهم ، إلى ما يدعوهم إليه من عبادة الله ، والولاء له .. « فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين » لا سلطان لى على أحد ، حتى أحمله به حملا على الإيمان بالله .

وفى قوله تعالى : « رب هذه البلدة الذى حرّمها » إشارة إلى أن هذه البلدة ،

وهى مكة — مَعْلَمٌ من معالم الحق على هذه الأرض ، وأنها أكرم وأعظم مايشار إليه منسوباً إلى الله سبحانه مما على هذه الأرض .. إذ كان فيها أول بيت وُضع للناس .. وإذ هى قبلة كل من يؤمن بالله ، لا قبلة لأهل الإيمان غيرها .. وقد أشار القرآن الكريم إشارة أخرى فى قوله تعالى : «فليعبدوا رب هذا البيت» (٣ : قريش) .

وقوله تعالى : « الذى حرمها » ـ الاسم الموصول يعود إلى ربّ البلدة ، لا البلدة .

وفى قوله تعالى : « وله كل شىء » إضافة لكل موجود فى هذا الوجود إلى الله سبحانه وتعالى .. فكل شىء هو ملك لله ، لا شريك له فيما ملك .

وقد أضاف الله سبحانه ، البلدة (مكة) إلى ربوبيته ، وأضاف الوجود كله إلى ملكه ، وفى هذا تشريف عظيم لهذه البلدة ، ورفع لقدرها ، وأنها مختصة منه سبحانه بمزيد من الفضل والإحسان ، حيث تربى فى نعم الله ، وتستظل بظل ربوبيته .. وإذا كان كل شىء مربوبا لله ، فإن لله سبحانه ما يشاء من اختصاص بالفضل والإحسان .. « والله يختصّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » . (١٠٥ : البقرة)

وقوله تعالى : « وأمرت أن أكون من المسلمين » — إشارة إلى أن الدين الذى يدين به النبى ليس ديناً خاصاً به وحده ، ولا مقصوراً عليه وحده ، وإنما هو دين كل من يؤمن بالله .. فهو واحد من المسلمين ، وإن كان سيدَ المسلمين وإمامَهم ..

وقوله تعالى : « وأن أتلو القرآن » ـ معطوف على قوله تعالى : «وأمرت أن أكون من المسلمين» أى وأمرت أن أتلو القرآن ، على الناس وأبلغهم إياه .. هذه هى رسالتى : « فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين » .. أى لا سلطان لى على أحد ، وإنما أنا نذير لكم بين يدى عذاب

شديد . . فمن استمع لهذا النذير ، وأخذ لنفسه طريق النجاة من عذاب الله ، فقد أدى حق نفسه عليه . . ومن أقام على طريق الضلال حتى يأخذه العذاب فلا يلومن أحداً . . !

قوله تعالى :

* « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون » .

هو لسان الوجود كله ، يسبح بحمد الله . . ينطق به الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وينطق معه كل مخلوق . . فإن لم ينطق به المشركون والكافرون فى هذه الدنيا ، لما ران على قلوبهم من زيغ ، وما غشى على أبصارهم من ضلال ، فإنهم سيحمدون الله سبحانه ، حين ينكشف لهم الغطاء بعد الموت ، ويرون آيات الله ، ويعلمون أنها الحق من ربهم . .

فقوله تعالى : « سيريكم آياته فتعرفونها » — هو جواب عن سؤال يرد على خواطر المشركين والكافرين فى هذه الدنيا ، حيث ينكرون الله ، وينكرون مايُحمد عليه . . فيقولون : من نحمد ؟ وعلام نحمد ؟ فيلقاهم الجواب : « سيريكم آياته فتعرفونها » أى إذا جهلتم الله الآن وأنكرتموه ، وأنكرتم نعمه عليكم ، فإنكم فى الدار الآخرة ، سترون آياته ، وترون الحق الذى جهلتموه ، ويومئذ تعرفون قدر الله ، وجلاله ، وعظمته ، وما أفاض عليكم من نعم ، فلا تملكون غير الحمد لله رب العالمين ..

وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وقُضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » (٧٥ : الزمر)

وفى قوله تعالى : « سيريكم آياته فتعرفونها » وعيد لهؤلاء الضالين ، يوم ينكشف لهم وجه الحق ويرون ما كانوا فيه من ضلال وعمًى .. ومن تلك الآيات

التي سيرونها ، ويعرفونها ويتلقون منها الحق الذى أنكروه ـ هذه الدابة التى تكلمهم عند موتهم .

وقوله تعالى : « وما ربّك بغافلٍ عما تعملون » وعيد بعد وعيد المشركين والضالّين ، وأن ما عملوا من سوء هو مسجّل عليهم ، فى علم الله ، وسيحاسبون عليه . . فليس ما يعملونه بغائب على الله ، وليس الله سبحانه وتعالى بغافلٍ عنهم . . بل سيأخذهم بما كسبوا . ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .



٢٨ - سورة القصص

نزولها : مكية ، باتفاق .

عدد آياتها : ثمان وثمانون . . بلا خلاف .

عدد كلماتها : ألف وأربعمائة ، وواحدة .

عدد حروفها : خمسة آلاف ، وثمانمائة حرف .

مناسبة السورة لما قبلها

جاء فى سورة الشعراء ، ثم فى سورة النمل ، السابقتين على هذه السورة — حديث موجز عن موسى وفرعون . .

فقد جاء فى « الشعراء » قول فرعون لموسى : « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ » (١٨ — ١٩ : الشعراء)

وجاء فى هذه السورة - القصص - بيان مفصّل لهذه الفترة من حياة موسى ، تحدّثت عن مولده ، وإلقائه فى اليم ، والتقاط آل فرعون له ، ونشأته فى بيت فرعون تبنّى له . . ثم قتله المصرى ، ثم فراره إلى مدين . . وهذه الأحداث كلّها قد طويت طيًّا فى الآيتين السابقتين من (سورة الشعراء)

وجاء فى سورة (النمل) : « إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » (٧)

ولم يذكر فيها مَن هم أهله ؟ ومن أين جاءوا ؟ وما وجهتهم معه ؟ .

فجاء فى سورة (القصص) . . فرار موسى إلى أرض مدين ، ولقاؤه شعيبا ، وتزوّجه بإحدى ابنتيه اللتين لقيهما على ماء مدين ، وسقى لهما . . . كما سنرى ذلك مفصلًا فى هذه السورة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٨)

* « طسٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٧) فَٱلْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) »

التفسير

* « طسم » مبتدأ ، وخبره « تلك آيات الكتاب المبين . » . فهذه الآيات البينة التى ضم عليها هذا الكتاب المبين ، هى هدى ورحمة للمؤمنين ، يرون فيها ، وعلى أضوائها ، وجهَ الحق ، فتتجه عقولهم إليه ، وتتفتح قلوبهم له . . أما من ختم الله على قلوبهم وسمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة من أهل الشقوة ـ فإن آيات الله البينة الواضحة ، تستغلق عليهم ، فلا تقع فى آذانهم ، ولا تمر على

عقولهم وقلوبهم إلا كما تمر هذه الحروف « طسم » وأمثالها ، مما هو أصوات ، لا ينتظم منها معنى ، إلا عند الراسخين في العلم .

قوله تعالى :

* « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » .

أى من آيات هذا الكتاب المبين ، نتلو عليك هذه الأنباء ، مما كان بين موسى وفرعون ، مُنَزَّلةً من عالم الحق ، بالحق . . « لقوم يؤمنون » أى مستعدون بفطرتهم للإيمان ، متقبلون للحق ، إذا بانت لهم دلائله ، ووضحت لهم سبيله .

— وفى قوله تعالى : « نتلو عليك » بإسناد الفعل إلى الله سبحانه وتعالى ، مع أن الذى يتلو هذه الآيات على النبي ، هو جبريل — فى هذا تكريم للنبى ، وإدناء له من ربه ، الذى يتلو عليه هذه الآيات . .

قوله تعالى :

* « إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين » .

هو ابتداء بما يُتلى من نبأ موسى وفرعون .

وقد بدىء بالحديث عن فرعون ، فكشف عن شخصه الذى يكشف عن إنسان يلبس ثوب الجبروت والطغيان . . فقد علا فى الأرض ، وجعل الناس شيعا ، وهم أمة واحدة ، من طينة واحدة . . فهو بعلوّه واستكباره قد انعزل عن الناس ، فكان رأساً ، وكان الناس جميعاً أرجُلا ! ! كان سيداً ، وأصبح الناس كلهم فى سلطانه عبيداً . . كان إلٰها ، وصار الناس له مألوهين . . ثم إنه بعمله هذا قد صنف الناس أصنافاً ، ورتبهم طبقات . . وبذلك تسلطت

كل طبقـة على من هى تحتها . . وبذلك أغرى الناس بالناس ، وشغل بعضهم ببعض ! .

وقوله تعالى : « يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم » المراد بالطائفة هنا هم بنو إسرائيل . . وإذا كان فرعون قد استضعف الناس جميعاً ممن هم تحت سلطانه ، فإنه بالغ فى استضعاف هذه الجماعة ، وأخذها بالبأساء والضراء . . فهو يذبح أبنـاءهم ، حتى يقطع نسلهم ، ويستحيي نـساءهم ، أى يمتهنهن ، ويفضح سترهن ، فلا يرعى لهن حرمة ، ولا يُبقى لهن على حياء ! .

— وقوله تعـالى : « إنه كان من المفسدين » — هو الوصف الجامع لمساوىء فرعون — إنه لا يفعل إلا ما كان من واردات الفساد . . فهو كيان فاسد ، لا يصدر عنه إلا ماهو فاسد . .

قوله تعالى :

* « ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمـــة ونجعلهم الوارثين * ونمـكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

هو معطوف على إرادة لفرعون ، التى كان يقصد إليها من وراء هـذا الإذلال للناس ، وما يأخذهم به من ذبح الأبناء ، واستحياء النساء ، وهو التمـكين لسلطانه ، وازدياد هذا السلطان علوا ، بازدياد الناس من تحته نزولا وانحداراً . . فهو يريد هذا ، والله سبحانه يريد أن يمن على هؤلاء المستضعفين . . وإرادة الله هى الغالبة . .

وهذا هو بعض السر فى قوله تعالى : « ونريد » يتعلق الفعل بالمستقبل ،

مع أن إرادة الله قديمة أزلية . . ولكنها هنا إرادة خالقة ، قد جاء أوان إمضائها على الوجه الذى أراده سبحانه .. إنها تصدم إرادة فرعون الذى يريد بها إذلال تلك الجماعة ، والله يريد خلاصها من يده ، والمنّ عليها بالتحرر من هذا الأسر .

والمنّ : التفضل والإحسان ابتداء من غير مقابل . .

والأئمة : القادة ، الذين يكونون أمام غيرهم . .

— وقوله تعالى . « ونمكن لهم فى الأرض » أى نثبت لهم مكانا فيها .

— وقوله تعالى . « ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » — أى نفسد على فرعون تدبيره ، ونبطل كيده ، فيما قصد إليه من وراء بغيه وعدوانه . . فمن هذه الجهة التى كان يعمل على القضاء عليها ، خوفا على سلطانه — من هذه الجهة سيطلع عليه ما يذهب بسلطانه ، ويقضى عليه هو ومن معه . ! حتى لكأنما يريد إهلاك نفسه عمداً ! .

و « هامان » هو اليد العاملة لفرعون ، فيما يشاء . . وقد يكون وزيراً لفرعون ، أو مستشاراً له ، أو كبير جنده . . وهو الذى دعاه فرعون إلى أن يبنى له صرحاً يطلع منه إلى إله موسى . .

وفى هذا يقول الله تعالى : « وقال فرعون .. ياهامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى » « ٣٦ — ٣٧ : غافر »

قوله تعالى :

* « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » .

فى هذه الآية والآيات التى بعدها، يكشف الله سبحانه وتعالى عن الأسباب التى يقيمها سبحانه ، لتمضى بها إرادته ، وتتحقق مشيئته . .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى فى غنًى عن هـذه الأسباب التى تتصل بالمسببات ، حيث يقول للشيء « كن » فيكون ـ فإنه سبحانه ، يرينا بهذا التدبير أن هناك أسباباً يتوسل بها إلى المسببات ، وأن علينا أن نأخذ كل أمر بأسبابه التى تقع فى حسابنا وتقديرنا . .

وأول سبب من تلك الأسباب التى تقع بها إرادة الله فى فرعون ، هو ميلاد موسى ، الذى سيكون على يده هلاك فرعون . ! فهذا هو السبب الأول الذى ستدور عليه الأسباب المؤدية إلى هلاك فرعون ! .

وحين ولد موسى ، كان فرعون يُمضى حكمه فى أبناء بنى إسرائيل ، فيترصد جنوده لـكل مولود ذكر ليذبحوه . .

وقد أوحى الله سبحانه إلى أم موسى أن تمسك وليدها ، وأن ترضعه ، أى تتولى إرضاعه من لبنها ، لا أن تدعه لمرضع غيرها ، وذلك لأمر سيتضح فيما بعد ، حين يقع الوليد فى يد امرأة فرعون ، فتلتمس له المراضع ، فلا يقبل غير الثدى الذى رضع منه ، أول رضعات ، وهو ثدى أمه . . وبذلك يجتمع الوليد وأمه ، لتمضى الأسباب إلى غاياتها . .

وقد يكون الوحى المشار إليه هنا ، هو إلهام من الله سبحانه وتعالى ، فوقع فى تفـكير أم موسى أن تصنع هذا الصنيع . وأن تحتال هذه الحيلة ، وأن تغامر تلك المغامرة ، فهى على ما بها من خطر يتهدد الوليد ، فإنها فراراً بهذا الوليد من هلاك محقق ، تدبر له هذا التدبير . . وقد ينجو الوليد وقد يهلك بهذا التدبير الذى دبرته ، فإن نجا ، فهذا ما ترجوه ، وإن هلك فموته غرقا بعيداً عنها ، أهون عليهامن أن يذبح بين يديها ! .

— وقوله تعالى : « فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم » — أى أمسكيه عندك ، وأرضعيه ، حتى إذا استشعرت خوفاً من فرعون أن يصل إليه فألقيه فى اليم » أى النهر ، وهو نهر النيل . .

— وقوله تعالى : « ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » تطمين لأم الوليد ، وتسكين لمخاوفها التى تطل عليها من إلقائه فى اليم . . فهى إذ تستمع إلى هذا الوعد من رب العالمين ، تدفع بابنها إلى اليم ، فى غير تردد ، هذا إذا كان الأمر وحياً مباشراً ، أما إذا كان إلهاماً ، فتكون هذه الأوامر الموجهة إليها ، خواطر قد جرت فى تفكيرها ، ثم ألزمت نفسها بها ، وأقامت أمرها عليها .. فكأنها أوامر صادرة إليها من جهة عليا ، لا تستطيع لها خلافاً . إنها القدر الذى يسير الإنسان ، ويحدد خطواته ، ويقيم وجهه على هذا الأمر أو ذاك . . وقد هداها إيمانها بالله إلى هذا الاطمئنان .

قوله تعالى :

* « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » .

وتتحرك الأسباب إلى غايتها ، خطوة خطوة .. فهذا موسى « الوليد » ينتقل من يد أمه إلى صدر النهر ، ثم ينتقل من صدر النهر إلى بيت فرعون .. وهكذا يمضى القدر فى طريقه ، لا يدرى الناس من أمره شيئاً ، حتى ليربِّى فرعونُ فى حجره ، العدوَّ الذى كان يطلبه ! وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ليكون لهم عدواً وحزنا » . فهو لم يُلتقط حين التُقط ليكون لفرعون عدوا وحزنا ، وإنما التقطه آل فرعون ليكون لهم قرة عين ، كما تقول امرأة فرعون : « لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون » ولكنّ للقدر طريقاً غير هذا الطريق . . لقد

أراد فرعون أمراً، وأراد الله أمراً، ولا مرد لما أراد الله..

—وقوله تعالى: «إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين».. يجوز أن يكون وصفهم بالخاطئين، من الخطأ وهو ضد الصواب.. بمعنى أنهم كانوا فى جهل وعمى عما ينكشف عن هذا الأمر الذى فعلوه بأيديهم.. وفى هذا ما يكذب ادعاء فرعون الألوهية، ويكشف زيف هذا الادعاء.. فلو أنه كان إلها، لما اختار من بين المواليد كلها هذا الوليد الذى يكون على يديه هلاكه، وموته على تلك الميتة الشنعاء! وإما أن يكون هذا الوصف من الخطء والخطيئة — ويكون هذا الوصف تعليلا لما أخذهم الله به من هذا التدبير الذى يوردهم موارد الهلاك.

الآيات: (٩ — ١٤)

* «وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٤)»

التفسير

قوله تعالى :

« وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك . . لا تقتلوه . . عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون » .

وتتحرك أحداث القدر إلى غاياتها ، وها هو ذا الوليد بين يدى فرعون . . إنه الوليد الذى يطلبه ذِبحاً ممن يذبح من أبناء إسرائيل . . فالطفل إسرائيلى بلا ريب . . إذ ما من أم تلقى بابنها فى اليم ، إلا أن تكون من الإسرائيليات ، فراراً به من موت محقق إلى موت محتمل . . إذ ربما يلتقطه رجل أو امرأة ممن لا يعنيهم أمر فرعون ، من الصيادين ، أو الفلاحين ، فيجد الطفل من يربّيه ابناً ، أو عبداً ! ! هكذا كانت نظرة فرعون والملأ حوله إلى هذا الوليد . . إنه إسرائيلى . . وإذن فليذبح كما ذبح ويذبح أبناء جنسه . . ولكن القدر يحرك سبباً ، فيفسد على فرعون وملائه هذا الرأى ، حيث تتطلع امرأة فرعون إلى الوليد — وكانت غير ولود — فتتحرك فيها غريزة الأمومة ، وتصرخ فى أعماقها عواطف الأم نحو هذا الطفل ، وإذا هو لعينيها الطفل الذى ولدته ، لساعتها فتتشبث به ، وتصرخ فى الأيدى الممتدة لذبحه : ـ

ولدى ! ! كبدى وقرة عينى ! ! « لا تقتلوه » .

وترتفع الأيدى عن مهد الوليد ، ويتطلع فرعون إلى امرأته عجِباً دهِشاً . . ! ولا تمهله حتى ينطق بالأمر القاطع فى هذا الوليد . . فتلقاه متوددة متعطفة ، مسترحمة لنفسها ـ وقد حرمت الولد ـ أن يدع لها فرعون هذا الولد ، من بين آلاف الأولاد الذين أراق دماءهم ، وأزهق أرواحهم . . وإن ولداً واحداً ، لا يقدم ولا يؤخر فى الأمر الذى يتغياه فرعون ، من قتل هؤلاء الأطفال —

فتقول لفرعون فى تودد وتلطف واسترحام : «عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا» ! وتقع هذه الكلمات من قلب فرعون موقعاً ، فيجيب امرأته إلى ما طلبت ، ويترك لها الوليد ، تترضى به أنوثتها ، وتشبع به جوع أمومتها !

— وقوله تعالى : « وهم لا يشعرون » جملة حالية ، من فاعل فعل محذوف ، دل عليه سياق الكلام . . والتقدير . . تركوا الوليد ، واستقنوه من الذبح ، وهم لا يشعرون بما سيأتيهم من هذا الوليد ، مما كانوا يحذرون . .

قوله تعالى :

* « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » .

فى الآية لفتة جانبية إلى أم موسى ، وإلى ما تعانى من آلام نفسية ، بعد أن ألقت بوليدها فى اليم .. وفى هذه اللفتة تتصل خيوط الأحداث التى ينسج منها القدر هذا الحدث الكبير ، الذى سيولد بعد قليل .. وأم موسى لها دورهام فى الأحداث المقبلة . . سينكشف فيما بعد !

— وفى قوله تعالى : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً » ـ إشارة إلى ما ترك ضياع الولد من يدها ، من فراغ كبير ، فى مشاعرها،وأحاسيسها .. فلقد تعطلت بذهابه عنها كل العواطف التى تغذى بها الأم طفلها ، من سهر عليه ، ومناغاة له ، واشتغال به فى نومه ، ويقظته ، وفى بكائه ، وصمته ، وفى حركته وسكونه . إن جوارحها كلها التى ترصـــدها الأم لطفلها ، قد أصبحت أدوات معطلة لا تعمل ، وهذابدوره قد جعل قلبها ـ وهو مركز العواطف والمشاعر ـ كياناً فارغاً ، لا يستقبل من الطفل ما يصل الأم به ، من مشاعر وعواطف ، إلا تلك العواطف السلبية .. من قلق ، وأسىً ، ولوعة .. وهذا هو السر فى هذا التعبير

المعجز : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً » ! . .

— وفى قوله تعالى : « أم موسى » ـ إشارة إلى أن هذا الوليد ، قد أصبح — فى رعاية الله ، وفى ضمان وعده بحفظه — قد أصبح ذا وجود معترف به فى هذا المحيط الذى ضاعت فيه معالم الأطفال ، وأهدرت فيه دماؤهم . . إنه الآن شخصية معروفة ، وعلم ظاهر ، يأخذ مكانه فى هذه الأحداث ، تماماً كما يأخذ فرعون مكانه فيها . .

— وقوله تعالى : « إن كادت لتُبدى به » . . أى أنها ـ وقد فرغ قلبها من هذا المهد الذى كان لوليدها فى سويداء القلب ـ أوشكت أن تصرخ وتندب هذا الوليد ، وتنادى فى الناس : إن هذا الطفل الذى وجد ملقى فى اليمّ والذى التقطه آل فرعون هو وليدها . . وإنها لتود أن تلقى عليه ولو نظرةً واحدة ، قبل أن يصير إلى هذا المصير المجهول !

— وقوله تعالى : « لولا أن ربطنا على قلبها » ـ أى أمسكنا على قلبها ما فيه من نوازع تريد الانطلاق إلى الكشف عن وجه الوليد ، وفضح أمره . .

— وقوله تعالى : « لتكون من المؤمنين » ـ تعليل لهذا الربط الذى ربط الله سبحانه ، به على قلبها ، وهو أنها بعد أن تتكشف لها الأمور ، ستعلم أن ما وعدها الله حقٌّ ، وبهذا يتأكد إيمانها بالله ، ويقوى يقينها به وفى هذا إشارة إلى أن ما يبتلى به المؤمنون الصابرون من أرزاء ومحن ، هو تثبيت لإيمانهم ، وترسيخ لقواعد هذا الإيمان فى قلوبهم ، حيث ينكشف لهم وراء كل رزء ، وعقب كل محنة ، أن ذلك لم يكن إلا عن تدبير الحكيم العليم، وأنهم لو استقبلوا من أمورهم ما استدبروا ، لما أقاموها إلا على هذا الوجه الذى أقامه الله ربّ العالمين ، وبهذا ينتقلون من حال القلق ، والجزع فى مواجهة المصائب والمحن ، إلى حال التسليم ، والرضا . . وهذا هو الإيمان فى أرفع مقاماته ، وأعلى منازله . .

قوله تعالى :

* « وقالت لأخته قُصّيه . . فبصُرَت به عن جُنُبٍ وهم لا يشعرون » .

وبدلاً من أن كانت أم موسى على وشك أن تطرق باب فرعون ، وتستصرخ هناك ، فإنها ـ وقد ربط الله على قلبها ـ قد رجعت إلى صوابها ، وأخذت تنظر إلى الأمور بعين الحكمة والروية ، فطلبت إلى ابنتها أن تتحسس أخباره من بعيد ، وأن تتسمع ما يتحدث به المتحدثون من حاشية فرعون من أمر هذا الوليد الذى التقطوه . . ما شأنه ؟ وماذا حَل به ؟ وهل هو حىّ أم ميت ؟ .. وتسللت الأخت فى خفّة ولطف ، تحوم حول بيت فرعون ، ولا تُلمّ به ، وتلتقط الأخبار المتساقطة من أفواه القوم ، ولا تستخبرهم عنها . . حتى لا يفتضح أمرها ، وأمر الوليد معها . .

ــ وفى قوله تعالى : « فبصُرت به عن جُنُبٍ وهم لا يَشعرون » ـ إعجاز من من إعجاز النظم القرآنى ، الذى تُشَخّص فيه الكلمة ألطف المعانى وأرقها ، فإذا شعاعات هذا النور ، كيان شاخص ، يمسك باليد ، ويُصَوّر بالعين ! .

ففى كلمة « بَصُرت » نرى أن قلب تلك الأخت كان أمام عينيها ، فلم تبحث عن أخيها ، بعينيها ، ولم تتسمع أخباره بأذنيها ، وإنما كانت كيانًا من الحذر والحَيْطة ، بحيث تقرأ الحركات والإشارات ، وتتأول الرموز والألغاز .. فالبَصَر هنا ، بَصَرُ علم ، أقرب مايكون إلى الإلهام .. كما يقول سبحانه وتعالى : « قال فما خطبك ياسامِرىّ .. قال بَصُرْتُ بما لم يَبْصروا به » (٩٤ ـ ٩٦ طه)

وفى كلمة : « عن جُنبٍ » ـ إشارة إلى الموقف الذى كانت تأخذه هذه الأخت من موقع الحدث .. إنها لم تكن تلقى الأمر لقاء مواجهًا ، وإنما كانت تلقاه عَرَضًا ، كأنه من غير قصد ! وفى قوله : « وهم لا يشعرون » تصفية هذا الموقف ، الحاذر ، المجانب ، من أن يدخل عليه ما يدخل على موقف كثير من

الحاذرين الجانيين من أخطاء ، لا يلتفتون إليها ، ولا يعملون حساباً لها ، فتكون سبباً فى كشف أمرهم ، وفَضْح سترهم . . !

فانظر إلى هذه الـكلمات النابضة بهذه الأسرار التى لاتنتهى .. إنها كلمات الله . . وكفى !

قوله تعالى :

* « وحرّمنا عليه المراضِـعَ من قبلُ فقالت هل أدلّكم على أهل بيتٍ يكفُلونه لـكم وهم له ناصحون » ؟ .

وتتحرك الأحداث مرة أخرى إلى « الوليد » وقد أصبح فى آل فرعون ، تُلْتمَس له المراضع ، ويعرضن عليه واحدة واحدة ، فلا يقبل ثدياً منهن ! ! وكيف ؟ .

لقد كان من تدبير الله سبحانه وتعالى أن ألهم أمه أن ترضعه من ثديها ، كما يقول سبحانه : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه » . . وبهذا التدبير أَلِف الوليد ثدى أمه ، وألف اللبن الذى رضعه من هذا الثدى . . فلما عُرض عليه ثدى غير الذى رضع منه ، ردّه ، وأبى أن يطعم من لبنه . . وهذا أمر طبيعى ، فـكثير من الأطفال لا يتحولون عن الثدى الذى رضعوا منه الرضعات الأولى . . وهنا يبدو تأبِّى الوليد على المراضع ، أمراً جارياً على المألوف .. وهنا أيضاً تلتمس له المراضع ، فى صور وأشكال شتى . . إنه ابن فرعون . . وإن الدولة كلّها فى خدمته . . فيـكثر لذلك البحث عن المرضع ، التى يستجيب لها ويقبل عليها ، وتعمل أجهزة الدولة كلها لتحقيق هذا الأمر . وعندئذ لا ترى أخت موسى بأساً من أن تعرض ما عندها من بضاعة لعلها تروق لأعين القوم ، ولعلها تحقق لهم ما يريدون . . « هل أدلـكم على أهل بيت يكفلونه لـكم . . وهم له ناصحون » « ولا يتردد القوم فى قبول هـذا العرض . . ويتم اللقـاء بين موسى وأمه ،

ويُعرض عليه ثديها ، فيقبله . . وتصبح الأم فى حاشيته فرعون ، مرضعاً لهذا الوليد . .

وفى قوله تعالى : « وَحَرَّمنا عليه المراضع » ـ إشارة إلى امتناع الطفل عن الرضاعة من مرضع غير أمه . . وفى التعبير عن هذا بالتحريم ، تأكيد لهذا الامتناع ، كما يمتنع المؤمن عن تناول ما حرم الله . .

وفى قوله تعالى : « من قبلُ » إشارة إلى هذا التدبير الذى كان من إلهام الله سبحانه وتعالى أمَّ موسى ، بإرضاعَ وليدها . . فهو بهذه الرضاعة قد عاف كل ابن غير ابن أمه . .

قوله تعالى :

* « فرددناه إلى أمه تقرَّ عينُها ولا تحزَن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

وتنتهى الأحداث بهذا إلى موقف من مواقف الحدث الكبير . . فيعود الطفل إلى أمه ، ويتحقق ما وعدها الله سبحانه وتعالى به قوله : « إنا رَادّوه إليك » وبهذا تعلم أن وعد الله حق . . وكثير من الناس لا يعلمون هذا ، ولا يقدرون الله حق قدره . .

قوله تعالى :

* « ولما بَلَغَ أَشُدَّه واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين » .

وهذا تحقيق للجانب الآخر من وعد الله ، وهو قوله تعالى : « وجاعلوه من المرسلين » وإذا كان هذا الموعد لم يكن قد تحقق ، والأحداث لا تزال جارية إلى غاياتها ، فإنه قد تحقق ، بعد أن بلغت الأحداث الغاية المنطلقة إليها ، كما يعلم ذلك من عاصروا نضج الأحداث ، كما علمها من جاء بعدهم . .

وفى قوله تعالى : « واستوى » إشارة إلى الحال التى كان عليها موسى وهو يتلقى رسالة ربه . وهو أنه لم يتناول هذه الرسالة إلا بعد أن صار رجلاً كاملاً ، وذلك فى حدود الأربعين سنة من عمره ، وحيث يستكمل فيها الإنسان كل أسباب الرجولة ، فى جسده ، وفى عقله ، كما يقول تعالى : « حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة » (١٥ : الأحقاف) .

وقوله تعالى : « آتيناه حكماً وعلماً » والحكم : السلطان ، سواء أكان روحيًّا أو ماديًّا ، وقد كان لموسى ، السلطان الروحىّ والمادىّ معاً على بنى إسرائيل.. « والعلم » هو ما مع هذا السلطان من علم من الله سبحانه وتعالى ، فبهذا العلم الذى قام إلى جانب هذا السلطان ، كمل الأمر ، وتمت النعمة . .

الآيات : (١٥ — ٢١)

« وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَٱسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا

ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ (٢١) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان .. إنه عدو مضل مبين » .

هنا تنقلنا الآيات نقلة بعيدة ، بين موسى وقد احتواه صدر أمه مرة أخرى بعد أن ضُمّ إلى بيت فرعون ، وبين موسى وقد أصبح رجلاً مكتمل الرجولة ، يأخذ مكانه بين الرجال . .

وقد تركتْنا الآيات السابقة مع وعد من الله سبحانه وتعالى ، قد حققه لموسى ، بعد أن بلغ أشدّه واستوى . . ولكن الإخبار بتحقيق هذا الوعد ، كان أشبه بختام القصة ، وإذا بنا هنا نجده خيطاً مشدوداً من خيوط هذه القصة ، قد طويت له الأحداث ليبرز فى هذا الموقف الذى رأينا فيه موسى ، الطفل ، وقد عاد إلى أمه بعد أن ألقت به فى اليمّ ، ولكنّا لا نراه يعود إليها وحده ، وإنما يعود ملففاً برداء هذا الوعد الكريم ، الذى وُعدت به أمه من الله سبحانه وتعالى ، فى قوله جل شأنه : « إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين » . . وها هو ذا يعود إلى أمه وهو يحمل فى كيانه ، الحكم والعلم . .

قلنا إن أحداثاً كثيرة طويت ، منذ التقى الطفل بأمه إلى أن رأيناه هنا يدخل المدينة ، ثم يدخل فى صراع ينتهى بقتل إنسان !

وما أغرب تصاريف القدر . . ينجو موسى من القتل . . ثم ها هو ذا يمد يده بالقتل !

ومن يدرى ؟ فلعل هذا القتيل كان هو الذى انتشل موسى من اليم ! !

قوله تعالى : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » . . اختلف المفسرون فى هذه المدينة ، ما هى بين مدن مصر القديمة ؟ على أن هذا الخلاف لا يعنينا ، وحسبنا أنها مدينة فرعونية ، وفى تعريفها ، إشارة إلى أنها مدينة المدنِ ، أى العاصمة . .

أما كيفِ دخلها موسى . . وهل كان خارجها حتى يدخلها ؟ وإذن فأين كان ؟ هل كان قد ترك فرعون ، وعاش بعيداً عن عاصمة ملكه ؟ قد يكون ! كما قد يحتمل أن فرعون كان يعيش فى قصره ، بعيداً عن المدينة ، منعزلاً به عن عامة الناس !

وعلى أىٍّ فإن « موسى » قد دخل المدينة دخولَ مَن كان بعيداً عنها فترة من الزمن . .

وهنا سؤال : لماذا يدخل موسى المدينة فى غفلة من أهلها ؟ هل كان هناك ما يحول بينه وبين دخولها ؟ وهل كان مطلوباً لفرعون أو غيره لجناية جناها ؟

يذهب المفسرون فى هذا مذاهب شتى ، ويلقون بكل ما يمكن أن يفترضه العقل فى طلب علة لهذا الدخول المتخفى ، تحت غفلة الأعين عنه . .

والرأى عندنا — والله أعلم — أن المراد بغفلة أهل المدينة ، هو غفلتهم عن موسى ، وعن أنه الابن المتبنى لفرعون . . ولعله كان متخفياً ليدارى صفته تلك ، حتى لا يلفت إليه الأنظار ، التى تتعلق دائماً ، بالسلطان ، وبحاشية السلطان !

وفى أثناء سير موسى فى المدينة ، وجد فيها رجلين يقتتلان . . أحدهما إسرائيلى « من شيعته » والآخر مصرى « من عدوه » . . إذ لا شك أن موسى كان يعرف أنه إسرائيلى ، كما لا شك فى أنه كان يعرف الإسرائيليين ، بسماتهم وبزيهم الذى فرضه فرعون عليهم . .

وقد استثار موسى هذا المشهد الذى كان بين المصرى والإسرائيلى . . فالإسرائيلى كان تحت يد قاهرة ، لعلها كانت يد أحد أصحاب السلطان ، التى تلهبه بالسياط . . ولم يطق موسى صبراً على هذا الذى يراه بعينيه ، من إنسان يضرب إنساناً فى غير مبالاة . . فدخل بين الرجلين ، ليدفع عن الإسرائيلى هذه اليد التى تسومه سوء العذاب . . وطبيعى أن يتصدى المصرى لموسى ، وأن يعدّ ذلك فضولا منه بالتدخل فيما لا يعنيه . . فكان بين الرجلين ـ موسى والمصرى ـ شدٌّ وجذب ، بل ربما مد المصرى يده إلى موسى ، « فوكزه موسى » أى دفعه بقبضة يده ـ وهو لا يريد قتله ـ وإذا الرجل يسقط على الأرض ميتا ! ! ويتحرك موسى سريعاً ، ويخلص بنفسه ، دون أن يعرف أحد مَن جنى هذه الجناية

ويرجع موسى على نفسه ، يلومها أن قتل نفساً بغير نفس ، ويرى أن ما فعله لم يكن إلا عملا ما كان له أن يفعله . . إنه «من عمل الشيطان .. إنه عدو مضل مبين » .. ولا يجد موسى غير الله ، يبرأ إليه من نفسه ، ويطلب الغفران مما جنت يداه . .

* « قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى ، فغفر له . . إنه هو الغفور الرحيم » إنه وإن يكن قتلٌ « خطأ » ، فهو على كل حال ذنب ، وذنب عظيم فى حق من هو مرشح للنبوة . . ولكن مغفرة الله فوق كل ذنب وإن عظم ، لمن تاب ، وأخلص التوبة وطلب المغفرة : « ومن يعمل سوءاً أو يظلم

نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما » (١١٠ : النساء)

قوله تعالى :

* « قال رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين »

يرى المفسرون أن النعمة التى يشير إليها موسى ، والتى يرتب عليها هذا العهد الذى قطعه على نفسه ، هو قبول توبته ، ومغفرة ذنبه . . وهذا بعيد . . لأن موسى لم يكن قد أوحى إليه بعد . . فمن أين يعلم أن الله قد غفر له ؟

ولعل الأولى من هذا ، أن يقال إن النعمة التى يشير إليها موسى ، هى ما وجده فى نفسه من هذه القوة الجسدية ، التى استطاع بها أن يقتل رجلا بدفعة يده . . فهو بهذه النعمة التى أنعم الله بها عليه يملك قوة خارقة، وإنه ينبغى ـ لكى يرعى هذه النعمة ، ويؤدى حق شكرها لله ـ ألا يستخدمها إلا فى الخير ، وألا يظاهر بها الأشرار المعتدين ، وهذا ما يشير إليه قوله : « فلن أكون ظهيراً للمجرمين » !

هذا ، وفى مجريات الأحداث إلى غايتها التى ستنتهى إليها ، نرى أن قتل المصرى هنا ، هو قوة دافعة إلى تلك الغاية ، وأنها ستدفع بموسى للخروج من مصر إلى أرض مدين ، حيث يقضى هناك عشر سنين أو نحوها ، فى كنف نبى كريم من أنبياء الله ، هو شعيب عليه السلام ، فتكون تلك السنون إعداداً روحياً له ، حتى يؤهل لحمل الرسالة السماوية التى تنتظره !

قوله تعالى :

* « فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب . . فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه . . قال له موسى . . إنك لغوى مبين » .

خرج موسى يسير فى طرقات المدينة ، يتحسس أخبار الفعلة التى فعلها بالأمس ، ويتسمع حديث الناس عنها ، وعمن فعلها ، وذلك ليستوثق أنه غير مطالب بما حدث . . وتلك غريزة تدفع بمرتكب الجريمة أن يحوم حولها ، كما يقرر ذلك علماء الإجرام .. وإلا فماذا كان يحمل موسى على البقاء فى المدينة ؟ ألاَ يخرج منها كما دخل إليها ، دون أن يشعر به أحد ؟ .

— وقوله تعالى : « خائفاً يترقب » ـ تصوير لما كان يلبس موسى من خوف واضطراب . .

— وفى قوله تعالى : « يترقب » ـ إشارة إلى أنه كان يتطلع إلى وجوه الناس ، ويستقرىء ما قد تكون تركت عليها الحادثة من آثار ! .

ومع هذا الهمّ الذى يعالجه موسى ، تفجؤه الأحداث بما لم يكن يقع فى الحسبان . . لقد رأى الإسرائيلى ، الذى حمله هذا الوِزر ، وساقه إلى هذا الموقف ـ رآه فى حال كتلك الحال التى رآه عليها بالأمس . . رآه مشتبكا مع مصرى فى صراع غير متكافىء .. ثم ما إن رأى الإسرائيلى موسى حتى علا صراخه ، طالباً الغوث والنجدة . . « فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه » أى يستغيث به . . وينظر موسى إلى الإسرائيلى بعين المغيظ المحنق ، ويتمثل فيه الشيطان الذى رأى أنه هو الذى أوقعه فيما وقع فيه بالأمس ، وقال عنه : « إنه من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين » وهنا يلقى الإسرائيلى بقوله : « إنك لغوى مبين » .. وهكذا يضع القدر بين يدى موسى صورة مصغرة لما سيكون بينه وبين بنى إسرائيل ، تنعكس على مرآة ما كان بينه وبين هذا الإسرائيلى . .

لقد خلّص موسى « الإسرائيلى » من يد القوة الباغية التى كان يئن تحت ضرباتها .. ثم ها هوذا الإسرائيلى ، يلتحم من جديد فى معركة ، ويريد أن يدفع موسى إلى مثل مادفعه إليه بالأمس ، فيقتل مصرياً آخر كما قتل مصرياً بالأمس ..

ثم بعد سنوات سيخلّص موسى بنى إسرائيل جميعاً من يد فرعون ، ويخلع عنهم ثوب الذّلة والهوان الذى ألبسهم إياه فرعون . . ولـكنهم لا يكادون يخرجون من هذا البلاء، وينسمون أنسام العافية ، حتى يدبروا ظهورهم إلى موسى، وحتى يرجموه بكل ما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر ، فيرميهم الله سبحانه بالتّيه أربعين سنة فى الصحراء ، ويضربهم بالذلة والمسكنة . .

هكذا القوم ، يفسدهم الإحسان ، وتُبطرهم النعمة ، فيلدغون اليد التى تطعمهم ، وينفثون سمومهم فيمن يُحسن إليهم !

ومن يدرى ؟ فلعل الإسرائيلى تبع موسى بالأمس بعد أن تخلّص من المصرى القتيل ، وعرف من هو . . ثم ظل يتبع خطاه ، حتى كان صباح اليوم الثانى ، فلما رأى موسى اصطنع اشتباكا بينه وبين أحد المصريين ، وذلك عن نية مبيتة ، وتدبير مقصود ، كما سنرى . .

قوله تعالى :

* « فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس . . إن تريد إلا أن تـكون جباراً فى الأرض وما تريد أن تـكون من المصلحين » .

لم نجد عند المفسرين مفهوماً لهذه الآية ، نطمئن إليه ، ونجد فيه هذا التجاوب والانسجام بين آيات القرآن الـكريم وكلماته . .

والمقولة التى تـكاد تلتقى عندها الآراء ، هى أن الإسرائيلى ، حين استصرخ موسى ، ثم سمع من موسى قوله له : « إنك لغوى مبين » توقع الشر من موسى . . ثم إن موسى لما اتجه إليهما ، يريد أن يبطش بالمصرى ، ظن الإسرائيلى أنه يريد البطش به هو بعد أن رماه بقوله : « إنك لغوى مبين » ــ وهنا صرخ فى وجه موسى : « ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ؟ . . »

وهذا قول يمكن أن يقال ، لو أن أحداث القصة كانت تجرى على المستوى البشرى المحدود ، ولكن ـ وكما رأينا ، وما نرى ـ تجرى الأحداث فى آفاق عالية ، بعيدة عن المستوى الإنسانى ، تقديراً ، وتدبيراً . .

ونحن بهذا النظر إلى وضع القصة ، فى هذا المستوى العالى ، ننظر إلى أحداثها . . وهنا نرى التلاحم والتجاوب بين مجريات الأحداث ، فلا تخاخلَ ، ولا تفاوت ولا تصادم ، بين حدث وحدث . . فى اجتماعها ، وافتراقها . . على السواء .

(موسى . . والقتيل الذى قتله)

وهنا نعرض مفهومنا للآية الكريمة ، وهو رأى ننفرد به ، ونسأل الله أن يكون صواباً . . فنقول : رأينا فى الآيات السابقة ، أن حدثاً عارضاً عرض لموسى ، وهو يدخل المدينة متخفياً ، ولا يعرف أحد شخصه . . حيث لقى إسرائيلياً ومصرياً يقتتلان . . ثم كان أن وكز المصرى فقضى عليه . . وهنا ينطلق موسى ناجياً بنفسه . . أما الإسرائيلى فهو بين ثلاثة أمور : إما أن يكون فرّ ، ثم أمسك به ، ليُسأل عن هذا القتيل، الذى كان لا بد أن تصله به صلة مّا . . كأن يكون أجيراً عند المصرى ، أو عاملاً تحت يده . .

وإما أن يكون قد خاف على نفسه أن يُعرف ويُتهم بالقتل ، فأسرع بالإخبار عن هذا الحدث وبأن مجهولاً قتل هذا القتيل .

وإما أن يكون قد سعى متطوعاً ، ليدل على مَن قتل هذا القتيل . .

وعلى أى فقد تبع الإسرائيلى موسى ، وعرف مأواه الذى أوى إليه . . ثم كشف لرجال فرعون عن شخصية القاتل ، وأنه موسى . . وهذه دعوى تحتاج إلى دليل عليها . .

ثم إنه لكى يقوم هذا الدليل ، كان بين الإسرائيلى ، وبين رجال فرعون

هذا التدبير ، الذى اصطنعت له هذه المعركة بين الإسرائيلى ، وبين مصرى آخر ، على نحو ما وقعت عليه حادثة الأمس .. وذلك ليُرى ما يكون من موسى حين يرى هذا المشهد ، أيخف لنجدة الإسرائيلى ، ويعتدى على المصرى ؟ إنه إن فعل فإن ذلك قرينة قوية على أنه هو الذى فعل فعلة الأمس !

وقد كان . . فما أن خرج موسى من مأواه الذى قضى فيه ليلته ، حتى وجد الإسرائيلى مشتبكا مع مصرى ، وحتى هتف به الإسرائيلى مستصرخاً ! .. هذا ، وعيون رجال فرعون ترقب من بعيد هذه التمثيلية ، دون أن يدرى موسى ما يدبر له . . فإنه لم يستطع أن يسكت على هذا العدوان الذى يسوم به الأقوياء الضعفاء سوء العذاب . . وأنه إذا كان الإسرائيلى رجلَ سوء ، فإن ذلك لا يسوغ هذا الظلم الواقع تحته ، حتى ليفادَى ويصبّح بهذا الضرب المبرح ! وإنه إذ يقول للإسرائيلى : « إنك لغوى مبين » يخف لنجدته وخلاصه من يد هذا المستبد به . . !

وهنا يقع الصيد فى الشبكة ! فيلقى المصرى موسى بهذه الجريمة التى كان يُبحث لها عن متهم . . فقال : « ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس . . إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين » . . ويفاجأ موسى بهذه التهمة ، ويسقط فى يده . . وهنا يخرج جنود فرعون . . وقد كشف الإسرائيلى عن شخصية « موسى » ربيب فرعون ومتبناه . . ويكثر الهرج والمرج . . وتصل الأخبار فى سرعة خاطفة إلى بيت فرعون . . ويخفّ من بيت فرعون من يحضر هذا المشهد ، فيعمل بأسلوب سياسى حكيم ، يطفىء به هذه الفتنة ، التى تمس فرعون ، وتحرج موقفه فى رعيته . . . إن إسرائيليا يقتل مصريا ، هو فوق أنه جريمة قتل ، هو جرم غليظ ، وسابقة تنذر بالخطر .. ولكن هذا الإسرائيلى هو محسوب على فرعون «

وفى العدوان عليه حطة بقدر حاشية فرعون ، ورجال فرعون . . إن الأمر فى غاية الحرج ، والمخرج منه على أى وجه إن أرضى طرفاً أساء إلى الطرف الآخر . .

وإذن فلابد من معالجته بالحكمة والرفق . . فكان هذا الأسلوب السياسى الحكيم ، الذى خرج من قصر فرعون ، فى صورة هذا الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى . . إنه كبير من كبار رجال القصر ، وقد خلا بموسى ، وأسر إليه ، أنه سيعمل على إطلاق سراحه ، ولكن على أن يفر موسى من مصر ، فلا يقع له أحد على أثر . . حتى إذا طالب المحاكمة كان فى عداد المفقودين . . ولا يعجز رجل القصر عن وسيلة يطلق بها موسى من يد الجند ، دون أن يعلم أحد . . فهذا أمر من اليسير أن يدبره مع الجند ، بعد أن يذهبوا بموسى على أعين الناس ، وهو — كما يرون — فى يد الجند ، إلى حيث يساق إلى المحاكمة والقصاص . . !

واستمع إلى قوله تعالى ، عن هذا الرجل ، الذى جاء من أقصى المدينة ، وقام بهذا الدور الذى رأيناه يقوم به على مسرح الحدث :

* « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى .. قال ياموسى : إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك .. فاخرج .. إنى لك من الناصحين » .

وفى هذه الآية تنكشف لنا أمور :

فأولا : أن هذا الرجل جاء من أقصى المدينة . . أى من أطرافها البعيدة . . وهذا يعنى أنه جاء من بيت فرعون ، حيث كان فرعون يقيم فى ظاهر المدينة ، منعزلا بقصره عن الرعية ، وهذا يؤيد الرأى الذى ذهبنا إليه فى تفسير قوله تعالى : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » .. وقلنا إن التعبير عن وجود

موسى فى المدينة بالدخول ، يشير إلى أنه كان يعيش خارجاً عنها . . وقلنا إن ذلك كان فى قصر فرعون ، الذى كان فى أطراف المدينة ، أو ظاهرها . .

وثانياً : أن هذا الرجل جاء « يسعى » أى فى عجلة ولهفة ، يستبق الأحداث قبل أن تفلت من يده ، وتتجه اتجاها غير الذى يراد لها أن تتجه إليه ، ثم لا يستطيع التصرف فيها من غير أن تثير دخانا ، أو تؤجج ناراً . .

وثالثاً : ما أسرّ به الرجل إلى موسى فى قوله تعالى : « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » ، ففى هذا القول ، الذى يملأ قلب موسى خوفاً وفزعاً ، تُهيّأ المطيّة الذلول التى يطير بها موسى ، إلى حيث يختفى من مصر ، دون تمهل أو توقف .

ورابعاً : فى قول الرجل لموسى : « فاخرج إنى لك من الناصحين » تحريض قوى لموسى على الفرار . . وأنه إنما تلقى نصيحة ناصح أمين ، يشفق عليه ، ويود الخلاص له مما تورّط فيه . . إنها كلمة رجل السياسة دائمـاً . . إنه ناصح أبداً لـكل من يتحدث إليه ، ولو ألقى به فى التهلـكة ! !

أرأيت كيف يقيم لنا هذا الفهم الذى فهمنا عليه الآية منطقاً سليما ، تستقيم عليه مجريات الأحداث ، وتتشكل منها وحدة متكاملة متجانسة ، فى حركتها إلى الغاية المقدورة لها ؟ .

تلك هى آيات الله ، وذلك هو بعض ما يرى من وجوه إعجازها المبين .

أما أن يقال إن هذا الرجل الذى جاء يسعى ناصحاً لموسى — هو مؤمنُ آل فرعون ، الذى أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه » . . فهو قول مردود ، لأن موسى لم يكن قد حمل الرسالة بعد .

قوله تعالى :

* « فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين » .

وهكذا يتم هذا التدبير البارع الحكيم . . ويخرج موسى من مصر هارباً . ولعله كان من تمام التدبير أن يذاع أنه هرب ، وأن جنود الملك يجدّون فى طلبه ، وربما يذاع فى الناس أنه قتل بيد الجند على حدود مصر ، أو وراء الحدود . .

وعلى أىٍّ فإن الأمر قد سُوّى على هذا الوجه ، دون أن يثير بلبلة فى الخواطر ، أو يحرك الألسنة بكلمة تقال فى سر أو جهر ، فى الملك أو حاشية الملك .

الآيات : (٢٢ — ٢٨)

* « وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧)

قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل » .

هنا تنتقل الأحداث نقلة بعيدة ، حيث نرى موسى فى « مدين » وهى على أطراف الجزيرة العربية من جهة الشام ، وتقع على خليج العقبة فى مقابل تبوك .. ذلك ، بينما كنا معه منذ لحظة فى مصر ، وفى أحشاء عاصفة هوجاء ، لم يكن أحد يقدّر له الخلاص منها . .

وتلقاء مدين ، هو اتجاهها ، حيث كان وجهه مقبلا إليها . .

وفى قوله : « قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل » . . ما يشير إلى أن هذا القول كان مقيداً بالوقت الذى أخذ فيه وجهته إلى مدين . . وهذا يعنى أن موسى لم يدعُ ربه بهدايته سواء السبيل إلا فى هذه الحالة . . وكيف يكون هذا، وموسى — وإن لم يكن نبياً بعد ، فإنه كان على دين آبائه ، إبراهيم ، وإسحٰق ، ويعقوب ؟

والجواب ، أن موسى كان على ذكر دائم لربه . . وذكر العبد لربه ليس على صورة واحدة . . فتارة يسبح ربه ، وتارة يحمده ، وتارة يستجير به ، أو يستهديه . . أو يستغفره . . إلى غير ذلك من أحوال الإنسان مع خالقه . . فموسى حين قتل المصرى : « قال رب اغفرلى » . . وسليمان حين رأى عظمة ملكه ، وعرض له ملك النملة ، قال : « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى

أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه » .

وهنا يجد موسى نفسه على طريق غريبة ، موحشة ، لا يدرى إلى أين تسوقه قدماه ، ولا ما يلقاه على طريقه من أحداث . إنه فى حيرة من أمره ، بعد أن خرج من مصر ، كما يخرج راكب سفينة غرقت ، فألقت براكبيها فى الماء ، وكان أسعدهم حظا من وضع رجله على اليابسة ، ولو كان فى مورد الوحوش . إن موسى لم يكن يعرف أن وجهته مدين ، وإنما اتخذ الوجهة التى تؤدى به إليها . . وهذا كان دعاؤه إلى ربه أن يهديه سواء السبيل ، ويقيم خطوه على طريق الأمن ، ويدفع به إلى شاطىء السلامة . .

قوله تعالى :

* « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان . . قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرّعاء وأبونا شيخ كبير » . .

ماء مدين : هو العين التى يستقى منها أهل مدين . .

الأمة : الجماعة من كل حىّ . . من الإنسان أو الحيوان . . وفى هذا يقول الله تعالى :

« وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » (٣٨ : الأنعام) وقد غلب استعمال هذا اللفظ على بنى الإنسان . .

تذودان : أى تسوقان ما شيتهما ، بعيداً عن الماء ، حتى يفرغ الناس ، وتخلو لهما البئر . وأصله من الذود ، وهو الدفع ، والذود مايذاد من الحيوان أى يدفع . .

والخطب : الشأن ، وغلب استعماله للأمر العظيم المكروه .

يصدر الرعاء : أى يرجعون من وردهم . . والورد . ورود الماء ، والصدر . الرجوع بعد الورد . . والرعاء : جمع الراعى

وهنا نجد موسى قد بلغ فى مسيرته « مدين » التى كان وجهه إليها ـ بقصد أو بغير قصد ـ بعد أن خرج من مصر !

وعلى مقربة من المدينة وجد العينَ التى يستقى منها أهلها . . وهناك كانت جماعات الرعاة ترد الماء ، وتستقى منه ، وتسقى ما شيتها . . وهذا هو السر فى حذف مفعول الفعل « يسقون » ليكون شاملا لكل ما يحتاج إلى سقى من إنسان أو حيوان . .

وعلى الماء ، لفت نظرَ موسى ، منظرُ فتاتين ، قد انحازتا بماشيتهما مكاناً قصياً عن الماء . . وقد عجب لهذا ، وبدا له أن يسأل الفتاتين : « ما خطبكما » ؟ ولم أنتما هكذا بعيدتين عن الماء ؟ ألا تسقيان كما يسقى القوم ؟ .

وليس الأمر على ما قدّر موسى ، وإن الخطب لأهون من هذا ، فما بين الفتاتين وبين القوم ما يدعو إلى هذه القطيعة البادية لعينيه . . ولكن هكذا كانت الحياة فى هذه الجماعة التى يعيش فيها شعيب . . لقد وقفوا من هذا الرجل الصالح ، الذى يحمل إليهم دعوة السماء ، بتوحيد الله ، وبالعدل فى الكيل والميزان ـ وقفوا منه موقف الخصومة ، والقطيعة . . فلم يكن لفتاتيه من يمدّ إليهما يداً . . وأبوهما شيخ كبير . . « قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » ألم تقف قريش من النبى ومن رهطه بنى هاشم وبنى المطلب موقفاً كهذا ؟ لقد عقد القوم فيما بينهم عقداً على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب ، كما هو معروف فى السيرة النبوية . .

قوله تعالى :

* « فسقى لهما ثم تولى إلى الظل ، فقال رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير » .

وكرجل ذى مروءة ، لم يجد بداً من أن يسقى للفتاتين ، وقد شهدتا منه قوة ، وعفة . . فلم يعلق نظره بهما ، ولم يُتبعهما نفسه ، بل سقى لهما . . ثم تولى إلى الظل ، حيث كان يجلس من قبل . . وهناك رفع وجهه إلى السماء ، يحمد الله أن ساق إليه هذا الرزق الذى وجده فيما أسدى إلى هاتين الفتاتين الضعيفتين من عون ، وإحسان . . وإنه لفقير إلى مثل هذه الأعمال الطيبة ، ليكفر بها ما كان منه من قتل المصرى ! !

قوله تعالى :

* « فجاءته إحداهما تمشى على استحياء . . قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين »

هنا أمور جزئية ، لم يذكرها القرآن ، لدلالة الحال عليها ، وأنها ، لابد أن تحدث على صورة ما حسب تصور الذى يتلو آيات الله ، أو يستمع إليها . . وهذا من شأنه أن يوقظ شعور المتتبع لأحداث القصة ، حتى يملأ هذا الفراغ كما يتصوره .

فمثلا ما كان من حديث ابنتى شعيب إلى أبيهما عن هذا الغريب الذى سقى لهما ، وعن حاله التى هو عليها ، وعن القوة التى شهدتاها منه ، وعن المكان الذى أوى إليه . . ثم ما كان من مداورة الرأى حول الصنيع الذى يصنعونه مع هذا الغريب . . وهل يبعثون إليه بطعام أو يدعونه إلى البيت ، ليرى الأب حقيقة ما سمع ؟

وعلى أىّ ، فقد انتهى الرأى إلى استدعاء موسى ، وأن يُندب لهذا الأمر إحدى الفتاتين ، لا كلتاهما . .

— « فجاءته إحداهما تمشى على استحياء » أى فى خفر ، وحياء ، شأن الحصان العفيفة . . وحسبها أنها ربيبة بيت النبوة .

وانظر فى قوله تعـــالى . « تمشى على استحياء » . . يالله ، ويالروعة كلامه المعجز المبين .. لقد تجسد الحياء ، فـكان بساطاً ممدوداً على طريقها إلى موسى .. إنها لا تمشى على الأرض ، ولـكنها تمشى على حياء ، تتعثر فيه قدماها ، وتقصر به خطاها ، ويضطرب له كيانها ..

— « قالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا » إنها رسول أبيها ، الذى عرف موسى من أمره أنه « شيخ كبير » ولو كان فى استطاعته أن يسعى إلى موسى لما بعث بابنته إليه ، ولجاء إليه بنفسه ، يدعوه إلى النزول عنده . .وهو الغريب ، الذى لا مأوى له فى هذا البلد . .

والمراد بالأجر هنا ، ليس مجرد الأجر المادى ، وإنما هو جزاء إحسان بإحسان ، ولقاء معروف بمعروف . .

— « فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » .

لقد التقى الرجلان . . موسى وشعيب . . وكان بينهما حديث ، أفضى به موسى إلى مضيفه ، وعرف المضيف بهذا الحديث مَن يكون ضيفه ، ومن أى بلاد جاء ، وما سبب مجيئه .. فلما عرف شعيب ماوقع لموسى من أحداث ، آواه إليه ، وأمنه ، قائلا : « لا تخف نجوت من القوم الظالمين » . فإنك هنا بحيث لا تنالك يد فرعون .

وهنا تظهر الأنثى التى تطلب الرجل الذى تطمع فى أن يكون رجلها الذى تحلم به ، وتنتظر الأيام تجىء به ، ليطرق بابها !

* « قالت إحداهما ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين »

إنه - والله أعلم - ليغلب على الظن ، أنها تلك التي بعث بها أبوها لتدعو هذا الغريب إليه . . وهاهو ذا قد جاء . . وربما يرحل غداً أو بعد غد . . فلا تدع الفرصة تفلت من يدها ، وقد رأت بعين الأنثى فى موسى ، الرجلَ الذى هو أهل لها . .

« يا أبت استأجره » أى أمسك به عندنا ، ولا تدعه يفلت من يديك ، وذلك بأن تصله بك بعمل . . فهو خير من يعمل لك ، حيث عجزت عن العمل . . « إن خير من استأجرت القوى الأمين » . . هكذا تكشف لأبيها عن معدن الرجل الذى يستأجره ، وأنه فى الرجال يتزين بأجل صفتين : القوة ، والأمانة . . وقد رأت قوته فيما كان منه من السقى لها ، كما رأت أمانته فى غض بصره عنها ، وقد جاءته وحدها تدعوه إلى أبيها .

ويستجيب شعيب لهذا الطلب فى غير تردد ، ويستشعر بمشاعر الأب ما بنفس ابنته نحو هذا الغريب .

* « قال إنى أريد أن أنكحك إحدي ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين » .

وهكذا يجىء شعيب إلى موسى صريحاً واضحاً ، كما يجىء إلى ابنته أباً حانياً عاطفاً ، لا يري حرجاً فى أن يتخير لابنته الرجل الذى تتمناه زوجاً لها ، ويردها حياؤها عن أن تعرض نفسها عليه .

وما كانَ أبرع شعيبًا وأحكمه ، وأعدله ، فيما بينه وبين موسى من جهة ، ثم فيما بينه وبين ابنته من جهة أخرى .

إنه لم يشأ أن يفرض على موسى واحدة بعينها من ابنتيه هاتين . . فلموسى

أن يختار من يشاء منهما . . فلقد رآهما من قبل ، كما رآهما فى بيت أبيهما ، وليس من الحكمة ولا من المصلحة أن تُفرض عليه واحدة بعينها ، حتى ولو كان لموسى رغبة فيها ، وكان لها رغبة فيه . . إن هذا الفرض من شأنه أن يزعج موسى ، وأن يصدم إرادته ، ويصادر رأيه . . ثم إن موسى سيعيش فى بيت شعيب ، فإذا لم يكن قد اختار هو بنفسه من تزوجها ، كان فى ذلك تنغيص له، واضطراب لحياته الزوجية ، ومعادلة وموازنة دائما بين الأختين فى كل وقت . . الأمر الذى يجعل هواه دائما مع من لم يكن له خيار فيها . . هكذا الإنسان !

ثم إنه بهذا التدبير الحكيم ، قد سوّى الأب فى القسمة بين ابنتيه ، فى هذا الذى ساقه الله إليهما ، فى صورة رجل،هو نادرة فى الرجال .. فالأب لا يؤثر بهذا الخير إحدى ابنتيه على الأخرى ، ولو كانت الكبرى . . إنه لو فعل هذا لكان فى نفس الأخرى أسًى ومرارة . . وليس الشأن كذلك إذا كان الخيار لموسى ، أو كان بالتراضى بين الأختين ، حيث تبدو كل منهما ، وكأنها تؤثر أختها عليها . .

ومن جهة أخرى ، فإنه واضح من قول شعيب : « إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتىّ هاتين » أنه لم يفصح عمن يكون له الخيار فيهما . . أهو شعيب أم موسى . .

وهذا أمر ، إن قام على هذا الوجه ، فى هذا الموقف وفى مواجهة البنتين ، فإنه قد تُرِك البتّ فيه لمجلس خاصّ بين الرجلين ، فإذا انكشف الأمر بعد ذلك عمن وقع عليها الاختيار ــ لم يكن من اليسير لدى البنتين القطع بأن هذا الاختيار ، كان من موسى ، أو من شعيب ، أو منهما معاً . . وهكذا تتوزع الصدمة ــ إن كان هناك صدمة ــ التى ربما تصيب من لا يقع عليها الاختيار ، بين هذه الاحتمالات ، فتخفّ وتهون .

* « قال ذلك بينى وبينك أيمّا الأجلين قضيتُ فلا عدوان علىّ . . والله على ما نقول وكيل » .

وهكذا تتم الصفقة بين النبيين الكريمين ، فيظفر شعيب بالقوىّ الأمين الذى يبذل فى خدمته كل ما عنده من قوة وأمانة ، ويظفر موسى بابنة هذا النبىّ ، التى كان حسن تدبيرها ، ولمعة ذكائها ، وصدق فراستها ، خيرَ سفارة تجمع بين الرجلين ، وتفتح قلب كل منهما لصاحبه قبل أن يلتقيا .

والاتفاق ، على أن يخدم موسى شعيباً ثمانىَ سنين فى مقابل زواج ابنته . . فإن جعل موسى الثمانى عشراً فذلك فضل منه ، وإلا فهى ثمان لا أكثر . .

ولا شك أن هذا تدبير حكيم من شعيب ـ عليه السلام ـ ، إذ لم يشأ أن يضع موسى أمام حكم لازم لاخيار له فيه ، بل جعل له أمرين ، يختارأيهما شاء . . وفى هذا المجال الذى تتحرك فيه إرادة الإنسانه شىء غير قليل من الرضا النفسى ، حيث يجد المرء لإرادته مكاناً فى كيان ، ويستشعر لها حضوراً فى هذا المقام ، فيقبل على هذا الأمر أو ذاك ، وهو شاعر بأنه حرٌّ فى اختياره ، غير واقع تحت قوة قاهرة ملزمة . .

وهذا عين ما فعله شعيب ، حين أراد أن يزوّج موسى إحدى ابنتيه . . إنه لم يفرض عليه واحدة بعينها ، بل جعل الأمر بينهما ، حتى يفسح المجال للنظر والاختيار ، له ، ولموسى ، ولابنتيه . . أما موسى . . عليه السلام . . فلم يكن أقلّ براعة وحكمة من شعيب . . فقد أجاب هذه الإجابة الحكيمة ، التى ترضى شعيباً ، ولا تقيد موسى : « ذلك بينى وبينك » أى هذا الذى قلتَه أنا موافق عليه ، وهو عقد بينى وبينك . . وهذا فيما يختص بإحدى الابنتين التى سيقع الاختيار عليها . . أما الأجل ، فهو محتمل للأجلين معاً

« أيمّا الأجلين قضيتُ فلا عدوان علىّ » . . فهو بالخيـار ، بين الثمانى سنوات أو العشر . .

والمراد بالعدوان فى قوله : « فلا عُدوانَ علىّ » الحرج . . أى لاحرج علىّ إذا أنا أخذت بالثمانى سنوات ، ولم آخذ بالعشر . . ومن ثَمّ فلا يكون علىّ عدوان معك .

وطبيعى أن موسى ، قد أخـذ بما هو أولى بالمروءة ، والـكمال ، فعمل بالأكثر دون الأقل . .

الآيات : (٢٩ — ٣٥)

* « فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ (٣١) ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا

فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) »

التفسير

قوله تعالى :

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » .

فى هذه الآية والآيات التى بعدها ، تبدأ مرحلة جديدة من مراحل المسيرة التى تتحرك فيها الأحداث إلى غايتها . . فها هو ذا موسى ، قد وفى بالعهد الذى بينه وبين شعيب ، وقضى الأجل . . ثم تحركت أشواقه إلى أهله ، وقومه بمصر ، فأخذ زوجه ، وسار عائداً على الطريق الذى جاء منه . .

وفى الطريق ، آنس من جانب الطور ، (وهو طور سيناء) ناراً ، فى ظلمة الليل ، ووحشة الصحراء ، فأحس فى هذه النار ريح الأنس ، فانطلق إليها ، تاركا أهله فى مكانهم ، قائلا لهم : « امكثوا . . إنى آنست ناراً . . لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » .

وقد جاءت هذه الآية فى غير موضع على نظم يختلف مع هذا النظم ، وقد عرضنا لذلك فى دراسة خاصة ، تحت عنوان : « التكرار . . فى القصص القرآنى »[1] وكشفنا عن بعض الأسرار الكامنة وراء هذا الاختلاف .

(١) انظر ص٩٦ : من الكتاب العاشر (الجزء التاسع عشر)

قوله تعالى :

* « فلمّا أتاها نُودِى من شاطىء الوادِ الأيْمَن فى البُقْعة المباركة من الشجرةِ أن ياموسى إنى أنا الله ربّ العالمين » .

هنا فى هذه الآية يتحدّد المكان الذى نودى منه موسى ، وإنه الشاطىء الأيمن من الوادى . . وأن ذلك النداء كان عند البقعة المباركة من الشجرة القائمة على هذا الشاطىء الأيمن

ومن هذا يُعرف أن وجهة موسى كانت مصر ، وأنه فى الطريق إليها من مدين ، حيث كان الشاطىء الغربىّ من طور « سيناء » واقعاً على يمينه . . وقد تحدّد هذا المكان تحديداً تاماً بقوله تعالى فى آية أخرى : « وما كنت بجانب الغربىّ إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين » (٤٤ : القصص) .

قوله تعالى :

* « وأن ألق عصاك فلمّا رآها تهتزّ كأنها جانٌّ ولىّ مُدْبِراً ولم يعقّب ياموسى أقْبِلْ ولا تَخَفْ إنك من الآمنين » . .

وقد وصفت الحيّة هنا بأنها « جانٌّ » كما وصفت فى آيات أخر بأنها « حية تسعى » . . (٢٠ : طه) . . وبأنها « ثعبان مبين » (٣٢ : الشعراء) .

ومن هذه الأوصاف جميعها ، تلبس الحيّة صورة كاملة للحية ، فى ضخامتها وحيويتها ، وخفّة حركتها . . فهى حيّة فى ضخامة جسمها ، وهى ثعبان عظيم ، فى الحياة التى تلبس هذا الكيان الضخم ، وهى « جان » فى سَبْحها على الأرض فى خفةٍ كأنها سهم منطلق !

قوله تعالى :

* « اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضْمُمْ إليك

جناحك من الرّهْبِ فذانك برهانان من ربّك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوماً فاسقين »

الرّهْب : الخوف . والجناح : اليد ، كلها ، بالكفّ والساعد ، والعضد .
والمراد بضم الجناح ، إلصاقه بالجنب .. كما يفعل الخائف فيشد من عزمه ، ويمسك نفسه . . والمراد بهذا أن يأخذ موسى هذا الوضع حين يخرج يده من جيبه فى موقفه مع فرعون . . وفى هذا ما يدفع الخوف عن موسى ، وهو يواجه فرعون فى هذا الموقف الرهيب !

قوله تعالى : « فذانك برهانان من ربّك إلى فرعون وملائه .. إنهم كانوا قوماً فاسقين » .

ذان : مثنى ذا ، أى هذان برهانان من ربك إلى فرعون وملائه ، وهذا البرهانان هما : العصا ، واليد . .

وقد كان مع موسى غير هذين البرهانين ، سبع آيات أخرى ، هى الجراد والقمّل ، والضفادع ، والدم ، والجدب ، والطوفان ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات . .

وخُصّ البرهانان هنا ـ وهما العصا واليد ـ خُصا بالذكر ، لأنهما الآيتان اللتان يلقى بهما موسى فرعونَ وحاشيته أول الأمر ، ويتحدّى بهما تكذيب فرعون له . . ولهذا كانت المعركة المتحدية بين موسى وفرعون فى لقاء العصا بالسحرة الذين جمعهم فرعون لموسى . . أما الآيات الأخرى فقد كانت بلاء متحدّيا لفرعون وقومه جميعاً . . ولعلّ هذا ـ والله أعلم ـ هو السرّ فى اختلاف النظم هنا فى قوله تعالى : « فذانك برهانان من ربك » إلى فرعون وملائه » وما جاء فى سورة النمل فى قوله تعالى : « فى تسع آيات إلى فرعون وقومه » . .
(١٢) فالملأ هم الحاشية ، والقوم هم المجتمع كله .

قوله تعالى :

* « قال ربِّ إنّى قتلتُ منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ، وأخى هرون هو أفصحُ منى لساناً فأرسله معى رِدءاً يُصدّقُنِى إنى أخافُ أن يكذّبون »

إن شبح القتيل ما زال يطارد موسى ، بعد هذا الزمن الطويل ، وإن لقاءه فرعون سيحرك هذا الحدث الذى كاد يُنسى . . ولهذا أظهر موسى ما بنفسه من خوفٍ ، وأن لقاءه فرعون ، وعرْضَ ما يعرض عليه من آيات ـ قد يقع عند فرعون أنه حيلة يريد أن يشغله بها عن فَعلته التى فعلها ، ولهذا طلب أن يكون معه أخوه هرون ، الذى لا تهمة له عند فرعون ، ليكون قوله بعيداً عن هذا الظن الذى يظنه فرعون فى موسى . .

وهنا سؤال :

هل كان موسى ألكنَ أوعَيِيًّا ، على لسانه حُبسة ، حتى يطلب إلى الله أن يرسل معه هرون الذى هو أفصح منه لساناً ؟

هذا ما يقول به المفسّرون ، ويأتون على ذلك بأخبار تُحدث بأن موسى قد أخذ بيده جمرة ، وهو طفل فى بيت فرعون .. ورفعها إلى فمه فمسّت لسانه ، وتركت عليه هذه الحبسة !

وهذا خبر لا يصدق . . إذ كيف يستطيع الطفل أن يمسك الجمرة بيده ، ثم يصبر عليها حتى يحملها إلى فمه ، ثم يلقى بها فى فيه ؟

ومن جهة أخرى ، فإن اللسان ، هو الأداة العاملة فى رسالة الرسول . . فكيف تُعطل هذه الأداة ، أو تصاب بعطب ؟ ذلك بعيد . . وماذا يبقى من الرسول بعد أن يؤخذ لسانه ؟

والذى نراه ، هو أن الخوف الذى كان يملأ كيان موسى من فرعون ،

هو الذى كان يُمسك لسانه عن الانطلاق ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ويضيقُ صدرى ولا ينطلق لسانى » (١٣ : الشعراء) فضيق الصدر من الخوف والرهبة ، هو الذى يحبس اللسان عن الانطلاق فى الحديث ـ ولهذا جاء قوله تعالى إلى موسى : « واضمم إليك جناحَك من الرهب » أى اضمم إليك جناحك ، تسكيناً لك من الرهب ، أى الخوف ، الذى يجىء من الرهبة .

وقد يُرَدّ على هذا ، بما جاء فى قوله تعالى على لسان فرعون فى موسى : « أم أنا خير من هذا الذى هو مَهين ولا يَكادُ يبين » (٥٢ : الزخرف) فهذا الذى نطق به فرعون ، يكشف عن عجز موسى عن البيان فى منطقه . .

وردّنا على هذا ، هو ما أشرنا إليه ، من أن الخوف الذى كان يعترى موسى فى أول لقاء أنه مع هذا الجبار العنيد ، الذى يسلط عليه سيف التهديد بالقتل ، قصاصاً للقتيل الذى قتله موسى ـ هذا الخوف ، هو الذى كان يجعل موسى غير قادر على الانطلاق فى الكلام . أما ما قاله موسى : «وأخى هرون هو أفصح منى لساناً » فهو لما لم يكن لهرون ذنب يطالبه به فرعون ، فهرون فى هذا الموقف أقدر على الكلام من موسى ، ولهذا قدم قوله : « قال رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون » على قوله : « وأخى هارون هو أفصح منى لساناً » . . !

قوله تعالى :

* « قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن أتبعكما الغالبون » .

« بآياتنا » متعلق بقوله تعالى : « الغالبون » .

والمعنى : أنكما أنتما ، ومن اتبعكما ، الغالبون بآياتنا التى فى أيديكما . وشد

العضد، تقويته بضمّ قوة أخرى إليه، والعضد، أعلى الذراع من المرفق إلى الكتف، وهو مركز القوة فى اليد، واليد هى مظهر القوة فى الإنسان.

الآيات: (٣٦ — ٤٢)

* « فَلَمَّا جَاءَهُم مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) »

التفسير:

قوله تعالى:

* « فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين »:

بهذا التكذيب، تلقى فرعون آياتِ الله، ونسبها إلى السحر، بل وجعلها سحراً مفترى، أى مختلقا، مدسوسا على السحر الذى عُرف به سحرة فرعون..!!

وأما ما يقول فرعون عنه إنه لم يسمعه فى آبائه الأولين ، فهو دعوةُ موسى له ، إلى الإيمان بالله رب العالمين ، الذى له ملك السموات والأرض .. فهذه الدعوة لم يسمعها فرعون من قبل ، فقد كانت الآلهة تملأ أرض مصر ، وتحوم فوق سمائها ، من آدميين ، وحيوانات وطيور ، وكواكب ، ونجوم ! .. وهذا ما ملأ شعوره بأنه الإله المتفرد ، فقال قولته الآثمة : « يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى » .

قوله تعالى :

* « وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون » .

قد يكون هذا القول الذى قاله موسى مقولا فى مواجهة فرعون .. وقد يكون حديثاً تحدّث به إلى نفسه ، مواساةً وتعزية، فى مواجهة هذا الاتهام الذى يرمى به فرعون بين يدى آيات الله التى يعرضها عليه ..

فالله سبحانه — أعلم بمن جاء بالهدى .. موسى ، أو فرعون ؟ ومن تكون له عاقبة الدار منهما .. فداما على هذا الخلاف البعيد بينهما ، فلابد أن أحدهما محقّ والآخر مبطل ، أحدهما مظلوم ، والآخر ظالم ..

فهذا أشبه بالمباهلة ، وقد تحدّى بها النبى — صلوات الله وسلامه عليه وفد نجران ، وقد جاءوا يجادلونه فى آيات الله ، فقطع عليهم الطريق ، حين دعاهم إلى المباهلة ، كما فى قوله تعالى : « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » (٦١ : آل عمران) ..

قوله تعالى :

* « وقال فرعون يـٰأيها الملأ ما علمت لـكم من إلٰه غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إلٰه موسى وإنى لأظنـه من الـكاذبين » . .

وهذا الأمر الذى يُصدره فرعون إلى «هامان» إنما هو على سبيل الاستهزاء والسخرية ، والإمعـــــان فى تـكذيب موسى . . فهو يقرر لقومه الواقعَ الذى يعيشون فيه معه ، وهو أنه الإلٰه ابن الآلهة : « ما علمت لـكم من إلٰه غيرى » ! فهو الذى يفـكر للقوم ، ويولى وجوههم إلى الإلٰه الذي يعبدونه ، وقد فكر وبحث ، ونظر فى كل متجه فلم يجد لهم إلٰها غيره ، « ما علمت لـكم من إلٰه غيري » ! . .

وها هو ذا موسى يقول عن إلٰه آخر . . فأين هو هذا الإلٰه ؟ لو كان فى الأرض ، فأى أرض هى ؟ إنه لا آلهة على الأرض غير فرعون ! أم تُرى هو فى السماء ؟ السماء ليست بعيدة ! ! وإذن « فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إلٰه موسى » . . إنه لا يبحث عن إلٰه يدين له هو وقومه ، فهو إلٰه لا يدين لآلهة غيره ، وقومه لا يعرفون لهم إلٰها سواه . . وإنما يبحث عن إلٰه موسى ، الذى يأبى أن يتخذ فرعون إلٰها له ، وفى هذا يقول سبحانه على لسان فرعون إلى موسى : « لئن اتخذت إلٰها غيرى لأجعلنك من المسجونين » ! .

وفى قوله : « وإنى لأظنه من الـكاذبين » تأكيد لما قرره من قبل ، وهو أنه لا إلٰه غيره ، والمراد بالظن هنا اليقين ، وقد جاء به مؤكداً . .

قوله تعالى :

* « واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحقّ وظنوا أنهم إلينا لا يُرجعون » .

هو وصف كاشف لحال فرعون وجنوده ، قبل أن تأتيهم آيات الله ، وبعدها . .

والمراد بالاستكبار هنا ، التعالى على العباد ، واستعباد الناس وإذلالهم ، والعدوان عليهم بغير حق .. ظانين أنهم لا يرجعون إلى الله ، ولا يحاسبون على ما قدمت أيديهم . .

قوله تعالى :

* « فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » .

المراد بالأخذ هنا ، الإحاطة ، والتمكن من الإمساك بفرعون وجنوده ، إذ وقعوا تحت قضاء الله النافذ فيهم ، وهو الموت غرقا . . وكأن يد الله سبحانه وتعالى هى التى أخذتهم من دُورهم فألقت بهم فى اليم ، وكأنهم ليسوا هم الذين سعَوْا بأقدامهم إلى حتفهم !

وقوله تعالى :

* « وجعلناهُمْ أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون » .

أى أن فرعون وجنوده سيكونون أئمة وقادة يوم القيامة ، يقودون قومهم إلى النار ، كما كانوا قادة لهم فى الدنيا . . فهم يدعون قومهم إلى جهنم ، كما كانوا يدعونهم فى الدنيا إلى الشرك والضلال . . وفى هذا يقول الله تعالى فى فرعون : « يَقْدُمُ قومه يوم القيامة فأوردهم النارَ وبئس الورد المورود »

(٩٨ : هود) ويقول سبحانه : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم » (٧١ : الإسراء) .

وقوله تعالى : « ويوم القيامة لا ينصرون » ـ جملة حالية أى وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار يوم القيامة ، ويوم القيامة لا ينصرون ، أى وجعلناهم أئمة يقودون الناس إلى النار ، ويتقدمونهم ، ولا ناصر لهم ينصرهم من بأس الله فى هذا اليوم .

قوله تعالى :

* « وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين » .

أى جعل الله سبحانه وتعالى حديث الناس بعدهم لعنة تلحقهم من كل لسان ، إذ كانوا مثلا سيئاً للبغى والعدوان ، فلا يذكرهم أهل الإيمان والتقوى إلا اقترن ذكرهم باللعنة عليهم . وكذلك شأنهم يوم القيامة ، تلقاهم اللعنات من كل لسان فى المحشر .

الآيات : (٤٣ — ٥٠)

* « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِى أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ

مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوٓا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون » .

هذه الآية والآيات التي بعدها ، تمهيد لذكر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، والكتاب الذي تلقاه وحياً من ربه ، وتبليغ قومه إياه ، وما كان منهم من تحدٍّ له ، وخلاف عليه ..

فالكتاب الذي آتاه الله سبحانه وتعالى موسى ، إنما كان على فترة من الرسل ، وبعد هلاك كثير من القرون التي بعث الله فيهم رسله ، فاندثروا واندثرت آثارهم ..

والبصائر : جمع بصيرة وهي ما يستبصر بها إلى طريق الحق والهدى ..

وقوله تعالى : « لعلهم يتذكرون » — الضمير فى لعلهم ، يعود إلى الناس فى قوله تعالى : « بصائر الناس » .. وفى هذا إشارة من بعيد إلى المشركين من قريش ، وأنه كما أرسل الله موسى على فترة من الرسل ، بالكتاب الذى فيه بصائر وهدى ورحمة ، أرسل الله « محمدا » على فترة من الرسل ، بكتاب فيه بصائر الناس وهدى ورحمة ..

قوله تعالى :

* « وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين » ..

الخطاب للنبى — صلوات الله وسلامه عليه — وهو أنه لم يكن على علم بهذه الأخبار التى يقصها على قومه فيما أوحى الله إليه به ، مما كان بين موسى وربه إذ ناداه ربه من جانب الطور الأيمن ، وهو الجانب الغربى من سيناء ، وأعلمه بأنه رسول الله ، اختاره لرسالة كريمة إلى الناس ..

قوله تعالى :

* « ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين » .

تكشف هذه الآية عن الحكمة فى إرسال محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وهو أنه قد سبقته فترة لم يكن فيها رسل ، فشاءت إرادة الله أن يختار رسولا يكشف للناس معالم الطريق إلى الحق ، وقد ضلوا وانحرفوا عن سواء السبيل ..

وفى هذا يقول الله تعالى : « قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير » (١٩ : المائدة) .

— وقوله تعالى : « ولـكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر » . . هنا كلام محذوف ، دل عليه السياق . . والتقـدير : « ولـكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر » فـكان من رحمتنا أن نبعث فى الناس رسولا ، بعد هذا الزمن الطويل . .

— وقوله تعالى : « وما كنت ثاوياً فى أهل مدين » — هو خطاب للنبى الـكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وأنه لم يكن مقيما فى أهل مدين ، حتى يعلم هذه الأخبار التى يقصها على قومه ، فيما كان بين موسى وشعيب .

— وقوله تعالى : « تتلو عليهم آياتنا » . . الضمير فى « عليهم » يراد به المشركون من قريش . . وهم وإن لم يجر لهم ذكر ، فهم مذكورون بذكر الرسول صـلوات الله وسلامه عليه . . وجـملة « تتلو عليهم آياتنا » صلة لموصول منادى أى يامن تتلو عليهم آياتنا . . فالنبى — صلوات الله وسلامه عليه — هو هنا فى مقام الخطاب من ربه . . والخطاب يطوى فى كيانه نداء خفياً ، لا يجرى له ذكر فى مقام القرب من ربه . .

— وقوله تعالى : « ولـكنا كنا مرسلين » أى ولـكن هـذا القصص الذى تقصه على قومك — أيها النبى — هو وحى أوحى إليك من ربك ، الذى أرسلك هدى ورحمة ، إذ كان من حكمتنا ورحمتنا أن نرسلك إلى الناس رسولا ، على فترة من الرسل . .

قوله تعالى :

* « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولـكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » .

هو تأكيد لرسالة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وأنه إنما تلقى

هذا القرآن الذى بين يديه وحياً من ربه . . فهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يكن حاضراً مناداةَ الحق سبحانه وتعالى لموسى وهو بجانب الطور ، حتى ينقل إلى الناس هذا الحديث الذى يحدثهم به ، ويقصه عليهم من أمر موسى . . ولكن هذا الذى بين يديه هو رحمة من الله سبحانه وتعالى إلى هؤلاء المشركين ، الذين بعثه الله نبياً فيهم ، إذ لم يأتهم رسول من قبله ، كما أتى غيرهم من الأمم . . فليذكروا هذه النعمة ، وليأخذوا حظهم منها ، وليكن لهم فيها موعظة وذكرى . .

قوله تعالى :

* « ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين » .

أى أنه لولا أن يكون لهؤلاء المشركين علة يتعللون بها فى عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر ، وهو أن الله سبحانه لم يبعث فيهم رسولا ، ولم يدْعُهم إليه على يد رسول منهم كما فعل ذلك بغيرهم من الأمم ، كاليهود ، والنصارى ـ لولا هذا ما أرسل الله إليهم رسولا ، إذ كان مع كل منهم فطرة مؤمنة . . ومن وراء هذه الفطرة عقل ، هو الرسول الذى يفتح مغالق الإيمان فيها . . ولكن رحمة الله اقتضت أن يبعث فى الناس رسولا منهم يوقظ عقولهم ، وينبه فطرتهم . . وبذلك لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . .

فما حجة هؤلاء المشركين بعد هذا وقد جاءهم رسول الله ؟ وما العلة التى يتعللون بها فى شركهم بالله ، وكفرهم باليوم الآخر ؟ إنه لا شىء إلا الكبر والعناد ، وإلا الغفلة والهوى !.

قوله تعالى :

* « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثلَ ما أوتى موسى أو لم

يكفروا بما أوتى موسى من قبلُ قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون » .

وهذا مذهب من مذاهب الضلال والعناد ، الذى غطى على عقول المشركين . . إنهم كانوا يتمنّون على الله أن يبعث فيهم رسولا ، وأن يكون لهم كتاب كما لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وهذا ما يحكيه القرآن عنهم فى قوله تعالى : «أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم » (١٥٧ : الأنعام) .

وها هو ذا رسول الله قد بُعث فيهم ، وها هو ذا الكتاب من الله ، يتلى عليهم . . فماذا كان منهم ؟ لقد ذهبوا يطلبون التعلات والمعاذير ، يلقونها بين يدى رسول الله ، وكتاب الله .

إن الرسول الذى جاءهم لم يؤتَ من الآيات المادية مثل ما أوتى موسى . . إنه ليس معه عصا كعصا موسى ، ولا يد كيده . . وإن موسى قد نزّل على بنى إسرائيل المنّ والسلوى . . فأين ما مع محمد من هذا ؟ وأين الخير المادى الذى جاءهم به ؟ فليُجْرِ لهم فى هذه الصحارى أنهاراً ، وليفجّر لهم فيها عيونا . . وإلا فأين الرسول وأين رسالته ؟ أرسول بغير هذه الآيات التى يجنون من ثمرها ما يملأ أيديهم من مال ومتاع ؟ أرسول كل بضاعته إليهم كلام فى كلام ؟ إن ذلك أمر هين ، يستطيع كل واحد منا أن يصبح رسولا ، لو كانت محامل الرسالة كلاماً ، وكانت بضاعة الرسول حديثاً وقصصاً . . « لو نشاء لقلنا مثل هذا . . إن هذا إلا أساطير الأولين » (٣١ : الأنفال) . . هكذا كانت نظرة المشركين إلى رسالات السماء . . وما دروا أن الله سبحانه ، قد خصهم بأعظم رسالة . . تتجه إلى أكرم ما فى الإنسان من روح وعقل . . إنها الرسالة التى تغذى العقل وتهذب النفس ، وتسمو بالروح إلى الملأ الأعلى . . وإنها المائدة التى لا تزهد فيها النفوس ، ولا تنقطع عن وردها العقول ، بل إنه كلما أخذ الإنسان منها ، اشتد طلبه ، وقويت رغبته ــ وليس كذلك ما كان طعاماً للبطون ، فإن المرء إذا

أخذ حاجته منه زهد فيه ، ثم إذا عاوده مرة ومرة عافه ، كما عاف بنو إسرائيل ما أنزل الله عليهم من المنّ والسلوى ! .

ومن هنا كانت هذه المعجزة « الكلامية » هى المعجزة الخالدة على الزمن لأنها تصحب العقل دائما ، وتلتقى به فى كل زمان ومكان . . حيث تجد فيها العقولُ على اختلاف مستوياتها ، وعلى امتداد أزمانها وأمكنتها ـ النورَ الذى يكشف لها معالم الطريق ، إلى الحق والخير ، فلا تضلّ ، ولا تزيغ .

ـــ وقوله تعالى : « أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل » هو كشف عما بين هؤلاء المشركين من أهل مكة ، وبين فرعون وآل فرعون ، حيث يجمعهم الضلال ، والعناد ، والاستكبار .. فإذا كان فرعون قد كفر بما أوتى موسى ، وقال لموسى حين أراه آيات ربه الكبرى : « ما هذا إلا سحرٌ مُفترى » . . « ٣٦ : القصص » فلن يكون من هؤلاء المشركين إلا الكفر بكل آية .. إنهم وفرعون على سواء .. فهم وإن لم يكونوا قد التقوا بموسى وكفروا بما معه من آيات ، فقد التقوا به فى شخص فرعون ، الذين هم من طينته ، وعلى شاكلته !! فلمَ يطلبون إذن أن يأتيهم النبىّ بمثل تلك الآيات التى كانت مع موسى ، وقد كفروا بها على لسان فرعون ، الذى هو واحد منهم ، وإمامٌ من أئمتهم ؟

ـــ قوله تعالى : « قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون » .. هو مزج المشركين بفرعون ، مزجا كاملاً ، وجمعهم وإياه فى كيان واحد ، بحيث يكون لهم موقف واحد ، ومنطق واحد ، وإن بعد المدى بينهم وبينه ، زمانا ، ومكانا ، ولسانا ، ومجتمعاً . . فهذه الفواصل كلها فواصل مادية . . لا تقوم حجازاً بين ائتلاف الأهواء ، والتقاء المشارب . . إن هواهم جميعاً واحد ، وإن مشربهم على سواء . .

وهنا ترى فرعون يبعث من مرقده بعد آلاف السنين ، ويحضر مجلس

المشركين فى مكة، وبين يديهم جميعاً آيات موسى ، وآيات محمد ، فيرى فرعون فى آيات محمد ماراًه من قبل فى آيات موسى ، ويرى المشركون فى آيات موسى ما رأوه فى آيات محمد ، وإذا هم جميعاً ينطقون بلسان واحد فى آيات موسى ، وآيات محمد : « سحران تظاهرا » . . أى تساندا ، وتعاونا ، فهـذا سحرٌ ، وذاك سحر . وإذن فهى مؤامرة يأتمر بها هذا الساحران علينا . . قديمـاً وحديثاً « وقالوا : إنا بكل كافرون » . .

فلو أن فرعون بُعث من قبره ، واستمع إلى كلمات الله التى يتلوها محمد لـكفر بها ، ولقال إنها سحرٌ ، كما يقول بذلك المشركون . .

ولو أن المشركين رُدُّوا إلى عهد موسى ، ورأوا من الآيات مارأىفرعون لقالوا ما قال فرعون فيها : « ما هذا إلا سحر مفترى » !

وهكذا يلتقى أهل الضلال والفساد على طريق واحد ، ينتظم السابقين منهم واللاحقين ، ويجمع الماضين والحاضرين . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم . . تشابهت قلوبهم » (١١٨ : البقرة) .

قوله تعالى :

• « قل فأتوا بكتابٍ من عند الله هو أهْدَى منهما أتبعهْ إنْ كنتم صادقين » .

هو ردٌّ على مجتمع الضالين الغـاوين ، الذين كفروا بآيات موسى ، وآيات محمد ، وقالوا إنها سحرٌ ، يظاهر بعضُه بعضاً ، وإنا بهذا وبهذا كافرون .

وإذن فبم يؤمنون ؟ وبأى كتاب يصـدّقون ؟ فليأتوا بكتاب يحمل من معالم الحق ، أكثر وأضوأ مما يحمل موسى، ومحمد، من آيات الله ، حتى تـكون

لهم حجة يقضون بها على هذه الآيات ، ولا يكون لمحمد إلا أن يتّبع هذا النور الذى يغطى على نور هذه الآيات !

وفى قوله « من عند الله » . إشارة إلى أن هذه الآيات التى مع موسى ، ومع محمد ، هى من عند الله ، وليس فى هذا قيد يتقيد به المشركون المطالبون بالإتيان بما هو أهدى من آيات موسى ومحمد ، بل إن لهم أن يأتوا بالكتاب المقترح عليهم ، من أى مورد يردونه ، على شريطة أن يكون أهدى مما هو معروض عليهم من آيات الله تلك ! وإنما قوله « من عند الله » هو تقرير لحقيقة واقعة ، وهى أن ما يأتى به الرسل ، هو من عند الله ، فتلك هى الحقيقة ، وهو ما يصرح به الرسل أنفسهم ، فى مواجهة أقوامهم . . فهو تحدّ لهم بأن يتصلوا بالله ، ويتلقوا منه كتاباً سماوياً . . فهذا هو الوجه الذى يطلب منه الكتاب ، الذى يناظر هذين الكتابين !

والسؤال هنا ، هو : إذا كان مفهوم ما أوتيه موسى هو تلك الآيات المادية ، التى عرضها على فرعون ، فكيف يستقيم النظم القرآنى ، على هذا الفهم ، وقد جاء قوله تعالى :

« فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما » ؟ ألا يدلّ الضمير فى « منهما » على أن المراد بآيات موسى هى كتابه ، وهو التوراة ؟

ونقول ـ والله أعلم ـ إن آيات موسى المادية هى بعض رسالته ، وهى مكملة للكتاب الذى تلقاه من ربه . . فهى بهذا صحف من كتاب موسى . .

وعلى هذا ، فإن هذه الآيات المادية ، إذا اجتمعت إلى الآيات القرآنية ، كان منهما كتابان ، كتاب مادى ، وكتاب كلامى . . وقد كذب المشركون قديماً وحديثاً بالكتابين معاً ، ما اشتمل منهما على آيات مادية ، وما اشتمل على آيات كلامية . .

قوله تعالى :

* « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهْوَاءهم ومن أضلّ مِمَّنْ اتبَعَ هواه بغير هُدًى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين » .

الاستجابة هنا مُرادةٌ لأمرين : أن يأتى المشركون بكتاب من عند الله ، هو أهدى من الكتابين المنزلين من الله ، فيتبعهم النبىّ ، أو أن يظهر عجزهم ، فيؤمنوا بهذا الكتاب الذى يتلوه الرسول عليهم ، ويدخلوا فى دين الله . .

فإن لم يستجيبوا ، ولم يؤمنوا بالله وبرسوله ، وبكتاب الله ، فليس لهم وجهة إلا أن يضلوّا ، ويتبعوا أهواءهم الفاسدة . . فليعلم الرسول هذا ، وليقمْ موقفه منهم على هذا التقدير .

— وقوله تعالى : « ومن أضلّ مِمّن اتبع هواه بغير هدًى من الله » هو تأكيد لضلال هؤلاء المشركين ، وأنهم إنما ينقادون لأهوائهم ، انقياد الكلب لصاحبه . . وأهواؤهم ضالة فاسدة ، لا تقود إلا إلى ضلال وفساد !

والاستفهام هنا بمعنى النفى . . والتقدير : أنه لا أضل ممن اتبع هواه بغير هدًى من الله

والسؤال هنا : ما السرّ فى تقييد الهوى المضلّ بهذا الوصف ، وهو أنه بغير هدًى من الله ؟ وهل يكون هناك هوًى معه هدى من الله ؟

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ أن الهوى مضلّة أبداً ، وأن الإنسان حيث يتبع هواه ، فهو على ضلال ، كما يقول سبحانه فى ذمّ المشركين : « إن يتبعون إلا الظنّ وما تهوى الأنفس » (٢٣ : النجم) .

وكما يقول سبحانه : « أفمن كان على بينة من ربّه كمن زُيّن له سُوء عمله واتبعوا أهواءهم » (١٤ : محمد) .

والإنسان ـ من حيث هو إنسان ـ لا يخلو من الهوى .. فإذا كان مع الهوى هـدًى من الله ، غلَب الإنسانُ هواه وقهره .. وإذا لم يكن معه من هدى الله شيء ، يمسك زمام هواه ـ كان على طريق الهوى أبداً ، لا يعدل عنه إلى طريق الحق والهدى أبداً .. ولهذا جاء الوصف لأصحاب الهوى الذين لا يلقاهم هُدًى الله ، مقرِّراً ،أنهم أضلُّ الضالين .. « ومن أضَلُّ ممن اتبع هواه بغير هُدًى من الله ؟ » .

فقد يضلّ الإنسان ، وينحرف ، متبعاً هواه ، ولكن حين يلقاه هُدًى الله على طريق غوايته ، يستقيم ، ويهتدى .. أما إذا لم يلقه هـدى الله ، فلن يهتدىَ أبداً !

وقوله تعالى : « إن الله لا يهدى القوم الظالمين » حكم من الله سبحانه وتعالى على هؤلاء الضالين ، الذين اتبعوا أهواءهم أنهم لن يهتدوا أبداً ، لأن هُدًى الله لا يلقاهم على طريق ، لأنهم ظالمون ، والله لا يهـــدى القوم الظالمين ..

الآيات : (٥١ — ٥٧)

* « وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِي

مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولقد وصَّلنا لَهُمُ القولَ لعلهم يتذكرونَ » .

كانت الآيات السابقة تمهيداً للقاء المشركين وعرضهم على كتاب الله رضاً مباشراً ، بعد أن رأوا ماهم فيه من ضلال وعناد ، ومكابرة فى الحق ، وأنهم وفرعون فى هذا المقام على سواء ، حتى لكأنهم أبناؤه الوارثون لكل ما عُرف عنه من جَوْر وجبروت . . والمراد بالقول هنا ، القرآن الكريم ، وتوصيل القول ، وصل بعضه ببعض . . وهذا ما يشير إلى الأسلوب الذى نزل عليه القرآن الكريم ، وإلى الحكمة المرادة من هذا الأسلوب . . فقد نزل القرآن الكريم منجما ، آيات آيات ، وسورة سورة ، وَلم ينزل مرة واحدة ، كما نزلت الكتب السابقة ، فكان نزوله ــ مكياً ومدنياً ــ فى نحو ثلاث وعشرين سنةً . . أما الحكمة المرادة من هذا الأسلوب الذى نزل عليه القرآن الكريم ، فهى ما كشف عنه قوله تعالى فى هذه الآية : « لعلّهم يتذكرون » وما كشف عنه قوله تعالى أيضاً : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملةً واحدة ؟ كذلك لنثبت به فؤادك ورتّلناه ترتيلًا * ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسنَ تفسيرا » (٣٢ — ٣٣ : الفرقان) .

فنزول القرآن على هذا الأسلوب ، يثير أشواق المؤمنين ، الذين كانوا ينتظرون كل يوم خبراً جديداً ، ينزل من السماء فيلقونه ، بوجودهم كله ، حتى لكأن الذى نزل عليهم ليومهم هو كل القرآن الكريم .. وهكذا كانت الآية أو الآيات المنزلة ، تمثل القرآن الكريم كله ، حيث يرون فيها دعوة الإسلام ، ورسالته .. عقيدةً وشريعة ، وبهذا يرون مع كل وحى يتلقاه الرسول دعوة مجددة إلى الله ، وإلى دين الله ، فيزدادون إيماناً ويقيناً ، ويترشفون ما يروى ظمأهم من هذا المورد العذب .. قطرة قطرة ، فيكون ذلك أنقع وأنفع .. أما المشركون فإن لهم فى نزول القرآن ـ منجماً ـ واعظاً يطلع عليهم من آيات الله مع كل وحى يوحَى إلى الرسول ، وإن لهم من كل آيات تتنزل ، نذيراً ، يختلف وجهه ، وتختلف طلائع نذره عن سابقه . . وهكذا يدخلون مع كل وحى يوحَى ، فى صراع جديد ، وفى تجربة جديدة ، وفى هذا ما يقيمهم دائما على اتصال بالدعوة ، طوال هذه المدة التى نزل فيها القرآن . . وهذا من شأنه أن يصفى ما بالنفوس من شر وخير ، يوماً بعد يوم ، وفى كل يوم يزداد أهل الخير قرباً من الإسلام ، على حين يزداد أهل الشرّ بعداً ونفوراً . .

قوله تعالى .

* « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون »

المراد بالذين أوتوا الكتاب هنا ، هم بعض اليهود والنصارى ، الذين دخلوا فى الإسلام ، وقد عرفوا أنه الحق من ربهم ، وأنه الدين الذى كانوا ينتظرون الرسول المبلغ له ، والذى بشرت به التوراة والإنجيل .

ـــ وقوله تعالى : « من قبله » متعلق بآتيناهم ، أى آتيناهم الكتاب من قبل هذا الكتاب الذى نزل على محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه .

وفى الآية تحريض للمشركين من قريش ، ومن العرب عامة ، إلى المبادرة بأخذ حظهم من الكتاب الذى نزل عليهم . من قبل أن يسبقهم إليه أهل الكتاب ، وينتزعوا منهم هذا الشرف الذى ساقه الله إليهم ، وندبهم له . .

— وقوله تعالى «هم به يؤمنون» ـ إشارة إلى أن أهل الكتاب ، عندهم عن هذا الكتاب الدلائلُ والشواهد التى تدعوهم إلى الإيمان به ، وأنهم ما إن يلقوْنه حتى يؤمنوا به ، إذا لم يحجبهم عن هذا الإيمان ما يثور فى صدورهم من دخان العصبية ، والحسد . . وهذا هو بعض السر فى قوله تعالى . « يؤمنون » الذى يدل على توقع حدوث الفعل بدلا من « مؤمنون الذى يدل على وقوع الحدث فعلاً .

قوله تعالى :

* « وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين » .

فى هذا إشارة إلى أن أهل الكتاب بما عندهم من دلائل وشواهد على صدق القرآن الكريم ـ مهيئون للإيمان بكتاب الله ، والتصديق به . . وإنهم إذا تتلى عليهم آياته ، لم يتلبثوا ولم يترددوا ، بل أسرعوا بالاستجابة له : «قائلين آمنا به . . إنه الحق من ربنا . . وإنه الدين الحق الذى دان به النبيون وأتباعهم من قبل . . ولهذا فنحن إذ نؤمن بهذا القرآن لم نتبدل ديناً بدين ، وإنما نحن بديننا الذى ندين به ، ندخل فى الإسلام الذى دُعينا إليه . . فديننا من الإسلام ، والدين الذى ندعى إليه هو الإسلام ، فإذا التقينا بالأصل كان لزاماً علينا أن ندخل فيه بما معنا من فرع . . والله سبحانه وتعالى يقول : « إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم . . بغياً بينهم » (١٩ : آل عمران)

وليس كل أهل الكتاب ـ كما قلنا ـ هم على هذه الشاكلة ، وإنما قلة قليلة منهم ، هى التى عرفت الحق وآثرت اتباعه ، وكثرتهم الكثيرة ، عرفت الحق ، ولكنها آثرت الهوى ، وفى هذا يقول الله تعالى : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » (١١٠: آل عمران) « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » « ٢١٣ : البقرة » .

قوله تعالى :-

* « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون »

الإشارة هنا إلى الذين يؤمنون من أهل الكتاب بكتاب الله . . فهؤلاء يؤتيهم الله أجرهم وثوابهم مضاعفاً ، لأنهم جمعوا بين الحسنيين ، الدّين الذين كانوا يدينون به ، ولم يخالطوه بزيف أو ضلال ، والدين الجديد الذى استجابوا له ، ولأنهم صبروا على المكاره التى تأتيهم من قومهم ، من أهل الكتاب وقد خرجوا على إجماعهم ، واتبعوا الطريق الذى هداهم الله إليه . . ولأنهم لا يلقون إساءة المسيئين إليهم من قومهم بالإساءة ، بل يلقون الإساءة بالإحسان « ويدرءون بالحسنة السيئة » . . ولأنهم لا يكنزون الذهب والفضة ، كما يفعل كثير من الأحبار والرهبان ، بل ينفقون فى وجوه الخير مما رزقهم الله . .

قوله تعالى :

* « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين »

هو بيان لأسلوب من أساليب درء السيئة بالحسنة . . فهؤلاء الذين آمنوا من أهل الكتاب ، إذا لقيهم قومهم بالسفاهة ، لم يقفوا معهم فى هذا

الموقف ، بل أعرضوا، قائلين : لنا أعمالنا ولـكم أعمالـكم سلام عليكم ، لا نجالس الجاهلين ، ولا نتجه إليهم ، وإنما نحن طلاب هدى وحق . . نطلب أهل الهدى والحق ، ونرتاد مجالس أهل العلم والمعرفة !

هذا ، ويلاحظ أن هذه الآيات مكية ، أى أنها نزلت ولم يكن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد التقى أهل الـكتاب بدعوته لقاء مباشراً ولهذا جاء أسلوب النظم معلقاً بالمستقبل . . مثل قوله تعالى : « هم به يؤمنون » وقوله : « وإذا يتلى عليهم قالوا » . . وقوله : « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه » . . فهذا إرهاص بما سيطلع به المستقبل من موقف أهل الـكتاب من رسول الله ، ومن الـكتاب الذى معه . .

وهذا العرض المسبَّق لأحداث المستقبل ، فوق أنه تلويح لأهل الـكتاب بما لهم من شأن فى الدعوة الإسلامية ـ هو ـ كما قلنا ـ تحريض المشركين من العرب ، أن يبادروا بالدخول فى هذه الدعوة ، وأن يسبقوا إلى الإيمان بها ، فهم أحق بها وأهلها . . ثم هو تثبيت لقلوب المؤمنين ، بعرض ما يلقاه المؤمنون على طريق الإيمان من مكاره ، وما يساق إليهم من أذى . . وأنهم يقابلون ذلك بالصبر ، ودفع السيئة بالحسنة ، والإعراض عن السفاهة . .

قوله تعالى :

« إنك لا تهدى من أحببت ولـكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » هو تعقيب على هذا الموقف الجانبى ، الذى عرض فيه القرآن الـكريم على أنظار المشركين، ما سيكون من أهل الـكتاب مع الدعوة التى يدعوهم إليها رسول الله ، وأن كثيراً منهم سيدخلون فى هذا الدّين . .

وفى هذا التعقيب إشارة إلى أن كثيراً من المشركين من قوم الرسول ، وذوى قرابته لا يدخلون فى هذا الدّين ، ولن يكونوا فى المؤمنين ، ولو حَرَص الرسول على هداهم ، وأحَبَّ أن يراهم فى المهتدين المؤمنين . فليس للرسول أن يهدى من أحبّ ، وإنما هو يهدى من أراد الله له الهداية . وغير قليل من حرص الرسول الكريم على هداهم ، لم يرد الله لهم الهدى ، وإذن فلن يهتدوا أبداً . . « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » (٥٦ : القصص) .

وفى هذا ما يكشف عن صميم الدعوة الإسلامية ، وعن عظمة هذه الدعوة ، وعن شمولها وعمومها ، وأنها تقوم على مبدأ إنسانى عام ، لا يخالطه شىء من قرابة أو عصبية ، حتى ولو كانت قرابة صاحب الدعوة ، وعصبيته . . فهذه دعوة من الله إلى عباده ، ومائدة سماوية ممدودة إلى كل من تهفو نفسه إليها ، وتمتد يده لها . . فمن جاء فلا يردّ ، ومن أبى فلا يُحمل إليه الزاد ، ولا يُحمل هو عليه . . وها نحن أولاء نرى على مائدة السماء تلك ، أيدياً غريبة متمكنة ، تنال من كل شىء منها ، على حين نرى أيدياً من أهل بيت النبىّ الذى تُمَدُّ المائدة فى رحابه ــ ليس لهم مكان على هذه المائدة . . فنرى على المائدة رجالا كبلال الحبشى ، وسلمان الفارسىّ وصهيب الرومى ، ولا نرى أبا طالب عم النبى ! . . ومن عجب أن يكون هذا فى مجتمع يقوم أمره كله على العصبية ، وتجرى حياته كلها على اقتسام الخير والشر بين أبناء البيت الواحد ، أو القبيلة الواحدة . . وهذا أبلغ شاهد ، من شواهد كثيرة لا تحصى على أن دعوة الإســلام من وحى السماء ، وليس للبشر صفة فيها أو تدبير لها . . إنها من عند الله ، لعباد الله .

قوله تعالى :

* « وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا . . أو لم نمكن لهم حرماً آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا . . ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

من تَعِلاّت المشركين ، الذين أبوا أن يستجيبوا لرسول الله ، وأن يدخلوا فى دين الله — هذا القول الذى يقولونه زوراً وبهتاناً : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » !.

وهذا القول منهم ، هو شهادة عليهم بألسنتهم ، بأنهم أهل سفه وضلال ، وليسوا أصحاب مبادىء وأخلاقيات . . إذ كيف يعلمون أن هذا الذى يدعون إليه هو الهدى ، ثم لا يتبعونه ، ويؤثرون أن يعيشوا فى ضلال ، خوفاً من ضرّ يلقاهم ، أو أذى يصيبهم ؟ ومتى كان أصحاب المبادىء والمثل ، يخشون ضراً ، أو يرهبون أذى ؟ ألاَ ينظرون إلى بلال وإلى أبيه وأمه ، وإلى غيرهم وغيرهم ، وهم يُطعَمون من أيديهم هذا العذاب الأليم ، فى سبيل المبدأ والعقيدة،دون أن يزحزحهم عنه هذا البلاء الذى مات بعضهم تحت سطوة سياطه ، وهو يقول : « أحد أحد » ! ألم يكن لهم فى هذه المواقف البطولية عبرة وعظة ؟ ألا يدعوهم الشرف والمروءة — وهم السادة الأشراف — أن يرتفعوا إلى هذا المستوى الذى ارتفع إليه عبيدهم وإماؤهم ؟ ولكنها العقول حين تضل ، والبصائر حين تعمى . . ! !

ثم مَن قال لهؤلاء الضالين ، إنهم لو اتبعوا الهدى سيتخطفون من أرضهم؟ ألا يرون ما لله عليهم من فضل وإحسان ، وقد جعل لهم ـ وهم فى الشرك والضلال ـ حَرَماً آمناً ، حيث يُتخطف الناس من حولهم ، وهم فى حرم الله آمنون ، وحيث تحج إلى هذا الحرم قبائل العرب جميعاً ، تحمل إليهم مما فى أيديها من ثمرات وخيرات ، كما تحمل إليهم مما فى قلوبها من توقير وتكريم ، لما لهذا البيت من توقير وتكريم ؟ فإذا كان ذلك هو شأن الناس معهم وهم على الشرك والضلال ، أفلا يكون لهم مثل هذا الشأن،وهم على الهدى والإيمان؟

ألاَ إنه العناد الذى يهلك أهله .. « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » (٤١ : المائدة) .

الآيات : (٥٨ — ٧٠)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وكم أهلكنا من قرية بطِرت معيشتَها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين » .

ذكرت الآية السابقة على هذه الآية ، ما لله سبحانه وتعالى من فضل على البلد الحرام وأهله ، إذ جعله بلداً آمنا ! تهوى إليه الأفئدة ، وتعظمه القلوب ، وجعل لأهله حرمة فى الناس ، فأمنوا ما كان ينزل بالناس حولَهم من بغى وعدوان . . وقد كشفت الآية كذلك عن كذب هذا الادعاء الذى يدعيه المشركون ، وهو أنهم إذا اتبعوا الهدى ، زال عنهم وعن بلدهم ، هذا الأمن الذى هم فيه ، وتخطّفهم الناس !

وفى هذه الآية ، يهدد الله سبحانه وتعالى هؤلاء المشركين بالنقم التى حلت بكثير من القرى قبلَهم ، فقد كانت تلك القرى آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فلما كفرت بأنعم الله ، وبطرت معيشتها ، أى استخفت بالنعمة وكفرت بها — أذاقها الله لباس الجوع والخوف .. وكذلك هؤلاء المشركون ، هم فى قرية آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، ويُجْبَى إليها ثمرات كل شىء ، وقد بطروا وأشروا ، فأشرف بهم هذا البطر والأشر ، على مواقع الهلاك والبلاء ، ليلحقوا بمن كانوا على شاكلتهم من أهل تلك القرى التى كفرت بأنعم الله . .

قوله تعالى :

* « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون » .

فى هذه الآية إشارة إلى أن أهل هذا البلد الحرام ، قد بطروا معيشتهم ، وكفروا بأنعم الله ، واستوجبوا العذاب والبلاء . . ولكن الله سبحانه وتعالى — رحمةً بعباده ، وإقامة للحجة عليهم — لم يشأ أن يأخذهم بذنوبهم قبل أن يَعذِر إليهم ، وينذرهم على يد رسوله . . فما أهلك سبحانه وتعالى قريةً من القرى إلا بعد أن بعث إليها رسولا مبشراً ومنذراً ، كما يقول سبحانه : «وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون» (٢٠٨ : الشعراء) .

وها هى ذى القرية ، البلد الحرام ، قد كفر أهلها بالله ، وهاهو ذا رسول الله فيهم ، قد جاء لينذرهم بين يدى عذاب شديد . . فإن هم استجابوا له ، ورجعوا عما هم فيه نجوْا ، وسلموا من بأس الله فى الدنيا ، ومن عذابه فى الآخرة ، وإن أبوا إلا ضلالا وعناداً ، فهم فى الهالكين . . «لهم فى الدنيا خِزْىٌ ولهم فى الآخرة عذاب عظيم» (٤١ : المائدة) .

والأمّ : الرأس من كل شىء . . وأم القرى رأسها ، ومجتمع قراها . . وهى هنا مكة . . وفى هذا يقول الله تعالى : «ولتنذر أم القرى ومن حولها» (٩٢ : الأنعام) .

قوله تعالى :

* «وما أوتيتم من شىء فمتاعُ الحياة الدنيا وزينتُها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون» .

هو نذير من تلك النذر ، التى ينذر بها القوم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن أكثر ما يصرفهم عن الدعوة الإسلامية ، ويُصمّ آذانهم عنها ، هو خوفهم على مافى أيديهم من جاه وسلطان ، وما يجلبه عليهم جاههم وسلطانهم من مال ومتاع . . فكان قوله تعالى : «وما أوتيتم من شىء

فمتاع الحياة الدنيا وزينتها » — تهوينا لشأن ما فى أيديهم من مال ومتاع يحرصون عليه ، ويضحون بكل شىء من أجله .. فهذا الذى أوتوه ، هو من متاع الدنيا وزخرفها ، والدنيا زائلة ، ونعيمها زائل ، وما عند الله من أعمال صالحة ، يقدّمها المؤمنون ليوم الجزاء — هو الذى يبقى ، وهو الذى يدوم خيره ، ويتّصل نعيمه ..

— وفى قوله تعالى : « أفلا تعقلون » تخسئة لهؤلاء الضالين ، الذين حرصوا على أموالهم ، وزهدوا فى عقولهم ، فلم ينظروا بها إلى أكثر مما وراء المال والمتاع ! .

قوله تعالى :

* « أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين » .

الوعد الحسن : هو الجزاء الطيب الكريم ، الذى وعد الله عباده المؤمنين فى الآخرة ، من جنات ونعيم ..

والموازنة هنا ، بين المؤمنين والمشركين ، حيث يتضح بُعد ما بينهما .. فالمؤمنون على وعد من ربهم بالجنة ، وهم سيلاقون هذا الوعد : « وعدَ اللهِ لا يخلف الله وعده » (٦ : الروم) والكافرون يُمتعون فى هذه الدنيا متاعاً قليلا ، ثم يُحضرون يوم القيامة إلى الحساب والجزاء وليس لهم فى الآخرة إلا النار .. !

— وفى قوله تعالى : « من المحضرين » — إشارة إلى أن الكافر إنما يساق سوقاً إلى الحشر ، ويدفع دفعاً إلى موقف الحساب ، ويُدَعُّ دعاً إلى النار .. فمن ورائه سائق عنيف يسوقه إلى تلك المكاره ، التى يودّ لو أن له طريقاً يعدل به

عنها . . « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » (٢١ : ق) فهذه هى نفوس الضالين المكذبين ، الذين لم يعملوا لهذا اليوم ، ولم يكونوا على وعد بما وُعد به المؤمنون ، من لقاء ربهم ، ومن الجزاء الحسن الكريم عنده .. فالمؤمنون : « لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون » (١٠٣ : الأنبياء) .

قوله تعالى :

* « ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون » ؟

الضمير فى « يناديهم » يعود للمشركين جميعاً ، على اختلاف معبوداتهم ..

والسؤال هنا ، سؤالُ تعجيز للمشركين ، حيث يتبرأ بعضهم من بعض ، ويفر بعضهم من وجه بعض ، ويتلفت كل مجرم ، فلا يرى إلا آثامه ، تحيط به وتنادى بمخازيه ..

قوله تعالى :

* « قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون » .

الذين حق عليهم القول ، أى وجب عليهم العذاب ، فكانوا من أهل النار . .

وقد كان السؤال موجها إلى المشركين جميعاً ، ليُحضروا آلهتهم التى عبدوها من دون الله . . وهنا يبادر أهل الرياسة والسلطان ممن كانوا سَدَنة هذه الآلهة ، والدعاةَ لها بين الناس ـ ليدفعوا عن أنفسهم هذا البلاء العظيم ، إذ يرون أنهم هم الذين زينوا للناس الشرك ، وساقوهم إلى هـذا الضلال . . فيقدمون هذا العذر : « ربّنا هؤلاء الذين أغوينا » ... أى هذه هى جريمتنا

ممثلة فى هؤلاء الأتبـاع الذين أغويناهم ، ولـكنا أغويناهم كما غوينا نحن ، فنحن غَوْينا ، ثم أغويناهم بما كنا فيه من غواية ، وإذن فنحن وهم على سواء.. « تبرأنا إليك » من كل شرك ، وتبرأنا إليك من تعلق هؤلاء الضالين بنا . . « ما كانوا إيانا يعبدون » وإنما كانوا يعبدون ما نعبد من ضلال !!

وهكذا يجرّ هؤلاء الرؤساء أتباعهم معهم إلى هـذا المصير المشئوم ، ليشاركوهم البلاء والعذاب . .

وذلك أنهم ظنوا حين وُجه السؤال فى قوله تعالى : « أين شركائى الذين كنتم تزعمون » أنه لو سبقهم أتبـاعهم إلى الإجابة على هـذا السؤال ، وقالوا : هؤلاء هم الذين دعوْنا إلى عبادة ما عبدنا من آلهة — لعلقت التهمة بهم وحدهم ، ولنجا أتباعهم ، وفى هذا مايضاعف بلواهم ، ويزيد فى حسراتهم.. أما حين يؤخذ الجميع ، ويعمهم البلاء ، فإن البلاء — وإن عظم — يهون ، وإن الحسرة — وإن اشتدت — تخفّ . . ا هكذا فـكروا وقدّروا . .

قوله تعالى :

* « وقيل ادعوا شركاءكم فدعوْهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لوأنهم كانوا يهتدون » .

الشركاء : هم من أشركوا بعبادتهم ، واتخذوهم آلهة من دون الله . .

والأمر بدعاء الشركاء ، تيئيس لهم ، وتنديم لما كانوا فيه من ضلال ، حيث كانوا يتعلقون بهؤلاء المعبودين فى الدنيا ، ويرجون منهم ما يرجو المؤمنون من ربهم — وحين جاء وقت الامتحان ووقف المشركون على النار ، قيل لهم : ادعو شركاءكم ، ليدفعوا عنكم هذا البلاء . . « فدعوْهم . . فلم يستجيبوا لهم » ولم يسمعوا إلا لحيح جهنم ، وشهيقها . .

— قوله تعالى: «ورأوا العذاب» هو معطوف على قوله تعالى «فلم يستجيبوا» أى أنهم حين دَعوْا شركاءهم الذين عبدوهم من دون الله، وهتفوا بهم أن أغيثونا، لم يروْا لهم ظلا، ورأوا العذاب فى الموقع الذى كانوا ينتظرون أن تطلع عليهم منه آلهتهم تلك.. وفى ذلك ما يضاعف من بلائهم ويزيد فى حسرتهم.

— وقوله تعالى: «لو أنهم كانوا يهتدون».. هو صوت منطلق من وراء هذا المشهد، الذى عرض فيه المشركون وهم فى الدنيا، هذا العرض الذى رأوا فيه المصير الذى هم صائرونَ إليه، إذا هم ظلوا على ماهم فيه من عمى وضلال.. وهذا الصوت هو صوت العبرة والعظة، المندسة فى كيان هذا العرض، الذى شهده المشركونْ، وإذ لم يجدوه فى أنفسهم، جاء إليهم من خارج، فى دعوة مجددة تدعوهم إلى الإيمان بالله، والانخلاع عن هذا الشرك الذى هم فيه.

وجواب لو محذوف، دل عليه مضمون الكلام السابق.. والتقدير: إن فى هذا العرض لعبرة وعظة لهم، لو كانوا يهتدون.. أى لو كانوا ممن يقبل الهدى، ويستجيب له، لكان لهم من هذا الموقف عبرة وعظة.

قوله تعالى:

* «ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين»

هو منَ سياق قوله تعالى فى الآية السابقة: «لو أنهم كانوا يهتدون».. فقد قلنا إن هذا صوت يستحثهم على الهدى، ويدعوهم إلى ترك ما هم فيه من شرك.. فإذا وقع هذا الصوت موقعاً من قلوبهم، وأرادوا أن يطلبوا الهدى، لَقِيَهم الرسول الكريم، الذى يدعوهم إلى الله، وهم يُصمّون آذانهم عنه.. وتلك جناية أخرى من جناياتهم على أنفسهم، حيث يُدْعون فى يوم القيامة

ويسألون . « ماذا أجبتم المرسلين ؟ » أى بماذا أجبتموهم لما دعوكم إليهم ؟ ولا جواب لهم إلا الإقرار بالجريمة ، وأنهم قد صدوا عن سبيل الله ، وكفروا بالله وبرسوله . .

قوله تعالى :

* « فَعَمِيَتْ عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون »

*أى أنهم فى هذا اليوم يستولى عليهم حال من الذهول ، تتبلد به حواسهم، ويطير معه صوابهم ، وتنعقد منه ألسنتهم ، فلا يدرون شيئاً ، ولا ينطقون بشىء . . ! !

قوله تعالى :

* « فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين » .

هو لقاء من جديد ، بدعوةٍ محددة ، إلى هؤلاء المشركين ، وقد عادوا التوهّم من يوم القيامة ، ليتوبوا ، ويرجعوا عما هم فيه من ضلال وشرك ، ويؤمنوا بالله ويعملوا صالحاً ، فإن فعلوا ذلك ، كانوا على الطريق الذى يعدل بهم عن جهنم إلى الجنة ، وينقلهم من الخسران إلى الفلاح . .

وفى قوله تعالى : « عسى » — إشارة إلى أن فلاح المؤمن ، إنما يكون بفضل من عند الله ، وأن على المؤمن أن يعلق رجاءه بالله ، لا بما يعمل من صالحات !

قوله تعالى :

* « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان وتعالى الله عما يشركون » .

هو بيان لما جاء فى قوله تعالى : « فعسى أن يكون من المفلحين » فالإيمان بالله ، والعمل الصالح ، فضل من أفضال الله على عبده ، وإذن فليكن نظر العبد متجها دائما إلى ربه ، وإلى الطمع فى رحمته ، وليعلم أن الأعمال الصالحة ـ وإن كانت مطلوبة من المؤمن لأنها سبيل إلى مرضاة الله ـ فإنها لا تدخله الجنة ، وإنما الذى يدخله الجنة ، هو رحمة الله ، التى تحرس إيمانه وتيسر له السبيل إلى الأعمال الصالحة . .

— وقوله تعالى : «وربك يخلق ما يشاء ويختار» . . أى أنه سبحانه ، يخلق ما يشاء من مخلوقات ، ويختار لكل مخلوق طريقه الذى يأخذه ، إلى الهدى أو الضلال ، وإلى الجنة أو النار . .

—وقوله : « ما كان لهم الخيرة »— هو نفى لأن يكون لأحد مع إرادة الله إرادة ، ومع اختياره اختيار . . .

وقد عرضنا لهذه القضية من قبل تحت عنوان : « مشيئة الله ومشيئة العباد »[1]

— وقوله تعالى: « سبحان الله وتعالى عما يشركون » تنزيه لله عما يشرك به المشركون من آلهة ، ويدّعون أن لهم فى هذا الوجود تصريفاً بنفع أو بضر . .

قوله تعالى :

* « وربك يعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون »

هو بيان لقدرة الله القادرة ، وعلمه الشامل ، المحيط بكل شىء . .

---

(١) انظر التفسير القرآنى للقرآن ، وكذلك كتابينا : « قضية الألوهية » « والقضاء والقدر » .

قوله تعالى :

* « وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون »

هو الوصف اللائق لله سبحانه وتعالى ، الذى يتفرد به ، لا يشاركه فيه أحد . .

فهو سبحانه . « الله » المتفرد بالألوهية ، « لا إله إلا هو » تفرد وحده سبحانه بألوهيته . . « له الحمد فى الأولى » أى فى الدنيا « والآخرة » يوم القيامة ، حيث يحمده . كل مخلوق على ما هو عليه من خَلْق أقامه الله فيه ، كما يقول سبحانه : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » (٤٤ : الإسراء) « وله الحكم » أى التصريف والسلطان ، فى كل ما فى الوجود ، يدبره كيف شاء علمه ، وقضت إرادته ، لا معقب لحكمه . . « وإليه ترجعون » أى إليه يرجع الناس بعد الموت ، ليروا أعمالهم ، ويجزوا عليها . . « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . (٧ — ٨ : الزلزلة) .

الآيات : (٧١ — ٧٥)

* « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوٓا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) »

التفسير

قوله تعالى :

* « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون »

السرمد : الدائم ، والنسبة إليه سرمدى . .

والآية وما بعدها ، استعراض لقدرة الله سبحانه وتعالى ، وإحسانه إلى خلقه ، وفضله عليهم ، ورحمته بهم . . فلو شاء سبحانه أن يجعل الليل قائما على هذه الأرض ، لا يعقبه نهار أبداً ، لا ستولى الظلام على هذا الكوكب ، وعلى من فيه وما فيه ، ولما كان لأحد أن يغير هذا الوضع القائم أبداً . .

— وفى قوله تعالى : « أفلا تسمعون » إشارة إلى أن الحاسة العاملة فى الإنسان ، عند الظلام ، هى حاسة السمع ، حيث يبطل عمل البصر ، ويتحول المجال الحسى للإنسان كله ، إلى أذن تسمع ! . . فالناس فى عالم الظلام ، تتجمع حواسهم فى سمعهم . . ومع هذا ، فإن هؤلاء المشركين لا يسمعون ، حتى حين يكون السمع هو الوسيلة الوحيدة للإنسان فى اتصاله بالحياة . . !

قوله تعالى :

* « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون »

وكما فى قدرة الله سبحانه ، أن يحبس الليل ، فلا يتحول عن مكانه من الأرض ، كذلك فى قدرته جل شأنه أن يجعل من النهار سلطاناً قائما على الأرض لا يتحول عنها أبداً ، ولا يجد الناس ـ ولا الكائنات الحية ـ هذا الليلَ الذى يلف الوجود بردائه ، ويريح الكائنات على صدره . .

— وقوله تعالى : « أفلا تبصرون » ـ إشارة إلى أن حاسة البصر فى هذا النور الدائم الذى لا ينقطع أبداً ، تكون هى الأداة العاملة فى الإنسان . . ومع هذا ، فإن المشركين ، لا يبصرون فى هذا النور الغامر ، الساطع ، الدائم . .

قوله تعالى :

* « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » هو تعقيب على الآيتين السابقتين ، ورد على ما سئل عنه المشركون ، وأعياهم الجواب عنه . .

فالله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعل الليل سرمداً ، أو النهار سرمداً ، بل جعل الليل والنهار ، ووصل بعضهما ببعض ، ولم يجعل لأحدهما وجوداً بغير الآخر . . وجعل ذلك رحمة منه سبحانه ، بعباده ، وإحسانا إليهم . .

— وقوله تعالى : « لتسكنوا فيه » الضمير فى « فيه » يعود إلى الليل . وفى ذلك إشارة إلى أن الليل ـ وإن كان ظلاما ـ فإنه يحمل معه السكن ، والهدوء والاستقرار ، والراحة ، بعد عمل النهار . .

والضمير فى قوله تعالى : « من فضله » يعود إلى لفظ الجلالة ، أى من فضل الله . .

والابتغاء من فضل الله ، يكون فى كل وقت ، فى النهار ، وفى الليل . ولهذا لم يقيّد بظرف ، كما قُيّد السّكن .

قوله تعالى :

* « ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون » هو تذكير

بقوله تعالى فى مطلع الآيات السابقة : « ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون » (الآية : ٦٢) . . وبهذا يكون ما بين هاتين الآيتين واقعاً فى حيز التهديد للمشركين ، وسؤالهم يوم القيامة عن آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله . . وهو سؤالُ تعجيز ، يراد به وضعهم موضع الاتهام ، ومايلقون فيه من تعنيف وتأنيب . .

وفى تصدير الآيات بهذا السؤال التعجيزى ، ثم ختامها به ـ فى هذا ما يشير إلى أهمية هذه القضية ، التى جاءت الآيات للفصل فيها ، وهى قضية التوحيد بالله !

قوله تعالى :

• « ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون »

نزعنا : أى أخرجنا من كل أمة شهيداً ، وهو الرسول المرسل إليهم . . كما يقول سبحانه : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » ٤١ : النساء » .

ـ وقوله تعالى : « فقلنا هاتوا برهانكم » أى هاتوا حجتكم ، ودليلكم على دينكم الذى تدينون به . .

ـ وقوله تعالى : « فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون » ـ أى فجاء كل إنسان ببرهانه وحجته ، على دينه الذى يدين به ، والإله الذى يعبده ، : وهنا ظهر الحق ، وزهق الباطل .. فأما من كانوا يعبدون الله ، ويؤمنون برسل الله وكتبه ، فقد جاءوا بالبرهان المبين ، على أنهم على الدين الحق ، فقبلهم الله سبحانه فى ملكوته ، وتقبل أعمالهم الطيبة ، وتجاوز عن سيئاتهم . وأما من كانوا يعبدون غير الله ، فقد ضل عنهم آلهتهم ، وتركوهم ليلقوا مصيرهم المشئوم

الآيات : (٧٦ — ٨٣)

* « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين » .

مناسبة قصة قارون هنا ، هى أن الآيات السابقة كانت تعرض مواقف المشركين من رسول الله ، ومن الكتاب الذى بين يديه ، وقد جمعت بينهم وبين فرعون ، وجعلت منه ومنهم جبهة واحدة ، تمثل الكفر ، والعناد ، والعتو ، والفساد فى الأرض . .

وقصة « قارون » تطلع على هؤلاء المشركين من الماضى البعيد بصورة يرون فى بيئتهم من يمشى بينهم فى إهابها ، وكأنما هو « قارون » بُعث من قبره ! وذلك فيمن كان يعيش فى مجتمعهم من أغنياء اليهود ، مثل حيي بن أخطب وغيره . .

فالمشركون فى صورتهم العامة ، فراعين ، فى عتوهم وضلالهم ، تتحرك فى كيانهم أجسام غريبة ، من اليهود ، الذين جمعوا أموالا كثيرة ، بأساليب لا يحسنها غيرهم . . وبهذا تكتمل المشابهة بين مجتمع المشركين ، ومجتمع فرعون . . فكلا المجتمعين يتشكل من عنصر أصيل ، وعنصر دخيل عليه . . وفى العنصر الأصيل كِبر ، وعناد ، واستعلاء ، وفى العنصر الدخيل انحلال ، وفساد ، وعفَن . . وكلا المجتمعين ، بعنصريه ـ الأصيل والدخيل — حرب على الحق والخير . .

— وقوله تعالى : « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من

الـكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين »

هو استحضار لأهل الـكتاب فى شخص اليهود ، ثم استدعاء لليهود فى شخص أغنيائهم ، وأصحاب الثراء فيهم ، ممن هم على شاكلة أبيهم قارون .. وهذا الاستدعاء هو نذير لليهود من قبل أن يلقاهم الرسول لقاء مباشراً ، حتى يأخذوا حِذرهم لأنفسهم من أن يقفوا من قومهم موقف قارون فى أجدادهم ، حين يدعوهم الرسول إلى الله ، فيتصدّى منهم « قارون » أو أكثر من « قارون » لهذه الدعوة . . فإنهم إن فعلوا أخذهم الله كما أخذ قارون من قبل . .

ففى قوله تعالى : « بَغَى عليهم » أى خرج من محيطهم ، وانحاز إلى فرعون ، ونسى أنه على دين يلتقى مع هذا الدين الذى جاء به موسى . . وقد جاءت الأيام بصدق هذه الصورة ، فيما كان بين أغنياء اليهود مِن تحالفٍ بينهم وبين المشركين على محاربة الدعوة إلى الإسلام ، سراً وجهراً . فـكان أن أخذهم الله بما أخذ به المشركين ، كما أخذ الله قارون بما أخذ به فرعون ، وفى هذا يقول الله تعالى : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الـكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً * وأورثـكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها . . وكان الله على كل شىء قديراً » (٢٦ — ٢٧ : الأحزاب)

— وقوله تعالى : « وآتينـاه من الـكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة » :

الفاء هنا للتعقيب ، بمعنى أن هذا الذى آتاه الله قارون من كنوز ، قد كان بعد أن بغى على قومه ، وانحاز إلى فرعون ، وفى ذلك استدراج من الله سبحانه وتعالى له ، حتى يغرق فى الغى والبغى ، كما يقول سبحانه : « أيحسبون

أن ما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم فى الخيرات . . بل لا يشعرون »
(٥٥ — ٥٦المؤمنون) . .

و « ما » فى قوله تعالى « ما إنّ » اسم موصول ، وهو وصلته صفة للكنوز . . أى أن الله سبحانه وتعالى آتاه من المال الذى مفاتحه تنوء بالعصبة أولى القوة .

والمفاتح ، جمع مَفتح ، مثل كوكب . .

والمراد بالمفاتح هنا : المداخل التى يُدخل منها على هذا المال .. وهو لكثرته ونفاسته قد شددت الحراسة عليه .

وفى إسناد ، الفعل إلى المفاتح ، وهى المداخل إلى هذه الأموال ، وجعلها هى التى تنوء بالعصبة أولى القوة — إشارة إلى ما قام على هذه الكنوز من قوى شديدة ذات بأس من الخزنة والحرس ، حتى إنها لتنوء ، وتضعف عن حمل هذه القوى القائمة عليها . . يقال : ناء بالحمل : إذا ضعف عن حمله ، لثقله عليه .. وكذلك المداخل التى يُدخل منها على هذا المال الكثير ، تنوء بما عليها من حراس أقوياء ..

— وقوله تعالى : « إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين » . .
المراد بالفرح هنا : فرح الزهو والعجب والخيلاء . . فهو فرح متولد من تلك المشاعر التى تحرك فى صاحبها دوافع البغى والتسلط . . أما الفرح ، على إطلاقه ، فليس بالمكروه ، إذا كان عن قلب يحمد لفضل الله وإحسانه موقعاً منه ، كما يقول سبحانه : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله »
(٤ — ٥ : الروم) .

— وفى قوله تعالى : « إن الله لا يحب الفرحين » — إشارة إلى أن الفرح

المكروه ، هو الفرح المبالغ فيه ، والذى تُخلى نفس صاحبه من كل شعور بقدرة الله ، وبما لهذه القدرة من تصريف فى شئون العباد ، وتقلّب أحوالهم .. فلو ذكر المرء هذا فى حال من أحوال فرحه ، لتخفف كثيراً مما هو فيه من فرح ، ولعلم أنها حال لا تدوم ، وأنه إذا لم يكن فى مجريات الأحداث ما يقطع هذه الفرحة ، قطعها الموت ، وما وراء الموت من حساب وجزاء . .

« والفَرِحُ » صيغة مبالغة من فرح . .

قوله تعالى :

* « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » . .

هذا مما وصّى به أهلُ الصلاح والتقوى من قوم موسى ، « قارون » ، هذا الذى استبد به العجب بماله ، واستغواه الغى ، بما ضُمت عليه يده من سلطان بهذا المال . .

فهم يدعونه إلى أن يسلك بهذا المال ، الطريقَ الذى تحمد عواقبه ، وتتم به تلك النعمة . .

وقد نصحوا له ألا يستبد به الفرح بما ملك ، وفى ذلك إيقاظ له من سكرة هذا المال ، حتى إذا صحا ، دعوه إلى ما ينبغى أن يسوس به ماله هذا ، فيطلب به رضا الله ، ويقدم منه ما ينفعه فى الآخرة ، ويأخذ منه ما يُصلح به شئون دنياه ، فيجمع بذلك خير الدنيا والآخرة جميعاً . . وأن يحسن وينفق فى وجوه الخير ، مثل ما أحسن الله إليه ، فيلقى إحسان الله بالإحسان إلى عباد الله ، فذلك هو زكاة هذه النعمة ، وألا يتخذ من هذا المال أداة للفساد والإفساد

فى الأرض ، والإضرار بالنـــاس ، وهضم مالهم من حقوق .. إن الله لا يحب المفسدين ..

قوله تعالى :

* « قال إنما أوتيته على علم عندى .. أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون »

وقد استقبل « قارون » هذه الدعوة الحكيمة الرشيدة بالاستخفاف والتحدى ، شأنه فى هذا شأن من غطى على بصره ما امتلأ به كيانه من أشر وبطر ، فجعل كل نصح يُلقىَ إليه ، دَبْرَ أذنه ، ومن وراء ظهره .

— وقوله تعالى : « قال إنما أوتيته على علم عندى » .. إنه ينكر أن يكون لله شىء فيما بين يديه من هذا المال الغمر .. إنه قد توصل إليه بحسن تدبيره ، وجمعه بجهده وكده ..

والعلم الذى أوتيه « قارون » ليس العلم الذى تحصله العقول ، أو تستشفه البصائر ، وإنما هو علم تنضح به الطبائع الخبيثة ، والنفوس المريضة ، من نفاق ومداهنة ، واتجار بالذمم والضمائر ، مما يحسنه اليهود ، ويأخذون به مكان الأستاذية للناس جميعاً .. وقد كان « قارون » فى هذا العلم أستاذاً لهؤلاء الأساتذة .. فجمع هذا المال الوفير الذى كان موضع حسد من كثير من قومه ، كما كان آفة مهلكة له ..

وليس يُعترض على هذا بقوله تعالى : « وآتيناه من الكنوز » إذ قد يُفهم من هذا أن الله سبحانه وقد آتاه هذا المال ، إنما آتاه إياه هِبةً ، وابتدأه به إحساناً ، فهو ـ والأمر كذلك ـ لم يحصّل هذا المال بشىء من تلك الوسائل الخسيسة الفاسدة ، خاصة ، وأن القرآن الكريم قد استعمل هذا الفعل مسنداً إلى الله فى مواضع كثيرة ، وكلّها فى مقام الفضل والإحسان ، وأجلّها ما كان

من إيتاء الله سبحانه وتعالى الكتاب والحكم والنبوة، الكثير ممن اصطفى من عباده . .

وردّنا على هذا :

أولّا : أن هذا لا يدفع أن يكون الله سبحانه وتعالى قد ابتدأ قارون بهذه النعمة ، وأولاه هذا الإحسان . . ثُم كان منه هذا الكفران بالله ، والجحود لفضله عليه ، والله سبحانه وتعالى يقول : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه » (١٧٥ — ١٧٦ : الأعراف) .

وثانياً : أن قول قارون : « إنما أُوتيته على علم عندى » — هو دعوى يدّعيها ، ويبرر بها إضافة هذا المال إلى كسبه بوسائله ، تلك الوسائل التى أشرنا إليها . . فهو ـ فى تقديره ـ كان يحسب أن هذه الوسائل هى التى جلبت له هذا الثراء العريض ، وهذه الوسائل ـ فى تقديره ـ هى علمٌ يحسنه وحده ، ولا يحسنه غيره . . وهذا لا يمنع من أن تكون تلك الوسائل فى ذاتها غير فاعلة ، وإن بدا فى الظاهر أنها هى التى يُردّ إليها هذا الذى اجتمع فى يديه من مال . . وأن هناك أسباباً خفية ، هى التى جلبت له هذا الثراء ، على غير تقدير منه .

وثالثاً : قد يُسند الإيتاء إلى الله سبحانه وتعالى للنقمة فى ثوب النعمة ، كما قال تعالى : « وآتينا ثمود الناقة مبصرةً فظلموا بها » (٥٩ : الإسراء) . . فالذى آتاه الله ثمود هنا ـ وهو الناقة ـ كان بلاء وهلاكا .

ورابعاً : أن إسناد هذا الفعل لله ، إنما هو من مقولة القوم ، الذين ينظرون إلى هذا المال الذى اجتمع ليد « قارون » كما ينظرون إلى كل شىء يناله الإنسان فى هذه الدنيا ، وهو أنه من عند الله . . إذ كان القوم مؤمنين بالله ، وقولهم هـذا هو على ما جرت به عادة المؤمنين ، من إضافة كل شىء

إلى الله ، سواء أكان خيراً أو شرًّا . . أما النعم الخالصة التى يسوقها الله إلى المصطفَيْن من عباده ، فإنها تُحمل مع هذا الفعل مسنداً إلى الله ، بإخبار منه سبحانه ، كما يقول سبحانه : « وآتينا داود زبوراً » « ٥٥ : الإسراء » . . « وآتينا عيسى ابن مريم البينات » . « ٨٧ : البقرة » . . أمّا « قارون » فقد أتاه الله هذا المال الوفير ، جزاء بغيه ، فكان نقمة فى صورة نعمة .

— وقوله تعالى: « أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً » هو رد على هذا الادعاء العريض الكاذب الذى يدعيه قارون . . وأنه لو كانت له قوة ذاتية ، وكان له من العلم الذاتى ما جمع به هذا المال ، لكان لهذه القوة وهذا العلم أن يحفظا عليه ما جمع ، فلا يذهب من يده ، بل كان لهذه القوة وهذا العلم ، أن يحفظا عليه وجوده هو نفسه !! فهل تنفعه هذه القوة ، وهل يجديه هذا العلم ، إذا جاءه بأس الله ؟ ألاَ فلينظرْ إلى من كان قبله من الأمم السابقة ، ممن هم أشد منه قوة وأكثر جمعاً . . أين هم الآن ؟ وأين ما جمعوا من مال وما اجتمع لهم من قوة ؟ هل أغنى ذلك عنهم من بأس الله من شىء لقد؟ هلكوا ، وهلك ما كان لهم .

— وفى قوله تعالى : « أو لم يعلم » رد على هذا العلم الذى يدعيه ، وأنه علم هو الجهل بعينه ، وأنه لو كان علماً حقاً ، لعلم به ما حل بالظالمين المفسدين فى كل أمة وكل جيل ولمَا سار على دربهم ، وسلك طريقهم . . !

— وقوله تعالى : «ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون» . . أى أن الله سبحانه إذا أخذ المجرمين بجرمهم فى الدنيا ، وأنزل بهم البلاء ، وسلط عليهم النقم — أخذهم بغتة ، على غير توقع منهم ، حيث لا يُسألون عما هم فيه من ضلال ، ولا يُدعون إلى موقف المحاسبة فى هذه الدنيا . . فهذا موقف له يومه ، يوم يقوم الناس لرب العالمين . .

قوله تعالى:

* « فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم » .

إنها الفتنة تتحرك فى هذا الموكب ، الذى تحتشد فيه زخارف الحياة ، حيث يخرج قارون فى موكبه الحاشد ، وقد ظهر فيه سيداً عظيما فى زى أصحاب الملك والسلطان ، وبين يديه ومن خلفه الجنود والأعوان .. فتحركت مع هذا الموكب أهواء النفوس وشهواتها ، وتطايرت من العيون قطرات الاشتهاء والتمنى ، فقال الذين همهم هذه الدنيا وحدها ، وليس للآخرة نصيب يشغل به تفكيرهم ، ويصرف إليه همهم ـ قالوا : « ياليت لنا مثل ما أوتى قارون .. إنه لذو حظ عظيم » .. وهكذا تعظم الدنيا فى عين طلابها ، فإن فاتهم شىء منها مما وقع لغيرهم، تقطعت نفوسهم أسى وحسرة على حظهم المنكود ، ذلك ، ولو لم يكن ينقصهم شىء مما يحتاجون إليه لحفظ حياتهم ، من طعام ، وكساء ، ومأوى .. وإنما هو الغيرة والتنافس فى متاع الدنيا ..

قوله تعالى :

* « وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون » .

وهذه نظرة أهل الحق والعلم إلى الدنيا .. إنها نظرة قائمة على حساب سليم مع الحياة الدنيا ومتاعها .. فهى عندهم ظل زائل ، ومتاع قليل ، وحسب الإنسان منها أن يأخذ فى حمدٍ ورضًى ، ما قسم الله له ، وأن يطلب الرزق من وجوه سليمة مستقيمة ، وأن يؤدى حق الله والعباد فيما آتاه الله .. ثم لا يصرفه شىء من هذا عن طلب الآخرة ، والإعداد لها ، وابتغاء مرضاة الله بالأعمال الصالحة ..

فذلك هو خير مما لو اجتمعت الدنيا كلها للإنسان ، ثم لم يكن له نصيب فى الآخرة . .

— وقوله تعالى : « ولا يلقاها إلا الصابرون » أى لا يلقَّ هذه المقولة ، ولا يتقبل هذه الدعوة الطيبة إلى ابتغاء ثواب الله — إلا الصابرون ، الذين يصبرون على بأساء الحياة الدنيا وضرائها ، ابتغاء ما يلقون من جزاء حسن فى الآخرة . . فمن لم يكن من الصابرين ، فإنه لا يؤدى حقاً ، ولا يصبر على حق ، بل يستعمل كل ماله فى هذه الدنيا ، ويستهلكه فى يومه ، غير ملتفت إلى غده . . إن الطاعات تكاليف وأعباء ، لا تقع موقع القبول والرضا إلا من نفوس صابرة ، تغرس اليوم ، لتجنى ثمار غرسها غداً . .

قوله تعالى :

* « فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » .

وهكذا يدور الزمن دورته ، وينخرم حساب قارون مع دنياه هذه ، وما جمع فيها ، وإذا هو وما جمع فى حفرة عميقة فى الأرض ، قد فغرت فاها ، وابتلعته فى غمضة عين ، كما يبتلع الحيوان فريسته . . وهكذا تُطوى صفحة هذا الضلال المتحرك ، وتذهب معالمه ، دون أن يكون له من ينصره من بأس الله ويدفع عنه هذا المصير ، فقد ذهب عنه سلطانه ، ولم يغن عنه ماله !

قوله تعالى :

* « وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون » .

وينتقل المشهد من قارون وموكبه ، وداره وحشمه وماله ، إلى تلك العيون

التى كانت متعلقة بهذا الموكب وما يجر وراءه ، وإذا بها شاخصة فى ذهول مما حدث ؟ أين قارون الذى تعلقت بأذيال موكبه أمانىّ القوم ؟ وأين كنوزه وأمواله ، وقصوره ؟ لا شىء من هذا . . لقد اختفى كل شىء فى لحظة خاطفة ، كما يختفى السابح فى الماء وقد احتوته دوامة عاتية ، فغرق ، وهوى إلى القاع ! !

أهكذا الدنيا إذن ؟ وأهكذا تصاريف القدر فيها ؟ « ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ؟ إذن ، فالأمر لله وحده ، يبسط الرزق لمن يشاء ، ويقدره ويقبضه عمن يشاء ، بعلم ، وحكمة وتدبير . .

وإذن ، فقد كان من فضل الله علينا أنه لم يستجب لأمنياتنا ، ولم يؤتنا مثل ما أوتى قارون . . إنه لو فعل لكان مصيرنا كمصيره ، ولخسف بنا وبدُورنا الأرضَ ، كما خسف به وبداره الأرض . . « لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا » . إن أشد الناس فقراً فينا ، لهو خير من قارون وكنوزه . . وهل يرضى أحد من هؤلاء الذين شهدوا هذا المشهد اليوم أن يكونوا قارون الذى كان بالأمس ؟

« ويكأنه لا يفلح الكافرون » . . وإذن ، فالحكم القاطع الذى يمليه علينا هذا المشهد ، هو أنه لا فلاح للكافرين أبداً ، وإن كثرت أموالهم ، وملكوا الدنيا فى أيديهم . . إنهم هم الخاسرون خسراناً مبيناً ، فى الدنيا والآخرة جميعاً .

وكلمة « وىْ » أداة تعجب وانبهار ، يلقى بها المرء مواقف العجب والدهش . .

قوله تعالى :

* « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

هو تعقيب على هذه القصة ، التى كان مدار حركتها قائما على هذه الدنيا ، وقد انتهى المشهد ، وقد تحطم هذا الدولاب ، وتحطم كل ما احتواه . . وإذن فلا التفات إلى هذا الحطام ، ولا اشتغال به . . وإذن فإلام تتلفت النفوس ؟ وبم تُشتغل القلوب ؟ هذه هى الدار الآخرة . . الدار الباقية التى ينبغى أن يُلتفت إليها ، ويُشتغل بها . .

ولكن لمن هذه الدار ؟ ومن يصلح للاتجاه إليها ، والتعامل معها ؟ « الذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً » — فهؤلاء هم أهلها ، حيث لا تنصرف إرادتهم إلى الدنيا ، وإلى طلب العلو والإفساد فيها . . إن إرادتهم متجهة إلى الآخرة ، وإن كانت الدنيا معبرهم إليها ، وطريقهم عليها . .

— « والعاقبة للمتقين » أى العاقبة الحسنة الطيبة لأهل التقوى ، الذين يريدون الله والدار الآخرة . .

الآيات : (٨٤ — ٨٨)

* « مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) »

قوله تعالى :

* « من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون » .

هو إعلان عام المؤمنين والكافرين . . المصلحين والمفسدين . . للذين يعملون الصالحات ، والذين يقترفون السيئات . . إن لكل حسابه وجزاءه . .

أما أهل الإحسان ، فيجزون بإحسانهم إحساناً مضاعفاً . . فضلاً من الله وكرماً . . وأما أهل السوء ، فيجزون بسوئهم سوءاً مثله ، حقاً من الله وعدلا . .

وقد أفرد الضمير فى مقام الإحسان ، حيث تختلف منازل المحسنين ، فيما يجزون به على إحسانهم . . الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ، والله يضاعف لمن يشاء . . فهذا مقام الفضل ، يُنزل فيه الله عباده منازلهم من فضله ورحمته . . أما أهل السوء ، فهم على حال واحدة . . السيئة بالسيئة ولا زيادة . . فهم فى مقام العدل . الذى يقتضى المساواة . . ولهذا جمع ضمير أهل السوء . . « فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون » .

قوله تعالى :

* « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين » . .

فَرْضُ القرآنِ على الرسول ، هو حمله عليه حملاً كاملاً . . حيث يتلقاه من ربه ، ويستقيم على كل آية منه ، ويبلغه إلى الناس ، ويجاهدهم به . .

والمعاد الذى يرد إليه الرسول ، هو لقاء ربه ، وتلقى ما وعده الله به من رضاً ورضوان . .

وإذن فهذا القرآن المفروض على الرسول الكريم ، هو الرفيق الذى يعيش

مع الرسول فى الدنيا ، ويلقى اللهَ به فى الآخرة ، حيث يجىء ومعه المحصول الوفير ، من مغارس الإيمان التى غرسها القرآن فى الأرض ، فكان منها هذه الأمة المسلمة ، التى تأخذ مكانها فى المحشر ، وقد رُفع على رأسها علم التوحيد ! وفى هذا يقول الله تعالى : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم » (٧١ : الإسراء) ويقول سبحانه : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » (٤١ : النساء) .

وقوله تعالى : «قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين » — هو إلفات إلى هذا القرآن الذى فرض على الرسول ، وهو الهدى ، الذى من اتبعه اهتدى ورَشَد ، ومن خالفه ضل وغوى . .

قوله تعالى :

* « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمةً من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين » .

أى أن هذا القرآن الذى فرضه الله عليك — أيها النبى — لم يكن عن أمنية تمنيتها ، ولا عن سعى سعيت له . . فذلك مما لا يحصل بالسعى ، ولا يُستدعى بالأمانى . . وإنما هو رحمة خالصة من عند الله ، يختص بها من يشاء من عباده ، ويضعها حسب ما يقضى به علمه فى خلقه : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (١٢٤ : الأنعام) .

وقوله تعالى : « إلا رحمةً من ربك » هو بدل من « أن يلقى إليك الكتاب » وهو فى تأويل مصدر مفعول به لترجو . . والمعنى : ما كنت ترجو كتاباً يلقى إليك من ربك ، ولكن كنت ترجو رحمة منه . . وها قد جاءتك الرحمة عامة شاملة من ربك فى اصطفائك للرسالة ، ولكتابها الكريم . . « إن فضله كان عليك كبيراً » (٨٧ : الإسراء) .

— وقوله تعالى: « فلا تكونن ظهيراً للكافرين » . . هو تعقيب على هذه المنة العظيمة ، وتلك النعمة الكبرى ، وهذه الرحمة العامة الشاملة ، التى ينبغى أن يأخذ كل إنسان حظه منها ، إذا هو التمسها ، ودخل فى حماها . . وهؤلاء هم المؤمنون . . أما الكافرون فلا نصيب لهم منها . .

وإذن ، فالذى ينبغى أن يكون عليه شأن الرسول مع هذه الرحمة الشاملة التى وضعها الله سبحانه وتعالى بين يديه — هو أن يجعلها قوة تظاهر المؤمنين ، وتقوّى جبهتهم ، إزاء الكافرين والمشركين وأهل الضلال جميعاً ، لأنها قوة من قوى الحق ، ومن شأنها أن تخلُص لأهل الحق وحدهم . .

والنهى الموجه للنبى فى قوله تعالى : « فلا تكونن ظهيراً للكافرين » — هو دعوة للنبى إلى اليأس من هؤلاء المشركين من قومه ، الذين قال الله فيهم : « أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم » (٤١ : المائدة) وقال سبحانه : « إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين » (٣٧ : النحل) ذلك أن وقوف النبى — صلوات الله وسلامه عليه — هذا الوقوف الطويل مع المشركين المعاندين من قومه ، طمعاً فى إيمانهم ، هو على حساب المؤمنين ، أو الذين يستجيبون للإيمان ، حيث تلك هى المواطن الصالحة للغرس ، والإنبات والإثمار ، وهى المواطن التى ينبغى أن يوجه الرسول إليها كلّ جهده . . وقد عاتب الله سبحانه وتعالى النبى الكريم فى ابن أم مكتوم الأعمى ، المؤمن ، الذى جاء يستزيد من الرسول إيماناً ، ويطلب هدى ، والرسول فى لقاء مع بعض وجوه القوم ، من المشركين ، وفى جدل حاد ، يرجو الرسول من ورائه أن تلين قلوب الجماعة ، وتدخل فى دين الله — فقال تعالى : معاتبا لرسوله : « عبس وتولى * إن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى فأنت له تصدى * وما عليك

ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى * كلا إنها تذكرة . » (١ — ١١ . عبس)

وقد دخل موسى عليه السلام فى تجربة كتلك التجربة ، حين أخذته عاطفة العصبية لقومه ، وما كانوا يلقون من ظلم على يد فرعون وقومه . . وقد تمثل له ذلك فيما وقع بين المصرى والإسرائيلى، وقد انتصر موسى للإسرائيلى على المصرى . . فلما خرج من تلك التجربة ، استشعر الندم ، واستغفر ربه ، ونذر نعمة القوة التى فى كيانه ، أن تكون دائما للحق ، ومع الحق حيث كان ، فقال : « رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين » . . ولعل هذا هو بعض السر فى الجمع بين هاتين الآيتين فى هذه السورة . .

قوله تعالى :

* « ولا يصدنّك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين » .

هو تحذير للنبى من هؤلاء المشركين من قومه ، وذوى قرابته ، الذين يدعونه إلى أن يدَعَ ما هو فيه ، حتى لا يكون بموقفه هذا سبباً فى تمزيق وحدة قومه ، وإلقاء العداوة بينهم ، حتى يقتل بعضهم بعضاً . . فهذه قريش لا تريد الدخول فى دينه ، وهؤلاء أهله الأدنون يأبون أن يتخلّوا عنه ، ويتركوه لقريش ترميه بالأذى . . وهذا عمه أبو طالب يدعوه إلى أن يرفُق به وبأهله، وألا يحملهم على مواجهة قريش ، فيقول له الرسول الكريم قولته الخالدة تلك : « والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر ماتركته أو أهلك دونه » .

— وقوله : « ولا يصدنّك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك »

هذا فوق أنه تحذير للنبيّ من أن تغلبه عاطفة الحرص على أهله أن يصيبهم سوء من أجل انتصارهم لمصيبتهم فيه ـ هو تثبيت لقلب النبيّ ، وترسيخ لقدمه في القيام على دعوته ، وألا يلفته شيء عنها . . فلتذهبْ الدنيا كلها ، ولتبق راية الحقّ قائمةً في يده .

— وفى قوله تعالى: « ولا تكونن من المشركين » دعوة إلى قطع كل رابطة من قرابة أو نسب، وإلى التضحية بكل عاطفة بينه وبين أهله ، إذا كان في ذلك جَوْر على دعوته ، وتحيُّف على شيء من عزمه وإرادته فى القيام بتبليغها ، والجهاد بها . فهو فى تلك الحال ليس من أهله هؤلاء المشركين . . إن أهله وقرابته هم المؤمنون : « إنما أمرت أن أعبد ربّ هذه البلدة الذى حرّمها وله كلّ شيء وأُمرت أن أكون من المسلمين » (٩١ : النمل) فالمؤمنون هم أهل الرسول ، وهم قرابته .

قوله تعالى :

• « ولا تدع مع الله إلها آخر . . لا إله إلا هو كل شيء هالكٌ إلا وَجْهه له الحكم وإليه ترجعون » .

بهذه الآية تختم سورة « القصص » . . وهى تعزل النبيّ عزلاً تاماً عن قومه المشركين ، الذين يدعون مع الله آلهة أخرى . . فهو على طريق ، وهم على طريق . . هو له دينه ، وهم لهم دينهم ، فلا جامعة تجمع بينه وبينهم إن لم يجمعهم الاجتماع على دين الله ، وعلى إخلاص العبودية له وحده ، لا إله إلا هو . . فإذا سَلِمَ للمرء دينه ، وخسِرَ كل شيء ، فهو الذى ربح كل شيء ولم يخسر شيئاً . لأن كلّ شيء هالك وإلى زوال ، ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام .

وإذن فلا حساب لأهل ، أو مالٍ ، أو ولدٍ ، مع الدِّين الذى يشد الإنسان إلى الله ، ويقيمه على ولاء له . . فالأهل والمال ، والولد ، وكل شىء هالك ، فيصبح الإنسان أو يُمسى ولا شىء له ، أو معه من هذا ، ثم يلتفت فلا يجد إلا ما ادخر عند الله من إيمان وتقوى . . « والباقيات الصالحات خير عند ربّك ثوابًا وخير أملا » (٤٦ : الكهف)

— وفى قوله تعالى : « له الحكم وإليه تُرجعون » هو إلفات إلى الله سبحانه وتعالى ، وإلى أنه جلّ شأنه للتفرّد بالبقاء ، وبالحكم بين العباد ، يَوم يُرْجَعُون إليه . . فالذين كانوا على ولاء مع الله ، يدخلون فى ظلّ هذا الولاء ، فيجدون الأمن والسلام ، والذين عادُوا الله وحادّوه ، وكفروا به وبرسله ، يَظَلون فى العراء ، بعيدين عن هذا الظل الكريم الرحيم ، « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .



٢٩ - سورة العنكبوت

نزولها : مكية . .

عدد آياتها : تسع وستون آية .

عدد كلماتها : تسع مئة وثمانون آية

عدد حروفها : أربعة آلاف ومئة وخمسة وتسعون

مناسبتُها لما قبلها

كان ختام سورة القصص دعوة إلى النبيّ الكريم ، وإلى المؤمنين جميعاً ، أن يكون ولاؤهم كلّه لله ، ولدين الله ، وأن يكون ما بينهم وبين أهليهم وذوى قرابتهم ، من وراء هذا ، وأنه لا بأس إذا قطع الإنسان ، رحمه ، وعادى أهله فى سبيل دينه ، إذا كان فى صلة الرحم ، وموادّة الأهل ، ما يجور على الدين .

وقد كان . .

ثم كان بدء سورة « العنكبوت » إعلاناً صريحاً للمؤمنين ، بما انطوى عليه ختام سورة « القصص » وهو أن الإيمان له تبعاته وأعباؤه التى يجب أن يتحملها المؤمنون فى رضًا ، وأن يتقبلوها فى صبر واحتسابٍ لما وعدهم به الله سبحانه وتعالى ، من ثواب عظيم ، وأجر كريم .

فالمؤمن فى وجه فتن كثيرة ، تَرِدُ عليه من أكثر من جهة . . من نزعات نفسه ، ومن وساوس شياطين الإنس والجنّ ، ومن دفاع عن دين الله ، الذى يكيد له الكائدون ، ويبغى عليه الباغون . . كما سنرى ذلك فى شرح الآيات التى بدئت بها هذه السورة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٧)

«الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧)»

التفسير :

فى هذه الآيات التى بدئت بها السورة ، تقرير لما ختمت به سورة « القصص » قبلها ، وهو أن الإيمان بالله ، ليس مجرّدَ كلمة ينطق بها اللسان ، وإنما هو عقيدة تسكن القلب ، وعمل تقوم به الجوارح ، وجهاد شاقّ متصل.. وبهذا يكون للإيمان وزنه واعتباره ، ويكون للمؤمنين شأنهم ومقامهم..

فالمؤمنون ، الذين لقيتهم هذه الآيات فى أول الدعوة الإسلامية ـ كانوا فى وجه محنة قاسية ، حيث انخلعوا عن أهليهم ، وانعزلوا عن مجتمعهم ، وكانوا قلّةً قليلة فى مواجهة عاصفة عاتية ، تسوق إليهم البلاء بغير حساب ، حتى هاجروا من ديارهم ، وخرجوا من أموالهم . فلما اجتمع لهم فى موطنهم

الجديد، شيء من القوة، وأذِن الله لهم في القتال ـ كان أول لقاء لهم، مع آبائهم، وأبنائهم، وإخوتهم، فعملت سيوفهم في رقاب المشركين من أهليهم وذوى رحِمِهم، فما نَـكَل أحد منهم عن أن يضرب بسيفه مَن كان ـ قبل الإسلام ـ يفديه بنفسه، ويَلْقَى الموت دونه.. وقد حدّث التاريخ أن أبا بكر لقى ابنه في معركة بدر، وقد عرفه ابنه ولم يعرفه.. فلما كان بعد زمن، ودخل ابنه في الإسلام، قال لأبيه: لقد عَرَضْتَ لى يومَ بدر، فأعرضتُ عنك، فقال له أبو بكر، لو عرضتَ لى يومئذ، وأمكننى الله منك، لما رددت سيفى عنك!!

ولا شك أن هذه كانت تجربةً ثقيلة على نفوس المؤمنين، وقد احتملوها صابرين، وكانت آيات الله تتنزل عليهم، فتبعث فى نفوسهم المضطربة، سَكَنا، وتسوق إلى قلوبهم الملتهبة، بَرْداً وسلاماً.

ونجد في قوله تعالى: « أحسبَ الناسُ أن يتركوا أن يقولوا آمنـًا وهم لا يُفْتَنُون » تصحيحاً لما يقع فى بعض النفوس المؤمنة من انزعاج أو استثقال لهذا العبء الذى حملوه من الإيمان بالله.. كما نجد فى الآية والآيات التى بعدها إجاباتٍ قاطعة على تلك التساؤلات التى كانت تتردد فى الخواطر: لمَ يكون الإيمان هكذا غالى الثمن، باهظ التكاليف؟ ولمَ يحملنا إيماننا بالله على هـذا المركب الوعر؟ ألسنا على الهدى، وعلى الصراط المستقيم؟ وهل هذا الطريق هكذا وعْرُ المسالك، مزدحم العقبات؟

ونعم.. إن الإيمان هكذا غالى الثمن، باهظ التكاليف، وإن طريقه وعر المسالك جمّ العقبات!! إنه الطريق إلى الجنة، وإن طريق الجنة محفوف بالمكاره! وإن هذا البلاء الذى يلقاه المؤمن على طريق إيمانه، هو ابتلاء له، وتمحيص لما عنده من صَبر ومصابرة.. وهل يُصفّى الذهب من الغُثاء الذى عاق به، إلا إذا صُهر بالنار؟ « ولنبلوَنـكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين

ونَبلوَ أخباركم » (٣١ : محمد) . « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » (١٧٩ : آل عمران) .

_ وهل انكشف وجه النفاق ، وعُرف المنافقون إلا فى بوْتقة الابتلاء ، وفى مقام التضحية والبذل ؟

إن الناس جميعاً على سواء فى حال الأمن والعافية . . فإذا كانت المحن والشدائد ، فهم أنماط وأشكال ، وهم معادن مختلفة ، بين غث وثمين !

والاستفهام فى الآية الكريمة ، للإنكار ، والنفى . . أى ليس الأمر على ما يظن الناس وما يقدرون ، من أنهم إذا قالوا آمنا كانوا مؤمنين . . كلاّ ، إن ذلك لا يكون حتى يفتنوا ، وحتى يبتلوا . . وعندئذ ينكشف ما عندهم من إيمان . .

قوله تعالى :

* « ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »

هكذا حكم الله فى عباده . . فكما امتحن الله المؤمنين فى الأمم السابقة ، يمتحن سبحانه الذين أسلموا ، بما يفتنهم ، فى دينهم مما يلقاهم من شدائد ومحن . . فمن كان صادق الإيمان ، سليم العقيدة ، خالص النية ، أمسك إيمانه فى قلبه ، وثبت عليه ، ومن كان على غير تلك الصفة انخلع عن دينه ، وألقى به لأول مسة تمسه من بلاء ، وباعه بأبخس ثمن !.

_ وفى قوله تعالى : « فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » _ بهذا الأمر المؤكد _ إعلان للمؤمنين بأنهم فى وجه ابتلاء ، وفى مواجهة فتن ، لابد لهم منها . . إن لم تكن واقعة بهم فعلا ، فإنها ستقع حتما . . هكذا يجب أن يتقرر فى نفوسهم من أول الطريق . . فمن شاء أن يكون فى المؤمنين ،

فليوطن نفسه على هذا ، وليستعد لحمل أفدح الضربات .. وإلا فليأخذ طريقاً غير هذا الطريق ، وأمامَه أكثرُ من طريق فسيح . !

والمؤمنون الأولون الذين دخلوا فى الإسلام ، ورسخت أقدامهم فيه ، هم — كما شهد التاريخ — أصفى الناس جوهراً ، وأكرمهم معدناً .. فقد كانوا خلاصة مجتمعهم ، وثاقةَ عزم ، وقوةَ يقين .. فاحتملوا من الشدائد والمحن ما تتصدع به الجبال الراسيات .. « فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا .. والله يحب الصابرين » « ١٤٦ : آل عمران »

ومن أجل هذا ، فقد شهد القرآن الكريم لهذه الصفوة المتخيرة من عباد الله أكرمَ شهادة ، وجعل ميزان الواحد منهم يعدل عشرة من غير المؤمنين ، فقال تعالى :

« يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » (٦٥ : الأنفال) ..

وأنت ترى أن الصفة التى فرق بها القرآن بين هؤلاء المؤمنين ، والمشركين ، هى « الفقه » . وهو ليس ذلك العلم النظرى ، وإنما هو الحق الذى يملأ القلوب نوراً ، فيكشف لصاحبه من آيات الله ، ودلائل قدرته ، وعلمه ، وحكمته ، ما يصغر به كل شىء ، إزاء عظمة الخالق وجلاله ..

قوله تعالى :

* « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون » .

هو لفتة تُلفت المؤمنين ، الذين يعانون ما يعانون من أعباء الإيمان وتبعاته — إلى هؤلاء المشركين ، الذين خلَتْ دنياهم من هذا البلاء ،

وفرغوا لما هم فيه من متع الحياة .. فهؤلاء المشركون لهم يومهم الذى يوعدون ، حيث يلقون ما يعلمه المؤمنون من سوء العذاب ، الذى أعدّه الله للمشركين والمنافقين والكافرين .. إنهم لن يسبقوا يد القدرة المتمكنة منهم ، وإنهم لن يفلتوا من بأس الله إذا جاءهم .. وإنهم إن ظنوا ذلك ، فذلك الظن هو الذى يحملهم إلى الردى ، ويسوقهم إلى الهلاك . « ساء ما يحكمون » .

قوله تعالى :

* « من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم » .

هو دعوة للمؤمنين إلى ما أعد الله لهم من نعيم ، وتطمين لقلوبهم بما وعدهم به من مغفرة ورضوان ، فهم لهذا الوعد يعملون ، وعلى رجاء لقاء ربهم يجاهدون ، ويصبرون على ما يلقون من أذى وبلاء ..

— وقوله تعالى : « فإن أجل الله لآتٍ » توكيد لتحقيق وعد الله ، وأنه آت لاشك فيه ، ولكن فى الوقت الموقوت له .. ولهذا جاء النظم بلفظ « أجل » بدلا من اللفظ الذى يقتضيه سياق النظم وهو « اللقاء » .. وذلك الإشعار بأن هذا الوعد له أجل محدود ، عند الله ، وأنه متى جاء الأجل ، التقى المؤمنون بما وعدهم الله به .

— وقوله تعالى : « وهو السميع العليم » السميع لما يقول المؤمنون بألسنتهم ، العليم بما انعقد فى القلوب من إيمان ، يصدّقه العمل ..

قوله تعالى :

* « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين » .

وهذا البلاء الذى يحتمله المؤمنون ، وهذا الجهاد الذى يجاهدونه فى

سبيل الله ، إنما هو تزكية لأنفسهم ، وتطهير لقلوبهم ، وإعلاء لذواتهم . . وإنه ليس لله من أعمال عباده ما ينفعه أو يضره . . فلا ينفعه طاعة المطيعين ، ولا يضره عصيان العاصين . . وكيف ، وهو سبحانه الذى يقوم على وجودهم ويحفظ عليهم حياتهم ، ويمدّهم بكل نَفَس يتنفسونه فى هذه الحياة ؟ « إن الله لغنى عن العالمين » .

إن هـذا الجهاد ، وهـذا الصراع القائم بين الحق والباطل ، وبين المؤمنين والكافرين ، هو ضريبة الحياة ، وهو الثمن الذى يقدمه المؤمنون المجاهدون فى سبيل حياة أفضل . . فهم أصحاب الحياة بحق ، وغيرهم دخيل عليها ، لا يستحق أن يأخذ مكاناً كريماً فيها . . فجهاد المجاهدين ، هو فى الواقع ، جهاد فى سبيل وجودهم ، وجوداً كريماً فى هذه الحياة الدنيا ، وإلاّ فالموت فى مجال الصراع خير لهم ، حيث ينقلون إلى دار خير من دارهم ، وإلى حياة أفضل من حياتهم . .

إن النبتة لا ترى النور ، ولا تصافح النسيم ، حتى تدفع برأسها الواهى الضعيف هذا التراب الذى قام فوقها ، وحجب النور عنها . . ! !

وفى الإنسان — كل إنسان — أشواق إلى عالم الحق والنور ، وتقوم بينه وبين هذا العالم سدود من الباطل والضلال ، وإنه لكى يصافح معالم الحق والنور ، ينبغى أن يزيل هـــذه السدود ، وأن يحطمها بكل ما أوتى من قوة ، وألا يتحول عن موقفه منها حتى يبلغ غايته ، أو يموت دونها .

قوله تعالى :

* « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون » .

هو احتراس مما تقرر فى الآية السابقة من أن جهاد المجاهدين ، وما يصيبهم على طريق الجهاد ، هو لهم ، وليس لله منه شىء . . وهذا الاحتراس يدفع ما يقع فى النفوس من أن الجهاد والبلاء لا أجر له عند الله .. وكلا ، فإنه مع أن أجر الجهاد فيه ، وأن ثمرةَ كل عمل صالح يجنيها صاحب العمل من العمل نفسه — مع هذا فإنه الله سبحانه وتعالى ، قد جعل للعمل الصالح جزاء حسناً من عنده ، كما توعد أصحاب السيئات والمنكر بالعذاب الأليم . .

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات قد وعدهم الله بأن يكفر عنهم سيئاتهم ، بما عملوا من حسنات ، كما يقول سبحانه : « إن الحسنات يذهبن السيئات » . « ١١٤ : هود » كما وعدهم بأن يجزيهم بإحسانهم إحساناً مضاعفاً ، الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف . والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم »

الآيات : (٨ — ١٣)

* « وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ (٩) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ (١١) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون »

قلنا إن المؤمنين قد ابتلوا أول الإسلام بلاء عظيما ، حيث فرق الإسلام بين ذوى الأرحام ، وقطّع ما بينهم من صلات المودة . . وقد أشرنا إلى ذلك فى آخر سورة القصص ، وفى أول هذه السورة . .

وهذه الآية تعرض قضية من قضـايا هذا الصراع النفسى الذى أوجده الخلاف فى الدين بين الآباء والأبناء . .

فالآباء الذين دُعوا إلى الإسـلام ، قد وقفوا موقف العنـاد ، وأبوْا أن يتحولوا عما ألفوه من عادات ومعتقدات ، وقليل منهم من آمن الله . .

والأبناء ، كانوا أقرب إلى الإسلام ، إذ لم تـكن فطرتهم قد انطمست معالمها بعد ، بموروثات آبائهم وأجدادهم،فحين دُعوا إلى الدين الجديد ، استجابوا له . . وقليل منهم من حرن وأبى !

والأمثلة هنا كثيرة . . فقد سبق أبو بكر إلى الإسلام ، وتأخر أبوه إلى يوم الفتح .. وعلى بن أبى طالب ، سبق إلى الإسلام ولم يسلم أبوه. . وهكذا .

فماذا يكون الموقف بين أبناء مؤمنين وآباء مشركين ؟ إن الإسلام يوصى ببر الوالدين ، وطاعتهما ، والإحسان إليهما .. فماذا يكون الموقف لو أن الوالديْن المشركين أرادا ابنهما على أن يرتد عن دينه الذى دخل فيه ، ويعود إلى دينهم مشركا ؟ أيطيعهما ، ويرتد مشركا ، أم لا يلتفت إليهما ، ولا يسمع لقولهما ؟

وجواب الإسلام على هذا هو أنه لا ينكر حق الوالدين ، والطاعة المفروضة على الأبناء لهما ، ولكن هذا ، حق إذا تعارض مع حق هو أولى منه ، قُدّم الحق الأولى عليه . .

وهنا حق أول ، لزم الابن ، ووجب عليه ، هو الإيمان بالله . . وإن أى حق يعترض هذا الحق لا يُلتفت إليه . .

وإذن ، فالذى يقتضيه الموقف الذى يقفه الابن المؤمن من والديه المشركين ، هو أن يلزم جانب الإيمان بالله ، وألا يجعل من طاعته لهما عصيانه لله ، وكفره به ، على أن يلتزم الابن ـ ما استطاع ـ حدود الأدب معهما ، وألا يَعنُف بهما ، وألا يسوق شيئاً من الأذى إليهما ، وحسبه أن يظل ممسكا بدينه ، حريصاً عليه ، لا تنال منه أية قوة ، مهما كان بأسها ، وسلطانها . .

وفى قوله تعالى : « وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » دعوة إلى التمسك بالدين ، على الرغم من مجاهدة الوالدين للابن ، وقسوتهما عليه ، وأخذه بكل ما لهما عليه ، من سلطان مادى أو أدبى .

وقوله تعالى : « ما ليس لك به علم » ـ إشارة إلى أن المعتقد الدينى السليم ، يجب أن يقوم على أساس من العلم ، الذى يقيم لصاحبه تصوّراً واضحاً ، وإدراكا سليما للإله الذى يعبده . . أما أن يدين الإنسان بما دان به آباؤه وأجداده ، من غير أن يكون له نظر وفهم ، ومن غير أن يجد بين يديه الحجة والبرهان على أحقية معبوده بالعبادة ، فذلك معتقد لا ينتفع به صاحبه ، وإن كان فى ذاته معتقداً سليماً ، لأنه لم ينبع عن إرادته ، ولم يتصل بمشاعره . فهو كائن غريب فى كيانه ، وهذا يعنى أن الأبوين ـ أحدهما أو كليهما ـ إذا كانت منهما دعوة إلى ابنهما أن يعبد إلهًا غير الله ، وأن يدين بدين غير الإسلام ، الذى آمن به عن نظر

واقتناع ـ فليس ذلك بالذى يمنع الابن من أن ينظر فى هذه الدعوة الجديدة التى يُدعى إليها من أبويه ، وأن يتعرف على هذا الإله الذى يُراد منه أن يعبده . . فليس الإسلام بالذى يحجر على العقل أن ينظر فى كل دين ، وأن يبحث فى كل معتقد ، وأن يتفرس وجوه الآلهة التى يعبدها العابدون . . فهذا النظر وذلك البحث والتفرس ، سينتهى آخر الأمر إلى حقيقتين :

أولاهما : أنه سيسقط من الحساب كلُّ ما يقع عليه النظر من آلهة غير الله سبحانه وتعالى . . وأنه كلما تفرس المرء فى وجه من وجوه هذه الآلهة التى تعبد من دون الله ، أنكره ، وارتفع بإنسانيته عن أن يعفر وجهه فى معبدٍ لحجر ، أو صنم ، أو حيوان . . أو إنسان . . وبهذا النظر يفيد الإنسان علماً ، وهو أن المعبود الحق ، هو الله جل وعلا ، وأن أى معبود آخر ، لا يجد العقل من جهته علماً يمسك منه بحجة أو برهان على ألوهيته ـ هو معبود باطل .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم » . . وما يشير إليه قوله سبحانه فى آية أخرى : « ومن يدع مع الله إلٰها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون » (١١٧ : المؤمنون)

وثانيتهما : أن هذا النظر المتفحص ، الذى يطلب علماً ، ويرتاد حقيقة ، من شأنه أن يثبت إيمان المؤمن بالله ، ويكشف له من جلال الله وعظمته ، وعلمه ، وقدرته ـ ما يملأ قلبه يقيناً بربه ، وطمأنينة إلى الدين الذى يدين به ، فيعبد الله مخلصاً له الدين ، غير متعرض لما يتعرض له غيره من اهتزاز فى إيمانه ، واضطراب فى عقيدته ، كلما مرت به محنة ، أو أصابته فتنة . . فيكون ممن قال الله فيهم : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » (١١ : الحج) ولهذا كان من تدبير الإسلام دعوة المؤمنين إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وإعمال العقل فى كل

ما يعرض للمؤمن من أمر ، ولقد جعل الإسلام النظر والتدبر ، عبادةً يتقرب بها المؤمن إلى ربه ، ويبغى بها المثوبة والرضوان .

قوله تعالى :

* « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين »

هو دعوة للوالديْن المشركين ، أن يأخذا طريقهما إلى الإيمان والعمل الصالح، ليكونا فى عباد الله الصالحين ، وليفوزا بما أعد الله سبحانه وتعالى لهما من رضا ورضوان .. ثم هو دعوة للأبناء المؤمنين أن يستمسكوا بدينهم ، وأن يحتملوا فى صبر ورضا ما يلقون من آلام مادية ونفسية ، ليظلوا فى عباد الله المؤمنين الصالحين .. ثم هو دعوة عامة للناس جميعاً ، إلى الإيمان بالله ، والعمل الصالح .. فالمؤمنون مدعوون ليتمسكوا بإيمانهم ، ثم ليؤدوا لهذا الإيمان مطلوبَه من الأعمال الصالحة .. وغير المؤمنين مدعوون ليؤمنوا بالله أولا ، ثم ليعملوا صالحا .. فهذا هو طريق النجاة والفلاح ..

قوله تعالى :

* « ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، ولئن جاء نصرٌ من ربك ليقولُن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين » .

هو مثل شارح لقوله تعالى فى أول السورة : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » ولقوله تعالى : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » ..

فى هذا المثل عرض لصورة من صور الذين يقولون آمنا بأفواههم ، ولم تطمئن قلوبهم بالإيمان .. فمثل هؤلاء المؤمنين ، إذا أصابهم على طريق

الإيمان شيء من الضر أو الأذى المادى أو النفسى، خلعوا ثوب الإيمان، وتجردوا منه، وارتدُّوا على أدبارهم خاسرين . .

— وقوله تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله » أى من بعض الناس من يُجرى كلمة الإيمان على لسانه ، ويحسب بهذا أنه من أهل الإيمان حقاً . .

والإيمان — كما قلنا — ليس مجرد هذه القولة التى ينطق بها اللسان ، وإنما للإيمان تبعاته ، وله أعباؤه وتكاليفه ، من امتثال أوامر الله ، واجتناب نواهيه . . فمن لم يؤد للإيمان حقه الذى له ، فليس من الإيمان فى شىء ! .

— وقوله تعالى : « فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » — إشارة إلى أن هذا الذى يؤمن بلسانه ، ولا يعتقد الإيمان فى قلبه ـ إذا أصيب بأذى فى سبيل الإيمان ، أسرع بالتحول عنه ، ونسى أنه بهذا وإن يكن قد خَلَص من أيدى الناس ، وسلم من أذاهم ، فقد وقع ليد الله ، ولبأسه وعذابه . . وشتان بين عذاب الله ، وعذاب الناس

وقوله تعالى : « ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم » أى أن ضعاف الإيمان هؤلاء ، يلبسون الإيمان ظاهراً ، فإذا مسهم الأذى تجردوا منه ، وإذا ساق الله إلى المؤمنين خيراً ، ومنحهم نصراً ، جاء هؤلاء المتلصصون ، ليأخذوا نصيبهم مع المؤمنين ، فيما أفاء الله عليهم من خير .

— وقوله تعالى : « أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين » ـ هو تهديد لهؤلاء المنافقين الذين لم يظهروا بعد ، على مسرح الحياة الإسلامية ، وإن كانوا سيظهرون ، وشيكا حين يلتحم القتال بين المؤمنين والمشركين . . وأنه إذا كان المؤمنون لا يعلمون من هؤلاء المنافقين إلا هذا الظاهر

الذى يدخلون به مدخل المؤمنين ، فإن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يسرون وما يعلنون .

والآية الكريمة إرهاص بما ستكشف عنه الأيام ، من إيمان المؤمنين ، ونفاق المنافقين ، حين يُبتلى المؤمنون بالجهاد فى سبيل الله ، ويُدْعون إلى تقديم أنفسهم وأموالهم دفاعاً عن دينهم الذى دانوا لله به . .

فالآية مكية ، ولكنها تشير إلى ما سيكتب الله للمؤمنين من نصر ، وما يسوق إليهم من رزق كما يقول سبحانه : « ولئن جاء نصر من ربك » . . وهذا من أنباء الغيب ، التى حمل القرآن الكريم كثيراً منها . .

قوله تعالى :

* « وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين » .

هو توكيد ، لما سيلقى المؤمنون على طريق الجهاد من امتحان وابتلاء . . وأن هذا من شأنه أن يكشف عن حقيقة ما عند كلٍّ منهم من إيمان . . وعندئذ يُعرف مَنْ المؤمنون ، ومَنْ المنافقون . .

فالعلم هنا فى قوله تعالى : « وليعلمن » ليس مراداً به العلم فى حقيقته ، وإنما المراد به ما يلزم عنه العلم ، وهو الابتلاء والاختبار . . وهذا يعنى أن الابتلاء أمر لازم لابدَّ منه ، قد أوجبه الله سبحانه وتعالى على نفسه ، وأقام المؤمنين على الامتحان به ! .

قوله تعالى :

* « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحملْ خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون * وليحملُن أثقالهم وأثقالا مع

أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » ومما يبتلى به المؤمنون على طريق الإيمان ، هذه الفتن التى تطلع عليهم من إخوان السوء ، وأهل الضلال والكفر ،من الآباء والأهل والأصدقاء ، حيث يزينون لهم الضلال ، ويدعونهم إليه ، فإذا حدثوهم عن الآخرة ، وعن الحساب والجزاء ، هوّنوا عليهم الأمر، وقالوا لهم : لا تخشوا شيئاً إن كان هناك آخرة ، وكان حساب وجزاء ، فنحن الذين دعوناكم إلى ما نحن فيه ، ونحن نحمل تبعة هذا عنكم ، فما أنتم إلا تبع لنا فى هذا المقام ..!

وقد كذبهم الله سبحانه وتعالى فى دعواهم تلك ، فقال سبحانه « وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون » .. إذ كل نفس بما كسبت رهينة ، وليس لإنسان أن يتولى أمر إنسان ، ويحمل تبعته .. فكل إنسان له ذاتيته ، وعليه مسئوليةُ ما يعمل .. هكذا الإنسان ، أو هكذا يجب أن يكون ! .

* وقوله تعالى : « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » أى أن هؤلاء الضالين ، الذين يعملون على إضلال غيرهم ، سيحملون فعلا ذنوبَهم هم ، وذنوب الذين أضلوهم ، على حين لا يُرفع عن كاهل الذين أضلوهم ما حملوا من ذنوب ، فهذه الذنوب هى من كسبهم ، لا تُحسب على أحد غيرهم .. ثم إنها — من جهة أخرى من غرس الذين دعوهم إليها وأغروهم بها .. فلابد أن يطعموا من ثمرها الفاسد المشئوم ! .

الآيات : (١٤ — ١٨)

* « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ

«وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥) وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨)»

التفسير:

مناسبة هذه الآيات لما قبلها ، هى أنها تعرض فى إيجاز معجز ، صورتين من صور الصراع بين الحق والباطل ، فتواجه بهاتين الصورتين ، هذا الصراعَ القائم بين المؤمنين والمشركين . بين النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ والمؤمنين معه ، وبين المشركين ومن اجتمع إليهم . .

وفى الصورة الأولى ، يرى المشركون أنفسهم فى قوم نوح ، الذى طال مقامه فيهم حتى بلغ ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلم ينفعهم هذا الزمن الطويل ، الذى وقفوا فيه إزاء دعوة الحق . ولم تلتقِ طريقهم مع طريقه .. فكان أن أخذهم الطوفان ، وهم متلبسون بكفرهم ، يحملونه معهم إلى يوم الجزاء .. أما نوح ومن آمن معه ، فقد نجاهم الله ، وكان فى نجاته آيةً للعالمين . .

وفى الصورة الثانية : يَرى المشركون أيضاً رسولا من رسل الله : هو جدهم الأعلى ، إبراهيم ، عليه السلام ، يقوم فى قومه مقام محمد فيهم . فكل من النبيين الكريمين ـ إبراهيم ومحمد ـ عليهما السلام يدعو قومه إلى عبادة الله وحده ، وإلى الانخلاع عن عبادة الأوثان التى يخلقونها بأيديهم وإن عبادة تلك الأوثان

ضلال ، وامتهان لكرامة الإنسان . . إنها لاتملك لهم رزقاً . . وإنما الذى يبتغى عنده الرزق ، هو الله رب العالمين . .

هذه هى دعوة كِلا النبيين الكريمين ، وقد بلغها كل منهما إلى قومه ، كما أمره ربه «وما على الرسول إلا البلاغ المبين» . .

ويلاحظ هنا ، أن قصة نوح تحمل إنذاراً بالهلاك العام الشامل للكافرين جميعاً ، على حين أن قصة إبراهيم لم تحمل نذيراً بالعذاب الذى سيحلّ بالمشركين فما سر هذا .

نقول ـ والله أعلم ـ إن قصة نوح تمثل الدور الأول من الدعوة الإسلامية وذلك فى مكة قبل الهجرة . . وأن هجرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، إلى المدينة مع أصحابه ، كانت أشبه بسفينة نوح ، حيث وجد المسلمون فى المدينة أمنا وسلاما ، وحيث غرق المشركون فى موقعة بدر ، ومن لم يغرق منهم فى ميدان القتال ، مات غرقاً فى بحر الكفر والضلال ، قبل أن يدركه الإسلام يوم الفتح ، أما من ظل منهم على الحياة ، يتخبط فى أمواج الضلال ، فقد انتشله الرسول الكريم يوم الفتح ، وأتى به فى سفينة النجاة ، يوم ألقت مراسيها على المرفأ الذى أقلعت منه . . !

أما قصة إبراهيم فإنها تصافح قصة نوح ، وتلتقى بسفينة النجاة التى حملت النبى ومن معه إلى المدينة ، ثم عادت بهم يوم الفتح إلى مكة . . وهناك يقف الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، موقف إبراهيم يوم أقبل على الأصنام فحطمها ، وجعلها جذاذا . فقد أقبل النبى يوم الفتح على جماعات الأصنام التى كانت منصوبة حول الكعبة ، فقلبها على وجوهها محطمة ، وهو يتلو قوله تعالى : «وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» . . «٨١ : الإسراء»

ولعل هذا ، هو السر فى اختيار هاتين القصتين هنا ، من بين قصص الأنبياء التى جاء بها القرآن الكريم ، إذ كان فى قصة نوح هلاك ونجاة معاً ، هلاك للكافرين ونجاة للمؤمنين . . ثم كان قصة فى إبراهيم بلاغ مبين ، هو غاية ما يُطلب من رسول الله إلى عباد الله . .

وقد رأينا أنه فى الدور الأول للدعوة الإسلامية ، قد نجا النبى ومن معه ، وهلك مشركو قريش ومن معهم . . ثم رأينا يوم الفتح ، ثم فى حجة الوداع ، كيف حطم النبى الأصنام ، وبلغ رسالة ربه ، بلاغاً مبينا ، وأشهد على ذلك المؤمنين جميعاً ، قائلا بعد كل مقطع من مقاطع خطبته : « هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . . » . . ثم دعا الشاهدين أن يبلغوا من لم يشهد : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » . .

ألا خرست ألسنة تقول فى هذا القصص : « إن هذا إلا أساطير الأولين » وألا خسىء وخسر المبطلون . . ، « إنه لقرآن كريم * فى كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين . . » « ٧٧ — ٨٠ : الواقعة »

الآيات : (١٩ — ٢٥)

* « أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِى وَأُولَٰٓئِكَ

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥) »

التفسير :

إن قصة إبراهيم لم تتم بعد ، وستأتى بقيتها ، بعد تلك الآيات التى جاءت فى مساق القصة ، لتكشف لهؤلاء المشركين ، قديماً وحديثاً ، عن ضلالهم ، وسفاهتهم ، وضعف أحلامهم ، إذ ينحتون أحجاراً ثم يعبدونها ، ويجعلونها مشاركة لله سبحانه وتعالى ، فى الملك والتدبير ، وفى النفع والضر . .

قوله تعالى :

* « أو لم يَرَوْا كيف يُبدىء الله الخلق ثم يعُيده إن ذلك على الله يَسير » هو إلفات لهؤلاء المشركين ، إلى مالله سبحانه وتعالى من قدرة مطلقة لا حدود لها ، وأنه سبحانه هو الذى أوجد هذا الوجود ، وأنشأ هذه المخلوقات ، وهو سبحانه الذى سيعيدها كما بدأها . . إن ذلك البدء ، والإعادة ، أمر يسير على الله ، لا يتكلف له جهداً ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . .

والمراد بالرؤية هنا ، رؤية العلم ، الذى يكشف للإنسان حقائق الأشياء ، كما يكشف البصرُ صور المرئيات . . والاستفهام معطوف على محذوف ، تقديره : أعَموا ولم يَرَوْا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ؟

قوله تعالى :

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير »

وهذا الأمر مُترتب على ما سبق فى الآية السابقة ، التى نَخَسَت هؤلاء الغافلين ، تلك النخسة الموجعة ، لما هم فيه من عمًى وضلال عن آيات الله .. وأنهم إذا كانوا لم يعلموا ، فليطلبوا العلم . . وهاهى ذى سبل العلم ميسرة ، فليسيروا فى الأرض ، وليقلبوا وجوه النظر فيها .. وهذا أسلوب من أساليب تحصيل العلم بالتجربة الحسية ، والانتقال من المحسوس إلى المعقول ، على حين كان أسلوب تحصيل العلم فى الآية السابقة عن طريق التأمل والتدبر . . وهذا الأسلوب التجريبى فى تحصيل العلم ، وإن كان له جلاله وخطره فى لمس الحقيقة ، إلا أنه دون الأسلوب الأول الذى يحصّل فيه العلم بتوجيه العقل مباشرة إلى الحقيقة ، مستهديا فى ذلك بحدسه ، وبصيرته . . وذلك فى مجال البحث عما وراء الطبيعة من الغيبيات ، التى تتعلق بالبعث والقيامة ، والحساب والجزاء . . فهذه الأمور وأمثالها لا يمكن إدراكها عن طريق الحسّ ، ولا بتقليب النظر فى المدركات الحسية . . وإن كان للمدركات الحسية شأن هنا ، فإنما هو فيما يبدو منها من إشارات خافتة ، وما يَندُّ منها من شرارات متطايرة ، فإذا وَجدت هذه الإشارات بصيرة نافذة ، وعقلاً متفتحاً ، كانت منطلقاً للمدارك الإنسانية العليا نحو الحقيقة ، وإذا وجدت هذه الشرارات المتطايرة قلباً يجمعها إليه أتقدت منها جذوة تضىء جوانب النفس وتكشف للعقل معالم الطريق إلى الحق والهدى . .

قوله تعالى :

« يُعذّبُ من يَشاء ويرحمُ من يشاء وإليه تُقْلَبُون » . . أى كل

أن من قدرة الله أنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، فإن من قدرته كذلك أن يعذّب من يشاء ويرحم من يشاء . . لا معقّب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه فى عباده . .

وقُدِّم العذاب على الرحمة هنا ، لأن الموقف فى مواجهة المشركين الضالّين الذين أُنذروا ، فلم تُغنهم النذُر ، فكان من البلاغ والبلاغة فى آن ـ عند دعوتهم إلى الله ـ أن يَرَوْا العذاب الذى أُنذروا به ، وأن يستشعروا أنهم أهله ، فإذا كان لذلك العذاب وقع كريه فى نفوسهم ، فهذه أبواب الرحمة مفتحة لمن يطرقها إلى الله ، والإيمان به .

وفى قوله تعالى : « وإليه تُقْلَبون » ـ إشارة إلى أن مسيرة الإنسان بدأت من عند الله سبحانه وتعالى ، وانطلقت من يد قدرته . . وأن مسيرة الناس فى الحياة ، لها نهاية تنتهى عندها ، ثم تنقلب راجعة إلى الله من حيث بدأت . . فمن يد القدرة انطلقت ، وإلى يد القدرة تعود . . كما يقول سبحانه : « وإن إلى ربّك الرُّجعَى » (٨ : العلق) والرجوع إنما يكون بالعودة إلى مكان البدء ، والانطلاق . .

قوله تعالى :

* « وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولىّ ولا نصير » . .

هو توكيد لقدرة الله المطلقة ، وأن هذه القدرة لا يُعجزها الإنسان ، فى أى مُنْطَلق ينطلق إليه ، سواء أكان منطلقه فى الأرض أم فى السماء . . فالله سبحانه ، له ما فى الأرض وله ما فى السماء . . وإذا كان ذلك كذلك ، فإنه لا ملجأ للإنسان من الله إلا إليه ، وأنه إذا طلب مُعيناً يعينه ، فلن يجد العون إلا عند الله ، ومن الله . .

قوله تعالى :

* « والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذابٌ أليم » .

في الآية حكمان واقعان على الذين كفروا بآيات الله واليوم الآخر . .

الحكم الأول : أنهم في يأس من رحمة الله . . إنهم لا يرجون رحمة الله ، لأنهم لا يؤمنون به . . ولو كانوا يؤمنون بالله لآمنوا باليوم الآخر ، ولعملوا في هذه الدنيا أعمالاً صالحة ، يرجون بها رحمة الله ، ويبتغون ثوابه . .

والحكم الآخر : أن لهم في الآخرة عذابا أليما ، إذ لم يكن لهم نصيب من رحمة الله . . لأنهم لم يرجوها ولم يعملوا لها .

قوله تعالى :

* « فما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون »

تجيء هذه الآية فتصل أحداث قصة إبراهيم ، التي فصَلت بينها الآيات السابقة ، التي جاءت في سياق القصة ـ تجيء والنفوس متشوقة إلى متابعة أحداثها ، والأبصار شاخصة إلى ما يطلعُ عليها من وجوه الأحداث المتوقعة ، فكان ذلك القطع لمجريات الأحداث ، أشبه بصدمة قوية ، تتنبّه لها حواسّ الإنسان وتستيقظ لها مشاعره ومدركاته ، لينظر ماذا جرى ، وماذا هناك من أمر قطع تيار الأحداث التي تجرى فيها القصة . . وهنا تلقاه هذه الآيات التي تُلفت الأنظار ـ في قوة ـ إلى قدرة الله ، وإلى ماله من تدبير وتصريف ، في هذا الوجود ، وأنه سبحانه يبدأ الخلق ثم يعيده ، وأنه يعذّب من يشاء ويغفر لمن يشاء ،

وأنه ـ سبحانه ـ لن يُعجزه هارب فى السماء أو فى الأرض. فإذا وَعَى الإنسان ذلك كلَّه ، لقيته أحداث القصة من جديد ، وطلعت عليه بالجواب الذى كان يريد أن يعرف مضمونه من فم القوم ، بعد أن دعاهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى الله ، وإلى ترك ما يعكفون عليه من أصنام . . فلقد وقفت أحداث القصة عند مقولات إبراهيم لقومه ، وحين تهيأت النفوس لاستقبال جوابهم الذى يحدّد موقفهم من هذه المقولات ـ انتقلت بهم الآيات إلى موقف آخر غير هذا الموقف ، وكادت تعزلهم عنه عزلا تاماً ، حتى إذا كادوا ينسوْن أحداث القصة ، طَلَعَ عليهم الوجه الغائب عنهم منها . . وهو جواب القوم وردّهم على مقولات إبراهيم . .

فانظر فى وجه هذا الإعجاز ، واسجد لله فى محراب عظمة آيات الله وجلالها . . وإنك لترى الكلمات أحداثاً متحركة ، وشخوصاً حية عاقلة ، تتبادل فيما بينها المواقف ، كما يتبادل المجاهدون مواقفهم فى ميدان الجهاد ، حيث يتحرف المجاهد للقتال ، أو ينحاز إلى فئة ، حسب ما يرى ويقدر ، لسلامة الموقف ، وتحقيق النصر ، دون أن يولى ظهره ، أو يستسلم لعدوّه . . هكذا نرى آيات الله ، فى مقام الدعوة إلى الله . . إنها جنود سماوية فى ميدان الجهاد لإزاحة الضلال من العقول ، وكشف العمى عن القلوب . . !

* « فما كان جوابَ قومهِ إلاّ أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

هذا هو الجواب لمن كان ينتظر الجواب . . وإنه لجوابُ أهلِ السّفه والضلال لكل قول كريم يُقال لهم ، وإنه لَردُّ أهل الزّيغ والفسوق على كل دعوة رشيدة يُدعَوْن إليها . .

فماذا يكون جواب هؤلاء المشركين من أهل مكة لمقولات النبىّ التى

قالها لهم ، وماذا يكون ردّهم على دعوته التي يدعوهم إليها ؟

لقد قالوا أسوأ القول ، وردوا أفحش الردّ . . قالوا إنه ساحر ، وقالوا إنه مجنون ، وقالوا إنه كاذب مفترٍ . . وقالوا : « نتربصُ به ريبَ المنون » . . « ٣٠ : الطور » وقالوا : اعتزلوه وأهله . . وقالوا اقتلوه ضَربةَ رجلٍ واحد ، فيذهب دمه فى قبائلكم بدداً . . !

فماذا كانت خاتمة هذا الصراع ؟ لقد أنجاه الله منهم وخلصه من كيدهم ، وأطفأ لهيب هذه الأفواه التي كانت ترمى بالشرر من نار العداوة البغضاء . . تماماً كما نجى الله إبراهيم من النار ، وجعلها برداً وسلاماً عليه . . « إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » يراها ذوو العقول الرشيدة ، ويشهدها أصحاب البصائر المبصرة ، فى تلك القوى الغيبية التي تطلع من حيث لا يراها أحد ، فتحيل الضعف قوة والقوة ضعفاً ، وتجعل النار برداً وسلاماً !

قوله تعالى :

* « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودةَ بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين »

هذه هى قولة الحق ، ينطق بها إبراهيم ، وينطق بها محمد ، وينطق بها الوجود كله ، رداً على هذا الرد السفيه الأحمق ، الذى ردّ به هؤلاء السفهاء الحمقى ، على ما دُعُوا إليه من حق وهدى وخير . .

— وفى قوله : « إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً » تقرير لأمر واقع . . فهم إنما اتخذوا فعلا أوثاناً ، يعبدونها من دون الله . . ولكنّ فى إعلامهم بها ، وكشف وجوهها لهم : تسفيهاً لهم ، ووضعا لجسم الجريمة بين أيديهم ، تماماً كما يوقف

القاتل على جثة قاتله فى مواجهة الاتهام والمساءلة !

— وقوله سبحانه : «مودةَ بينكم فى الحياة الدنيا » . . هو بدل من قوله تعالى : « أوثاناً » . . وهذا يعنى أن الأوثان، والمودة مِثلان متعادلان . . فالأوثان فى هذا التقدير ليست إلا هوًى من أهوائهم ، وإلا كئوساً من الإثم ، يتعاطونها ، ويجتمعونَ عليها ، فتقيم بينهم من التآلف والتوافق ، ما تقيم مجالس الشراب بين الشَّرْب من اختلاط وامتزاج . . ثم إذ كانت لأحدهم صحوة بعد هذا ، ونظر نظرة سليمة إلى حاله تلك ، أنكر هذه المجالس الآثمة ، وأنكر أهلها ، ولعن كل وجه كان يلقاه فيها . .

وعلى هذا نجد وضع الآية الكريمة هكذا : وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانامودة بينكم فى الحياة الدنيا ، فجعلتم هذه المودة القائمة على المرت، هى الرباط الذى ربط بينكم ، وجمعكم على هذا الضلال الذى أنتم عليه . . ولكن أين هذا من نظم القرآن وإعجازه ؟ وأين الأرض من السماء ؟

— قوله تعالى : « ويوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين » أى ويوم القيامة ينكشف لكم الأمر ، وتنقلب هذه المودة بِغضة وعداوة ، فيكفر بعضكم ببعض ، وينكر بعضكم بعضا ، ويلعن بعضكم بعضاً ، كما يقول سبحانه : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » (٦٧ : الزخرف) . فالمودة التى تقوم بين المؤمنين مودة قائمة على التقوى والخير ، يلتقى عليها المؤمنون فى الدنيا والآخرة ، كما يقول سبحانه فى أهل الجنة . « إخواناً على سرر متقابلين » (٤٧ : الحجر) والمودة القائمة على الهوى والضلال ، لا يلتقى أهلها يوم القيامة إلا على العداوة والمقت والبغضاء ، وفى هذا يقول الله تعالى : « قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان

فى ضلال بعيد * قال لا تختصموا لدىّ وقد قدمت إليكم بالوعيد » (٢٧ — ٢٨ق)

الآيات : (٢٦ — ٣٥)

* « فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ (٢٧) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا إِنَّا مُهْلِكُوٓا أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم »

تتصل قصة « لوط ، » بقصة « إبراهيم » — عليهما السلام — لأن لوطاً كان من قوم إبراهيم ، وقد اختلف فى قرابته لإبراهيم ، ودرجة هذه القرابة ، وليس لهذه القرابة كبير وزن هنا ، إذ كانت بين لوط وإبراهيم تلك القرابة الموثقة التى لا تنفصم أبداً ، وهى النسب الذى جمعهما على الإيمان بالله ، فكان لوط من الذين استجابوا لإبراهيم وآمنوا بالله . . فهذا الإيمان هو جامعة النسب بينهما .

وقوله تعالى : « فآمن له لوط » أى استجاب له ، ولهذا عُدِّى الفعل بحرف الجر اللام . . فإن الإيمان بكذا ، غير الإيمان لكذا . إذ أن الإيمان بالشىء ، هو اعتقاده ، وتيقنه كالإيمان بالله ، والإيمان بالبعث ، والجزاء ، والجنة والنار . . أما الإيمان للشىء ، فهو الإقبال عليه ، والاستجابة له . . قال تعالى : « وإذا سألك عبادى عنّى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » (١٨٦ : البقرة) فالاستجابة إقبال على الله ، والإيمان ثقة بالله ، واستيقان من صفات الكمال المتصف بها سبحانه

وفى قول لوط : « إنى مهاجر إلى ربى » — إشارة إلى ما يقتضيه الإيمان بالله من ابتلاء بضروب من الشدائد والمحن . .

والهجرة إلى الله ، هى الاتجاه إليه سبحانه ، والانخلاع عن كل ما يعوق مسيرة المؤمن على طريق الإيمان ، حيث يتخطى المؤمن المهاجر إلى الله كلّ ما يعترض طريقه ، من أهل ، ومال ، ووطن ، وحيث لا يلتفت إلى ما يصيبه فى نفسه من ضر وأذى ، ولو كان الموت راصداً له .

وفى هذا إشارة للمؤمنين ، الذين كانوا تحت يد قريش ، يُسامون الخسف ، ويتجرعون كئوس البلاء مترعة . . إنهم فى هجرة إلى الله ، وإن لم يهاجروا من بلدهم ، ولم يخرجوا من ديارهم . . وإنهم لفى هجرة إلى الله ، إن هم خرجوا من ديارهم ، وهاجروا من بلدهم . .

فالمؤمن بالله إيمانًا حقًّا، فى هجرة إلى الله دائمًا، ما دامَ قائمًا على طريق الحق، والخير.. يهجر كل منكر، ويجتنب كل فاحشة، وفى الحديث: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر مانهى الله عنه..» وقد كانت هجرة «لوط» إلى ربه هجرةً مباركةً، إذ التقى على طريقه إلى الله، بالنبوّة، فكان من المصطفيْن الأخيار من عباد الله المكرمين.

قوله تعالى:

* «ووهبنا له إسحق ويعقوبَ وجعلنا فى ذريته النبوّة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين».

هو معطوف على قوله تعالى: «فآمن له لوط».. وهو تتمة لقصة إبراهيم، وفى عطف هبة الله سبحانه تعالى لإبراهيم إسحقَ ويعقوبَ ـ على إيمان لوط له ـ إشارة إلى أن إيمان لوط لإبراهيم واستجابته له، هو من كسب إبراهيم، ومن النعم الجليلة التى أنعم الله بها عليه. كما أنعم عليه بالولد بعد الكبر..

وفى تأخير الإنعام بالولد، على إيمان «لوط» مراعاة للترتيب الزمنى من جهة، إذ كان إيمان لوطٍ واستجابته لإبراهيم أسبق زمنًا من البشرى بإسحق.. ثم هو من جهة أخرى جزاء حسنٌ، على هذا الفعل الحسن الذى كان من نتاجه ميلادُ لوطٍ فى الإسلام، بدعوة إبراهيم. فقد وَلَدَ إبراهيمُ لله ولدًا، هو «لوط».. فأخرج الله من صلب إبراهيم ولداً فى الإسلام! وهذا ما يشير إليه ـ قوله تعالى: «وآتيناه أجره فى الدنيا».. فهذا الولد هو بعض أجره فى الدنيا.

ـ وفى قوله تعالى: «وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب» ـ إشارة إلى حصر النبوّة فى ذُرّية إبراهيم، من بعده، بمعنى أن الأنبياء الذى استقبلتهم الحياة من بعد إبراهيم كانوا جميعاً من ذريته. أما الأنبياء الذين سبقوه فكانوا من ذرية نوح، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: «ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم

وجعلنا فى ذريتهما النبوّة والـكتاب » (٢٦ : الحديد) . . فمن ذرية هذين النبيين الـكريمين كان أنبياء الله جميعاً . .

وأما « الـكتاب » ـ فهو الرسالة السماوية التى يتلقاها النبىّ من ربّه ، وبهذا يكون نبيًّا ورسولاً . .

وهذا يعنى أن الأنبياء والرسل من بعد إبراهيم كانوا من ذرّية هذا النبىّ الـكريم . .

قوله تعالى :

* « ولوطاً إذ قال لقومه إنّـكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين » .

الفهم الذى أستريح إليه فى قوله تعالى : « ولوطاً إذ قال لقومه » . . أنه معطوف على قوله تعالى : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب » . وفى هذا ما يشير إلى أن لوطاً هو من بعض الهبات الجليلة التى وهَبها الله إبراهيمَ عليه السلام ، على ما أشرنا إليه من قبل .

وعلى هذا ، يكون الظرف فى قوله تعالى : « إذ قال لقومه » متعلقاً بالفعل « ووهبنا » وهـذا يعنى أن هذه الهبة لم تظهر على وجهها الصحيح إلا بعد أن تلقى « لوط » النبوّة من ربّه ، وحمل الرسالة إلى قومه . . ! ولعل فى هذا ما يكشف عن السرّ فى عروج الملائـكة المرسلين من عند الله إلى لوط ـ على إبراهيم ، وإخبارهم إياه بما أُرسلوا به إلى قوم لوط من مهلـكات ، وما كان من تلهف إبراهيم على لوط ، وخوفه أن يناله من سوء إذا دُمِّرت القرية التى هو فيها ، فيقول إبراهيم فى لهفة : « إن فيها لوطاً ! ! » . . فـكان جواب الملائـكة : « نحن أعلم بمن فيها . لَنُنَجِّيَنَّهُ وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين » .

وقوله تعالى : « وتقطعون السبيل » هو من قبيل قوله تعالى : « ويقطعون مآ أمر الله به أن يوصل » (٢٧ : البقرة) .

وقد قلنا فى تفسير قوله تعالى : « ويقطعون مآ أمر الله به أن يوصل » .

إن الذى أمر الله به أن يوصل ، هو إيمان الفطرة ، مع إيمان الدعوة ، وأن الكافرين بكفرهم وتأبّيهم على الاستجابة لدعوة الرسول ، قطعوا ماأمر الله به أن يوصل ، وهو الإيمان المركوز فى الفطرة ، بالإيمان الذى يدعو إليه الرسول . .

وهنا فى قوله تعالى : « وتقطعون السبيل » . إشارة إلى ما يرتكبه قوم لوط من قطع سبيل الفطرة السليمة ، التى تدعو إلى اتصال الذكر بالأنثى ، والرجل بالمرأة ، وذلك باعتزالهم النساء ، وإتيانهم الذكران . . وذلك قطع منهم للسبيل المستقيم ، الذى تسير عليه الكائنات جميعاً ، حيث يأخذون هم سبيلًا غير هذه السبيل ! .

— وقوله تعالى: « وتأتون فى ناديكم المنكر » . إشارة إلى أن القوم كانوا من الفجور وجفاف ماء الحياء من وجوههم ، بحيث لا يجدون حَرَجاً فى أن يأتوا هذا المنكر علانية ، وهم فى مجتمعهم الذى يجتمعون فيه . . وهذا غاية ما يتردّى فيه الإنسان ، فى طريق الانحدار إلى عالم الحيوان . .

هذا وقد عرضنا من قبل لتفسير قصة لوط مع قومه فى أكثر من موضع ، فلا داعى لإعادة ذلك هنا . .

الآيات : (٣٦ — ٤٠)

* « وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن

مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) »

التفسير:

فى هذه الآيات عرض موجز معجز، لقصص بعض الأنبياء، الذين كُذّبوا من أقوامهم، وما أخذ الله به هؤلاء المكذبين من نكال وعذاب.. وفى هذا العرض الموجز ترتسم الأحداث فى أعين المشركين، وتتجسد فى خواطرهم، بحيث تبدو كأنها حدث واحد، يُعرض عرضاً كاشفاً لجميع وجوهه.

قوله تعالى:

* « وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مُفسدين * فكذبوه فأخذتهم الرّجْفَةُ فأصبحوا فى دارهم جاثمين ».

إنه فى نظرة واحدة نُطوى صفحة مجتمع فاسد.. فنى هذا العرض يُختصر الزمان، وتجتمع أطرافه كلها فى البؤرة التى كانت تدور حولها الأحداث سنين طويلة.

فهذا شعيب، يُلقى كلمته الأخيرة إلى قومه.. وهؤلاء القوم قد أعطوه جوابهم الأخير أيضاً.. وهذا هو حكم الله فيما بين الطرفين.. « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين »

قوله تعالى :

* « وعاداً وثمود . . وقد تبيّن لكم من مساكنهم . . وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل وكانوا مستبصرين » .

وهذان مجتمعان كبيران ، من مجتمعات الضلال . . بينما تراهم العين فى دورهم العامرة ، ودنياهم المزهرة ، ثم يرتد الطرف إليهم ، فلا يجد إلا خراباً شاملًا ، وإلا قفراً مُوحشاً . .

إنه لم يذكر عن عاد وثمود ما كان من دعوة الرسولين الكريمين إليهما ، وما كان من القوم من رد فاجر آثم على هذه الدعوة . . كما أنه لم يذكر ما حل بهما من نقم الله . . إذ كان الأمر ماثلا للعيان . .

فهذه هى مساكن القوم ، يراها المشركون ، وقد صارت أثَراً بعد عَيْن « وقد تبين لكم من مساكنهم » . . أى انظروا ماذا بقى من دنيا القوم الظالمين . . ثم احكموا . . « وما راء كمن سمعا » ! .

— قوله تعالى :

« وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل » .

الفهم الذى أستريح إليه فى هذا المقطع من الآية الكريمة ، أنه تعقيب على هذا الخطاب الموجه إلى المخاطبين بهذه الآية ، فى قوله : « وقد تبين لكم من مساكنهم » . وفى هذا التعقيب ، اتهام للمشركين بما بينهم وبين الشيطان من تفاهم ، وتوافق ، وأنهم أتباع مخلصون له ، مطيعون ما يشير به . . فهم مع ما تبين لهم من هذا البلاء الذى رَمى به الله عاداً وثمود ، وما ترك هذا البلاء وراءهم من خراب ودمار — هم مع هذا لا يعدلون عن طريقهم الضال الذى ركبوه ، ولا يُلقُون السمع إلى ما يتلو عليهم الرسول من آيات . .

وفى عطف « وزين لهم الشيطان أعمالهم » على قوله تعالى : « وقد تبين لكم من مساكنهم » — أمران :

أولهما : الإشارة إلى التقاء الهدى والضلال فى نفوس المشركين، لقاء موافقة وائتلاف ، إذ لا فرق بين الهدى والضلال عندهم ، وأن النور الذى يساق إليهم من الآيات سرعان ما يشتمل عليه الظلام ، ويمتزج به . . فما تبين القوم من مساكن القوم ، وما فى ذلك من دلائل تدعو إلى الإيمان واتباع سبيل المؤمنين — قد اختلط بما وسوس لهم به الشيطان ، ثم سرعان ما اختفى هذا البيان ، الذى استبان لهم ، واستولى الشيطان عليهم ، فصدهم عن سبيل الله . .

* وثانيهما : العدول عن الخطاب إلى الغيبة فى قوله تعالى : « وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين » . . هو لعزلهم عن مقام الخطاب ، وما فيه من تشريف ، ووضعهم بالمكان الذى يُشار إليهم منه ، حيث يسمع المؤمنون حكم الله ، تعالى فيهم بقوله : « وزين لهم الشيطان أعمالهم » . .

فالخطاب كان عاماً للمؤمنين والمشركين ، فى قوله تعالى : « وقد تبين لكم من مساكنهم » . . ثم كان خطابا خاصاً بعد ذلك للمشركين « وزين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم » فلم ينتفعوا بما رأوا من آثار القوم الهالكين ، فصدهم عن سبيل الله ، فى حال استبصارهم ، ووضعهم أمام تلك الآيات المبصرة . كما يقول سبحانه : « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » (٢٠ : الجاثية) .

ولو أنه قد جاء النظم على أسلوب الخطاب ، لكان المؤمنون داخلين فى — قوله تعالى : « وزين لهم الشيطان أعمالهم » إذ لو جاء النظم هكذا . « وزين لكم الشيطان أعمالكم » لكان الحكم عاماً ، يشمل المؤمنين وغير المؤمنين ..

كما فى قوله تعالى : « وقد تبين لكم من مساكنهم » حيث كان هذا البيان واقعاً المؤمنين وغير المؤمنين . . أما المؤمنون فقد انتفعوا به وكان لهم منه عبرة وعظة . . وأما المشركون ، فقد أفسد عليهم الشيطان أمرهم ، وأطفأ بنفثاته فى صدورهم ، ما قبسوا من عبرة وعظة ، وجدوها فى هذه الدور الخاوية على عروشها . .

* قوله تعالى :

« وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى فى الأرض وما كانوا سابقين » . .

فى الآية دليل ، على أن قارون قد هلك قبل هلاك فرعون ، وهذا يعنى أنه هلك وموسى وبنو إسرائيل لم يخرجوا من مصر بعد — وهذا ما أشرنا إليه فى سورة القصص فى شرح قوله تعالى : « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم »

— وقوله تعالى : « وما كانوا سابقين » أى أنهم بما كان لهم من قوة وسلطان ، لم يفلتوا من عقاب الله الراصد لهم . ولم يجدوا وجهاً للفرار من العذاب الذى أرسله الله عليهم .

قوله تعالى :

* « فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا » .

هذا بيان لصور العذاب ، وألوانه التى حلت بالقوم الظالمين . . فهم وإن وقع بهم العذاب جميعاً ، إلا أن كل قوم قد شربوا من هذا العذاب ، بكأس غير الكأس التى شرب بها غيرهم . .

والحاصب ، وهو ما يُحصَب به ، أى يُرمى به من حصًى وغيره . . ومنه الحصباء ، وهو صغار الحصى . ومنه قوله تعـالى : « حصب جهنم أنتم لها واردون » « ٩٨ : الأنبياء » أى أنهم يلقون فيها كما يلقى الحصى ! .

وهذا الضرب من العـذاب ، هو ما أخذ به قوم لوط ، إذ رماهم الله بحجارة من سجيل ، وهو الذى أخذ به من قبل ، قوم صالح ، إذ أهلـكوا بريح صرصر عاتية ، فـكانت كأنها رجوم .

والصيحة ، وهى الرجفة ، هى العذاب الذى أُهلك به قوم عاد ، إذ صاح فيهم صائح ، فزلزل بهم الأرض ، وهدم عليهم دورهم .

والخسف ، هو ما حل بقارون .. والغرق ، هو ما هلك به فرعون وهامان ..

الآيات : (٤١ — ٤٥)

* « مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنـكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

مناسبة هذا المثل هنا، هو أنه لما ذكر الله سبحانه وتعالى بعضاً من تلك الأقوام الضالة، التى كذبت برسل الله، واستمسكت بما كانت عليه من شرك ـ كان هذا المثل مرآةً يرى عليها الناس — وخاصة أولئك الذين غلظت طباعهم، وتبلدت مشاعرهم — صورة مجسدة لهؤلاء المشركين وما عبدوا من دون الله..

إن هؤلاء المشركين، كالعنكبوت.. فى ضعفها وصغر شأنها..
فهؤلاء المشركون، هم فى يد القدرة القادرة، وإزاء سلطان الله الغالب القاهر ـ أقل من العنكبوت شأنا، وأضعف منها حيلة وحولا..

ثم إن هؤلاء المشركين فى ضعفهم وصغر شأنهم، قد اتخذوا من الأصنام، وغير الأصنام، آلهةً يعبدونها من دون الله، ليكون لهم منها قوة وسنداً ـ كما يقول سبحانه: « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً » (٨١: مريم) فكان مَثَلهم فى ذلك مثل العنكبوت، حين تتخذ لها بيتاً، تقيمه حولها، وتسكن إليه، وتحتمى به.. إنه لا يثبت لأية لمسة من ريح عابرة، أو حشرة طائرة.. وإن هذه الآلهة التى دخل القوم فى حماها، لهى أو هى من بيت العنكبوت، لا تدفع عن الداخلين فى حماها أذى، ولا ترد شراً..

— وفى قوله تعالى: « لو كانوا يعلمون ».. وصف القوم بالصفة الغالبة عليهم، وهى الجهل، لأنهم لو كانوا على أى قدر من العلم، لما ارتضوا أن ينسجوا من هذا الضلال دروعاً يحتمون بها من رميات القدر..

وفى تشبيه آلهة القوم بنسيج العنكبوت، إعجاز من إعجاز القرآن، إذ أن العنكبوت إنما تتخذ بيتها من خيوط رفيعة هى لعابها الذى إذا لامس الهواء تماسك فى صورة خيوط دقيقة واهية.. وهؤلاء المشركون إنما

أقاموا معتقدهم الفاسد الذى يعتقدونه ، ويلتمسون الطمأنينة والأمن فى ظله ـ إنما أقاموه من تلك الأبخرة العفنة التى تتصاعد من مشاعرهم ، فتتشكل منها تلك الأوهام الخادعة ، ويقوم عليها هذا البناء المتداعى ! !

قوله تعالى :

* « إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم » . . هو بيان لعلم الله بهم وبما يعبدون من أباطيلَ ، لا وزن لها ، مع عزة الله ، ولا تدبير لها ، مع تدبيره المحكم .

ويمكن أن يكون للآية مفهوم آخر ، وهو أن تكون « ما » نافية . . ويكون مفعول العلم مطلقاً ، بمعنى أن الله يعلم كل شىء . . وقوله تعالى : «ما يدعون من دونه من شىء » نفى لوجود هذه المعبودات ، أى أنها لضآلتها ، وعدم جدواها لهم ، لا تُعَدّ شيئاً . أما الله سبحانه ، الذى أعرضوا عنه ، فهو العزيز الحكيم . .

قوله تعالى .

* « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون »

الإشارة هنا ، هى إلى هذا المثل المضروب ، وإلى تلك الأمثال التى يضربها الله للناس ، ليروا فيها مواقع العبرة والعظة ، وليكون لهم منها طريقٌ إلى الحق والهدى . . ولكن هذه الأمثال لا يعقلها ، ولا ينتفع بما يُعقل منها إلا أهل العلم . . « فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا » (٢٦ : البقرة)

قوله تعالى :

* « خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين » ـ هو

بيان لما أبدع الله « العزيز الحكيم » وما أقام فى هذا الوجود من عوالم، وما بث فى هذه العوالم من مخلوقات.. وفى هذا الوجود، وعوالمه ومخلوقاته، صحف يتلو فيها المؤمنون آيات الله، ويسبحون بحمده، فى كل نظرة ينظرون بها، وفى كل نفس يتنفسونه، وفى كل خاطر يخطر لهم: « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض.. ربنا ما خلقت هذا باطلا.. سبحانك.. فقنا عذاب النار » (١٩٠ : ١٩١ : آل عمران)

قوله تعالى:

* « اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون »

ومن آيات الله، تلك الآيات المتلوة، التى هى كلماته، التى أوحاها سبحانه إلى نبيه الكريم.. إنها تناظر تلك الآيات المبثوثة فى السموات والأرض.. فى كل منها شاهد يشهد لجلال الله وقدرته، وعلمه وحكمته..

وفى أمر النبى بتلاوة ما أوحى إليه من الكتاب - إلفات للعقول إلى هذه الآيات القرآنية، بعد إلفات الأبصار إلى الآيات الكونية، فيكون من هذه وتلك لقاء بين المحسوس والمعقول، وبهذا تكتمل المعرفة، وتثبت قضايا العلم فيقع للإنسان من ذلك علم يقينى، يقوم عليه إيمانه بالله رب العالمين..

— وفى قوله تعالى: « وأقم الصلاة » إشارة إلى ما للصلاة من شأن فى وصل العبد بربه، وفى قيادته نحو الطريق القاصد إلى الله.. إذ كانت تسبيحاً بحمده، وتمجيداً لجلاله..

— وفى قوله تعالى: « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » - إشارة إلى

الأثر الذى تتركه الصلاة فى المصلين : من إيقاظ المشاعر الطيبة فى الإنسان ، تلك المشاعر التى تعاف الفحشاء ، وتنفر من المنكر . .

— وقوله تعالى : « ولذكر الله أكبر » . المراد بالذكر هنا ، استحضار عظمة الله ، وجلاله فى الصلاة ، حيث يكون الإنسان فى صلاته فى حال من الخشوع ، والتخاضع بين يدى الله ، لما يملأ قلبه من جلال الله وعظمته ، وهذا هو الذى يجعل للصلاة ثمراً طيباً مباركاً ، يذوق الإنسان منه حلاوة الإيمان ، ويستروح منه أنسام التقوى ، وبذلك يدخل فى عباد الله المفلحين المكرمين . . كما يقول سبحانه : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » (١ : المؤمنون) فالصلاة التى لا يحضرها ذكر الله ، ولا يغشاها الخشوع والرهَب ، ولا تظللها سكينة النفس ، وطمأنينة القلب ـ هى صلاة قليلة الثمر ، ضئيلة الأثر . . يقول الله سبحانه لموسى عليه السلام : « وأقم الصلاة لذكرى » «١٤ : طه» أى لتذكرنى بها . .

وإذا كان ذكر الله مطلوباً فى كل حال ، فى الصلاة وفى غير الصلاة ، فإن ذكره سبحانه فى الصلاة ، أولى وأوجب . . إذ كانت الصلاة فى ذاتها ذكراً لله . . فالذكر فى مقام الذكر أولى ، وأوجب ، وأنفع .

هذا ، وقد يصغر شأن الصلاة عند من ينظرون إلى كثير من المصلين ، فلا يجدون للصلاة أثراً عليهم فى سلوكهم ، حيث لم تنههم صلاتهم عن فحشاء أو منكر . . فنى المصلين من يكذب ، وفى المصلين من يشهد الزور ، وفى المصلين من يبخس الكيل والميزان ، وفى المصلين من يشرب الخمر ، وفى المصلين من يزنى ، ومن يسرق . . . ومن ، ومن . .

ونعم ، فى المصلين ، من هم على هذا الوصف الذميم . . وليس ذلك لعلة فى الصلاة ، وإنما العلة كامنة فى المصلّى نفسه ، لأنه يصلى بجسمه ، ولا يصلى بعقله ،

وقلبه ، وروحه ، فلا يذكر الله فى صلاته ذكراً يملأ كيانه خشوعاً ، وجلالا . .

ومع هذا ، فإن مداومة الصلاة ، والحرص على أدائها فى أوقاتها ، ستصل بالمصلّى يوما وإن طال به الطريق ، إلى الثمرة الطيبة التى وعد الله المصلين بها ، وهى الانتهاء عن الفحشاء والمنكر . .

وفى هذا يقول الرسول الكريم فيمن بلغه عنه أنه يصلى ، ولا ينتهى عن الفحشاء والمنكر — يقول صلوات الله وسلامه عليه . . « دعوه . . فإن صلاته ستنهاه يوما مّا »

والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل



فهرس الموضوعات

عبد الكريم الخطيب

التفسير القرآني للقرآن

الكتاب الحادي عشر

الجزءان: الحادي والعشرون والثاني والعشرون

من مباحث هذا الكتاب

- من أنباء الغيب.
- الليل وما وسق.
- فتنة الترتيب النزولي للقرآن.
- المرأة والرجل.. في بيت النبوة.
- زينب.. وزواج النبي منها.
- الأمانة التي حملها الإنسان.. ماهي؟
- الرسول.. وعموم الرسالة الإسلامية.
- القرية.. والمرسلون إليها.

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الآيات : (٤٦ — ٥١)

* « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها هى أن الآية السابقة عليها ، جاءت داعية النبىّ الكريم أن يَتْلُوَ ما يوحَى إليه من ربه ، وأن يقيم الصلاة قياماً يُحدث فى القلب ذكراً لله ، وبهذا يكون للصلاة ثمرتها فى نهى المصلى عن الفحشاء

والمنكر ، إذ كان ذكر الله حاضراً فى قلبه مستولياً على مشاعره ، يملأ كيانه خشيةً ، وخوفاً ، من العدوان على حدود رب العالمين .

وهذا الأمر الذى حملته الآية : « اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » — وإن كان دعوة للنبى الكريم ، فهو أمر للمؤمنين بالله ، الذين اتبعوا النبى ، ودانوا بالشريعة التى جاءهم بها من ربه .

ومن محامل هذه الدعوة تلاوة ما أوحى إلى النبى من آيات الله ، على أهل الكتاب ، وتبليغهم رسالة الإسلام ، إذ ليس المراد من التلاوة ، مجرد التلاوة ، وإنما المراد هنا ، إعلانُ الناس بها ، وإسماعهم آيات الله وكلماته . .

وأهل الكتاب حين يسمعون كلمات الله التى يتلوها النبى والمؤمنون ، لا يَلقَونها على وجه واحد . . فكثير منهم يَلْقَوْنها بالبَهت والتكذيب ، وقليل منهم أولئك الذين يلقونها بالقبول والتسليم . .

وإذ كانت الدعوة الإسلامية قائمة على الحجة والإقناع ، وبين يديها الحجة القاطعة والبرهان المبين — فإن أى عقل سلم من آفات الهوى ، وخَلَص من أسر الضلال ، لا يجد سبيلا إلى المماحكة والمجادلة فى آيات الله ، بل يستجيب لها ، ويُسلم زمامه إليها . . أما من كان فى عقله سَقَم ، وفى قلبه مرض فلن يذعن للحق ، ولن يأخذ طريقه أبداً . . شأنه فى هذا شأن أصحاب العلل والآفات ، التى تصيب العيون بالعمى ، والآذان بالصمم ، والأنوف بالزكام ، والأفواه بالبخر . . !

ومن هنا كان الذين يجادلون فى آيات الله من أهل الكتاب ، إنما

يجادلون فى حق يعرفونه ، ويمارون فى آيات يعلمون صدقها . . ومن كان هذا شأنه فخير موقف يُتخذ معه ، هو الإعراض عنه ، وترك الجدل معه ، لأن الجدل فى هذا المقام ، عقيم ، وإن ولد شيئاً ، فإنما يلد دخاناً ينعقد فى سماء الحق ، ويشغل القائمين على رسالته عما هو أنفع وأجدى . . ولهذا كان من دعوة السماء إلى النبى الكريم قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » (١٩٩ : الأعراف) .

— فقوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » — هو بيان للموقف الذى يأخذه المؤمنون من أهل الكتاب فيما يكون بينهم من مواقف ، تثار فيها بينهم قضايا ، تتصل بالدين ، عقيدة أو شريعة . .

وهو أن يعرض المسلمون حقائق الإسلام كما حملتها آيات الله ، بمنطق الناصح المرشد ، لا الملى ولا المسيطر . . « فمن أبصر فلنفسه ومن عَمِيَ فعليها » . . إنه خيرٌ يدعى إليه الناس ، ولا يحملون عليه حَمْلاً . .

ومتى كان المحسن يأخذ المحتاج إلى إحسانه ، بالقهر والقسر ؟ وحسبه أن يمد إليه يده بما تحمل من إحسان ، فإن تجاوز ذلك إلى ما يثير عداوة وبغضاء ، انقلب الإحسان إساءة ، والخير شراً . .

والجدل ، والمجادلة تكون باللسان ، ومقارعة الحجة بالحجة ، والأصل فيها القوة ، يقال حبل مجدول ، إذا كان مفتولا من حبلين ، ولهذا سمى الصقر أجدل ، لقوته وشدته . .

— وقوله تعالى : « إلا الذين ظلموا منهم » — هذا استثناء من الحكم العام ، فى الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وذلك الاستثناء فى شأن الذين يلقون تلك الدعوة بالشغب عليها ، والتطاول على أهلها ، والكيد لها ولهم . .

إن الأمر حينئذ يخرج عن هذا المجال ، إلى رد عدوان ، ودفع ظلم ، وردع بغى .. والله سبحانه وتعالى يقول :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين * وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (١٢٥ — ١٢٦ : النحل) .

والذين ظلموا من أهل الكتاب ، هم أولئك الذين امتلأت قلوبهم ضغينة على الإسلام ، وحقداً عليه ، فكانوا حرباً على المسلمين والإسلام ، بالكيد والفتنة ، وإشعال نار الحرب الظاهرة والخفية على رسول الله وعلى المؤمنين .. ولهذا كان وصفهم بالظلم ، كاشفاً عن عدوانهم وبغيهم ، إنهم معتدون لا معتدًى عليهم ، وظالمون غير مظلومين ، فإذا أُخذوا بعدوانهم ، وبظلمهم ، فذلك بما جنته أيديهم : « فلا عدوان إلا على الظالمين » (١٩٣ : البقرة) .

أما الأسلوب الذى تجرى عليه معاملة هؤلاء الظالمين ، فهو على حسب ما كان منهم من ظلم ، بلا بغى أو عدوان ..

وفى الآية الكريمة — وهى مكية — إشارة إلى مستقبل الإسلام ، وإلى ما سيكون بينه وبين أهل الكتاب من تلاحم ، بالقول ، وبالفعل .. بالجدل بالتى هى أحسن أولاً ، فإن كان عدوان فبالعدوان : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » (٤١ : الشورى) .

— قوله تعالى : « وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » — هو بيان لمقولة المسلمين ، فى مقام الجدل بالتى هى أحسن مع أهل الكتاب ، وفى مواجهة غير الظالمين المعتدين منهم .

فالمسلمون يؤمنون بالكتب السماوية إيمانا مجملا ، باعتبار أنها من عند الله ، وأنه إذا كان أهل الكتاب قد غيّروا وبدلوا فيما بين أيديهم من كتب الله ، من التوراة والإنجيل ، فإن هذه الكتب فى أصلها حق من عند الله ، فما كان منها متفقاً مع كتاب الله آمن المسلمون بأنه من عند الله ، وما خالف كتاب الله ، فما على المسلمين شىء منه ، وإنما إثمه على الذين بدلوا وحرفوا . .

على أنه مهما كان من اختلاف بين أهل الكتاب وبين المسلمين ، فإن هناك قضية لا يجوز الاختلاف فيها ، وهى الإيمان بإله واحد ، هو القائم على هذا الوجود ، وهو الذى أرسل الرسل ، وأنزل الكتب . . فإذا كان من أهل الكتاب من يختلف فى هذه القضية ، فقد ناقض دعواه بأنه من أهل الكتاب ، وقَطَع السبب الذى يصله بالله ، وبرسول الله الذى حمل هذا الكتاب . . « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق » (١٣٧ : البقرة) .

قوله تعالى :

* « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون » .

الخطاب للنبى الكريم ، من الله سبحانه وتعالى ، وأنه سبحانه قد أنزل عليه الكتاب ، كما أنزله على المرسلين من قبله . . فهو — صلوات الله وسلامه عليه — كما يُدْعى إلى الإيمان بما أُنزل على رسل الله ، فقد دعى المرسلون قبله إلى الإيمان بالكتاب الذى أنزل عليه . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به » . . فالذين آتاهم الله الكتاب ، هم الرسل من أصحاب الكتب المنزلة ، وفى هذا يقول الله تعالى :

« وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصرى ؟ قالوا أقررنا . . قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » (٨١ : آل عمران) . .

والضمير فى قوله تعالى : « يؤمنون به » يعود إلى القرآن ، وهو « الكتاب » فى قوله تعالى « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب » .

والمشار إليه فى قوله تعالى « ومن هؤلاء من يؤمن به » هم أهل الكتاب المعاصرون للدعوة الإسلامية ، و « من » للتبعيض . . أى ومن بعض هؤلاء من اليهود والنصارى ، مَن يؤمن بالكتاب ، وهو القرآن كما آمن به موسى ، وعيسى ، والنبيون من قبل . .

أما القول ، بأن المراد من قوله تعالى : « فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به » هم اليهود والنصارى المعاصرون للدعوة الإسلامية ، وأن قوله تعالى : « ومن هؤلاء من يؤمن به » مراد به المشركون من قريش ، كما يذهب إلى ذلك المفسرون ، قديماً ، وحديثاً ، فهذا مالا نراه ، ولا نأخذ به . .

فالموقف هنا ، فى مواجهة أهل الكتاب ، ودعوتهم إلى الإيمان بالله ، وبالكتب المنزلة من عند الله ، كما آمن النبي والمؤمنون ، بالله ، ورسله ، وكتبه .

هذا ، من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن إيمان النبيين الكريمين موسى وعيسى بالقرآن ، هو حجة على أهل الكتاب ، وإلزام لهم بمتابعة الرسول الذى حمل إليهم الكتاب الذى يؤمنون به . . من التوراة أو الإنجيل ، وإلا فهم خارجون على رسولهم ، وعلى الكتاب الذى بين أيديهم . .

ومن جهة ثالثة ، فإن الإشارة إلى مشركى العرب بأنهم آمنوا بالقرآن — لا محصل له فى هذا المقام ، ولا حجة منه على أهل الكتاب ، وحسب القائل منهم أن يدفع هذا بقوله : بأن هؤلاء المشركين أميّون ، فكيف يكون إيمانهم حجة عليهم . ؟ فإن لم يقل قائلهم هذا القول ، كان له أن يقول : إن محمداً هو — إن صح أنه رسول — فهو رسول إلى قومه هؤلاء ، وهو حجة عليهم لا علينا !! وهذا قول — وإن كان باطلا — فإن الجدل يتسع له ، وخاصة فى أول الدعوة الإسلامية ، التى كانت دعوتها متجهة أول الأمر إلى العرب ، كما يقول سبحانه وتعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » (٢ : الجمعة) .

ومن جهة رابعة ، فإن قوله تعالى : « فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به » إذا فهم على ما قرره المفسرون من أنه مراد به أهل الكتاب المعاصرون للدعوة ، فإنه يصادم الواقع ، إذ أن أهل الكتاب لم يؤمنوا بالقرآن ، لا فى عصر النبوة ، ولا بعده ، وإن الذى آمن منهم به نفر قليل بالإضافة إلى الكثرة الكثيرة التى ظلّت على ما وجدها القرآن عليه . .

وليس يشفع لهذا القول ، ويدفع عنه هـذا التناقض ، ما سِيق له من تخريجات ، كما قيل بأن المراد بقوله تعالى « يؤمنون به » هو أن من شأنهم أن يؤمنوا ، لو أنهم أخلوا أنفسهم من الحسد ، والغيرة ، لما يلقاهم به القرآن من آيات بينات ، تنكشف فى أضوائها معالم الطريق إلى الحق ، لكل ناظر فيها ، ملتمس الهدى منها . . وكما قيل أيضاً ، من أن المراد بالذين يؤمنون به من أهل الكتاب ، هم الذين آمنوا فعلا ، وهؤلاء وإن كانوا

قلة ، فإنهم هم كل أهل الكتاب ، الذين انتفعوا بالكتاب الذى فى أيديهم .. أما غيرهم من أهل الكتاب ، فلا حساب لهم .. ؟ !

وهذه لاشك مماحكات ، متهافتة ، ودعاوى واهية ، تتداعى لأية لمسة من نظرة عقل ، أو لمحة منطق .

ثم من جهة خامسة ، أن قوله تعالى : « ومن هؤلاء من يؤمن به » لا يصدق على العرب إلا فى مرحلة من مراحل الدعوة ، وفى بدئها ، أما بعد ذلك فقد دخل العرب جميعاً فى دين الله ، وآمنوا جميعاً بالله ، لا أفراداً معدودين منهم ، كما هو منطوق النظم القرآنى : «ومن هؤلاء من يؤمن به » ! هذا — والله أعلم — هو الرأى الذى يستقيم على طريق الآية الكريمة ، ويسير فى أضواء نظمها المشرق المعجز .

وسنرى ، فى الآيات التالية ما يزيد هذا الرأى وضوحاً وتمكيناً .

* قوله تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لا ارتاب المبطلون » .

هذا الخطاب للنبى الكريم من ربه سبحانه وتعالى ، يكشف لأهل الكتاب ، الذين كانوا فى هذه البيئة الأمية جامعةَ العلم ، وأساتذة طالبيه — هذا الخطاب يكشف لهم عن حقيقة جهلوها وتجاهلوها ، وهى أن هذا الأمىّ فى الأمة الأمية ، لم يكن ممن ألمّوا بشىء من القراءة والكتابة ، حتى على هذا المستوى المتواضع الذى كان لبعض نفر قليل من قومه ، ممن عرفوا القراءة والكتابة ، ومع هذا فهو يحمل فى صدره ، وعلى لسانه ، وبين يديه ، كتاباً عجباً ، يعلو بسلطانه على كل كتاب ، ويستولى بعلمه على كل علم ، ويقطع بحجته كل حجة ، ويقهر بمنطقه كل منطق ، ويفحم ببيانه كل بيان ! !

فمن أين لهذا الأمى بهذا كله ؟ .

وإذا كان للأميين المشركين أن يقولوا — جهلا — « إنما يعلمه بشر » وإذا كان لهم أن يقولوا — استبعاداً أو استعظاماً — إنه أخذ هذا العلم عن بعض العلماء من أهل الكتاب — فماذا يقول أهل الكتاب فى هذا الكتاب ؟ وإلى أى نَسَبٍ ينسبونه ، وإلى أى عالم منهم يسندونه ؟ .

إنه لم يجرؤ أحد من أهل الكتاب أن يقول كلمة واحدة فى نسب هذا الكتاب إلى علمهم ، أو إضافته إلى أحد من علمائهم . . وقد كان لهم — وهم أصحاب العلم — أن يقولوا شيئا من هذا الذى كان يقوله الأميون ، لو أنهم وجدوا لهذا القول مكاناً ـ أىّ مكان ـ ولو من قبيل التلبيس والتشكيك . .

فلقد كان المدى بعيداً بين هذه الشمس المتألقة فى كبد السماء ، وبين الأيدى التى تحاول الإمساك بها ، وعَقْد سحب من الظلام فى وجه أضوائها المتدفقة ! .

ومن هنا ، فإنه لاسبيل لأهل الكتاب أن يرتابوا فى نسبة هذا الكتاب إلى الله ، وأن يقولوا بأن إنساناً أميًّا ، فى أمة أمية ، يمكن أن يكون هذا الكتاب ، أو شىء منه ، من عمله . . وأنه إذا كان يمكن أن يرد عليهم شىء من الشك فى أن إنساناً ، قارئاً ، كاتباً ، دارساً ، يمكن أن يأتى بمثل هذا الكتاب ، فإن مثل هذا الشك يكون مستحيلا ، إذا جاء الكتاب على يد أمى ، ما عرف القراءة والكتابة ، ولا حضر مجالس الدرس والتحصيل .

وقد أثار المفسرون جدلا طويلا حول ما إذا كان الرسول قد عرف القراءة والكتابة بعد البعثة أم لا . . وقال كثير منهم إنه — صلوات الله وسلامه عليه ـ قد عرف القراءة والكتابة بعد بعثته .. وهذا أمر ما كان

يصحّ أن يكون موضع بحث أو خلاف ، فقد جاء القرآن ناطقاً صريحاً بأمية النبيّ ، وجعل هذه الأمية صفة دالة عليه ، يجده عليها أهل الكتاب فى كل حال يلقونه عليها . وفى كل زمنٍ يوجهون وجوههم إليه . . فالله سبحانه وتعالى يقول : « الذين يتّبعون الرسول النبيّ الأميّ ، الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل .. يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » (١٥٧ : الأعراف) . . والأميّة هنا لا شك هى أمية القراءة والكتابة ، أما أمية العلم ، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه ـ بما علّمه ربّه ـ عالم العلماء ، وحكيمَ الحكماء ، كما يقول سبحانه وتعالى مخاطباً له : « وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » (١١٣ : النساء) .

فكيف إذن يكون النبيّ قد خرج عن صفة الأمية بعد البعثة ، وعرف القراءة والكتابة ، ثم يكون بهذا حجة على أهل الكتاب الذى يجدون وصفه فى التوراة والإنجيل ، نبيًّا أميًّا فى الأميين ؟ ثم ما حاجة النبيّ إلى أن يعرف القراءة والكتابة بعد النبوة ؟ أكان يَنْقُل الكتاب الذى بين يديه عن كتب أخرى حتّى يضطره ذلك إلى معرفة القراءة والكتابة ؟ أم ماذا ؟ لا نجد جوابا ! !

قوله تعالى :

* « بل هو آيات بيناتٌ فى صدور الّذين أُوتوا العلم وَمَا يَجْحَدُ بآياتنا إلاّ الظالمون » .

الضمير « هو » يعود إلى الكتاب . فى قوله تعالى : « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب » . والذين أوتوا العلم ، هم العلماء من أهل الكتاب . .

أى أن هذا الكتاب يقع فى صدور العلماء من أهل الكتاب موقع

المعجزات البينات ، حيث تنطق آياته بالحقّ المبين ، يتلقاه منها كلّ من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . . وفى هذا يقول الله تعالى كاشفاً للمشركين عن عنادهم وضلالهم : « أَوَ لم يكن لهم آيَةً أن يعلمه علمآء بنى إسرائيل » (١٩٧ : الشعراء) .

أى أنه إذا لم يكن عند المشركين علم يعلمون يعرفون به قَدْر هذا الكتاب ، ويفرّقون به بين ما هو سماوى وما هو أرضى . . أفلا كان لهم فى علم العلماء من أهل الكتاب ، بهذا الكتاب ، وإيمانهم به ، عبرةٌ يعتبرون بها ، ومعلم من معالم الهدى ، يهتدون به إلى هذا الكتاب ؟ .

وقوله تعالى : « وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » . . إشارة إلى علماء أهل الكتاب ، الذين يعرفون الحق فى كتاب ثم ينكرونه ، من بعد ما عرفوه . وفى هذا يقول الله تعالى : « فلما جآءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » (٨٩ : البقرة) ووصفهم بالظلم ، هو الوصف الحق لهم ، إذ كتموا شهادة الحق الذى عرفوه . . والله سبحانه وتعالى يقول : « ومن أظلم ممن كتم شهادةً عنده من الله » (١٤٠ : البقرة) .

قوله تعالى :

* « وقالوا لولآ أنزل عليه آياتٌ من ربّه قل إنما الآياتُ عند الله وإنّما أنا نذيرٌ مبين » .

بعد هذه اللفتة العارضة إلى أهل الكتاب ، وأسلوب مجادلة المؤمنين لهم ، وما عند علمائهم من علم بهذا القرآن ـ بعد هذا عادت الآيات لتصل الحديث مع المشركين ، وتكشف عن مقولة من مقولاتهم الفاسدة الحمقاء فى مواجهة الدعوة الإسلامية ، ومدعياتهم عليها ، وعلى المرسَل إليهم بها . . فهم

يرتابون فى أن يكون « محمد » على صلة بالسماء ، وأن يكون هذا الكتاب الذى بين يديه من عند الله ، وقد أقاموا منطقهم هذا على أنه لو كان هذا شأن محمد ، لجاءهم بآية محسوسة ، كما جاء الرسل قبله إلى أقوامهم بآيات محسوسة ، وفى هذا يقول الله على لسانهم : « فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » (٥ :الأنبياء) وقد رَدّ الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله : « قل إنّما الآيات عند الله وإنّما أنا نذيرٌ مبين » أى أننى بشر مثلكم ،لا أملك من أمر الله شيئاً ، وإنما أنا نذيرٌ مبين أبلغكم ما أرسلت به إليكم . .

وقوله تعالى :

* « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتْلى عليهم . . إن فى ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون » .

هو ردٌّ آخر ، على ما يقترحه المشركون على النبىّ من آيات ، وفى هذا الردّ إنكار عليهم أن يطلبوا آياتٍ مع هذه الآيات التى تُتْلى عليهم . . إنها آيات لاتغرب شمسها ، ولا يخبو ضوءها أبَدَ الدهر . .

— وفى قوله تعالى : « إن فى ذلك لرحمةً » إشارة إلى أن هذه الآيات لا تحمل معها نُذُر الهلاك الذى تحمله الآيات التى يقترحونها ، فإنه لو جاءتهم آية من تلك الآيات لكفروا بها ، ثم كان مصيرهم مصيرَ الكافرين المكذبين ، كعاد ، وثمود ، وفرعون ! فهذه الآيات القرآنية رحمة من رحمة الله بهم .

— وفى قوله تعالى : « وذكرى لقوم يؤمنون » إشارة أخرى إلى أن آيات الكتاب فى معرض البحث والنظر ، وفى مجال التعقل والتأمل ، يعيش معها الإنسان ما يشاء ، ناظراً فيها ، متأملًا مواقع الإعجاز منها ، فيجد بهذا طريقه إلى الحق والهدى ، إذا كان صالحاً لقبول الخير ، مستعداً للتجاوب مع الحق !

الآيات : (٥٢ — ٥٥)

* « قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « قل كفى بالله بينى وبينكم شهيداً يعلم ما فى السموات والأرض والذين آمنوا بالباطلِ وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون » .

هـذا هو نهاية الموقف الذى يقفه النبى من المشركين . . إنه يُشهد الله عليهم ، أنه بلّغهم رسالة ربّه ، وأنهم فى عنادٍ وتكذيب . . والله سبحانه وتعالى يعلم ما فى السموات والأرض ، ويعلم ما يسرّ هؤلاء المشركون وما يعلنون . . وعند الله سبحانه عذاب شديد للضالين المكذبين ، الذين يؤمنون بالباطل ، ويقيمون فى رحابه آلهة يعبدونها من دون الله . . إنهم هم الخاسرون .. « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

قوله تعالى :

* « ويستعجلونك بالعذاب ولولآ أجَلٌ مُسَمًّى لجاءهم العذابُ وليأتينهم بغتةً وهم لا يشعرون » .

هو رَدٌّ على هؤلاء المشركين الذين يتحدّون النبىّ باستعجال العذاب الذى ينذرهم به ، إذا هم لم يؤمنوا بالله ، ولم يصدّقوا رسوله ، وفى هذا يقول سبحانه وتعالى عنهم : « وإذ قالوا اللّهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فَأَمْطِرْ علينا حجارةً من السمآء أو ائتنا بعذاب أليم » (٣٢ : الأنفال) .

—وقوله تعالى : « ولولآ أَجَلٌ مُسَمًّى لجاءهم العذاب » . . والأجل المسمّى هو ما قدّره الله تعالى فى علمه ، ووقّت له وقته الذى يقع فيه ، بما قضى به فى عباده . . وإن أى أمر لا يقع إلا فى وقته الموقوت له . . وإنه لولا هذا الأجل الموقوت للعذاب المرصود لهؤلاء المشركين ، لوقع بهم عند طلبهم له . . فلِمَ يستعجلون هذا البلاء ؟ إنه لواقع بهم لا محالة ، ولكنه سيأتيهم من حيث « لا يشعرون . . لأنهم لا يتوقعونه ، ولا يعملون على توقّيه بالإيمان والعمل الصالح ، فإذا وقع بهم دهِشُوا له ، وبُغتوا به ! وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : وليأتينهم بغتةً وهم لا يشعرون » . . والعذاب هنا ، هو العذاب الأخروى ، كما يفهم من الآية التالية . . والبغتة : المباغت المفاجىء .

قوله تعالى :

* « يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالـكافرين » .

هنا استفهام إنـكارى ، أى أيستعجلونك بالعذاب ؟ وكيف يستعجلون به ، وهو واقع بهم فعلا ؟ إنهم سائرون على الطريق الذى يهوى بهم فى جهنم . . فهم بما هم عليه من كفر وضلال ، واقعون فى دائرة العذاب ، ولن يخلصوا من العذاب إلا إذا تخلصوا من كفرهم ، وتطهروا من شركهم ، ودخلوا فى حظيرة الإيمان . .

قوله تعالى :

* « يومَ يَغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون » .

وإذا لم يكن هؤلاء الضالون يستشعرون الخطر الذى هم فيه ، ولا يرون جهنم المحيطة بهم فى الدنيا ، فإنهم سيرون ذلك عياناً ، ويذوقونه نكالا وبلاء ، يوم القيامة ، يوم يأخذهم العذاب ، ويشتمل عليهم ، من رءوسهم إلى أقدامهم ، ويوم يقول لهم الحق سبحانه وتعالى : « ذوقوا ما كنتم تعملون » . . فهذا هو عملكم الذى كنتم تعملونه فى الدنيا . . لقد عملتم شراً فطعموا من هذا الشر ! .

الآيات : (٥٦ — ٦٠)

* « يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَٱعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ (٥٨) ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعةٌ فإيايَ فاعبدون » .

مناسبة هذه الآية والآيات التى بعدها للآيات السابقة ، أن الآيات السابقة كانت حديثاً إلى المشركين من قريش ، وما يتحدون به رسول الله من إنزال آية مادية عليهم ، ومن استعجال العذاب الذى يتهددهم به — فجاءت

الآيات بعد هذا حديثاً إلى المسلمين الذين كانوا قلةً مستضعفة فى مكة ، يلقاهم المشركون بالضر والأذى ، ويأخذون عليهم كل سبيل إلى الاجتماع بالرسول ، أو الصلاة فى المسجد الحرام ، أو الجهر بتلاوة القرآن . . إلى غير ذلك مما كانت تضيق به صدور المسلمين ، وتختنق به مشاعر الإيمان فى كيانهم ، وتختفى به مظاهره على ألسنتهم وجوارحهم — جاءت هذه الآيات لتفتح للمسلمين طريقاً رحباً إلى النجاة من هـذا الضيق ، والخلاص من هذا البلاء . .

إن أرض الله واسعة ، وإذا ضاقت أرض بإنسان فإن من الخير له أن يتحول عنها إلى غيرها ، حيث يجد فى الأرض مُراغماً كثيرة وسعة ..

— وفى قوله تعالى : « ياعبادى الذين آمنوا » وفى إضافة الذين آمنوا إلى الله سبحانه وتعالى ، وندائهم إليه من ذاته جل وعلا — فى هذا احتفاء بهم ، واستضافة لهم فى رحاب رحمة الله وفضله وإحسانه . . وذلك لأنهم مدعوون إلى الهجرة من ديارهم ، والانفصال عن أهلهم وإخوانهم ، وذلك أمر شاق على النفس ، ثقيل الوطأة على المشاعر ، التى ارتبطت بالموطن ارتباط العضو بالجسد.. فكان من لطف الله سبحانه بعباده هؤلاء المؤمنين ، الذين دعاهم إلى الهجرة من ديارهم — أن استضافهم فى رحابه ، وأنزلهم منازل رحمته وإحسانه ، بهذا الدعاء الرحيم ، الذى دعاهم به سبحانه ، إليه . . « ياعبادى » .. فمن استجاب منهم لهـذا النداء ، وأقبل على الله مهاجراً إليه بدينه ، تلقاه الله سبحانه بالفضل والإحسان ، وأنزله منزلا خيراً من منزله ، وبدّله أهلاً خيراً من أهله !.

وقد استجاب المسلمون لهذا النداء ، فخرجوا مهاجرين إلى الله ، أفراداً وجماعات ، وكانت الحبشة أول متجه اتجه إليه المسلمون المهاجرون ، فأنزلهم

الله أكرم منزل ، هناك . . ثم كانت الهجرة إلى المدينة ، التى أصبحت مهاجَر المسلمين من كل مكان ، بعد أن هاجر الرسول الكريم إليها . . وهناك وجد المهاجرون إخوانا ، شاطروهم دورهم وأموالهم ، وآثروهم على أنفسهم بالطيب من كل شيء .

وأكثر من هذا ، فإن مجتمع المهاجرين هؤلاء الذين ضمتهم مدينة الرسول ، كانوا الوجه الذى تجلى فيه دين الله ، وعزت به شريعته . . ومن هؤلاء المهاجرين ، كان صحابة رسول الله ، وخلفاء رسول الله . .

وأكثر من هذا أيضاً ، فإن القرآن الكريم ، قد أجرى ذكراً خالداً لهؤلاء المهاجرين ، وأشار إلى منزلتهم العليا عند الله ، وما أعد لهم من أجر عظيم ، وثواب كريم ، لم يشاركهم فى هذا أحد من المسلمين ، إلا الأنصار ، الذين نزل المهاجرون ديارهم ، ووجدوا ما وجدوا من برهم وإحسانهم . .

وهكذا ، استظل المهاجرون بظل هذا النداء الكريم . . « ياعبادى » فكانوا منه فى نعمة سابغة ، وفضل عظيم ، فى الدنيا والآخرة جميعاً .

وفى قوله تعالى : « إن أرضى واسعة » . . توجيه لأنظار المسلمين إلى سَعَة مُلك الله سبحانه وتعالى ، وإلى أن يمدوا أبصارهم إلى أبعد من هذا الأفق الضيق المحدود ، الذى يعيشون فيه ، والذى يحسب كثير منهم أن الأرض كلها محصورة فى هذه الرقعة التى يتحركون عليها ، ويضطربون فيها .. وكلا فإن أرض الله واسعة ، أكثر مما يتصورون . . فليخرجوا من محبسهم هذا ، ولينطلقوا فى فجاج الأرض ، الطويلة العريضة ، وسيجدون فى منطلقهم هذا ، سعةً من ضيق ، وعافية من بلاء .. والله سبحانه وتعالى يقول : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مُراغَماً كثيراً وسعة » (١٠٠ : النساء) .

—وقوله تعالى : « فإياى فاعبدون » .. أى فاجعلوا عبادتكم لى وحدى ، لا تشركون بعبادتى أحداً ..

والفاء فى قوله تعالى : « فإياى » تفيد السببية .. حيث كشف قوله تعالى : « إن أرضى واسعة » عن إضافة هذه الأرض إلى الله سبحانه ، كما كشف عن سعة هذه الأرض ، وأن أى مكان ينزل منها الإنسان فيه ، هو فى ملك لله .. وإذ كان ذلك كذلك ، وجب أن يُفرد وحده سبحانه بالعبادة ، كما أفرد جل شأنه بالملك ..

هذا ، والآية الكريمة دعوة سماوية إلى تحرير الإنسان ، جسداً ، وعقلا ، وقلبا ، وروحا ، من كل قيد مادى ، أو معنوى ، يعطل حركته ، أو يعوق انطلاقه ، أو يكبت مشاعره ، أو يصدم مشيئته ، أو يقهر إرادته ..

فنى أى موقع من مواقع الحياة ، وعلى أى حال من أحوالها ، لا يجد فيه الإنسان وجوده كاملا محرراً من أى قيد ، ثم لا يعمل جاهداً على امتلاك حريته كاملة — يكون ظالماً لنفسه ، معتدياً على وجوده . .

وإذا كانت دعوة الإسلام قد جاءت لتحرير الإنسانية من ضلالها ، وفرضت على المؤمنين أن يجاهدوا الضلال والضالين ، وأن يبذلوا فى سبيل ذلك دماءهم وأموالهم ، فإن الجهاد الحق فى أكرم منازله ، وأعلى درجاته ، هو الجهاد فى تحرير المؤمن نفسه أولا ، وفى تخليصها من كل قيد يمسك بها على مربط الذل والهوان ، ويحملها على أن تطعم من مطاعم الذلة والمهانة ، وفى هذا يقول الله تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض !! قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » (٩٧ : النساء) ..

فلقد توعدهم الله سبحانه وتعالى بالعذاب الأليم فى الآخرة ، لأنهم باستخزائهم وضعفهم ، قد باعوا دينهم ، واسترخصوا مروءتهم ، فكانوا سلعة فى يد الأقوياء ، لا يملكون معهم كلمة حق يقولونها ، ولا يجدون من أنفسهم القدرة على دعوة خير يدعون بها . . وإنه هيهات أن يسلم لإنسان دين أو خُلُق، إلا إذا تحرر من كل ضعف واستعلى على كل خوف . . ومن هنا كانت دعوة الإسلام متجهة كلها إلى تحرير الإنسان ، عقلا وقلباً وروحاً ، كما كانت دعوته إلى تحرير الإنسان وجوداً وجسداً . .

وقد يكون الإنسان حراً طليقاً فى المجتمع الذى يعيش فيه ، لا يَرِد عليه من الجماعة وارد من ضيم أو ظلم ، ومع هذا فهو أسير شهواته ، وعبد نزواته ، وتَبِيع هواه . . لا يملك من أمر وجوده شيئاً . . ومن هنا كان أول ما يجاهد الإنسان هو جهاد النفس ، والأهواء المتسلطة عليه منها ، وهذا ما قصد إليه الرسول الكريم من قوله ، وقد عاد من إحدى غزواته : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » قالوا يا رسول الله : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : جهاد النفس » .

قوله تعالى :

* « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » .

هو تهوين من شأن الدنيا فى عين المؤمنين الذين يتهيئون للهجرة . . فقد يحضر كثيراً منهم ـ وهو يأخذ عدته للهجرة ـ واردٌ من واردات الإشفاق على الأهل والولد ، وما يلقى من لهفة وحنين لفراقهم ، وما يجدون هم من أسًى وحسرة لبعده عنهم . . إلى غير ذلك مما يقع للمرء من تصورات وخواطر فى مثل هذا الموقف ـ فجاء قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت » مهوّناً من شأن هذه الحياة الدنيا ، فإن نهاية كل حىّ فيها هو الموتُ . . وإذ كان ذلك

هو شأنها ، فإنّ التعلق بها وبأهلها ، وبأشيائها ، هو متاع إلى حين ، ثم ينصرم الحبل بين الإنسان وبين كل ما يمسك به من هذه الدنيا ، طال الزمن أو قصر — فإذا كان ما يمسك الإنسانَ من هذه الدنيا شيء يحول بينه وبين الطريق إلى الله ، وإلى ما عند الله من ثواب عظيم وأجر كريم — فإن هذا الشيء مهما غَلاَ ، هو عَرَض زائل ، وظِل حائل ، لا حساب له إلى جانب الباقيات الصالحات ، وما وعد الله سبحانه عليها ، من رضوان وجنّاتٍ فيها نعيم مقيم .

قوله تعالى :

* « والذين آمنوا وعملوا الصّالحات لنبوّئنهم من الجنّةِ غرفاً تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجْرُ العاملين * الذين صبروا وعلى ربّهم يتوكلون » .

فهذه هى الحياة الباقية ، التى ينبغى للإنسان أن يعمل لها ، ويحرص الحرص كلّه على ألاّ يعوّقه شىء — أيًّا كان — عن السعى فى تحصيل كل ما هو مطلوب لها . . فالذين آمنوا بالله ، وعملوا الصالحات ، موعودون من الله سبحانه وتعالى أن يُنزلهم من الجنة أكرم منازلها ، وأن يحلّهم منها فى غرفات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، لا يتحولون عنها . وذلك هو جزاء العاملين ، وإنه لنعم الجزاء .

وإن أبرز صفات العاملين ، الذين يداومون على العمل ويحسنونه ، هو الصبر ، والتوكل على الله ، فبالصبر يقهر الإنسان كل دواعى الضعف والتخاذل ، وبالتوكل على الله والتسليم له ، وتفويض الأمور إليه ، يحلو المرّ ، ويستساغ الضرّ . . وبهذا يظل العامل آخذاً مكانه فى موقع العمل ، فيما يرضى الله ، لا يتحول عنه أبداً .

وفى قوله تعالى : « لنبوّئنهم من الجنة غرفاً » وعدٌ مؤكد ، بالقسم ،

ونون التوكيد . . وليس وعده سبحانه فى حاجة إلى توكيد ، فهو محقق لا شك فيه . . ولكن لتطمئن قلوب المؤمنين ، ولتثبت أقدامهم على الطريق الشاق الذين يأخذونه إلى الهجرة ، وما يعترضهم عليه من دواعى الإشفاق من فراق الأهل والولد .

قوله تعالى :

* « وَكَأَيِّن مِّنْ دَآبَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

هو تطمين لقلوب المسلمين المدعوين إلى الهجرة ، والذين استجابوا لها ، وأعدّوا العدة لإمضائها ، أو للذين هم قد هاجروا فعلاً ، وانقطعت موارد رزقهم التى كانت فى أيديهم ، بين أهلهم وفى ديارهم . . وإنه لن يأسَى المسلمون على ما تركوا وراءهم من مال ومتاع ، ولن يهتمّوا كثيراً لأمر المعاش ، ولن يُشغلوا به . . فالله سبحانه الذى يرزق الدواب فى القفار ، والطيور فى السماء ، هو الذى يتكفل بأرزاق الناس ، وأن سعيهم فى وجوه الأرض ، وما يبذلون من حول وحيلة ، إنما هو أسباب موصلة إلى ما قدّر الله لهم من رزق . . ولن ينال أحدٌ مهما جدّ وسعى غير ما هو مقدور له .

وقوله تعالى : « وكأيّن من دابة لا تحمل رزقها » إشارة إلى أن كثيراً من الدواب لا تستطيع أن تحمل رزقها ، أى تحصّله بنفسها ، وتصل إليه بسعيها . . وأقرب مثل لهذا مواليد الحيوان ، حيث سخّر الله لها الأمهات والآباء لتعمل على إطعامها ، بل وتزقّه فى فمها ، وتلقيه فى جوفها . . وإذا بدا لنا أن بعض الدواب كالأسود والذئاب ونحوها قادرة على انتزاع غذائها من الحياة ، فإن ذلك لا يعدو فى حقيقته أن يكون رضاعة من ثَدى الطبيعة التى خلقها الله على هـذا النظام البديع المعجز ، الذى يجد فيه كل كائن رزقه

الذى يحفظ عليه وجوده . . وكذلك الناس بين أقوياء وضعفاء ، وبين ذوى حيلة ومن لا حيلة لهم . . كلهم جميعاً يُرزقون من فضل الله ، ويحصلون على ما قُدِّر لكل منهم من رزق . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « الله يرزقها وإياكم » . . أى فكما تُرْزَق هذه الدوابّ التى لا حيلة لها فى تحصيل قوتها ، كذلك تُرْزَقون أنتم أيها المهاجرون ، وقد بدا لكم أنه قد انقطعت عنكم أسباب معيشتكم . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » (٦ : هود) .

وقوله تعالى : « والله سميع عليم » أى سميع لما تدعون به من حاجاتكم ، عليم ، بما تحتاجون إليه ، وإن لم تسألوا شيئاً .

الآيات : (٦١ — ٦٩)

* « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ

يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٦٨) وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٦٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » .

بعد هذه الوقفة مع هؤلاء المؤمنين الذين حملهم المشركون على الهجرة من أوطانهم ، بما أخذوهم به من بأساء وضراء ـ عادت الآيات لتلقى المشركين بقذائفها المدمِّرة ، التى تدكّ بها حصون الشرك ، وتهدم قلاعه ، بحجتها الدامغة ، وبيانها المبين . .

فالمشركون هنا ، فى مواجهة سؤال ، هو : « من خلق السموات والأرض وسخّر الشمس والقمر » ؟

وإنه لا يجرؤ أحدٌ منهم أن يجيب بأن آلتهم تلك الجاثمة على الأرض ، هى التى خلقت السموات والأرض ، وأنها هى التى سخرت الشمس والقمر . . فمن إذن الذى خلق ؟ ومن الذى سخّر ؟ جواب واحد ، هو الله الذى خلق السموات والأرض وسخّر الشمس والقمر . إنهم لا ينكرون هذا ، ولا سبيل لهم إلى إنكاره . وإذن فكيف يصرفون وجوههم عن الله ، ويُقبلون على هذه الدُّمَى يعبدونها من دونه ؟ أليس هذا سفهاً وضلالا ؟ وبلى إنه السّفه والضلال والضّياع أيضاً .

وقوله تعالى : « فأنى يؤفكون » هو تعقيب على هذا السؤال ، وعلى

الجواب الذى أجابوا به نُطْقاً ، أو إلجاء ، وإلزاماً ، إذ لا جواب لهم غيره ! « ليقولن الله » .

وأنّى ، بمعنى كيف ، ويؤفكون ، من الإفك ، وهو الانصراف عن وجه الحق إلى الضلال . .

قوله تعالى :

« الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم » .

* « هـذه الآية تعقيب على ما تقرر فى الآية السابقة من استسلام المشركين لما ألزمتهم به من حجة ، لم يجدوا معها سبيلا إلا الإذعان والإقرار ، بأن الله سبحانه هو الذى خلق السموات والأرض وسخّر الشمس والقمر . . وإذا كان ذلك كذلك على ما أقروا به ، فليعلموا إذن أن الله هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، ويقدر له ، فيوسع الرزق لمن يشاء ، ويَقْدِره أى يضيقه على من يشاء ، حسب علمه ، وحكمته . . « إن الله بكل شىء عليم » فلا يفعل ما يفعل إلا عن علم ، وما كان فعلا عن علم ، فهو أصلح الأفعال ، وأنسبها ، وأعدلها ، وأحكمها . .

قوله تعالى :

* « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولُنّ الله قل الحمدُ لله بل أكثرهم لا يعقلون » .

وهذا سؤال آخر يُسأله المشركون : « من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ؟ » فما جوابهم على هذا ؟ .

لقد أقروا — طوعاً أو كرهاً — أن الله هو الذى خالق السموات والأرض وسخّر الشمس والقمر . . إذ كان ذلك أمراً لا يمكن المجادلة فيه ، ولا يجد معه أى عقل — مهما لج فى الضلال والعناد — سبيلا إلى المماراة ، والتمحك . .

وعلى هذا ، فإنه وقد سُلِّم بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض وسخّر الشمس والقمر ، لا بد أن يُسلِّم بأنه سبحانه هو الذى يملك كل مافى السموات وما فى الأرض ، وأنه هو سبحانه الذى يصرّف كل شىء فيهما .. فما ينزل من السماء من ماء ، فهو من أمر الله ، ومن قدرته ، وتدبيره . . وما يُحدِث هذا المـــاء من آثار فى الأرض ، فهو من أمر الله ، ومن قدرته ، وتدبيره ..

وإذن ، فلا جواب لهؤلاء المشركين إلا الإقرار ، بأن الله هو الذى نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها .. فهذا من ذاك ، أو من بعض ذاك . .

— وقوله تعالى : « قل الحمد لله » هو تعقيب على هذا الإقرار ، الذى ألجأ المشركين إليه ، ما طلع عليهم من آيات الله ، فأتوا إليه مذعنين : . وهذا مما يجدد المؤمن نظراً إلى نعم الله ، حيث قهر جلالُها المشركين الضالين ، فاعترفوا برب هذه النعم ، وأضافوها إليه .. وإن الحمد والولاء لله ، هو ماينبغى أن يسبّح به المؤمن فى هذا المقام ، مقام تلك النعمة الجليلة ، وهى نزول الماء من السماء ، وما لهذا الماء من آثار فى بعث الحياة فى الحياة ! .

والأمر هنا فى قوله تعالى : « قل الحمد لله » هو للنبى صلى الله عليه وسلم ، ولـكل مؤمن ، يتلقى هذا الجواب ، على هذا السؤال : مَن نزل من السماء ماء فأحيا به على الأرض من بعد موتها ؟ سواء أكان الجواب على هذا السؤال واردا عليه من ذات نفسه ، وهو يدير نظره فى هذا الوجود ، أو تلقاه من غيره ، جواباً على سؤال !

وفى قوله تعالى : « بل أكثرهم لا يعقلون » إشارة إلى ماركب كثيراً من هؤلاء المشركين من جهل ، وما تغشّاهم من ضلال . . وأنهم لا يرون

الحق الذى تلوح أماراته لأعينهم ، ثم إنهم إذا بُصِّروا به ، وأبصروه ، لم يتقبلوه ، واتهموا أنفسهم ، وارتابوا فى معطيات أبصارهم ، وقالوا كما ذكر القرآن : « إنما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » (١٥ : الحجر) .

فهذا الحمد الذى ينطق به الوجود كله ، تسبيحاً ، وولاء لله ، لا يدرك المشركون دلالته ، لأنهم لا يعقلون ما ينبغى لله من تنزيه عن الشريك والولد .

قوله تعالى :

* « وما هذه الحياةُ الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » .

إن الذى يغطّى على أبصار هؤلاء المشركين ، ويعمّى عليهم الطريق إلى الحق ، هو اشتغالهم بهذه الدنيا ، وتنافسهم على متاعها ، واستهلاك أنفسهم فى الجرى اللاهث وراء لذاذاتها وشهواتها . ولو أنهم تخففوا قليلا من تعلقهم بالحياة ، ونظروا إليها على أنها طريق إلى حياة أخرى ، أخلد وأبقى — لو أنهم فعلوا هذا لكان شأنهم مع آيات الله وكلماته ، غير شأنهم هذا ، ولوجدوا لدعوة الرسول آذانا تسمع ، وعقولا تعقل ، وقلوباً تتقبل ما تعقله العقول ..

ولهذا جاء قوله تعالى : فى هذه الآية ، كاشفاً عن حقيقة دنيا المشركين هذه ، التى فتنوا بها ، وسكروا من خمرها . فما هى فى حقيقتها إلا لهو ولعب ، لا يشغل نفسه بها إلا لاعبٌ لاهٍ ، شأنه فى هذا شأن الصغار ، الذين يعيشون لساعتهم ، فى مرح معربد ، ولهو صاخب ، غير ملتفتين إلى أى شىء وراء هذا .

وقوله تعالى : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان » — هو عرض للجانب الآخر من حياة الإنسان ، وهو الجانب الحق ، الجدير بأن يلتفت الإنسان

إليه ، ويعمل له .. إنه المستقبل الذى ينتظره، والذى يأخذ فيه مكانه بين الناس وينزل منه منزلته ، حسب ما قدم لهذا المستقبل من جهد ، وما بذل من عمل.. تماماً كما هو الشأن فى حياة الإنسان فى هذه الدنيا ، فإن مكانه فى الرجال ، ومنزلته فى الناس إنما تتحدد بما كان منه من سعى وعمل فى دور الصبا والشباب .. فإذا لها المرء فى صباه ، وعبث فى شبابه ، أسلمه ذلك إلى حياة ضائعة وإلى مستقبل أسود كئيب !

إذا أنت لم تزرع وأبصرتَ حاصداً

ندمتَ على التفريط فى زمن البذرِ

وفى قوله تعالى : « لهى الحيوان » بدلا من « لهى الحياة » — إشارة إلى أن الحياة الآخرة هى الحياة ، بل هى أصل الحياة ، وما سواها من حيوات، ظل لها ، أو فرع منها . .

وقوله تعالى : « لو كانوا يعلمون » .. اتهام لهؤلاء المشركين بالجهل والغباء ، وأنهم لو كانوا على شىء من العلم لما عموا عن هذه الحقيقة ، ولما آثروا الفانية على الباقية ، ولما اشتروا الضلالة بالهدى .. فإن العاقل العالم ، من شأنه أن يميز الخبيث من الطيب ، ويفرق بين الغث والثمين .

قوله تعالى :

* « فإذا رَكِبُوا فى الفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » أى أن هؤلاء المشركين اللاهين الغافلين ، الذين أعماهم الضلال عن الآخرة ، وعن العمل لها ، وعن ذكر الله ذكراً خالصاً — هؤلاء يظلون سادرين فى لهوهم وشركهم ، حتى إذا ركبوا فى الفلك ، واستشعروا الخطر ، ذكروا الله ، وفزعوا إليه ، وأسلموا وجوههم له ، مخلصين له الدين ، لا يذكرون وجهاً من وجوه آلهتهم ، ولا يهتفون باسم معبود من معبوداتهم

فإذا خلصوا من البلاء ، ونجوْا من الهلاك ، واستهم الطمأنينة ـ عادوا إلى ما كانوا فيه من شرك ، ونَسُوا ما كان منهم لله من دعاء ومواثيق ! ! وهكذا المشركون فى الآخرة ، يوم يلقاهم العذاب ، وتفتح لهم أبواب جهنم . . هناك لا يُجرون لآلهتهم ذِكراً على ألسنتهم ، بل يذكرون الله وحده ، طالبين الغوث من هذا البلاء العظيم ، قائلين : « ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون » . . وأنّى لهم الخروج وقد دانهم الديّان بما كانوا يعملون ؟ : « قال اخسئُوا فيها ولا تكلمون » (١٠٨ : المؤمنون) .

قوله تعالى :

* « ليكفروا بِمَآ آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون » .

اللام فى « ليكفروا » وفى « ليتمتعوا » هى لام التعليل . . وهو تعليل لسؤال يَرِدُ على قوله تعالى : « فلمّا نجاهم إلى البرِّ إذاهم يشركون ! » والسؤال الوارد هنا هو : لِمَ لم يهلكهم الله فى هذه الدنيا ؟ ولم لم يعجّل لهم العذاب بشركهم هذا ؟ ولِمَ نجاهم الله سبحانه من الغرق ، ولم يدع يد الغرق التى امتدت إلى سفينتهم تدفع بها وبهم إلى لجة الماء ، فيبتلعهم اليمّ ؟ .

والجواب : « ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا » أى ليأخذوا فرصتهم كاملة فى الكفر بهذه الآيات التى تطلع عليهم من آثار قدرتنا ، وليتمتعوا بما بقى فى آجالهم المقدورة لهم ، من أيام .

— وقوله تعالى : « فسوف يعلمون » تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين الذين لم تزدهم آيات الله إلا ضلالًا ، ولم تزدهم نعمُه وآلاؤه إلا كفراً . . وأنهم إذا كانوا اليوم فى غفلةٍ عن مصيرهم الذى هم صائرون إليه ، فسوف يعلمون علم اليقين ، هذا المصير ، وسيصلون عما قليل إلى ما أعد الله لهم من عذاب أليم .

هذا وقد قرىء قوله تعالى : « ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا » بسكون اللام فى « ولْيَتَمَتَّعُوا » وهذا يعنى أن الأسلوبَ أمر ، يراد به التهديد والوعيد .

قوله تعالى :

* « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ » .

هو استفهام إنكارىّ ، يُنكر فيه على هؤلاء المشركين كفرُهم بآيات الله ، وجحودهم النعم التى يعيشون فيها من فضله وإحسانه . . فقد اختصهم الله سبحانه من بين العرب جميعاً ، بهذا البلد الحرام ، الذى ألقى فى قلوب العرب جميعاً توقيرَه ، وتوقير ساكنيه . . وبهذا عاش هؤلاء المشركون فى ظل هذا البلد الحرام ، آمنين لا ينالهم أحد بسوء ، على حين يعيش الناس من حولهم ، فى خوف وفزع ، وفى بغى وعدوان ، لا يأمن أحد على نفسه ، وأهله وماله ، من أن تطلُع عليه فى أية لحظة ، عاصفة تأتى على كل شىء ! .

هكذا الحياة فى هذه الغابة التى لا يتعامل فيها ساكنوها إلا بالظفر والنّاب ، ماعدا هذه البقعة المباركة منها ، فقد حماها الله ، وحَمى أهلها من كل عادية . . « الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (٤ : قريش) .

أفلا يَرَى هؤلاء المشركون تلك النعمة الجليلة ؟ ألا يذكرون فضل الله عليهم بها ؟ ألا يُخلصون له العبادة ؟ ألا يتركون عبادة هذه الدُّمى التى شوّهوا بها وجه هذا الحرم ، وجعلوها أنداداً لله ؟ « أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون » ؟ ألا ما أسخف عقولَهم ، وما أخفّ أحلامَهم !

قوله تعالى :

* « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ » .

وإن هؤلاء المشركين لظالمون معتدون ، بل إنهم لأشد الناس ظلماً وأكثرهم عدواناً . . إنّهم افتروا على الله الكذب ، فخلقوا هذه الدُّمَى ،

وأعطوها ماشاءوا لها من أسماء ، وجعلوها آلهة يعبدونها من دون الله ، وقالوا : « ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى » . . ثم إنهم حين جاءهم رسول الله ، يكشف لهم وجْهَ هذا الباطلْ ، ويفضح هذا الزّور ، ويقيم لهم طريقاً إلى الله ، قائماً على الحق ـ كذّبوه ، ولم يقبلوا الهدى الذى معه . . إن ذلك جرم غليظ ، لا تتسع له أية عقوبة فى هذه الدنيا ، وإنه ليس إلا جهنّم ونـكالها ، وبلاؤها ، جزاء يُجزى به هؤلاء الـكافرون . . « أليس فى جهنم مثوًى للـكافرين » ؟ وبلى . . إن فيها لمـكاناً لـكل من كفر بالله ، وكذّب بآيات الله .

قوله تعالى :

* « والذين جَاهدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنّهُمْ سُبُلَنَا وإن الله لمع المحسنين » .

بهذه الآية الـكريمة تختم السورة . . فيلتقى ختامها مع بدئها ، ولقد بدئت السورة بإيذان المؤمنين بالابتلاء ، وملاقاة الفتن على طريق الإيمان ، وأن استمساك المؤمن بإيمانه يقتضيه جهاداً وتضحية ، بالنفس والمال ، والأهل والولد ، والوطن ، وكما يقول سبحانه : « أحسب الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون » كما يقول سبحانه فى آية أخرى : « لَتُبْلَوُنّ فى أموالـكم وأنفسكم وَلَتَسْمَعُنّ مِنَ الذين أُوتوا الـكتاب من قبلـكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيراً » (١٨٦ : آل عمران) .

وهذا الختام الذى ختمت به السورة ، هو وعد كريمٌ من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين الذين يجاهدون فى سبيل الله ، ويحتملون ما يلقاهم على طريق الجهاد من ضرٍّ وأذى ـ أن يَهديهم الله ، ويثبّت أقدامهم على سبيله . . لأنهم سَعَوْا إلى الله ، فتلقاهم الله بإمداد عونه ، وتأييده ، ونصره ، فـكان لهم الغَلَب ، وكانت لهم العزّة فى الدنيا ، وجنات النعيم فى الآخرة .

وفى قوله تعالى : « جاهدوا فينا » . . إشارة إلى هذا الجهاد الذى يجاهده

المؤمن ، وأنه جهاد لله ، وفى سبيل الله ، وإعزاز دينه ، ونصر كلمته . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ من ينصره » (٤٠ : الحج) . . ومعنى الجهاد فى الله ، الجهاد فى كل ما هو لله ـ مما جعله حمًى له ، جل شأنه .

وفى توكيد الفعل « لنهدينّهم » توكيد لوعد الله ، وأنه وعدٌ أوجبه الله سبحانه على نفسه ، كما يقول سبحانه : « وكان حَقا علينا نَصْرُ الْمُؤْمِنِين » (٤٧ : الروم)

وفى قوله سبحانه : « وإنَّ اللهَ لمع المحسنين » تطمين لقلوب المؤمنين ، وإشعار لهم بأن الله معهم ، بعزته وقوته ، وسلطانه .. ومن كان الله معه ، فهو فى أمان من أن يَذِلَّ أو يهون : « أولئك حزبُ الله ألا إنَّ حِزْبَ اللهِ همُ المفلحون » (٢٢ : المجادلة)

وفى وصف المجاهدين فى سبيل الله بأنهم محسنون ، إشارة إلى أن الجهاد فى جميع صوره ، هو إحسان ، وأن المجاهد مُحْسِن ، لأنه يأخذ طريق الإحسان ، ويسلك مسالكه ، على حين أن غير المجاهد مسيء ، لأنه يركب مراكب الضلال ، ويَهيم فى أودية الباطل . . فحيثما كان الإنسان مع الله سبحانه وتعالى ، فهو فى جهاد . . فإذا قهر المرء أهواء نفسه ، ووساوس شيطانه ، فهو مع الله ، وفى جهاد فى الله . . وإذا انتصر الإنسان لمظلوم ، فهو مع الله وعلى جهاد فى سبيل الله . . وإذا قال المرء كلمة الحقّ ، وردّ بها باطلا ، وسفّه بها ضلالاً ، فهو مع الله ، وفى جهادٍ فى الله . . وإذا حمل المرء سلاحه ، ودخل الحرب تحت راية المجاهدين فهو مع الله ، وفى جهاد فى الله .

إن سُبل الجهاد كثيرة ، وميادينه متعددة .. بالقول ، وبالعمل ، باللسان وبالسيف . ولعلّ هذا هو السرّ فى جمع السبيل فى قوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهُم سُبُلَنَا » . . فهناك أكثر من سبيل يصل به المؤمن إلى الله . . لأنها جميعها قائمة على الحق ، والعدل ، والإحسان .

وصدق الله العظيم

٣٠ - سُورةُ الرُّوم

نزولها : مكية

عدد آياتها : ستون آية . .

عدد كلماتها : ثمانمائة وسبع .

عدد حروفها : ثلاثة آلاف وخمسمائة وثلاثون . .

مناسبتها لما قبلها

حملت سورة « العنكبوت » ـ التي سبقت هذه السورة ـ دعوة للمسلمين إلى أن يوطّنوا أنفسهم على مايلقاهم من بلاء وفتن على طريق الإيمان ، وآذنتهم بأنهم مُبتلوْن بكثير من الشدائد والمحن ، وأن فيما يُبتَلوْن به ، الهجرة ، وفراقَ الأهل والديار . . ثم كان ختامها هـذا الوعد الذى تلقوْه من الله سبحانه وتعالى ، بأن الله سيهديهم السبيل المستقيم ، سبيل الله ، وأنه معهم ، يمدّهم بأمداد نصره وتأييده .

ثم تجىء بعد هذا سورةُ « الروم » هذه ، فتعرض مشهداً من الواقع ؛ وتُخبر عن حَدَث مشهودٍ ، يراه المسلمون والمشركون ، يومئذ ، وهو تلك الحرب التى وقعت بين الروم والفرس ، والتى انتصر فيها الفرس ، وهم عبدة أوثان ، على الروم وهم أهل كتاب ، كان ذلك ، والحرب على أشدّها بين المشركين والمسلمين فى مكة ، وقد كانت الدولة للمشركين ، حيث كانوا هم الـكثرة ، وأصحاب القوة والجاه ، على حين كان المسلمون قلةً قليلة ، أغلبها من المستضعفين ، من الإماء والعبيد ، وكان أقوى المسلمين قوةً ، وأعزّهم نفراً ، من يستطيع أن يفلت من يد القوم ، ويخرج فارًّا بدينه ، تاركاً كل شىء وراءه ! !

فى هذا الوقت جاءت الأنباء إلى أهل مكة تحدّث بتلك الحرب الدائرة بين الفرس والروم ، وبأن الغَلَبة كانت للفرس ، وكان لذلك فرحة فى نفوس المشركين ، لم يستطيعوا أن يمسكوا بها فى كيانهم ، بل انطلقوا يردّدونها فيما بينهم ، ويُديرون أحاديثها على أسماع المسلمين ، استهزاء وسخرية وشماتة ، إذ كان المسلمون يمثلون الروم ، الذين يؤمنون بكتاب سماوى ، على حين كان المشركون يمثلون الفرس ، عبدة النار . . وأمّا وقد غلب عَبَدة النار أهلَ الكتاب ، فإن عبدة الأصنام المشركين ستكون لهم الغلبة دائماً على الذين اتبعوا محمداً ، وآمنوا بالكتاب الذى معه ، وأن ما يعدهم به الكتابُ الذى فى أيديهم من نصرٍ وعزّة ، ليس إلا خداعاً ووهماً كاذباً ، وأن فيما وقع بين الفرس والروم ، وما كان من انتصار الفرس على الروم لهو شاهد بيّن ، لا تُدفع شهادته . . وإذن فإن ما يُدّعى بأنه كتب سماوية من عند الله ــ قديماً وحديثاً ــ هو مجرد كذب وافتراء . . إذ لو كانت هذه الكتب من عند الله لما خُذل أتباعها أبداً . . وإلا فأين الله وقد خُذل أتباع كتبه ؟ هكذا كان تفكير المشركين وتقديرهم .

وقد وجد المسلمون فى أنفسهم شيئاً من الأسَى لتلك الهزيمة التى حلّت بالروم ، ثم ضاعف ذلك الأسى ، وزاد فى مرارته ما كان يلقاهم به المشركون من كلمات ساخرة ، ونظرات شامتة . . ذلك والمسلمون قد كانت تنزف جراحاتهم دماً ، من طعنات المشركين لهم ، فى أجسامهم ، ومشاعرهم . . على السواء .

وفى كل موقف يشتد فيه البلاء على المؤمنين ، وتضيق فيه عليهم الأرض بما رَحُبت ، تطلع عليهم آية من آيات الله ، فتمسك بسفينتهم المضطربة ، وتنتزعها من يد العاصفة المجنونة المشتملة عليها ، وإذا الأمن والسلامة يحفّان

بهم ، وإذاهم وقد ظفروا ، وغنموا ، وانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء !!

ومن هذه الآيات الأولى التى تنزلت بها سورة « الرّوم » وجد المسلمون ريحَ رحمةِ الله ، فى هذا الوعد الكريم ، وفى تلك البشرى المسعدة التى ساقتها إليهم بين يديها .

وحقًّا قد غُلبت الرُّوم فى هذه المعركة ، وليس بالمستبعد أن يُغلب المؤمنون فى معركة أو أكثر من معاركهم مع المشركين ، ولكن العاقبة أبداً المؤمنين . . ولقد غُلبت الروم فى هذه المعركة ، ولكن الصراع لم ينته بعد . فهناك معركة غير منظورة ، يعلمها الله ، وستقع بعد بضع سنين ، وفيها يكون النصر للروم ، وبهذا النصر يُحسم الأمر بينهم وبين الفرس ، فلن تقوم للفرس قائمة بعد هذا اليوم ، بل ولن تكون لهم دولة ، حيث يستولى المسلمون على هذه الدولة ، وتصبح بعضاً من دولة الإسلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٠)

* « الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ (٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوآ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوآ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَآءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) »

[من أنبـاء الغيب]

التفسير :

قوله تعالى :

« الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لا يخلف الله وَعْدَه ولكن أكثر الناس لا يعلمون * يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .

قلنا إنه فى هذا الجو الخانق الكئيب ، الذى كان يتنفس فيه المسلمون سموم الشماتة من أفواه المشركين ، لهذه الهزيمة التى لحقت بالروم على يد الفرس — فى هذا الجو تلقى المسلمون فى مكة هذه الآيات من مطلع سورة الروم ، فوجدوا فى أنفاسها المطهرة ، أرواحاً طيبة ، سرت فى كيانهم ، فتفتحت لها قلوبهم ، وانتعشت بها مشاعرهم ، وزغردت لها أرواحهم . . !

إنهم تلقوا من الله سبحانه وعداً كريماً بنصر الروم ، وإنهم ليجدون هذا الوعد واقعاً محققا ، قبل أن يقع . . إنهم مؤمنون بربهم ، مستيقنون بما يعدهم به . .

وحين يرى المشركون هذه الحال، التي لبست المسلمين من الرضا والطمأنينة ، يتساءلون فيما بينهم . ماذا جرى؟ وأى شيء بدّل حال المسلمين، فأصبحوا على غير ما أمسوا عليه ؟ وتجيئهم الأنباء ، بأن « محمداً » تحدث إليهم بما اعتاد أن يلقاهم به من حديث يقول إنه تلقاه من ربه ، وأن ماحدثهم به اليوم ، هو أن الروم وإن غُلبوا فى تلك المعركة التى دارت بينهم وبين الفرس منذ قليل ، فإنهم سيَغْلِبون ، وأن ذلك سيكون بعد بضع سنين !! .

أهكذا الأمر إذن ؟ وألهذا كانت تلك الفرحة التى تعلو وجوه المسلمين ؟ ألاما أخف أحلامهم ، وما أضل عقولهم ؟ ! ألمثل هذا الكلام ينخدعون ؟ وعلى مثل هذا الكلام يبنون قصوراً من الأمانى والآمال ؟ ألا يزالون على ضلالهم القديم ، ينخدعون بما يحدثهم محمد به ، من أحاديث لا تعدو أن تكون وعوداً معلقة بالمستقبل البعيد أو القريب ، لا يمسك المرء منها بشيء ، فى يومه أو غده ؟ فأين البعث ؟ وأين الحساب ؟ وأين الجنة والنار ؟ لقد أكثر محمد من تلك الأحاديث إلينا ، وصدّع بها رءوسنا ، وما نرى لذلك ظلا ، وما نشهد له أثراً ! ثم هاهى ذى تبلغ الجرأة بمحمد ، فينتقل من الرجم بالغيب فى أحشاء الزمن البعيد ، المضاف إلى ما بعد موت الناس جميعاً ، إلى أن يرجم بالغيب فى واقع حياتنا ، مما لا يجاوز مداه بضع سنين ؟ إنها عثرة قاتلة ، ولن نُقيل « محمداً » منها . . فهيا أمسكوا به ، متلبساً بهذا الكذب المفضوح ، واضربوه الضربة القاضية ، وقد سنحت لكم الفرصة فيه !!

هكذا أدار المشركون الحديث حول هذه الآيات ، ووجدوا — حسب زعمهم — أن فيها فرصتهم ، للنيل من محمد ، وبضربته ضربة فى الصميم من دعوته . .

إنها لسنوات معدودة ، « بضع سنين » تنحصر فيما بين ثلاث وعشر ،

وبعدها ينكشف الأمر . فماذا لو ظلت الحال على ماهى عليه ، فلم تقع حرب بين الروم والفرس خلال هذه السنوات المعدودات ؟ وماذا لو وقعت حرب بينهما ثم دارت الدائرة فيها على الروم مرة أخرى ؟ أيكون لمحمد وجه يَلْقَى به الناس بعد هذا ؟ أو يجد محمد بعد هذا أذنا تسمع له ، أو إنساناً يصدق له قولا ؟

والحق أن هذا صحيح .. فلو أنه لم تقع حرب بين الفرس والروم خلال هذه المدة المحدودة ، المحصورة فى بضع سنين ، ثم لو وقعت هذه الحرب ولم يكن النصر والغلب للروم على الفرس فيها — لو أنه لم يحدث هذا ، لما كان لمحمد ولا لدعوة محمد مكان فى هذه الدنيا ، ولذهب كل شىء ، ولاختفى كل أثر لمحمد ، ولدعوة محمد إلى الأبد ! .

إنها دعوة قائمة على أنها من عند الله ، وأن محمداً ، يتلقى آياتها وكلماتها من ربه . . وهذا يعنى أنها الصدق الذى لا تعلق به شائبة من كذب ، وأنها الحق الذى لا يلم به الباطل أبداً . . فإذا طاف بهذا الكلام طائف من الكذب ، أو علق به ولو ذرّة من شك وارتياب — كان ذلك واقعاً بين أمرين ، لا ثالث لهما :

إما أن يكون هذا الكلام من عمل محمد ، ومن مقولاته التى يتصيدها من هنا وهناك .. وإذن فهو كاذب فيما يدعيه من أنه رسول الله ، وأنه يتلقى هذا القرآن ، وحياً من ربه . . وإذن فقد بطلت دعواه بأنه رسول من عند الله . .

وإما أن يكون هذا الكلام ، وحياً كما يقول محمد ، ولكنه ليس وحياً من عند الله ، وإنما هو مما تلقيه الشياطين ، على بعض الناس ، كالعرافين ،

والشعراء . . وإذن فقد بطلت دعواه أيضاً بأن ما يحدثهم به هو وحى من عند الله . . لأن الله لا يكذب ، ولا يفترى !.

والحق أيضاً أن هذه الآيات ، وما حملت من هذا الغيب ، الذى أذاعته فى الناس جميعاً ، والذى ترددت أنباؤه على أسماع الناس فى الجزيرة العربية ، وما فيها من مشركين وأهل كتاب ، بل وربما جاوزت الجزيرة العربية إلى فارس والروم . الحق أن هذا كان تحدياً للناس جميعاً ، بهذه المعجزة المادية المحسوسة .. وقد كان ذلك فيما يبدو — فى ظاهر الأمر — مغامرة انتحارية من محمد ، كما كان فرصة للذين يرصدون دعوة محمد ، ويريدون أن يعرفوا على وجه اليقين ، مبلغ صدقها أو كذبها .

وكعادة المشركين الضالين ، الذين استقبلوا الدعوة الإسلامية من أول يومها بإعلان الحرب عليها ، من قبل أن ينظروا فى وجهها ، وأن يتبينوا دلائل الحق التى بين يديها — كعادتهم فى مواجهة الدعوة الإسلامية بالكفر والعناد ، استقبلوا هذه الآيات بالهزء والسخرية ، وأقبلوا إلى المسلمين يسلقونهم بألسنةٍ حِدَادٍ ، بما عرف فيهم من لجاجٍ ولَدَدٍ فى الخصومة . . فما هذا الخبر الذى حملته الآيات ، إلا وعداً كتلك الوعود الكثيرة التى أوسع لها محمد فى الأجل ، فجعلها فى عالم آخر ، نصب فيه موازين الحساب والجزاء ، وأقام فى ساحاته الجنة والنار . . وإذا كان فى هذا الوعد الجديد شىء ، فهو فى قرب الأجل المضروب له . . وهذا القرب هو فى ذاته دليل على كذبه ، وأنه ليس من عند الله . . إذ لو كان عن إرادة نصر من عنده لأهل الكتاب على المجوس — لكان ذلك أمراً مُنجزاً ، ولما كان لله أن يؤخره بضع سنين . . إذ لا داعية لهذا التأخير ، ما دامت قدرة الله حاضرة قادرة أبداً . . بل وأكثر من هذا ، فإن هذا النصر لو كان إرادةً لله لما وقعت الهزيمة أصلاً بالروم ، ولكان

نصرهم قبل هزيمتهم أوقع وأقرب من نصرهم بعد الهزيمة !.

هكذا، لقى المشركون المسلمين بهذه المقولات وأمثالها، حتى لقد أدّى الأمر إلى أن تقوم مخاطرات بين المسلمين والمشركين، على وقوع هذا الخبر أو عدم وقوعه، وحتى لقد قيل إن أبا بكر - رضى عنه - خاطر أُبىّ بن خلف، على عدد من الإبل، يؤديها إلى أبى بكر، إذا غلبت الرومُ الفرسَ خلال سبع سنوات، ويؤديها أبو بكر إلى أُبىّ، إذا غلبت الفرسُ الرومَ، أو لم تقع بينهما حرب أصلًا، خلال هذه السنوات السبع !.

وتمضى الأيام، وتتحرك الأحداث، ويهاجر النبى والمسلمون إلى المدينة، ويلتقى المسلمون والمشركون فى موقعة بدر فى السابع عشر من رمضان، للسنة الثانية من الهجرة، وينتصر المسلمون نصرًا كاملًا مؤزرًا، ويُهزم المشركون هزيمة نكراء، فيقتل منهم سبعون رأسًا من رءوسهم، ويؤسر سبعون.. !

وفى هذا الوقت الذى كانت تدور فيه معركة بدر بين المسلمين والمشركين، وتدور فيها الدائرة على الشرك وأهله، كانت هناك معارك دائرة بين الروم والفرس، وفيها ينهزم الفرس هزيمة إلى الأبد، فلا تقوم لهم بعدها دولة.. فما هى إلا سنوات بعد هذه الهزيمة التى حلّت بهم، حتى تدخل جيوش المسلمين بلادَ فارس، وتستولى عليها، وتضمها إلى الدولة الإسلامية.

وليس هذا رجمًا بالغيب، ولا استملاء من أساطير الأولين، كما يتخرص المتخرصون عن القصص القرآنى.

وهذه صحف التاريخ التى سجّلت هذه الأحداث فى وقتها، لا تزال بين يدى أهلها، الذين ليس لهم مصلحة فى أن يقيموا تاريخهم على ما يطابق أخبار القرآن، ويجىء مصدّقًا له.

والثابت فى هذا التاريخ، أنه فى سنة ٦١٤ من الميلاد كانت تدور معركة

بين الفرس والروم ، وقد بدأت طلائع الهزيمة تنزل بالروم ، فاستولى الفرس على أنطاكية ، وهى من كبريات المدن الشرقية للدولة الرومانية ، ثم استولوا بعد ذلك على دمشق ، ثم على بيت المقدس ذاتها ، وأشعلوا فيها النيران ، وأحرقوا كنيسة القيامة . .

وعام ٦١٤ من الميلاد واقع بعد بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، و سابق لهجرته صلوات الله وسلامه عليه .

وطبيعى أن أنباء هذه المعركة ، لم تصل إلى مكة فى يومها ، وربّما يكون ذلك بعد عام أو أقل من عام ، وإن لنا أن نفترض أنه فى عام ٦١٥ من الميلاد كان نزول هذه الآيات التى نزلت بها أول سورة الروم ، لتلتقى مع هذا الحدث ، ووقعِه على المسلمين والمشركين فى مكة . .

وقد حدّدت الآيات أنه بعد بضع سنين سيكون الغلب للروم . . وإذا كان البضع بين ثلاث إلى عشر . . فاسمع ما جرى ، وما تحدث به صحف التاريخ الرومانىّ .

تقول تلك الصحف : إنه فى سنة ٦٢٢ من الميلاد ــ أى بعد سبع أو ثمانى سنين من حرب الروم والفرس ، بدأت المعـارك بين الروم والفرس مرة أخرى ، وكان هذا إرهاصاً — عند من يرقب الأحداث — بأن ما تحدّث به القرآن عن هاتين الدولتين يمكن أن يقع على ما أخبر به !

ومع هذا ، فإن المشركين حين بلغتهم أنباء هذه المعارك ، كانوا يتوقعون النصرَ للفرس ، ولهذا ، فإن أُبىّ بن خلف حين علم بهجرة أبى بكر طلب إلى عبد الله بن أبى بكر أن يكون كفيلًا لأبيه فى أداء ما خاطره به ، إذا غلبت الفرس ، وقد قبل عبد الله بن أبى بكر هذا .

وفى عام ٦٢٤ من الميلاد ، كانت معركة بدر ، وحين خرج أمية بن خلف

فيمن خرج من المشركين لحرب النبي والمسلمين ، أمسك به عبد الله بن أبى بكر عن الخروج ، إلا أن يقيم كفيلاً يؤدى عنه ما خاطر عليه أبا بكر إذا انهزمت الفرس ، وغلبت الرومُ ، فأقام كفيلا له .

وهذا يعنى أن الحرب التى بدأت بين الدولتين فى سنة ٦٢٢ ، كانت ما تزال قائمة لم تنته بعد إلى نتيجة حاسمة ، أو أنها قد تكون قد انتهت ، ولكن أخبارها لم تكن قد وصلت إلى أهل مكة .

وعلى أىّ فإنه لم يكد المسلمون يفرغون من المشركين فى معركة بدر ، ويأخذون طريقهم إلى المدينة ، وفى قلوبهم فرحة النصر ، وفى أيديهم ما وقع لهم من مغانم ــ حتى يلقاهم على طريق المدينة من يخبرهم بما انتهى إليه أمر القتال الذى كان دائراً بين الفرس والروم ، وأن الروم قد هَزموا الفرس ، وأخرجوهم من بيت المقدس ، وما استولوا عليه من بلاد الروم ، كما استولوا على كثير من مدن فارس وأقاليمها . . وبهذا جاءت فرحة المسلمين بهذا النصر الذى مكن لهم من رقاب المشركين يوم بدر ـــ جاءت هذه الفرحة موقوتة بالوقت الذى نطقت به الآيات فى قوله تعالى : « وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ » أى أن يوم غَلَبَة الروم للفرس ، سيكون فى هذا اليوم الذى ينتصر فيه المسلمون على المشركين ، وتمتلىء قلوبهم فرحةً بهذا النصر العظيم . . فالنصر الذى يفرح به المؤمنون حقًّا،هو نَصْرُهم على المشركين من أهل مكة ، الذين سخروا منهم ، وصبُّوا عليهم ألوان البلاء ، وأخرجوهم من ديارهم . . وهذا هو نصر الله الذى وعدهم به ، ووقّت له غلبة الروم للفرس !

وهذا هو السرّ ـــ والله أعلم ـــ فى هذا الذى جاء عليه النظم القرآنى ، من التعبير عن الصراع بين الفرس والروم بالغَلَب والتغالب ، على حين جاء التعبير عن غلبة المسلمين المشركين ، بكلمة « النصر » . فهو نصر لدين الله ،

ونصر للحق فى أعلى منازله . . إنه صراع بين إيمان خالص وشرك صريح .
فإذا غَلَبَ الإيمانُ الشركَ ، فهو نصرٌ للحياة ، وللإنسانية كلها ، وحُقّ له أن يُضاف إلى الله : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » . .

أما الصراع الذى كان دائراً بين الروم والفرس ، فلم يكن قتالًا فى سبيل الله ، ولا انتصاراً لدين الله ، وإنما كان قتالاً على سلطان ، وتقاتلاً على سلطة ، تتنازعها الدولتان منذ قرون طويلة . .

أما التفات الدعوة الإسلامية إلى هذا الصراع ، فلم يكن إلا ردًّا على ما تنادى به المشركون فى مكة ، وما استقبلوا به أخبار انتصار الفرس وهزيمة الروم ، فاتخذوا من الفرس جبهةً لهم ، على حين عدُّوا جبهة الروم المهزومة جبهةَ المسلمين . . ولهذا جاء قوله تعالى :

« غُلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين * لله الأمر من قبل ومن بعد » — جاء خبراً حِيادياً ، يحدث عن الواقع الذى سيقع بعد بضع سنين ، ليقطع على المشركين فرحتهم التى اصطنعوها من هذا الخبر الذى جاءهم بنصر الفرس ، وليقول لهم : لا تفرحوا لأمرٍ تستقبلون أوله ، ولا تدرون ما يقع فى آخره . . فهذا الغَلَب الذى تفرحون به ، هو غَلَبٌ موقوت ستعقبه هزيمة خلال بضع سنين ! ولهذا جاء قوله تعالى بعد ذلك :

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون * يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا »
فهذا القول وإن كان تعقيباً واقعاً على قوله تعالى : « وَعْدَ اللهِ لا يخلف الله وعده » فإنه يشير من طرف خفىّ إلى قِصَر أنظار المشركين ، وأنهم لا يمدون أبصارهم إلى أبعد من مواقع أقدامهم ، ولو أنهم أحسنوا النظر إلى هذا النبأ الذى جاءهم بغلبة الفرس ، لما استبدّ بهم الفرح ، وعلموا أن الغَلَب

قد تعقبه هزيمة ، وأن الهزيمة قد يتلوها غَلَب . . هكذا تجرى أمور الناس فى هذه الحياة : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » . . ولكن القوم - لجهلهم وعمى بصائرهم - لا يقفون من الأمور إلا عند ظواهرها ، ولا يأخذون منها إلا ما يلقاهم على يومهم . . وهذا شأنهم فى دينهم الذى يدينون به . . إنهم أخلَوْا أنفسهم من كلّ شىء يشغلهم عن حياتهم الدنيا ، فهى يومهم الذى لا يوم لهم بعده . . أما الآخرة ، فلا شأن لهم بها . . إنهم فى غفلةٍ عن كلّ أمرٍ يصلهم بها ، وفى صَمَم عن كل حديث يُلقَى إليهم عنها . .

قوله تعالى :

* « غُلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » .

المراد بأدنى الأرض ، أقربها ، وهى أقرب البلاد من مملكة الروم الشاسعة ، إلى جزيرة العرب ، وهى تلك البلاد الواقعة فى المناطق الشرقية من مملكة الروم . . كدمشق وبيت المقدس وغيرها . .

* « فى بضع سنين » . .

هو تحديد للوقت الذى يقع فيه هذا الخبر . . والبضع من السنين ما بين الثلاث إلى العشر . .

* « لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ »

أى أن الأمر كله لله ، من قبل الغَلَب ومن بعده . . فما غلب الغالبون إلا بأمر الله ، وعن إرادته ومشيئته . . وما سَيَغْلِبُ المنهزمون إلا بأمر الله ، وعن إرادته ومشيئته « قل كل من عند الله » (٧٨ : النساء) .

* « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » .

أى فى هذا الوقت الذى يقع فيه هذا الخبر ، وهو غلبة الروم للفرس ، سيقع أمر أهمّ وأعظم ، وهو انتصار المسلمين على المشركين ، حيث يمدهم الله بنصره ،

ويمنحهم عونه وتأييده ، فتمتلىء بالفرحة صدورهم ، وتخفق بالرضا والسرور قلوبهم . .

* « ينصر من يشاء . . وهو العزيز الرحيم » . . فالنصر بيد الله وحده ، ليس لأحد شركة مع الله فيه ، فهو العزيز ذو القوة والبأس ، الرحيم الذى يوسع من رحمته لعباده المؤمنين ، فيعزهم بعزته .

* « وعدَ الله لا يُخلف الله وعده . . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

« وعْدَ اللهِ » مفعول به لفعل محذوف ، تقديره : صدّقوا وعد الله ، أو استيقنوا وعد الله . . ونحو هذا . .

وقوله تعالى : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » أى لا يعلمون هذه الحقيقة ، وهى أن الله لا يُخلف وعده . . والمراد بأكثر الناس هنا هم المشركون والضالون ، الذين لا يؤمنون بالله . . فهؤلاء هم أكثرية الناس . . وهم لا يصدقون ما تتحدث به إليهم آيات الله ، عن الله . لأنهم لا يقدرون الله حق قدرة ، ولا يعلمون ما ينبغى أن يكون له سبحانه من صفات الكمال والجلال . .

* « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .

هذا هو عِلم المشركين ، والضالين المكذبين بالله . . إن علمهم محصور فيما يتعلق بأمور الدنيا ، وما هم فيه من لهو ومتاع بها . .

وفى قوله تعالى : « ظاهراً من الحياة الدنيا » ــ إشارة إلى أن العلم فى ذاته مطلوب ، لكل أمر يعالجه الإنسان . . وأن العلم ــ حيث كان ــ نور يهدى صاحبه ، ويكشف له معالم الطريق إلى الخير والحق . . هذا إذا كان العلم قائماً على نظر سليم ، وإدراك صحيح ، وإلا فهو سراب يخدع صاحبه ، ويُضله عن سواء السبيل ..

وعلم هؤلاء المشركين ، الضالين ، المكذبين بالله ـ مع أنه مقصور على هذه الحياة الدنيا ـ هو علم يقف عند ظاهر الأمور فيها ، ولا ينفذ إلى الصميم منها . . ومن هنا ينخدع هؤلاء الضالون بهذا العلم الذى لا يمسك من الأشياء إلا ببريقها ، ولمعانها ، فيندفعون به إلى مواقع الهلاك ، كما يندفع الفراش إلى النار ، مأخوذاً بضوئها ، مبهوراً بألسنة لهيبها . .

أما العلم الحقيقى بالحياة الدنيا ، وبما فيها من آيات الله المبثوثة فى كل ذرة من ذراتها ، وما أودع الله سبحانه فى الكائنات من أسرار ، فذلك علم من شأنه أن يفتح مغالق العقول ، ويضىء جوانب البصيرة ، ويهدى صاحبه إلى كل ما هو حق وخير . .

وبهذا العلم ، يرى العالم قدرة الله ، ويتعرف إلى بعض ماله ـ سبحانه ـ من علم وحكمة ، فيؤمن بالله ، ويؤمن بما أرسل الله من رسل ، وما أنزل من كتب . . وبهذا العلم يصل العالم بين الدنيا والآخرة ، فيعمل لهما معاً . . إذ لا تعارض بين الدنيا والآخرة ، عند من يعلم حقيقة الدنيا ، ومكانها من الآخرة . .

قوله تعالى :

* « أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خَلَق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمّى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون » .

هو دعوة إلى هؤلاء المشركين الغافلين عن الحياة الآخرة ، أن يتفكروا فى أنفسهم وما قام عليه خَلْقهم . . وكيف كان الإنسان تراباً ، ثم نطفة ، ثم صار رجلا . . فإن أقرب شىء إلى الإنسان هو ذاته ، وهذا يوجب عليه أن يتعرف إلى أقرب قريب إليه ، قبل أن يمد بصره إلى ما وراءه ، والله سبحانه وتعالى يقول : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

فإذا نظر الإنسان إلى نفسه ، نظراً سليما واعياً، عرف بعض ما للخالق سبحانه

وتعالى ، من عظمة ، وجلال ، وعلم ، وقدرة .. حتى يخرج من هـذا التراب الهامد ، هذا الإنسان العاقل ، المدرك ، المتكلم ! وبهذا يعلم الإنسان أن هذا الوجود فى أرضه وسمائه، وفيما بين أرضه وسمائه ـ لم يخلق إلا بالحق ، ولم يخلق لهواً وعبثاً .. وأن كل مخلوق فى هذا الوجود هو بعض منه ، وأنه لن تنتقض لبنة من بناء هذا الوجود أبداً .. فكل كائن فيه ـ وإن صغر ـ دوره الذى يقوم به فى وحدة هذا النظام الممسك بالوجود ، وله فلكه الذى يدور فيه ، كما تدور النجوم فى أفلاكها .. تشرق ، وتغرب .. ولكنها لا تفنى ، ولا تندثر !

والإنسان كائن من الكائنات ذات الشأن العظيم فى هذا الوجود ، فكيف يقع لعقل عاقل أن تنتهى حياة هذا الإنسان بتلك الدورة القصيرة التى يدورها فى فلك الوجود ، والتى هى سنوات معدودة يقضيها فى هـذه الدنيا ؟ ألهذا خُلق الإنسان ؟ ولهذا كان خَلقه على تلك الصورة العجيبة التى استحق بها أن يكون خليفة لله فى هذه الأرض ؟ .

كلا ، إن الإنسان لن تنتهى حياته بهذه الدورة القصيرة على الكوكب الأرضى ، وإن له لحياة أخرى ، أعظم ، وأبقى .. ولكن كثيراً من الناس بلقاء ربهم كافرون .. لا يصدقون بأنهم مبعوثون بعد الموت ، وأنهم ملاقون ربهم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ..

قوله تعالى :

* « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوةً وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رُسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

هؤلاء المشركون الضالون ، إذا لم يكن لهم نظر فى أنفسهم ، أو كان لهم نظر ولكنه لم يكشف لهم مواقع الحق فيما رأوا منها ـ أفما كان لهم نظر إلى ما بين أيديهم ، وتحت أبصارهم ، من بقايا هذه الأمم التى كانت تعمر تلك الأطلال البالية ، وهذه القرى الغارقة فى أحضان البلى ؟ ثم ألاَ رأوا فى هذه المخلفات ما كان عليه أهلها من حياة عامرة ، زاخرة ، وما كان لهم من قوة وبأس شديد .. ؟ ثم ألا أعادوا النظر مرة أخرى ، فرأوا كيف تبدلت الحال ، وكيف ساء المصير ؟ لقد كفروا بآيات الله ، وكذبوا رسله ، فأوقع الله بهم عقابه ، وأخذهم ببأسه ، فأصبحوا لا تُرى إلا مساكنهم « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » لقد ظلموا هم أنفسهم ، فحادوا بها عن طريق الهدى ، وأوردوها موارد الهلاك .

— وفى قوله تعالى : « أثاروا الأرض » إشارة إلى أنهم قلّبوا وجوهها ، واستخرجوا خبأها .

قوله تعالى :

* « ثم كان عاقبةَ الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » .

السُّوءى : أى العاقبة السيئة ، وهى ضد الحسنى .. كما يقول الشاعر :

أنّى جـزوْا عامراً سوءًا بفعلهمُ ... أم كيف يجزوننى السوءى من الحسن؟

وهى اسم كان مرفوع ، وخبرها « عاقبةَ الذين أساءوا » والتقدير : ثم كانت السوءى عاقبة الذين أساءوا .. أى جزاهم الله سوءاً لفعلهم السيء .. كما يقول سبحانه : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » ، وهو من باب المقابلة ، وذلك لأن ما يجزون به ، إنما هو سوء بالنسبة لهم ، لأنه يسوءهم ويؤذيهم .. أما الجهة التى توجهت به إليهم ، فهو ليس منها ، وإنما هو فعلهم ، عاد إليهم ، فالأمر لا يعدو أن يكون فعلا وردّ فعل ! .

وقُدم الخبر على الاسم ، وأخر الاسم ، لإثارة حب الاستطلاع إليه ، يحجبه قليلا وراء الخبر ، فإذا طلع على أهله لم يجدوا فيه إلا ما يسوء ! !

وقوله تعالى : « أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » — هو تعليل لهذا الجزاء السيء الذى جوزوا به ، أى لأنهم كذبوا بآيات الله ولم يقفوا عند حد التكذيب بها ، بل اتخذوها هزءاً وسخرية ، ومادة للعبث والبذاءة — كان هذا جزاؤهم السيء .

الآيات : (١١ — ١٩)

* « اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون » .

هو تعقيب على ما دعت إليه الآيات السابقة ، من التفكر فى النفس ، أى

فى الذات الإنسانية ، وما أودع الخالق العظيم فى الإنسان من قوّى وملكات ثم النظر فى خلق السموات والأرض . . ثم السير فى الأرض ، والوقوف على أطلال الأمم الغابرة ليروْا ما حلّ بالظالمين من بأس الله وعذابه .

فهذا التفكر والنظر والتدبر ، فى داخل النفس وخارجها ، من شأنه أن يفتح للإنسان طريقاً إلى الحق ، وأن يدلّه على الله سبحانه وتعالى ، وماله جلّ شأنه من قدرة لا يعجزها شيء . . فكان قوله تعالى : « اللهُ يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون » ـ هو الحكم الذى يقضى به النظر فى هذا الوجود ، والذى إن لم يستدل إليه الإنسان بنظره ، ثم جاءه من يحدثه به ، كان جديراً بأن يقبله ، إذ كان على امتداد النظر ، وفى مواجهة الفكر . . فإن أنكر الإنسان معطيات حواسه ، ومدركات عقله ، ثم كذّبَ ما يُحَدّثه به أهلُ الصدق والعلم ، فلن يهتدى إلى حق أبداً ، ولن يحصل على خيرٍ أبداً ، ولن يصير إلا إلى أسوأ مصير .

قوله تعالى :

* « ويوم تقوم السّاعةُ يُبلِسُ المجرمون » .

هو تهديد وإزعاج لهؤلاء المشركين ، الذين أنكروا البعث ، ولم يتلقوْا قوله تعالى : « الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون » ـ لم يتلقوْه بالقبول ، والإيمان . . إنهم مجرمون . . والمجرمون وإن رَضُوا بالحياة الدنيا ، واطمأنوا بها ، فإنهم سيلقون يوم القيامة هواناً وبلاء ، حيث يشتمل عليهم الهول ، مما يَرَوْن من عذاب الله ، فيبلِسُون ، أى يجمدون فى أماكنهم ، وتجمد حواسّهم ، مما يطلع عليهم من أهوال ومفزعات .

قوله تعالى :

* « ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين » .

أى لم يكن لهؤلاء المجرمين من شافع يشفع لهم ، ويجيرهم من عذاب الله ، وأن معبوداتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ، قد ضلّت عنهم ، وقد كانوا من قبلُ على يقين بأنهم سيشفعون لهم عند الله ، كما يقول الله تعالى عنهم : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرّهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (١٨ : يونس)

— وقوله تعالى : « وكانوا بشركائهم كافرين » . . أى وكان هؤلاء المشركون ، من أهل الكفر والضلال ، بسبب شركائهم هؤلاء الذين عبدوهم من دون الله . . فهم بعبادة هذه المعبودات لبسوا ثوبَ الكفر ، وكانوا من الكافرين . . وللكافرين عذاب مهين .

قوله تعالى :

* « ويوم تَقُومُ السّاعة يومئذٍ يَتَفَرّقون » . . أى أنه إذا كان بين هؤلاء المشركين وبين معبوداتهم ولاء ، هو ولاء التابع المتبوع — ثم كان بين بعضهم وبعض ، اجتماع وائتلاف ، على عبادة هذه المعبودات ، والدفاع عنها ، ودفع كل يد أو لسان يمتد إليها بسوء — فإنه فى يوم القيامة ، ستتقطع بينهم جميعًا الأسباب ، فلا يلتفت المعبودون إلى عابديهم ، ولا ينظر عابد فى وجه عابد أو معبود . . « لكل امرىء منهم يومئذ شأنٌ يُغْنِيهِ » . . « ولا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا » .

قوله تعالى :

* « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضةٍ يُحْبَرُون » .

الحَبَرَ ، والحبور : السّرور والغبطة ، والرضوان . . والروضة : الجنة .

أى أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لا يَحْزُنهم هذا اليوم ، ولا يضرّهم التفرّق ، إذ كان مع كل مُؤْمِن عَمَلُه ، الذى يؤنسه ، ويُذْهب وحشته ،

ويملأ قلبه طمأنينةً وأمناً ، بما يرى من بشرياتِ الإيمان والأعمال الصالحة ، التى بين يديه .

إن المؤمنين الذين عملوا الصالحات سينزلون فى هذا اليوم أكرم منزل . . إنهم فى روضات الجنات ، ينعمون بما أعد الله لهم فيها من موائد فضله وإحسانه . .

قوله تعالى:

* « وأما الذين كفروا وكذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئكَ فى العذاب مُحْضرون » .

هؤلاء هم الفريق الآخر ، الشقىّ التعس يوم القيامة . . إنهم هم الذين كفروا وكذّبوا بآيات الله ، وأنكروا البعث والحساب والجزاء ، فلم يقدّموا ليومهم هذا شيئاً . فليس لهم فى الآخرة إلا النار . .

وفى قوله تعالى : « فأولئك فى العذاب محضرون » . . إشارة إلى أنهم يساقون إلى العذاب سوقاً ، ويُدفعون إلى البلاء دفعاً . . إنهم يودّون أن يفرّوا من هذا البلاء الذى بين أيديهم ، ولكن هناك من يمسك بهم على هذا البلاء ، ويدفعهم إليه ، فى قوة قاهرة مُذلةٍ ، لا يملكون لها دفعاً .

قوله تعالى :

* « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد فى السمواتِ والأرض وعشيًّا وحين تُظْهِرون » .

هو خبر ، يراد به الأمر . . أى سبّحُوا الله ، وعظّموه ، وأقيموا وجوهكم إليه بالدعاء والعبادة . .

والخطاب دعوة للناس جميعاً . . مؤمنين ، وكافرين . .

أما المؤمنون ، فقد رأوا الجنة ونعيمها ــ وأما الكافرون ، فقد عاينوا

النار ولظاها . . فالمؤمنون يسبّحون الله ، ليبقى عليهم ما أرام من رحمته . . والكافرون يسبّحون الله ، ليدفع عنهم ما أرام من عذابه .

— وقوله تعالى : « حين تمسون » أى تدخلون فى المساء « وحين تصبحون » أى تدخلون فى الصباح . .

— وقوله تعالى : « وله الحمدُ فى السموات والأرض » اعتراض بين مطلوب الدعوة بالتسبيح لله سبحانه ، من الناس ، وذلك ليَرى الناس أنهم ليسوا وحدهم الذين يسبّحون الله ، فالسموات والأرض ومن فيهن تسبّح بحمد الله ، كما يقول سبحانه : « وإن من شىء إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

وقوله تعالى : « وعشيًّا وحين تظهرون » معطوف على قوله تعالى : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » لأنه بمعنى : سبّحوا الله مساء وصبحاً ، وعشيًّا ، وحين تظهرون .

وفى هذه الآيات إشارة إلى الصلوات الخمس المفروضة ، وأوقاتها . .

فى المساء . . صلاة المغرب والعشاء . . وفى الإصباح . . صلاة الصبح ، وفى العشى ، صلاة العصر . . وفى الظهيرة . . صلاة الظهر . .

قوله تعالى :

* « يُخْرِجُ الحىَّ مِنَ الْمَيِّتِ ويخرج الميّت من الحىِّ ويُحْيِ الأرْضَ بعد موتها وكذلك تخرجون » .

فى هذه الآية استعراض عام ، كاشف ، لبعض قدرة الله ، الذى يُدْعى العباد إلى تسبيحه ، وعبادته . . فالذى يُسبّح اللهَ مجردَ تسبيح ، ويعبده عبادة منقطعة عن التعرف على ما لله سبحانه من جلال وعظمة ، لا يُحدِث له هذا التسبيح ، ولا تلك العبادة ، حالاً من اللقاء بربّه ، لقاء تُشرق به الروح ،

ويأنس به القلب ، وتصفو به النفس ، الأمر الذى من شأن العبادات أن تترك آثاره فى العابدين .

— وفى قوله تعالى : « يخرج الحىّ من الميت ويخرج الميت من الحىّ ، ويحى الأرض بعد موتها » دعوة إلى القراءة الواعية فى صحف الطبيعة ، وما فيها من آيات الخلاق العظيم . . ففى كل نظرة يلقيها الإنسان على أى موقع من مواقع الحياة ، يرى حياة تخرج من موات ، ومواتاً يخرج من حياة . . الشىء وضدّه ، يتبادلان موقفهما . . فالميت يأخذ مكان الحىّ ، والحىّ يحل مكان الميت ، حتى لكأنهما كائن واحد لا فرق بينهما ، فى حالىْ الحياة والموت . . وهذا من عجيب قدرة الله ، وبسط سلطانه على المخلوقات .

وفى قوله تعالى : « وكذلك تخرجون » إشارة إلى أن خروج الموتى من القبور ، لا يخرج عن أن يكون صورة من تلك الصور ، التى تخرج فيها الحياة من عالم الموات . . وأقرب مثل لهذا ، الأرض الجرداء الجديب ، ينزل عليها الماء ، فتهتزّ وتربو وتنبت من كل زوج بهيج . .

فهل تعجز قدرة الله أن تنفخ فى هذا التراب الهامد ، الذى احتوى أجساد الآدميين ، فإذاهم بشر ينتشرون ؟ والله سبحانه وتعالى يقول : « والله أنبتكم من الأرض نباتاً * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً » (١٧ – ١٨ : نوح) . . فَلِمَ ينكر المنكرون البعث ؟ ولم يجادلون فيه ؟ إنه ليس عن إنكار لقدرة الله ، فما ينكر عاقل على هذه القدرة أى شىء . . ولكنه هروب من المسئولية ، وفرار من مواجهة الحساب يوم القيامة ، وإخلاء النفس من مشاعر الإيمان بالحياة الآخرة ، لتنطلق كما تشاء ، لاهية عابثة ، تنفق كل شىء فى سبيل حظوظها الدنيوية ، لا تستبقى للآخرة شيئاً ! . . وهكذا يغرر المرء بنفسه ، ويخدع عقله ، ويستجيب لداعى هواه ، فلا يرى من حقائق الأمور إلا ما يتفق وهواه . .

الآيات : (٢٠ — ٢٧)

* «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٧)»

التفسير

قوله تعالى :

* «ومن آياته أن خَلَقَكم من تُراب ثم إذا أنتم بَشَرٌ تنتشرون» .

هذه الآية معطوفة على الآية قبلها : «يُخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى» .. فهذا من آيات الله .. أى ومن آياته كذلك أن خلق الناس من تراب ، ثم إذا هم بشر ينتشرون . .

وقضية خلق الإنسان ، كما جاء بها القرآن ، تلتقى مع العقل ، فى كل طور من أطواره ، صعوداً ، أو نزولا ..

ففى القرآن الكريم عشرات من الصور التى خرج بها الإنسان إلى هذا العالم .. وهذه الصور وإن اختلفت مظهراً ، فإنها تلتقى جميعاً فى مضمونها ومحتواها.

فالعقل فى أدنى مستوياته يلتقى مثلا مع قوله تعالى : « يٰأَيُّهَا النّاس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » (١٣ : الحجرات)

وتلك حقيقة لا يستعلى عليها العقل فى أعلى منازله ، ولا يستغنى عن الأخذ بها ..

فإذا ترقى العقل شيئاً كان له لقاء آخر مع قوله تعالى : « الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالا كثيراً ونساء » (١ : النساء) .

ثم ما يزال العقل يلتقى مع آيات الله ، آية آية .. فيجد فى كل آية منها لوناً جديداً ، تزداد به الصورة وضوحاً ، وعمقاً ..

ومن هذه الآيات :

— « ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه نطفة فى قرار مكين » (٢٠ — ٢١ المرسلات) .

— « والله أنبتكم من الأرض نباتا » (١٧ : نوح) .

— « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » (١٢ : المؤمنون) .

— « خَلَق الإنسان من صلصال كالفخار » (١٤ : الرحمن) .

— « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » (٢٦ : الحجر) .

— « والله خلق كل دابة من ماء » (٤٥ : النور) .

فهذه الآيات ، وكثير غيرها مما جاء فى خلق الإنسان ، تضع العقل أمام قضايا ، ومقررات ، كلها تحدث عن خلق الإنسان ، وبعضها واضح جلى ،

يعرف بأدنى نظر ، وبعضها دقيق خفى ، لا ينال إلا بنظر دقيق ، وإدراك سليم ، مع قدر كبير من العلم والمعرفة . .

ومع هذا ، فإن التقاء هذه الآيات فى أى عقل مؤمن لا يحدث صداماً بينها ، ولا يدعو إلى انفصال فى وحدتها ، وذلك بحمل الخفى عليه منها ، على الجلىّ ، والمتشابه ـ عنده ـ على المحكم .. ثم يبقى مع هذا للعقل ـ على امتداد الزمن — مكانه من الآيات الخفية ، ينظر فى وجهها ، ويدور باحثاً عن أسرارها . . وفى كل يوم يجد العقل من هذه الآيات جديداً من العلم ، ومزيداً من المعرفة ، وكثيراً من الأسرار . . وإذا التراب ، والطين والصلصال ، والحمأ المسنون ، والماء ، والنبات . . وكل هذه المواد التى تحدث عنها القرآن فى خلق آدم — هى العناصر التى شكلت هذا المخلوق العجيب ، والتى أقام منها الخالق العظيم ، هذا البناء ، فى أحسن تقويم .. ! وحتى ليجىء العلم الحديث متخاضعاً بين يدى القرآن الكريم ، مستسلماً ومسلماً لما ضمت عليه آيات الله من أسرار ، لم ير هذا العلم بكل وسائله إلا لمحات منها ، فيما قررته علوم الحياة من تلك الصلة الوثيقة التى تصل الإنسان بالأحياء ، وتجعله حلقة من حلقات سلسلتها الممتدة ، الضاربة فى أعماق الطبيعة[1] .

قوله تعالى :

* « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

الخطاب هنا للناس عموماً ، رجالا ، ونساء . . وليس للرجال ، كما فهم ذلك كثير من المفسدين . . فكما خلق الله سبحانه للرجال من أنفسهم

---

(١) انظر فى هذا ، المبحث الخاص الذى عرضنا فيه قصة خلق آدم ، فى الكتاب الأول من هذا التفسير .

أزواجاً ، خلق سبحانه للنساء من أنفسهن أزواجاً .. فكان الوفاق وكان الائتلاف بين المتزاوجين ..

والمراد بقوله سبحانه : « من أنفسكم » أي من جنسكم ، وطبيعتكم .. وهذا من شأنه أن يؤلف بين الزوجين ، وأن يجمع بينهما على الأنس ، والمودة .. إذ أن الكائن الحي ، ينجذب بطبيعته إلى ما يشا كله من الأحياء .. فكل جنس يجتمع إلى جنسه، ويجد الطمأنينة ، والأمن ، والسكينة في جواره . سواء في هذا ، الإنسان ، والطير ، والوحش ، والذر .. حتى النبات .. فإنه يزكو ، وينضر ، ويزهو في المغارس التي تجمع الجنس منه إلى الجنس .

وفي قوله تعالى : « لتسكنوا إليها » بيان لهذه النعمة ، وكشف عن وجه الحكمة فيها ، وهي أنه باجتماع الإنسان إلى الإنسان ، والذكر إلى الأنثى ، تستريح النفس ، وتسكن المشاعر ، وتطمئن القلوب .. وإنه لا نعمة أجل ولا أعظم من نعمة تفيض على الإنسان الأمن والسكينة .

وفي قوله تعالى : « وجعل بينكم مودة ورحمة » — إشارة إلى أن المودة والرحمة أمران يتولدان من الألفة والسكن ، وأنه لولا السكن والائتلاف ، ما قامت مودة ورحمة .. لهذا جاء النظم القرآني مفرقاً بين الأمرين ، فجعل المشاكلة في الطبيعة البشرية بين الناس ، ذكوراً وإناثاً ـــ خلقاً ، أي في أصل الخلقة ، على حين جعل المودة والرحمة ، عَرَضاً من أعراض هذه الطبيعة ، وثمرة من ثمراتها ، فعبر عنها بلفظ « الجعل » . « وجعل بينكم مودة ورحمة » .. وهذا إعجاز من إعجاز القرآن ، الذي يتجلى في روعة أسلوبه ، وجلال صدقه .. إذ ليس كل لقاء بين طبيعتين متماثلتين يحدِث الرحمة والمودة ، وإن كان من شأنه أن يجمع ، ويقرب .. فإن المودة والرحمة ثمرة احتكاك ، وتجاوب ، بين النفوس ، وجَهد مبذول ، ومعاناة معطاة من كل نفس ، وعلى قدر هذا الجهد

وتلك المعاناة تكون الثمرة . . وما أكثر الأشجار التى لا تعطى ثمراً ! !

وفى قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » دعوة إلى الزوجين أن يديرا تفكيرهما إلى هذه الآية من آيات الله ، وأن يحققا الثمر المرجو منها . فإن لم يتحقق لهما هذا ، كان عليهما أن يرجعا إلى نفسهما ، وأن يصححا الوضع الذى هما عليه ، حتى يجىء الثمر المطلوب من الزواج ، وهو السكن ، والمودة ، والرحمة .

قوله تعالى :

* « ومن آياته خَلقُ السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . . إن فى ذلك لآيات للعالِمين » .

فى الجمع بين خلق السموات والأرض ، واختلاف الألسنة والألوان ، إشارة إلى هذه الظاهرة التى لا يكاد يلتفت إليها الناس ، من اختلاف ألسنتهم وألوانهم . إنها — وهى التى لا يكاد يلتفت إليها أحد — لا تقل عن خلق السموات والأرض ، وما فيهما من أجرام وعوالم ، فى الدلالة على قدرة الخالق ، وجلاله ، وعظمته ، وعلمه ، وحكمته .

إن كل إنسان من النـــــاس هو عالَم قائم بذاته ، فى ظاهره ، وباطنه ، جميعاً .

ففى كل إنسان آية متفردة من آيات الخلق ، وقدرة الخالق . . فعلى حين يبدو الناس وكأنهم ثمار شجرة واحدة ، إذ هم ثمار مختلفة الطعوم ، والألوان ، والأشكال . . كل ثمرة لها طعمها ، ولونها ، وريحها .

إن العين لتأخذ الناس جميعاً ، وكأنهم كائن واحد . فإذا عاد النظر إليهم ، فرداً فرداً ، كان كل واحد كائناً قائماً بذاته ، بماله من سِمات ،

وخصائص .. فلكل إنسان نبرات صوته ، ومخارج كلماته ، وطبقات أنغامه ، التي تميزه عن غيره ، فلا تختلط نبرة بنبرة ، ولا يشتبه مخرج بمخرج ، ولا تتماثل طبقة مع طبقة ، وإن بدا في ظاهر الأمر أن هناك تماثلا وتشابهاً ، بين صوت وصوت ، ونغم ونغم ، فإن الحقيقة غير هذا ، حيث توجد فروق دقيقة ، وخطوط هندسية غاية في الدقة ، تفصل بين صوت وصوت ، وتحجز بين نغم ونغم . وكذلك الشأن في الألوان والأشكال ، والصور .. إن يد القدرة القادرة المحكمة ، قد أقامت كلا منها في موضعه ، وجعلت بينها حاجزاً ، فلا يبغى بعضها على بعض .. تماما كما حجزت بين البحرين : « هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج »

هذا ، في ظاهر الإنسان .. أما ما في باطنه ، فالأمر أعجب وأغرب .. فنازع التفكير ، ومناحى العواطف ، ومسارب المشاعر ، وخلجات الضمائر ، ووسوسات الأهواء — إنها أمواج متدافعة على صدرِ محيط لا حدود له .. ومع هذا فلا تختلط موجة بموجة ، ولا يضيع تيار في عباب تيار .. !

— وفي قوله تعالى : « إن في ذلك لآياتٍ للعالمين » ـ إشارة إلى أن عين العلم هنا ، هي التي تكشف هذه الأسرار ، وتطّلع على هذه الآيات ..

[الليل ... وما وسق]

قوله تعالى :

* « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله .. إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون » .

ومن دلائل قدرة الله ، أن ألبس الإنسان لباس النوم ، ليجد فيه الجسم سَكَنَه وراحته ، مما يعالج في يقظته من أعمال ، وما يحمل من أعباء .. فكان النوم واليقظة خِلْفةً ، يدوران في فلك الإنسان ، كما يدور الليل والنهار في فلك

الوجود .. وبهذا التوارد للإنسان على موارد النوم واليقظة ، يعرف نعمة الله عليه ، وإحسانه إليه ، ويجد للنوم طعمه الهنيء فى كيانه ، كما يجد لليقظة مساغها العذب فى كل جارحة من جوارحه .

— وفى قوله تعالى : « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله » وفى تقديم النوم ، على اليقظة التى يدل عليها قوله تعالى : « وابتغاؤكم من فضله » — فى هذا إلمات إلى نعمة النوم ، التى قلّ أن يلتفت إليها كثير من الناس ، إذ كان فى النوم عزل الإنسان عن الحياة ، وقطع للصلة بينه وبين ذاته ، حتى لكأنه قد فقد وجوده .. ومن هنا كانت نظرة كثير من الناس إلى النوم على أنه عارض دخيل على الإنسان ، أشبه بالآفات التى تعرض للجسد .. وهذا فهم خاطىء هذه النعمة العظيمة التى تضفيها يد الرحمة الإلهية على الإنسان ! ..

وندع النظر إلى النوم — كظاهرة جسدية — وإلى وظيفته العضوية فى كيان الجسد الإنسانى وننظر إلى ما يقع للإنسان فى رحلة النوم ، وما يصادفه على طريقه من رُؤًى وأحلام ، حيث تنطلق قوى الإنسان الخفية ، وتسبح فى عوالمها ، وتحقق قليلا أو كثيراً من مطالبها التى أمسكتها عنها يقظة الجسد ، وقيدتها دونها جوارحه .

ففى رحلة النوم ، وفيما بين اليقظة والنوم ، يَسْبَح الإنسان بعقله وروحه ، فيما وراء هذا العالم المادى .. حيث لا قيود ولا سدود .. وحيث يحقق الإنسان فى هذا العالم ما عجز عن تحقيقه فى عالمه المادىّ ، فيجد فى هذا ما يجد الجوعان بعد الشبع ، والظمآن بعد الرىّ !

فكم من محروم ، طعِم فى نومه من كل طيّب كانت تشتهيه نفسه ، وتقصر عنه يده ؟ وكم من مظلوم ، اكتوى بنار الظلم من يد ظالمه ، ثم جاء إليه

فى عالم الأحلام ، صاغراً ذليلًا ، فكال له الصاع صاعين ، وشَفَى ما بنفسه من قسوة الظلم ومرارته ؟ .

وكم من محبّ باعد الزمن بينه وبين حبيبه ، وانقطع بينهما حبل اللقاء ، بغربة نائية فى عالم الأحياء ، ، أو عالم الموتى . . وإذا هما فى الكَرَى على لقاء ، يتساقيان كئوس الحبّ مترعة ، ويرتشفان راح المودة صافية ؟ .

وكم من عالم وقف به علمه أمام معضلة لم يجد لها حلاً ، حتى دبّ اليأس فى صدره ، وغربت شمس الرجاء من أفقه ، وإذا هوانف الرؤى تناديه ، وتبوح إليه فى نومه بما ضنت به عليه فى يقظته . . وإذا الحقيقة بين يديه سافرة ، والمعضلة بديهة ! ! وكم ؟ وكم ؟ وكم ؟

إننا فى عالم النوم لنجنى من الثمرات العقلية ، والروحية ، والنفسية ، ما لا نحصل عليه فى يقظتنا ، بمدركاتنا ، وحواسنا .

ذلك أن النوم إذا قَطَع صلتنا بعالم الحسّ ، وَصَلَنا بعالم الروح . . وكما تأخذ أجسادنا حَظّها من طعام وشراب ، من عالمها المادى ، فإن أرواحنا ، ونفوسنا ، وعقولنا تتزود فى رحلة النوم ، من عالم الروح بكل ما تستطيع الوصول إليه منه .

فالنوم ليس إلا حبساً للجسد ، وإطلاقاً للروح . وهو بهذا إنما يُعطِى الجانب الروحىّ من الإنسان حظه ، من التحرر والانطلاق من كثافة المادة ، وضغوطها ، وظلامها . . وإلاّ ، فإنه لو ظلّت الروح حبيسة فى كيان الجسد ، تقوم على حراستها فى داخل هذا السجن المظلم ـ الحواسُّ والمدركات ـ لاختنقت ، وانطفأ نورها ، ومات شعاعها .

وماذا يبقى للإنسان أو من الإنسان إذا عطبت روحه ، وانطفأ هذا المصباح الإلٰهى المشتعل فى كيانه ؟ إنه لا إنسان بغير روح ، وإنه لا وجود لإنسانية

فقدت روحها ، وإن لم تفقد حياتها . . ومن هنا نستطيع أن نفهم قول الرسول الكريم : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » . . فهذا يعنى أن الروح قد تخلصت بالموت تخلصاً تاماً من الجسد ، وخرجت بوجودها كلية من سجنه المطبق عليها ، وعندئذ يجد الإنسان وجودَه كاملا .. فالإنسان فى حقيقته روح ، وما الجسد إلا منزلا نزلته الروح فى مرحلة من مراحل السفر فى هذا الوجود !

ومن هنا نستطيع أيضا أن نلمح أن البعث بالروح لا بالجسد . . ولهذا مبحث خاص سنعرض له — إن شاء الله !

فالذين يستخفون بالنوم ، ويعدونه ضرورة من الضرورات الثقيلة المفروضة على الطبيعة البشرية ، ويحسبونه داء من تلك الأدواء التى تلحق الإنسان ، وتطغى على وجوده ، كالطفولة ، والشيخوخة — هؤلاء مخطئون أشد الخطأ ، إما لجهلهم ، الذى يقصُر بهم عن إدراك ما لا تلمسه أيديهم ، وتتذوقه أفواههم ، وإما لأنهم ماديون ، لا يرون إلا المادة ، ولا يتعاملون إلا بها ، ولا يجدون فى الإنسان إلا أنه حيوان ، مغلف بهذا الغلاف المادى من العظم واللحم !

وإذا كان « النوم » ـ على ما رأيت ـ نعمةً جليلة ، فإن الله سبحانه وتعالى ، قد جعل الليل الذى هو الظرف الطبيعى للنوم ـ نعمة جليلة أيضاً ، كما يقول سبحانه : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة . . من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه . . أفلا تبصرون » (٧٢ : القصص) . .

فالليل ، ستار يغشى الكائنات الحية ، ومنها الإنسان ، فيُسلمها ذلك إلى السكن ، ثم النوم ! .

إن لليل سلطاناً قاهراً كسلطان النهار على الأحياء .. هذا للنوم ، وذلك

لليقظة .. ذلك للموت ، وهــذا للبعث .. « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضَى أجل مسمى .. ثم إليه مرجعكم » (٦٠ : الأنعام) .

وقد كان الليل ، لسلطانه هذا ، إلٰها ، يناظر النهار ، ويقاسمه حكم هذا العالم .. فدَانَ كثير من الناس بهذه الديانة المثنوية ، فجعلوا الآلهة اثنين ، إلها للنور ، وآخر للظلمة .. واعتقدوا فى إله النور الخيرَ ، على حين كان معتقدهم فى إله الظلام أنه شر ، وأن الحرب دائرة بينهما ، وأن على المؤمنين أن ينتصروا لإله الخير ، وأن يرقبوا خلاص العالم ، من الظلام ، والشر ، على يديه .. وإلى هذا المعنى أشار المتنبي بقوله :

وكم لظلام الليل عندك من يد تحدّث أن المانوية تـكذب

فهو يجد فى الليل طيف محبوبه يُلِمّ به ، ويسعده ، فى زورة من زورات الأحلام ، وهذا يحدث عن الليل بما يكذب المانوية ، التى تعتقد أن الليل شر لا يجىء منه خير ! بل إن المتنبي ليجد هذه اليد الـكريمة لليل عنده فى عالم اليقظة حيث يتخذ من الليل ستاراً يخفيه عن أعين الرقباء ، فيقول :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

وكم تغنى الشعراء بالليل ؟ وكم حدا الحداة وهم سائرون فى عبابه ، مأخوذون بهيبته وجلاله ؟ .

وكم ناجى العبّاد ربهم بالليل ، وقطعوا آناءه حمــداً وتسبيحـاً ، وركوعاً وسجوداً ؟

إن الليل ، وإن لم يستول على الإنسان سلطان النوم فيه ، فإن فى ظلامه فرصة تحجز الحواس عن الانطلاق ، وتمسكها عن العمل ، وعندئذ تصحو

مشاعر الإنسان ، وتستيقظ روحه، ومن هنا يكون مهيئاً للاتصال بالعالم العلوى، والوقوف على موارده ، والرى من مشاربه .. !

ولأن الليل هو الظرف الطبيعى للنوم - كما قلنا - فقد أقسم الله سبحانه وتعالى به ، وسمى سورة من القرآن الكريم به ، تنويها بقدره ،وإشارة ترفع تلك الغشاوة التى تنظر إليه نظرة باردة ، أو شاردة ، أو متهمة . . فقال تعالى : « والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى » (١ - ٢ الليل) وقال سبحانه : « والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها » (١ - ٤ : الشمس) وقال سبحانه : « والليل وما وسق » (١٧ : الانشقاق) .

— وفى عطف النهار على الليل فى قوله تعالى : « ومن آياته منامكم بالليل والنهار » - تقرير لتلك الحقيقة الواقعة ، وهى أن الليل ، وإن كان هو الظرف الطبيعى للنوم ، فإن ذلك لا يمنع أن يكون النهار ظرفاً للنوم أيضاً ، حيث ينام الناس بالليل ، وينامون كذلك بالنهار ، وإن كان النوم بالليل أصلا ، والنوم بالنهار فرعاً . ولهذا قدم الليل على النهار فى هذا المقام ..

ومن جهة أخرى ، نجد فى قوله تعالى : « وابتغاؤكم من فضله » وإن جاء مجاوراً للنهار ، فإنه معطوف على قوله تعالى : « منامكم بالليل » . . وهذا يعنى أن النهار ، وإن كان الظرف الطبيعى للسعى والعمل ، فإن ذلك لا يمنع من أن يكون الليل ظرفاً للسعى والعمل ! كما هو واقع فى الحياة . فالناس يعملون بالنهار ، ويعملون بالليل ، كما ينامون بالليل ، وينامون بالنهار . .

وعلى هذا يكون مفهوم النظم القرآنى هكذا : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله ، بالليل والنهار .

ولكن أين هذا من ذلك ؟ هذا كلام ، وذلك قرآن . . !

وفى قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » وفى استدعاء السمع هنا ، دون حواس الإنسان وملـكاته الأخرى ـ فى هذا إشارة إلى أن السمع الذى يحقق إدراكاً ، ويعطى فهماً ، ثم يعطى لهـذا الفهم ، وذلك الإدراك ، ثمرة ـ هو السمع الذى يخلى له الإنسان حواسه كلها ، ويعطيه وجوده كله ، على ما يكون عليه الإنسان فى الليل ، وقد اشتمل عليه ، وأمسك كل حواسه ، فلم يبق الإنسان إلا سمعه المرهف ، الموجه إلى العالم الخارجى ، وما يجىء منه .. وذلك ما يكون عليه الإنسان ، حين يقع تحت حكم الآية : « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله » ، فيحتويه الليل ، ويبسط عليه سلطانه .

قوله تعالى :

* « ومن آياته يريكم الْبَرْقَ خَوْفاً وطَمعاً وينزِّل من السماء ماء فيحيى به الأرض بَعْدَ مَوْتها إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون » .

مناسبة هذه الآية للآية التى قبلها ، أنهما جميعاً فى معرض الدلالة على قدرة الله سبحانه ، والـكشف عن أنعمه وآلائه .. ثم إن البرق إنما يظهر سلطانه على أتمّه ، حين يلمع بالليل الذى جاء ذكره فى الآية السابقة .

ورؤية البرق ، إشارة دالة على الرحمة المرسلة من عند الله، على يد هذا السحاب الذى ينطلق البرق من خلاله .. فإذا لمع البرق توقع الناس الغيث ، واختلفت توقعاتهم له بين يأس ورجاء ، وخوف وطمع .. وذلك أن البرق وإن كان رسولا من رسل الغيث ، إلا أنه قد يجىء بالغيث ، وقد لا يجىء .. فهناك برق يسمى برق الُخلَّب ، وهو الذى يبرق ولا يصحبه مطر .. ومن هنا كان قوله تعالى : « خوفاً وطمعاً » ـ إشارة إلى أن لمعان البرق ، وإن طلع على

الناس بما يبشر بالغيث ، فإنه يضع المشاعر المترقبة للمطر ، المتلهفة عليه ، فى موضع متأزم ، بين الخوف والرجاء . . بل إن الخوف ليغلب على الرجاء ، وخاصة إذا كانت الحاجة إلى المطر شديدة ، والطلب له ملحاً . وهذا هو بعض السرّ فى تقديم الخوف على الطمع . . إذ كانت الآية الكريمة متجهة أوّلاً إلى من يقيمون حياتهم على ماء المطر ، مثل سكان الصحارى ، ونحوها . فهؤلاء إذا تأخر نزول المطر أياما ، وأمسكت السماء رحمتها قليلا عنهم ، فزعوا ، واضطربوا ، وتعلقت أنظارهم بالسماء ، يرقبون السحب ، ويرصدون مسيرتها . فإذا لمع البرق ، بدا لهم منه الوجه الضاحك المبشر بالخير ، ففرحوا ، واستبشروا . . ولكن سرعان ما يطالع عليهم شعور أسود كالح ، يقطع عليهم هذه الفرحة ، كأنه يقول لهم : وما يدريكم أن وراء هذا البرق مطراً ؟ ألا يجوز أن يكون برقاً خُلّباً ؟ وهنا يأخذ الخوف مكان الصدارة على مشاعرهم ، شأن الحريص على الشىء ، المتلهف إليه . . يغلب عليه الخوف على فقده أكثر من الطمأنينة إلى بقائه ! .

قوله تعالى :

« ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوةً من الأرض إذا أنتم تخرجون » .

قيام السماء والأرض بأمر الله ، هو حفظ نظامهما ، والإمساك بهما على هذا النظام الذى أوجدهما الله سبحانه وتعالى عليه . . وأمر الله ، هو سلطانه وقدرته . ، وهذا يعنى أنه إذا ساغ لتفكير إنسان أن يُضيف هذا الوجود ، فى أرضه وسمائه إلى غير الله سبحانه ، كما يقول بذلك الملحدون من الطبيعيين الذين ينسبون الموجودات إلى الطبيعة ، ويقولون إن الأشياء وُجدت هكذا بطبيعتها — نقول إنه إذا ساغ لتفكير إنسان أن يقول مثل هذا القول ،

فكيف يسوغ له أن يقول إن هذا التجاوب بين الموجودات، وهذا النظام الذى يمسك بها ، ويوائم منها نغماً موسيقياً منسجماً ـ هو من عمل الطبيعة ذاتها ؟ إن هذا يعنى أن الطبيعة عاقلة ، حكيمة ، مدبرة ، عالمة ، قادرة .. وهذه هى بعض صفات الألوهية . . فلم تسمّى إذن الطبيعة طبيعةً ، ولا تسمى إلها ؟ إن المسافة قريبة جداً هنا بين الطبيعة وبين الإله . . وإنه لأقرب إلى العقل والمنطق أن يقوم على الوجود مدبّر واحد ، يؤالف بين وحداته ، ويجمع بين أشتاته ، بدلاً من قيام مدبرات تقوم فى وحدات الطبيعة ، وتجعل منها نظاماً واحداً !

— وفى قوله تعالى : « ثم إذا دعاكم دعوةً من الأرض إذا أنتم تخرجون » . إشارة إلى أن أمر الله وسلطانه ، الذى تقوم به السموات والأرض ، أن تُدْعَوْا من القبور بعد موتكم ، دعوةً واحدة ، فإذا أنتم قيام تنظرون . . وهذا يعنى أن البعث بعد الموت ، نظام قائم فى هـذا الوجود ، أشبه بنظام دوران الكواكب فى أفلاكها ، والليل والنهار فى فلكهما . .

وفى العطف « بثم » إشارة إلى أن هذه الدعوة التى يُدْعى بها الموتى لم يجئْ وقتها بعد ، وأنها أمر مستقبل ، لا يعلم أحدٌ متى يكون . . وإن كان من المعلوم أنها لا تقع إلا بعد أن يموت الناس جميعاً . . وفى تصدير الجملة الخبرية « إذا أنتم تنتشرون » بأداة المفاجأة « إذا » — إشارة إلى أن البعث من القبور سَيعقب الدّعوة مباشرة ، بلا مهَل . . كما يقول سبحانه : « ونُفخ فى الصور فإذا هم من الأحداث إلى ربّهم يَنسلون » (٥١ : يس) . والمُجاءة إنما تقع على أولئك الذين لا يَرْجون بعثاً ، ولا يؤمنون بالحياة الآخرة . . ولهذا فهم إذا بُعثوا أخذهم الدهَش والعجب ، وقالوا ما حكاه القرآن الكريم عنهم : « يا ويلنا . . من بعثنا من مرقدنا ؟ » (٥٢ : يس) . .

قوله تعالى :

• « ولهُ مَن فى السموات ِ والأرض كلٌّ له قانتون » .

القانت : الخاضع المستجيب لغيره ، طوعاً .

والآية تعقيب ، على الآية السابقة ، وأن هذا الوجود فى سمائه وأرضه ، هو خاضعٌ لأمر الله ، مستجيبٌ له .. وأن الموتى إذا دُعوا من قبورهم لا يملكون إلا أن يستجيبوا لِما دعاهم إليه سبحانه وتعالى : إنْ كلُّ من فى السموات ِ والأرض إلاّ آتى الرّحمن ِ عبداً » (٩٣ : مريم) وفى التعبير عما فى السموات والأرض من مخلوقات ، بلفظ « من » التى للعقلاء ـ إشارة إلى أن هذه الموجودات ، محكومة بنظام ، مسيّرة بحكمة وعلم ، حتى لكأن فى كل كائن منها عقلا مدبّرا ، وموجّها . . فهى بهذا الاعتبار ، عاقلة ، مدركة ! .

قوله تعالى :

• « وهو الذى يبدؤ الخَلْقَ ثم يُعيده وهو أهْوَنُ عليه وله المَثَلُ الأعلى فى السموات والأرض ِ وهو العزيز الحكيم » .

وهذه الآية تعقيب كذلك على الآية السابقة ، وهى تقرر أن من له من فى السموات ِ والأرض ، هو الذى بدأ الخلق ، وهو الذى يعيده كما بدأه . .

والمراد بالخلق هنا ، المخلوقات كلها . . وهذا يعنى أن الوجود فى حركة دائمة ، وفى هدم وبناء مستمرّين . . وأن الوجود فى أية لحظة ، هو على غير صورته فى اللحظه السابقة أو اللاحقة . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « كل شىء هالك إلاّ وجهه » . . فمعنى الهلاك هنا هو التحول ، والتبدل ، وتغاير الصور والأشكال ، وليس معنى الهلاك الفناء المطلق . . إذ أن المادة لا تفنى ، وإنما تتبدّل وتتحول ، وتأخذ قوالب مختلفة ! وكذلك ما جاء فى

قوله تعالى : « كل من عليها فان » هو من هذا المعنى ، وأن الفناء هو زوال صور الأشياء ، وقوالبها وأخذها صوراً وقوالب أخرى .. فعملية الخلق مستمرة دائباً ، وتقابلها من جهة أخرى عملية الموت ، أو البلى ، أو الفناء ، أو الهلاك .. وكلها هنا بمعنى واحد ، وهو التحول والتبدل ، لا الفناء المطلق الأبدى ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ، « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » (١٠٤ : الأنبياء) .

وقوله تعالى : « وهو أهون عليه » .

« أهون » صيغة تفضيل ، وأصله من هان الأمر ، أى خف بعد ثقل ، وأمر هين : خفيف الحمل ، قليل المؤونة ، ومنه قوله تعالى : « قال ربك هو على هين » .

وليس بالإضافة إلى الله سبحانه وتعالى ، ماهو هين ، وأهون منه . . فكل شىء فى قدرة الله ، لا يعجزه سبحانه ، شىء فى الأرض ولا فى السماء .. لا يتكلف — سبحانه وتعالى — لأمر جهداً . . « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » . . يستوى فى هذا كبير الأمور وصغيرها . . السموات والأرض ومن فيهن ، هى فى قدرة الله كالذرة أو البعوضة . . « ما خَلْقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » .

فهذا التفضيل « أهون » — منظور فيه إلى قدرة الإنسان ، وإلى ما يقوم على صنعه من أشياء . . فاختراع الشىء ، لا يتوصل إليه الإنسان إلا بعد جهد ، ومعاناة ، وتبديل وتغيير ، وتسوية ، وحذف وإضافة ، حتى يستقر الشىء على الصورة التى يرتضيها . ، فإذا انتهى الإنسان إلى تلك الصورة ، كان حلها وتركيبها ، أمراً هيناً عنده ، لا يتكلف له جهداً .. إن مثال الصورة قائم بين يديه ، وحاضر فى تفكيره ، وما عليه إلا أن يضع الأجزاء

التى تناثرت أشلاؤها ، فى هذا القالب ، فإذا الصورة قائمة على ما كانت عليه . .

— وفى قوله تعالى : « وله المثل الأعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم » — إشارة إلى أن قوله تعالى : « وهو أهون عليه » هو من قبيل التمثيل ، بضرب هذا المثل لله ، منتزعةً صورتُه من أفعال الخلق ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . . فهو سبحانه : « العزيز » الذى تعنو لعزته وسلطانه كل عزة ، وكل سلطان ، ويستجيب لقدرته كل موجود فى هذا الوجود . . « الحكيم » الذى تقوم عزته ، ويعمل سلطانه ، ويمضى حكمه — بالحكمة والعدل ، والإحسان .

الآيات : (٢٨ — ٣٢)

* « ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

« ضَرَبَ لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون » .

هذا مثل آخر ، ضربه الله سبحانه ، من واقع الناس ، وعلى مستوى وجودهم فيه ، ليروا من خلال هذا المثل ما ينبغى لله من كمال .

فى الآية السابقة على هذه الآية ، وهى قوله تعالى : « وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » مثل مضروب من واقع الناس فى حياتهم ، وهو أن تشكيل الأشياء على صورة معروفة للناس ، أهون عليهم من ابتداع هذه الصورة ، واختراعها . . وكذلك ـ مع بُعد مابين قدرة الله وقدرة الناس ـ يكون بعث الموتى من قبورهم ، وإعادتهم إلى الصورة التى كانوا عليها ، ليس أمراً مستبعداً ، حتى ينكره المنكرون ، ويمارى فيه الممارون ، إذ كان ذلك البعث إعادة للشىء إلى ما كان عليه ، وإعادة الشىء ـ كما هو معروف عندهم ومسلّم به لديهم ـ أهون وأيسر من خلقه ابتداء . .

وفى هذه الآية مثل للذين يجعلون لله أنداداً ، ويتخذونهم أرباباً ، يحبونهم كحب الله ، بل ويؤثرونهم بالحب والولاء . . !

وفى هذا المثل يُطالب إلى المشركين أن ينظروا إلى أنفسهم ، وإلى الوضع الذى بينهم وبين عبيدهم ، وما ملكت أيمانهم . . أيرضى هؤلاء السادة أن يسلّموا لعبيدهم ـ وهم بشر مثلهم ـ أن يشاركوهم فيما آتاهم الله من مال ومتاع ؟ وأن يقفوا منهم موقف الند والشريك ؟ وأن يحاسبوهم فيما يجرون عليه من

تصرفات فى هذا المال وذلك المتاع ؟ أيقبل السيد أن يكون لعبده يد على ما ملكت يدُه فلا يتصرف فى شىء حتى يأخذ رضاه وموافقته ؟ ذلك مالا يرضاه ولا يقبله سيد ! وإلا فأين السيادة ؟ وأين سلطانها للبسوط على ما بين يديها ؟ .

هذا ، والأمر يجرى بين مخلوقين لله ، من سادة وعبيد ، وفى مال الله ، وفيما رَزَق ، وأنعم من نعم ! .

فكيف إذا خرج هؤلاء المشركون عن دائرة أنفسهم ، ينقلبُ هذا المنطق ، حتى تنعكس هذه الصورة ، وحتى يجعلوا خلقاً من خلق الله ، وعبيداً من عبيده ، شركاء له ، فيما ملك ملك خالص له ، لم يفده من أحد ، ولم يتلقه من مخلوق ؟ كيف يقبل هذا الضلال عقل ، ويطمئن إليه عاقل ؟ ..

فهل مع هذا البيان الواضح المبين ، ومع هذه الحجة الدامغة القاطعة ، يقبل المشركون أن يكون مع الله شريك ، يرجون رحمته ، أو يخافون عذابه؟ قد يكون ! وهو كائن فعلا ، فما أكثر المشركين الذين عميت بصائرهم ، وزاغت قلوبهم ، فلم يروا ، فى هذا البيان المبين ، ولا فى تلك الحجة القاطعة ، ما يقيم لهم طريقاً إلى الله ..

وماذا تجدى الآيات ، وماذا تغنى الحجج ، إذا لم تجد الآذان المصغية ، ولا العقول المدركة المستبصرة ؟ « كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون » .. فالعقلاء وحدهم ، هم الذين ينتفعون بآيات الله ، ويهتدون بهديها ، يتلقون العبرة والعظة منها ..

قوله تعالى :

* « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم . فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين » ؟ .

هو إضراب على ما يتلقاه المشركون من آيات الله المفصلة . . إنهم لا ينتفعون بها ، ولا يجنون من ثمرها المبارك الطيب شيئاً ، بل يظلون على ما هم عليه من ضلال وشرك . . إنهم منقادون لأهواء غالبة عليهم ، متسلطة على عقولهم . . ومن كان هذا شأنه ، فلن ينقاد إلا بمقود هواه ، ولا يستجيب إلا لنداء شيطانه . .

وفى قوله تعالى : « بغير علم » . . إشارة إلى أن هذا الهوى المتسلط على المشركين ، هو هوًى أعمى عمًى مطبقاً ، لا تنفذ إليه شعاعة من ضوء النهار الساطع . . فقد يكون الإنسان متبعاً هواه ، ثم إذا نُبّه تنبّه ، وإذا أُرشد رَشد . . شأن كثير من المشركين ، الذين عاشوا فى شرك الجاهلية ، مستسلمين لأهوائهم ، فلما أدركهم الإسلام ، وطلعت عليهم شمسه ، صَحَوْا من نومهم ، واستقبلوا نور الله ، فأبصروا من عمًى ، واهتدوا من ضلال . .

وقوله تعالى : « فمن يهدى من أضلّ الله » . . إشارة إلى هؤلاء المشركين الذين جَمَدُوا على شركهم ، وأقاموا على ضلالهم ، وأنهم لن يتزحزحوا عما هم عليه من ضلال ، ولن يخرجوا عما هم فيه من شرك ، لأن الله سبحانه وتعالى قد أركسهم فى هذا الضلال ، وأغرقهم فى هذا الشرك ، وخلّى بينهم وبين أهوائهم : « ومن يضلل الله فلا هادى له » . . إنهم لن يقبلوا هدًى ، ولن يطبّ لدائهم طبيب . . وهكذا يعيشون فى ضلالهم ، ويموتون به . . فإذا جاء وعد الله ، ووقفوا موقف الحساب والمساءلة ، لم يكن لهم من جزاء إلا النار : « وما لهم من ناصرين » يدفعون عنهم بأس الله .

قوله تعالى :

« فأقم وجهك للدّين حنيفاً فِطرةَ الله التى فَطرَ النّاسَ عليها . . لا تبديل لخلق اللهِ ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » : .

هو أمر للنبيّ الـكريم ، أن يَمضىَ على طريقه ، وأن يَدَعَ هؤلاء المشركين وما أُركسوا فيه . .

وإقامة الوجه للدّين هو ، اتجاه القاصد إليه ، بكل كيانه ، من غير التفاتٍ إلى شيء غيره . . والخطاب ، وإن كان خاصاً للنبيّ ، فإنه عام ، يدخل فيـــه كل مؤمن .

—وقوله تعالى : « فِطرةَ الله التى فَطَر الناس عليها » هو جملة تفسيرية ، للدين الحنيف . . ففطرة الله ، منصوب بفعل محذوف تقديره ، أعنى ، أو أريد ، أو نحو هذا . . فالدين الحنيف ، وهو الإسلام ، هو فطرة الله التى فطر الله الناس عليها ، وخلقهم على استعدادٍ فطرى لقبول هذا الدين ، كما يقول الرسول الـكريم : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجّسانه » . .

وهذا التأويل ـ والله أعـلم ـ هو أولى من نصب « فطرةَ الله » على الإغراء ، بتقدير لزم فطرة الله ، أو نحو هذا . . لأن ذلك يقطع الصلة بين الدين الحنيف وفطرة الله ، ويجعل كلا منهما كِياناً مستقلاً ، على حين يجعلهما التأويل الذى تأولناه ، شيئاً واحداً . . وهو الأولى !

وفطرة الله ، هى ما أودع الله سبحانه وتعالى فى الإنسان من قوّى عاقلة ، وطبيعة سليمة ، فى أصل الخلقة ، تقبل الطيب ، وتنفر من الخبيث . . وهذا هو مِلاك أمر الدين ، دين الله ، الذى ارتضاه لعباده . .

وهذه الفطرة ، تعرض لها عوارض كثيرة تشوّه معالمها ، أو تفسد طبيعتها ، شأنها فى هذا شأن حواس الإنسان ، من سمع ، وبصر ، وذوق ، ولمس ، وشم . . وكما أن لِما يعرض للحواس من آفات ، دواء تُداوَى به ، كذلك جعل الله سبحانه للفطرة ما تتداوى به ، إذا هى أصيبت بآفة من

الآفات ، وذلك بما يحمله رسل الله من آيات الله ، وما فى هـذه الآيات من هدًى ونور . .

— وقوله تعالى : « لا تبديلَ لخلق الله » . . هو خبر ، مراد به الأمر . . والتقدير ، لا تُبدّلوا خَلْقَ الله ، وهو الفطرة ، ولا تفسدوا هذا الخَلْق السوىّ ، بما تُدخلون عليه من أهواء ، بل عليكم بحراسة هذه النعمة ، وعرضها على هُدى الله ، إذا طاف بها طائف من الضلال . .

— وقوله تعالى : « ذلك الدين القيم » . . الإشارة هنا إلى الدين ، فى قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً » . . والدين القيم ، هو الدين المستقيم على فطرة الله التى فطر الناسَ عليها . .

— وقوله تعالى : « ولـكن أكثر الناس لا يعلمون » . . الناس هنا هم المشركون ، الذين عَمُوا عن أن يَرَوْا هذه الحقيقة ، وأن يقع لعلمهم أن هذا الدين هو الدين المطلوب للفطرة ، المتجاوب معها .

قوله تعالى :

* « منيبين إليهِ واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تـكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شِيَعاً كل حزب بما لَدَيهم فَرِحون » . .

المنيب : الراجع إلى الله ، المتجه إليه ، المقيم وجهه لدينه ، مجافيـاً كلّ دين غيره . .

و « منيبين » . . كلام مستأنف ، هو إجابة عن سؤال مقدّر ، دلّ عليه ما سبق ، وهو قوله تعالى : « لا تبديل لخلق الله » . . وذلك أنه لما كان قوله تعالى : « لا تبـديل لخلق الله » خبراً يراد به الأمر ، أى لا تبدّلوا خلق الله — وقع فى نفس الذين سمعوا هذا الأمر ، وأرادوا الاستجابة له ، سؤال ، هو : كيف نتصرف حتى لا نبدّل خلق الله ؟ فـكان الجواب : أنيبوا

إلى ربكم ؛ واتقوه ، وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين » . .
فقوله تعالى : « منيبين إليه . . » هو فى تقدير أنيبوا إلى الله ، ولذا عطف عليه فعل الأمر : « واتقوه » . .

هذا ، وإذا كانت قواعد النحو لا تتسع لهذا التخريج ، فإن أسلوب القرآن لا تحكمه قوالب النحو ، على ما انتهى إليه اجتهاد المجتهدين فى ضبط قواعده . . !

وإذا كان لابد من احترام هذه القواعد ، فإن فى مجال التخريج متسعاً ، لقبول كل شارد ووارد . . وبهذا فإن لنا أن نقول : إن « منيبين إليه » منصوب بفعل محذوف تقديره : كونوا « منيبين إليه » أو نحو هذا . .

وقوله تعالى : « واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين » . . معطوف على « منيبين » الذى هو فى قوة فعل الأمر ، أو على فعل أمر مقدر . .

والإنابة إلى الله ، هى الرجوع إليه ، وذلك بتصحيح الفطرة ، ومعالجة كل ما عرض لها من آفات ، ولهذا جاء بعد ذلك ، الأمر بتقوى الله ، وإقامة الصلاة حيث يلتقى هذا الأمر مع فطرة سليمة ، أناب أصحابها إلى الله ، ورجعوا إليه ، بعد أن بعُدت بهم الطريق عنه .

وقُدّم الأمر بالتقوى على إقامة الصلاة ، لأن التقوى ، وهى خوف الله وخشيته ، هى التى تجعل للصلاة ثمرتها . . فالصلاة ، وأية عبادة من العبادات ، أو قربة من القربات ، لا مُحصّل لها إلا إذا كانت عن إيمان بالله ، ومعرفة به ، وولاء وخشوع لجلاله وعظمته ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون » وقوله سبحانه : « قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى » .

وقوله تعالى :

* « من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيئاً كل حزب بمـا لديهم فرحون » . .

هو بدل من قوله تعالى : « من المشركين » . . أى ولا تـكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم باختلافهم فيه ، حتى تفرقهم شيعاً وأحزاباً . . لأنهم يدينون بالباطل ، والباطل وجوه كثيرة ، وطرق متشعبة ، فبعضهم يعبد هذا الصنم أو ذاك ، وبعضهم يعبد النار ، وبعضهم يعبد الملائـكة ، وبعضهم يعبد الشمس والقمر . . ولـكل جماعة مع معبودها أسلوب عبادة ، وطقوس صلوات وقربات ، وهى عند نفسها أنها على الهدى ، وأن كل ما سواها فى ضلال وخسران . .

وليس هكـذا الحق ، فإنه وجه واحد ، وطريق واحد . . !

الآيات : (٣٣ — ٤٠)

* « وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَآ آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ

خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَآ آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ (٣٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وإذا مسَّ النَّاس ضُرٌّ دَعَوْا ربَّهم مُنيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمةً إذا فريقٌ منهم بربهم يشركون » .

تشير الآية الكريمة إلى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، والتى هى حظ مقسوم فى الناس جميعاً ، يولدون بها كما يولدون على هذه الصورة الإنسانية ، وما فيها من جوارح ، وما فى كيانها من قوى عقلية ، ونفسية ، وروحية ، ثم تمضى بهم الحياة ، فيختلفون أشكالا ، ويتعددون صوراً وأنماطا ، فى ألسنتهم ، ومدركاتهم ، ومشاعرهم . .

وهناك حال واحدة ، تأخذ فيها الفطرة مكانها فى الناس جميعاً ، حتى أولئك الذين أفسدوا فطرتهم بكفرهم وضلالهم — تلك الحال هى ما يلبس الناس من ضر ، وما ينزل بهم من بلاء وكرب . . ففى تلك الحال ، يعود الإنسان إلى فطرته ، أو تعود إليه فطرته ، وإذا هو — من غير حساب أو تقدير ، وعلى غير وعى أو إدراك — قد فزع إلى الله ، ولاذ به من وجه هذا البلاء المطل عليه . .

وفى هذه التجربة التى يمر بها كل إنسان مرات كثيرة فى حياته ، شاهدٌ يقوم فى كيان الإنسان ، يشهد بأن الله فى ضمير كل إنسان ، وفى وجدان كل

كافر، ومشرك، وإن كان هو ينكر ذلك، ولا يعترف به.. ولـكن إذا مسه الضر، وكربه الـكرب، أخذته صحوة كصحوة الموت، وإذا نفسه قد أشرقت بنور الحق، فعرف الله ومد يده إليه.. ولـكن سرعان ما يخبو هذا النور، ويطغى عليه ظلام كثيف، حين تزال عنه هذه الغاشية، وتزايله تلك الصحوة، وإذا هو على ماعهد عليه نفسه من كفر وضلال..

وقوله تعالى: «وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه» تقرير لهذه الحقيقة التى أشرنا إليها، وأن الناس جميعاً، مؤمنهم وكافرهم على سواء فى اللّجأ إلى الله، والضراعة إليه، حين ينزل بهم الضر، ويحتويهم البلاء.. ثم تختلف بهم الحال بعد هذا، كما كانت حالهم مختلفة من قبل.. فالمؤمنون على اتصال بالله فى السراء والضراء، وعلى إيمان به وولاء له، فى اليسر والعسر.. أما غير المؤمنين فإنهم لا يعرفون الله، ولا يؤمنون به، إلا حين تضطرب بهم سفينة الحياة، ويغشاهم الموج من كل مكان..

هنالك يدعون الله مخلصين له الدين، كما دعا فرعون ربه، وآمن به حين أدركه الغرق!.

وقوله تعالى: «ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون».. تصوير لحال هؤلاء الـكافرين بالله، حين يُرفع عنهم البلاء، وتتداركهم رحمة الله.. إنهم لا يكادون يخرجون من يد الهلاك، حتى ينسوا ربهم الذى دعوه من قبل، وكأنهم لم يكن بينهم وبينه شىء!

وفى العطف «بثم» بين الفزع إلى الله، وبين الغوث، واستجابة الدعاء، إشارة إلى أنه ليس فى كل غوث يغاث المستغيثون.. فذلك مرهون بتقدير الله وحكمته، وفيما قضى به فى عباده..

ثم إن الاستجابة ، إذا وقعت لا تقع على حسب تقدير الإنسان لحدود زمانها ، ولا الصورة التي تقع عليه .. فذلك أيضاً ، مرهون بتقدير الله ، وعلمه ، وحكمته .. وهذا مما يُبتلى به العباد .. فالمؤمنون يدعون الله تضرعاً وخفية ، ولا ييأسون من روح الله ورحمته أبداً . . حتى أنه إذا لم يستجب لهم ، ووقع ما يكرهون ، أصبح هذا المكروه عندهم محبوباً مستساغاً ، لأنه من عند الله ، وبتقدير الله ، وبإرادته فيهم . . أما الذين لا يؤمنون بالله ، فلا يزيدهم ذلك إلا كفراً بالله ، وبعداً عنه ..

— وفى قوله تعالى : « إذا فريق منهم بربهم يشركون » — « إذا » هنا فجائية ، وهى ذات دلالتين :

أولاهما : مبادرة المشركين والضالين ، وإسراعهم إلى ما كانوا عليه من شرك وضلال .

وثانيتهما : أن ذلك خروج على غير المنتظر ، من قوم كانوا إلى لحظات قليلة يتجهون إلى الله ، ثم إذاهم يحولون وجوههم عنه ، لا لسبب ، إلا ما ساق إليهم الله من خير ، وما مسهم به من رحمة !! وهذا أمر يثير العجب ، والدهش والاستغراب . . أفهكذا يقابل الإحسان ، ويستقبل الفضل ؟ ولكن متى كان للعمى أن يبصروا ، وللصم أن يسمعوا ؟

وفى قوله تعالى : « منهم » أى من النـــــاس ، والمراد بالفريق ، المشركون الضالون .

وفى إضافة المشركين إلى « ربهم » — إشارة إلى فداحة هذا الظلم ، الذى ركبه هؤلاء المشركون ، فجحدوا نعمة ربهم ، الذى استجاب لهم ، ودفع البلاء عنهم ! .

قوله تعالى :

* « ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » .

اللام فى « ليكفروا » هى لام التعليل ، فشركهم بالله ، هو علة لكفرهم بما آتاهم الله من نعم ، فهم بهذا الشرك . ينكرون نعم الله عليهم ، ولا يضيفونها إليه ، بل يجعلونها لمعبوداتهم التى يعبدونها من دون الله . .

وفى قوله تعالى : « فتمتعوا فسوف تعلمون » انتقال من الغيبة إلى الخطاب ، حيث يواجه هؤلاء المشركون بهذا الوعيد من ربهم . . فليتمتعوا بما هم فيه ، وسوف يعلمون ما يجره عليهم كفرهم وشركهم من بلاء شديد ، وعذاب أليم .

قوله تعالى :

* « أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون » .

السلطان : الحجة ، البرهان . .

وفى الآية إضراب عن خطابهم ، وعن الحديث إليهم ، وإبعادُهم من مقام الحضور ، بعد أن تلقوْا هذا الوعيد الشديد . . ثم التفات إلى مَن هم أهلٌ للخطاب من المؤمنين ، ليحاكمَ هؤلاء المجرمون أمامهم . . إنهم أشركوا بالله ، فما الحجة التى بين أيديهم على هذا الشرك ؟ أأنزل الله عليهم كتابا ينطق بهذا الضلال الذى هم فيه ؟ أم قام فيهم رسول من عند الله يدعوهم إلى هذا الذى يَدينون به ؟ ما برهانهم على هذا ؟ وما الحجة التى بين أيديهم والتى يعبدون هذه المعبودات عليها ؟ إنهم مطالبون بأن يقيموا على هذه المعبودات حجة ، من عقل ، أو كتاب ، أو رسول . . وإلاّ فهو الضلال المبين ، والمصير المشئوم . « ومن يدْعُ مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون » (١١٧ المؤمنون) .

قوله تعالى :

• « وإذا أذقنا الناس رحمةً فَرِحوا بها وإن تُصبهم سيئةٌ بما قدّمتْ أيديهم إذا هم يقنطون » .

الناس هنا ، هم مطلق الناس . . فإن من شأن الإنسان من حيث هو إنسان ، إذا أذاقه الله من رحمته ، وأفاض عليه من نعمه .. فَرِح ، ورَضِىَ . . وإن أصابه سُوء تنكرّه ، وساء ظنّه ، وطاف به طائف اليـــأس والقنوط ! « إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسّه الشرُّ جزوعاً * وإذا مسّه الخيرُ منوعاً * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون » (١٩ — ٢٣ المعارج)

والناس فى هـذا درجات متفاوتة . . فالمؤمنون ، على حال غير حال المشركين والـكافرين . .

ثم إن المؤمنين ليسوا على حالٍ واحدة . . بل هم درجات . . والدرجة التى يتحقق بها إيمان المؤمن على صورة سوية محمودة ، هى ألا يستبدّ به الفرح إذا لبسته نعمة ، وألا يدخل عليه اليأس والقنوط من رحمة الله إذا مسّه ضرٌّ ، وأصابه سوء .. فهو على رجاء أبداً من رحمة الله ، وإنه ـ وهو فى البلاء ـ ليستسيغ طعمه ، ويُنزله منزل الرضا والتسليم من نفسه . . مفوضاً أمره إلى الله ، راضياً بما قسم الله له . .

قوله تعالى :

• « أولم يَرَوْا أن الله يبسُط الرزق لمن يشاء ويقدِر إن فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون » .

الرؤية هنا بَصَرية ، وعلمية معاً . . أى أنها رؤية بالنظر فى وجوه الحياة وفى أحوال الناس ، ومن هذه الرؤية يجىء العلم الذى يرى منه المبصرون أن

الله سبحانه لم يجعل الناس على سواء ، فيما قدّر لهم من أرزاق فى هذه الدنيا ، كما يقول سبحانه : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا . . » (٣٢ : الزخرف)

فهذا العلم الذى يجىء به النظر فى أحوال الناس ، وفى اختلاف أرزاقهم - يدلّ على أن ذلك لم يكن إلا بإرادة عليا ، وعن تقديرٍ لمالك الملك ، المتصرف فى العباد .. فيبسط الله الرزق ويوسعه لبعض الناس ، ويضيقه ويَقْدُره لآخرين، بحكمة وتقدير . . فالأرزاق بيد الله ، يعطى منهـا ما يشاء لمن يشاء . . ذلك ما يعرفه المؤمنون بالله ، ويرضون بما قسم الله لهم ، فلا يبطر المؤمن إذا أصابته نعمة ، ولا ييأس ، أو يحزن ، إذا قَدَر الله عليه رزقه . . « إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » . . أما غير المؤمنين فإنهم لا يرونْ لله فى ذلك شيئاً . . وإنما هى الدنيا ، يقتتل فيها الناس ، ويتخاطفون ما عليهـا ، كما تتخاطف الذئاب فريسةً وقعت لها . . فمن وقع ليده أو فمه ما يشبعه رضى واطمأن ، ومن لم يقع ليده أو لفمه شىء ، اغتمّ وحزن ، ومات أسًى وحسرة !

وهذه الآية ، هى أشبه بتعقيب على الآية التى قبلهـا ، وهى قوله تعالى : « وإذا أذقنا الناسَ رحمةً فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون » . . ذلك أنه لو نظر الإنسان إلى أحوال الدنيا وتقلباتِ الأيام ، وتبدّل الأحوال بالناس ، ثم كان له من هذا النظر عبرة وموعظة ـ لكان له من ذلك موقف رشيد حكيم مع ما يبتلى الله سبحانه ، العبادَ ، من نعم ونقم .. فإذا ساق الله تعالى إليه مزيداً من النعم والإحسان ، لم يستبدّ به الفرح ، ولم يأخذه الغرور ، لأنه يعلم أن ذلك إلى تبديل ، وتحويل ، وزوال . . وأنه إذا مسه سوء ، وأصابه ضرّ ، لم يقتله الجزع ، ولم يخنقه اليأس والقنوط ، لأنه يعلم ـ بإيمانه بالله ـ أن تلك الحال لن تدوم ، وأن مع العسر يسراً ، وأن بعـد

الضيق فرجاً وسعة ، كما يقول سبحانه « سيجعل الله بعد عسرٍ يسراً » وكما يقول جل شأنه « فإن مع العسر يُسراً * إن مع العسر يسراً » .

قوله تعالى :

* « فآتِ ذا القُربَى حقَّه والمسكين وابن السبيلِ ذلك خيرٌ للذين يريدون وجهَ الله ، وأولئك هم المفلحون »

وهذه الآية كذلك تعقيب على سابقتها ، لأنه إذا علم الإنسان علماً يقينياً ، أن الله هو الذى بيده كلّ شىء ، وأنه هو سبحانه الذى يُجرِى أرزاق العباد كما شاء وقدّر — إذا علم الإنسان هذا العلم ، سخَت نفسه بالعطاء والبذل ، وسمحت يده بالإحسان ببعض ما آتاه الله ، وخاصة ما كان متعلقا بذى القربى ، واليتامى والمساكين . . فهؤلاء لهم حقوق فى أموال ذوى المال ، وقد أوجبها الله لهم ، فى تلك الأموال وجعل أداءها فرضاً واجب الأداء ، لا تبرأ الذمة إلا بأدائه .

وشتان بين إنسان يعلم أن هذا المال الذى فى يده ، ليس له فيه شىء ، وأن سعيه وكدّه لم يحصّل لهُ إلا ما قدّره الله ، وبين من يرى أن هذا المال الذى جمعه هو ثمرة عمله وكدّه ، حتى ولو كان وارثاً له . . إنه ابن المورّث وكفى ! .

فالأول لا يحرص كثيراً على هذا المال ، ولا يضنّ به على الحقوق الواجبة لله فيما أعطاه الله . . لأنه إنما يعطى مما أعطاه ربّه ، ولا يرى هذا المال الذى فى يده إلا وديعةً لله عنده ، يأكل منه بالمعروف ، ويؤدّى ما أمره به الله تعالى فيه . . إنه ينظر إلى هذا المال على ضوء ما يشير إليه قوله تعالى : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلَفين فيه » (٧ : الحديد) فهو خازنة لله » وو كل

عنه، فى هذا المال الذى أعطاه الله ، وليس للخليفة أن يخرج عن أمرِ مَن استخلفه، وما كان للوكيل أن يذهب مذهباً غير الذى رسمه له موكّله .

وأما الثانى ، الذى يرى أن المال الذى معه ، هو من جمعه ، وكده ، فإنه يتصرف فى هذا المال تصرف المستبدّ بما يملك ملكا خالصاً ، لا يرى لأحد شيئاً معه . كذلك فعل قارون ، وكان جوابه على من دعاه أن يبتغى بما آتاه الله الدار الآخرة ، أن قال : « إنما أوتيته على علم عندى ! » (٧٨ : القصص)

وقوله تعالى : « ذلك خير للذين يريدون وجه الله » ـ الإشارة هنا إلى البذل والإنفاق ، على ذوى القربى والمساكين وابن السبيل . . أى هذا الإنفاق فى هذا الوجه ، هو خيرٌ مدخر ، للذين يريدون بما أنفقوا وجه الله ، ويبتغون مرضاته ، بامتثال أمره ، وهؤلاء هم المؤمنون بالله .. أما غير المؤمنين ، فإنهم إذا أنفقوا فى هذا الوجه ، فلا ينالون بما أنفقوا خيراً ، لأنهم لم ينفقوا ما أنفقوا وهم ناظرون إلى الله ، مؤمنون به ، ممتثلون أمرَه ، وإنما أنفقوا ما أنفقوا إرضاء لنزعات نفوسهم ، ووساوس خواطرهم . .

وقوله تعالى : « وأولئك هم المفلحون » — الإشارة للمنفقين المؤمنين ، الذين يريدون بما أنفقوا وجه الله ، فهؤلاء يتقبل الله سبحانه وتعالى منهم ما أنفقوا ، ويضاعف لهم الجزاء الطيب عليه . . كما يقول سبحانه : « إنما يتقبل الله من المتقين » (٢٧ : المائدة) وكما يقول جل شأنه : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوهَهم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » (٢٦ : يونس) وكما يقول سبحانه : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زُلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغُرفات آمنون » (٣٧ : سبأ) .

قوله تعالى :

* « وما آتيتم من ربًا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » .

الربا : هو الزيادة والنماء .. يقال رَبا الشىء يربو ، أى نما وزاد ، ومنه الربوة ، وهى ما ارتفع على ماحوله من الأرض . .

والربا ، فى لسان الشريعة الإسلامية ، هو القرض فى مقابل عِوض . .

وقوله تعالى : « وما آتيتم من ربا ليربوَ فى أموال الناس فلا يربو عند الله » — معطوف على قوله تعالى : « ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون » — فهو فى تقدير ، ما أنفقتم من خير ، وما آتيتم من مال لذوى القربى واليتامى والمساكين تريدون به وجه الله ، فهو خير عند الله ، تُجزون به خيراً وتَلْقون فوزاً وفلاحاً .. وما آتيتم من مال تريدون به أن يربو ويزداد فى أموال الناس ، فلا يقبله الله ، ولا يزكيه . . وقد سمى هذا المالُ المعطَى ، رباً ، لأنه أُعطى وهو منظور إليه على أنه يربو ويزيد ، ثم يعود إلى صاحبه أضعافاً مضاعفة . .

— وفى قوله تعالى : «ليربوَ فى أموال الناس » — إشارة إلى أن رِباً هذا المال ،إنما يربو ويزداد بما يأكل من أموال الناس . . لأنه إنما يربو ويزداد من أموال مَن أخذوه ، ويرعى فى أموالهم ، ويلتهمها التهاماً . . فهو آفة تدخل على الذين يأخذونه ، فيغتالها ، وَيَعيث فساداً فيها ، ويرعى كل صالحه منها . . وهذا يعنى أن الذين يقترضون بالربا إنما يجنون على أنفسهم ، بهذا الوباء الذى يُدخلونه عليهم ، ويَخلطونه بأموالهم . .

— وقوله تعالى : « وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم

المضعفون » — أى أن ما يعطى من مال قرضاً حسناً ، بلا مقابل وعوض ، هو عمل من أعمال البر ، يتقبله الله ويضاعفه للمقرضين ، فيبارك عليهم هذا المال ، فى الدنيا ، ويجزيهم الجزاء الحسن عليه فى الآخرة . . هذا إذا كان مراداً به وجه الله ، ومعطًى من يد مؤمنة بالله ، تريد بهذا القرض ، تفريجَ كرب المكروبين ، وسدّ حاجة المحتاجين . . أما إذا كان القرض لغير هذا الوجه ، فلا مكان له فى الصالحات من الأعمال عند الله . .

الآيات : (٤٠ — ٤٥)

* « ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ (٤٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « الله الذى خَلَقَكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء . . سبحانه وتعالى عما يشركون » .

عادت الآيات ، تتحدث عن المشركين ، وتضعهم موضع المساءلة مرة أخرى ، لتكشف لهم عما هم فيه من سفه وضلال .. وأنهم وقد طولبوا من قبل أن يأتوا بحجة وبرهان على ما يعبدون من دون الله .. إذ يقول سبحانه .. « أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون » ؟ .

وأمّا وقد خلت أيديهم من هذا السلطان المطالبين به ، من كتاب سماوى أو رسول إلهى ـ فقد جاءتهم آيات الله تدعوهم إلى أن يبحثوا عن هـــذا السلطان فى داخل أنفسهم ، وأن يُديروا عقولهم ـ إن كانت لهم عقول ـ إلى مظاهر الوجود وحقائقه .. فإن فى كل مظهر من مظاهره ، وفى كل حقيقة من حقائقه ، سلطانا ، وبرهانا على المعبود الحق الذى يجب أن يعبد .. إنه الله ، الذى خلق الخلق ورزقهم ، وإنه الله ، الذى يميتهم ثم يحييهم .. فهل من معبودات المشركين من يفعل شيئا من ذلك ؟ هل من آلهتهم تلك ، مَن له مشاركة فى خلقهم ؟ وهل من آلهتهم تلك ، مَن له مشاركة فى رزقهم ؟ وهل تملك آلهتهم تلك ، إماتتهم أو بعثهم بعد موتهم ؟ .

هذه أسئلة ينبغى أن يجيبوا عليها . . فإن كان جوابها إيجابا ـ وهيهات ـ كان ذلك حجة لهم ، وبرهانا مبينا ، يعبدون به تلك الآلهة عليه ، ويعطون ولاءهم خالصاً لها . . وإن كان الجواب سلبيا ، وهو ـ الواقع ـ فقد سقطت الحجة ، وضل البرهان ، وكان عليهم أن ينفضوا أيديهم من تلك الآلهة ، وأن يُجلوها عن عقولهم ، وأن يلفظوها من مشاعرهم . . وإلا فهو الضلال والعمى ، وهو الضياع ، والهلاك . . .

إنها قضية منطقية .. قامت مقدمتها على فَرْض ، هو : هو أن الألوهية لمن يخلق ويرزق ، ويميت ويحيى . . والله هو الذى يخلق ويرزق ، ويميت ويحيى .. فهل من معبوداتكم من يفعل شيئاً من هذا ؟ إنها لا تفعل شيئا . .

وإذن فلا مدخل لها إلى الألوهية .. وإذن فالله وحده هو المتفرد بها ، لا شريك له .. « سبحانه وتعالى عما يشركون » أى تنزه سبحانه ، وتعالى علواً كبيراً عن أن يكون له ندّ من هؤلاء المعبودين الذين يعبدونهم من دونه . .

قوله تعالى :

* « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » .

هذا الفساد الذى ظهر على هذه الأرض ، وشمل برّها وبحرها ، هو من صنع الناس ، لأنهم هم الخلفاء عليها ، وهم أصحاب الإرادات العاملة ، فيها . . إن كل ما على هذه الأرض من كائنات ، إنما تتحرك حركة منبعثة من طبيعتها التى أودعها الله سبحانه وتعالى فيها ، دون أن تخرج عليها . .

ولهذا كان كل نوع من الكائنات على طريق واحد ، لا اختلاف فيه بين فرد وفرد .. والإنسان وحده ، هو الذى يعيش فى الجماعة الإنسانية ذاتاً مستقلة ، لها تفكيرها ، ولها أسلوبها فى الحياة . .

ومن هنا كان التغيير والتبديل فى المجتمعات الإنسانية ، وكانت الحروب الدائرة بينها ، وكانت هذه الانحرافات والضلالات فى العقائد والمعاملات ، من كفر بالله ، وكذب ، وغش ، وخداع ، ونفاق . . إلى غير ذلك مما تمتلىء به دنيا الناس من مساوىء ومقابح . .

وفى قوله تعالى : « ظهر الفساد فى البر والبحر » — إشارة إلى أن هذا الفساد طارىء على هذه الأرض ، لم تكن تعرفه قبل ظهور الإنسان فيها . . فلما ظهر الإنسان ، ظهر الفساد ..

وليس معنى هذا أن الإنسان هو عنصر الفساد فى هذه الأرض ، إذ لو كان

ذلك كذلك ، لما استحق أن يكون خليفة الله فيها .. ولكن هذا يشير إلى أن أصل الخلقة الموجودات كلها ، ومنها الأرض ، قائم على الصحة والسلامة ، شأنها فى هذا شأن الإنسان فى أصل خلقه ، وما أودع فيه الخالق — جل وعلا — من فطرة سليمة .. وكما أفسد كثير من الناس فطرتهم ، أفسد الناس كذلك فطرةَ الطبيعة ، واتخذوا كثيراً من أدواتها الصالحة النافعة أدواتٍ للإفساد والتدمير .. وإلى هذا المعنى يشير المتنبى بقوله :

كلّما أنبت الزمان قناة ركّب المرء فى القناةِ سِنانا

ومع هذا ، فإنه لا ينكر فضل الإنسان وآثاره العظيمة فى هذه الدنيا ، وما أقام على وجه الأرض ، من عمران ، وما أحدث ، من حضارات .

وقوله تعالى : « بما كسبت أيدى الناس » — إشارة إلى أن هذا الفساد والاعوجاج الذى ظهر على هذه الأرض ، هو مما كسبته أيدى الناس ، فهو من صنعهم ، ومن فعل إراداتهم الحرة .. ولهذا ، فهم محاسبون عليه ، مؤاخذون به .. فالباء هنا للسببية ، أى بسبب ما كسبت أيديهم ..

وفى قوله تعالى : « ليذيقهم بعض الذى عملوا » — تقرير لتلك الحقيقة ، وهى أن ما يعمله الناس ، هو محسوب عليهم ، مجزيّون به ، من خير أو شر .. وليس كذلك ما تعمله الكائنات الأخرى التى تعيش مع الناس على هذه الأرض . إن ما تعمله لا إرادة لها فيه ، شأنها فى هذا شأن البذرة تُدْفن فى الثرى ، فيخرج منها ما فى طبيعتها من زهر وثمر ..

ومن هنا كانت مسئولية الإنسان عن كل عمل يعمله ، ليذوق ثمر ما يعمل ، حلواً كان أو مرا . « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » (٣٩ : النجم) .

والآية هنا ، إنما تنبه إلى الأعمال السيئة ، التى من شأنها ، الإفساد فى الأرض، والتى كان من شأن الإنسان العاقل أن يتجنبها ، ويعمل ما هو خير ، وما هو حسن ..

وفى قوله « ليذيقهم بعض الذى عملوا » إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى ـ فضلا منه وكرماً وإحساناً ـ لم يجز الناس بكل ما عملوا من شر ، بل ببعض ما كسبوا منه ، حتى يكون ، لهم من ذلك زاجر يزجرهم، وأدب سماوى يأخذون منه العبرة والعظة ، وليرجعوا إلى الله من قريب ، ويستقيموا على طريق الخير والإحسان ..

ولو آخذ الله الناس بما كسبوا ، لأهلكهم جميعاً ، بل وأهلك معهم كل دابة تدب على ظهر الأرض ، وفى هذا يقول سبحانه : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » (٤٥ : فاطر) وإنه ليكفى أن يَدين بعض الناس بغير دين الله ، وأن يتخذوا من دونه أولياء ، وأن يدعوا له ولداً ، أو شريكا .. فذلك ذنب عظيم : « تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخِر الجبال هدًّا » (٩٠ : مريم) .

قوله تعالى :

* « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلُ كان أكثرهم مشركين » .

هو تهديد للمشركين من قريش ، وأن مصيرهم ، هو مصير المشركين من قبلهم ، وما أخذهم الله به من عذاب ، وما أرسل عليهم من مهلكات .

وفى قوله تعالى : « كان أكثرهم مشركين » ـ إشارة إلى أن الذين ورد عليهم الهلاك فى الأمم السابقة كان يغلب عليهم الشرك والضلال ،

وقليل منهم مَن آمنوا بالله ، واستجابوا لرسل الله ، كقوم نوح ، الذين يقول الله فيهم : « وما آمن معه إلا قليل » (٤٠ : هود) وكقوم إبراهيم ، الذى لم يؤمن من قومه إلا نفر قليل ، منهم لوط . . وهكذا كان شأن قوم عاد ، وصالح ، وشعيب ، ولوط .. وفى كل مرة ، يُهلك الله الضالين المكذبين ، وينجّى النفر القليل من المؤمنين ..

قوله تعالى :

* « فأقم وجْهَك للدين القيّم من قبل أن يأتى يوم لا مَردَّ له من الله يومئذ يصّدّعون » .

هو التفات إلى النبى الكريم ، وإلى أن يَلتفت إلى نفسه ، وإلى المؤمنين معه ، وألا يشغله أمر هؤلاء المشركين عن طلب النجاة لنفسه ، ولمن معه ، بالإقبال على الله ، وإخلاص العمل له ، وذلك ليكون مستعداً للقاء ربه على ما يُرضى ربه ، من قبل أن يجىء يوم الجزاء والحساب ، وهو يوم لا مَردَّ له من الله ، أى لا يملك أحد ردّ هذا اليوم ، أو تأخيره عن وقته الموقوت له ..

والدين القيم ، هو الإسلام ، الذى هو أصل كل دين سماوى ، ومنبع كل شريعة إلهية ، وبهذا كانت له القوامة على كل دين ، والهيمنة على كل شريعة ، وعلى كل كتاب . .

وقوله تعالى : « يومئذ يصدعون » أى فى هذا اليوم ، وهو يوم الجزاء والحساب ، يتصدع الناس ، وتتفرق جماعاتهم ، فلا يلتفت أحد منهم إلى أحد..

قوله تعالى :

* « من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يَمهدون » .

هو تعقيب على قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين القيم » .. فمن أقام وجهه

للدين القيم ، فقد مهّد لنفسه مهاداً طيباً ، وأعد الدار التي ينزلها في الآخرة . . أما من أعرض وكفر ؟ فعليه وزر إعراضه وكفره .

قوله تعالى :

* « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله . . إنه لا يحب الكافرين » . .

التعليل هنا ، هو لقوله تعالى : « ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون » . . أى أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قد توسّلوا بهذه الوسيلة إلى مرضاة الله ، ليجزيهم الجزاء الحسن ، من فضله وإحسانه .

وجاء التعبير بالظاهر « ليجزى الذين آمنوا » بدلا من المضمر « ليجزيهم » — للتنويه بهم ، بذكر الصفات الطيبة التي اتصفوا بها ، والتي كانت سبباً في رضا الله عنهم ، وإسباغ فضله وإحسانه عليهم . .

وفى قوله تعالى : « إنه لا يُحبّ الكافرين » إبعاد للكافرين من مواقع إحسان الله وفضله ، لأنه لا يحبّهم ، ولا يقرّبهم منه ، على حين أحبّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأنزلهم منازل القرب والرضوان .

الآيات : (٤٦ — ٥٣)

* « وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا

فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَاهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَآ أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِم إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ومن آياته أن يُرسل الرِّياح مبشِّراتٍ وليذيقكم من رحمته ولتجرىَ الفلك بأمره ولتبتغوا من فضلِهِ ولعلكم تشكرون » .

عادت الآيات بعد هذا العرض الموجز ليوم القيامة ، وما يلقى المؤمنون هناك من فضل الله وإحسانه ، وما يجد الكافرون من حرمان وطرد من موقع الرحمة — عادت الآيات لتذكِّر النّاس — مؤمنين وكافرين — بما لله سبحانه من نِعَم لا تحصى ، يعيشون فيها ، ولا يكادون يلتفتون إليها ، إذ كانت نعماً عامة شاملة ، تسع الناس جميعاً : كالماء ، والهواء ، والنور ، وغيرها . . فهذه النعم ، إذ كانت حظاً مشاعاً فى الناس ، لا يتكلفون لها ثمناً ، بل تأتيهم عفواً صفواً بلا حساب — إذ كانت كذلك — فإنهم قلّ أن يلتفتوا إليها ، وأن يعدوها نعمة من نعم الله عليهم . . إن الإنسان إنما ينظر إلى نفسه خاصة ، ويلتفت إلى

الأشياء التى تعنيه وحده ، وتقع ليده دون غيره ، ويكاد يستأثر بها ، أو تلك التى يتمايز فيها الناس ، وتختلف حظوظهم منها ، والتى هى مجال تنافس بينهم .

— وفى قوله تعالى : « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته » ، إشارة إلى هذه النعمة العظيمة ، العامة الشاملة ، وهى الرياح التى يرسلها الله مبشرات ، تسوق بين يديها السحاب ، الذى يحمل الحياة للناس ، والدواب ، والأنعام ، والأرض ، بما ينزل منه من ماء . . فهو الرحمة التى يُنزلها الله على عباده ، ويذيقهم منها طعوم فضله وإحسانه .

وفى عطف « ليذيقكم من رحمته » على مبشرات ، إشارة إلى أن البشرى التى تحملها الرياح إلى الناس ، فيها سعادة ، ورضاً ، وتهيؤ لاستقبال هذا الخير الوافد . .

وقوله تعالى : « ولتجرى الفلك بأمره » آية أخرى من آيات الله ، فى هذه الرياح المرسلة من عنده . . إنها تدفع السفن على ظهر البحار والأنهار ، وتسيرها حيث يريد الناس ، وذلك بأمر الله وقدرته ، ولو شاء لأمسك الريح ، فظلت السفن رواكد على ظهر الماء ، لا تتحرك إلى أى اتجاه ، كما يقول سبحانه : « إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره » (٣٣ : الشورى) .

وقوله تعالى : « ولتبتغوا من فضله » آية من آيات الله فى هذه الرياح المرسلة ، التى تدفع السفن إلى حيث يتجه بها الناس .. فتحركها على ظهر الماء ، هو فى ذاته آية تدل على قدرة القادر العظيم .. وما يحصله الذين يركبون هذه السفن من منافع ، هو آية أخرى من آيات الله ، فيما يجرى بين الناس من تبادل المنافع .

وقوله تعالى : « ولعلكم تشكرون » . . هو آية أخرى من آيات الله

فى هذه الرياح المرسلة من عنده ، التى تُحدث هذه الآثار العظيمة فى حياة الناس..

وهذه الآية هى تحريك ألسنة العباد بحمد الله والثناء عليه ، وإقامة مشاعرهم على الولاء له ، وإفراده بالعبودية . . ولكن أكثر الناس لا يقيمون وجوههم إلى الله ، ولا يذكرون له هذه النعم . . وهذا هو السرّ فى تصدير الشكر بحرف الرجاء « لعلّ » . . الذى يفيد الدعوة إلى هذا الأمر المحبوب، المطلوب ، ولكن قليل هم أولئك الذين يقع لهم ، أو منهم .. هذا الأمر . .

وانظر فى وجه الآية الكريمة مرةً أخرى ، وتأمل هذه « الواوات » التى تقوم على كل مقطع من مقاطعها ، وكأنها رسل من رسل الله ، يحمل كلُّ رسولَ منها الآيةَ المرسَلَ بها فى هذا العرض العظيم لآيات الله ، وكأنه يقول لمن يمرّ به : قف ، وخذ حظك من النظر فيما أحمل إليك من آيات ربك ! .

* « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات . . وليذيقكم من رحمته . . ولتجرى الفلكُ بأمره . . ولتبتغوا من فضله . . ولعلكم تشكرون » . . ألا خسىء وخسِر من لا يسجد لجلال الله ، ويعنو لعظمته ، وينقاد لدعوته !!

قوله تعالى :

* « ولقد أرسلنا من قبلِكَ رسلًا إلى قومهم فجاءوهم بالبيناتِ فانتقمنا من الذين أجرَمُوا وكان حقًّا علينا نَصْرُ المؤمنين » .

هو تعقيب على الآية السابقة ، التى حملت بين يديها آيات كثيرة ، من دلائل القدرة الإلهية وكمالها ، فلم تتفتح لها قلوب كثير من المشركين ، كما لم تتفتح لدعوة الحق قلوب كثير من أهل الضلال فى الأمم الماضية ، الذين كذّبوا رسلَهم ، واستخفّوا بما حملوا إليهم من آيات الله .

وفى هذا التعقيب عزاء للنبىّ الكريم ، ومواساة له ، فيما يلقى من قومه من جحود وصدود . . إنه ليس وحده هو الذى كُذِّب من بين رسل الله

جميعاً . . بل إن رسل الله جميعاً قد كُذِّبوا من أقوامهم ، وأوذوا من سفهائهم .

— وفى قوله تعالى : « فانتقمنا من الذين أجرموا » تهديد للمشركين ، وعَرض لهم على المصير الذى هم صائرون إليه . . فكما انتقم الله من الضالّين فى الأمم السابقة ، سينتقم كذلك من هؤلاء المجرمين . .

— وفى قوله تعالى : « وَكَانَ حَقًّا علينا نصر المؤمنين » وعد كريم من الله سبحانه للنبىّ ، بنصره ونصر المؤمنين معه . . فعلى حين يُخزِى الله الكافرين ، ويَكبت الضالين المجرمين — فإنه ينصر المؤمنين ، ويعزّهم ، ويجعل العاقبة لهم . . فقد أوجب سبحانه على نفسه — فضلًا وكرماً — أن ينصر المؤمنين ، ويجعل لهم الغلب على أعدائهم ، كما يقول سبحانه : « كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » (٢١ : المجادلة)

قوله تعالى :

* « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كِسَفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون * وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين » .

وتعود الآيات لاستكمال هذا العرض الذى تكشف فيه عن آيات الله ، ودلائل قدرته ، بعد هذه اللفتة الرحمانية من الله سبحانه إلى النبى الكريم فى قوله تعالى : « ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم ... »

والآية هنا ، تعرض هذه الظاهرة التى تتشكل من حركة الرياح ، وما تثير من أمواج ، وبخار ، وسحاب ، وما ينزل من السحاب من ماء ، وما يدخل منه على الناس من بِشر وغبطة ، بعد يأس ووجوم ! .

ويلاحظ أنه فى آية سابقة ، قد جاء ذكر الرياح ، وما تسوق من بشريات ،

وذلك فى قوله تعالى : « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ، وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

وقد يبدو لمن لا يحس نقد الكلام ، ولا تذوق البلاغة ، أن هذا من التكرار ، الذى يعاب على أرباب البيان ، ويُعدّ قصوراً فى البلاغة ، وفقراً فى المعانى التى يملكها الأديب ..

ولكن أهكذا — حقاً — يكون حساب التكرار إذا ورد فى القرآن الكريم ؟ .

لندع المشاعر الدينية ، حتى يمكن أن نجيب على هذا السؤال ، إجابة قائمة على ميزان النقد البلاغى ، وعلى اعتبار أن هذا كلام ، لا يقوم وراءه سلطانُ العقيدة ، ولا تزكّيه مشاعر الإيمان ..

ونعرض أولا الآيتين فى سياق واحد . . هكذا .

* « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون .. »

* « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا ، فترى الودق يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون » . .

وننظر فى الآيتين الكريمتين ، فنجد :

أولا : أنه يمكن أن تتصل تلاوتهما معاً ، دون أن يحس القارىء أو السامع أن هناك تكراراً فى الصورة ، وأن الآيتين يحققان معاً صورة واحدة ، لهذه الظاهرة الرائعة من ظواهر الطبيعة . . ومع هذا ، فقد فصل النظم القرآنى بين الآيتين بآية أخرى ، ليس فيها لون من ألوان تلك الصورة التى رسمتها الآيتان ..

وثانياً : فى الآية الأولى من الآيتين . نرى « الرياح » آية من آيات الله ، مندرجة مع تلك الآيات تولدت عنها ، فكانت آيات قائمة بذاتها . . فما أن تظهر آية الرياح ، حتى تختفى ، وتأخذ آية أخرى مكانها .. وإذا الذى كل ما للرياح فى هذه الآية هو قوله تعالى : « ومن آياته أن يرسل الرياح . »

وثالثاً : فى الآية الثانية نرى « الرياح » التى لمحناها فى الآية السابقة لمحاً ، وأنها مجرد شىء منطلق ــ نراها هنا ــ وقد اهتزت وربت ، فكانت منها الآيات الرائعة ، المعجبة .. انظر :

الرياح . . تثير سحاباً ، فيبسطه الله فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفاً ، أى قطعا متراكمة ، وسرعان ما يتفتق هذا السحاب عن ودق ، أى مطر ، يَدُق الأرض ، ويترك عليها آثاره ، وإذا الذين يستقبلون هذا المطر ، قد لبسوا ثوب البِشر ، ونزعوا ما كانوا قد لبسوا من قبل ، من همّ وكرب !

* « الله الذى يرسل الرياح ، فتثير سحاباً ، فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفاً ، فترى الودق يخرج من خلاله .. فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون » .

إن الرياح هنا ، هى التى أثارت السحاب ، وهى التى قبلَ أن تثيره قد أثارت وجه البحار وحركت أمواجها ، وحملت ما على وجهها من أبخرة إلى السماء ، فإذا هى ضباب ، وسحاب . . ثم ضربت هذه السحاب بعضه ببعض ، فانقدح منه هذا الشرر الذى ولد الرعد ، والبرق ، والمطر !

هذه هى آية الرياح ، التى أشارت إليها الآية الأولى ، قد كشفت عن وجهها فى الآية الثانية ، فكانت هذا العطاء الجزيل من آيات الله ، ودلائل قدرته . .

وعلى هذا يمكن أن يرجع البصر كرة أخرى ، إلى تلك الآيات فى قوله تعالى : « وليذيقكم من رحمته . . ولتجرى الفلك بأمره ، ولتبتغوا من فضله » .. ففى كلٍّ آية آيات ، لو وجدت النظر الذى ينظر إليها ، ويكشف عن بعض معطياتها ..

ففى قوله تعالى : « وليذيقكم من رحمته » تتمثل تلك الصورة التى يفعلها المطر حين ينزل الأرض ، فيُسفر به وجهها ، ويهزّ له كيانها ، وإذا هى وقد كانت جرداء ، ميتة موحشة ، قد لبست أثواباً قشيبة مختلفة الألوان والأصباغ ، وإذا هى حياة دافقة ، وشباب نضير .. وهكذا فى جريان الفلك، وفى الابتغاء من فضل الله ..فيهما مجال فسيح للنظر ، ومَراد واسع للفكر ، ومَسبح رائع للخاطر ..

* وفى قوله تعالى : « وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين » — إشارة إلى مايكون عليه الناس ، حين تنقطع عنهم موارد الماء ، ويغبّر وجه الأرض ، ويتهددهم القحط والموات .. ففى هذه الحال يغشى الناسَ همّ ثقيل ، وينزل بهم كرب كارب ، فإذا هم وقد أُبلسوا ، وجَمَدوا فى أماكنهم ، فلا حسّ ، ولا حركة .. قد أسلموا أنفسهم ليأس قاتل .. فإذا طلعت عليهم رحمة الله ، بُعثوا بعثاً جديداً ، وسرت فى أوصالهم ريح العافية ، فانتشوْا نشوة صاحية، ذاقوا منها حلاوة النعمة ، وعرفوا قدرها . .

قوله تعالى :

* « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها .. إن ذلك لمحيى الموتى .. وهو على كل شىء قدير » ..

الأمر هنا ، دعوة إلى كل ذى نظر أن ينظر إلى آثار هذه الرحمة المنزلة من الله ، مع هذا الماء المنزل من السماء . .

وليست الدعوة إلى النظر لمجرد النظر، وإنما هى دعوة إلى نظر متدبّر، متأمل، يأخذ العبرة والعظة مما يقع له.. فمن هذه الرحمة المنزّلة من السماء، تغيّر وجهُ الأرض، وسرت الحياة فى أوصالها الميتة، وإذا هى أمّ وَلود، تلد مواليد عجباً من كل جنس، وكل لون.. ثم إذا امتد نظر الإنسان إلى أبعد من هذا وجد أن هذه الحياة التى قامت من هذا التراب الهامد، ليس بالمستغرب ولا المستبعد أن تلبس هـذه الأجسامَ التى ضمها التراب فى كيانه، وجعلها بعضاً منه.. «إن الذى أحياها.. لمحيي الموتى» «٣٩: فصلت».. فهذا من ذاك سواء بسواء..

— وقوله تعالى: «إن ذلك لمحيي الموتى» — الإشارة هنا إلى الله سبحانه وتعالى، وفى الإشارة إليه سبحانه، إشارة إلى قدرته، وإلى مقامه، وإلى تفرده وحده سبحانه بهذا الأمر، وهو إحياء الموتى.

قوله تعالى:

* «ولئن أرسلنا ريحاً فرأوهُ مُصْفَرًّا لظلوا من بعده يكفرون».

إشارة إلى أن هذه الرياح التى أرسلها الله بُشراً بين يدى رحمته، وساق بها الحياة إلى عباده، يمكن أن يسوقها إليهم، وقد صَفِرت يداها من كل خير، بل ربما حملت معها السَّموم والغُبار.. فهذا وذاك بيد الله، ومِن فعل الله.. وقد كان من الإيمان بالله، والرضا بمقدوره، أن يستقبل الناس هذه الريح العقيم بالصبر على قضاء الله، وبالطمع فى رحمة الله، التى تعقب هذا البلاء.. ولـكن كثيراً من الناس يكـفرون الله فى هذه الحال ويسخطون على ما أصابهم به!

والضمير فى قوله تعالى «فرأوه» يعود إلى الناس جميعاً، حيث يغلب

عليهم فى تلك الحال ، اليأسُ ، والقنوط من رحمة الله ، وقليل منهم من يعتصم بإيمانه ، ويرضى بما أراد الله له . .

والريح المصفرة : هى الريح المحملة بالسموم ، قد ذهبت حرارتها بكل ما فى الهواء من بخار الماء ، فاصفرّت كما يصفر الزرع حين يجف ماؤه وتذهب خضرته . .

* « فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تُسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » .

الفاء فى قوله تعالى « فإنك » سببية ، وما بعدها مسبب عن فعل محذوف تقديره — والخطاب للنبى — : اصرف نظرك عن هؤلاء المشركين ، أو دَع هؤلاء المشركين وما هم فيه من ضلال . . أو نحو هذا . . « فإنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين » وهؤلاء موتى ، وإن كانوا أحياء . . إنهم موتى المدركات ، والمشاعر . وإن أردت أن تحسبهم فى الأحياء ، بما لهم من صور آدمية متحركة – فإنهم صم لا يسمعون ، لأن ما يُلقى إليهم من كلمات الله لا تصغى إليه آذانهم ، ولا تقبله عقولهم . . لقد تعطلت منهم حاسة السمع فلا يسمعون خيراً ، ولا يستجيبون لخير . .

ثم إنه قد لا يستمع الإنسان لغيره ، ولا يتقبل نصح ناصح ، ولا هداية هادٍ ، ويكون له مع ذلك ، نظر يهديه ، ويكشف له معالم الطريق إلى الحق والخير . . ولكن هؤلاء المشركين ، عمىٌ لا يبصرون شيئاً ، ولا يُسْلمون أيديهم إلى المبصرين ، حتى يأخذوا بهم إلى طريق مستقيم ، فلا يضلون ، ولا يتعثرون . .

وفى تعدى اسم الفاعل : « هادِ » بحرف المجاوزة « عن » — إشارة إلى أنهم عاكفون على الضلال ، لا يتحولون عنه أبدًا ، ولا يتجاوزون حدوده ، ولهذا ضُمّن الفعل « هَدَى » معنى الفعل ، صَرَف ، أو أبعد ، أو نحو هذا ، مما يحتاج إلى مدافعة ومعاناة . . وهذا يعنى أنه ليس من شأن النبي أن يحمل هؤلاء العمى حملاً على أن ينقادوا له . . ولهذا جاء قوله تعالى بعد ذلك : « إن تُسمع إلا من يؤمن بآياتنا » محدداً وظيفةَ النبي ، وضابطاً منهجَ دعوته . . وهو أن يعرض دعوته ، ويتلو آيات ربه ، ويُسمع كلمات الله ، بإبلاغها إلى الناس ، فيسمعها ، ويستجيب لها ، مَن هو مستعد للإيمان ، لم تفسد فطرته ، ولم يختم الله على سمعه وقلبه ، ولم يجعل على بصره غشاوة . . ولهذا أيضاً جاء قوله تعالى «فهم مسلمون» تعقيباً على قوله تعالى سبحانه : « إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا » ليكشف عن السبب فى استماعهم لآيات الله ، وإيمانهم بها . وهو أنهم مسلمون بفطرتهم ، واستعدادهم ، قبل أن يلتقوا بالدعوة النبوية ، وقبل أن يُدْعَوْا إلى الإسلام فلما التقوا بالنبى ، وبدعوة الإسلام ، صافح الإسلامُ الذى فى فطرتهم ، الإسلامَ الذى دُعو إليه . .

« وإن » فى قوله تعالى : « إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا » نافية ، بمعنى «ما» . . أى ما تسمع إلا من يؤمن بآياتنا ، أى من هو مستعد بفطرته للإيمان . . المندسّ فى كيانه . . أما من فسدت فطرته ، فلن تجاوز كلماتُ الله أذنه .

وفى عود الضمير على الاسم الموصول : « مَن » مفرداً وهو فاعل (يؤمن) ، ثم عوده إليه جمعاً هكذا : «إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » — إشارة إلى أن الإيمان شأن من شئون الإنسان خاصة ، فهو الذى يحصّل الإيمان بنظره الشخصى وبتقديره الذاتى ، وبما يقع له من اقتناع عقلى ، واطمئنان قلبى . . فإذا آمن ، شارك غيرَه فى صفة الإيمـان ، وكان واحداً من جماعة المؤمنين

يدخل معهم فيما تحمل شريعة الإسلام إلى المسلمين من أوامر ونواهٍ ، فيكون واحداً فى صفوف المصلّين ، أو جندياً فى جيش المجاهدين . . إنه منذ دخل فى الإسلام لم يعد كائناً مفرداً مستقلا بذاته ، منعزلًا بدينه ، بل هو منذ أول يوم يدخل فيه فى الإسلام ، يصبح لَبِنة فى بناء الجماعة الإسلامية ، وعضواً فى الجسد الاجتماعى ، الذى يجمع المسلمين جميعاً .

فالمسلم إذ يدخل الإسلام ، يُدخله مفرداً ، بعد أن ينظر فيه ببصره هو ويدركه بعقله هو ، ويستشعره بوجدانه هو ، ويفتح باب قلبه بيده هو ، من غير أن يكون واقعاً تحت إكراه ، أو إغراء ، ومن غير أن يكون متابعاً أو مقلداً . . فإذا دخل الإسلامَ على تلك الصفة أصبح مسلماً ، وأصبح بهـذا صالحـاً لأن يكون فى جماعة المسلمين . .

الآيات : (٥٤ — ٦٠)

* « ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠) »

التفسير

قوله تعالى :

* « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وهو العليم القدير » .

عادت الآيات مرة أخرى ، لتصل العرض الذى تجلّى فيه آيات الله ، وتعرض فيها دلائل قدرته على الناس ، من مؤمنين وكافرين ، فيجد فيها المؤمنون نظرًا مجدّدًا إلى قدرة الله ، وإلى علمه ، وحكمته ، فيزداد إيمانهم تمكينًا فى قلوبهم ، وإشراقًا فى نفوسهم ، على حين تقوم على المشركين والضالين من هذه الآيات حجةٌ أخرى ، إلى جانب ما قام عليهم من حجج ، بكفرهم وضلالهم .

وفى الآية الكريمة صورة من الصّور الحيّة التى يعيش فيها الناس ، ويمرّ بها كل فرد من أفرادهم ، على اختلاف أجناسهم ، وألوانهم ، وأوطانهم .

فبدء حياة الإنسان تكون صورة باهتة من صور الحياة ، لا يكاد يرى ظلّها إلا البصر النافذ ، حيث يبدأ خلق الإنسان من نطفة ، لا تبدو فى مرأى العين أكثر من سائل مختلط ، أشبه بالمخاط . . ثم يتدرج الإنسان من نطفة إلى علقة ، إلى مضغة ، إلى عظام ، إلى لحم يكسو هذا العظام . . ثم إلى وليد ينشقّ عنه رحم الأم ، وإذا هو إنسان يأخذ مكانه فى المجتمع البشرى ، ويتدرج فى مدارج الحياة ، من الطفولة إلى الصبا ، إلى الشباب والكهولة ، ثم ينحدر إلى الشيخوخة والهرم .

هذا هو بعض ما لله فى الإنسان . . فلينظر الإنسان ممّ خلق ؟ ثم لينظر كيف دار دورته فى الحياة ، كما يدور القمر فى دورته من الهلال إلى المحاق !

قوله تعالى :

* « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعةُ يقسم المجرمون ما لَبِثُوا غيرَ ساعةٍ كذلك كانوا يُؤْفَكُونَ »

وهذا الإنسان الذى خُلق من ضعف ، والذى تعهدته القدرة الإلٰهية ، فأخرجت من هذا الضعف ، قوةً وعقلًا ، وبصراً ، وسمعاً ـ هذا الإنسان قد كفر بخالقه ، وأبى أن يجعل ولاءه له وحده ، فاتخذ من دونه شركاء ، وإذا حشود كثيرة فى جميع الأزمان والأمكنة ، تجتمع على الكفر بالله ، وتعيش فى هذا الضلال ، لا تعمل ليوم الجزاء والحساب ، ولا تؤمن به ، حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة ، وراجعوا حسابهم مع دنياهم التى أفنوا حياتهم فيها ، وجدوا أنها لم تكن إلا لحظة عابرة ، بل لقد بلغ بهم الأمر أن أيقنوا هذا ، وتحققوا منه ، فأقسموا أنهم لم يلبثوا غير ساعةٍ . . ولا شك أن هذا غير الواقع ، وأن الوهم هو الذى يخيّل لهم قِصَرَ الزمن الذى مضى . . فقد عاش كل منهم سنين فى الدنيا ، لا ساعة ، ولا يوماً ، ولا شهراً . ولكن هكذا الدنيا ، التى اتخذها الضالون المشركون ، لهواً ولعباً ، فلم يعمروها بالتقوى والأعمال الصالحة . . ولهذا جاء قوله تعالى : « كذلك كانوا يؤفكون » مكذِّباً مقولتهم تلك ، وإنها إفك من إفكهم ، وضلال من ضلالهم ، الذى كانوا عليه فى الدنيا . . ذلك أنهم وهم فى الدنيا قد رأوا الحق باطلا ، والهدى ضلالًا ، والخير شرًّا . . ووقع فى وهمهم أنهم على الحق ، وأن ما يمسكون به من ضلال هو الهُدَى . . وقد صحبهم هذا الإفك فى حياتهم الآخرة ، فأقسموا هذا القسم الكاذب ، أنهم ما لبثوا فى دنياهم غير ساعة !

وقوله تعالى :

* « وقال الذين أُوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون » .

هو ردّ على هؤلاء المجرمين ، الذين أقسموا هذا القسم ، وأنهم ما لبثوا غير ساعة ، وفى هذا الرد تصحيح لما وَهِمُوه من لبثهم فى الدنيا . . وهذا التصحيح إنما يجيئهم من أهل العلم والإيمان الذين يقولون لهم : « لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث » . . وكتاب الله ، هو علمه الذى حدّد به آجال الناس ، وأزمانهم ، وأودع فيه أعمالهم ، وما هو كائن فى هذا الوجود . .

وقوله تعالى : « فهذا يوم البعث » ـ هو خبر يُراد به التقريع والتّخس لهؤلاء المجرمين ، فهم يعرفون أن هـذا اليوم الذى هم فيه هو يوم البعث ، وإخبارهم به هو تذكير لهم بما كان منهم من إنـكار له ، وسخرية واستهزاء بمن كانوا يحدّثونهم به ، والذين كانوا يغرسون فى الدنيا ليجدوا ثمار ما غرسوا فى الآخرة ، وفى ذلك ما يَزِيد فى آلام المـكذبين ويضاعف حسرتهم .

وفى قوله تعـالى : « ولـكنكم كنتم لا تعلمون » تقريع بعد تقريع ، ونخسة بعد نخسة !

وفى قَرْن العلم بالإيمان ، إشارة إلى أن العلم الذى لا يثمر عملًا لا قيمة له ، وكثير من الذين أُوتوا العلم لا يؤمنون بالله ، بل تغلب عليهم شِقوتهم ، ويصبح العلم الذى علموه حجّة عليهم ، يضاعَف لهم به العقاب ، وفى هذا يقول الله تعالى فى علماء بنى إسرائيل : « يٰأهل الـكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتـكتمون الحق وأنتم تعلمون » (٧١ : آل عمران) ويقول سبحانه « وإن الذين أوتوا الـكتاب ليعلمون أنه الحق من ربّهم » (١٤٤ : البقرة) ويقول جل شأنه : « أفتطمعون أن يؤمنوا لـكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » (٧٥ : البقرة) . . فالعلم الذى لا يعمل صاحبه بمقتضى ما علم ، هو شؤم على صاحبه ، لأنه لا يهتدى معه إلى

خير أبداً . على خلاف الذى لا علم عنده ، فإنه قد يطلب العلم ، وقد يجد الهدى مما علم .

قوله تعالى :

* « فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنفَعُ الذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُم وَلَا هُم يُسْتَعْتَبُونَ » .

أى أنه فى يوم القيامة ، لا يُقبل من مُعتذرين عُذْر ، ولا يطلب منهم أن يقيموا عذراً لما كان منهم من ضلالٍ وكفرٍ . . لقد جَلّ الأمر عن العتاب . . إذ أنه إنما يعاتَب مَنْ يُرجَى منه إصلاح ما أفسد . . وأمّا وأنه لا عَمَل بعد اليوم ، فإنه لا عتاب ، وإنما حساب وجزاء . .

قوله تعالى :

* « ولقد ضَرَبنا للناسِ فى هذا القرآن من كل مَثَلٍ ولئن جِئْتَهُم بِآية لَيقُولَنّ الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون » .

هو بيان لانقطاع عذر المعتذرين ، وعتاب المستعتِبين ، الذين يطلبون المعاتبة . . وذلك إمّا جاءهم فى دنياهم من آيات الله ، وما حمل إليهم القرآن الكريم من دلائل وبراهين بين يدى دعوتهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وقد ضُرِبت لهم الأمثال على وجوه مختلفة ، فما انتفعوا بها ، ولا أخذوا العبرة والعظة من مَهلِك القوم الظالمين فى الأمم الغابرة . .

وقوله تعالى : « ولَئِن جئتهم بآية لَيقولَن الذين كفروا إنْ أنتم إلا مبطلون » . إشارة إلى أن هؤلاء المكذبين المشركين ، ان تنفعهم الآيات المادية التى كانوا يطالبون النبىّ بها ، ويتحدونه بأن يأتى بمعجزة من تلك المعجزات المحسوسة التى كانت بين يدى الرسل من قبله . . ففى كل ما جاء به القرآن من آياتٍ ، وما ضرب من أمثال ، معجزاتٌ قاهرة بيّنة ، لمن يطلب

الهدى أو يقبله ، إذا عرض عليه . . وهؤلاء المشركون لا يطلبون الهدى ، ولا يستجيبون له إذا دُعُوا ، لما ركب فى طبيعتهم من فساد .

قوله تعالى :

* « كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون » .

الإشارة هنا إلى ما تضمنته الآية السابقة ، من استغلاق مدارك المشركين عن أن يدخل عليها هدى ، وذلك لأن الله قد طبع على قلوبهم . . وإنه مع ما ضرب الله سبحانه من أمثال ، وما حملت هذه الأمثال من شواهد واضحة وآيات بينة ، فإن أهل الضلالات والأهواء لم ينتفعوا بها ، ولم يروا إشارة مضيئة من إشاراتهـا ، تعدل بهم عن طريق الكفر الذى يركبونه ، إلى طريق الإيمان الذى يُدعَوْن إليه ، وهذا شأنهم أبداً مع كل آية من آيات الله . . وهذا لا يكون إلا عن فساد فطرة ، وعَمَى بصيرة ، وزيغ قلب ، وهذا ما عليه حال أولئك الذين شغلتهم دنياهم عن أن يقفوا على آيات الله ، وأن ينظروا فيها ، وأن يحصلوا علماً منها ، فخذلهم الله ، وخلّى بينهم وبين أنفسهم كما يقول سبحانه : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين » (٥ الصف)

قوله تعالى :

* « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون » .

بهذه الآية تختم السورة الكريمة ، وهى تحمل إلى النبى الكريم دعوة من الله سبحانه وتعالى إلى الصبر على ما يلقى من قومه من مكاره ، مستعيناً على الصبر ، واحتمال المكروه ، بما وعده ربه من نصرٍ لدين الله الذى يدعو إليه ، ومن تمكينٍ له وللمؤمنين معه فى هذه الدنيا ، ومغفرةٍ من الله ورضوان

فى الآخرة ، هذا ، إلى ما يلقى هؤلاء المشركون الضالون من خزى وخذلان فى الدنيا ، وعذاب شديد فى الآخرة .

وفى قوله تعالى : « ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » — إشارة لافتة إلى ما قد يرد على النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من تلك الخواطر التى تساور بعض النفوس ، من المؤمنين الذين اشتدت عليهم وطأة البلاء ، وطال بهم الانتظار لملاقاة ما وعدهم الله من نصر ، ففى ساعات الضيق والعسرة ، قد يتسرب إلى بعض المؤمنين شىء من القلق ، وربما شىء من الشك والريب ، ذلك أن للنفس البشرية حداً من الاحتمال والصبر على المكاره ، إذا بلغته زايلتها القدرة على الاحتمال ، وآذنها الصبر بالرحيل ، وعندئذ تنحلّ العزيمة ، ويضعف اليقين ، وتبرد حرارة الإيمان ، وفى هذا يقول الله تعالى :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خَلَوْا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزُلزلوا حتى يقول الرسولَ والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ » (٢١٤ : البقرة) .. فهذه حال تعرض للمؤمنين ، ولن يعصمهم منها إلا التحصن بالإيمان ، واللّياذ باليقين الذى يدفع كل شك فى قدرة الله ، وفى تحقيق ما وعد المؤمنين به ، من نصر ، وعافية مما هم فيه من بلاء ..

فقوله تعالى : « ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » دعوة للمؤمنين أن يوثقوا إيمانهم بالله ، وأن يمتحنوا هذا الإيمان على محك الشدائد والمحن ، فعلى هذا المحك يظهر معدن الإيمان ، وتعرف حقيقته ..

والاستخفاف : أصله من الخفة ، والمراد به التحول من حال إلى حال ، والانتقال من وضع إلى وضع ، عند كل خاطرة ، ولأية مسة .. فإن

الخفيف من الشيء ، هدف سهل لكل عارض يعرض له ، ويريد زحزحته عن موضعه الذى هو عليه ..

والآية ، إذ تدعو المؤمنين إلى أن يكونوا من الموقنين بالله ، والمستيقنين بنصره ، فإنها تدعو النبي إلى أن يثبت فى موقفه من الإيمان بربه ، والثقة فيما وعده به ، حتى ترتدّ عنه العوارض التى تعرض له داخل نفسه أو خارجها ، حين تجده جبلا راسخاً ، لا تصادف أية خفة فى أى جانب منه .. وقد كان صلوات الله وسلامه عليه على هـــذا اليقين الذى تزول الجبال ولا يزول .. حتى ليقول لعمه أبى طالب ، وقد جاء يدعوه إلى مهادنة قومه ، على أن يحتكم بما شاء فيهم ، من مال أو سلطان ، فيقول : « والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته ، أو أهلك دونه » ..

* * *

(٣١) سورة لقمان

نزولها : مكية . .

عدد آياتها : أربع وثلاثون آية . .

عدد كلماتها : خمسمائة وثمان وأربعون . .

عدد حروفها : ألفان ، ومائة ، وعشرة . .

مناسبتها لما قبلها

خُتمت سورة الروم ، بقوله تعالى : « فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » . . وفى هذا الختام — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — دعوة للنبىّ ، والمؤمنين معه إلى الصبر على المكاره ، واحتمال الشدائد ، على طريق الإيمان ، وذلك بما يمتلىء به القلب من إيمان بالله ، ومن يقين راسخ فى لقاء ما وعد الله النبىّ والمؤمنين من نصر وإعزاز وتمكين ، وأنهم إذا كانوا على يقين من الفوز والرضوان فى الآخرة ، فليكونوا على هذا اليقين من النصر والتمكين فى الدنيا ، وأنه إذا طال انتظارهم لما وعدوا به فى الدنيا ، فهو ـ على أى حال ـ أقرب مما وُعِدوا به فى الآخرة . . فليصبروا إذن ، حتى يلقَوْا ما وعدهم لله به فى الدنيا ، ليزداد يقينهم بما وعدهم الله به فى الآخرة .

هذا ، هو ما ختمت به سورة « الروم » ، وهو يلتقى لقاء تامًّا بما بدئت به سورة لقمان . . وهو قوله تعالى :

« الٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » . .

وذلك على ما نرى عند تفسير هذه الآيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١١)

« الٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ ٱلنَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٩) خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ ٱلظَّالِمُونَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١١) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « الم * تلك آياتُ الكتاب الحكيم »

قوله تعالى : « تلك آيات الكتاب الحكيم » جملة من مبتدأ وخبر ، والتقدير : تلك هى آيات الكتاب الحكيم . والمشار إليه ، يمكن أن يكون

« آلم » بمعنى أن آيات الكتاب الحكيم ، مؤلفة من هذه الحروف المقطعة ، التى لا مفهوم لها عندكم . . فمن هذه الحروف وأمثالها جاء نظم القرآن على هذا الأسلوب المحكم المعجز . . إن مادة القرآن هى تلك الحروف المقطعة ، وهى بين أيديكم أيها الناس عامة ، وأيها المشركون الضالون خاصّة ، فأقيموا منها آيات كآيات هذا القرآن ، إن استطعتم ، ولن تستطيعوا . . ويمكن أن يكون المشار إليه ما تقدّم من آيات القرآن فى سورة الروم ، وفى غيرها مما كان قد نزل من القرآن . . والإشارة إلى الآيات ، تنويه بها ، وإلفات إلى جلال قدرها ، وعلوّ سلطانها . .

— قوله تعالى :

* « هدًى ورحمة للمحسنين » — أى أن هذا الكتاب الحكيم الذى جاءت آياته على هذا النظم المعجز المحكم ، قد أنزله الله سبحانه لهداية الناس ورحمتهم . . فقوله تعالى : « هُدًى » مفعول لأجله ، وقوله تعالى : « وَرَحْمَةً » معطوف عليه .

وخُصّ المحسنون بالتزود بما فى الكتاب من هدًى ورحمة ، لأنهم هم الذين يَرِدون موارده ، وينتفعون بما يقدرون على تحصيله وحمله من هداه ورحمته . . أما غير المحسنين ، وهم الضالون والمكذبون ، فإنهم لن ينالوا شيئاً من هدى هذا الكتاب ورحمته . . شأنُ الكتاب فى هذا شأن كل خير بين أيدى الناس ، لا يناله إلا العاملون ، الذين يسعوْن إليه ، وينقّبون عنه ، ويأخذون الوسائل التى تمكنهم منه . . فما أكثر الخير المخبوء فى كيان الطبيعة ، وما أقلّ الذين طرقوا أبوابها ، وفتحوا مغالقها ، وعرفوا أسرارها .

والمحسنون ، هم أهل الإحسان فى القول والعمل . . وهو إحسان مطلق ، يتناول كل شىء . . فكل شىء مهيأ لأن يلبس ثوباً من القُبح أو الحسن ،

والإنسان هو الذى ينسج له الثوب الذى يُلبسه إياه . . وهكذا يتنازع الناس هذين الوجهين من كل شىء ، فيذهب بعضهم بالحسن الطيب من الأشياء ، على حين يذهب آخرون بالقبيح الرذل منها .

والحَسَنُ هو الحَسَن ، فى القول والعمل ، وفى أمور الدنيا والدين جميعاً . . ولهذا كانت دعوة الإسلام إلى الإحسان دعوةً مطلقةً ، غير محصورة فى أمرٍ ، أو جملةِ أمور ، بل إنها دعوة تتناول الأمور كلّها ، وتشمل ظاهر الإنسان وباطنه جميعاً ، وفى هـذا يقول الله تعالى : « وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » (١٩٥ البقرة)

ومن الإحسان ، التقوى ، وهى تجنّب الإساءة . . وذلك أن من تجنب السيء من الأمور ، فإنه يكون على إحدى منزلتين : إما أن يفعل الحَسَن المقابل لهذا السيء الذى تجنّبه ، وهذا هو الأحمد ، والأحسن . . وإما ألا يفعل شيئاً ، وإن كان بتجنّبه القبيح ، قد فعل شيئاً ، وهو تجنب هذا القبيح ، وقد كان من الممكن أن يفعله . . وهذا الفعل ـ وإن كان سلبياً ـ هو حسن فى ذاته وحسب الإنسان منه أن يكون قد احتفظ بفطرته على السلامة والبراءة . . ولا شك أن هذه منزلة دون المنزلة الأولى ، منزلة المحسنين العاملين ، حتى لقد أنكر بعض الحكماء على أهل زمانه أن يكون حظهم من الإحسان هو ترك القبيح ، فيقول :

إنّا لفى زمنٍ تركُ القبيح به من أكثر الناس ، إحسانٌ وإجمالُ

قوله تعالى :

* « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » .

هو بيان للإحسان فى منزلته العليا ، التى يتجاوز فيها المحسن تركَ القبيح ،

وتجنب السيء ، إلى مباشرة الإحسان ، والتلبس به ، فكان من أعمالهم إقامةُ الصلاة ، وإيتاء الزكاة . .

وفى قوله تعالى : « وبالآخرة هم يوقنون » — إشارة إلى أن إقامتهم الصلاة وإيتاءهم الزكاة، ليس عملا تلقائيا ، وإنما هو عمل مرتكز إلى عقيدة ، هى الإيمان باليوم الآخر ، بعد الإيمان بالله ، إيمانا محققا ، مستيقنا ، لا يتلبس به شك أو ارتياب . وبهذا الإيمان الوثيق الذى يقوم فى ظله العمل ، يجىء العمل على صفة كاملة ، حيث يعطيه المرء كل مشاعره ، فلا يلحقه ضعف أو فتور .

وقَصْر الإشارة هنا على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من بين جميع الأعمال الحسنة ، للدلالة على أنهما رأس الأعمال الحسنة كلها ، والقطب الذى يدور عليه كل حسن . .

فالصلاة رياضة للنفس ، وإعداد لها لتقبل الأعمال الصالحة ، والزكاة تطبيق عملى لكل عمل صالح .. إذ كان المال والتصرفات الدائرة حوله ، هو المحك الذى تظهر به أخلاق الناس ، لما للمال من سلطان على النفوس ، فى جمعه ، وفى إنفاقه .

قوله تعالى :

* « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

الإشارة هنا إلى هؤلاء المحسنين ، الذين ذكرتهم الآية السابقة ، ووصفتهم بأنهم هم الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويؤمنون باليوم الآخر ، إيمانا مستيقنا . .

وهؤلاء المحسنون ، إنما أحسنوا ، لأنهم على هدى من ربهم ، إذ أنهم أقبلوا على الله طالبين الهدى ، فأقبل الله سبحانه عليهم ، وأمدهم بما طلبوا ،

وأقامهم على طريق الهدى ، وبهذا كان حظهم الفـــلاح ، والفوز برضوان الله .

قوله تعالى :

* « ومن الناس من يشترى لهوَ الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين » .

« من » هنا للتبعيض ، والمراد من هذا ، بيانُ حال أولئك الذين لم يطلبوا الهدى ، ولم يلتمسوا الأسباب التى تفتح لهم الطريق إليه .. فالناس فريقان : فريق طلب الهدى ، فهداه الله ، وكان من الفائزين المفلحين ، وفريق لم يرفع إلى الهدى رأساً ، بل أقام وجهه على الضلال ، وسعى حثيثا إليه ، وأمسك بكل ما يحول بينه وبين الاتجاه نحوه .. وبدلا من أن يغشى مجلس الإيمان ، ويستمع إلى آيات الله ، ويتلقى منها النور الذى يضىء جوانب نفسه المظلمة ، ويجلّى عنها غواشى الضلال — بدلا من هذا ، شَغَل نفسه ، بتلك الأحاديث اللاهية التافهة ، يترضى بها أهواءه ، ويشبع بها جوع نزواته ، فضلّ بذلك عن سبيل الله ، واتخذ آيات الله التى يسمعها هزواً ، لأنها ترد على إنسان قد غرق فى اللهو ، وسكر بما يتعاطاه من كـئوس الضلال ، فلا يرى فيها إلا ما اعتاد أن يراه ، ويتعامل به من لهو وضلال . . فهذا الضال ومن على شاكلته ، لاجزاء لهم إلا النار .

والضمير فى قوله تعالى : « ويتخذها » يمكن أن يعود إلى آيات الـكتاب فى قوله تعالى : « تلك آيات الـكتاب الحـكيم » كما يمكن أن يعود إلى سبيل الله فى قوله تعالى : « ليضل عن سبيل الله » .. إذ كانت سبيل الله هى التى أقامتها آيات الله ، وكشفت للناس معالم الطريق إليها . .

وفى قوله تعالى : « بغير علم » — إشارة إلى أن ضلال هذا الضال لم

يكن عن نظر ، وتدبر ، وتقدير ، وإنما كان عن جهل ، وغباء ، وتسلط أهواء. فقد يطلب الإنسان الهدى ، ثم لا يهتدى إليه ، لسبب أولأ كثر ، ومثل هذا الإنسان لابد أن يجد الطريق إلى الهدى فى يوم من الأيام ، ما دام جادًّا فى الطلب والبحث .. أما من ترك لنفسه الحبل على الغارب ، وأخذ بكل ما يلقاه ، فإنه لن يجد إلا ما تميل إليه نفسه من أهواء وضلالات . .

وفى إفراد الضمير فى قوله تعالى : « يتخذ لهو الحديث » ثم جمعه فى قوله تعالى : « أولئك لهم عذاب مهين » ـ إشارة إلى أن تحصيل الهدى ، أو الضلال ، إنما هو أمر ذاتى ، يتعلق بذات الإنسان وحده ، ويحاسَب عليه وحده . . أما حين يقع الحساب ، فإنه يجتمع مع من هم على شاكلته . . فإن كان من أهل الإيمان ، والإحسان ، اجتمع إليهم ، وشاركهم النعيم الذى هم فيه ، وإن كان من أهل الهوى والضلال ، اجتمع مع أهل الهوى والضلال ، وشاركهم ما يلقون من نكال ، وعذاب .

قوله تعالى :

* « وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً . . فبشره بعذاب أليم » .

هو بيان كاشف لحال هذا الذى يتخذ لهو الحديث ، ليضل عن سبيل الله ، ويتخذ آيات الله وسبيل الله هزواً . فهذا الضال إذا تُليت عليه آيات الله ، أعرض عنها ، مستكبراً أن يتلقى ما يُلقى إليه من النبي ، ومستنكفاً أن يلقاه أحد بنصح أو إرشاد

وفى قوله تعالى : « كأن لم يسمعها » ـ إشارة إلى أنه يمضى فى طريقه ، حين تُتلى عليه آيات الله ، كأن شيئاً لم يطرق سمعه ، فلا يتلفت إلى مصدر هذا الذى

يلقى إليه ، ولا يتوقف ليسأل : ماذا هناك ؟ وماذا يراد منه ؟ . . هكذا شأن الذين استبدّ بهم الكبر ، وركبهم الغرور . .

وفى قوله تعالى : « كأن فى أذنيه وقراً » . . الوقر : الصمم . .

وفى هذا توكيد للصورة التى صُورت بها حال هذا الضال الذى أعرض عن آيات الله ، ولم يأبَهْ لما يسمع منها ، حتى لكأن فى أذنيه صمماً . . إذ هو والأصم على سواء ، فى هذا الموقف . .

وفى قوله تعالى : « فبشره بعذابٍ أليم » وعيد لهذا المتكبر ، العنيد ، الأثيم . إنه لا يلقى إلا العذاب الأليم ، ولا يسمع بعد هذا الإعراض ، إلا ما يخرق أذنيه من نذر العذاب والبلاء . . وأنه إذا كان قد أصم أذنيه عن سماع الهدى ، فإنه لن يستطيع أن يُصِمّهما عن هذه البشرى التى تُزف إليه . . فإن أحداً لا يُصمّ أذنيه عن حديث يحمل إليه بُشرى مسعدة . . ويالها من بشرى . . إنها العذاب الأليم !

وفى إقامة البشرى مقام النذير ، الذى يقتضيه المقام ، إعجاز من إعجاز القرآن . . حيث يُستدعى بهذه البشرى ، ذلك الذى أصم أذنيه عن سماع آيات الله ، ومضى إلى حيث يأخذ مكانه فى مجالس اللهو والضلال . . ثم ما إن يتوقف عند سماع كلمة البشرى ويفتح أذنيه لها ، حتى تحمل إليه معها مايسوؤه ، فيسمعه مُكرَهاً .

فقوله تعالى : « فبشره » هى اليد القوية التى أمسكت به ، وهى المعجزة القاهرة التى فتحت أذنيه ، وألقت فيها بهذا النذير : « بعذاب أليم » !

قوله تعالى :

* « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم * خالدين فيها وعدَ الله حقًّا وهو العزيز الحكيم » .

وعلى حين يسمع هذا الضال ما سمع .. مكرهاً — من هذا النذير الذى أمسك به، وفتح أذنيه ، فإنه يسمع - مكرها أيضاً ، وما زالت أذناه مفتوحتين - هذه البشرى المسعدة حقاً ، ولكنها ليست له ، وإنما هى لأعدائه ، الذين يسوءه أن ينالهم خير .. فهؤلاء الأعداء ، هم المؤمنون ، وقد أعدّ الله لهم جنات النعيم ، خالدين فيها .. وذلك ما وعدهم الله به ، وهو وعدٌ حق ، لا يتخلف أبداً ، لأنه من الله العزيز ، الذى يعنو لعزته كل شىء ، الحكيم الذى يقوم أمره على الحكمة ، فلا إفراط ، ولا تفريط ..

و« وعد » منصوب بفعل مقدر ، تقديره : وَعَدَ الله وعداً حقاً .. وقد جاء النظم القرآنى على تلك الصورة الموجزة المعجزة ، فحذف الفعل ، وأقيم المصدر مقامه ، وأضيف إلى فاعل الفعل .

قوله تعالى :

* « خَلَقَ السموات بغير عَمَدٍ ترونها وألقى فى الأرض رواسِىَ أن تميدَ بكم وبث فيها من كل دابةوأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » .

فالله العزيز الحكيم ، الذى وعد عباده المؤمنين جنات النعيم ، لن يخلف وعده ، لأنه ذو السلطان الذى يقوم على كل شىء ، وأنه لن يعجزه شىء حتى يخلف ما وعد به .. وإن من دلائل عزّته ، ونفوذ سلطانه ، أنه خَلَقَ السموات ، وأقامها بغير عمد ، وهذا أبلغ فى الدلالة على القوة والعزة ، والسلطان .

وقوله تعالى : « ترونها » يمكن أن يكون حالاً من السموات .. كما يمكن أن يكون فى محل جر صفة لعَمَدٍ ، أى بغير عمد مرئية لنا ، ويكون المراد بالعَمَد ، الأسباب التى أقام الله بها السماء ، والتى تقوم مقام العمد فى تقديرنا .

وقوله تعالى : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » .. الرواسى

الجبال ، وإلقاؤها : نزولها من أعلى ، وأخذها مكاناً بارزاً فوق الأرض ، كما يقول تعالى : « وجعل فيها رواسى من فوقها » (١٠ : فصلت) . . والمَيْدُ ، والمَيَدَانُ : الاضطراب . .

فكما أن السماء تقوم على عمد غير مرئية ، تقوم الأرض كذلك مرتكزة على عمد مرئية هى الجبال . . ولولا ذلك لاضطربت الأرض ، وزالت عن مكانها ، وضاعت معالمها . . وفى هذا إشارة إلى أن السموات محمولة على أعمدة من قدرة الله ، لاتراها الأبصار ، وإنما تعرفها البصائر . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « إن الله يمسك السموات والأرضَ أن تزولا » (٤١ : فاطر)

والمراد بالسموات ، هو العالم العلوىّ ، الذى يقوم فوق عالمنا الأرضى . . فحيث كان الإنسان من الأرض ، فهو واقع تحت العالم العلوىّ . . وفى هذا العالم كواكب ونجوم ، لو اقتربت من الأرض ، أو اقتربت منها الأرض ، لما كانت الأرض إلا نملة فى ظُلّةٍ من الجبال ، قائمة بلا عُمُد ! . . هذا ماتراه عين العلم الحديث فيما بين السماء والأرض . . فإذا حُجبت عن العيون هذه الرؤية الكاشفة ، فإنها ترى السماء قائمة على الأرض ، كأنها السقف المرفوع.

وقوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » .

فى العدول من الغيبة فى قوله تعالى « خلق السموات بغير عمد ترونها » إلى الخطاب فى قوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » . . فى هذا استدعاء للجاحدين الكافرين أن يشهدوا جلال الله ، وأن يروا آياته فى هذه الظاهرة التى تطلع عليهم فى كل حين ، وأنهم إذا كانوا يجدون وجهاً للمحاولة فى خلق السموات والأرض ، وأن يقولوا :هكذا قامت السموات والأرض من غير مقيم لها ، فإنهم لايجدون مايقولون فى إنزال الماء من السماء ، وفى إخراج النبات من الأرض . . إن ذلك خَلْق متجدد يحدث كل لحظة من لحظات الزمن . . فإذا سألوا من أنزل هذا الماء ؟ أو من أخرج

هذا النبات ؟ لم يكن ثَمَّةَ إلا جواب واحد ، هو الله ذو الحول والطول ، الذى خلق السموات والأرض .

فإنزال الماء من السماء ، وإنبات النبات من الأرض ، شاهد قريب حاضر ، على وجود الله وقدرته ، يُستدل به على شاهد بعيد أشبه بالغائب ، هو خلق السموات والأرض . فناسب ذلك أن يكون ضمير الغيبة مع خلق السموات والأرض ، وأن يكون ضمير الحضور مع إنزال الماء وإنبات النبات . .

وقوله تعالى : « فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » الضمير فى « فيها » يعود إلى الأرض ، وفى التعبير عما تخرج الأرض من ثمرات ، بالزوج الكريم ـ إشارة إلى أن كل مايجىء من ثمرات طيبة كريمة ، هو نتيجة لمزاوجة بين ذكور النبات وإناثه ، كما يتزاوج الناس ، والحيوان .. وإن أى ثمر لايتولد عن لقاح بين الذكر والأنثى ، هو ثمر خسيس ردىء ، كما تتوالد بعض الحيوانات الدنيا بانقسام الخلية .

قوله تعالى :

* « هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين » .

الإشارة هنا ، إلى ماعرضته الآية السابقة ، من آيات صنع الله ، وآثار رحمته . . والخطاب للمشركين ، الذين يعبدون غير الله . .

وفى هذا الخطاب ، استدعاء للمشركين ، أن ينظروا إلى هذا الوجود ، الذى قام بقدرة الله ، ثم لينظروا مالمعبوداتهم من خلق . . وهنا يسقط فى أيديهم حيث لايجدون لمعبوداتهم أثراً . . بل إنهم ليجدون معبوداتهم بعضاً من خلق الله .. ثم إنهم مع هذا لايزالون متعلقين بمعبوداتهم تلك ، مقيمين وجوههم إليها

وذلك هو الضلال المبين ، الذى لا يُرجى لصاحبه أن يجد الهدى أبداً .. وإن الذى يقف هذا الموقف ، ويركب هذا الطريق المهلك ، لهو ظالم لنفسه ، جائر على فطرته . .

الآيات : (١٢ — ١٩)

* « وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) »

التفسير

قوله تعالى :

* « ولقد آتينا لُقمانَ الحكمةَ أن اشكُرْ لله ومن يشكرْ فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد »

اختلف فى « لقمان » هذا، اختلافاً تناول الزمان والمكان اللذين عاش فيهما، كما تناول الصفة التى كان عليها، وهل كان نبياً، أم كان حكيما ؟ وهل هو من بنى إسرائيل، أم من غير بنى إسرائيل ؟.

والقرآن الكريم، لم يصرح بأنه كان رسولا، ولم يذكره فيما ذكر من أنبيــــاء ورسل، ولم يصله بنسبٍ إلى إبراهيم، كما وصل أنبياء بنى إسرائيل به..

ومع هذا، فإن ذلك لا يمنع من أن يكون لقمان نبياً، فقد آتاه الله الحكمة، وهى نعمة عظيمة حلّى الله تعالى بها أنبياءه، فقال تعالى فى داود عليه السلام: «وقَتَلَ داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة» (٢٥١ : البقرة) وقال تعالى فى شأن الحكمة، وجلال قدرها: «يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا» (٢٦٩ : البقرة).

ومما يرجّح الرأى عندنا بأن لقمان كان نبياً، أن القرآن الكريم سمى سورة باسمه، كما سمى سوراً باسم إبراهيم، ومحمد، ويونس، وهود، ويوسف، ومريم.. وهذه التسمية تشير إلى ما للمسمى من شأن وقدْر، سواء فى مقام الخير أو فى مجال الشر. كما سميت سورة باسم أبى لهب، إذ كان علماً بارزاً من أعلام الضلال والكفر.. فهو فى مجتمع الضلال إمامُ الضالين، كما أن النبى فى مجتمع المؤمنين، هو إمام المؤمنين..

ثم إن الحكمة التى أوتيها لقمان، حكمة ربانية، وليست من الحكم المكتسبة، التى يحصلها الحكماء والفلاسفة، بالبحث والنظر، وإنما هى فضل من فضل الله، كالرسالة، والنبوة. اللذين لا تكتسبان بتحصيل واجتهاد..

— وقوله تعالى : « ان أشكر لله » .. أن هنا تفسيرية ، والجملة بعدها مفسرة للحكمة التى آتاها الله لقمان ، وهى أن يكون عبداً شكوراً لله .. فشكر الله هو رأس الحكمة ، إذ لا يكون الشكر إلا عن إيمان وثيق بالله ، وعن رضًا مطلق بكل شىء يصيب الإنسان ، ولهذا كان شكر الله من أعظم الصفات التى يخلعها لله سبحانه وتعالى ، على المرضىّ عنهم من عباده ، كما يقول سبحانه فى إبراهيم : « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم » (١٢٠ ـ ١٢١ : النحل).

كما كان الشكر دعوة من دعوات الله إلى رسله وأنبيائه ، كما يقول سبحانه ، لداود : « اعملوا آل داود شكراً . . وقليل من عبادىَ الشكور » (١٣ : سبأ) .

فالشكر ، ثمرة الإيمان ، ومن حُرِم الشكر ، فقد خلا قلبه من الإيمان .. ولهذا قَرَن القرآن الكريم الشكر بالإيمان ، وجعلهما على كفتى ميزان ، سواء بسواء . . فقال تعالى : « واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون » (١٧٢ : البقرة) .

وقال سبحانه : « واشكروا لى ولا تكفرون » (١٥٢ : البقرة) .. وهذا ماجاء عليه قوله تعالى فى هذه الآية : « ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد » . . أى أن عائد الشكر ، إنما يعود إلى الشاكر نفسه ، ليس لله منه شىء ، فإن الله غنى عن العالمين ، لا ينفعه شكر من يشكر ، ولا يضره كفر من يكفر ، كما يقول سبحانه : « إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم » (٧ : الزمر) .

قوله تعالى :

* « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم »

هو معطوف على قوله تعالى : « أن اشكر لله » . . فإن قوله تعالى : « أن اشكر لله » يفُهم منه أنه شكر لله ، بما آتاه الله من حكمة ، فكان بهذه الحكمة من المؤمنين بالله، الشاكرين له ، وهو إذ كان حكيما إذ آمن بالله وشكر له ، فإنه كان حكيما كذلك إذ نفع بهذه الحكمة أقرب الناس إليه ، وآثرهم عنده ، وهو ابنه ، فدعا ابنه إلى الإيمان بالله ، وإلى إخلاء قلبه من الشرك ، حتى يلحق بأبيه ، ويكون من الشاكرين لله ، ثم حذّره مغبة الشرك ، وما يقع على الإنسان منه من ظلم عظيم ، إذ يصيبه فى مقاتله ، ويورده موارد الهالكين . .

قوله تعالى :

* « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير * وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

جاءت هاتان الآيتان معترضتين وصية لقمان لابنه ، وذلك لتكتمل بها الحكمة ، التى كان من أولى ثمراتها وأطيبها ، شكرُ الخالق المنعم ، ثم تكون الثمرة الثانية ، وهى شكر الوالدين ، وذلك ببرهما ، والإحسان إليهما إذ كان لهما على الولد فضل الولادة ، والتربية ، والرعاية ، ومن حق كل ذى فضل أن يشكر ويحمد ممن أحسن إليه . . وفى المأثور : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » . .

ووصاة الله للإنسان بوالديه ، هى أمر ، وعزيمة ، وتكليف ، إذ كثيراً ما ينكر الإنسان هذا الحق الذى لوالديه عليه ، كما أن كثيراً من الناس يكفر بالله ، ويجحد إحسان الله إليه ، وفضله عليه . .

— وفى قوله تعالى : « حملته أمه وهنًا على وهن وفصاله فى عامين » إشارة إلى أخفى لون فى الصورة التى نبت منها الولد ، ونشأ فى حجر والديه ، وإلفات للولد إلى هذا الخيط الواهى من الحياة التى كانت له ، والتى أمسكت به الأم ، نطفةً ثم علقة .. ثم مازالت تمسك بهذا الخيط فى حرص وحذر ، وتفرز له من عصارة حياتها ما يزيده على الأيام قوة ونماء ، حتى تفتق عنه رحمها وليداً ، طفلا ، ثم مازالت به تحمله بين يديها ، وتضمه إلى صدرها ، وترضعه من لبنها ، حتى يفطم ، ويرفع فمه عن هذا الينبوع الذى يمتص منه رحيق الحياة ، ليستقبل بعد هذا ما يمده به والداه من طعام ، حتى يشب ويكبر ، ويستطيع أن يسعى سعيه فى الحياة ! .

إنها رحلة استمرت نحو عامين ، قطعها هذا الإنسان دائراً فى فَلَك أمه ، بين حمل ورضاعة .

والوهن : الضعف .. ووهناً على وهن : أى ضعفاً على ضعف .. وهو حال من الفاعل والمفعول معاً فى قوله تعالى : « حملته أمه » . . فالضعف الذى تبدأ به حياة الجنين ، تتلقاه الأم ، فيصيبها منه ضعف ، هو ضعف معاناة الحمل . . فيجتمع ضعف الجنين ، مع ضعف الأم الوارد عليها منه ..

والفصال : الفطام ، حيث يفصل الطفل عن جسد أمه ، الذى يظل ملصقاً به نحو عامين ، فى بطنها ، وعلى صدرها ، وبين ذراعيها . .

— وفى قوله تعالى : « أن اشكر لى ولوالديك » تفسير للفعل « ووصينا » .. إذ الوصاة تحمل دعوة إلى هدى وخير ، ومضمون الوصاة هنا هو الشكر لله وللوالدين . . وقدم شكر الله على شكر الوالدين ، لأن الله سبحانه هو الخالق وحده ، وإذا كان للوالدين شىء هنا فهو لله أيضاً ، فما هما إلا من خلق الله ،

وما هما إلا أداة من الأدوات العاملة بقدرة الله وبأمره .. ومع هذا ، فإن ذلك عملٌ من عملهما ، يجزيهما الله عليه ، وهو حق لله جعله الله لهما على أبنائهما ، فضلا منه ـ سبحانه ـ وإحسانا .

وقوله تعالى : « إلىّ المصير » ـ إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى ، له كلّ شىء فى هذا الإنسان الذى وُلد لهذين الأبوين ، وأن هذه المشاركة التى تبدو للوالدين فى إيجاد الولد ، ليست إلا مشاركة ظاهرية ، إن أعطت الوالدَيْن حقّ الإحسان إليهما ، والبرِّ بهما ، فلن تعطيهما حقّ العبادة ، على نحو ما كان عليه معتقد أولئك الضالين ، الذين يعبدون أصولهم من آباء وأجداد !

ومن جهة أخرى ، فإن قوله تعالى : « إلىّ المصير » تنبيه إلى هذا الحق الذى للوالدين على الولد ، وأنه إذا قصّر فى أدائه لهما ، فإنه سيُحاسب عليه يومَ الحساب ، يومَ يقوم الناس لرب العالمين ، ويعرضون عليه .. لا تخفى منهم خافية .

— وفى قوله تعالى : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » — إشارة إلى موقف آخر ، مختلف عن الموقف الأول ، الذى يكون فيه الابن مؤديا حق والديه ، قائما ببرّهما والإحسان إليهما . . وفى هذا الموقف يكون الأبوان على غير الطريق المستقيم ، على حين يكون ابنهما على طريق الهدى والإيمان . . إنهما مشركان بالله ، وهو مؤمن . . وقد رأيا فى إيمان ابنهما بالله خروجا على طاعتهما ، واستخفافا بدينهما الذى يدينان به ، وخروجا على تقاليدهما الموروثة عن الآباء والأجداد .. وهنا يقع الصدام ، ويكثر الشد والجذب . . فالأبوان يؤرّقهما هذا الذى استحدثه ابنهما من دين ، والابن على يقينٍ من أمره ، وعلى بصيرة من دينه ، وأنه لا سبيل إلى أن يجمعه وإياهما طريق ، إلا أن يؤمنا بالله ، وهيهات . !

والابن المؤمن هنا ، بين حقين يتنازعانه .. حق الله ، وهو الإيمان به ، وحق

الوالدين ، وهو طاعتهما ، والامتثال لمـا يدعوانه إليه من شرك وضلال .

وإنه لا خيار . . فإن حق الله أولى وألزم . . إنه يَجُبّ كل حق ، ويعلو على كل واجب . . ولكن مع هذا ، فإنه يبقَى — مع الاحتفاظ بحق الله ، والوفاء به — اللطف ، والرفق ، والمحاسن . . فإن ذلك لا يجور على حق الله ولا يؤثر فى الإيمان الذى عَمَر به القلب : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما . . وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » . . فهذا هو أعدل موقف يأخذه الإنسان هنا ، فيحتفظ فيه بحق الله ، ولا يجحد بعضَ ما لأبويه من حقوق .

روى عن سعد بن أبي وقاص ـ رضى الله عنه ـ أنه كان يقول « كنت رجلا برًّا بأمى ، فلما أسلمتُ قالت يا سعد : وما هذا الذى أراك قد أحدثت ؟ لتَدَعَنَّ دينك هذا ، أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فتُعيَّر بى ، فيقال : يا قاتل أمه ! ! قلت لا تفعلى يا أمه ، فإنى لا أدع دينى هذا الشىء . . فمكثت يوماً وليلة لا تأكل ، فأصبحت قد جَهِدت ، فمكثت يوماً وليلة لا تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهدها . . فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه ، تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت دينى هذا الشىء . . فإن شئت فكلى ، وإن شئت لا تأكلى ، فلما رأت ذلك أكلت » !

— وقوله تعالى : « واتبع سبيل من أناب إلىّ » توكيد لما جاء فى قوله تعالى : « فلا تطعهما » ، ومعطوف عليه .

وسبيل من أناب إلى الله ، هو سبيل المؤمنين ، كما يقول سبحانه : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى ونصله جهنم وساءت مصيراً » (١١٥ : النساء)

وقوله تعالى : « ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » قطع لهذا الجدل ،

وذلك الخلاف حول الإيمان والشرك ، فيما يدور بين الابن وأبويه ، وإحالةٌ لهذا الخلاف إلى الله سبحانه وتعالى ، ليحكم فيه ، ويجزى كلاًّ بما عمل .

قوله تعالى :

* « يا بنىّ إنها إن تك مثقالَ حبة من خردل فتكن فى صخرة ، أو فى السمٰوَات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير » .

المثقال : ما يوزن به . . وحبة الخردل : بذرة نبات الخردل . .

عادت الآيات ، لتصل ما انقطع من عِظة لقمان لابنه . . وقد حذرته الآية السابقة من أعظم خطر يتهدد الإنسان ، ويقضى عليه ، وهو الشرك بالله .

وفى هذه الآية ، يكشف لقمان لابنه عن علم الله ، وبسطة سلطانه ، حتى يعبده عن علم به ، ومعرفة بما ينبغى له من كمال وجلال .

فالله سبحانه ، الذى يستحق أن يُعبد ، وأن يفرد بالعبادة ، هو المالك لهذا الوجود ، العالم بكل صغيرة وكبيرة فيه . حتى الحبة من الخردل ، وهى من الصغر بحيث لا تكاد تمسك بها الأصابع ..هذه الحبة ، إن تكن فى أى مكان فى هذا الوجود . . إن تكن فى صخرة ، أىّ صخرة من صخور الأرض ، أو تكن فى السموات التى لا حدود لها ، أو تكن فى الأرض ، على أى عمق منها ، وفى أى مكان فيها — هذه الحبة الضالة الغارقة فى بحر هذا الوجودُ ، يأتى بها الله ، ويخرجها من هذه الأعماق السحيقة فى أحشاء الكون . . « إن الله لطيف » ينفذ نور لطفه إلى كل شىء ، « خبير » متمكن من كل شىء ، ويعلم كل شىء علماً كاشفاً . .

قوله تعالى :

* « يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » .

وبعد أن كشف لقمان لابنه عن قدرة الله ، وعلمه ، وحكمته ، دعاه إلى عبادته ، حتى إذا عبده كانت عبادته عن علم ومعرفة بمن يعبد . . وذلك مما يعطى العبادة مفهوماً صحيحاً ، فيخشع لها القلب ، وتسكن بها الجوارح ، وتنتعش بها المشاعر . . أما العبادة التي لا تقوم على علم ، فهى كالزرع الذى لا يقوم على سُوق ، أو جذور .

والصلاة ، هى رأس العبادات فى كل شريعة ، وهى عمود الدين ، فى كل دين . . ولهذا كان مقامها هنا هو المقام الأول : « يابنى أقم الصلاة . . » . . ثم جاء بعد ذلك ، ما تعطيه الصلاة من ثمر ، وهو إصلاح كيان الإنسان ، وتنقيته من الشوائب والأدران ، فيصبح رسولا كريماً من رسل الهدى والخير فى الناس ، حيث ائتمر بالمعروف ، وانتهى عن المنكر ، وهذا ما يدعوه إلى أن يكون داعياً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، إن لم يكن بلسانه ، فبعمله ، وبما يجد الناس فيه ، من الأسوة الطيبة والقدوة الصالحة !! فمن ائتمر بالمعروف وانتهى عن المنكر ، كان أشبه بالمرآة الصقيلة يرى الناس عليها وجه الخير والإحسان ، فيتمثلونه ويتخذونه قدوة لهم .

وقوله تعالى : « واصبر على ما أصابك » . . إلفات إلى هذا الزاد الطيب الذى يتزود به الإنسان فى الحياة ، ويستعين به على الائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر ، وذلك الزاد ، هو الصبر . . فإنه إذا قل حظ الإنسان من الصبر ، فلن يجد العزم الذى يُمضى به التكاليف ويقضى به الحقوق .

ولهذا كانت دعوة الإسلام إلى الصبر دعوة مؤكدة ، حيث يستدعى الصبرَ عند كل عظيمة ، ويهتف به عند كل أمر ذى شأن . . ففى ميدان القتال . . لا عدّة المؤمن أعظم ولا أقوى من الصبر . . « واصبروا إن الله مع

الصابرين » . . (٤٦ : الأنفال) .. « بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » (١٢٥ : آل عمران) « والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . . إنه لا عاصم للإنسان من الخسران ، إلا أن يعتصم بالإيمان ، والصبر . .

والصبر ، مع أنه مطلوب فى كل حال ، فإن الحاجة إليه أشد ، والطلب له أقوى وألزم ، حين يواجه المرء ما يكره من عواقب الأمور . . فهنا يكون الإنسان أمام امتحان قاس لإيمانه بربه وتوكله عليه ، وتفويض أمره كله إليه . . فإن لم يجد من الصبر ما يمسك عليه إيمانه ، ويقيم وجهه على الرضا والتسليم لله ، استبدّ به الجزع ، وقتله الهمّ ، ووقعت بينه وبين ربه غيوم من التهم والظنون .. وهذه أول مزالق الشرك والكفر بالله . .

— وفى قوله : « إن ذلك من عزم الأمور » ـ الإشارة « ذلك » إلى الصبر .. أى إن ذلك الذى تُدعى إليه ، وهو الصبر ، هو من عزم الأمور ، أى من جِدّها ، وصميمها ، ولُبابها . . وأنه مما ينبغى أن يحصّله الإنسان ، ويربّى نفسه عليه ، ويَرُوضَها على احتمال أعبائه .. إنه لن يرتفع الإنسان عن مستوى هذا التراب ، إلا إذا حلّق بهذين الجناحين : الإيمان ، والصبر . .

قوله تعالى :

* « ولا تصعِّر خَدَّك للنَاسِ ولا تَمشِ فى الأرض مَرَحاً . . إن الله لا يحبّ كل مختالٍ فخور » .

الصَعَرُ : مَيْل الخدّ كِبْراً وتعالياً . .

والمَرَحُ : الخفّة عن تيه ، وعجب . .

وإنه من كمال الإنسان أن يجمّل ظاهره ، كما يجمل باطنه . . إذ كان الظاهر هو بعض ما يُفرزه الباطن ، وينضح به . .

وليس صَعَر الخد ، والتبختر فى المشى ، إلا من مشاعر التعالى ، والعجب ، وذلك مما يعزل الإنسان عن الناس ويعزل الناس عنه ، ولا يكون من هذا إلا الجفاء ، ثم العداوة والبغضاء . .

— وفى قوله تعالى : « إن الله لا يُحب كل مختال فخور » ـ إشارة إلى أن صاحب الكبر ، والتيه ، كما يلقى الكراهية ، والنفور من الناس ، فإنه يلقى البغض من الله ، والبعد عن مواقع رضاه . . لأن الكبر مفتاح كل رذيلة ، وباب كل شر وضلال . . وما أوتى المشركون الذين تحدّوا رسالة الإسلام ، وعَمُوا عن مواقع الهدى منها ـ إلا من كبرهم ، وعجبهم بأنفسهم ، وبما زينت لهم أهواؤهم . .

قوله تعالى :

* « واقصِدْ فى مَشْيِك واغْضُضْ من صَوْتك . . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » هو من بعض ما يجىء من التيه والكبر من شر . . حيث يخرج الإنسان فى مشيه عما اعتاد الناس فى مشيهم ، فيسرع أو يبطىء لغير داعية ، إلا أن يرى الناس أنه على غير شاكلتهم . . كذلك رفع الصوت ، وإطلاقه على مداه ، من غير سبب ، هو استخفاف بالجماعة ، وخروج على مألوفها ، وإلفات لهم بهذا الصوت المدوّى ، إلى مصدره !

والقصد فى المشى ، هو الأخذ بالوسط منه ، فلا إسراع ولا إبطاء ، ما دام الإنسان على حال لا تقتضى هذا أو ذاك ، ولا تستدعيه .

— وفى قوله تعالى : « واغضض من صوتك » إشارة إلى كسر حدة الصوت

حياء من الناس أن يأتى هذا المنكر ـ وهو رفع الصوت ـ أمامهم ، تماماً ، كما يغض الإنسان بصره عن الأمور المنكرة ، حياء من الله ، وحياء من الناس !

— وفى قوله تعالى : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » تنفير من رفع الصوت والخروج به على حدود الحديث المدار بين الجماعة ـ ولكأن هذا الذى يُطلق صوته على مداه فى مجلس من المجالس ، هو حمار ، أطلق صوته ، فقطع على الجماعة حديثها . . فليكن مثل هذا الحمار إن شاء ! .

الآيات : (٢٠ — ٢٨)

« أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٢١) * وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ (٢٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » .

كانت قصة لقمان ، وما آتاه الله من حكمة ، عَرَفَ بها ربه ، وأقام كيانه كله على حمده وشكره ، ثم ما كان من وصاته لابنه ، ورسم معالم الطريق إلى الخير ، والهدى ، له ـ كانت هذه القصة معرضاً للمشركين يرون فيه مواقع رحمة الله فى عباده ، وما يسوق إليهم من نعمة العلم الذى يعرفون به ربهم فيما جاءهم به رسول الله من آيات الله . . ، إن ذلك هو خير ما يصيب الإنسان فى حياته ، وما يحصّل من رزق فى دنياه . . وليس المال ، ولا الجاه ، بالذى يرفع منازل الرجال ، وينزلهم منازل الرضوان عند الله ، وإنما العلم ـ والعلم وحده ـ هو الذى يحقق إنسانية الإنسان ، ويُعلى مقامه فى الناس .

وها هو ذا رسول الله ، يحمل الحكمة إلى هؤلاء المشركين ، ويكشف لهم بها الطريق إلى الله ولكنهم مع هذا ، يأبون أن يقبلوا هذا الخير المساق إليهم ، وأن ينتفعوا به . .

والآيات هنا تعرض صوراً من مظاهر قدرة الله ، فيها الحكمة ، لمن يعنيه أن يكون من أهلها . .

فهؤلاء المشركون ، تظلّهم نعم الله ، بما سخر فى السماء من شمس ، وقمر ، ونجوم ، وتغمرهم آلاؤه بما سخر لهم فى الأرض من حيوان ، وما أجرى فيها من ماء ، وما أخرج منها من نبات ـ ومع هذا فإنهم لا يلتفتون إلى شىء

من تلك النعم ، وإن التفتوا إلى شىء منها لم يكن لهم منه عبرة وعظة .. بل هم على ما هم عليه من ضلال وعمى ، لا تزيدهم الآيات إلا كفراً وعناداً ، ولا يزيدهم النور إلا عمًى وضلالاً ..

— وقوله تعالى : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » . أ

الإسباغ : الإفاضة والشمول ، عن سعة وكثرة .. والنعم السابغة : الكثيرة المتعددة — ودرع سابغة : أى ضافية ، كاسية ، ومنه قوله تعالى : « أن اعمل سابغات » (١١ : سبأ) .

والنعم الظاهرة : مايعرفها الإنسان ، ويلمسها بحواسه ، أو يدركها بعقله .. والنعم الباطنة، هى ما لا يعلمه الإنسان من أسرار هذا الوجود الذى يعيش فيه .. والنعم الظاهرة قليلة لا تكاد تُذكر إلى جانب النعم الباطنة ، التى تغمر الإنسان ولا يشعر بها ، ولا يعلم من أمرها شيئاً .. وما كشفه العلم من أسرار الحياة، لا يعدو أن يكون سطوراً من مقدمة كتاب الوجود ، وما فيه من أبواب وفصول ..

— وفى قوله تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علمٍ ولا هُدًى ولا كتابٍ منير » إشارة إلى هؤلاء المشركين ، وما هم فيه من لجاج ، وعناد ، مع ما يُتلى عليهم من آيات الله .. إنهم يجادلون ويجادلون ، وكل ما معهم من أسلحة فى هذا الميدان هو الجهل والعناد..إذ ليس معهم «علم» حصّلوه بالنظر والتأمل ، ولا «هدًى» تلقوه من الرسول الذى جاءهم بالبينات من رب العالمين ولا « كتاب منير » تلقوه عن رسول من رسل الله ، وانتفعوا بما فيه من علم وهدى .. ومع هذا فهم يجادلون فى الله ، وفى تصورهم لذاته وصفاته ، على هذا النحو من التصور الفاسد ، الذى يجعل الله على مستوى بشرى ، كشيخ قبيلة ،

أو ملك من ملوك فارس أو الروم ، أو أمير من أمراء الأمصار على تخوم مملكتى فارس والروم ا .

— وفى قوله تعالى : « ولا كتاب منير » ـ إشارة إلى ما بين يدى أهل الكتاب من كتب سماوية ، كان من شأنها أن تكون كتباً منيرة لهم، تكشف ظلمات الجهل ، وتبدو غياهب الضلال ، ولكن أهلها غيّروا معالمها ، وأخفوْا الحق الذى فيها ، وأوقعوا الناس منها فى حيرة وعمى ا .

قوله تعالى :

* « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير » .

هذا موقف من مواقف الضالين فى مواجهة الحق ، وفى لقاء من يدعوهم إليه . . وهم فى هذا الموقف إنما يجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . . فإذا دُعوا إلى الله ، وإلى اتباع ما أنزل الله ، « قالوا بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا » . . تلك هى حجتهم ، وهذا هو مستندهم . . إنهم أوفياء لآبائهم ، حريصون على الاحتفاظ بتراثهم ، وليس شأنهم شأن من يتنكر لقومه ، ويخرج على تقاليد الآباء والأجداد ، فذلك فوق أنه عقوق : هو عدوان على تلك الجامعة العصبية التى تجمع أبناء القبيلة تحت راية واحدة ، سواء أكانت راية حق أو باطل . .

لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهاناً

إنه لا منطق ولا عقل ، ولا دليل ولا برهان . . وإنما هى عصبية عمياء ، كما يقول سبحانه وتعالى ، على لسانهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » (٢٣ : الزخرف) .

— وقوله تعالى : « أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير » — هو استفهام توبيخى لهؤلاء المشركين الذين يتلقون معتقدهم عن آبائهم ، دون أن يكون لهم نظر أو رأى فيما تلقوه ، ودون أن يتعرفوا إلى حقيقة هذا المعتقد ، وما فيه من حق أو باطل ، ومن خير أو شر ، وإنما يأخذونه كما هو ، عادةً من العادات ، وتقليداً من التقاليد ..

فلو أن آباءهم هؤلاء جاءوا إليهم على صورة شياطين يدعونهم إلى جهنم ويفتحون لهم أبوابها ، لاستجابوا لهم ، ولاقتفوا آثارهم ، دون وعى ، أو التفات إلى النار التى هم مدفوعون إليها ، إنه التقليد الأعمى ، والمتابعة الحمقاء ، التى يسلّم فيها المرء وجوده كله لغيره، دون أن يجعل لعقله حق النظر والاختيار .

وإنه لعدوان أثيم على الجانب الروحى فى الإنسان ، وذلك بحرمانه من أن يذوق بوسائله الإدراكية ، والشعورية ، والوجدانية ، ما يغذّى هذا الجانب ويرضيه تماما كما يفعل الإنسان فيما يتصل بغذائه الجسدى ، فهو الذى يتخير طعامه ، ويذوقه ، ويمضغه ، فإن استساغه تركه يأخذ سبيله إلى جوفه ، وإن مجّه ، أو استخبثه ، ألقى به مِنْ فِيه . وحمى جوفه من سوء ما يقتحم منه

وكيف يقبل الإنسان أن يدع لغيره اختيار ما يغذّى روحه ومشاعره ، ووجدانه ؟ إن ذلك أشبه بالتغذية الصناعية ، التى يعيش عليها الأطفال أو المرضى ، لا يفيد منها الجسم إلا بالقدر الذى يمسك عليه الحياة .. هذا إذا كان الغذاء الصناعى طيباً سليما .. فكيف به إذا كان خبيثا فاسدا ؟ .

قوله تعالى :

* « ومن يُسلم وجهه إلى الله ، وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور » .

وإذا كان هؤلاء المشركون قد أسلموا وجوههم للشيطان ، وأعطوه أيديهم ، فأخذوا طريقهم معه إلى جهنم ، فإن المؤمنين الذين أسلموا وجوههم إلى الله ، فآمنوا به ثم أتبعوا إيمانهم بالعمل الصالح ، الذى يقتضيه منهم إيمانهم — هؤلاء قد أمسكوا بحبل النجاة ، الذى يعصمهم من الغرق ، ويُسْلمهم إلى شاطىء السلامة والأمن ..

وفى تعدية الفعل « يُسْلِمْ » بحرف الجر « إلى » بدلا من اللام ، كما فى قوله تعالى « فقل أسلمت وجهى لله » — فى هذا إشارة إلى أن فى هذا الإسلام معاناة ، وصراعاً داخلياً فى كيان الإنسان ، حتى إن المرء ليقود نفسه ويدفعها دفعاً إلى الله ..وذلك ما كان فى أول الإسلام ، حيث كان المسلمون تحت ظروف قاسية قاهرة ..

والعروة : ما يناط به الشيء ، ويعلق به ، ومنه عروة القميص ، وهى ما يدخل فيه لزر . . وجمعها عُرًى ..

والوثقى : القوية ، المتينة . . مؤنث الأوثق .. ومنها الثقة : وهى الشعور بالاطمئنان للشيء الموثوق به .

وقوله تعالى : « ولله عاقبة الأمور » أى إلى الله سبحانه المرجع والمآل ، لكل أمر ، فما يعمله الناس ، وما يتلبسون به ، من إيمان أو شرك ، ومن خير أو شر ، فإن إلى الله مرجعه ، وعند الله الجزاء عليه ..

قوله تعالى :

* « ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور »

فى هذه الآية مواساة للنبى ، وعزاء له فى قومه ، الذين أبوا أن

يستجيبوا له ، وأن يمسكوا بحبل النجاة الممدود لهم . .

— وفى قوله تعالى : « ومن كفر » — إشارة إلى أن هؤلاء المشركين الذى ظلوا على شركهم ، بعد أن جاءتهم دعوة الحق ، قد كانوا أهل فترة قبل الدعوة ، أى غير واقعين تحت ديذونة الحساب والجزاء ، فلما بلغتهم الدعوة ولم يستجيبوا لها ، لزمهم هذا الوصف ، وهو الكفر ، ووقعوا تحت ديذونة الحساب والجزاء . . فكأنّ هذا الكفر الذى وُصفوا بهم طارىء عليهم ، مستحدث فيهم ! ولهذا جاء الخطاب على أسلوب الشرط ، الدال على الاستقبال والتجدد معاً ..

— وفى قوله تعالى: « إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا » تهديد لهؤلاء المشركين الكافرين ، ووعيد لهم بالعذاب الأليم ، الذى هو الجزاء لأهل الشرك والكفر ..

— وفى قوله تعالى : « إن الله عليم بذات الصدور » . . بالانتقال من الخطاب إلى الغيبة — إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى ، وإن كان عند المشركين والكافرين ، غائبا عنهم ، لا يشهدون جلاله ، ولا يستحضرون عظمته وقدرته ، فإنه عليم بما توسوس به النفوس ، وما تكنّه الصدور . .

قوله تعالى :

* « نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ » . .

هو وعيد بعد وعيد لهؤلاء المشركين ، وأنهم إذا تُركوا وما هم فيه من أمن وسلامة ، وعافية فى أموالهم وأنفسهم ، فذلك ظل زائل ، لا يلبث أن يزول ، . ثم إنهم بعد هذا ليساقون سوقاً ، ويؤخذون قهراً إلى المصير المشئوم الذى هم صائرون إليه ، وهو العذاب الغليظ يوم القيامة . .

ووصف العذاب بالغِلَظ، كناية عن شدته، وقسوته . .

قوله تعالى :

* « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُنّ الله .. قل الحمد لله .. بل أكثرهم لا يعلمون » .

أى أن هؤلاء المشركين ، لو سُئلوا عمن خلق السموات والأرض ، لما وجدوا جواباً إلا جواباً واحداً ، ولقالوا : ـ اضطرار أو اختياراً ـ خلقهن الله ! فإنهم لن يستطيعوا أن يضيفوا خلقَ السموات والأرض إلى غير الله . . فهذه حقيقة أكبر من أن يتسع لها مراء الممترين ، وافتراء المفترين . . إن المشركين ليعلمون أن لهذا الوجود خالقاً ، ولكن علمهم هذا قد تلبس بأوهام وظنون ، واختلط بجهالات وضلالات ، فلم يكشف لهم هذا العلم الطريق إلى الله ، ولم يطلعهم على بعض ما لله سبحانه من كمال وجلال . . ولهذا كان الطريق بينهم وبين الله ضيقاً ، مظلماً ، معوجاً ، تقوم عليه ، وعلى جانبيه المزالق والمعاثر .

— وقوله تعالى : « قل الحمد لله » — هو دعوة إلى النبى ، وإلى كل مؤمن ، بالتعقيب على هذا الجواب بحمد الله ، الذى خلق السموات والأرض ، فهذا الخلق — ومنه خلق الإنسان — نعمة تستوجب الحمد والشكر للخالق . كما يقول سبحانه : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » (١ : الأنعام) وكما يقول سبحانه : « الحمد لله فاطر السموات والأرض » (١ : فاطر) . . فبين يدى كل نعمة جليلة يجىء حمد الله ، منبهاً إلى قَدْر هذه النعمة ، ومذكراً بما ينبغى على العباد إزاءها من حمد وشكران . . « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً » (١ : الكهف) . . « الحمد لله رب العالمين » (٢ : الفاتحة) .

— وقوله تعالى : « بل أكثرهم لا يعلمون » — هو إضراب عن كلام سابق

محذوف ، دل عليه المقام ، وهو لِمَ لم يحمد المشركون الله مع إقرارهم بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض ، فكان الجواب : لأنهم مستكبرون ، ثم أضرب عن هذا الجواب بقوله : « بل أكثرهم لايعلمون » وذلك ليدل على أن استكبارهم هذا كان عن جهل مطبق .. ولو كان معهم شىء من العلم لأسلمهم هذا الاعتراف إلى الإيمان بالله ، والانخلاع عن عبادة غير الله ، ثم لحمدوا الله مع الحامدين ، وشكروا له مع الشاكرين ..

وفى إطلاق نفى العلم : « بل أكثرهم لايعلمون » إشارة إلى أنهم لايعلمون شيئاً ، أى شىء ، من أى شىء .. علماً نافعاً ، كاشفاً .

قوله تعالى :

* « لله ما فى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد »

هو إبعاد للمشركين عن الله ، وقطع للظنون التى تدور فى رءوسهم ، حين يُدعَون إلى الإيمان بالله ، وإلى إفراده ـ سبحانه ـ بالعبادة ، واختصاصه بالحمد ، فيخيل إليهم من ظنونهم الفاسدة تلك، أن ذلك الإلحاح عليهم بالدعوة إلى الله، هو لحاجة الله إليهم ، وافتقاره إلى عبادتهم .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.. فالله « سبحانه » له ما فى السموات والأرض .. وإنه ليملك من هؤلاء المشركين ما لا يملكون هم من أنفسهم .. إن كل شىء فيهم ، ولهم ، ومعهم ، هو من عند الله ، وإلى الله مصيره .. فكيف يكون الخالق فى حاجة إلى المخلوق ؟ وكيف يكون المعطِى فى حاجة إلى من أعطاه ؟ « ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » (٢٧ : ص) .

ـ وفى قوله تعالى : « إن الله هو الغنى الحميد » توكيد لاستغناء الله عن خلقه ، وأن إيمانهم أو شركهم، وحمدهم أو كفرهم ، لا ينفعه ولا يضره ..فهو « الغنى »

غنى مطلقاً ، وهو « الحميد » المستحق للحمد ، حمداً مطلقاً ، لكل ما كان منه فى خلقه ، من تقدير وتدبير . .

وقوله تعالى :

* « ولو أن ما فى الأرض من شجرةٍ أقلام والبحر يَمُدّه من بعده سبعة أبحر ما نَفِدت كلمات الله . . إن الله عزيز حكيم » .

ومما يكشف عن غنى الله الغنى المطلق ، واستحقاقه الحمد ، حمداً مطلقاً ، هو سعة ملكه الذى لا حدود له ، وما لله من تصريف فى هذا الملك ، كيف شاءت إرادته . . لامعقب لحكمه .

فلو تصور متصور أن كل ما فى الأرض من شجر كان أقلاماً ، وأن كل مياه البحار قد أصبحت مداداً . . ثم أخذت هذه الأقلام تستملى من هذا المداد ، وتكتب ـ من غير توقف ـ ما تتلقّى من كلمات الله — لما نفدت كلمات الله !

وكلمات الله ، هى مقدراته التى يقوم بها الوجود ، وينشأ عنها كل موجود . . فبالكلمة ، خلق الله كل شىء . . « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » (٨٢ : يس) .

— وفى قوله تعالى : « من شجرة » — إشارة إلى استغراق كل ما فى الأرض ، شجرة شجرة ، من كل جنس ، وكل صنف من أصناف الشجر . . ولو جاء النظم القرآنى « من شجر » بالجمع بدلا « من شجرة » بالإفراد ، لما دلّ على هذا الاستغراق ، الذى يشمل كل شجرة فى الأرض ولكان فيه متأول يتناول بعض الشجر دون بعض ، أو الشجر الذى تستعمل منه الأقلام دون غيره مثلاً . .

وفى التعبير بكلمات الله ـ وهو جمعُ قِلّة ـ بدلا من « كلام» الذى هو جمع

كثرة ، إشارة إلى أن القليل من كلام الله ، وهو الكلمات ، لا ينفد ، ولو فنيت فى كتابتها الأقلام من كل شجر الأرض ، وجفّت فى مدّ هذه الأقلام بالمداد كلّ بحار العالم . . ! فكيف بالكثير من كلام الله .

هذا ، وقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفِد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً » (١٠٩: الكهف) .

وفى هذه الصورة ، لم تُذكر الأقلام التى تستملى من هذا البحر ، اكتفاء بما جاء هنا من ذكر الأقلام . . فالصورتان تكمل إحداهما الأخرى ، وليست إحداهما تكراراً للأخرى ، كما يبدو ذلك فى ظاهر الأمر

ويلاحظ أن البحر هنا يَمدّه من بعده سبعة أبحر ، على حين أنه فى سورة الكهف يَمدّه بحر مثله . . وقد يبدو أن فى هذا تناقضاً عند من يأخذ بظاهر الأمور ، ولا يتعمق النظر فيها . .

إن الأمر قائم على الفرض ، وكثير من مادة الفرض وقليلها سواء فى تحقيق المطلوب منه ، وهو الدلالة على سعة علم الله ، وبسطة سلطانه ، وامتداد ملكه ، الذى لا ينفد ، وأن بحراً واحداً ، أو جزءاً من هذا البحر ليكفى عند التجربة فى الكشف عن سعة هذا العلم ، وبسطة ذلك السلطان ، وامتداد هذا الملك . .

فالبحر الذى يمده من بعده سبعة أبحر ، يواجهه الحكم بقوله تعالى : « ما نفِدت كلمات الله » مع السكوت عن نفاد ماء البحر .

والبحر الذى يمده بحر مثله ، يواجهه الحكم بقوله سبحانه : « لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً » .

فى كل صورة من الصورتين احتمال ترفعه الصورة الأخرى .

والاحتمال فى قوله تعالى فى سورة الكهف: « لنفِد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً » هو أنه يمكن أن تنفد كلمات الله ، لو جىء بمثلى هذا البحر ، مدداً ، أو بثلاثة أمثاله . . وقد رَفع هذا الاحتمالَ قوله تعالى فى سورة لقمان : « والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » .

والاحتمال فى قوله تعالى فى سورة لقمان : « والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » — هو أن الأبحر لم تنفد ، وأن كلمات الله لم تنفد ، وأنه لو نفدت الأبحر انفدت كلمات الله ، وقد رفع هذا الاحتمال قوله تعالى فى سورة الكهف : « لنفد البحر » ..

وعُدْ إلى الآيتين مرة أخرى :

* « ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر .. ما نفدت كلمات الله » . . (لقمان)

* « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً » . (الكهف)

واجعل من الآيتين آية واحدة ، تجد الأبحر قد نفدت ، وما نفدت كلمات الله ، وتجد كلمات الله لا نفاد لها ، ولو مُدّ البحر ، لا ببحر واحد مثله ، بل بسبعة أبحر ! .

هذا كلام الله ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه . . « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

— وقوله تعالى : « إن الله عزيز حكيم » توكيد لسلطان الله ، وتمكنه تمكن العزيز الذى لا يُغلب ، الحكيم الذى تجرى أحكام عزّته على العدل

والإحسان ، لا العسف والجبروت ، شأن كل عزّة لاتحكمها الحكمة .

قوله تعالى :

* « ما خَلْقُكم ولا بَعْثُكم إلا كَنَفْسٍ واحدةٍ إنّ الله سميع بصير » .

كانت الآية السابقة معرضاً فسيحاً لقدرة الله ، وإنه لا يحسن النظر فيه ، والإفادة منه ، إلا من أوتى بصراً نافذاً ، وبصيرة مشرقة ، ثم كان معه — مع هذا — قلب مؤمن . .

وفى هذه الآية ، معرض محدود من معارض هذا الوجود ، وهو معرض الخلق والبعث . . ثم أجمل هذا العرض فى وَحدة من وَحدات الخلق ، وهى الإنسان ، فى ذات واحدة ، ونفس واحدة . .

فهذا الإنسان ، فى خلقه ، وبعثه ، يكفى النظر إليه وحده ، فى الاستدلال على قدرة الله ، وعلى أنه هو الخالق لهذا الوجود الذى لا حدود له . .

فمن نظر إلى الإنسان ، وإلى أصل نشأته ، وكيف تنقل فى الخلق ، من حال إلى حال ، حتى صار هذا الكائنَ القوىّ ، العاقل ، الذى يمخر عباب البحر ، ويغوص فى أعماق المحيط ، ويحلق فى أجواء السماء ، بل ويطأ القمر بقدميه — من نظر إلى هذا الإنسان الذى تخلق من نطفة ، تخلقت من من أخلاط مختلفة ، ثم نظر إليه فى قوته وجبروته ، ثم أعاد النظر إليه وقد رُدّ إلى الشيخوخة والهَرَم ـ رأى كمال قدرة الله ، وعلمه ، وحكمته ، وأنه وحده سبحانه ، القادر على كل شىء ، قدرةً مطلقة لايعجزها شىء .. وأن الذى خلق الإنسان ، قادر على أن يخلق الناس جميعاً ، وأن الذى خلق الناس ، قادر على أن يخلق السموات والأرض .. ففى القليل مايدل على الكثير ، وإن قطرة الماء لتحمل فى كيانها خصائص مافى البحار كلها من مياه .. !

— وفى قوله تعالى : « إن الله سميع بصير » . إشارة إلى شمول سمع الله لكل شىء ، وإحاطة بصره بكل شىء ، يستوى فى هذا خفيض الأصوات وجَهيرها ، وقريب الأشياء وبعيدها . . وأقربُ مثلٍ لهذا — ولله المثل الأعلى — السمع والبصر ، فى كيان الإنسان . . فالسمع السليم ، يستقبل ويسمع جميع الأصوات الواقعة تحت دائرة حسه ، لا فرق فى ذلك بين كلام الإنسان ، وأصوات الحيوان ، وحفيف الأشجار ، وهدير الرعد ، وخرير الماء . . وكذلك البصر السليم ، يرى كل المرئيات التى تقع فى دائرته ، سواء فى ذلك الجميل والقبيح ، والأبيض والأسود ، والمتحرك والثابت .

فإذا كان سمع الإنسان وبصره ، يتّسعان لأكثر من شىء فى وقت واحد ، أفلا يكون فى قدرة الله أن يسمع كل شىء ، ويبصر كل شىء ؟ وإذا كان الإنسان قد استطاع أن يتخذ من الوسائل ما يرى بوساطتها الأشياء البعيدة التى لم تكن تراها عينه ، ويسمع الأصوات الخفية التى لم تكن تسمعها أذنه ـ أفلا يكون ذلك مما تطوله القدرة الإلهية وتعمل به ؟ وإذا كان الإنسان قد استطاع أن ينقل الأصوات والمرئيات ، لسمعه وبصره ، من أطراف الأرض كلها فى لحظة ، أفلا تستطيع القدرة القادرة أن تفعل الكثير الذى لا حدود له فى هذا المقام ؟ وإذا كان بين العلماء الذين يملكون هذه الوسائل ، وبين من يعيشون فى حدود حواسهم الطبيعية — هذا المدى البعيد فى مدركات السمع والبصر — أفلا يكون بين الله سبحانه وتعالى وبين خلقه ، ما لا نهاية له من فروق ؟ وإذن فما الفرق بين الخالق وما خلق ؟ « أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون؟ » (١٧ : النحل) .

الآيات : (٢٩ — ٣٤)

* « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كلٌّ يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير » .

وهذا معرض آخر من المعارض الدالة على قدرة الله ، وسعة علمه ، ونفوذ سلطانه ، إلى جانب تلك المعارض التى عرضتها الآيات السابقة .

فهنا — فى هذا المعرض — نشهد تلك الحركة الدائبة التى يدور فى فَلَكها الليلُ والنهار ، على هذا النظام الدقيق البديع ، الذى لا يتوقف لحظة ، ولا ينحرف قِيدَ أُنملة .

وولوج الليل فى النهار ، مغيبه فيه ، ودخوله فى كيانه ، وكذلك ولوج النهار فى الليل ، هو مغيبه فى الليل ، وتواريه فى داخله . .

ومن هذه الصورة نرى الظلام مستكنًّا فى أحشاء النور : « يولج الليل فى النهار » ثم نرى النور مطويًّا فى كيان الظلام : « ويولج النهار فى الليل » . . فمن أحشاء النور يخرج الظلام ، ومن أحشاء الظلام يولد النور . . وهذا من دلائل القدرة القادرة ، التى تؤلّف بين الأضداد . . « يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى . . ذلكم الله فأنى تؤفكون ؟ » (٩٥ : الأنعام)

ومن آياته سبحانه ، أنه سخر الشمس والقمر ، وأجراهما على هذا النظام المحكَم ، فجعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، فتتجلّى آية الشمس فى النهار ، وتتجلى آية القمر فى الليل : « تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً » (٦١ : الفرقان) . . ولكلٍّ من الشمس والقمر فلكها الذى تدور فيه ، من غير أن ينحرف أيٌّ منها عن مداره : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » (٤٠ : يس) .

وقوله تعالى : « إلى أجل مسمى » . . الأجل المسمى ، هو الزمن المحدد لدورة كلٍّ من الشمس والقمر ، أو هو الأمد المحدد لهما الجريان فيه ، ثم إذا انتهى هذا الأمد توقفا ، أو أخذا اتجاهاً آخر . . شأنهما فى هذا شأن كل مخلوق . . فلا دوام لحالٍ أبداً . .

— وقوله تعالى : « وأن الله بما تعملون خبير » معطوف على قوله تعالى :

« أن الله يولج الليل فى النهار . . » وكأنه تعقيب عليه . . وذلك أن الذى ينظر متأملا فى نظام الوجود ، وفى قدرة الله الممسكة به ، لا بد أن يؤدّيه هذا النظر المتأمل، إلى إدراك هذه الحقيقة ، وهو أن الله عليم بكل ما نعمل ، فلا تخفى عليه خافية من أعمالنا ، دقيقِها وعظيمها ، خيرِها وشرّها . إنه علم العليم الخبير ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . .

قوله تعالى :

* « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطلُ وأن الله هو العلىّ الكبير » .

الإشارة هنا ، إلى ما عرضته الآيات من مظاهر قدرة الله ، وسَعة علمه . . والجار والمجرور فى قوله تعالى : « بأن الله هو الحق » متعلق بمحذوف ، يدل عليه السياق وتقديره : يقضى ، أو يقطع . ونحو هذا أى أن ذلك الذى يراه الراءون فى هذا الوجود من آيات القدرة ، ومظاهر العلم ــ يقضى ، ويقطع بأن الله هو الحق ، أى الإله الحق ، الذى ينفرد بالألوهة ، من غير شريك ، كما يقضى بأن تلك الآلهة التى يعبدها المشركون من دون الله ، هى الباطل كله ، لا شىء من حق فيه أبداً . . وذلك من شأنه أن يقضى ويقطع بأن الله هو « العلىّ » ، المنفرد بالعلوّ والسلطان ، « الكبير » الذى له الكبرياء وحده ، وأن مادونه دونٌ ضئيل ، لا وزن له ، ولا قَدْر !

قوله تعالى :

* « ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبّار شكور » .

وهذه نظرة أخرى ، بعد هذه النظرات التى دارت فى هذا الوجود ، ورأت مارأت من آيات الله ، وكشفت ما كشفت من جلاله ، وعظمته ، وقدرته . وهذه النظرة تتجه إلى تلك الفلك التى تجرى فى البحر .. إن جريانها آيةٌ من آيات الله ، لايراها إلا كل « صبار » على ما يلقى من شدائد ، فلا ييأس من روح الله ، ولا يجحد حكمته فيه ، وإحسانَه إليه ، وابتلاءه بالخير والشر .. فيصبر على البلاء ، ويشكر على العافية ..

— وفى قوله تعالى : « بنعمة الله » — إشارة إلى أن الفلك تجرى مدفوعة بنعمة الله ، ومسيّرةً بقدرته . . فالباء هنا للاستعانة ، كما تقول : استدفأت بالنار ، وتطهرت بالماء ..

وعلى هذا يكون الجار والمجرور متعلقاً بقوله تعالى : « تجرى » وتكون نعمة الله ، هى الريح ، التى تدفع الفلك .. ويجوز أن يكون الجار والمجرور حالا متعلقاً بمحذوف ، وتقديره ، تجرى محملة بنعمة الله ، أى بما تحمل من تجارات ، تنقلها من مكان إلى مكان ..

— وفى قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » — إشارة إلى أن آيات الله ، لا يراها ، ولا ينتفع بها إلا أهلُ الإيمان الوثيق بالله ، الذين إذا أصابهم الضرّ صبروا ، وإن أصابهم الخير شكروا . .

وصبار : صيغة مبالغة : أى كثير الصبر ، وذلك فى جميع الأحوال ، التى يُبتلى فيها الإنسان بما يكره ..

والشكور : للمبالغة أيضاً .. أى كثير الشكر ، الذى يستقبل كل نعمة من نعم الله بما تستأهل من حمد وشكران ..

قوله تعالى :

* « وإذا غَشِيَهم موجٌ كالظلل دَعَوُا الله مخلصين له الدِّين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » .

هو تعقيب على قوله تعالى فى الآية السابقة : « إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . .

والآية هنا تعرض حالا من أحوال الناس ، وخاصة أولئك الذين لم يتصفوا بهذا الوصف الذى أشار إليه قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . . أى إذا مسهم الضر دَعَوُا الله مخلصين له الدين ، يوجّهون وجوههم إليه وحده ، يطلبون الخلاص والسلامة ، فإذا استجاب الله لهم ، ونجاهم مما هم فيه ، لم يكونوا على حال واحدة ، بل كانوا فريقين ، فريق منهم « مقتصد » أى غير مسرف على نفسه فى الكفر بنعمة الله ، والجحود لفضله ، وفريق آخر ، كافر ، جاحد ، مسرف فى كفره ، وجحوده . .

— وفى قوله تعالى : « وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » مقابلة لقوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . . فالصبار الشكور ، هو المؤمن الذى يصبر على البلاء ، ويشكر على العافية ، و « الختار الكفور » هو الكافر ، الذى يلجأ إلى الله فى ساعة الشدة ، وينكره ويكفر به فى أوقات العافية . .

والختّار : المخادع ، الذى يمكر بآيات الله ، فلا يعرف الله إلا وقت المحنة والضيق . .

قوله تعالى :

* « يـٰأيها الناس اتقوا ربكم واخشوْا يوماً لا يجزى والد عن ولده

ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً . . إن وعد الله حق فلا تغرنّكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » .

يجزى : أى يتحمل الجزاء عن غيره ، ويستقلّ به دونه ..

الغرور : ما يغرّر الإنسان ، ويدفع به إلى مواطن البلاء ، والشر .. من شيطان ، أو مال ، أو سلطان . .

وبهذه الآية ، والآية التى بعدها تُختم السورة . . وفى هذا الختام دعوة عامة للناس جميعاً إلى الله ، وإلى الإيمان به ، والخشية له ، واتقاء عذابه يوم القيامة ، حيث تُجزى كل نفس بما كسبت ، ولا يغنى أحد عن أحد شيئا .. فهنالك تتقطع الأنساب ، ويُشغل كل امرىء بنفسه ، « يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . » (٣٤ ـ ٣٧ : عبس) . . « يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم » (٨٨ ـ ٨٩ : الشعراء) .

— وقوله تعالى : « إن وعد الله حق » وعد الله هنا هو يوم القيامة ، حيث وُعِدَ الناس بالبعث من بعد موتهم ، ليلقوْا جزاء ماعملوا . . وهذا وعد حق .. « وعدَ اللهِ لا يخلف الله وعده » (٦ : الروم) .

— وقوله تعالى : «فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور» تحذير من الغفلة عن هذا اليوم ، ومن عدم العمل له ، والحذر مما يشغل الإنسان عنه ، من متاع الحياة الدنيا وزخارفها ، ومن المغريات التى تزين للإنسان الشر ، وتدفعه عن مواقع الإحسان ، بما يوسوس له به الشيطان ، وما تزين له به النفس .

قوله تعالى :

* « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وما تدرى

نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأىّ أرض تموت . . إن الله عليمٌ خبيرٌ » . .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة قد جاءت داعية إلى الإيمان بالله ، وإلى خشيةِ عقابه يوم القيامة . . وقد جاء فيها قوله تعالى : « إن وعد الله حق » ليؤكد وقوع هذا اليوم ، وأنه آت لاريب فيه ، إذ كان وعداً من الله . . والله لا يخلف وعده . .

وهنا فى هذه الآية ، تقرير لهذه الحقيقة ، وتأكيد لوقوعها كما وعد الله . . وذلك أن أكثر ما أضل الضالين ، هو إنكارهم ليوم القيامة ، أو تشككهم فى وقوعه ، إذ كان أمراً بعيداً عن متناول الحس ، والإدراك ، بعيداً عن التصور ، إذا قيس بمقاييس المادة . .

فجاءت هذه الآية لتؤكد هذه الحقيقة ، ولترِىَ أن هناك أموراً حاضرة يعمل فيها الإنسان ، ثم هى مع هذا محجوبة عنه ، إن عرف مبتداها ، لم يعرف منتهاها ، وإن أمسك بأولها ، أفلت منه آخرها ، ومن ذلك اتجاه مسيرة الإنسان فى الحياة ، وما يقرر له من رزق فيها . . إن أحداً لا يستطيع أن يخطّ المصير الذى هو صائر إليه ، ولا يدرى ماذا ستطلع به الأيام عليه من خير أو شر . . فإذا كان ذلك كذلك ، فلِمَ يجادل الإنسان فى أمر الآخرة ؟ ولِمَ يشكّ فى وقوعها إذا كان علمه قاصراً محدوداً ، لا يستطيع أن يكشف به ما يلقاه فى غده ؟

— وفى قوله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة » أسلوب قَصْر ، مؤكد ، ويراد به قَصْر علم الساعة على الله وحده . وعلم الساعة هو كل ما يتصل بها ، من اليوم الذى تجىء فيه ، وما يقع فيها من أحداث ، وما يلقى كل إنسان من جزاء . .

— وقوله تعالى : « وينزّل الغيث » معطوف على خبر إنّ ، وهو قوله تعالى : « عنده علم الساعة » فهو جملة بمعنى يعلم .. أى إن الله يعلم الساعة ، وينزل الغيث . أى أنه سبحانه هو الذى ينزل الغيث بأمره وقدرته .. يسوقه إلى حيث يشاء ، وينزله حيث يشاء ، ومتى يشاء .. وليس يُعترض على هذا بما يصطنعه العلم اليوم من مطر صناعى ، فإن هذا المطر إنما يصطاده العلم اصطياداً ، من بخار الماء الذى أنزله الله . وإنه لا يعدو أن يكون أشبه بقطرات الماء التى تتكاثف على سطح إناء مملوء بماء مثلوج ، أو قطرات الندى التى تتساقط من الهواء على النبات فى الليل !.

وإذا كان للعلم أن يقف لهذه الحقيقة ، فليصطنع الهواء أولاً ، ثم ليصطنع الماء ثانياً ، ثم ليجمع بين الماء والهواء ثالثاً .. وعندئذ يقال إن العلم إنما يعمل فيما هو له . أما أن يعمل العلم فيما هو لله ، فهو لا يعدو أن يكون نفسُه مادةً من تلك المواد التى يعمل فيها .

— وقوله تعالى : « ويعلم ما فى الارحام » معطوف على قوله تعالى : « وينزل الغيث » .. وقد عرضنا لتفسير هذه الآية عند تفسير قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد » (٨ : الرعد) .

وعلم الله تعالى لما فى الأرحام ، هو علم شامل يكشف عما فى الأرحام كلها ، فى الإنسان والحيوان ، وما فى كل رحم من ذكر أو أنثى ، وما يكون لهذا المخلوق من حياة ، وما يُقدّر له من رزق !

وقد وقف أكثر المفسرين بمفهوم هذا العلم على نوعيّة الكائن فى الرحم ، أهو ذكر أم أنثى ؟ . وهذا مفهوم قاصر لا يناسب علم الله الواقع على ما فى الأرحام .. إن علم الله علم كاشف لكل ما فى الأرحام ، ما كان منها ، وما سيكون ، ثم هو علم كاشف لكل مولود يولد منها ، والصورة التى سيكون عليها ، والمكان

الذى يأخذه فى الحياة ، والخطّ الذى يسير عليه المولود من مولده إلى مماته . .

هذا ، وقد انزعج إيمانُ كثير من المؤمنين حين جاءتهم أنباء العلم ، بأن العلماء قد استطاعوا — أو هم على وشك أن يستطيعوا — معرفةَ ما فى رحِم الأمّ . . من ذكر أو أنثى !

ونقول لهؤلاء المشفقين على إيمانهم من هذا الذى دخل به العلم على الدين متحدياً قدرة الله - كما يتصورون - نقول لهم : ليس الأمر على ما تتصورون . . فلا تَضيقوا بالعلم ذرعاً ، ولا تنظروا إليه شَزَراً ، بل دعوا العلم ينطلق إلى أبعد غاياته ، وشاركوا فى موكبه الفاتح المظفر . . فما هو إلا ضوء من أضواء الحق ، تكشف عن بعض آيات الله ، وعلمه ، وقدرته . .

وماذا على الدِّين من أن ينظر العلم فى آية من آيات الله ، كهذه الأجنّة التى أودعها الخالق فى الأرحام ، فعرف العلم منها ماذا أودع الله فيها ؟ وماذا على الدين من أن ينظر العلم إلى البعوضة بالمجهر ، فيرى فيها كائناً سَوِىَّ الخلق ، ذا فم ، وعين ، وأجنحة ، وأرجل . . ثم أعمل فيها مبضعه تحت المجهر ، فرأى لها أجهزة للهضم والتنفس ! وجوارح للسمع والبصر ، والشم ، والذوق ؟ وماذا على الدين من العلم، لو نظر إلى الشمس ، ووضعها تحت مقاييسه ، فرأى فيها أنها ليست هذه الكرة الصغيرة المضيئة ، التى نراها ،بل رآها كوناً عظيما ، ملتهباً ، يبلغ حجمه مليوناً وربع مليون من مثل حجم الأرض ؟ وماذا على الدين لو نظر العلم فى المجرة فرأى فيها ملايين من الشموس التى تكبر شمسنا حجماً وأثراً ؟

ماذا على الدين من فتوحات العلم هذه ؟

إن العلم هنا هو خير داعية إلى الله ، وإلى الإيمان به ، وملء القلوب والعيون جلالا وهيبة وإعظاماً لله !

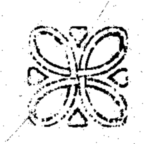
إن العلم إنما يعمل هنا فيما خلق الله ، لا فيما خلق العلم . .

فليفرس الماديون الذين يجهلون قدر العلم ، كما جهلوا قدر الله . . إن من صفات الله سبحانه أنه العليم ، وأن العلم هو أجل نعم الله على عباده ، وهو الذى ترجح به موازين الناس ، وترتفع به منازل بعضهم على بعض : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . . » (٩ : الزمر) . . وإنه ليكفى العلم قدراً وجلالا ، أن يرفع الله قدر أهله ، ويبزلهم منازل رضوانه ، بقدر ما حصّلوا من علم ، وما حققوا من إيمان . . فيقول سبحانه : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (١١ : المجادلة) . . بل يكفى أن نظم الله سبحانه وتعالى العلماء فى عداد الملائكة ، فقال سبحانه : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط » (١٨ : آل عمران) .

— وقوله تعالى : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير »

هو من بعض علم الله فى خلقه ، وأنه سبحانه ، هو الذى يقدّر الأرزاق ، كما يقدّر الأعمار . . فلا يدرى إنسان ماذا قسم الله له من رزق ، وماذا كتب الله له من عمر . . كما لا يدرى أحد على أى ميتة يموت ، ولا فى أى موضع يموت !

« إن الله عليم خبير » . . فهو سبحانه الذى يعلم كل هذا علم الخبير بما يعلم .



٣٢ – سورة السجدة

نزولها : مكية

عدد آياتها : ثلاثون . . آية

عدد كلماتها : ثلاثمائة وثلاثون . . كلمة

عدد حروفها : ألف وخمسمائة وتسعة وتسعون . . حرفا

مناسبتها لما قبلها

جاء فى آخر السورة السابقة – سورة لقمان – قوله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير » . . وقد تضمنت هذه الآية أموراً خمسة ، جعلت علمهن مما استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه وليس لعلم الإنسان سبيل إليهن . .

وقد جاء فى هذه السورة – سورة السجدة – بيان شارح لهذه الأمور . . ومؤكد لتقريرها . كما سنرى .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ – ١١)

* « الٓمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن

وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٩) وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » .

« الم » مبتدأ . وقوله تعالى : « تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » خبر محذوف ، لمبتدأ آخر ، دل عليه ما قبله ، والجملة من المبتدأ المقدّر وخبره ، خبر « الم » . .

وتقدير هذا : « الم » ذلك « تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » — أى على هذا الأسلوب نزل كتاب الله . . مجملا ومفصلا ، محكما ومتشابهاً .

فألف ، لام ، ميم . . حروف مفصلة ، و « الم » كلمة واحدة . .

وألف ، لام ، ميم ، محكمة ، إذ لكل حرف منها دلالته . . و « الم » متشابهة ، إذ لا يعلم تأويلها فى هذه الصورة المركبة ، إلا الله ، والراسخون فى العلم .

ومعنى « تنزيل » أى النزول الذى نزل القرآن على صفته من رب العالمين .

— وقوله تعالى : « لا ريب فيه » جملة حالية ، من الكتاب . . وهى بمنزلة

الصفة للكتاب ، بمعنى أن الكتاب الذى نزل من عند الله ، « لا ريب فيه » . أى ليس فيه موضع لريبة أو شكّ ، لأنه الحق الذى لا شبهة فيه . . ويجوز أن يكون معنى « لا ريب فيه » نفى الريب والشك عن نزوله من الله ، أى لاريب فى أنه نزل من عند الله .

— وقوله تعالى : «من رب العالمين » متعلق بقوله تعالى : « تنزيل» أى أن ذلك الكتاب منزل من رب العالمين .. وكفى بإضافته إلى الله سبحانه وتعالى ، جلالا وشرفاً لهذا الكتاب . . وفى إضافته إلى « رب العالمين » إشارة إلى ما يحمل إلى الناس جميعا من فضل ربهم وإحسانه إليهم ، فهو ـ سبحانه ـ الرب ، وهم المربوبون له ، المنشّئون فى ظل رعايته . .

قوله تعالى :

* « أم يقولون افتراه . . بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون » .

الضمير فى « يقولون » يعود إلى المشركين ، وهم وإن لم يجر لهم ذكر ، مذكورون فى هذا المقام ، الذى لا يُرى فيه غير أهل الشرك والضلال والعناد ، الذين ينكرون الحق ، ويمارون فيه . .

— وفى قوله تعالى : « افتراه » عدول من الخطاب إلى الغيبة ، وهذا على غير ما يقتضيه النظم ، إذ كان قوله تعالى : « تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » خطاباً للنبى ، لأن القرآن كله خطاب من ربه إليه ، ثم ما جاء بعد ذلك فى قوله تعالى : « لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك » يقضى بأن يكون مقام النبى هنا مقامَ حضور ، لا مقام غيبة . .

والسؤال هنا : ما سر هذا الاختلاف فى النظم ؟ ولم خوطب النبى — صلوات الله وسلامه عليه — خطابَ غيبة فى قوله تعالى : « أم يقولون

افتراه » ؟ ولِمَ لَمْ يجر الخطاب على هذا النسق فى قوله تعالى : « بل هو الحق من ربك . . ؟ »

والجواب على هذا — والله أعلم — هو أنه لما كان الافتراء ، مما لا يليق بمقام النبوة ، ولا يصح أن يطوف بحماها ، فقد كان إكرام الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم ، وإحسانه إليه ، ورفعه لقدره ، أن عزل سمعه عن أن يواجَه بهذا المكروه من القول الذى يقوله المشركون فيه ، وحتى أنهم وإن أرادوا النبي به ، فإنما هو مصروف عنه إلى غيره ، ممن يصح أن يكون منه افتراء . . وهذا — فوق أنه تكريم للنبي ، وإعلاء لقدره — هو أدب سماوى ، وإعجاز قرآنى ، فى تصوير الوقع ، وضبطه على أحكم ميزان ، وأعدله ، وأقومه . .

أما حين يكون الأمر مما يخص النبي ، ويتعلق برسالته ، ويحقق صفته ، فإنه يكون من مقتضى الحال أن يواجه النبي بالخطاب ، وأن يتلقى ما يخاطب به فى مشهد وحضور ، فذلك أرضى لنفسه ، وأهنأ لقلبه . . ولهذا جاء قوله تعالى : « بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون » .

— وقوله تعالى : « أم يقولون افتراه » هو إنكار لتلك المقولة المنكرة التى يقولها المشركون فى كتاب الله . . فهم فى هذه القولة ، يرتكبون جنايتين : أولاهما : اتهام النبي بالكذب والافتراء . . وهم على علم بأنهم كاذبون مفترون ، إذ أنهم يعرفون صدق هذا النبي ، الذى لم يعرف الكذب فى حياته ، ولم يجربوا عليه كذبة منذ عرفوه ، صبياً ، وشاباً ، وكهلا . وثانيتهما : أنهم يفترون الكذب على هذا الكتاب ، وهم يرون بأعينهم آيات الحق مشرقة فى كل كلمة من كلماته ، ومع كل آية من آياته ! فلو أنهم اتهموا النبي لردّهم عن هذا ما رأوا من صدق الكتاب نفسه ، ولو أنهم اتهموا الكتاب لصدّهم عن ذلك ما عرفوا

من صدق النبي . . ولكنه العناد الذى يورد أهله موارد الضلال ، ويرمى بهم فى مواطن السوء .

— وقوله تعالى : « بل هو الحق من ربك ».. إضراب على مقولتهم تلك ، واعتبارها من لغو الكلام ، وسَقَط القول ، وإزالة هذا القول المنكر من هذا المقام ، وإقامة الحق مقامه . . « بل هو الحق من ربك » .

— وقوله تعالى : « لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون » يتعلق بقوله تعالى : « تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » أى أن هذا الكتاب المنزل من ربك بالحق ، إنما أنزل إليك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك . . والقوم هنا هم قوم النبي . . وفى ذكرهم هذا الذكر المنكر « قوماً » بدلا من إضافتهم إلى النبي هكذا : « لتنذر قومك » . . إشارة إلى أنهم كانوا على حال من الضلال والضياع ، بحيث كادت تذهب معالمهم ، وتضيع إنسانيتهم ، وفى هذا ما يدعوهم إلى النظر إلى أنفسهم ، وإلى البحث عن وجودهم الضائع ، حتى يجدوه فى ضوء هذا النور المرسل إليهم .

— وقوله تعالى : « ما أتاهم من نذير من قبلك » . . إشارة إلى أن هؤلاء المشركين لم يأتهم نبي قبل هذا النبي يحمل كتاباً من عند الله ، يدعوهم به إلى دين الله . . وليس يَرِد على هذا ما كان من مُقام إبراهيم وإسماعيل فى هؤلاء القوم ، وما كان لآبائهم الأولين من اتصال بهذين النبيين الكريمين ، ومن الإيمان بهما ، والأخذ عن شريعتهما ، وذلك لأمرين :

أولهما : أن إبراهيم عليه السلام — لم يَلْقهم لقاء مباشراً ، ولم يكن من شأنه معهم أن يبشر فيهم بشريعته ، وإنما أقام البيت الحرام ، مع إسماعيل ، وترك لإسماعيل مهمة القيام على هذا البيت ، ودعوة من يلمّون به ، إلى الإيمان بالله ،

والأخذ بشريعة أبيه إبراهيم . . وقد كان من هذا أن تابعَ إسماعيلَ على شريعة أبيه ، كثير من العرب ، وعبدوا الله حنفاء مخلصين له الدين .

وثانيهما : أنه لمـا طال العهد بهؤلاء القوم ، تفلتوا من شريعة إبراهيم شيئاً فشيئاً ، حتى لم يبق فى أيديهم منها إلا ظلالٌ باهتة ، وإلاَّ رسوم دارسة ، وحتى لقد زحف الشرك على موطن الإيمان ، وأجلاه من مواقعه ، وأصبح بيت الله مجمعاً لآلهة الضلال التى جلبوها إليه ، من أصنام وأنداد .

وعلى هذا تـكون رسالة إسماعيل إلى العرب ، رسالةً قاصرة ، محدودة الزمن ، قد أدت دورها فى فترة ، لم تتجاوز جيلا أو جيلين ، ثم غربت شمسها ، إذ لم يكن وراءها كتاب ، يقوم فى القوم مقام الرسول بعد موته .

وبهذا يكون المراد بالقوم فى قوله تعالى : « لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك » هم هؤلاء المخاطبون من المشركين ، ويدخل معهم فى هذا الخطاب آباؤهم الأقربون ، إذ لو كان قد جاء إلى آبائهم الأقربين رسول ، لـكانوا محسوبين مع آبائهم هؤلاء ، داخلين فى دعوة الرسول الذى لقى آباءهم . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى . « لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » (٦ : يس) .

— وفى قوله تعالى : « لعلهم يهتدون » . إطماع لهؤلاء المنذَرين فى الاهتداء إلى الله ، وانتفاع بهذا الـكتاب الذى يتلى عليهم ، وأنه كتاب يُرجى منه الهدى لـكثير منهم ، الأمر الذى تحقق فيما بعد ، فآمن كثير منهم به ، ودخلوا فى دين الله أفواجاً . . !

قوله تعالى :

* « الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى

على العرش ما لكم من دونه من ولىّ ولا شفيع أفلا تتذكرون » .

هذا من بعض ما يحمل الكتاب من نُذُر ينذر بها الرسول قومه ..

ففى هذا النذير إلفات إلى قدرة الله ، وإلى سلطانه القائم على هذا الوجود ، وأنه سبحانه هو الذى خلق السموات والأرض ، وقام بسلطان قدرته عليها ، وعلى تصريف كل شىء فيهما .. فليؤمنوا إذن بهذا الإله المتفرد بالألوهة ، وليتركوا ما هم عاكفون عليه من أصنام .. فإن لم يفعلوا أخذهم الله بعذابه الذى لا يدفعه عنهم « ولىّ » أى قريب أو حليف ، ولا يشفع لهم من بأس الله « شفيع » من تلك المعبودات التى يعبدونها من دونه ، ليقربوهم إلى الله زلفى ..

— وقوله تعالى : « الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام » . قد عرضنا لتفسيره من قبل ، فى غير موضع، وقلنا إنه ليس المراد بالستة الأيام هنا اشتغال الله سبحانه وتعالى بعملية الخلق طَوَال هذه المدة ، كما فهم ذلك كثير من المفسرين ، نقلا عن التوراة ، وما جاء فى أول سفر التكوين منها ، من أن الله خلق المخلوقات فى ستة أيام ، ثم استراح فى اليوم السابع .. تقول التوراة : « فى البدء خلق الله السموات والأرض ... »

ثم تقول وهى تعرض ما خلق الله فى السموات والأرض : « وكان مساء وكان صباح .. يوماً واحداً ... وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً وكان مساء .. وكان صباح يوماً ثالثاً ... وهكذا إلى اليوم السادس ، ثم تقول :

« فأكملت السموات والأرض وكل جندها ، وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل ، فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل » !!

وهذا فهم خاطىء لقدرة الله ، وتحديد لتلك القدرة ، ومقايسة لها بقدرة

المخلوقين ، حتى إنه سبحانه — ليعمل فى كل يوم عملا ، ثم يستريح بعد أن يعمل ، وحتى لكأنّ العمل قد أجهده وأتعبه .. وتعالى الله عما يقول الضالون علواً كبيراً . . « إنمــا أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » (٨٢ : يس) .

وقد قلنا إن هذه الأيام ، هى العمر الذى نضج فى بوتقته خلقُ السموات والأرض ، تماماً كما يتخلّق كل مخلوق فى زمن محدد .. من النطفة إلى الوليد، ومن البذرة إلى الثمرة .. فلكل جنين زمن يتم فيه تكوينه ، ولكل ثمرة وقت تبلغ به تمامها ونضجها .. وهكذا كل مخلوق مما خلق الله ! .

أما حصر الخلق فى الستة الأيام هذه ، فذلك شأن من شئون الله فى خلقه ،لا يُسأل عما يفعل .. « يخلق ما يشاء ويختار » (٦٨ : القصص) .

— وفى قوله تعالى : « ثم استوى على العرش » ما يسأل عنه : ألم يكن لله سبحانه وتعالى عرش يستوى عليه قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ ألم يكن هناك سلطان لله قبل أن يخلق ما خلق ؟ .

ومع أن هذا التساؤل لا محل له ، لأنه مما يتعلق بذات الله ، ومما لا تناله العقول ، ولا تدركه الأفهام .. فالسؤال شطط ، والجواب عنه إمعان فى هذا الشطط — مع هذا ، فإننا لكى نرضى هذا التطلع والفضول منا ، نقول : إن سلطان الله قائم أبداً ، وُجِدَ هذا الوجود أم لم يوجد . . فالعلم ، والقدرة ، والحكمة ، والسمع ، والبصر ، . وغير ذلك من صفات الله ، هى صفات أزلية قائمة بالذات ، سواء ظهرت آثارها أو لم تظهر . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « الذى أعطى كلّ شىء خلقه ثم هدى » (٥٠ : طه) . . فهداية

الله للمخلوقات قائمة قبل الخلق ، ولكنها تتجلى حين يظهر المخلوق ، ويأخذ الاتجاه الذى توجهه قدرة الله ، وعلمه ، وحكمته إليه ..

ومثله قوله تعالى : « الله الذى خلقكم ثم رزقكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم » (٤٠ : الروم) .

فهذا الخلق ، ثم الرزق ، ثم الإماتة ، ثم الإحياء ، كلها واقعة فى علم الله ، مقدورة لقدرته ، ولكنها تتجلى فى كل مخلوق ، حالا بعد حال ، وزمناً بعد زمن ، حسب علم الله وتقديره .

واستواء الله سبحانه وتعالى على العرش ، هو تجلّيه سبحانه على هذه المخلوقات التى خلقها ، وإجراؤها على النظام الذى قدره لها ..

قوله تعالى :

* « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون » .

تدبير الأمر ، قضاؤه ، والأمر بإنفاذه ..

والمراد بالسماء هنا ، الإشارة إلى متنزل هذا الأمر المدبر ، وهو أنه من سلطان عالٍ متمكن . .

والمراد بالأرض : الإشارة إلى ما يقضى به الله فى شأن الناس ، وما يتصل بعالمهم الأرضى ، إذ كانوا هم المخاطبين بهذا ، والمدعوين إلى النظر فيه ، وتلقى العبرة منه . .

وعروج الأمر إلى الله ، هو الرجوع إليه ، بعد أن يقع على الصورة التى أرادها ، فيعلمه سبحانه على الصورة التى وقع عليها ، وهذا العلم ليس

حادثاً ، بل هو علم قديم ، لأمورٍ حادثة .. فكل الأمور تصدر عن الله ، ثم تعود إليه ، بعد أن تدور دورتها المقدورة لها ، كما يقول سبحانه : « ألاَ إلى الله تصير الأمور » (٥٣ : الشورى) .

— وقوله تعالى : « فى يوم كان مقداره ألفَ سنة مما تعدّون » —

اختلفت الأقوال فى هذا اليوم ، وهل هو يوم القيامة ، أم هو يوم من أيام الله فى هذه الدنيا ..

واليوم ، هو وحدة من وحدات الزمن عند الناس ، فى هذه الدنيا ، وهو محدود بأربع وعشرين ساعة ، تدور فيها الأرض دورة كاملة حول الشمس ، من الغرب إلى الشرق .

وقد ورد فى القرآن الكريم موازنة بين أيام الدنيا هذه ، وأيامٍ أخرى عند الله ، فكان من تلك الأيام ما يوازى ألف سنة من أيام دنيانا ، كما يقول الله تعالى فى هـــذه الآية ، وكما يقول جل شأنه فى آية أخرى : « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » (٤٧ : الحج) .

وجاء فى موضع آخر من القرآن الكريم ، أن من الأيام عند الله ما يعدل خمسين ألف سنة من أيامنا . . كما يقول سبحانه : « تَعْرُجُ الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (٤ : المعارج) .. وهناك أيام تعدل مالا حصر له من أيامنا فى دنيانا تلك . .

والذى نطمئن إليه فى تأويل هذا اليوم الذى مقداره ألف سنة ، واليوم الذى مقداره خمسون ألف سنة — هو أن هذين اليومين يُوَقّتان دورتين من دورات الأجرام السماوية فى أفلاكها ، وأن اليوم الذى مقداره ألف سنة من

أيام الأرض ، هو يوم كوكب من الكواكب السماوية ، حيث تتم دورته فى فلكه فى ألف سنة .. ويمكن أن يكون هذا الكوكب فى السماء الدنيا .. ويكون فى الحديث عن هذا الكوكب ، أو عن يومه وطوله بالنسبة ليوم الأرض ـ إشارة إلى قصر الحياة على هذه الأرض ، ومع هذا ، فإن الناس يستعجلون مقامهم فيها ، ويستحثون مطاياهم للارتحال عنها .: « خُلق الإنسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون » .

وإذا كان فى الكواكب ما يتمّ دورته فى يوم ، مثل فلك الأرض ، وكان فيها ما يتم دورته فى ألف سنة ، مثل كثير من الكواكب ـ فإن هناك من الكواكب ما يتم فى دورته فى خمسين ألف سنة . وهناك ما يتم دورة فى آلاف الآف من السنين . .

فهناك أيام كثيرة فى علم الله ، لدورات الكواكب والنجوم المبثوثة فى ملك الله . ولعل هذا هو السرّ فى تنكير « يوم » فى المواضع الثلاث التى جاء فيها تحديد الزمن اليومى ، بألف سنة ، وبخمسين ألف سنة .. فكل يوم منها ، هو بعض أيام الله ، فلله سبحانه أيام لا تحصى فى النظام الذى أقام عليه حركات الكواكب والنجوم ، التى لا يعلمها إلا الله .

قوله تعالى :

* « ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم » .

الإشارة هنا إلى الذى يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة من أيام دنيانا وهو الله سبحانه وتعالى . . وقوله تعالى : « عالم الغيب والشهادة » خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ، أى ذلك المشار إلى قدرته فى تدبير الأمور ، هو عالم الغيب والشهادة ، وهو العزيز الرحيم . .

وقُدم عِلم الغيب على الشهادة ، للإشارة إلى أن علم الله علم مطلق ، لا تحدّه حدود ، فيستوى لديه القريب والبعيد ، والظاهر والخفىّ ، إذ لا قُرب وبُعد ، ولا خفاء وظهور . . لأن ذلك إنما يكون بالإضافة إلى العلم القاصر المحدود ، الذى يتناول شيئاً ويقصر عن شىء . . أما العلم الكامل المطلق ، فحقائق الأشياء كلها واقعة فى دائرة هذا العلم كحقيقة واحدة ! .

وفى وصف الله سبحانه بالعزة والرحمة ، إشارة إلى أن عزته سبحانه وتعالى ، عزةُ رحمة وإحسان ، وليست عزةَ تسلط وقهر ، فإن من شأن العزة القهر والجبروت ، وفى المثل : « من عزّ بزّ » . . وتعالت عزة العزيز الحكيم عن ذلك علوا كبيراً . .

قوله تعالى :

* « الذى أحسنَ كل شىء خَلَقه وبدأ خلق الإنسان من طين » .

أى أن من عزة الله ورحمته قيامَ هذا الوجود على أحسن نظام ، وأكمله . .

والمراد بالحسن هنا ليس مجردَ حسن الصورة ، وإنما هو الحسن الذى يتجلى فى إحكام الصنعة ، ودقة التنسيق ، وروعة التأليف ، وتجاوب النغم ، ووحدة الغاية ، وإن اختلفت الاتجاهات ، وتعددت الأنغام . . « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » . . فدبيب النملة على مسارها ، وجريان الشمس فى فلكها ، وتدفق النهر فى مجراه ، وحفيف الأوراق على أشجارها ، وكل همسة ، وكل حركة فى هذا الوجود ، فى أرضه وسماواته ، تؤلف جميعها لحناً علوىّ النغم ، يَرُوع القلبَ جلالُه ، ويأسر الفؤاد حسنه وجماله . سواء أنظر الإنسان إليها فى اجتماعها أو افتراقها ، وسواء استعرضها على تفصيلها أو إجمالها .

وفى قوله تعالى : « وبدأ خلق الإنسان طين » التفات إلى وحدة من وحدات هذا الخلق ، وإشارة إلى مواطن هذا الحسن منه ، وهو خلق الإنسان من طين . .

فى هذا الطين الذى قد تنبو عنه العين ، ويتحاشاه النظر حسن رائع ، وجلال مهيب ، إذا استطاع الناظر أن ينفذ إلى ما وراء هذا الظاهر الذى يراه ، وأن يتجاوز هذه القشرة السوداء المعتمة من الطين .. فإن وراء هذه القشرة ، عالماً يموج بألوان زاخرة ، زاهية من الحياة .. فما هذه الأناسىّ التى تتحرك على ظهر الأرض ، وتملأ الحياة حركة وعمراناً ، إلا بعض هذا الطين الذى نمشى عليه ، وننطلق فوقه !! .. وإذا عجز إدراك الإنسان عن أن يرى فى مرآة هذا الطين صورته ، ويعرف الرّحم الذى تفتق عنه ، فلينظر فى وجوه الأرض ، وما عليها من ألوان الزهر ، وأصناف الشجر ، وأنواع الثمر .. « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض فى الأُكُل إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون » (٤ : الرعد) .

فهذا الطين ، ليس فى عين ذوى البصائر طيناً ، جامداً ، صامتاً ، كثيباً ، وإنما هو الجمال كله ، والحسن كله ، تفتقت عنه ـ بقدرة العزيز الرحيم ـ هذه الحياة المتدفقة من إنسان ، وحيوان ، ونبات !

فبدء خَلْق الإنسان من طين ، هو نقطة الابتداء ، التى يبدأ العقل مسيرته منها ، إلى حيث يلتقى بالإنسان فى أكمل صورته ، وأعظم مواقفه .. وعندئذ يرى كيف تدبير الله ، وقدرته ، وكيف علمه ، وإحسانه ، ورحمته .. فما أبعدَما بين الطين والإنسان ، فى عين من لا يحسن النظر ، ويُمعن التفكير ، وما أقرب ما بين الطين والإنسان ، فى عين من ينظر ، فيحسن النظر بعقله وبقلبه جميعاً .. فمن هذا الطين ، كان الأنبياء والرسل ، والقادة ، والمصلحون ، والعباقرة .. ومن هذا الطين كانت تلك الشموس المضيئة التى زينت الأرض كما زينت الكواكب والنجوم وجه السماء !

* قوله تعالى : « ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » . .

وهذه لفتة أخرى إلى قدرة العزيز الرحيم ، يرى فيها الإنسان نفسه ، لافى هذا الطين ، الذى ربما كانت كثافته حائلا بينه وبين نظره الكليل أن يرى وجودَه فيه . . فهناك النطفة ، التى يعلم الإنسان ـ كل إنسان ـ عن يقين أنه ثمرتها ، وأنها البذرة التى جاء منها . . فأين تلك النطفة . . من هذا الإنسان ؟ « فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب » . (٥ — ٧ الطارق) .

وفى وصف النطفة بأنها ماء مهين ، إشارة إلى أنها شىء رخيص مبتذل ، لايرى فيها الإنسان شيئاً ذا بال ، فما هى إلا ماء مستقذر .. هكذا يبدو فى ظاهر الأمر ..ولكن إذا نظر إليه نظراً متأملا متفحصاً ، رأى أنه هو هذا الإنسان ، قد أجمل فى هذه القطرة من الماء ! ثم فُصّل ! فكان هذا الخلقَ السّوِىّ ، الذى تُوّج بتاج الخلافة من الله على هذه الأرض !

قوله تعالى :

* « ثم سَوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » .

وهذه أيضاً لفتة أخرى ، يرى فيها الناظر إلى الإنسان فى مسيرته من النطفة إلى الوجود البشرى ـ يرى كيف تحركت هذه النطفة ، وكيف نمت كما ينمو النبات ، حتى إذا بلغت فى رحم الأمّ مرحلة محددة ، نفخ فيها الخالق من روحه ، فبعث فيها الحياة ، حتى إذا تم نضجها ، دفع بها الرحم إلى هذه الدنيا ، قطعةً من لحم ، مصورة فى هيئة بشر ، لاسمع ، ولا بصر ، ولا إدراك . . ثم لا يلبث هذا الوليد حتى يكون له السمع والبصر والإدراك . . وإذا هو هذا الإنسان ، كما هو فى كل موقع من مواقع الحياة . .

وقُدِّمَ السمع على البصر ، لأنه أسبق من البصر ظهوراً فى الكائن الحى بعد الميلاد ، حيث تبدأ وظيفة السمع فى كيان الطفل ، قبل أن يبدأ البصر فى أداء وظيفته - وهذا من إعجاز القرآن ، الذى كشف عنه العلم - ثم يجىء بعد هذا دور الوعى والإدراك !

وفى إفراد السمع ، وجمع البصر ، والفؤاد ، إشارة إلى أن معطيات السمع تكاد تكون واحدة عند الناس جميعاً ، وذلك على خلاف البصر ، الذى يختلف من إنسان إلى إنسان، حيث يكون النظر عند بعض الناس مجرد عين ترى الأشياء رؤية حيوانية لا تتجاوز ظاهر المرئيات ، على حين يكون النظر عند بعض آخر بصيرة نافذة ، تبلغ الأعماق ، وتصل إلى الألباب . . وكذلك الشأن فى الفؤاد، وهو موطن المدركات ! وذلك أظهر من أن يكشف عنه .

— وقوله تعالى : « قليلا ما تشكرون » أى قليل منكم من يعرف لله قدره ، ويذكر له إحسانه وفضله ، فيؤدى الشكر لله ، إيماناً به ، وإفراداً له بالألوهة ، وفى هذا يقول سبحانه وتعالى : « وقليلٌ من عبادىَ الشكور » (١٣ : سبأ)

قوله تعالى :

* « وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون » .

الضلال فى الأرض : الضّياع ، والفناء فى ترابها .. وذلك بما يحدث للأجساد بعد الموت من تحلل وفناء .

والحديث هنا عن المشركين ، الذين ينكرون البعث ، ويرون أن انحلال أجسادهم بعد الموت ، وتحولهم إلى تراب من تراب الأرض ، يجعل من المستحيل أن يعودوا مرة أخرى إلى ما كانوا عليه ، إذ ما أبعد ما بين هذه الأجساد

التى أبلاها البِلى ، وبين الحال التى ستصبح عليها لو صحّ أنهم سيبعثون . .

ولو أنهم نظروا إلى ما دعاهم الله سبحانه وتعالى إليه ، من النظر فى قوله تعالى : « وبدأ خلق الإنسان من طين » . . وفى قوله : « ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » ـ لوجدوا أن لافرق بين هذا التراب الذى جاءوا منه ، أوتلك النطفة التى تخلقوا منها ، وبين هذا التراب الذى صارت إليه أجسادهم . . بل إن فى أجسادهم الغائبة تحت التراب ، إشارات تشير إليهم ، وتاريخاً يحدث عنهم ! إنهم ـ وهم فى التراب ـ أشبه بغائب تُرجَى له عودة ، وهم لم يكونوا من قبل شيئاً ! وشىء يعود إلى أصله ، أقرب فى التصور من توقع وجود شىء من عدم !

ــ وفى قوله تعالى : « بل هم بلقاء ربهم كافرون » ــ إشارة إلى أن هؤلاء المشركين على ضلال فى حياتهم الدنيا . . قد فتنوا بها ، وأذهبوا طيباتهم فيها ، وأطلقوا لهواهم العَنان يذهب بهم كلّ مذهب . . وهذا ما أوقع فى تفكيرهم أن لا حياة بعد الموت ، وأن لا حسابَ ولا جزاء . . لأن ذلك يعنى أن يعملوا حساباً لهذا الحساب ، وأن يتخففوا كثيراً مما هم فيه من ضلال ، وأن يستبقوا من يومهم شيئاً لما بعد هذا اليوم . . وإنه ليس لهم إلى ذلك من سبيل ، وقد غلبتهم أهواؤهم ، واستولت عليهم دنياهم . . وإذن فلا يوم بعد هذا اليوم ، ولا حياةَ بعد هذه الحياة . . إنهم ـ والحال كذلك أشبه بالجند فى ليلة الحرب . . يقضونها ليلةً صاخبة معربدة ، حتى الصباح ، ينفقون فيها كل ما معهم . . ثم ليكن فى الغد ما يكون ! !

قوله تعالى :

* « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وُكّل بكم ثم إلى ربكم تُرجعون » .

توفية الشىء : استيفاؤه وأخذه كاملا وافياً ، وعبّر عن الموت بالتوفى ،

لأنه لا يكون الموت حتى يستوفىَ الحىّ ما قدر الله له من حياة ، دون زيادة أو نقصان .

—وفى قوله تعالى : «قل يتوفاكم ملك الموت الذى وُكّلَ بكم » ـ إشارة إلى أن الموت الذى يحلّ بهم، ليس أمراً يقع من تلقاء نفسه،اعتباطاً ، كما يظنون وكما يقول شاعرهم :

رأيتُ المنايا خَبطَ عَشْواء من تصبْ تُمِتْهُ ومن تُخْطىء يعمَّر فيهرَمِ

وكلاّ ، فإن الموت بيد الله الحكيم العليم ، الذى جعل لكل نفس أجلا محدوداً ، فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . . ثم إن الموت يقوم به رسول من رسل الله ، مهمته هى قبض الأرواح من الأجساد ، بعد أن تستوفى أجلها . . وإذا كان ذلك كذلك ، فإن الذى إليه الموت ، له أيضاً الحياة قبل الموت ، وبعد الموت . . فمن أعطى الحياة ، ثم سلبها ، لا يعجز أن يعطى ما سلب ا « كيف تكفرون بالله ، وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يُحييكُمْ ، ثم إليه تُرجعون (٢٨ : البقرة) .

الآيات : (١٢ — ٢١)

* وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥)

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَآ أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) »

التفسير

قوله تعالى :

* « ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون » .

هذا عرض لحال من أحوال المشركين والضالين ، يوم القيامة ، وما يلقون من ذلة وهوان ، وما يذوقون من بلاء وعذاب . .

وهم فى هذا الموقف ، قد سيقوا إلى ساحة الحساب بين يدى الله سبحانه وتعالى ، وقد نكست رءوسهم ذلة وخزياً ، وخضعت أعناقهم همًّا وغمًّا ، يضرعون إلى الله أن يُردوا إلى الحياة الدنيا مرة أخرى ، ليصلحوا ما أفسدوا ، وليستقيموا على طريق الحق والهدى ، بعد أن أبصروا من عمىً ، وسمعوا من صمم ، وشهدوا الحق الذى أنكروه ، وعاينوا البعث الذى كفروا به ، وأيقنوا أنهم كانوا فى ضلال مبين . .

وفى هذا الاستفهام فضح لهؤلاء المجرمين ، واستدعاء لكل ذى نظر أن يَشهدهم وهم على موقف الهوان ، وفى ثياب الذلة والصغار ، وهم كانوا السادة الذين ورمت أنوفهم كبراً ، وصُعّرت خدودهم تيها وعجباً !

وقوله تعالى :

* « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها .. ولكن حقّ القول منى لأملأنّ جهنم من الجِنة والناس أجمعين » .

هو ردٌّ ضمنى على ما طلب المجرمون من أن يعودوا إلى الحياة الدنيا مرة أخرى ..

والمعنى : أن الهدى بيد الله ، وفى قيد مشيئته .. وأنه سبحانه لو شاء لهدى الناس جميعاً ، ولكنه سبحانه جعل للجنة أهلَها ولها يعملون ، وجعل للنار أهلها ولها يعملون .. وأن مما قضى الله به فى خلقه أن يملأ النار ويَعْمُرَها بمن جعلهم من أهلها ، من الجنة والناس ! وأن هؤلاء المجرمين الذين رأوا مشاهد القيامة ، وعاينوا أهوالها ، وتمنوْا العودة إلى الدنيا ، ليستقيموا على طريق الحق والهدى ـ هؤلاء المجرمون ، لو رُدوا إلى الدنيا لعادوا لما نُهوا عنه ، ولركِبوا نفس الطريق الذى كانوا عليه من قبل ، ولماتوا على الكفر والضلال ، ولكانوا فى أصحاب النار ، وذلك لأن قضاء الله فيهم قد سبق ، وأنهم لن يخرجوا عما قضى الله فيهم !

ويسأل سائل : لماذا إذن كانت دعوات الرسل ؟ ولماذا إذن كان العمل ؟ وكان الإيمان والكفر ؟ لِمَ هذا ، وقد سبق القضاء ، ونزل كل إنسان منزله من الجنة والنار منذ الأزل ؟ والجواب على هذا ، قد عرضنا له فى مبحث خاص من هذا التفسير ، تحت عنوان : مشيئة الله ومشيئة العباد[1] .

---

(١) انظر التفسير القرآنى للقرآن ــ الكتاب الرابع . ص ٢٦٣

وفى كلمة موجزة نقول : إن لله قضاء سابقاً فى خلقه ـ هذا حقّ . . فللجنة أهلها ، وللنار أهلها ، ولن يتحول إنسان أبداً عما أراد الله له . . ولكن ـ مع هذا ـ فإن هذا القضاء محجوب عن الناس ، فلا يدرى أحد أهُوَ من هذا من الفريق أو ذاك ، وذلك مما قضت به حكمة الله ، حتى يظل باب العمل مفتوحاً لكل عامل . . فهناك طريقان : طريق الإيمان ، والهدى ، وطريق الكفر والضلال . والأول موصّل إلى الجنة ، والآخر منتهٍ إلى النار . . والإنسان مخيّر فى اختيار أحد الطريقين . . هكذا يبدو الأمر فى ظاهره ، فلا قسر ولا قهر ، وإن كان لله الأمر كله . . فمن كان من أهل الجنة ، يسّره الله لها ، ومن كان من أهل النار أخلى الله طريقه إليها . . وكلٌّ ميسّر لما خلق له !

ولا تسأل بعد هذا : لم اختار الله هذا الفريق للجنة ، واختار ذاك الفريق للنار ؟ إنه خَلَقَهم ، لم يشاركه أحد فى الخلق ، وإنه أقامهم حيث أقامهم ، فلا اعتراض على المالك فى تصرفه فيما ملك . . !

والله سبحانه وتعالى يقول : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير » (٢ : التغابن) .

قوله تعالى :

* « فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون » .

هو ردٌّ مباشر على هؤلاء المجرمين ، بعد أن تلقوا الرد الضمنى فى الآية السابقة ، وأنهم من أصحاب النار ، ولن يَعدِل بهم عنها عودُتهم إلى الدنيا مرة ومرة ومرات . . فليخسئوا ، وليذوقوا عذاب السعير . . إنهم من أصحاب النار . .

— وفى قوله تعالى : « بما نسيتم لقاء يومكم هذا » الباء للسببية ، أى ذوقوا هذا العذاب بسبب نسيانكم هذا اليوم ، وكفركم به !

وقد عبّر عن كفرهم ، بيوم القيامة بالنسيان ، ليكشف عن مدى استخفافهم به ، وإخلاء أنفسهم من كل شعور يصل بينهم وبينه . .

وقوله تعالى : « إنا نسيناكم » هو على سبيل المجازاة . . وأنهم كما استخفّوا بهذا اليوم ، فقد استخفّ الله بهم ، ولم ينظر إليهم بعين الرحمة . . فهم باقون فى هذه النار لا يخرجون منها ، حتى لكأنهم قد نُسوا فيها . . كما يقول الله سبحانه : « كذلك أتتك آياتنا فنسيتَها وكذلك اليوم تُنسَى » (١٢٦ : طه) .

قوله تعالى :

* « إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكّروا بها خرّوا سُجّداً وسَبّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون » .

هو أيضاً ردٌّ على هؤلاء المجرمين ، الذين لا يؤمنون بآيات الله أبداً . . لأنهم على غير صفات أهل الإيمان .. فأهل الإيمان إذا ذُكّروا بآيات الله ، تفتحت لها قلوبهم ، واستنارت بها بصائرهم ، فعرفوا ربهم ، وانقادوا لجلاله وعظمته ، وخشعوا لعزته وجبروته ، وسجدوا مع الساجدين ، وسبحوا بحمده مع المسبحين ، فى ولاء لا يطوف به كِبر ، وفى خضوع لا يخالطه استعلاء !

قوله تعالى :

* « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون » .

ومن صفات المؤمنين ، أنهم مشغولون بذكر الله ، لا ينامون إذا نام الناس،

كما يقول الله : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون * وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » (١٧ — ١٩ الذاريات) .

— وقوله تعالى : « يدعون ربهم خوفا وطمعا » هو حال من أحوال هؤلاء المؤمنين ، الذين يهجرون مضاجعهم ليذكروا الله ، ويدعوه ، خائفين من عذابه ، طامعين فى رحمته . .

— وقوله تعالى : « ومما رزقناهم ينفقون » هو حال من أحوالهم أيضا ، وهو أنهم إذ يقومون بحق الله عليهم فى أنفسهم ، عبادةً ، وصلاة ، ودعاء ، فإنهم يقومون بحقه تعالى عليهم فى أموالهم ، بذلا ، وإحسانا فى كل وجه من وجوه الخير والبر . .

قوله تعالى :

* « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » . .

فى هذا التجهيل لنعيم الجنة الذى أعده الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين — إطلاق له من القيود والحدود ، فهو نعيم مطلق ، بلا حدود ولا قيود ، فيه كل ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين . . كما فى الحديث القدسى : « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، بَلْه[1] ما أطلعتكم عليه » .

— وفى قوله تعالى : « ما أخفى لهم » — إشارة إلى أن هذا النعيم ، لا يخطر

(١) بله : اسم فعل أمر ، بمعنى ، دع ، أو اترك ، والمعنى أن الله سبحانه قد أعد لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وذلك غير ما أطلعهم الله عليه وعرفوه فى الدنيا من ألوان النعيم .

على بالهم ، ولا يقع فى تصورهم ، لأنه مما لا شبيه له ، فيما يعرف الناس من نعيم الدنيا . . فهو — والحال كذلك — . . أشبه بالشىء الخفى ، الذى لاتُعلم حقيقته . .

— وقوله تعالى : « من قرة أعين » .. أى مما تسر به العين ، وترتاح له ، وتجد فيه أنسها وحبورها . . وخُصّت العيون بهذا ، لأنها هى المرآة التى تتجلى على صفحتها مشاعر الإنسان ، وترتسم على نظرتها خلجاته وخطراته . . من فرح أو حزن ، ومن حب أو بغض ، ومن رضاً أو سخط . . ولهذا فإنه قد كان للناس نظر بالعيون إلى العيون ، وحديث من العيون إلى العيون . . وكان للعيون لغة أبلغ من لغة الكلام ، وكان لهذه اللغة علماؤها ، وأصحاب القدم الراسخة فيها ، عطاء وأخذاً ، وإرسالا واستقبالا . .

وفى الشعر العربى ما يكشف عن هذه الحقيقة من أمر العيون ، وما تنفث من سحر البيان والدلال معاً . . يقول الشاعر :

والعين تعلم من عينىْ محدّثها   إن كان من أهلها أو من أعاديها

ويقول آخر :

إذا كاتمونا الهوى نمّت عيونُهمُ   والعين تُظهر مافى القلب أو تصف

ويقول ثالث :

ومراقبين تكاتما بهواهما   جعلا القلوب لما تُجِنّ قبوراً

يتلاحظان تلاحظاً فكأنما   يتناسخان من العيون سطوراً

وهكذا تحدّث العيون عما تطوى النفوس من خير أو شر . . يقول السيد المسيح : « سراج الجسد هو العين ، فإن كانت عينك بسيطة ، فجسدك كله يكون نيّراً ، وإن كانت عينك شريرة ، فجسدك كله يكون مظلماً » .

قوله تعالى :

* « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقا ؟ .. لا يستوون » .

هو تعقيب على الآيات السابقة ، التى كشفت عن وجوه المجرمين ، وساقتهم إلى موارد الهلاك والبلاء ، كما كشفت عن وجوه المؤمنين ، وأرتهم ما أعدّ لهم من نعيم ورضوان .. ثم هو تمهيد لما ستكشفه الآيات التالية بعد هذا ، من موقف الفريقين ، ومن الجزاء الذى يلقاه كل فريق ..

والاستفهام هنا يراد به النفى .. ولهذا جاء جوابه منفياً .

وفى الاستفهام من توضيح الحكم وتأكيده ، ما ليس فى الخبر التقريرىّ ، الذى يجىء بالحكم صريحا مواجهاً ، يُلْقَى به إلقاء ، على سبيل الإلزام والتحكم ! .

ففى الأسلوب الاستفهامى ، دعوة إلى العقل أن ينظر فى هذه القضية ، وأن يشارك فى الحكم المناسب لها ، وفى البحث عن الحيثيات التى تَدْعَم هذا الحكم وتسنده ..

« أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ؟ » .

هذه هى القضية ..

فماذا يؤدّى إليه النظر فيها ؟ ولأى طرف الخصومة فيها يحكم العقل ؟ أهما على سواء ، فلا فاضل ولا مفضول ؟ ذلك بعيد .. إذ لو كانا على حال واحدة من جميع الوجوه ، لكانا شيئاً واحداً ، ولم يكونا شيئين متقابلين .. وإذ كان الأمر كذلك ، فهما غير متساويين ..

هـذه بديهة لا تحتاج إلى كثير من النظر .. ولهذا جاء قوله تعالى :

« لا يستوون » جواباً مطلقاً ، على هذه البديهة . . إنهما غير متساويين . . هذا مالا سبيل إلى المماراة أو الخلاف فيه . .

فالمؤمن غير الفاسق . . والفاسق غير المؤمن .. وإذ كانا غَيْرين ، فهما غير متساويين .. ويبقى بعد هذا ، الفصلُ فى أىٍّ من هذين غير المتساويين أرجحُ كفة ، وأثقل ميزاناً ؟ .

قد يرى أهل الضلال أن الفاسق أرجح ميزاناً ، وأهدى سبيلا من المؤمن .. فليكن ذلك حكمهم . . أما ا ـكم الحق والقضاء الفصل ، فهو هذا الذى سمعوه من قبل إن كانوا قد سمعوا وعَقَلوا ، وهو هذا الذى يسمعونه الآن ، إن كانوا يسمعون أو يعقلون .

* « أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نُزُلاً بما كانوا يعملون » .

* « وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون » .

هذا هو الحكم الفصل ، فيما بين المؤمن والفاسق . .

ويلاحَظ أن القرآن لم يأت بالحكم صريحاً ، ولم يقل إن المؤمن خير من الفاسق . . ولكنه جاء بفحوى هذا الحكم وبالآثار المترتبة عليه . . ثم ليكن الحكم على هذه الآثار ، التى هى أظهر من أن تختفى التفرقة بينهما على ذى مِسكة من عقل . .

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لهم جنات « المأوى » أى السكن والاستقرار « نزلا » أى منزلا كريماً يأوون إليه ، وينزلونه ، حيث يجدون

فيه الحياة الطيبة الهنيئة : « بما كانوا يعملون » من أعمال طيبة ، فى هدى من الإيمان بالله ، وعلى نور من شريعة الله . .

وأما الذين « فسقوا » أى خرجوا عن طريق الإيمان ، وركبوا طرق الضلال ، « فمأواهم النار » . . تلك هى دارهم ، وهذا هو نُزُلهم . . « كلما أرادوا أن يخرجوا منها » فراراً من وطأة العذاب « أعيدوا فيها » ورُدّوا إليها ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون . . « وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون » . . فهم لا يردون إلى النار وحسب ، بل يلقاهم مع هذا الرد من يُسمعهم ما يسوءهم ، ويملأ قلوبهم حسرة وكمداً ، فيقول لهم : « ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون » . . إنما يذوقون عذاب النار فعلا ، ولكن الحديث إليهم بما يسوءهم، وقرع أسماعهم بهذا المكروه — هو مضاعَفة للبلاء ، ومزاوجة بين المكروه والمكروه، كما أن الحديث عن المحبوب لذة فى السمع ، ووقعاً فى القلب ، إلى ما له من لذة فى مرأى العين ، ومذاق اللسان . . وقد كشف أبو نواس عن هذا ، فيما يجد من لذة وانتشاء ، عند سماع كلمة الخمر وهو يشربها ، إلى ما يجد لها من مذاقها على لسانه ، ومن دبيبها فى مفاصله ، حتى يمتع حواسه كلها . . فيقول :

ألاَ فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر
ولا تَسقنى سراً متى أمكن الجهرُ !

وأبو نواس ، وإن كان هنا على إثم ، فإنه يَلَذ طعم اسم هذا الإثم ويستمرئه . . ولو كان فى هذا الموقف غيره ، ممن يتأثمون هذا الإثم ، ثم يكرهون إكراهاً على تعاطيه ، فإن ذكر الخمر باسمها عند صبها فى أفواههم ، هو عندهم بلاء إلى بلاء ، وعذاب فوق عذاب !

قوله تعالى :

* « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون »

العذاب الأدنى : هو العذاب القريب فى زمنه ، القليل فى آثاره ، بالنسبة إلى العذاب الأكبر . . والمراد بهذا العذاب الأدنى هو ما يلقاهم فى دنياهم من خزى وخذلان ،على يد المؤمنين ، وذلك بما يصابون به من قتلٍ وأسر فى ميدان القتال ، وما يجدون فى أنفسهم من وقدة الحسد ، لما يفتح الله به على المؤمنين من أبواب رحمته ، وبما يمكّن لهم فى الأرض . .

والعذاب الأكبر : هو عذاب يوم القيامة . .

وقوله تعالى : « دون » أى قبل .

وقوله تعالى : « لعلهم يرجعون » إشارة إلى أن هذا العذاب الذى يقع المشركين ، الفاسقين ، فى هذه الدنيا ، قد يكون لبعضهم فيه عبرة وموعظة ، فيرجع عن غيه وضلاله . . وهذا هو بعض السر فى تصدير هذا الحكم بحرف الرجاء « لعل » . .

الآيات : (٢٢ — ٣٠)

* « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي

ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ومن أظلم ممن ذُكّر بآيات ربه ثم أعرض عنها . . إنا من المجرمين منتقمون » .

المراد بالاستفهام هنا النفى . . أى أنه لا أحد أكثر ظلماً من ذلك الذى تعرض عليه آيات الله ليهتدى بها ، ثم يعرض عنها . .

وفى قوله تعالى : « ذكّر بآيات ربه » إشارة إلى أن آيات الله التى يتلوها الرسول على الناس إنما هى لتذكرهم بما نسوه من الإيمان الذى كان فى فطرتهم .. فلما أهملوا فطرتهم ، وأفسدوها بما ساقوا إليها من آفات الهوى والضلال ، لم يعودوا يذكرون شيئاً من هذا الإيمان ، فكانت بعثة الرسول بآيات الله يتلوها عليهم تذكيراً لهم ، بأصل فطرتهم ، وإيقاظاً لهم من غفلتهم . . ومن أجل هذا ،فقد كانوا أظلم الظالمين ، لأنهم ظلموا أنفسهم مرتين ، ظلموها أولا بإطفاء جذوة الإيمان التى أودعها الله فطرتهم ، وظلموا أنفسهم ثانياً ، إذ أبوا أن يستجيبوا لمن يدعوهم إلى تعاطى الدواء الذى يشفى هذا الداء الذى مكنوه منهم ، فأفسد فطرتهم . .

— وفى قوله تعالى : « إنا من المجرمين منتقمون » .

هو تهديد ووعيد لهؤلاء المعرضين عن آيات الله ، وأنهم فى معرض الانتقام من الله ، لأنهم مجرمون ، ظالمون .. مجرمون فى حق أنفسهم ، ظالمون بإعراضهم عن الخير الممدود إليهم .

قوله تعالى :

* « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة قد ذكرت ـ ضمناً ـ القرآنَ الكريم ، الذى أعرض عنه الظالمون الذين ذكروا به . . فناسب أن يُذكر موسى فى هذا المقام ، إذ كان مع موسى آيات ظاهرة محسوسة ، وكانت تلك الآيات مما يَشْغَب بها المشاغبون من المشركين ، على النبى ، ولا يقبلون منه آيات كلامية يتلوها عليهم ، ويقولون مكذبين النبى ، ومتحدين له : « لولا أُوتى مثل ما أُوتى موسىٰ ؟ » . وقد رد الله عليهم بقوله : « أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل » . (٤٨ : القصص) وبقوله سبحانه : « وكُذِّب موسى » (٤٤ : الحج) .

ثم إنه مع هذه الآيات الظاهرة المحسوسة ، قد جاء موسى بكتاب من عند الله ، هو التوراة ، وبهذا الكتاب دان اليهود الذين يعرفهم أولئك المشركون ، ويقولون : « لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدَى منهم » (١٥٧ : الأنعام) .

وعلى هذا يكون قوله تعالى : « فلا تكن فى مرية من لقائه » خطاباً للنبىّ ، ويكون الضمير فى قوله تعالى : « من لقائه » مراداً به القرآن الكريم المذكور ضمناً فى الآية السابقة . .

والخطاب إلى النبىّ ، هو إلفات للمشركين إلى القرآن الكريم ، وإلى

هذا الشك والافتراء الذى يدور فى رءوسهم منه .. إنه كتاب من عند الله ، مثل الكتاب الذى جاء به موسى ، والذى كانوا يتمنّون أن يكون لهم كتاب مثله .

وفى قوله تعالى : « وجعلناه هدى لبنى إسرائيل » .. تحريض المشركين على أن يقبلوا على الكتاب الذى جاءهم من عنـــد الله ، ويهتدوا به .. فهذا الكتاب هو كتابهم ، وهو الهدى الذى يهتدون به ، كما كان كتاب موسى كتاباً لبنى إسرائيل ، ومَعْلَمَ الهدى الذى يهتدون به ..

قوله تعالى :

* « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

هو تحريض بعد تحريض للعرب ، من مشركين ومؤمنين ، أن يلوذوا بحمى هذا الكتاب ، الذى أنزله الله بلسانهم ، وجعلهم مستفتح دعوتهم إلى دين الله .. فإنهم إن فعلوا ، واستجابوا لدعوة الله ، وآمنوا به ، وصبروا على ما يلقون على طريق الإيمان من ضر وأذى — جعل الله منهم أئمة يدعون إلى الهدى ، ويقومون فى الناس مقام الأنبياء ..

فالحديث هنا خبر عن بنى إسرائيل ، يراد به سوق العبرة والعظة إلى المشركين ..

قوله تعالى :

* « إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

هو إجابة عن سؤال يعرض لمن يستمع إلى قوله تعالى : « وجعلناه هدى لبنى إسرائيل * وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » .. وهذا

السؤال هو : وهل اهتدى بنو إسرائيل بهـذا الكتاب الذى جاءهم به موسى؟ وهل كان منهم أئمة هداة؟ وكيف يكون هذا وهم على ما يشهد الناس منهم من خلاف فيما بينهم — ثم ما سيشهدون من خلاف بينهم وبين النبي؟ وكيف يصح أن يكون الكتاب الذى جاء به موسى، لا يلتقى مع الكتاب الذى جاء به محمد، وكلا الكتابين من عند الله؟ .

فكان قوله تعالى : « إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » جواباً على هذه التساؤلات . . ثم هو إعلام بما سيكون من اليهود من كفر وضلال، حين يواجههم النبي بالقرآن الكريم، ويدعوهم إلى تصديقه، والإيمان به .

قوله تعالى :

* « أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون » .

الحديث هنا إلى المشركين، حديث مواجه مباشر، بعد أن كان الحديث إليهم فى الآيات السابقة حديثاً من وراء حجاب، هو اليهود . .

وقوله تعالى : « أولم يهد لهم » استفهام إنكارى، ينكر على المشركين أنهم لم يروا فيما بين أيديهم من ديار الأقوام الظالمين قبلهم، وما اشتمل عليها من خراب — ما تُحدِّث به هذه الديار من عِبَر، وما تنطق به من عظات ! وانهم لو عقلوا لعلموا أنهم مأخوذون بما أخذ به أصحاب هذه الديار، ماداموا سائرين على طريقهم، آخذين مأخذهم . .

وفى قوله تعالى : « يمشون فى مساكنهم » إشارة إلى أنهم قد خَلَفُوا

هؤلاء الظالمين أصحـــاب تلك الديار ، وورثوا ما كانوا عليه من كفر وضلال . .

وفى قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون » — إشارة إلى أن السمع طريق من طرق الاهتداء . . سواء كان هذا المسموع من كلمات الله ، أو من الأخبار الصحيحة والعظات النافعة . . فالكلمة الطيبة ، إذا تلقتها أذن واعية ، واستقبلها قلب سليم ، أينعت ، وأثمرت ، كما تينع وتثمر البذرة الطيبة ، فى الأرض الطيبة . .

قوله تعالى :

* « أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » .

الأرض الجرز : أى الجديب ، التى لا نبات فيها . .

وتلك آية من آيات الله ، تتملاها العين ، فترى فيها قدرة الله ، كما ترى فضله وإحسانه . .

فهذا الماء الذى يسوقه الله تعالى محمولا على أجنحة السحاب ، فينزل فى الأرض الجديب ، ويحيى مواتها ، ويخرج من صدرها حبا ونباتا ، وجنات ألفافا ، تحيا عليها الأنعام ، ويعيش فيها الناس ـــ فى هذا عبرة لمعتبر ، وذكرى لمن يتذكر .

وقُدمت الأنعام على أصحاب الأنعـام ، دلالة على أنه ليس للناس شىء فى تقدير هذا الرزق الذى يسوقه الله إليهم وإلى أنعامهم . . وإنما هو من عند الله ، وأن الأنعام والناس سواء فى الاحتياج إلى الله ، وأنهم إنما يُرزقون

كما تُرزق الأنعام .. « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » (٦ : هود).

قوله تعالى :

* « ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين » .

الفتح : الفصل فيما بين النبى وبين المشركين من خلاف ، فيما يُدْعونَ إليه من حق ، وفيما هم فيه من باطل . .

والاستفهام من المشركين ،استهزاء ، وتكذيب واتهام .. إنهم لايؤمنون بأن هناك حساباً ، ولا جزاء ..

قو تعالى :

* « قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون »

وقد جاء الجواب بما لا ينتظره السائلون . .

إنهم كانوا لا ينتظرون جواباً .. وإذا كان ثمة جواب فليكن مؤقتاً بالوقت الذى يقع فيه ما أنذروا به .. متى هو ؟

ولم يجب القرآن على : « متى هو ؟ » وإنما أجاب على : « كيف هو ؟ وعلى أية صورة يقع ؟ .

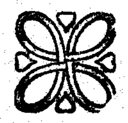
أما وقوعه فهو أمر لاشك فيه . .

وأما الصورة التى يقع عليها ، فإنها بلاء على المشركين ، يومَ يقفون وجهاً لوجه بين يدى هذا اليوم للحساب والجزاء . . حيث لا يقبل منهم إيمان فى هذا اليوم ، ولا يؤخر حسابهم ليوم آخر ، حتى يصلحوا ما أفسدوا . . « ولا هم يُنظرون » فقد انتهى أجلهم ، وطويت صحف أعمالهم ، على ما ضُمّت عليه من كفر وضلال . .

قوله تعالى :

* « فأعرض عنهم وانتظر .. إنهم منتظرون » .

بهذه الآية تختم السورة . . وبهـذا الأمر القاطع ينحسم الموقف بين النبي وأهل الشرك من قومه . . إنه بلغ رسالة ربه ، وبالغ في إبلاغها . . مبشراً ومنذراً ، فلم يزدهم ذلك إلا عناداً ، وضلالا . . وإذن فليطوِ النبي كتابه ، وليُعرِضِ عنهم ، فلا يأبَه لسفهائهم ، ولا يقف عند ما يُلقون إليه من أذَى ، كما يقول سبحانه : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » (١٩٩ : الأعراف) ثم لينتظر حكم الله ، وما يقضى به بينه وبينهم ، ولا يعجل ، فإنهم منتظرون ، لا يملكون التحول عما يريد الله فيهم . .



٣٣ - سورة الأحزاب

نزولها : مدنية . .

عدد آياتها : ثلاث وسبعون آية . .

عدد كلماتها : ألف ومائتان وثمانون كلمة . .

عدد حروفها : خمسة آلاف وسبعمائة وستة وستون حرفا . .

مناسبتها لما قبلها

مع أن هذه السورة مدنية ، ومع أن السورة التى قبلها (السجدة) مكية ، ومع الفاصل الزمنى الممتد بينهما ، فقد اتصلت السورتان بعضهما ببعض ، والتقى ختام السابقة منهما ببدء التالية ، حتى لكأنهما سورة واحدة .. وهذا مما يدل على أن ترتيب السّور فى المصحف توقيفى كترتيب الآيات فى السور . وهذا يعنى أن الصورة التى نزل عليها القرآن تختلف جمعاً وترتيباً — وإن لم تختلف مادة وموضوعاً — عن الصورة التى انتظم عليها نظام القرآن ، بعد أن تم نزوله ، فى العرضة الأخيرة التى كانت بين جبريل وبين النبىّ — صلوات الله وسلامه عليهما — على ما سنرى ذلك عند تفسير السورة .

وهنا يلقانا أمر نحبُّ أن نقف عنده ، وننظر فيه ، وفى الآثار التى تنجم عنه . .

[فتنة الترتيب النزولى للقرآن]

فهناك دعوة جديدة محمومة بدأت تظهر فى آفاق مختلفة فى محيط العالم الإسلامى ، وفى خارج هذا المحيط ، تدعو إلى إعادة نظم القرآن وجمعه على حسب ترتيب نزوله .. بمعنى أن يكون المصحف القرآنى المقترح ، مبتدئاً بأول آية تلقاها

النبى الكريم ، وحياً من ربه ، ثم الآية التى تليها ، وهكذا آية آية ، وآيات آيات ، حتى آخر آية نزلت على النبى . .

وهذا أمر يبدو فى ظاهره أنه دراسة من الدراسات التى تخدم القرآن ، مثل تلك الدراسات التى قامت حول الكتاب الكريم ، كأسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، والمكى والمدنى ، والنهارى والليلى ، وما نزل ببيت المقدس ، وما نزل بالطائف ، وما نزل بالسفر ، وما نزل بالحضر ، إلى غير ذلك من تلك الدراسات الكثيرة ، التى تدور فى فلك القرآن ، ولا تمس الصميم منه . .

ومن هنا كان خطر هذه الدعوة ، التى قد ينخدع لها كثير من المسلمين ، والتى ربما اندفع فى تيارها ، بعض العلماء ، عن نية حسنة ، ومقصد سليم ، إذ كان الأمر فى ظاهره دراسة فى كتاب الله ، وفتحًا جديدًا ، يعد كشفاً من كشوف العلم الحديث فى دراسة القرآن . .

ويبدو الخطر الذى يتهدد القرآن من الفتنة ، ماثلا من وجوه :

فأولا : استحالة ضبط صورة القرآن على حسب الترتيب النزولى لآياته . . حيث لم يُعرف الترتيب النزولى إلا لعدد محدود من آيات القرآن ، لا تمثل إلا أقل القليل منه . . قد لا تتجاوز بضع آيات ، أو عشرات من الآيات على أكثر تقدير .. وحتى هذا القليل الذى يقال إنه معروف الترتيب ، لم يقع الإجماع بين العلماء عليه ، وحتى أنهم لم يتفقوا على أول ما نزل به الوحى ، كما لم يتفقوا على آخر ما نزل به . . فبينما يقول أكثرهم إن أول ما تلقى النبى من وحى ، هو قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم » — بينما يقول أكثرهم هذا ، يقول بعضهم — كما فى صحيح مسلم — إن أول ما نزل من القرآن « المدثر »

كما يقول آخرون ، إن أول ما نزل من القرآن « الفاتحة » ثم نزل بعدها المدثر ، ثم الآيات الثلاث الأولى من سورة « نوح » .

وبينما يقول أكثر العلماء ، إن آخر القرآن نزولا هو قوله تعالى : « اليومَ أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » (٣ : المائدة) إذ يقول آخرون إن آخر ما نزل من القرآن هو : « إذا جاء نصر الله والفتح » ويقول غيرهم إن آخر القرآن نزولا هو قوله تعالى : « واتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله » (٢٨١ : البقرة) وفى البخارى أن آخر القرآن نزولا : « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة » (١٧٦ : النساء) .

فإذا كان المسلمون لم يتفقوا على أول آيات نزلت من القرآن ، كما لم يتفقوا على آخر ما نزل منه ، فكيف يقع اتفاقهم فيما وراء ذلك ؟ والمعروف أن أوائل الأمور ، وأواخرها أكثرُ إلفاتاً للناس وشدًّا لانتباههم ، وإيقاظاً لمشاعرهم ، وتعلقاً بذاكرتهم ، من غيرها !

ثانياً : لو سارت هذه الفتنة إلى غايتها ، وسُلِّم لأصحابها أن يمضوا بها كما يشاءون — ومع افتراض النية الحسنة فيهم — فإن الذى سيحدث من هذا هو أن تتغير صورة القرآن تغيراً كبيرا ، لا يصبح معه القران قرآناً ، بل سيكون هناك عشرات ، بل مئات وألوف من المصاحف التى تسمى قرآناً ، والتى لا يلتقى واحد منها مع آخر . . وكل ما فيها أنها آيات القرآن ، انفرط عقدها ، وتناثرت آياتها ، كما تتناثر أجزاء آلة من الآلات الميكانيكية أو الكهربية ، ثم تتناولها أيدى أطفال ، يجمعونها ويفرقونها كما يشاءون !

ونضرب لهذا مثلا من القرآن ، لصورة من تلك الصور التى يمكن أن نجىء عليها سورة كسورة العلق مثلا ، وهى التى يكاد يتفق العلماء على أن الآيات الأولى منها كانت أولَ ما نزل من الوحى . . وهى قوله تعالى : « اقرأ باسم

ربك » إلى قوله تعالى : « علم الإنسان مالم يعلم » .. ثم نصل هذه الآيات بما قيل إنه كان أولَ ما تلقاه النبي بعدها من آيات ، وهى قوله تعالى : « يٰأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر » ثم نصل بها ما كانَ تالياً لها فى النزول ، وهى الآيات الثلاث من أول سورة « نوح » . .

ونقرأ هذا القرآن :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم * يٰأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر * إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم * « قال يا قوم إنى لكم نذير مبين * أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون * يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون » . .

هذه صورة ، أو سورة ، مما يمكن أن يقرأ عليه القرآن ، لو أُخذ بالترتيب النزولى ، الذى تدعو إليه تلك الفتنة ، وذلك على قول واحد من تلك الأقوال الكثيرة المختلفة فى هذا الترتيب . . فكيف لو أخذ بكل قول ؟ ثم كيف لو أخذ بالأقوال المختلفة كلها فى القرآن كله ، فى ترتيب نزوله ؟ إنه — والأمر كذلك — لا تكاد تجتمع آية إلى آية ، حيث لا تلتقى رواية على رواية ، ولا يتفق قول مع قول . . وبهذا يكون أىّ ترتيب لآيات القرآن ، صالحاً لأن يَقبل أى دعوى تدّعى أنه الترتيب الذى نزل عليه . . وتستوى فى هذا جميع الدعاوى التى تدعى ، إذ كانت كلها ترجع إلى غير مستند صحيح ، يعول عليه .. ومن هنا يتسع المجال للكيد ، وتنفسح السبيل للأهواء . وإذا الذى فى أيدى

المسلمين أعداد لا تحصى من كتاب الله . . حتى ليكاد يكون لكل مسلم قرآن يقرؤه على الترتيب الذى يراه . .

وانظر ، ماذا يكون وراء هذا من بلاء ، وفتنة !

فمثلا إذا قرأ قارىء آية ، ثم أتبعها أخرى ، وجد مئات ، وألوفا من الخلاف عليه ، هذا يقول : إن الآية التالية هى كذا ، وذاك يقول إنها هكذا . وثالث ، ورابع . . إلى مئات المقولات وألوفها . . وحسب المسلمين من هذا فرقة وشتاتا . . ! مع أن هذا أقل ما يرد عليهم من شرور هذه الفتنة ، إذا كان هذا الخلاف فى غير آيات الأحكام . . أما إذا وقع ذلك فى آيات الأحكام ، وهو واقع لا محالة ، فهيهات أن تقوم للمسلمين شريعة ، أو ينتظم لهم له رأى فى حكم من أحكام دينهم . .

وخذ مثلا لهذا ، الآياتِ الواردة فى الخمر ، أو الربا ، والتى روعى فى نزولها أخذ المسلمين بالرفق والحكمة ، فى تحريم هذين المنكرين . . فجاء الحكم فى تحريمهما متدرجا ، من التنزه والتعفف ، إلى الكراهية ، ثم إلى التحريم . .

إن لقائل أن يقول : إن آياتِ الخمر نزلت على هذا الترتيب :

« يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . . يأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون . . ولا جنبا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا * يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم

تتفكرون * فى الدنيا والآخرة ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم » .

وإن لقائل هذا القول لمنطقاً ، إذ أن له أن يقول ، إن آيات الخمر نزلت جملة واحدة ، جمعت أطراف الأمر كله ! وعلى هذا يكون النظر فى حرمة الخمر وحِلّه . . ثم إن له أن يقول — وإن لقوله لمنطقاً — : إن الخمر ليس حراماً حرمة مطلقة ، إلا أن يسكر منه شاربه ، ثم يصلى وهو سكران !

ويقال مثل هذا كذلك فى الربا ، على اعتبار أن آخر الآيات نزولا هى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » . . فالربا لا يكون — على هذا الاعتبار حراماً إلا إذا كان أضعافاً مضاعفة .

وهكذا يمكن أن تعرض أحكام الشريعة كلها على آيات القرآن ، وتستدار لها الآيات على أى وجه يقيمه الناس عليه . .

وثالثاً : لو سُلِّم جدلا ، بإمكان ترتيب القرآن ترتيباً زمنياً بحسب نزوله — وهو أمر مستحيل استحالة مطلقة — فما جدوى هذا ؟ وماذا يعود على دارسى القرآن منه ؟

لقد أشرنا إلى بعض الأخطار المزلزلة التى تهدد الإسلام — شريعة وعقيدة — من هذه الفتنة . . فهل وراء هذه المجازفة شىء من الخير ، يقوم إلى جوار هذه الشرور العظيمة الفاجعة منها ؟ إن كل شر يقوم إلى جواره بعض الخير ، الذى قد يجعل للشر وجهاً يُحتمل عليه ، ويبرِّر الأخذَ به . . فهل فى هذا الشر أية لمحة من لمحات الخير ؟ .

والذى نقطع به أن هذا العمل شر محض ، وإن زين أهلُه ظاهرَه بهذا

الطلاء الزائف ، تحت شعار الدراسة التاريخية للقرآن ، على نحو الدراسة الجغرافية ، أو الدراسة النفسية ، أو غير ذلك من الدراسات التى تضاف إلى القرآن ، وتدور فى فلكه ، دون أن تمس الصميم منه ..

* * *

ولا نقف طويلا فى مواجهة هذه الفتنة ، ولا نمعن النظر كثيراً فى وجهها الكئيب المشئوم .. وننظر فى كتاب الله ، الذى فى أيدينا ، نظراً مباشراً ، على ماتركه فينا من أنزل إليه هذا الكتاب ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فهذا هو القرآن الذى أُمرنا بالتعبد به تلاوة ، والعمل بأحكامه ، وآدابه على ما نتلوه عليه .. فهذا هو قرآننا ، وهذا هو ديننا الذى نتلقاه من كتابنا .. وإن أية تلاوة تقوم على غير هـذا الوجه ، هى كلام ، لا قرآن ، وإن أية شريعة تقوم على غير هذه التلاوة ليست من شريعة الإسلام ، ولا من دين الله ، سواء التقت مع شريعة الله أو لم تلتق معها ، وسواء أوافقت دين الإسلام ، أو خالفته ..

نقول هذا ، ونحن على علم ، وعلى إيمان بأن القرآن الكريم نزل منجما ، ولم ينزل جملة واحدة ، وأنه كان فى مرحلة نزوله ، على ترتيب غير هـذا الترتيب الذى انتهى إليه ، بعد أن تم نزوله ! .

فهناك دوران قام عليهما بناء القرآن الكريم .. دور الدعوة .. ثم الدور الذى تلاها .. ولكل من الدورين أسلوبه ، وغايته .

القرآن فى دور الدعوة :

ونزول القرآن فى دور الدعوة ، قام على أسلوب خاص ، من حيث تنجيم النزول ، وترتيبه معاً ..

فمن حيث التنجيم .. لم ينزل القرآن جملة واحدة .. بل نزل آية آية ، وآيات آيات ، حسب مقتضيات الدعوة ، ومستلزمات أحداثها .. وقد بين الله سبحانه وتعالى الحكمة فى هذا ، فقال تعالى : « وقرآنا فَرَقْناه لتقرأه على الناس على مُكث ونزلناه تنزيلا (١٠٦ : الإسراء) كما زاد ذلك بياناً فى قوله سبحانه : « وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة ؟ .. كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا * ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » (٣٢ — ٣٣ الفرقان) .

ومن حيث ترتيب النزول .. فقد نزل القرآن لغاية تحقق أمرين :

أولهما : اقتلاع الشرك ، الذى كان قد استولى على الحياة الإنسانية كلها ، واغتيال مواطن الإيمان فى كل بقعة منها .. ليقيم فى الأرض مكاناً للإيمان بالله ، حتى يعتدل ميزان الإنسانية ، ويكون لها نهار يدور فى فلكها ، مع هذا الليل الطويل الذى تعيش فيه ..

وثانيهما : إقامة شريعة فى تلك المواطن التى قام فيها الإيمان ، حتى تثبت أصوله ، وتطلع ثمراته ، فيكون منها زاد طيب لأهل الإيمان ، يعيشون فيه ، وتطيب لهم وللناس الحياة معه ..

ولتحقيق الأمر الأول ، كانت معركة الإسلام الأولى منحصرة فى ميدان الشرك .. ومن هنا كانت آياته التى تنزل فى هذه المرحلة من مراحل الدعوة ، جنداً مرسلة من الله ، تدكّ معاقل الشرك ، وتهدم حصونه ، وتفتح للعقول والقلوب ، الطريقَ إلى الله ..

وقد استغرقت هذه المرحلة الجزء الأكبر من الدعوة الإسلامية ، فى إقامة الحجج على وجود الله ، وكشف البراهين على وحدانيته ، وماله سبحانه من

صفات الكمال والجلال .. ثم فى فضح الشرك ، وتعرية آلهة المشركين من كل ما ألقوه عليهم من أوهام وضلالات ..

وفى أثناء هذا الدور كانت تتنزل بعض الآيات فى الدعوة إلى مكارم الأخلاق ، وفى إقامة مشاعر الناس على الأخوة الإنسانية ، وعلى الصبر ، والرفق ، والإحسان إلى غير ذلك مما يليق بمن يعرف الله ، ويؤمن به ، ويدخل فى زمرة عباده الذين يبتغون مرضاته ، ويرجون رحمته . .

فلما انكسرت شوكة الشرك ، وأوشكت دولته أن تدول ، أخذت آيات الله تتنزل بأحكام الشريعة التى تقوم عليها الحياة الروحية والمادية لهذا المجتمع الذى آمن بالله ، وأجلى الشرك من موطنه ، فكان ماينزل من آيات الله فى هذا الدور ، يكاد يكون مقصوراً على بناء أحكام الشريعة ، من عبادات ، ومعاملات ، وحدود ، ومن سلم ، وحرب ، وغنائم ، وغير ذلك مما ينتظمه قانون الشريعة الإسلامية ..

وكان من مقتضيات حكمة الشريعة القائمة على اليسر ، ورفع الحرج ، أن جاءت كثير من أحكام الشريعة متدرجة فى تكاليفها من السهل إلى الصعب ، لأنها كانت تتعامل مع أناس قطعوا شطراً كبيراً من حياتهم فى الجاهلية ، ورسب فى نفوسهم ، واختلط بمشاعرهم كثير من ضلالاتها . . فكان مما قتضته الحكمة الإلهية أخذ هؤلاء الذين لقيهم الإسلام على أول دعوته ــ بالرفق ، والتلطف ، حتى يألفوا هذا الدين ، ويتقبلوا أحكامه ، ويأخذوا أنفسهم بها . . ولو أخذوا بغير هذا الأسلوب ، لتغير موقفهم من الشريعة ، ولما أحدثت فيهم هذه الآثار العظيمة التى أخرجت منهم خير أمة أخرجت للناس .

هذا هو الخط الذى قامت عليه سيرة الدعوة الإسلامية ، وعلى هذه

المسيرة كانت تتنزل آيات الله بالزاد الذى تحتاج إليه كل مرحلة . . حتى كانت آخر آية نزلت من كتاب الله ، كانت الدعوةُ قد بلغت غايتها ، وآتت الثمر المرجو منها . فنزل قوله تعالى :

« إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً * فسبح بحمد ربك واستغفره .. إنه كان تواباً » مؤذناً بمصالحة السماء الأرض، مصالحة وداع ، بعد أن أودعت فيها هذا الزاد العتيد . . ثم كانت آية الختام : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » ! .

القرآن بعد دور الدعوة :

وإلى هنا كان الرسول ، قد تلقى القرآن الكريم كله من ربه ، وحفظه فى قلبه ، كما حفظه كثير من المسلمين معه ، كما كان كتّاب الوحى قد استكملوا كتابته .

والسؤال هنا : على أية صورة كان القرآن عند آخر آية نزلت ؟ وهل كان على ترتيب النزول ، أم على هذا الترتيب الذى هو عليه الآن ؟ .

والجواب على هذا :

أولاً : من المقطوع به أن القرآن عندما نزلت آخر آية منه لم يكن على هذا الترتيب الذى هو عليه الآن ، كما أنه لم يكن على ترتيب النزول . . وذلك أن الرسول ــ بوحيٍ من ربّه ــ كان خلال العشرين سنة أو تزيد ، التى نزل فيها القرآن ، يرتب الآيات ، فيضع ــ بوحى من ربّه ــ آياتٍ مدنيةً فى سور مكية ، كما يضع آياتٍ مكية فى سور مدنية . . فكانت عملية النقل هذه تغيّر من صورة السّور ، طولًا وقصراً ، فيُنقل من هذه السورة آيات إلى تلك ، ومن تلك إلى أخرى ، وهكذا فى اتصال دائم بدوام نزول القرآن .

وثانياً : بعد أن تم « نزول القرآن » ، ولم تعد ثمة آيات أخرى يوحَى بها ، كان عمل الوَحى ، مع النبىّ صلوات الله وسلامه عليه ، هو ترتيب القرآن على هذا الترتيب الذى أراده الله سبحانه وتعالى عليـــه ، وهو ما نجده بين دفتى المصحف ، كما تركه الرسول ، بعد تلك المرضة أو العرضتين أو الثلاث ، التى كانت بين جبريل وبين النبىّ .

وثالثاً : لم يترك النبى صلى الله عليه وسلم — هذه الدنيا ، ويلحق بالرفيق الأعلى ، حتى كان صحابة رسول الله ، وحتى كان كتّاب الوحى ، قد أخـــذوا الصورة الـكاملة ، فى تحديد دقيق ، للقرآن الـكريم ، وعرفوا مكان كل آية من سورتها ، ومبدأ كل سورة وختامها ، وما بين بدئها وختامها . .

ومن الموافقات العجيبة ، التى نعدّها نفحة من نفحات القرآن الـكريم ، أننا نعرض لهذا البحث — من غير تدبير — فى سورة الأحزاب . . ففى سورة الأحزاب هذه مقولات تقال ، وروايات تروى . .

ففى مسند أحمد عن زِرّ بن حُبيش ، قال : قال لى أُبىّ بن كعب كائن (أى كم) تقرأ سورة الأحزاب ، أو كائن (أى كم) تَعُدّها ؟ قلت : ثلاثا وسبعين آية .. فقال (أى أبىّ) :لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة .. ولقد قرأنا فيها : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فاجلدوهما ألبتة نـكالا من الله والله عزيز حكيم » فرُفع فيما رفع . . ! !

ولقد بنى على هذه الرواية أن قرآناً كثيراً نسخ تلاوة ، وأن قرآناً آخر نسخ تلاوة ولم ينسخ حكماً ، كهذه التى يقال إنها كانت آية قرآنية : «الشيخ والشيخة » . . وقد عرضنا لموضوع النسخ فى أكثر من موضع . . فلا نعرض له هنا . .

وإنما الذى نقف عنده من هذا الخبر — على اعتبار صحته — هو : كيف كانت سورة الأحزاب تعادل سورة البقرة ؟ فما تأويل هذا ؟ وكيف أصبحت سورة الأحزاب ثلاثا وسبعين آية بينما سورة البقرة تبلغ مائتين وستا وثمانين آية ؟

والجواب على هذا ، أن سورة الأحزاب كانت تعدل فى طولها أو امتدادها سورة البقرة ، وأنه فى العرضة أو العرضات التى كانت بين جبريل ، وبين النبى أخذت كثير من الآيات فى سورة الأحزاب مواضعها من سور القرآن المكىّ ، أو المدنىّ ، حتى صارت على هذه الصورة التى هى عليها . .

وعلى هذا فلم يكن قرآن رُفع منها ، رفعَ نسخ ، تلاوة وحكماً ، بل الذى كان هو قرآن رفع منها إلى مواضع أخرى من القرآن . . كما حدث ذلك فى كثير من آيات القرآن . .

ونعود إلى ما كنا فيه من ترتيب القرآن بعد دور الدعوة ، فنقول : إنه وقد انتهى دور الدعوة ، وأدى الرسول رسالة ربه ، ودالت دولة الشرك ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا — كان لابد أن ترتب آيات الله ، على هذا الترتيب الذى أمر الله به ، بعد أن نزلت آخر آية من القرآن الكريم . . فقد كان الترتيب النزولى مقدّراً بحاجة الدعوة فى مسيرتها من مبدئها إلى ختامها ، وموقوتا بهذا الوقت الذى يكمل فيه نزول القرآن . فلما تم نزول القرآن ، وختم الرسول دعوته ، أخذ القرآن هذا الترتيب السّماوى ، الذى يعيش فى ظله ، مجتمع مسلم ، آمن بالله ، وبآيات الله ، ورسول الله . . ولم يعد من تدبير القرآن أن يواجه الناس آية آية ، أو آيات آيات ، أو يلقاهم حالا بعد حال ، وحدثاً إثر حدث ، وإنما الذى يلقاهم منذ ختام الرسالة كتاب الله جميعه .. كأنه آية واحدة هى شريعة الله ، ودستور المسلمين . .

لقد كان القرآن فى دور الدعوة يعمل فى أكثر من جبهة ، فهناك جبهة المشركين . . ثم جبهة أهل الكتاب وخاصة اليهود ، ثم جبهة المنافقين . . ثم قبل هؤلاء وأولئك جميعاً جبهة المؤمنين ، الذين يتلقون هدى السماء ، وينشّئون فى حجر الإسلام . . فكان للقرآن مع كل جبهة موقف ، وإلى كل طائفة قول، فلما أتم القرآن رسالته ، لم تعد إلا جبهة المؤمنين ، هى وحدها التى يعنيه أمرُها ، وهى التى ستصحبه ، وتعيش فى ظله . جيلا بعد جيل ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . فكان هذا الترتيب الذى رُتب عليه القرآن بأمر الله ، إلغاء لعنصر الزمن ، الذى يحدد بدء القرآن ونهايته ، ومولده وفِطامه . . فهو كلام الله ، القديم أزلا ، الخالد أبداً . .

وبعد ، فإن هذه الفتنة أخطر سلاح يحـــارب به الإسلام ، ويُرمى به فى الصميم منه .. وأنه لو قدر لها — لا قدّر الله — أن تجد فى المسلمين من يستمع لها ، أو يغمض العين عنها ، لأتت على الإسلام ، ولنالت منه مالم تنله السيوف والحراب التى وجهها أعداء الإسلام من يوم أن ظهر الإسلام ، إلى يوم الناس هذا .. فليتنبه المسلمون إلى هذا الخطر ، وليرصدوا له كل ما لديهم من إيمان بالله وبكتاب الله ، وليضربوا على الأيدى التى تمتد إلى كتاب الله بهذه الفتنة ، بكل ما يملكون من أموال وأنفس : « ولينصرنّ اللهُ من ينصره . . إن الله لقوىّ عزيز » .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٥)

* « يَـأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (١) وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (٣) مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ (٤) ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « يأيها النبيّ اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما » . .

ختمت سورة « السجدة » بقوله تعالى : « فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون » وهو أمر للنبي بالإعراض عن المشركين ، والاتجاه إلى وجهة أخرى ، حيث لم يُجْدِ مع هؤلاء المشركين، هذا الوقوف الطويل الذى وقفه معهم، منذراً ومبشراً . .

وفى قوله تعالى« يأيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين » تأكيد لهذا الأمر .. وذلك بأن يَثبت النبي على تقوى الله ، وأن ينظر إلى نفسه أولاً ، وألا يشغله أمر المشركين ، والحرصُ على هداهم،عن أمر نفسه ، كما أنهم مسئولون عن أنفسهم ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فإن تولوا فإنما عليه ما حُمّل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين » (٥٤ : النور) .

— وفى قوله تعالى : « ولا تطع الكافرين والمنافقين » هو كشف عن هذا البلاء الذى يحيط بالكافرين والمنافقين . . وفى هذا تنبيه للنبى إلى أن يأخذ حِذْره ، وأن يتوقى هذا الداء الذى يغتال هؤلاء المصابين به .

— وفى قوله تعالى : « إن الله كان عليما حكيما » تعقيب على هذا الأمر الذى تلقاه النبى من ربه ، فهو أمر من العليم الحكيم ، الذى يقوم أمره على علم وحكمة ، فبعلمه سبحانه كشف هذا الخطر الذى يتهدد النبى من استجابته للكافرين والمنافقين إلى ما يدعونه إليه من أن يعبد مايعبدون ، وأن يعبدوا هم ما يعبد ، وبحكمته — تعالى — أمر بتجنب الخطر قبل الوقوع فيه . . فإن توقّى الداء خير وأسلم من علاجه .

قوله تعالى :

* « واتّبِعْ ما يوحَى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا » . — هوأمر من لوازم النهى الذى جاء فى قوله تعالى: «ولا تطع الكافرين والمنافقين» فمن لازم هذا النهى أن يتبع النبى ما أوحى إليه من ربه . .

وفى هذا الأمر ، كما فى النهى السابق عليه ، تأكيد لما بين النبى وبين الكافرين والمنافقين من بعد بعيد ، وأن كلا منهما على طريق ، فلا يلتقيان أبداً ، إلا إذا حاد هؤلاء الكافرون والمنافقون عن طريقهما ، وسلكوا طريق النبى واتبعوا سبيله . . أما النبى ، فهو ماض على ما معه من آيات ربه ، لا يلتفت يميناً أو شمالا . .

— وفى قوله تعالى : « إن الله كان بما تعملون خبيرا » . تهديد للكافرين والمشركين ، وأن الله سبحانه مطلع على ماهم فيه من منكر ، وسيجزيهم بما كانوا يعملون . .

قوله تعالى :

* « وتوكلْ على الله وكفى بالله وكيلا » .

هو تثبيت للنبي ، وإيناس له من ربه ، بالتوكل عليه وحده ، وأنه لا وحشة ولا خوف عليه من قطيعة الكافرين والمنافقين ، الذين يساكنونه ، ويعيشون بين جماعة المسلمين .. فإنهم وإن كانوا كثرةً في العدد ، ووفرةً في المال ، فإنهم أخف ميزانا ، وأضعف شأنا ممن يسند ظهرَه إلى الله ، ويسلم أمره إليه .. « وكفى بالله وكيلا » .

قوله تعالى :

* « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تُظاهرون منهن أمهاتِكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » ..

تقرّر الآية الكريمة حقيقةً واقعة ، هى أنه « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » إذ أن ذلك من شأنه أن يفسد نظام الجسد ، إذ يقوم في كيانه قوتان ، تعمل فيه كل قوة عملَ الأخرى ، ومن هنا تعمل كل منهما على إجلاء الأخرى من مكانها ، فيقع الجسد نهباً لهذا الصراع بينهما ، إذ كل منهما تريد أن يكون لها السلطان عليه .. ويبنى على هذه الحقيقة أمور :

أولا : أنه لا يجتمع في كيان إنسان ولاء لله ، وولاء لأعداء الله .. فذلك من شأنه أن يفسد الأمرين معاً ، لأنه جمع بين النقيضين : فإما ولاء لله ، وإما ولاء لأعداء الله .. وفى هذا يقول السيد المسيح : « لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يُبغض الواحدَ ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر » ..

وثانيا : أنه كما لا يجتمع فى جوف إنسان قلبان ، كذلك لا يجتمع فى ذات امرأة أن تكون أمّا وزوجًا فى آن واحد .. ومن ثَمّ فإن معاملة الزوجة كأم فى الحرمة ، وذلك فى قول الرجل منهم لامرأته : « أنت علىّ كظهر أمى » ـ هذه المعاملة التى تجعل الزوج أمّا ، فيها قلب للأوضاع ، وتعمية وخلط للحقائق . . فالزوج زوج ، والأم أم ، لا يجتمعان فى ذات واحدة ، لشخص واحد . .

وثالثاً : وكما لا تكون زوج الرجل أمّا ، كذلك لا يكون مُتَبَنّاه ابناً له .. فهذا غير ذلك ، ولا يجتمع متبنى وابن فى ذات واحدة ، لرجل واحد .. ومن ثَمّ فإن ما كان يتخذه الجاهليون من تبنى أبناء غيرهم ، ومعاملتهم معاملة الأبناء من الصلب ، فى الميراث وغيره ـ هو تضييع للأنساب ، وتزييف للواقع ، وجمع بين ما هو باطل وما هو حق .

وقد كان العرب فى جاهليتهم ـ تحت ظروف الحياة التى تعتمد على الاستكثار من الرجال ـ يعملون جاهدين على إلحاق غير أبنائهم بهم ، ممن يتوسمون فيهم القوة والشجاعة .

فلما جاء الإسلام ، وأقام حياةَ الناس على العدل ، ودفع بأسَ بعضهم عن بعض ـ لم تعد ثمة داعية إلى الإبقاء على هذه العادة ، ولكن كان هناك كثير من الحالات أدركها الإسلام وقد أخذت وضعها فى المجتمع ، ولم يكن من اليسير التخلص منها بعمل فردى . ومن أجل هذا فقد جاء التوجيه السماوى بإنهاء هذه العلاقة المصطنعة ، التى كانت قائمة بين الأدعياء والآباء ، وإقامة علاقة أخرى مقامها ، أوثقَ عرى ، وأقربَ قرابة ، هى علاقة الأخوّة فى الدين ، وقرابة الولاء لله بين المؤمنين ..

وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم متبنًّى هو « زيد بن حارثة » الذى كان مولى للسيدة خديجة — رضى الله عنها — فلما تزوجها النبى ، وهبته زيداً ، ولما علم أبو « زيد » أن ابنه فى يد النبى ، جاء يطلبه — وكان قد أسره بعض العرب ، وباعه ، فوقع ليد السيدة خديجة ، ثم ليد النبى ـ فخيَّر النبى زيداً بين أن يلحق بأبيه أو يقيم معه ، فاختار أن يقيم مع النبى ، فأعتقه النبى ، وألحقه به ، فكان يُدْعى زيدَ بن محمد ..

فلما نزلت الآية : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » أصبح زيد يدعى زيدَ بن حارثة . . وهكذا تبع المسلمون النبى فى هذا ، وتخلوْا عن نسبة أدعيائهم إليهم . .

— وقوله تعالى: « ذلكم قولكم بأفواهكم » ـ الإشارة «ذلكم» إلى الظِّهار ، وإلى التبنى ، وأن ذلك ليس من الحق فى شىء ، وإنما هو قول يقال ، ولا مستند له ، ولا حجة عليه . .

— وفى قوله تعالى : « بأفواهكم » ـ إشارة إلى أن الكلمة إذا لم تكن عن وعى وإدراك ، ولم تقم على منطق وحجة ـ كانت لغواً ، وهذْراً ، لا وزن له .

— وقوله تعالى : « والله يقول الحق » يقوله سبحانه دائماً .. فكل قول لله ، هو الحق المطلق . .

— وقوله تعالى : « وهو يهدى السبيل » بكلماته ، وآياته .. فمن استمع إليها ، واستجاب لها هدى إلى صراط مستقيم .

قوله تعالى :

* « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم

فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما » .

هو التطبيق العملى ، لما كشفت عنه الآية السابقة ، من بطلان التبنى . . فيترتب على هذا أن يُلحق الأدعياء بآبائهم ، وأن ينتسبوا إلى مَن وُلدوا فى فراشهم ، فذلك هو الحق ، والعدل : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » أى هذا العمل هو المقبول عند الله ، لأن الله حق ، ولا يقبل إلا حقاً . . وفى تعدية الفعل « ادعوهم » باللام ، إشارة إلى تضمنه معنى الفعل : انسبوهم ، أو ردّوهم ، ونحو هذا .

— وقوله تعالى : « فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » أى إن لم يكن لأدعيائكم آباء معروفون لكم ولهم ، فادعوهم إخوانا لكم فى الدين ،وأولياء لكم مع جماعة المؤمنين ، كما يقول الله تعالى:«إنما المؤمنون إخوة» وكما يقول سبحانه : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » . (٧١ : التوبة) .

—وقوله تعالى : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به . . ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما » هو تفرقة بين ما يقع على سبيل الخطأ والسهو ، وما يقع عن تعمد وقصد ، فيما يقع بعد تطبيق هذا الأمر ، ودعوة الأدعياء لآبائهم فما وقع من خطأ فى دعوتهم لمن كانوا آباء لهم بالتبنى ، فهو مما تجاوز الله عنه ، وما كان عن عمد ، فهو مما يقع موقع المؤاخذة ، ولكن الله غفور رحيم ، لمن رجع إلى الحقّ ، وأصلح ما كان منه .

الآيات : (٦ — ٨)

* « ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ

إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا (٦) وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا (٧) لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك فى الكتاب مسطورا » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة ، كشفت عن زيف علاقاتٍ أقامها الجاهليون بين الأشياء ، على غير الحقّ ، إرضاء لهوًى ، أو استجابة لتصور فاسد . . مثل معاملة الزوجة معاملة الأم فى تحريمها بالظهار ، وفى إقامة الدعىّ مقام الابن فى النسب والإرث . .

وفى هذه الآية ، يقيم القرآن علاقات بين ذوات متباعدة فى النسب ، ويجعل بينها من التلاحم ، والتوادّ ، ورعاية الحرمات ، أكثر مما تقضى به دواعى النسب والقرابة . . !

فالنبى — صلوات الله وسلامه عليه — وإن لم يكن بينه وبين المؤمنين علاقةُ نسب وقرابة ، هو أقرب إليهم من كل قريب ، وآثر عندهم من كل قرابة ، . بل إنه لأولى بهم من أنفسهم .. والله سبحانه وتعالى يقول : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة

تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره » (٢٤ : التوبة) ويقول سبحانه : « ما كان لأهل المدينة ومَن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » (١٢٠ : التوبة) . .

إن النبىّ هو الأب الأعظم للمؤمنين ، هو الذى أحيا مواتهم ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، فكان له بهذا سلطان مطلق على وجودهم الرّوحى ، الذى لا وجود لهم إلاّ به .. يقول النبى الكريم : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبّ إليه من والده وولده ، والناس أجمعين » . .

ويقول أيضاً : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه » . .

وطبيعى أن النبى — صلوات الله وسلامه عليه — لا يبغى بهذا الحب الذى يؤثره به المؤمنون — لا يبغى به سلطاناً على النفوس ، ولا تسلطاً على الناس ، وإنما يبغى به توثيقَ إيمان المؤمنين بالله ، وإخلاص ولائهم وحبهم لله ، لأن من أحبّ الله أحبّ رسولَه . .

وأزواج النبى ، هنّ من حرماته ، التى ينبغى أن يرعاها المؤمنون أكثرَ من رعايتهم لحرماتهم .. فهنّ أمهات لكل مؤمن ، ولهنّ ـ بهذا ـ من التوقير والاحترام ما للأم من التوقير والاحترام . . وكما لا يحل للابن أن يتزوج أمه ، كذلك لا يحلّ للمؤمن أن يتزوج امرأة تزوج بها النبىّ ، لأنها أمه .

وفى قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » — تأكيد لخصوصية النبى فى هذا الحكم ، دون الناس جميعاً . . فلا يصح أن يقاس عليه مَلك ، أو أمير ، أو ذو سلطان دينىّ أو دنيوى . .

ومن أجل هذا ، فقد جاء قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض

فى كتاب الله » ليقرّر أن الخصوصية التى للنبى ، لا تَنْقُض ما بين ذوى القربى من صلات قام عليها نظام الحياة الاجتماعية ، وأقرها الله سبحانه وتعالى فى كتابه — أم الكتاب — وفى الكتب المنزلة .. فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى التوادّ ، والتواصل ، والتوارث . .

— وفى قوله تعالى : « من المؤمنين والمهاجرين » . . من هنا بيانية ، لأولى الأرحام ، أى وأولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله . .

أى أنه إذا قام بين المؤمنين ولاء الأخوة فى دين الله ، وقام بين المهاجرين ولاء الإيمان بالله ، والهجرة فى سبيل الله ، فإنه يقوم بين ذوى الأرحام ولاء الرحم إلى جانب ولاء الإيمان والهجرة .. وبهذا يظل لذوى الأرحام من المؤمنين والمهاجرين ولاء الرحم ، فهم أحق بالتوارث فيما بينهم . . وعلى هـــذا فإن التوارث بين ذوى الأرحام على ما قرره القرآن قائم بينهم ، فيحجب ولاء الرحم ، ولاء الإيمان وولاء الهجرة ، إذا اجتمعا معه . .

وقوله تعالى : « إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك فى الكتاب مسطوراً » إلا هنا للاستثناء ، وهو استثناء من عموم الأحوال ، التى دل عليها إطلاق الحكم — فى قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » ، أى أن هذا الحكم مطلق فى جميع الأحوال ، إلا فى حال واحدة ، وهى الحال التى ترون فيها أن تفعلوا معروفاً إلى ذويكم من المؤمنين والمهاجرين ، من غير ذوى الأرحام ، الذين لهم نصيب فى الميراث . . ففى هذه الحالة لكم أن توصوا من ثلث مالكم إلى من ترون الوصية له من المؤمنين والمهاجرين . .

— وقوله تعالى : « كان ذلك فى الكتاب مسطوراً » .

الإشارة « ذلك » إشارة إلى المعروف فى قوله تعالى : « إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً » . . فهذا المعروف هو مما دعا الله إليه ، وحثّ المؤمنين عليه فى غير آية من آيات الكتاب . .

قوله تعالى :

* « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » .

هو عطفُ حَدَث على حدث ، وجمع شأن إلى شأن . .

والحدث المعطوف عليه هو قوله تعالى : «وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » . .

والحدث المعطوف ، هو ما بين الأنبياء من رحم ، تجمعهم على ولاء بعضهم لبعض ، ومناصرة بعضهم لبعض . . وأنه إذا كانت بين ذوى الأرحام ، وشائج القربى ، ولحمة الدم ، فإن بين الأنبياء جامعة الإيمان بالله ، والدعوة إلى الله ، والجهاد فى سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله . فهم جميعًا — المتقدمون والمتأخرون منهم — على طريق واحد ، وفى مواجهة معركة واحدة ، بين الإيمان والكفر والهدى والضلال . . وأن أى لَبِنة من لبنات الحق يضعها نبى من أنبياء الله على هذه الأرض هى دعم للحق ، وإعلاء لصرحه . . ولهذا يقول الرسول الكريم: « الأنبياء أبناء علاّت[1] . . أمهاتهم شتى ودينهم واحد » . .

والميثاق الذى أخذه الله على النبيين ، هو ما أشار إليه سبحانه وتعالى فى

---

(١) أبناء العلات : هم الأخوة لأب ، من أمهات شتى . .

قوله : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه .. قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا أقررنا . . قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » (٨١ : آل عمران) .

وهذا الميثاق ، يمكن أن يكون قد أُخذ على الأنبياء فى عالم الأرواح ، فشهدوه جميعاً . . كما يمكن أن يكون قد أُخذ على كل واحد منهم على حدة ، حين اختاره الله للنبوّة ..

وفى قوله تعالى : « مصدق لما معكم » هو وصف كاشف للنبي الذى يصدقه الأنبياء وينصرونه ، وهو أن يكون نبياً حقاً ، لا دَعِيًّا . . فما أكثر أولئك الذين يدّعون النبوة .. وآية صدق النبي أن يكون طريقه طريق النبوة ، التى لا طريق لها إلا الدعوة إلى الإيمان بالله ، وإفراده سبحانه بالألوهة ، ومحاربة الشرك الظاهر والخفى ، فى كل صوره وأشكاله ، مع معجزة متحدية تكون بين يديه .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، ما قد رأيت ..

أما مناسبتها لما بعدها ، فإن الآيات التى تأتى بعد هذا ستذكر غزوة الأحزاب ، التى اجتمع فيها اليهود مع أهل مكة على حرب النبي .. وأنه إذا كان للمشركين أن يحاربوا النبي : فإنه ما كان لليهود — وهم أهل كتاب ، وأتباع نبى من أنبياء الله — أن ينحازوا إلى جبهة الشرك ، وأن يكونوا معهم حرباً على المؤمنين . . إن الحق يقتضيهم أن يكونوا على ولاء مع المؤمنين ، إذ كان نبيهم على ولاء مع هذا النبي .. ولكنهم خرجوا على هذا الولاء الذى يطالبهم به دينهم ، فكفروا بما فى الكتاب الذى فى أيديهم ، بغياً وحسداً . وفى هذا يقول الله تعالى فيهم: « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا

الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا فبئس ما يشترون » (١٨٧ : آل عمران).

وقدم النبى ، على الأنبياء جميعاً . لأنه خاتم النبيين ، ولأن رسالته هى مجتمع رسالات الأنبياء . . فالأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وإن سبقوه زمناً ، هم متأخرون عنه صلوات الله وسلامه عليه ـ رتبة .. فهو إمامهم الذى انتظم عقدهم ببعثه . .

قوله تعالى :

* « ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً » . .

هو تهديد ووعيد لأهل الكتاب ، الذين نقضوا الميثاق الذى أخذه الله على نبيهم بأن يصدق بالنبى وينصره ، إذا التقى به . . وقد التقى به نبيهم فى أشخاصهم ، وكان عليهم أن يمضوا هذا الميثاق مع رسول الله ، وأن يصدّقوه وينصروه . . وقليل منهم من آمن بالنبى وصدقه ، وأكثرهم نقضوا هذا الميثاق ، فكذبوا النبى ، وكانوا حرباً عليه . .

ـــ وفى قوله تعالى : « ليسأل الصادقين عن صدقهم » ـ إشارة إلى أن هناك مساءلة وحساباً على هذا الميثاق . .

وسؤال الصادقين عن صدقهم ، يكشف عن أنهم أهل وفاء وإيمان ، فيجزون جزاء المؤمنين الموفين بعهدهم . .

وقوله تعالى : « وأعد للكافرين عذاباً أليماً » هو الجزاء الذى يلقاه أهل الغدر والخيانة من أهل الكتاب ، من عذاب أليم ، أعده الله لهم فى الدنيا والآخرة . . إنهم كافرون ، وليس للكافرين إلا العذاب الأليم .

الآيات : (٩ — ٢٠)

* « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ

أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوٓا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) »

التفسير

فى هذه الآيات مقطع من غزوة الأحزاب ، المعروفة بغزوة الخندق . .

وكان يهود المدينة ، من بنى قريظة وبنى النضير ، قد حرّضوا قريشا على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فقد جاء إلى مكة نفر من رؤساء اليهود ، وقالوا لقريش إنا سنكون معكم حتى نستأصله ، ونخرجه من المدينة ، فنَشِطت قريش لذلك ، وأخذت تستعد للحرب ، وتدعو لها أحلافها . . ثم جعل اليهود يثيرون القبائل لهذه الحرب ، فاستجابت لهم قبائل كثيرة .. فلما استكملت قريش عُدتها ، خرجت هى وحلفاؤها فى جيش كثيف ، يقوده أبو سفيان .. وكان ذلك فى شوال من سنة خمس من الهجرة . .

أما اليهود ، فقد استعدوا فى داخل المدينة ، ليأخذوا النبى والمسلمين من ظهورهم ، إذا التحم القتال بينهم وبين قريش . .

ولما علم النبى — صلى الله عليه وسلم — بما أجمع عليه القوم من هذه الأحزاب المتحزّبة على حربه ، استشار أصحابه ، فيما يلقى به هذه الجيوشَ الكثيفة . . فاستقر الرأى على أن يقيم المسلمون خندقاً حول المدينة ، وقيل إن هذا الرأى كان من سلمان الفارسى . .

وبدأ المسلمون فى حفر الخندق ، وقد عمل معهم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان المسلمون يرتجزون وهم يعملون ، بهذا الرجز :

سمّاه من بَعدِ جُعيلٍ عَمراً   وكان للبائس يوماً ظهراً

وكان النبي — صلوات الله وسلامه عليه — إذا بلغوا « عمراً » قال معهم عمراً ، وإذا بلغوا « ظهراً » قال معهم ظهراً . .

وجُعيل هذا ، هو جعيل بن سُراقة الضمرى ، وكان رجلا صالحاً من قدماء المهاجرين ، ومن الذين شهدوا المشاهد كلها مع النبي ، وقد غيّر الرسول اسمه هذا ، فسماه عمراً . . ولما قَسمَ الرسول غنائم حنين ،ولم يعط الأنصار منها شيئاً ، ولا كثيراً من المهاجرين ، وفرقها فى قريش والمؤلفة قلوبهم ، ليثبتوا على الإسلام — كان جعيل ممن حُرم العطية ، وكان من فقراء الصحابة ، فكلم سعد بن أبى وقاص النبى فى ذلك ، وقال يا رسول الله ، تحرم جعيلا مع ما تعلمه من خَلّته ، وتعطى عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وفلاناً وفلاناً ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « أمَا والذى نفسى بيده لجعيل بن سراقة خير من طِلاَع الأرض مثل عيينة والأقرع ، ولكن تألفتهما ليسلما ، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه » . .

هذا ، وما كاد الرسول يفرغ من حفر الخندق ، حتى أقبلت قريش ، وحتى نزلت بمجتمع الأسيالَ من رومة بين الجرف وزغابة فى عشرة آلاف من أحابيشهم ، ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة . . وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، حتى نزلوا إلى جانب أحد . .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد خرج بالمسلمين ، وجعل ظهورَهم إلى جبل سَلع ، وضرب هناك عسكره ، والخندق بينه وبين القوم ، وكان قد اجتمع له نحو ثلاثة آلاف من المسلمين . .

وطال انتظار قريش أمام الخندق ، تفكر فى وسيلة تدخل بها على المسلمين المدينة . . واستمر ذلك نحو شهرين ، وفى خلال تلك المدة استطاع بعض فرسان

قريش عبور الخندق ، وكان منهم عمرو بن وُدّ العامرى ، وعتبة بن أبى سفيان .. وقد طلب عمرو بن ود المبارزة ، وكان من فرسان العرب المعدودين ، ويقال إنه كان يحسب بألف فارس .. وتحرك على بن أبى طالب إلى مبارزة عمرو ، فرده النبي إشفاقاً عليه منه ، وكان علىّ لا يجاوز العشرين من عمره ، ولم يستكمل قوته بعد .. وكرر عمرو النداء ، وأخيراً أذن النبي لعلى فى لقائه ، وألبسه النبي درعه ، وعممه ، ودعا له .. والتقى على بعمرو ، ولم يلبث أن قتله على ، فكبّر وكبر المسلمون .. واهتزت أرجاء المدينة ، وغمر البشر والفرحة أهل المدينة من المسلمين ، على حين اغتم المشركون واليهود ، وعلاهم الخزى والهوان ..

وفى أثناء ذلك انكشفت للمسلمين وجوه أهل النفاق ، ومَن فى قلوبهم مرض ، ونزلت آيات القرآن تحدث بما كان عليه هؤلاء وأولئك ، من مواقف منحرفة ، ساعة العسرة وحين البأس ..

ثم أوقع الله سبحانه بين المشركين وحلفائهم من اليهود ، فاتّهم كل منهما صاحبه فى الوفاء بالتزاماته نحوه ، فانقصم ما بينهما من ائتلاف ، وأعطى كل منهما ظهره لصاحبه .. ثم كان من تدبير الله بعد هذا أن أرسل على معسكر المشركين ريحاً عاصفة فى ليلة شديدة البرد ، فاقتلعت الخيام ، وأطفأت النيران ، وأطلقت الإبل والخيل من مرابطها .. وكأنها تؤذّن فى القوم بالرحيل ، وتسبق بالعمل المشاعرَ التى كانت تدور فى صدورهم ، فلم يمد أحد منهم يده إلى نصب خيمته التى اقتلعتها العاصفة ، ولم يمسك أحد منهم بمقود فرسه ، أو خطام ناقته ، يعيدها إلى مربطها .. بل لقد بدا لهم هذا الذى حدث ، أنه نفير العودة إلى مكة .. فأخذوا وجهتهم إليها ، تدفعهم نحوها ريح عاتية ، تضربهم بأجنحتها القوية المغموسة بالرمال والغبار ! : « وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً »(٢٥ : الأحزاب) ..

هذا هو مجمل القصة لغزوة الأحزاب ، أو الخندق كما تسمى ، والتى كانت الآية السابقة حديثاً عن المقطع الأول منها . .

قوله تعالى :

* « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً » .

هو صورة مجملة للقصة كلها . . فهناك جنود قد جاءوا إلى المسلمين ، يريدون حربهم ، والقضاء عليهم ، فدفعهم الله عنهم ، وتلقاهم بجنود من عنده . . وهذه نعمة من نعم الله على المؤمنين ، تستوجب الشكر والحمد لله رب العالمين . .

— وفى قوله تعالى : « وجنوداً لم تروها » — إشارة إلى أن الريح التى أرسلها الله سبحانه على المشركين ، هى جند من جند الله التى رآها المسلمون عِياناً ، ورأوا أفعالها فى عسكر المشركين . .

وهناك جنود أخرى لم يرها أحد ، كانت تعمل فى تلك المعركة ، حتى أوقعت الهزيمة بالمشركين ، فانقلبوا بِشرّ مُنقلب . .

وهذه الجنود غير المرئية كثيرة لا حصر لها . . « وما يعلم جنود ربك إلا هو » وقد يكون منها هذه المشاعر التى تسلطت على المشركين من الخوف والقلق ، ومن سوء ظن بعضهم ببعض ، وقد تكون وساوس وخواطر ، تمشى بها بعض العقلاء بين الجماعات المتحالفة ، فأفسد ما بينهم . . وقد تكون ملائكة من ملائكة الرحمن جاءت مع الريح ، فضاعفت من أفاعيلها ، وبالغت فى آثارها . .

وفى قوله تعالى : « وكان الله بما تعملون بصيراً » — إشارة إلى ما لله

سبحانه وتعالى من علم لا يعلمه أحد ، وإلى أن الناس لا يعلمون من علم الله شيئاً ، حتى هذه الأمور المتصلة بهم ، كتلك الجنود الخفية التى أحدثت هذه الآثار ، على حين أن الله سبحانه يعلم من أمر الناس ما يسرّون وما يعلنون ، عِلمَ مشاهدة . . « وكان الله بما تعملون بصيراً » .. فهو علم كاشف لكل شىء ، كالعلم الذى يقع عن نظر وشهود بالنسبة لنا ، على خلاف العلم المطلق ، فقد يقع عن حدس وظن .. وهذا هو بعض السر فى جعل فاصلة الآية : « بصيراً » بدل « عليما » . . ا فعلم الله سبحانه ، علم شهادة : « لا يعزُب عنه مثقال ذرّة فى السموات ولا فى الأرض » .

قوله تعالى :

* « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » .

هنا تبدأ الآيات فى تفصيل ما أجملته الآية السابقة من أحداث هذه القصة . . فهؤلاء الجنود الذين جاءوا إلى المسلمين ، قد جاءوهم من فوقهم ، أى من نجد ، ومن أسفل منهم ، أى من تِهامة . . وهذا يعنى أنهم قد أطبقوا على المسلمين من كل جهة ، فتمكنوا منهم ، وسدّوا منافذ النجاة عليهم . .

وفى قوله تعالى : « وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر » تصوير للحال التى استولت على المسلمين من هذا الخطر الزاحف عليهم . .

وزَيَغان الأبصار ، كناية عن الكرب الذى دخل على المسلمين ، حتى اضطرب لذلك تفكيرهم ، وغابت وجوه الرأى عنهم ، فلم يتبينوا ماذا يأخذون أو يَدَعون من أمرهم . .

وبلوغ القلوب الحناجر ، كناية أخرى عن هذا الكرب ، وأنه أزال القلوب عن مواضعها ، بما أحدث فيها هذا الكرب من اضطراب وخفقان .

وفى قوله تعالى : « وتظنون بالله الظنونا » . . وفى التعبير عن هـذا الحدث بفعل المستقبل ، دون الفعل الماضى ، الذى جاء تعبيراً عن الحدَثين : « زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر » ـ فى هذا ما يشير إلى أن زيغان الأبصار ، واضطراب القلوب ، إنما هما حال لبست المسلمين مرة واحدة ، عند استقبالهم لهذا المكروه .. أما الظن بالله ، فهو أحوال متجددة ، تعاود المسلمين حالا بعد حال . . حيث يترددون بين الرجاء واليأس ، وبين اليقين والشك ، حسب الأحوال النفسية ، أو المادية ، التى تعرض لهم ! .

وفى جمع « الظنون » ـ إشارة إلى أنها ظنون كثيرة مختلفة ، تعاود الشخص الواحد ، كما أنها تختلف من شخص إلى شخص . . فهناك من المؤمنين مَن هم على يقين من أمر ربهم ، فلا يظنون إلا خيراً ، وأن الله منجزٌ لهم ما وعدهم فى عدوهم . . إن لم يكن فى هذه المعركة ففى معارك أخرى قادمة ، إن لم يشهدوها هم ، فسيشهدها مَن بعدهم من إخوانهم . . وهناك من المؤمنين مَن لم يعصمهم إيمانهم من ظنون السوء ، فظنوا بالله غير الحق ، ظن الجاهلية . .

قوله تعالى :

* « هنالك ابتُلى المؤمنون وزُلزلوا زلزالا شديداً » .

الإشارة هنا إلى هذا الموقف الذى واجه فيه المؤمنين الأحزاب . فى هذا الموقف ابتلى المؤمنون ، وامتحنوا ، فى إيمانهم بالله . . وكان الابتلاء شديداً ، والامتحان قاسياً ، لا يصبر عليه ، ولا يخلص منه ، ناجيا بدينه ، سليما فى معتقده، معافًى فى إيمانه ، إلاّ من اطمأن قلبُه بالإيمان ، وعرف ما لله فى عباده من ابتلاء، « ليميز الله الخبيث من الطيب » (٣٧ : الأنفال) .

وقوله تعالى : « وزلزلوا زِلزالا شديداً » بيان لما فى هذا الابتلاء من شدة ،

هزّت كيان المسلمين هزاً ، ومَخَضت مشاعرَهم كما يُمخض اللبن ، حتى تنكشف الرغوة عن الصريح .. كما يقول سبحانه : « وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم » (١٥٤ : آل عمران) .

قوله تعالى :

* « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرضٌ ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » . .

العطف هنا على قوله تعالى : « وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » فهذه حال من تلك الأحوال التى عَرَضت للمسلمين يومئذ، وهى أن المنافقين ومن فى قلوبهم مرض من المؤمنين ، قد كانوا من الذين ظنوا بالله ظن السوء . . فكان قولهم فى مواجهة هذا الابتلاء ، هو الكفر الصريح : « ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » . . أى أكاذيب وأباطيل ، وأمانىّ من من الخداع ، والتغرير . . وهكذا تكشف الشدائد والمحن عن معادن الناس ، وعن مطويات الضمائر ، وما تخفى الصدور . .

قوله تعالى :

* « وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبىّ يقولون إن بيوتنا عورةٌ وما هى بعورةٍ إن يريدون إلا فراراً » . .

هو معطوف على ماقبله ، وهو بيان لمقولة طائفة من طوائف هؤلاء المنافقين ومَن فى قلوبهم مرض . . إنهم لم يقفوا عند حدّ هذه الوساوس السوء من الظنون ، بل جاوزوا هذا إلى إذاعتها فى الناس ، وإلى تيئيسهم ، وزعزعة إيمانهم . . فينادون فى الناس بهذا النداء الشيطانى المشئوم : « يأهل يثرب

لا مُقام لكم فارجعوا » أى ماذا تنتظرون ؟ وما متعلقكم بهذه الأمانى الباطلة ؟ إنكم مخدوعون . . فما مقامكم فيما أنتم فيه ؟ ارجعوا إلى دياركم وأهليكم ، حيث الأمن والسلامة ، وحيث الراحة من هذا العبث الذى لا شىء وراءه . .

وفى مناداتهم بيأهل يثرب ، دعوةٌ إلى رِدّة ، يريدون بها دفع هذه المشاعر الجديدة التى عاش بها المسلمون فى مجتمعهم الجديد ، حيث اتخذت المدينة فى ظل الإسلام اسماً جديداً ، هو المدينة ، بدلا من اسمها « يثرب » الذى عاشت فيه مع الكفر والشرك ! إنهم يريدون بهذا النداء ، أن يُجْلُوَ عن المشاعر هذا الاسم الكريم ، كما أرادوا أن يجلو عنها الدين الحنيف !

قوله تعالى : « ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة » . . معطوف على محذوف ، هو استجابة لهذه الدعوة التى دعا بها بعض المنافقين ومن فى قلوبهم مرض ، واستجاب لها بعض المنافقين ومن فى قلوبهم مرض . . ودعوتهم هى : « يأهل يثرب لامقام لكم فارجعوا » .. واستجابة المستجيبين لهذه الدعوة كانت على أسلوبين: أسلوب الرجوع بغير استئذان من النبى ، وأسلوب الرجوع بعد الإذن منه . . أى أن هؤلاء الذين استجابوا لتلك الدعوة من المنافقين ومن فى قلوبهم مرض كانوا فريقين : أحدهما استجاب للدعوة فوراً ، فلم يلتفت إلى شىء ، ولم يراجع نفسه ، أو يرجع إلى النبىّ . . والآخر ، أراد أن يدارىَ نفاقه ويستر ضعف إيمانه ، بهذا العذر الذى يعتذر به للنبى ، وهو أن بيته مهدد بمن يعتدى عليه ، ويهتك ستره . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى حكايةً لقولهم : « يقولون إن بيوتنا عورة » أى معرضة للعدوان عليها من المشركين أو غيرهم . .

وفى قوله تعالى : « وما هى بعورة » تكذيب لهذه القولة الفاجرة . . إن بيوتهم ليست عورة ، بل هى فى حمى المسلمين جميعاً ، وما يجرى على بيوت المسلمين يجرى على بيوتهم . . فلو دخل المشركون المدينة ، لما استباحوا

بيوت هؤلاء المعتذرين وحدهم ، بل لاستباحوا بيوت المسلمين جميعها . . « إن يريدون إلا فراراً » أى ما يريد هؤلاء المعتذرون إلا فراراً من هذا الموقف الذى هم فيه ، وإلا ضناً بأنفسهم عن أن يشهدوا القتال ، وأن يكونوا فى المقاتلين .

قوله تعالى :

* « ولو دُخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً » .

هو بيان لضعف إيمان هؤلاء المعتذرين ، وأنهم يحرصون على حياتهم أكثر من حرصهم على إيمانهم ، أو حرمات بيوتهم . .

فلو دخل المشركون على هؤلاء المعتذرين بيوتهم من كل مدخل منها، ثم دعوهم إلى الخروج منها لخرجوا منها ، ونزلوا عنها لهم من غير أن يدافعوا عنها ، ويؤدوا حق حرمتها عليهم . .

— وفى قوله تعالى : « دُخلت عليهم » بالبناء للمجهول ، إشارة إلى أن هؤلاء المعتذرين ـ لحرصهم على الحياة ـ يسلمون بيوتهم لأى داخل عليهم ، فراراً بأنفسهم . .

وفى قوله تعالى : « ثم سئلوا الفتنة » إشارة إلى أن ما يُسألونه ، ويُطلب إليهم الخروج منه ، وهو بيوتهم ، هو فتنة ، وبلاء عظيم ، أشبه بالفتنة فى الدين ، لأن حرمة البيوت ـ عند الأحرار تعدل حرمة النفس ، والدين ، وغيرها من المقدسات التى يحرص عليها الأحرار .. وفى هذا يقول الله تعالى : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم » (٦٦ : النساء) فقد جاء الخروج من الديار موازناً لقتل النفوس . . ويقول سبحانه وتعالى : « واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل » (١٩١ : البقرة) فمن الفتنة ، الإخراج من الديار .

وفى قوله تعالى : « وما تلبّثوا بها إلا يسيرا » — إشارة إلى مبادرة هؤلاء المستخفّين بالحرمات ، إلى الخروج من ديارهم ، وتسليمها ليد طالبيها منهم ، دون إمهال أو تلبث ، . وحسبهم أن ينجُوا بجلدهم ! !

فهؤلاء الذين فُتنوا فى دينهم ، بموقفهم المتخاذل فى مواجهة العدو ، ثم فرارهم من ميدان المعركة ، وخروجهم من دينهم فى غير تردد ، هم أنفسهم أولئك الذين ينزلون عن ديارهم ، ويخرجون منها فى غير تردد أو تلبث أيضاً . .

وهكذا الإنسان ، فى موقفه من حرماته . . إن من يفرط فى أى حرمة من الحرمات ، هو مستعد للتفريط فيها كلها . . إنّ الحرمات ، هى كيان واحد ، وإن تعددت صورها ، وأشكالها . .

قوله تعالى :

* « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا » . .أى أن هؤلاء الفارين من ميدان القتال ، قد نقضوا عهدهم الذى عاهدوا الله عليه من قبل ، حين دخلوا فى دين الله . .

وهذا العهد ، هو أن يطيعوا الله والرسول ، وأن يجاهدوا فى سبيل الله ، وألاّ يولّوا الأدبار .. وفى هذا يقول الله تعالى : « يـٰأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبار * ومن يولّهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضبٍ من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (١٥ ـ ١٦ : الأنفال) . . فهذا هو عهد الله الذى أخذه على المؤمنين ، وقد دخلوا فى دين الله على هذا العهد..

وفى قوله تعالى : « وكان عهد الله مسئولا » — إشارة إلى أن عهد الله أشبه بكائن حىّ مجسد ، وأنه يقوم فى الناس مقام الرسول المبلّغ عن ربه . .

ولهذا فهو يُسأل عمن أوفَى به، ومن نكث، كما يُسأل الرسل عمن آمن بهم ومن كفر، كما يقول الله تعالى: «يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم» (١٠٩: المائدة).. وفى هذا تعظيم لعهد الله، وما ينبغى أن يكون له فى الناس من إكبار وإجلال.

قوله تعالى:

* «قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلا».

هو قطع لتلك الآمال الكاذبة التى يعيش فيها أولئك الذين فروا من ميدان القتال، ظانين أن ذلك يحفظ عليهم حياتهم، ويرد غائلة الموت عنهم.. وهم فى هذا مخدوعون، قد غطّى على أبصارهم حبّ الحياة، حتى لقد أنساهم ذلك، تلك الحقيقةَ الماثلة أمامهم، وأنهم مقضى عليهم بالموت المحكوم به على كل حى..

فهذا الفرار من الموت ـ على أى صورة من صوره، حتفاً، أو قتلا — إلى أين ينتهى بهم الطريق الذى يركبونه فارين منه؟ إنه منتهٍ بهم إلى الموت حتما.. إن لم يكن اليوم فغداً، أو بعد غد. إنه آت لاشك فيه، طال الطريق أم قصرُ.. والله سبحانه وتعالى يقول: «قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم» (٨: الجمعة) ويقول سبحانه: «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة» (٧٨: النساء).

وفى قوله تعالى: «من الموت أو القتل» بيان للصورة التى يقع عليها الموت، وهو إما أن يكون موتاً طبيعياً، أو فى حدث من الأحداث، كالحرب وغيرها..

— وفى قوله تعالى : « وإذا لا تُمَتَّعونَ إلا قليلا » — أى أن هذا الفرار لا يعصمكم من الموت الذى يترصدكم ، ويتربص بكم الساعة التى تنتهى فيها آجالكم . « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » (٣٤ : الأعراف) . .

قوله تعالى :

* « قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيراً » .

إشارة إلى أنه لاوجه يفرّ إليه هؤلاء الفارون من قضاء الله فيهم . . إن ذلك الفرار سوء ظن منهم بسلطان الله وقدرته . . ولو علموا بعض ما لله من علم وقدرة وسلطان ، لما تحولوا عن هذا الموقف الذى هم فيه ، مقدرين أن ذلك ينجيهم من الموت ، ويمد لهم فى آجالهم التى يخيل إليهم أن القتال ، سيختصر مُقامهم فى هذه الدنيا ، ويحصد حياتهم قبل أوانها . .

وفى قوله تعالى : « من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة » — فى هذا ما يُسأل عنه ، وهو : إذا صح أن الإنسان يطلب معتصما يعتصم به حال الضر والسوء . . فكيف يصح أن يطلب معتصما حين يراد به الخير والرحمة ؟ وإذا صح أن يفر الإنسان من مواطن الخطر والشر ، فهل يصح أن يفر من مواطن الخير والإحسان ؟ .. وإذّا فما تأويل قوله تعالى : « من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة »؟ .

والجواب على هذا من وجهين :

فأولا : أن الإنسان لا يملك مع أمر الله شيئاً ..وأن ما يُساق إليه من سوء أو رحمة ، هو من عند الله ..وعلى هذا ، فإنه إذا رأى بلاء الله واقعاً به ، وطلب

معتصَما يعتصم به ، وملجأ ، يلجأ إليه ، من هذا البلاء ، فلن يجد .. كما أنه إذا أراد الله به خيراً ورحمة ، فإن هذه الرحمة وذلك الخير لا بد أن يصلا إليه مهما حاول هو ـ عن جهل وغباء ـ أن يفر منهما .

وثانيها : أن تقدير الإنسان للأمور لايقع على وجه صحيح فى كل حال ، فقد يفر الإنسان من أمر ، ويعرض عنه ، متكرها له ، طالباً السلامة منه ، وهو فى صميمه خير له ، وبركة عائدة عليه . . وأن الله سبحانه ، لو كان يريد به الخير لأمسكه على هذا المكروه ، ولما صرفه عنه . . ولو أراد به سبحانه السوء لخلىّ بينه وبين ما يريد ، فيقع فى المكروه الذى يتوقع النجاة منه بإعراضه عنه ، وفراره منه ، وذلك بما يفوته من الخير المطوىّ فى هذا المكروه . . .

وهذا هو حال هؤلاء الفارّين من ميدان القتال . . إنهم تكرهوا هذا الأمر ، وفروا منه ، وهو فى صميمه خير ورحمة وبركة . . وإذ لم يرد الله بهم خيراً ، فقد خلّى بينهم وبين ما أرادوا . . على حين أنه سبحانه أمسك على هذا المكروه ، مَن أراد بهم الخير والرحمة من عباده المؤمنين . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم » (٢٣ : الأنفال) . .

وفى قوله تعالى : « ولا يجدون لهم من دون الله وليًّا ولا نصيراً » ـ ما يسأل عنه أيضاً ، وهو : لماذا اختلف النظم ، فكان خطاباً فى قوله تعالى « من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة » . . ثم كان غيبة فى قوله تعالى : « ولا يجدون لهم من دون الله وليًّا ولا نصيراً » ؟ . .

والجواب على هذا ، هو أن هذا الخطاب كان لهؤلاء المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، وهم في حضورٍ مع المؤمنين في ميدان القتال . . يعيشون بتلك الخواطر المريضة ، والمشاعر الكاذبة ، ويديرون في كيانهم وجوهَ الأعذار التي يعتذرون بها للفرار من هذا الموقف . . هذا هو حالهم قبل أن يفروا . . فلما اجتمع لهم الرأى على الفرار ، وفرّوا ــ كان الحكم عليهم غيابياً ، في مواجهة المؤمنين .. فلا يستمعونهم إلى هذا الحكم ، ولا يدرون ماذا يريد الله بهم ، حتى يفجؤهم العذاب ، وينزل بهم البلاء ، وهم في غفلة عنه . . وفى هذا بلاء فوق البلاء ، وعذاب فوق العذاب . .

قوله تعالى :

* « قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا » .

المعوقون : هم الذين يمسكون غيرهم عن الخروج مع المؤمنين إلى القتال ، بدءاً ، بعد أن فعلوا هذا بأنفسهم أولا . . فهم لم يخرجوا إلى القتال ، ثم ثبّطوا غيرهم ، وزينوا لهم القعود .

والقائلون لإخوانهم هلمّ إلينا . . هم الذين قعدوا عن القتال ، ولم يخرجوا ، ثم سعوْا إلى تحريض الذين خرجوا إلى القتال ، وزينوا لهم أن يعودوا إليهم ، وأن يقعدوا معهم كما قعدوا هم ، قائلين لهم .. « هلمّ إلينا » ــ أى أقبلوا إلينا .. وهلم اسم فعل أمر ، يلزم حالا واحدة في الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث ، فيقال للاثنين : هلم ، وللجمع : هلم . .

والبأس : القتال . .

و « قد يعلم » . . بمعنى قد علم الله .. لأن علم الله سبحانه وتعالى قديم .. والتعبير عن العلم بفعل المستقبل ، إنما هو بالنسبة لما سيقع من أصحاب هذه

المواقف الخاسرة . فهو تحذير لهم من أن يقعوا فى هذا المحظور المنكر ، قبل أن يقع . .

والآية تكشف عن موقفين من مواقف المنافقين والذين فى قلوبهم مرض، الذين تخلفوا ولم يخرجوا للقتال ابتداء ، أثناء هذه المواجهة التى كانت بين المسلمين ، والأحزاب ، على حافتى الخندق الذى أقامه المسلمون حول المدينة . .

فهؤلاء الذين قعدوا ، لم يقفوا عند هذا الحدّ . . بل كان منهم المعوّقون ، الذين أمسكوا غيرهم معهم عن الخروج ، وزينوا لهم القعود مع القاعدين . . وكان منهم الذين أرادوا إفساد أمر الذين خرجوا . . يُلقون إليهم بما يحسبونه نصحاً لهم ، وإشفاقاً عليهم ، فيقولون لهم فيما يقولون : عودوا إلينا . . « لا مقام لكم فارجعوا » .

— قوله تعالى : « ولا يأتون البأس إلا قليلا » .

المفسرون على قول واحد ، فى أن هذا المقطع من الآية ، هو وصف من أوصاف هؤلاء المنافقين ، الذين تهدّدهم الله سبحانه وتوعدهم بقوله : « قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا » وهو عندهم ، إما معطوف على صلة الموصول فى قوله تعالى : « قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم » أى الذين يعوقون غيرهم منكم ، ويقولون لإخوانهم هلم إلينا ، ولا يأتون البأس إلا قليلا .. وإما أن يكون حالا من الضمير فى اسم الفاعل «والقائلين »

والرأى عندنا — والله أعلم — هو أن قوله تعالى : « ولا يأتون البأس إلا قليلا » حال من الضمير فى « إخوانهم » . . وهذا الحال هو وصف كاشف لإخوان المنافقين ، الذين يدعوهم المنافقون إليهم ، ويطمعون فى أن يستجيبوا لهم . . فهؤلاء الذين يطمع المنافقون فى استجابتهم لهم ، هم من ضعاف الإيمان ، الذين يعرف المنافقون موطن الضعف فيهم ، ولهذا سماهم القرآن « إخوانهم » .

فهم على حال مقاربة ، سواء منهم من قعد،ولم يخرج ، أو من خرج مع المؤمنين . . إنه لا غَناء فيه، ولا نفع للمسلمين منه، فى موقفهم من عدوهم . . إنهم « لا يأتون البأس إلا قليلا » . . والمراد بالقلة هنا قلة الغَنَاء فى الحرب ، وضعف الأثر الذى لهم فى القتال . . فهم وإن شهدوا الحرب ، إنما يشهدون بنفوس مريضة ، وقلوب واجفة ، وأبصار زائغة . . أما إخوانهم الذين قعدوا من أول الأمر ، ولم يخرجوا مع المسلمين ، فإنهم لا يأتون البأس ، قليلا أو كثيراً .. والمعنى : أن هؤلاء المنافقين إنما يستدعون من صفوف المسلمين من لا خير فيه ، ولا نفع يرجى منه ، بل إن قعوده خير للمسلمين من خروجه . . والله سبحانه وتعالى يقول فى المنافقين : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خِلالَكم يبغونكم الفتنة » (٤٧ : التوبة)

قوله تعالى :

* « أشحةً عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحةً على الخير . . أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً » . .

الأشحة : جمع شحيح ، وهو البخيل بما يملك ، الضنين به . .

أى أن هؤلاء المنافقين الذين يشهدون الحرب بتلك النفوس المريضة ، يضنون على المسلمين بأى جهد يبذلونه معهم فى سبيل النصر ، وكسب المعركة

وقوله تعالى : « أشحة عليكم » حال أخرى بعد الحال فى قوله تعالى : « ولا يأتون البأس إلا قليلا» أى أن هؤلاء المنافقين لا يأتون الحرب إلا قليلا،

ضانين بأنفسهم على أن يبذلوها فى سبيل الله ، فهم إذ يضنون على المسلمين إنما يضنون على دين الله ، الذى يجاهد من أجله المجاهدون . .

— وقوله تعالى : « فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت » وصف كاشف لهؤلاء المنافقين الذين يشهدون القتال ، بعد أن فضحت الآيات السابقة ما فى قلوبهم من زيغ ، وما فى نفوسهم من مرض . . فهم إذا جاء الخوف ، أى حضر البأس والقتال . . وقد عبر القرآن عنه بالخوف ، بالإضافة إليهم ، لأن القتال يطلع عليهم بما يملأ نفوسهم خوفاً وهلعاً . . أما المؤمنون ، فإنهم إذا جاء القتال ؛ قالوا : « هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما » . . (٢٢ : الأحزاب) .

وفى إقامة الخوف مقام القتال ، إشارة إلى أن المنافقين أجبنُ الناس ، وأشدهم حرصاً على الحياة ، وأن مجرد ذكر كلمة الحرب عندهم تملأ قلوبهم فزعاً ورعباً ـ فالحرب بالإضافة إليهم ، خوف متجسد . .

— وفى قوله تعالى : « رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت » تصوير للحال التى تستولى على هؤلاء المنافقين ومن فى قلوبهم مرض حين تتحرك أمامهم أشباح الحرب ، وتلوح لهم جيوش العدو ، فكيف يكون حالهم من الفزع والرعب ، حين يلقون العدو ، وتسل السيوف وتشرع الرماح ؟ إنهم يموتون بصعقات الخوف ، قبل أن يموتوا بضربات السيوف ، وطعنات الرماح ! !

والخطاب هنا للنبى صلوات الله وسلامه عليه . . ونظرة المنافقين إلى النبى نظرةٌ مذعورة ، يائسة ، تطل من أشباح مضطربة متهالكة متهاوية . . « كالذى يغشى عليه من الموت » ! وهذا مثل قوله تعالى : « فإذا أنزلت

سورة محكمة وذُكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت » (٢٠ : محمد) .

— وقوله تعالى : « فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد » أى أنه إذا خرج المنافقون من هذا الكرب ، أطلقوا لألسنتهم العنان فى النبى والمسلمين ، بكل بهتان من القول ، وخبيث من الكلم . .

والسلق بالألسنة : الرمى بالهجر من القول منها . .

والألسنة الحداد : أى الألسنة المسعورة الجارحة ، القلقة فى الحديث . .

فالمنافقون ، أحدُّ الناس ألسنة ، وأكثرهم قولا ، وأقلهم فعلا . . إن بضاعتهم كلها من زيف الكلام ، وباطله ، ينفقون منه فى سخاء بلا حساب !

— وقوله تعالى : « أشحة على الخير » أى أنهم أسخياء فى الثرثرة باللغو من القول ، والباطل من الحديث ، على حين أنهم أشحاء على الخير ، قولا وعملا ، فلا ينطقون بقولة حق يقولونها ، ولا يسمحون بكلمة خير تخرج من أفواههم . .

— وقوله تعالى : « أولئك لم يؤمنوا » تشهير بهم ، وفضح لهم على الملأ ، وتعرية لهم من الإيمان الذى لبسوه ظاهراً ، ولم يفسحوا له مكانا فى قلوبهم . .

— وقوله تعالى : « فأحبط الله أعمالهم » أى لم يتقبل الله منهم عملا ، حتى ما كان صالحا .. لأن الإيمان هو المدخل الذى تدخل منه الأعمال الصالحة إلى مواطن القبول من الله .. وهؤلاء لم يكونوا مؤمنين ، فلا عملَ يُقبل منهم أبداً ، ولا يقوم لهم بنيان ، ولا يصلح لهم أمر مما يبيتون ويدبرون .

— وقوله تعالى : « وكان ذلك على الله يسيراً » .. الإشارة هنا إلى ما يقع على أعمالهم من إحباط لها كلها ، فلا ينجح لهم كيد ، ولا يستقيم لهم تدبير .. إنهم يكيدون لله ، ويحاربون ربهم بهذه الأسلحة الباطلة ، والله لا يصلح عمل المفسدين .. « قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » . (٢٦: النحل)

قوله تعالى :

* « يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا » .

أى أن هذا الخوف الذى استولى على هؤلاء المنافقين من موقف القتال ، وحال الحرب التى كانت متوقعة بين المسلمين وبين الأحزاب ـ قد لصق بهم ، وصار كائنا يعيش فيهم ، ووسواسا يملأ عليهم وجودهم ، ويملك تفكيرهم ، حتى أنهم ـ وقد ذهب الأحزاب ، وردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً ـ لم يصدقوا أنهم ذهبوا ، إذ ما زال شبحهم مطلا عليهم .. هكذا يفعل الخوف بالجبناء ، الذين يحرصون على الحياة ، ويبيعون من أجلها الشرف ، والمروءة ، والرجولة ..

— وقوله تعالى : « وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب » أى ولو فرض أن الأحزاب عادوا مرة أخرى ، وأخذوا مثل هذا الموقف من المسلمين ، لتمنى هؤلاء المنافقون أن ترمى بهم الأرض فى مطرح غير ماهم فيه ، وأن يكونوا من سكان القفار والبوادى ..

— وقوله تعالى : « يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا » .. كلام مستأنف ، يكشف عن حال من أحوال المنافقين ، وهو أنهم ـ لما ركبهم

من خوف، يسألون عن أنباء المسلمين فى جبهة القتال، لا اطمئنانا على المسلمين، ولكن استكشافاً للأمر، وتعرفاً على الموقف، حتى يأخذوا العدّة لأنفسهم على الوجه الذى يرونه، فإن جاءتهم الأنباء بأنّ المسلمين رجحت كفتهم وهبّت عليهم ريح النصر، انحازوا إليهم، وخلطوا أنفسهم بهم.. وإن كان الأمر على غير هذا، فلن يعدموا وسيلة يتوسلون بها إلى الأحزاب... وهذا ما يشير إليه قوله تعالى عن موقف المنافقين: «الذين يتربصون بكم.. فإن كان لكم فتحٌ من الله قالوا ألم نكن معكم؟ وإن كان للكافرين نصيبٌ قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين» (١٤١: النساء).

— وقوله تعالى: «ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلًا» هو إنكار على المنافقين أن يسألوا عن أنباء هذا الموقف، وهم بمعزل عنه، وكان الأمر يقتضيهم أن يشاركوا فى القتال، وأن يكونوا بين المقاتلين، إن لم يكن ذلك دفاعاً عن الدين، فليكن عن الأهل والدار والوطن!!

ومع هذا، فإنه لم يفُتْ المسلمين خيرٌ كثير من تخلّف هؤلاء المتخلفين، لأنهم لو شهدوا القتال لما قاتلوا، أو قاتلوا قتال المنحرفين، الذين يطلبون السلامة لأنفسهم قبل كل شىء: «ولو كانوا فيكم» أى لو شهدوا القتال معكم «ما قاتلوا إلا قليلا» أى لم يكن لهم إلا قتال هزيل لا أثر له.

الآيات: (٢١ — ٢٧)

* «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ

مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » .

الأسوة : التأسى ، والاقتداء ..

والأسوة فى الرسول ، هى التأسى به فى موقفه من أمر ربه ، وامتثاله له ، وجهاده فى سبيل الله ، وقيامه على رأس المجاهدين ..

وفى وصف الأسوة بأنها أسوة حسنة ، إشارة إلى أن هناك أسوة سيئة ، يقوم على رأسها كبير من كبار المنافقين ، يدعو إلى النكوص على الأعقاب والفرار من مواجهة الأحزاب . .

والدعوة هنا عامة للمؤمنين أن يتأسوا برسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وأن يكونوا من ورائه جنداً مجاهدين فى سبيل الله ، فذلك هو طريق الخير ، والفوز ، لا ييسره الله ، إلا لمن كان يؤمن بالله ويرجو ما عنده ،

من جزاء فى الدنيا والآخرة ، وكان ذكر الله دائما ملء قلبه ، حتى يجد من هذا الذكر ما يستحضر به عظمة الله ، وفضله ، وإحسانه ، فيصبر على البلاء ، ويستخف بالحياة الدنيا فى سبيل رضوان الله فى الآخرة ..

قوله تعالى :

* « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصَدَقَ اللهُ ورسولُهُ وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » .

هذه صورة من صور التأسى برسول الله ، يراها الذى ينظر إلى المؤمنين ، الذين صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه . . فهؤلاء المؤمنون حين رأوا الأحزاب لم يَهِنوا ، ولم يضعفوا ، ولم تُرهبهم كثرة العدوّ ، ولم يفزعهم الموت المطلّ عليهم من كل مكان . . فالموت فى هذا الموطن هو أمنيتهم التى كانوا يتمنونها على الله ، ويقدمونها ثمناً لإعزاز دين الله ، وإعلاء كلمة الله . . ولهذا فإنهم حين رأوا الأحزاب ، رأوْا فيهم تحقيقَ ما وعدهم الله ورسوله به ، من الابتلاء والبلاء على طريق الجهاد فى سبيل الله . . فالمؤمنون دائما على طريق الجهاد ، وعلى توقّع الصِّدام مع العدوّ ، الذى يتربص بهم وبدينهم ، الدوائر . . وإن المؤمن فى مرابطة مستمرة ، لحماية دين الله ، ولدفع ما يُرمى به من سوء ، وردّ ما يراد به من كيد . .

— قوله تعالى : « وصدق الله ورسوله » يمكن أن يكون من كلام المؤمنين ، معطوفاً على مقول قولهم : « هذا ما وعدنا الله ورسوله » . . ويمكن ـ وهو الأولى عندنا ـ أن يكون تعقيباً على قولهم ، من الله سبحانه وتعالى ، أو بلسان الوجود الذى إذا سمع قولهم : «هذا ما وعدنا الله ورسوله» ا. نطق بلسان واحد : « وصدَقَ اللهُ ورسوله »

— وقوله تعالى : « وما زادهم إلا إيماناً وتسليما » فاعل الفعل « زادهم »

يدلّ عليه الفعل « رأى » أى ما زادهم ما رأوه من الأحزاب وكثرة عَددهم وعدتهم ، إلا إيمانًا بالله ، وتصديقاً لوعده ، وتسليماً بما يقضى به الله بينهم وبين عدوّهم .

قوله تعالى :

* « من المؤمنين رجالٌ صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبَه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً » .

أى من المؤمنين الذين سلِموا من النفاق ، رجال صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه . . إذ ليس كلّ المؤمنين على درجة واحدة فى إيمانهم . . بل هم درجات فى الإيمان ، كما أنهم درجات عند الله . .

وحرف الجرّ « من » هنا للتبعيض . . أى من بعض المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

وفى قوله تعالى : « رجالٌ » إشارة إلى أنهم أُناسٌ قد كملت رجولتهم ، وسلمت لهم إنسانيتهم . . فكانوا رجالًا حقًّا ، لم يُنتقص من إنسانيتهم شيء . . فالكفر ، والشرك ، والنفاق ، وضعف الإيمان ، كلّها أمراض خبيثة ، تغتال إنسانية الإنسان ، وتفقده معنى الرجولة فيه . . فالرجل كلُّ الرجل ، هو من تحرّر عقله من الضلال ، وصفت روحه من الكدر ، وسلم قلبه من الزيغ . . ثم لا عليه بعد هذا ألاّ يمسك بيده شيء من جمال الصورة ، أو وفرة المال ، أو قوة السلطان .

وفى تنكير « رجال » معنى التفخيم ، والتعظيم ، كما يقول الله تعالى : « يسبح له فيها بالغدوّ والآصال * رجالٌ لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار » (٣٦ : ٣٧ النور) وكما يقول سبحانه : « لا تقم فيه أبداً لمسجدٌ أُسس على

التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه . . فيه رجالٌ يحبون أن يتطهروا والله يحبُّ المطّهّرين » (١٠٨ التوبة) .

— وقوله تعالى : « فمنهم من قضي نحبه » : النحب : النذر المحكوم بوجوبه ، يقال قضى فلان نحبه : أى وَفَى بنذره ، والمراد به انقضاء الأجل . . أى من هؤلاء الرجال من مات ، وهو على إيمانه الوثيق بالله ، وفى موقف الجهاد فى سبيل الله ، قد وفى بما نذره لله ، وعاهد الله عليه .

— وقوله تعالى : « ومنهم من ينتظر » أى مَن ينتظر قضاء الله فيه ، موتاً ، أو استشهاداً فى ميدان القتال ، فهو على ترقب وانتظار لليوم الذى تتاح له فيه الفرصة للوفاء بنذره وعهده .

— وفى قوله تعالى : « ينتظر » إشارة إلى أن المؤمن الصادق الإيمان، ينتظر لقاء ربّه ، وهو فى شوق إلى هذا اللقاء ، يعُدُّ له اللحظات ، ويستطيل أيام الحياة الدنيا ، فى طريقه إلى ربه . . شأن من ينتظر أمراً محبوباً هو على موعد معه . .

— وقوله تعالى : « وما بدّلوا تبديلاً » . . إشارة إلى أن إيمانهم بالله ، ويقينهم بلقائه لم يزايل مكانه من قلوبهم لحظة ، ولم ينحرف عن موضعه أى انحراف .. فهم على حالٍ واحدة من أمر ربّهم ، ومن الثقة بما وعدهم الله على يد رسوله . . على حينَ أن كثيراً ممن كان معهم ممن أسلموا ولم يدخل الإيمان فى قلوبهم ، قد بدّلوا مواقفهم ، وكثرت تحركاتهم بين الإيمان والكفر . .

قوله تعالى :

● « ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيما » .

اللام فى قوله تعالى : « ليجزى الله الصادقين بصدقهم » هى لام العاقبة لقوله تعالى : « وما بدّلوا تبديلاً » . . أى أنهم فعـــلوا ذلك ليجزيهم الله بصدقهم فى إيمانهم ، وبوفائهم بعهودهم . . وقد أقيم الظاهر مقام المضمر فجاء النظم القرآنى « ليجزى الله الصادقين بصدقهم » بدلا من : « ليجزيهم الله بصدقهم ، » وذلك للتنويه بهم ، ولإلباسهم هذه الصفة التى حققوها فى أنفسهم وهى الصدق ، فـكانوا الصادقين حقاً . . ولم يذكر القرآن ما يجزيهم الله به ، إشارة إلى أنه جزاء معروف ، وهو الإحسان . . فمـا يُجزى المحسنون إلا إحسانا ، كما يقول سبحانه : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان . . » فهو جزاء لا يحتاج إلى بيان .

وقوله تعالى : « ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم . . إن الله كان غفوراً رحيما » . . هو الجزاء الذى يلقاه أولئك الذين بدّلوا موقفهم من الإسلام ، وهم المنافقون ، الذين انحرفوا عن الطريق الذى كانوا عليه . .

فالمؤمنون الذين لم يبدّلوا موقفهم ، ولم يحيدوا عن طريقهم الذى استقاموا عليه ـ هؤلاء لهم من جزاء إيمانهم وإحسانهم ، ماهم أهل له ، من الإحسان والرضوان . . والذين بدّلوا ، ونافقوا ، ولم يَصْدُقوا فى إيمانهم بالله ـ هؤلاء إما أن يعذّبهم الله ، إذا هم مَضَوْا على نفاقهم ، ولم تدركهم رحمة الله ، فتخرجهم من هذا النفاق ، وتعيدهم إلى الإيمان ، وإما أن تنالهم رحمة الله ، فيتوبوا من قريب ، ويدخلوا فى المؤمنين الصادقين . .

وفى قيد العذاب بالمشيئة الإلهية ، إشارة إلى أن مشيئة الله فى هؤلاء المنافقين الذين كتب عليهم الشقاء والعذاب ، هى التى أمسكت بهم على طريق النفاق ، وخلّت بينهم وبين مافى قلوبهم من مرض ، وأن رحمة

الله هى التى أدركت بعض هؤلاء المنافقين ، وعَدَلت بهم عن طريق النفاق . .

وإذن فليطلب المنافق من هؤلاء المنافقين السلامة لنفسه ، وليسْعَ سعيه ليكون ممن يتوب الله عليهم . . وليعلم أن فى هؤلاء المنافقين مَن هو من أهل العذاب ، و ن عليه أن يحذر ما استطاع أن يكون منهم . . ثم ليعلم قبل هذا كله ، أن الأمر لله سبحانه وتعالى ، من قبل ومن بعد ، وأن المطلوب منه ، هو أن يعمل على سلامة نفسه ، وأن يطلب الخير لها . . وليس له أن يعلم ما الله سبحانه وتعالى قاضٍ فيه ! فذلك لله وحده ، لا شريك له فيه .

— وفى قوله تعالى : « إن الله كان غفوراً رحيما » إطماع فى رحمة الله ، وفى مغفرته للعصاة والمذنبين ، أيًّا كان ماهم فيه من ضلال . . فرحمة الله واسعة ، ومغفرته عامة ، لمن طمع فى رحمته ومغفرته ، وعمل على مصالحة ربّه ، والتوب إليه .

قوله تعالى :

* « وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً » .

« الواو » للاستئناف ، ومتابعة عرض الأحداث لقصة الأحزاب ، بعد هذا الاعتراض بتلك التعقيبات على ما ذُكر من أحداثها . .

فقد ردَّ الله الأحزاب « بغيظهم » فهذا الغيظ هو محصّلهم من هذه الغزوة التى كانوا يعدُّون أنفسهم فيها بالنصر والغنيمة . . فبدلاً من أن يعودوا إلى أهليهم محمّلين بالغنائم ، وبأهازيج الفرح والزهو ، عادوا يحملون الغيظ والكمد ، ويتلفعون بالخزى والذلة . .

— وقوله تعالى : « لم ينالوا خيراً » تأكيد لما أصاب الأحزاب من خزى وكمد ، وأنه لم يكن لهم فى كيدهم هذا الذى كادوا ، أىُّ وجه من وجوه النفع ، بل كان شرًّا خالصاً ، وبلاء محضاً . . .

— وقوله تعالى : « وكفى الله المؤمنين القتال » . . هو إظهار للمنّة التى امتنّ الله بها على المؤمنين بدفع هذا المكروه الذى نزل بساحتهم ، وأوشك أن يشتمل عليهم ، دون أن يكون منهم قتال . .

— وقوله تعالى : « وكان الله قويًا عزيزاً » بيان لما لله سبحانه وتعالى من سلطان قاهر ، وقوة غالبة . . فلا يملك أحد مع سلطان الله سلطان ، ولا مع قوة الله قوة .

قوله تعالى :

* « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرُّعبَ فريقاً تقتلون وتأسِرون فريقاً » .

فى الآية السابقة بيّن الله تعالى ، ما نزل بفريق من الأحزاب ، وهم « الكافرون » . . وهم مشركو قريش ، ومن انضم إليهم من قبائل العرب . .

وفى هذه الآية . . بيان لما أخذ الله به الفريق الآخر من الأحزاب ، وهم يهود المدينة ، من بنى قريظة وبنى النضير ، الذين ظاهروا المشركين ، أى كانوا ظهراً لهم فى هذا الكيد الذى أرادوه بالنبىّ والمسلمين . .

فهؤلاء اليهود ، أنزلهم الله من صياصيهم ، وأزالهم من أماكنهم التى تحصنوا فيها « وقذف فى قلوبهم الرُّعب » أى ملأ قلوبهم فزعاً ورعباً ، وأراهم أنهم قد أصبحوا فى يد النبىّ والمسلمين بعد أن انقلب المشركون مدحورين ، مذمومين . .

والصّياصى : الحصون التى كان يتحصن فيها اليهود، بالمدينة . . وكانت حصونًا حصينة ، يعيش فيها هؤلاء القوم ، ويجدون فى ظلها الحماية من كلّ عدو يريدهم ، قبل الإسلام ، وفى الإسلام . . وهى جمع صِيصِيَة . . وبها تسمى قرون الظباء والبقر . . لأنها حصونها التى تدفع بها العدو عنها . .

— وقوله تعالى : «فريقًا تقتلون وتأسرون فريقًا » هو بيان لما انتهى إليه أمر اليهود فى هذه الغزوة . . فقد مكن الله سبحانه وتعالى النبىّ والمسلمين منهم ، فنزلوا على حكم النبىّ فيهم ، فقتل من قتل ، وأسر من أسر . .

ذلك أنه بعد أن زايل المشركون الخندق ، ورُفع الحصار عن المدينة ، وأمن المسلمون شرّهم ، عاد النبىّ والمسلمون معه إلى دورهم ، ثم إنهم ما كادوا يضعون أسلحتهم ، حتى جاء جبريل إلى النبىّ يؤذن بحرب اليهود ، الذين لم تعدْ مجاورتهم للمسلمين فى المدينة مأمونة العاقبة ، بعد أن صرح الشرُّ منهم ، وأصبحوا جبهة من الجبهات التى أعلنت الحرب سافرة على الإسلام والمسلمين . . إنهم الآن وقد سَفَرت عداوتهم للمسلمين لم يكن بدّ من أن يخرجوا من المدينة ، أو يخرج المسلمون منها . . إذ لا يستقيم للمسلمين بعد هذا الأمر ، وهذا العدوّ يعيش معهم ، يراقب حركاتهم وسكناتهم ، ويكشف مواطن الضعف التى يدخل عليهم العدو منها . .

وأذّن مؤذن النبىّ فى المسلمين ، بعد أن تلقّى أمر ربه ، ألا يصلّى المسلمون العصر — أى عصر هذا اليوم — إلا فى بنى قريظة . . فسار المسلمون إلى حيث كان يتحصن بنو قريظة فى حصونهم من المدينة . . وكانت صلاة العصر قد دخل وقتها . . فكان المسلمون على رأى مختلف فى أداء الفريضة فى وقتها حيث وجبت ، أو الانتظار بوقتها حتى يبلغوا بنى قريظة . . وكان ذلك موضع اجتهاد منهم . . فرأى بعضهم أن يمتثل أمر النبىّ من غير تأويل ، وألا يصلّى العصر إلا فى بنى قريظة ، ولو تأخر الوقت إلى العشاء . .

ورأى بعضٌ آخر ، أن يصلّى العصر ، حين وجب وقتها ، وقبل أن يخرج هذا الوقت ، ودلّهم على هذا الرأى أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم لم يُرد بهذا الأمر إلا المبادرة والإسراع إلى حيث أمرهم ، وأن الصلاة لا تفوّت عليهم هذه المبادرة . .

وقد علم النبىّ بما كان من المسلمين ، فلم ينكر على أىٍّ من الفريقين رأيَه . . إذ كان كل منهم إنما يتحرى الخير ، ويطلب رضا الله ورسوله . . إن أحداً منهم لم يَمِلْ مع هوًى ، ولم ينظر إلى ذات نفسه فى هذا الأمر . . وإذ كان ذلك كذلك لم يكن المقصد إلا طلبَ الخير ، وتحرّى الوجه الذى يلوح منه . . وفى طلب الخير ، وتحرّى وجهه ، يتساوى الذين يبلغونه ، والذين لا يصلون إليه . . فليست العبرة بالأمر فى ذاته ، وإنما العبرة بالنيّة القائمة عليه ، والرسولَ صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إنما الأعمال بالنيات . . وإنما لكل امرىء مانوى » . . ولهذا لم يكشف النبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — عن وجه الصواب فى هذا الأمر الذى اختلف فيه أصحابه .. إذ لاشك أن فريقاً أصاب ، وفريقاً أخطأ . . فالأمر إما صواب وإما خطأ ، ولا يحتمل الوجهين معاً . . ولكنّ المعتبَرَ هنا ليس الأمرَ فى ذاته ، إذ هو شىء عارض ، وإنما المعتبر هو النيّة التى تقوم وراء هذا الأمر . . لأن النيّة شىء ذاتى ، والذاتى مقدم على العَرَضى .

وقد حاصر النبى والمسلمون اليهود فى حصونهم مدة ، حتى إذا اشتدّ عليهم الحصار ، نزلوا على حكم النبىّ . . فأمر بقتل كل من بلغ الحلم من الذكور ، وسَبىَ الأطفال ، والنساء ، بعد أن استولى على ما كان مع القوم من سلاح . . وهكذا ذهب هذا الداء الذى كان يعيش فى كيان المدينة ، ويموج بالفتن فيها . .

وهكذا نفت المدينة خَبَثَها . . ولبست اسماً جديداً لها هو « طيبة » . . إذ قد طابت الحياة للمسلمين فيها بعد ذَهاب هذا الخبث عنها . .

قوله تعالى :

* « وأورثكم أرضَهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا »

هو إخبار بما كان لله من نعمة على المسلمين بعد أن أجلوا اليهود عن المدينة .. فقد ورث المسلمون ما كان للقوم من أرض ، وديار وأموال . . وهذا فضل من فضل الله على المؤمنين ، يجب أن يذكروه ، ويشكروا لله فضله وإحسانه . .

— وفي قوله تعالى : « وأرضاً لم تطئوها » .. إشارة إلى ما سوف يورّث الله سبحانه وتعالى المسلمين بعد هذا ، من أرض لم يطئوها من قبل . . وهي تلك الأرض التي وراء حدود الجزيرة العربية ، مما ستمتد إليه فتوح المسلمين ، وتطلع عليه شمس الإسلام . . في مشارق الأرض ومغاربها . . وفي الحديث إلى المسلمين بالأرض التي سيرثونها ، مع أن المخاطبين لم يرثوها بعد ، وإنما ورثها المسلمون من بعدهم ـ في هذا إشارة إلى أن المسلمين كيان واحد ، وأن مايرثه المسلمون في أي زمان ومكان ، هو ميراث المسلمين جميعاً . . لأن هذا الميراث ليس في حقيقته لذات أنفسهم ، وإنما هو لدين الله الذي يجاهدون في سبيله . .

— وفي قوله تعالى : « وكان الله على كل شيء قديراً » تطمين لقلوب المؤمنين على مستقبل الإسلام ، الذي وعدهم الله بنصره وإعزازه ، والتمكين له في الأرض . . فإن هذا الوعد من الله القوى العزيز ، الذي بقوته وعزته يجعل من هؤلاء القلة من المسلمين كثرة ، ومن ضعفهم قوة تنهار أمامها قوى أعظم دولتين كانتا تسيطران على العالم في هذا الوقت ، وهما دولتا الفرس والروم . . هذا ، وفي الآية

الكريمة ، إشارة إلى ما أراد الله سبحانه وتعالى باليهود من إذلال وامتهان ، فقد عرضهم سبحانه وتعالى فى معرض الاستباحة والاستخفاف بدمائهم وأموالهم وإغراء المسلمين بهم.. ففى قوله تعالى : « فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً » استباحة لدمائهم وإراقتها بغير حساب . . وفى قوله تعالى : « وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم » دعوة للمسلمين إلى تمكين أيديهم من هذا الذى كان فى يد القوم ، فالمسلمون أحق به منهم ، وأولى . .

الآيات : (٢٨ — ٣٠)

* « يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) »

(المرأة والرجل . . فى بيت النبوة)

يكثر المفسرون فى إيراد أسباب النزول لهذه الآيات . . ومن هذه الأسباب أن أزواج النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ، قد وجدن فى المعيشة التى كن يعشنها مع النبي، ضيقاً فى المعيشة ، لاقين فيه كثيراً من الضيق، وودون لو أن الرسول صلى الله عليه وسلم، أخرجهن من هذا العيش الخشن إلى حياة يجدن فيها بعض ما يجد غيرهن من النساء ، من لين ، ورقه . . وتمضى الرواية ، فتقول إن نساء النبي جئن إليه مجتمعات بهذا الطلب ، وأنه صلّى الله عليه وسلم وجد شيئاً من الضيق بهن ، فنزل قوله تعالى : « يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن . . الآية »

— وهذا الخبر وما يدور فى مداره ، هو فى نظرنا غير معقول على صورته تلك*، وإن كان قد ورد فى كتب السنة الصحاح ، مثل صحيح مسلم . . وذلك لأمور :

أولا : أن نساء النبيّ كنّ فى هذا المستوى الرفيع ، من شفافية الروح ، وصفاء النفس ، يملأ قلوبهن الإيمان بالله . وكيف لا يكون هذا شأنهن ، وهن يرين وحى السماء ينزل فى بيوتهن ، ورسولَ الله يملأ بأنفاسه الطاهرة الطيبة حجراتهن ؟ وأين إذن ما يكون للرسول الكريم من نفحات وبركات إذا لم تَنَلْ أقربَ الناس إليه ، وأكثرهن مخالطة له ، وحياةً معه ؟

ثانياً : كان رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الأسوة الحسنة ، لنسائه وللمؤمنين جميعاً ، فى تلك الحياة المتواضعة التى كان يحياها فى مطعمه ، وملبسه ، ومنامه . . فقد كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ينام على حشية من لِيف ، ربّما ثناها فى الليلة الباردة ليتغطى ببعضها ، كما كان له وسادة من ليف أيضاً . . وكانت تمرّ به الليالى ذوات العدد ، لا يوقد فى بيته نار ، كما تحدث بذلك السيدة عائشة . . ومعنى هذا أن لا خبز يخبز ، ولا لحمَ ينضج . . وكان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يَخيط ثوبه ، ويخصف نعله ، فكيف ـ مع هذا ـ تجد واحدةٌ من نسائه لساناً تحدّث به الرسول هذا الحديث عن العيش اللين ، والحياة الرافهة ؟ ثم كيف يتحول هذا الحديث إلى أن يكون بهذا الصوت الجماعِي الجهير ؟

ثالثاً : فى حياة أزواج النبيّ مواقف تشهد لهن بهذه العظمة الإنسانية ، التى كانت من بعض نفحات الرسول ، وبركاته عليهن . . فكُنّ بهذا جديرات بأن يكنّ زوجاتٍ لواحد الإنسانية وعظيمها ، وكن على ما أشار إليهن سبحانه وتعالى بقوله : « والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » .

فهذه أم حبيبة ـ رضى الله عنها ـ إحدى أزواج النبىّ ، وبنت

أبى سفيان - ينزل عليها أبوها قبل أن يدخل فى الإسلام ، وقد جاء إلى المدينة ، ممثلا لقريش ، ليلتقى النبىّ فى شئونٍ بين المسلمين ، وبين مشركى قريشْ . . نقول : نزل أبو سفيان عند ابنته أم حبيبة - رضى الله عنها - فلما أراد أن يجلس على حشية كانت هناك ، ردّته أم حبيبة بغير شعور ، وبلا رفق . . وعجب أبوها لهذا أشدّ العجب ، واستحال كيانه كلّه علامة إنكار تطالب تفسيراً لهذا الأمر الغريب . . وتلقاه أمُّ حبيبة بما يكاد يذهب بعقله : « أنت مشرك . . نجس . . فلا تمسّ فراش رسول الله ! ! » ولم يُصَدّق أبو سفيان ما سمعت أذنه ، كما لم يصدق ما رأت عينه ، وخُيّل إليه أنه فى حلم مزعج . . ولكن الواقع كان أقوى من أن تعيش فى ظله الأحلام طويلا ، فصحا الرجل صحوة مذعورة ، وانطلق مسرعاً ليهرب من هذا الموقف الذى كاد يختنق فيه .

وأم حبيبة هذه على شظف العيش الذى كانت تنعم فى ظله بهناءة الروح ، ورَوْح النفس - لم تَرَ أن تنعم وحدها بهذه النعمة العظيمة التى تجدها فى رحاب رسول الله ، وألا يكون لأختها « رملة » بنت أبى سفيان حظ من هذا الخير الوفير ، فتعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يتزوج أختها ، فتقول : يارسول الله . . هل لك فى أختى بنت أبى سفيان ؟ فيقول الرسول الكريم : « أفعل ماذ ؟ » فتقول : تتزوجها ! فيقول - صلوات الله وسلامه عليه : « أوَ تُحِبين ؟ » فتقول : « لست بِمُخلية [1] وأحَبُّ من يشاركنى فى الخير أختى ! » فيجيبها الرسول الكريم : « فإنها لا تحلّ لى »

والمثل فى أم المؤمنين « حبيبة » بنت أبى سفيان يغنينا عن كثير من الأمثلة التى نجدها فى سيرة أزواج النبى - رضى الله عنهن - وما بلغ بهن زهدهن فى متاع الحياة الدنيا ، وترفعهن عن زخارفها وزينتها، من مكانة لم تكن إلا المصطفيات

---

(١) أى أنها لا تخلى مكانها ليتزوج النبى بأختها ، حيث يحرم الجمع بين الأختين .

من عباد الله — إذا كانت أم حبيبة بنتَ سيد قريش ، وصاحب عِيرها ونفيرها . . .

فليس يصحّ بعد هذا أن يُسمع لقول يقال بأن أزواج النبي — صلى الله عليه وسلم — شكوْن يوماً من ضيق العيش فى جناب الرسول ، وأن واحدة منهن مدت عينها إلى شيء وراء هذا العالم الروحى الذى كانت تعيش فيه ، وتجد منه ما يملأ عليها وجودها سعادةً ورضاً . .

وعلى هذا نستطيع أن ننظر فى الآيات السابقة ، من غير أن نقف على أسباب النزول التى قيل إنها لابست نزولَها ، وحسبنا أن نأخذ بعض ما يعطيه منطوق هذه الآيات من دلالات ، وما لهذه الدلالات من علاقة بالآيات السابقة أو اللاحقة لها . .

قوله تعالى :

* « يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالَيْن أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً * وإن كنتن تُرِدْنَ الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما »

— هو خطاب للنبيّ ، وأمر له من ربه ، أن يلقىَ نساءه بهذا القول الذى أمره ربه أن يلقاهن به ، وأن يعرف رأيهن فيه ، وموقفهن منه : « إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرّحكن سراحاً جميلا * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما » .. إنه تخيير لهن من الرسول — بأمر ربه — بين أن يطلِّق الرسول سراحهن ويمتعهن متعة المطلقات ، لتأخذ كل واحدة منهن حظها الذى تقدرعليه من متاع الحياة الدنيا خارج بيت النبوة ، وبين أن يرضيْن الحياة مع رسول الله ، على تلك الحال التى هن فيها .. فى بيت النبي !

وفى هذا التخيير دِلالة واضحة ، وإشارة صريحة إلى ما ينبغى أن تقوم عليه الحياة الزوجية بين الرجل والمرأة .. فليس للرجل أن يحمل المرأة على الحياة معه ، وهى متكرهة لهذه الحياة ، غير راغبة فيها ، حتى ولو كانت تلك الحياة على أعلى مستوى من الكمال والإحسان .. وأيًّا ما كان واقع الأمر فى الحياة الزوجية ، فإن ذلك لا يَحرِم المرأة حقها فى اختيار الحياة التى ترضاها لنفسها ، وتجد فيها ما تستريح له ، ولو كان على غير جادة الطريق .. إنها كائن رشيد يحمل أمانة التكليف ، ويتلقى جزاء ما يعمل من خير أو شر .. إن المرأة كالرجل فى حمل التكليف ، وفى الثواب والعقاب ، وإن فى إمساكها فى بيت الزوجية على غير ما تريد ، حجْراً على إرادتها ، واعتداء على إنسانيتها . .

ولو أنه كان من تدبير الشريعة الإسلامية ، أن تجعل للرجل سلطاناً مطلقاً على المرأة يمسكها به فى بيت الزوجية ، من غير رضاها ـ لكان أولى الناس جميعاً بذلك ، هو رسول الله — صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته عليه — فإنه لن تجد المرأة أبداً ظلاًّ كهذا الظل الطيب الكريم ، تأوى إليه ، وتتغذّى فيه إنسانيّتها بأنوار السماء ، وتعطر منه روحها بأنفاس النبوة وكمالاتها . .

إن فى إلزام المرأة وقهرها أن تحيا فى هذا الوضع الكريم فى بيت النبوة ، هو خير محض لها ، وإحسان عظيم إليها ، وربح خالص لا شك فيه لها .. ومع هذا ، فإن الله سبحانه أمر رسوله الكريم ، بتخيير نسائه ، وإعطائهن هذا الحق الذى لهن ، والذى ربما كان يمنعهن الدين ومقام الرسول فى نفوسهن ، من النظر إليه ، أو التفكير فيه ! فجاء هذا العرض وذلك التخيير ، أمراً من السماء ، يرفع عنهن الحرج ، ويفسح لهن الطريق إلى ما يردن .

وطبيعى أن يكون هذا موقف الإسلام من المرأة ، ومن تحرير مشاعرها

من كل خوف ، وإخلاء وجدانها من كل قيد ، فى الصلة التى تقوم بينهـا وبين الرجل ...

وهذا التحرير لإرادة المرأة ، وأعطائها الحق فى الإمساك بعقد الحيـاة الزوجية أو نقضها . فوق أنه اعتراف بحق الجانب الإنسانى فى المرأة ، وحراسة من كل عارض يعرض له — فى الوقت نفسه — هو اعتراف ضمنى بقداسة الرابطة الزوجية ، ورفعها إلى مستوى العقيدة الدينية ... سواء بسواء ..

فالعلاقة التى تقيمها الشريعة الإسلامية بين الزوجين علاقة مقدّسة ، لها جلالها ، ولها خطرها ، فى بناء المجتمع ، وفى تماسك وَحَداته . إنها علاقةُ نفوس ، واتصال أرواح ، وارتباط مشاعر ، وتلاقى قلوب .. ولن يكون ذلك على كماله وتمامه ، أو على شىء من الكمال والتمام ، إذا لابسه شىء من القهر أو الإكراه ، أو الحرج ..

والشريعة الإسلامية ، التى تأبى أن يستجيب لها أحد بغير رضاه ، أو يدخل إليها داخل عن طريق القهر والقسر . حتى ليقول الله سبحانه ، لنبيه الكريم : « لا إكراه فى الدين » (٢٥٦البقرة) ويقول له : « أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٩٩ : يونس) .. ويقول له : « لستَ عليهم بمصيطر » (٢٢ : الغاشية) ويقول له : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٢٩ . الكهف) — هذه الشريعة التى تقف هذا الموقف من دعوتها ، ليس غريباً عليها أن تقف هذا الموقف من المرأة ، ومن إمساكها على الحياة الزوجية ..

ولا ندرى كيف أخذت المرأة هذا الموضع الذليل المهين فى الأسرة الإسلامية ، وفى علاقتها بالرجل ، حتى لقد كادت — فى وقت ما — تتحول إلى متاع من أمتعة الرجل .. فيمسكها كارهة له ، بل ويمسكها وهو كاره

لها .. كيداً ، وإعناتاً !! ولا ندرى من أين جاءت تلك القوانين المعنونة بعنوان الدين ، تحكم على المرأة بالطاعة ، وتُدخلها بالقوة القاهرة هذا البيت البِدعىّ المعروف ببيت الطاعة ؟ وأية طاعة تلك التى تقوم على سلطان القانون ، وضربات السياط ؟ وهل لسلطان القانون — أى قانون — أن يقيم فى النفوس ولاء ، وفى القلوب حباً ومودة ورحمة ؟ والحياة الزوجية ، فى شريعة الإسلام ، إنما مِلاكها الرحمة والمودة ، كما يقول سبحانه وتعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (٢١ : الروم)

لقد فُهم الطلاق فى الإسلام ، بعد عصر النبوة والخلافة الراشدة — على أنه حق مطلق للزوج ، وهو فهم خطأ . . فللطلاق دواع وأسباب إذا لم تجتمع له ، كان عملا عدوانيا ، يؤثّمه الإسلام ، ويُبغِض مرتكبه . . إنه رخصة لا تباح إلا عند الضرورة ، ومحظور لا يحل إلا عند الحرج ، وفى هذا يقول الرسول الكريم : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .. فهو حلال بغيض ، لا يستعمل إلا بقدر ما يدفع الضرر ، ويرفع الحرج . . تماماً كحِلّ الميتة ولحم الخنزير ، عند الاضطرار ..

وعن هذا الفهم الخاطىء للطلاق ، قام مفهوم آخر ، هو خطأ أيضاً ، لأن ما بُنى على الخطأ خطأ . .

وهذا المفهوم ، هو أنه ليس للمرأة فى ربط الحياة الزوجية أو حلّها أى شىء ! إن الأمر كله فى يد الرجل .. إن شاء أبقى على الحياة الزوجية ، وإن شاء قطعها ..

ولو نظر ناظر إلى الشريعة الإسلامية من خلال هذا المفهوم الخاطىء

للطلاق ، وما تفرع منه ، لساء ظنه بها ، ولاتهم الإسلام فى عدالة أحكامه ، وإنسانية تشريعه ..

والحق أن الإسلام قطع على الناس وساوس الظنون به ، وأخرس ألسنة الذين يتهمونه فى عدالة أحكامه ، وإنسانية تشريعه ، فى أى موقع من مواقع الحياة ، سواء بين المرأة والرجل ، أو بين الناس والناس جميعاً ، مؤمنين وغير مؤمنين ..

أتريد لهذا شاهداً ، فيما بين المرأة والرجل ؟ .

استمع إلى قوله تعالى : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً .. والصلح خير .. وأحضرت الأنفس الشحّ وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً * ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم .. فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما * وإن يتفرقا يغن الله كلاًّ من سعته .. وكان الله واسعاً حكيما » (١٢٨ — ١٣٠ : النساء) .

فالقضية فى هذه الآيات الثلاث ، هى قضية المرأة ، والشأن الأول فيها هو شأن المرأة ..

إن للمرأة هنا ، قلقة فى بيت الزوجية ، لا تجد سكينةَ النفس ، ولا أنس الروح . . سواء أكان ذلك الشعور ناجماً عن سوء تقديرها وتفكيرها ، أو وارداً عليها من سوء تصرف الرجل معها وسوء عشرته .. إن الأمر سواء.. فهى — على أى حال — غير مستريحة إلى زوجها ، وغير مطمئنة إلى الحياة معه . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « خافت من بعلها » .. فالخوف هنا ، هو الشعور بالقلق ، وعدم الاستقرار والاطمئنان .. وفى قوله تعالى : « نشوزاً أو إعراضاً » ما يكشف عن وارد هذا الخوف ، الذى تجده المرأة ، وهو

إما أن يكون عن نشوز منها هى ، ونفور من الحياة الزوجية ، وإما أن يكون من إعراض الرجل عنها ، ونفوره منها ..

هذه هى صورة تلك الحياة الزوجية التى تشير إليها الآيات ، وهذا هو إحساس المرأة بها ، وشعورها نحوها .. أما شعور الرجل وإحساسه هنا ، فلا معتبر لها ، لأن فى يده ما يحسم به أمره ، ويأخذ به الوضع الذى يستريح إليه ، وهو « الطلاق » ! ..

والسؤال هنا : ماذا تملك المرأة إزاء هذا الشعور الذى تعيش به فى بيت الزوجية ؟ وهل أعطاها الإسلام من الحق ما تملك به التصرف بمقتضى الشعور ؟ .

ونعم ، نعم .. فإن الآيات صريحة فى أن تأخذ المرأة الطريق الذى تختاره ، وأن لها أن تفارق زوجها ، إن لم يكن برضاه ، فلولىّ الأمر أن يطلقها عليه .. ففى قوله تعالى : « وإن يتفرقا يغن الله كُلا من سعته » فهذا التفرق هو عن رغبة المرأة التى عَرَضت الآيات مشاعرها ، وما تجد من ضيق ، وقلق ، وخوف .. !

وليس الذى حملته الآيات من علاج الأمر قبل حسمه بين الزوجين بالطلاق ، وذلك بما يجرى بينهما من مصالحة ومصالحة ، واستدعاء لمشاعر الخير فيهما ـ ليس هذا إلا حرصاً على هذه الرابطة المقدسة ، وإبقاء على مشاعر المودة والرحمة التى من شأنها أن تكون على أتم صورة وأعدلها بين الزوجين ..

وقد جاءت السنة المطهرة شارحة شرحاً عملياً لما جاء به القرآن الكريم ، فى هذا الأمر .. فأعطى النبى الكريم المرأة حقها فى الطلاق من زوجها ، إذا هى لم تُردّ الحياة معه ..

رُوى أن « جميلة » امرأة ثابت بن قيس ، جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت يارسول الله : لا أجد فى ثابت بن قيس عيباً من خُلق أو إيمان ، ولكنى لا أجد فى طوقى مجاراته » فسألها الرسول الكريم ، هل تعيد إليه حائطه (أى بستانه) الذى جعله صداقاً لها .. إذا هو طلقها ؟ فقالت نعم ، فأمر النبى بردّ الحائط إلى ثابت ، وتطليقها . .

وبهذا التدبير الحكيم تتعادل كفتا الميزان للحياة الزوجية ، وبهذا التعادل ، يتم التوافق ، والتواد ، ويجد كل من الزوجين معنى السكن الذى أشار إليه قوله تعالى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (٢١ : الروم) .

* * *

هذا ، والمناسبة الداعية إلى هذا الموقف الذى وقفه النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه — من أزواجه ، وخيّرهنّ فيه بين الحياة معه ، إيثاراً لله ورسوله ، وبين الحياة المطلقة من رباط الزوجية — المناسبة الداعية إلى هذا هو ما فتح الله على النبى والمسلمين فى غزوة الخندق ، بما ساق إليهم من غنائم اليهود ، من بنى قريظة وبنى النضير ، بعد أن ردّ الله عنهم الأحزاب خائبين خاسرين . .

وهنا أمام هذه الغنائم الكثيرة ، تتحرك شهوات النفوس ، وتتدافع الرغبات ، وتتطلع العيون .. إنه المال الكثير ، من جهة ، والحرمان الشديد ، من جهة أخرى .. وإنها الفتنة ، تطل برأسها على الناس ، وتلقاهم على جوع بالغ ، وحرمان طويل . . والناس هم الناس . . أيًّا كانوا . . فلن تموت فيهم نوازع الحياة ، وحب البقاء ، ولن يختفى من كيانهم ما ركب فى فطرتهم من حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ! !

وإذا كان الإسلام بتعاليمه ، وبهدى رسوله ، قد استطاع أن يقهر هذه الشهوات فى النفوس ، ويُخفت صوت الأهواء الداعية إليها ، فإنه لن يستطيع — وما كان من همّه أن يفعل — اقتلاعَ هذه الشهوات من جذورها ، لأنه إنما يعمل بتعاليمه ، وبهدى رسوله ، فى حقل الإنسانية ، وفى محيط الإنسان باعتباره كائناً بشرياً ، من خصائصه أن يرغب ، ويشتهى ..

لهذا ، كان من تدبير الدعوة الإسلامية أن لقيت المسلمين على أول الطريق ، وهم فى مواجهة هذه الفتنة التى وردت عليهم من أموال اليهود ، وما ورّثهم الله إياه من ديارهم وأرضهم ، وذراريهم ونسائهم .. وكان من تدبير الإسلام الحكيم أيضاً ، أن يكون النبىّ صلى الله عليه وسلم أولَ من يلقى هذه الدعوة ، وأول من يأخذ نفسه بها ، فى نفسه وفى أهله .. فكان أن تلقى أمر ربه بتخيير نسائه فى الحياة معه على ما ألِفْنَ من شظف العيش فى بيته ، وألا ينتظرن شيئاً من تغيير هذه الحال ، مهما كثرت الأموال التى تُساق إلى المسلمين من غنائم الحرب ، سواء ما كان منهما حالاً ، أو مستقبلا ! فإن هن رضين هذا ، فذلك مما يجزيهن الله عليه الثوابَ العظيم ، والأجر الكبير .. وإلّا فلهن أن يطلبن سَعَة العيش ، ومُتعة الحياة الدنيا فى غير بيت النبىّ .. أما بيت النبىّ فلا تجتمع فيه النبوّة ، ومتاع الحياة الدنيا .. !

وهكذا تلقّى المسلمون جميعاً هذا الدرس الحكيم ، الذى أشرف عليهم من أعلى قمة فى الحياة ، فلم يبق بيت من بيوتهم إلا استنار بشعاعاته ، واستدفأ بضوئه ! فخنَسَتْ فى النفوس تطلعاتها ، وانجحرت فى الصدور وساوسها ، ورأى المسلمون — رجالاً ونساء — أنهم مطالبون — وإن لم يُطلب إليهم — بما أخذ به النبىّ نفسه وأهله — إذ كان النبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — أسوتهم

ومثلهم الأعلى الذى يتمثلونه .. وهذا ماأشار إليه قوله تعالى ، قبل هذه الآيات ، وكأنه مقدمة لها : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » ! .

والأسوة هنا إن لم يفرضها الدين ، أوجبها العرف ، وقضى به واقع الحياة فى الناس .. فالنبىّ ، بمكانه الدينى ،هو رأس المسلمين ، وسيّدهم ، وإمامهم الذى ينفرد بمقام السيادة والإمامة ، وولاية الأمر فيهم . .

والنبىّ بمكانه الاجتماعى من المسلمين ، هو قائدهم ، وملكهم ، والمتفرّد بالسلطان عليهم . .

ومن هنا لم يكن لأىٍّ من المسلمين ، بل ومن المنافقين ومَن فى قلوبهم مرض أن يجد سبيلا إلى غير الأسوة بالنبىّ فى هذا المال الحاضر بين أيديهم ، أو فيما سيقع لأيديهم منه فى مستقبل الأيام . .

فالمؤمنون حقاً يجدون فى محمد النبىّ الأسوة فى الحياة الطيبة الكريمة العَزوفِ عن زخرف الحياة ومتاعها . .

والمنافقون ومن فى قلوبهم مرض من المسلمين ، يرون فى محمد ، القائدَ ، والملك والسلطان ، وقد نفض يديه من هذه الغنائم ، فلم يمدّ يده إلى شىء منها هو أو أهل بيته ، فلا يجرؤ أحد منهم أن يمدّ بصره إلى أكثر مما امتدّ إليه بصر الرسول إزاء هذا المال . .

موقف لم يكن منه بدٌّ ، وتدبير لم يكن عنه مَعدًى إلى سواه ، إذا كان هذا الدين الذى جاء به « محمد » ديناً حقاً ، وكان من أمر هذا الدين أن يقيم مجتمعاً إنسانياً على تعاليمه ، ويمسك به على شريعته . .

وتعالت حكمة الله ، وجلّ جلاله ، وتبارك شأنه . . !

يقع هذا التدبير فى بيئة كان الانتهاب ، والسلب والخطف شريعةً سائدة

فى كل أحيائها . . ثم يعرَض على الأنظار فيها هذا المالُ الكثير الذى اكتنزه اليهود خلال قرون طويلة ، وجمعوه من كل وجه ـ فلا تطمح إليه نفس ، ولا تمتد إليه عين أو يد ! !

إنه انقلاب مزلزل فى البيئة العربية . . وإنه لأكثر من انقلاب أن يبدأ القائد بنفسه ، ويأخذها بهذا الحكم ، ثم يدع للمسلمين أن يأخذوا حظوظهم من هذا المال ، وأن يقتسموه بينهم . . وقد كان المتوقع أن يدور الأمر على عكس هذا ، فيستأثر القائد بكل نفيس غالٍ من هذا المغنم ، جرياً على ما اعتاد العرب فى غاراتهم على أعدائهم . . فلقائد الجماعة المنتصرة الغانمة أن يصطفى ما يشاء ، من الغنيمة قبل قسمتها ، وأن يعطى منها ما يشاء لمن يشاء . . ثم يذهب بالربع مما بقى ، ويدع ثلاثة الأرباع تقسم بين المحاربين .. وفى هذا يقول شاعرهم مخاطباً قائد الحرب :

لك المرباع فينا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

وإذا لم تكن كتب السيرة قد التفتت كثيراً إلى هذا الحدث ، ولم ترصد آثاره فى البيئة العربية كلها ـ فإن الذى لا شك فيه أنه أثار هزة عنيفة فى المجتمع العربى كله ، مسلمين ، وغير مسلمين . . والذى لا نشك فيه كذلك أنه أدار تفكير الناس جميعاً إلى الإسلام ، وإلى الغاية التى يقصِد إليها ، وأن كثيرا ممن لم يدخلوا فى الإسلام ، والذين كانوا على غَيْرة وحسد للنبىّ أن يعلو عليهم بسلطان ، وأن يستطيل عليهم بدعوته وما يجمع لها من أنصار — كثير من هؤلاء قد استخزوا أمام أنفسهم ، وأطفئوا بأيديهم نيران الحقد والحسد على الدين الجديد ، وعلى صاحب الدعوة به فيهم . . وإن الذى يمدّ بصره إلى ما بعد هذا الحدث ليرى أن الطريق مفتوح إلى فتح مكة وإلى دخول الناس فى دين الله أفواجاً ، فقد كان لهذا الحدث أثره العظيم فى كسر حدّة العداوة والعناد للنبىّ

ولدعوته ، فى نفوس المشركين من قريش ! إذ أن أكثر ما كان يحجز المشركين عن الاستجابة للنبىّ ، هو نفورهم وإباؤهم من أن يقعوا تحت يد سلطان ، يعلو عليهم ، ويستبدّ بوجودهم ، فلما جاءت الأحداث تُخبر بأن محمداً ليس ملِكاً ولا أميراً ، ولا طالب مُلك أو إمارة ــ عرف المنكرون أن دعوى النبوة التى يدّعيها محمد ، هى دعوة حق ، لاشك فيه . .

* * *

قوله تعالى :

* « يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مُبَيِّنَةٍ يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً » .

تجىء هذه الآية ، بعد تخيير النبىّ أزواجَه .. وقد اخترن الله ورسوله، ورضين الحياة فى ظلال النبوة . . فهن الآن ــ وبعد هذا الاختبار العملى لما فى قلوبهن من إيمان ــ أهل لاحتمال التبعات الملقاة على من يخالط النبى ويعاشره .. وإذن فهن على غير ماعليه النساء .. إنهن نساء النبى ، وعليهن من الواجبات فوق ما على النساء لأزواجهن .. وأنه إذا كان على المرأة أن ترعى حقوق الزوجية ، وأن تحفظ حرماتها ، فإن على نساء النبى أن يرعين هذه الحقوق رعايةً مطلقة وأن يحفظن حرماتها حفظاً مبرأ من كل شائبة ، بعيداً عن كل شبهة .. وإلا فليسمعن كلمة الله إليهن :

« يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً » .

والفاحشة : الأمر المنكر . .

والمبينة : الكاشفة عن هذا المنكر . .

والمراد بالفاحشة المبينة هنا ، مايخلّ بالمروءة والشرف ، قولا وفعلا . .

وفى الآية إشارة إلى مقام نساء النبى ، وأنهن مؤاخذات بما يُعْفَى عنه من غيرهن .. لأنهن فى موقع الهداية ، وفى مطلع النور ، فلا عذر لهن فيما يقوم لغيرهن من عذر .. ومن هنا كانت صغائرهن كبائر . . ومن هنا قيل : « سيئات المقربين حسنات الأبرار » .

ومضاعفة العذاب ضعفين ، ليس ظلماً فى هذا الوضع ، بل هو الجزاء المناسب للذنب ، المقدور بقدره .. وإنما هو مضاعَف بالنسبة لغيرهن ، ممن ليس لهن هذا الوضع الذى هن فيه .. فعذاب غيرهن مراعًى فيه التخفيف ، فهو دون ما يستحقه الذنب ، إذ كان مع غيرهن أكثرُ من عذر . . من جهل ، أو غفلة ، ونحو هذا ، أما هن فلا عذر لهن ..

وقد يبدو أن هذا التحذير لنساء النبى ، يمكن أن يلزم منه ، وقوع إتيان الفاحشة المبينة من بعضهن ، كما يرى ذلك بعض المفسرين . . وهذا غير مراد من الآية الكريمة ، وإنما المراد هو الإشارة إلى هذا المقام الكريم الذى لهن عند الله ، وعند المؤمنين .. وأن لهن مكاناً خاصاً ، وحساباً خاصاً .. وذلك مثل قوله تعالى للنبى الكريم : « لئن أشركت ليحبطن عملك » (٦٥ : الزمر) . وقوله تعالى : « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » . . (١١٦ : الأنعام) وهذا مالا يكون من النبى أبداً ، كذلك لا يكون من زوجات أن يأتين بفاحشة أبداً ، وهنّ فى حمى النبوّة ، وفى حراسة السماء التى تظل بيت النبىّ . .

* * *



الآيات : (٣١ — ٣٥)

* « وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) »

التفسير :

* قوله تعالى :

« وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا » .

هو مقابلُ قوله تعالى فى الآية السابقة : « يا نساء النبىّ من يأتِ منكنّ بفاحشةٍ مُبَيِّنَةٍ يضاعفْ لها العذابُ ضِعْفَين » .

فهذا مقام، وذاك مقام .. هذا فى مقام الإحسان، وذاك فى مقام الإساءة .. وكما أن زلّة أهل الإحسان كبيرة ومؤاخذتهم عليها أكبر، فإن إحسانهم عظيم وجزاءهم عليه أعظم ..

والقنوت: الولاء والخشوع ..

وفى عطف الرسول على الله سبحانه وتعالى، تكريم عظيم للرسول، وإشارة إلى مقامه العظيم عند ربه ..

وقوله تعالى: «وتعملْ صالحاً» معطوف على قوله تعالى: «يقنت» .. وفى هذا إشارة إلى أن القنوت ـ وهو الولاء والخشوع ـ من عمل القلب .. وإنه لكى يكون لهذا القنوت أثر، ينبغى أن يخرج إلى مجال العمل، فالعمل هو المحكّ الذى يَظهر عليه ما فى القلب من مشاعر ومعتقدات ..

وإيتاء الأجر مرتين، هو مضاعفة الثواب لأهل الإحسان، فضلا من فضل الله، وإحساناً من إحسانه إلى أهل وُدّه .. «والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم» (٢٦١: البقرة)

قوله تعالى:

* «يانساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتُنّ فلا تَخْضَعن بالقول فيطمعَ الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا»

تكشف الآية هنا عن السبب الذى من أجله كان حساب نساء النبى فى مقام الإحسان أو الإساءة، على هذا الوجه الذى أشارت إليه الآيات السابقة، وذلك أنهن لسن مثلَ غيرهن من النساء .. إنهن نساء النبى .. قد فُرض عليهن أن يزهدن فى الحياة الدنيا ومتاعها، إذا شئن أن يُحسبن فى نساء النبى.

ثم جُعل حسابهن فى مقام الإحسان أو الإساءة ، على غير ما يقوم عليه حساب النساء جميعاً ...

— وفى قوله تعالى : « يانساء النبى » استدعاء لهن بتلك الصفة الرفيعة التى حلاّهن الله سبحانه وتعالى بها فى بيت النبوة ، وتذكير لهن بتلك النعمة العظيمة التى لبسنها بإضافتهن إلى النبى ..

— وقوله تعالى : « لستن كأحد من النساء » .. نفى الشَّبَه عن نساء النبى هنا هو فى المقام الذى حللنه فى المسلمين .. فهن فى هذا المقام أمهات المؤمنين ، لهن ما للأمهات عند الأبناء من توقير وتقدير ، فهن بهذا الوضع لسنَ كمطلق النساء ، وعمومهن ، بل إن لهن خصوصية لا يشاركهن فيها غيرهن من النساء

— وقوله تعالى :« إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض »

الخضوع بالقول ؛ مضغ الكلام ، ولينه ، تدللا .. وهذا من المرأة أشبه بكشف العورة ، وإبداء الزينة ، إذ كان الصوت من بعض مفاتنها . . وصوت المرأة إذا كان على طبيعته لا شىء فيه ، ولكن التصنع هو الذى يجعل من صوتها داعياً يدعو إلى الريبة ، وإثارة شهوة الرجال . . ولهذا تغزل الشعراء بمثل هذا الصوت الذى يجىء من المرأة عن دلال وصنعة ..

ويعدّ المتنبى مضغ الكلام ولينه من بِدع الحضارة الذى لا يعجبه فيقول :

أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيبِ

وقوله تعالى : « وقلن قولا معروفاً » أى تحدثن حديثاً ، واضحاً صريحاً ، بعيداً عن التكليف والصنعة ، مجانبا ، الغمز والإشارة ..

فهذا أدب يباعد بين نساء النبى ، وبين أن يطوف بهن طائف من الريَب ، وهو أدب ينبغى أن يكون لنساء المؤمنين جميعاً . . فلهن فى نساء النبى أسوة حسنة . .

قوله تعالى :

« وقرْنَ فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهلَ البيت ويطهركم تطهيراً » .

قرن فى بيوتكن : أى أقمن فى بيوتكن ، والزمن الحياة فيها . . وهو من القرار والسكن ، وأصله : اقررن فى بيوتكن .

والتبرج : التهتك ، وإظهار الزينة . .

والجاهلية الأولى : أى الجاهلية العريقة فى الجهل . .

والآية ، أمر لنساء النبى ، أن يلزمن بيوتهن ، وألا يغشْين المجالس والطرقات . . إذ أن بيوتهن ، هى مساجدهن التى رضين أن يمشنَ فيها بعيدات عن صخب الدنيا ، وعن زخرفها ومتاعها . .

وهذا القرار فى البيوت ، لنساء النبى — أمر طبيعى ، بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة . . فما لهن بعد هذا مطلب يطلبنه خارج بيوتهن ، من لهو أو تجارة أو نحوها . . ولهذا كانت الدعوة إليهن بالقرار فى البيوت مقترنة بالدعوة بإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله . . فهذا هو دأبهن فى الحياة . . الاتجاه إلى الله ، والعمل لما يرضى الله ، ورسول الله . .

— وقوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

أى إن هذا الذى يُدعى إليه نساء النبى من أدب السماء ، هو لما يريد الله سبحانه وتعالى لهن من طهر ، يتناسب مع مقامهن ، ويتلاقى مع انتسابهن إلى النبى . .

« وأهلَ البيت » منادى ، وفى النداء تذكير لنساء النبي بهذا النسب الكريم الذى ينتسبن إليه ، وأنهن أهلُ بيت النبى .

— وقوله تعالى : « ويطهركم تطهيراً » توكيد لهذا الطهر الذى يريد الله سبحانه وتعالى أن يضفيه على أهل بيت النبي .. فهو طهر خالص ، لا تعلق به شائبة من دنس ، أو رجس ..

قوله تعالى :

* « واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً » .

آيات الله ، هى القرآن الكريم ، والحكمة : هى السنة المطهرة .

والمراد بذكر آيات الله والحكمة ، هو تذكرها ، والعمل بها .. ففى ذكر آيات الله ، وسنة الرسول ، تذكير بما فيهما من أحكام وآداب .. وفى هذا التذكير حثّ على العمل ، وتحرٍّ لما يرضى الله ورسوله ، من قول أو فعل ا.

وقوله تعالى : « بيوتكن » إشارة إلى أن بيوت نساء النبى هى الآفاق التى تطلع منها آيات الله ، وسنة الرسول .. إذ كان الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على تلاوة دائمة لآيات الله آناء الليل أو النهار ، فى أى بيت من بيوت نسائه . .

— وقوله تعالى : « إن الله كان لطيفاً خبيراً » ـ دعوة إلى ما ينبغى أن يصحب الذاكر لآيات الله وسنة الرسول من يقظة الوجدان ، واستجماع المشاعر والمدارك لاستقبال ما يُتلى من آيات الله والحكمة ، فذلك هو الذى يمنح القدرة على استشفاف بعض ما ضُمّت عليه كلمات الله ، وهدى رسوله ، من حكمة وموعظة ، وعلى التعرف على بعض ما حملت من علم ومعرفة . .

— « إن الله كان لطيفاً خبيراً » .. ومن لطف الله وخبرته يَقبِس عباد الله المقربون ، المكرمون ..

قوله تعالى :

* « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما » ..

كانت الآيات السابقة دعوةً لنساء النبى من الله سبحانه وتعالى ، إلى ما يحفظ عليهن مقامَهن الكريم عند الله ، ومنزلتهن العالية فى نفوس المسلمين.. وقد وعدهن الله سبحانه وتعالى على ذلك أجرا عظيما ..

ورحمة الله الواسعة وفضله العظيم ، يَسَعان الوجود كله ، وينالان البرّ والفاجر من عباده .. فكيف بالمؤمنين الذين استجابوا لله ، وأخلصوا دينهم وولاءهم له ؟ إن لهم مزيدًا من الرحمة ، وأضعافاً مضاعفة من الفضل والإحسان..

وفى الآية الكريمة تسوية بين الرجل والمرأة فى مقام التكليف والجزاء .. وهذا ما يجعل للمرأة وجودَها الكامل مع الرجل ، إذا ارتبطا برباط الزوجية.. وإلا فإن أى حيف يدخل على وجودها — بحكم الشريعة — يحلها من الالتزام بأحكام هذه الشريعة وآدابها ، إذ كانت ـ والأمر كذلك ـ غير ـ مالكة أمرَها على الوجه الذى تحقق فيه ذاتيتها ، وتحرر فيه إرادتها ، وتمضى به مشيئتها .. وهذا يؤيد ماذهبنا إليه فى تفسير قوله تعالى : « يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها .. الآية » .

وقد ذكرت الآية هنا عشرة أوصاف للرجال والنساء ، مَن حققها مِن أيٍّ من الرجال والنساء ، استحق ما وعد الله به من المغفرة والأجر العظيم ..

ويلقانا مع الآية الكريمة سؤالان :

أولهما : هل اجتماع هذه الأوصاف شرط فى تلقِّى الجزاء الذى وعد الله سبحانه وتعالى به ، فى هذه الآية ، أم أنه يكفى أن يحقق المرء وصفاً واحداً منها ، فيكون أهلا لتلقى هذا الجزاء ؟ وإذا كان ذلك كذلك ، فلم تعددت هذه الأوصاف إذا كان واحد منها مغنياً عن غيره ؟

والجواب على هذا ــ والله أعلم ــ هو أن أى وصف من هذه الأوصاف إذا حققه المرء تحقيقاً كاملا ، كان فى الوقت نفسه ، محققاً ، جامعاً للأوصاف الأخرى كلها . .

فمثلا . . المسلم . . إذا حقق معنى الإسلام على تمامه وكماله ، كان مؤمناً ، وكان قانتاً ، وكان صادقاً ، وكان صابراً ، وخاشعاً ، ومتصدقاً ، وصائماً ، وحافظاً لفرجه ، وذاكراً الله كثيراً . وهكذا .. المؤمن . . يكون مسلماً ، ويكون قانتاً ، وصادقاً ، وصابراً ، وخاشعاً ، ومتصدقاً ، وصائماً ، وحافظاً لفرجه ، وذاكراً لله كثيراً . .

ومثل هذا كل وصف يُحققه المرء من هذه الأوصاف على وجهه كاملا ، فإنه تتحقق معه الأوصاف التسعة الأخرى . . لأن كماله إنما يقوم على هذه الأوصاف كلها . .

هذا هو الأصل فى كل وصف من تلك الأوصاف ، إذا تم وكمل !

وتمام أى وصف من تلك الأوصاف ، وكماله ، يكاد يكون أمراً غير ممكن إلا فى أفراد قلة من عباد الله المصطفين المكرمين . . فقد يكون المرء

مسلماً ، ومع هذا فلن يكون مؤمناً ، أوقانتاً ، أو صادقاً . . . إلى غير ذلك من الصفات الأخرى . . . إذ الإسلام فى أدنى درجاته ، هو نطقٌ باللسان بشهادة أن لا إله إلا الله . . ثم هو فى أعلى درجاته جامع لتلك الأوصاف المذكورة كلها . . وهذا ما يشير إليه . قوله تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولـكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالـكم شيئاً » (١٤ : الحجرات) فالإسلام هنا قولة باللسان ، لا أكثر ولا أقلّ .. وتلك القولة إذا وقف بها المرء عند هذا الحدّ ، فلن يكون محققاً الوصف الذى لها ، ومن ثَمّ لن يكون مسلماً بالمعنى الذى ينتظم به فى هذا الموكب الـكريم ، الذى يجمع المؤمنين ، القانتين ، الصادقين . . . إلى آخر ما ينتظمه هذا الموكب ..

وكذلك الإيمان . . هو فى أدنى درجاته إقرار باللسان ، وتصديق بالقلب ثم يرتفع هذا الإيمان درجات ، ويعلو منازل ، بما يصحبه من أعمال ، كالصدق والصبر ، والخشوع ، والتصدق ، والصوم . . إلى آخر تلك الأوصاف . .

وقلْ مثل ذلك ، فى الصدق . . فقد يكون الصدق طبيعةً ، لا تستند إلى إيمان أو إسلام . . وكذلك الصبر ، والخشوع ، والتصـدق ، والصوم ، وحفظ الفرج . . فقد يَصْدُق الإنسان ، مروءةً وترفعاً . . وقد يصبر شجاعةً وجَلَدًا .. وقد يخشع تواضعاً وتألفاً ..وقد يتصدق ، سخاء وكرماً ..وقد يصوم ، رياضة للروح أو صحةً للبدن . . وقد يحفظ فرجه تعففاً واستعلاء . . قد يفعل كلّ هذا غير ناظرٍ إلى الله ، وغير مرتبط بشريعة ، أو دين . . إنه يعمل لحساب نفسه . . فلا يقام لشىء من ذلك وزن عند الله ، الذى لا يقبل عملاً من عاملٍ إلا إذا كان مقصوداً به وجهُه ، وامتثالُ أمره . . ثم قد يذكر الله

ذكراً كثيراً بلسانه ، دون أن يتصل شيء من هذا الذكر بعقله أو قلبه ، ودون أن يظهر لذلك أثر في قوله أو فعله . .

وأوضح من هذا أن هذه الأوصاف يغذّى بعضها بعضاً ، ويُمسك بعضها ببعض ، فتبدو كأنها صفة واحدة ، إذا نظر إليها باعتبار ، وتبدو كأنها أوصاف إذا نظر إليها باعتبار آخر . . إنها أشبه بالجسد الحيّ . . إذا نظرت إليه مُجملاً وجدت ذلك الإنسان ، المشخّص بذاته ، وصفاته ، وإذا نظرت إليه مفصلاً ، وجدته ذلك الإنسان المشخّص بذاته وصفاته . . ومِلاك الحياة فى هذا الجسد هو القلب ، كما أن ملاك تلك الأوصاف ، هو الإيمان المستقر فى هذا القلب !

والسؤال الثانى ، الذى يلقانا من هذه الآية الكريمة ، هو : هل هذا الجمع لتلك الصفات منظور فيه إلى شيء أكثر من مجرد الجمع والحصر ، دون مراعاةٍ للترتيب ، والتقديم والتأخير ؟ وإذا كان هناك نظر إلى أكثر من مجرّد الجمع والحصر ، فهل هذا الترتيب ترتيب تصاعدى أم تنازلى ؟

والجواب — والله أعلم — أن جَمْع هذه الأوصاف إنما هو من تدبير الحكيم العليم ، وتعالت حكمة الله ، وجلّ علمه عن أن يجيء تدبير من تدبير الله عن غير حكمة وعلم . . !

فالإسلام — الذى جاء بدءاً — هو أول درجات السُّلّم ، الذى يَرْقى فيه المرء إلى منازل الشريعة ، وهو المدخل ، الذى يدخل منه إلى دين الله . .

والإيمان . . هو العروج بالإسلام إلى موطنه من القلب .

والقنوت . . هو استجابة القلب ، وتقبله لهذا الإيمان الذى استقر فيه واطمأن به .

والصدق . . هو نبتة نبتت من بذرة الإيمان فى القلب . .

والصبر . . هو الغذاء الذى تغتذى منه تلك النبتة ، حتى تقاوم الآفات التى تعرض لها ، وحتى تعطى الثمر المرجوّ منها . .

والخشوع — وهو الولاء لله ، والامتثال لأمره — هو أول ما تَفَتّح مِن زهرٍ بيد الصبر . .

هذا ؛ ويلاحظ أن هذه الأوصاف الستة إنما يكتسبها الإنسان من داخل نفسه ، وفى حدود ذاته ، فيما بين اللسان والقلب . . وهى فى مجموعها ، الرصيد المودع فى قلب الإنسان من قوى الإيمان ، ومنها ينفق فيما يعالج من شئون يستكمل بها تلك الأوصاف العشرة ، ويوفّى منهـــا مطلوب دينه وشريعته ، منه . .

فالصوم . والتصدق ، وحفظ الفرج ، وذكر الله . . هى أعمال تستلزم سلطان القلب ، وخدمة الجوارح . .

وبهذا نرى أن هذه الصفات بناء متكامل ، يقوم بعضه على بعض ، ويستند التّالى منه إلى السابق ، بمعنى أنّ هذا الترتيب الذى جاءت عليـه هو أمر لازم ، لكى يتألف منها هذا النغم المتساوق الذى يقيم فى كيان الإنسان إيمانا صحيحا ، مثمراً . .

وليس يعنى هذا ، أن الإنسان يَأْتِى هذه الصفات واحدة واحدة ، وأنه كلّما حصل على صفة منها مدّ يده ، أو فتح قلبه ، إلى صفة أخرى . . كلا ، وإنما الذى يعنيه هذا الجمع ، وهذا الترتيب معاً ، هو أن المؤمن الجدير بهذا الوصف ، المستحق للجزاء الموعود به المؤمنون من ربّهم ، هو الذى يحقق هذه الصفات ، فيكون مسلماً ، مؤمناً ، قانتاً.. إلى آخر الأوصاف العشرة .. فليست

هذه الصفات ، بمعزل عن بعضها ، وإنما هى ـ كما قلنا ـ صفة واحدة مجملة ، أو صفات عشر مفصلة ، وهى فى إجمالها وتفصيلها على سواء .

ولا ننظر كثيراً إلى التفاضل بين هذه الصفات ، وإلى رجحان بعضها على بعض ، إذ كانت كلها لازمة فى بناء الإيمان السّوىّ فى كيان المؤمن ، تماماً كبناء الجسد ، كل عضو فيه ـ وإن قلّ شأنه ـ ضرورى لهذا الجسد ، وفى فقده نقص وعيب .

ومع هذا ، فلابد لنا من نظرة إلى أول هذه الأوصاف ، وهو الإسلام ، وإلى آخرها وهو ذكر الله . .

فالإسلام ـ كما قلنا ـ هو أول خطوة يدخل بها الإنسان فى دين الله . .

وذِكر الله كثيراً ، هو القمّة التى يرقى إليها هذا الذى دخل بالإسلام فى دين الله . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ولَذِكر الله أكبر » (٤٥ العنكبوت)

والمراد بذكر الله هو ملء القلب باستحضار جلاله ، وعظمته ، وقدرته ، وعلمه ، وحكمته ، وكل ما لله من صفات الكمال والجلال . . فبهذا الذكر يكون المؤمن دائماً فى أنس من ربّه ، وقرب من جلاله وعظمته . . فلا يعمل إلا تحت هذا الشعور المراقب لله ، والخائف من عقابه ، الطامع فى رحمته .

وهكذا يستطيع الناظر فى هذه الأوصاف أن يرى منها رُؤى لا حصر لها ، من آيات الله وشواهد الإعجاز فى آيات الله وكلماته . .

الآيات : (٣٦ — ٤٠)

* « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا (٣٦)

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٤٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضَى الله ورسُوله أمراً أن يكون لهم الخيرةُ من أمرهم ومن يَعْصِ اللّه ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة ذكرت الأوصاف التى تجمع صفات المؤمن الكامل الإيمان . .

ومن شأن الإيمان الصحيح أن يقيم فى كيان صاحبه ولاء خالصا لله ، الذى آمن به ، ولرسوله ، الذى بلّغه رسالة ربّه ، وشريعة دينه . . وإنه لا إيمان مطلقاً ، إذا لم يكن هذا الولاء ركيزةً له ، وأساساً يقوم عليه . .

فهذه الآية إذن تعقيب على تلك الأوصاف العشرة السابقة ، وإشارة إلى أن تلك الصفات ، لا محصّل لها ـ مفردة ومجتمعة ـ إلا إذا قامت فى ظلّ

الولاء لله ورسوله ، والتسليم المطلق لأمر الله ورسوله .

فإذا قضى الله ورسوله أمراً ، لم يكن لمؤمن أن ينازع فى هذا الأمر ، أو يتوقف فى إمضائه ، أو يبدّل فى صفته . . وإلاّ فهو ليس من الإيمان فى شىء . . إنه حينئذ يكون عاصياً لله ولرسول الله ، خارجاً عن سلطانهما . . « ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالًا مبيناً » .

أما مناسبة الآية الكريمة لما بعدها فهو ترشيح لما ستقرره الآيات بعدها من مقررات ، وبما تقضى به من أحكام لله ولرسول الله ، وأن على المؤمنين تلقّى هذه المقررات وتلك الأحكام بما ينبغى لها ، من طاعة وولاء مطلقين ، من غير تعقيب أو تردّد . .

فالآية فى موضعها هنا ، تعمل ـ مقدّما ـ على إخلاء شعور المؤمن من أية لفتة إلى غير ما يقضى به الله ورسوله من أمر . . وبهذا يستقبل المؤمن ـ فى ولاء وامتثال ـ ما تحمل إليه الآيات التالية من أمر الله ورسوله . . كما سنرى . .

قوله تعالى :

* « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجَك واتّق الله وتُخْفِى فى نفسك ما الله مُبْدِيه وتَخْشَى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حَرَجٌ فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولًا » .

[زينب . . وقصة زواج النبىّ منها]

فى هذه الآية والآيات الثلاث التى بعدها ، حَدَثٌ من أحداث الإسلام ، غَرَب به وجه من وجوه الحياة الجاهلية ، وانتهى به أسلوب من أساليب نظامها الاجتماعى الموروث .

فقد كان الجاهليون يتخيّرون من يرون من أبناء غيرهم ، ثم ينسبونهم إليهم نسبة الولد إلى أبيه ، وقد كان هؤلاء المنتسبون إليهم بالتبنى ، فى حكم أبنائهم من أصلابهم ، يضافون إليهم إضافة أبوة ، ويرثونهم إرث الابن لأبيه . . ويحرّمون التزوج من نساء هؤلاء الأبناء تحريما مطلقاً . . وقد أبطل الإسلام هذا التبنّى بقوله تعالى فى أول هذه السورة : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تُظَاهِرُون منهنّ أمهاتِكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم . . ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحقّ وهو يهدى السبيل . . ادعوهم لِآبائهم هو أقسط عند اللهِ ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » . .

ومن حكمة الله ، أنْ كان للنبىّ صلى الله عليه وسلم ابن بالتبنّى، هو زيد ابن حارثة . . وذلك ليكون فى إبطال هذا التبنّى مثلٌ يراه المؤمنون فى النبىّ ، حين يُبطل نسبة زيد إليه ، فلا يكون لمؤمن بعد هذا متعلّق بنسبة من كان منتسباً إليه من أبناء من غير صلبه .. وبهذا ينحسم الأمر فى غير مهَلٍ أو تردد ، إذ كان النبىّ ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ هو أول من نفّذ هذا القانون السّماوىّ ، وأول من ألغى التبنّى الذى كان قائماً بينه وبين أحبّ الناس إليه ، زيد بن حارثة . . الذى كان يُدْعى زيدَ بن محمد ، ويدعوه المسلمون زيد حِبّ رسول الله . . ولو كان فى هذا الأمر استثناء لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى الناس به ، إذ لم يكن له ولد ذَكَر ، ولكان هذا الاستثناء من خصوصيات النبى فيما كانت له ــ صلوات الله وسلامه عليه من خصوصيات. وهذا يعنى أن هذا الأمر حكم واجب على كل مسلم ، وأنه أمر لا يرِد عليه استثناء أبداً.

بقيت مسألة تحريم الزواج من نساء الأبناء بالتبنّى . . التى كان يُلزم بها الجاهليون أنفسهم ، تمكيناً لهذا النسب بينهم وبين أدعيائهم ، وجعلَه على قدم المساواة فى كل شىء ، مع أبناء الأصلاب .

وكان لا بدّ للقضاء على هذه العادة من مَثَلٍ عمليّ يراه المسلمون فى رسول الله ، فيقتدون به ، ولا يقع فى صدورهم حرج من الخروج على هذا الإلف القديم .

ومن حكمة الله فى هـذا ، أن كان زيد بن حارثة (متبنّى النبىّ) متزوجاً من زينب بنت جحش الأسدية ، وهى ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد خطبها الرسول لزيدٍ ، وزوجها إياه ، ولم تستطع زينب ولا أهلها مراجعةَ رسول الله فى هذا الزواج ، الذى كانت تراه زينب ـ ويراه أهلها معها ـ غبناً لها ، إذ كانت ترى ـ ويرى أهلها معها ـ أنها أشرفُ من زيد بيتاً ، وأكرم نسباً .

ويتمّ الزواج ، ويدخل زيد بزوجه . . . ولـكن لم يقع التوافق بينهما ، إذ كانت زينب ـ كما عرفنا ـ تعيش مع زوجها بهذا الشعور المتعالى ، وكان زوجها ـ إذ يجد منها هذا الشعور ـ يلقاها بما يحفظ عليه مروءته وأنفته كعربىّ ، وبما يعطيه القوامة عليها كرجل ، وكمسلم . . معاً . .

ولاشك أن هذا الزواج الذى لم يقم على التوافق من أول الأمر . . إنما هو تدبير من الحـكيم العليم ، وقد اصطنعه النبىّ بأمرٍ من ربه ، لحـكمة ستكشف عنها الأيام فيما بعد . . !

كان لا بد أن يمضىَ الأمر الإلٰهى فى حلّ الزواج من زوجات الأبناء المتَبَنَّين ، بعد انتهاء الزوجية . . بأمرٍ ، أو بآخر . .

وكان لا بد أيضاً أن يكون النبىّ فى هذا هو القدوةَ والأسوة ، حتى يأخذ المسلمون بهذا الأمر ، ولا يتحرجون منه . . وبهذا يُقضى على عادة التبنى ، وما اتصل بها ، فى فورية وحسم . .

وذلك لا يتم على تلك الصورة إلا إذا كان للنبىّ متبنًّى . . وقد كان . . وأن يكون هذا الابن متزوجاً . . وقد كان هذا أيضاً . . ! !

ثم يبقى بعد ذلك أن يطلّق هذا الابن زوجَه ، حتى تحلّ للنبىّ بعد انقضاء عدتها . . وقد كان ذلك أيضاً . . فطلّق زيد زوجه . . ثم لما انقضت عدّتها تزوّجها النبىّ !

ولا نقف من هذا الزواج أكثر من أنه أمر أمرَ الله نبيّه به ، وألزمه إياه . . فالله سبحانه هو الذى زوج النبىّ بأمره من مطلقة متبنّاه ، كما يقول سبحانه : « فلما قَضَى زيد منها وطراً زوجنا كها . . لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً » .. فهذه هى حكمة هذا الزواج . .

والذى يجب أن نقف عنده ، ونطيل النظر إليه ، هو « الطلاق » . . طلاق زينب من زوجها ، أو تطليق زيد لزوجه . .

هل كان هذا الطلاق بأمرٍ سماوى ، تلقاه النبىّ من ربه ، ثم آذن به زيداً فأطاع فيه أمرَ ربه وطلق زوجه ؟

هذا ما لم يكن ، ولن يكون من تدبيرٍ سماوى ، وفى شريعةٍ قامت على العدل والإحسان ، وعلى رفع الحرج عن الناس . . ولو كان ذلك بأمرٍ سماوى ، لكان فيه إعنات ، بل وجوْر على حقّ إنسان لم يأت أمراً يقضى بهذا الحكم عليه ، فضلاً عما فى ذلك من قطعٍ لعلاقة مقدسة ، بين الزوج وزوجه ، كان الإسلام ، وكانت شريعة الإسلام ، أحرصَ ما يكون على توثيق الرباط القائم بين الزوجين، وعلى التماس كل الوسائل الممكنة فى الناس، للحِفاظ عليه ، وحياطته من دواعى الوهن والانحلال . .

ثم كيف يكون من حكم الشريعة ، أن تجعل أبغضَ الحلال إلى الله الطلاقَ ، ثم تعود ، فتأمر به ، وتحمل الناس عليه حملا ؟

هذا ما لم يكن ، ولن يكون !

فهل كان هذا الطلاق عن رغبةٍ من رسول الله ، وعن إرادةٍ له فى الزواج من زوج مولاه زيد ، بعد أن رآها فى حالٍ من أحوالها ، فوقعت من نفسه ، كما يتخرص بذلك المتخرصون ، من أهل الضلال والنفاق ، ومن أهل العداوة والكيد للإسلام ورسول الإسلام ؟ وكما تمضى هذه الفِرية ، فتقول إن زيداً حين شَعَر بما لزينب فى نفس رسول الله ، اصطنع هذه المخاصمة بينه وبين زوجه ، كى يطلقها ، إرضاء للنبىّ ، ومسارعة إلى إيثاره بأحبّ شىء فى يده ! !

ومن عجبٍ أن ينخدع كثير من المفسِّرين لهذه الفِرية المسمومة ، ويجدون لها مساغاً بهذا الظاهر الذى يلُوح منها ، والذى يمثّل وجهاً من وجوه الحبّ والإيثار لرسول الله فى نفوس المسلمين ، وتخلّيهم له عن أحب ما يحبون ويؤثرون . . فنراهم يتأولون على هذا قولَه تعالى :

« وإذ تقول الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق . . الله . وتخفى فى نفسك ما الله مُبْديه . وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » ويذهبون فى تأويلهم إلى أن النبىّ — صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته عليه — إذ يقول لزيد : « أمسك عليك زوجك » إنما يقولها ونفسُه متطلعة إلى زينب ، مترقبة لطلاقها . . ثم يتأوّلون قوله تعالى : « واتق الله » أنه خطابٌ للنبىّ ، يَحمل إليه عتاباً من ربه ، ودعوة إلى تقواه ، لأنه — ومعاذَ الله — أخفى ما بقلبه من حبٍّ لزينب ، وقال لمولاه زيد : « أمسِك عليك زوجك » ! ولهذا جاء العتاب بعد العتاب ، بل اللوم بعد اللوم فى قوله تعالى : « وتُخفى فى نفسك ما الله مُبْديه وتخشى الناس والله أحقُّ أن تخشاه » !

ونسأل أولئك الذين يستقيم لهم هذا الفهم من الآية الكريمة : على أية صورة يتصورون رسولَ الله ، وأمينَه على رسالة السماء ؟ أيجوز على رسولٍ من رسل الله الدِّهان والمخادعة ؟ إن ذلك مما يسقط مروءة أى إنسان فى الناس ، فكيف

برسول الله . . سيد الناس ، وأكملهم كمالا ، وأجمعهم جميعاً لمكارم الأخلاق كلها فى أعلى مستواها ، وأرفع منازلها ؟

مستحيل إذن استحالةً مطلقة ، أن يكون شىء من هذا طاف برسول الله ، أو ألمّ به فى أى حال من أحواله ، أو عَرَضَ له فى خطرة نفسٍ ، أو طرفة خاطر !

وننظر الآن فى هذا الطلاق ، وكيف وقع !

إن الزواج الذى تمّ بين زينبَ وزيد ، كان ـ كما قلنا ـ من عمل النبى ، بأمرٍ من ربه .. وهو زواج قام من أول الأمر على غير توافق ، أو تكافؤ . .

والنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إذ قام بهذا الزواج يعلم هذا ، والسماء تعلم هذا قبل أن يعلم النبى . .

والسؤال هنا : لماذا إذن هذا الزواج ؟ وما حكمته ؟

إنه زواج ، يجرى فى ظاهره ، وعلى مستوى النظر البشرى ـ على مايجرى عليه كثير من حالات الزواج ، التى تعرض لها عوارض الشقاق والخلاف ، ثم الطلاق ، وذلك بعد أن يتم الزواج ، ويعايش الزوجان كل منهما الآخر . . أما قبل الزواج ، فلم يكن أحد يدرى ماسيقع من خلاف ، وطلاق ، إلا رسولَ الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مما أنبأه به ربه ، لأمرٍ أراده الله سبحانه ، ولم يقع بعد . .

فلما تم زواج زيد وزينب ، وعاشر كل منهما صاحبه ، وظهرت أعراض الخلاف بين الزوجين ، وشقى كلٌّ منهما بصاحبه ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الزوجين إلى إصلاح ما فسد من أمرهما ، متجاهلاً ، الحكمَ المقضىّ به فى أمر هذا الزواج ، وهو الفراق الذى لا بد منه ، وغيرَ ملتفت إلى القدَر المقدور على هذا الزواج ، كما علم من ربه . !!

إن النبي إنما يعمل هنا ، على مستوى الحياة البشرية ، ويعالج أمراً بين شخصين لم ينكشف لهما من حُجب الغيب ما انكشف له منه ، وكان من مقتضى هذا أن يدعوَ كلاً من الزوجين إلى المياسرة والمحاسنة .. أما مايؤول إليه أمرهما بعد هذا ، فأمره إلى الله .. « وكان أمر الله مفعولا » ، وعلى هذا المفهوم ننظر فى قوله تعالى :

« وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » .

ننظر فى كلمات الله هذه ، فنرى :

أولا : أن « زيداً » يوصف بأنه من الذين أنعم الله ورسوله عليهم .. فقد أنعم الله سبحانه وتعالى عليه بالإسلام ، وأنعم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه بالحرية .. حين أعتقه ، وهداه إلى الإسلام

ثانياً : قول النبي ، لزيد كما حكاه القرآن ، وهو : « أمسك عليك زوجك » مما يقضى به تمام الإحسان إلى زيد .. فهو موضع نعمة النبى ، ورعايته ، وحبه ، وبهذه النعمة والرعاية والحب ، يتوجه إليه بالنصح فى أمر فيه صلاح حياته مع زوجه .. فضلا عن رسالة الرسول فى الناس عامة من النصح والإرشاد والتوجيه ..

وثالثاً : قوله تعالى : « واتق الله » .. يمكن أن يكون من قول النبى لزيد معطوفاً على قوله له : « أمسك عليك زوجك ، واتق الله » أى واتق الله فى الرابطة التى بينك وبينها .. ويمكن أن يكون خطابا للنبى من ربه ، وفيه لطف بالرسول من ربه ، ورفق به من هذا الإرهاق الذى يرهق به نفسه ، فى إصلاح

أمر يعلم ــ مما أعلمه ربه ــ أنه مقضيٌّ فيه . . كما يقول الله تعالى فى ختام الآية : « وكان أمر الله مفعولا » .. فليتق النبى الله فى نفسه وليرفُق بها ، ولا يحاول إصلاح أمر ، لن يُصلح .

ورابعاً : قوله تعالى : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » — إشارة إلى ما كان يخفيه النبى من أمر الله فى هذا لزواج ، وأنه منته إلى الفراق . . فقد أخفى النبى هذا الذى عَلِمه من ربه ، ولـكن الله سبحانه وتعالى سيبديه فى حينه ، وذلك حين يقع القدر المقدور ، ويتمّ الطلاق . .

وخامساً : قوله تعالى : « وتخشى الناس والله أحقّ أن تخشاه » . . وإنّ الذى كان يخشاه النبى ، هو ما يُعقب هذا الطلاق ، وهو أن يتزوج مطلقة متبناه ، وما يتقوّله المنـافقون ومن فى قلوبهم مرض فى هـذا الزواج . . إنه امتحان للنبى فيما امتُحن به على مسيرة الدعوة التى قام عليها ، فليصبرْ على هذا الامتحان ، وليحتمل ما يجىء إليه من أذًى ، فى سبيل إنفاذ أمر الله ، وإمضاء مشيئته ، دون التفات إلى تخرصات المتخرصين ، وشناعات المشنعين .

* * *

ولا ندع النظر فى أمر « الطلاق » الذى وقع هنا ، دون أن نشير إلى أنه لم يدخل على حياة زوجية كانت قائمة على أسس متينة من أول أمرها ، بل إنه دخل على حياة زوجية ــ وهذا من تدبير السماء ــ كانت تحمل فى كيانها دواعى الفرقة ، لأمرٍ أراده الله . . وفى هذا ما يشير إلى حرص الإسلام على سلامة الحياة الزوجية السليمة . . وأنه حين أراد أن يتخذ من الطلاق حُكماً شرعياً ، عَمَدَ إلى حياة زوجية ، لم يجتمع لها شمل ، ولم تنعقد عليها القلوب !

ثم جاء بعد هذا قوله تعالى :

« فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها » ـ مشيراً إلى ما كان يخفيه النبي فى نفسه ، وهو أن يتم زواج النبي من مطلقة متبناه بأمر من ربه ، وذلك بعد أن يكون قد عاشرها زيد معاشرة الأزواج ، لا أن يكون قد عقد عليها ولم يدخل بها . . فالطلاق بعد الدخول ، هو الذى يعطى الزواج صفته الكاملة . . وبهذا يكون من باب أولى زواج مطلقة المتبنى التى لم يدخل بها .

ثم يجيء قوله تعالى :

« لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً » ـ بياناً كاشفاً عن الحكمة من هذا الأمر السماوى للنبي بالزواج من مطلقة متبناه ، وهو أن يدفع الحرجَ عن المؤمنين فى التزوج من مطلقات أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً . . وذلك أنه إذا كان النبي قد فعل هذا ، فلا حرج إذن على المؤمنين أن يفعلوا ما فعل ، وأن يتأسوا به . . والله سبحانه وتعالى يقول : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » . .

ثم تُختم الآية بقوله تعالى :

« وكان أمر الله مفعولا » .. وفيه ما أشرنا إليه من قبل ، من نفاذ الأمر ، الذى يقضى الله به فى خلقه ، وأنه ــ سبحانه ــ لا معقب لحكمه ، ولا رادّ لما قضى به . .

وأمرُ الله هنا ، هو ما قضى به الله سبحانه من الفُرقة بين زيد وزوجه ، ثم زواج النبي من مطلقة زيد هذه . .

وفى الحكم على الأمر بأنه مفعول ، إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه

وسلم سيفعل هذا الأمر ، وإن كان يجد فى نفسه حرجاً منه . .

وقوله تعالى :

* « ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنةَ الله فى الذين خلوْا من قبل وكان أمر الله قَدَراً مقدوراً »

هو نفى للحرج ، ودفعٌ لما يجد النبى منه ، فى زواجه من مطلقة متبناه . . إن ذلك أمر من الله ، والنبى إذ يفعله إنما يُمضى به أمر ربه ، وينفذ مشيئته . . فلا شىء من الحرج فى هذا ، إذ كان الأمر قائماً على الصحة والسلامة ، موزونا بميزان العدل والإحسان ، لأنه حكم الحكيم العليم ، ربّ العالمين . .

وفى قوله تعالى : « فيما فرض الله له » إشارة إلى أن كل ما يَفرِض الله للنبى ، ويبيحه له ، لا حرج فيه ، ولا التفات معه إلى أى قول يقال ، من عدو أو صديق . .

وقوله تعالى : « سنةَ الله فى الذين خلوا من قبل »

السنة هنا : الحكم والشأن . والذين خلوا : هم الذين سبقوا من رسل الله . وسنةَ منصوب . . مفعول لفعل محذوف . ، تقديره سنَنّا بك سنةَ الذى خلَوْا من الرسل .

والمعنى أنك أيها النبى لست بدعاً من الرسل فى الأخذ بأمر الله ، وامتثاله على وجهه ، دون التفات إلى مقولات الناس ، ودون خشية لما يتخرص به المتخرصون ، فقد سبقك إلى هذا عباد مكرمون ، هم إخوانك الكرام من رسل الله ، فقد كانوا ولا يخشون فى الله لومة لائم . . كما تشير إلى ذلك الآية التالية . .

وقوله تعالى : « وكان أمر الله قدَراً مقدوراً » . . هو تعقيب على قوله تعالى : « ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له » .. أى أن ما فرض الله للنبي ، هو قدر من قدر الله ، وأنه لابد أن ينفذ هذا القدر كما قدّره الله ، وإذن فليوطّن النبي نفسه على ذلك ، وليمض لما أراد الله له .

قوله تعالى :

* « الذين يبلغون رسالاتِ الله ويخشوْنه ولا يخشون أحداً إلا الله .. وكفى بالله حسيباً » . . هو بدل من قوله تعالى : « الذين خلوْا من قبل » .

فالذين خلوا من قبل ، هم أولئك الذين يبلغون رسالات الله كما بلّغهم الله إياها ، دون التفات إلى أحد ، ودون نظر إلى ما يكون من الناس إزاء هذه الرسالات المبلغة إليهم ، من استجابة لها أو إعراض عنها . . إنهم يبلغون رسالات الله على وجهها ، ولا يعملون حساباً لما يلقاهم به السفهاء والجهال من لوم ، أو سَفَه ، وإنما همهم كلُّه هو حسابهم عند الله ، وما يكون لهم من جزاء.. « وكفى بالله حسيباً » فهو سبحانه وحده الذى يُخشى حسابُه ، ويرجى ثوابه ..

قوله تعالى :

* « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتَم النبيين وكان الله بكل شيء عليما » .

هو تقرير لهذه الحقيقة الواقعة ، التى تدفع كل باطل ، وتفضح كل زيف ، وهى أن محمداً — صلوات الله وسلامه عليه — لم يكن أبا لأحدٍ ، أبوة نسب .. فقد كان له صلوات الله وسلامه عليه — أولاد ، ولكن هؤلاء الأولاد ماتوا صغاراً ، ولم يبلُغْ أحد منهم مبلغ الرجال . . وزيد بن حارثة هذا ، الذى بلغ مبلغ الرجال ، وتزوج ، وهو فى هذا النسب الذى أضيف به

إلى النبي ابناً له ـ زيد هذا ليس ابناً لمحمد . . « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » .. تلك حقيقة واقعة لا يمارى فيها أحد ، أما هذا النسب الذى أضيف إليه زيد ، فهو نسب مصطنع ، فلا معتبر له ، ولا نظر إليه . . ! وهكذا الشأن فى كل نسب جاء على تلك الصفة . .

أما أبوة النبي للمؤمنين ، فهى أبوة روحية ، يدخل فيها كل مؤمن ومؤمنة . .

وقوله تعالى : « ولكن رسولَ الله وخاتم النبيين » هو استدراك للنفى الذى شمل عموم نسبة الأبوة لأى رجل من الرجال إلى «محمد» .. وليس معنى هذا قطع الصلة بين « محمد » وبين الناس . .

فهو ـ صلوات الله وسلامه عليه — وإن انقطت أبوة النسب بينه وبين أى أحد من الرجال ، فإن المؤمنين جميعاً ينتسبون إليه نسباً أولى وأقرب من هذا النسب ، بحكم أنه رسول الله فيهم ، ومبلّغ رسالة الله إليهم . . فهو بهذه الصفة أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم ، وهذا أعظم وأشمل مما تعطيه أبوة النسب . .

وفى قوله تعالى : « وخاتم النبيين » إشارة إلى أنه صلوات الله وسلامه عليه أب لكل مؤمن ومؤمنة ، من كل دين ، حيث أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه — وارث النبيين جميعاً ، والمهيمن برسالته على رسالات الرسل كلهم ، فلا رسول بعده إلى يوم الدين .. لقد خُتمت به — صلوات الله وسلامه عليه — رسالات السماء ، وأضيفت شعاعاتها كلها إلى شمس شريعته ، فأصبحت تلك الشعاعات ، مضموناً من مضامينها ، وقبساً من أقباسها . . فلا هُدَى بعد هذا إلا من هداها ، ولا نوراً إلا من نورها .. « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين .. »

* * *

وبهذه الآية تختم قصة زواج النبي صلوات الله وسلامه عليه، من زينب بنت جحش، مطلقة مولاه، ومتبناه، زيد بن حارثة.. وقد شغب عليها المشاغبون، وبنوا حولها من أوهامهم وضلالاتهم، أساطير من واردات الكذب والكيد للإسلام، ولنبيّ الإسلام، حتى لقد صوروا النبي — صلوات الله وسلامه عليه — رجلا استبدت به الشهوة، حتى لقد كاد يتخلى عن رسالته التي أقامه الله عليها، ويشغل نفسه بالجرى وراء إشباع شهواته..

وآيات القرآن الكريم — لمن يؤمنون بأنه من عند الله — صريحة فى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه — كان ممتحَناً من ربه بهذا الزواج الذى لم يكن يدور فى خاطره فى أية لحظة من لحظات حياته، وذلك ليقضىَ بهذا الزواج على تلك العادة المتمكنة فى المجتمع العربى، والتى دخلت الإسلام مع المسلمين بهذا السلطان المتمكن، الذى كان لها على النفوس..

فإذا نظرنا إلى ماوراء آيات القرآن الكريم، نجد أن زينب بنت جحش هذه لم تكن غريبة عن النبى، بل كانت ابنة عمته، وكانت تحت نظره من مولدها إلى أن خطبها هو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لزيد بن حارثة..

فماذا كان يمنع النبى من أن يتزوجها لو أنها وقعت من قلبه موقعاً؟ ولو أنه كان للنبى أية رغبة فيها أكان يخطبها ويزوجها لمتبناه، فتحرم عليه إلى الأبد، كما كان هو الحال فى زوجات الأبناء الأدعياء قبل أن ينزل القرآن بما يقضى على التبنىّ وأحكامه! أذلك مما يستقيم أبداً مع عقل أو منطق؟

«ما يكون لنا أن نتكلم بهذا.. سبحانك.. هذا بهتان عظيم»..!

الآيات: (٤١ — ٤٨)

* «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ

بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَآئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً * وسبحوه بكرة وأصيلا »

مناسبة هذه الآية لما قبلها من آيات ، هى أن الآيات السابقة عليها تضمنت حكما من الأحكام ، كان مبعث ظنون ، ومثار شغب عند المنافقين والذين فى قلوبهم مرض . . وليس يحمى المؤمنين من غبار هذه الظنون ، ودخان هذا الشغب ، إلا أن يعتصموا بالله ، وأن يذكروا جلاله وعظمته ، وأن يستحضروا علمه وقدرته ، فذلك هو الذى يحفظ عليهم إيمانهم ، ويدفع عنهم غواشىَ الشكوك والريب ، التى يسوقها إليهم الكافرون والمنافقون . .

قوله تعالى :

* « هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما » .

هو إغراء للمؤمنين بذكر الله ، وتسبيحه بكرةً ، أى صباحاً ، وأصيلا ،

أى مساء ، كما يقول سبحانه : « فسبحانَ الله حين تُمسون وحين تصبحون » (١٧ : الروم) .

فالله سبحانه وتعالى إنما يَذْكُرُ بالرحمة والرضوان ، عبادَه الذين يذكرونه، ويصلى على من يصلون له ويسبحونه ، وفى هذا يقول الله تعالى : «فاذكرونى أذكركم » (١٥٢ : البقرة) والمراد بالذكر هنا ذكر الرحمة والإحسان .

وصلاة الله على المؤمنين هى رحمته لهم ، وإحسانه إليهم ، ورضاه عنهم ..

وصلاة الملائكة ، هى الاستغفار للمؤمنين ، كما يقول سبحانه وتعالى : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقِهِمْ عذاب الجحيم » (٧ : غافر) .

وقوله تعالى : « ليخرجكم من الظلمات إلى النور » إشارة إلى أن ذِكرَ المؤمن ربه وتسبيحه بحمده ، يُدنيه من ربه ، ويقربه من منازل رحمته ، ويصله بعباده المقربين من ملائكته ، وبهذا يستقيم على طريق الله ، ويخرج من عالم الظلام والضلال ، إلى عالم النور والهدى . .

وفى قوله تعالى : « وكان بالمؤمنين رحيما » مزيدُ فضلٍ وعناية من الله سبحانه وتعالى بالمؤمنين ، وأنهم هم الذين ينالون رحمة الله ، ويختصون بفضله وإحسانه ..

قوله تعالى :

* « تحيتهم يومَ يلقونه سلام وأعدّ لهم أجراً كريماً » .

هو بيان لرحمة الله بالمؤمنين وإحسانه إليهم ، وأنهم حين يلقون الله يوم القيامة ، تلقاهم ملائكته لقاءً كريماً ، بهذه البشرى المسعدة لهم ، حيث يلقونهم

بهذه التحية : سلام عليكم . فتُذهب عنهم تلك التحية ، هذه الوحشةَ ، وتزايلهم هذا الخوف ، فى هذا الموطن الجديد ، الذى حلّوا به بعد مفارقة الحياة الدنيا .

ويوم لقاء الله هنا ، هو اليوم الذى يفارق فيه الإنسان دنياه . . حيث يزايل آخر منزل له من منازل الدنيا ، ويحل فى أول منزل من منازل الآخرة . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

« الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم . . ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » (٣٢ : النحل) .

وقوله تعالى : « وأعد لهم أجراً كريماً » هو بيان لما يلقَى المؤمنون فى الآخرة من جزاء كريم من الله . .

وفى إعداد هذا الأجر ، إشارة إلى أنه أجر عظيم ، قد هُيىء لهم ، ورُصد للقائهم من قبل أن يلقوه . وفى هذا مزيد اعتناء بهم ، بهذا الاستعداد للقائهم.

قوله تعالى :

* « يـٰأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » .

هو إشارة إلى مقام النبى عند ربه ، وإلى مكانته فى المؤمنين ، وأنه هو المرسل من عند الله ، شاهداً على الناس ، بما كان منهم من إيمان أو كفر ، ومبشراً المؤمنين بالأجر الكريم ، ومنذراً الكافرين بالعذاب الأليم . . وأنه يدعو إلى الله ، وإلى شريعة الله ، بما يأذن له به الله ، فلا يقول شيئاً من عنده ، وهو ـ بما يدعو به من آيات ربه ـ يكشف للناس طريق الحق ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور . .

وفى قوله تعالى : « إنا أرسلناك شاهداً » إشارة إلى ما كان من أمر الله

النبى ـ بالتزوج من مطلقة متبناه . . فهو بهذا الزواج شاهد يرى فيه المسلمون القدوةَ والأسوة . .

وفى قوله تعالى : « وسراجاً منيراً » ـ إشارة أخرى إلى هذا الزواج ، أنار المسلمين طريقهم إلى الحق فى هذا الأمر الذى كان قد اختلط فيه الحق بالباطل . . وهـذا القيد للشهادة وللسراج المنير ، هنا ، لا يمنع من إطلاقهما ، فالنبي شاهد قائم على كل حق وخير ، وهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ سراج منير ، يكشف كل باطل وضلال . .

قوله تعالى :

* « وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً » هو معطوف على محذوف تقديره : هذا فضل الله عليك ، فاهنأ به ، وبشر المؤمنين كذلك بأن لهم من الله فضلا كبيراً . . فهم أتباعك ، وأولياؤك . . فإذا كان لك ـ أيها النبى ـ هذا العطاء الجزيل من ربك ، فإن للمؤمنين حظا من عطاء ربهم ، وما كان عطاء ربك محظوراً . .

قوله تعالى :

* « ولا تطع الـكافرين والمنافقين ودع أذاهم . . وتوكل على الله . . وكفى بالله وكيلا » . .

هو معطوف على قوله تعالى : « وبشر المؤمنين » . .

وفى هذا العطف أمور :

أولا : قوله تعالى : « وبشر المؤمنين » يُفهم منه ضمناً ، وأنذر الـكافرين والمنافقين بأن لهم عذاباً أليماً .

وثانياً : قوله تعالى : « ولا تطع الـكافرين والمنافقين » يُفهم منه ضمنا

كذلك ، واستجب للمؤمنين واستمع لهم ، واقترب منهم ، وشاورهم فى الأمر . .

وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : « ولا تطع الكافرين والمنافقين » لا تستمع إليهم ، ولا تأمن جانبهم . .

وقوله تعالى : « ودع أذاهم وتوكل على الله » أى لا تحفل بما يأتيك منهم من أذى ، بالقول أو الفعل ، « وتوكل على الله » فهو الذى يتولى حراستك وحفظك مما يكيدون لك به « وكفى بالله وكيلاً » فلا وكالة أقوى ولا أمنع ولا أحفظ من وكالته . . « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » (٣ : الطلاق)

الآيات : (٤٩ — ٥٢)

* « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠) * تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ

وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) »

التفسير

قوله تعالى :

* « يٰأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدّة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلا »

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة ذَكرتْ حالاً من أحوال الطلاق والزواج ، وهو طلاق امرأة الابن المتبنّى ، ثم زواجها من أبيه المتبنىّ له . . فناسب أن يُذكر حكم المرأة المطلقة ، من حيث العدة ، والنفقة . .

فالمرأة المعقود عليها عقد نكاح ، ولم يدخل بها الزوج ، ولم يمسّها ، ولم يختل بها خلوة شرعية ــ ليس عليها عدة ، لمن طلقها ، وإنما تحل لمن يريد الزواج منها بمجرد طلاقها . . إذ كانت غير مشغولة بما للرجل عليها من حق ، وهو استبراء الرحم . .

والمراد بالمسّ هنا المباشرة ، ومعاشرة الرجل للمرأة معاشرة الزوجية . .

وفى قوله تعالى : « إذا نكحتم المؤمنات » ــ إشارة إلى أن من شأن المؤمن أن يَقْصُر نفسه على زواج المؤمنة ، وإن كان قد أبيح له التزوج بالكتابيات، فإن الزواج من المؤمنات أفضل وأولى . .

وفى قوله تعالى : « فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلا » ــ إشارة إلى ما توجبه الشريعة السمحاء ، من الرفق ، والمياسرة ، والإبقاء على الصلات الإنسانية ، عند انفصام الحياة الزوجية . . والمراد بالمتعة ، هو ما يعطيه الرجل

مطلقته من مالٍ أو متاعٍ ، جبراً لخاطرها ، وتأميناً لحياتها المستقبلة ، التى كان هذا الطلاق سبباً فى اضطرابها . .

والسراح الجميل ، هو الانفصال بالمودة والإحسان ، من غير كيد ومضارّة . . كما يقول سبحانه : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان »

قوله تعالى :

* « يٰأيها النبىّ إنا أحللنا لك أزواجك اللاّتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبناتِ عماتك وبناتِ خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأةً مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أرادَ النبىّ أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكى لا يكون عليك حَرَج وكان الله غفوراً رحيماً »

مناسبة هذه الآية للآيات التى قبلها ، هى أن الآيات السابقة قد جاءت بأمرٍ انتقض به بناء من أبنية الجاهلية التى قامت على الضلال ، وهو تبنّيهم أبناء غيرهم ، ثم تجاوزوا هذا إلى تحريم مطلقات هؤلاء الأبناء الأدعياء ، عليهم .. تمكيناً لهذه البنوّة المدعاة ، ومعاملتها معاملة بنوّة النسب ، سواء بسواء . .

وقد كان من تدبير الله سبحانه وتعالى أن يكون للنبىّ ابن متبنّى ، وأن يكون هذا الابن متزوجاً ، ثم يجىء حكم الله أمراً بإبطال هذا التبنى ، وبإلزام النبىّ أن يتزوج مطلقة متبناه ، بعد أن طلقها وانقضت عدتها . . وكان ذلك مدعاة للكافرين والمنافقين أن يشنعوا على النبىّ ، وأن يكثروا من الأقاويل الباطلة ، والأحاديث المفتراة . .

وقوله تعالى :

« يٰأيها النبىّ إنا أحللنا لك أزواجك اللاّتى آتيت أجورهن » .

فهذا الإخبار بحلّ الأزواج ، إنما هو تأكيد لحلّهن ، ووصف كاشف للحال التى هن عليها ، ومنهن زينب مطلقة متبنى النبىّ . . وفى هذا ردٌّ على الكافرين والمنافقين ، الذين جعلوا زواج النبىّ من مطلقة متبناه مادة للغمز والاتهام . . وكان الردُّ إلجاماً للكافرين والمنافقين ، وكبتاً لهم ، إذ قد جاء قول الله تعالى : « يـٰأيها النبىّ إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن » داعياً النبىّ إلى ألا يشغل نفسه بمقولات المبطلين ، وأن يتمتع بما أحلّ له من طيبات ، فهو من قبيل قوله تعالى « فكلوه هنيئاً مريئاً » (٤ : النساء) .

ثم إنه لكى يزداد أهل الضلال والنفاق غمًّا إلى غمٍّ ، ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذا المقام ، ما اختُصّ به نبيه الكريم ، مما لم يكن لغيره من المسلمين ، من سَعة فى الحياة الزوجية . .

فأولاً : كان فى يد النبىّ من النساء اللاتى تزوجهن بمهر ، عند نزول هذه الآية تسعُ نسوة . . ونِصاب المسلم لا يتجاوز أربعة .

وثانياً : جاء فى قوله تعالى : « وما أفاء الله عليك مما ملكت يمينُك » بيان لصنف آخر من النساء ، أبيح للنبىّ التمتع بهن ، وهن من يملكه النبىّ منهن من الفىء والغنائم ، وهذ حكم عام المسلمين جميعاً . . على أن للنبىّ من الغنائم ما يصطفيه من السّبى ، قبل قسمة الفىء . . وهذا من خصوصيات النبىّ هنا .

وثالثاً : جاء بعد ذلك قوله تعالى : « وبنات عمّك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك » مشيراً إلى صنف ثالث أبيح للنبىّ ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ التزوج به ، وهن بنات العم وبنات العمات . وبنات الخال وبنات الخالات . . اللاتى هاجرن ، مع المهاجرين فراراً بدينهن ، وإيثاراً لله ورسوله . . فهؤلاء المهاجرات هن ممن أبيح للنبى التزوج بهن ، إلى أزواجه التسع اللاتى كن معه . .

ولا بد أن يكون الأمر هنا منظوراً فيه إلى بعض المهاجرات من أقارب النبيّ ، ممن تستدعى حالهن البر والمواساة ، فى تلك الغربة . .

ورابعاً : جاء بعد ذلك قوله تعالى : « وامرأةً مؤمنةً إن وهبَتْ نفْسها للنبى إن أراد النبيّ أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين » مبيحاً للنبيّ التزوج من صنف رابع من النساء ، على أسلوب لا يحلّ لغيره من المسلمين ، وهو أن تهب المرأة ـ غير المتزوجة ـ نفسها للنبى . .

وفى قوله تعالى « مؤمنة » إشارة إلى أن هذه الهبة إنما أرادت بها المرأة المؤمنة التقربَ إلى الله ، والاستظلال بظل رسول الله ، والظفر بالقرب منه ، والفوزَ بلقب أم المؤمنين . . أما غير المؤمنة من الكتابيات فإنها لا تهب نفسها للنبيّ إلا طلباً لمرضاة نفسها ، بأن تكون زوجاً لهذا الإنسان العظيم ، الذى له هذا السلطان الروحى الذى لا حدود له على المسلمين ، ولو أنها كانت تحبّ النبيّ حقًّا لآمنت به ، ولدخلت فى دين الله . .

وفى قوله تعالى : « إن أراد النبيّ أن يستنكحها » تعليق للزواج على رضا النبيّ ، وقبول الهبة ممن وهبت نفسها له . .

وقوله تعالى : « خالصة لك من دون المؤمنين » أى فاتخذها زوجاً لك ، على أن يكون ذلك حكماً خالصاً لك من دون المؤمنين ، لا يشاركك فيه أحد . .

وفى العدول عن الخطاب إلى الغيبة ، وفى إظهار النبيّ ، بدلا من الضمير فى قوله تعالى : « إن أراد النبيّ » تعظيم لشأن النبيّ ، بذكر اسمه ، ثم بتكرار هذا الذكر . . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن فى ذكر النبيّ بصفته وهى النبوّة إشارة إلى أن هذا الحكم إنما هو خاص بمن كان فى هذا المقام ، مقام النبوّة ، لا أى مقام آخر غير هذا المقام .

فهذه الأصناف الأربعة من النساء ، قد أحلّ الله للنبيّ ضمّهن إلى بيت الزوجية واتخاذَهن شريكاتٍ للحياة معه . .

وواضح أن هذه التوسعة على النبيّ فى الحياة الزوجية ، لم تكن لمجرد قضاء الشهوة ، كما يقول بذلك أهل الضلالات والكيد للإسلام . . بل إن هذه الخصوصيات التى للنبيّ ، إنما كانت فى مقصدها الأول علاجاً لحالات نفسية واجتماعية ، واقتصادية ، لا تجد لها الدواء الناجع إلا فى ظلال النبيّ . . كما رأينا ذلك فى زواجه صلوات الله وسلامه عليه من زينب مطلقة متبناه ، والذى كان من حكمته رفعُ الحرج عن المسلمين فى التزوج من نساء أدعيائهم . . وكما فى زواجه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من صفية ، بنت حُيَىّ بن أخطب ، وكان أبوها سيداً من سادات اليهود ، ورأساً من رءوسهم ، فلما وقعت فى السّبى ، استنقذها النبيّ الكريم، وحفظ كرامتها بزواجه منها .. وهكذا نجد مع كل زواج تزوجه النبيّ ، حكمةً قائمة وراءه ، أسمى وأعظم من طلب المتعة وقضاء الشهوة . .

وسنعرض لهذا فى مبحث خاص . . إن شاء الله . .

وفى قوله تعالى : « قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم » ـ إشارة إلى أن تلك الخصوصيات هى للنبى ، وأنه ليس للمسلمين أن يتأسوْا بالنبى فيها ، فقد عرفوا ما فرض الله عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم ، فليس لهم أن يتجاوزوا هذا الذى بيّنه الله لهم . .

وقوله تعالى : « لكى لا يكون عليك حَرَجٌ » تعليل لهذه الأحكام التى بيّنها الله للنبيّ فى شأن ما أحلّ له من نساء . . فهذا البيان هو من عند الله ، وتلك الأحكام هى أحكام الله ، فليأخذ النبيّ بها ، غيرَ متحرّج ، ولا ناظرٍ إلى قولة كافرٍ أو منافق .

— وقوله تعالى : « وكان الله غفوراً رحيماً » . . إشارة إلى ما لله سبحانه وتعالى من مغفرة ورحمة ، تسع أولئك الذين تجرى ألسنتهم بقولةِ سوء فيما اختص الله نبيه الكريم به ، ثم تابوا من قريب ، ورجعوا إلى الله ، واستغفروا لذنبهم « ومن يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » .

قوله تعالى :

* « تُرْجِى من تَشَآءُ منهن وتُؤْوِى إليك من تشاء ومن ابتغيْتَ ممن عَزَلْتَ فلا جناح عليك . ذلك أدنَى أن تَقَرّ أعينُهُنَّ ولا يَحزَنّ ويَرْضين بما آتيتهن كلُّهنّ والله يَعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليماً حليماً »

الإرجاء : الإمهال ، والإنظار . .

والإيواء : الضمّ ، والجمع .

والآية ، ترسم السياسة التى يأخذ بها النبىّ هذا العدد الكثير من النساء اللائى جمعهن إليه .

إنّهن إذا حاسبْن النبى محاسبة الزوجات لأزواجهن ، واقتضين حقوق الزوجية كاملة منه — كان ذلك عبئاً ثقيلاً على النبىّ ، الذى يحمل أعباء ثقالاً تنوء بها الجبال ، فى إقامة بناء المجتمع الإسلامى ، وإرساء قواعد الدّين . .

فكان من رحمة الله برسوله ، وإحسانه إليه ، أن أخلى يديه جميعاً من تلك الواجبات المفروضة على الرجال قِبَل أزواجهم فى المعاشرة ، والمباشرة ، وذلك حتى يفْرُغ النبىّ للمهمة العظيمة التى أقامه الله عليها . .

فللنبىّ أن يُرجىء من يشاء من نسائه ، بمعنى أن يتجنبهن تجنباً مؤقتاً من غير طلاق ، وله — صلوات الله وسلامه عليه — أن يضمّ إليه من يشاء من

نسائه ، وأن يقسم بينهن كيف يشاء . . ثم إن له بعد هذا أن يضمّ إليه من أرجأ منهن . . إذا رغب فيها . .

فذلك كله ، تخفيف عن النبىّ ، ورفع لإعناته وإرهاقه بعد أن حمل هذا العبء الثقيل من النساء ، إلى جانب ما حمل من أعباء ثقال . .

وفى قوله تعالى : « ذلك أدنى أن تقر أعينُهن ولا يَحْزَنّ ويرضَيْن بما آتيتهن كلهن » إشارة إلى أن هذا التدبير الذى من شأنه أن يجعل نساء النبى كلهن إلى يده ، عن قرب أو بعد — فيه إرضاء لهن جميعاً ، القريبة منهن لقربها ، والبعيدة لصلتها بالرسول ، وانتسابها إليه ، وعدّها من أمهات المؤمنين ، وحسبها بهذا قُرّةَ عين ، ورَوْح رُوح ، وسَكَن فؤاد . .

قوله تعالى : « والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليماً حليماً » . . علم الله سبحانه وتعالى بما فى القلوب ، داعية إلى أن تكون القلوب مستودَع خير وعدل وإحسان ، حتى يرى الله منها ما هو خير وعدل وإحسان ، فيثيبَ أهلها بما هم أهل له من ثواب جزيل وأجر كريم . .

والقلوب فى تلك المواطن التى تجمع بين الرجال والنساء فى حياة زوجية ، هى مِلاك الأمر فى إصلاح هذه الحياة ، وازدهارها ، وإرواء النفوس من ينابيع الرحمة والمودة . . وذلك إذا صلُحت القلوب ، وخَلَصت النيات . . أما إذا انطوت القلوب على فساد ، وتلاقت على غش وخداع ، فلن تثمر الحياةُ الزوجية إلا ثمراً نكداً ، يَطعم منه الزوجان ما يشقيهما ، ويُضنيهما . ويزرع العداوة والشنآن بينهما . .

وفى وصف الله سبحانه وتعالى بالحلم ، دعوةٌ إلى كل من الأزواج والزوجات إلى الأناة والرفق ، وإلى الصبر والاحتمال ، لما يقع فى الحياة الزوجية من

أمور يضيق بها أحد الزوجين أو كلاهما . . فالحياة يسر وعسر ، واستقرار واضطراب ، واستقامة وعوج . . ومن أرادها على الوجه الذى يحبّ فإنما يريد أمراً غيرَ واقع أبداً . .

قوله تعالى :

* « لا يحلُّ لك النساء من بَعدُ ولا أن تَبدّل بهن من أزواج ولو أعْجَبَك حُسْنُهن إلا ما ملكت يمينُك وكان الله على كل شيء رقيباً » .

اخْتُلِفَ فى المحذوف المضاف إليه « بعدُ » . . وهل هو قيد لتلك الأصناف الأربعة التى أحلّها الله للنبى فى قوله « يأيها النبىّ إنا أحللنا لك أزواجَك . . الآية » . . أم أنه قيد لتلك الحال التى تلقّى فيها النبى هذا الحكم ؟

فعلى التقدير الأول ، يكون المعنى ، لا يحلّ لك التزوج من النساء بعد هذه الأصناف الأربعة ، ويكون المراد بالبَعدية البَعدية الوصفية لا الزمانية ، أى لا يحلّ لك غير هذه الأصناف الأربعة التى عرفْتَ صفاتها ، وهذا من شأنه أن يبيح للنبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — أن يتزوج غير نسائه التسع اللاتى كن معه ، عند نزول هذه الآية — ولكن ذلك التزوج محصور فى صنفين من النساء ، هما :

ولا : بنات عم النبىّ ، وبنات عماته ، وبنات خاله ، وبنات خالاته ، اللاتى هاجرن معه ، أى كن من المهاجرات ، لا بمعنى أنهن صحبنه فى هجرته .

وثانيا : أى امرأة مؤمنة وهبت نفسها للنبىّ .

أما غير ذلك من النساء فلا يحل له التزوج منهن .

أما على التقدير الثانى ، فيكون المعنى أنه لا يحلّ للنبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — أن يتزوّج بعد نزول هذه الآية من أية امرأة أخرى . . بل يقف عند هذا الحدّ . أما ماملكت ، أو تملك يمينه بعد هذا من نساء فهنّ حِلّ له ، على الإطلاق . .

وهذا هو الرأى الذى نعوّل عليه ، ونأخذ به ، وذلك لما يأتى :

أولا : هذا الأمر للنبىّ بالوقوف عند هذا الحدّ من التزوج بالنساء ، هو فى الواقع تخفيف عن النبىّ ، ورفع للحرج الذى يجده من حمل نفسه على التزوج ممن يهبن أنفسهن له ، وهنّ كثيرات ، طامعات فى رضا الله بالقرب من الرسول والعمل على مرضاته . . وكذلك الشأن فيمن هن قريبات له ، وتعرض لهنّ ظروف قاسية ، تدعو النبى إلى مواساتهن بضمهن إليه ، كمن يستشهد أزواجهن فى سبيل الله . .

فهذا لا شك تخفيف عن النبىّ ، ودفع للحرج ، بهذا الأمر السماوى الذى لا يجعل له سبيلا إلى التزوج بمن تهب نفسها له ، أو بمن تدعو الحال بضمها إليه ، وتزوجه منها ، من بنات عمه أو بنات عماته ، أو بنات خاله أو بنات خالاته . .

وثانياً : فى الإبقاء على حل ما ملك أو يملك النبى من إماء ، هو أيضاً من باب التخفيف ودفع الحرج عن النبىّ . . وذلك لأن مئونة الإماء أخفّ ، إذ ليس لهن ما للحرائر الزوجات من حقوق تقابل ما للرجال عليهن من واجبات . .

وثالثا : وعلى هذا يكون ما جاء فى قوله تعالى : « يٰأَيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك . . . الآية » هو إقرار للأمر الواقع ، ووصف كاشف للحياة الزوجية فى بيت الرسول ، وما ضمّ من تلك الأصناف الأربعة التى ذكرتها الآية من أصناف النساء . . ويكون قوله تعالى : « لا يحل لك النّساء من بعد

ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك » أمراً للنبىّ بالوقوف عند من تزوج بهن إلى وقت نزول هذه الآية ، وأنه — صلوات الله وسلامه عليه — ليس له أن يتزوج أية امرأة أخرى غير اللاتى كن معه . . أما ما ملكت أو تملك يمينه ، فيبقى على أصل الإباحة له . .

وفى قوله تعالى : « ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن » تطييب لخواطر نساء النبى ، وتطمين لقلوبهن ، ألا يدخل عليهن من النساء من يشاركهن الحياة مع النبى ، والسّكن إليه فى بيت النبوة . . وأنهن فى أمان من أن يخرجن من هذا الجناب الكريم أو يفارقن النبى بالطلاق . .

وهذا جزاء عاجل من الله سبحانه وتعالى لمن إذ اخترن الله ورسوله ، ورضين الحياة الزّوجية مع رسول الله ، مؤثراتٍ ذلك على الحياة الدنيا وزينتها . .

وأما ما جاء فى الآية السابقة من قوله تعالى : « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين » فهو على الإباحة التى تضمنها ، من أن يتزوج النبى من أية امرأة مؤمنة ـ غير متزوجة ـ تهب نفسها للنبى ، ويقبل النبى هذه الهبة . . . وذلك الحكم موقوت إلى أن نزل قوله تعالى : « لا يحل لك النساء من بعد » فلما نزلت هذه الآية ، توقف العمل بهذه الرخصة . . .

وعلى هذا لم يكن للنبى صلى الله عليه وسلم أن يتزوج من أية مؤمنة — غير متزوجة — تهب نفسها للنبى ، بعد نزول هذه الآية .

وليس هذا من النسخ ، كما يبدو فى ظاهره ، ولكنه إنهاء لحكم رخصة موقوتة ، جاء قوله تعالى : « لا يحل لك النساء من بعد » محدداً نهاية هذا الوقت . . وهذا يعنى أنه قد كان بين نزول الآيتين فسحة من الوقت ، بحيث

كان من المؤمنات غير المتزوجات مَن وهبن أنفسهن للنبىّ ، فقبِل منهن من قَبِل.

هذا ، ويرى بعض المفسرين ، أن هذه الآية : « لا يحل لك النساء من بعد » منسوخة بالآية التى قبلها : « يـٰأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك . . . الآية » . .

وهذا يعنى ، أن المنسوخ يسبق الناسخ ، وأن الحظر جاء أولا ، ثم أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يُحظر عليه التزوج من بنات عمه وبنات عماته ، وبنات خاله ، وبنات خالاته اللاتى هاجرن معه أو من أية مرأة مؤمنة تهب نفسها له ، وذلك إلى أن لحق صلوات الله وسلامه عليه — بالرفيق الأعلى . .

ونحن على رأينا ، من أنه لا نسخ ، ولا تناسخ بين الآيتين . . وأن الآية الأولى ظلت عاملة إلى أن نزلت الآية الثانية ، فأقرت الأوضاع التى انتهى إليها بيت النبوة ، وما ضُمّ عليه من أزواج النبى : وبقيت الآيتان تمثلان دورين من أدوار التشريع ، للنبى خاصة ، من حياته الزوجية . . . وهذان الدوران ، يسبقهما دور ثالث ، هو الإباحة المطلقة للنبى ، بالتزوج ممن يشاء من النساء ، بأى عدد شاء منهن . .

وعلى هذا كانت مراحل التشريع للحياة الزوجية للنبى ثلاثا :

المرحلة الأولى : الحِلّ المطلق فى الزواج من أية امرأة مؤمنة ، يحل زواجها فى الشريعة الإسلامية ، دون تقيد بعدد . .

المرحلة الثانية : وفيها يتقرر ما يأتى :

أولا : الوقوف بالعدد من الزوجات عند الحد الذى كان موجوداً عند نزول الآية . . وهو تسع نساء . .

وثانياً : إن أراد النبى أن يتزوج على مَن عنده من النساء ، فلايجوز له أن

يتزوج من غير صنفين من النساء : بنات عمه أو بنات عماته ، وبنات خاله أو بنات خالاته .. ثم من أى امرأة مؤمنة ـ غير متزوجة ـ تهب نفسها للنبى ، وهذا صنف جديد جاءت بحله هذه الآية ، خاصا بالنبى . .

المرحلة الثالثة : وفى هذه المرحلة تستقر الأوضاع للحياة الزوجية فى بيت النبوة ، فلا يدخل عليها جديد من النساء ، ولا يخرج منهـا أحد ممن هن فيها . .

وهذا — كما أشرنا إلى ذلك — تخفيف عن النبى ، ورفع للحرج عنه ، من تلك العيون الكثيرة المتطلعة إلى الصهر إليه أو الزواج منه . .

الآيات : (٥٣ — ٥٥)

* « يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَٱللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لاَّ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَانِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَآ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَآ نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) »

التفسير :

فى هذه الآيات الثلاث ، أقام الله سبحانه وتعالى حراسةً على حرمات النبى من خارج بيت النبوة ، وداخله ، حتى لا يَشْغل النبى — صلوات الله وسلامه عليه — نفسَه بهذا الأمر الذى من شأن الرجل أن ينظر إليه ، ويهتم له . . وذلك حتى يفرغ النبى للدعوة القائم عليها ، ولا يلتفت لفتة إلى ما وراءها . .

فأولا : نهى الله المؤمنين أن يدخلوا بيوت النبى إلا بعد استئذان ، وإذْن . . فإذا كان الدخول استجابةً لدعوة إلى طعام ، فلا يتعجلوا الحضور قبل أن ينضج الطعام ، وذلك حتى لا يطول مكثهم فى بيت النبى ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « غير ناظرين إناه » أى غير منتظرين إنضاجه . . فإذا دُعوا إلى هذا الطعام ، فليدخلوا بعد أن يستأذنوا ويؤذَن لهم .. فإذا طعِموا فلا يتلبثوا ، بل يخرجوا .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث » . .

ثانياً : نهى الله المؤمنين عن أن يسألوا نساء النبى شيئاً من متاع أو نحوه إلا من وراء حجاب . . والحجاب هنا هو الباب الذى يُدخل منه إلى بيوت النبى . .

ثالثاً : أمر الله نساء النبى أن يُقمن الحجاب بينهن وبين غير محارمهن من الرجال ، وأذِن لهن فى أن لا يحتجبن عن المحارم من آباء وإخوة ، وأبناء الإخوة، وأبناء الأخوات ، كما أمرهن بالحجاب عن النساء غير المعروفات لهن ، القريبات منهن ، العاملات فى قضاء حوائجهن ، وغير ما ملكت أيمانهن .. وذلك سدًّا لذرائع الفتنة التى قد تجىء من النساء الواردات من موارد مختلفة لا يُعرف وجهها . .

هذا ، ويلاحظ أنه لم يُبَحْ لنساء النبي لقاء محارمهن على إطلاقه ، بل وقف به عند الآباء ، والإخوة ، وأبناء الإخوة وأبناء الأخوات ، دون الأعمام ، والأخوال ، وذلك للتخفيف من الضغط على بيت النبي ، بالإقلال من الذين يطرقونه ، ويغشونه.. فلو أنه قد فتح بيت النبي لذوى القرابات من محارم نسائه، لَما خلا من زائر ، رغبةً فى لقاء النبي وإرواء لظمأ النفوس المتعطشة إلى لقائه فى خلَوَاته . . الأمر الذى لا يتيح للنبي فرصة للراحة والسكن . .

هذه هى الحراسة التى أقامها الله على بيت النبي ، وهى حراسة تتيح له ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ شيئاً من الراحة النفسية والجسدية ، هو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أشد ما يكون حاجة إليهما فى هذا الجهاد المتصل ، نهاراً مع المسلمين ، وليلا مع ذكر الله . .

وفى الآيات ، ما يحتاج إلى بعض الإيضاح . .

ففى قوله تعالى : « ولا مستأنسين لحديث » ـ إشارة إلى ما يدعو الذين يدخلون بيوت النبى إلى إطالة المكث فيها ، وهو الأنس بالرسول ، والمتعة الروحية بالحديث إليه . . وهذا وإن كان مما يُحَبّ من المسلم ، ويحبّ له ، إلا أن هذا ليس مكانه . . حيث جعلت البيوت للسكن والراحة .. والرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بشر يحتاج إلى الراحة ، والهدوء ، والانفراد بالنفس . .

وفى قوله تعالى : « إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحيي منكم » — إشارة إلى ما كان يجده النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من أذًى وتضرر، فى تزاحم المسلمين على بيته ، وطول مكثهم فيه .. وهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يحتمل هذا صابراً ، ويمنعه الحياء النبوى أن يظهر ضيقاً أو ضجراً . .

وفى قوله تعالى : « والله لا يستحيي من الحق » ـ إعلام من الله سبحانه

وتعالى بما لم يصرح به النبي ، وإن كان حقاً .. فالنبي - كإنسان طبع على الحياء - تمنعه إنسانيته من أن يصارح الناس بما يسوءهم ، ما دام ذلك لايجور على حق من حقوق الله ، وإن كان فيه جوْر على نفسه .. ولهذا فقد دافع الله عن النبي الكريم ، وتولى سبحانه حمايته ، ودفع هذا الأذى عنه ..

وفي قوله تعالى : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً » - استبعاد من أن يقع من أحدٍ من المؤمنين بالله ، أن يؤذي رسول الله بالنظر إلى نسائه ، نظر اشتهاء .. فذلك مالا يجتمع معه إيمان أبداً ..

وإذن فهذا الذي يأمر به الله سبحانه وتعالى المؤمنين في قوله : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه .. » ثم في قوله تعالى بعد ذلك : « وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب » هذا الأمر ليس اتهاماً للمؤمنين في توقيرهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي اتخاذهم نساء النبي أمهاتٍ لهم ، لا ينظر أحدهم إليهن نظرة ريبة أو اشتهاء ..

وإنما هذا الأمر هو من باب سد الذرائع ، وقطع ألسنة السوء التي تصطاد المفتريات ، وتنسج الأباطيل من الأوهام والظنون .. ولهذا جاء قوله تعالى تعقيبا على ذلك : « ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » مشيراً إلى أن هذا الاحتياط في الحديث إلى نساء النبي من وراء حجاب ، هو أطهر للقلوب الطاهرة ، وأزكى للنفوس الكريمة الزكية ..

وفي قوله تعالى : « واتقين الله » دعوة إلى نساء النبي بتقوى الله ، بعد دعوتهن إلى ضرب الحجاب بينهن وبين غير مَن ذُكرن من محارمهن .. إذ ليست العبرة في العفة بضرب الحجاب ، وإن كانت أمراً لازما لسد الذرائع ، وإنما العبرة بما في القلب من تقوى الله ، وخشيته ، والعمل على مرضاته .

الآيات : (٥٦ — ٥٩)

* « إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧) وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إن الله وملائكته يصلّون على النبىّ يأيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً » .

مناسبة هذه الآية هنا ، هو أن الآيات السابقة عرَضت لأمورٍ هى من خصوصيات النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبهذه الخصوصيات التى اختصّه الله سبحانه وتعالى بها ، كحِلّ التزوج بعدد من النساء لا يحلّ لغيره من المسلمين التزوج بهن ، وكالتزوج ممن يهبن أنفسهن له ، من غير مهر ، وكتلك الحراسة التى أقامها الله على بيت النبوّة من خارجٍ ومن داخل ـ نقول بهذه الخصوصيات يُعرف بعضُ مالرسول الله من منزلة كريمة ، ومقام عظيم ، عند ربه . . وإذ عرَف المسلمون هذا ، فليعرفوا أيضاً أنّ ذلك ليس هو كلّ ما للنبىّ عند ربّه . . بل إن له عند ربّه أكثر وأكثر . . « إن الله وملائكته يصلّون على النبىّ » . . فهذه صلاة خاصة بالنبىّ ، غير تلك الصلاة العامة التى للمؤمنين ،

والتى جاءت فى قوله تعالى : « هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور » . . إنها صلاة من الله وملائكته ، اختُص بها النبىّ وحده .. وإذا كان ذلك كذلك فإن على المؤمنين جميعاً أن يشاركوا فى الصلاة على النبىّ ، والتسليم له ، تسليم ولاء ، وخضوع ، وامتثال . .

وصلاة الله سبحانه وتعالى ـ كما قلنا ـ هى الرحمة ، والإحسان ، والرضوان . . وصلاة الملائكة ، هى الدعاء والاستغفار . . أما صلاة المؤمنين على النبى فهى دعاؤهم الله سبحانه أن يصلى عليه ، وأن يديم هذه الصلاة ، ويضاعفها . . فيضاعف من رحمته وإحسانه ورضوانه على رسوله . .

وأما التسليم من المؤمنين على النبى ، فهو تسليم عليه وتسليم له . . تسليم عليه بالدعاء له بالأمن والسلام من الله : « السلام عليك أيها النبى » .. والتسليم له من المؤمنين بالطاعة والولاء . .

فهذه الصلاة ، وهذا التسليم من المؤمنين ؛ هو بعض ما يَجزى به المؤمنون النبىّ من إحسان ؛ فى مقابل الإحسان العظيم الذى أحسن به إليهم ، إذ هداهم إلى الإيمان ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وسلك بهم الطريق إلى رضوان الله ، وإلى جنات لهم فيها نعيم مقيم . . فما أقلّ ما يجزى به المؤمن ، هذا الإحسان الذى لرسول الله فى عنقه !

قوله تعالى :

* « إن الذين يؤذون الله ورسولَه لعَنهم الله فى الدُّنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهينا » .. وإذا كانت الصلاة على النبىّ ، والتسليم عليه وله من المؤمنين ، هى بعض المطلوب منهم ، جزاء إحسان النبىّ إليهم ، فإن بعض الناس لا يجزون هذا الإحسان بالإحسان ، بل يلقَونه بالمساءة والضر . .

وقد توعّد الله سبحانه ؛ هؤلاء الذين يؤذون رسول الله ، باللعنة فى الدنيا

والآخرة ، وبالعذاب المهين ، يوم الحساب والجزاء . .

— وفى قوله تعالى : « يؤذون الله ورسوله » تعظيم لشأن الرسول ، وتغليظٌ للجُرم الذى يقع فى ساحة حَرَمه ، من الكافرين ، والمنافقين ، ومن فى قلوبهم مرض . . فهذا الذى يسوء النبىّ ويؤذيه من أقوال أهل الضلال وأفعالهم ، يؤذى الله سبحانه وتعالى . . فكيف تكون نقمة الله ممن يؤذيه ؟ ذلك ما لا يمكن تصوره !

قوله تعالى :

« والذين يُؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا » .. إن أهل السُّوء مؤاخذون بجناياتهم ، أيًّا كان موقع هذه الجنايات . . ولكنها حين تكون فى حق النبى تكون جناياتٍ غليظة ، وعدوانا آثما ، إذ كان النبىّ داعيةَ خير ، ورسولَ هدًى ورحمةٍ . . فإذا لم يكن — والحال كذلك — ثمة جزاء بالإحسان ، لقاء هذا الإحسان، فلا أقلّ من ألا يكون بغىٌ وعدوان.. فإذا كان بغى وعدوان ، فهو البلاء المبين ، والإثم العظيم . .

والمؤمنون والمؤمنات ، هم أولياء الله ، وهم جنده فى الأرض ، ورسله بين الناس . . والعدوان عليهم — بغير ما اكتسبوا — عدوان على الحقّ ، واجتراء على حَرَم الله . . ومن ثمّ ، فإن الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتاناً ، أى افتراء وعدواناً على الحق ، وباءوا بإثم عظيم ، يلقوْن جزاءه عذاباً ونكالاً . .

وفى قوله تعالى : « بغير ما اكتسبوا » احتراس من الأذى الذى ينال المؤمنين والمؤمنات بما كسبت أيديهم . . فهذا الأذى لا يدخل فى الحكم الذى ينال من يؤذونهم لغير ذنب ارتكبوه . . فالمؤمن والمؤمنة ، قد يسرقان

فتقطع أيديهما . . وهذا أذًى لهما ، ولكنه أذًى لا يؤاخذ عليه من أقام الحدّ عليهما . . وهكذا كل أذًى يقع على المؤمن والمؤمنة فى مقابل ذنب . .

هذا ، ولم يجىء هذا الاحتراس فى قوله تعالى : « إن الذين يؤذون الله ورسوله » حيث لا يتصور أن يكون من رسول الله كسب يستحق عليه أذًى . . ومعاذ الله ! فقد حرسه الله من كل سوء ، وحماه من المعاثر والمزالق . . وأكثر من هذا فقد جعله الله فى ضمانه ، إذ ضمه إلى جنابه ، وجعل أذاه أذًى له !

قوله تعالى :

* « يٰأيها النبىّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيما » .

ومن سدّ الذرائع ألاّ يعرِّض المؤمن نفسه للشُّبَه ، وألا يدع سبيلا لقالةِ السوء فيه ، بل ينبغى أن يتجنب مواقع التّهم ، حتى لا يتعرّض للأذى ، ويعرّض غيره للوقوع فيه .

وفى قوله تعالى : « يٰأيها النبى قل لأزواجك . . الآية » دعوةٌ لنساء النبىّ وبناته ولنساء المؤمنين عامة أن يحمُوا أنفسهم من ألسنة السوء ، وذلك بأن يُدْنِينَ عليهن من ثيابهن ، وأن يرسلنها حتى تكسو أجسامهن إلى مواقع أقدامهنّ . . وهذا هو لباس المحتشمات ، على خلاف ما كان عليه لباس المتبرجات ، الداعيات للرجال إلى أنفسهن . . وبهذا الزّى يعتزل نساء النبىّ وبناته ، ونساء المؤمنين ، عن غيرهن ، ممن لا يسوءهن قولٌ ، أو فعلٌ .

وفى قوله تعالى : « ذلك أدنى أن يعرفن » إشارة إلى أن هذا الزّى

الساتر الذى يتزيا به نساء النبي وبناته ونساء المؤمنين ، هو مَعْلم من معالم المرأة الحرّة العفيفة التى لا مطمع لأحدٍ فيها .

وفى قوله تعالى : « أدنى » . . إشارة إلى أن هذا الزِّى ليس وحده بالذى يقى الحرائر والعفيفات من ألسنة أهل الفجور والفسق ، ولكنه ـ على أى حالٍ ـ وِقاء يُجمّل الحرّة ويزيّن العفيفة ، ويُضفى على طهرها طهراً ، وعلى عفتها جلالًا وعفة ، فهو وإن لم يكن الكمالَ كلّه ، فهو من سمات الكمال ، وإن لم يكن العفة كلّها ، فهو مظهر من مظاهرها .

فستر الظاهر وتجميله ، مطلوبٌ ، أيًّا كان الباطن وما يختفى وراءه مما تنطوى عليه الصدور ، وتُسرّه السرائر . . فإن كان الباطن سيئاً كريهاً ، فالأولى بصاحبه أن يستره ، ويجمّله بهذا الستر الذى يُلقيه عليه من المداراة والتحفظ . . وإن كان الباطن طيباً كريماً ، كان تهتّك الظاهر إزراء بِقَدْره ، وعدواناً على جلاله وبهائه . .

رُوى أن عابدَين من عُبّاد البصرة ، أحدهما أعور ، والآخر أعرج . . تقابلا ، فقال الأعرج للأعور :

هل لك فى أن تكسِب أجراً ؟

فأجابه صاحبه : وما ذاك ؟

قال : نتماشى معاً ، فيرانا الناس ، فيقولون : أعور وأعرج . . فنؤجَرُ ويأثمون ! !

فرد عليه صاحبه : وهل لك فى خير من ذلك ؟

قال : ماذا ؟

قال : لا نفعل .. فنسلم ويسلمون ! »

إن الغنيمة حقاً ، هى فى أن يسلم الإنسان من النّاس . . وذلك بألاّ يمكنهم

من نفسه بما يبدى من عيوب ، أو ما هو بمظِنّة عيب . . ففى ذلك سلامته من الناس ، وسلامة الناس منه . .

الآيات : (٦٠ — ٧١)

* « لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢) يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنُغرينّك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا » .

مناسبة هذه الآية هنا ، هى أن الآيات السابقة كانت دستوراً سماوياً للحياة الروحية فى بيت النبىّ ، ولحراسة هذا البيت من العيون الفاجرة ، والألسنة البذيئة .. وفى المدينة منافقون كثيرون ، ومؤمنون لم تخلُص قلوبهم بعدُ للإيمان ، ومن هؤلاء وأولئك تهب ريح خبيثة على المجتمع الإسلامى الطهور ، الذى أقامه النبىّ فى المدينة .. فكان من الحكمة ، وقد حصن الله قلوب المؤمنين ، وأقامهم على طريق الإيمان والتقوى ، أن يعزل عنهم هذا الداء الخبيث الذى يتمشى فى أجواء المدينة ، من المنافقين وممن فى قلوبهم مرض من المؤمنين..

وفى قوله : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم » إنذار مزلزل لهؤلاء المنافقين ومن انضوى إليهم ، بأن يسلط الله عليهم النبىّ ، فيُلقى بهم خارج المدينة ، بعيداً عن هذا المكان الطهور الذى لا يجد الخبَث حياة له فيه ..

والمرجفون : هم الذين يثيرون الشائعات الكاذبة ، ويطلقون الأراجيف المصطنعة ، ليشغلوا الناس بها ، ويفسدوا عليهم حياتهم ..

وقوله تعالى : «لنغرينك بهم» أى لنسلطنك عليهم ، فتخرجهم من المدينة على أسوأ حال ، كما خرج اليهود من قبلهم .

وقوله : « ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً » ـ إشارة إلى أن هؤلاء المنافقين وإخوانهم ، إذا سُلّط عليهم النبىّ ، لن يجدوا القوة التى يدفعون بها بأسه وقوته .. بما مكن الله له فى الأرض ، وبما جمع له من جند الله وأنصاره .. « ولكن الله يسلط رسله على من يشاء » (٦ : الحشر) .

قوله تعالى :

* « ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقُتّلوا تقتيلاً » .

« ملعونين » حال من فاعل محذوف تقديره : يخرجون منها ملعونين ، أى تصحبهم اللعنة .

— وقوله تعالى : « أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً » كلام مستأنف . أى أنهم بهذه اللعنة التى خرجوا بها من المدينة ، لن يجدوا مأوى يؤوون إليه ، ولا معتصماً يعتصمون به . . فأينما ثُقفوا أى وقعوا ليد النبىّ والمسلمين « أخذوا وقتّلوا تقتيلاً » أى أصبحوا فى عداد الأسرى ، وليس لهم بعد الأسر إلا القتل ، لأنهم عرب ، لا تُقبل منهم فدية ، أو يهود ائتمروا مع المشركين على حرب النبىّ ، فجرى عليهم حكم المشركين من العرب .

قوله تعالى :

* « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » أى سنسنّ بهم سنة الذين سبقوهم من قبل ، ونأخذهم بما أخذنا به أمثالهم من أهل الضلال والنفاق . . فهذا هو حكم الله فى المفسدين فى الأرض ، وهو حكم قائم لا يتبدل أبدا . .

والمراد بالذين خلوا من قبل هنا هم اليهود — من بنى قريظة وبنى النضير — الذين وقع بهم بأس الله ، فأخرجوا من ديارهم ، وقتل رجالهم ، وسبى نساؤهم وذراريهم . .

ويجوز أن يكون « الذين خلوا من قبل » — هم أمثال هؤلاء المنافقين من أهل الضلال فى الأمم السابقة ، ويدخل فيهم ضمناً يهود المدينة .

قوله تعالى :

* « يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله ومايدريك لعل الساعة تكون قريباً » .

هو تذكير بالساعة ، وإلفات إلى يوم القيامة ، فى هذا الموطن الذى تهددت فيه الآية السابقة جماعاتِ المنافقين ، ومن فى قلوبهم مرض ، وهم صنّاع

الأراجيف والشائعات . . وذلك ليرجعوا إلى الله ، وليُخلوا قلوبهم من النفاق ، وليطهروها من تلك الآفات الخبيثة التى استوطنتها . .

قوله تعالى :

* « إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً * خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً » هو تهديد لتلك الجماعات التى إن لم تصحح إيمانها ، أصبحت فى عداد الكافرين ، وليس للكافرين عند الله إلا اللعنة وسوء الدار ، حيث ينزلون أسوأ منزل فى جهنم ، لايخرجون من عذابها المطبق عليهم أبداً ، ولا يجدون وليًا يقف إلى جانبهم، ولا نصيراً ينصرهم، ويدفع عنهم هذا البلاء المشتمل عليهم .

قوله تعالى :

* « يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا » .

فى الآية عرض لصورة من صور العذاب التى يلقاها الكافرون يوم القيامة . . إنهم يقلبون على وجوههم فى جهنم ، وهم أحياء . . كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ، ألواناً ، وليطعموه حمياً وغساقاً . . وهم فى هذا العذاب لا يملكون إلا صرخات الندم والحسرة ، على خلافهم لله والرسول ، فيقولون : « ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا » . . وأنّى لهم أن يصلحوا ما أفسدوا ؟ لقد فات الأوان ! .

قوله تعالى :

* « وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » .

أى أن من مقولاتهم التى يقولونها ، ويعتذرون بها هو قولهم: « ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » . . إنهم يُلقون باللائمة على سادتهم وكبرائهم ، وقد كانوا تبعاً لهم ، فأوردوهم هذا المورد الوبيل . .

فقوله تعالى : « وقالوا » هو حكاية لما سيقولونه يوم القيامة ، وعُبّر عنه بالفعل الماضى ، لأن هذا القول واقع فى علم الله القديم ..

وتلك حجة داحضة ، وعذر غير مقبول ..! لقد باعوا أنفسهم لسادتهم ، وعطلوا العقل الذى وهبه الله إياهم ، فلم يُصغوا إلى آيات الله ، ولم يستمعوا إلى دعوة الرسول ، ولم يلتفتوا بعقولهم وقلوبهم إلى هذا النور الذى غمر الآفاق من حولهم .. بل تركوا لغيرهم مِقودهم ، وأسلموه زمامهم .. فإذا دَفَع بهم قائدهم إلى الهاوية ، فهم الملومون ، ولا لوم على أحد .

قوله تعالى :

* « ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً » .

هـذا هو الجزاء الذى يَجزى به الضالون سادتهم ، ورؤساء الكفر والضلال فيهم .. إنهم لا يملكون أن ينتقموا لأنفسهم منهم بغير هـذا الدعاء إلى الله أن يضاعف لهم العذاب ، الذى يلقاه هؤلاء الأتباع .. فهم رؤساؤهم الذين كانوا يذهبون بالنصيب الأوفر من متاع الدنيا ، فليذهبوا كذلك بالنصيب الأوفر من العذاب واللعنة فى الآخرة ..!

قوله تعالى :

* « يٰأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً » ..

أشاع اليهود فى المدينة جوًّا خبيثاً من الدس والنفاق ، وخَلق الأراجيف وإذاعة الشائعات ، واتخذوا من هذا كله أسلحة يحاربون بها الدعوة الإسلامية ، ويدخلون منها على مَن فى قلوبهم مرض من المسلمين ، فيفتنونهم فى دينهم ،

ويتخذون منهم أبواقاً لترديد الأكاذيب، وإشاعة الأراجيف .. وقد أخزى الله اليهود، ونكّل بهم، وكفى المسلمين شرهم، وطهر المدينة من رجسهم .. وبقى بعد هذا أشتات من الناس، قد تمكن فيهم النفاق والكيد الذى ورثوه عن اليهود، فجاء قوله تعالى: « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا » - جاء منذراً هؤلاء المخلفين من صنائع اليهود، بأن ينزعوا عما هم فيه، وإلا أصابهم ما أصاب أصحابهم من قبل ..

وفى قوله تعالى: « يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً » — إلفات للمسلمين عامة، وإشارة إلى المنافقين، ومرضى القلوب وضعاف الإيمان منهم، خاصة، إلى أن يعتزلوا اليهود عزلة شعورية، وأن يقطعوا كل ما كان بينهم من صلات قائمة على التشبه بهم، والجرى على أساليبهم، لأنهم شر خالص، وبلاء محض .. كالداء الخبيث إن لم يقتل صاحبه، أفسد عليه حياته، ونغّص معيشته .. وإنه لا سلامة للمسلمين من اليهود إلا إذا تخلصوا من كل أثر مادى أو نفسى كان لهم فيهم .. وأمّا وقد جلا اليهود عن المدينة إلى غير رجعة، ولم يبق إلا ما تركوه فى بعض الناس من آثار، فى أساليب الحياة، وصور التفكير، فإنه لكى يأمن المسلمون على سلامتهم فى أنفسهم وفى عقيدتهم - ينبغى أن يتخلصوا من كل مخلفات اليهود فيهم، من ماديات الحياة ومعنوياتها جميعاً ..

والتطاول على مقام الرسل، والافتنان فى إيذائهم والكيد لهم، طبيعة غالبة على اليهود ..

وقد قص القرآن الكريم على المسلمين كثيراً من مواقفهم اللئيمة

المنحرفة مع رسل الله . . فقال تعالى : « فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » (١٥٥ : النساء) .

وقال سبحانه وتعالى متوعداً إياهم : « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » (٨٧ : البقرة) .

« وموسى » الذى يَدين اليهودُ بشريعته وبالتوراة التى تلقاها من ربه ـ قد لقى من كيد اليهود وأذاهم فى شخصه حيًّا ، وفى شريعته ، بعد موته ، ما لقى الأنبياء منهم ، من ألوان الكيد والأذى . .

وقولهم الذى قالوه فى موسى هو ما حكاه القرآن الكريم عنهم فى قولهم لموسى : « أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا » (١٢٩ الأعراف) وكان ذلك ردًّا على قوله لهم : « استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » (١٢٨ : الأعراف) .

فهذا القول هو اتهام له ، وتكذيب بالوعد الذى وعدهم إياه بأمرِ ربه . . وكان فى هذا الاتهام أذًى له ، خاصة وهو فى مواجهة فرعون ، وفى معمعة الصراع المحتدم بينهما . . إنهم يكذبون موسى ، ويتهمونه بالخداع لهم بهذه الأمانى التى يحدثهم بها . .

وقد برأ الله موسى من هذا الاتهام الوقح ، فَصَدَقه الوعدَ الذى وعده ، ونجّى القوم على يديه من فرعون ، وأراهم من آيات الله عجباً . .

والمنافقون ومَن فى قلوبهم مرض من المسلمين ، هم المعنيون بهذا الأمر الذى تحمله الآية الكريمة : « يأَيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها » . . فلقد كذب إخوانهم

اليهود موسى ، واتهموه فيما وعدهم به من الخلاص من يد عدوهم ، ومن التمكين لهم فى الأرض ، وقد صَدَق الله وعده ، وأنجز لموسى ما وعده فى قومه . . وكما صَدَق الله وعدَه موسى فى قومه ، سَيصدق الله وعدَه « محمداً » فى قومه ، فيَكبت عدوّهم ، ويمكنّ لهم فى الأرض . . وكما كان موسى وجيهاً عند الله ، ذا منزلة عالية عنده ، سيكون محمداً وجيهاً عند ربه ، فى مقام رفيع عنده . . فليكن للمنافقين والذين فى قلوبهم مرض فى هذا عبرة وموعظة ، وليقتلوا فى نفوسهم تلك الشكوك وهذه الريَب فى صدق الرسول . . فإنهم إن فعلوا سلمت قلوبهم من النفاق ، وصحّت من المرض ، وأصبحوا فى عباد الله المؤمنين ، الذين اطمأنت قلوبهم بالإيمان ، وخلت مشاعرهم من الشكوك و التّهم ، فلم تنطق ألسنتهم بالزور والبهتان . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى الآية التالية ، والآية التى بعدها .

* « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً * يُصلحْ لكم أعمالكم ويغفرْ لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما »

فهذه هى صفات المؤمنين حقّاً ، وذلك هو منطقهم ، وتلك هى سبيلهم . . إنهم على إيمان وثيق بالله ، قد امتلأت قلوبهم بتقواه ، وخشيته ، فلا يقولون زوراً ، ولا ينطقون بهتاناً ، وإنما قولهم الحق ، ومنطقهم الصدق . . وبهذا يُصلح الله أعمالهم ، ويتقبلها منهم ، ويغفر لهم ذنوبهم . . وهذا لا يكون إلا لمن أطاع الله ورسولهَ : « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » . . إذ أنه لا فوز أعظم من النجاة من عذاب الله ، والفوز بدخول الجنة : « فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاعُ الغرور » (١٨٥: آل عمران)

الآيتان : (٧٢ — ٧٣)

* « إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ

أن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣) »

التفسير :

(الأمانة التي حملها الإنسان .. ما هي؟)

بهاتين الآيتين تُختم السورة .. وبين بدء السورة وختامها تلاقٍ وتجاوب ، بحيث يُرى وجه أحدهما في الآخر ، كما يُرى الشيء وصورته في مرآة مجلوّة ..

ففي بدء السورة جاء قوله تعالى : « يٰأَيها النبيّ اتقِ الله ولا تطع الكافرين والمنافقين .. » وفي ختامها جاء قوله تعالى : « ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات »

ففي تحذير النبيّ من الكافرين والمنافقين ، حراسةٌ له ولكل من اتبع سبيله — من هذا الخطر الداهم ، وهذا البلاء النازل من موالاة الكافرين والمنافقين أو مهادنتهم ..

وبعد بدء السورة بقليل جاء قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه »

وقبيل ختام السورة بقليل جاء قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان »

ففي قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » — إشارة إلى أنه كما لا يجتمع في الجوف قلبان ، يُبطل كل منهما عمل الآخر ، كذلك لا يجتمع

فى القلب شيئان ينقض أحدهما ما يبنيه الآخر . . فلا يجتمع فى القلب إيمان وكفر ، ولا يسكن إليه إيمان يخالطه نفاق . .

وفى قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » — إشارة إلى أن الأمانة هى مما يَحمِل القلب ، وأنه كما انفرد القلب بالسلطان على الجسم ، كذلك تنفرد الأمانة بالسلطان على القلب .

وعلى ضوء هذا نستطيع أن نفهم « الأمانة » على أنها التكاليف الشرعية التى ائتمن الله سبحانه وتعالى الإنسانَ عليها ، ودعاه إلى رعايتها وحفظها ، وأدائها على وجه مقبول . . فيثاب على أدائها ، ويعاقب على خيانتها وعدم الوفاء بها . .

والعقل هو مناط التكليف . . حيث لا يقع التكليف على غير قادر مُريد ، مدرِك لما كُلّف به . . وبغير العقل لا يكون إدراك ، ولا تجتمع إرادة ، ولا تتحرك قدرة . .

وإذ كان الإنسان هو الكائن الذى أوتى عقلاً وإدراكا ، من بين الكائنات ، فقد كان هو الكائن الذى اختُصّ بالتكليف ، وبحْمِلِ أمانةِ ما كلّف به .

فالعقل هو المتلقّى لتلك الأمانة التى عجزت السموات والأرض والجبال عن حملها . . .

وتلقّى العقل للأمانة ، هو بإدراكِ مالله سبحانه وتعالى من كمالات ، وبهذا استحق الإنسان أن يخاطب من الله خطاب تكليف ، وأن ينظر بعقله فيما كلّف به من أمرٍ أو نهى ، وأن يتعرف به ما أحل الله وما حرم ، وأن يميِّز به الطيب من الخبيث . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إنّا خلقنا الإنسان من نطفةٍ

أمشاج . . نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » أى لأجل أن نبتليه جعلناه سميعاً بصيراً، أى يسمع بعقل ، ويبصر بإدراك ، وهذا هو السر فى العدول عن سامع ومبصر، إلى صيغة المبالغة « سميعاً بصيراً » .

والإنسان — بهذا العقل المدرك المميز للأشياء — سلطان على نفسه ، مالك التصرف كيف شاء . . فله أن يؤمن أو يكفر ، وله أن يطيع أو يعصى ، وله أن يتقدم أو يتأخر . . وليس هذا شأن الكائنات الأخرى ، حتى الملائكة — إنها جميعها على وجه واحد ، لا تستطيع ، بل لا تحاول أصلاً ، أن تخرج عن هذا الوجه الذى أقامه الله عليها . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهى دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً . . قالتا أتينا طائعين » . . (١١ : فصلت)

إن الله سبحانه وتعالى يعرض الأمانة هنا على السموات والأرض . . وإنه سبحانه يدعوهما إلى أن يمتثلا أمره . . إما طوعاً ، وإما كرهاً . . والطوع ، هو التسليم المطلق منها لأمر الله . . والكَرْه هو أن يكون لهما الخيار فى إمضاء مشيئة الله فيهما ، وهذا الخيار لا يصير بهما آخر الأمر إلا إلى حيث أراد الله . . فهو خيار فى ظاهره، إكراه فى باطنه ، فهى مكرهة فى صورة طائعة . . وقد أبت السماء والأرض قبول الأمانة . . فقالتا : « أتينا طائعين » أى مستسلمين ، لا إرادة لنا مع إرادة الله ، ولا اتجاه لنا إلى غير ما أقامنا الله عليه . .

أما الإنسان ، الذى حمل الأمانة ، فهو — كما يبدو فى ظاهره — عالِم ، مُريد ، يعمل بعلمه ، وبإرادته . . وهما صفتان من صفات الله سبحانه وتعالى ، استحق بهما أن يكون خليفة لله فى الأرض . . الأمر الذى لم تدله الملائكة حين قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك » وقد ردّهم الله سبحانه بقوله : « إنى أعلم ما لا تعلمون » .

والعلم الذى يستمده الإنسان من عقله ، هو الحارس الأمين على الأمانة التى حملها الإنسان ، فبالعلم يعرف الإنسان ربّه ، وماله سبحانه من صفات الجلال والكمال . . وبالعلم يدرك التكاليف التى كلفه الله بها ، فيما أمر ونهى . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « يٰأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » (٢٧ : الأنفال)

وننظر فى قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » فنجد :

أولا : عَرَضَ الله سبحانه وتعالى « الأمانةَ » على السموات والأرض والجبال . .

فما معنى العرض هنا . ؟

إنه — والله أعلم — عَرْضُ امتحانٍ لهذه العوالم ومافيها ومن فيها — فى مواجهة الإنسان ، حتى يَظْهر عجزُها ، ويَبِين فضلُ الإنسان عليها . . وهذا مثلُ عَرْض الأسماء على الملائكة ، امتحاناً لهم ، فى مواجهة آدم . . فلما ظهر عجزهم — والله يعلم هذا علماً أزليًّا — اعترفوا لآدم بماله من فضل استوجب سجودَهم له ! !

وفى هذا يقول الله تعالى : « وعلّم آدم الأسماء كلّها ثم عَرَضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمآئهم فلما أنبأهم بأسمآئهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » (٣١ — ٣٣ : البقرة)

وثانياً : إباء السموات والأرض والجبال أن يحملن الأمانة . .

فما معنى هذا الإباء ؟ .

نقول ـ والله أعلم ـ ليس معناه الرفض ، عصيانا وخلافا . . وإنما معناه عدم موافقة طبيعة هذه العوالم لقبول هذا الأمر المعروض عليها . . فهو إباء عجز وقصور ، كما عجز الملائكة عن قبول العرض فى التعرف على أسماء الأشياء المعروضة عليهم . . وهكذا إذا اجتمع أمران لا توافق بينهما ، ثم أريد اجتماعهما وتآلفهما من غير إرادة قاهرة ـ لم يجتمعا ، ولم يأتلفا . وهذا مايشير إليه الشاعر فى قوله :

أبت الروادف والثُّدِىُّ لقُمصِها مَسَّ الظهور وأن تَمسَّ بطونا

فهو إباء محكوم بالطبيعة ، لا دخل للإرادة ، أو التصنع فيه . . فَحسُن أن يشبه هذا الواقع منها بأنه إباء وامتناع .

وثالثاً : إشفاق السموات والأرض والجبال من حمل الأمانة . .

فهل هذا الأشفاق عن شعور وإحساس ، وإدراك لفداحة الأمر وخطره ؟ وإذا كان ذلك كذلك ، فهناك إذن إدراك ! وإذا كان إدراك لم يكن الإباء عن حمل الأمانة ، إلا عصيانا وخلافا . . فكيف هذا ؟ .

الجواب ـ والله أعلم ـ أن هذا الإشفاق ليس عن إدراك وتقدير ، وإنما هو ـ حركة يقابل بها الكائن ـ أى كائن من حيوان أو جماد ـ ما يدخل عليه من شىء غريب يَخرج به عن طبيعته التى أقام الله سبحانه وتعالى عليها وجوده . .

فالمشفق من الشىء ينفر منه ، وينقبض عنه . .

وهذا ـ والله أعلم ـ هو السر فى التعبير القرآنى : « وأشفقن منها » بدلا من « خفن منها » لأن الخائف مضطر إلى أن يتحرك ، ويبتعد عن مصدر الخطر الذى يتهدد وجوده ، بخلاف المشفق ، إذ لا خطر يتهدده . . إنه أشبه بحلم مزعج من أحلام اليقظة ! .

وهذه الكائنات لم تكن فى عرض الأمانة عليها فى مواجهة خطر يتهددها ، إذ أنه مجرد عرض ، لا إلزام معه . . فهى إما أن تقبل بطبيعتها الأمانة ، وتستجيب لها ، وإما ألا تقبلها ، ولا تتجاوب معها . . ومع هذا فإن مجرد هذا العرض المجرد ، قد هزها هزًّا عنيفاً بالغاً ، أشبه بما يكون من العين عند دخول جسم غريب إليها . .

ورابعاً : قوله تعالى : « وحملها الإنسان » .

ما معنى « الواو » فى « وحملها الإنسان » ؟ هل هى واو عطف ؟ فأين المعطوف عليه ؟ أم هى واو الحال ؟ فمن صاحب الحال ؟ وما المعنى إذن؟

إذا قيل إنها واو العطف ـ كما يذهب إلى ذلك أكثر المفسرين ـ كان المعطوف عليه قوله تعالى «فأبين أن يحملنها وأشفقن منها» وحملها الإنسان .. المعنى على هذا ، أن الإنسان كان داخلا فى هذا العرض ، وأنه بعض موجودات هذه الأكوان التى عُرضت عليها الأمانة ، وقد عجزت جميعها عن حملها ، وأشفقت منها ، إلا الإنسان وحده من بينها ، فإنه قَبِل حملها بمشهد من الوجود كله فى هذا الامتحان العام .

وإذا قيل إنها واو الحال ـ وهذا ما نراه ـ فيكون قوله تعالى : « وحملها الإنسان » جملة حالية ، ويكون صاحب الحال الضمير العائد على الأمانة فى قوله تعالى : «فأبين أن يحملنها وأشفقن منها » . . ويكون المعنى : أننا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها » والحال أن الإنسان قد حملها ! !

وهذا المعنى يحقق أموراً :

أولها : أن قبول التكاليف وحمل الأمانة طبيعة فى الإنسان وأنه حال من

أحوال على حين أن عدم قبول التكليف وحمل الأمانة ، ليس من طبيعة الكائنات الأخرى ولا من شأنها . .

وثانيها : أن هذه الطبيعة القابلة للتكليف وحمل الأمانة ، قد انفردت من بين المخلوقات بالقدرة على ما تعجز عنه المخلوقات كلها ، فى السماء وفى الأرض . . وفى هذا تكريم للإنسان ، وإعلاء لقدره ، ووضعه فى ميزان ترجُح فيه كِفته على سائر المخلوقات مجتمعة . .

وثالثها : أن هذا التكريم للإنسان يُلقى عليه عبئاً ثقيلا ، يتطلب منه التفاتاً قوياً إلى نفسه ، باستعمال القوى المدركة المودعة فيه ، وحراستها من الآفات التى تعرض لها ، حتى يؤدى ما اؤتمن عليه ، ويُثبت للوجود أنه كما وصفه الله : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » وأنه هذا الكائن المصطفى من بين الكائنات ، كما يقول سبحانه : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » فآدم صفوة خلق الله جميعاً ، ونوح صفوة أبناء آدم ، وآل إبراهيم وآل عمران صفوة أبناء نوح . .

فإذا غفل الإنسان عن هذا المقام العظيم الذى رفعه الله إليه ، وانطفأت فى كيانه تلك الشعلة المقدسة ، وهى العقل الذى أودعه الله فيه ـ لم يكن إلا تراباً من تراب هذه الأرض ، وكان كما وصفه الله : « ثم رددناه أسفل سافلين » .

وخامساً : قوله تعالى : « إنه كان ظلوماً جهولا » .

ما معنى هذا الوصف الذى وُصف به الإنسان ؟ وهل يتفق وصفه بالظلم والجهل ، مع هذا الفهم الذى فهمنا الآية الكريمة عليه ، وأنها تحدث عن الإنسان هذا الحديث الذى يقيمه على قمة الوجود كله ؟ .

والجواب على هذا — والله أعلم . . أن هذا الوصف ليس واقعاً على

الإنسان فى جنسه كله ، وإنما هو واقع على من خان الأمانة من بنى الإنسان ، ونزل عن هذا المقام الرفيع الذى له فى الكائنات ، وبهذا استحق أن يوصف بأنه « ظلوم » أى عظيم الظلم ، لأنه ظلم نفسه ، فلم يَقْدُرْها قدرها ، ولم يحفظ عليها مكانتها .. وإنه ليس أظلم ممن يظلم نفسه ، ويبخسها حقها، وهو «جَهول» لأنه لم يعرف قدر نفسه ، ولم يحتفظ بهذا السلطان الذى له فى هذا العالم .. ومن جهل نفسه فهو أجهل الجاهلين . .

فوصف الإنسان بأنه ظلوم جهول ، هو فى الواقع إشارة إلى تلك الخسارة العظيمة ، التى خسرها الإنسان بتضييع الأمانة التى كانت بين يديه ، والتى حين تخلّى عنها فقد كلّ شىء ، ونزل من القمة إلى القاع ..

وهذا أسلوب من أساليب البلاغة فى إظهار عظمة الشىء ، بذم من فرط فيه وقصر فى حفظه ، وحراسته .. كما يقال عن إنسان كانت بين يديه فرصة عظيمة مسعدة ، فأضاعها بإهماله وتواكله ، فلا يجد إلا من يلوم ويقرّع بمثل هذه الكلمات : غبى !! حيوان ! جاهل !..

وعلى هذا لا يكون قوله تعالى : « إنه كان ظلوماً جهولا » — لا يكون تعقيباً على قوله تعالى : « وحملها الإنسان » . . وإنما هو تعقيب على محذوف ، تقديره وحملها الإنسان فلم يُحسن حملها ، ولم يؤدها على وجهها . . وإنه بهذا التقصير كان ظلوماً جهولا . .

هذا هو ما اطمأن إليه القلب ، واستراحت له النفس ، فى فهم الآية الكريمة . . وهناك مقولات كثيرة فى كتب التفسير فى هذا المقام ، وهى على كثرتها وتضاربها ، لا تخلو من فائدة لمن ينظر فيها . .

* * *

قوله تعالى :

* « ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما » . .

هذا تعقيب على قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال . . الآية » فمقتضى الأمانة التى حملها الإنسان ، هو أن يؤديها كما اؤتمن عليها .. فإن هو قصر فى أدائها ، أو ضيعها جميعاً ، كان فى موضع المساءلة والعقاب .. وإن هو حفظها على قدر ما استطاع ظل محتفظاً بمكانه الذى أقامه الله فيه ، وهو مقام كريم فى جنات النعيم ..

والذى ينبغى أن يُلتفت إليه هنا ، هو تقديم الحساب والجزاء لمن كان منه التقصير فى أداء الأمانة — تقديمه على التوبة على المؤمنين والمؤمنات . .

وذلك أن الأداء للأمانة ، هو المطلوب أولا ، وهو الشأن الذى إذا فات الإنسانَ ، كان فى معرض الخروج من عالم الإنسانية ، والنزول عن المكان الرفيع الذى وضع فيه .. وهذا هو عقابه وجزاؤه .. وهو العذاب الأليم ، إذ لا عذاب أشد ولا أقسى من أن يخرج الإنسان عن طبيعته ، ويعيش فى غير بيئته . .

كما ينبغى أن يلاحظ أيضاً ، اختصاصُ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات بالعذاب هنا ، لأنهم هم الذين ضيعوا الأمانة كلها ، ولم يبق فى أيديهم شىء منها .. إنهم جميعاً على الكفر بالله .. فالمنافق .. منافق وكافر ، والمشرك.. كافر ومشرك . .

— أما قوله تعالى : « ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات » فهو مقابل لقوله تعالى : « ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات » وكان

مقتضى النظم أن يجيء هكذا مثلا: « ويدخل الله المؤمنين والمؤمنات جنات النعيم » .

والذى جاء عليه النظم القرآنى يحقق أمرين :

أولهما : أن حمل الأمانة ، وأداءها كاملة ، مما لا يكاد يتحقق على وجهه كاملا ، إلا فى صفوة مختارة من أنبياء الله ورسله ..

وإذن فالمطلوب من الناس ، حتى فى أعلى منازلهم ، وأرفع درجاتهم ، أن ، يقاربوا وأن يسدّدوا ، وأن يأتوا من الأمر ما استطاعوا .. فإذا وقع منهم تقصير — وهو واقع حتما ـ فإن رحمة الله ومغفرته من وراء هذا التقصير ، إذا هم تابوا ، ورجعوا إلى الله ، واستغفروه : « ومن يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما » ..

وثانيهما : أن الإيمان بالله ، هو مِلاك الأمانة . . فمن آمن بالله ، وأقر بوحدانيته ، وشهد بقلبه ولسانه : أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فقد أمِن أن يكون فى المنافقين أو المشركين ، وكان فى المؤمنين الذين يتوب الله عليهم . . وبالتوبة تمحى السيئات ، وتُغفر الذنوب ، وترجى النجاة من عذاب الله . « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم * الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

* * *

٣٤ - سورة سبأ

نزولها : مكية

عدد آياتها : أربع وخمسون آية .

عدد كلماتها : ثمانمائة وثمانون كلمة .

عدد حروفها : أربعة آلاف وخمسمائة واثنا عشر حرفاً .

مناسبة السورة لما قبلها

خُتمت سورة الأحزاب السابقة بهذه الآية الكريمة : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » .

ثم كانت الآية التى بعدها تعقيباً عليها . . فكأنها وما بعدها آية واحدة .

وفى هذه الآية أو الآيتين ، بيان لمقام الإنسان فى هذا الوجود ، وأنه الكائن الذى استقلّ وحده بحمل أمانة التكليف من بين الكائنات جميعها . . وإنه لن يُمسكَ به فى مقامه هذا إلا الإيمان بالله ، إيمانَ وعى ، وإدراك ، وفهم ، لجلال الله وعظمته ، وقدرته ، وماله من تصريف فى ملكه ، لا معقب له ، ولا شريك معه .

وتبدأ سورة « سبأ » بقوله تعالى : « الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض » تبدأ بهذا الاستفتاح بحمد الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . . وكأنها بهذا الاستفتاح تضع بين يدى الإنسان المفتاح الذى يحفظ به ما استودع من أمانات الله . . وهو حمد الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .

فحمد الله ، هو ثمرة الإيمان بالله ، والمعرفة بجلاله ، وعظمته ، وماله فى ذات الإنسان، من آيات الإحسان ، وسوابغ النعم . . فمن آمن بالله حق الإيمان ، كان لسانَ ذكر وحمد وشكر ، لله ربّ العالمين ، وذلك فيما يَرَى على ضوء هذا الإيمان من فضل الله ، وإحسانه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٩)

* « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ (٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَالِ ٱلْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير »

الحمد لله من الله سبحانه ، هو حمدٌ لذاته من ذاته . . فهو سبحانه المستحق للحمد ، وإن لم ينطق بذلك لسان .. فالوجود كلّه مسبح بحمده سبحانه ، إذ كان الوجود — فى ذاته — نعمةً ، على أية صورة كان عليها الوجود ، وعلى أى وضع قام عليه . . فهو خروج من عدم . . والعدم سلب ، والوجود وجوب . . الوجود شىء ، والعدم لا شىء . . والوجود صفة من صفات الله ، به تتحقق ذاتية الذات ، وتتحدد ماهيته . . ومن هنا كان .. الحمد لله ، تسبيحَ كل موجود وصلاةَ كل مخلوق : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » (٤٤ : الإسراء)

وفى قوله تعالى : « وله الحمد فى الآخرة » إشارة إلى ما استوجب الله سبحانه وتعالى من حمدٍ فوق حمد الوجود ، وهو حمد البعث ، بعد الموت ، الذى هو أشبه بوجود جديد للإنسان ، وإمساك به من الذهاب إلى العدم الذى كان وشيكا أن ينتهى إليه بعد الموت .

— وفى قوله تعالى : « وهو الحكيم الخبير » إشارتان . . إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى ، الذى ملك هذا الوجود بسلطانه المطلق ، لم يكن فى هذا السلطان المطلق جور ، أو استبداد ، لأنه سلطان فى يد الحكيم الذى أحسن كل شىء خَلَقَه ، وأقامه فى المقام المناسب له . . والإشارة الأخرى إلى سوء ظن الكافرين والمشركين ، وأهل الضلال ، بالله سبحانه وتعالى ، وقصور إدراكهم لِما لله

سبحانه وتعالى من علم ، وأنهم لو علموا بعضَ مالله من قدرة ، وعلم ، وسلطان ، لخافوا بأسه ، ولماجرءوا على عصيانه ، إذ لا يجرؤ على مخالفة آمر ذى الأمر ، والخروج على سلطان ذى السلطان ، إلا من وقع فى تصوره أن عين صاحب الأمر لا تراه ، أو أن سلطان ذى السلطان لا يقدر عليه . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وما كنتم تستترون أن يَشْهَدَ عليكم سمعكم ولا أبْصاركم ولاجُلودكم ولـكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلـكم ظنكم الذى ظننتم بربِّكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » (٢٢ — ٢٣ : فصلت »

قوله تعالى :

* « يعلمُ ما يلجُ فى الأرض وما يخرج منها وما ينزلُ من السماء وما يعرُجُ فيها وهو الرحيم الغفور » .

هذه الآية ، هى شرح وبيان لصفة « الخبير » التى وصف الحق بها ذاته ، فى قوله تعالى : « وهو الحـكيم الخبير » .

فالخبير ، هو العالم علماً كاشفاً لـكل شىء .. وعلم الله هو العلم الـكامل كمالا مطلقاً ، حيث تنكشف به حقائق الأشياء كلها ، إذ كان كل شىء هو صنعةَ الله ، من مبدأ وجود المخلوق إلى كل ما يطرأ عليه من تبدل وتحول فى كل لحظة من لحظات الزمن . . ولهذا وُصف علم الله بالخبرة ، إذ كان علماً عاملا ، بحيث لايقع شىء فى الوجود إلا عن علم ، وعن تقدير بمقتضى هذا العلم .. فـكان علمه سبحانه على هذا التمام والـكمال : « ألاَ يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (١٤ : الملك)

— وفى قوله تعالى : « يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها » . إشارة إلى بعض علم الله ، فيما بين أيدى الناس ، وهو هذا العالم الأرضى الذى يعيشون

فيه .. فهذه الأرض، يعلم الله سبحانه مايلج فيها ، أى ما ينفذ إلى باطنها ، ويتسرب إلى أعماقها . . فالولوج معناه دخول الشيء فى الشيء ، ومنه قوله تعالى : « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » فهو سبحانه يعلم كل حبّةٍ فى باطن الأرض، ويعلم مستقرها ومستودعها ، ويعلم سبحانه ما يجرى فى باطن الأرض من ماء . . كذلك — ومن باب أولى فى حسابنا — يعلم سبحانه ما يخرج من الأرض من نبات ، وما يتفجر من عيون . .

— وفى قوله تعالى : « وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » إشارة أخرى إلى علم الله سبحانه بما فوق هذا العالم الأرضى ، وهو السماء . . فهو سبحانه يعلم ماينزل من السماء من ماء ، وملائكة ، وهو يعلم ما يعرُج فى السماء ، أى ما يصعد إليها من عالم الروح الذى نزل إليها . .

وفى قوله تعالى : « وهو الرحيم الغفور » ـ إشارة إلى أن مايلج فى الأرض وما يخرج منها ، هو هذه الرحمة التى تنزل ماء من السماء ، فتلج فى الأرض ، فتخرج منها حبّاً ونباتاً وجناتٍ ألفافاً . . وفى هذا حياة كل حىّ ، طعاماً وشراباً . . ثم إشارة أخرى إلى ماينزل من السماء من آيات الله وكلماته ، يحملها أمين الوحى إلى المصطَفَيْنَ من عباد الله لرسالته ، فيكون فيها حياة الأرواح ، وتزكية النفوس . . ثم إشارة ثالثة إلى ما يعرج فى السماء ، ويصعد إليها من أعمال النّاس . . وقليل منها طيب ، وكثير هو الخبيث . . ومع هذا ، فإن الله سبحانه لا يُمسك رحمته عن النّاس ، ولا يعجل لهم الجزاء ، بل يُوسِع لهم من مغفرته ورحمته ، فيغفر المذنبين التائبين ، ويرحم العصاة الفارّين بذنوبهم إلى الله : « وهو الرحيم الغفور »

قوله تعالى :

* « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعةُ قل بَلَى وربىّ لتأتينّكم عالم الغيب

لا يعزبُ عنه مثقال ذرةٍ فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبرُ إلا فى كتاب مبين »

العطف هنا فى قوله تعالى : « وقال الذين كفروا » — هو عطف على مضمون الآيتين السابقتين . . فهذا المضمون هو قول الوجود كلّه ، وهو قول المؤمنين من النّاس . . وكأن المعنى هو :

قال الوجود كله وقال المؤمنون من عباد الله : « الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . . » الآية وما بعدها . .

هذا ما قاله الوجود ، والمؤمنون . . وقد اقتضى هذا الإقرار من المؤمنين أن يؤمنوا بالآخرة وأن يعملوا لها . . أما غير المؤمنين ، فلم يقولوا هذا القول ، ولم يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر . .

والصورة إذن هى : قال الذين آمنوا آمنا باليوم الآخر ، وبأن الساعة آتية لا ريب فيها ، « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة » . .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى النبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — أن يردّ عليهم هذا الزعم الباطل ، وأن يكذّب هذا الادعاء الفاسد ، فقال تعالى : « قل . . بلى وربى لتأتينكم » . . « وبلى » جواب لإثبات المستفهم عنه بالنفى ، وإيجابه . .

ففى قولهم : « لا تأتينا الساعةُ » نفى فى طيه استفهام إنكارى ، وكأنهم يقولون : « ألا تأتينا الساعة » مبالغة منهم فى إنكارها ، وفى تحدّى من يؤمن بها . .

وقد جاء الردّ عليهم مثبتاً لما نفَوْه ، موكّداً له ، قاطعاً به : بهذا القسم باسم الربّ العظيم « وربّى » وبهذا التوكيد للفعل باللام والنون « لتأتينّكم » . .

وفى القسَم بالربّ ، (بلى وربى) إشارة إلى ربوبية الله سبحانه ، لهؤلاء الذين ينكرونه ، وينكرون ما تقضى به الربوبية من الولاء لله ، والتصديق برسله . . فهو إنكار غليظ ، فى مواجهة الربوبية التى لا تنقطع فواضل إحسانها وإنعامها لحظة واحدة عن أى موجود ، ولو انقطع ذلك لما كان لموجود وجود !

—وقوله تعالى : « عالم الغيب » .. صفة للرب ـ سبحانه وتعالى ـ الذى يعلم الغيب فى السموات والأرض ، ويعلم ما عليه هؤلاء الكافرون من محادّة الله .. فهو سبحانه ـ وقد علم منهم هذا الضلال ـ لن يدعهم يذهبون من غير حساب ولا جزاء ، بل سيبعثهم سبحانه ، ويردهم إليه ، ويجزيهم بما كانوا يعملون . .

—وقوله تعالى : « لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبر » أى لا يغيب عن علمه ـ سبحانه ـ وزن ذرة ، كائنة فى السموات أو فى الأرض ، ولا أصغر من الذرة ـ وهى ما هى فى الصغر ـ ولا أكبر . . . فكل ذلك عنده سبحانه وتعالى فى كتاب مبين ، قد استودع مكنونات علمه . .

—وفى قوله تعالى : « إلا فى كتاب مبين » إشارة إلى حصر الموجودات كلها صغيرها وكبيرها « فى كتاب مبين » أى مفصل فيه كل شىء تفصيلا واضحاً محددا . . فما وقع فى ظن الكافرين بالله أن شيئا من هذا غائب عن علم الله إلا كان هذا فى كتاب مبين . .

قوله تعالى :

* « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . أولئك لهم مغفرة ورزق كريم * والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم » .

اللام فى قوله تعالى « ليجزى الذين آمنوا » هى لام العاقبة ، أى أن عاقبة هذا العلم من الله سبحانه وتعالى لما يعمل الناس من خير أو شر ، هو

الحساب والجزاء ، فيجزىَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، جزاء حسناً . . ويجزى الذى أساءوا السُّوءى وعذاب الجحيم . .

وقد أُطلق الجزاء الذى يجزى به الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلم يقيد بأنه جزاء حسن للدلالة على أنه أمر واضح لا يحتاج إلى بيان . . إذ ليس للإحسان جزاء إلا الإحسان كما يقول سبحانه : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » (٦٠ : الرحمن)

وفى الإشارة إلى المؤمنين بقوله تعالى : « أولئك لهم مغفرة ورزق كريم » رفع لقدرهم ، وتنويه بمنزلتهم العالية فى مقام التكريم والإحسان . . وفى الضرب عن صفة الجزاء للذين سعوا فى آيات الله معاجزين ، إشارة إلى التعجيل بالجزاء السيء لهم ، ومواجهتهم به بمجرد أن يعرضوا على الحساب . . إنه عذاب من رجز أليم . .

وفى الإشارة إليهم بقوله تعالى : «أولئك لهم عذاب من رجز أليم » فضحٌ لهم وكشف عن موقفهم الذليل فى مقام الخزى والهوان . .

وقوله تعالى . « والذين سعوا فى آياتنا معاجزين » إشارة إلى أنهم كانوا يخوضون فى آيات الله خوضاً ، بغير حساب،استخفافاً بها ، وسخرية منها..وهذا بعض السر فى تعدية الفعل « سَعَى » بحرف الجر «فى» الذى يفيد الظرفية .

وقوله تعالى : « معاجزين » حال لبيان الغاية من هذا السعى الآثم فى آيات الله ، وأنه لم يكن سعياً للإفادة منها ، والاهتداء بهديها ، وإنما هو سعى لحجبها عن الناس ، ولتعجيزها ، وإعجاز الناس عن الوصول إليها . .

قوله تعالى :

* « ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحقّ ويهدى إلى صراط العزيز الحميد » .

المفسرون يكادون يجمعون على أن هذه الآية مدنية ، من بين آيات السورة المكية كلها . . ولا نجد لهم مستنداً لهذا القول إلا ما تشير إليه الآية من الحديث عن الذين أوتوا العلم . . وإذا كان الذين أوتوا العلم هنا هم أهل الكتاب ـ وخاصة علماء اليهود ـ وإذا كانت السورة مكية ، والقرآن المكى لم يخاطب أهل الكتاب بعد ، فيكون من مقتضى هذا ، أن الآية من القرآن المدنى الذى نزل فى مواجهة أهل الكتاب بعد الهجرة ! ! . . هكذا كان تقدير القائلين بأن هذه الآية مدنية . .

ولا معوّل ـ عندنا ـ على هذا الاستنتاج الذى لا يسنده خبر صحيح . وعلى هذا ، فالآية مكية مثل آيات السورة كلها .

وأما الإشارة إلى الذين أوتوا العلم ، وليكن المراد بهم أهل الكتاب ، فإن هذا لا يمنع من أن يتحدث القرآن عن أهل الكتاب ، وأن يستدعيهم للشهادة على ما يعلمون من آيات الله ، وأنها الصدق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وذلك قبل أن تلتقى بهم الدعوة ، وتلقاهم لقاء مباشراً . .

وسواء أشهد أهل الكتاب أم لم يشهدوا ، وسواء أكانت شهادتهم حقاً أو باطلا ، فإن هذه الإشارة إليهم ، هى مطالبة لهم بأن يقولوا ما عندهم من علم عن هذا الرسول ، وعن الكتاب الذى بين يديه ، وأن ينطقوا بألسنتهم ما كتموه فى صدورهم . . . فإن لم يفعلوا فقد أثموا ، وأدينوا ، لأنهم خالفوا ما أمرهم الله به ، ونقضوا الميثاق الذى أخذه عليهم ، كما يقول سبحانه «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه (١٨٧ : آل عمران) ثم إن فى هذا إرهاصاً بما سيكون لهذه الدعوة من شأن مع أهل الكتاب ، وأنهم سيُدْعون إليها ، ويطالبون بالايمان بها ، وذلك حين يجىء دورهم . .

وقوله تعالى : « ويرى الذين أوتوا العلم » . . والمراد بالرؤية هنا ، العلم . .

—وقوله تعالى : (الذى أنزل إليك من ربك هو الحقّ) «الذى» مفعول أول الفعل يرى، بمعنى يعلم ، ومفعوله الثانى هو قوله تعالى : (الحق) . . والضمير (هو) (ضمير فصل يشير إلى القرآن الكريم . و يلفت إليه ، وينوه به . . و فى تعريف « الحق » ما يفيد القصر ، وذلكَ بتعريف ركنى الجملة إذ أن أصل الكلام هو : « الذى أنزل إليك من ربك هو الحقّ » . . أى الذى لا حقّ وراءه . . فهو وحده الحق ، وما سواه خارج عليه ، فهو الباطل . .

وقوله تعالى : « ويهدى إلى صراط العزيز الحميد » . . معطوف على المفعول الثانى « الحقّ » . . فهو جملة فى محل نصب . . أى ويعلم الذين أوتوا العلم أن الذى أنزل إليك من ربك يهدى إلى صراط العزيز الحميد . .

قوله تعالى :

* « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجلٍ ينبئكم إذا مُزِّقتم كل ممزّقٍ إنكم لفى خلق جديد »

الآية معطوفة على قوله تعالى: « ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحقّ » . . أى أن الذين أوتوا العلم رأوا ، ما أنزل إلى النبيّ من آيات ربه ، فعلموا أنها الحقّ ، وقالوا — بلسان الحال — آمنا به ، وبما حدّث به عن البعث والحساب والجزاء . . وكان قول الذين كفروا هو الاستهزاء والسخرية برسول الله ، والتكذيب لآيات الله . . فقالوا ساخرين مستهزئين منكرين : « هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كلّ ممزّق إنكم لفى خَلق جديد ؟ » . . إنهم يتنادَوْن فيما بينهم ، ويدعو بعضهم بعضاً إلى هذا العجب الذى يحدّثهم به النبيّ صلى الله عليه وسلم ، من أمر البعث والحياة الآخرة ، وما فيها من جنة ونار . .

قوله تعالى :

* « أفترى على الله كذباً أم به جنّة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد »

هذا هو مجمَل ما يجيب به بعضهم بعضاً، على هذه التساؤلات التى يتساءلونها فى أمر هذا الخبر العجيب الذى يحدثهم به النبىّ عن البعث . . إنهم ينتهون إلى أن يضعوا النبىّ بين أمرين ، لا ثالث لهما : إما أن يكون رجلاً افترى على الله الكذب فيما يحدثهم به ، ويقول عنه إنه من عند الله . . فهذا الحديث — عندهم — لا يكون من الله ، لأن الله لا يُعقل منه أن يقول مثل هذا القول غير المعقول . . وإما أن يكون هذا الرجل مجنوناً ، يُلقى الكلام كما يصوّره له جنونه . . وإذن فعلى كلا الأمرين ، لا يُسمع له ، ولا يلتفت إليه . .

وفى قولهم على « رجل » إمعان منهم فى الاستصغار لشأن النبى، وأنه أقلّ من أن يُذكر باسمه أو صفته . . ولهذا ردّ الله سبحانه عليهم بقوله : « بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد » . . فأضرب الله على كلامهم وأبطله ، ثم ألقى بهم فى العذاب ، وألبسهم لباس العمى والضلال . .

وقدّم العذاب على الضلال ، مع أن العذاب الذى سينالهم هو من ثمرة ضلالهم — قدم هذا ، استعجالاً لما يسوءهم ، واستحضاراً للبلاء الذى ظنوا أنهم فى مأمن منه . .

قوله تعالى :

* « أفلم يَرَوْا إلى ما بين أيديهم وما خَلْفَهم من السماء والأرض . . إن نشأ نَخْسِفْ بهم الأرضَ أو نسقط عليهم كسفاً من السماء . . إن فى ذلك لآيةً لكل عبدٍ منيب »

هو تهديد لهؤلاء المشركين ، الذين كانوا يسخرون من رسول الله . ويكذبون بآيات الله ، ولا يرجون لقاء الله . . فهؤلاء وقد توعدهم الله بالعذاب الأليم فى الآخرة، إن كانوا قد شكوا فى هذا الوعيد ،أو استبعدوا يومه ، فلينظروا فيما حولهم ، وفيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض . . من يمسك السماء أن تسقط عليهم ؟ ومن يحفظ الأرض أن تخسف بهم ؟ أليس هو الله سبحانه وتعالى ؟ ذلك مالا سبيل إلى إنكاره . . وإذا كان ذلك كذلك وقد عصوْا الله ، وحادوا رسوله ــ أفلا يمكن أن يعاجلهم الله بالعقاب فى الدنيا ؟ أهناك من يعصمهم من بأس الله إذا جاءهم ؟ أهناك من يردّ مشيئة الله لو شاء سبحانه أن يخسف بهم الأرض ، أو يسقط عليهم حجارة من السماء ؟

وفى قوله تعالى « إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب » إشارة إلى أن هذا الذى تحدث به الآية عن قدرة الله وعن بأسه الذى لا يرد ، لا يلتفت إليه ولا ينتفع به إلا من كان ذا عقل متفتح ، وبصيرة نافذة ، وقلب سليم ، إذا رأى الحق عرفه ، وإذا عرفه آمن به ، وعمل على هداه ، فإن كان كافراً آمن بالله ، وإن كان عاصياً تاب إلى الله ورجع إليه من قريب ، أما من أنام عقله ، وأغلق قلبه ، فإنه يظل مجمداً على حال واحدة، لا يتحول عنها ، ولا يرجع عن الطريق الذى ركبه ، وإن كان فيه مهلكه .

الآيات : (١٠ — ١٤)

* « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن

يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولقد آتينا داود منّا فضلا ياجبال أوّبى معه والطير وألنّاله الحديد أن اعمل سابغات وقدِّر فى السرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير ».

أوبى معه : أى سبحى معه ورددى ما يقول من آيات الشكر والحمد لله . .

السابغات : الدروع الضافية ، الكاسية . . ونعمة سابغة : أى كثيرة عامة شاملة ، تغنى صاحبها ، وتستر حاجته ، وتسد خَلّته . .

وقدر فى السرد: أى اعمل بحساب وتقدير فى نسج الدروع من الحديد ، ووصل حلقات بعضها ببعض . ومنه قوله تعالى : « وقدّر فيها أقواتها » . . أى أوجدها فى دقة وإحكام . .

ومناسبة الآية لما قبلها ، أن الآية السابقة عليها ختمت بقوله تعالى . « إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب » فجاءت هذه الآية لتكشف عن صورة كريمة للإنسان الذى يحقق معنى الإنابة ، على التمام والكمال ، وهو داود عليه السلام .

وإذا كان داود وسليمان قد خلع الله سبحانه وتعالى عليهما هذه الخلع العظيمة

من نعمه ، فإن هذه النعم لا يقام بحقها ، ولا يؤدّى بعض ما لله على عباده منها ، إلا إذا كانت النعم ابتلاء من الله .. كالنقم سواء بسواء ، فمن لم يصبر على مراقبة الله فيما حوله من نعم ، ضل وانحرف ، وفى قارون مثل بيّن فى هذا . . ولهذا جاء قول سليمان ، فيما حكاه الله عنه ، بعد أن طلب عرش ملكة سبأ فوجده بين يديه ، جاء قوله . « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر » كاشفاً عن تلك الحقيقة من أمر النعم ، وأنها قد تدعو من لا يحرص على مراقبة الله فيها. إلى الكفر والضلال . . وقد كان داود عليه السلام فى حراسة دائمة لنفسه . وفى مراجعة لكل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال ، وأنه كلما وجد من نفسه مالا يرضاه فى صلته بربه ، بادر بإصلاح ما كان منه، وصالح ربّه بالتوبة والاستغفار.. وفى هذا يقول سبحانه وتعالى عنه : « وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكما وأناب » .

— وقوله تعالى : « ولقد آتينا داود منّا فضلا » بيان لما أنعم الله به على عبده داود من فواضل إحسانه وكرمه . . وفى تقديم متعلق الفعل وهو الجار والمجرور « منّا » على المفعول به « فضلا » تعظيم للمنعِم . وإشارة إلى علو المقام الذى جاء منه الإحسان ، فيقطع العقل بأنه إحسان عظيم قبل أن يكشف عن الإحسان .

— وقوله تعالى : «يا جبال أوبى معه» .. هو مقول لقول محذوف.. والتقدير فشكر لنا هذا الفضل ، وسبح بحمدنا على هذا الإحسان ، فقبلنا منه شكره وحمده ، وقلنا « يا جبال أوبى معه » أى سبحى ، وأعينيه على حمدنا وشكرنا ، إذ كانت نعمنا عليه كثيرة ، لا يستطيع أحد شكرها ، مهما اجتهد فى الشكر ، وبالغ فى الحمد . فمن فضل الله على عباده أن يحسن إليهم ، ومن تمام هذا الإحسان أن يعينهم على شكره ، ومن مضاعفة العون أن يسخر غيرهم ليكونوا ألسنة من ألسنة الشكر لله معهم على ما أنعم الله عليهم .

فالجبال هنا مأمورة من الله سبحانه أن تسبّح مع داود ، وأن تقوم إلى جانبه شاكرة لله ، وكأنها من صنعة داود ، وغرس يديه .. وهذا إحسان من الله على عبده داود ، فوق إحسان ، وفضل فوق فضل . . وذلك ما يشير إليه قوله تعالى : « ولقد آتينا داود منّا فضلا » أى زيادة فى الإحسان ، ومزيداً من النعم ، يفضُل بهما كثيراً ممن أنعمنا عليهم من عبادنا . .

والتأويب : الترديد والترجيع ، فهو من الأوب ، والرجوع . . وتأويب الجبال مع داود ، هو ترديد تسبيحه ، فيكون ذلك أشبه بالصدى للصوت ، حيث ، يرجع الصوت فى هذا الصدى إلى مصدره الذى جاء منه .

وقوله تعالى : « والطيرَ » .. الواو هنا واو المعية ، والطير مفعول معه . . والتقدير : وقلنا ياجبال أوّبى معه ، مع الطير التى تسبح معه .

وعلى هذا يكون الأمر من الله سبحانه وتعالى ، متجها إلى الجبال ، وإلى الطير ، لتشارك داود التسبيحَ لله ، ولتعينه على حمد الله وشكره . .

واختيار الجبال ، والطير ، من بين الكائنات كلها ، إنما هو — والله أعلم — لأن الجبال أبرز وجوه الأرض ، فهى أشبه بالسلطان القائم عليها ، والطيور هى ملوك السماء ، وأبرز ما يحلّق فى أجوائها من ذوات الأجنحة ، كالذباب ، والبعوض ، وغيره ..

وقوله تعالى : « وألنّا له الحديد » أى أخضعناه لسلطانه ، وجعلنا له القدرة على التصرف فيه ، وتشكيله على الوجه الذى يريد . .

والذى يُجمع عليه المفسرون ، أن الله قد ألان الحديد ليد داود ، وغيّر طبيعته ، فجعله فى يده مثلَ العجين ، يشكّله كيف يشاء ، كما يشكل المرء صورة من الطين أو العجين ..

والرأى عندنا ـ والله أعلم ـ أن إلانةَ الحديد لداود ، إنما كانت جارية على سنن الحياة ، وأن الله سبحانه قد علّمه الأسلوب الذى يلين به الحديد ، وهو عرضه على النار ، والنفخ فى النار حتى يحمّر ، ويقبل الطرق .. وذلك مالم يكن معروفاً للناس فى ذلك الزمن .. ولهذا كان داود أولَ من صنع من الحديد دروعاً ، كما يقول سبحانه وتعالى : « وعلّمناه صنعةَ لَبُوس لكم لتحصنكم من بأسكم » (٨٠ : الأنبياء) . . وبهذا يكون داود عليه السلام، أولَ من طرق الحديد ، متوسلا إلى ذلك بما علمه الله ، من عرض الحديد على النار ، حتى يلين ، ويقبل الطرق . .

وقوله تعالى : « أن اعمل سابغاتٍ » أى وأوحينا إليه أن عمل دروعاً سابغات . .

وقوله تعالى : « وقدّر فى السرد » أى أحكمْ السرد ، واضبطه .. وهذا توجيه من الله سبحانه وتعالى بإتقان العمل ، وإحسانه ، وضبطه على أحسن وجه له . .

وقوله تعالى : «واعملوا صالحاً ».. هو معطوف على قوله تعالى : « وقدّرْ فى السرد » أى أحسِنْ الصنعة وأحكمها . . وأحسنوا أيها الناس جميعاً كلّ عمل تعملونه ، وأخرجوه على الوجه المرْضِىّ .. فإن إحسان العمل مما يُحسب فى الصالحات للإنسان .. فليس الإحسان فى العمل مطلوباً من الأنبياء وحدهم ، وإنما هو مطلوب من كل إنسان . . « وأحْسنوا . . إن الله يحبّ المحسنين »

وقوله تعالى : « إنى بما تعملون بصير » ـ إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى مطلع على عمل كل عامل ، وأنه سبحانه بصير بما يعمل العاملون ، يكشف ما فى العمل من عيب أو عِوج ..

ويجازى المحسن على إحسانه ، والمسيء بإساءته .. « ليجزىَ الذين أساءوا بما عملوا ويجزىَ الذين أحسنوا بالحسنى » .

قوله تعالى :

* « ولسليمان الريحَ غدوُّها شهر ورواحها شهر وأسلْنا له عين القِطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يَزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير » ..

الآية معطوفة على قوله تعالى : « ولقد آتينا داود منّا فضلا » أى : « ولقد آتينا داود منا فضلا ، وسخرنا لسليمان الريح .. !

وقوله تعالى : « غدوّها شهر ورواحها شهر » .

الغدوّ : أول النهار ، وفيه تغدو الكائنات إلى حيث تطلب رزقها وغذاءها ..

والرواح : آخر النهار ، حيث ترجع الكائنات الغادية ، وتروح إلى مراحها الذى ترتاح فيه ، بعد عمل يومها ..

ومعنى غدوها شهر ورواحها شهر ، أى أن مسيرة الريح المسخّرة لسليمان ، فى غدوة ، تُقدّر بمسيرة شهر ، سيراً على القدم ، كما أن مراحها ، ورجوعها من غدوتها ، يعدل مسيرة شهر .. كذلك ..

أما ما يذهب إليه أكثر المفسرين من أن الريح كانت تنطلق شهراً غاديةً ، وشهراً رائحة ، فى حدود مملكة سليمان ـ فهذا بعيد ، لأن رقعة مملكة سليمان لم تكن تتجاوز حدود فلسطين ، وهذه الرقعة هى التى يمكن أن تقطعها الريح فى غدوة أو روحة من نهار .. وأقرب شاهد لهذا ما جاء فى القرآن الكريم من أن سليمان لم يكن يعرف مملكة سبأ حتى أخبره

الهدهد بخبرها .. فلو كان مُلك سليمان مما يقسم لجريان الريح شهراً فيه ، لكان ذلك مُلكا يسع معظم العالم كله ، ولكانت سبأ داخلة فى سلطان هذا الملك ، من باب أولى ..

وقوله تعالى : « وأسلنا له عين القطر » أى النحاس . . والنحاس أشد من الحديد إباء على النار .. فهو يحتاج فى صهره إلى قوة حرارية أكثر مما يحتاج إليه الحديد . .

وإذا كان داود قد عرف كيف يُليّن الحديد ، فإن سنة التطور تقضى بأن يتعرف ابنه سليمان على القوة الحرارية التى يتمكن بها من إلانة النحاس وصهره . . !

والتعبير عن الحديد بالإلانة فى قوله تعالى : « وألنّا له الحديد » ، وعن النحاس بالسيولة ـ فى قوله تعالى : « وأسلنا له عين القطر » ـ إشارة إلى اختلاف طبيعتى كلٍّ من الحديد والنحاس ، وأن الحد يمكن تشكيله بالطرق إذا سُخن ولان . . أما النحاس ، فلا يُنتفع به حتى ينصهر ، ويتحول إلى مادة أقرب ما تكون إلى السوائل .. وهذا ما نجده فى قوله تعالى على لسان ذى القرنين . « آتونى زُبَرَ الحديد حتى إذا ساوى بين الصَّدَفَين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطراً » .. فالحديد هنا قد عُرض على النار حتى احمر وصار أشبه بالجمر .. ثم جاء بالقطر ـ وهو النحاس الذائب ـ فأفرغه على هذا الحديد ، وصبّه فوقه ، كما يصب الماء على النار ! !

وعَين القطر ، هو الخالص منه . فهو نحاس خالص ، لم يختلط بشىء ، مما يسمى « الشَّبَه » أى شبه النحاس . .

وقوله تعالى : « ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه » أى وسخرنا له من الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ويستجيب لأمره من غير مراجعة .

والجنّ عالم غير مرئى ، يعيش معنا على هذه الأرض ، كما تعيش كثير من المخلوقات ، غير المرئية ، كالديدان فى باطن الأرض ، وكأنواع كثيرة من الأسماك فى أعماق المحيطات . . وكوننا لا نرى هذه الكائنات ، لا يدعونا الأمر إلى إنكارها ، أو الشك فى وجودها . .

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن الجنّ ، وأنزل سورة باسمهم ، وقصّ علينا شأنا من شئونهم ، وأعلمنا أن منهم المؤمنين ، وأن منهم الفاسقين . . فيلزمنا التصديقُ بهم . . كما تحدث القرآن عنهم . .

وقوله تعالى : « ومن يَزِغ منهم عن أمرنا نذقْه من عذاب السعير » إشارة إلى أن سلطان الله سبحانه وتعالى قائم على هذه الكائنات ، وأنه سبحانه قد سخّرها لتخدم عبداً من عباده ، هو سليمان ـ عليه السلام ـ فهى واقعة تحت هذا الحكم ، لا تخرج عنه . ومن خرج عنه منها ، عذبه الله عذاباً أليماً . .

وليس كل الجن مُسَخّر لسليمان ، وإنما بعضٌ منهم ، كما يفهم من قوله تعالى : « ومِن الجن » أى ومن بعض الجن . .

قوله تعالى :

* « يعملون له ما يشاء من محاريبَ وتماثيلَ وجفانٍ كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادىَ الشكور » . .

أى أن هذه الجماعة من الجن ، التى سخرها الله لسليمان ، تعمل له مايشاء : «من محاريب » أى بيوت عبادة ، فالمحراب هو مكان العبادة ، كما قال تعالى : «فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب » .. « وتماثيل » أى صور كائنات وأشياء مجسدة ، يزين بها ما يبنى من دور وقصور ، وبيوت عبادة ، « وجفان كالجوابِ» الجفان جمع جفنة ،وهى القصعة الكبيرة يوضع فيها الطعام للآكلين .

والجوابِ : جمع جابية وهى حوض كبير يجتمع فيه الماء ، ومنه جبيت الخراج ، أى جمعته ، « وقدور رأسيات » : القدور جمع قدر ، وهوما يطبخ فيه الطعام ، وينضج على النار « وراسيات » أى ثابتات كالجبال ، لاتنتقل لضخامتها .

وفى وصف الجفان بهذه الضخامة والاتساع ، ووصف القدور بهذه الأحجام العظيمة ـ دليل على سعة ملك سليمان ، وما بسط الله له من رزق ، حتى ليُطعم على مائدته هذه الأعداد الكثيرة من الناس ، التى أعدت لها تلك الأوانى والأدوات ، لتهيئة الطعام لها . .

وقوله تعالى : « اعملوا آل داود شكراً » . . أى اعملوا عملاً ، تقدمونه شكراً لله ، بما أسبغ عليكم من نعم ، وما أضفى عليكم من إحسان . .

فالشكر المطلوب هنا من آل داود ، هو شكرٌ بالعمل ، بعد شكرهم باللسان ، كما جاء ذلك فى قوله تعالى : « يا جبال أوّبى معه » . . وهذا ما يشير إلى أن هذه الجفان التى كالجواب ، وتلك القدور الراسيات كالجبال ، إنما كانت لإطعام الفقراء والمساكين ، وأن قوله تعالى : « اعملوا آل داود شكراً » هو حثٌّ لهم على الاستزادة من هذا الإحسان ، الذى قَبِله الله منهم ، ورضيه لهم . .

وقوله تعالى : « وقليل من عبادى الشكور » هو تحريض لآل داود على أن يستزيدوا من شكر الله بهذا الذى يعملونه ، وأنه إذا كان فى الناس كثير من الشاكرين لله،فإن قليلا منهم من يستحق وصف الشكور .. فتلك منزلة عالية فى مقام الإحسان ، وآل داود أولى بهم أن يبلغوها ، ويُصبحوا من أهلها .

وهنا ملحظ لابد منه ، وهو أن الله سبحانه وتعالى قد كان من نعمه على سليمان أن سخر له الجن لتعمل له فيما تعمل ـ « تماثيل » منحوتة من صخر ، أو منجورة من خشب ، أو مصبوبة من حديد ونحاس . . وهذا يعنى أن صناعة

التماثيل ليست مما يقع فى دائرة التحريم، أو الكراهية، وإلا لكان نبىّ الله سليمان أبعدَ الناس عن ملابسة هذه الصناعة، والانتفاع بها . .

بقى بعد هذا أن نسأل :

لماذا قامت هذه الجفوة بين المسلمين وبين ممارسة فنّ النحت، والتصوير، والرسم، وغيرها من الفنون الجميلة ؟

ولا نجد لهذا الجفاء مستنداً من كتاب الله، ولا من السنة الصحيحة .. بل إن عكس هذا هو الصحيح . . إذ كانت دعوةُ الإسلام دعوةً تلتقى بالإنسان عن طريق عقله وقلبه، وتخاطبه فى مواجهة مدركاته، ومشاعره ووجداناته . . ودعوةٌ على هذا الأساس لا يمكن أن تَحجِر على ملكات الإنسان، أو أن تكبت مشاعره، وتحولَ بينه وبين أى فن جميل يثير المدارك، ويغذى المشاعر والعواطف . .

والذى يمكن أن يكون من الإسلام فى أول أمره، أنه لم يفتح صدره لفنّ النحت، ولم يفتح للناس طريقاً إليه، خاصة وأن المجتمع الإسلامى يومئذ، كان خارجاً من جاهلية اتخذت من النحت غاية لا تتجاوز صناعةَ الأصنام وعبادتها.. فكان من الحكمة أن تَخفّ فى الإسلام موازين النحت، الذى لم يلد على يد المجتمع الجاهلى إلا هذا الإثم الذى عكفوا على عبادته . . وهذا الموقف يشبه موقف الإسلام من الشِّعر، الذى كان يحمل قدْراً كبيراً من الضلال والإفك . .

وقد كان من الطبيعى أن يُرَدّ إلى النحت والتصوير والرسم، وغيرها، اعتبارُها، بعد أن ماتت فى النفوس عبادة الأصنام، واختفت شخوصها إلى الأبد . .

ولكن الذى حدث، هو الإمعان فى الجفوة لهذه الفنون، لا لسبب إلا أنها

لم تكن من مادة الحياة فى عصر النبوة أو فى عصر الخلفاء الراشدين . . وقد فات الذين ينظرون إلى هذه الفنون من خلال عصر النبوة ، أن هذا العصر كان يعالج النفوس ، والقلوب والعقول ، من آفات كثيرة عَلِقت بها ، وأنه لم يعرض للجوانب السليمة المعافاة من الأدواء فى كيان الإنسان ، بل تركها تجرى على طبيعتها ، وبقدر ما تحمل من طاقات ومَلَكات !

قوله تعالى :

* « فلما قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته إلا دابّة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ».

تكشف هذه الآية عن حقيقة الجن ، وتصحح تلك الصور المشوهة التى وقعت فى أوهام الناس لهم ، بنسبة الخوارق إليهم ، وأنهم يقدرون على كل شىء قدرة مطلقة ، وأنهم يعلمون الغيب ، ولهذا يلجأ كثير من الناس إلى محاولة الاتصال بالجن ، كما يفعل العرافون والسحرة وغيرهم ، ففى قوله تعالى : « فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته » — إشارة إلى أن سليمان حين حان أجله ، وقَضَى الله عليه الموت ، أى أوجب عليه الموت حين جاء وقته ، وكان سليمان حين مات ، قائما بين الجنّ وهم بين يديه يعملون له — لم يعلموا بموته ، وظلوا يعملون فيما أمرهم به . .

ولم يدلّهم على أنه قد مات إلا دابة الأرض ، التى كانت تأكل منسأته ، أى عصاه التى كان يتكىء عليها . . فلما عبثت دابة الأرض بالعصا ، زايلت موضعها ، وسقطت على الأرض . وخر سليمان على الأرض كذلك . . وهنا علم الجن أن سليمان قد مات .. فأخلوا مكانهم ، ومضوا إلى حيث يشاءون ! ! ولو كانوا يعلمون الغيب لعلموا أن سليمان قد مات ، ولو كان بعيدا عنهم ، فكيف وهو تحت سمعهم وبصرهم ؟

إن الجن كائنات محدودة القدرة ، واقعة فى قيد العجز عن كثير من الأمور ، شأنها فى هذا شأنُ الإنسان . . الذى يَقْدِر على القليل ، ويعجز عن الكثير .

وقد كثرت الأقوال فى دابة الأرض ، وفى المدة التى قضتها حتى أكلت العصا ، وأتت عليها . . والرأى الذى عليه المفسرون أنها الأرَضَة ، وهى دودة تتسلط على الخشب ، فتنخر فيه وتفسده ، وتسمّى « السوس » . . وأنها ظلت تفعل هذا مدة طويلة ، بلغ بها بعضهم سنة !

والذى حمل المفسرين على القول بأن الدابة هى الأرض — هو — فى ظننا — إضافةُ الدابة إلى الأرض . أى أنها صغيرة ضئيلة ، ملتصقة بالأرض . . كبعض الحشرات . .

والرأى عندنا ، أن الدابة ، كل ما دبّ على الأرض . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » فكل ما دبّ على الأرض ، من إنسان وحيوان ، فهو دابة ، وكونها فى الأرض ، أو على الأرض ، لا يغير من الأمر شيئاً ، وأنه إذا كان لإضافتها إلى الأرض هنا شأن خاص ، فهو — والله أعلم — المبالغة فى الإشارة إلى جهل الجنّ بعلم ما فى الغيب ، وأن دابة من دوابّ الله فى الأرض، أعلم منهم ، حيث دلتهم ، وكشفت لهم عما عجزوا وهم عن كشفه ، وهى مما علىَ الأرض، فكيف بما فى السماء من عوالم المخلوقات ؟

وليس ببعيد أن تكون الدابة التى كانت تأكل من عصا سليمان ، شيئاً أكبر من الأرضة ، وليس ببعيد ألا تكون الدابة واحدة ، بل أعداداً كثيرة من نوع هذه الدابة . . فإن اللفظ يحتمل هذا . .

وعلى هذا ، فالذى يمكن أن تُفهم عليه دابة الأرض ، هو أن تكون هذه الدابة حيواناً كبيراً مما يدب على الأرض ، ويمكن أن يتناول العصا بفمه ، ويحاول الأكل منها ، كبعض الحيوانات آكلة العشب ، مع احتمال أن تكون

عصا سليمان من بعض أغصان الزيتون الخضراء ، التى لم تجفّ بعد . . فليس ببعيد ــ والأمر هكذا ــ أن تكون هناك شاة أو نحوها قد تمسّحت به ، ومدت فمها إلى العصا ، تريد الأكل منها ، فوقعت العصا وخرّ سليمان إذ كان ميتاً . .

أما أن يظل سليمان هذا الزمن الطويل الذى يتجاوز الأيام إلى الأسابيع والشهور ، وهو نائم ، دون أن يفتقده أحد من رعيته ، وأعوانه ، ووزرائه ، وقواده ، فذلك مالا يقبله العقل ، وإن قيل أن جُثته لم تتغير ولم تتحلّل خلال هذه المدة ! !

إنه من غير المعقول الذى يرتفع إلى درجة المستحيل ، أن يغيب سليمان عن تدبير مملكته أياماً ، ثم لا يلتفت إليه أحد !! إن أى إنسان ذى شأن ، لا يمكن أن تغفُل عنه العيون يوما أو بعض يوم ، فكيف بصاحب هذا السلطان العظيم؟

ويمكن كذلك أن تكون الأرضة قد كانت متسلطة على عصا سليمان ، وهو لا يعلم ، وأنه كان يحمل تلك العصا وقد عاث السوس فيها ، حتى إذا كان متكئا عليها فى مجلس من مجالسه ، لم تتحمل طول اتكائه عليها ، فانكسرت به حين مات وثقل جسمه ، كما هو الشأن فى كل ميت !

والسؤال هنا : هل كان الجن لا يعلمون أنهم لا يعلمون الغيب حتى وقعت هذه الواقعة ، وانكشف لهم منها أنهم معزولون عن علم الغيب ؟

والجواب ــ والله أعلم ــ أنهم كانوا بعالمهم قدرة على الحركة والانطلاق فى آفاق فسيحة ، يظنون أنهم أقدر من الإنسان على النظر البعيد الذى يكشف ما سيأتى به الغد ، بالنسبة للإنسان الذى لا يرى مثل هذه الرؤية البعيدة . فمثلا إنسان على طريق سفر يمكن أن تراه الجنّ ، وتخبر عنه ، وعن حاله على هذا الطريق ، والحديث الذى يتحدث به ، والأمتعة التى معه ، وبعَدَ كم من الزمن سيصل إلى المكان الذى يتحدث فيه أهله عنه . . كل هذه الأمور وكثير

غيرها يمكن أن يعلمها الجن ، قبل أن يعلمها الإنسان الذى فى الطرف الآخر من هذه الوقائع.. وهو فى الواقع ليس من علم الغيب ، وإنما هو مشاهدة ، حيث كان عن واقع محسوس يراه الجن رأى العين . . . فهو حضور بالنسبة للجن ، ولكنه غيب بالنسبة للإنسان البعيد عن موقع الحدث . . حيث يرى الجن ــ ولا نرى نحن البشر ــ ما وراء الأبواب المغلقة ، أو الجدر القائمة ، ونحوها . . وهذا غيب بالنسبة لنا ، ولكنه حضور بالإضافة إلى الجن . .

أما الغيب بالنسبة للجن ، فهو الأحداث التى لم تولد بعد ، ولم تخرج إلى عالم الشهود ، كمقدّرات الله فى خلقه ، وما يلقوْن على طريق حياتهم من خير أو شر . . كالعمر ، والرزق والذرية ، وغير ذلك مما هو مقدر على الإنسان . . ومثلُ الإنسان فى هذا سائر المخلوقات، وما قدّره الله لكل مخلوق.. فهذه المقدرات التى هى فى حالة كُمون ، لم تتحرك بعد إلى الظهور ، لا يعلمها إلا علام الغيوب ، وإلا من اصطفى من رسله ، فأظهره على بعض ما انطوى فى صحف الغيب .

وموت سليمان بالنسبة للجن هو غيب ، إذ أن الروح التى كانت تلبس سليمان وتُضفى عليه الحياة ، هى سر من أسرار الله ، وغيب من غيوبه ، وأمر من أمره ، لا يعلمه إلا هو ، فلما زايلت مكانَها من سليمان ، لم يشعر الجن بها ، ولم يعلموا من أمرها شيئاً ، وحسبوا سليمان ــ وهو ميت ــ أنه فى غفوة ، أو فى سِنة من النوم . . فلما سقطت العصا التى كان يتكىء عليها ، وخرّ ميتاً دون حراك ، علم الجن أنه مات ، وتبين لهم من ذلك أنهم لا يعلمون الغيب ، ولو كانوا يعلمون الغيب لعلموا أمر الروح التى زايلت سليمان ، ولعلموا أنه مات ، ولما لبثوا فى قيد التسخير والعمل يوماً أو بعض يوم . . إنه عذاب مُهين لهم ، وإذلال لسلطانهم ، وقهر لجبروتهم .

***

الآيات : (١٥ — ٢١)

« لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) »

التفسير

بدأت السورة بحمد الله ، الذى له ما فى السموات والأرض ، ودعت الناس إلى حمده سبحانه ، وقصر هذا الحمد عليه وحده ، إذ كان ـ سبحانه ـ المتفرد بالخلق والإحسان . .

وقد كشفت الآية فى هذا المقام عن الناس ، فإذا هم فريقان ، حامد مؤمن بالله واليوم الآخر ، وجاحد يكفر بالله وبالبعث وبالحساب والجزاء . .

ثم عرضت الآيات بعد هذا ، صورة للحامدين الشاكرين المؤمنين بالله وباليوم الآخر ، مع ابتلائهم بالنعم العظيمة ، والسلطان العريض . . وذلك فيما كان من داود وابنه سليمان ، عليهما السلام . . فى ذلك آية لأولى الألباب . .

وفى هذه الآيات التى نحن بين يديها ـ عرض للجاحدين ، الكافرين بالله واليوم الآخر ، مع ابتلائهم بالنعم السابغة والخير الوفير . . وفى هذا آية أخرى . . لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . .

وقوله تعالى :

* « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية » ـ إشارة إلى هذه الجماعة التى كانت تسكن تلك البقعة ، الخصيبة المِطاءة للخير . . وهى سبأ من أرض اليمن . .

والمراد بسبأ هنا هم أهلها . . والمراد بمسكنهم ، الحياة التى كانوا فيها . . و « آية » اسم كان ، ولسبأ خبرها . .

وقوله تعالى .

«جنتان عن يمين وشِمال » بدل من « آية » . . والتقدير : أنه كان لأهل سبأ آية ، هى جنتان عن يمين وشمال . . وقد كان لهم فى هذه الآية منطلق إلى الايمان بالله ، والقيام بحمده وشكره . . ولكنهم لم ينتفعوا بهذه الآية ، بل زادتهم كفراً وإلحاداً ، ومحادّة لله . .

والمراد باليمين والشمال : كثرة الخير من حولهم ، حيث يملئون أيديهم منه، وحيث يتناولونه من قريب ، إن أرادوه بيمينهم وجدوه ، وإن أرادوه بشمالهم تناولوه ، دون أن يُجهدوا أنفسهم بالتحول من اليمين إلى الشمال ، أو من الشمال إلى اليمين . وهذا مثل قوله تعالى : « أو لم يروْا إلى ما خلق الله من شىء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون (٤٨ : النحل) ومثل قوله سبحانه : « عن اليمين وعن الشمال عِزِين » (٣٧ : المعارج) . . فالمراد بهذا كله الإحاطة من كل جانب . .

وقوله تعالى : « كلوا من رزق ربكم » أمر يراد به الإلفات إلى هذه النعم العظيمة التى أسبغها الله على القوم ، وليس المراد به الأمر بالأكل على إطلاقه .

وقوله تعالى: « بلدةٌ طيبة وربٌّ غفور » : . . المراد بالبلدة الطيبة كثرة خيرها، ووفرة عطائها . . فهم فيها فى نعم كثيرة، وخير موفور . . ومن تمام هذه النعم وذلك الخير، أن المتفضل بهذا كله هو « ربٌّ غفور » . . يتجاوز عن السيئات، ويقبل التائبين، ويعفو عنهم . . وبهذا تطيب النعمة، ويتّسع للإنسان مجال التمتع بها، على خلاف مالو كان ربّ هذه النعم، يُحاسب على الصغير والكبير، ويأخذ أصحابها بكل ما اقترفوا، فذلك مما يُقيم الإنسان على حذر متصل وخوف دائم، فلا يَهْنَؤُه ما بين يديه من نعم!

قوله تعالى:

* « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل الْعَرِمِ وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتَىْ أُكُلٍ خمط وأثل وشىء من سِدْرٍ قليلٍ »

أى أنهم أعرضوا عن أمر ربهم، بالأكل من هذا الرزق، والحياة مع هذه النعم، فى ظلٍّ من الإيمان بالله، والحمد له . . فتنكروا لهذه النعم، وجحدوا هذا الإحسان، ونَسَوْا ربهم، ولم يرجوا له وقاراً، ولم يعملوا له حساباً . . فكان أن أخذهم الله بما يأخذ به الظالمين، فأرسل عليهم سيلا عارماً جارفاً، أتى على جنتيهم، وأفسد كل صالحة فيها . . ثم أعقبهم جَدْباً وقحطا، فأمسك الماء عنهم، ونبت مكان هاتين الجنتين ما ينبت فى الأرض الجديب، من خسيس النبات والشجر، ومن ردىء الفاكهة والثمر . .

وفى مقابلة الجنتين الطيبتين، بهذه الصورة الكئيبة لِما تُنبت الأرض، وفى وصف هذه الصورة بالجنتين — ما يكشف عن مدى هذا التحول الذى أصاب القوم فى حياتهم، وعن الحسرة التى تملأ قلوبهم، حين ينظرون إلى جنتيهم الذاهبتين، ثم إلى هاتين الجنتين اللتين بين أيديهم . . فهذا هو ما يمكن أن يحصلوا عليه من جنات، إن كان يصحّ أن يكون ما فى أيديهم مما يطلق عليه

هذا الاسم . . ! ! إنه لا جَنّة لهم غير هذا النبات الخسيس ، الذى تعاف رَعْيَه الأنعام !

والمراد بالجنتين — هنا أو هناك — الامتداد والاتساع . .

والخَمط : الردىء من الثمر

والأثل : شجر لا ثمر له . .

والسّدر : شجر النّبق . .

قوله تعالى :

* « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » . .

« ذلك » إشارة إلى ما حلّ بالقوم من نكال وبلاء . . وهو مبتدأ ، محذوف خبره ، وتقديره : ذلك ما جزيناهم به . . وقوله تعالى : « جزيناهم بما كفروا » بدل من هذا المحذوف المشار إليه ، وعطف بيانٍ له . .

وقوله تعالى : « وهل نُجازى إلا الكفور » أى لم يكن جزاؤنا لهم إلا بسبب كفرهم بنعمتنا ، فما تحل نقمتنا ، إلا بمن يكفر بنا وبإحساننا . . « ذلك بأن الله لم يك مغيّرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (٥٣ : الأنفال)

والمجازاة غير الابتلاء . . فالمجازاة عقاب على ذنب اقترف ، والابتلاء امتحان واختبار . . فقد يبتلى الله المحسنين بالضر ، كما يبتلى المسيئين بالنفع . .

ولهذا جاء التعبير القرآنى هنا : « وهل نجازى إلا الكفور » أى لا نعاقب إلا من يستحق العقاب من أهل الكفر والضلال . . فلا اعتراض إذن لما يصاب به أهل الإحسان فى أموالهم أو أنفسهم ، فذلك ابتلاء من الله لهم ، وامتحان لإيمانهم ، يزدادون به درجة فى مقام الإحسان ، إذا هم صبروا على هذا الابتلاء . . وليس ذلك الابتلاء من باب المجازاة لهم على ذنب اقترفوه . .

قوله تعالى :

* « وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرًى ظاهرة وقدَّرنا فيها السير.. سيروا فيها ليالىَ وأياماً آمنين » . .

الحديث فى هذه الآية عن أهل سبأ أيضاً ، وعما كان الله سبحانه وتعالى قد ألبسهم إياه من نعم . . فهو معطوف على قوله تعالى : « كلوا من رزق ربكم واشكروا له » على تقدير قلنا لهم : كلوا من رزق ربكم واشكروا له . . أى قلنا لهم ذلك ، وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة . . .

والقرى التي بارك الله فيها ، هى قُرى أرض الشام ، التى كان يرحل إليها أهل سبأ ، ويتجرون معها ، وسميت قُرًى مباركة ، لأنها فى الأرض المباركة ، المقدسة ، كما يقول الله تعالى على لسان موسى : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة »

والقرى الظاهرة ، التى كانت بينهم وبين القرى المباركة ، هى ما كان يلقاهم على طريقهم من اليمن إلى الشام ، من منازل ، وقرًى ، حيث يجدون فيها الأمن والراحة . .

وقوله تعالى « وقدرنا فيها السير » أى جعلناها صالحة للسير فيها ، والتنقل بينها ، كما فى قوله تعالى : « وقدّره فى السرد » أى اضبطه ، وأحكم أمره . .

وقوله تعالى : « سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين » إشارة إلى هذه النعمة التى يجدها القوم على طريق تجارتهم إلى الشام ، حيث يسيرون فى هذه القرى وتلك المنازل ليالى وأياماً ، فى أمن وسلام ، لا يعترضهم فى طريقهم ما يخيفهم ، أو يفزعهم . .

وهذه نعمة من النعم العظيمة ، لا يدرك مداها إلا من عاش فى تلك المواطن

فى هذه الأيام ، حيث كان الانتقال من مكان إلى مكان ، محفوفاً بالمخاطر والأهوال ، منذراً بالوبال والهلاك .. ولهذا امتنّ الله على قريش بأن آمنهم فى أسفارهم فى رحلتى الشتاء والصيف ، فقال تعالى : « لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف *فليعبدوا رب هذا البيت* الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »

فماذا كان من القوم إزاء هذه النعمة أيضاً ؟

لقد كفروا بها ، وتنكروا لها ، كما كفروا وتنكروا للخصب والرخاء ، والخير الكثير الذى أخرجته أرضهم . فقال تعالى على لسانهم :

« فقالوا ربنا باعدْ بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزّق إن فى ذلك لآياتٍ لكل صبار شكور » .

لقد بطِر القوم معيشتهم ، فتنكبوا عن هذا الطريق الآمن المطمئن ، والتمسوا طرقاً أخرى إلى جهات بعيدة غير تلك الجهة التى ألفوها ، وتبادلوا المنافع مع أهلها .. واستبدّ بهم الغرور ، وأغراهم الطمع ، فركبوا الأهوال والخطر ، لا لحاجةٍ إلاّ أن يرضوا هذا الغرور الذى ركبهم ، إلا ليغذّوا مشاعر الاستعلاء التى استولت عليهم ـ فكان أن بدد الله شملهم ، وبعثرهم فى الأرض ، ومزقهم كل ممزق . فأصبحوا أحاديث على ألسنة الناس ، لِما وقع بهم من بلاء ، وما حل بديارهم من خراب ..

وليس الذى ذهبنا إليه فى تأويل قوله تعالى : « فقالوا ربنا باعدْ بين أسفارنا » من أنهم ركبوا الأهوال والمخاطر ـ ليس هذا بالذى يحظر على الناس أن تنزع بهم هممهم إلى أبعد مما هم فيه ، وإلى أن يتقلبوا فى كل وجه من وجوه الحياة .. فهذا شىء ، والذى كان من القوم شىء آخر .. إنهم خرجوا عماهم فيه بطراً

واستعلاء ، وكانوا أشبه بفرعون حين قال : « ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى » . . إنه يحارب بهذا البناء ربّ الأرباب ، وهذا هو الذى جعل بناءه وبالا ونكالاً عليه ، ولو التمس من هذا البناء أن يرصد الكواكب والنجوم ، مثلا أو أن يتخذه مسكنًا له يشهد منه عظمة الله ، ويرى منه فضلَ الله عليه ــ لكان ذلك عملا مبروراً مباركاً . . وهؤلاء القوم ، لو كان مقصدهم من الضرب فى وجه الأرض ، السعىَ فى طلب الرزق ، وإقامةَ حياة قائمة على العدل والإحسان ، لبارك الله عليهم سعيهم ، ولحمد مسيرتهم . . ولكنهم كانوا يركبون شيطانًا مريدًا ، يدفع بهم دفعاً إلى الكفر بالله ، وإلى السعى فى الأرض فساداً .

وليس بالذى يشفع لهم ، هذا القولُ الذى استفتحوا به ما طلبوا ، حين قالوا « ربنا » فهذا قولهم بألسنتهم ، ولو كان لهذا القول مكان فى قلوبهم لكانوا مؤمنين بالله حقاً ، ولما كان منهم هذا الفساد ، وهذا الضلال الذى هم فيه . ولقد قالها إبليس من قبلهم ، وهو فى موقف التحدّى لله ، والإصرار على الإثم العظيم ، فقال : « رب بما أغويتنى لأزينَنّ لهم فى الأرض ولأغوينّهم أجمعين » وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فيهم : « ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين » .

فلقد انقادوا لإبليس ، وأسلموا زمامهم له ، وصدّق عليهم ظنه الذى ظنه فى أبناء آدم ، حين قال : « رب بما أغويتنى لأزيّنَنّ لهم فى الأرض ولأغوينّهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين (٣٩ ــ ٤٠ : الحجر) . . فلقد استجاب هؤلاء المغوَوْن لإبليس ، وصدّقوا ظنه فيهم . . إلا فريقاً قليلا من المؤمنين منهم ، الذين ثبتوا على إيمانهم ، ولم يجد إبليس سبيلا يدخل على إيمانهم منه ، بالغواية والإضلال . .

وقوله تعالى

«وما كان له عليهم من سلطان إلاّ لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ» .

أى أنه لم يكن لإبليس سلطان قاهر على هؤلاء الذين دعاهم فاستجابوا له ، وقد كان أمرهم بأيديهم ، إن شاءوا عصَوْه ، وإن شاءوا اتبعوه . . وفى الفريق الذين عصوْه ، وثبتوا على إيمانهم ، شاهدٌ على هذا . . إن إبليس وما معه من مغريات ومغويات ، ليس إلا بعضَ ما يبتلى الله به عباده من نقم . . ثم إن للناس ــ مع هذا ــ شأنهم فيما ابتُلوا به . . وفى هذا الابتلاء تنكشف أحوال الناس ، ويَميز الله الخبيث من الطيب .. ثم إنه ــ بعد هذا كله ، وقبل هذا كله ــ لا يقع شىء إلا بإرادة الله سبحانه وتعالى ، وماقضى به فى خلقه « وربك على كل شىء حفيظ » فكل شىء بيده وتحت سلطانه . . لا يملك أحد معه من الأمر شيئا .

والمراد بعلم الله هنا ، هو علم ما وقع بعد أن يقع ، وهو سبحانه ، عالم به أزلا ، ولكن لا يحاسِب عليه إلا بعد أن يقع ، ويصبح من كسب العباد . .

واختصاص العلم هنا بالإيمان بالآخرة ، أو الشك فيها ، لأن الإيمان بالآخرة ، وبالبعث والحساب والجزاء ، هو مِلاك الإيمان بالله ، وبآيات الله ، وبرسل الله . . فليس مؤمنا بالله ، ولا بآيات الله ولا برسل الله ، إلا من كان مؤمنا باليوم الآخر . .

الآيات : (٢٢ — ٣٠)

* « قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ

عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) * قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) »

التفسير

فى هذه الآيات ، التفات إلى هؤلاء المشركين ، وكشفٌ لهم عما هم فيه من ضلال ، بعد أن تحدّثت إليهم الآيات السابقة عن مواقف الناس من الإيمان بالله .. فأرتهم فى داود وسليمان ، صورةً من صور الإيمان الوثيق ، الذى لم تفسده نِعم الله ، ولم تغير من مكانه فى قلوب أهله .. كما أرتهم فى أهل سبأ ، كفرَهم بالله ، ومحادّتهم له ، بما مكن الله لهم فى الأرض ، وبما وسّع لهم فى الرزق ..

وهؤلاء المشركون من أهل مكة ، هم أشبه الناس حالا بأهل سبأ .. لقد أقامهم الله فى مكان أمين ، وسط هذه الحياة المضطربة من حولهم ، كما يقول سبحانه وتعالى : « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمناً ويُتخطف الناس من حولهم » (٦٧ : العنكبوت) وكما يقول سبحانه : « وقالوا إن نتبع الهدى معك

نُتَخطفْ من أرضنا أو لم نمكّنْ لهم حرماً آمناً يُجْبَى إليه ثمراتُ كل شيء» (٥٧ : القصص) ..

إنهم إذ ينظرون إلى أهل سبأ ، وإلى ما حلّ بهم ، وإلى هذا الخراب الشامل الذى يطلّ عليهم من مساكنهم التى يمرون بها فى رحلة الشتاء — لَيجدون فى هذا الحديث إشارةً إليهم ، وتعريضاً بهم ، وتهديداً لهم ، أن يحلّ بهم ماحل بإخوانٍ لهم من قبل ..

ولهذا جاءت آيات الله ، تلقاهم ، وهم متلبسون بتلك المشاعر ، التى دخلت عليهم من هذا الحديث عن سبأ وأهلها ..

وفى قوله تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله . . لا يملكون مثقالَ ذرة فى السموات ولا فى والأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير » . .

فى هذا استدعاء للمشركين ـ وهم مشغولون بآلهتهم تلك عن الله ـ أن يستعينوا بمعبوداتهم هذه ، وأن يستنجدوا بها ، لتدفع عنهم بأس الله الذى يوشك أن يحلّ بهم ، كما حل بأهل سبأ ..

وها هم أولاء ، ينظرون إلى معبوداتهم نظراً مجدّداً ، إثرَ هذه الدعوة .. فماذا رأو منهما ؟ إنهم لم يجدوا إلا أشباحاً هامدة لا يجىء منها شىء أبداً .. من خير أو شر . « لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض » . هذا ما ينطق به الواقع ، وما يتحدث به إليهم لسان الحال عن آلهتهم . « وما لهم فيهما من شرك » . . أى أنه ليس لهذه الآلهة ملك خالص مما فى السموات والأرض ، ولو كان مثقال ذرة ، كما أنه ليس لهم — ولو على سبيل الشركة — ما يعدل مثقال ذرة أيضا ! وكما أنهم لا يملكون شيئاً مما

فى السموات والأرض ملكا خالصاً ، أو مشتركا ، فكذلك لا يُستعان بهم فى القيام على أى أمر ، مما يقضى به الله فى السموات والأرض . « وماله منهم من ظهير » .. والظهير : هو المعين الذى يسند ظهر من يستعين به .. فهم ليسوا شركاء لله ، ولا أعوانا له ، وإنما هم عبيد مسخرون لجلاله وقدرته . .

فهؤلاء الآلهة معزولون عزلا مطلقاً ، عن كل شىء فى هذا الوجود . . لا ملك لهم فيه ، ولو كان مثقال ذرة ، ولا تصريف لهم فيما لا يملكون ، على أى وجه من الوجوه . .

قوله تعالى :

* « ولا تنفع الشفاعة عنده إلّا لمن أذِن له .. حتى إذا فُزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحقّ وهو العلى الكبير » . .

وقد يكون الإنسان ولا يملك شيئاً ، ولا يتصرف فى شىء ، ثم يكون له مع هذا رجاء مقبول ، أو شفاعة مستجابة ، عند صاحب الملك . ولكن هؤلاء الآلهة لا يملكون شيئاً ، ولا يستعان بهم فى تصريف شىء ، ولا يقبل منهم شفاعة فى أحد .. فماذا يُرجى منهم ؟ وبأى متعلق يتعلّق المشركون به منهم ؟ إنه السفه ، والضلال ، والخسران المبين !! .

ومعنى نَفْع الشفاعة هنا ، قبولُها ، والإذن لصاحبها بها . .

وقوله تعالى : « حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحقّ وهو العلى الكبير » .

التفزيعُ عن القلوب ، إزالة الفزع عنها ، فهو تفزيع لهذا الفزع ، وإجلاؤه من مكانه . . والذين فزع عن قلوبهم الفزع هم — والله أعلم — أصحابُ الجنة ، حيث يدفع الله عنهم الفزع الأكبر الذى يغشى الناسَ يوم القيامة ، وهم

الذين أُذن لهم بالشفاعة من الله يوم القيامة ، وقد عاد الضمير على الاسم الموصول جمعاً ، بعد أن عاد عليه مفرداً ، وذلك لأن الإذن بالشفاعة يكون لكل من يؤذَن له على حدة . . ثم يتعدد أفراد المأذون لهم ، فيكونون جمعاً . . فهم أفراد فى أخذ الإذن ، وجمع فى العدد المأذون له . .

والمأذون لهم بالشفاعة ، هم الأنبياء — صلوات الله وسلامه عليهم — فقد أكرمهم الله بقبول الشفاعة فيمن ارتضى الله لهم الشفاعةَ فيه من أقوامهم ، كما يقول سبحانه : « عِبادٌ مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأَمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » (٢٦ — ٢٨ : الأنبياء) .

ومعنى الآية الكريمة : أن شفاعة المكرَمينَ من عباد الله فيمن ارتضى شفاعتهم له ، لا ينالها المشفوع لهم إلا بعد أن يتلقى هؤلاء الشفعاء الكرامة من ربهم ، ويخلع عليهم الأمن فى هذا اليوم ، ويدفع الفزع عن قلوبهم . . فهو يوم عظيم ، تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها . . وهذا هو السر — والله أعلم — فى الحرف « حتى » الذى يشير إلى غايةٍ بعده ، هى الغاية لابتداء قبلها . . أى أن أهل المحشر يظلون موقوفين ، حتى يخلص إليهم الرسل ، وهنا يسأل كل رسول قومه : « ماذا قال ربكم؟ » فيقولون جميعاً : من مؤمنين وكافرين : «قالوا الحقّ وهو العلى الكبير » . . ففى هذا اليوم ينكشف وجه الحق ، ويرى أهل الضلال أنهم كانوا على غير طريق الهدى ، وأن ما كانوا فيه هو الباطل ، وأن ما كان يدعوهم إليه رسلهم هو الحق . . .

هذا ، ويمكن أن يكون للآية الكريمة مفهوم آخر . . وهو أن الضمير فى قوله تعالى : « حتى إذا فزع عن قلوبهم » يعود على المشركين ، المخاطبين

فى الآية ، فى قوله تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه » .. أى أن المشركين حين سمعوا هذا القول ، وما وصفت به آلهتهم من أنها لا تملك مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وليس لهم فيهما شرك ، ولا تصريف ، كما أنهم لا يملكون لهم شفاعة ، كما كانوا يظنون ويقولون فيهم : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » — حين سمعوا هذا ، فزعوا له ، وهالهم الأمر ، وركبتهم حال من الاضطراب والخوف من أن يصيبهم شىء من آلهتهم وقد استمعوا إلى هذا الحديث فيهم ، حتى لقد عجزت ألسنتهم عن أن تنطق بشىء .. ثم ظلوا هكذا — لا ينطقون .. حتى إذا زايلتهم تلك الحالة، وفزع عنهم الفزع ، بوارد من واردات الحمية .. نطقوا ، وقالوا للنبىّ ، والمؤمنين ، ردّا على هذا القول الذى سمعوه ، وإنكاراً له ، وتجاهلاً لما سمعوه : « ماذا قال ربّكم ؟ » .. وكان جواب النبىّ والمؤمنين بلسان الحال ، أو المقال ، أوهما معاً : « قالوا الحقّ .. وهو العلىّ الكبير » .. فهذا هو قول ربّنا ، وهذا هو ربّنا الذى نعبده .

وهذا الفهم هو أقرب عندنا ، إلى القلب ، وأرضى للنفس .. والله أعلم ..

قوله تعالى :

• « قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هُدًى أو فى ضَلالٍ مبين » سؤال آخر للمشركين ، يوازنون فيه بين العلىّ الكبير ، الذى يؤمن به المؤمنون ، وبين آلهتهم التى أقاموها حجازاً بينهم وبين الله ، حتى لقد عَمُوا عن النظر إليه ، وحتى لقد أبت عليهم ألسنتهم أن ينطقوا به ، وأن يُضيفوا أنفسهم إليه ، فقالوا للنبىّ والمؤمنين : « ماذا قال ربكم ؟ » ولم يقولوا ربّنا ..

وفى هذا السؤال : يُطالب المشركون بالكشف عمن يرزقهم ، مما ينزل من السماء من ماء ، وما يخرج من الأرض من نبات ؟ أو من يرزقهم من أهل السموات من ملائكة ، أو من أهل الأرض من آدميين وأشباههم ؟

ولا جواب إلا هذا الجواب : « الله » . . فهو وحده المالك لكل شىء ، المتصرف فى كل شىء ، لا يملك أحد معه مثقال ذرة فى السموات أو فى الأرض . .

وفى النطق عنهم بالجواب ، إلزام لهم به طائعين أو مكرَهين . . لأنه لا جواب غيره . . قَبِلُوه ، أو ردّوه . .

وقوله تعالى : « وإنّا أو إياكم لعلى هدًى أو فى ضلالٍ مبينٍ » إشارة إلى أن الأمر — أىّ أمر — لا يعدو أن يكون حقًّا أو باطلاً ، هدًى أو ضلالاً . .

وقد قال النبىّ والمؤمنون معه ، قولَهم فى الله ، وقال المشركون قولهم . . وإذا كان كلٌّ على طريق ، فإن المقطوع به أن يكون أحد الفريقين على طريق الهدى ، والآخر على طريق الضلال . . ولا يجتمعان . .

وأصل النظم هكذا : « نحن أو أنتم على هدًى . . ونحن أو أنتم فى ضلال مبين » . أى أنه إذا نُظر إلينا على طريق الحق لم يكن فيه إلا أحدنا ، وإذا نُظر إلينا على طريق الباطل ، لم يكن فيه إلا أحدُنا . . كذلك . .

فريقان مختلفان . . مهتدون ، وضالون . .

وطريقان مختلفان . . هدًى ، وضلال . .

وأهل الهدى على طريق الهدى ، وأهل الضلال على طريق الضلال . .

أما أين طريق الهدى ومَن هم أهله ؟ وأين طريق الضلال ومن هم

أصحابه ؟ فتلك هى القضية ، والحكم فيها لا يحتاج إلاّ إلى نظرة هنا ، ونظرة هناك ، وعندئذ يتبين الرشد من الغىّ ، والضلال من الهدى !

قوله تعالى :

* « قل لا تُسألون عما أجْرَمنا ولا نُسأل عمّا تعملون » .

أى أن كلّ إنسان يحمل مسئوليته ، وعليه أن يتحرّى الخيرَ لنفسه ، ويطلب لها السلامة والنجاة . . فلا يُسأل إنسان عن جناية إنسان ، ولا يحمل عنه وزره .. بل كل إنسان وما حمل . . « ولا تَزِرُ وازِرةٌ وِزرَ أخرى » (١٨ : فاطر) . .

وفى التعبير عن جانب النبى والمؤمنين بقولهم : « أجرمنا » وعن جانب المشركين بالعمل : « تعملون » وكان مقتضى النظم أن يجىء « أجرمتم أو تجرمون » ، بدلا من تعملون ، أو أن يجىء : عَمِلْنَا أو نعمل ، بدلا من أجرمنا ــ فى هذا التعبير القرآنى محاسنة للمشركين ، ورفق بهم ، وإطفاء لحمية الجاهلية التى تُعمّى عليهم السبيل إلى الهدى ، وهـذا هو الأسلوب الحكيم فى مخاطبة الجاهلين ، وهو أسلوب الدعوة الإسلامية والصميم من رسالة رسولها . . كما يقول سبحانه وتعالى لنبيه الكريم : « ادْعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (١٢٥ : النحل) . .

قوله تعالى :

* « قل يجمع بيننا ربُّنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتّاح العليم » .

وإذ عجز المشركون عن أن يتبينوا مَن المحقّ ومن المبطل ، ومن هم أهل الهدى ومن هم أصحاب الضلال ، فى هذه الخصومة فى الله ، القائمة بينهم

وبين النبيّ وأصحابه ـ إذ عجزوا عن أن يحكموا فى هذه القضية فى الدنيا ، فإن القضية ستحال إلى الآخرة ، وسيفصل فيها أحكم الحاكين ، يوم يجمع الله الناس جميعاً . . « قل يجمع بيننا ربّنا » يوم القيامة « ثم يفتح بيننا بالحق » أى يحكم بيننا بالحق . . « وهو الفتاح العليم » أى الحكم العدل ، الذى يحكم عن علم محيط بكل شىء .

قوله تعالى :

* « قل أرونىَ الذين ألحقتم به شركاء .. كلا .. بل هو الله العزيز الحكيم »

بعد هذه الدعوة الحكيمة الرفيقة ، التى لانت ـ أو ينبغى أن تلين لها ـ القلوب من المشركين ـ كانت المواجهة مرة أخرى بين المشركين ومعبوداتهم ، ليُعيدوا النظر إليها ، بعد هذا البيان المبين من آيات الله . .

وقوله تعالى : « أرونى الذين ألحقتم به شركاء » أى أين هم هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله ؟ . وماذا ترون فيهم إذا نظرتم إليهم ؟ أترون غير خُشُب مسندة ، وأحجار منصوبة ؟ أهذه الدمَى يصح أن تُلحق بالله ، وتضاف إليه ، وتحسب شركاء له ؟ « كلا » فما يقبل هذا منطق ، ولا يستسيغه عقل . . « بل هو الله العزيز الحكيم » الذى عزّ فحكم ، فلا يشاركه أحد فى ملكه ، ولا يدخل معه أحد فى تدبيره ..

هذا هو الإله الذى يجب أن يُعبد .. أما من لا يستقلّ بسلطان هذا الوجود ، ولا بالقيام عليه ، فلا يصح أن يكون إلها .. فكيف بمن لا يملك مثقال ذرة؟ وكيف بمن كان دميةً ، لا تدفع عن نفسها لطمة يد ، أو ركلة رجل ؟ .

لقد رأى بعض الأعراب ربًّا من هذه الأرباب ، وقد وقعت الطير على رأسه

وتركت آثارها فوقه ! ثم نظر فرأى الثعالب قد مرت به ، وبالت عليه ! !
فلم يكن من هذا الأعرابى إلا أن ركل هذا الربّ برجله ، ثم داسه بقدميه ،
وبصق عليه ، وولاه ظهره ، منصرفا عنه وهو يقول :

أربٌّ يبول الثّعلبانُ بوجهه لقد ذَلّ من بالَتْ عليه الثعالب

[الرسول وعموم رسالته]

قوله تعالى :

* « وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً ولـكن أكثر الناس لا يعلمون » .

هذه الآية ، هى تزكية من الله سبحانه وتعالى لنبيه الـكريم ، الذى أمره أن يقف من المشركين هذا الموقف ، ويكشف لهم عن ضلالهم ، ويزيل الغشاوة التى انعقدت على أبصارهم ، فلم يتبينوا طريق الهدى ..

وفى قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس » بيان لهذا المقام العظيم، الذى لرسول الله عند ربه ، وهو مقام لا يُطاول ، ومنزلة لا تنـال . . قد انفرد بها ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من بين رسل الله وأنبيائه جميعاً .. فهو — صلوات الله وسلامه عليه — رسول الإنسانية كلها ، والشمس التى تملأ آفاقها ، وتدخل كل مكان فيهـا . . ولهذا وصفه الله سبحانه وتعالى بالسراج المنير ، فقال تعـالى : « يٰأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشرًا ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » (٤٥ ـ ٤٦ : الأحزاب) .

والسِّراج المنير ، هو الشمس ، كما يقول الله تعالى : « تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً » (٦١ : الفرقان) . . وقد

وصف الله سبحانه الشمس بأنها سراج وهاج ، فقال تعالى : « وبَنَيْنا فوقكم سبعاً شداداً * وجعلنا سراجاً وهاجاً » (١٢ ـــ ١٣ : النبأ) .

وفى وصف الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — بالسراج المنير ، دون السراج الوهاج ، إشارة إلى أمرين :

أولهما : أنه صلوات الله وسلامه عليه ، كالشمس فى علوّ منزلتها ، وفى بسط سلطانها على الأرض كلها ، فلا تغرب عنها أبداً ، ولا يزايلها ضوؤها أبداً ، بل إن هذا الضوء ليغمر نصف الأرض فى كل لحظة من لحظات الزمن..

وهذا يعنى أن رسالة « محمد » ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ستبسط سلطانها على هذه الأرض ، وأنها لن تزايلها أبداً ، وأن أية رقعة منها لا تخلو من شعاعة من شعاعاتها . .

وثانيهما : أنّ الشمس المحمدية ، شمس ، وقمر معاً . . الشمس فى يمينه ، وهى كتاب الله وآياته ، والقمر فى شماله ، وهو السنة المطهرة ، المستمدة من كتاب الله ، والمستنيرة من أضوائه . .

وعموم رسالة محمد صلوات الله وسلامه عليه ، مقررة فى كتاب الله ، فى أكثر من موضع ، فيقول سبحانه وتعالى « وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين » (١٠٧ : الأنبياء) .

ويقول سبحانه : « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً » (١٥٨ : الأعراف) .

فالذين يمارون فى عموم الرسالة المحمدية ، أو يقفون بها عند مجتمع من المجتمعات ، أو أمّة من الأمم ، إنما يتأولون آيات الله على غير وجهها ، ويخرجون بالكلمات الواضحة الصريحة عن مفهومها .

وإذا لم تكن الرسالة المحمدية رسالةَ الإنسانية كلها ، لم يكن ثمَّة معنًى لأن تكون خاتمة الرسالات ، وأن يكون رسولها خاتمَ الرسل . .

إن الرسالة الإسلامية ، هى الكلمة الأخيرة . . الكلمة الحاسمة فيما بين السماء والأرض ، فليس بعدها كلام . . إنها الخاتمة .

وصاحب الرسالة ، هو خاتم النبيين . . ليس بعده نبى ، ولا وراءه بشير ولا نذير من ربّ العالمين . .

وإذا كان ذلك كذلك ، فإن لنا أن نقول : إن « محمداً » هو منتخب الإنسانية كلها ، وهو مجتمع كمالاتها ، فى أرفع درجاتها ، وأعلى منازلها . .

ذلك ، لأنه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ جاء إلى الإنسانية حين بلغت رشدها ، وحين أراد الله سبحانه وتعالى لها أن تستقلّ بوجودها ، وأن تستقيم على الطريق الذى يمليه عليها تفكيرها . .

إن الإنسانية ــ وقت البعثة المحمدية ــ كانت قد جاوزت طور الصبا ، وبلغت أشدها ورشدها ، وأصبحت بهذا جديرةً بأن تستقل بنفسها ، وأن تستهدى بما أودع الله تعالى فيها من عقل ، وبما حملت إليها السماء من وصايا .

كانت رسالات الرسل ــ عليهم السلام ــ قبل البعثة المحمدية ، رسالات « محلية » أشبه بالوصاية على الصغار . . يظهر الرسول فى جماعة من الجماعات ، أو بيت من البيوت ، يقيم لهم وجودهم المعوج ، ويضىء لهم طريقهم المظلم ، ثم لا يلبث أن يخلفه عليهم رسول ، يخلفه رسول . . وهكذا . . حتى إذا بلغ الكتاب أجله ، وأراد الله سبحانه للناس أن يستقلوا بوجودهم ، وأن يفكروا لأنفسهم بأنفسهم ، بعد أن بلغوا رشدهم ، وأصبحوا فى عداد الرجال ــ جاءت

رسالة الإسلام ، يحملها رسولها الأمين . . محمد بن عبد الله . . رسول الله ، وخاتم النبيين . .

ومن هنا ندرك السر فى أن الرسالة الإسلامية ، كانت رسالةً « عقلية » تخاطب العقــــل ، وتجىء لإقناعه عن طريق الحجة القائمة على البراهين الاستدلالية ، التى يستقيم عليها تفـكير الناس جميعاً . . عامتهم وخاصتهم على السواء . .

إن الرسالة الإسلامية ، لم تستند إلى معجزة قاهرة ، تطغى على عقول الناس ، وتغتال تفـكيرهم ، وتشل إرادتهم ، وتضعهم أمام أمر ملزم لافـكاك لهم منه . . فماذا يفعل العقل إزاء عصا موسى ـ عليه السلام ـ وهو يضرب بها البحر ، فتنشق من بطنه طريق يَبَس؟ أو ماذا يقول العقل إزاء هذه العصا حين يضرب بها الحجر ـ أىّ حجر ـ فتسيل منه عيون الماء ، وتتفجر ينابيعه ؟ وماذا يقول العقل فى كلمة عيسى عليه السلام ، حين ينطق بها ، آمراً الأكمه ، أن يبرأ ، فيبرأ ، وداعياً الأبرص ، أن يذهب عنه البرص ، فيذهب ؟ بل ماذا يقول العقل فى تلك الـكلمة تخرج من فم عيسى فيحيى بها الموتى ؟ إنه لا مكان للعقل هنا . . إنه لا مفر له من أن يستسلم ويذعن ، إن كان قد بقى معه شىء من الوعى ، أو أن يعيش فى اضطراب وذهول ، ووجوم ! !

أما الرسالة الإسلامية ، فقد استندت فى محاجتها العقلَ ، وفى إقناعه ـ إلى الـكلمة وما فيها من عقل ومنطق . . ! فلم تطلب إلى الناس أكثر من أن يفـكروا فى أنفسهم وبأنفسهم ، وأن يستخدموا عقولهم المعطلة ، وأن يوجهوا حواسهم إلى هذا الوجود ، وأن ينظروا فيما خلق الله فى السموات والأرض . . ثم أن يتقبلوا ـ فى غير عناد ـ ما ينـكشف لهم من آيات الله ، ودلائل قدرته وعظمته . . فإنهم إن فعلوا ، فقد أدّوا الأمانة التى حملوها ، وهى التفـكير ،

واستخدام العقل الذى أودعه الله فيهم ! وفى هذا يقول الله تعالى لنبيّه الكريم: « قل إنما أعظكم بواحدة . . أن تقوموا لله مثنى وفُرادى ثم تتفكروا » (٤٦ : سبأ) . . هذا هو عنوان الرسالة الإسلامية ، وهذا هو مِلاك أمرها . . استخدام العقل ، واحترام معطياته ، وذلك بالتفكير الفردى ، والجماعىّ معاً ، تفكيراً حرّاً مطلقاً من كل قيد ، محرراً من كل تلقيات سابقة ! .

فالعقل فى مواجهة الرسالة الإسلامية ، محمول على أن يفكّر ، وأن يتحرك فى جميع مجالاته ، غير مقيّد بشىء ، أو مشدود إلى شىء . . إن الرسالة الإسلامية اتغرى العقل إغراء على التفكير ، بما تنادى به من دعوات عالية ، إلى إيقاظ العقل ، وبما تقدّم إليه من صور ، وما تفتح له من مجالات ، تدعو أكثر الناس بلادة وغباء إلى استخدام عقولهم ، واستدعاء تفكيرهم : «أفلا ينظرون إلى الإبل .. كيف خلقت ؟ * وإلى السماء . . كيف رفعت ؟ * وإلى الجبال .. كيف نُصبت ؟ * وإلى الأرض.. كيف سُطِحَت ؟ » (١٧ ــ ٢٠ : الغاشية) . . « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وَزَيَّنَّاهَا وما لها من فروج ؟ * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسىَ وأنبتنا فيها من كل زوجٍ بهيج ! * تبصرةً وذكرى لكل عبد منيب ! * ونزّلنا من السماء ماء مباركًا فأنبتنا به جنّاتٍ وحبَّ الحصيد * والنخلَ باسقاتٍ لها طلع نضيد ! * رزقاً للعباد وأحيينا به بلدةً ميتاً .. كذلك الخروج » (٦ ــ ١١ : ق) إنها دعوة إلى سياحة روحية ، وعقلية ، وجسدية ، فى رحاب هذا الوجود ، وفى استجلاء محاسنه ، وملء العين والقلب من روائعه ومفاتنه .

وإنه بِحَسْب المرء أن يصحب معه عقله فى هذه السياحة ، فيهتدى إلى الحق ، ويلتقى على طريق سواء مع محامل الدعوة الإسلامية ، من عقيدة وشريعة . . فإن العقل بطبيعته ــ إذا خلا من آفات العناد والاستكبار ــ ينشد

الحق ، ويهتدى إليه ، لأنه شرارة من نور الحق ، وقَبَس من أقباسه !.

ذلك ، على حين كان العقل قبل الرسالة الإسلامية بمعزل عن معجزات الرسل ، وبمنقطع عنها ، لأنها لا تستقيم على منطق العقل ، ولا تدخل فى مجال التفكير ، إنها أمور خارقة للعادة ، لا تقع إلا على يد رسول مؤيد من عند الله ، فيقع بها الإعجاز القاهر ، ويقوم بها التسليم القائم على الدَّهَش والحيرة ، والعجز .

وذلك الذى صنعته السماء ، فى التدرج فى الدعوة إلى الله ، هو الأسلوب الحكيم فى التربية . . فالصغير لا يحتمل عقله أحكام المنطق ، ولا يخضع تفكيره لمعطياتِ ما بين الأسباب والمسببات من ارتباط . . وإنه لمن الخطأ وسوء التقدير ، بل ومن القسوة عليه ، أن يؤخذ بمنطق العقل ، ويُحمل على أحكامه ، على حين أن الذى يُصلحه ويَصْلُح له ، هو أن يُخاطب بلغة الحسّ ، وبمنطق المادة . . فإذا نما عقله شيئاً ، كان من التدبير الحكيم أن يخاطب بأسلوب المنطق العقلى والحسّى معاً ، وأن يزاوج له بينهما ، بنسب تكثر فيها العناصر العقلية شيئاً فشيئاً ، كلما نما عقله ، واتسعت مداركه ، حتى إذا بلغ مبلغ النضج والرشد ، أمكن أن يكون عقله هو موضع الاعتبار فى مخاطبته ومحاسبته . .

والإنسانية ـ فى تقديرنا — بدأت وجودَها كما يبدأ كل كائن حى وجودَه . . نبتة صغيرة ، ثم شجيرة لا زهر فيها ، ثم شجرة مزهرة . . ثم شجرة مزهرة مثمرة !

وشواهد التاريخ تؤيد هذا وتشهد له .

والإنسانية فى زمن البعثة المحمدية كانت ـ كما قلنا ـ فى آخر مرحلة من مراحل سيرها نحو النضج العقلى ، والكمال الإنسانى . . كانت بمثابة طفل درج فى مدارج الحياة حتى بلغ مبلغ الرجال . . وكان عليه بعد هذا أن

يستوفىَ حظه من الحياة ، وأن يأخذ مكانه فيها ، غير مستند إلى شىء غير ذاته . .

ودعْ عنك ما يقال من أن الإنسانية كانت قد ارتكست ورُدّت على أعقابها زمن البعثة المحمدية ، وأن الشرّ كان قد استشرى بالناس ، وأن الظلام قد أطبق عليهم ، ولفّهم فى قِطع كثيفة من الجهل والضلال ، وأن معالم الحضارات التى أقامتها الإنسانية فى وادى النيل على يد الفراعنة ، وفى بابل وآشور على يد الكلدانيين والآشوريين ، قد ذهبت معالمها ، وضلّت فى ظلمات الجهل شواهدُها ، ومحيت آياتها . . وأن لمات العقل اليونانى التى سطعت فى العالم القديم قد ذهب الزمن بها ، وعقمت الحياة عن أن تلد سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو .. مرة أخرى . .

دع عنك كل هذا ، فالدنيا بخير ، والحياة وَلود ، لا يصيبها العقم أبداً ، وهى سائرة إلى الأمام ، لا ترجع إلى الوراء بحال . . إنها سنّة التطور والارتقاء . . سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً .

ولا نريد أن نقف طويلاً هنا ، ولا أن نضرب الأمثال والشواهد لهذا . وحسبنا أن نقول إن القرون الطويلة التى عاشتها الإنسانية ، والتى تقدر بعشرات الألوف أو مئاتها من السنين ـ لم تمكّن لها قبل عصرنا هذا من أن تستخدم قوة البخار والكهرباء ، ولم تفتح لها الطريق إلى تحطيم الذّرة ، وإلى بناء المراكب الكونية ، الكوكبية التى تدور فى فلك الشمس كما تدور الأقمار حولها . . بل وأكثر من هذا . . فإننا ونحن نكتب هذا الكلام يطلع علينا حَدَث عجب لم يكن يقع إلا فى الأحلام والخيالات ، وهو وصول الإنسان إلى القمر ، ووضع أقدامه عليه ، يمشى فوق أديمه ، ويتنقل بين ربوعه . . !

إن هذه الفتوحات العظيمة التى حققها العقل الإنسانى فى هذا العصر لَهِى الشهادة التى لا ترد ، على أن الحياة الإنسانية تتجه دائماً نحو الأمام ، وأنها تضيف كل يوم معارف جديدة إلى معارفها السابقة ، وأن رصيدها من المعرفة ، يزداد مع الأيام ، يوماً بعد يوم !

فإذا قلنا إن عصر النبوة المحمدية ، كان هو العصر الذى بلغت فيه الإنسانية رشدها ، وتخطت فيه مرحلة الطفولة والصبا ، كان لقولنا هذا مستند من واقع عصرنا هذا الذى يُعدّ امتداداً لعصر النبوة . . فإن أربعة عشر قرناً منذ البعثة المحمدية إلى يومنا هذا ، لا تعدّ فى عمر الإنسانية إلا يوماً من أيام حياتها ، وإلا مرحلة أو بعض مرحلة من مراحل وجودها ..

يتحدث الجاحظ فى رسالة « حجج النبوة » عن طبيعة الرسالة المحمدية ، وأنها تتجه إلى مجتمع إنسانى يأخذ الأمور بمعيار العقل ، وينظر فى أعقابها وما تؤول إليه . . فيقول :

« وكذلك وعيد « محمد » بنار الأبد ، كوعيد موسى بنى إسرائيل بإلقاء الهُلاَّس على زرعهم ، والهمّ على أفئدتهم ، وتسليط الموَتَان على ما شيتهم وبإخراجهم من ديارهم ، وأن يظفر بهم عدوّهم .

« فكان تعجيل العذاب الأدنى — أى القريب — فى استدعائهم واستحالتهم ، وردعهم على ما يريد بهم ، وتعديل طباعهم — كتأخير العذاب الشديد على غيرهم . . لأن الشديد المؤخّر — من العذاب — لا يزجر إلا أصحابَ النظر فى العواقب ، وأصحاب العقول التى تذهب فى المذاهب » .. اه . .

ويريد الجاحظ أن يقول : إن دعوة محمد كانت إلى مجتمع عاقل ، مدرك ، ينظر فى عواقب الأمور ، كما ينظر العقلاء الراشدون ، وليست

كذلك دعوة موسى ، التى تتعامل مع مجتمع كان فى دوْر الطفولة والصبا ، لا يأخذ من الأمور إلا جانبها الواقعى المعجل ! ! .

وننتهى من هذه الحقيقة إلى حقيقة أخرى ، وهى أن « النبىّ » الذى يجىء إلى الإنسانية فى هـذا الطور من حياتها ، ينبغى أن يكون أكمل الأنبياء ، لأنه على قمة الإنسانية فى طورها الذى بلغت فيه رشدها ، إذ كان النبىّ فى كل عصر ، فى كل أمة ، هو ممثل الإنسانية فى هـذا العصر ، وفى تلك الأمة ، وهو خلاصة كل طيب وكريم ونبيل فيها . . وفى هذا يقول النبىّ صلوات الله وسلامه عليه « بعثت من خير قرون بنى آدم ، قرنا فقرنا ، حتى كنتُ من القرن الذى كنتُ فيه » ؟

وعلى هذا ، فإنه إذا كانت دعوات الأنبياء رَحَماتٍ وبركات على الناس فى أجيالهم وأوطانهم — فإن رسالة « محمد » صلوات الله وسلامه عليه رحمة عامة ، وبركة شاملة للناس جميعاً . . من كل أمة ، ومن كل جنس ، على مدى الأيام والدهور . .

وإنها رسالة لا تخصّ أمة من الأمم ، ولا تنتهى عند زمن من الأزمان . . فهى ليست للعرب وحدهم ، وليست لعصر النبوة وحده ، فما العرب إلا لسانها وترُجمانها ، وما عصر النبوّة إلا مطلعها ومجلى أنوارها . . « قل يأيها الناس . . إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيى ويميت . . فآمنوا بالله ورسوله . . النبىّ الأمى . . الذى يؤمن بالله وكلماته . . واتبعوه لعلكم تهتدون » (١٥٨ : الأعراف) .

إن الرسالة الإسلامية ، تدعو الناس جميعاً إليها ، ورسولُها ينادى الناس كلهم ، بهذه الكلمة العامة الشاملة ، وبهذا النداء المطلق : « يأيها الناس »

. . « يا بنى آدم » . . « يأيها الإنسان » . . ولم يتجه بدعوته أبداً إلى العرب وحدهم أو قريش وحدها ، فلم يقل . يأيها العرب ، أو يا بنى إسماعيل ، أو يا أبناء عدنان وقحطان . . كما كان ذلك شأن أنبياء الله فى رسلهم وأقوامهم ، ومن أرسلوا إليهم . . فقد كان كلّ نبىّ يدعو قومه خاصة ، ويقصر دعوته عليهم وحدهم . . فيقول « يا قومِ » لا يتجاوزها.

• « إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . : قال يا قوم إنى لكم نذير مبين » (١ ، ٢ : نوح)

• « وإلى مدين أخاهم شعيباً .. قال يا قوم .. » (٨٤ : هود)

• « وإلى عادٍ أخاهم هودًا .. قال يا قوم .. » (٥٠ : هود)

• « وإلى ثمود أخاهم صالحاً . قال يا قوم . . . » (٦١ : هود) .

• « وإذ قال موسى لقومه . . يا قومِ لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم . . . » (٥ : الصف)

• « وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدىّ من التوراة ومبشراً برسولٍ يأتى من بعدى اسمه أحمد » (٦ : الصف)

وهكذا كان كلّ نبىّ يعمل فى محيطِ قومه ، وفى حدود دائرتهم لا يتعداها ، إذ كانت تعاليم رسالته وأحكامها ، مقيسةً عليهم ، ودواء لداء متمكن منهم ، لا يكاد يصلح لغيرهم . . حتى أن المسيح ـ عليه السلام — لم يكن ليقيم معجزة من معجزاته إلا فى بنى إسرائيل وحدهم . . وحتى إنه أبَى — كما تحدث الأناجيل ـ أن يستجيب لتوسلات المرأة الكنعانية فى أن يشفى ابنها المجنون ، وردّها قائلا ، « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل »

(إنجيل متى . . الإصحاح الخامس عشر) . . وليس ذلك ضنًّا منه ـ عليه السلام ـ بالإحسان ، وإنما لأنه لم يكن يريد بمعجزاته إلا إقامة الحجة على قومه ، لا أن يشفى الأوجاع ، ويبرىء الأمراض . .

هذا عن رسل الله ، ومحامل رسالاتهم . .

أما خاتم النبيين . . محمد صلوات الله وسلامه عليه . . وأما رسالة الإسلام خاتم الرسالات السماوية . . فللإنسانية كلها ، وللناس جميعاً . . أسودهم وأحمرهم على السواء .

كالبحر يهدى للقريب جواهراً منه ويرسل للبعيد سحائباً

إنها رحمة عامة شاملة ، من ربّ الناس إلى الناس . . والله سبحانه وتعالى يقول :

« وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين » . . والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول :

« أنا رحمة مُهداة » ! !

* * *

قوله تعالى :

• « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » .

أى يقول المشركون ، منكرين ، ساخرين : « متى هذا الوعد ؟ » أى متى يوم القيامة التى تعدنا به فى قولك : « قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق » . . ؟

متى يكون ذلك ؟ . أنبئنا به . . إن كنت من الصادقين .

وقوله تعالى :

* « قل لكم ميعادُ يومٍ لا تستأخرون عنه ساعةً ولا تستقدمون »
هذا هو الجواب الذى أمر الله النبى أن يلقى به المشركين ، ردّا على هذا السؤال المجهول .. إنه يومٌ عند الله ، يأتى به متى شاء ، لا كما يشاء أصحاب الأهواء ، وأرباب الضلالات . . فإذا حانت ساعة هذا اليوم ، جاء ، دون أن يتقدم ساعة أو يتأخر ، ودون أن يتأخروا هم ساعة عن شهوده ، أو يستقدموا .

الآيات : (٣١ – ٣٣)

* « وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَالَ فِى أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) »

التفسير

قوله تعالى :

* « وقال الذين كفروا لن نؤمن بهـذا القرآن ولا بالذى بين يديه

ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين » .

المراد بالذين كفروا هنا ، هم المشركون من قريش ، الذين تحدثت إليهم الآيات السابقة ، هذا الحديث الذى انكشف لهم به وجه آلهتهم وبان لهم عجزها ، وأنها لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ..

وقد انتهى هذا الحديث بتقرير تلك الحقيقة ، وهى أن النبيّ — صلوات الله وسلامه عليه — ليس رسولاً إليهم وحدهم ، وإنما هو رسول إلى الناس جميعاً ، وأولى الناس بهذا النبيّ ، وبالاستجابة له ، هم قومه ، الذين هم أعرف الناس به ، وبآيات الله التى حملها إليهم بلسانهم . . ولكن الجهل والعناد أعماهم عن هذه الحقيقة ، فلم يستجيبوا لرسول الله ، ولم يفتحوا عقولهم وقلوبهم لكلمات الله وآياته ، وقالوا فى إصرار وعناد : « لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه » أى لا نصدق بأن هذا القرآن الذى يقرؤه محمدعلينا ، هو كلام الله ، وإذن فنحن لا نؤمن به ، ولا نؤمن بما يحمل بين يديه من أحاديث عن البعث ، والحساب والجزاء .. إنهم يكذبون به شكلاً وموضوعاً ـ كما يقولون ـ فهو ليس من عند الله أولاً ، ثم إن ما يحمل من أحاديث وأخبار ، لا تصدّق ثانيا ، لأنها لا تعقل !

فالضمير فى قوله تعالى : « بين يديه » ، يعود على القرآن ، وما بين يدى القرآن ، هو ما يحمل بين يديه من قصص الأنبياء ، وأخبار الأمم الماضية ، وما حل بالكافرين والمكذبين ، من عذاب وبلاء . .

وهذا الذى ذهبنا إليه، من القول بأن ما بين يدى القرآن ، هو أخباره وقصصه ، وجدله ، وحججه — هذا الذى ذهبنا إليه ، هو أولى من القول الذى يذهب إليه أكثر المفسرين من أن الذى بين يدى القرآن هو التوراة والإنجيل ، بمعنى أن المشركين لا يؤمنون بهذا القرآن ، ولا بالتوراة والإنجيل . .

ذلك أن المشركين لم يُدْعوْا إلى الإيمان بالكتب السماوية ، السابقة ، فهذا دور يجىء بعد الإيمان بالكتاب الذى يُدْعون إلى التصديق به أولاً ، فإذا صدّقوا به ، آمنوا بكل ما يدعوهم إليه . .

ومن جهة أخرى ، فإن المشركين ، كانوا على اعتقاد بأن أهل الكتاب على دين سماوى صحيح ، ولكنه خاص بهم وحدهم ، ولهذا كان المشركون يتمنون أن يكون لهم كتاب خاص بهم مثل أهل الكتاب . . كما يقول الله سبحانه محدّثا عما يجرى فى خواطرهم : « أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنّا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم » (١٥٦ ـ ١٥٧ : الأنعام)

قوله تعالى : « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم » ـ انتقال بهؤلاء الكافرين المكذبين بآيات الله ـ إلى موقف الحساب والمساءلة فى لحظة خاطفة ، حيث يطلع عليهم هذا الذى كذبوا به ، وما تزال كلمات التكذيب على أفواههم . .

ولم يجىء جواب « لو » الشرطية ، بل تُرِك مكانه شاغراً ، لتملأه التصورات المفزعة لهذا اليوم العظيم ، وما يقع للمكذبين فيه من بلاء . . والتقدير : إنه لو اطلع مطلع على حال هؤلاء الظالمين ، وهم موقوفون عند ربهم موقف المساءلة والحساب ، لهاله الأمر ، ولولّى منهم رعباً وفزعاً ، لما غشيهم من الكرب ، وأحاط بهم من البلاء . .

ـ وقوله تعالى : « يرجع بعضهم إلى بعض القول » هو جملة حالية ، تكشف عن حال من أحوال هؤلاء الظالمين الموقوفين عند ربهم . .

ورجْع القول : ترديده ، مثل رجع الصّدى . .

وعُبِّر بالفعل « يَرجع » اللازم ، بدلا من يُرجع ، المتعدى لمفعوله ـ ليتضمّن

الفعل معنى الإلقاء ، والترامى والتراشق بالشىء نفسه .. فكأنهم يترامون بهذا القول ، ويرجم به بعضهم بعضاً . .

وقوله تعالى : « يقول الذين استُضعفوا الذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين » - بيان القول الذى يترامون به ، والتهم التى يُلقى بها بعضهم على بعض . . وقد بدأ المستضعفون بإلقاء اللائمة على رؤسائهم ، وسادتهم ، الذين تولوْا قيادة الحملة الضالة ، ضد دعوة الحق والهدى ، فجندوا هؤلاء الضعفاء ، وقادوهم إلى المعركة ، فكانوا فى الهالكين — بدأ المستضعفون بالرمى بالتهم ، لأنهم هم المجنىّ عليهم من سادتهم ورؤسائهم . .

— وفى قولهم : « لولا أنتم لكنا مؤمنين » إشارة إلى أن الإيمان فطرة مركوزة فى الإنسان ، وأنه لو ترك الإنسان وشأنه دون أن تدخل عليه مؤثرات من الخارج ، تفسد عليه فطرته ، وتشوش عليه رأيه — لآمن بالله ، عن طريق النظر العقلى ، ولاستجاب لدعوة الهدى من غير تردد .

قوله تعالى :

* « قال الذين استكبروا للذين استُضعفوا أنحن صَدَدْناكم عن الهُدَى بعد إذ جاءكم . . بل كنتم مجرمين »

وألقى الكبراء القول إلى أتباعهم ، وردّوا التهمة التى اتهموهم بها ، وأنكروا أنهم كانوا سبباً فى صدّهم عن الهُدى : « أنحن صَدَدْناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ » إنا لم نَقْسِركم على شىء ، ولم نُكرهكم على مادعوناكم إليه . .

وقد صَدَق هؤلاء المستكبرون ، وكَذَبوا فى آن معاً . .

صَدَقوا ، لأنهم لم يكن فى وسعهم أن يردّوا هؤلاء المستضعفين عن

الإيمان ، لو أنهم رغبُوا فى الإيمان . . لأن الإيمان معتقد يقوم فى القلب ، قبل أن يكون عملاً يظهر على الجوارح . فلو اعتقد هؤلاء المستضعفون الإيمانَ فى قلوبهم ، لَما كانت هناك قوة فى الأرض تستطيع أن تنزعه منهم .. ومن قبلُ قال الشيطان لأتباعه : « وما كان لىَ عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى .. فلا تلومونى ولوموا أنفسكم » (٢٢ : إبراهيم)

وكَذَب هؤلاء المستكبرون ، لأنهم كانوا دعوةً من دعوات الضلال ، وقوة من قوى الشرّ ، تُزيّن للناس الضلال وتغريهم به ، وتعمل على جذبهم إليه ، وضمهم إلى جبهته .. بما لهم من جاه وسلطان ..

وفى قولهم : « بل كنتم مجرمين » . إشارة إلى مافى طبائع هؤلاء المستضعفين من فساد ، وأنهم بطبيعتهم منجذبون إلى الضلال ، منصرفون عن الهدى . . فلو أنهم تُركوا وشأنهم ما استجابوا للإيمان ، وما قبلوه ، فلما لاحت لهم دعوة الضلال من الضالين ـ استجابوا لها بطبيعتهم ، وانجذبوا نحوها ، كما ينجذب الفَرَاش إلى النار .

قوله تعالى :

* « وقال الذين استُضْعفوا للذين استكبروا بل مكرُ الليل والنهارِ إذ تأمرو ننا أن نكفر بالله ونجعلَ لَهُ أنداداً وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يُجْزَوْن إلا ما كانوا يعملون » .

لم يجد المستضعفون مقنعاً فيما ردّ به سادتهم عليهم.. وحقّا إنهم لم يقْسِروهم قسراً على الكفر ، ولكنهم أغروهم به إغراء ، بما يملكون من وسائل الإغراء ، وفى أيديهم المال ، والجاه والسلطان ، وكلها قوّى ذات سلطان على الناس !

— وقوله تعالى : « وأسرُّوا الندامة لما رأوا العذاب » .. أى وحين طلع

عليهم العذاب ، وجموا كلّهم وخرسوا ، ولم ينبس أحد منهم جميعاً ببنت شفة ، واحتبست الكلمات فى صدورهم ، وقد كان فيها متنفس لهم ، وأمل يتعلقون به .. الضعفاء ليلقوا بالتهمة كلها على كبرائهم ، والكبراء ليدفعوا هذه التهمة عنهم ، وحسبهم جنايتهم على أنفسهم . . وهكذا ازدرد الجميع هذه الكلمات التى كانوا يلوكونها فى أفواههم ، ثم يرمى بها بعضهم بعضاً ، فأصبحت سهامًا يرمى بها كل منهم فى داخل نفسه ، فتدمى القلوب ، وتفرى الأكباد !

الآيات : (٣٤ — ٣٩)

* « وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلاَدُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَـٰئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ (٣٩) »

التفسير

قوله تعالى :

* « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنا بمآ أرسلتم به كافرون »

المترف : هو من أبطرته النعمة حتى خرجت به عن حد الاعتدال، وأفسدته، وقتلت فيه معانى الإنسانية . . والمترفون هم آفة المجتمع فى كل أمة ، وفى كل جيل ، إذ فيهم ينشأ الفسق ، والمجون ، وكل ما من شأنه أن يغذى العواطف الخسيسة ، ويوقظ الغرائز البهيمية ، على حساب المطالب الروحية والعقلية . . . فليس الغِنَى فى ذاته — كما يبدو — هو الذى يفسد الأخلاق ، وإنما شأنه فى هذا شأن الفقر ، قد يفسد ، وقد يصلح . . إنه خير وشر . . وداء ودواء . . فمن أحسن سياسة المال ، وعرف قدره ، والمكان الذى يوضع فيه ـ صلُح به أمره ، واستقام به شأنه . . ومن اتخذ من المال وسيلة يصطاد بها ما توسوس به نفسه ، وما يدعوه إليه هواه ـ فسد كيانه ، وتهدم بنيانه ، وتحول إلى كومة متضخمة من الشحم واللحم . . تهب منها كل ريح خبيثة ، تفسد المجتمع وتزعجه !

وحين تنجم دعوة من دعوات الخير ، يكون المترفون هم أول من يلقونها بالنكير ، ويرجمونها بكل ما يقدرون عليه . . وما جاء رسول من رسل الله يدعو قومه إلى الهدى، حتى يتصدى له المترفون من قومه ، يعلنون الحرب عليه ، ويجمعون الجموع للوقوف معهم فى وجهه . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »

قوله تعالى :

* « وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين » .. هذا هو ردّ المترفين على كل دعوة إلى الإيمان بالله ، وتلك هى حجتهم عند أنفسهم وعند الناس .. إنهم بما يملكون من كثرة فى الأموال، وما عندهم من كثرة فى الأولاد والرجال، ان يكونوا تابعين لغيرهم ، ولن يجعلوا لأحد كلمة عندهم ، حتى ولو كان

رسولا من رسل الله ، يدعوهم إلى الله ، ويكشف لهم معالم الطريق إلى الحق والهدى ! ! إنهم أكثر أموالاً وأولاداً من هذا الرسول ، فكيف يقوم فيهم مقام الناصح ذى الرأى والسلطان .. « ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم » (٢٤ : المؤمنون) وكيف يتفضل إنسان على من كان أكثرَ منه مالا وولداً ؟

— وفى قولهم : « وما نحن بمعذبين » إشارة إلى أنهم بما لهم من كثرة فى المال والأولاد، لن ينزلوا عن مقام السيادة لأحد ، ثم إنهم إذا عُذِّب غيرهم من الفقراء والمستضعفين لن يعذبوا هم .. فإن الله ما أعطاهم هذا الوفر فى المال والكثرة فى الأولاد، إلا لأنهم أهل الكرامة ، وموضع الفضل عنده ، وكما كانوا فى الدنيا فى هذا المقام بين الناس،فهم فى الآخرة ـ إن كانت هناك عندهم آخرة ـ فى هذا الموضع أيضاً ، حيث يعذب الفقراء والمستضعفون ، أما هم فلن يعذّبوا ،بل ينزلوا منازل الإكرام والإعزاز . . ذلك ظنهم بأنفسهم .. وفى هذا يقول الله تعالى على لسان واحد منهم . « وما أظن الساعة قائمة ولئن رُجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى » (٥٠ : فصلت) ويقول سبحانه على لسان صاحب الجنتين . « ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً » (٣٦ : الكهف)

قوله تعالى :

* « قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر النــــاس لا يعلمون » .

هو ردٌّ على هذا الفهم المغلوط الفاسد الذى فهمه المترفون ، لما لله فى عباده من بسط الرزق أو قبضه .. فليس بسط الرزق أو قبضه من الله سبحانه وتعالى ، بحسب منازل الناس عنده ، وإنما منازل الناس عند الله بأعمالهم الصالحة ،

وبتزكية أنفسهم ، وتطهيرها من خبائث الكفر والضلال .. أما بسط الرزق وقبضه فهو ابتلاء من الله ، فيبتلى سبحانه من يشاء بالبسط ، ويبتلى من شاء بالقبض ، مؤمنا كان أو كافراً ، محسناً أو مسيئاً . . « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . .

قوله تعالى :

* « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضِّعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون .. »

هو ردٌّ آخر على ادعاء هؤلاء المترفين ، بأن أموالهم وأولادهم هى التى تقربهم من الله ، وتدنيهم من مرضاته .. وكلاّ فإن الأموال والأولاد لاتقرب من الله إلا بقدر ما يكون لأصحاب الأموال والأولاد من إيمان بالله ، وإحسان فى العمل . . فهؤلاء حقاً لهم جزاء الضعف ، أى جزاء مضاعفاً ، بما نعموا به فى الدنيا من جاه وسلطان ، وبما قدموا للآخرة من عمل صالح يلقونه عند الله ، فيجزون به الجزاء الأوفى ، فى جنات النعيم . .

قوله تعالى :

* « والذين يسعَوْن فى آياتنا معاجِزين أولئك فى العذاب محضرون »

أى والذين يتخذون من أموالهم وأولادهم وجاههم وسلطانهم ، أسلحةً يحاربون بها الله ، ويسعون لإعجاز الناس عن أن يتصلوا بآياته ، أو لآيات الله أن تتصل بالناس .. « فأولئك فى العذاب محضرون » أى يُجاء بهم من حيث كانوا إلى حيث يُلقَوْن فى جهنم ، ويصلوْن العذاب الأليم فيها .

قوله تعالى :

* « قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له . . وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين »

أعيد النظم القرآنى : « قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء . . . الآية » . . وذلك فى مقام غير المقام السابق . . فهناك كان المقام الداعى إلى ذلك ، هو الكشف عن تلك الحقيقة التى جهلها أو تجاهلها المترفون ، وهى أن بسط الرزق وقبضه،هو ابتلاء من الله ، وليس مقدّراً على منازل الفضل والرضوان من الله .

وهنا فى هذه الآية ـ بعد أن تقررت هذه الحقيقة ـ كان المقام مقام دعوة إلى البذل والإنفاق من هذا المال ، لأنه من فضل الله . . وإذ كان الله سبحانه هو الذى يعطى ، فلا خوف من الإنفاق ، لأنه إنفاق فى سبيل الله ، وهو بمنزلة القرض لله ، ولن يضيع ما اقترضه الله ، بل يعود إلى صاحبه مضاعفاً : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » (٢٤٥ : البقرة)

وهنا زيادة فى النظم وهى كلمة « عباده » وفيها إشارة إلى أن المدعوين إلى الإنفاق من أموالهم ، والتى سيخلفها الله لهم ، هم عباده ، المؤمنون به . .

الآيات : (٤٠ — ٤٥)

* « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ

قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَآ آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون»
هو مساءلة فى الآخرة ، ومواجهة بين عَبَدَةِ الملائكة من المشركين ، وبين عابديهم ، الذين يقولون عنهم ، إنهم بنات الله . .

وقوله تعالى :

* « قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم . . بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون »

هذا جواب الملائكة . . إنهم ينزهون الله تعالى عن أن يتخذوا لهم ولياً ونصيراً غيرَه . . إنهم لا يلتفتون إلى هؤلاء الأتباع ، الذين عبدوهم على غير دعوة منهم إليهم . . إنهم فى غنًى عنهم وعن عبادتهم . . فهم على ولاء مطلق لله . . فهو سبحانه وليهم ، ومعتصمهم . .

— وقوله تعالى : « بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » — إشارة إلى ما يعبد هؤلاء المشركون من قوى غيبية خفية ومن تلك القوى ، إلى جانب مايعبدون من ملائكة ، الجن . . كما يقول سبحانه : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رَهَقاً » (٦ : الجن) .

قوله تعالى :

* « فاليومَ لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون » .

أى فى هذا اليوم — يوم القيامة — لا يملك بعضكم لبعض - من عابدين ومعبودين - نفعاً ولا ضراً، حيث تُجزى كل نفس بما كسبت .. وليس للظالمين فى هذا اليوم من ولىّ ولا شفيع، بل يدعون إلى نار جهنم، ويلقون فيها، ثم يقال لهم : « ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون » وفى هذا القول إيلام لهم، فوق ماهم فيه من آلام، ومضاعفة للحسرة التى تملأ قلوبهم، على ما فاتهم من إيمانٍ بالله فى دنياهم ..

قوله تعالى :

* « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدّكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين » ..

تعود هذه الآية بالمشركين إلى الدنيا مرة أخرى، بعد أن دعتهم الآيات السابقة إلى موقف الحساب والمساءلة، وذلك — كما قلنا فى أكثر من موضع — لتلتقىَ بهم الدعوةُ بعد هذه المشاعر التى دخلت عليهم من مشاهد هذا اليوم العظيم ..

والآية هنا، تحدّث عن موقفهم مع آيات الله، ومقولاتهم فيها، بعد أن يتلوها الرسول عليهم ..

إنها آيات بينات، تنطق بالحق المبين، بحيث يبدو للناظر إليها من أى جانب، ما يحدّث بأنها كلمات الله .. ومع هذا فإنهم يأبون أن يصدقوا ما يقع فى قلوبهم وعقولهم منها، ويحملهم الكبر والعناد على التكذيب، والبهْت، والاتهام للرسول الذى يحملها إليهم ..

وهذه المقولات التى يقولها المشركون فى آيات الله، هى مضمون ماتجمّع

من مقـــولات كثيرة ، قالوها فى القرآن الـكريم ، وفى الرسول الذى جاءهم به . .

— « قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم » . . وهم بهـذا القول يستثيرون حمية الجاهليـة فى صدور الجاهلين ، بالحرص على موروثات الآباء ، وما خلّفوا لهم من عادات وتقاليد ، ومراسم . .

— « وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى » . . وهم بهذا القول يزكّون القولَ الأول ، ويثبّتون دعائمه فى القلوب .. حيث أن الذى يُدْعون إليه ، ويرادون على إحلاله محل ما يعبدون ، وما كان يعبد آباؤهم ـ هو محض افتراء وزور .. فـكيف يتركون ماهم عليه من حق إلى هذا الضلال المفترى ؟ هكذا زَيّن لهم الضلال الجاثم على قلوبهم . !

— « وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلاسحر مبين » .. وبهذا القول يَردّون على مَن وقع فى نفوسهم شىء من آيات الله ، وتفتحت لها عقولهم وقلوبهم .. إنه سحر .. يخدع الناس ، ويضلهم ، ويريهم الأمور على على غير ما هى عليه . . !!

قوله تعالى :

* « وما آتيناهم من كتب يدرسونهـــا وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير » . .

أى أن هؤلاء المغرورين المفتونين بأموالهم وأولادهم ، المـكذبين بآيات الله كبراً وبطراً — هؤلاء لم يكونوا أهل علم كما كان شأن كثير غيرهم من الأمم ، ولم يأتهم رسول من عند الله قبلَ هذا الرسول . . فهم — والأمر كذلك — فى فقر عقلىّ وروحى ، وهم لهذا أشد الناس حاجة إلى هذا الخير الذى ساقه الله إليهم ، على يد رسول كريم منهم ..

أما كثرة المال والأولاد، وفتنتهم بهما، وظنهم أنهم فى عصمة بما فى أيديهم من أموال وأولاد، من أىّ بلاء فى الدنيا، أو عذاب فى الآخرة، حتى لقد قالوا: «نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين» — أما هذه الكثرة فى الأموال والأولاد، فهى شىء قليل لا يكاد يذكر إلى جانب ما كان لغيرهم من الأمم السابقة من وفرة فى المال وكثرة فى الرجال، ومع هذا فلم يغن عنهم ذلك من الله شيئا، بل إنهم حين كفروا بالله، وكذبوا رسله، أخذهم الله بذنوبهم، وأرسل عليهم الصواعق والمهلكات، فأصبحوا لا تُرى إلا مساكنهم .. فأين هم من قوم عاد، وقوم ثمود وما كان لهم من قوة وبأس، وجاه وسلطان؟ وأين هم من فرعون، وما ملك من بلاد وعباد؟ وهذا مايشير إليه قوله تعالى فى الآية التالية، متوعدا هؤلاء المشركين ومهددا لهم بالعذاب الأليم ..

* «وكذّب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير».

أى لقد كذب الذين من قبل هؤلاء المشركين، كفرعون، وعاد، وثمود — كذبوا رسل الله، وكانوا على جانب عظيم من الغنى والسلطان، حتى أن هؤلاء المشركين المفتونين بما أوتوا، لم يكن لهم معشار — أى عشر — مالهؤلاء الذين سبقوهم .. وقد أهلكهم الله بذنوبهم، ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا .. فهل تغنى هذه الأموال والأولاد — وهى قليلة، وإن حسبوها كثيرة — هل تغنى عنهم من عذاب الله من شىء؟ وهل تردعنهم بأس الله إذا جاءهم؟ لو كان ذلك لهم، لكان غيرهم، ممن هم أكثر أموالا وأولادا، أولى! ..

والنكير: الإنكار للأمر .. وإنكار الله للمنكر، يستتبع عقابَه وعذابَه لمن وقع منه المنكر ..

الآيات : (٤٦ — ٥٤)

* « قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوٓا ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ (٥٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا . . ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

بعد هذا التهديد الذى أنذر به المشركون من أن يحل بهم ما حل بالظالمين المكذبين قبلهم ـ جاءت آيات الله تدعوهم إلى ماهو خير لهم، وتفتح لهم الطريق إلى النجاة والخلاص . .

والآية الكريمة ، تكشف عن أسلوب الدعوة الإسلامية ، القائم على مواجهة العقل ، ودعوته بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإعطائه حقه فى طلب الدليل المقنع ، والبرهان الواضح ، ثم الاعتراف له بما يقضى به ، بعد النظر السليم ، المجرد من الهوى ، المبرأ من التحدى والعناد . . ! فهذه هى رسالة الإسلام فى الإنسانية . . إنها تريد أولاً وقبل كل شىء ، أن تحرر العقل من العادات الفاسدة ، والمعتقدات الباطلة ، التى استولت عليه ، وشلّت إرادة التفكير فيه . . فإذا تحرر العقل من هذه الآفات ، وتخلص من تلك القيود ، فقد كسب نصف المعركة فى صراعه مع الباطل ، ثم كان عليه بعد هذا أن يكسب النصف الآخر ، حتى يتلخص من الضلال ، ويخرج من عالم الظلام إلى عالم الهدى والنور .. وهو أن يدير عقله على هذا الوجود ، وأن ينظر فيه بعقله المتحرر هذا . . فإنه إن فعل ، فلابد أن يهتدى إلى الله ، ويتعرف إليه ، ويؤمن به . .

— فقوله تعالى : « قل إنما أعظكم بواحدة » أى إنما أنصح لكم بنصيحة واحدة ، لا شىء غيرها . . إنها مجرد نُصح ، لا إلزام فيه ، فإن قبلتم فذلك لكم ، وهو حظكم ، وإن لم تقبلوا فأنتم وشأنكم . .

— والعظة الواحدة ، هى : « أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » .

والقيام لله ، هو القصد ، والتوجه إليه ، وذلك بطلب البحث عنه بحثاً جاداً . . فإن الإنسان الذى يريد أن يتخذ له معبوداً يعبده ، يجب أن يتعرف إليه ، وأن يتحقق من آثاره وأفعاله ، وماله من سلطان فى هذا الوجود . . ثم لا يقبل المعبودَ حتى يراه المالكَ لكل شىء ، المتصرف فى كل شىء ،

والقيام لله مثنى وفرادى ، هو أن يكون التفكير فى الله ، حديثاً إلى النفس أولا ، بما يقع فيها من خواطر عن الله . . ثم مراجعة هذه الخواطر مع شخص آخر ، يراه الإنسان صاحب نظر ورأى ، حتى يستقيم له من تلك

المراجعة ، وتقليب الرأى بينه وبين صاحبه هذا ـ مفهوم لذات الله ، وحتى يجتمع له تصور لعظمته وجلاله وقدرته ، ثم تكون المرحلة الثالثة والأخيرة ، وهى الرجوع إلى نفسه ، وعرض هذا المفهوم وذلك التصور على عقله ، حتى يهتدى إلى الرأى الذى يطمئن إليه ، والتصور الذى يستريح له . .

هذه هى مراحل التفكير ، فى أى أمر ذى شأن يعرض للإنسان . .

ففى المرحلة الأولى تظهر الفكرة فى صورة خاطرة أو وسواس ، يلوح فى سماء العقل ، ويضطرب فى مخيلته . .

ومثل هذا الخاطر أو الوسواس ، يعيش قلقاً مضطرباً ، لا يجد له مستقراً فى العقل ، حتى يجد الأرض الصلبة التى يقف عليها . . وهنا تجىء المرحلة الثانية . .

وفى المرحلة الثانية هذه ، يبحث العقل عن عقل آخر يأنس به ، ويقابل ما عنده من خواطر ووساوس بخواطره ووساوسه . .

وفى هذا اللقاء بين العقلين ، يكثر الأخذ والرد ، والقبول والرفض ، ثم ينجلى هذا المخض عن زبدة ، هى الشرارة التى تنقدح من اللقاء بين العقلين ، والتى تضىء بها جوانب النفس ، وينكشف على ضوئها وجه الرأى فى الأمر المتداول بينهما . . وينتهى هذا الحوار ، أو هذا اللقاء بين العقول ، وقد ذهب كل واحد منها بما حصل عليه ، من شك أو يقين . . وعندئذ يجد العقل أن ما حصل عليه ليس خالصاً له ، وإنما هو ـ على صورتى الشك واليقين ـ قسمة بينه وبين العقل الذى جرى معه هذا الشوط للوصول إلى تلك الغاية . . وهنا تجىء المرحلة الثالثة ، التى يسوى فيها العقل حساب الأمر الذى بين يديه ، على الوجه الذى يراه هو ، مستقلا عن أى عون خارجى . .

وفى المرحلة الثالثة هذه ، يخلو العقل بنفسه ، ما شاء له أن يخلو ، فيعيد عرض الأمر فى هدوء ، ويقلب وجوهه فى سعة من الوقت ، وحرية من العمل .. وقد يظل هكذا زمناً يبلغ عمر الإنسان كله ، دون أن يصل إلى الرأى الذى يطمئن إليه ، وقد تطلع عليه شمس الحقيقة فى لحظة خاطفة ، وعلى غير انتظار !

هذا ، ويلاحظ ـ وهذا إعجاز من إعجاز القرآن الكريم ـ أن الآية الكريمة ، لم تذكر المرحلة الأولى وبدأت بالمرحلة الثانية ، وهى لقاء عقل الإنسان بعقل غيره ، ومقابلة تفكيره بتفكير غيره وذلك ، أن المرحلة الأولى ، هى مرحلة مشتركة فى الناس جميعاً ، فإن أى إنسان عاقل ، لا يمكن أبداً أن تخلو نفسه من خواطر ، ووساوس ، عن التفكير فى « الإله » .. أما الذى هو غير واقع فى الناس جميعاً ، فهو عرض هذه الخواطر والوساوس على عقول الآخرين . . فهناك كثير من الناس يعيشون مع ما يطرقهم من خواطر ووساوس ، دون أن يعرضوها على أحد ، بل يمسكون بها فى صدورهم حتى يموتوا بها ، تماماً كما يمسك بعض المرضى ، بأمراضهم ، دون أن يَطِبُّوا لها ، وأن يعرضوها على أهل الذكر والمعرفة بأدواء الأجسام وعللها . .

كما يلاحظ ـ وهذا إعجاز من إعجاز القرآن الكريم أيضاً ـ أن الآية الكريمة حَصَرت التفكير فى دائرة الفرد نفسه ، ثم لم تتجاوز به أكثر من فرد وفرد .. وهذا يعنى أن العقل إنما يكون فى أحسن حالاته ، حين يفكر وحده ، أى حين ينفرد بالتفكير فيما تجمّع لديه من حصيلة من الأفكار والآراء ، يردّها إلى نفسه ، ويقلبها بين يديه . . فهذا الذى يحقق للعقل ذاتيته ، ويعطيه وجوده ، ويمكن له من سلطانه . . فإذا كان ولابد من مشاركة أحد ، فليكن ذلك فى أضيق الحدود ، ومع عقل آخر ، هو أشبه بالمرآة التى يرى فيها الإنسان ذاته . . أما التفكير الجماعى ، وخاصة فى أمر يتصل بالضمير ، كالإيمان بالله واليوم الآخر ، فإنه يشوش على العقل ،

ويحجب عنه الرؤية الصحيحة لما هو ناظر إليه . .

وقد كشف علم النفس، عن أن هناك عقلين ، عقلاً فردياً ، وعقلاً جماعياً ، وأن العقل الجماعى ، قد يُقنع الإنسان بما لم يكن محلّ إقناع فى تفكيره الفردى . . وهذا إن صحّ فى الأمور العارضة ، فإنه لا يصحّ فى أمر العقيدة ، التى هى أمر شخصى محض . .

— وقوله تعالى . « ما بصاحبكم من جِنّة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

هذا هو الحكم الذى يصل إليه العقل ، إذا جرى على هذا الأسلوب الذى دُعى إليه ، من التفكير فى هذا الأمر الذى يدعو الرسول إليه ، تفكيرا قائماً على البحث الجادّ ، والرغبة الصادقة فى الكشف عن الحقيقة . . إنه لو أخذ الإنسان ـ أى إنسان ـ بتلك العظة التى دعا القرآن إليها ، وهى أن يقوم لله مفكراً وحده ، أو مع غيره ـ لوصل إلى تلك الحقيقة ، وهى أن هذا الرسول ليس به جِنّة ، وأن ما يدعو إليه هو الحقّ . . وأنه رسول الله ، ونذير لهم بين يدى عذاب شديد ، هو عذاب يوم القيامة . .

قوله تعالى :

• « قل ما سألتكم من أجرٍ فهو لكم . . إن أجرى إلا على الله . . وهو على كل شىء شهيد »

وهذه مادة من مواد التفكير ، فى سبيل البحث عن الحقيقة التى يدعو إليها الرسول عقلَ ذوى العقل ، فهذه المادة مما تعين على الكشف عن الحقيقة والتهدّى إليها . . وتلك المادة هى أن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه . . لم يطلب أجراً من أحد على ما يدعو إليه ، وأنه لم يطلب بذلك

جاهاً أو سلطاناً : « ما سألتكم من أجرٍ » احتى أكون بموضع تهمة ، بأننى إنما أدعو إلى ما أدعو إليه ، ابتغاء كسب مادىّ لذات نفسى . . إنها دعوة بريئة من كل غرض شخصى ، خالصة من كل مئونة تحملونها من أجلها . . فماذا يحجزكم عنها ، أو يحملكم على التصدّى لها ، والوقوف فى وجهها ؟

— وقوله تعالى : « فهو لكم . . إن أجرى إلا على الله » أى إن يكن هناك أجرٌ وخير فى هذه الدعوة ، فهو لكم . . أمّا أنا ، فإن أجرى على الله . . فأنا أحمل رسالته إليكم خالصة ، ولا آخذ منكم على هذا الحمل أجراً ، وإنما أجرى على الذى حملنى رسالته . .

ويجوز أن يكون الضمير « هو » فى قوله تعالى : « فهو لكم » عائداً إلى القرآن الكريم ، الذى يدعوهم الرسول الكريم إلى الاستماع إليه ، والنظر فيه ، ثم الإيمان بما يدعوهم إليه من عقيدة وشريعة . . والقرآن وإن لم يجر له ذكر فى الآية ، فهو ـ فى الحقيقة ـ المواجه للقوم ، والمتحدث إليهم . . وعلى هذا يكون « ما » فى قوله تعالى : « قل ما سألتكم من أجرٍ » حرف نفى ، بمعنى أننى لم أسألكم أجراً على هذا الكتاب الذى أتلوه عليكم ، فهذا الكتاب هو كتابكم ، إنه لكم ، هدًى ورحمة من عند الله . . فكيف أطلب أجراً منكم على أمرٍ هو لكم . ؟ إنه لا أجر لى عندكم ، إنما أجرى على الله . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وإنه لذكرٌ لك ولقومك » ! وقوله سبحانه : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » (٤٤ : النحل) . . فالكتاب منزل إلى الناس ، والرسول عليه الصلاة والسلام هو المتلقى لهذا الكتاب من ربه ، وهو الحامل لهذه الأمانة ، المطلوب منه أداؤها إلى أهلها ، وهم الناس جميعاً . .

وقوله تعالى : « وهو على كل شىء شهيد » . . أى قائم على كل شىء ،

يراه رؤية شهود، فيعلم كل شيء علماً كاشفاً.. يعلم ما أنا عليه من قيامى برسالة ربى إليكم، ويعلم ما يكون منكم من قبول لهذه الرسالة، أو ردّها، وسيجزى كلاً بما عمل..

قوله تعالى:

* «قل إن ربى يقذف بالحقّ علام الغيوب».

والمراد بالقذف بالحق: رَمى الباطل بالحق، حتى يصرعه.. فالقذف، هو الرمى الشديد، كما يُقذف بالحجر أو نحوه، ليصيب مقتلاً من عدوّ.. وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: «بل نقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه.. فإذا هو زاهق» (١٨: الأنبياء)..

وقوله تعالى: «علامُ الغيوب» بدل من قوله تعالى: «يقـذف بالحق».. أى أنه سبحانه لا يقذف بالحق هكذا خبط عشواء، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيراً.. إنه يقذف به عن علم، فيقع حيث يشاء، وحيث يصيب الباطل فى مقاتله..

قوله تعالى:

* «قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد»

هو تعقيب على الآية السابقة، التى قررت أن الله سبحانه وتعالى لا ينزّل إلا ما هو حقّ، ولا يرمى إلا بما هو حق..

وها هو ذا الحقّ قد جاء فى هذه الدعوة التى يحملها الرسول الـكريم فى آيات الله المطهرة.. وإنها لحق قذف به هذا الباطل الذى يعيش فى مجتمع الجاهليين.. وليس بعد هذا القذف إلا أن يلقى البـاطل مصرعه، وتختفى أشباح الضلال، وأشياعه..

فقوله تعالى : « وما يبدئُ الباطل وما يعيد » . . إشارة إلى أن الباطل قد أصيب فى مقاتله ، وأنه لن تقوم له بعد اليوم قائمة ، ولن يكون له بعد اليوم صوت يُسمع . . فالمراد بنفى البدء والإعادة لا زمها ، وهو عدم التأثير ، . أى أنه الباطل يفقد كل آثاره وأفعاله ، بعد أن يقذف بالحق ، كما يقول سبحانه : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق» (١٨ : الأنبياء)

قوله تعالى :

* « قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلىّ ربىّ إنه سميع قريب »

وهذا الحقّ الذى جاء ، إن ضللت عنه ، ولم أتبع هديه ـ فإنما عاقبة هذا الضلال واقعة علىّ . . وإن اهتديت بهذا الهدى ، واستقمت على طريقه ، ففى هذا النجاة لى ، والغنيمة التى أغتنمها منه . .

وفى قوله تعالى : « فبما يوحى إلىّ ربىّ » — إشارة إلى أن هدى القرآن هو الهدى ، وأنه لا هدى إلا منه ، وأن من التمس الهدى فى غيره ضلّ ، وخاب وخَسِر . .

وفى هذا إشارة أيضاً إلى أن مصدر الهدى ، هو الله سبحانه وتعالى ، وأنه من هذا الهدى الإلهى ، يهتدى النبىّ ، ويهتدى المهتدون . . فالنبىّ — وهو رسول الله — إنما يلتمس الهدى من هذا القرآن ، الذى هو حقٌّ للناس جميعاً ، ليس للنبىّ فيه ، إلا ما للناس جميعاً . . ومن هنا ، فإنه لا حقّ له — صلوات الله وسلامه عليه — فى أن يطلب أجراً على شىء هو مشاع فى الناس ، كالنور ، والهواء ، والماء . . وفى هذا أيضاً دعوة إلى من يجدون فى أنفسهم أنفَةً أو كِبراً أن يأخذوا من القرآن حظهم من الهدى إذ كان النبىّ هو الذى يحمله ، ويدعو إليه — فى هذا دعوة لهم أن يتخففوا من هذا الشعور ، وأن ينظروا إلى القرآن

باعتبار المصدر الذى جاء منه ، وأنه من عند الله ، وليس من عند محمد ، وأن محمداً يأخذ حظّه من هُدَى الله هذا ، فليأخذوا هم حظهم كذلك — فى غير حرج ، وليرتووا من هذا النبع العذب ، وألا يهلكوا أنفسهم ، بسببِ أن كان القائم على هذا النبع رجلاً منهم !

وقوله تعالى : « إنه سميع قريب » أى ليس الله سبحانه وتعالى بعيداً عن هذا الهدى الذى يدعوهم إليه رسول الله . . إنه قريب منهم ، سميع لهمسات شفاههم ، وخفقات قلوبهم . . إنه سبحانه ، أقرب إليهم ، وإلى هذا الهدى من رسول الله ، وأنهم إذا جاءوا إلى هذا الهدى وجدوا الله عنده . . فما لهم لايتلقون الهدى من الله ، إن أنفوا أن يتلقوه من رسول الله ؟

إن فى هذه الحجة إلزاماً لهم ، وقطعاً لكل عذر يعتذرون به . . ويبقى للرسول مع هذا مقامه من ربه ، ومكانه من الدعوة إلى الله . . !

قوله تعالى :

* « ولو ترى إذ فَزِعوا فلا فَوْتَ وأُخذوا من مكان قريب »

هو سوق لهؤلاء الضالين الذين أمسكوا بضلالهم ، ولم يقبلوا هذا الهدى المعروض عليهم فى شتى صور العرض — هو سوق لهم إلى المصير المشئوم الذى ينتظرهم . .

والصورة التى يراها هؤلاء الضالون لأنفسهم هنا والتى يراها الناس لهم ، هى أنهم فى ساحة المحاكمة ، يوم القيامة ، وقد استولى عليهم الفزع من هذا الهول المحيط بهم ، وهذا البلاء المشتمل عليهم ، وقد أحيط بهم من كل مكان ، فلافوت ولا مهرب لهم . .

وجواب الشرط للحرف « لو » محذوف ، للدلالة على أنه لا يحيط به

الوصف . . ومن صور الجواب ، التى تقع فى التصور أن الذى يرام فى تلك الحال ، يرى أهوالاً يموج فيها القوم ، لا يستطيع الناظر أن ينظر إليها ، ويملأ عينيه منها . . إنهاشىء مخيف . . مفزع . . فظيع !

والمكان القريب الذى أخذوا منه ، هو دنياهم التى كانوا فيها . . وهى — أيًّا كانوا منها — قريبة إلى الله ، فكل شىء فى الوجود قبضته يده !

قوله تعالى :

* « وقالوا آمنا به وأنَّى لهم التناوش من مكانٍ بعيدٍ » .

هو معطوف على قوله تعالى : « وأخذوا من مكان قريب » . . أى أنهم فى هذه الحال ، يقولون « آمنا به » أى بالقرآن ، أو بالرسول وبما جاء به . .

— وقوله تعالى : « وأنّى لهم التناوش من مكان بعيد »

« أنّى » بمعنى كيف . وهو استفهام يراد به الاستبعاد . .

والتناوش : التناول خطفاً بأطراف الأصابع ، حيث تقصر اليد عن تناول الشىء ، فتلمسه ، ولا تتمكن منه ، فتكثر لذلك حركة اليد ، قبضاً وبسطاً . .

والمعنى أنهم إذ يقولون آمنا بالله ، وبكتابه ، يتعلقون بآمال كاذبة ، ويمسكون بخيط من الوهم . . فقد بُعدت بينهم وبين مطلبهم الشقة . . إنهم فى عالم غير هذا العالم الذى كان ينفعهم فيه هذا القول . . وإنه لمحال أن يعودوا إلى هذا العالم . . إنه مكان بعيد عنهم . . إنه الدنيا . . وهم فى الآخرة . . وما أبعد المسافة بين الدنيا والآخرة بالنسبة لهم !!

وفى التعبير بالتناوش ، عن الأمل الذى يراودهم فى هذا الموقف ، بإعلان الإيمان — إعجاز من إعجاز القرآن ،فى صدق الأداء ، وروعته،ودقته .. فالأمل الذى يتعلقون به ، لا يمسكون منه بشىء . . إنه لا يكاد يظهر حتى يختفى ، ثم يظهر

ويختفى ، وهم يجرون وراءه حتى تتقطع أنفاسهم دونه ، وفى هذا مضاعفة للعذاب الذى هم فيه . . « كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » (١٤ : الرعد) . .

إنهم يمدون أيديهم وهم فى الآخرة ، ليتناولوا هذا الأمل الذى فاتهم فى الدنيا ، ويناوشونه مناوشة من بعيد ، ولا تمسك أيديهم بشىء منه.

قوله تعالى :

* « وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد » . .

الواو ، واو الحال ، والجملة بعده حال من الكافرين ، الذين قالوا آمنا به . .

أى أنهم قالوا هذا القول عن القرآن فى الآخرة ، وقد كفروا به فى الدنيا ، وقد كانوا يقذفون بالغيب وهو ما يحدثهم به القرآن عن البعث فى الآخرة والحساب ، والجزاء ، وكلها غيب .. فلم يقبلوا هذا ، وقذفوا به ، ورموه ، وهم فى مكان بعيد أى فى الدنيا .. وهم الآن فى الآخرة ، فكيف لهم أن يلحقوا بهذا الذى قذفوه ، ويمسكوا به ؟ .

قوله تعالى :

* « وحيل بينهم وبين ما يشتهون . . كما فُعل بأشياعهم من قبل . . إنهم كانوا فى شك مريب » .

حيل بينهم وبين ما يشتهون : أى حُجز بينهم وبينه . . فلا سبيل لهم إليه . .

والذى يشتهونه ، هو العودة إلى الدنيا ، وأخْذ ما فاتهم ، واسترداد

ما ضاع منهم فيها ، من الإيمان بالله واليوم الآخر . .

والأشياع : هم الأولياء ، والأنصار . . وهم هنا من كان على شاكلة هؤلاء الكافرين من القرون الغابرة ، والأمم الماضية ، أو من جاء بعدهم ممن كانوا على الكفر فى الدنيا ..

والمعنى أنه قد حيل بين هؤلاء المشركين ، وبين ما كانوا يتمنّونه ، ويطمعون فيه من العودة إلى الدنيا ، وإصلاح ما أفسدوا من أمرهم ، كما حيل بين كل كافر وبين هذه الشهوة التى يشتهيها فى الآخرة .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى على لسان أهل الكفر والضلال فى الآخرة : « ياليتنا نُرَدُّ ولا نكذبَ بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » (٢٧ : الأنعام) .

— وقوله تعالى : « إنهم كانوا فى شك مريب » ـ وصف لما كان عليه أهل الكفر والضلال فى الدنيا ، وأنهم كانوا فى شك مريب من أمر الآخرة أى فى شك يقوم من ورائه شك . . فلا يخرج بهم الشك إلا إلى شك ، فلم يكن يقع منهم أبداً الايمان بالله ، ولو ردوا إلى الدنيا ـ بماهم عليه من طباع ـ لعادوا إلى ما نُهُوا عنه . .



٣٥ – سورة فاطر

نزولها : مكية

عدد آياتها : خمس وأربعون آية . .

عدد كلماتها : سبعمائة وسبعون . .

عدد حروفها : ثلاثة آلاف ومائة وثلاثة وثلاثون .

مناسبتها لما قبلها

بدأت سورة « سبأ » السابقة بالحمد لله ، والثناء عليه ، وإضافة ما فى السموات ومافى الأرض إليه سبحانه وتعالى ، ثم خُتمت بعرض الكافرين على جهنم وما يلقاهم من ضنك وبلاء هناك ، وما يتمنونه من العودة إلى الحياة الدنيا ، وأن ذلك مالا يكون أبداً ، وأنهم لو رُدُّوا لما آمنوا ، لأنهم يحملون طباعاً لاتتعامل إلا مع الضلال والكفر .

وقد بدئت سورة « فاطر » هذه بحمد الله أيضا ، والثناء عليه ، وإضافة الوجود إليه إضافةَ إيجاد وخلق ، بعد أن أضافته إليه سورة سبأ ، إضافةَ مِلك وتصريف . . ثم كان هذا الحمد رَدًّا على كفر الكافرين وشكّهم ، وما جرّهم إليه هذا الكفر والشك من بلاء ونكال ، فهو حمدٌ من المؤمنين إذ عافاهم الله سبحانه وتعالى مما يَلْقَى أهلُ النار من عذابٍ أليم .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٧)

* « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُولِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ (٥) إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (٦) ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثُلاث ورُباع يزيد فى الخلق ما يشاء . إن الله على كل شىء قدير » .

فاطر السموات والأرض : أى مبدعهما ، وخالقهما ، على أتم نظام وأكمله .
ومنه الفطرة ، وهى ما ركب الله سبحانه وتعالى فى الإنسان من غرائز وميول ، يولد بها الإنسان ، كصفحة بيضاء نقية . .

والجعل: إضافةٌ على أصل الخلق، وهو العمل الوظيفي للمخلوق، حسب طبيعته.. كما يقول سبحانه: «جعل الشمس ضياء والقمر نوراً» (٥ يونس).. وقد شرحنا هذا المعنى فى مواضع أخرى..

فالحمد لله، من ذاته، ومن المخلوقات لذات الخالق، حمداً على الخلق والإيجاد، وعلى ما أمد به ما خلق، من أسباب البقاء، وعلى أن جعل الملائكة رسلاً إلى الناس، تحمل إليهم رسالات السماء، بالهدى والنور، وتستغفر للمؤمنين بالله، وتصلى على رسول الله، صلوات الله وسلامه عليه..

— وقوله تعالى: «مثنى وثلاث ورباع» صفة للأجنحة، وتدل هذه الصيغ على كثرة المعدود، وأن الملائكة ذوو أجنحة، وأنهم فى ذلك ثلاثة أصناف، صنف له جناحان، وصنف له ثلاثة أجنحة، وثالث له أربعة أجنحة.. وهذه الأجنحة من نور، تتشكل من هذه الأنوار اللطيفة كما تتشكل صور الأشياء من عالم المادة..

وقوله تعالى «يزيد فى الخلق ما يشاء» هو ردٌّ على من يتصور أن ذوات الأجنحة لا تكون إلا بجناحين، وأن الثلاثة لا يقوم بها نظام الطائر، كما أن الأربعة هى بمنزلة الجناحين.. وهذا فى تقدير الخلق، ولكن الخلاق العظيم المبدع، يخلق ما يشاء، ويزيد فى الخلق ما يشاء.. «إن الله على كل شىء قدير» فإذا جَعَل لطائر، ثلاثةَ أجنحة، أو أربعة، أو ماشاء الله من أجنحة، كان ذلك بتقدير، وعلم، وحكمة.. «الذى أحسن كلَّ شىء خَلَقَه» (٧: السجدة)

قوله تعالى:

* «ما يفتحِ اللهُ للناس من رحمةٍ فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له بعده وهو العزيز الحكيم»

أى إن القدرة كلّها بيد الله وحده، لا يملك أحد شيئاً يقدِرُ به على أن

يجلب خيراً أو يدفع ضُرًّا، إلا بإذن الله وتقديره ..

فما يرسله الله سبحانه وتعالى إلى الناس، من رحمة، أي من خير ورزق، لا يستطيع أحد رده، والحيلولة بينه وبين أن يصل إلى حيث أراد الله ..

وما يمسك الله من شيء، فلا يستطيع أحد أن يرسله، ولا أن يزحزحه عن الموضع الذى هو فيه ..

وقد قُيِّد ما يرسل من الله - سبحانه — بالرحمة، إشارة إلى ما لله سبحانه وتعالى من فضل وإحسان، وأنه رحيم بعباده، وأن رحمته وسعت كل شيء

وأطلق ما يمسك، ولم يقيد بالرحمة أو غيرها، إشارة إلى أن الله سبحانه إنما يمسك ما يمسك لا ضناً بما يمسكه، وإنما لحكمة وتقدير .. « وهو العزيز الحكيم » الذى عز سلطانه فملك كل شيء، والذى قام ملكه على الحكمة، فلا يقع فيه شيء إلا بتقدير الحكيم العليم

قوله تعالى:

* « يٰأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون »

وإذا كان الله سبحانه وتعالى، هو مالك الملك وحده، والمتصرف فيه بلا شريك يشاركه - فإن أى مخلوق يتوجه إلى غير خالقه، ويطلب الرزق منه، يكون قد ضل، ولن يبوء إلا بالخيبة والخسران ..

- وقوله تعالى: « فأنى تؤفكون » استفهام إنكارى، ينكر على الذين يولون وجوههم إلى غير الله، ويلتمسون الرزق من غيره - ينكر عليهم هذا الضلال، ويلومهم إلى هذا المتجه الخاطىء الذى يتجهون إليه .. والإفك: الافتراء والبهتان .

قوله تعالى :

* « وإن يكذبوك فقد كُذّبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور » .

هو عزاء كريم من الله سبحانه وتعالى ، للنبى صلوات الله وسلامه عليه ، فيما يَلْقَىَ من قومه من تكذيب ، فهو ليس وحده الذى كُذِّب من قومه ، فإن إخوانه الأنبياء من قبله ، قد لَقُوا من أقوامهم مثل ما لقى ، من سفاهة السفهاء ، وتطاول الحمقى ، وتكذيب الضالين والجاهلين . .

— وقوله تعالى : « وإلى الله ترجع الأمور » تهديد لهؤلاء المكذبين ، وبأن أمرهم إلى الله ، وأنهم راجعون إليه ، فيقضى فيهم بحكمه ، ويجزى المسىء منهم بما عمل ! . .

قوله تعالى :

* « يأيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور »

وعد الله : هو ما وعد الله سبحانه فى آياته ، وعلى لسان رسوله ، من البعث والحساب . . والجزاء ، والجنة والنار .

وهذا الوعد حق ، وهو آت لا ريب فيه . .

— وقوله تعالى : « فلا تغرنكم الحياة الدنيا » تنبيه للغافلين عن هذا اليوم ، المتناسين أو الناسين لهذا الوعد ، المشغولين عنه بما بين أيديهم من متاع الدنيا وزخارفها . .

— وقوله تعالى « ولا يغرنكم بالله الغرور » . الغَرور : هو الشيطان ، وسمى غروراً ، لأن يغر الناس ، ويخدعهم ، ويزين لهم الضلال ، فيأتونه وكأنه الهدى . .

وكل ما يشغل الإنسان عن الله ، وعن العمل الصالح ، هو غرور ، لأنه يغرر بالإنسان ويخدعه ، . ومنه الغَرَر فى البيوع . وقد حرمه الإسلام لما فيه من مخاطرة وغبن .

قوله تعالى :

* « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » ..

هو وصف كاشف لهذا «الغرور» وهو الشيطان .. إنه عدو للناس ، ومن الحكمة أن يحذر المرء عدوه ، وألاّ يأمن جانبه . . وهو عدو خفى ، وهذا يقضى بالانتباه الشديد إلى هذا العدو ، وإلى الأساليب والحيل التى يدخل بها على الإنسان . .

فكل منكر ، وكل ضلال ، من ورائه شيطان يدفع الإنسانَ إليه ، ويزين له الطريق نحوه . .

فإذا واجه الإنسان منكراً ، أو تلبس به ، فليذكرْ أنه ضحية عدوه هذا ، وأنه قد تمكن منه ، ونال غايته فيه . . فليجتهد ما استطاع أن يخرج من سلطان هذا العدو ، وأن يفسد عليه صنيعه به ، وأن يشد عزمه وإرادته ، وأن يستحضر جلال الله وعظمته ، وأن يذكر أنه فى موقفه هذا ، على الطريق إلى جهنم ، والشيطان هو الرائد إليها ، والداعى إلى عذاب السعير . .

قوله تعالى :

* « والذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير » .

وحزب الشيطان وأولياؤه هم الكافرون ، والكافرون لهم عذاب شديد

أما أعداء الشيطان ، فهم المؤمنون ، الذين خرجوا عن سلطان هذا « الغرور » فاستجابوا لله ، وآمنوا به ، وعملوا الصالحات . . وهؤلاء « لهم مغفرة وأجر كبير » فالله سبحانه وتعالى يتفضل عليهم بالمغفرة لِما وقع منهم من ذنوب ، لأنهم إذا أساءوا أحسنوا ، وإذا أذنبوا تابوا . . والله سبحانه وتعالى يقول فى عباده المؤمنين : « ويدرءون بالحسنة السيئة . . أولئك لهم عقبى الدار » (٢٢ : الرعد) ويقول النبي الكريم : « وأتبِع السيئةَ الحسنةَ تمحها » .

الآيات : (٨ — ١٤)

* « أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ (٩) مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ

كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

• « أفمن زُيِّن لَهُ سُوء عمله فرآه حَسنًا فإن الله يُضلّ من يشاء ، ويهدى من يشاء فلا تَذهبْ نفسُك عليهم حسراتٍ إن الله عليم بما يصنعون » .

وقفت الآيات السابقة من المشركين موقف الناصح الداعى إلى الحق ، الكاشف عن آيات الله ، وآلائه ، المحذّر من بأس الله وعذابه ، المواسى لرسول الله صلّى الله عليه وسلم ، من تكذيب المشركين له . . فتلك هى سبيل الضالين مع رُسُل الله فى كل أمة . .

وهنا فى هذه الآية ، يتلقى النبى من ربّه عزاءً جميلاً ، عن مصابه فى قومه ، ودعوةً كريمة إلى الرفق بنفسه ، والترويح عنها ، والإمساك بها بعيداً عن موطن الحزن والحسرة ، على من لا يستحقون الأسى عليهم ، والحزن لهلاكهم . . إن نفسه أعزّ على الله وأكرم من أن تشقى هذا الشقاء المضنى ، فى سبيل نفوس رخيصة ضائعة ، لا يقام لها وزن . .

— وفى قوله تعالى : « أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً » استفهام إنكارى ، يراد به كشف هؤلاء المشركين للنبىّ ، وأنهم قد زُين لهم سوء أعمالهم ، فرأوها حسنةً ، وأنهم من أجل هذا لن يتحولوا عمّا هم فيه أبداً . .

إنهم يَرَوْن الخير كلّ الخير ، والحق كلّ الحق ، فيما هم فيه . . ومن كان على هذا الرأى فيما عنده ، فلن يقبل بحالٍ أن يستبدل به غيره أبداً . .

وفى النظم القرآنى كلام محذوف ، دل عليه السياق ، والتقدير : « أفمنْ زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً » أيستجيب لداع يدعوه إلى غير هـذا الذى زُيِّن له ؟ ذلك مالا يكون . . وهؤلاء المشركون الذين أمسكوا بشركهم ، قد زُيِّن لهم هذا الشرك ، فرأوه حسناً . . وإذن فلا يُرجَى منهم أن يستجيبوا لك أبداً . . ومن هنا فإن الأسى عليهم ، والجزعَ من المصير الذى هم صائرون إليه — لا محلّ له ، إذ كان هو المنزل الذى تخيّروه ورضوا به ، وإذ كان ذلك هو الزاد الذى لن يستسيغوا غيره . « فلا تذهب نفسُك عليهم حسراتٍ » . !

— وفى قوله تعالى : « فإن الله يُضلُّ من يشاء ويهدى من يشاء » إشارة إلى قضاء الله فى هؤلاء المشركين ، فإنهم ممن أضلهم الله . . « ومن يُضلل فلن تجد له وليًّا مرشداً » (١٧ : الكهف)

قوله تعالى :

* « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلدٍ ميّتٍ فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الله سبحانه وتعالى ، يبعث رسله بالرحمة إلى عباده ، فيقبلها قوم ، ويأباها آخرون . فهى أشبه بالغيث ، ينزل من السماء ، فتحيا بها أماكنُ منها ، وتُخرج الحبّ والثمر ، على حين يتحول به بعضها إلى أحراش ، تؤوى الهوام والحشرات .

— وقوله تعالى : « والله الذى أرسل الرياح ، فتثير سحاباً » هو معطوف

على الجملة الابتدائية فى قوله تعالى : « فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء » وذلك مثل قوله تعالى : « إن الله برىء من المشركين ورسولُه » . . والتقدير : إن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، وهو سبحانه الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً » واختلاف النظم فى « يهدى » (بالفعل المتجدد) « وأرسل » (بالفعل الماضى) . . إشارة إلى أن الإرسال يسبق الآثار المترتبة عليه ، وهى الإهداء ، أو الإضلال ، والإحياء أو الإماتة . . فالإرسال سابق ، ولهذا عُبّر عنه بالفعل الماضى . . والآثار المترتبة عليه ، مستمرة ، لا تنقطع ، ولهذا عُبر عنه بفعل المستقبل « يهدى » .

— وفى قوله تعالى « كذلك النشور » . . إشارة إلى قضية البعث ، التى هى مبعث ارتياب المشركين ، وتكذيبهم للرسول فى كل ما يدعوهم إليه . . وفى هذه الإشارة دليل مادىّ محسوس يشهد لإمكانية البعث ، وأنه إذا كانت الأرض الميتة الجدبة ، ينزل عليها الماء ، فتلد هذه المواليد العجيبة ، من النبات ، والزهر ، والثمر ، فإن هذه الأرض التى أودع فى ترابها الناسَ ، ليس ببعيد أن ينفخ الله فيها نفخة الحياة ، فتخرج ما فى بطنها من آدميين ! . .

قوله تعالى :

* « من كان يريد العزّة فلله العزّة جميعاً . . إليه يَصْعَدُ الكلمُ الطيبُ والعمل الصالحُ يَرْفَعُهُ والذين يمكرون السيئات لهم عذابٌ شديد ومكرُ أولئك هو يبورُ » .

أى أن هؤلاء المشركين إنما يتخذون هذه الآلهة التى يعبدونها من دون الله ، ليكونوا لهم شفعاء عند الله ، ولينالوا بهم عزاً وجاهاً ، كما يقول سبحانه

« واتخذوا من دونه آلهة ليكونوا لهم عزاً » (٨١ : مريم)

ولقد أخطأ هؤلاء المشركون الطريق إلى العزة . . إن العزة لله جميعاً ، لا يملك أحد منها شيئاً ، فمن أراد العزة ولم يلتمسها من الله ، فلن ينال منها شيئاً . .

— وقوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب » . . إشارة إلى أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، ولا يرد موارد عزّته إلا الطيبون . . والمشركون نجس ، وإذن فلا طريق لهم إلى الله ، ولا شيء لهم من العزة التى هى مِلك يمينه . . وأنهم إذا أرادوا أن يأخذوا طريقهم إلى الله ، وإلى العزة التى بين يديه ، فليتطهروا من شركهم ، وليؤمنوا بالله ، وبغير الإيمان بالله لن يكون لهم طريق إلى الله . . فالكلم الطيب هو كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » وقوله تعالى : « والعمل الصالح يرفعه » ـ إشارة إلى الإيمان بالله يقيم صاحبه على أول الطريق إلى الله ، ثم تكون الأعمال الصالحة التى تقوم وراء الإيمان هى التى ترفع صاحبها إلى الله ، وتدنيه منه . . فإن الإيمان ـ مجردَ الإيمان ـ دون عمل صالح ، هو خير معطل ، أشبه بالنبتة الصالحة فى الأرض الطيبة ، لا يصيبها ماء ! فإذا أصابها الماء اهتزت لها الأرض وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . . « فالعمل الصالح » يزكى الإيمان ، وينميه ، ويثبت دعائمه ، ويرفع بنيانه

وقوله تعالى : « والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد » . .

مكر السيئات : تدبيرها ، والاحتيال فى التمكين لها .

وفى هذا تهديد للمشركين الذى يغرسون فى مغارس السوء ، ويعملون فى مجال الضلال ، إنهم لا يجنون من غرسهم هذا إلا أنكد الثمر وأخبثه . إنه العذاب الشديد فى الآخرة ، والحسرة والوبال فى الدنيا . .

وفى قوله تعالى « ومكرُ أولئك هو يبور » حكم قاطع على هذا المكر السيء الذى يمكره المشركون بالنبى وبدعوته ، بأنه إلى بوار وضياع ، لا ينالون به من الدين يمكرون به ، وهو هذا الدين الذى يُدْعَون إليه ـ لا ينالون منه منالا ، بل سيبطل الله مكرهم به ، ويكتب لهذا الدين الغَلَب والنصر ، ولأهله العزة والتمكين . .

قوله تعالى :

* « والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمَّر ولا يُنقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير »

هو عرض لبعض سلطان الله ، وقدرته ، وأن له سبحانه العزة جميعاً . .

فهو ـ سبحانه ـ بقدرته ، خلق الناس من هذا التراب الهامد. فهذا التراب هو الأصل الذى تخلقت منه النطَف ، التى تخلّق منها الأجنة فى بطون الأمهات، ومن الأجنّة كانت المواليد ، وكان الناس . .

وهذا التراب ، الذى يبدو أنه أصلٌ أول فى خلق الإنسان ، هو فى حقيقته ، قد مرَّ فى أطوار كثيرة ، حتى صار هذا التراب . . تماماً كما مر الإنسان فى أطوار الخلق ، من النطفة إلى العلقة ، إلى المضغة . . إلى آخر ما هنالك من صور وأطوار فى الخلْق.

ـــ وفى قوله تعالى : « ثم جعلكم أزواجاً » إشارة إلى تنويع خلق الإنسان، فكان منه الذكر والأنثى . كما يقول سبحانه وتعالى : « ألم يك نطفة من منىّ يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوّى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » « ٣٧ـ ٣٩ : القيامة)

— وفى قوله تعالى : « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمَّر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب . . إن ذلك على الله يسير » ـ إشارة إلى أن قدرة الله سبحانه وتعالى، ليست واقفة عند هذا الحد من خلق هذا الإنسان من تراب ، بل إن تلك القدرة قائمة على كل مخلوق ، قبل خلقه ، وبعد خلقه ، وفى كل لحظة من لحظات وجوده وقبل وجوده . . فما تحمل من أنثى من حمل، ولا تضع من مولود ، إلا وعِلْم الله قائم عليه ، محيط به ، ومقدر له العمر الذى يلبسه فى هذه الحياة ، من طول أو قصر . . فهذا كله فى كتاب مبين ، كتبه الله بعلمه ، وأودعه فى كتاب مبين ، هو اللوح المحفوظ . .

والنقص من العمر، ليس نقصاً فى العمر المقدّر فى كتاب الله للكائن الحى ، وإنما هو نقص بالإضافة إلى من طال عمره . . فالذى قُدر له أن يعيش أياماً ، أو شهوراً ، أو بضع سنين ، إنما يعيش هذا العمر المقدر له فى علم الله ، والمسطور فى كتابه ، وهذا العمر ، هو عمر يبدو ناقصاً بالنسبة لمن يعيش عشرات السنين . . أما عمره فلم ينقص منه شىء . . وذلك كله يسير على الله ، الذى لا يئوده حفظ هذا الوجود !

قوله تعالى :

* « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كلٍّ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »

ومن دلائل قدرة الله ، وكمال عزته ، أنه جمع بين البحرين ، وفرق بينهما فى آن . فهما فى واقع الحياة كائن واحد، يتشكل من مادة واحدة هى الماء . ومع هذا فهما طبيعتان متغايرتان . . « هذا عذب فرات » أى ماء حلو : «سائغ شرابه» أى تستسيغ النفس شرابه ، ويلذ لها طعمه . . «وهذا ملح أجاج»

أى كثير الملوحة ثم إنهما مع هذا الاختلاف، يثمران للإنسان ثمراً ، يجنيه منهما على سواء ، فمن الماء العذب والماء الملح ، يأكل لحماً طرياً ، هو ما يستخرج منهما من أنواع السمك .. كما يستخرج منهما حلىٌ تُلبس للزينة ، كاللؤلؤ ، والمرجان ، وأنواع الصدف ، وغيرها . . وعلى كلا البحرين ـ العذب والملح ـ تجرى السفن محملة بالبضائع والأمتعة ، والناس

وفى الآية الكريمة أكثر من إشارة .

فأولا : الناس ، وأصلهم من ماء ، كهذا الماء . هو هذه النطفة ، وقد فرقت القدرة الإلهية بينهم ، كما فرقت بين العذب والملح فهناك المؤمنون والكافرون ، وهما غير متساويين ، كما أن الماء العذب والماء الملح غير متساويين .

وثانياً : الماء العذب، يقابله المؤمن ، والماء الملح، يقابله الكافر . والمؤمن طيب ، مقبول فى الحياة الإنسانية . . إنّه الحياة التى تمسك بوجودها على الصحة والسلامة ، كالماء العذب ، فهو الذى يمسك حياة الأحياء ، ويقيم وجودها . .

وثالثاً : الماء الملح ، وهو على ما به من ملوحة لا تقبلها النفس ، يشارك الماء العذب ، فى استكمال حياة الناس ، وفى جلب كثير من المصالح لهم . وكذلك الكافر ، إنه ـ على ما به ـ يشارك فى بناء الحياة الإنسانية ، ويمثلّ جانباً مهمّا منها . إنه الكفة الأخرى التى يعتدل بها ميزان الحياة . . وإنه لولا الكافر ، ما استبان وجه المؤمن ، ولا عُرف فضله ، ومقامه . .

ورابعاً : الماء الملح ، هو الكثرة الغالبة فيما على الأرض من ماء ، وكذلك الكفر ، هو الوجه العريض فى دنيا الناس ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وما أكثرُ الناس ـ ولو حرصتَ ـ بمؤمنين » (١٠٣ : يوسف)

وخامساً : أنه برسالات السماء ، وهدى الرسل ، يخرج المؤمنون من أحشاء

هذا الكفر ، وذلك بعد صراع ومعاناة . . تماماً كما يخرج الماء العذب من صدر المحيطات ، بفعل الرياح التى تثير أمواجها ، وتخرج بخارها ، وتعلو به فى طبقات الجو ، ثم تشكّله سحاباً ، تدفع به إلى حيث أراد الله ، وإلى حيث قدر لهذا السحاب أن ينزل من ماء . .

وهناك صور كثيرة لا تنتهى ، يمكن أن يراها الناظرون فى الآية الكريمة ، وفى النظر إلى الناس على ضوئها . .

قوله تعالى :

* « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كلّ يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير »

ومن قدرة الله ، وبسطة سلطانه ، وكمال عزته . . أنه — سبحانه — « يولج الليل فى النهار » أى أنه سبحانه يدخل الليل ، بظلامه الكثيف، فى أحشاء النهار ، فيشتمل عليه النهار ، ويستولى بسلطانه المشرق ، على ظلماته المتراكمة . . فإذا الدنيا وقد خلعت هذا الرداء الأسود ، ولبست ذلك الثوب النورانى ، كما تلبس العروس ثوب زفافها . . وأنه سبحانه — بقدرته — « يولج النهار فى الليل » فيدخل هذا النور الساطع فى أحشاء الظلام ، فيستولى الظلام بسلطانه على هذا النور . . وهكذا الحياة . . نور وظلام ، وخير وشر ، وعذب فرات وملح أجاج ، ومؤمن وكافر . .

— وقوله تعالى : « وسخر الشمس والقمر . . كل يجرى لأجل مسمى » أى ومن قدرته سبحانه ، أنه سخر الشمس والقمر لسلطانه ، وأجراهما بقدرته ، كيف شاء ، وأقامهما على هذا النظام المحكم الذى لا يدخل عليه أى اضطراب أو خلل :

« لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابقُ النهار وكل فى فلك يسبحون » (٤٠ : يس)

— قوله تعالى : « ذلكم الله ربكم .. له الملك » أى ذلك الذى أقام الوجود على هذا النظام ، واستولى بسلطانه على كل شىء فيه — هو الرب ، الخالق الذى لا رب سواه ولا خالق غيره .. فمن ابتغى ربًّا غيره فقد ضل ، ومن عبد معبوداً سواه فقد هلك .. ذلك هو ربّ العالمين — له الملك ، وله الخلق والأمر ..

— قوله تعالى : « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير »

القطمير : هو القشرة الرقيقة التى تكون غلافا للنواة فى داخل الثمرة ..

أمّا الذين يعبدهم المشركون من أرباب ، فإنهم لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .. ما يملكون جميعاً قشرة من نواة .. فما أضلّ من يلتمس العزّة ، ويرجو الخير ممن لا يملك شيئاً ..

قوله تعالى :

* « إن تدعوهم لا يسمعوا دُعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثلُ خبير » .

أى أن هؤلاء المعبودين الذين اتخذهم المشركون أرباباً لهم من دون الله ، إن يَدْعُهم عابدوهم إلى أى أمرٍ ، ولأية حاجة — لا يسمعوا دعاءهم .. لأنهم أحجار صمّاء ، ودُمًى خرساء .. « ولو سمعوا ما استجابوا لكم » أى لو قُدِّر لهم أن يسمعوا — فرضاً — أو كان فيهم من يسمع — فعلاً — كالملائكة والجنّ ، وغيرهم ممن يعبدهم المشركون — ما استجابوا لهم ، وما أسعفوهم بما يطلبون منهم .. إنهم يطلبون شيئاً ممن لا يملك شيئاً . وفاقد الشىء لا يعطيه ..

وقوله تعالى : « ويوم القيامة يكفرون بِشرْكِكُم » .. وأكثر من هذا

فإن هؤلاء المعبودين يلقون عابديهم يوم القيامة على عداوة لهم ، وكفر بعبادتهم إياهم ، وبراءة من تلك التهمة التى أرادوا أن يلصقوها بهم . .

وقوله تعالى : « ولا ينبئك مثل خبير » إشارة إلى أن ما تحدّث به الآية من تلك الحقائق ، هو الحق المطلق الذى لا شك فيه ، لأنه من عند الله ، العليم الخبير . . وهذا ما يقضى بالتصديق بهذه الأخبار ، والعمل بها ، وأخذ العبرة منها ، لأنها ممن يعلم الغيب فى السموات والأرض ، وكلّ علم يخالف هذا العلم ، باطل ، وضلال . .

الآيات : (١٥ — ٢٣)

* « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ (١٩) وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ (٢٠) وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد »

كشفت الآيات السابقة عن وجهِ الأرباب التى يتعبد لها المشركون ، وأنها لا تسمع دعاء ، ولو سمعت ما استجابت لداعيها ، لأنها لا تملك شيئاً . .

— وفى قوله تعالى : « يـٰأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله » دعوة للناس أن يتجهوا بحاجاتهم إلى مَن يملك كل شىء ، ومَن بيده الخير كله .. والناس جميعاً فى حاجة دائمة إلى من يعينهم ، ويقضى حوائجهم ، وهم يتوسلون إلى هذا بكثير من الوسائل ، ومنها عبادة الأصنام ، والملائـكة والجنّ ، والملوك وأصحاب الجاه والسلطان ، يبغون بذلك الخير منهم .. وكلهم إنما يتناولون ما بين أيديهم من جاه ، أو سلطان ، أو مال — من عطاء الله .. إنهم فقراء إلى الله . . إن حبس عنهم العطاء ، كانوا أفقر الفقراء ، وأضعف الضعفاء .. وإذن فالناس جميعاً — غنيُّهم وفقيرهم — فقير إلى الله .. « كلاًّ نُمدّ هؤلآء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً » (٢٠: الإسراء)

وقوله تعالى : « والله هو الغنىّ الحميد » حثٌّ للناس على الطلب من الله ، والرغَبِ إليه فيما عنده .. فإنه سبحانه غنىٌّ ، لا تنفد خزائنه ، ولا تَنقُص بالعطاء أبداً . « واسألوا الله من فضله » (٣٢ : النساء) فهو سبحانه يستجيب لمن سأله ، ويعطيه ما شاء من فضله .. وهو سبحانه « حميد » أى يحمد لعباده ما يلقوْن به عطاءه ، من حمدٍ وشكر ، أيًّا كان هذا العطاء ، قليلاً أو كثيراً . . إنه فضل من فضل وإحسان من إحسانه . . وإن من لا يشكر على القليل لا يشكر على الـكثير . .

قوله تعالى :

* « إن يشأ يذهبْكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز »

أى إن من فقركم إلى الله ، أيها الناس ، هو احتياجكم إليه فى حفظ حياتكم.. .

فهو سبحانه الذى أوجدكم ، وهو سبحانه الذى يحفظ عليكم وجودكم ، كما يحفظ وجود الموجودات كلها : «إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إنْ أمسكهما من أحد من بعده» (٤١ : فاطر)

وفى الآيتين تهديد للناس ، إذا هم لم يؤمنوا بالله ، ويحمدوا له ما هم فيه من فضله وإحسانه . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » (٥٦ — ٥٨ الذاريات) . . فإذا لم يؤدّ الناس واجب الشكر لله ، ولم يقوموا على الوظيفة التى خلقهم الله لها ، لم يكونوا أهلاً ليَشْغَلوا هذا المكان ، وكان أولى أن يشغله غيرهم ، ممن يعرف لهذا المكان قدرَه ، ويؤدى المطلوب منه فيه . . وفى هذا يقول الله تعالى : « وإن تتولوا يستبدلْ قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » (٣٨ : محمد) « وما ذلك على الله بعزيز » أى ليس عسيراً على الله أن يستبدل خلقا بخلق، وعالمًا بعالم، وكيف وهو الخالق لكل شيء ؟

قوله تعالى :

* « ولا تزر وازرة وِزر أُخرى وإن تدع مُثقلة إلى حملها لا يُحمل منه شيء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يَخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة . . ومن تزكّى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير »

جاءت هذه الآية تعقيبا على الآيتين السابقتين اللتين حملتا تهديداً للناس بإفنائهم جميعاً ، إذا هم لم يوفوا حق الله عليهم ، من إيمان به وشكر له . .

وفى هذه الآية تفرقة بين الناس ، الذين وضعتهم الآيتان السابقتان وضعاً واحداً فى مقام التهديد . .

فالناس ، وإن كانوا مجتمعاً واحداً ، هم أشبه بالجسد الواحد ، يتأثر ، ويشقى

بالأعضاء الضعيفة ، أو الفاسدة فيه ، إلا أنهم من جهة أخرى أفراد متميزون . .
كلٌّ منهم له وجوده الذاتى ، وحياته الخاصة به ، وحسابه الذى يقوم عليه ميزانه
فى مقام الخير والشر على السواء . . فإذا نُظر إلى الإنسان من خلال المجتمع ،
كان عليه أن يكون عضواً صالحاً فيه ، ثم كان عليه أيضاً أن يعمل على إصلاح
ما يظهر من فسادٍ فى مجتمعه . . ففى ذلك حماية له من عدوى الفساد ، ومن ريحه
الخبيثة ، أن تفسد عليه حياته . .

ثم إذا نُظر إليه من خلال ذاته ـ صالحاً كان أو فاسداً ـ كان التعامل معه
فى مقام الحساب والجزاء على أساس شخصى . . فله إحسانه كله ، وعليه إساءته
كلها . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

— « ولا تزر وازرة وزر أخرى »

والوزر : الإثم والذنب .

والوازرة . حاملة الوِزر ، والمراد بها ذات الإنسان . .

والمعنى ، أنه لا يحمل إنسان ذنب غيره ، ولا يُعينه فى حمله ، وإن كان حِمله
خفيفاً ، وحمل غيره ثقيلا ، ولو كان حامل هذا الحمل الثقيل قريباً ، كأبٍ ،
أو ابن ، أو زوج ، أو أخ لمن يدعوه إلى حمل بعض ما حمل .. كما يقول سبحانه
بعد هذا :

— « وإن تدع مُثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى »

هذا هو ميزان الحساب للناس .. لكل إنسان عند الله ، جزاء ما عمل ..

قوله تعالى :

— « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب »

أى إنما ينفع هذا البيان ، وذلك الذكر ، مَن يخشى الله بالغيب ، ويعرف

جلاله وبأسه ، من غير أن يراه ، وإنما يرى آثاره ويشهد جلال قدرته ، وعلمه ، وحكمته فيما أبدع وصور فى هذا الوجود .. وهذه الخشية إنما تكون عن استعدادٍ فطرى ، يقبل التعامل مع العالم غير المحسوس ، عالم الغيب .. فهناك كثير من الطبائع قد تأثرت بالعالم المادى ، وتشكلت ملكاتها على قوالبه ، فلا تقبل التعامل إلا مع الماديات . . أما ما وراء المادة فإنها ترفض التسليم به ، وتأبى التعامل معه .

وفى قصر الإنذار على الذين يخشون ربهم بالغيب ، مع أن الرسول نذير وبشير للناس جميعاً ـ فى هذا إشارة إلى أن الذين ينتفعون بهذا النذير ، هم الناس ، وهم أهل للخطاب ، وأما غيرهم ، فلا حساب لهم ولا وزن فى هذا المقام ..

ـــ قوله تعالى : « وأقاموا الصلاة » معطوف على قوله تعالى : « الذين يخشون ربهم » وكان النظم يقضى بالتوافق فى وحدة الزمن بين الفعلين المتعاطفين ، فيكونان مضارعين أو ماضيين ، . . ولكن جاء الحديث عن الخشية بالفعل المضارع ، الذى يحمل زمناً متجدداً ، على حين جاء الحديث عن إقامة الصلاة بالفعل الماضى ، الذى يقطع الفعل عن المستقبل ، وهذا لا يكون فى القرآن الكريم إلا عن حكمة ، وتقدير . .

والذى يبدو لنا من هذا ـ والله أعلم ـ أن الخشية لله بالغيب ، لا تكون إلا عن طبيعة تتقبل التعامل بما وراء المادة ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، أما الطبيعة التى تلبست بها المادة ، وسيطرت عليها ، فلا يكون منها نظر إلى ما وراء المادة ، ولا تقع منها خشية لله ، لأنها لا ترى الله ، ولا تشهد جلاله ، وسلطانه . . فالإنذار لا يفيد ، ولا يؤثر ، إلا إذا صادف طبيعة من شأنها أن تتقبل الإيمان بما وراء المادة ، وعن هذه الطبيعة تَصْدُر الخشية من الله ، فى كل حال ، وفى كل موقف يقفه صاحب هذه الطبيعة ، فيشهد فى أى حال

من أحواله ، وفى كل موقف من مواقفه — جلالَ الله ، وسلطان الله ، فيخشاه ويتّقى حرماته ، ولا يجد الجرأة على تعدّى حدوده . .

ومن جهة أخرى ، فإن هذه الطبيعة التى من شأنها أن تخشى الله بالغيب ، وتتوقّى الوقوع فى الإثم ـ هذه الطبيعة لا يقيمها على الطريق القويم ، ولا يجلو بصيرتَها جلاء ترى على ضوئه ما لله ـ سبحانه ـ من كمال ، وجلال ، وسلطان ـ إلا الصلاة ، وإقامتها على وجهها الصحيح .. فهى التى تعطى الخشية مضموناً ذا قيمة مؤثرة فى سلوك الإنسان ، كما أن الخشية هى التى تعطى الصلاة قدْراً وأثراً .. فالصلاة من غير خشية لا ثمرة لها ، ولا خير منها . . والخشية التى لا تغذّيها الصلاة وتنميها ، هى زرع حُبس عنه الماء ، فلا يلبث أن يذوى ، ويذبل ، ثم يجفّ ويموت

فمن الخشية لله ، أن تقام الصلاة ، فمن لا يخشى الله لا يقيمها ، ومن أقامها على غير خشية ، فلا نفع له منها . .

فخشية الله ، هى أساس الإيمان ، ومِلاك كل عمل يعمله المؤمن بالله . . فإذا خلا قلب الإنسان من خشية الله ، لم يكن ثمة إيمان ، ولم يكن ثمة عمل يَقوم فى ظل هذا الإيمان . .

وفى الحديث الشريف : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمرَ شاربُها وهو مؤمن » . . فالمراد بنفى الإيمان هنا ، هو نفى الخشية من الله ، عند ارتكاب هذه المنكرات . . فلو كان الإنسان المواجه لهذه المنكرات على خشية من الله ؛ ما أقدم على اقتراف واحدة منها . .

فالخشية المطلوبة من المؤمن ، خشيةٌ دائمة ، متجددة . . ومن هنا كان التعبير عنها بفعل الاستمرار والتجدد . .

أما إقامة الصلاة . . فهى عمل من أعمال المؤمن ، لا يقوم إلا فى ظل من خشية الله ، ولا يثمر ثمرة طيبة إلا إذا كان عن فيض منها ، . ومن هنا ارتبطت إقامة الصلاة بها ، وكانت حالا من أحوالها ، أو أحوال أهلها . . واختصت الصلاة بالذكر لأنها عمود الدين ، فمن أقامها فقد أقام الدين . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب » (١١ : يس) وقوله سبحانه : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة .. (٢ ـ ٣ : البقرة)

قوله تعالى :

* « ومن تزكّى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » . .

التزكى : التطهر ، من الشرك ، والكفر ، ومن الآثام والمنكرات . . أى ومن تطهر من الشرك والكفر ، وجنّب نفسه التلوث بأقذار الآثام والمنكرات ، فإنما يتطهر لنفسه ، حيث تظهر آثار ذلك عليه ، وتكون عائدةُ هذا التطهر راجعةً إليه ، يوم يُعرض على ربه نقياً ، طاهراً ، فيدخل فى رضوان الله مع الطيبين الطاهرين . .

[الإيحاء النفسى . . وأسلوب الدعوة]

قوله تعالى :

* « وما يستوى الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوى الأحياء ولا الأموات . . إن الله يُسمع من يشاء وما أنت بمسمعٍ من فى القبور » . .

فى هذه الآيات عرض لما بين الأشياء ونقيضها من تفاوت بعيد ، واختلاف شديد .. وأن الشىء ونقيضَه لا يستويان أبداً . .

فالأعمى . . والبصير . . لا يستويان . . هذا أعمى ، وذاك مبصر . .

والظلمات . . والنور . لا يستويان كذلك . هذه ظلمات ، وذاك نور . .

والظل . . والحرور . . لا يستويان أيضاً . . هذا ظل بارد ، وذاك سموم حار . .

والأحياء . . والأموات . . على طرفى نقيض . . هؤلاء أحياء ، وأولئك أموات هامدون . .

ويلاحظ هنا أمران :

أولهما : جمع الظلمات ، وإفراد النور . .

وذلك لأن الظلمات هى ظلالُ أشباح ، داخلة إلى عالم النور ، إذ كان العالم كله نوراً من نور الله ، كما يقول سبحانه : «الله نور السموات والأرض» فالعالم كيان واحد من نور ، وهذا الظلام الذى يُرى فى العالم ، إنما هو من ظلال تلك الأشباح الكثيفة الداخلة عليه . .

ومن جهة أخرى ، فإن الذى يعيش فى النور ، إنما يأخذ طريقاً واحداً فيه إلى غايته ، أما الذى يعيش فى الظلمات ، فإنه لا يعرف له طريقاً . . بل يتحرك مضطرباً على طرق شتى . .

وثانيهما : تقديم الظل على الحرور ، والأحياء على الأموات . . وكان النظم يقضى بتقديم الحرور على الظل ، والأموات ، على الأحياء ، لتتسق ألوان الصورة كلها ، فيكون الأسود المعتم (الأعمى ، والظلمات ، والحرور ، والأموات) — فى جانب ، والأبيض المشرق (البصير ، والنور ، والأحياء ، والظل) — فى جانب آخر ! فما حكمة هذا ؟ .

نقول — والله أعلم — إن الجواب على هذا من وجهين :

أولا : أن الظل هو نعمة ، فى مقابلة الحرور ، وكذلك الحياة نعمة ، فى مقابلة الموت . .

فقدمت هنا نعمتان ، على حين قدمت قبلهما آفتان ، هما العمى والظلمات..

وفى هذا التوزيع توازن لألوان الصورة ، حيث جاءت هكذا :

آفتان تقابلان نعمتين .. العمى والبصر ، والظلام والنور . .

ونعمتان تقابلان آفتين .. الظل والحرور ، والحياة والموت .

وثانياً : أن الأصل فى نفى الاستواء — وهو التوازن بين الشيئين — أن يقع أولا على الناقص منهما ، فيقدّم المفضول على الفاضل ، كما فى قوله تعالى: « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون » . . (٢٩ : الحشر) وقوله سبحانه : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين — غير أولى الضرر — والمجاهدون فى سبيل الله » .. (٩٥ : النساء)

هذا هو الاستعمال فى أصل اللغة ، فإذا خرج الاستعمال عن هذا الأصل، كان ذلك لغاية يراد لها . . كما فى قوله تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (٩ : الزمر) وذلك حين لا يكون المراد هو تقرير حكم فى المفاضلة بين أمرين ، وإنما المراد هو الإلفات إلى أن الأمور ليست على وجه واحد ، وإنما لكل أمر وجهان .. وجهٌ ، وضدٌّ لهذا الوجه. مثل الوجود والعدم ، والحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والنور والظلام ، والظل والحر ، والعذب والملح .. وهكذا .. والمطلوب من الخصم أن يعترف به هنا ، هو أن الشيء الذى يمسك به ، ليس هو كل الشىء ، وإنما يقابله نقيضه ، الذى يجب أن ينظر فيه ، ويقابل الوجه الذى معه ، على الوجه الآخر ، الذى لهذا الشىء ..

فإذا كان المشركون يُمسكون بالشرك ، ولا يرون أن هناك معتقداً غيرَه —

فليعلموا أن هناك وجهاً ،آخر لابد أن يقابل هذا الشرك ، دون التفات إلى أيهما الفاضل وأيهما المفضول..إن الأمور لا تكون إلا على هذا الازدواج.. الشيء وضده .. وليس الشرك الذى بين أيديهم بِدعاً من الأشياء .. فليبحثوا عن الوجه الآخر المقابل له .. فإذا فعلوا ، كانت المرحلة الثانية من مراحل النظر ،وهى أن يوازنوا بين مامعهم من شرك ، وبين الوجه الآخر المقابل له ، وهو الإيمان ..

وقد جاء الأمران الأولان على الأصل ، فقدّم فيهما المفضول على الفاضل ، على حين جاء الأمران الآخران على غير الأصل ، فقدم فيهما الفاضل على المفضول . . . وبهذا أخذ كل من الفاضل والمفضول مكانه فى الصورة على قدم المساواة . . لأن الأمر ـ كما قلنا ـ لم يكن يُراد منه المفاضلة ، وإنما المراد هو إثبات تلك الحقيقة التى لا خلاف عليها ، وهى الازدواج فى الأشياء ، والتقابل بين الشيء وضده . .

وفى مجىء المقطع الأول من الصورة ، على أصل الوضع فى اللغة ، الذى يتفق مع مجرى التفكير ، وذلك بتقديم المفضول على الفاضل ، فى مقام الموازنة والمفاضلة بينهما ـ فى هذا التقاء مع المشركين على أمرٍ لاخلاف عليه ، بين مؤمن وغير مؤمن . . وهذا من شأنه ألاّ يصدم تفكيرَهم ، ولا يخرج بهم عن مألوفهم ، الأمر الذى يدعوهم إلى الاستماع إلى هذا الذى يُعرض عليهم ، وإلى النظر فيه . .

فإذا وقع مقطع هذا الحديث من أنفسهم هـذا الموقع ، واجَهَهُم المقطع الآخر من الصورة ، وهو مقطع قد انقلب فيه الوضع ، وانعكست فيه مواقع الأمور ، فقُدِّم ما حقه التأخير ، وأخِّر ما حقه التقديم ، وفى هذا إشارة إلى أمرين :

أولهما : أن المشركين قد انعكست فى أنفسهم حقائق الأشياء ، وأنهم إنما ينظرون إلى الأمور ، وهم فى وضع منكوس ، وأنهم لو اعتدلوا فى وضعهم لرأوا هذا المقطع من الصورة على حقيقته . . إنهم يعيشون فى الحرور ويحسبونه الظل ، وهم أموات ، ويحسبون أنهم أحياء . . هذا هو وضعهم ، فإذا شكّوا فى هذا فلينظروا فى هذا المقطع من الصورة التى بين أيديهم ، وسيرون أن الحرور أفضل من الظل ، وأن الميت أكثر حياة من الحىّ . . وبهذا ينكشف لهم الوضع المقلوب ، الذى ينظرون فيه إلى الأشياء . .

وثانيهما : أنهم لو أرادوا أن يقيموا الصورة كلها على وضع سليم ، لكان عليهم أن يغيّروا بأيديهم هذا الوضع الذى أخذه المقطع الثانى من الصورة ، وأن يجعلوه موافقاً للوضع الأول ، فيقدموا الحرور على الظل ، والأموات على الأحياء ، وبهذا يكون الحكم على المطلوب صادراً منهم ، فتجىء الصورة العامة هكذا :

« وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الحرور ولا الظل ولا الأموات ولا الأحياء » . . إنها عملية تدعو إلى تحريك العقل ، وإلى أن يعمل عملاً جادًّا على تسوية هذه المتناقضات . . فإذا اتجهت عقولهم إلى هذا الاتجاه ، كان من طبيعة الأمور ألاّ ترضى عقولُهم بهذه المتناقضات ، التى تقوم فى كيانهم ، حيث يؤثرون الضلال على الهدى ، والكفر على الإيمان . . وهكذا تجىء آيات الله ، بهذه الإيحاءات النفسية ، التى تُدخل العقلَ فى رفق ولطف ، إلى مواطن الهدى ، ومواقع الخير . .

— وفى قوله تعالى : « إن الله يُسمع من يَشَاء » . . إشارة إلى أن الناس فريقان :

فريق يسمع آيات الله ويستجيب لها ، وفريق لا يسمع ولا يستجيب . .

هذه بهديهة تنطق بها الحقيقة المنتزعة من المقدمة السابقة ، التى عُرضت فيها هذه الأمور الأربعة . .

وفى إسناد الإسماع إلى الله تعالى ، إشارة إلى أن هذا الأمر كلّه بيد الله ، وكل شىء معلق بمشيئته : « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراطٍ مستقيم » (٣٩ : الأنعام) :

وقوله تعالى : « وما أنت بمسمعٍ من فى القبور » تيئيس للمشركين الذين استولى عليهم الشرك ، أن يكونوا فى السامعين ، وإراحة للرسول من بذل الجهد فى سبيل إسماعهم . . إنهم أموات . . وليس من عمل الرسول أن يُسمع الأموات . . « إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولّوا مدبرين » . (٨٠ : النمل)

* « إن أنتَ إلا نذير » . . فهذا هو عمل الرسول . . إنه نذيرٌ ، يُنذر هؤلاء الضالّين ، ويخوفهم عذاب الله ، وليس من شأنه أن يفتح آذانهم التى أصمها الله عن أن تسمع كلماته . . وقد اقتُصر هنا على جانب من رسالة الرسول ، وهو الإنذار ، لأن الخطاب فى مواجهة المشركين ، الذين لن يؤمنوا أبداً ، والذين ليس لهم إلا ما تحملُ إليهم النذر من عذاب ، وبلاء . .

الآيات : (٢٤ — ٢٨)

* « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ

كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير »

وليس الرسول .. صلوات الله وسلامه عليه .. نذيراً وحسب ، وإنما هو نذير وبشير .. نذير للضالين المكذبين ، وبشير للمؤمنين المهتدين ..

وفى قوله تعالى : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » إشارة إلى أن الله سبحانه قد بعث فى كل أمة رسولاً ، ينذر ، ويبشر .. كما يقول سبحانه. « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (١٦٥ النساء) .

واقتصر هنا فى رسالة الرسل ، على الإنذار ، لأن المقام ـ كما قلنا ـ مقامُ تهديد للمشركين وأهل الضلال ، ولأن أبرز جانب فى حياة الرسل ، هو الجانب الإنذارى ، حيث كانت حياتهم جهاداً متصلاً لأهل الكفر والضلال ..

قوله تعالى :

* « وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير »

البينات : المعجزات المادية ، البينة الإعجاز . .

والزبر : جمع زبور ، مثل عمود ، وعُمُد . .

والزّبور ، الشىء المقطوع من أصل . . والمراد بالزّبُر هنا ، ما كان ينزل على الأنبياء من آيات الله ، تحمل عظاتٍ وعبراً ، وبشريات ، ونذراً . .

والكتاب المنير : هو التوراة . . كما يقول سبحانه : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدًى ونور » (٤٤ : المائدة)

والآية مواساة للنبىّ ، وعزاء كريم له من ربه ، فيما يلقى من قومه من تكذيب . . فهو — صلوات الله وسلامه عليه — ليس أولَ رسول يلقى من قومه ما لقى ، من اتهام وتكذيب ، وإنما ذلك شأن الرسل قبله مع أقوامهم ، جاءوهم بمعجزات مادية محسوسة ، وجاءوهم بآيات الله وكلماته ، وجاءوهم بكتاب منير من عند الله ، يحمل دستوراً متكاملاً ، للحياة الدنيا والآخرة — جاءوهم بكلّ هذا ، فما وجدوا منهم إلا البَهْتَ والتكذيب ، وإلا التهديد والأذى . . « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم . . كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار » (٣٥ : الأحقاف)

وقوله تعالى :

* « ثم أخذتُ الذين كفروا فكيف كان نكير »

تلك عاقبة المكذبين برسل الله . . لقد أخذهم الله بذنوبهم ، وصبّ عليهم البلاء ، صباً : « فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا . . وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون »(٤٠ العنكبوت)

—وقوله تعالى : « فكيف كان نكير » إلفات إلى بأس الله ، وما أخذ به الظالمين ، الذى أتوا المنكرات ، فأنكر الله عليهم ما أتوه ،وليس بعد إنكار الله

إلا النقمة والبلاء . . فكيف تجد هذا البلاء وتلك النقمة فى أصحاب المنكر ؟ انظر . . إنه شيء مهول . . نعوذ بالله منه . .

قوله تعالى :

* « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . . إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء إن الله عزيز غفور »

الجدد : القطع ، واحدتها جُدَّة . . ومنه « جُدَّة » البلد المعروف على ساحل البحر الأحمر من الجزيرة العربية ، لأنها جدَّت أى قطعت من الآكام والهضاب القائمة فى هذا الموقع . . ومنه أيضاً قول الشاعر . .

أبى حبّي سُلَيمَى أن يبيدا وأمسى حبها خَلَقاً جديداً

أى أمسى حبها قديماً ، قد تقطع أديمه . .

والغرابيب : جمع غِربيب ، مثل قنديل وقناديل ، وهو الشيء الحالك السواد ، ومنه سمى الغراب غراباً . .

والآية معرض من معارض الخلق والإبداع ، لقدرة الله سبحانه وتعالى . . وفيها إلفات إلى هؤلاء السادرين فى غيهم ، الهائمين فى ظلمات جهلهم وضلالهم ، أن يقيموا وجوههم على هذا الوجود ، وأن يفتحوا أبصارهم على صحفه ، وأن يقرءوا ماخُط على هذه الصحف من سطور ، تحدث عن قدرة الخالق ، وإبداعه ، وعلمه ، وسلطانه . .

— وفى قوله تعالى : « ألم تَرَ أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها » خطاب للنبيّ ولكلّ من هو أهل لهذا الخطاب ، من كل ذى عين ، وعقل . .

فهذا سطر من صحيفة الوجود ، يرى فيه الناظرون ما أبدعت قدرة الله ، وما أخرجت من هذه الأرض الهامدة ومن ترابها الأسود ، من ثمرات مختلفة ألوانها وطعومها .

فمن هذا التراب الأسود ، اكتست الأرض العارية الجديب ، بحلة قشيبة ، من الزهر ، والثمر ، المختلف الألوان ، بين أحمر ، وأصفر ، وأبيض . . إلى غير ذلك مما لا حصر له من ألوان . .

فمن أبدع هذا ، وصوره على تلك الصور الرائعة المذهلة ؟

« أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها . . أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون » (٦٠ : النمل)

قوله تعالى :

— « ومن الجبال جددٌ بيض وحمرٌ مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك »

سطور أخرى من صفحة الوجود . . يرى فيها الناظرون بألبابهم ، قدرةَ الله وإبداعَه فى هذا الجماد الجامد ، وفى الجبال الثابتة الراسخة بالذات — إنها ليست أكواناً متضخمة بلا وزن ولا حساب ، بل إن يدَ القدرة ممسكة بكل ذرة فيها ، وإن الناظر ليرى فى ألوانها المختلفة من أبيض وأحمر ، وأسود وما بين الأبيض والأحمر ، والأسود — أن يداً قادرة ، مدبرة ، قد أقامتها بحساب دقيق وتدبير محكم ، حيث أن وراء هذه الألوان صفاتٍ أخرى لتلك الجبال ، فاللون الأبيض وراءه أحجار جيرية ، على حين أن اللون الأحمر يضم أحجاراً صلدة جامدة ، أما اللون الأسود ، ففى كيانه أحجار أشد صلابة ، وأكثر احتمالاً . .

ففى هذه الألوان عِلم ينفذ منه العقل إلى حقائقَ ، ومعطيات ، فيها خير كثير ،

ورزق موفور . . وفى هذا دعوة إلى الدراسة والبحث والتعمق إلى ما وراء ظواهر الطبيعة . . فهذه الظواهر قشور ، تخفى وراءها جواهر كريمة ومعادن نفيسة . . فمن وقف عند هذه القشور ، لم يقع ليده إلا التافه المتساقط من لِحاء شجرة الطبيعة ، وأما من تجاوز هذه القشرة ، فإنه خليق بأن يملأ يديه من كل خير ، ويطعم من كل ثمر . . فإذا امتد نظر الناظر إلى عالم الإنسان ، والدواب ، والأنعام ، وجد فى كل عالم صوراً وأشكالاً لا حصر لها . .

فالعالم الإنسانى مثلاً . . كل إنسان عالم بذاته . . فى صورته ، ولونه ، ولسانه ، وفى مشاعره ، وتفكيره ، وتصوراته ، وخواطره ، بحيث لا يكاد يتفق إنسان وإنسان . . والدواب والأنعام كذلك . . كل حى منها ، وإن بدا أنه قريب الشبه بغيره ، فإن لكل حىّ منها صفات ظاهرة وباطنة ، تميزه من غيره .

ولكن من الذى يرى هذا ، ويدرك الفروق الظاهرة ، أو الخفية بين هذه المخلوقات ؟ إنه لا يرى هذا إلا أهلُ العلم ، وأصحاب النظر ، الذين ينظرون بعقولهم لا بعيونهم وحدها . . ولهذا جاء قوله تعالى ، تعقيباً على هذه الدعوة الداعية إلى النظر فى تلك الموجودات :

* « إنما يَخْشَى اللهَ من عباده العلماء »

فإن هذه الخشية لله ، التى تقع فى القلوب ، وتستولى على المشاعر ، لا تجىء إلا عن علم بما لله من جلال ، وقدرة ، وعلم ، وحكمة . وهذا العلم لا يحصّل إلا بالبحث الجادّ ، والنظر المتأمل ، والعقل الدارس المفكر ، فى خلق السموات والأرض ، وما فى السموات والأرض . .

فمعرفة الله أولاً ، ثم الخشية له ثانياً . .

وإنه لا خشية إلا عن معرفة الذات التى تُخشَى ، ويُخشَى سلطانها ، ويخاف بأسها .

وإنه لا معرفة إلا عن نظر ، وتفكر ، وتدبر ..

فمن كان أكثر معرفةً لله ، وعلماً بما له من صفات الكمال والجلال ـ كان أكثر خشية لله ، وتوقياً لحرماته ..

وقوله تعالى : « إن الله عزيز غفور » أى أنه مع ما لله من عزة وقوة وسلطان ، فإنه سبحانه ، غفور ، يلقَى أهل الإساءة بالمغفرة ، إذا سألوا هم مغفرته ، وطلبوا عفوه ، والتمسوا رضاه .

الآيات : (٢٩ — ٣٧)

* « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَابِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) ٱلَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ

مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) »

التفسير

قوله تعالى :

* « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور » . .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة ، أشارت إلى العلم ، وإلى ما للعلماء من مقام عند الله ، وما فى قلوبهم من خشية له ، وذلك بما علموا من دلائل قدرته بالنظر فى آياته الكونية ، نظراً عاقلا ، مدركا ، متفحصاً . ملأ قلوبهم خشية لله ، ومراقبة له ، ومجانبة لحرماته . .

وهنا — فى هذه الآية — دعوة إلى النظر فى آيات الله القرآنية ، وما يقع للعقل منها من علم بالله سبحانه ، وبماله — سبحانه — من علم ، وحكمة ، وقدرة . .

ففى هذه الآيات القرآنية ، معجزات ، يرى فيها الذين يتلونها تلاوة مبصرة ، وشواهد ناطقة تشهد بما لله من كمال وجلال ، تماماً كما يرى الراءون لآيات الله المادية المعجزة . .

فقوله تعالى :

* « إن الذين يتلون كتاب الله » دعوةٌ إلى التلاوة المتـــدبرة الفاقهة ، التى تحصّل علماً وحكمة ، وهى التى تملأ القلوب إجلالا وخشيةً لله .

* « وأقاموا الصلاة » . . الجملة هنا حالية من فاعل يتلون ، أى يتلون كتاب الله ، أى يخشون الله ، وقد أقاموا الصلاة ، فى ظل من هذه الخشية ، وفى استصحابٍ لها . .

فالآية هنا مثل قوله تعالى : « إنمـا تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة » (١٨ : فاطر) .

* « وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية » معطوف على « وأقاموا الصلاة » أى وأنفقوا مما رزقهم الله سرّا وجهراً ، فى ظل من خشية الله كذلك ، وفى استصحاب لتلك الخشية . .

* « يرجون تجارة لن تبور » . . خبر إن . . أى أن هؤلاء الذين يتلون كتاب الله ، تلاوة تملأ قلوبهم خشية لله ، ثم يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة — وهم على خشية من الله — هؤلاء يرجون تجارة رائجة ، رابحة لن تبور . . بل إنها تجـد من يشتريها منهم ، ويضاعف لهم الثمن فيها . . وإنه الله سبحانه وتعالى هو الذى يشترى منهم هـــذه البضاعة ، ويضاعف لهم الثمن عليها . .

قوله تعالى :

* « ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله . . إنه غفور شـكور » .

هو تعليل لنفى البوار عن تجارة هؤلاء العاملين ، إنها تجارة يتقبلها

الله منهم « ليوفيهم أجورهم » أى ليعطيهم أجرَ ما عملوا كاملا وافياً غير منقوص ، بل وأكثر من هذا ، فإن الله سيزيدهم ، ويضاعف لهم الأجر ، فضلا وكرماً وإحساناً منه . . « إنه غفور » يتجاوز عن سيئاتهم ، « شكور » يقابل القليل من الإحسان بالجزيل من العطاء . .

قوله تعالى :

* « والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحقُّ مُصدِّقاً لما بين يديه . . إن الله بعباده لخبيرٌ بصيرٌ » .

هو إلفات إلى هذا الكتاب ، الذى دعت الآية السابقة إلى تلاوته . . وأنه هو الحق ، المصدق لما بين يديه من الكتب السابقة . .

— وقوله تعالى : « من الكتاب » مِن للتبعيض ، وهذا يعنى أن ما كان قد نزل من القرآن الكريم ، لم يكن كل القرآن ، بل بعضه . . وهذا هو الواقع ، فإن السورة مكية . . وهذا يعنى أن القرآن المدنى لم يكن قد نزل منه شىء بعد . .

— وقوله تعالى : « إن الله بعباده لخبير بصير » . . أى إنه سبحانه عالم بما يصلح أمر العباد ، بصيرٌ بهم ، فينزّل عليهم من آياته ، فى كل زمن ما يناسبهم ، ويتفق وعقولهم . .

قوله تعالى :

* « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير » . .

الكتاب هنا ، هو القرآن الكريم . .

والذين أورثهم الله هذا الكتاب هم المؤمنون به ، فى كل زمن ، ومن كل أمة .. فهم الوارثون لهذا الكتاب ، المنتفعون بما فيه من خير ، انتفاعَ الوارث بما يرث .. والآية الكريمة تنويه بهذه الأمة الإسلامية ، ورفع لقدرها ، وحسبها أن تكون المصطفاة من عباد الله ، لتلقّى هذا الكتاب ، وجعله ميراثاً دائماً ، يأخذه الأبناء عن الآباء إلى يوم الدين ..

ففى العطف بحرف « ثم » إشارة إلى أن ما أوحى إلى النبى حتى نزول هذه الآية ، لم يكن إلا بعضاً من الكتاب . وأن ميراث المسلمين لهذا الكتاب لم يأت بعد ، لأن الكتاب لم يتم نزوله ، وسيتم ذلك بعد بضع سنوات . ولهذا جاء العطف بثم ليفيد هذا التراخى فى الزمن ، بين نزول هذه الآية وبين تمام نزول القرآن :

— وفى قوله تعالى : « أورثنا » ــ إشارة أخرى إلى أن هذا الكتاب ، هو ميراث المسلمين على مرّ الأزمان ، وأنه لهم خالصةً من دون الناس ، إذ كانوا هم الذين ينتفعون به ، ويجنون الثمر الطيب منه .. وسُمّى القرآن ميراثاً ، لأنه فضل من فضل الله سبحانه وتعالى ، لم يحصله المسلمون بكدّهم وسعيهم ، وإنما وضعه الله بين أيديهم ، إحساناً وفضلا .

— وفى قوله تعالى : « اصطفينا من عبادنا » إشارة ثالثة إلى أن هؤلاء المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب ، هم المصطفون من عباد الله جميعاً ، لأنهم هم المؤمنون. وهذا يعنى أن الذين لا يؤمنون بهذا الكتاب ، ليسوا على الإيمان ، . بل هم كافرون ، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى : « ومن يبتغ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » وهذا يعنى من جهة رابعة أن المسلمين جميعاً هم الفريق المصطفَى والمتخير من فريقى الناس .. إذ الناس فى الدنيا فريقان: مؤمن ، وكافر ، كما يقول الله تعالى : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » (٢ : التغابن) .. وهم فى الآخرة فريقان كذلك . كما يقول الله تعالى

« فريق فى الجنة وفريق فى السعير » (٧ : الشورى)

— وقوله تعالى : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله »

أى أن هؤلاء المسلمين ، الذين أورثهم الله الكتاب ، واصطفاهم من بين عباده للإيمان به — هؤلاء ليسوا على درجة واحدة ، فى إيمانهم بالله ، وفى منزلتهم عنده ، بل هم درجات عند الله ، وإن كانوا جميعاً فى مقام الاصطفاء ..

إنهم فى مجموعهم ، ثلاثُ طوائف: طائفة آمنت بالله ، ولكنها لم تعمل بهدى هذا الإيمان ، ولم ترتفع بأعمالها إلى مستواه ، فظلمت نفسها بالوقوف عند أول درجة من درجات الكمال ، وقد فُتح أمامها الطريق إليه ، وأقيمت لها على جوانبه معالم الهدى . . وإنه لا عذر لها فى التوقف عن السير فى هذا الطريق الآمن المطمئن ، لتجنى ما وُعدت به على طريقه من خيرات ومسرات . . وهذه الطائفة هى طائفة العصاة من المؤمنين ، أصحاب الكبائر . . وطائفة أخرى . . آمنت به كذلك ، ولكنها لم تقف عند أول منزلة من منازل الإيمان ، بل خطت خطوات بطيئة متمهلة . . تسير حينا ، وتتوقف حيناً . . ومع هذا فهى على الطريق سائرة .

وهؤلاء هم المؤمنون ، الذى خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً . . فأحسنوا وأساءوا ، وأطاعوا وعصوا .. وهؤلاء هم وسط بين الذين ظلموا أنفسهم ، والذين سبقوا بالخيرات . وهم الطائفة الثالثة من طوائف المؤمنين .. أما الطائفة الثالثة فهى طائفة أولئك الذين ساروا سيراً حثيثاً على طريق الإيمان ، فلم يقفوا عند إثم ، ولم يسكنوا إلى كنف معصية ، فسبقوا بالخيرات ، وبلغوا الغاية التى يبلغها المؤمنون بإيمانهم . . وهؤلاء هم الأتقياء ، والصالحون ، والأبرار ، وهم الذين أنعم الله عليهم ، ومنحهم التوفيق ، وحفظهم من الزلل على الطريق . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » . . فهذا السبق الذى كان لهم ، هو بتوفيق الله ، وبفضله عليهم ، وإلى هذا يشير الله سبحانه بقوله : « ذلك هو الفضل الكبير » .. ويجوز أن تكون الإشارة هنا إلى الميراث ، أو الاصطفاء فى قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » . فهذا وذاك فضل كبير من الله رب العالمين .

ونخلص من هذا إلى تقرير حقيقتين نراهما على ضوء هذه الآية الكريمة :

الحقيقة الأولى ، هى أن المسلمين ، الذين أورثهم الله القرآن الكريم ، هم جميعاً ــ المستقيم منهم والمعوج ، والمطيع والعاصى ــ هم الفريق المصطفى المتخير من الله من بين عباد الله . . فالمسلمون فريق . . والناس جميعاً فريق . .

الحقيقة الثانية ، وهى أن أهل هذه الملة جميعاً ناجون ، وأن أهل المعصية منهم إذا حُبسوا على النار قليلا أو كثيراً ، فإنهم من أهل الجنة . وهذا ما يشير إليه الحديث الشريف : « من قال لا إله إلا الله مؤمنا بها قلبُه دخل الجنة » وفى الحديث أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سابِقُنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له »

وينبنى على هاتين الحقيقتين أمور :

أولها : أن على المسلم أن ينظر إلى نفسه ، فى هذا المقام الكريم الذى وضعه الله سبحانه وتعالى فيه ، وجعله من أهل اصطفائه ، وهذا يقتضيه أن يحرص الحرصُ كله على أن يحتفظ بمكانه هذا ، وأن يطلب منزلة أعلى ، فى منازل الإيمان التى لا حدود لها ، وألا يُسفّ ويتدلّى ، فتزلّ قدمه بعد ثبوتها . .

وثانيها : أن المسلمين إنما أورثهم الله القرآن الكريم ، بعد أن تخيرهم له من بين الناس . . فهم أهله ، وأولى الناس به . . ولن يكونوا أهلَه وأولياءه إلا إذا

حفظوه ، وعملوا بأحكامه ، وتأدبوا بآدابه . . إنه ميراثهم من فضل الله ، فإذا لم يحسنوا القيام عليه ، والرعاية له ، أفلت من أيديهم هذا الميراث ، كما يفلت الميراث من يد الوارث السفيه . . كما يقول سبحانه : « وإن تتولوا يستبدلْ قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » (٣٨ : محمد)

وثالثها : أن كل مسلم له نصيبه فى هذا الميراث ، وهو ميراث يسع المسلمين جميعاً ، فرداً فرداً ، وجماعة جماعة . . وجيلاً جيلا . . يسلمه السّلف إلى الخلف . . فهو أمانة فى عنق كل إنسان ، وهو أمانة فى أعناق المسلمين جميعاً . . وعلى هذا فإن هذا الميراث لن يضيع أبداً . . إذ لو بقى فرد واحد من المسلمين ، لكان هذا الكتاب ميراثاً له ؛ ولكان أمانة فى عنقه ، ولكان مطالباً بحمل الأمانة ، مطالباً بأدائها . .

وقدم الظالم لنفسه ، لأن الذين ظلموا أنفسهم بالمعاصى هم الكثرة فى المسلمين ، ثم جاء بعدهم المقتصدون ، وهم أقل منهم عدداً ، ثم جاء السابقون بالخيرات بإذن ربهم ، لأنهم قلة فى المسلمين ، وصفوةُ صفوتهم . . وقيل إن هذا الترتيب منظور فيه إلى الأحوال التى تعترى الناس فى هذا المقام ، وهى ثلاث : معصية ، ثم توبة ، ثم قُربة . . فإذا عصى العبد فهو ظالم ، فإذا تاب ، فهو مقتصد ، فإذا صحت توبته وكثرت مجاهدته ، فهو سابق . . وقيل قُدم الظالم ، لئلا ييئس من رحمة الله ، وأخر السابق لئلا يُعجب بعمله ، فتعيّن توسط المقتصد .

وقوله تعالى

* « جناتُ عدن يدخلونها يحلّون فيها من أساورَ من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير »

« جنات عدن » بدل من قوله تعالى : « الفضل الكبير » . . فالفضل

الكبير الذى يتلقاه المؤمنون من ربهم ، هو «جنات عدن» أى جنات خلود ، لا يخرجون منها أبداً..

وقوله تعالى : (يدخلونها) خبر لجنات أى جنات عدن يدخلها المؤمنون .

وقوله تعالى : (يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير » . . هو حال من الفاعل فى قوله تعالى : « يدخلونها »

وهذه الحلىّ التى يلبسها المؤمنون فى جنات عدن ، هى من بعض ما كانوا يشتهون فى دنياهم ، أو مما كانوا يتمتعون به ، ويجدون المسرّة منه . . فيكون من تمام النعمة عليهم أن ينالوا كلّ شىء كان مشتهىً لهم فى دنياهم ، وقصرت عنه أيديهم ، أو كان متعة من متعهم فى هذه الدنيا . .

وليس هذا كل نعيم أهل الجنة ، بل هو شىء لا يكاد يذكر إلى ما هناك من نعيم لم تره عين ، ولم تسمعه أذن ، ولم يخطر على قلب بشر . . ولكنه من شهوات النفس فى دنياها ، فلا تُحرم منه إذا هى نزلت منزل الإحسان المطلق ، والنعيم الشامل . . تماماً كما يجىء إنسان من أقاصى الريف إلى مدينة كالقاهرة . . إن كل مافى نفسه أن ينال شيئاً مما كان يراود خياله ، ويطرق أمله ، كأن يدخل « السينما » أو يجلس فى مطعم فيأكل حتى يشبع ، أو يلبس بدلة ! ! أو نحو هذا . . إن آماله وهو فى عيشه الضيق الضنك ، لا تتسع لأكثر من هذا ..

ولك فى هذا مَثَل تجده فى طوارق الأحلام .. إن كل إنسان يقع له فى أحلامه ، ما يشتهيه فى يقظته ، وتقصر عنه يده ..

وفى عالم الأحلام متسع لكل شىء . . ومع هذا فإن المحروم من الشىء لا يكاد يحلم إلاّ به ، وإن كان عند غيره تافهًا لا يلتفت إليه فى يقظة أو منام . . وفى المثل :

« الجوعان يحلم بالرغيف ! »

فمخطىء أولئك الذين يتهمون الإسلام من هذا الجانب ، ويحقِرون

الجنة التي وَعَد الله المتقين بها ، ويقولون إنهـــا جنّة حسيّة ، تستجيب لشهوات الجسد ، أكثر من استجابتها لمطالب الروح .. ثم إنها من جهة أخرى جنّة تافهة ، لا تستحق أنه يعمل لها الإنسان فى دنياه هذا العمل الشاق الطويل ، كى يلبس حريراً ، أو يحلّى بذهب أو لؤلؤ ، أو يشرب من نهر خمر ، أو لبن ، أو عسل ، أو ينال من لحم طير أو نحوه . إن ذلك كله موجود فى الدنيا ، بل هو أقلّ ما يوجد فيها . هكذا .. يقولون!

ويُردُّ على هذا من وجوه ..

فأولاً : ليس هذا هو كلّ نعيم الجنة التي وُعدبه المتقون ، وإنما هو — كما قلنا — شيء قليل قليل إلى كثير كثير ، لا حصر له ، مما لم تره عين فى هذه الدنيا ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ..

وثانياً : أن هذا الذى يُساق إلى أهل الجنة من نعيم الدنيا ، ليس فرضاً عليهم ، وإلزاماً لهم ، بل هو استجابة لمطالب كان لهم فى الدنيا ، وعزّ عليهم الحصول عليه .. وأنه لـكى تتم سعادتهم ، ولـكى يدركوا أن مافاتهم فى دنياهم لم يكن إلا شيئاً تافهاً إلى هذا النعيم الذى أعدّه الله لهم — كان وضعُ هذا المتاع الدنيوى بين أيديهم ، إزاء ما فى الجنة من نعيم .

وثالثاً : ليس هذا النعيم جَسديًّا ، بل إن الرّوح لتجد راحتها وسعادتها فى حصولها على ما حُرمت منه ، ولو كان أمراً مادياً فى ذاته .. كما يقع ذلك للروح فى عالم الأحلام .. إن ما يقع فى الأحلام من أمور تستجيب لرغبة الإنسان ، هى مما يُسعد نفسَه ، ويرضى مشاعره ..

قوله تعالى :

* « وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزَنَ إن ربنا لغفور شكور »

بهذا الحمد الخالص المطلق ، يستقبل أهل الجنة هذا النعيم الذى هم فيه . . فهم يحمدون الله مع كل نعمة تطلُع عليهم من نعيم الجنة التى لا ينقطع نعيمها لحظة . . لقد أذهب الله عنهم فى هذا المقام الكريم « الحزَنَ » الذى كان قد وقع فى نفوسهم لما فاتهم من متاع الدنيا ، ولما ابتلوا به فيها من مصائب وفتن . . ولقد غفر الله لهم ما كان منهم من ذنب ، وما فعلوه من منكر ، وستره عنهم ، فلم يروه ، حتى لا يسوءهم وجهه ، وهم فى رضوان الله ، وفى رحاب فضله وإحسانه ، وشكر لهم الله القليلَ من صالح أعمالهم فجزاهم عليه هذا الجزاء العظيم .

قوله تعالى :

* « الَّذى أحَلَّنَا دار المُقامة من فضلِهِ لا يمسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يمسُّنا فيها لغوبٌ » . .

النَّصب : التعب من العمل والجهد . . واللغوب : الإعياء والفتور . .

أى وإنهم ليحمدون الله سبحانه ، أن أنزلهم هذه الدار الكريمة الطيبة من فضله ، والتى لا يتحولون عنها أبداً ، والتى لا يمسهم فيها تَعَبٌ أبداً ، ولا ينالهم أدنى عناء أو مشقة . . لأنهم ينالون ما شاءوا من نعيم . وينعمون بما اشتهوا من طيبات ، دون أن يبذلوا لذلك جهداً ، أو يعملوا له عملاً . .

قوله تعالى :

* « والذين كَفَروا لهم نارُ جهنَّم لا يُقْضَى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور »

أما أهل الكفر والضلال ، فإن لهم دارا غير هذه الدار ، وحياة غير تلك الحياة . . إن دارهم هى النّار ، وحياتهم فيها عذاب لا ينقضى ، ولا

ينقطع . . ولا يُقضَى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ، فهم أحياء فى عذاب أليمٍ دائم . . وإنها لحياة ، يتمنى أصحابها الموت ولا يجدونه ، كما يقول الله تعالى :

« الذى يصلى النّار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيا » (١٢ — ١٣ الأعلى) وهذا ما يشير إليه المتنبى بقوله :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً

وحسْبُ المنايا أن يكنّ أمانيا

وقوله تعالى : « كذلك نجزى كلّ كفور » أى بمثل هذا الجزاء من العذاب الأليم ، وتلك الحياة المشئومة النكدة ، نجزى كل كفور ، أى شديد الكفر ، غليظ الضلال .

قوله تعالى :

* « وهم يصطرخون فيها ربنا أخرِجْنَا نعملْ صالحاً غير الذى كنّا نعملُ أو لم نعمرِّكم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ؟ فذوقوا فما للظالمين من نصير » .

الاصطراخ : التنادى بطلب الغوث من أمر مفظع . . والصارخ هو من يستصرخ غيره ، ويدعوه إلى نجدته . . كما يقول الشاعر . .

إنا إذا ما أتانا صارخ فَزِعٌ كان الصراخَ له قرعُ الظنابيب

فهذه حال أهل النار . . صراخ ، واستصراخ لطلب الغوث والنجدة . . يقولون : « ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنّا نعمل » . . ولا يَلْقَوْن لهذا الاستصراخ إلا الردع والزجر . . « اخسئوا فيها ولا تكلمون » (١٠٨ المؤمنون) . .

وقوله تعالى : « أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر » ؟ .

هذا ما يجيبهم به لسان الحال . لقد عمروا فى الدنيا عمراً طويلا ، يتسع لأن يتذكر فيه من تذكر ، وأن يتعرف إلى ربه ، ويؤمن به ، ويعمل صالحاً يرضاه له .

وقوله تعالى : « وجاءكم النذير » . . إشارة إلى أنه مع العمر الذى عاشوه فى الدنيا ، ومع ما معهم من عقول، لو استعملوها لاهتدوا بها ، ولعرفوا الطريق إلى الله — مع هذا فقد بعث الله فيهم رسولا ينذرهم بين يدى هذا العذاب الأليم ، فما استمعوا له ، ولا التفتوا إليه . .

وقوله تعالى : « فذوقوا فما للظالمين من نصير » — هو تعقيب على هذا اللوم الزاجر ، الذى أجيبوا به على استصراخهم . . فما لهم إلا هذا العذاب ، وما لهم هنا من نصير ، يستجيب لهم ، ويخلصهم مما هم فيه

الآيات : (٣٨ — ٤١)

* « إِنَّ ٱللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٣٨) هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ أَمْ آتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ

وَالْأَرْضَ أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) »

التفسير

تعود هذه الآيات بالمشركين والكافرين ، من عذاب جهنم ، الذى ساقتهم إليه ، الآيات السابقة ، فتلقاهم بهذا الحديث الذى يكشف عن علم الله وقدرته ، وأنه وحده — سبحانه — العالم بكل شىء ، المالك لكل شىء ، القائم على كل شىء . .

وقوله تعالى :

* « إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور » — هو تقرير للحقيقة ، التى غابت عن أهل الشرك والضلال ، وهى أن الله سبحانه هو الإله الذى ينبغى أن يُعبد . . إنه يعلم كل غائبة فى السموات أو فى الأرض ، وأنه يعلم ما تنطوى عليه الصدور ، وما تكنّه الضمائر . . ومن كان هذا شأنه ، كان سلطانه قائماً على كل شىء ، وكانت عبادته وحده واجبة على كل مخلوق . .

وقوله تعالى :

* « هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً »

أى أنه سبحانه قد أعلى قدر الإنسان ، ورفع منزلته ، وجعله خليفة فى الأرض . . وكان مقتضى هذا أن يحتفظ الإنسان بهذا المقام الكريم ، وأن يعرف لله فضله عليه ، وإحسانه إليه ، وأن يذكر أنه خليفة لله ، وأنه بهذه الخلافة يعمل فى الأرض التى هى ملك لله . . فكيف يَسُوغ له أن يخرج عن

سلطان الله ، وأن يجعل ولاءه لغير الله ، مما على الأرض من كائنات ، يعبدها ، ويتخذها آلهة له من دونه ؟ .

وقوله تعالى: « فمن كفر فعليه كفره » أى فمن خرج على استخلاف الله إياه ، وكفر به ، فعليه كفره ، وسيلقى الجزاء الذى يستحقه

وقوله تعالى : « ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً » أى أن هذا الكفر الذى لبسه الكافرون بعد أن خلعوا نعمة الخلافة التى ألبسهم الله إياها ، لا يزيدهم عند ربهم إلا ، بغضاً ، وبعداً من رحمته ، حيث ينزع عنهم ثوب الكرامة الذى خلعه عليهم ، ويلبسهم الذلة والمهانة ، ويلقى بهم فى جهنم مذمومين مدحورين . . .

وقوله تعالى : « ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً » أى لا يزيدهم هذا الكفر الذى لبسوه إلا كفرا وضلالا ، فهم مع هذا الكفر فى كفر ينمو على الأيام . . فهم يزدادون كل يوم مع هذا الكفر ، خسراناً ، حيث تخف موازينهم يوماً بعد يوم .. إنهم يحملون فى كيانهم داء خبيثاً ، هو الكفر يمتص ماء الحياة منهم ، قطرة قطرة ، حتى يتحولوا إلى أعواد من الحطب لا تصلح إلا وقوداً للنار !

قوله تعالى :

* « قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السموات ؟ أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ؟ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً »

أسئلة مطلوب من المشركين أن يُوردوها على عقولهم — إن كانت لهم عقول — ثم ليجيبوا عليها ، إن كانوا يجدون لها جواباً . .

« قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض » ؟

أى أنظرتم فى وجه هؤلاء الشركاء الذين تعبدونهم من دون الله ؟ وهل عرفتم ما هم عليه ؟.

— « ماذا خلقوا من الأرض ؟ » أى أخلقوا شيئا مما ترون على هذه الأرض من مخلوقات ؟ هل خلقوا ذبابة ؟

— « أم لهم شِرك فى السموات ؟ » وإذا لم يكونوا قد خلقوا شيئاً مما هو على الأرض ، فهل لهم شىء مما فى السموات ؟ ذلك بعيد . . فإن من عجز عن أن يخلق أدنى المخلوقات فى الأرض ، لهو أعجز من أن يكون له أى شىء فى السموات . .

— « أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه » .

سؤال إلى المشركين عن ذات أنفسهم هم . . وهو أنهم إذا لم يجدوا لهذا الذى سئلوا عنه فى شأن آلهتهم ، جواباً يقبله العقل ، بأن لهم شيئا فى هذا الوجود فى أرضه وسماواته — إذا لم يجدوا فى أنفسهم ما يحدّث عن آلهتهم تلك بأن لها شيئاً أو شأنا فى الملك — فهل أخذوا هذا الذى أضافوه إلى آلهتهم عن كتاب من عند الله ، فهم لهذا على بينة وعلم فى شأن آلهتهم ، مما علموه من هذا الكتاب ؟ ذلك ما لم يكن ! .

فإذا كان العقل يأبى أن يضيف إلى آلهتهم شيئا ، أو يجعل لهم شأنا فى هذا الوجود ، وإذا لم يكن بأيدى هؤلاء المشركين كتاب من عند الله ، أقامهم على هذا الرأى السقيم الباطل الذى رأوه فى آلهتهم ، فلم يبق إذن شىء يصل بين هؤلاء المشركين وآلهتهم ، إلا ما تلقوه من ضلالات الضالين وأهواء ذوى الأهواء منهم .. « بل إن يَعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً » ..

إن هذا الذى هم فيه من ضلال مع هذه المعبودات التى يعبدونها ، هو من

وحى بعضهم إلى بعض بالباطـــل ، ومن تزيين بعضهم لبعض بالخداع والغرور . .

وفى الحديث عنهم بضمير الغائب ، إعراض عنهم وإنزالهم منزلة الغائب ، إذ لم يكونوا أهلاً لأن يخاطَبوا . وقد استرخصوا عقولهم ، واستخفّوا بها . .

قوله تعالى :

* « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده .. إنه كان حليما غفوراً » ـ هو تهديد لهؤلاء المشركين ، بأن يسقط الله عليهم السماء ، أو يخسف بهم الأرض . . فهو سبحانه الذى يمسكهما بوضعيهما اللذين هما فيهما . .

« وإنْ » فى قوله تعالى « إن أمسكهما من أحد من بعده » — نافية ، بمعنى ما ، أى إن زالتا ما أمسكهما أحد من بعد الله ، لو رفع يده عنهما . .

— وقوله تعالى : « إنه كان حليما غفوراً » — إشارة إلى أن الله سبحانه قد وسع بحلمه الناس ، ولم يأخذهم بظلمهم ، ولولا هذا لأهلكهم ، وأفسد عليهم حياتهم ، وهو سبحانه مع حلمه ، غفور ، ينتظر رجعة الظالمين إليه ، فيقبل توبتهم ، ويغفر ذنوبهم . .

الآيات : (٤٢ — ٤٥)

* « وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ

يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَىْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) »

التفسير:

قوله تعالى:

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفوراً » . .

أى أن هؤلاء المشركين ، الذين استرخصوا عقولهم ، واتبعوا أهواءهم ، كانوا يُقسمون بأعظم الأيمان عندهم وآكدها ، — قبل أن يأتيهم النبى — « لئن جاءهم نذير » أى رسول ، كما جاء إلى الأمم السابقة رسل — « ليكونن أهدى من إحدى الأمم » أى ليكونن أهدى من إحدى هذه الأمم ، وهم بنو إسرائيل ، إذ كانو يتمثلون فيهم العلم ، والدّين ، لِما كان بين أيديهم من كتاب ، وما بينهم من علماء . .

ولم يصرح القرآن ببنى إسرائيل ، مع أن المشركين لا يعنون غيرهم ، وذلك — والله أعلم — للاستصغار بشأنهم ، وأنهم ليسوا المثل الذى يُحتذى به فى الاستقامة والهدى . .

وجَهد الإيمان : أغلظها ، وأشدها ..

والاقتصار على وصف الرسول بأنه « نذير » إشارة إلى أن الإنذار هو أول ما يتلقاه الأقوام من رسلهم ، إذ كان الرسل إنما يبعثون فى أقوامهم ، حين يكثر الفساد فيهم ، وتختلط معالم الدين الصحيح فى قلوبهم وعقولهم .. فيكون أول ما يأتى به الرسول قومه هو الإلفات إلى هذا الضلال الذى هم فيه ، وتحذيرهم منه ، وإنذارهم سوء عاقبته .

— وقوله تعالى : « فلما جاءهم نذيرٌ ما زادَهم إلا نفوراً » — أى لما جاء الرسول الذى كانوا يتمنون الهدى عليه يديه ، لم يزدهم إلا نفوراً عن الحق ، وإعراضاً عن الهدى ..

قوله تعالى :

* « استكباراً فى الأرض ومكرَ السيىء ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنةَ الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

— « استكبارا فى الأرض ومكر السيىء » هو بدل من قوله تعالى : « إلا نفوراً » أى لم يزدهم إرسال الرسول إليهم إلا نفوراً عن الحق ، وإلا استكباراً فى الأرض ، واستعلاء على العباد ، وإلا الإمعان فى تدبير المكر السيىء للرسول ، وتبييت الشر له وللمسلمين . .

— وقوله تعالى : « ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله » أى لا يقع المكر السيىء الذى مكروه إلا بهم .. إنهم يحفرون الحفرة التى سيقعون فيها ، ويفتلون الحبل الذى يشنقون به ..

وقوله تعالى :

— * « فهل ينظرون الا سنةَ الأولين » — أى فهل ينتظرون إلا أن يؤخذوا بما أخذ به الأولون الذى كذبوا رسل الله ، من بلاء وهلاك ؟ ..

— وقوله تعالى: « فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » ..

أى أن سنة الله قائمة على طريق مستقيم لا ينحرف أبداً .. وهى سنة مطردة ، لا تتبدل اتجاها باتجاه ، ولا تتحول من حال إلى حال ..

وسنة الله ، هو هـذا النظام الذى أقام عليه الوجود ، وربط المسببات بأسبابها ..

ومن سنة الله فى الظالمين أن يأخذهم بظلمهم ، كما أن من سنته فى المحسنين أن يجزيهم بإحسانهم ..

قوله تعالى :

* « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديراً » ..

هو دعوة إلى هؤلاء المشركين الضالين أن يسيروا فى الأرض ، وأن ينظروا بأعينهم سنة الله التى لا تتبدل ، ولا تتحول .. إنهم سيرون أقواماً كانوا قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولاداً ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وقلّب عليهم دورهم ..

« وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض » أى وما كان لقوة هؤلاء وبأسهم أن تردّ عنهم بأس الله إذا جاءهم .. فماذا يعصم هؤلاء

للمشركين من بأس الله ، وقد ساروا مسيرة الهالكين من قبلهم ؟ إنهم هالكون لا محالة .. إن الله يعلم ماهم عليه ، لا تخفى عليه — سبحانه — خافية من أمرهم ، وهو قادر على إهلاكهم ..

ولقد أتوا الجرم الذى يوجب الهلاك ، وهم فى قبضة الله . وعلمه يكشف عن كل ما اقترفوا .. ولم يبق إلا إمضاء العقوبة فيهم .. فلينظروا، وشيرون عاقبة أمرهم ! .

قوله تعالى :

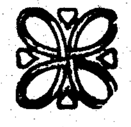
* « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابّة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً » ..

هو جواب على سؤال يقع فى نفوس المشركين ، عند سماعهم التهديد الذى حملته إليهم الآية السابقة ، وهو : أين هو العذاب الذى نُهدَّد به ؟ ..

فكان قوله تعالى : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » — جواباً على مثل هذا السؤال .. وهو أن الله سبحانه لو يؤاخذ الناس فى الدنيا بذنوب المذنبين منهم ، وما يحاربون به الله سبحانه ، مِن كفر ، وإلحاد ، ومجاهرة بالمعاصى ـ لو يؤاخذهم بهذا ، ما ترك على ظهر هذه الأرض ، من دابة .. فإن ذنوب المذنبين — لجسامتها ، وشناعتها — لا يغسل دنسها ورجسها إلا طوفان من العذاب ، يأتى على كل حياة قائمة على هذه الأرض ..

« ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى » أى لكن يؤخر حساب الناس إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة ..

« فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً » أى إذا استوفوا آجالهم فى الدنيا ، وصاروا إلى الدار الآخرة ، كانوا بمنازلهم عند الله .. فالكافرون والمشركون ، وأهل الضلال ، فى نار جهنم . . وأهل الإيمان والتقوى فى نعيم الجنات . . « فإن الله كان بعباده بصيراً » يفرق بين الأشرار والأخيار ، ويميز الخبيث من الطيب كما يقول سبحانه : « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعلَ الخبيثَ بعضَه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم » (٣٧ : الأنفال) .



(٣٦) سورة يس

نزولها : مكية .

عدد آياتها : ثلاث وثمانون آية .

عدد كلماتها : سبعمائة وتسع وعشرون .

عدد حروفها : ثلاثة آلاف .

مناسبتها لما قبلها

جاء فى الآيات التى خُتمت بها سورة « فاطر » السابقة قوله تعالى : « وأقسموا بالله جَهْدَ أيمَانِهِمْ لئن جاءهم نذيرٌ ليكونن أهدى من إحدى الأمم، فلما جاءهم نذيرٌ ما زادهم إلا نفوراً » ثم جاءت الآيات الثلاث التى تلت هذه الآية والتى خُتمت بها السورة ـ تعقيباً على تلك الآية ، وبياناً لموقف المشركين من هذا القسم الذى أقسموه . .

وقد بدئت سورة « يس » بالقَسَم بالقرآن الكريم ، الذى جاءهم النبىّ الكريم به ، ثم وقوع هذا القسم على الإخبار بأن محمداً هو رسول الله ، وأنه على صراط مستقيم ، وأن تكذيب المشركين له ، ورفضهم لدعوته ، لم يكن إلا عن ضلال وعمًى ، وإلا عن استكبار وحسد . . لقد كانوا يتمنون أن يبعث الله فيهم رسولاً ، وأن يأتيهم بكتابٍ ، مثل كتب أهل الكتاب ، وها هو ذا الرسول ، والكتاب . . فماذا هم فاعلون ؟ ستكشف الأيام عن جواب هذا السؤال . .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٢)

« يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « يس » . . اختُلف فى تأويلها ، فقيل فيها كل ما قيل فى الحروف التى بدئت بها بعض سور القرآن . . وقيل إنها اسم للنبىّ صلى الله عليه وسلم . . ولا نقول إلا أنها من المتشابه ، الذى لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ! .

قوله تعالى :

* « والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم » .

هو قسم بالقرآن الحكيم ، وفى هذا القسم تشريف لمقامه ، و تأكيد وتنويه

بمنزلته .. وكيف لا يكون فى قمة التشريف والتكريم ، وهو آيات الله ، وكلمات الله ؟

وفى وصف القرآن بالحكمة هنا ، إلفات لما اشتمل عليه من فرائد الحكمة ، التى هى مورد العقول ، ومطلب الحكماء .. وأن الذى ينظر فى آيات الله ينبغى أن ينظر فيها بعقل متفتح ، وبصيرة متطلعة ، وقلب مشوق ، حتى يظفر ببعض ما يتحدث به هذا القرآن الحكيم ، فإنه لا ينتفع بحكمةِ الحكيم ، إلا من كان ذا حكمة وبصيرة ..

— وقوله تعالى : « إنك لمن المرسلين » خطاب للنبىّ ، وتوكيد للصفة التى له عند الله . وأنه من المرسلين ، الذين اصطفاهم الله لرسالته إلى عباده .

— وقوله تعالى : « على صراط مستقيم » .. هو خبر ثان ، عن النبىّ ، وأنه قائم على صراط مستقيم ، من اتبعه فقد اهتدى ، ومن اتخذ سبيلاً غير سبيله فقد ضلّ وهلك .

* قوله تعالى :

« تنزيلَ العزيزِ الرحيم »

« تنزيل » منصوب على المصدر ، أى إنك لمن المرسلين .. وإنك على صراط مستقيم ، نُزِّل « تنزيلَ العزيز الرحيم » .. ويكون المراد بالصراط المستقيم هنا هو القرآن الكريم ، كما يقول الله تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه » (١٥٣ : الأنعام) ويكون قوله تعالى : « تنزيل العزيز الرحيم » جملة وقعت صفة .

قوله تعالى :

* « لتنذر قومًا ما أُنذر آباؤهم فهم غافلون » .

أى إنك من المرسلين ، وإنك على صراط مستقيم بهذا الكتاب المنزل من العزيز الرحيم : « لتنذر قومًا ما أُنذر آباؤهم » .. فهذا الحشد العظيم من

الصفات العظيمة للنبيّ ، هو وإن كانت تكريماً للنبيّ ، وامتناناً عليه بإحسان ربّه إليه ـ هو أيضا تكريم لهؤلاء الجاهليين ، وامتنان بفضل الله عليهم ، إذ بعث فيهم خيرَ رسله ، وخاتم أنبيائه ، ومجتمع كتبه . . وفى هذا حثٌّ لهم على أن يُقبلوا على هذا الخير الكثير المرسل إليهم ، وأن يأخذوا حظهم منه .

ـ وفى قوله تعالى : « ما أُنذر آباؤهم » . . إشارة إلى أنهم لم يُبعث فيهم رسول قبله .. أما رسالة إسماعيل عليه السلام ، فهى رسالة كانت مقصورة على أهله ، كما يقول تعالى : « وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة » (٥٥ : مريم)

وإذا كان لهذه الرسالة أثر ، فقد اندثر ، وعفّى عليه الزمن وسط ظلام الجاهلية وضلالها .

ـ وفى قوله تعالى : « فهم غافلون » .. إشارة أخرى إلى ما كان عليه القوم من جهل وغفلة ، فكانوا بهذا فى أشد الحاجة إلى من يعالج هذا الداء المتمكن فيهم .

قوله تعالى :

* « لقد حقَ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون »

هذا حكم قاطع على هؤلاء المشركين ، وهم فى لقاءاتهم الأولى مع الدعوة . . «لقد حق القول على أكثرهم » والقول الذى حقّ على أكثرهم هو الحكم الذى قضى الله سبحانه وتعالى به فى سابق علمه ، على الكثرة من هؤلاء المشركين ، من أنهم لا يؤمنون ، ولا ينزعون عنهم الشرك الذى لبسوه . . « فهم لا يؤمنون » لسابق قضاء الله فيهم . .

وقد صدق ما أخبر به القرآن ، ووقع كما أخبر به . . فإن أكثر هؤلاء المشركين الذين شهدوا مطالع الدعوة الإسلامية ، لم يدخلوا فى الإسلام ، فإنه

خلال ثلاث وعشرين سنة ـ وهى مدة الرسالة الإسلامية ـ مات كثير من هؤلاء المشركين على شركه ، ومن لم يمت منهم على فراش الموت مات قتيلا فى ميدان القتال مع المسلمين . ومن امتدّ به الأجل وأدرك الفتح ، ودخل فى دين الله مع الداخلين ـ ظل ممسكا بشركه فى صدره ، حتى مات عليه ، أو مات فى حروب الردّة مع المرتدّين . .

أما لماذا حَقّ القول عليهم ؟ فهذا سؤال لا يسأله مؤمن بالله . . إنه اعتراض على مشيئة الخالق فيما خلق ! « ألا له الخلق والأمر .. تبارك الله ربّ العالمين »(٥٤ : الأعراف) .

قوله تعالى :

* « إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهى إلى الأذقانِ فهم مقمَحون »

هو بيان للأسباب التى أقامها الله سبحانه ، لتصرف فى هؤلاء المشركين عن الحق ، وتمسك بهم على الشرك والضلال . .

لقد جعل الله « فى أعناقهم أغلالاً » أى أطواقاً من حديد ، أشبه بالقلادة ، تطوق بها أعناقهم . .

« فهى إلى الأذقان » ـ أى وهذه الأغلال أو القلائد تشتمل على العنق كله ، حتى لتصل إلى الأذقان ..

« فهم مقمحون » أى مشدودو الرءوس إلى أعلى . . فهم لا يستطيعون أن يحركوا رءوسهم يميناً أو شمالاً ، أو إلى تحت أو فوق . .

والصورة التى تبدو ممن طوّق بهذا الطوق ، أنه تمثال جامد ، وأنه لا يستطيع أن يرى غير الطريق القائم بين يديه ، أما ما حوله، عن يمين وشمال ، فلا يرى منه شيئاً

والطريق الذى بين يدى هؤلاء المشركين الذين حق عليهم القول ، هو طريق الضلال . . وإذن فلا طريق لهم غيره . .

والأغلال التى جعلها الله فى أعناق هؤلاء المشركين ، هى أغلال معنوية . فإن الذى ينظر إليهم ، وهم ماضون على طريق الشرك ، لا يلتفتون إلى هذا النور الذى عن أيمنهم وعن شمالهم ، ومن أمامهم ومن خلفهم ـ يُخيّل إليه أن فى أعناق القوم أطواقاً من حديد ، قد شلت حركة رءوسهم ، فلم يقدروا على إلفاتها يميناً أو شمالاً ..

قوله تعالى :

* « وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون »

هو من تمام الصورة التى جعل الله المشركين عليها ، حتى لا يهتدوا حين جاءهم الهدى ، لما سبق من قضاء الله فيهم

فهم ــ بالأغلال التى فى أعناقهم ــ مقمحون ، قد دُفعت رءوسهم إلى أعلى ، بحكم الخنقة التى فى أعناقهم .. وهم فى هذا الوضع لا يستطيعون التفاتاً يميناً أو شمالاً ، ولكنهم مع ذلك يستطيعون أن يروا ما أمامهم ، وأن يستدبروا ليروا ما خلفهم ..

ــ وفى قوله تعالى : « وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سَدّاً » هو سدّ لهذين المنفذين اللذين يمكنانهما من الرؤية من أمام ومن خلف . . وأمّا وقد جعل الله ــ سبحانه ــ سدّاً من بين أيديهم أى من أمامهم ، وسدّاً من خلفهم ، فقد أحكم سد المنافذ عليهم من جميع الجهات ، وأصبحوا وقد أغلقت عليهم منافذ النظر إلى العالم الخارجى ، وصاروا محصورين فى عالمهم الذى لا شىء

فيه غير الضلال والظلام . . فيمينهم وشمالهم مغلق عليهم أبداً بحكم هذا الطوق الذى طوقوا به . . وأمامهم وخلفهم . . مسدودان . . فإذا أداروا وجوههم إلى أى اتجاه ، لم يتغير حالهم ، ولم يرتفع عنهم سد من هذه السدود المضروبة عليهم، حيث يلازمهم هذان السدان المضروبان عليهم من أمام ومن خلف .. فعلى أى اتجاه يكونون ، يكون السدان من خلفهم ومن أمامهم .. أما عن أيمانهم وعن شمائلهم ، فالطوق قائم بوظيفته فيهم فى كل حال . .

وهذه الصورة إعجاز من إعجاز القرآن ، فى تجسيد المعانى ، وفى بعث الحياة ، والحركة فى الجمادات والساكنات . . حيث نرى الكافر هنا وقد أدخل فى سجن محكم ، مطبق عليه ، لا يرى منه النور أبداً .

— وفى قوله تعالى : « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » إشارة إلى ما يقع لهؤلاء المشركين من هذه الآيات التى سلطها الله عليهم ، من الأغلال والسدود ، فلقد أقامت هذه الآفات غشاوة على عيونهم ، فهم لا يبصرون . . وكيف يبصر من عاش فى هذه الحدود التى لا تتجاوز محيط جسده؟ وماذا يبصر لو كان له أن يبصر ؟.

قوله تعالى :

* « وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون »

وهذا ما يقضى به الوضع الذى عليه هؤلاء المشركون . . إنهم لن يتحولوا عن حالهم التى هم فيها ، فلقد جمدوا على حالتهم تلك ، كما تحنط الموتى فى توابيتها «وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » (١٠١ يونس) . . وإذاً فلا يقف النبى كثيراً عن هؤلاء المشركين الذين وقفوا من الدعوة هذا الموقف الحادّ لها، المتربص بها . .

قوله تعالى :

* « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم »

أى إنما تنفع النذر ، والعظات ، من استمع إلى آيات الله ، فاتبعها ، وآمن

بها ، وخاف ربه ، وعمل ليوم القيامة ، مصدّقًا بما وعد به ، وإن لم يره .. وعلى هذا ، فليوجه النبي وجهه كله إلى المؤمنين ، وليعطهم جهده كله ، ففي هذا الميدان يثمر عمله ، ويقع موقعه من أهله ..

وفى قصر الإنذار على من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب — فى هذا إشارة إلى الاستعداد الفطرى للإيمان عند هؤلاء المنذَرين ، وأنهم بفطرتهم السليمة كانوا والإيمانَ الذى يدعون إليه على موعد ، بل إنهم فى انتظار له ، وشوق إليه ، قبل أن يطلع عليهم ..

وفى جعل الخشية ، للرحمن ، إشارة إلى أنها خشية إجلال وتعظيم ،.. خشية حب وتوقير ، لا خشية جبروت وقهر .. إنها خشية « الرحمن » الذى وسعت رحمته كل شىء ..

وقوله تعالى : « فبشره بمغفرة وأجر كريم » .. هو ما يَلْقَى به النبى هؤلاء المؤمنين الذين استجابوا له بمجرد أن دعاهم إلى الله ..

قوله تعالى :

* « إنا نحن نحى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين » هو عرض لبعض مظاهر قدرة الله ، وهى من الغيب الذى آمن به المؤمنون ، والذى كان مضِلّة للمشركين ، وهو الحياة بعد الموت . والحساب والجزاء ..

وفى هذا التقرير يتأكد للمؤمنين إيمانُهم بهـذا الغيب ، وتزداد خشيتهم لله ..

— وقوله تعالى : « ونكتب ما قدموا » أى نحصى على الموتى ما قدموا بين أيديهم من أعمال لهذا اليوم ، من حسن أو سيء ، ونسجلها فى كتاب لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها ..

— وقوله تعالى « وآثارهم » معطوف على « ما » الموصولة ، وهى مفعول به لنكتب ـ أى نكتب ما قدموا ونكتب آثارهم ، أى ما خلفوه وراءهم من آثار صالحة أو فاسدة ..

والآثار هنا ، هى ما يبقى للأموات فى الحياة بعد موتهم من آثار فى الناس ، فتكون منارات هدى ، أو سبل ضلال .. وفى هذا يقول الرسول الكريم : « ومن سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سَنّ سُنّةً سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

والإمام المبين ، هو اللوح المحفوظ ، وهو أم الكتاب ..

الآيات : (١٣ — ٢٧)

* « وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي

ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّى آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّى وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) »

التفسير :

مناسبة ضرب هذا المثل هنا ، هو أن الآيات السابقة كشفت عن الطبيعة الإنسانية ، وأن الناس على طبيعتين : أصحاب طبيعة متأبّية على الخير ، مغلقة الحواسّ عنه ، لايستجيبون له مهما جيء إليهم به من شتى الوسائل .. وأصحاب طبيعة أخرى مهيأة للإيمان ، مستعدة له ، متشوفةٌ إليه ، لا تكاد تهبّ عليهم نسمة من أنسامه العطرة ، حتى يتنفسوا أنفاسه ، ويعلئوا صدورهم به ..

وفى هذا المثل ، عرض للناس فى طبيعتيهم هاتين معاً . .

قوله تعالى :

* « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون » . .

[القرية . . والمرسلون إليها]

المفسرون على إجماع بأن هذه القرية ، هى « أنطاكية » . . وعلى إجماع كذلك بأن هؤلاء الرسل ، هم من حواريى المسيح ، ورسله الذين بعثهم لينشروا الدعوة فى الناس ..

وهذا التأويل للقرية وللرسل ، لا يقوم له شاهد من القرآن الكريم ، ولا تدل عليه إشارة من إشاراته القريبة أو البعيدة . . وإنما هو من واردات أهل الكتاب ، وأخبارهم. والخبر هنا وارد من المسيحية ، ويُنسب إلى وهب

ابن منبّه ، الذى تلقاه من المسيحية ، مما يُعرف عند المسيحيين بأعمال الرسل ، الملحقة بالأناجيل . .

فهذا التأويل — فى نظرنا — لا يعوّل عليه ، ما دام غير مستند إلى دليل من القرآن الكريم ذاته .. فالقرآن الكريم ـ فى رأينا ـ يفسر بعضه بعضاً ، وهو كما وصفه الحق سبحانه وتعالى فى قوله : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء) (٨٩ : النحل) فكيف لا يكون تبياناً لما فيه ؟ .

وندع القرية واسمها ، والرسل والصفة التى لهم ـ ندع هذا الآن ، ونعرض المثل على أن القرية واحدة من القرى المبثوثة فى هذه الدنيا ، وأن الرسل ، هم بعض رسل الله إلى عباده ..

فهذه قرية ، قد جاءها رسل ، مبعوثون من عند الله ، وقد دَعَوا أصحابها إلى الإيمان ، فلم يلقوْا منهم إلاّ الصد اللئيم ، والقول القبيح ..

أرسل الله سبحانه إليهم رسولين معاً .. فكذبوهما .. « إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث » أى أمدهما الله برسول ثالث ، يقوّيهما ، ويشد أزرهما .. فلم يزدهم ذلك إلا عناداً ، وإصراراً على الكفر والضلال :

* « إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شىء .. إنْ أنتم إلا تكذبون » ..

ولم يكن للرسل بين يدى هذا القول المنكر ، إلا أن يقولوا ما حكاه القرآن عنهم :

* « قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين » ..

ويجىء ردّ القوم على الرسل ، زاجراً مهدداً :

* « قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذابٌ أليم » . .

ويَلْقَى الرسلُ هذا الرد الفاجر ، بملاطفة ، ووداعة :

* « قالوا طائركم معكم . . ! » أى شؤمكم معكم ، ومستقرٌّ فى كيانكم الفاسد ، الذى يمسك عليكم هذا الداء الذى أنتم فيه . . وليس هو شؤماً وارداً عليكم من خارج ، فإن ما معكم من الشؤم لا يحتاج إلى مزيد . .

— « أئن ذكرتم ؟ » الأن ذكرتم بما أنتم فيه من غفلة ، وما أنتم عليه من ضلال ، ترموننا بهذا الاتهام الكاذب الفاجر ؟ .

— « بل أنتم قوم مسرفون » ـ أى متجاوزون الحد فى الضلال . .

وينتهى موقف الرسل مع أصحاب القرية إلى هذا الطريق المسدود . . ثم لا يلبث أن يجىء صوت العقل ، من واحد من أهل القرية ، فيكسر هذا الحائط ، ويدخل على القوم منه ، ويأخذ موقفَه مع الرسل ، داعياً إلى الله . .

* « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون » .. فأى دعوة أولى من هذه الدعوة ، بالقبول لها ، والاحتفاء بأهلها ؟ إنها دعوة من أهل الهدى ، الذين لا يسألون أجراً على هذا الهدى الذى ، يقدمونه ويدعون إليه . .

فلِمَ التمنع والإعراض عن خير يبذل بلا ثمن ؟ ذلك لا يكون إلا عن سفه وجهل معاً . .

ثم يَعرِض هذا الوافد الجديد ، نفسه عليهم ، فى الزىّ الجديد الذى تزيّا ، والخير الموفور الذى بين يديه من تلك الدعوة . .

* « ومالىَ لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ؟ أأتخذ من دونه آلهةً إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟ إنى إذاً لفى ضلال مبين » .

أسئلة إنكارية ، ينكر بها الرجل على نفسه ألا يكون فى العابدين لله ، الذى فطره ، والذى إليه موعده ولقاؤه مع الناس ، يوم الحشر ، إنه لابد أن يكون له إله يعبده .. أفيترك عبادة من خلقه ورزقه ، والذى يميته ثم يحييه .. ويعبد آلهة من دون الله ، إن يرده الله بضر لا تغنى عنه هذه الآلهة شيئاً ، ولا تمد يدها لإنقاذه مما يريده الله به من ضر ؟ « إنى إذاً لفى ضلال مبين »!! وأى ضلال بعد هذا الضلال ، الذى يدع فيه الإنسان حبل النجاة الممدود إليه ، ثم يتعلق بأمواج البحر الصاخبة ، وتياراته المتدافعة ؟ .

* « إنى آمنت بربكم فاسمعون » . وهكذا يقولها صريحة مدوية فى وجه القوم .. إنها هى كلمة النجاة ، وحسبه أن يمسك بها ، وليكن ما يكون ..! وألاَ فليسمعوها عالية مدوية متحدية .. إنها كلمة الحق التى يجب أن ترتفع فوق كل كلمة ، وتعلو على كل نداء .

* « قيل ادخل الجنة » ـ هذا هو الجواب الذى تلقاه الرجل المؤمن ، ردًّا على إقراره بالإيمان بربه . . وهو الجزاء الذى يلقاه كل مؤمن صادق الإيمان . .

والقول الذى قيل لهذا المؤمن ، إما أن يكون فى الحياة الدنيا ، بوحي من الله سبحانه وتعالى ، وإما أن يكون ذلك بعد الموت ، حيث يعلم المرء مكانه من الجنة أو النار فيقال له يومئذ: « ادخل الجنة »فهى الدار التى أعدّها الله لك .

* « قال ياليت قومى يعلمون * بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » !

إنه يتمنّى لقومه أن ينالوا هذا الخير الذى ناله ، بإيمانه بربه ، وأن يعلموا ما أعد الله للمؤمنين من مغفرة وإكرام .. وأنّى لهم أن يعلموا هذا الغيب ؟ وأنّى لهم أن يؤمنوا به ، وقد أنكروا ما لمسوه بحواسهم ، وكذبوا ما رأوه بأعينهم ؟ . .

هذا هو المثل ، وتلك هى مواقف الشخصيات والأحداث فيه ..

وعلى ضوء هذا المثل يرى المشركون الضالون ، إلى أين يسير بهم كفرهم وضلالهم ، وإلى أين ينتهى الإيمان بالمؤمنين الذين استجابوا لرسول الله ، واستقاموا على الطريق الذى يدعوهم إليه ! .

والصورة التى يصورها المثل واضحة مشرقة ، لاينقصها أن يُفتقد اسم القرية فيها ، ولا أن تغيب أسماء الرسل ومشخصاتهم .. إنهـا مستغنية عن كل هذا ..

وإذا كان لا بد من التطلع إلى ما وراء هذه الصورة ، والنظر إلى موقع القرية من هذا العالم ، وإلى أشخاص الرسل من بين رسل الله ــ إذا كان لابد من ذلك ، فليكن النظر مقصوراً على كتاب الله ، وليكن التطلع محجوزاً فى هذه الحدود .. لا يتجاوزها ..

وننظر فى القرآن الكريم فنرى :

أولا : أن القرآن الكريم ، لم يتحدث عن رسولين حملا رسالة واحدة ، إلى جهة واحدة ، غير موسى وهرون ..

وثانياً : أن هذين الرسولين الكريمين ، قد حملا رسالتهما إلى فرعون ..

وثالثاً : أنه قد قام من قوم فرعون رجل مؤمن ، خرج على سلطان فرعون ، وعلى ما كان عليه قومه من متابعة فرعون فى كفره وضلاله .

ورابعاً : أن القرآن الكريم ، يعقد الصلة فى أكثر من موضع منه ، بين فرعون ، وبين هؤلاء المشركين من قريش . .

فإذا نظرنا إلى المثل على ضوء هذه الإشارات المضيئة من القرآن الكريم ، نجد :

أولا : أن قوله تعالى : « إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما » يَقبل التأويل ، على أن الرسولين ، هما موسى ، وهرون ، كما يقول تعالى : « اذهبا إلى فرعون إنه طغى » (٤٣ : طه) . .

وثانياً : أن قوله تعالى : « فعززنا بثالث » يقابله فى قصة موسى وهرون مع فرعون ، حديث عظيم فى القرآن العظيم ، عن رجل لم يكشف القرآن عن اسمه ، وإنما أشار إلى أنه من آل فرعون .. أى خاصته ، وذوى قرابته . . فهو إنسان ذو شأن فى المجتمع الفرعونى .. ومع هذا لم يكشف القرآن عن اسمه . . إذ ما جدوى الاسم ، فى مقام الوزن للقيم الإنسانية فى الناس ؟ إن المعتبر هنا هو الصفة لا الموصوف ، وذات المسمّى لا الاسم ..

يقول القرآن الكريم ، عن هذا الرجل المؤمن : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وَقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعضُ الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب * ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد * وقال الذى آمن ياقوم إنّى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد * وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد * يومَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِين مالكم من الله من عاصمٍ ومن يُضلل الله فماله من هادٍ *

ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبيناتِ فما زلتم فى شكٍّ مما جاءكم به حتى إذا هلكَ قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضلُّ الله من هو مسرفٌ مرتابٌ ... (٢٨ - ٣٤ : المؤمن) .

ثم تمضى الآيات ، فتذكر دعوةَ هذا الداعى إلى الله .. فيقول سبحانه :

« وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد * ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار * من عمل سيئةً فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب * وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار * تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفارِ * لا جرَم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوةٌ فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردَّنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحابُ النار * فستذكرون ما أقول لكم وأفوضُ أمرى إلى الله إن الله بصيرٌ بالعباد * فوقاه الله سيئاتِ ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذابِ » (٣٨ - ٤٥ : المؤمن) . .

هذه دعوة رجل صاحب رسالة .. إنها إن لم تكن على يد رسول ، فهى رسالة رسول ، وحُقّ لصاحبها أن يدخل فى زمرة الرسل .. وهذا هو السر فى التعبير القرآنى : « فعززنا بثالث » أى فعززنا الرسولين بثالث ، وهذا يمكن أن يحمل — وهو فى إطلاقه كهذا — على محملين ، فيقدّر برسول ثالث ، أو معين ثالث ، بعد المعين الثانى ، الذى كان معيناً للرسول الأول ، فهو تعزيز بعد تعزيز . . ولقد عُزّز موسى بهرون ، وكان هذا الرجل المؤمن تعزيزاً لهما . .

بقيت مسألة تحتاج إلى نظر . . وهى أن المثل ذكر مع الرسل الثلاثة ، رجلا ، كانت له دعوة إلى الله كدعوة هؤلاء الرسل ، وأنه جاء من أقصى

المدينة ، وهى القرية التى جاء ذكرها فى أول المثل .. وهذا الرجل يكاد يكون صورة مطابقة لمؤمن آل فرعون ، الذى قلنا عنه إنه رسول ، أو حوارىّ رسول . فمن هو هذا الرجل ؟ وهل له مكان فى قصة موسى مع فرعون ؟ .

ونعم ، فإننا نجد فى قصة موسى مع فرعون ، رجلا آخر ، جاء من أقصى المدينة ، يسعى .. ولكنه فى هذه القصة لم يكشف عن دعوة له إلى الله ، وإنما جاء ناصحاً لموسى ، هاتفاً به أن يخرج من المدينة ، فإن الملأ يأتمرون به ليقتلوه ، كما يقول تعالى فى سورة القصص : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين » (آية ٢٠) .

ولم تكن للرجل دعوة إلى الله هنا ، لأن موسى لم يكن قد أُرسل بعد.. وربما كان الرجل مؤمناً بالله ، يدين بالتوحيد عن طريق اليهودية ، أو عن طريق النظر الحرّ .. وعلى أىّ فهو على غير دين فرعون .. وقد ظل الرجل على إيمانه إلى أن بعث الله موسى رسولا ، فلما جاء موسى يدعو فرعون إلى الله ، وعرض بين يديه تلك المعجزات ، ازداد الرجل إيماناً ، فأصبح داعية إلى الله ، يدعو قومه إلى الإيمان بالله . .

وعلى هذا ، فإننا نجد فى القصة والمثل رجلين :

أحدهما ، وهو المؤمن الذى من آل فرعون . والذى وقف مع موسى وهرون موقف الداعية إلى الله ، وأنه كان على إيمان بالله ، ولكنه كان يكتم إيمانه خوفاً من فرعون ، فلما رأى أن فرعون يدبّر لقتل موسى ، فزع لهذا الأمر ، وأعلن إيمانه ، ووقف مع موسى وهرون ، يحاجّ فرعون ، ويجادله ، إذ كان ـ مع إيمانه ـ ذا جاه وسلطان . . إنه من آل فرعون ! . .

أما الرجل الآخر ، فهو الذي جاء إلى موسى ، قبل الرسالة ، وحذره مما يدبر له القوم ، ونصح له بالفرار من المدينة ..

وبهذا نرى أن أحد الرجلين ، خلّص موسى من القتل بعد الرسالة ، على حين أن الآخر قد خلّصه من القتل أيضاً ، ولكن قبل الرسالة ..

ومسألة أخرى ، تحتاج إلى نظر أيضاً ..

إذا كان هذان الرجلان هما المشار إليهما في المثل المضروب ، في سورة « يس » باعتبار أن الرجل الذي من آل فرعون هو الرسول ، أو حواريّ الرسول ، وأن الآخر هو الذي جاء من أقصى المدينة ، وقال : ياقوم « اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون » . الآيات » — إذ كان ذلك كذلك ، فلم نوه القرآن الكريم في المثل المضروب بالرجل الآخر ، ولم يذكر شيئاً عن موقف الرجل الأول ، الذي هو من آل فرعون ، والذي قلنا إنه هو الذي عُزّز به الرسولان الكريمان ؟ :

والجواب على هذا — والله أعلم — من وجهين :

فأولا : أنه بِحَسْب مؤمنِ آل فرعون تنويها ، أن يضاف إلى الرسولين الكريمين ، وأن يكون له المكان الثالث معهما .. فقد رفع إلى درجة رسول.

وثانياً : وبِحسْبه شرفاً وتكريماً أن تسمى في القرآن سورة باسمه ، هي سورة « المؤمن » والتي تسمى « غافر » أيضاً .. وقد ذُكرت في هذه السورة رسالته كلها ، والتي قلنا عنها إنها رسالة رسول .. !

هذا ، والله أعلم ..

فهرس الموضوعات

تم الجزء الثانى والعشرون ، ويليه الجزءان
الثالث والعشرون والرابع والعشرون إن شاء الله ؟

عبد الكريم الخطيب

التفسير القرآني للقرآن

الكتاب الثاني عشر

الجزءان : الثالث والعشرون والرابع والعشرون

من مباحث هذا الكتاب

- داود .. ما خطيئته .
- سليمان .. والشمس .. والجسد الملقى على كرسيه .
- بين النفس .. والروح .. والجسد .
- مؤمن آل فرعون .. أنبي هو ؟ .

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

مطبعة السنة المحمدية
١٧ ش شريف باشا الكبير - عابدين
التليفون ٩٠٦٠٧٧

رقم الإيداع

٢٠٢٤ / ١٩٧٠

الآيات : (٢٨ — ٤٤)

* « وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) وَآيَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَّهُمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٣٨) وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ (٣٩) لَا ٱلشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱللَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) »

التفسير :

ينتهى المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى لأصحاب القرية فى الآية السابقة على هذه الآيات ـ ينتهى بهذا التعقيب الذى بدأت به الآيات التى نحن بين

يديها الآن ، ومن هذا التعقيب يكون المنطلق الذى تنطلق فيه الآيات بعد هذا ، فتواجه المشركين الذين استمعوا إلى هذا المثَلَ ، وتَعرِض عليهم مشاهد من قدرة الله سبحانه وتعالى ، ومن آثار رحمته فى خلقه ، لعلهم يجدون فى هذه المشاهد ، ما يفتح قلوبهم وعقولهم إلى الله ، حتى يؤمنوا ، ويلحقوا بركب المؤمنين ، قبل أن تفلت من أيديهم تلك الفرصة السانحة ، ثم لا يكون منهم إلا الحسرة والندم ، ولاتَ ساعةَ مَنْدم .

قوله تعالى :

* « وما أنزلنا على قومه من بعده من جندٍ من السماء وما كُنّا منزلِين » .

هو تعقيب على قوله تعالى على لسان العبد المؤمن : « ياليت قومى يعلمون * بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » . .

إنهم لن يعلموا شيئاً ، ولو علموا ما آمنوا . . إنهم لا يؤمنون إلا إذا نزل عليهم ملائكة من السماء ، بعد أن رفضوا الرسل ، لأنهم بشر ، وقالوا « إنْ أنتم إلا بشرٌ مثلنا . . إن أنتم إلا تكذبون » . . والله سبحانه لم يُرسل إلى قوم ملائكةً حتى تتحقق أمنيتهم فيهم ، وما كان الله مرسلا ملائكةً إلى هؤلاء المشركين ، الذين كانوا يقولون: « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا ؟ » (٢١ : الفرقان) ويقولون : « مالِ هذا الرسول يأكلُ الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا » (٧: الفرقان) . وإذن فليمت هؤلاء المشركون على شركهم ، كما مات فرعون وقومه من قبلهم على كفرهم . .

وهذا ما يشهد إليه قوله تعالى فى الآية التالية :

* « إنْ كانت إلا صيحةً واحدة فإذا هم خامدون » . . إنهـا صيحة

الموت ، التى يُقضَى بها على النّاس ، مؤمِنهم ، وكافرِهم ..

قوله تعالى :

* « ياحسرةً على العباد ما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزئون » .

يمكن أن يكون هذا نداء من الحق سبحانه وتعالى للحسرة ، لتقع على الكافرين المكذبين برسل الله ، وأن تشتمل عليهم ، ليذوقوا عذاب الندم ، إلى جانب العذاب الجهنمى ، نعوذ بالله منهما . . وهذا ما يشير إليه سبحانه فى قوله تعالى : « ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم » (١٥٦ : آل عمران) .

ويمكن أن يكون ذلك نداء تعجبيًّا من الوجود كلّه ، لهذه الحسرة التى تقع على الناس ، استفظاعاً لها ، وإشفاقاً منها أن تمتد ظلالها الكئيبة إلى كل موجود .

— وقوله تعالى : « ما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزئون » هو على التقدير الأول ، تعليل للحسرة التى ساقها الله إلى المكذبين والضالين . . وهو على التقدير الثانى ، جواب لسؤال يتعلق به لسان الحال ، وهو : أيّة جنايةٍ جناها الناس حتى يُساق إليهم هذا البلاء العظيم ؟ فكان الجواب : « ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » .

وفى وصف النـاس بأنهم عباد ، إشارة إلى أنهم — وهم عباد — لم يَرْعَوا حق العبودية لله ، بل كفروا بالله ، وكذبوا رسله ، واستهزءوا بهم .

والمراد بالعباد ، هم الناس جميعاً على اختلاف أوطانهم ، وأزمانهم . . إنهم هكذا دأبهم وقليل منهم من يؤمن بالله ، ويصدّق رسله . . أما الكثرة منهم ، فهم على هذا الوصف !

قوله تعالى :

* « ألم يَروْا كم أهلكنا قبلَهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون » .

الخطاب هنا للمشركين .. وهو تقرير لتلك الحقيقة التى يشهدونها عيانا ، وهى أن الهالكين قبلَهم من الأمم السابقة ، كثيرون ، وقد ذهبوا وذهبت آثارهم ، وأنهم لن يرجعوا مرة أخرى إلى هذه الدنيا . . فلمَ يشتدّ حرصُ هؤلاء المشركين على دنياهم تلك ، التى كل ما فيها باطل وقبضُ الريح ؟ ألا يفكرون فى حياة أخرى وراء هذه الحياة ، أبقى ، وأعظم ؟ .

قوله تعالى :

* « وإنْ كلٌّ لمّا جميعٌ لدينا محضرون » .

« إنْ » هنا نافية بمعنى « ما » و « لما » بمعنى إلاّ ، أى ما كلٌّ إلا جميع محضرون لدينا .. وهذا مِثل قوله تعالى : « إن كلُّ نفسٍ لمّا عليها حافظ » .

والمعنى ، أنه إذا كانت القرون الكثيرة التى هلكت لم ترجع إلى الدنيا مرة أخرى . فإنّ لها رجعةً إلى الله . . وحضورا بين يديه .. فكل من هلك من الناس راجع إلى الله ، للمساءلة ، والجزاء ..

وفى قوله تعالى : « محضَرون » — إشارة إلى أن هناك قوة تستدعيهم للحضور بين يدى الله ، وأن ذلك ليس عن اختيار منهم ، ولو كان ذلك كذلك لكان للكافرين وأهل الضلال مهرب إلى عالم الفناء الأبدى ، حيث يذهبون ولا يعودون ، كى يفلتوا من العذاب الأليم .

وإذا كان الحديث هنا عن المجرمين ، فقد كان قوله : « محضرون » مناسباً لحالهم ، التى هم فيها ، والتى يمنون النفس بأن لا رجعة إلى حياة بعد

الموت ، كما يقولون : « إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » (٢٩ . الأنعام) .

أما إذا كان الحديث عامًّا إلى الناس جميعاً ، مؤمنين وكافرين ، فأكثر ما يجيء الحديث عن البعث بالرجعة إلى الله ، كما يقول سبحانه : « إن إلى ربك الرجْعَى » (٨ : العلق) .

وكما يقول سبحانه : « كلٌّ إلينا راجعون » (٩٣ : الأنبياء) .. والرجوع هنا ، هو عودة إلى المبدأ الذى بدأت منه رحلة الحياة .. حيث كانت الحياة من عند الله ، ثم رجعت إليه ..

قوله تعالى :

* « وآيةٌ لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًّا فمنه يأكلون » .

وهذا شاهد يشهد للمكذبين بالبعث ، بأنه أمر ممكن ، وان إنكارهم له يقوم على فهم خاطىء لقدرة الله .. فلو أنهم نظروا إلى هذه الأرض الميتة ، وكيف يحيي الله مواتها ، ويبعث فيها الحياة ، ويخرج من أحشائها صوراً لاحصر لها من الكائنات الحية — لو نظروا إلى هذا لرأوا أن بعث الأجساد الهامدة لا يختلف فى شىء ، عن بعث الحياة فى الأرض الجديب .

وقوله تعالى : « وآية لهم الأرض الميتة » مبتدأ وخبر ، وقدم الخبر «آية» على المبتدأ « الأرض» للإلفات إليه ، لأنه الآية المراد النظر فى وجهها ، وأصل النظم : «والأرض الميتة آية لهم »

وقوله تعالى : « أحييناها واخرجنا منها حبًّا فمنه يأكلون » هو بدل من الأرض الميتة . . وهو بيان لها ، يكشف عما فى كيان هذه الآية التى تخرج من الأرض . . والحبّ ، هو مايخرج من نبات البُرّ ، والشعير والأرز ، ونحوها . .

قوله تعالى :

* « وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجّرنا فيها من العيون »

خُصت جنات النخيل والأعناب من بين أنواع الفاكهة بالذكر ، لأن هاتين الشجرتين ـ النخلة ، والكرمة ـ غايةُ ما يبلغه النبات من كمال فى سُلّم الترقّى . . فهما على قمة العالم النباتى ، وما تحتهما تَبَع لهما . . وإلى هذا يشير الحديث الشريف : « أكرموا عماتكم النخل ، فإنهن خُلقن من طينة آدم » — وهذا يعنى أن النخل قد أشرف من قمة عالم النبات على عالم الحيوان ، وكاد يلامس هذا العالم ، ويُحسب من أفراده .. وقدم النخيل على الأعناب ، لأنه أرقى درجة منه . .

قوله تعالى :

* « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون »

يمكن أن تكون اللام فى قوله تعالى : « ليأكلوا » للتعليل ، أى أحيينا الأرض ، وأنبتنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، ليكون ذلك نعمة من نعمنا عليهم ، لحفظ حياتهم ، بالأكل من ثمرات هذه الجنات . .

ويمكن أن تكون اللام للأمر ، وفى هذا الأمر دعوة لهم إلى الأكل من تلك المائدة التى مدها الله للعباد ، وجعل عليها ما تشتهى الأنفس من طيبات ـ وفى هذا الأمر إلفات لهم إلى هذا الإحسان ، وذلك الفضل من الله ، وإلى ما ينبغى لله من شكر وحمد ، وهذا مثل قوله تعالى : « الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتّى * كلوا وارعوا أنعامكم . . إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » (٥٣ - ٥٤ : طه)

والضمير فى ثمره ، يعود إلى النخيل ، لأنه المقدم رتبةً على العنب ، وهو

أكثر أنواعاً وألواناً منه ، فلا يعدو أن يكون العنب لوناً من ألوان الثمر

— وقوله تعالى : « وما عملته أيديهم »

يمكن أن تكون الجملة معطوفة على قوله تعالى : « من ثمره » أى ليأكلوا من ثمره من غير صنعة ، وليأكلوا ما عملته أيديهم من هذا الثمر ، وصنعته . .

ويمكن أن تكون الجملة حالية ، والواو واو الحال ، وما نافية . . ويكون المعنى ، ليأكلوا من ثمر هذا الشجر ، والحال أنه لم تعمله أيديهم ، ولم يكن فى قدرتهم أن يخرجوا شجرة منه ، أو أن يصنعوا ثمرة من هذا الشجر .

— وقوله تعالى : «أفلا يشكرون » حث لهم على الشكر ، وإنكار لموقفهم من هذه النعم موقف الجاحد المنكر للمنعم بها . .

قوله تعالى :

« سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » هو تسبيح بحمد الله ، وتنزيه له عن الشريك والولد ، وتمجيد لجلاله وقدرته . . وهذا التسبيح والحمد ، بلسان الوجود كله ، وكأنه إذا خرست ألسنة الضالين المكذبين أن يسبحوا بحمد الله ، وأن ينزهوه ويمجدوه ، فإن الوجود كله لسان تسبيح ، وتنزيه ، وتمجيد لله رب العالمين : « الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون »

فالمخلوقات كلها من أزواج ، هى الذكر والأنثى . . كما فى عالم الأحياء من حيوان ، ونبات، وهى الشىء ومقابله، كما فى عالم المعانى . كالصدق والكذب ، والحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والضلال والهدى .. وقد تحدثنا عن ذلك فى غير موضع من قبل .

قوله تعالى :

* « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون »

أى والليل آية لهم . . وقوله تعالى : « نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » جملة حالية من الليل . .

وسلخ النهار من الليل ، كشطه عنه ، وإزالة القشرة النورانية التى تكسوه ، كما يكسو الجلد الحيوان . . فإذا سُلخت هذه القشرة النورانية عن كيان الكائنات ، سادها الظلام . .

وفى قوله تعالى : « نسلخ منه النهار » — إشارة إلى حركة انسحاب النور ، بحركة الأرض ، ودورانها حول الشمس ، فينسلخ النور شيئاً فشيئاً عن الأماكن التى تطلع عليها الشمس ، وذلك كما يسلخ الجلد عن الحيوان ، شيئاً فشيئاً .. لا دفعة واحدة ..

وفى قوله تعالى : « فإذا هم مظلمون » — إشارة إلى أن كل إنسان يكتسى من النور حلة ، فإذا سلخت عنه صار جسما معتما مظلما ، وأصبح قطعة من هذا الظلام ، تجتمع قِطَعه بعضها إلى بعض ، فإذا هى الليل . .

قوله تعالى :

* « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم »

أى وآية لهم الشمس . . فهذه الشمس تسير فى مدار محدود لها ، وتتحرك فى فلك لا تتعداه ولا تخرج عنه .. وذلك بتقدير « العزيز » ذى العزة والسلطان « العليم » الذى تجرى أحكامه ومقاديره بعلم نافذ إلى كل شىء ، متمكن من كل كبيرة وصغيرة فى هذا الوجود .

وجريان الشمس ، هو حركتها فى فلكها المرسوم لها . وهى تقطع دورة هذا الفلك فى سنة كاملة ، وفى سرعة مذهلة .

قوله تعالى :

* « والقمرَ قدّرناه منازل حتىّ عاد كالعرجون القديم »

أى أن القمر يأخذ كل ليلة منزلا من الأرض ، على مدى شهر قمرى ، ففى أوسط منازله يبدو قمراً منيراً ، يغمر نورُ الشمس وجهه كله المواجه للأرض ، المتوسطة بينه وبين الشمس ، فيُرى بدراً كاملاً ، ثم يرجع إلى الوراء منزلة كل ليلة ، وذلك لبطء دورانه عن دوران الأرض ، فيقلّ مع كل ليلة أو منزلة ، الوجهُ المقابل منه للشمس ، ويظل يتناقص شيئاً فشيئاً مدة نصف شهر قمرى ، حتى يكون وجهه المواجه للأرض متوسطاً بين الأرض والشمس ، وهنا يكون وجهه المواجه للشمس مضيئاً بضوئها ، على حين يكون وجهه المواجه للأرض معتما ، فإذا نزل منزلته فى آخر ليلة لم يرَ من وجهه شىء ، وسمى محاقاً ، لأن نوره الذى كان يبدو منه قد مُحق . . ثم يبدأ يولد من جديد . . فإذا كانت الليلة الأولى أو المنزلة الأولى لمولده ، لم يُرَ منه إلا قوس صغير ، أشبه بقُلامة الظفر ، ويسمى هلالاً ، غائراً فى الشفق ، فيختلط الضوء القليل الذى يبدو منه بحمرة الشفق ، فيكون له تلك الصورة التى صورها له القرآن الكريم أدق تصوير وأروعه ، حين شبهه بالعرجون القديم . .

والعرجون ، هو عذق النخلة ، الذى يحمل التمر ، ومنه تتدلى عناقيد التمر ، ولونه أصفر ، فإذا جفّ ، وطال عليه الزمن تقوس شكله وصار لونه ضاربا إلى الحمرة الداكنة . وهذه التحركات والتغيرات التى تظهر على وجه القمر ليلة بعد ليلة ، جديرة بأن تستثير التفكير والتأمل ، وأن تدعو العقل إلى النظر فيما وراء هذا المنظر الظاهر للقمر ، إلى وضعه فى المجموعة الشمسية ، وإلى صلته بالأرض ، وإلى إمكان الوصول إليه ، ولو على سبيل الفرض أولاً ، ثم اتخاذ الأسباب التى يمكن تحقيق هذا الفرض بها . . إن الملاحظة للشىء ، هى الطريق الطبيعى

الكشف عن حقيقته . . وليس مثل هذا العرض الذى عرضه القرآن الكريم القمر داعيةً إلى الملاحظة والتأمل ، لو أن ذلك وجد هِمَمًا متطلعة ، وعزائم جادة . . ! !

قوله تعالى :

* « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليلُ سابقُ النهارِ وكلٌّ فى فلك يسبحون »

أى أن من قدرة الله سبحانه وتعالى ، ومن إحكام علمه ، أن أجرى هذه العوالم بعلمه ، وسخّرها بقدرته ، وأقامها على نظام محكم ، وأجراها فى مجارٍ لا تتعداها . . فلا يصطدم بعضها ببعض ، ولا يأخذ بعضها من بعض وضعًا غير الذى أقامه الله فيه . . فلا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر . فهى مع سرعتها المذهلة ، التى تبلغ ألوف المرّات بالنسبة لسرعة القمر فإنها لا تدركه . . فهى لها فلك تدور فيه ، كما للقمر فلكه الذى يدور فيه . .

وكما أن الشمس لا تدرك القمر ، كذلك الليل لا يسبق النهار ، إنهما يجريان بحيث يتبع أحدهما الآخر ، دون أن يسبقه . . « وكل فى فلك يسبحون » .
وجُعل الليل وراء النهار ، لأن النهار أسبق من الليل فى دورة الأرض حول نفسها من الغرب إلى الشرق . . فالأرض فى دورانها حول نفسها من الغرب إلى الشرق ، إنما تجرى نحو النور ، ومن وراء النور الظلام . . فالنور دائمًا أمام الظلام ، وهما معًا فى حركة وجَرَيان . فالآية الكريمة تشير إلى حركة الأرض وإلى دورانها حول نفسها من الغرب إلى الشرق . .

واستُعمل مع هذه العوالم ضمير العقلاء — إشارة إلى هذا النظام المحكم

المسك بها ، والذى يقيمها على طريق مستقيم ، كما يقيم العقلُ السليم صاحبه على طريق مستقيم . .

قوله تعالى :

* « وآية لهم أنَّا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون »

أى ومن آياتنـا التى نعرضها على هؤلاء المشركين ، والتى تحمـل إليهم الدلائل على قدرتنا ، وإحساننا ـ أننا « حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون . »

والفلك . يطلق على الواحد والجمع من السفن ، قال تعالى : « وأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا » . . فهى هنا سفينة واحدة ،وقال تعالى:« حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة . » وهى هنا جمع . والمراد بها فى الآية الجمع كذلك ، لأنه وصف بمذكر ، وهو قوله تعالى : « المشحون » ، وعادعليها الضمير كذلك مذكراً فى قوله تعالى :« وخلقنا لهم من مثله ما يركبون» . . فعومل بهذا معاملة الجنس . . والمشحون : الممتلىء . .

والمراد بالذرية : الأبناء ، وهى ، تجمع على ذرارى ، وذريات، وأصلها من الذرء ، وهو إظهار الشيء ، يقال ذرأ الله الخلق ، أى أوجد أشخاصهم ، والذرأة بياض الشعر . . وفى الإشارة إلى حمل ذرياتهم دون حمل آبائهم إلفات إلى ما تحمل الفلك لهم من فَلَذات أكباد ، ونفائس أموال وأمتعة ، فتحفظها ، وتصل بها إلى غايتها . . وفى هذا ما يريهم فضل الله عليهم ، وإحسانه بهم ، فقد لا يرى الإنسان فضل النعمة ، ولا يقدرها قدرها إذا هى لبسته هو ، فإذا رآها فى غيره عرف لها قدرها ، وذكر فضلها . .

قوله تعالى :

* « وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » معطوف على قوله تعالى : « حملنا ذريتهم » أى وآية لهم أنا خلقنا لهم من مثل هذا الفلك ، مراكبَ يركبونها فى البر ، وهى الإبل التى تسمى سفائن الصحراء ، والخيل ، والبغال والحمير ، وغيرها مما يُركب ، ويحمل عليه . .

قوله تعالى :

* « وإن نَشَأْ نغرقهم فلاصريخَ لهم ولا هم يُنقَذون * إلا رحمةً منا ومتاعاً إلى حين . . »

أى أنه إذا كان من قدرة الله أن سخّر الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، فلا يغرق راكبوها ، فإن من قدرته سبحانه أن يُغرق هذه السفن ، بمن فيها من أولاد وأموال ، فلا يجدون من يسمع لهم صُراخاً ، أو يستجيب لهم ، أو يقدر على إنقاذهم إن سمع واستجاب . . فهم هلكى لا محالة ، إلاّ أن تتداركهم رحمة الله ، وإلا أن تكون لهم بقية من أجل . .

فقوله تعالى : « إلاّ رحمةً منا ومتاعاً إلى حين » استثناء من قوله تعالى : « فلا صريخ لهم » أى لا ينقذهم منقذ أبداً إلا رحمةَ الله ، وما لهم من أجل لم ينته بعد . .

الآيات : (٤٥ — ٥٤)

* « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا

مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) »

التفسير:

قوله تعالى:

* « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون ».

لا تزال الآيات الكريمة، تلقى المشركين بالوعيد والتهديد، بعد أن عرضت عليهم من مشاهد قدرة الله ما فيه عبرة لمعتبر، ولكنهم ذوو أعين لا تبصر، وآذانٍ لا تسمع، وقلوب لا تلين..

فإذا دُعوا إلى أن يتقوا الله فيما بين أيديهم من نِعم، يستقبلونها من الله، وما خَلْفهم من نعم أفاضها الله عليهم، لعلهم ينالون رحمة الله، ويدخلون فى عباده المتقين — إذا قيل لهم هذا القول، لم يقفوا عنده، ولم يلتفتوا إليه،

ومضَوْا على ما هم عليه من كفر بنعم الله ومحادّة له..

وجاء القول بصيغة البناء للمجهول « قيل » ، للإشارة إلى أنهم لا يقبلون هذا القول الذى يدعوهم إلى تقوى الله ، لا لأن رسول الله هو الذى يدعوهم إليه ، وإنما لأن طبيعتهم لا تقبله ، من أية جهة تأتيهم به ، ومن أى إنسان يدعوهم إليه . .

وحُذف جواب الشرط « إذا » لدلالة حالهم عليه . . فهم على إعراض أبداً عن كل خير ، وحق ، وإحسان . .

وقوله تعالى :

* « وما تأتيهم من آية من آياتِ ربهم إلا كانوا عنها معرضين » .

هو مما يشير إلى جواب الشرط فى الآية السابقة .. فهو حكمٌ عليهم بأنهم لا يلتقون بآية من آيات ربهم، إلا أعرضوا عنها ، مكذبين بها ، ساخرين منها . .

قوله تعالى :

* « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنُطْعِمُ من لو يَشَاء الله أطعمَه إن أنتم إلا فى ضَلالٍ مُبين » .

وهذه آية من آيات الله ، تدعوهم إلى خير ، وإلى بر وإحسان ، بأن ينفقوا مما رزقهم الله — فماذا كان جوابهم على هذه الدعوة من صاحب الأمر ، وصاحب الرزق ؟ . كان جوابهم هو :

— « قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ إن أنتم إلا فى ضلال مبين » . .

وهذا جواب خبيث ماكر ، يكشف عن كفر غليظ ..

إنهم فى سبيل الغَلَب بالمماحكة والجدل ، يؤمنون بالله ، ويؤمنون بمشيئته فى خلقه ، وبتصريفه المطلق لكل أمر .. فيقولون ردًّا على قول الله أو الرسول أو المؤمنين لهم : « أنفقوا مما رزقكم لله » — يقولون : « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه؟ » إن تلك هى مشيئة الله فى هؤلاء الجياع الذين نُدعى إلى إطعامهم.. إن الله أراد لهم أن يجوعوا ، ولو أراد أن يطعمهم لأطعمهم .. فإنه قادر ، وخزائنه لا تنفد !! فلم يدعوننا نحن إلى إطعامهم ، وهو القادر ، ونحن العاجزون ، وهو الغنى ونحن الفقراء ؟ إن أنتم أيها المؤمنون « إلا فى ضلال مبين »! لا تعرفون الله ، ولا تقدرونه قدره !! .

وهذا الرد من المشركين ، هو رَدُّ مَن خذله الله ، وأضله على علم .. فهم إذ يُدْعون إلى الإيمان بالله ، لا يسمعون ، ولا يعقلون .. وهم إذا دُعوا إلى ما تقتضيه دواعى المروءة الإنسانية ، من الإحسان إلى إخوانهم الفقراء ، يقيمون من الله ، ومن علمه وقدرته حجة كيدية ، يُبطلون بها الدعوة التى يُدعون إليها.. ولو أنهم كانوا مؤمنين بالله ، معترفين بمشيئته فى خلقه ، لاستجابوا لما يدعوهم الله إليه ، من الإنفاق فى سبيل الله ..

وفى الإظهار بَدَلَ الإضمار فى قوله تعالى : « قال الذين كفروا » بدلا من قالوا — كشفٌ عن الوصف الذى هو ملتصق بهم ، وهو الكفر ..

قوله تعالى :

* « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » .

الوعد : هو يوم القيامة ، الذى يعدهم الرسول به ، ويدعوهم إلى الاستعداد للقائه .

وسؤال المشركين عن موعد هذا اليوم ، هو على سبيل التكذيب به ،

والإنكار له .. لا سؤال الذى جَهِل ، ويريد أن يعرف .. ولهذا فهم يعقبون على هذا السؤال بقولهم : « إن كنتم صادقين » . . وقولهم هذا للنبى وللمؤمنين معه . . هو قول الشاك فى صدق من يسأله ، بل هو قولُ من يتهم وينكر .

قوله تعالى :

* « ما ينظرون إلا صيحةً واحدة تأخذهم وهم يَخِصّمون » أى ما ينظر هؤلاء المشركون المكذبون بيوم القيامة ، إلاّ صيحة واحدة تطلع عليهم من حيث لا يحتسبون ، فتأخذهم وهم فى هذا الجدل والاختصام فيما يشغلهم من أمور دنياهم ، وفيما يختَصمون فيه مع المؤمنين فى أمر هذا اليوم . .

والصيحة هى صيحة الموت العام ، أو الخاص . .

قوله تعالى

* « فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يرجعون » .

أى أن هذه الصيحة التى تنزل بهم ، إنما تأتيهم بغتةً ، فلا تدع لهم سبيلاً إلى أن يتصرفوا فى شىء مما فى أيديهم ، أو أن يُوصوا بشىء منه إلى من يودون إيثاره بشىء مما كانوا يحرصون عليه ، وقد أوشك أن يفلت من أيديهم ، كما لا يستطيعون أن يرجعوا إلى أهلهم وأموالهم بعد موتهم . . أو أنهم لا يستطيعون أن يرجعوا إلى أموالهم وأهليهم ، إذا جاءهم الموتُ ، وهم فى مكان بعيد عنهم . . إن الموت لا ينتظرهم لحظة واحدة ، إذا جاء أجلهم . .

قوله تعالى ·

* « ونفخَ فى الصُّور فإذا هم من الأجداثِ إلى ربهم ينسلون » .

وإذا كان هؤلاء المقبورون من المشركين ، لا يرجعون إلى أهليهم ،

فإنهم سيرجعون إلى الله، وسيلقون جزاء ما كانوا يعملون. فكما ماتوا بصيحة واحدة، فإنهم سيبعثون كذلك بنفخة واحدة.

والصور: هو قرن يُنفخ فيه، فيحدث صوتاً عالياً.

والأجداث: جمع جَدَث، وهو القبر.

وينسلون: أي يخرجون مسرعين من القبور.

قوله تعالى:

* «قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا؟ هـذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون».

وتأخذ المفاجأةُ المشركين والكافرين، لأنهم كانوا لا يتوقعون نشوراً، فيُفزعهم هذا البعث، ويتنادَوْن بالويل.. لأنهم لا يدرون ماذا يُراد بهم فى هذا العالم الجديد الذى أخذوا إليه؟ ويأخـذهم العجب من تلك اليقظة التى أخرجتهم من هذا النوم الطويل.. «مَن بعثنا من مرقدنا»؟ ويجيئهم الجواب: «هذا ما وعد الرحمن وصَدَقَ المرسلون».. هـذا ما كنتم به تـكذبون!

قوله تعالى.

* «إن كانت إلاّ صيحةً واحدة فإذا هم جميعٌ لدينا محضرون».

«صيحةً» خبر كان منصوب، واسمها ضمير يعود على الصيحة فى قوله تعالى: «ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون».. أى ما كانت الصيحة إلا صيحةً واحدة، أخرجتهم من قبورهم، ثم جمعتهم فى المحشر بين يدى الله..

قوله تعالى :

• « فاليومَ لاتُظْلَمُ نفسٌ شيئاً ولا تُجْزَوْنَ إلاّ ما كنتم تعملون »

أى ففى هذا اليوم ، يَلقى كل إنسان جزاء ما عمل ، فلا تُظلم نفسٌ شيئاً ، فالمسىء لا يلقى من الجزاء إلا بقدر إساءته ، والمحسن لا يُبخس من إحسانه شىء ، بل يوفّاه مضاعفاً . .

الآيات : (٥٥ — ٧٠)

• « إِنَّ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى ٱلْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ (٥٩) • أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا ٱلصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ (٧٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إن أصحاب الجنّة اليوم فى شُغلٍ فاكهون * هم وأزواجُهم فى ظلالٍ على الأرائك متكئون * لهم فيها فاكهة ولهم ما يدّعون * سلام قولاً من رب رحيم »

هذا ما يُلَقّاه المؤمنون فى هذا اليوم الذى يساق فيه المشركون إلى موقف الحساب والجزاء .. وهذا الخبر هو تشويق المؤمنين إلى هذا الجزاء الكريم الذى وُعدوا به من ربّهم .. ثم هو فى الوقت نفسه عزل الكافرين عن هذا المقام ، ومضاعفة للحسرة فى قلوبهم .. وسمى أهلُ الجنة أصحابَها ، تمكيناً لهم منها ، وإطلاقاً لأيديهم بالتصرف فى كل شىء فيها ، شأنهم فى هذا شأن المالك فيما ملك .. فضلاً من الله وإحساناً .

وشُغل أصحاب الجنة فى الجنة ، هو ما يُلَقّوْن من ألوان النعيم ، حيث يشغل هذا النعيم كل لحظة من حياتهم ، إذ يجيئهم ألواناً وصنوفاً ، فإذا هم فى أحوال متغايرة متشابهة معاً .. متغايرة فى صورها وآثارها ، متشابهة فى إسعاد النفوس ونعيمها .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « كلما رزقوا منها من ثمرةٍ رزقاً قالوا هذا الذى رُزِقنا من قبلُ وأُتوا به متشابهاً » (٢٥ : البقرة)

وفاكهون : أى متنعمون بما يُساق إليهم من ألوان النعيم ، وأصله من الفاكهة ، إذ كانت من طيبات المطاعم .. ومنه الفكاهة ، وهى التخير من طُرَف الكلام ومُلَحه .

وقوله تعالى : « هم وأزواجهم » .. إشارة إلى أن أهل الجنة يجدون نعيما خاصاً ، فى صور من الحياة التى كانوا يحيونها فى دنياهم ، ومن هذه

الصور ، هـذا الإلف الذى يجمع بين الزوج وزوجـه ، وبين الوالدين وأولادهم . . فهذه رغيبة من رغائب الناس فى الحياة ، يسعد بها من وجدها فى زوجه وولده ، ويشتهيها مَن حُرِمها ، فلم يجد الزوج الموافقة ، ولا الولد الذى يسعد به . . فإذا كانت الآخرة ، كان من مطالب أهل الجنة أن يستعيدوا ما كانوا يجدون من نعيم فى دنياهم ، وأن ينالوا ما كانوا يشتهونه ولا يجدون سبيلا إليه . . وهذا — كما قلنا غير مرة — هو التأويل لهذا النعيم الحسى ، ولهذه الصور الدنيوية من ذلك النعيم ، الذى يَدخل على أصحاب الجنة مع نعيم الجنة . . وهذا مثل قوله تعـالى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم » (٢١ : الطور) فالمراد بالأزواج هنا، الزوجات المؤمنات اللاتى أُدخلن الجنة ، فيـكون من تمام النعمة عليهن وعلى أزواجهن ، أن يجتمـع بعضهم إلى بعض .

وقوله تعالى : « فى ظلال على الأرائك متكئون » — هو صور من صور النعيم الدنيوى ، وكان كثير من أصحاب الجنة يتطلعون إليه فى دنياهم ، ولا يجدونه . .

وقوله تعالى : « لهم فيها فاكهة . . » أى لأصحاب الجنة فاكهة » . . وأطلقت الفاكهة من غير تحديد ، لتشمل كل فاكهة ، فيتخيرون منها ما يشاءون ، كما يقول سبحانه : « وفاكهةٍ مما يتخيرون » (٢ : الواقعة)

وقوله تعالى : « ولهم ما يدّعون » أى لهم ما يشاءون ، وما يطلبون ، غير ما يُقدّم إليهم من غير طلب . .

وقوله تعالى : « سلام قولا من رب رحيم » بدل من الاسم الموصول «ما» فى قوله تعالى : « ولهم ما يدعون » أى ولهم سلام . . وهذا السلام يقال لهم قولاً من رب رحيم ، أى يسلم عليهم الرحمن به ، فيقول جل جلاله لأصحاب

الجنة « سلام عليكم » .. وهذا هو غاية نعيم أصحاب الجنة وأطيب طعومها الطيبة عندهم ..

قوله تعالى :

* « وامتازوا اليوم أيها المجرمون »

أى انعزلوا ، وخذوا مكاناً خاصاً بكم ، حيث تتميزون به ، وتُعرفون فيه .. وهذا زجر للكافرين ، وردع لهم أن يكونوا بمحضر من هذا المقام الكريم الذى ينزله أصحاب الجنة ، أو أن يروه بأعينهم ..

قوله تعالى :

* « ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان .. إنه لكم عدو مبين » .

العهد هنا ، هو ما كان من الله سبحانه وتعالى من تحذير من الشيطان وأعوانه ، كما يقول سبحانه على يد الرسل « يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » (٢٧:الأعراف) وكما يقول جلّ شأنه : « إن الشيطان لكم عدوٌّ فاتخذوه عدوًّا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » (٦ : فاطر) وعبادة الشيطان ، هى اتّباعه فيما يدعو إليه ، وهو لايدعو إلا إلى ضلال ، وشرك ، وكفر ..

والاستفهام فى الآية للتقرير .. الذى يثير مشاعر الندم والحسرة ..

قوله تعالى :

* « وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم »

هو معطوف على قوله تعالى : « ألا تعبدوا الشيطان » .. أى « ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان ، وأن اعبدونى » ؟ .. فالعهد الذى أخذه

الله على أبناء آدم جميعاً ، هو أن يتجنبوا عبادة الشيطان ، وأن يحذروا الاستجابةَ له فيما يدعوهم إليه ، وأن يعبدوا الله وحده .. فهذا هو الصراط المستقيم .. فمن لم يعبد الله ، فقد ضل وهلك ..

قوله تعالى :

* « ولقد أضلّ منكم جِبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون »

الجِبلّ ، والجبلة : الخَلق

والآية تلفت العقولَ إلى هذه الآثار السيئة التى تركها الشيطان فيمن عَصوا الله ، ونقضوا العهد ، واتبعوا خطوات الشيطان.. لقد ألقى بهم الشيطان فى بلاء عظيم ، وأوردهم موارد الهلاك .. فإذا لم ير بعض الغافلين أن يستجيبوا لما دعاهم الله إليه من اجتناب الشيطان ، والحذر منه ـ أفلم يكن لهم فيما رأوا من آثاره فى أتباعه وأوليائه ، ما يدعوهم إلى اجتنابه ، ومحاذرته ؟

ـــ وفى قوله تعالى : «أفلم تكونوا تعقلون؟ » هو عودباللائمة والتوبيخ لهؤلاء الذين لا تزال أيديهم ممسكة بيد الشيطان ، وهم يمشون على أشلاء صرعاه منهم!

قوله تعالى :

* « هذه جهنم التى كنتم توعدون » ..

لقد نقض المشركون عهد الله ، وخرجوا عن أمره .. ولكن الله سبحانه لم ينقض عهده معهم ، وهو أنهم إذا نقضوا عهده ، وخرجوا عن أمره ، كانت النار موعدَهم .. كما يقول سبحانه : « النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير » (٧٢ : الحج)

قوله تعالى :

* « اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون »

أى اصطلوا بها ، وذوقوا عذابها ، بسبب كفركم وضلالكم . .

وفى هذا الأمر الذى يُلقَى إليهم وهم يتقلبون على جمر جهنم مضاعفة للعذاب ومزيد منه ، إن كان وراءه مزيد !

قوله تعالى :

* « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون »

أى فى هذا اليوم يختم الله على أفواه أهل الضلال ، فلا ينطقون . . وفى هذا زجر لهم ، وكبت للكلمات التى كانت ستنطلق من أفواههم ، ليعتذروا بها إلى الله ، وليتبرءوا بها من أنفسهم ، وما جنته أيديهم ، أو يحاولوا بها إلقاء التهمة على غيرهم .. وفى كل هذا مجال للتنفيس عنهم . . وكلاّ ، فإنه لا متنفس لهم ، ولو بالكلمة !!

ومما يضاعف فى إيلامهم وحسرتهم أن يقوم الشهود عليهم بإثبات جريمتهم ـ من أنفسهم ، فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم . . إنهم شهود أربعة ، تتم بهم الشهادة على مرتكبى الكبائر . .

ولا نسأل كيف تتكلم هذه الجوارح . . إنها تنطق للخالق الذى خلقها .. وفى هذا يقول الله تعالى : « ويوم يُحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء » (١٩ ـ ٢١ : فصلت) .

فليست الأيدى والأرجل وحدها هى التى تنطق وتشهد على أصحابها ، بل إن كل جارحة فيهم تشهد عليهم بما كان منها ، حتى ألسنتهم تلك التى

ختم الله عليها . . إنها ستنطق ولكن بعد أن تشهد الجوارح كلها ، فلا يكون لهم حجة تنطق بها الألسنة . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » (٢٤ : النور)

قوله تعالى :

* « ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنّى يبصرون »

أي لو شاء الله لطمس على أعين هؤلاء المشركين ، وهم فى هذه الدنيا ، وأنزل بهم هذا العقاب الرادع ، فأسرعوا إلى الإيمان ، واستبقوا إليه ، تحت ضغط هذا النذير ، .ولكن الله سبحانه لم يشأ هذا بهم ، ولم يلجئهم إلى الإيمان اضطراراً . .

فقوله تعالى : « فاستبقوا الصراط » سبب للطمس على أعينهم ، والفاء للسببية ..

وقوله تعالى : « فأنى يبصرون » أى فكيف يبصرون ، إذا طمس الله على عيونهم ؟ إن هذه الإبصار نعمة جليلة من نعم الله ، وقد أبقاها الله لهم فلم يطمس عليها . . أفلا يرعون هذه النعمة المهددة بالطمس ؟ ثم ألا ينظرون بها ، ويهتدون إلى الإيمان ويستبقون بها إلى صراط الله المستقيم ؟

قوله تعالى .

* « ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيًّا ولا يرجعون »

أى لو شاء الله كذلك ، لمسخهم على مكانتهم التى هم فيها من الضلال والعناد ، ولم يُدخل على مشاعرهم شيئاً من الإيمان ، ولأمسك بهم على الكفر فما استطاعوا « مضيًّا » أى اتجاهاً إلى الإيمان ، ولا رجوعاً عما هم عليه من طرق الضلال . .

ولكنه سبحانه وتعالى ، لم يشأ ذلك فيهم ، وترك لهم مجال النظر ، والاختيار ، والتحرك من الكفر إلى الإيمان ، إن شاءوا . فمشيئتهم مطلقة عاملة ، غير معطلة ، وبهذا لا تكون لهم على الله حجة .

وهذا يعنى أن الخطاب هنا ـ وهو لجماعة المشركين ـ يشير إلى أن فيهم من سيتحولون من حالهم تلك ، ويخرجون من هذا الظلام ، ويلحقون بالمؤمنين ، ويدخلون فى دين الله . . فالفرصة لا تزال فى أيديهم ، ان تفلت منهم بعد . . وإن السعيد منهم من سبق ، وأخذ مكانه على طريق الإيمان ، قبل أن تفلت الفرصة من يده

قوله تعالى :

* « ومن نعمره ننكسه فى الخلق . . أفلا يعقلون »

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيتين السابقتين ، حملتا مع هذا التهديد الذى حملته إلى المشركين ، دعوة إلى المبادرة إلى الإيمان بالله ، واستباق الزمن قبل أن يفوت الأوان . . .

وهنا فى هذه الآية ، دعوة أخرى إلى المبادرة واستباق الزمن . . حيث أنه كلما طال الزمن بهم لم يزدهم طول الزمن إلا نقصاً فى الخلق ، وإلا ضعفاً فى التفكير ، حيث يأخذ الإنسان عند مرحلة من مراحل العمر فى العودة إلى الوراء ، وفى الانحدار شيئاً فشيئاً ، حتى يعود كما بدأ ، طفلاً فى مشاعره ، وخيالاته ، وصور تفكيره . .

فالزمن بالنسبة لهؤلاء المشركين ، ليس فى صالحهم ، وأنهم وقد بلغوا مرحلة الرجولة الكاملة ، لا ينتظرون إلا أن ينقصوا لا أن يزدادوا ، وعياً وإدراكا ، وأنهم إذا لم تهدهم عقولهم إلى الإيمان بهذا الكتاب الذى بين أيديهم فلن يهتدوا بعد هذا أبداً ، بل سيزدادون ضلالا إلى ضلال ، وعمى إلى عمى . .

– وفى قوله تعالى : « أفلا يعقلون » حثٌّ لهم على استعمال عقولهم تلك ، التى هى معهم الآن! ، ثم إذا هى – بعدَ أن يمتد العمر بهم – وقد تخلت عنهم ! وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً » (٧٠ : النحل) .

* قوله تعالى :

« وما عَلَّمناه الشِّعْرَ وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » . .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أيضاً ، هو أنه وقد حملت الآيات الثلاث قبلها دعوةً إلى المشركين أن يستبقوا الإيمانَ بالله ، وأن يبادروا باستعمال عقولهم والنظر بها إلى آيات الله قبل أن تذهب هذه العقول مع الزمن — فقد جاءت تلك الآية تلقاهم برسول الله ، وبكتاب الله الذى معه ، ليكون لمن انتفع بهذه الدعوة معاودةُ نظرٍ إلى رسول الله ، وإلى كتاب الله .. فالضمير فى قوله تعالى : « وما علمناه » يعود إلى الرسول الكريم ، وهو وإن لم يجر له ذكر فى الآيات السابقة ، فإنه مذكور ضمنا فى كل آية من آيات الكتاب ، إذ كانت منزلة عليه ..

فهذا رسول الله .. ليس بشاعر كما يقولون .. إنه لم يؤثر عنه شعر ، ولم يكن — كما عرفوا منه — من بين شعرائهم .. فهذه تهمة ظالمة ، يجب أن يبرئوا النبىّ منها ، وأن يلقوه من جديد على أنه ليس بشاعر .

وهذا كتاب الله الذى بين يديه .. ليس من واردات الشعر — كما يزعمون زوراً وبهتانا — بل هو « ذِكر » يجد الناس من آياته وكلماته ، ما يذكّرهم بإنسانيتهم ، وبما ضيعوا من عقولهم فى التعامل مع الجهالات والضلالات ، على خلاف الشعر ، فإنه — فى غالبه — استرضاء للعواطف

وتغطية على مواطن الرشد من العقول . . وهذا الكتاب هو « قرآن مبين » أى كتاب غير مغلَق على قارئه ، أو سامعه من قارىء له ، بل هو واضحُ المعنى ، بيّن القصد ، فلا تُعمَّى على قارئه أو سامعه أنباء ما به . .

قوله تعالى :

* « لينذر من كان حيًّا ويَحق القول على الكافرين » أى أن هذا الرسول الكريم ، إنما ينذر بالكتاب الذى معه ، « من كان حيًّا » أى من كان فى الأحياء من الناس ، بعقله ، ومدركاته ، وحواسه .. فإن من كان هذا شأنَه ، كان أهلا لأن ينتفع بما ينذر به . . أما من تخلى عن عقله ، وملكاته ومشاعره فلا يُحسب فى الأحياء ، ولا ينتفع بالنذر .. بل سيظل على ماهو عليه من كفر وضلال ، ويحق عليه القول ، أى ينزل به العذاب ، الذى توعد به الله سبحانه وتعالى ، أهلَ الكفر والضلال ..

الآيات : (٧١ — ٨٣)

* « أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) فَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) أَوَ لَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي

جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « أو لم يَرَوْا أنا خَلَقْنا لهم مما عمِلَتْ أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون »

هو عرض للآيات الكونية ، التي تكشف عنها الآيات القرآنية لأبصار هؤلاء المشركين ، الذين دُعوا إلى إعادة النظر فى كتاب الله ، وإلى إخلاء مشاعرهم من القول بأنه شعر ، وأن الرسول الذى جاء به من عند الله شاعر . .

فهذا الكتاب الذى بين أيديهم ليس شعراً ، إنه ذِكرٌ وقرآن مبين . .

ومن الذكر الذى فى هذا القرآن ـ هذا العرضُ الذى تُعرض فى آياته هذه المظاهر من قدرة الله ، وصنعة يده . .

فهذه الأنعام التى يملكها هؤلاء المشركون ، والتى فيها عبرة وذكرى لمن سمع ، ووعى . . مَنْ خلقها ؟ ومن جعل لهم سلطاناً عليها ؟ ومَن وضعها فى أيديهم وجعلها مِلكا خالصاً لهم ؟ . .

ألا فلينظروا بعقولهم إلى هذه الأنعام ، وليجيبوا على هذه الأسئلة التى تطلع عليهم منها . .

إنها صنعة الله ، وفى ملكه . . ولكنه — سبحانه — قد ملّكهم الله إياها ، وأقدرهم على تسخيرها ، والانتفاع بها . .

* « وَذَلّلناها لهم فنها رَكوبهم ومنها يأكلون » أى أنه لولا أن ذلّلها الله لهم ، وجعلها فى خدمتهم ، لَما قدروا عليها ، ولما أمسكوا بها . . إذ كانت أقوى قوّةً منهم . . ولو شاء الله لجعلها فى طبائع الحيوانات المفترسة ، التى لا تألف الناس ، ولا يألفها الناس .. فلا يكون لهم منها نفع أبداً . .

* « ولهم فيها منافعُ ومشاربُ أفلا يشكرون » — أى أن فى هذه الأنعام منافعَ كثيرة لهم . . يركبونها ، ويحملون عليها أمتعتهم ، ويأكلون لحومها ، ويشربون ألبانها ، ويتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها أثاثا ومتاعاً . . أفلا يشكرون الله على ذلك ؟

قوله تعالى :

* « واتخذوا من دون الله آلهةً لعلهم يُنصرون » .

هو عطف حَدَث على حدث .. وبين الحدثين تغاير كبير ، وتفاوت بعيد ، والشأن بين المتعاطفين أن يتقاربا ، ويتجاوبا . . ولكن فى هذا العطف فضح لضلال المشركين ، وانحرافهم هذا الانحراف الحادّ ، عن الطريق السوىّ .. حيث يقابلون الإحسان بالكفران .

فالله سبحانه وتعالى يَفْضُل عليهم بهذه النعم ، خَلْقاً ، وتسخيراً ، وتذليلا . . وهم يكفرون به ، ويحادّونه ، ويتخذون من دونه آلهة . . فما أبعد ما بين الإحسان والكفران ! .

وقوله تعالى : « لعلهم يُنْصَرون » بيان للغاية التى يقصد إليها المشركون من اتخاذ هذه الآلهة من دون الله . . إنهم يرجون من وراء ذلك الاستعانةَ

بها على ما يغلبهم من شئون الحياة ، وما يلقاهم على طريقها من عقبات . . وهيهات . . ضَعُفَ الطالب والمطلوب . . !

قوله تعالى :

* « لا يستطيعون نَصْرَهم وهم لهم جُندٌ مُحْضَرون » .

هو رَدٌّ على معتقَد المشركين فى آلهتهم . فهؤلاء الآلهة الذين اتخذوهم من دون الله معبودين لهم ، يرجون منهم نصراً — هؤلاء الآلهة لا يستطيعون لهم نصراً ، بل وأكثر من هذا ، فإن آلهتهم هذه ، محتاجة إلى من يحرسها ، ويدفع عنها يد المعتدين . .

وهؤلاء المشركون هم أنفسهم ، جند محضرون ، يقومون على حماية هذه الآلهة ، وحراستها ، وحراسة ما تزَيَّن من به حُلَىّ ، وما يلقى عليها من ملابس . .

— فقوله تعالى : « وهم لهمْ جندٌ محضرون » — الضمير « هم » يعود إلى المشركين ، وفى قوله تعالى : « محضَرون » — إشارة إلى أن هناك قوى مسلطة على هؤلاء المشركين ، تجعل منهم جنداً لخدمة هذه الآلهة . . وهذه القوى هى تلك المشاعر المتولدة من معتقدهم الفاسد ، وتصورهم المريض ، حيث تسوقهم هذه المشاعر الضالة ، سوقاً، إلى التزلّف لهذه الدُّمَى ، والولاء الأعمى لها . .

* « فلا يحزنْك قولهم .. إنا نعلم ما يُسرُّون وما يعلنون » .

هو عزاء كريم ، للنبى الكريم ، من ربّ كريم ، مما يرميه به قومه من بذىء القول وساقطه .. « فلا يَحزنْك قولهم » هذا الذى يقولونه عنك ، من أنك كاذب ، وشاعر ، ومجنون ، ولا يحزنك ما يقولونه فى آلهتهم ، وأنها شفعاء لهم من دون الله . .

— وفى قوله تعالى : «إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون » .. تهديد للمشركين ، ووعيد لهم بالحساب الشديد ، والعذاب الأليم ، فالله سبحانه يعلم ما يسرون وما يعلنون، من كفر ، وضلال ، وبهتان ، وهو سبحانه محاسبهم ومجازيهم عليه . .

قوله تعالى :

* « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين » .

هو مراجعة لهؤلاء المشركين ، وتنبيه لهم من هذه الغفلة المستولية عليهم .. وفى هذا الاستفهام التقريرى الموجه إلى الإنسان على إطلاقه — دعوة إلى كل إنسان أن ينظر فى نفسه ، وأن يمد بصره ، إلى نقطة الابتداء فى حياته ، ثم ليسير مع نقطة الابتداء هذه فى الطريق الذى سلكه ، حتى صار هذا الإنسانَ ، الذى يجادل ، ويخاصم ، ويقف من الله موقف الحادِّ المحارب ! .

ألم يكن هذا الإنسان نطفة ؟ .. إنه لو نظر الإنسان فيها لأنكر نفسه ، وما وقع فى تصوره أنه كان جرثومة من آلاف الجراثيم السابحة فى هذه النطفة.. وأين تلك النطفة أو هذه الجرثومة العالقة بالنطفة ـ أين هى من هذا الإنسان ، الذى أبدعته يد القدرة هذا الإبداع العظيم الحكيم ؟

ألاَ ما أضأل شأن الإنسان ، وما أعظمه ! ما أضأله نطفة ، وما أعظمه رجلا ..

ما أضأله ضالا ضائعا ، كضلال هذه النطفة وضياعها ..

وما أعظمه إنسانا رشيداً ، عاقلا مؤمناً ، فى ثوب الإنسانية الرشيدة العاقلة المؤمنة ! .

قوله تعالى :

* « وضرب لنا مثلا ونَسِىَ خَلْقَهُ قال من يحى العظام وهى رميم » .

هو عطف حَدَث على حَدَث ، عطفُ خَلْقِ الله سبحانه الإنسانَ من نطفة ، ثم قيام إنسان من هذه النطفة يجادل الله ، ويختصمه ، ويضرب له الأمثال ، احتجاجاً وحجة !.

ففاعل الفعل « ضرب » يعود إلى هذا الإنسان الخصيم المبين ، الذى تولد من النطفة ! .

إنه لم يقف عند هذه الدعوة التى دعاه الله سبحانه وتعالى بها إلى أن ينظر فى خَلْقِهِ ، وأن يعرف من أين جاء ، وكيف كان ، ثم كيف صار — لم يقف عند هذه الدعوة ، بل أقبل يحاجّ الله ويجادله ، ويضرب الأمثال له .. « إن الإنسان لظلوم كفار » (٣٤ : إبراهيم) ..

والمثل الذى ضربه هذا الكافر ، ليدلل به على معتقده الفاسد ، فى إنكار البعث — هذا المثل ، هو أنه نظر فى هذه العظام البالية التى يراها فى قبور الموتى ، ثم اتخذ منها معرضاً يعرضه على الناس ، ويسألهم هذا السؤال الإنكارى الساخر : « مَن يحيي العظام وهى رميم » ؟ أهذه العظام التى أبلاها البلى تعود ثانية كما كانت ، ويتشكل منها أصحابها الذين كانوا يحيون بها فى الحياة ؟ أهذا معقول ؟ إن محمداً يقول هذا .. فماذا تقولون أنتم أيها الناس فيمن يقول هذا القول ؟ ألاَ ترجمونه ؟ ألا تسخرون من جنونه ؟ .

وقوله تعالى : « ونَسِيَ خلقه » جملة حالية ، أى أن هذا الكافر ضرب هذا المثل ناسيا خَلْقه ، ولو ذكر خلقه وكيف كان بدؤه ، ثم كيف صار — لرأى بعينيه — قبل أن يرى بعقله — إن كان له عقل — أن هذه النطفة التى أقامت منه هذا الإنسان الخصيم المبين ، هى أقل من العظام شأناً ، وأبعد منها عن مَظِنّة الحياة . إذ كانت النطفة لا تعدو — فى مرأى العين — أن تكون نقطة ماء قذرة

أشبه بالمخاط .. أما العظام فهى تمثل حياة كاملة ، كانت تسكن فى تلك العظام — إنها عاشت فعلا حياة كاملة ، وكان منها إنسان كامل ، كهذا الإنسان ، الذى يجادل ، ويضرب الأمثال لله . .

فهذه العظام ، تمثل حياةً لها تاريخ معروف . . أما النطفة ، فلا ترى عينُ هذا المجهول فيها أثراً للحياة .

قوله تعالى :

* « قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

هو الرد المفحم على هذا السؤال الإنكارى . . « من يحيي العظام وهى رميم » ؟ إن الذى يحييها ، هو الذى أنشأها أول مرة . . لقد أنشأ هذه العظام من نطفة ، وألبسها الحياة ، ثم أماتها .. ثم هو الذى يحييها .. إنه إعادة لشيء كان بعد أن لم يكن ، وإعادة بناء الشيء ، أهون — فى حسابنا — من ابتداعه ، واختراعه أصلا . .

وفى قوله تعالى : « وهو بكل خلق عليم » — إشارة إلى علم الله المحيط بكل شيء ، ومن كان هذا علمه فلن يعجزه شيء . فبالعلم استطاع الإنسان أن يحرك الجماد ، وينُطقه ، وبالعلم استطاع أن ينقل الأصوات ، وصور المرئيات من طرف الأرض إلى طرفها الآخر فى لحظة عين ، أو خفقة قلب . . وبالعلم يستطيع الإنسان أن يفعل الكثير ، مما تُعدُّ هذه الأشياء من نوافل علمه . . فكيف بعلم الله الذى وسع كل شيء ؟ أيعجزه شيء ؟ إن من يعجز عن أى شيء لا يستحق أن يضاف إليه العلم كله .. إذ لو كان معه العلم كله لما أعجزه شيء ؟ والله سبحانه وتعالى : « بكل شيء عليم » (٢٩ : البقرة) ..

قوله تعالى :

* « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون » .

هذه بعض آياتٍ من علم الله . . إنه سبحانه خلقَ الشجر ، وقد امتلأ

كيانه بالماء يجرى فى أصوله ، وفروعه وأوراقه . . ثم جعل من طبيعة هـذا الشجر أن يجفّ ، وأن يقبل الاحتراق ، وإذا هو فى النار ، قطع من الجمر !

فأين هذا الشجر الأخضر ، من هذا الجمر الملتهب ؟

وكما يُخرج الله سبحانه النارَ من المـاء ، يُخرج سبحانه الميتَ من الحىّ ، ويخرج الحىّ من الميت . .

هذه صورة من الإبداع فى الخلق ، لا تحتاج فى وضوحها إلى علم ، وتجربة ، وإنما بِحسْب الإنسان ـ أى إنسان . . أن يقف قليلا بنظره عندها ، فيرى آياتٍ بينات ، من علم الله وقدرته . .

قوله تعالى :

* « أوَ لَيس الذى خَلَق السموات والأرض بقادرٍ على أن يَخلُق مِثلَهم؟ بَلَى . وهو الخلاّق العليم » . .

وصورة أخرى للدلالة على قدرة الله سبحانه . . هى هـذه السموات والأرض . . من خلقها ؟ إنه الله سبحانه، بإقرار الـكافرين والمشركين أنفسهم . . إنهم لا يعرفون لها خالقاً غيره . . كما يقول سبحانه وتعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله » (٢٥ : لقمان) .

وهنا سؤال : أليس الذى خلق السموات والأرض قادراً على أن يخلق سمواتٍ كهذه السموات وأرضاً كهذه الأرض ؟ وبديهية المنطق تقول : إن ذلك ممكن . . فمن صنع شيئاً قادراً على أن يصنع أشياء مثله ، لا شيئاً واحداً .

ولهذا جاء الجواب عن هذ السؤال : « بلى » أى بلى قادر . . « وهو الخلاق العليم » . . الخلاّق ، الذى يزيد فى الخلق ما يشاء « العليم » الذى لا يعجزه شىء !

قوله تعالى :

• « إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيـكون » .

أى إنما شأنه سبحانه فى الخلق ، أن يُريد ، فيقع ما يريد . . بلا معاناة ولا بحث . . إنه سبحانه يقول للشىء الذى يريد إيجاده « كن » فيكون كما أراد . .

فبالكلمة خلق الله كل شىء . . إن الكلمة : « كن » هى مظهر إرادة الله . والموجودات هى مظاهر كلمات الله . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً » (١٠٩ : الكهف) .

قوله تعالى :

« فسبحان الذى بيده ملكوت كلّ شىء وإليه ترجعون » .

فتسبيحاً لله ، وتنزيهاً له ، وإجلالاً لجلاله ــ سبحانه ــ « بيده ملكوت كل شىء » أى ملك كل شىء ، مِلكا متمكناً ، مستولياً على كل ذرة فيه . .

والملكوت : مبالغة فى المِلك ، بالاستيلاء عليه استيلاء مطلقاً ، يمسك بكل ذرة ، وبكل ما دون الذرة منه .

وفى قوله تعالى : « وإليه ترجعون » تقرير للبعث ، وتأكيد له . . وأنه مادام بيد الله ملكوت كل شىء والناس من أشياء هذا الوجود الذى هو ملك الله ، فإنهم لابد راجعون إلى الله .

وإلى أين يذهب الناس بعد الموت إذا لم يرجعوا إلى الله ؟ إنهم إذا لم يرجعوا إليه فليسوا إذن فى ملكه . . وليس هناك شىء غير مملوك لله ، وهو « الذى بيده ملكوت كل شىء » « ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين » . (٥٤ : الأعراف)

٣٧ – سورة الصافات

نزولها : مكية . . باتفاق

عدد آياتها : مائة واثنتان وثمانون آية . .

عدد كلماتها : ثمانمائة واثنتان وستون . . كلمة

عدد حروفها : ثلاثة آلاف وثمانمائة وستة وعشرون حرفا .

مناسبتها لما قبلها

خُتمت سورة « يس » بقوله تعالى : « فسبحان الذى بيده ملكوت كلّ شىء وإليه ترجعون » .

وبدئت سورة الصافات بهذا القسم الذى يقسم به – سبحانه – على تلك الحقيقة ، وهى وحدانية الألوهية ، التى هى من مقتضى ملكية الله لكلّ شىء . . فإذا كان الله هو مالك لكل شىء ، كان من مقتضى هذا أن ينفرد بالألوهية ، وألا يشاركه فى هذا الوجود أحد ، وإلا كانت ملكيته له غيرَ تامة . . وأمّا وملكيته سبحانه ملكية مطلقة لهذا الوجود ، فهو – وحده سبحانه – صاحب الأمر فيه ، وإليه وحده يكون ولاء كل موجود .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٠)

* « وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ

الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) »

قوله تعالى:

* « والصافات صفًّا * فالزاجرات زجراً * فالتاليات ذكراً ».

اختُلف فى المراد بالصافات.. فقيل هم الملائكة باعتبارهم جماعاتٍ وفرقًا.. وقيل هم جماعات المؤمنين، الصّافين فى الصلاة.. بمعنى أنهم قائمون صفوفاً ساجية ساكنة، خاشعة فى الصلاة..

وقيل هى جماعات الطير تَسْبح فى جوّ السماء صافةً أجنحتَها، أى باسطة لها من غير حركة، وأن الزاجرات هى جماعة الملائكة التى تنزل بالمهلكات، وأن التاليات ذِكرا، هن جماعات المؤمنين فى الصلاة.. وعلى هذا التأويل يكون القسم بثلاثة أصناف، لا بصنف واحد، له ثلاثة أوصاف..

والذى يقول بأن الصافات هم جماعة الملائكة، يقول كذلك إن الزاجرات، والتاليات هم جماعات الملائكة فى أحوال غير أحوالهم وهم صافّون، أوهم جماعات غير تلك الجماعة الصافة. فالزاجرات زجراً، هى جماعات الملائكة التى تحمل نُذُر الهلاك إلى المكذبين بالله، والتاليات ذكرا، هى جماعات الملائكة التى تحمل إلى رسل الله آياته وكلماته..

والذى يقول إن المراد بالصافات صفًّا، هم جماعة المؤمنين فى مواقف الصلاة - يقول إن الزاجرات زجراً، هنّ الآيات التى يتلوها المصلون فى صلاة الجهر، والتاليات ذكراً هن الآيات التى تُتلى فى صلاة السرّ..

والذى نرجحه من هذه الآراء هو - والله أعلم - القول بأن هذه الأوصاف هى للملائكة.. وذلك:

أولا : أن الله سبحانه ذكر فى أول سورة « فاطر » قوله : « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع » .. وفى هذا إشارة إلى أن الملائكة يصفّون كما تصف الطير بأجنحتها .

وثانيا : أن الله سبحانه ذكر فى آخر هذه السورة « الصافات » قول الملائكة : « وإنا لنحن الصّافون وإنا لنحن المسبحون » . (١٦٥ — ١٦٦)

والقرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً ، وتقوم دلالات بعض آياته شواهدَ على بعض ..

فالصافات صفًّا ، جماعات الملائكة ، الذين يصفون أجنحتهم فى ولاء وخشوع دائم ، وفى عبادة متصلة لله رب العالمين ..

والزاجرات زجراً .. جماعات من الملائكة ، يسلطهم الله على أعدائه فى الدنيا والآخرة ، يرجمونهم بالمهلكات . .

والتاليات ذكراً ، جماعات من الملائكة ، هم حَمَلة كلمات الله إلى عباده .. يتلونها على رسله ، ليبذروا بها أقوامهم ..

قوله تعالى :

* « إن إلٰهكم لواحد » . . هو جواب القسم ، « والصافات » ، وهو يقرر هذه الحقيقة ويؤكدها ، .. تلك الحقيقة التى يشهد بها كل موجود ، وهى أن إله الموجودات جميعها ، إله واحد ، هو الذى أوجدها ، وهو الذى قام بسلطانه عليها . .

قوله تعالى :

* « رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق » .

فهذا الإلٰه الواحد ، هو رب السموات والأرض ، وما بين السموات

والأرض ، وما فى السموات والأرض .. إنه ربّ كلّ شىء وبيده ملكوت كل شىء ، وله الحكم ، وإليه يُرجع الأمر كله .. وهو رب المشارق ..

والمشارق ، يمكن أن يكون معناها ، المنازل التى تنزلها الشمس فى شروقها .. فهى تطلع كل يوم من مطلع غير الذى طلعت منه ، على مدار السنة .. وكذلك الشأن فى مغربها .. كما هو معروف فى علم الفلك ، وكما هو ظاهر للعين من مطلع الشمس ومشرقها فى الفصول الأربعة ، وفى فصلى الصيف والشتاء بخاصة . .

ويمكن أن تكون المشارق ، والمغاربُ مشارقَ الأرض ومغاربها ، أى جهة الشرق والغرب فيها ، . ويكون المراد بذلك ، هو لفت الأنظار إلى اتساع آفاق الأرض ، وأنه كلما اتجه الإنسان فى هذين الاتجاهين — الشرق والغرب — وجد مشارق ومغارب ، وقد أصبح الشرق اليوم — فى التقسيم السياسى والجغرافى العالم — شرقاً أدنى ، وشرقاً أوسط ، وشرقاً أقصى .. وإلى هذا المعنى — وهو اتساع آفاق الأرض — يشير قوله تعالى : « وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها » (١٣٧ : الأعراف) .

وقد جاء فى القرآن الكريم : « رب المشرقين ورب المغربين » (١٧ : الرحمن) وجاء فى القرآن الكريم كذلك : « رب المشرق والمغرب » (٩ : المزمل) . .

وعلى كلا المعنيين يمكن أن يحمل تأويل كل من الآيتين .. وهذا ظاهر .. واختص المشارق بالذكر ، لأنها هى مطلع النور ، ومن الشرق تطلع الشمس ، التى هى مصدر النور ، والدفء والحياة ! .

قوله تعالى :

* « إنا زينا السّماء الدنيا بزينةٍ الكواكب » .

الكواكب : بدل من زينة .. والتقدير إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب.. والكواكب ، جمع كوكب . . والكواكب غير النجوم فى اصطلاح علماء الفلك . . إذ أن الكواكب متحركة تدور حول النجوم ، على حين أن النجوم ثابتة تدور حول نفسها .. وكل نجم له مجموعة كواكب تدور حوله .. كالشمس ، والكواكب السيارة التى تدور حولها ، ومنها الأرض والقمر ، والمشرق وزحل ، والمريخ ، وعطارد ، والزهرة ..

والسماء الدنيا ، هى أقرب السموات إلينا ، وأدناها من عالمنا الأرضى ، وهى هذه السماء التى تطل علينا منها الشمس ، والقمر ، والنجوم . . وهناك سموات أخرى فوق هذه السماء ، لم يبلغها عِلمنا ، ولا تصل إليها أدوات الرصد التى نرصد بها ما فى السماء الدنيا من كواكب ونجوم .. وأن هذه السماء الدنيا ، وما فيها من نجوم يصل ضوءها إلى الأرض فى أكثر من مليون سنة ضوئية — هذه السماء وما فيهامن نجوم وكواكب ، ليست إلا سطراً فى كتاب الوجود الذى لا نهاية له .. فما أعظم قدرة الخالق ، وما أروع ما أبدع وصور ..! وما أضأل شأن هذا الإنسان ، وما أصغر قدرَه إلى هذا الوجود العظيم ، الذى لا يعدو أن يكون هذا الإنسان فيه ، هباءةً سابحة فى الهواء ، لا تراها عين ، ولا تمسك بها يد . .

لقد طارت الإنسانية طرباً ، واهتزت زهواً وغروراً ، أن وصلت بمراكبها إلى القمر ، وأن مشت بأقدامها فوقه !! .

وما القمر هذا ؟ وما مكانه فى هذا الوجود ؟ إنه ليس إلا ذرة من رمل فى السماء الدنيا ! فكيف بالقمر هذا فى مواجهة الوجود كله ، وسمواته جميعها ؟ إن الإنسان لم يقطع من صفحة السماء الدنيا ، فى رحلته هذه إلى القمر ، إلا كما تقطع النملة رحلة العمر ، من جذر شجرة إلى ورقة من أوراقها ! إنه انتصار للنملة

لا شك ، ولكنه نصر محسوب بحسابها ، مقدور بقدْرها . .

قوله تعالى :

* « وحفظاً من كل شيطان مارد » ـ معطوف على قوله تعالى زينا ، أى زيناها بالكواكب وحفظناها حفظاً من كل شيطان مارد .

والمارد ، والمريد ، هو المجرد من كل خير . . وشجرة مرداء ، لا ورق ولا ثمر عليها . .

قوله تعالى :

* « لا يَسَّمَّعونَ إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحوراً ولهم عذابٌ واصبٌ » .

أى إن هؤلاء الشياطين المردة ، وقد حُفظت السماء من أن يقربوا منها ، أو يطوفوا بها — لا يستطيعون أن يُصْغُوا إلى الملأ الأعلى ، وما يجرى فيه ، فإذا حاولوا ذلك قذفوا من كل جانب بالشهب ، ورُمُوا من كل مكان بالرجوم ، فيرجعون مدحورين مقهورين ، لم يحصلوا على شىء . . « ولهم عذاب واصب » أى خالص وتام ، كما فى قوله تعالى : « وله الدين واصباً » (٢٥ : النحل) .

قوله تعالى :

* « إلا من خطِف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » — هو استثناء من الفاعل فى قوله تعالى « لا يسَّمَّعون » . . أى إن هؤلاء الشياطين لا يسمعون إلى الملأ الأعلى إلا خطفاً من بعضهم ، ممن يُلقى بنفسه منهم فى سبيل ذلك إلى التهلكة ، حيث يُرمى بشهاب راصدٍ لكل مَن حام حول هذا الحمى . .

ويَسّمّعون : أصله يتسمعون .. وقد ضُمن معنى الفعل يُصغون أو يَدْنون ، ولهذا عُدِّى بحرف الجر « إلى » .. أى لا يستطيعون أن يتسمعوا إلى الملأ الأعلى ، وهم فى إصغاء شديد حالة التسمع .

والآية الكريمة ، ترد على المشركين معتقدَهم الفاسد ، فى أن الشياطين يعلمون الغيب ، وأنهم يتلقوْن ذلك باتصالهم بالملأ الأعلى ، واستماعهم إلى ما يدور بين الملائكة هناك ، مما يتصل بالعالم الأرضى ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رَهَقاً » .. (٦ : الجن) ..

والحديث عن الجن والشياطين ، وإن كان ينكره الماديون ، ويعدّونه ضرباً من الخرافات ، قد أصبح اليوم من مقررات العلم الذى يقوم على التجربة والاختبار ، حتى إن كثيراً من الماديين الذين كانو ينكرون عالم « الروح » لم يجدوا أمام الشواهد الكثيرة الملموسة ، إلا أن يعترفوا به .. ولسوف يكشف العلم لهم يوماً أن الجن والشياطين ، هى من تلك الأرواح التى تسكن هذا العالم الأرضى ، وتعيش مع الإنسان فيه .. فهذا مما تحدث به القرآن ، وما حديث القرآن إلا الحقّ المطلق ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ..

الآيات : (١١ — ٢٦)

* « فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَآؤُنَا

ٱلْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَاهُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « فاستفتهم أهم أشدُّ خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طينٍ لازب » .

الحديث هنا إلى المشركين . . والحديث إليهم هو لطلب الجواب منهم على هذا السؤال ، وهو : أهم أشد خلقاً أم من خلق اللهُ فى السموات والأرض ، من ملائكة وإنس وجن وشياطين ؟ إنهم قد اتخذوا الشياطين أولياء ، ينصرونهم من دون الله ، كما اتخذوا الملائكة شفعاء لهم عند الله .. وهذا يعنى أنهم يضعون أنفسهم فى منزلة التابع للسيد ، والعبد للرب . .

وهؤلاء المخلوقون ، من جن وملائكة ، هم عبيد لله ، وقد خلقهم ، وإنّ من يخرج منهم عن واجب الولاء والعبودية، يلقى عذاباً ونكالا فى الدنيا والآخرة ، كما فُعل ذلك بالجن الذين أرادوا التسمّع إلى الملأ الأعلى ، فرماهم الله بالصواعق المهلكة ، وأعد لهم فى الآخرة عذاباً أليماً ..

وإذن فهؤلاء المشركون ليسوا أشدَّ من الجن بأساً ، ولا أقوى قوةً ، وإنه ليس يعصمهم عاصم من بأس الله إن جاءهم . .

— وفى قوله تعالى « فاستفتهم » بدلا من « فاسألهم » — إشارة إلى أن الأمر الذى يُسألون فيه ليس امتحاناً لهم .. وإنما هو مجرد طلب الرأى فيه ، وكأنه أمر لا شأن لهم به ، وفى هذا دعوة لهم إلى أن يقولوا الحق فيما يُستفتون فيه ، وألا يميلوا مع هواهم ، إذ لا مصلحة لهم — فى ظاهر الأمر — فى أن يقولوا غير الحق ، فى أمر لا شأن لهم فيه .. !

وهذا إعجاز من إعجاز القرآن ، فى الإمساك بقود الضالين المتكبرين المعاندين ، بهذا الأسلوب الحكيم ، الذى يستأنس نِفار هذه النفوس الوحشية ! .

— وقوله تعالى : « إنا خلقناهم من طين لازب » ..

الطين اللازب ، هو اللزج ، وهو الزبد الذى يتكون على شواطىء البحار والأنهار ..

فهذه هى مادة خلق الإنسان .. حيث تَطَوّر هذا الطين وتنقل فى أطوار كثيرة ، ومراحل شتى .. من النبات ، إلى الحيوان ، إلى الإنسان .. وقد أشرنا إلى هذا فى مبحث خاص ، من الكتاب الأول فى هذا التفسير « سورة البقرة » أما الجن ، فقد خُلِق من النار .. والنار — فى ظاهر الأمر — أقوى من الطين قوة ، وأشد أثراً ..

قوله تعالى :

* « بل عجِبْتَ ويَسْخَرون * وإذا ذُكِّروا لا يذكرون * وإذا رأوا آية يستسخرون » .

الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، الذى استفتاهم — كما أمره الله سبحانه — بقوله : « فاستفتهم أهم أشدُّ خلقاً » ..

وعَجَبُ النبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — هو من أن يستفتى قوماً

لا يؤمنون بالله ، ولا يستمعون لرسوله .. فكيف يستفتيهم ؟ وكيف يتلقى كلمةَ الحق منهم ، وهم لم يقولوا الحق أبداً ؟ .

وعَجَبُ النبيّ — صلوات الله وسلامه عليه — ليس إنكاراً — وحاشاه — لأمر ربه ، وإنما هى مشاعر تقع فى نفسه — صلوات الله وسلامه عليه — من هذا الموقف الذى يَلْقَى فيه المشركين مستفتيا .. إنه أمر عجيب .. ولكنه أمر الله ! ..

— وقوله تعالى: «ويسخرون»..هو معطوف على قوله تعالى : «عجِبتَ» . فقد كان من النبي — صلوات الله وسلامه عليه — من هذا الموقف ، عجب ، وكان من المشركين سخرية !!

إن هؤلاء الضالين ، وقد دُعوا إلى أن يجلسوا مجلس الفُتيا ، وهم ليسوا أهلاً لها ، حتى لقد عجب النبيّ من أن يُدْعى المشركون إلى هذا المقام — هؤلاء الضالون لم يقبلوا هذه الكرامة ، وأبوا إلا أن يكونوا فى ملعب الصبيان يصخبون ، ويسخرون !

— وقوله تعالى : « وإذا ذُكّروا لا يذكرون » معطوف على قوله تعالى « ويسخرون » أى ومن صفات المشركين وأحوالهم ، أنهم إذا جاءهم مَن يذكرهم بما هم فيه من ضلال ، لا يتذكرون ، ولا يقبلون نصحاً ..

— وقوله تعالى : « وإذا رأوا آية يستسخرون » ومن صفاتهم كذلك أنهم إذا رأوا آية من آيات الله الكونية ، أو سمعوا آية من آياته القرآنية ، « يستسخرون » أى يبالغون فى السخرية ، ويستكثرون منها ، ويجتمعون جماعاتٍ على مجالسها ..

وفى قوله تعالى : « وإذا رأوا آية » — إشارة إلى تلك الآيات التى عرضتها

الآيات السابقة .. مثل قوله تعالى : « ربّ السموات والأرض وما بينهما وربّ المشارق .. إنا زينا السماء الدنيا بزينةٍ الكواكب .. وحفظا من كل شيطان ماردٍ . . لا يَسمَّعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب . . دحوراً ولهم عذاب واصب » . . فهذه كلها آيات كونية ، يرى فيها ذوو الأبصار دلائل ناطقة بقدرة الله ، وبسطة سلطانه . . ولكن المشركين يتخذون منها مادة للهزء والاستسخار ! .

قوله تعالى :

* « وقالوا إنْ هذا إلا سحرٌ مبين » . .

الإشارة هنا إلى أمر البعث ، وما حَدَّثوا به من منكر القول فى هذا المثل الذى ضربوه بقولهم : « من يحيي العظام وهى رميم » . . فالحديث عن البعث متصل لم ينقطع بين سورتى يس ، والصافات . . ويجوز أن تكون الإشارة إلى مقول قولهم فى الآية التالية . .

وهم هنا ينفون نفياً قاطعاً أن يكون هناك بعث ، فإن كان فهو من شيء لا واقع له ، وإنما هو من حِيَل السِّحر ، وألاعيب السَّحرة ! « إن هذا إلا سحرٌ مبين . . »

قوله تعالى :

* « أئذا مِتنا وكنّا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ؟ » .

استفهام إنكارى لأن تعود الحياة مرة أخرى إلى الأموات . . إذ كيف ترجع هذه الأجسام التى صارت ترابا ، أو تلك التى ما تزال عظاماً — كيف ترجع إليها الحياة مرة أخرى ؟ كيف هذا ، والإنسان إذا فسد عضو من أعضائه وهو حىّ — لا يمكن إصلاحه . . فكيف بهذه الأعضاء — وهى الإنسان

كلّه — وقد صارت ترابا ، وعظاما ؟ أيقوم منها هذا الإنسان إلى الحياة مرة أخرى ؟ .

وقوله تعالى :

* « أوَ آباؤنا الأولون » ! أى وهل إذا صحّ — فرضاً — أن يُبعث الموتى الذين ماتوا من إخوانهم ، أو أبنائهم ، أو آبائهم الأقربين ، أيصح — ولو فرضاً — أن يبعث آباؤهم الأولون الذين ماتوا منذ مئات السنين ؟ أهـذا مما يعقل ؟ .

قوله تعالى :

* « قل نعم وأنتم داخرون » ..

هو جواب على أسئلتهم تلك المكذبة ، المنكرة . .

إنه تحدٍّ لهذا الإنكار ، وإهدار له .. ولهذا كان الجواب « نعم » وكأنه جواب عن سؤال يريد به صاحبه أن يعرف الحقيقة ، وينشد المعرفة ..

وقوله تعالى : « وأنتم داخرون » جملة حالية من نائب فاعل فعلٍ محذوف ، تقديره : نعم ، تبعثون .. « وأنتم داخرون » أى صاغرون ، مقهورون ، لا تملكون من أمركم شيئاً . .

قوله تعالى :

* « فإنما هى زجرةٌ واحدة فإذا هم ينظرون » .

الزجرة : الصيحة المفزعة . . وهى صوت البعث الذى يفزع له أهل الكفر والشرك ، الذين كانوا ينكرون البعث .

وقوله تعالى : « فإذا هم ينظرون » .. إذا المفاجأة ، وهى تدل على وقوع الحدَث فجأة وعلى غير انتظار وتوقّع له .

وقوله تعالى : « ينظرون » — كناية عن يقظتهم ، وتنبههم لما حولهم ، حين يُدْعَوْن من قبورهم . .

قوله تعالى :

* « وقالوا ياويلنا . . هـذا يومُ الدين * هذا يوم الفصل الذى كنتم به تـكذبون » . .

وإنهم إذ يقومون من مرقدهم ، وتأخذهم هذه المفاجأة غير المنتظرة — لا يجدون إلا صرخات الويل ، تقطع سكون هذا الصمت الرهيب، الذى اشتمل عليهم .. « ياوَيْلنا » أى ياهلاكنا وضياعَنا !! .

وقوله تعالى : « هذا يوم الدين » هو الخبر الذى يطلع عليهم ، وهم ينادون بالويل ، ولا يدرون أين هم ، ولا ماذا يراد بهم ؟ . . إنه يوم الدين ، يوم الحساب والجزاء .. إنه يوم الفصل الذى كنتم به تـكذبون ! .

قوله تعالى :

* « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون * من دون الله .. فاهدوهم إلى صراط الجحيم » .

إنه أمر إلى الملائـكة ، أن يسوقوا هؤلاء المشركين إلى المحشر ، وأن يحشروا معهم أزواجهم الذين كانوا على شاكلتهم ، وأن يحشروا كذلك معهم ما كانوا يعبدون من دون الله . . ثم ليتجهوا بهم جميعاً إلى الطريق المؤدى إلى الجحيم . .

وفى قوله تعالى : « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » — إشارة إلى أنهم وقد أبوْا أن يقبلوا الهدى إلى الحق ، والخير ، فى الدنيا ، فإنهم سيقبلون الهدى

فى الآخرة ، ولكنه الهدى إلى عذاب الجحيم . . حيث يسوقهم الملائكة سوقاً إلى هذا المورد الوبيل . .

قوله تعالى :

* « وقِفوهم . . إنهم مسئولون » . .

أى احبسوهم هناك على طريق الجحيم ، قبل أن تفتح لهم أبواب جهنم ، ويُلقَوْا فيها . . إذ لابد قبل ذلك أن يحاسبوا ، وأن يسألوا عما أجرموا . . وهو حساب عسير . . لا يقلّ هولاً عن عذاب الجحيم . .

قوله تعالى :

* « مالكم لا تناصرون ؟ » . .

ومما يُسأله هؤلاء الظالمون يومئذ ، إذلالا لهم ، واستهزاء بهم — هذا السؤال : « مالكم لاتناصرون ؟ » أى ما بالكم هكذا مستسلمين ، لا ينصر بعضكم بعضاً ، ولا يستنصر بعضكم ببعض ؟ أين آلهتكم الذين كنتم تعبدون من دون الله ؟ أين شفاعة الشافعين منهم ؟ .

قوله تعالى :

* « بل هم اليوم مستسلمون » . . ولا يجد الظالمون جواباً . . إنهم جميعاً — العابدين والمعبودين — مستسلمون . . صاغرون . . أذلاء . . لا يملكون شيئاً . .

الآيات : (٢٧ — ٣٩)

* « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ

لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » .

هو من حديث أهل الضلال والكفر فيما بينهم ، وهو حديث ملاحاة وتجريم ، واتهام.. إنها حرب كلامية ، يرمى بها الظالمون بعضهم بعضاً ، ويخدش بها بعضهم وجه بعض . .

قوله تعالى :

* « قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين » .

هو بدل من قوله تعالى : « يتساءلون » .. فهذا بعض تساؤلهم ..

والقائلون هنا ، هم الأتباع ، الذين استجابوا لإغواء من أغواهم وأضلّهم من الضالين الغاوين . .

— وقولهم : « إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين » — إشارة إلى أن قادتهم

هؤلاء ، كانوا يأتونهم من جهة اليمين ، أى من جهة الهدى ، فيحولون بينهم وبين سلوك هذا الطريق ، ويدفعون بهم إلى طرق الضلال .. ومثل هذا قوله تعالى ، على لسان إبليس ـ لعنه الله ـ :

« ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » (١٧ : الأعراف) ويجوز أن يكون الإتيان عن اليمين ، كناية عن جهة النصح والإرشاد ، حيث كانت جهة اليمين جهةَ اليمن والاستبشار ، ولكنه نُصح إلى ضلال ، وإرشاد إلى هلاك .

قوله تعالى :

* « قالوا بل لم تكونوا مؤمنين * وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين » .

هو ردّ المتبوعين على تابعيهم .. وفيه دفعٌ لهذا الاتهام الذى اتهموهم به .. « لم تكونوا مؤمنين » ، أى لم نجدكم مؤمنين حتى صرفناكم عن الإيمان .. ثم إننا لم نحملكم حملا على الكفر ، ولم نقهركم عليه بسلطان لنا عليكم .. فإنه لا سلطان لأحد على القلوب والضمائر ، حيث هى مستقَرّ الإيمان ، ومستودعه .. بل إنكم كنتم منحرفين بطبيعتكم عن طريق الحق ، وأهلَ بغى ، وعدوان ، وطغيان ..

قوله تعالى :

* « فحقّ علينا قولُ ربنا إنا لذائقون * فأغويناكم إنّا كنّا غاوين » .

أى وجب علينا قضاء ربنا فينا أن نكون من أصحاب النار ، وأن نذوق عذابها . فهذا حكم الله علينا ، وإرادته فينا .. وإنه لا مفرّ لنا من هذا المصير ..

فإذا كنا أغويناكم ، ودفعنا بكم إلى الضلال ، فإننا أهل غواية وضلال ، وذلك ليحقّ علينا قول ربنا ، وتنفذ فينا مشيئته . .

وإنهم بهذا ليقولون حقاً . . فقد انكشف لهم قضاء الله فيهم ، وما صار إليه أمرهم . .

فالتسليم بالقَدَر بعد وقوع الأمر . . هو حقٌّ ، وهو إيمان . . وأما تعليق الأمور على القَدَر قبل أن يقع المقدور ، فهو ضلال ، ومكر بالله . . كما يقول المشركون : « لو شاء الله ما عَبَدْنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا » (٣٥ : النحل) .

إنهم هنا ضالون زائغون . . إن عليهم أن يطلبوا ما يرونه حقاً وخيراً ، وأن يعملوا له . . فإن كان الله قد أراد لهم الخير ، التقت إرادتُهم مع إرادة الله ، وتحقق لهم ما أرادوا . . وإن لم يكن الله قد أراد بهم خيراً ، نفذت إرادة الله فيهم ، وبطلت إرادتهم . . وهذا موقف غير موقف من يركب الشرّ بإرادته ، ثم يقول : لو أراد الله بي الخير لفعل . . فهذا حق ، وباطل معاً ! !

وقد عرضنا لهذه القضية فى مبحث خاص . . من هذا التفسير[1] ، وفى كتابنا : « القضاء والقدر » .

قوله تعالى :

* « فإنهم يومئذ فى العذاب مشترِكون * إنّا كذلك نفعل بالمجرمين » . .

أى إن هذه الملاحاة التى تدور بين أهل الضلال ، لا تغنى عنهم شيئاً . .

---

(١) الكتاب الثامن : ص ٦٧٢ .

فهم جميعاً مشتركون فى هذا العذاب المحيط بهم .. وهذا جزاء كل من أجرم ، وكفر بالله ، وضلّ عن سواء السبيل ..

قوله تعالى :

* « إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا اللهُ يستكبرون . ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » ..

أى إن هؤلاء المجرمين الذى نعذبهم هذا العذاب الأليم — إنما نفعل بهم هذا ، لأنهم كانوا إذا دُعوا إلى الإيمان بالله ، وإلى أن يعبدوه وحده ، أبَوْا أن يستجيبوا لهذا الداعى الذين يدعوهم ، واستكبروا أن يتلقوا كلمةَ التوحيد منه . . ويقولون ، أنتبع هذا الشاعر المجنون ، ونترك آلهتنا ؟ .

قوله تعالى :

* « بل جاء بالحقّ وصدّقَ المرسلين » ـ هو إضراب على اتهامهم للنبىّ الكريم بأنه شاعر ومجنون . . إنه ليس بشاعر ولا مجنون ، بل جاءهم بالحق من ربّهم وصدّق المرسلين الذين أرسلوا من قبله ، إذ دعا إلى توحيد الله ، كما كان ذلك دعوةَ كل رسول من رسل الله . .

وفى وصف الرسول الكريم ، بأنه مصدِّق للمرسلين ، إشارة إلى أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الشاهدُ الأمين ، الذى يشهد لهم على الزمن ، بصدق ماجاءوا به ، فهو المجدد لدعوتهم ، المصحح لما دَخل عليها من شبهات وضلالات من أهلها . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « يـأيها النبىّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيرا * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا » (٤٥ — ٤٦ : الأحزاب) . .

وكما هو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مصدق للرسل ، فإن القرآن الذى تلقاه وحياً من ربه ، مصدق للتوراة والإنجيل ، كما يقول سبحانه :

«وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومُهَيْمناً عليه» (٤٨ : المائدة) .. وهكذا كل رسول ، مصدق للرسل الذين سبقوه .. وما معه من كتاب ، هو مصدّق لما نزل عليهم من كتب ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : «وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدىّ من التوراة ومُبَشّراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد» (٦ : الصف) .

وإذا كان الرسول الكريم ، هو خاتمَ الرسل ، وكتابه جامعةَ الكتب ، فهو بهذا مصدّق لإخوانه الرسل من قبله ، وكتابه مصدق لما نزل عليهم من كتب .

قوله تعالى :

* «إنكم لذائقو العذابِ الأليم * وما تُجْزَوْنَ إلا ما كنتم تعملون» .

هو خطاب للمشركين ، الذين شهدوا ـ وهم فى هذه الدنيا — مشاهدَ الآخرة ، ثم وُوجهوا بما كانوا يقولون فى الرسول الكريم : «أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون» .

وهذا الخبر المؤكد ، هو وعيد لهم بالعذاب الأليم ، الذى سيلقوْنه يوم القيامة فعلاً .. وهذا العذاب الأليم ، هو الجزاء العادل ، لِما كانوا يعملون .. ليس فيه عدوان عليهم ، ولا ظلم لهم ، وإن كان أليماً ، بالغَ الغاية فى الإيلام ..

الآيات : (٤٠ — ٦١)

* «إِلاَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١)

فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ ٱلْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَامِلُونَ (٦١) »

التفسير :

بعد أن عرضت الآيات السابقة ، موقفَ الحساب ، والمساءلة لأهل الكفر والضلال ، وسَوْقهم إلى الجحيم ، وتجرعهم غُصَص العذاب ـ جاءت هذه الآيات لتعرض أصحاب الجنة ، أهلَ الإيمان والعمل الصالح ، ومايلقوْن من نعيم ورضوان . .

قوله تعالى :

* « إلا عبادَ الله المخلصين » ـ هو استثناء من الاسم الموصول فى قوله تعالى :

« وما تجزون إلا ما كنتم تعملون » .. ويكون الضمير فى تُجزون للناس جميعاً .. أى ما يجزَى الناس إلا بما كان لهم من عمل ، إلا عبادَ الله المخلصين، فإنهم يُجزَوْن أضعاف ما عملوا ، فيقبل الله منهم حسناتهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم ، فضلاً منه وإحساناً .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فأولئك لهم جَزَاء الضِّعف بما عملوا » (٣٧ سبأ) .. أما أصحاب النار ، فإنهم يُجزَوْن بما عملوا .. كيلاً بكيلٍ . ومثقالا بمثقال ..

والمخلَصون من عباد الله ، هم الذين أخلصوا دينهم لله ، فلم يشركوا به شيئاً ، ولم يجعلوا ولاءهم لغيره ..

قوله تعالى :

* « أولئك لهم رزق معلوم * فواكِهُ وهمْ مُكرَمون * فى جنّاتِ النعيم * على سُرُرٍ متقابلين » هو بعض ما يجزَى به عبادُ الله المخلصون : « لهم رزق معلوم » أى معدّ وحاضر لهم .. « فواكه » .. هى بعض هذا الرزق .. وخُصّت بالذكر ، لأنها مما يُتفكه به بعد الطعام ، إذ هى مما يناله المترفون فى حياتهم ، بعد أن يأخذوا حاجتهم من الطعام .. « وهم مُكرَمون » أى أنهم ينالون هذا الرزقَ ، وهم فى موضع الاحتفاء والتكريم .. « فى جنات النعيم » متعلق بمكرمون .. أى أن منزل إكرامهم والاحتفاء بهم، هو جنات النعيم .. « على سرر متقابلين » حال أخرى من أحوالهم ، وهم فى هذا المنزل الكريمُ .. إنهم على سُرر ، يواجه فيها بعضهم بعضاً ، ويأنس بعضهم إلى بعض ، كما يقول سبحانه : « على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين (١٥ ـ ١٦ الواقعة) .

والسّرر : جمع سرير ، والسّرير ، المقعد المنضّد ..

وقوله تعالى :

* « يُطاف عليهم بكأسٍ من مَعين * بيضاء لذّةٍ للشاربين * لا فيها غَوْل ولاهم عنها ينزَفُون » .. أى ومما يُطْرَف به أصحابُ الجنة ، أنّه يطوف عليهم السّقاة بكئوس صافية الأديم ، كأنها الماء يتفجر من « مَعين » أى من عيون .. والطائفون ، هم غلمان مخلدون ، كما يقول سبحانه : « يطوف عليهم ولدانٌ مخلدون * بأكوابٍ وأباريقَ وكأس من معـــين » (١٦ ـ ١٧ الواقعة) ..

— وقوله تعالى : « بيضاء لذةٍ للشاربين » وصفان للكأس ، فهى بيضاء صافية ، وهى ببياضها وصفائها ، تلذّ الناظر إليها ، وتملأُ عينه بهجة وحبورا.

وقوله تعالى : « لا فيها غولٌ ولاهم عنها يُنزَفون » أى ليس فى الشراب الذى تحمله هذه الكأس ، مما يغتال العقول ، ويذهب بصوابها ، كما تفعل الخمر برأس شاربها .. « ولا هم عنها يُنزَفون » أى لا يُصَدُّون عنها ، ولا يزهدون فيها ، لأنها لا تستنزف لذتهم منها ، بل تظلّ هكذا لذةً دائمة موصولة .. وقد جاء فى قوله تعالى : « لا يُصَدّعون عنها ولا ينزِفون » (١٩ : الواقعة) جاء بكسر الزاى ، بنسبة الفعل إليهم ، على حين جاء فى الآية السابقة بفتح الزاى « ينزَفون » بنسبة الفعل المسلّط عليهم إلى غيرهم .. وذلك ليجمع بين صفتهم ، وصفة الخمر التى يشربونها .. فهى من شأنها أن تمسك شاربها عليها ، لطيبها وحسنها ، ولذتها .. وهم — بما أودع الله فيهم من قوّى — يتقبلون هذا النعيم ، فلا يزهدون فيه أبداً ..

قوله تعالى :

* « وعندهم قاصِرَات الطرف عِينٌ * كأنهن بَيْض مكنون » .

أى وعند أصحاب الجنة ، وبين أيديهم ، فتَيَات « قاصرات الطرف » .. والطرف ، هى العين ، وقصر الطرف ، كسْره ، حياء وخفراً .. وهذا كناية

عن صغرهن ، وأنهن لم يلقين الرجال ، ولم يتصلن بهم .. « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جآن » . (٥٦ : الرحمن)

والعِين ، جمع عَيْناء ، وهى واسعة العينين ، فى كمال وجمال .. وفى هذا احتراس مما قد يفهم من وصفهن بأنهن قاصرات الطرف ، أن هـذا القَصْر عن داء بهـذه العيون ، وأن خِلقتها هكذا مغلقة ، أو متكسرة .. وكلاً ، فإنها فى حقيقتها عيناء .. ولـكنه الحياء ، والخفر ، قد أمسكا بها عن أن تمتلىء بالنظر الحادّ ، إلى الرجال ! .

— وقوله تعالى : « كأنهن بيض مكنون » وصف لألوانهن ، وأنهن بيضاوات ، كأنهن البيض المـكنون ، أى المحفوظ من الشمس ، والغبار .. تحت أجنحة الطير .. فهو باق على بياضه ونقائه ..

وفى تشبيه لون بشرة المرأة بالبيض المـكنون ، إعجاز من إعجاز القرآن فى دقة الوصف ، وصدقه .. فالبيْض المـكنون تحت أجنحة الطير ، يضم فى كيانه حياةً يغتذى منها قشر البيض نفسه ، كما تغتذى بَشَرة الجلد فى جسد الـكائن الحىّ .. ثم إن هذا البيض يحمل فى كيانه الحياةَ فى مطلع نموها ، واكتمالها .. فهى إذن ليست حياةً مولية ، وإنما هى حياةٌ مقبلة ، كتلك الحياة التى فى كيان هؤلاء الفتيات من حور الجنة .. فالقشرة التى تحتوى البيضة ، تشير إلى ما فى كيانها من حيوية متدفقة .. تماماً كتلك البشرة التى تحتوى جسد الشباب المتدفق حياةً وقوة ! .

قوله تعالى

* « فأقبل بعضُهم على بعضٍ يتساءلون » .

الفاء فى « فأقبل » للسببية ، أى أنهم وقد جَلَسوا على سررهم ، متقابلين ،

وطَعِموا ما اشتهوْا من طعام ، وشربوا ما طاف عليهم من كئوس الشراب ـ لم تبق عندهم إلا لذة الحديث ، فأقبل بعضهم على بعض ، يتساءلون ، ويتسامرون . .

وكما أقبل أصحاب النار بعضهم على بعض يتساءلون ، كذلك أقبل أصحاب الجنة بعضهم على بعض يتساءلون .. ولكن شتان بين تساؤل وتساؤل ، وحديث وحديث .. إنه هناك — كما رأينا — كان اختصاما ، وكان اتهاماً ، وكان تراميا بالشناعات واللعنات . . !

أما هنا ، فهو حديث الأحبّاء الأصفياء . . يتساقوْن به كئوس المودة والإخاء . .

قوله تعالى :

* « قال قائل منهم : إنّى كان لى قرين » .

وهذا من بعض ما يتحدث به أهل الجنة بعضهم إلى بعض . . فقال أحدهم : إنى كان لى فى الدنيا قرين . . أى صاحب قد جمعتنا الصحبة فى قَرَن واحد .

ويصغى أهل المجلس إلى هذا الحديث ، وما كان من شأن هذا الصاحب مع صاحبهم هذا ! .

* « يقول أئنك لمن المصدّقين * أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون » . .

أى أن هذا الصاحب ، كان مما يحدّث به صاحبهم هذا ، أن يشككه فى أمر البعث ، وأن يكشف له عن استحالته بما يضرب له من أمثال ، فى هذه العظام البالية ، وهذا التراب الذى صارت ، إليه العظام ، وأن الِبسها الحياةَ بعد

هذا ، أمر لا يصدقه عقل ، ولا يقبله عاقل ..!! إنه كان يراود صاحبه على أن يترك هذا المعتقد الذى يعتقده فى البعث ، والحساب والجزاء ، ويقول له ما كان يتردد على ألسنة أهل الشرك :

حياةٌ ، ثم موت ، ثم بعث ؟ حديثُ خُرافةٍ يا أمّ عَمْرو !

فهذا الاستفهام الذى كان يُلقِي به هذا المشرك إلى صاحبهم هذا — هو استفهام المنكر ، الساخر ..

وقوله : « أئنا لمدينون » أى أئنا لمحاسبون ، والدينونة ، هى الحساب . أى أنحيا بعد أن نصير ترابا وعظاما ، ثم نحاسب ، ونُدان ، ونعذب فى النار كما يقول « محمد » بهذا ؟ .

وطبيعى أن صاحبهم هذا لم يستجب لهذا الضلال ، ولم ينخدع لصاحبه المشرك .. ولهذا كان معهم فى هذا المنزل الكريم .. وطبيعى أيضاً أن صاحبه قد أخذ طريقه إلى جهنم ..

* « قال هل أنتم مطّلعون » .

أى هل أنتم أيها الصحاب الكرام ، ناظرون إلى أين استقر المقام بصاحبى هـذا ؟ إنه هناك فى جهنم ! هاهوذا فانظروا إليـه ، وإلى ما هو فيه ! !

* « فاطّلع فرآه فى سواء الجحيم » .

وألقى بنظرة إلى حيث النار وأهلها . فرأى صاحبه فى « سواء الجحيم » أى وسط الجحيم ، يأخذ مكانا متمكنا منها .. فلقد كان داعيةً من دعاة السوء ، ورأساً من رءوس الكفر ..

* « قال تالله إن كدتَ لتُردين * ولولا نعمـــة ربى لـكنتُ من المحضَرين » . .

ولا يجد صاحبهم ما يقوله لصاحبه ، إلا أن يتبرأ منه فى الآخرة ، كما تبرأ منه فى الدنيا . . إنه ينظر إليه غير راحم ، إذ كان ــ لولا رحمة الله به ، وإحسانه إليه ــ لو اتبعه ، وأخذ طريقه معه ، أن يكون قرينَه فى هذا البلاء الذى يعانيه ، وهذا العذاب الذى يكتوى بناره ! .

* « أفما نحن بميتين * إلا مَوْتتنا الأولى وما نحن بمعذبين » .

وإنه ، وقد أمسك بهذا النعيم العظيم ، الذى يخيل إليه ــ من عظمته وطيبِه ــ أنه فى حلم يخشى أن يستيقظ منه إنه ليسأل أصحابه هذا السؤالَ الذى يريد أن يعرف به، هل هو فى حقيقة أم فى حلم : « أفما نحن بميتين ؟ » أحقاً لا نموت بعد هذا ولا نفارق هذا النعيم الذى نحن فيه ؟ إنه ليعلم هذا يقيناً ، ولـكن يريد علماً يثبت علمه ، ويقيناً يؤكد يقينه . .

وفى قوله : « إلاّ موتتنا الأولى » هو استثناء داخل فى عموم المستفهم عنه، وهو الموت . . أى أفما نموت إلا هذه الموتة الأولى التى بعثنا منها ؟ ألا يكون بعد هذا البعث موت . . ثم بعث . . ؟ ثم إذا كانت هذه الموتة هى آخر موتة ، وكان هذا البعث آخر بعث ــ فهل نظَلّ على حالنا هذه من النعيم الذى نحن فيه ؟ ألاَ تتغير بنا الأحوال ، كما كان شأننا فى الحياة الدنيا ؟ ألا يمـكن أن تتبدل حالنا ، فنعذب كما يعذّب هؤلاء المعذّبون فى النار ؟

إن هذا كلّه يكشف عن أمرين :

أولهما : ما يجد أصحاب الجنّة من نعيم عظيم ، لم يقع فى تصوراتهم ، ولم يَطُف بخيالهم . . فهم يحرصون عليه أشدّ الحرص ، ويتمنّون الخلود فيه ، وقد

وعدهم الله الخلود فى جنات النعيم . . كما يقول سبحانه : « خالدين فيها لا يبغون عنها حِوَلاً » .

وثانيهما : ما يراه أصحاب الجنة أيضاً ، من هذا العذاب الذى يلقاه أصحاب النار .

فهم لهذا يفزعون منه ، ويخشون أن يكون لهم نصيب منه . . وقد أمّنهم الله شرّ هذه الخواطر المزعجة . . فكانت تحيتهم من الملائكة دائمة موصولة ، بقولهم : « سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » (٧٣ الزمر) . . « والملائكة يدخلون عليهم من كلّ بابٍ * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » (٢٣ — ٢٤ :الرعد) .

قوله تعالى :

* « إن هذا لهو الفوز العظيم » .

هو الجواب الذى يجيب به هذا المتحدث إلى أصحابه ، على ما كان يسألهم هو عنه فى قوله : « أفما نحن بميتين ، إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذّبين » ؟ إنه تجاهل العارف لما يعرف ، ليزداد يقيناً بما عرف ، واستيقاناً منه . . ولهذا فهو يسأل ، وهو يجيب : « إن هذا لهو الفوز العظيم » . . فأى فوز أعظم من الظفر برضا الله ، والخلود فى جنّاته ؟

جعلنا الله من أهل الفوز برضاه ، والخلود فى جنات النعيم . .

قوله تعالى :

* « لِمثل هذا فليعمل العاملون » .

هو تعقيب على هذا الحديث الذى كان بين أصحاب الجنة ، وما تكشف

منه من هذا المقام الكريم ، وهذا المنزل الطيب الذى ينزله المؤمنون بالله واليوم الآخر . .

فلمثل هذا المقام يسعى الساعون ، ولمثل هذا المنزل يعمل العاملون . . وكل سعى إلى غير هذا المقام ، هو سعى باطل ، وكل عمل لغير هذا المنزل هو عمل لا يُعقب إلا الحسرةَ والندامة . .

الآيات : (٦٢ — ٧٤)

* « أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « أذلك خيرٌ نُزُلاً أم شجرة الزقوم » .؟

هو خطاب للمشركين ، وأهل الكفر والضلال . . والمشار إليه هو هذا النعيم الذى ينعم فيه أصحاب الجنة . . أى أىٌّ خير : أهذا المنزل الكريم ، والنعيم العظيم الذى يلقاه أهل الجنة . . أم شجرة الزقوم هذه ، التى هى طعام

أهل الشرك والضلال ؟ .. وفى هذا يقول الله تعالى : « إن شجرة الزّقوم ، طعام الأثيم ، كالمهل يَغْلى فى البطون ، كغَلْى الحميم » (٤٣ — ٤٦ الدخان) .

قوله تعالى :

* « إنا جعلناها فتنةً للظالمين »

أى إنا جعلنا ذكرها والحديث عنها فى القرآن ، فتنةً لأهل الظلم والعناد من هؤلاء المشركين ، وكانت ـ لو عقلوا ـ مزدَجراً لهم ، وطلباً للنجاة منها .. ولكنهم اتخذوها مادة للتفكه والسخرية ، وقال قائلهم : انظروا إلى مايحدّث به محمد ! ! إنه يعدنا بشجرة تنبت فى النار ، وتطلع وسط اللهب ! أرأيتم شجراً تقوم أصوله وفروعه فى النار ، فيكون منها ريّه ، ونماؤه ، ويطلع فى أحشائها زهره وثمره ؟ وهكذا يظلّون فى هذا اللغو من القول ، غير ملتفتين إلى ما لله سبحانه وتعالى من قدرة لا يعجزُها شىء ، وغير واقفين عند ما لفتهم الله إليه فى قوله تعالى : « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون » ! أو ليس الذى جعل من الشجر الأخضر ناراً ، بقادر على أن يجعل من النار شجراً أخضر ؟ أليس هذا من ذاك ؟

قوله تعالى :

* « إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم * طلعها كأنه رءوس الشياطين » .

أصل الجحيم : قراره ـ والطلع : الزهر الذى ينعقد عليه الثمر . .

وفى تشبيه هذا الطلع برءوس الشياطين ، إشارة إلى بشاعتها مظهراً ، الذى ينمّ عن مخبرٍ هو أشد منه بشاعة . .

والشياطين ، وإن لم يكن لها صورة حقيقية تعرف بها ، إلا أن لها صورة متوهمة فى خيالات الناس وتصوراتهم ، وهى صورة بشعة مخيفة . . وإذا

كانت رأس الشيء هى أظهر ما فيه ، وأدل شيء على حسنه أو قبحه ، فقد اختير من الشياطين رءوسها التى تتجمع فيها بشاعة الشياطين وقبحها . .

قوله تعالى :

* « فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون » .

الفاء للتفريع . . أى ويبنى على وجود هذه الشجرة فى أصل الجحيم ، أن يأكل منها هؤلاء المجرمون ، حتى لكأنّ هذه الشجرة ما غُرست ونبتت فى الجحيم ، إلا ليكونَ منها طعامهم .

وامتلاء بطونهم منها ، ليس عن شهوة أو رغبة ، وإنما هو عن قهر وقسر . . إمعانًا فى عذابهم ، والتنكيل بهم . .

قوله تعالى :

* « ثم إن لهم عليها لشوبًا من حميم » .

الشوْب : المختلط بغيره من كل شيء ، ومنه الشائبة ، وهى ما يعلق بالإنسان من أمور لا تليق به ، والحميم : السائل الذى اشتد غليانه .

ومع كل طعام شراب .. وإذا كان طعام هؤلاء الأشقياء هو من ثمر تلك الشجرة الجهنمية ، فإن شرابهم كذلك هو مما ينبع من عيون هذا الجحيم . .

وفى قوله تعالى : « عليها » إشارة إلى أن مورد الحميم ، هو قائم عند هذه الشجرة . . والمعنى ، أن لهم عند وردهم على هذه الشجرة ، وأكلهم منها ، شوبًا من حميم ، أى أخلاطًا من سوائل تغلى وتفور . .

ويجوز أن يكون « على » بمعنى « فوق » أى أن لهم فوق هذا الطعام الذى طعموه من شجرة الزقوم — لهم فوق هذا ، شراب من حميم ، وكأن

ذلك مبالغة فى إكرامهم ، على سبيل السخرية والاستهزاء ، والمبالغة فى النكال والعذاب ؟ .

قوله تعالى :

* « ثم إن مَرْجعهم لإلى الجحيم » .

أى ثم يقادون بعد أن يأكلوا ويشربوا ، إلى حيث مَرْبعهم ، ومنزلهم . . فالشجرة التى يطعم منها الآثمون قائمة فى قعر جهنم ، فيُساق إليها هؤلاء الآثمون ، حتى إذا أكلوا من ثمرها ، وشربوا من الحميم الذى يجرى تحت أصولها ، أُعيدوا إلى حيث كانوا . . وهكذا يغدون ويروحون فى أودية جهنم !

قوله تعالى :

* « إنّهم ألفَوْا آباءهم ضالين ، فَهُم على آثارهم يُهْرَعون » .

هو تعليل لِما فيه هؤلاء الآثمون الخاطئون ، من عذاب عظيم ، وبلاء مقيم . . إنهم ضلّوا عن سواء السبيل ، ولم يستمعوا إلى ما جاءهم من نُذر ، ولم يقبلوا ما دُعوا إليه من هدًى . . بل إنهم وجدوا آباءهم على ضلالٍ ، فمشوْا على آثارهم ، واتبعوا خَطْوَهم ، وقالوا : « إنّا وجدنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مهتدون » (٢٢ : الزخرف) .

ويُهْرَعون : أى يسرعون من غير توقف . . إذ لم يكن لهم عقول يرجعون إليها ، ويعرضون ما يعرض لهم من أمور عليها . .

قوله تعالى :

* « ولقد ضلّ قبلَهم أكثرُ الأولين » .

هو عزاء كريم للنبى الكريم ، ومواساة له فى الضالين من قومه . إنهم

ليسوا أولَ الضالين ، ولا آخرَهم . . فلقد ضلّ قبلهم أكثر الناس ، وقليل هم المؤمنون « وما أكثرُ الناس ولو حرصتَ بمؤمنين » (١٠٣ : يوسف) .

قوله تعالى :

* ولقد أرسلنا فيهم مُنذِرين * فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين » .

هو تطمين لقلب النبيّ . . وأن الله سيدفع عنه كيد هؤلاء الضالين ، كما فعل بالمرسلين من قبله ، إذ نجاهم والمؤمنين معهم . من كيد الكافرين ، الذين أخذهم الله أخذ عزيزٍ مقتدر .

وفي قوله تعالى : « فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين » . . تهديد لهؤلاء المشركين ، وجمعٌ بينهم وبين مَن أهلكهم الله من المكذّبين برسل الله ، على مورد الهلاك ، وسوْق لهم جميعاً إلى عذاب الجحيم . .

قوله تعالى :

* « إلا عبادَ الله المخلصين » .

هو استثناء من « المنذرين » في قوله تعالى : « فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين » . . أي فلقد أهلكناهم ، إلا عبادَ الله المخلصين ، والذين استجابوا لرسل الله ، وأخلصوا دينهم لله . . ووَقَع الفعل على المنذرين جميعاً ، إذ كانوا هم الكثرة الغالبة الذين أهلكهم الله . .

أما المؤمنون ، فهم قلة قليلة مستثناة من هذا الطوفان الكبير . .

والمخلَص : هو من اختاره الله للهدى من بين هذا الركام ، وصفّاه من شوائب الضلال الضارب بجِرانه على القوم .

الآيات : (٧٥ — ٩٨)

* « وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ

ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ (٨٢) * وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ (٩٨) »

التفسير:

قوله تعالى .

* « ولقد نادانا نوحٌ فلنعم المجيبون » .

فى هذه الآية والآيات التى بعدها ، تفصيل لما أجملته الآيتان السابقتان عليها ، وهما قوله تعالى : « ولقد أرسلنا فيهم منذرين * فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين » .

فهذا نوح عليه السلام ، قد أرسله الله سبحانه ، نذيراً إلى قومه ، كما يقول سبحانه : « إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذِرْ قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم » (١ : نوح) .

ولقد أنْذَرَ نوح قومه ، وبالغ فى إنذارهم ، فلم يستمعوا له ، ولم يقبلوا منه قولا . . فلما يئس منهم لجأ إلى ربه شاكيا : « قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا * فلم يزدهم دعائى إلا فرارا * وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جَعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوْا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا » (٥ — ٧ : نوح) .

فلما بلغ به اليأس مداه ، دعا ربه أن يأخذهم بعاجل ذنوبهم : « وقال نوح ربّ لا تذَر على الأرض من الكافرين ديّارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادَك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » (٢٦ — ٢٧ : نوح) .

وقد استجاب الله لنوح ، وهـــذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فَلَنِعْمَ المجيبون » أى نادانا نوح مستغيثا بنا ، فأجبناه . . فنعم المجيبون نحن ، حيث يجد من يجيبه إلى طلبه . . ويمنحه نصرا عزيزا وفتحا مبينا .

فتباركت يا ألله وتعاليت .. وخاب من طرق بابا غير بابك ، ووجه وجها إلى غير وجهك !

* « ونجيناه وأهلَه من الكرب العظيم » .

معطوف على قوله تعالى : « ولقد نادانا نوح » أى دعانا نوح ، فاستجبنا له ، « ونجيناه وأهله من الكرب العظيم » أى من البلاء العظيم ، الذى أخذ الظالمين ، وهو الطوفان !

* « وجعلنا ذريته هم الباقين » .

وإذ كان المؤمنون هم أهله ، وهم الذين نجوْا من هذا الطوفان ، فقد كان منهم ذريته التى بقى بها نسله ، جيلا بعد جيل . .

* « وتركنا عليه فى الآخِرين » .

أى وتركنا عليه ثناء طيباً ، باقياً فى الأجيال من بعده ..

* « سلام على نوح فى العالَمين » .

هو سلام من الله سبحانه وتعالى على نوح فى مجتمعات الإنسانية كلها ، يردده كل مؤمن بالله ، وبرسل الله . .

* « إنا كذلك نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين » .

أى بمثل هذا الجزاء الحسن نجزى أهل الإحسان من عبادنا ، الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات . .

* « ثم أغرقنا الآخَرين » .

أى بعد أن نجينا نوحاً ومن معه ، أغرقنا الذين حق عليهم القول منا .. وقدّم نجاةَ نوح ومن معه ، إظهاراً للعناية به وبالمؤمنين . . إذ المطلوب أولا هو نجاتهم من هذا الكرب العظيم ..

هذا ، والطوفان الذى أهلك به قوم نوح ، ليس طوفاناً عاماً شمل الدنيا كلها ، وغطى وجه الأرض ، كما يذهب إلى ذلك أكثر المفسرين.. وإنما هو — كما قلنا — طوفان إقليمى محدود . . وقد عرضنا لهذا الأمر بالتفصيل فى سورة « هود » ..

وهــــذا إبراهيم — عليه السلام — يجىء منذراً قومه . . فيقول سبحانه :

* « وإن من شيعته لإبراهيم » .

أى أن من شيعة نوح وأنصاره ، والقائمين على دعوته من بعده ، إبراهيم .

وشيعة المرء، أولياؤه وأنصاره . .

وحُسِبَ إبراهيم — عليه السلام — من شيعة نوح ، لأنه كان على الإيمان ، بفطرته ، فلم تستحب فطرته لعبادة صنم .. فكأنه بهذا كان ممن آمن مع نوح ، وركب معه السفينة ، وكان من الناجين . . ثم إن إبراهيم قد اعتزل قومه ، وتركهم لضلالهم يتخبطون فيه حتى يهلكوا ، كما فعل نوح باعتزاله قومه بركوب السفينة تاركا إياهم للبلاء الذى حلّ بهم . . ولهذا كان إبراهيم أمة وحده ، كما يقول الله تعالى : « إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين » (١٢٠ : النحل) .

* « إذ جاء ربه بقلب سليم » .

أى أن إبراهيم كان على نهج نوح وطريقته ، حين جاء ربه ، أى أقبل على ربه « بقلب سليم » أى قلب قد سلم من آفات الشرك والضلال ، فلم تعلق بفطرته شائبة ، بل ظل على الفطرة التى فطره الله عليها ، لم يدخل عليها شىء من غُبار الشرك ، الذى كان يسدّ وجه الأرض . .

* « إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون » — بدل من قول الله تعالى : « إذ جاء ربه بقلب سليم » .. أى أن إبراهيم كان شبيها بنوح ، حين قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ؟ أى منكراً عليهم تلك المعبودات التى يعبدونها من دون الله .. فهو ونوح على طريق سواء . .

* « أئفكاً آلهة دون الله تريدون » .

الإفك : الباطل والمفترَى من الأمور . .

وآلهةً : بدل من « إفكاً » . .

والاستفهام إنكارى ، أى أتطلبون آلهة من واردات الإفك والافتراء ، بدلا من الله رب العالمين ؟ أليس ذلك سفهاً وجهلا ، وكفراً ؟ .

* « فما ظنكم برب العالمين » .

أى فما معتقدكم فى رب العالمين ؟ وما تصوركم له ؟ وما حسابه عندكم ؟ أهو واحد من آلهتكم تلك ؟ أم هو على هيئة ملك أو أمير ، أو سيد من ساداتكم ؟ . .

* « وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » . (٢٣ : فصلت) .

فالله سبحانه وتعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (١٠٣ : الأنعام) . . إن الله — سبحانه — هو مبدع هذا الوجود ، وهو القائم عليه ، وبيده ملكوت كل شىء . . فكيف تعبدون إلها غيره ؟ وكيف ترضون لعقولكم أن تقبل هذه الأحجار آلهة ، تتعامل معها ، وتتخاضع بين يديها ، وتجعلها شريكة لله فى الملك والتدبير ؟ .

* « فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم » .

النظرة التى نظرها إبراهيم فى النجوم ، هى ، ما أشار إليه سبحانه فى قوله تعالى : « وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جَنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت

وجهىَ للذى فطر السموات والأرضَ . . حنيفــاً وما أنا من المشركين (٧٥ — ٧٩ : الأنعام) .

وسُقْم إبراهيم هنا ، هو سقم نفسى ، لِما اعتراه من حيرة خِلال تلك التجربة التى عاناها مع هذه الكواكب ، التى ظل يرصدها ليلة بعد ليلة ، ويرعى مسيرتها ، ويتأمل وجهها مشرِقة وغاربة . . فإذا أشرق واحد منها لقيه حفِياً به ، راجياً أن يكون الوجهَ الذى يرى فيه ربه الذى يعبده ، ثم إذا رآه يغرب خاب ظنه فيه ، فنفض يديه منه ، كما ينفض المرء يديه من ميت دفنه فى التراب .. وهكذا ظل إبراهيم يستقبل وجوه الكواكب ، كوكباً كوكباً ، ويدفنها واحداً واحداً ، وهكذا أيقن — بفطرته ، وتجربته — أن إلٰهه ليس من عالم المنظور فى الأرض أو فى السماء . . إنه — سبحانه — القوة القائمة على هذا الوجود ، والسلطان المتصرف فيه ، والإلٰه الذى لا يتحول ولا يتبدل ، ولا يقع فى حدود النظر .

وهذه النظرة التى نظر بها إبراهيم إلى النجوم هنا ، غير تلك النظرة التى جاء ذكرها فى الآيات السابقة ، والتى كانت نظرة متسائلة متطلعة ، سأل فيها النجم والقمر والشمس ، وإنما كانت نظرته هنا نظرة مذكرة له بما كان منه وهو فى سبيل البحث عن الله ، قبل أن تأتيه الرسالة ، وكأنه يدعو بهذه النظرة قومه إلى أن يسلكوا الطريق الذى سلك ، وأن يهتدوا إلى الله بعقولهم كما اهتدى ، إن كانوا يستنكفون من اتباعه ، والأخذ بما يدعوهم إليه . . ولكن لم تكن لهم عقول تعقل ، ولا آذان تسمع . . فولّوْا عنه مدبرين .

وقد أقام أكثر المفسرين تأويلهم ، لقوله تعالى : « فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم » على أن ذلك النظر كان فى مواجهة قومه ، وفى معرض

حديثه إليهم حين جاء يدعوهم إلى عبادة الله ، وترك ما يعبدون من أصنام ..

والذي أقام المفسرين على هذا الرأى — فى نظرنا — هو هذا العطف بالفاءات ، المتلاحقة . . « فنظر نظرة فى النجوم • فقال إنى سقيم • فتولوا عنه مدبرين • فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون » . . ولأن فاء العطف تفيد الترتيب والتعقيب — هكذا يقول النحاة — فقد جعلوا هذه الأحداث ، حدثاً واحداً ، يضمها مجلس واحد ، ويحتويها ظرف واحد من الزمان ، لا تتخلله أحداث ! .

ولو نظر المفسرون إلى أبعد من مقررات القواعد النحوية الضيقة ؛ لرأوا أن بين الحدث والحدث هنا أزماناً ممتدة ، قد تكون أياماً ، وقد تكون سنين .. فالتعقيب هنا ليس هو التعقيب الفورى ، ولو كان ذلك لكانت رؤية إبراهيم النجم ، والقمر ، والشمس ، فى ليلة واحدة ، مع أن هذا غير وارد ولا معقول .. فقد يكون إبراهيم رأى النجم ، ورصد تحركاته ليالى كثيرة ، ثم تركه وصحب القمر أياماً وشهوراً .. وكذلك الشمس .. حتى وصل إلى هذا الحكم الذى قضى به فى شأنها جميعاً ..

قوله تعالى :

* « فتولّوْا عنه مدبرين » .

ليس التولىّ هنا ، بعد نظرة إبراهيم نظرته فى النجوم — كما يذهب إلى ذلك أكثر المفسرين — وإنما كان توليهم عنه هو نهاية المطاف فى دعوته لهم ، ومحاجّتهم له .. فقد انتهى الأمر بينه وبين قومه إلى اليأس منهم أن يؤمنوا ، وإلى اليأس منه أن يَعبد ما يعبدون .. « فتولوْا عنه مدبرين » .

قوله تعالى :

* « فراغ إلى آلهتهم فقال ألاَ تأكلون ؟ مالكم لا تنطقون ؟ » .

أى تسلل إلى آلهتهم ، ودخل عليها بيتها المعدّ لها ، من غير أن يراه أحد . . ثم رأى بين يدى تلك الآلهة كثيراً من صنوف المأكولات والمشروبات ، وألوان الهدايا التى كان يتقرب بها القوم إليها ، فقال ساخراً هازئاً : « ألا تأكلون » ؟ فلما لم يسمع جواباً قال متابعاً سخريته :

« مالكم لا تنطقون » ؟

قوله تعالى :

* « فراغ عليهم ضَرْباً باليمين » .

أى فنزل عليهم يضربهم بيده اليمنى ، ويحطمهم حطما « فجعلهم جُذاذاً . . إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون » (٥٨ : الأنبياء) .

والتعبير بقوله تعالى « فراغ عليهم ضرباً » بدلا من : فأقبل عليهم ضرباً للإشارة إلى أنه كان يفعل ما يفعل فى حَذَر ، وفى غير جَلَبة ، حتى لا يحدث صوتاً يكشف للقوم عما يجرى هنا ! .

فالروغ ، والرّوغان ، ضرب من العمل ، فى ذكاء وحذر .

وقوله : « باليمين » إشارة إلى الإرادة القوية التى كان يعمل بها فى تحطيم هذه الأصنام ، إذ كانت اليد اليمنى هى القوة العاملة فى تنفيذ هذه الإرادة .

قوله تعالى :

* « فأقبلوا إليه يَزِفّون » .

أى حين رأى القوم ما حل بآلهتهم ، ووقع ما وقع من اضطراب وبلبلة ، وانتهى الأمر بينهم إلى أن إبراهيم هو الذى فعل هذه الفَعلة بآلهتهم — أقبلوا إليه مُسرعين ، فى خِفةٍ وطيش ، ليمسكوا به ، وليحاسبوه الحساب العسير على هذا الجرم العظيم ! . .

والزفيف : هو الصوت الذى تحدثه النعامة بجناحيها ، حين تنطلق مسرعة من وجه خطر يتهددها ، فتزِفّ بجناحيها . .

وفى وصف القوم بهذا ، تشبيه لهم بالنعامة فى جُبنها الذى يطير معه صوابها ، حين ترى ، أو تتوهم أنها ترى ، خطراً ، فتنطلق إلى حيث ترمى بها أرجلها ، لا إلى حيث يدعوها عقلها ، إذ كانت ولا عقل لها ، ولا حيلة عندها ، حتى إذا دهمها الخطر ، دفنت رأسها فى الرمل ، وكأنها بذلك قد دخلت مأمنها !!

وهكذا القوم فى تصريف أمورهم . . إنهم نعام طائش لا عقل لهم ، ولا تدبير عندهم . .

قوله تعالى :

* « قال أتعبدون ما تنحتون ؟ » .

وقد كان لقاء القوم لإبراهيم ، لقاء عاصفاً مزمجراً ، كثرت فيه الرَّميات بالوعيد والتهديد . . وقد ضرب القرآن الكريم هنا صفحاً عن كل ماحدث ، إذ كان لهذه القصة حديث فى غير موضع منه . . واكتفى القرآن هنا بالإمساك بكلمة الفصل فى هذه القضية :

* « أتعبدون ما تنحتون ؟ » .

فهذه هى القضية . . وهذا هو السؤال الذى يحسم الأمر فيها . .

قوله تعالى :

* « والله خلقكم وما تعملون » . .

أى أن الله خَلَقكم وخالق الذى تعملون من أصنام وغيرها . .

كيف تعبدون ما تنحتون بأيديكم ؟ أليس هذا الذى تنحتونه هو من مخلوقات الله ؟ .

إن هذه الأصنام التى تخلقونها بأيديكم هى من مادةٍ خَلَقها الله قبل أن تخلقوها . . فكيف تعبدون ما تَخْلقون ؟ أيعبد الخالقُ ما خَلقَ ؟ هذا وضع مقلوب ! .

هذا ، وقد كثر الخلاف فى تأويل هذه الآية بين المعتزلة والجبرية ، وأهل السنة ، على اعتبار أن « ما » هنا مصدرية ، وعلى هذا يكون المعنى أن الله خلقهم ، وخَلَق أعمالهم . .

وقد ترتب على هذا أن قال الجبرية — إن الله خالق أفعال العباد ، والله سبحانه لا يخلق القبيح ، وعلى هذا فالأفعال كلّها حسنة ، ليس فيها قبيح . . وتعددت فى هذا مذاهبهم ، واختلفت مقولاتهم . .

وقد أنكر المعتزلة هذا التأويل للآية ، واعتبروا « ما » موصولة لا مصدرية ، وقالوا إن العبد خالقُ أفعالِه ، الحسن منها والقبيح . . فى الأفعال الحسن والقبيح ، ومن ينكر هذا فإنما يكابر فى بدهيات الأمور . .

وقال « الأشعرى » ـ من أهل السنة ، وممثل رأيهم هنا : إن العبد مكتسبٌ أفعاله ، والله خالقها !! . .

وهذه قضية استنفدت جهد العلماء . . وليس هنا مجال عرضها ، وقد

عرضنا جانباً من هذه القضية فى مبحث خاص من هذا التفسير تحت عنوان : « مشيئة الله ومشيئة الإنسان » — كما عرضنا هذه القضية بالتفصيل فى كتابنا. « القضاء والقدر » ...

وبقى أن نقول إن « ما » فى هذه الآية موصولة لا مصدرية ، لأنها لو كانت مصدرية لـكان قول إبراهيم لقومه : « والله خلقـكم وما تعملون » — لـكان قوله ذلك حجة عليه لا له ..

قوله تعالى :

* « قالوا ابنُوا لَه بُنياناً فألقوه فى الجحيم » ...

هذا هو الحـكم الذى انتهى إليه رأى القوم فى إبراهيم ، وهو أن يموت حَرقاً بالنار ، جزاء له على ما فعل بآلهتهم ، فليس لمن يفعل هذا إلا أن يَلْقى هذا العذاب الأليم .. إن إبراهيم كان يحذّرهم نارَ الآخرة التى يعذب بها الله سبحانه الذين يعبدون هذه الأصنام ..

وهاهى ذى الأصنام تعذّب بالنار من يعبد غيرها ! !

أليست آلهـــة ؟ وأليس للإله أن يعذّب بالنـــار من يكفر به ، ويتعدّى حدوده ؟ ..

قوله تعالى :

* « فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين » . .

أى أرادوا أن يكيدوا لإبراهيم ، وأن يأخذوه بهذا العذاب ، فنجى الله إبراهيم من النار — كما نجى نوحاً من الطوفان — وجعلهم هم الأسفلين ، كما جعل قوم نوح فى قرار الطوفان ، وجعل نوحاً فوق الطوفان بسفينته ..

الآيات : (٩٩ — ١١٣)

* « وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وقال إنى ذاهبٌ إلى ربى سيهدين » .

لقد نجّى الله إبراهيم من النار ، وأغرق قومه فى لجج الكفر والضلال ، فتركهم إبراهيم يتخبطون فى هذا البحر اللجّى من الضلال ، وقال : « إنى ذاهب إلى ربى سيهدين » أى إنى متجه إلى ربى ، معتزلٌ إياكم ، متخذ داراً غير داركم ، وموطناً غير موطنكم .. ولا أدرى إلى أين سأذهب . . ولكنى موقن أن الله سيهدينى إلى خير دار ، وأطيب مقام ، هذا هو ظنى بربى الذى أعبده وأسلم أمرى له ..

* « رب هب لى من الصالحين »

وهنا يجد إبراهيم نفسه وحده ، بعيداً عن الأهل والوطن . . وقد خلا قلبه من الاشتغال بأمر قومه ، فالتفت إلى نفسه ، ووجد أن لا ولد له ، يؤنسه فى وحدته ، ويشد ظهره فى غربته ، فسأل ربه أن يرزقه ولداً صالحاً ، تَقَر به عينه حين يراه مؤمناً بربه ، لا تختلف بينه وبينه السبل ، كما اختلفت من قبل بينه وبين أبيه ، هو .

* « فبشرناه بغلام حليم »

واستجاب الله لإبراهيم دعاءه ، وجاءته البشرى من الله سبحانه بهذا الولد الذى طلبه ، وأنه « غلام حليم » . . رزين العقل ، راجح الرأى ، يستدل بعقله على مواقع الحق فى كل أمر يعرض . . وحسب المرء — كمالاً ، وصلاحاً — أن يكون معه عقل سليم ، وإدراك صحيح . . والحلم ضد الجهل . . قال الشاعر .

أحلامنا تزن الجبال رزانةً وتخالنا جِناً إذا ما نجهل

والجهل من ورادات العقل السقيم ، والإدراك القاصر .

هذا ، ولم يرد فى القرآن الكريم أن وصف الله أحدًا بالحلم غير إبراهيم ، وهذا الولد الذى بُشر به ، وهو إسماعيل عليه السلام . . فقال تعالى : « إن إبراهيم لحليم أواه منيب » (٧٥ : هود)

وهذا يعنى أن هذا الغلام ، هو على صورة أبيه إبراهيم ، فى كمال عقله ، وسلامة إدراكه . .

* « فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين »

قيل إن إبراهيم — عليه السلام — حين تلقى هذه البشرى من ربه ، رأى أن يكون شكره لله ، على هذا الإحسان ،وهذا اللطف ، بالمبادرة بالاستجابة لما طلب — رأى أن يكون شكره لله أن يقدم هذا الولد قرباناً لله . . وكانت تلك عادة أهل هذا الزمن ، فى المبالغة فى التقرب إلى الله . .

فلما رُزق إبراهيم إسماعيل ، وهو على نية التقرب به إلى ربه ، متى بلغ مبلغ الرجال — رأى فى منامه وهو على تلك النية التى لم يحدد لها يوماً معيناً — رأى فى منامه أن يذبح هذا الابن ، وكان قد بلغ معه السعى ، أى صار قادراً على أن يعمل مع أبيه ، وأن يسعى له فى بعض حاجاته . . فعرف إبراهيم من هذه الرؤيا أنها تذكير من الله سبحانه بالوفاء بما نَذَر ، وأن يوم الوفاء قد جاء . . فكان هذا الحديث الذى جرى بين الأب وابنه . .

* « يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك . . فانظر ماذا ترى ؟ »

إن الأمر أمر الله . . وإن لك فى هذا الأمر مثلَ الذى لى . . فإن رأيت أن تطيع أمر الله أطعتُ أنا أمرَ الله فيك ، فما ذبحك بيدى بأقل ابتلاء لى من ابتلائك ! فهل أنت مطيع لأمر الله ؟ إن الأمر إليك فى هذا . . « فانظر ماذا ترى ! » ؟

وماذا يرى الولد ـ وهو صورة من أبيه ـ إلا الامتثال لأمر الله ، والطاعة المطلقة لحكمه فيه . . ؟

* « قال : يا أبتِ افعل ما تُؤمر . ستجدنى إن شاء الله من الصابرين »

إنه جواب المؤمن بالله ، إيماناً لا يرى معه لنفسه حقاً إلى جانب ما لله فيه من حق . . إنه كلّه مِلك لله ، وللمالك أن يتصرف كما يشاء فيما ملك . .

قيل : إن قول إسماعيل حين قَرَن مشيئة الله بما سيكون عليه من صبر مضاف إلى صبر الصابرين ـــ قد كان سببا فى أن وفّاه الله جزاء الصابرين كاملاً ، فنجاه من هذا البلاء ، وفداه بالذبح العظيم ، على حين أن موسى عليه السلام ، إذ قرن مشيئة الله بما وعد به العبد الصالح من الصبر ، وخص بهذا الصبر نفسَه فقال : « ستجدنى إن شاء الله صابراً » ـ لم يُعْطَ الصبر الذى ينال به ماطلب من صاحبه من علم ، بل تفرقت بينهما سبل بعد ثلاث مراحل على هذا الطريق الذى سلكاه معاً . .

قوله تعالى :

* « فلما أسلما وتلّه للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدّقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين » أسلما : أى استسلما لأمر الله ، ورضيا حكمه فيهما .

تلّه للجبين : أى طرحه على التلّ : والتلّ : المكان المرتفع ، كهضبة أو نحوها . . والجبين . الجبهة . . والمعنى : أنه لما أن امتثل الولد مادعاه إليه أبوه ، وأسلما أمرهما إلى الله ، وأسلم وجه ابنه للتلّ ، أى وضع وجهه عليه ، حتى لا يرى بعينيه عملية ذبحه ، ناداه ربّه : يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ـــ لما حدث كلُّ هذا ، قَبِلْنا نذْره ، وتقبلنا قربانه ، وجزيناه الجزاء الأوفى . . « إنا كذلك نجزى المحسنين » ـ أى فمثل هذا الجزاء العظيم نجزى أهل الإحسان . .

فجواب « لمـاّ » فى قوله تعالى : « فلمّا أسلما » محذوف ، دَلّ عليه قوله تعالى « إنا كذلك نجزى المحسنين » . .

وعلى هذا يكون قوله تعالى : فلما أسلما وتلّه للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا » واقعاً فى حيّز « لمّا »

وهذا الذى ذهبنا إليه يخالف الرأى الذى عليه المفسرون ، وهو أن جواب « لمّا » واقع تقديراً بعد « أسلما » . ويكون قوله تعالى : « وتلّه للجبين »

كلام مستأنف ، وما بعده معطوف عليه . . أو أن الجواب هو قوله تعالى : « وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا » وأن « الواو » زائدة ! !

قوله تعالى :

* « إن هذا لهو البلاء المبين »

هو تعقيب على هذا الحدث العظيم ، وعلى هذا الامتحان الذى امتحن الله به عبدين من عباده المؤمنين . .

وفى هذا التعقيب تنويه من الله سبحانه وتعالى بهذين النبيين الكريمين ، وبوثاقة إيمانهما ، وأنهما كانا أهلاً لهذا الامتحان العظيم . .

قوله تعالى :

* « وفديناه بذبح عظيم »

الفداء : هو افتداء شىء بشىء ، وإحلاله محلّه فى مقام البذل ، والإحسان . . وفى هذا يقول النابغة الذبيانى

مهلاً فداء لك الأقوام كلهم ... وما أثمّر من مالٍ ومن ولدِ

والذبح : ما يذبح من الحيوان . .

ومن الجزاء الحسن الذى جازى الله به إبراهيم ، أنه سبحانه تقبل قربانه إلى الله بولده ، دون أن يصاب هذا الولد بسوء .. ثم ضاعف هذا الإحسان بعد أن تولى سبحانه فداء هذا الولد بهذا الذبح العظيم الذى قدمه لإبراهيم . فإبراهيم أراد أن يقدم قرباناً لله ، فقدم الله سبحانه له قرباناً من فضله وإحسانه . وهذا ما يشير إليه وصف الذبح بأنه عظيم . . لأنه مقدَّم من عند الله الذى تقدم إليه القربات !! فما أعظم هذا الإحسان ، وما أكرم هذا العطاء ، الذى لا يستقلّ بحمده الوجود كله !

وليس الشأن فى هذا الذبح ، أكان كبشاً نزل من الجنة ، أو أخذ من الأرض . . وإنما الشأن فى أنه كان رَمزاً لرضا الله ، وتبادله الإحسان مع خليله إبراهيم .

قوله تعالى :

* « وتركنا عليه فى الآخِرين » .

ومن إحسان الله تعالى على خليله إبراهيم ، أن جعل له ذِكراً باقياً بعده إلى يوم الدين ، وجعل فى ذريته النبوة والكتاب . .

قوله تعالى :

* « سلام على إبراهيم » . .

هو سلام من الله عليه ، وسلام من المؤمنين بالله ، على من سلّم الله عليه . . وهذا من الذكر الحسن ، الباقى على الزمن ، . فعلى لسان كل مؤمن ، ثناء وسلام على إبراهيم إلى يوم الدين . .

قوله تعالى :

* « كذلك نجزى المحسنين » .

أى بمثل هذا الجزاء الحسن ، وهو الذكر المتجدد بالثناء ، نجزى المحسنين من عبادنا ، فنبقى لهم فى الناس ذكراً طيباً ، ونجعل فيهم الأسوة الحسنة لكل من يريد الإحسان . .

قوله تعالى :

* « إنه من عبادنا المؤمنين » . .

هو تعليل لهذا الإحسان العظيم الذى أفاضه سبحانه وتعالى على خليله ،

وأن الإيمان بالله ، هو الذى سلك به هذا المسلك ، ورفعه إلى هذا المقام .. وأن من أراد أن يكون فى عباد الله المحسنين ، فليكن أولاً من عباد الله المؤمنين .. فإنه لا إحسان إلا على أساس متين من الإيمان ..

قوله تعالى :

* « وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين » ..

أى ومن الجزاء الحسن كذلك لإبراهيم أن بشره الله سبحانه بولد آخر إلى جانب هذا الولد ، الذى أراد ذبحه وتقديمه قرباناً لله ..

قوله تعالى :

* « وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسنٌ وظالم لنفسه مبين » ..

أى وجعلنا البركة مشتملة عليه وعلى إسحق ، وذلك بتكثير نسلهما ، وجعل النبوة والكتاب فى ذريتهما ..

وفى قوله تعالى : « ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين » إشارة إلى أن هذه البركة — لا تنال ذريتهما جميعاً . . بل ينالها من أراد الله سبحانه وتعالى به الخير والإحسان من ذريتهما .. فمن ذريتهما سيكون المؤمن المحسن ، ومن ذريتهما سيكون الكافر الظالم .. وهذا ما يشير إليه وصف الظلم بأنه مبين .. إذ أنه لا ظلم أعظم من الكفر والشرك بالله ، كما يقول سبحانه : « إن الشرك لظلم عظيم » « ١٣ : لقمان » .

وقد يسأل سائل : لماذا لم تكن هذه البركة عامة شاملة فى ذرية هذين النبيين المباركين ، إلى يوم الدين ؟ ..

والجواب : أن ذلك — لو كان — لرفع التكليف عن كل من ولد

لمذين النبين ، وعمن ولد لذريتهما ، وذرية ذريتهما .. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ..

وهذا مالا يدخل على حكمة الله ، فيما قضى به فى عباده من ابتلاء . ليميز الله الخبيث من الطيب .

وهكذا خرج إبراهيم من هذا الابتلاء بهـذا الفيض الغَدَق من فضل الله وإحسانه ..

فأولا : حفظ الله سبحانه له ابنه ، وعافاه من الذبح .. : « يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا » ..

وثانياً : قدم الله سبحانه له قُرباناً .. : « وفديناه بذبح عظيم » ..

وثالثاً : أبقى الله سبحانه له ذكراً حسناً ، فى المؤمنين إلى يوم الدين : « وتركنا عليه فى الآخِرين » ..

ورابعاً : جعل الله سبحانه الدعاء له بالصلاة والسلام ، قرباناً يتقرب به المؤمنون إلى الله : « سلام على إبراهيم » .

وخامساً : وهب الله سبحانه وتعالى له ولداً آخر إلى هذا الولد الذى لم يكن له غيره : « وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين » .

وسادساً : بارك الله سبحانه على إبراهيم ، وبارك على إسحق تـكريماً لأبيه وإحساناً إليه ..

[من الذبيح ؟ إسماعيل أم إسحق ؟]

وهنا أمر نحب أن نقف عنده ، وهو : من الذبيح ؟ إسماعيل .. أم إسحق ؟ وهو أمر ما كان يجوز أن نثير حوله جدلا ، إذ كان — فى

رأينا ـ أوضح من أن يجادَل فيه ، وهو أن الذبيح ـ على يقين ـ هو إسماعيل عليه السلام .

ولكن أصابع اليهود قد لعبت فى هذا النسج المحكم ، ونسجت حوله خيوطاً من الكذب والتضايل ، كان لها تأثير فى تفكير بعض المسلمين ، الذين لهم مقامهم فى المسلمين ، ومكانتهم فى الإسلام ، حتى لقد وقف بعضهم موقف الشكّ والتوقف . . وحتى لقد تجاوز بعضهم هذا ، فرجّح القولَ بأن الذبيح هو « إسحاق » لا « إسماعيل » ! ! .

ونحبّ أن ننبّه هنا إلى أننا لا نفاضل بين هذين النبيين الكريمين . . فكلاهما ، فى مقامه العظيم عند الله ، وفى مكانه المكين من قلوب المسلمين جميعاً . . فالمسلمون جميعاً يختمون كل صلاة بهذا الدعاء : « اللهمّ صَلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم » . . وإسماعيل وإسحاق ـ عليهما السلام ـ هما رأس آل إبراهيم ، وفرعا شجرتها المباركة .

وإنما الذى يدعونا إلى هذا ، هو حمل الآيات القرآنية التى ورد فيها ذكر هذا الحديث ، على غير ما ينطلق به مدلول ألفاظها ، حتى تستجيب للقول الذى دسه اليهود على المسلمين ، بأن إسحق هو الذبيح . . وهذا ـ فى رأينا ـ عدوان على القرآن الكريم ، يبلغ حد التبديل ، وتحريف الكلم عن مواضعه !

وقبل أن ننظر فى آيات الله التى تحدث بهذا الحديث ، يحسن أن نكشف عن وجه « اليهود » فى هذا المقام ، وعن المدخل الذى دخلوا على المسلمين منه . .

وقبل أن نواجه اليهود بهذه الفرية التى افتروها ، يحسن كذلك أن نذكر ما لليهود من جرأة على الكتاب الذى فى أيديهم ، وعلى العبث به ، وإلقاء أهوائهم وضلالاتهم عليه ، دون تحرج أو تأثم . وفى هذا يقول الله سبحانه

وتعالى فيهم : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله » (٧٩ : البقرة) ويقول سبحانه فيهم أيضا : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » (٩١ : الأنعام)

فاليهود — كما وصفهم القرآن — قد بدلوا كثيراً وحرفوا كثيراً فى التوراة ، ولم يحترموا كلمة الله ، ولم يقفوا عند منطوقها أو مفهومها . . وقد كادوا للإسلام بهذا كثيراً ، ورفعوا من التوراة كل ما كان فيها من دلائل وإشارات على بعثة النبى العربى ، كما رفعوا منها كثيراً من الأحكام التى جاء الإسلام يُدينهم بها كما جاءت فى شريعتهم . . ولم يقفوا عند هذا فى الكيد للإسلام .. بل راحوا يدسون على المسلمين أحاديث ينسبونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقيمون لها سنداً ينتظم فى سلسلته عدداً من الصحابة والتابعين ، وتابعى التابعين ، وخاصة من كثرت روايات الحديث عنهم كأبى هريرة وابن عباس — رضى الله عنهما — وغيرهما .

وأكثر من هذا ، فإن بعضاً من اليهود دخل الإسلام ، لا عن عقيدة ، ولكن ليكيد له . . وقد كشف بعضهم عن ظاهر ، انخدع به المسلمون ، بما رأوا فيهم من مظاهر الاستقامة ، والزهد ، والغيرة على الدين ، حتى اطمأنوا إليهم ، وقبلوا كل ما يأتى من جهتهم ..

وحسبنا أن نذكر هنا بولس « الرسول » الذى كان من أشد اليهود عداوة للمسيح — عليه السلام — وملاحقةً له بالأذى ، هو وأتباعه . . ثم رأى أن يكيد للمسيحية كيداً أبلغ من هذا ، فدخل فى دين المسيحية ، ثم ما لبث أن أخذ مكان القيادة فيها ، وأصبح الداعية الأول بعد المسيح . . وبهذا أمكنه أن يحدث ما أحدث فى المسيحية من تثليث ، لم يكن أحد من أتباع المسيح وحوارييه

يعرف شيئاً عنه . . حتى أن الأناجيل الأربعة المعتمدة الآن — على رغم ما حدث فيها من تحريف — لم تجيء فيها إشارة واحدة إلى ألوهية المسيح ، وإلى جعله أحد الأقانيم الثلاثة : الأب والابن وروح القدس . .[١]

نقول هذا لنقيم منه شاهداً على أن هذا النص الذى جاء فى التوراة عن أن إسحق هو الذبيح — هذا النص هو من مفتريات اليهود على الله ، ومن تبديلهم لكلمات الله . . ومثل كل مجرم ، فى أنه لابد أن يترك على جريمته أثراً ينم عنه ، وشاهدا يشهد عليه ، مهما اجتهد فى أخذ الحذر والحيطة ، ومهما بلغ من مكر وخبث ودهاء ، فقد ترك اليهود على هذا النص الذى حرفوه ، مايشير بأكثر من إصبع ، وينطق بأكثر من فم ، بأنهم كاذبون مفترون !

تقول التوراة التى فى أيدى اليهود (فى الإصحاح الثانى والعشرين من سفر التكوين) : « وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم . فقال له : « يا إبراهيم » ، فقال هأنذا . . فقال : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحق ، واذهب إلى أرض المريّا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال التى أقول لك . . »

والتلفيق واضح فى هذا النص ، لا يحتاج الكشف عن زيفه إلى اجتهاد ، إذ يكاد يكون الحكم على زيفه نصًّا منطوقاً . . وإنه لا اجتهاد مع النص . .

فإذا كان إسحق هو الابن الوحيد لإبراهيم ، فلا داعى لأن يحدّده الله له بالاسم ، فيقول له : ابنك وحيدك الذى تحبه إسحق . . وكان يكفى أن يقال له : ابنك ، أو وحيدك ، أو إسحق . .

ومن جهة أخرى ، فإن التوراة تذكر أنه قد ولد لإبراهيم ابن من زوجه هاجر ، اسمه إسماعيل ، وأنه ولد قبل إسحق بأربعة عشر عاماً . . فكيف

---

(١) وقد عرضنا لهذه القضية فى دراسة مفصلة فى كتابنا (المسيح فى القرآن والتوراة والإنجيل) .

يكون إسحق الابن الوحيد لإبراهيم ؟ وهل إسماعيل ليس ابناً لإبراهيم حتى يكون إسحق هو الابن الوحيد له ؟ ولو قالت التوراة هذا لما كان هناك تضارب فى أقوالها . . ولكن التوراة تقول عن إسماعيل إنه ابن إبراهيم . . تقول التوراة : « فولدت هاجر لأبرام (إبراهيم) ابنا ، ودعا أبرام اسم ابنه الذى ولدته هاجر إسماعيل » (الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين) .

وإذا كنا نعذر اليهود فى هذا التقوّل على الله ، إذ كان ذلك طبيعة فيهم وشأناً غالباً عليهم ، وإذ كانوا إنما يبغون بهذا مصلحة خاصة لهم ، وكيداً للإسلام ، وتلبيساً على المسلمين . . وإذا كنا نعذر العلماء والدارسين من غير المسلمين ، أن يأخذوا بما فى التوراة ، مما يخالف القرآن الكريم ، وأن يرجعوا نصوصها على نصوص القرآن — فإننا لا نجد وجهاً للعذر فيما كان من بعض المسلمين — وفيهم العلماء الأعلام ـ من التوقف فى نصوص القرآن ، إزاء هذا النصّ الذى جاءت به التوراة ، أو الأخذ به ، وإقامة تأويل الآيات القرآنية عليه . . إن ذلك ـ كما قلنا — يكاد يكون تبديلا لآيات الله ، وتحريفاً للكلم عن مواضعه . .

ومن عجب أن نجد عالما فقيها مفسّراً كالإمام ابن جرير الطبرى ، يرجّح القولَ بأن إسحق هو الذبيح . . ومن عجب أيضاً أن نجد عالماً جليلاً ، كابن عِيَاض ، يذهب إلى هذا المذهب ويقول به ، فى كتابه : « الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى » . . ومن عجب — ولا عجب ـ أن نرى رجلا كالجاحظ يجعل هذه المقولة من المسلّمات عنده ، فيتحدث فى كتابه البيان والتبيين ، عن إسحق ، ويضيف إليه تلك الصفة ، وهى أنه الذبيح . .

وأكثر من هذا ، فإن هناك أحاديث كثيرة تنسب إلى أصحاب رسول الله كابن عباس ، وابن مسعود وأبى هريرة وغيرهم ، وفيها أن إسحق هو الذبيح . .

* * *

وفى تفسير ابن كثير مقولات كثيرة فى هذا المقام ، تضاف إلى صحابة رسول الله ، لتقع من النفوس موقع القبول والتسليم . . وقد فضحها ابن كثير رضى الله عنه ، وكشف عن المصدر الذى جاءت منه . يقول ابن كثير :

« وهذه الأقوال — والله أعلم — كلها مأخوذة عن « كعب الأحبار » فإنه لما أسلم فى الدولة العمرية ، جعل يحدث عمر رضى الله عنه ، عن كتبه قديماً ، فربما استمع له عمر ، فترخص الناس فى استماع ما عنده ، ونقلوا ما عنده عنه ، غثها وسمينها ، وليس لهذه الأمة — والله أعلم — حاجة إلى حرف واحد مما عنده »

ولا نجد حجة أبلغ ولا أقوى من تلك الحجج الدامغة التى قدمها الإمام ابن تيمية — نضر الله وجهه — فى دفع تلك الفرية ، وفضح هذه الدسيسة التى دسها اليهود على هذه الحادثة . .

ولا يستمدّ ابن تيمية حججه من نصوص الكتاب الكريم وحده ، إذ أن الذين لا يدينون بالإسلام ، لا يأخذون أنفسهم بنصوص كتابه ، ولهذا يعمد ابن تيمية إلى الواقع التاريخى لإبراهيم وذريته ، والظروف التى عاش فيها مع زوجيه — سارة وهاجر — ومع ولديه — إسماعيل وإسحق . . ويقيم على ذلك شواهد من التوراة نفسها ، ثم يعمد إلى هذا النصّ الذى تصرح فيه التوراة بأن إسحق هو الذبيح فيكشف عن زيفه وباطله . .

يقول ابن تيمية رحمه الله .

« وهذا القول — أى القول بأن إسحق هو الذبيح — مُتلقًّى من أهل الكتاب (يعنى اليهود) مع أنه باطل بنصٍّ كتابهم : فإن فيه : « أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه ، بكره » ولا يشكّ أهل الكتاب مع المسلمين أن « إسماعيل » هو بكر أولاده .

« والذى غرّ أصحاب هذا القول ـ أى القول بأن الذبيح هو إسحق ـ أن فى التوراة التى بأيديهم : « ادع ابنك إسحق » . . وهذه زيادة من تحريفهم وكذبهم ، لأنها تناقض قوله : « ادع ابنك ووحيدك » .

« ولـكن اليهود حَسَدت بنى إسماعيل على هـذا الشرف ، وأحبُّوا أن يكون لهم ، وأن يَسُوقُوه إليهم ، ويختاروه لأنفسهم دون العرب ، وأَبَى الله أن يجعل هذا إلاّ لأهله..

ثم يمضى ابن تيمية فيقول :

« وكيف يسوغ أن يقال : إن الذبيح إسحق ، والله تعالى ، قد بشّر أم إسحق به ، وبابنه يعقوب . . فقال تعالى عن الملائـكة ، إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى : « لا تخفْ إنا أرسلْنا إلى قوم لوطٍ * وامرأتُه قائمـة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب » (٧٠ — ٧١ : هود) فمحالٌ أن يبشرها الله بأن يكون لها ولد، ثم يأمر بذبحه ؟ ..ولا ريبَ أن يعقوب عليه السلام — داخل فى البشارة ، فتتناول البشارة إسحق ، ويعقوب فى لفظ واحد ، وهذا ظاهر الـكلام وسياقه . . » ؟

يريد ابن تيمية أن يقول هنا ، إن البشرى التى تلقتها سارة فى مواجهة إبراهيم ، كانت بأن يولد لها ولد ، هو إسحق ، وأن يولد لإسحق ولد هو يعقوب . . وهذا يقطع بأن إسحق لن يموت حتى يولد له يعقوب . . وهذا يقطع أيضاً بألا يكون إسحق هو القربان الذى يتقرب به إبراهيم إلى ربّه . . إذ لابد ـ بحكم هذه البشرى ـ أن يعيش حتى يبلغ مبلغ الرجال ، ويتزوج ، ويولد له . . فى حين أن الذى يُذبح ـ عادة ـ يكون غلاماً حدَثاً . . وهذا ما كان فى شأن الولد الذى قدمه إبراهيم للذبح ، كما يقول الله تعالى : « فلما

بلغ معه السعى » . . وهذا يكون فى سن لا تتجاوز العاشرة . .

ثم يقول ابن تيمية :

« ويقال أيضاً : إن الله سبحانه لمّا ذكر قصةَ إبراهيم وابنه الذبيح فى سورة الصافات قال : « فلمّا أسلما وتلّه للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم * وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على إبراهيم * إنا كذلك نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين . . » ثم قال تعالى : « وبشّرناه بإسحق نبياً من الصالحين » . . فهذه بشارة من الله تعالى ، له ، شكراً على صبره على ما أمر به . . وهذا ظاهر جداً فى أن المبشر به غير الأول ، بل هو كالنصّ فيه . .

« فإن قيل : فالبشارة الثانية وقعت على نبوته.. لمّا صَبَرَ الأبُ على ما أمر به وأسلم الولدُ لأمر ربه ، جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوّة — قيل : البشارة وقعت على المجموع ، على ذاته ووجوده ، وأن يكون نبياً ، ولهذا نُصِب « نبياً » على الحال المقدر ، أى مقدراً نبوّته ، فلا يمكن إخراج البشارة من أن تقع على الأصل ، ثم تُخَصّ بالحال الجارية مجرى الفضيلة . . هذا محال من الكلام . . بل إذا وقعت البشارة على نبوته ، فوقوعها على وجوده أولى وأحرَى . . » .

ثم يمضى ابن تيمية فيقول :

« وأيضاً فإن الله سبحانه وتعالى ، سمّى الذبيح حليماً . . يشير إلى قوله تعالى : « فبشرناه بغلام حليم » لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح ، طاعةً لربه . . ولما ذكر إسحق سماه « عليماً » . . فقال تعالى : « وبشّروه بغلام عليم » (٢٨ : الذاريات) .

« وأيضاً . . فإنهما . . أى إبراهيم وسارة . . بُشّرا به (يعنى إسحق) على الكبر ، واليأس من الولد ؛ وهذا بخلاف إسماعيل ، فإنه وُلد قبل ذلك (كما تصرح بذلك التوراة) . .

هذا بعض ما ساقه ابن تيمية من أدلة على أن إسماعيل هو الذبيح . . وإذا كان لنا أن نضيف إلى هذا شيئاً ، وهو مستغن بذاته عن كل إضافة . . فإنا نقول :

أولا : إن الله سبحانه ذكر عن إسماعيل قوله : « واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وكان رسولا نبياً » (٥٤ : مريم) .

وصِدْق الوعد ، هو صفة كاشفة لِما كان من إمضاء إسماعيل مَا وعد به أباه فى قوله : « يا أبت افعلْ ما تؤمرُ . . ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » وقد وجده كما وعد ، لم تختلج فيه خالجة تَرَدّد ، أو رجوع عن هذا الوعد . بل مضى به إلى غايته صابراً ، مستسلماً لأمر الله ، منقاداً ليد أبيه ، حتى أضجعه مضجع الذّبح ، وبدأ يُجرى السّكين على رقبته ! وقد تكرر فى القرآن وصف إسماعيل بالصبر ، وجمعه مع الكرام الصابرين من رسل الله ، فقال تعالى : « وأيوب إذ نادى ربّه أنى مسّنى الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضُرّ وآتيناه أهله ومثلَهم معهم رحمةً من عندنا وذكرى للعابدين * وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين » (٨٢ ـ ٨٥ : الأنبياء)

هذا ، على حين لم يُجْرِ القرآن ذكراً خاصاً لإسحق ، وإنما كان دائماً فى سياق الحديث عن ذرية أبيه من الأنبياء . .

فاختصاص إسماعيل بهذا الذكر المنفرد ، ووصفُه بتلك الصفة التى هى من

ألزم الصفات لمن يدخل فى هذا الامتحان ، ويخرج منه سليما معافًى — يقطع بأنه الذبيح .

وثانيـاً : إسماعيل ـ عليه السلام ـ كان بِكْرَ إبراهيم ، يشهد بذلك التاريخ ، وتحدث به التوراة . . والعادة التى كانت جارية فى التضحية بالأبناء ، وتقديمهم قرباناً لله ـ هى أن يكون الولد البـكر ، هو القُربانَ الذى يتقرب به إلى الله . . ولهذا أضاف اليهود بأيديهم الآثمة وصف « البـكر » إلى إسحق مع أنه لم يكن بكراً ، وذلك ليسوّدوا وجه الباطل بهذه الفعلة البلهاء ، التى كشفت عن زيفهم ، إذ ما كان لهم أن يقولوا : إن إسحق هو الذبيح ، حتى يكون بكر أبيه ، وتلك هى عادتهم التى جروا عليها فى التضحية بالأبناء ، كما تحدث بذلك التوراة فى مواضع كثيرة منها . . حيث كان الولد البـكر هو المتخير للتضحية ، والمنذور للقربان ، كما كان الولد البـكر ، هو الوارث لـكل ما كان لأبيه . .

وثالثاً : أن إسماعيل ، كان دعوة مستجابة من الله سبحانه لأبيه إبراهيم ، إذ قال : « رب هب لى من الصالحين » فـكان أن بشره الله سبحانه بقوله « فبشرناه بغلام حليم » .

أما إسحق ، فقد كان بشرى غير منتظرة ، بشر الله بها امرأة إبراهيم ، على يأس من أن يكون لها ولد ، إذ يقول الله تعالى : « وامرأتُه قائمةٌ فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب * قالت ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا » (٧١ ـ ٧٢ : هود) .

وهذا يعنى أنه لو أراد إبراهيم أن يقدم ابناً من أبنائه قرباناً لله ، لـكان الحقُّ يقتضيه أن يقدم الولد الذى طلبه ، واستجاب الله له فيه ، لا أن يقدم

الابن الذى وهب الله إياه امرأته . . إن ذلك مما يدخل الضيم على هذه الهبة العظيمة من الله ، الواهب المنان .

ولا يعترض على هذا ، بأن القرآن الكريم قد ذكر أن الله سبحانه بشر إبراهيم بإسحق فى قوله تعالى : « وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين » .. فإنه إذ كانت البشرى لامرأته بالولد ، فإنها فى الوقت نفسه بشرى له . . وخُصّت هى بالبشرى ، إذ كانت ولا ولد لها ، على حين كان لإبراهيم ولد من امرأته « هاجر » وهو إسماعيل ..

الآيات : (١١٤ — ١٣٢)

* « وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولقد مَنَنَّا على موسى وهرون » .

هو استئناف لقصة أخرى من قصص أنبياء الله ، وما أفاض عليهم الله سبحانه وتعالى ، من جزيل عطاياه ، وسابغ أفضاله .. وقد ذكرت الآيات السابقة قصة نوح وإبراهيم ..

وهنا فى هذه الآيات تُذكر قصة موسى وهرون ، ثم قصة إلياس ، كما سنرى ..

والمنّ : فى الأصل تذكير المحسن للمحسَن إليه بالإحسان ، فى شىء من الاستعلاء ، الذى يجرح العواطف ويؤذى الشعور . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » (١٧ : الحجرات) .

ومنُّ الله سبحانه وتعالى على عباده بتذكيرهم بنعمه وإحسانه إليهم — ليس فيه شىء مما يكون بين الناس والناس من مَنّ .. بل هو الشرف الذى لا ينال ، والعزة التى لا تطاول ، أن يكون الإنسان بموضع الإحسان من ربه .. إنه إحسان من مالك الإحسان ، وفضل من رب الفضل ، وجود من صاحب الجود . فمن أصابه شىء من عطاء ربه وإحسانه ، فهو تاجُ شرف يزين به جبينه ، وثوبُ فخار وعزة يمشى به فى الناس ..

فمن يستحى أن يمد يده إلى الله سائلا متضرعا ؟

ومن يجد فى صدره حرجا — من أمير أو صغير — أن يسأل رب الأرباب ، وسيد الملوك والأمراء ؟

رُوى أن لبيداً الشاعر ، تلقّى من أحد الأمراء عطاء جزلا ، وكان قد حَرَّم على نفسه أن يقول شعراً بعد أن أسلم ، فقال لابنته — وكانت شاعرة — أجيبي عنى الأمير ، فمدحته بقصيدة ختمتها بقولها :

فَعُدْ إنّ الكريم له مَعادٌ وظَنى بابن أرْوى أن يعودَا

فقال لها أبوها أحسنت يابنية ، لولا أنك سألتِ !! فقالت : إن الملوك لا يُستَحى من مسألتهم ! فقال لها أبوها ، وأنت فى هذا أشعر ! !

فالمنّ إنما يُستقبح حين يكون بين الأنداد ، أو المتقاربين منزلة . . أما حين يكون المنّ من عظيم لصغير ، فهو تنويه به ، وهو مدح له ، وهو ثناء ، عليه . .

فقوله تعالى : « ولقد مَننا على موسى وهرون » ـ هو تنويه بشأنهما ، ورفع لقدرهما عند الله ، وأنهما أهل لفضله وإحسانه . .

قوله تعالى :

* « ونجيناهما وقومَهما من الكرب العظيم » .

الكرب العظيم : هو ما كان فيه بنو إسرائيل من محنة قاسية تحت يد فرعون ، كما يقول سبحانه : « ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين » (٣٠ ـ ٣١ : الدخان) .

فهذا من منن الله سبحانه وتعالى على عبديه ، موسى وهرون ، وعلى قومهما ، إذ نجاهما من هذا البلاء المبين ، الذى كانوا فيه تحت يد فرعون .

قوله تعالى :

* « ونصرناهم فكانوا هم الغالبين » . .

والنصر والغلب ، هو ما كان من نجاة بنى إسرائيل ، وغرق فرعون .. إذ كانت هناك معركة قائمة فعلا بين الفريقين .. حيث كان موسى وبنو إسرائيل جادين فى الهرب ، وكان فرعون من ورائهما بجنوده يريد اللحاق بهم .. ولو لحق بهم لأهلكهم جميعاً .

قوله تعالى :

* « وآتيناهما الكتاب المستبين » .

المستبين : أى الواضح البين .. وهو التوراة ..

وقد نسب الكتاب إلى موسى وهرون ، مع أن الكتاب كتاب موسى ، لأن هرون كان يبشر فى قومه بهذا الكتاب ، وإن لم يكن تلقاه من ربه . ؟ فهو شريك فى الرسالة ، وشريك فى الكتاب بهذا الاعتبار ! .

قوله تعالى :

* « وهديناهما الصراط المستقيم * وتركنا عليهما فى الآخرين * سلام على موسى وهرون * إنا كذلك نجزى المحسنين * إنهما من عبادنا المؤمنين » .

هذه الآيات ، تعدد النعم التى أنعم الله بها على هذين النبيين الكريمين .

وهذا هو جزاء المحسنين من عباد الله .. وقد شرحنا فى آيات سابقة المعانى التى ضمت عليها هذه الآيات ..

قوله تعالى :

* « وإن إلياس لمن المرسلين * إذ قال لقومه ألا تتقون * ؟ أتدعون بَعْلا وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين » .

اختلفت أقوال المفسرين فى إلياس عليه السلام

والذى لاشك فيه هو أن « إلياس » عليه السلام كان معروفاً عند العرب ، فيما يحدثهم به اليهود عن أنبيائهم ..

وإلياس ، هو المذكور فى التوراة باسم إيليا بن متى . . وهو من أنبياء بنى إسرائيل ، الذين سبقوا زكريا ويحيى عليهما السلام ..

وقد كان اليهود ، لجفاء طبعهم ، وبلادة حسهم ، وكَلَب أنانيتهم — ينظرون إلى الله نظراً قاصراً محدوداً ، فيرونه إله إسرائيل ، لا إله العالمين ، ومن ثَمّ جعلوه قائد جيوشهم ، وسموه « رب الجنود » ثم تمادوا فى هذا التصور الخاطىء لجلال الله وعظمته ، فتصوروه رجلا شديد البأس ، مثل فرعون الذى كانوا يرون فيه أقصى ما يمكن أن يتصوروا من قوة ، حتى لقد امتلأت التوراة بالحديث عن الله ، بأنه «رجل حرب » . وحتى إنهم ليتحدثون إليه على لسان أنبيائهم كحديثهم مع واحد منهم . .

فكانت دعوة إلياس ـ عليه السلام ـ إلى اليهود ، هى أن يصححوا هذا الفهم القاصر الجهول ، لله ، وأن يقيموا وجوههم إليه على أنه ربّ العالمين !

فقوله : « أتدعون بعلا ؟ » إنكار عليهم أن يَدْعوا اللهَ بعلا . . والبعل هو الرجل ، كما فى قوله تعالى : « أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً ؟ إن هذا لشىء عجيب » (٧٢ . هود) .

وقوله : « وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين » ؟ أى أتدعون الله رجلا ، وتلبسونه صفات الرجال ، وتتركون دعوته بالصفات اللائقة به ، وهو أحسن الخالقين ، ورب العالمين ؟ .

قوله تعالى :

* « فكذبوه فإنهم لمحضرون * إلا عباد الله المخلصين » .

أى أنهم إذ لم يأخذوا بنصحه ، ولم يقبلوا ما دعاهم إليه من تصحيح معتقدهم فى الله ـ « فإنهم لمحضرون » أى فهم لهذا سيساقون إلى الحساب والجزاء بين يدى الله يوم القيامة ، وسيجزون جزاء المكذبين الضالين . .

« إلا عباد الله المخلصين » ويستثنى من هذا الجزاء عبادُ الله الذين أخلصوا دينهم لله ، ولم يلْبِسوا إيمانهم بالضلالات والأباطيل . .

قوله تعالى :

« وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إلياسين . إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين » .

مضى تفسير أمثال هذه الآيات .

وإلياسين : هو إلياس الذى جاء ذكره فى قوله تعالى : « وإن إلياسَ لمن المُرسَلين » .

الآيات : (١٣٣ — ١٤٨)

* « وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ

إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

« وإن لوطاً لمن المرسلين * إذ نجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزاً فى الغابرين * ثم دمرنا الآخرين »

الظرف « إذ » هو قيدٌ لنجاة لوط وأهله بسبب أنه كان من المرسلين ، الذين اختارهم الله لحمل رسالته إلى عباده ، فدخل بهذا فى الحكم الذى تضمنه قوله تعالى : « إنا لننصر رسُلَنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » (٥١ : غافر) .

وقوله تعالى : « إلا عجوزاً فى الغابرين » — إشارة إلى امرأة لوط ، التى كانت من الضالين ، الذين لم يستجيبوا لدعوته ، فأهلكها الله فيمن أهلك من قوم لوط ، وقد ضربها الله سبحانه وتعالى مثلاً لنبتة السوء تنبت فى الأرض الطيّبة ، فقال تعالى فيها وفى امرأة نوح : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين »(١٠ : التحريم) .

والغابرون : هم من عبروا ، وهلكوا ، وعلَتهم غَبَرة التراب . وقوله تعالى : « ثم دمّرنا الآخرين » — إشارة إلى قوم لوط الذين أهلكهم الله ، بعد أن نجّى لوطاً وأهله ، إلا امرأته ، التى هلكت مع الهالكين

قوله تعالى :

* « وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون » .

الخطاب للمشركين من قريش ، وأنهم يمرون على أطلال هؤلاء القوم الهالكين ، ويرون ما حل بهم من غضب الله ونقمته .. يرون ذلك فى وضح النهار ، ويرونه بالليل ، وذلك فى طريق تجاراتهم إلى الشام . .

وفى قيد المرور بالصباح وبالليل ، إشارة إلى أن آثار القوم الهالكين قائمة فى مكانها ، يراها كل من يمر بها فى أى وقت . . إنها فى معرض النظر دائما ..

وفى هذا تهديد لهؤلاء المشركين ، أن يفعل الله بهم ما فعل بإخوان لهم من قبل ، خالفوا رسولهم ، وكذبوه ، وتهددوه بالأذى . . فلو أنه كان لهؤلاء المشركين عقول ، لكان لهم فى مصارع الظالمين عبرة ومزدجرا!

قوله تعالى :

* « وإن يونس لمن المرسلين * إذ أبق إلى الفلك المشحون * فساهم فكان من المدحضين » .

يونس — عليه السلام — هو نبى من أنبياء الله ، ورسول من رسله إلى قرية من قرى الشام ، اسمها « نينوى » .

وهو إذ أبَق إلى الفلك المشحون ، كان من المرسلين ، أى لم تنزع عنه صفة الرسالة .

وأبق : أى هرب ، وهروبه كان من الرسالة التى حملها إلى قومه ، حيث لم يصبر طويلا على أذاهم ، فسمى آبقا ، أى هاربا ، كما يأبِق العبد من سيده . وسيد يونس ، هو الله سبحانه وتعالى . .

والفُلْك المشحون : أى الممتلىء بالناس والأمتعة . .

وقوله تعالى : « فساهم فكان من المدحضين » .

ساهم : أى اقترع ، وأخذ سهماً . . والمدحضين : المغلوبين ، الساقطين ، الذين خاب سهمهم . . ومنه حجة داحضة : أى ساقطة ، غير مقبولة . . وأرض دَحْض : أى زلق ، لا يثبت من يمشى عليها . .

أى أن يونس ، حين فر من قومه ، وزايل المكان الذى يجب أن يكون فيه ، ليؤدى رسالة ربه — ركب مركبا مشحوناً ، ثم حين سارت السفينة واحتواها البحر ، ماجت واضطربت ، وكادت تغرق .. وكان من تدبير ركاب السفينة أن يتخففوا من أمتعتهم ، فألقوها فى اليم ، ثم لمّا لم يُجْدِ ذلك شيئاً ، رأوا أن يلقوا ببعض ركابها فى الماء ، حتى يسلم الباقون من الغرق ، ثم إنه لكى يكونوا جميعاً على سواء فى هذا الأمر ، اقترعوا على من يخرج من السفينة منهم ، فأصابت القرعة — فيمن أصابت — « يونس » . . « فساهم فكان من المدحضين » . .

قوله تعالى :

* « فالتقمه الحوت وهو مُليمٌ » .

أى حين وقعت القرعة على يونس ، وألقى به فى المـــاء — التقمه الحوت . . !!

وفى تعريف « الحوت » — إشارة إلى أنه حوت مرصود لهذه الغاية ، وأنه مسوق بقدرة الله إلى تلك المهمة ، وهى ابتلاع يونس ! .

وقوله تعالى : « وهو مليم » جملة حالية ، أى ابتلعه الحوت ،

وهو مَلوم على ما كان منه من فرار من قومه . .

و « مُليم » اسم فاعل من الفعل ألام ، أى أتى ما يستحق اللوم عليه . .

قوله تعالى :

* « فلولا أنه كان من المسبحين * للَبِث فى بطنه إلى يوم يبعثون » .

أى لولا أن يونس حين التقمه الحوت ، ذَكر ربه ، واستغفر لذنبه ، كما يقول الله سبحانه وتعالى على لسانه : « فنادى فى الظلمات أن لا إلٰه إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » — لولا هذا ، لما خرج من بطن الحوت ، ولما عاد إلى الحياة إلى يوم البعث .. ولبثه فى بطن الحوت إلى يوم البعث ، أى موته فى بطنه ، ثم قبره فيه .. إلى أن يموت الحوت ، فإذا مات الحوت ، كان البحر قبرهما معاً . . .

والسؤال هنا هو : ماذا لو لم يكن يونس من المسبحين ؟ أكان يلبث فى بطن الحوت إلى يوم البعث ؟ .

والجواب بلا تردد : نعم ، فقد قرن الله سبحانه الأسباب بالمسببات ، وجعل المسببات رهناً بأسبابها . .

وحيث أن الله سبحانه وتعالى ، قد جعل نجاة يونس قَدَراً من قدره ، وحيث أنه سبحانه ، قد جعل نفاذَ هذا القَـدر متعلقاً بوقوع التسبيح من يونس — فإنه كان من الحتم المقضِىّ ، أن يسبح يونس حين التقمه الحوت ، وأن ينجو بسبب هذا التسبيح .

فتسبيح يونس قَدَرٌ من قدر الله .. تماما ، كنجاته من بطن الحوت . .

وعلى هذا فإنا إذا أعدنا السؤال بصورة أخرى ، وهو :

أمّا وقد نجا يونس من الموت فى بطن الحوت . . فهل لو لم يسبّح أكان ينجو ؟ . .

والجواب هنا هو : إنّ فرض عدم التسبيح أمر مستحيل ، ما دامت النجاة قد تمت ، وما دامت النجاة مشروطة بالتسبيح . . وفى الأصول الفقهية : أن مالا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب ! .

وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم : ما أدويةٌ نتداوى بها . . أتردّ من قَدَر الله شيئا ؟ .

فقال — صلوات الله وسلامه عليه — : « هى من قَدَر الله .. » !

فالقَدَر ليس حكما مستقلا بذاته ، منعزلا عن أحداث الوجود . . بل إن كل قَدَرَ هو مقدور لأقدار سابقة ، كما أنه — وهو مقدور — هو قدر لأقدار لاحقة . .

قوله تعالى :

* « فنبذناه بالعَرَاء وهو سقيمٌ * وأنبتنا عليه شجرةً من يقطين » .

نبذناه . أى طرحناه ، ونَبَذ الشيء : لفظه وطرحه ..

والعراء : الخلاء . .

واليقطين : اختُلف فيه . . أهو الدُّباء ، أى القرع ، أم الطّلح ، وهو الموز . . ؟

وفى قوله تعالى : « فنبذناه بالعراء » — إشارة إلى أن يونس عليه السلام، ما يزال واقعا تحت اللائمة من ربه سبحانه وتعالى ، وأنه لم ينل الرضا بعد ،

وإن كان فى الطريق إلى هـذه الغاية ، بما أخذ به من تربية وتأديب من ربّه ! . .

فلقد نبذه الله سبحانه بالعراء ، ولو شاء سبحانه ، لكساه سُندسا وحريراً . . ولـكن هكذا كانت إرادة الله فيه ، أن يخرجه من الدنيا عارياً ، كما خرج من قومه هارباً . . ولقد أظلّه ــ سبحانه ــ بشجرة من تلك الأشجار التى تنبسط أوراقها على سطح الأرض ، فيضطر المستظل بها إلى أن يضع خده على الأرض ! .

وهذا كلّه أدب سماوى لعبدٍ من عباد الله المـكرمين . . وهو أدب فيه معاناة ذاتية ، تعمل لها أجهزة الإنسان كلها ، من جسمية وعقلية ، وروحية . . ولو شاء سبحانه ــ لما أدخل عبده يونس فى هذه التجربة ، ولـكنه ــ سبحانه ــ قضت إرادته ــ جلّ وعلا ــ أن يقوم كل كائن بما أودع فيه من قوّى . . فى ذلك تحقيق لذاته ، وإثبات لوجوده . . والإنسان من بين الـكائنات كلها ، النصيبُ الأوفى فى هذا المجال ، فذلك من مقتضى الأمانة التى حملها الإنسان ، والتى أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها ! .

قوله تعالى :

* « وأرسلناه إلى مائةِ ألف أو يزيدون » . .

وهذا الإرسال ، هو بعد تلك التجربة ، فهو إرسال متجدد ، بعد أن لبس يونسُ عزماً جديداً ، ومشاعر جديدة . . وكأنه بهذا يبدأ الرسالة من جديد ! .

وقوله تعالى : « إلى مائة ألف أو يزيدون » ــ هو التحديد الحق ، الذى يضبط أعداد تلك الجماعة . . فهى ليست مائةَ ألف ، بل إنها تزيد على مائة

ألف ، أما هـذه الزيادة على مائة الألف ، فلا يمـكن ضبطها إلا للحظة لا تتجاوز غمضـة عين ، إذ كانت مواليد هذه الجماعة مستمرة ، ونموها مستمراً فى كل لحظة ، وإن أى قول يُضبط به عددها ضبطاً كاملا ، لا يمكن أن يقع موقع الصدق الذى يمثل الواقع ، حيث أنه ما يكاد المحصى الذى يحصى هذه الأعداد ـ ما يكاد ينطق بما أحصى ، حتى تـكون الحياة قد ألقت إلى هـذه الأعداد بأعداد .. فإذا قال إنها مائة ألف ومائتان وعشرون مثلا ، تغير هذا العدد بمجرد تلفظه به ، فزاد واحداً أو اثنين .. أو عشرة ، أو أكثر ..

والذى يلفت النظر أيضاً من هذا التعبير القرآنى ، هو لفظ « يزيدون » .. فهذا اللفظ لا يتغير أبداً ، وحكمه ملازم لهذه الجماعة ما دامت على الحياة ، فهى فى زيادة ، وليست فى نقص ، إذا أن هذا هو شأن الكائنات الحية .. إنها فى زيادة .. حيث أن مواليدها أكثر من أمواتها ..

قوله تعالى :

« فآمنوا .. فمتعناهم إلى حين » .

وفى العطف بالفاء ، دليل على سرعة استجابة القوم لرسولهم .. وهذا ما يكشف عن أنهم كانوا على استعداد للإيمان ، وإن توقفوا شيئاً ما ، عند دعوة يونس لهم أول الأمر .. ولو أنه صبر قليلا على خلافهم له ، لآمنوا .. وهذا التلبث والانتظار فى عدم قبول الدعوة ، هو حق لهم ، إذ أن من حق الإنسان أن يَلْقَى الأمور بعقله ، وأن يأخذ الوقت الكافى للنظر والبحث ، حتى يعرف ما هو مدعو إليه ، وهل هو حق أو باطل ؟ .

وفى هذه القصة ، إشارة إلى أن الإنسان — من حيث هو إنسان —

ليس شرًّا خالصاً، وأنه يشتمل على قدر كبير من الخير ، وأنه كما فى الناس الأشرار الذين يغلب شرُّهم خيرَهم ، ويغتال ما فيهم من فطرة ، فإن فى الناس مَن يغلب خيرُهم شرّهم ، وأنهم مستعدون لتلقىّ الخير . . وفى هذا إشارة أيضاً إلى أنه ليس كلّ الناسِ على شاكلة هؤلاء المشركين من قريش ، الذين جَمدت عقولهم على هذا الضلال الذى أمسك بها . . ثم إن فى هذا إشارة ثالثة إلى أنه ليس للرسول أن تقوم له الحجة على قومه ، إلا بعد أن يبلغ رسالته إليهم كاملة ، وأن يحتمل فى سبيلها كلّ جهد ، وأن يبذل لها كل قدرة ممكنة لديه ، وإلا كان فى موضع اللوم والعتب ، كما أن المرسَل إليهم يكونون تحت طائلة اللوم والعقاب ، لو أنهم دُعُوا وأبوا أن يستجيبوا . . وهكذا يُسَوّى حسابُ الناس عند الله . كلٌّ يأخذ حقّه كاملاً ، يَستوى فى هذا الحساب، الرسلُ ومن أرسلوا إليهم . . إنهم جميعاً عباد الله . . وإنه لامحاباة ولا مجاملة .

ولا شك أن هذه اللفتة السماوية إلى الإنسان — من حيث هو إنسان — جديرة بأن تفتح عيوناً أعماها الضّلال ، إلى ما لله سبحانه على الإنسان من فضل وإحسان ، وأنه لن تخفّ موازينه عند الله — حتى مع أنبيائه وسفرائه إلى خلقه — إلا إذا استخفّ الإنسان بميزانه ، واستهان بوجوده ، وقبِل أن ينزل راضياً ، عن هذا المقام الكريم الذى أحلّه الله فيه ، فزهد فى عقله ، وأبى أن يوجهه ليرتاد له مواقع الخير .

فهل وقف المشركون من قريش ، وغير قريش ، عند هذا ؟ وهل أخذوا بحقّهم الإنسانىّ فى هذا الوجود ؟ وهل هم مستعدّون لأن يُثبتوا أنهم أهلٌ لهذا المقام الكريم ، الذى سوّى الله سبحانه وتعالى فيه بين عباد الله ، وبين رسل الله ، فى موقف الحساب والمساءلة ؟ ذلك ما يكشف عنه الزمن منهم ، وذلك ما ينجلى عنه الموقف بينهم وبين هذا الرسول الكريم الذى لا يزال معهم .

الآيات : (١٤٩ — ١٧٠)

* « فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « فاستفتهم .. ألربك البناتُ ولهم البنون ؟ ».

مناسبة هذه الآية والآيات التى بعدها ، للآيات التى قبلها ، والتى عرضت قصة يونس مع قومه — أنها دعوة ، مجددة إلى هؤلاء المشركين ، ومقابلة — ربما تكون أخيرة — بين هؤلاء المشركين وبين رسول الله إليهم ،

إنها أشبه بذلك اللقاء الجديد الذى كان بين يونس وقومه . . وقد آمن قوم يونس . . فهل يؤمن هؤلاء المشركون ، بعد هذا اللقاء الجديد بينهم وبين رسول الله ؟

وفى هذا اللقاء بين رسول الله وبين المشركين، يدعوهم الرسول إلى أن يستحضروا عقولَهم ، وإلى أن يُفتوه فيما يستفتيهم فيه ..إنهم هنا فى مقام الفُتيا ، ذلك المقام الذى لا يقوم فيه إلا أصحاب العلم والعقل ، وإلا أهل الرأى والفهم . فهل هم أهل لهذا ؟ وهل هم مستعدّون لأن يُفتُوا فيما يُسْتَفْتَوْن فيه ؟ وإن الذى يُستفتوْن فيه ليس إلاّ بديهة من بَدهيّات العقل عند العقلاء . . فهل يخطئون وجه الصواب فى هذه البَدهيّات ؟

— « ألربّك البناتُ ولهم البنون ؟ » .

هذه هى القضية التى يُطلب إليهم الرأى فيها : —

إذا كان هناك فى المخلوقات بناتٌ وبنون .. ثم كانت هناك قسمة بينهم وبين الله . . فأىّ تكون له البنات ، وأىّ يكون له البنون ؟

لاشكّ أن البناتِ عندهم أنزلُ درجةً من البنين . . فهل يَقْضى العقل — عندهم — أن يكون لله البناتُ ، ويكون لهم البنون ؟ أهذه قسمة عادلة ؟ أيكون للإله الخالق دون مالهم ؟ إن ذلك جورٌ فى الحكومة ، وخُرْق فى الرأى ، وضلال فى الفُتيا . . ولهذا نقض الله عليهم رأيهم هذا ، وردّ قسمتهم تلك الجائرة . . فقال تعالى : « ألكم الذكرُ وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضِيزَى » (٢١ ، ٢٢ : النجم) .

قوله تعالى :

* « أم خلقنا الملائكةَ إناثاً وهم شاهدون » ؟ .

إنهم كانوا يقولون عن الملائكة : إنهم بنات الله . . وقد جعلوهم إناثا . . وهذا الحكم على الله بأنه لا يلد إلا البنات ـ تعالى الله عن أن يلد أو يولد ـ فيه عدوان عظيم على الله . . فهو فوق أنه عدوان بنسبة الولد إلى الله تعالى ؛ هو عدوان آخر بجعل هذا الولد من صنف الإناث لا الذكور . . فلو أنه كان لله أن يتخذ ولداً ، أفيتخذه أنثى ؟ إنهم لا يرضَوْن أن تولَد لهم البنات . فإذا ولدت لهم بنت ـ ضاقوا بها ، بل خجلوا أن يظهروا فى الناس ولهم بنات ينتسبن إليهم . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وإذا بُشّر أحَدُهم بالأنثى ظَلّ وجهُه مُسْوَدًّا وهو كظيم * يتوارَى من القوم من سُوء ما بُشّرَ به أيُمسكُه على هُونٍ أم يَدُسُّه فى التراب » (٥٨ — ٥٩ : النحل) .

وقوله تعالى : « وهم شاهدون » جملة حالية ، يُنكَرُ بها عليهم أنهم لم يشهدوا خَلْقَ هؤلاء الملائكة ، ولم يشاركوا فيه ، حتى يكون لهم قول فى هذا الأمر . . إنهم يحكمون بلا علم ، ويقضُون بغير حجة . .

قوله تعالى :

* « ألاَ إنهم من إفكهم ليقولون * ولدَ اللهُ وإنهم لكاذبون * أصْطَفَى البنات على * مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ أفلاتذكرون ؟ » .

فى هذه الآيات عَرْض لمقولتهم فى تلك الفُتيا التى استفتُوا فيها . وتسفيه لهذا القول الأحمق الجهول الذى قالوه . .

إنهم يقولون . . إفكا وبهتانا « ولد الله » أى أن الله يلد ولداً . .

وهذا إفك وضلال ، سواء أكان هذا الولد ذكراً أم أنثى .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .. « وإنهم لكاذبون » .

ثم إنهم ليقولون — إفكا وبهتاناً — إن مواليد الله إناث ، وليسوا ذكوراً . .

— « أصطفى البنات على البنين ؟ » فما لكم إذن لا ترضون بأن يولد لكم الإناث ؟ . .

— « مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ » أهذا حكم يستقيم حتى مع منطقكم أنتم ؟ « أفلا تذَكَّرون » ؟ أفلا تصححون هذا التناقض الذى وقعتم فيه ، أيها المستَفْتَوْن ؟ . .

قوله تعالى :

* « أم لكم سلطان مبين ؟ * فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين » .

وإذا لم تكن لكم عقول تعقل ، وتقيم لكم على هذا الذى تقولونه حجة ـ فهل معكم بهذا « سلطان مبين » أى كتاب من عند الله ينطق بهذا ؟ « فأتوا بكتابكم » هذا « إن كنتم صادقين » ! .

قوله تعالى :

* « وجَعَلوا بينه وبين الجِنَّةِ نسباً ولقد علمت الجِنَّةُ إنهم لمحضرون * سبحان الله عما يصفون * إلا عبادَ الله المخلَصين » . .

أى ومن مفترياتهم على الله سبحانه ، أن جعلوا بينه — سبحانه — وبين « الجِنّة » أى العالم الخفى ، غيرِ المنظور لهم ، وهو عالم الملائكة والجن — جعلوا بين الله وبين هذه المخلوقات الخفية ، نسباً وقرابة ، حيث نسبوا إليه

ـ سبحانه ـ الولدَ ، والولد لا يكون إلا من زواج ، ولا يكون زواج إلا بين متناسبين ، متقاربين فى الصورة ، والطبيعة . .

وهذا العالم الخفى ، الذى يرهبه المشركون ، ويتخذون منه أربابا يعبدونها من دون الله ، لاعتقادهم — الفاسد — أن بينهم وبين الله قرابة ونسبا — هذا العالم يعلمون أنهم محضرون بين يدى الله ، ومحاسبون على ما كان منهم . . إنهم خَلق الله ، ولن يخرجوا عن سلطان الله . . فسبحان الله ، وتنزيها له عما يصفه به هؤلاء المشركون ، ذلك الوصف الذى يسوون فيه بين الخالق والمخلوق ! . .

والمراد بالجِنة هنا ، هم الشياطين . . وإحضارهم ، هو الحساب ، والجزاء . .

وقوله تعالى : « إلا عباد الله المخلصين » هو استثناء من قوله تعالى : « لمحضرون » . .

أى أن هذا العالم الخفى ، يعلم أنه معبود لله ، وأنه محاسب بين يديه ، وأنهم سيلقون العذاب الأليم ، إلا عباد الله المخلصين منهم ، وهم الملائكة . . فإنهم — وإن كانوا من الجنة ، أى العالم الخفى — عباد مخلَصون ، أى ممحّضون للخير ، مفطورون على الطاعة ، لا يقع منهم مالا يرضاه الخالق ، جلّ وعلا . .

والجِنة : جمع جن . . وهم المخلوقات غير المنظورة من ملائكة ، وجن . . وأصله من الخفاء وعدم الظهور ، ومنه الجنين ، الذى فى رحم الأم ، ومنه الجنون ، لأنه يستر العقل ويغطى عليه ، ومنه المِجنّ ، وهو الترس ، الذى يَستر به المحارب مواطن القتل منه ، عن عدوه . .

قوله تعالى :

* « فإنكم وما تعبدون * ما أنتم عليه بفاتنين * إلا من هو صال الجحيم » . .

الخطاب هنا للمشركين ، الذين عبدوا القوى الخفية ، من ملائكة وجن .

والفاتن : من يجيء بالفتنة ، ليخدع بها غيره ، ويغرر من يستجيب له . .

وفى الآية الكريمة ، استخفاف بشأن المشركين ، وبما يعبدون من شياطين ، فإنهم وما يعبدون ، لا يملكون من أمر الله شيئا ، وإنهم لا يستطيعون أن يفتنوا أحداً من عباد الله ، إلا من كان من أهل الضلال ، ومن سبقت إرادة الله فيه أنه من أصحاب الجحيم .. كما يقول الله تعالى لإبليس — لعنه الله : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلاّ من اتبعك من الغاوين » (٤٢ : الحجر) . .

والصّالى : المصطلى بالنار ، المستدفىء بها ، والصّالُون للجحيم ، هم المعذبون بالنار . .

قوله تعالى :

* « وما منا إلا له مقام معلوم * وإنا لنحن الصّافّون * وإنا لنحن المسبحون » . .

هذا هو لسان حال الملائكة ، تتردد أصداؤه من الملأ الأعلى ، ليملأ أسماع العالمين ، مؤمنهم وكافرهم جميعاً .

إن كل مَلَك منهم ، له مكانه الذى أقامه الله فيه ، وله منزلته بين إخوانه .

فهم ليسوا على درجة واحدة ، بل هم — فى منازل الكرامة والإحسان — درجاتٌ عند الله ، كما أن الناس درجات ، فلا يستوى المؤمنون والكافرون ، ولا يستوى مؤمن ومؤمن ، ولا كافر وكافر .. فلكلٍّ مكانه ، ولكل درجته ، وليس لأحد منهم أن ينتقل من حال إلى حال ، أو يتحول من مكان إلى مكان .. بل هو أبداً ، حيث أقامه الله سبحانه . .

وفى قولهم : « وإنا لنحن الصّافون * وإنا لنحن المسبحون » — إشارة إلى أن الملائكة — وهم فى هذه المنزلة العالية عند ربهم — هم « الصافون » أى القائمون صفوفاً يعبدون الله ، وهم « المسبحون » بحمده .. كما يقول سبحانه فيهم : « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » (٢٠ : الأنبياء) .. فكيف يُعَبد من يَعْبُدُ ؟ أفليس معبوده أولى بالعبادة منه ؟ . .

قوله تعالى :

* « وإن كانوا ليقولون * لو أن عندنا ذِكراً من الأولين ، لكنّا عباد الله المخلَصين » . .

هو حكاية لمقولة من مقولات المشركين ، كانوا يرددونها قبلَ مبعث النبي إليهم .. إنهم كانوا يتمنون أن يكون عندهم ذكر من الأولين . . أى كتاب من عند الله ، تلقاه آباؤهم من قبلهم ، ويتلقونه هم عن آبائهم ، كما كان ذلك شأن أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى ، الذين يعيشون بينهم .. إنه لو كان لهم ذلك لكانوا — كما يدّعون — من عباد الله القائمين على طريق الحق ، الذين لا يدخل عليهم شىء من الباطل والضلال ..

و « إنْ » هنا هى المخففة من الثقيلة « إنّ » . . واسمها ضمير محذوف ، أى إنهم .. وخبرها جملة : « كانوا ليقولون » . .

قوله تعالى :

* « فكفروا به فسوف يعلمون » .

معطوف على محذوف ، تقديره ، ولقد جاءهم الذكر ، الذى كانوا يتمنونه ، فكفروا به . .

وقوله تعالى : « فسوف يعلمون » — تهديد لهم ، ووعيد . . إنهم جهلوا أو تجاهلوا ما يجر عليهم موقفهم هذا الذى يقفونه من الذكر الذى جاءهم ، وسوف يجىء اليوم الذى يعلمون فيه ما جهلوا أو تجاهلوا ، ولن يكون حينئذ بين أيديهم إلا الحسرة والندم . .

الآيات : (١٧١ — ١٨٢)

* « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (١٨٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإنّ جُندنا لهم الغالبون » .

فى هذه الآيات تهديد للكافرين ، وإنذار لهم بهذا الوعد الكريم ، الذى وعد الله به رسله بالنصر والغلب . .

فهذا الصراع الدائر بينهم وبين النبى — صلوات الله وسلامه عليه — سينتهى آخر الأمر بنصر الله للنبى والمؤمنين معه ، على هؤلاء المشركين . . فتلك سنة الله فيما بين الرسل وأقوامهم . . وكلمة الله التى سبقت ، هى ما أشار إليه سبحانه فى قوله : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » (٢١ : المجادلة) .

وفى قوله تعالى : « وإن جندنا لهم الغالبون » — إشارة إلى أن المؤمنين هم جند الله ، وأن الله لن يتخلّى عن جنده الذين يقاتلون فى سبيله ، ويدافعون عن دينه ، وما نزل من الحق . .

قوله تعالى :

« فتولّ عنهم حتى حين * وأبصرهم فسوف يبصرون » .

هو دعوة إلى النبى من ربه سبحانه ، أن يدع هؤلاء المشركين وما هم فيه من شرك ، وذلك إلى وقت قريب ، سيلقاهم فيه ، وسيرون تحقيق هذا الوعد الذى وعد الله رسله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . .

وفى قوله تعالى : « وأبصرهم فسوف يبصرون » وعيد للمشركين بما ينتظرهم من مصير مشئوم ، يرونه بأعينهم فيما يصابون به فى أنفسهم ، يوم يلتقى الجمعان ، يوم بدر . .

وفى حذف المفعول فى « يبصرون » إشارة إلى أن هذا الذى سيبصرونه ، هو مما سيطلع عليهم من عالم الغيب ، من حيث لا يقدّرون ، ولا يتوقعون . .

قوله تعالى :

* « أفبعذابنا يستعجلون » ؟ .

هو تهديد للمشركين ، ووعيد لهم على شركهم ، وعلى استخفافهم بوعيد الله ، وتكذيبهم له . . ولهذا فهم يتحدّون النبي بأن يأتيهم بهذا العذاب ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » (٣٢ : الأنفال) .

قوله تعالى :

* « فإذا نزل بساحتهم فسآء صباح المنذرين » .

أى أن هذا العذاب الذى يستخفون به ، ويطلبون ـ متحدّين ـ تعجيلَه لهم ـ هذا العذاب إذا نزل بهم فيالَسوء حالهم وما يلقون منه . .

وفى إسناد السوء إلى صباحهم ، لا إليهم ، إشارة إلى أنه صباح مشئوم ، يطلع عليهم بالمساءات كلها ، لأنه كلّه صباح سوء بالإضافة إليهم . .

وفى توقيت العذاب بالصباح ، إشارة أخرى إلى أن العذاب الذى سينزل بهم ، هو صباح يوم من أيام السوء عليهم ، وهذا ما كان فى صباح يوم بدر . . ولَعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

قوله تعالى :

* « وتولَّ عنهم حتى حين » .

دعوة أخرى إلى النبى صلوات الله وسلامه عليه ، بعد أن يرى بعينيه فى هذه الدنيا هزيمة المشركين ـ أن يتولى عنهم إلى يوم الدين . . فمن

آمن منهم ، فقد نجا ، ومن أمسك بالشرك الذى انعقد عليه قلبه ، فهو فى الخاسرين ..

* وقوله تعالى : « وأبصر » أى انظُر ما ذا يلقون فى هذا اليوم ، يوم القيامة ، « فسوف يبصرون » م هذا المصير الذى سيصيرون إليه .

قوله تعالى :

* « سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين » . .

بهـذه الآيات الثلاث تختم السورة ،. وبهذا التنزيه لله عن الشريك والولد ، والتسبيح بحمده ، والتمجيد لعزته ، والسلام على رسله ، والحمد لله على ما أفاض على الناس من نعم ، وما بعث فيهم من رسل ـ بهذا كله تعمر القلوب ، وتَلْهَج الألسنة . .

٣٨ - سورة ص

نزولها : مكية

عدد آياتها : ثمان وثمانون آية .

عدد كلماتها : سبعمائة واثنتان وثلاثون .. كلمة .

عدد حروفها : ثلاثة آلاف وسبعة وستون حرفاً .

مناسبتها لما قبلها

كان من الآيات التى ختمت بها سورة الصافات قوله تعالى عن المشركين : « وإن كانوا ليقولون * لو أن عندنا ذكراً من الأولين * لكنا عباد الله المخلَصين * فكفروا به فسوف يعلمون » — وكان بدء سورة ص ردًّا على هؤلاء المشركين ، وعلى ادعائهم هذا .. فهذا هو القرآن ذو الذكر قد جاءهم .. فماذا كان منهم ؟ لقد كذبوا به ، « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب » !! .

كذلك كان مما ختمت به السورة السابقة قوله تعالى : « ولقد سبقت كلمتُنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون » . فجاء فى هذه السورة — سورة ص — « جندٌ ما هنالك مهزوم من الأحزاب » — جاء إخباراً بالغيب ، بما سيَحل بهؤلاء المشركين ، وبما ينزل بهم من هزيمة هم وما يجمعون من جنود الباطل لحرب النبىّ ..

وهكذا يصافح ختام سورة الصافات ، بَدْء سورة (ص) مصافحةَ لقاء ، لا سلام مودّع .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١١)

* « صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ (١١) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ص والقرآن ذى الذكر * بل الذين كفروا فى عزة وشقاق » .

« ص » هو حرف من حروف المعجم ، بدئت به السورة ، كما بدئت كل من سورتى « ق » و « ن » بحرف واحد ، على خلاف السور التى بدئت بحروف ، حيث بدىء بعضها بحرفين ، مثل (طه) و (يس) وبدىء

بعضها بثلاثة أحرف ، مثل « آلم » و « الر » ، وبعضها بأربعة مثل « آلمر » وبعضها بخمسة مثل : « كهيعص » و (حم عسق) . .

والملاحظ أن هذه السور الثلاث التى بدئت بحرف واحد ، قد جُعل الحرف اسماً لها ، وإن كان غلب على سورة « ق » اسم القلم ، وكذلك الشأن فيما بدىء بحرفين ، وهما « طه » و « يس » . . أما السور الأخرى التى بدئت بأكثر من حرفين فلم تكن الحروف التى بدئت بها ، عَلَماً عليها . . ولعل فى هذا ما يشير إلى أن هذه الحروف ليست حروفاً بالمعنى المفهوم لها فى النحو ، وإنما هى أسماء ، ذات دلالات ، وأن الحرف هنا قد صار اسماً على السورة ، وعلماً عليها . .

وعلى هذا يصح أن يكون « ص » ـ والله أعلم ـ اسماً مُقْسَماً به ، ويكون « والقرآن ذى الذكر » معطوفاً عليه ، فيكون المقسم به هو (ص) ، والقرآن معاً . .

وإذ كان قوله تعالى : « والقرآن ذى الذكر » معطوفاً على مقسَم به وهو « ص » ـ كان « ص » ذا شأن جليل ، وجلال عظيم ، كشأن القرآن وجلال القرآن . .

والقرآن الكريم ، هو كلام الله ، وكلام الله صفة من صفات الله ، وصفات الله هى ذات الله .

وإذن فيكون القول بأن « ص » هو اسم من أسماء الله ، أو صفة من صفاته ، قولا له مفهوم على هذا الاعتبار . .

ويصح أن يكون «ص» ـ والله أعلم ـ إشارةً مجملة إلى ما استقبل به النبىُّ والمؤمنون قولَه تعالى فى آخر الصافات : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين » أى سبَّحْنا بحمدك ربَّنا وحقٌّ ص والقرآن ذى الذكر ، الذى آمنا به . .

وعلى القول الأول يكون جواب القسم محذوفاً ، ويكون المعنى : وحقّ الله ، وحقّ القرآن ذى الذكر ، لقد تنزهت ربّنا عن الشريك والولد ، فلك الحمد ، ولرسلك السلام .. ولكن الذين كفروا «فى عزة» أى غرور بأنفسهم، « وشقاق » أى منازعة فى هذا الأمر الذى سلّم لك به الوجود كله . .

وعلى القول الثانى ، يكون جواب القسم ، هو ما ختمت به سورة الصافات ، وهو قوله تعالى « سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » ، وقد تقدم الجواب على القسم .

وقوله تعالى : « بل الذين كفروا فى عزة وشقاق » .

وصف المشركين بالعزة ، هو فى مقابل قوله تعالى فى آخر «الصافات» «سبحان ربك رب العزة عما يصفون » .. فهذه العزة التى للمشركين هى عزة باطلة مُدّعاة، هى عزة غرور ، وحمق وجهل ، تلك العزة التى يخيل لمدعيها أنه واحد هذه الدنيا ، ومالك أمرها ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى شأن مدعى هذه العزة الكاذبة : « وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم » (٢٠٦ : البقرة) . . فعزة الكافرين هى من هذه العزة ، التى تملأ كيان صاحبها غروراً وتعالياً . .

وفى حرف الجر « فى » الذى يفيد الظرفية ، إشارة إلى أن هذه العزة الكاذبة، مستولية على أهلها ، مغطية على أبصارهم ، فلا يرون على صفحة مرآتها إلا أنفسهم ، فى هذا الثوب الزائف الذى لبسوه .

والشقاق الذى فيه هؤلاء الكافرون ، هو منازعتهم لله فى عزته ، واستكبارهم عن أن يستجيبوا لله ، ويؤمنوا به

قوله تعالى :

* « كم أهلكنا قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص » .

« كم » هنا خبرية ، تفيد التكثير . . أى ما أكثر ما أهلكنا قبل هؤلاء الكافرين الذى لبسوا هذه العزة الزائفة ـ ما أكثر ما أهلكنا قبلهم من أمم ظالمة ، كانت أكثر منهم قوة ، وأعز سلطانا ، فلما جاءهم بأسنا نادوا مستغيثين ، فلم يغاثوا ، إذ كان قد فات أوان الغوث : « ولات حين مناص » .

و « لات » أداة تفيد النفى ، بمعنى « لا » والتاء زائدة ، لتأكيد النفى وتقويته . .

و « المناص » المفرّ ، والملجأ . . ومنه الناصية ، وهى الرأس من كل شىء ـ وناصية الجبل أعلاه الذى يعتصم به .

قوله تعالى :

* « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب » .

أى أن هؤلاء المشركين ، قد عجبوا أن جاءهم رسول بشر منهم ، وقال الكافرون عن هذا الرسول ، « هذا ساحر كذاب » فرموه بالسحر ، واتهموه بالكذب !

وفى قوله تعالى : « وعجبوا » إسناد للعَجَب إليهم جميعاً . . فهذا العجب هو الذى استقبل به المشركون بعثة الرسول فيهم . . ثم كانوا فريقين : فريقاً لم يتلبث كثيرا فى عجبه من هذا الرسول البشر . . فما هى إلا وقفة ـ طالت أو قصرت ـ ثم رجع إلى عقله ، وثاب إلى رشده فآمن بالله . . وفريقاً ظل على عجبه هذا ، فتولد منه الإنكار والكفر ، وعلى حين قال المؤمنون : آمنا بالله ، ورسول الله ، قال الكافرون : هذا ساحر كذاب . .

قوله تعالى :

* « أجعل الآلهة إلها واحداً ؟ إن هذا لشىء عجاب » . .

هو من مقولة المشركين ، الذين قالوا هذا القول المنكر فى النبى : « ساحر كذاب » . .

وهم بقولهم : « أجعل الآلهة إلها واحدا » هو تعجب من دعوة الرسول لهم إلى توحيد الله ، ونبذ ما يعبدون من دونه من آلهة . . إنها دعوة غير معقولة وغير مقبولة عندهم . .

إذ كيف تكون الآلهة إلها واحدا ؟ وكيف ينزل كل إله منها عن سلطانه ؟ إن شيخ القبيلة ، أو زعيم الجماعة ، لا يقبل أن ينزل عن مكانه من الرياسة لزعيم آخر ، ولو كان هذا معقولا ومقبولا ، لكانت قريش مثلا تحت زعيم واحد . فإذا كان هذا غير ممكن فى مجتمع القبائل ، فكيف يمكن هذا فى مجتمع الآلهة ؟ « إن هذا لشىء عجاب » . . أى مثير للعجب ، الذى ليس وراءه عجب !

قوله تعالى :

« وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا الشىء يُرادُ »

أى أنه لم يطل العجب منهم ، بل أعطوْا ظهورهم لما سمعوا من كلام الله ، وتنادَوْا : أن اصبروا على آلهتكم ، وتمسكوا بها . . أما هذا الذى سمعتموه من محمد ، فإنما هو كيد من كيده ، يريد به حاجةً فى نفسه ! !

قوله تعالى :

* « ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة . . إن هذا إلا اختلاق » .

أى إن هذا القول لم نسمع به فى الديانة الآخرة . وهى المسيحية ، التى هى آخر الديانات السماوية . . فهاهم أولاء يرون أتباع المسيحية ـ وهم أهل الكتاب ـ يجعلون لله ابنا ، هو المسيح ، ويجعلونه إلهًا ، كما يجعلون أمه إلهًا . . فكيف إذن يكون الإله إلها واحداً ؟ وأين تذهب ألوهية المسيح ، وأمّ المسيح ؟ « إن هذا إلا اختلاق » أى كذب وافتراء على الله . . إذ لو كان الله يأبى أنْ يكون معه آلهة لما قبل أن يكون المسيح ، وأم المسيح إلهين معه ! !

قوله تعالى .

* « أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ بل هم فى شك من ذكرى . . بل لما

يذوقوا عذاب » . وإذا اطمأنوا إلى هذا المنطق السقيم، الذى أقاموا منه الحجة الباطلة على كذب النبي ودعوته أن يكون الآلهة إلٰها واحداً ـ راحوا ينظرون فى النبى ذاته مع صرف النظر عن محتوى رسالته ، بعد أن أظهروا بطلانها ـ بزعمهم ـ فرأوا أنه على فرض التسليم بصدق ما جاء به ـ أنه ليس أهلا لأن يتلقى من الله هذا الذكر ، وفيهم من هو أكثر مالا وولداً . . فكيف تتخيره السماء دونهم ؟ وأين عين السماء عن هؤلاء السادة منهم ؟ وهذا ما يشير إليه قوله تعالى على لسانهم : « لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (٣١ : الزخرف) .

وفى تقديم متعلق الفعل « عليه » على فاعله « الذكر » — إشارة إلى أن الإنكار للقرآن هنا ، ليس منظوراً إليه منهم، بقدر إنكارهم لاختيار الرسول لهذا الأمر ، وترك ساداتهم ورجالاتهم . . ولهذا جاء قوله تعالى : « بل هم فى شك من ذكرى » ـ إضراباً على إنكارهم لشخص الرسول فيهم .. فإن الأمر ليس أمر الرسول ، وإنما هو أمر ما أرسل به ، والذى كان أولى بالنظر فيه ، وإلى مواقع الصدق منه ، وإلى محامله من الهدى والخير . . إنّ ذلك هو الذى كان ينبغى النظر إليه والوقوف عنده ، والتعرف عليه ، ثم قبوله أو التوقف فيه.. ثم إذ كان لهم نظر فى حامل الرسالة بعد هذا ، فليكن نظراً قائما من وراء النظر فيما يحمل إليهم .. ولكنهم قلبوا الأوضاع ، فنظروا إلى الرسول بمعزل عن هذا الذى يحمله إليهم ، فلم يروا فيه إلا واحداً منهم . . ثم إنهم إذ نظروا إليه فى هذا الوضع ، لم ينظروا إلى القيم الإنسانية العالية التى يشتمل عليها كيانه ، من مكارم الأخلاق، وصفاء الروح ، وعظمة النفس ، فكل هذا لاحساب له فى موازينهم التى يزنون بها الرجال ، تلك الموازين التى لايقام وزن الرجال

فيها إلا بكثرة المال والأولاد ! ومحمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إذا وزن بهذا الميزان المادى ، لا يكاد يقام له وزن ، ولو أنه كان فى ميزان الروح والنفس يرجح العالمين جميعاً . . !!

وإنهم ليسوا فى شك من الرسول وحسب ، بل إنهم فى شك من الرسالة التى يحملها إليهم ، وفى القرآن الكريم الذى يتلوه عليهم .. وإنهم كما نظروا إلى محمد ووزنوه بهذا الميزان الفاسد ، نظروا إلى ذكر الله ، ووزنوه بميزانهم المضطرب المختل ، فقالوا عنه : هو شعر ، وهو سحر ، وهو أساطير الأولين . . إلى آخر تلك المقولات التى قالوها فى كلام الله ..

وفى قوله تعالى : « بل هم فى شك من ذكرى » ـ وفى إضافة الذكر إلى الله ـ إشارة إلى أن حكمهم على القرآن ، وتكذيبهم له ، ليس حكماً ، على محمد ، ولا تكذيبا له ، بل هو حكم على الله وتكذيب لله ، فهذا القرآن قرآنه ، وهذا الكلام كلامه . . وإذن . فإن حسابهم ليس بينهم وبين محمد ، وإنما حسابهم بينهم وبين الله . .

وفى قوله تعالى : « بل لمّا يذوقوا عذاب » ـ إضراب على الحديث إليهم بمنطق الحق ، وإنهاء لهذا الموقف معهم ، إذ لا تجدى معهم حجة . . وإذن فليذوقوا العذاب الذى يسوقه الله إليهم ، بعد أن رفضوا هذه الرحمة المهداة لهم . .

وفى قوله تعالى : « لمّا يذوقوا عذابِ » تهديد لهم بالعذاب الذى لم يذوقوا طعمه بعد ، وأنه آتٍ لا ريب فيه . .

قوله تعالى :

* « أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب » .

أى وإلى أن يقع العذاب المرسل إلى هؤلاء المشركين ، فلينظروا فى هذه القضية، وليجيبوا منها على هذا السؤال: أعندهم خزائن رحمة الله ، حتى يتصرفوا فى هذه الرحمة كما يشاءون ، فيسوقوها إلى من شاءوا ، ويصرفوها عمّن شاءوا ؟ وإذا كانت رحمتنا قد شاءت لما إرادتنا أن تجىء إلى « محمد » وأن تجعله الرسولَ المصطفى لرسالة السماء من بينهم ، فهل فى مقدورهم أن يتحكموا فى إرادتنا ، وأن يصرفوا هـذه الرحمة عنه ، وأن يسوقوها إلى الرجل الذى يتخيرونه منهم ؟ أليس ذلك مصادمة منهم لمشيئة الله ، وتحدياً لإرادته ؟ « أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتَهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعضٍ درجات» (٣٢ : الزخرف) . فهل هم يقسمون فيما بينهم رحمة الله فيما أفاء عليهم من نعم ، فأغنى وأقنى ، ومنح ومنع ؟

وفى وصف الله سبحانه وتعالى « بالعزّة » . . إشارة إلى أن مشيئته لا تغلب ، وأن إرادته لاتنازع « ألا له الخلق والأمر » (٥٤ : الأعراف) . .

وفى وصفه سبحانه « بالوهاب » . . إشارة أخرى إلى أن هِباتِه وعطاياه سبحانه ـ كثيرة لا تنفد ، وأنه ليس لهم ـ وتلك هى هبات الله الشاملة ، وعطاياه الغامرة ـ أن يحسدوا « محمداً » على ما أعطاه الله ، فإن لهم من هذا العطاء شيئاً كثيراً لو أرادوا أن ينالوا منه . . فهذا الخير الذى بين يديه ، هو خير مَسُوق إليهم ، وهذه الرحمة التى وضعها الله بين يديه ، هى لهم ، فليرِدُوا مواردَها ، وليستقُوا من ينابيعها ، فإنها رحمة السماء إلى الناس جميعاً . .

قوله تعالى :

* « أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما ؟ فليرتقوا فى الأسباب » .

أى ألهؤلاء المشركين مُلكُ ما فى السموات والأرض ، ليشاركوا الله فى

تصريفه ، ويكون لهم ما شاءوا من منح ومنع ، وإحسان وحرمان ؟ إن لم يكن لهم ذلك ، أو شىء منه ، فليقفوا عند حدّهم ، وليأخذوا بالأسباب التى فى أيديهم .. تلك الأسباب ، التى لو أحسنوا استخدامها لامتلأت أيديهم من فضل الله وإحسانه . . فما لهم إذن يتطلعون إلى السماء وأسبابها ، ويعترضون على أحكامها ومقدّراتها ، وبين أيديهم الأسباب القريبة التى ينالون بها الخير من قريب ؟ . . وما بالهم لا يتخذون طريقهم إلى كتاب الله ، وينظرون بعقولهم فى آياته وكلماته ؟ . إنهم لو فعلوا لأصابوا كلّ خير ، ولظفروا بالسعادة فى الدنيا والآخرة . . ولكنهم فى ضلال يعمهون . . إنهم ينظرون إلى مقادير السماء ، ولن يصلوا ، وإنهم يعمون عما فى أيديهم فلم ينالوا شيئاً . . وذلك هو الخسران المبين . .

ويجوز أن يكون هذا تعجيزاً لهم ، وتحدياً لهـذا المدّعَى الذى يدّعونه فيما تنطق به حالهم من تكبر واستعلاء ، واعتراض على ما لله سبحانه وتعالى من تصريف فى ملكه ، فيعطى ويحرم ، ويغنى ويفقر . . فإن كان لهم مع الله سلطان ، فليمدّوا أسبابهم إلى السماء ، وليرتقوا إلى السماء ، وليقوموا على سلطانها . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا » (٤٢ : الإسراء) .

قوله تعالى :

« جُنْد ما هنالك مهزوم من الأحزاب » .

أى هم جُندٌ . . مبتدأ وخبر . . وقد أضرب عن ذكرهم ، إهانةً لهم ، واستخفافا بهم . . وأنهم مغلوبون مهزومون فى الأرض بجند من جند الله ، فكيف يكون لهم سلطان وغَلَب فى السماء ؟

و « ما » نكرة ، تفيد العموم .. أى هم جند ما ، من تلك الجند الكثيرة ، ويجوز أن تكون للتنكير استخفافا بهم ، وتهوينا لشأنهم

أى هم جماعة من تلك الجماعات ، التى تجتمع على الضلال ، وتتحزّب على الباطل ، فى كل زمان ومكان .. ومن هؤلاء قوم نوح وعاد وفرعون ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة .. فهؤلاء هم الأحزاب الذين أشارت اليه الآيتان (١٢ ، ١٣) من هذه السورة ..

وهزيمة هؤلاء الجند ، هى هزيمتهم فى مواقع الحق ، وخذلانهم فى مجانى الخير .. فهم لا يعرفون حقاً ، ولا ينالون خيراً ..

وفى وصفهم بالجند ، إشارة إلى أنهم فى حرب مع الله ، ومع جند الله .. هذا هو ما تشير إليه الآية الكريمة من قريب ، إلى موقف هؤلاء المشركين ..

وفى الآية الكريمة إشارة إلى أبعد من هذا ، وهى هزيمتهم فى موقعة الأحزاب ، المعروفة بالخندق . فقد هُزم المشركون ، وماحزّبوا من أحزاب على النبى والمسلمين ، وظاهرهم اليهود على هذا الذى أرادوه بالنبى والمؤمنين من سوء .. فهم وما جَمعوا ، جمعٌ هزيل ، لا قيمة له ..

الآيات : (١٢ — ٢٠)

* « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ

إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) »

التفسير :

قوله تعالى .

* « كذّبتْ قبلهم قومُ نوحٍ وعادٌ وفرعونُ ذو الأوتاد ، وثمودُ وقوم لوطٍ وأصحابُ الأيكةِ أولئك الأحزابُ » .

فى هذا العرض للأقوام الذين كذّبوا رسل الله أمران .

الأول : مواساة للنبيّ الكريم ؟ بهذا الذى لقيه رسل الله من قبله من تكذيب أقوامهم لهم . . فليس النبيّ — صلى الله عليه وسلم — بِدْعاً فيما ناله من قومه ، من أذى وضُرّ . .

والثانى : هو تهديد لهؤلاء المشركين ؛ أن يلقوْا هذا المصير المشئوم الذى لقيه المكذّبون برسل الله .

فرعون ذو الأوتاد ، هو فرعون مصر ؛ الذى وقف من موسى هذا الموقف الذى انتهى به وبجنده إلى الهلاك غرقاً .

وأوتاد فرعون ، هى تلك الأهرام التى أقامها فراعين مصر ، فكانت أوتاداً على الأرض كالجبال . . فالجبال هى أوتاد الأرض ، كما يقول تعالى : « والجبال أوتاداً » (٧ : النبأ) .

وأصحاب الأيكة : هم قوم شعيب عليه السلام . . والأيكة الشجر الكثير المجتمع بعضه إلى بعض ؛ أشبه بالغابة . .

وفى عطف « عاد » على فاعل الفعل « كذبت » وهو « قوم » ـ إشارة إلى أن المكذِّبين هم « عادٌ » لا قوم عاد، إذ كانت نسبة الأقوام هنا إلى أنبيائهم . . وعاد ليس نبياً . . وكذلك الشأن فى « ثمود » وأصحاب الأيكة . . أما عطف « فرعون » على عاد ، فلأنه :

أولا : ليس نبياً ، حتى يضاف القوم إليه فى هذا المقام ، ثم إن قوم فرعون ، ليسوا من قوم النبىّ موسى ، حتى يضافوا إليه . .

وثانياً : لو أضيف القوم إلى فرعون ، لأشعر هذا بأنه غير داخل معهم فى التكذيب . . وهذا غير مُراد . .

وثالثاً : تسليط فعل التكذيب على فرعون ، يُشعر بأنه كان هو الكيان المكذِّب ، الذى احتوى قومَه جميعاً فى كيانه هذا . .

وقوله تعالى : « أولئك الأحزاب » . . الإشارة إلى هؤلاء المكذبين الذين ذكرتهم الآيتان السابقتان . . وأنهم الأحزاب الذين جاء ذكرهم فى قوله تعالى : « جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب » ـ أى فهؤلاء المشركون من قريش ، هم جماعة من تلك الجماعات ، وهم من أحزابهم التى اجتمعت على الكفر والضلال ، وعلى التكذيب برسل الله . . وهؤلاء جميعاً ـ ومنهم هؤلاء المشركون ـ محكوم عليهم بالهزيمة والخذلان . . وهذا ما يشير إليه :

قوله تعالى :

* « إنْ كلٌّ إلا كذَّبَ الرُّسلَ فحقّ عقاب » .

« إن » هنا نافية ، بمعنى (ما) . أى ما كلّ هؤلاء إلا كذّب الرسل ، « فحق عقابِ » فوجب عليه عقاب الله الراصد له . .

وفى إسناد التكذيب بالرسل جميعاً ، إليهم فى مقام واحد ـ إشارة إلى أمرين :

أولاً : أن الرسل جميعاً على أمر واحد ، وعلى دعوة واحدة ، هى الإيمان بالله .. فمن كذب برسول من رسل الله ، فهو مكذب برسل الله كلهم .. لأن الحق الذى معهم واحد ، والدين الذى يدعون إليه دين واحد ..

وثانياً : أن أهل الضلال ، كيان واحد أيضاً ، لا اختلافَ بين أولهم وآخرهم ..

فالطريق الذى سار عليه أولهم ، من الكفر بالله والتكذيب بالرسل ، هو نفس الطريق الذى سلكه وسار عليه كل مشرك ضال ..

قوله تعالى :

* « وما ينظر هؤلاء إلاَّ صيحةً واحدةً ما لها من فَوَاق » .

الفَوَاق : البرهة القصيرة من الزمن ، بين الجرعة والجرعة من الماء .. يأخذ فيها الشارب نَفَسَه ..

والإشارة هنا (بهؤلاء) إلى المشركين ، وأنهم هم المقصودون فى هذا المقام بهذا الحكم المشار إليهم به ..

والآية تهديد لهم بأنهم ـ وقد أهلك الله أمثالهم من المكذبين الضالين ، وأنزل بهم العذاب الذى يستحقونه ـ لن يُمهلوا طويلاً حتى يأتيهم العذاب ، وهو حين يأتى لا يدع لهم لحظة من الزمن يستردون فيها أنفاسهم .. إنها صيحة واحدة تخمد أنفاسهم بعدها ..

والصيحة هنا ، هى صيحة الموت .. فإن مشركى العرب لم يهلكوا بعذاب من عند الله فى الدنيا ، إكراماً لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، كما يقول سبحانه : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » (٣٣ : الأنفال)

وصيحة الموت هذه ، هى بالنسبة للكافر ، الذى يموت على كفره ،

بلاء عظيم ، إذ تقطعه عن الإيمان الذى كان يمكن أن يكون منه قبل أن يموت ، فإذا مات على الكفر استحال أن يكون فى المؤمنين أبداً .. وكانت الصيحة عليه بالموت ، هى المركب الذى يحمله إلى جهنم فى غير مهل ! !.

قوله تعالى :

* « وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ » .

أى أن هؤلاء المشركين ـ وقد وعد الله نبيه فيهم ، ألا يأخذهم بما أخذ به المكذبين قبلهم من عذاب الدنيا ـ لم يقبلوا هذا الإحسان من الله ، بل ردوه فى قِحَة وتحدٍّ « وقالوا ربّنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » يقولون هكذا « ربّنا » ولا يستحيون أن يتحدوْه هذا التحدى ، ولا يخشوا عذابه !.

والقط : هو النصيب المقسوم من الشىء .. ولعلها كلمة جاءت إلى اللسان العربى من ألسنة الأمم المجاورة للعرب .. ولعل أصلها « القِط » وهو جزء من أصل الشىء ، ومنه القسطاس ، وهو الميزان الذى توزن به الأشياء ، ويُحدَّد به قدرها ..

وفى قولهم : «قبلَ يوم الحساب» مع أنهم يكذبون به ، استهزاء وسخرية ، ومبالغة منهم فى التكذيب بهذا اليوم .. يوم الحساب الذى يُوعدهم الرسول به ، وهو غير واقع فى تصورهم ..

قوله تعالى :

* « اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ » .

الأمر بالصبر : هو دعوة من الله سبحانه وتعالى إلى النبى الكريم، بالمصابرة ، واحتمال المكروه من هؤلاء المكذبين ، وما يقولون من منكر القول ، كقولهم هذا : « عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ! » ـ فإن لهؤلاء الظالمين يوماً يجعل الولدانَ شيبا ..

وقوله تعالى : « واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوابٌ » أى واذكر فى هذا المقام الذى تُدعى فيه إلى الصبر ـ «اذكر عبدنا داود ذا الأيد .. إنه أوابٌ» ففى ذكره فى هذا المقام ما تجد فيه الروْحَ الأنس ، لما يتمثل لك من سيرته ، التى يقصها الله عليك . .

والأيد : القوة . . وهى مأخوذة من اليد ، التى تتمثل فيها قوة الإنسان الجسدية . . ثم إنها ليست يداً واحدة ، بل أيدِياً كثيرة . . وإذن فهى قوة خارقة . .

والقوة هنا ليست قوة جسدية ـ وحسب ـ بل هى قوة روحية ونفسية أيضاً ، تشتمل على طاقات عظيمة ، من الصبر على المكاره ، واحتمال الشدائد ..

والأوّاب : كثير الأوب ،والأوب هو الرجوع إلى المكان الذى كان منه الذهاب .. فهو رجوع بعد ذهاب . . وقد غلب الأوب على المعنويات ، كما غلب الإياب على الماديات . .

والمراد بالرجوع هنا ، الرجوع إلى الله ، والاستقامة على طريقه ، بعد ميل عنه . . فالأواب : هو الراجع إلى الله مرة بعد مرة . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوّابين غفوراً » (٢٥ : الإسراء) .

والسؤال هنا هو :

لماذا كان داود عليه السلام هو المثل الذى يقيمه النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بين عينيه ، وهو يشدّ عزمه بالصبر على ما يقول قومه من زور وبهتان فيه ؟ وهل فى داود ـ عليه السلام ـ فصل خاص فى هذا المقام ، لم يبلغه الأنبياء ؟ إن القرآن يحدثنا عن إسماعيل ، وإدريس ، وذى الكفل ، على أنهم المثل البارز فى الصبر الكامل .. فيصفهم سبحانه بالصبر ، مجتمعين ، فيقول

سبحانه : « وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كلٌ من الصابرين » (٨٥ : الأنبياء) ويقول سبحانه عن أيوب : « إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » ويقول سبحانه على لسان إسماعيل لأبيه : « ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » فما تأويل هذا ؟ .

والجواب - والله أعلم - هو من وجوه :

فأولاً : ليس المراد بالأمر الموجه من الله سبحانه ، للنبي - صلوات الله وسلامه عليه - بذكر داود عليه السلام ، فى مقام إلفات النبي إلى الصبر ، وإلى إقامة أمره عليه - ليس المراد به التأسى بهذا النبي الكريم ، وإنما المراد به الحذر من أن تطرقه حال من أحوال الضعف البشرى ، فيقع منه ما وقع من داود ، فيما كان موضعَ ندم منه ، واستغفار لربه ، وتوبة إليه . .

إن داود - عليه السلام - كان مع ما وصفه الله سبحانه به من قوة وأيد - غيرَ قادر على مواجهة الفتنة التى ابتُلى بها مواجهة كاملة ، فكان منه هذا الذى وقع منه ، والذى استغفر له ربه ، فغفر له . . فالنبي عليه الصلاة والسلام ، مطالب بأن يكون على عزم وقوة ، أشد وأقوى مما كان عليه داود ، من عزم وقوة ، لأنه فى وجه فتنة أعظم وأشد من فتنة داود . .

فالأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - هم بَشَر قبل أن يكونوا أنبياء ورسلاً .. والنبوة والرسالة ، لم تنزِع عنهم ثوب البشرية ، وإن ألبستهم النبوة والرسالة حلل الصفاء ، والنقاء ، والطهر ، ولكنها مع هذا ، لم تسلبهم نوازع البشرية ، وضروراتها . . وإلا لكانوا خلقاً آخر غير خلق الناس ، ولكانوا أبعد من أن يعيشوا فى دنيا الناس ، وأن يألفهم الناس ويألفوا الناس . .

والأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - على هذا الحساب ، ليسوا على درجة واحدة . وإن كانوا جميعاً على قمة البشرية كلها ، فهم درجاتٍ ومنازل

عند الله . . وفى هذا يقول الله تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات » (٢٥٣ : البقرة) . . ولو أنهم كانوا على الكمال المطلق ، لكانوا درجة واحدة .. ولكنهم - على حدود الكمال البشرى - فى أعلى منازله . . وهم فى هذه الحدود ، درجات ومنازل . .

وثانياً : ليس هذا التأويل الذى ذهبنا إليه فى قوله تعالى : « واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب » - من أنه ليس مراداً به التأسى به ، وإنما المراد هو تخطّى هذا الحد الذى وقف عنده داود عليه السلام وتجاوُزه ، فى مقام الصبر ، والعزم - نقول ليس هذا التأويل بالذى يُنقص من قدر هذا النبى الكريم ، وإنما هو وضع له فى المقام الكريم الذى وضعه الله فيه ، وإن كان فوق هذا المقام مقامات ومقامات ! ! .

وهذا كلام قد لا يهضمه كثير من أهل العلم ، أو أدعياء العلم . . ويعدّونه تطاولا على مقام الأنبياء ، وعدواناً على عصمتهم . . ومن يدرى فقد يذهب بعضهم الشطط إلى أن يقولوا إن هذا كفر ! ! ونقول لهؤلاء مهلاً . . فإننا على الإيمان بالله وبرسل الله ، وعلى التوقير لهم ، والصلاة والسلام عليهم . . ومع هذا ، فإننا سنقول هذا القول ، لأنه مما تنطق به آيات الله ، وتجرى عليه سُنة الحياة البشرية ، وترضاه العقول السليمة ، وتطمئن إليه القلوب المؤمنة .

ثم نسأل : إذا كان ما قلناه فى تأويل الآية الكريمة ، مما يُعدّ تطاولا على مقام هذا النبى الكريم . . فماذا عند من ينكر هذا التأويل - من تأويل لقوله تعالى للنبى صلوات الله وسلامه عليه : « فاصبرْ لحكم ربّك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم * لولا أن تداركه نعمة من ربه لنُبِذ بالعراء وهو مذموم * فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » (٤٨ - ٥٠ : القلم) . . ماذا فى تأويل قوله تعالى : « ولا تكن كصاحب الحوت » ؟ أليس فى هذا

إلفات للنبي الكريم ، ألا يكون على حال من الصبر كحال هذا النبي الكريم ، « يونس » عليه السلام ؟ أليس هذا صريح منطوق الآية الكريمة ؟ وهل هذا مما يَضير يونس عليه السلام ؟ وهل يُنقص ذلك من قدره فى موازين الناس ؟ وكلا ، فإنه وهو على تلك الحال كان بمنزلته العالية ، وبمقامه الكريم عند ربه ، الذي يقول سبحانه عنه : « فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » .

وثالثاً : لم يكن من محامل الآية الكريمة ، وهى تحمل إلى النبي — صلوات الله وسلامه عليه — هذا التحذير الخفى من أن يكون على مستوى النبي الكريم « داود » فى مقام الصبر — لم يكن من محاملها شىء يمس مقام هذا النبي الكريم، بل لقد حملت الآية الكريمة مع هذا ألطافاً كثيرة من عند الله إلى عبده « دواد » .. كلها تنويه به ، ورفع لقدره ، وإحسان بعد إحسان إليه ، وكفى داود شرفاً وفضلا أن يكون عبداً لله ، مضافاً إلى ذاته جل وعلا .. ثم إن فى قوله تعالى : « واذكر عبدنا أيوب» عدولاً عن اللفظ الذى يدل على الاحتراس والحذر والتجنب ، إلى اللفظ « اذكر » الذى لا يكون إلا فى مقام الإحسان وتذكر النعم . . ثم جاء بعد هذا إضافة داود إلى الله سبحانه وتعالى ، إضافةَ عبودية ، الأمر الذى لا يناله إلا المخلَصون الأصفياء من عباد الله . .

ثم جاء بعد هذا وصفه بأنه « ذو الأيد » أى القوة والصبر على ما يبتلى به من ربه من منح أو منع . . ثم أتبع هذا الوصفَ بوصف آخر ، وهو أنه « أواب » أى كثير الأوب والرجوع إلى الله ، إذا هو شعر بأنه لم يؤد لله ما يجب فى مواقع الابتلاء ، من شكر ، أو صبر . .

ثم يذكر بعد هذا ما ساق الله إليه من سوابغ رحمته المادية و لروحية معاً ، فيقول سبحانه : « إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق * والطيرَ محشورةً كل له أواب ».. فهذه هى الجبال أبرز وجوه ما على الأرض من عوالم، تستجيب له ، وتأتم به، وتسبح لله معه . . وهذه الطيور التى تبسط سلطانها فى

الجو ، تحشر إليه ـ بقدرة الله ـ من كل صوب ، . وكأنها بعض جنوده من البشر تسبّح الله معه ، وتردد ما يسبح به » . .

ثم يقول سبحانه : « وشددنا مُلكَه » أى أعطيناه ملكا ، وثبتنا له قواعده،« وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » أى إلى جانب هذا الملك المتمكن ، آتيناه نبوة ، وعلماً ، تتكشف له بهما موارد الأمور ومصادرها، فيقيمها على ميزان العدل والإحسان . . ثم يقع لداود النبي ـ وهو قائم على سياسة هذا الملك الذى بين يديه ـ يقع له ابتلاء ، فيهتز ميزان العدل فى يده ، ويجد لهذا نَخْسة فى ضميره ، فيرجع إلى الله تائباً مستغفراً ، فيلقى من ربه قبولا ومغفرة ، ويُكسى حلل الرضا والإحسان ، فيقول سبحانه : «فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسنَ مآب »

وهكذا يفعل الله لعباده المؤمنين .. يبتليهم ، ثم يعافيهم ، ليريهم مواقع رحمته بهم ، وإحسانه إليهم ، فيزدادون حمداً له ، وقرباً منه . .

الآيات : (٢١ — ٢٦)

* « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) »

داود . . وما خطيئته ؟

قلنا إن الله سبحانه وتعالى، حين دعا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الصبر، لفته ـ فى رفق ولطف ـ إلى ألا يكون كداود عليه السلام فيما ابتُلى به، فلم يكن على المستوى المطلوب منه فى مواجهة هذا الابتلاء .. وقلنا إن ذلك لا ينقص من قدر هذا النبي الكريم، وإن كان يزيد فى قدر النبي محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ويشير إلى المقام الذى يجب أن يرتفع إليه، متجاوزاً مقامَ داود عليه السلام ـ وإن كان مقاماً رفيعاً عظيما . .

والذى نريد أن نقف عنده هنا، هو : ماذا كان من داود عليه السلام، فيما ابتُلى به، مما لُفت النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى أن يذكره فى مقام الصبر، وأن يكون له من ذكره عبرة وعظة . . ؟

فماذا كان من داود عليه السلام ؟

تحدّث الآيات السابقة عن قصة حدثت لداود عليه السلام، وتذكر أن خصمين دخلا عليه مجلسه فى صورة غير مألوفة، إذ تسورا عليه السور، ولم يدخلا من المدخل الطبيعى إليه . . ففزع منهما، وتوقع الشر من دخولهما على تلك الصورة، التى يقتحمان عليه فيها مجلسه اقتحاماً، من غير استئذان، وهو

الملِك ، ذو البأس والسلطان ، الذى تقوم على حراسته الجنود ، والحجّاب . .
فبأىّ سلطان دخل عليه هذان الخصمان ؟ وكيف نفذا إليه ؟ وأين عيون الجند
والحرس ؟ إن فى ملكه إذن لخللا ، وإن فى سلطانه لثغرة يمكن أن ينفذ منها الشر إليه !!
ولكن سرعان ما يكشف الخصمان عن شخصيتهما ، فيهدّئان من روْعه ،
ويقولان له : « لا تخف » !! ومم يخاف وهو السلطان ذو البأس والقوة ؟
وهل هما إلا بعضُ رعاياه ؟ وهل يخـــــاف الراعى من رعيته ؟ وهو حصن
أمنها ، وموطن سكنها ؟ وإذا كان ثمة خوف فهو خوف الرعية من سلطانها ،
لا خوف السلطان من رعيته ! ! إن فى الأمر إذن لشيئا . ويعضى الخصمان يعرضان
أمرهما : « خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تُشطط واهدنا
إلى سواء الصراط » ! ! ويزداد داود عجباً إلى عجب ، من هذا الأمر الصادر
من الخصمين إليه : « احكم بيننا بالحق » هكذا بالأمر ! وهل يحكم بغير الحق ؟
وهل يتوقعان منه غير هذا ؟ وإذا كانا يتوقعان غير ذلك ، فهل لهما أن يصدرا
إليه هذا الأمر ؟ بل هل لهما أن يجهرا بما تحدثهما به نفسهما من جهته ؟ إن فى
الأمر لأكثر من شىء ؟ .. ثم لا يقف أمر الخصمين عند هذا الأمر الصريح لداود
بأن يكون عادلا فى حكمه بينهما ، بل إنه ليُحذّر منهما بألا يشتط فى الجور ، إن
كان لا يملك أن يعدل أو لا يحسن أن يقيم ميزان العدل مستقيما . .
« ولا تُشطط » ! !

تلك هى مقدمات القضية .. أما القضية ، فلم يرض الخصمان أن يعرضاها
إلا بعد أن اشترطا لنفسهما على داود ، أن يكون عادلا فى الحكومة بينهما ،
وألا يجور فى الحكم . . فإن قبل منهما هذا الشرط ، عرضا عليه أمرهما ،
ورضياه حَكَما بينهما ، وإلا كان لهما شأن آخر معه . . ! إن الأمر فيما يبدو هو
محاكمة لداود ، أكثر منه احتكامًا إليه ؟ .

وأعجبُ ما فى الموقف هنا، أن الخصمين يتفقان على هذا الأمر ، ويقفان موقفاً واحداً فيه، حتى لكأن كلا منهما قد وقع فى نفسه، ما وقع فى نفس صاحبه، من اتهام لداود فى عدله ! .. والقضية — كما سنرى — واضحة لا تحتاج إلى نظر دقيق فى التعرف على وجه الحق فيها .. إذ كان الظلم فيها صارخاً، يكاد يمسك بتلابيب أحدهما .. فكيف يُساغ لهذا الظالم ذلك الظلمَ الصارخ، أن يطلب العدل، وأن يتشدد فى طلبه ؟ إن فى القضية لأشياء وأشياء، تخرج بها عن مألوف ما يجرى بين الناس من قضايا ، وما يقع من خصومات.

فما القضية ؟ .

إنها قضية موجزة ، واضحة ، قد جمعها القرآن الكريم فى كلمات :

« إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجةً ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب » !! .

هذه هى القضية :

أخَوَان فى النسب ، أو فى الإنسانية ، لأحدهما تسع وتسعون نعجة ، وللآخر نعجة واحدة .. وصاحب التسع والتسعين نعجة، لا يقنع بما فى يده ، بل يمدّ عينه إلى أخيه صاحب النعجة الواحدة ، ثم لايزال به حتى يَسلبه نعجته، ويُخلى يديه من كل شىء ، حتى يصبح هو صاحبَ مائة . فيكمل بتلك النعجة مايراه نقصاً فى تمام العدد .. وإن تسعاً وتسعين عدد ناقص ، ومائة عدد كامل .. فلابد إذن أن يكملَ هذا العدد ، ولو كان بحرمان صاحب النعجة الواحدة، من نعجته .. !

وماذا يفعل صاحب القليل بقليله هذا ؟ إنه لا غَناء له فيه ، وإنه ليسدّ خللا فيما بين يدى صاحب الكثير ، ويكمل نقصاً واضحاً فيه .. فماذا عليه

لو ضاع منه هذا القليل ، ليوضع فى موضعه الذى ينتظره عند صاحب الكثير ؟ هكذا قدّر صاحب الكثير ، وهكذا أمضى حكمه فى صاحبه ! .

والظلم واضح صريح فى هذه القضية . . ولهذا بادر داود ببيان وجه الحق فيها ، على حسب ما سمع من المدعِى : فقال — معلقاً على دعواه :

« لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم » !

إن الأمر — فيما يبدو — ظلم صارخ ، وعدوان مبين . !

ولم يلتفت داود إلى الظالم ، ولم يواجهه بالحكم الذى يقتضيه الموقف ، بل عاش لحظاته تلك ، مع هذا المظلوم ، يواسيه ، ويخفف عنه مرارة الظلم الذى تجرعه من يد أخيه .. فيقول له : « وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض .. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم » .. فلستَ أنت ياصاحبى أولَ من ظُلم من معاشريه ومخالطيه . . فما أكثر بغْى الخلطاء بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء الخلطاء . . وقليل هم أولئك الذين لا يظلمون ! .

وهنا يبحث داود عن هؤلاء القليل فى الناس ، ويتفرس فى وجوههم ، ثم يلتفت إلى نفسه ، وهل هو واحد من هؤلاء القليل ؟ وهنا يطلع عليه من صفحة أعماله ما يراه غير قائم على ميزان العدل . . وسَرعان ما يرى نفسه طرفاً فى هذه القضية التى بين يديه ، وأنه يأخذ موقف المدعَى عليه فيها ، وأن هذا المدعِى إنما يقيم دعواه عليه هو ، لا على هذا الشخص الذى جاء به إليه .. إن هذا الشخص ما هو إلا المرآة التى يرى فيها داود نفسه ! .

ومن إعجاز القرآن فى هذا ، أنه لم يضع هذا المدعَى عليه موضع اتهام ،

فلم يُسأل فى هذا الادعاء المدعَى عليه به ، ولم يُوجَّه إليه أى حديث ، بل كان الحديث كله بين داود وبين صاحب الدعوى .. إذ يقول له معلقاً على دعواه : «لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه» .. وكان الموقف يقتضى أن يقول للمدعَى عليه : « لقد ظلمته بسؤال نعجته إلى نعاجك » ! . فما جوابك على هذا ؟ .

لم يكن شىء من هذا .. بل لقد ذهب الخصمان ، دون أن يفصل بينهما فيما اختصما فيه . . ويُخليان مكانهما للخصمين اللذين هما أولى منهما بهذا الموقف : داود وخصمه ، الذى تمثّل له فى خطيئته ..

وهنا يدرك داود أن هذين الخصمين ، إنما هما ابتلاء من الله سبحانه وتعالى له ، ليكشفا له عن أمر كان منه ، فيه مشابه كثيرة من هذه القضية التى بين يديه ، فيذكر هذا الأمر ، ويكون له من ذكره امتحان وابتلاء ، حيث يلتمس السبل فى تخليص نفسه مما وقع فيه ، فلا يجد إلا التوبة إلى الله ، والاستغفار لذنبه ، وهو فى ذلك المقام يتقلب على جمر من الحسرة والندم ، قد كَرَبه الكرب واستبد به الجزع على ما فرّط فى جنب الله .. إنه أعرف بربه ، وبجلاله وعظمته ، وقدرته ، وبالنعم السابغة التى أضفاها عليه ، ثم هو أعرف بما لله من غَيْرة على حرماته ، كما هو أعرف بما لله من حساب لأوليائه على صغائرهم ، وهم فى هذا المقام الكريم الذى أنزلهم فيه . .

ومن هنا كان داود فى فتنة قاسية ، وابتلاء عظيم ، بعد أن كشفت له تلك القضية عن حال من أحواله ، لا يرضاه عنه ربه ، فقامت نفسه ، وضاقت عليه الأرض بما رَحُبت .. وقد ظل هكذا فى كرب وبلاء عظيمين، يستغفر ربه، ويذرف دموع الندم، إلى أن تلقى إشارة السماء بمغفرة الله سبحانه وتعالى له ، ورضوانه عنه ، وإحسانه إليه ! !

إنها هفوة من هفوات النفس البشرية ، وهى فى حساب الناس لا تكاد تُعدّ شيئاً ، بل حق لا تحسب من اللمم المعفو عنه ، ولكنها فى مقام الأنبياء والرسل شىء عظيم ، وذنب كبير .. !

ونكاد نقف عند هذا الحد من هذه القضية ، أو القصة . فهذا ما نأخذه من آيات الله ، ودلالاتها القريبة ، دون تعسف فى التأويل ، ودون استجلاب المقولات الغريبة، التى تُحمل عليها آيات الله حملا ..

نقول ، نكاد نقف عند هذا الحدّ من تلك القضية ، وحسبنا أن نعرف مما تحدثنا به آيات الله ، أنه كان من نبى من أنبياء الله الكرام هفوة ، ثم كان له من الله سبحانه ألطاف ، فتاب إلى الله واستغفر لذنبه ، فغفر الله له ، وزاد مقامه عنده رفعة — نقول — مرة ثالثة — كنا نريد أن نقف عند هذا الحد لا نتجاوزه ، ولكنا نجد بين أيدينا ، كتب التفاسير كلها ، قد جاءت بمقولات من وراء دلالات الآيات القرآنية ، وأكثرها مأخوذ عن روايات إسرائيلية يرويها اليهود عن كتابهم الذى حرّفوه ، وألقوْا فيه بأهوائهم الفاسدة ، ومنازعهم الخبيثة ..

ثم تَوسّعَ الرواةُ والنقلة فى هذه المقولات ، وتصرفوا فيها كيف شاءوا ، ومن وراء ذلك اليهود ، يَدُسّون على المسلمين أحاديثَ عن الرسول ، يضعون لها سلسلة من الرواة الذين اشتهر عنهم الحديث عن رسول الله ، فتقع هذه الأحاديث المكذوبة من قلوب المسلمين موقعاً ، لا يجدون معه سبيلا إلى دفعها ، وإذا حصيلة هذه الأحاديث المكذوبة ، مجموعة من المتناقضات ، يدفع بعضها بعضاً ، ويكذّب بعضها بعضاً ، فلا يدرى المرء ماذا يأخذ منها وماذا يدع . وفى أكثر الأحوال ينتهى الأمر إلى الشك فيها جملة .. إذ كانت لا تتصل بالعقيدة أو الشريعة ..

وهذه قضية قد عرضنا لها فى أكثر من موضع ، وربما عرضنا لها فى دراسة خاصة ــ إذا شاء الله ــ بعد أن يعيننا الله سبحانه ، على أداء هذه المهمة التى نقوم بها فى خدمة كتابه الكريم . فإن مثل هذه الأحاديث التى تُنسب إلى الرسول الكريم ، وإن لم تكن ذات أثر فى العقيدة أو الشريعة ، فإنها تسبب إزعاجاً ، وخلخلة فى نفس المسلم إزاء الأحاديث النبوية الشريفة ، وتقيمه منها على مقام بين الشك واليقين ، فى كل ما يعرض له من أحاديث تنسب إلى الرسول .. وتلك هى جناية الأحاديث المكذوبة والملفقة على السنّة ، التى هى المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن الكريم .

ونعود فنقول :

إن الذى يدعونا إذن إلى الوقوف عند هذه القصة ــ قصة داود عليه السلام ــ هو تلك المقولات الكثيرة المتناقضة المتضاربة ، التى قيلت عن الهفوة التى كانت من هذا النبى الكريم . . ولا نريد أن نعرض هـــذه المقولات ، ونناقشها ، ونعدّل أو نجرّح فيها ، فهذا يحتاج إلى بحث طويل ، يستنفد منا جهداً نحن حريصون على ألا يكون لغير كتاب الله . .

وإذن فلن نقول هنا فى هذه الهفوة ، وفى الكشف عن وجهها إلا قولا واحداً ، نختاره من بين هذه المقولات ، لأنه أقرب شىء إلى مفهوم تلك الإشارة الخفية التى يراها الناظر بقلبه وبعقله فى الآيات الكريمة التى تحدثت عن تلك القصة .

فالآيات القرآنية ، تحدث عن أن داود عليه السلام ، قد آتاه الله سبحانه مُلكا ، وقد مكّن له فى هذا الملك — إلى جانب النبوة التى اختصه الله سبحانه بها ، لجمع الله سبحانه بهذا بين يديه السلطة الدينية والدنيوية معاً . .

هذه واحدة . .

وأخرى ، هى أن هـذا النبى الكريم ، وإن لم تكن له رسالة خاصة فى قومه ، فإن رسالته فيهم ، كانت امتداداً لرسالة موسى . فهو ـ والأمر كذلك ـ لم يكن فى رسالته إليهم إلا أن يقيمهم على الشريعة التى فى أيديهم ، وأن يحقق العدل الذى اختلت موازينه فى أيديهم . .

وهذه ثانية . .

وثالثة ، هى أن معركة هذا النبىّ وميدانها ، هو فى هذا الصراع الذى يقوم بين السلطتين اللتين فى يديه . . سلطة الدين الذى يمثل سلطان الله الذى وضعه فى يده بمنصب النبوة ، وسلطة الدنيا التى تتمثل فى هذا الملك الذى يقوم عليه . .

ومن هنا كان عَلَى داود ـ عليه السلام ـ أن يمسك ميزان العدل فى يديه ، وأن يقيمه بالقسط ، فلا يميل ولا ينحرف . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق » الآية . .

ورابعة . . وهى أن إقامة هذا الميزان على حال سوىّ متوازن دائما ، أمر لا تكاد تحتمله طاقة البشر ، فقد يكون فى طاقة الإنسان أن يعمل للدنيا وحده ، فلا يعطى للدين ولا للآخرة شيئاً . . وقد يكون فى طاقته أن يعمل للدين وحده ، فلا يعطى الدنيا من نفسه شيئاً .. هذا وذلك أمران ممكنان .. وممكن كذلك ، أن يجمع الإنسان بين السلطان فى الدنيا ، والعمل للآخرة . . وذلك بأن يعمل للآخرة ، وأن يمسك بطرف من السلطان الدنيوى أو أن يعمل للدنيا ، ويمسك بطرف من الآخرة . . أما أن يجمع بين الدين والدنيا هذا الجمع المتوازن ، المستقيم على خط هندسى . . فهذا هو الذى لا يمكن أبداً . .

وننظر إلى داود ـ عليه السلام ـ فى موقفه هذا :

إنه سلطان ، يملك دنيا عريضة . . ولهذه الدنيا إغراؤها ، وشهواتها . .
وإنه نبي كريم . وللنبوة خطرها ، وجلالها ، وسموّها . .

والمطلوب منه هنا ، هو أن يجمع بين السماء والأرض . . أن يلبس الملك والنبوة معاً . . فلا يُرى فى حال من أحواله إلا ملكا نبيًّا ، أو نبيًّا ملِكا . .
إنه ملك من عند الله ، ونبيّ من عند الله ، يسوس الملك بالنبوة ، ويؤيد النبوةَ بالملك ! . .

ولا شك أن هذا فضل عظيم ، ولكنه ابتلاء عظيم أيضاً ، ولهذا كان هذا الإلفات السماوىّ لداود ، أن يأخذ حِذره ، إذ يقول له الحق جل وعلا : « ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . . إن الذين يَضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » . ولهذا أيضاً كان تقبل الله سبحانه لداود ، وتجاوزه عن ذنبه ، إذ كان إنما حمل أمراً عظيما ، تغتفر له فيه الهِنات ، وتقال فيه العثرات !

فما هى هفوة هذا النبيّ الكريم ، وما هى عثرته ؟

إنها ـ والله أعلم ـ ملفقة فى سُتُر من ألطاف الله ورحمته ، فيما كان من تلك القضية التى عرضها عليه الخصمان : « خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصرط * إن هـذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزّنى فى الخطاب » .

إن القضية تمثل صراعاً بين قوىّ وضعيف . . بين من يملك الكثير الكثير ، ومن لا يملك إلا القليل القليل . . بين صاحب سلطان يعتز بسلطانه ، ويُمضى الأمور بكلمة تصدر من فمه ، وبين من لا يملك الكلمة يقولها أمام هذا السلطان ! . .

وداود ـ عليه السلام ـ يمثل السلطان فى أعزّ مكان ، وأقوى سلطان . .
وبكلمة منه إلى أحد رعاياه نزل له هذا الرعيةُ عن شىء — هو أعز ما يملك — كانت نفس داود قد مالت إليه ، ورغبت فيه . ولم يستطع هذا « الرعية » أن يقول : لا . . توقيراً وهيبة ، أو خوفاً وإشفاقاً . .

وفى قوله تعالى : « وعزنى فى الخطاب » ـ إشارة إلى أن كلمة « داود » كانت حكما قاطعاً ، وقضاء نازلا ، لم يستطع له هذا « الرعية » ردًّا .

يقال : عز فلان ، أى صار ذا عزة ، وعز فلان فلانا ، أى غلبه .

وفى المثل . « من عزّ بزّ » أى من قوى ، غلب وسلب !

وماذا أخذ « داود » من هذا الإنسان ؟

إنه شىء ما ، عزيز على هذا الإنسان ، مستغنٍ به . . قد يكون فرساً ، يضمه داود إلى مقتنياته من جياد الخيل . . وقد يكون مزرعة بين مزارع داود . . وليس من الحتم أن يكون امرأة ، كما ذهب إلى ذلك أكثر المفسرين ، مستندين فى هذا إلى ماجاء فى قضية الخصمين ، وإلى أن النزاع كان بينهما على « نعجة » . . والنعجة تطلق فى لسان العرب على المرأة ! ! ولو سلمنا بهذا ، لكان لنا أن نقول ، إن هذا مَثَل ، تُراد دلالته ، ولا تراد صورته . . فلو ذهبنا نأخذ صورة المثل هنا ، لكان من الحتم أن يكون لداود تسع وتسعون امرأة . . وهذه الكثرة فى النساء ، إن فرض التسليم بها ، فلم يوقفها عند هذه العدد بالذات ؟ . ولم لا تزيد أو تنقص ؟

إن دلالة التسع والتسعين — كما قلنا — هى دلالة على أمرين :

أولا : كثرة الشىء ووفرته . .

وثانيا : نقص هذه الكثرة ، وحاجتها لشىء يبلُغ به تمامَها ، حتى تكون مائة ! .

هذه هىَ القصة أو القضية . . وقد أُدين فيها داود ، أُدان نفسه وحكم عليها بهذا اللوم الصارخ ، وهذا الاستغفار الدائب ، والضراعة السابحة فى دموع الندم . . ولعل هذا الصوت الشجى ، المحمّل بزفرات الحسرة ، ونشيج الحرقة ، الذى كان يسبّح به داود ، ويتلو به آيات الزبور ، على أنغام مزاميره ، فتهتز له الجبال ، وتصغى إليه الطير — لعل هذا الصوتَ كان من مواليد هذه المحنة ، التى ولدت لداود أكثر من مولود ، ورفدته بأكثر من عطاء من عطايا الله ومِنَنِه . .

أمّا ما تقول به التوارة ، وما تلقاه عنهم المفسّرون ، ودعموه بالأحاديث من أن داود قد وقع فى حب امرأةِ قائد من قواد جيشه اسمه « أوريا » وأنه أراد أن يستخلص المرأة لنفسه ، بعد أن رآها من قصره وهى تستحم فى فى دارها القائمة تحت قصره ، أو وهى تمشط شعرها — فكان من تدبيره لهذا أن بعث بهذا القائد فى مهمة حربية ، وجعله فى مواجهة الموت الراصد له هناك . . فلما قتل فى المعركة تزوج داود امرأته — فهذا قول فيه جرأة على مقام هذا النبى ، الأمر الذى كان لا يتورع عنه اليهود مع أنبياء الله ، أحياء وأمواتاً ، أو قتلَى بأيديهم ، فضلا عن أن هذا العمل المشين مدفوع بأكثر من دفع ، على حسب ما جاء فى القرآن الكريم ، منطوقاً ومفهوماً ، كما رأينا . .

الآيات : (٢٧ — ٢٩)

* « وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٢٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وما خَلَقنَا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظنُّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النّار » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة ، قد ذَكرت داود عليه السلام ، وأشارت إلى أن شيئاً مّا ، من العدوان على غيره ، قد وقع منه .. وأنه — وقد كان خليفةَ الله فى الأرض — فإن الله سبحانه لم يدعه يذهب بما فعل ، بل أوقفه موقف الحساب والمساءلة ، وبعث إليه من يهجم عليه وهو فى محراب مُلكه ، وعلى كرسى سلطانه ، وأن يجد نفسه بين هذين الخصمين اللذين تسوّرا عليه محرابه ، وآتياه من عَلٍ ، وهو فى قبضة الفَزَع والاضطراب ، لا يجد من قوة سلطانه شيئاً يردّ عنه ما حلّ به . إنه قصاص للرعية ، وبيد الرعية ، من هذا الراعى .. وهذا حسابه مع الناس . أما حسابه مع الله ، فقد أدى ثمن هذا العدوان ، بكاء وعويلا ، وسهراً طويلا ..

هكذا سنة الله فى خلقه ، وحكمه بين عباده ، فكما لا يظلمهم ربهم شيئاً ، كذلك جعل الظلم محرّماً بينهم ، فمن ظُلم اقتصّ الله له من ظالمه ، فى الدنيا وفى الآخرة . وفى الحديث القدسى : « يا عبادى حرّمت الظلم على نفسى ، وقد حرمته عليكم .. فلا تَظَالَمُوا »

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ثم بُغِىَ عليه لينصرنّه الله إن الله لعفوٌّ غفور » (٦٠ : الحج) ..

وعلى هذا نجد الصلة وثيقة بين قوله تعالى : « وما خلقنا السماء والأرضَ وما بينهما باطلا ذلك ظَنُّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » وبين الآيات السابقة عليها ، التى تضمنت هذه القضية التى وُضع فيها نبىٌّ من أنبياء الله موضع المحاسبة والمساءلة على ما كان منه من عدوان على أحد رعاياه .. فالله سبحانه وتعالى خالق السموات والأرض وما بينهما بالحق ، وأقامهما على ميزانه ، ولم يخلقهما باطلا ، حتى يسمح للباطل أن يسكن إليهما ، ويعيش فيهما .. بل إن الحق ليمسك بكل ذرة من ذرات هذا الوجود ، وإنه ليس فى كائنات الوجود من ينحرف عن طريق الحق إلاّ الإنسان ، لماله من إرادة ، تصدر عن تفكير وتقدير .

وهذا الانحراف ، لا يدوم أبداً .. فما هى إلا لحظة عابرة من لحظات الزمن الأبدى ، يضطرب فيها ميزان العدل بين الناس ، ثم يعود هذا الميزان إلى توازنه ، فيُوفّى كلُّ إنسان جزاء عمله يوم الجزاء : « لا ظلم اليومَ إن الله سريع الحساب » (١٧ : غافر) .

وقوله تعالى : « ذلك ظن الذين كفروا » الإشارة هنا إلى خلق السموات والأرض وما بينهما ، أى أن الله سبحانه ماخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ، ولكن الذين كفروا لا يؤمنون بهذه الحقيقة ، بل يعيشون فى أوهام وظنون وراء هذا الحق الذى تنطق به آيات الله .. فلو كانوا يؤمنون بالله لآمنوا بهذه الحقيقة ، ولاستيقنوا أن الله هو الحق ، وأن الحق لا يكون من صنعته إلا ما هو حق ، وأنهم إذا ظلموا لن يُتركوا وشأنَهم ، بل سيحاسبون ويعاقبون ، وفى كفرهم بالله ظلم عظيم ، يلقون عليه أشد

العذاب . . وهـذا ما يشـير إليه قوله تعالى : « فويـل للذين كفروا من النـار » .

قوله تعالى :

* « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار »

أى أحسب الذين كفروا أننا نسوى بين الأخيار والأشرار ، وأن نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، كالمفسدين فى الأرض ، الذين كفروا بالله ، وعصوا رسله ، وآذوا خلقه ؟ ذلك مالا يتفق مع الحق الذى أقام الله عليه خلقه، والذى به خلق السموات والأرض .

قوله تعالى :

* « كتاب أنزلنا إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب »

أى هذا كتاب أنزلناه إليك « مبارك » أى فيه البركة التى تنال كل من يلقاه ، ويتلقى منه الحكمة والموعظة الحسنة ، فيتدبر آياته ، ويستضىء بأضوائه ويهتدى بهديه . . ومناسبة هذه الآية لما قبلها . . أن الآيتين السابقتين عليها كانتا بياناً لحقيقة هذا الوجود ، وأنه قائم على ميزان الحق والعدل ، وأن الذين ينحرفون عن طريق الحق والعدل سيلقون سوء العذاب . . وهذه الآية ، هى دعوة إلى كل من يلتمس طريق الحق ، ويطلب النجاة لنفسه من عذاب الله . . وليس غيرُ كتاب الله هادياً يهدى إلى الحق . . فمن التمس الهدى فى غيره ضلّ، ومن جاوز حدوده هلك . .

الآيات : (٣٠ — ٤٠)

« وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) »

[سليمان . . وشمسه . . والجَسَد الملقىَ على كرسيّه]

التفسير :

قوله تعالى :

* « ووهبنا لداود سليمان . . نعم العبد . . إنه أواب »

الواو للاستئناف ، وعطف حَدَث على حدث . . أو هى للعطف على قوله تعالى : « فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسنَ مآب » . . أى فغفرنا لداود ما كان منه ، ووهبنا له سليمان . . ويكون مابين المتعاطفين اعتراضاً ، يُراد به التعقيب على القصة ، والإلفات اليها ، والوقوف موقف التأمل عندها .

وأيًّا ما كان ، فإن ذِكر سليمان هنا ، وأنه مما وهبه الله لداود ، هو مما يشير إلى فضل الله سبحانه ، وإحسانِه إلى عبده داود ، بعد خطيئته ، واستغفاره وندمه، وقبول الله توبته. وهكذا يبتلى الله سبحانه المصطفيْن من عباده بما يبتليهم به من مكروه ، ثم يخرجهم من هذا المكروه ، أصفى جوهراً ، وأضوأ نوراً ، وأكثر إشراقاً وألقاً . وأن سليمان هذا ، إنما هو هبة من هبات الله العظيمة ، وعطاء من عطاياه الجليلة المسوقة إلى عبد من عباده المحسنين، بعد هذا الابتلاء العظيم، وبعد تلك المحنة القاسية . .

وفى قوله تعالى : « نعم العبد » ثناء عظيم من المولى سبحانه وتعالى ، على سليمان ، وعلى داود أيضاً ، إذ كان ذلك الابن هبةً له من ربه . .

وقوله تعالى . « إنه أواب » إشارة إلى أنه كثير الأوب والرجوع إلى الله وأنه مع الملك العظيم الذى جعله الله بين يديه ، كان على صلة وثيقة بربه . . فلم يقطعه الملك عن ذكر ربه ، بل إنه كلما كانت له نظرة إلى ملكه كانت له إلى ربه نظرات . .

وفى وصف سليمان بالصفة التى وصف بها أبوه داود ، وهى « الأواب » إشارة إلى أنهما على درجة واحدة من الاتصال بربهم ، والرجوع إليه دائماً . . ثم إنه إشارة أخرى إلى أن سليمان سيقع منه ما وقع لأبيه من فتنة وابتلاء، ثم من استغفار وندم ، ثم من توبة وقبول من الله ، وعطاء جزل عظيم، بعد هذا القبول والرضا من رب العالمين . .

قوله تعالى :

« إذ عُرِض عليه بالعشىّ الصافنات الجياد * فقال إنى أحببت حبَّ الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب »

« إذ » ظرف يبيّن حالا من أحوال سليمان فى أوْبه إلى الله . . أى ومن أوبه إلى الله ورجوعه إليه ، موقفُه هذا الذى كان منه حين عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد . .

والصافنات : الخيل الواقفة على ثلاث قوائم ، على حين تكون الرابعة قائمة على حرف الحافر . . وهذا من علامات الكَرَم والأصالة فى الخيل . . أما ذوات الحافر الأخرى ، كالحمير والخيل غير الكريمة ، فإنها تقف على قوائمها الأربعة ، متمكنة من الأرض على سواء . . يقول عمرو بن كلثوم فى معلقته ، يصف كرام الخيل التى يقتنونها ، ويحاربون عليها :

وسيّدِ معشر قد توّجوه بتاج الملك يحمى المحجَرينا
تركنا الخيل عاكفةً عليه مقلّدةً أعنّتَها صُفُونا

والجياد : جمع جواد ، وهو اسم غلب على الذكر من الخيل . . وأصله من الجودة . . والخير : هو الخيل . . وتسمى الخيل خيراً ، لأنها مظهر من مظاهر النعمة ، حيث لا يملكها إلا أصحاب الثراء والجاه ، فحيث كانت الخيل كان الخير معها . . وفى الحديث : « الخيل معقود بنواصيها الخير »

والآيتان الكريمان تحدثان عن حال من أحوال سليمان ، وموقفه من الاشتغال بملكه وذكره لربه . .

فهو ـ عليه السلام ـ إذ يستعرض الخيل ، كبعضٍ من سلطانه الذى بين يديه ، أو كنعمة من نعم الملك الذى آتاه الله ـ إنه إذ يفعل هذا ، وإذ يرى كثرة هذه الخيل المجراة بين يديه ، بسُرُجها ، ولجُمُها ، يستعظم هذه النعمة ، ويرى أنها شىء كثير ، ما كان له أن يستكثر منه إلى هذا الحد ، وأن يحفل به إلى هذا المدى ، وأنه لو استكثر من ذكر الله ، وأعطى لهذا الذكر ذلك المجهود الذى بذله ، فى انتقاء هذه الخيل ، وفى استجلاب كرائمها من كل أفق ـ لو أنه فعل هذا لكان أولى ، وأجدى . .

ولهذا ، فإنه عليه السلام ، ما إن يرى هذه الخيل تطلع عليه فى جمالها ورُوائها وروعة منظرها ، حتى يَلْقَى نفسَه بهذا اللوم : « إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى » ! أى لقد آثرت حبّ الخير الدنيوى ، على ذكر ربى .. فهذا الحب للخيل ، هو شهوة متمكنة فى النفس ، وهو فتنة من فتن الدنيا ، كما يقول سبحانه : « زين للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث . . ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » . والخيل فى ذاتها؛ شهوة كشهوة المال ، ولها فى النفوس موقع لا يعرفه إلا من عرف الخيل وشغف بها ، وخاصة فى حياة البادية ، التى تُرى الخيلُ فيها وجهاً من وجوه الجمال والحسن ، فى هذه المواقع الجدبة المكفهرة التى لا يلمح فيها الحسن إلا لمحات خاطفة . .

وهذا ما تحدثنا به الحياة العربية ـ وخاصة فى الجاهلية ـ وما كان للخيل فيها من عُلْقَةٍ بالنفوس ، وهوًى فى الأفئدة ، حتى لقد عرفت الخيل بأسمائها ، كما يعرف الأبطال ، ومشاهير الفرسان . وحتى لقد كان للخيل أنساب كأنساب القبائل والعشائر ، وحتى لقد وسعت اللغة العربية من الكلمات فى أوصاف الخيل ، وفى وصف كل عضو من أعضائها ، وكل شِيَةٍ من شياتها ـ مالم يكن يجتمع لشىء آخر غيرها من حيوان أو إنسان . . ولهذه العناية العظيمة بشأن الخيل عند العرب والاحتفاء بها ، كان ذلك النتاج العربى من كرائم الخيل وأصائلها ، والتى لا تزال محتفظة بمكانها فيه ، فوق عالم الخيل إلى اليوم .

وفى الشعر العربى ديوان كبير ، يتمدح فيه الشعراء بالخيل ، ويفتنون بها ، ويكشفون عن مشاعرها ، وأحاسيسها فى الحرب ، وفى السلم . . كما نرى فى شعر عنترة ، وعمرو بن كلثوم ، وامرىء القيس . . وغيرهم . .

يُروى أن عربياً كان يملك فرساً اسمها « سَكَابِ » وكانت من كرائم

الخيل . . وقد سامه أحد أصحاب السلطان أن يشتريها منه ، أو أن يهبها له ، إن ضنّ ببيعها ، وارتفع بقدرها عن أن تنزل منازل السلع ، فلم يجد العربى بدًّا من أن يدفع هذا المكروه ، متلطفاً متوسلا بقصيدة يقول فيها .

أَبَيْتَ اللعن إن سَكَابِ عِلْقٌ نفيس لا يُعارُ ولا يباعُ
مفـداة مكرمة علينـا يُجاعُ لها العيال ولا تُجاعُ !

فحبُّ سليمان عليه السلام للخيل ، هو من هذا الحبّ ، خاصة وهو مولود فى بيت ملك ، تربّى من صغره على الفروسية . .

ونعود إلى القصة فنقول : إن سليمان ــ عليه السلام ــ إذ يقول هذا القول : « إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى » . إنما هو مراودة بينه وبين نفسه ، وخاطر من خطرات اللوم يدفع بها الزهو والعُجب عنه ، وهو مواجهة هذه الفتنة ، ثم هو مع هذا يمضى فيما هو فيه ، ولا يقطع مراسم هذا الحفل العظيم الذى احتشد له رؤساء القوم وسادتهم فى هذا الاستعراض العظيم لجيشه مشاة وفرساناً . . وإنه لا بأس من أن يمضى فيما هو فيه الآن ، ثم ليكن له بعد هذا حساب مع نفسه ، وتدبير فيما يكون منه فى شأن هذه الخيل وغيرها ، مما يشغل منه وقتاً يقطعه فترات عن ذكر الله ، بالاشتغال بهذا المتاع . .

وهكذا ظل ــ عليه السلام ــ يستعرض الخيل ، حتى دخل الظلام ، فتوارت عن نظره بالحجاب ، أى حجاب الظلام . . فلم يعد يرى ملامحها ، ويتحقق من شياتها ، وما ينكشف لعينيه من أعضائها ، التى تعطِى الصفةَ الملاءمة لكل جواد منها . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « حتى توارت بالحجاب » أى أنه ــ عليه السلام ــ مازال ينظر إليها ، ويستعرض بعينه تناسبَ أعضائها ، وتناسق بنائها ، حتى توارت عنه بهذا الحجاب الذى أرخاه الليل عليها ، إذ أنّ عَرْضَها

عليه قد كان فى أخريات النهار ، كما يقول الله تعالى : « إذ عُرض عليه بالعشىّ الصافنات الجياد » . .

هذا ، ولم يكن ـ عليه السلام ـ قد فرغ من الأمر الذى قصد إليه من هذا العرض للخيل ، وهذا هو حجاب الظلام يحول بينه وبين تفرسها بعينيه ، إذ كان العرض فى أخريات النهار بالعشى . . فماذا يفعل ؟

لقد أراد القائمون على أمر هذا الاستعراض من حاشيته ، أن يؤجّلوا ذلك إلى يوم آخر ، وأن يذهبوا ببقية الخيل التى لم تُعرض إلى مرابطها . . وربما همّ الرجال بهذا فعلا، بل وربما مضوا فى تنفيذه ـ بعد أخذ موافقته ضرورةً ـ ولكن سرعان ما بدا له أن ينتهى من هذا الاستعراض فى مجلسه هذا ، حتى لا يعود إلى هذه الفتنة من غد . . فقال وقد أخذت الخيل طريقها إلى مرابطها : « ردّوها علىّ ! » فلما ردت إليه ، أخذ يتحسسها سريعاً بيديه ، بالمسح بيديه على سوقها وأعناقها « فطفق مسحاً بالسوق والأعناق » . . وأعراف الخيل ، وأرجلها ــ وخاصة سيقانها ــ هى المواضع التى تنمّ عنها ، وتحدّث عن مكانها من الأصالة والجودة . . وفى هذا يقول امرؤ القيس فى وصف جواده :

له أيطلا ظبى وساقا نعامة وإرخاء سَرْحان وتقريب تتفُلِ

والأيطل : الكفل ، وهو أعلى الفخذ . . والسرحان الذئب ، والتتفل : ولد الظبى .

فامرؤ القيس يصف ساق جواده بالضمور ، وعدم الامتلاء ، ويشبهه بساق النعامة فى دقته ، وتجرده من اللحم . على حين يشبّه كَفَله بكفل الظبى فى الامتلاء باللحم . . !

ونلخص مضمون القصة فنقول :

إن سليمان ـ عليه السلام ـ استعرض ما يملك من خيل ، وكان ذلك فى أخريات النهار ، فلما طلعت عليه ، هالته كثرتُها ، وكثرة ماتتزين به من سروج وقلائد ، ولُجُمُ ، فوقع فى نفسه، أن هذا حصيلة جهد كبير ، بذله فى هذا الوجه ، وأنه كان الأولى به أن يصرف جهده هذا فى ذكر الله . .

وقد حدثته نفسه أن يردّ الخيل على أعقابها ، وأن يُلغى هذا الاحتفال ، ولكن وجد أن ذلك قد يثير كثيراً من الأقاويل والشائعات ، وأنه ربما يبلغ أعداءه عنه أنه انصرف عن اقتناء الخيل أو زهد فيها ، وهى أقوى عدد الحرب يومئذ ، فتحدثهم أنفسهم بحربه ، ويجدون الجرأة على قتاله ، فرأى لهذا أولغيره أن يمضى فيما هو فيه ، وكان الليل قد أرخى حجابه قبل أن يفرغ من استعراض الخيل ، وكان من التدبير أن يؤجل بقية العرض إلى يوم آخر ، ولكنه ـ لأمرٍ دبره لنفسه ـ رأى أن يفرغ من هذا العرض ، وأن يستعمل يديه فى التعرف على الجياد من هذه الخيل ، وذلك بإمرار يديه على المواضع التى تدل على الجودة أو الرداءة منها ، كل ذلك فى سرعة نراها فى قوله تعالى : « فطفق » الذى يدل على الاستمرار مع التدفق والجَرَيان للفعل .

أما الأمر الذى دبره سليمان عليه السلام فى نفسه بإنهاء هذا العرض فى هذا المجلس ، فهو أن يأخذ نفسه بسياسة غير تلك السياسة التى كان يصرف فيها هذا الجهد باقتناء الخيل ، والاحتفاء بها ، وأن يجعل ذِكر الله همّه وأن يفرغ فيه جهده ، وأن يستغفر لما كان منه من تقصير أو تفريط فى جانب ذكره لربه . .

هذه هى قصة الخيل . . ولها ذيول سنعرض لها فيما بعد .. بعد أن نفرغ من قصة الكرسى والجسد الملقى عليه ..

قوله تعالى :

* « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً .. ثم أناب » ..

هذه الآية هى إشارة إلى هذه الفتنة التى فُتن بها سليمان ، وهو اشتغاله بهذا المتاع من الخيل ، وحشد هـــذا الجهد منه ومن حاشيته ، ورعيته فى سبيله ..

ففى قوله تعالى : « وألقينا على كرسيه جسداً » — إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى قد فتنه بهذا المتاع الكثير ، الذى ساقه إليه .. وأن هذا المتاع كان عبئاً ثقيلا على « كرسيه » أى سلطانه ، الذى كان ينبغى أن يكون مكانُ النبوة فيه أبرزَ وأظهر من مقام الملك .. وهذا هو السر فى كلمة « جسداً » الذى يمثل المتاع الدنيوى الذى يضمه هذا الملك .. إن كرسى سليمان قد ثقل فيه ميزان الملك ، وكاد يجور على المكان الذى ينبغى أن يكون للنبوة فيه ، الحظُّ الأوفر ، والنصيب الأوفى !.

ويجوز أن يكون قوله تعالى : «وألقينا على كرسيه جسداً » بمعنى وألقيناه على كرسيه جسداً ، فيكون جسداً حال ، بمعنى كائناً جسداً . . على حين أن روحه قد زايله فى تلك الحال ، فرأى ـ من عالم روحه ـ وجودَه الجسدى قائماً على الكرسى ، ملتصقاً به .. وهذا ما يعرف فى الروحية الحديثة باسم « الطرح الروحى » حيث تستطيع بعض الأرواح أن تنفصل عن أجسادها فى حال اليقظة ، فيرى الإنسان بروحه عوالم كثيرة بعيدة ، ويشهد من وراء حجب المادة الكثيفة مايشهده عن قرب وعِيان . . ومما يشهده فى حاله تلك ، وجودُه الجسدى .

وقد يكون سليمان ـ عليه السلام ـ رأى فى حال من أحوال الطرح الروحى ، ذاتَه الجسدية على كرسى ملكه ، على حين رأى ذاته الروحية بعيدة

عن هذا الكرسى ، فأنكر مقامه على هذا الكرسى وهو على تلك الحال التى انفصلت فيها أو كادت تنفصل عنه النبوة ! .

ولقد لفتنى إلى هذا المعنى الأستاذ العالم الأديب محمد شاهين حمزة ، الذى يُنفق من ذخائر علمه ويَسْعَى بها إلى طلاب العلم ، حاملا عنهم مشقة الطلب والسعى . . فجزاه الله عن العلم وأهله خير ما يجزى العاملين العاملين .

وفى قوله تعالى : « ثم أناب » ـ إشارة إلى معطوف عليه محذوف .

تقديره : فَشُغِل سليمان وقتاً ما بهذا المتاع أى (الجسد) الذى ألقى على كرسيه . . « ثم أناب » . .

أى رجع إلى ربه ، وصحح هذا الوضع الذى صار إليه « كرسيه » . . فأفسح للنبوة فيه مكانها ، وأعطاها كل حقها . .

واقرأ الآية الكريمة : « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب » .

تجد مفهوماً واضحاً لكلمات الله على هذا التأويل الذى تأولناها عليه . . ثم نجد للعطف « بثم » مكاناً مكينا فى الآية ، حيث أن هذه الإنابة قد جاءت متراخية زمناً ما ، كان لا بد منها لجمع هذه الأعداد الكثيرة من أصايل الخيل وجيادها ، وما يتصل بها من عُدد وفرسان . .

قوله تعالى :

* « قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب » . .

هو بيان لإنابة سليمان إلى ربه ، وأن إنابته هى قوله : « رب اغفر لى

وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب » ـ ولهذا لم يفصل بين الفعلين « أناب » « وقال » بفاصلٍ ما، من حرف عطف، أو نحوه . .

وقد قَرَن سليمان فى إنابته إلى الله سبحانه ـ قرن طلبَ المغفرة بهبة هذا الملك الذى لا يكون لأحد من بعده ! وفى هذا ما يشير فى وضوح إلى أن ما طلبه من أن يهب الله له هذا الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده ـ فيه إشارة واضحة إلى أن هذا هو ما يصحح إنابته إلى ربه، ويجعلها إنابة سليمة، خالية من كل معوق يعوقها عن الله !

فكيف هذا ؟ وهل بهذا الملك العجيب الذى لا يملكه أحد من بعده يكون أقربَ إلى الله منه وهو على كرسى مُلكه الذى هبت عليه منه ريح الفتنة ؟ وهل كان ما كان منه من اشتغال ـ أكثر مما ينبغى ـ عن ذكر ربّه، إلا من الملك، وسلطان الملك وما يحف به من شهوات ؟

فكيف يكون طلب هذا الملك الذى لم يكن لأحد غيره ـ إنابةً ورجوعاً إلى الله، وتخففاً من الاشتغال بالملك ؟

ندع هذا الآن . . وننظر فيما أجاب به الله سبحانه وتعالى هذا الطلب . .

يقول الله تعالى :

« فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب * والشياطينَ كلَّ بنّاء وغواص * وآخرين مقرنين فى الأصفاد * هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب * وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب »

هذا هو ما أجاب به الله سبحانه، سليمان فيما سأل . . وقد جاءت الإجابة

فى غير مَهَل . . دعاء فإجابة . . وهذا يدل على ذلك الرضا العظيم من الله سبحانه عند عن هـذا الذى أقبل عليه بقلب سليم ، منيباً إليه ، طامعاً فى رحمته ومغفرته !

ولابد من وقفة هنا :

فأولا : لقد أقام الله سبحانه سليمان فى منصب الملك ، كما أقامه فى منصب النبوة . . فهو ــ بتكليف من الله سبحانه ــ ملِك ونبىّ معاً . .

وثانياً : لقد جرب سليمان الحياة مع الملك والنبوة ، فوجد سلطان الملك يكاد يطغى على مقام النبوة . . ولقد رأى رأى العين كيف شغلته الخيل عن أن يؤدى للنبوة حقها ، وأن يذكر الله ذكر الأنبياء ، ووقف من نفسه موقف اللائم المؤنب ، فيقول لها : « إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى » !

وثالثاً : بعد هذا العرض للخيل الذى رأى فيه سليمان وجه الفتنة كالحاً مخيفاً ، يهجم على نبوته ويكاد يحتويها ، رأى فى هذا الملك خطراً يتهدد نبوّته إن هو ظل قائماً عليه ، ممسكا به ، ثم رأى ــ من جهة أخرى ــ أنه ملك من قِبل الله ، كما هو نبىّ من عند الله ، وأنه لا سبيل له أن يخلى يده من هذا الملك . . إنه ملك ونبىّ معاً . .

ورابعاً : لابد إذن أن يكون سليمان ملكا ، وقد رأى ما يسوق إليه الملك من فتنة . . فليكن إذن ملكا ، ولكن ليكن هذا الملك على صورة غير هذا الملك الذى تجىء منه الفتن . !

وخامساً : فى طلب سليمان تغيير صفة هذا الملك ، نراه يقول : « هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى » . . إنه ملك ، ولكنه على غير ما يملك

الملوك ، مما على هذه الأرض .. إنه مُلك لا تجىء منه هذه الفتن التي ، لا يملك دفعها الملوك ، حتى الأنبياء . . !

وأين هذا الملك الذى يكون على هذه الصفة ؟ ..

إن سليمان لا يعرفه ، ولهـذا طلب إلى الله سبحانه أن يهبه إياه ، وهو سبحانه لا يُعجزه شىء ، وهو سبحانه « وهاب » لا تقف هِباته عند حدود أو قيود ! « إنك أنت الوهاب » .

وسادساً : وجاء الملك الذى طلب سليمان ! : « فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب * والشياطينَ كل بنـاء وغواص * وآخرين مقرنين فى الأصفاد » ..

هذا هو مُلك سليمان الجديد . . وهو ملك عجيب حقاً . . إنه ليس جسداً . وليس فيه من عالم الجسد شىء .. ريحٌ يمتطيها كما يمتطى الخيل . ، وهى مطاياه التى أقامها الله سبحانه وتعالى له مقامُ الخيل بعد أن زهد فيها ، وصرف نفسه عنها ابتغاء مرضاة الله .. فـكان الجزاء الحسن من جنس العمل الحسن . . أضعافاً مضاعفة .

ثم كان جنود من عالم الجن ، يعملون له بدلا من عالم الإنس .. ! وإذن فلا التفاتَ إلى الخيل ، وما يتصل بها . . ولا التفات إلى الناس ، وإلى ماقد يقع عليهم من ظلم ، فيما يقيم به دعائم الملك ، من قلاع ، وحصون ، وقصور ! . .

فالريح تنقله إلى حيث يشاء ، بلا خدم ، ولا حشم ، ولا حرس ..

والجن . . « يعملون له ما يشاء . من محاريبَ وتماثيلَ وجفانٍ كالجواب وقدورٍ راسياتٍ » ! !

وبهذا خرج سليمان من سلطان هذا الملك الذى يُفتنُ به الملوك ، وقام على مُلك لا تخلصُ إليه منه فتنة . . !! أو بمعنى آخر ، لقد صُفِّيَ ملكهُ من تلك الشوائب التى تجىء منها الفتن ، بما وضع الله سبحانه وتعالى فى يديه من قوًى يستغنى بها عما يكلف به الملوك رعاياهم ، وما يحملونهم عليه من أمور ، يحققون بها أبهة سلطانهم ، ويقيمون عليها عظمة ملكهم ، فيكون الظلم والقهر والاستبداد . .

* * *

هذه هى قصة سليمان ، على هذا التأويل الذى تأولنا عليه آيات الله ، التى عَرَضت لهذه القصة . . وهو تأويل ، نرجو أن يكون — بتوفيق الله — أقربَ إلى الصواب ، وأدنى إلى موقع الحق . . فإننا لم نر أحداً من المفسرين — فيما بين أيدينا من أمهات كتب التفسير — قد تأول الآيات هذا التأويل ، وأقامها على هذا الوجه . .

* * *

وإنه لا بأس من أن نعرض هنا بعضاً من وجوه التأويل التى ذهب إليها المفسرون ، حتى ينكشف وجه الخلاف ، ويكون للناظر فى تفسيرنا هذا أن يأخذ به ، أو يأخذ ما يشاء من تلك المقولات :

فأولا : يذهب أكثر المفسرين لقوله تعالى : « حتى توارت بالحجاب » يذهبون إلى أن الضمير فى « توارت » يعود إلى الشمس ، وأن سليمان عليه السلام ، شُغِل باستعراض الخيل ، حتى توارت الشمس فى مغربها . . فلما غربت الشمس تنبهَ إلى أن وقت الصلاة قد فاته ، فوقع فى نفسه الندم على هذا

التفريط فى جَنْب الله ، وقال ناعياً على نفسه هذا الذى كان منه : « إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب » ! !

ثم يختلف المفسّرون بعد هذا فى : هل كانت هذه الخيل خيلَ زينة ، فيكون سليمان بهذا مقصراً فى حق الله ؟ أم أنها كانت خيلا يُعدّها للجهاد فى سبيل الله ، فلا يكون ذلك محل لوم ، كما حدث للمسلمين يوم أحد ، حين فاتتهم صلاة العصر ..

وثانياً : يذهب المفسرون لقوله تعالى : « ردّوها علىّ » إلى أن هذا أمر من سليمان إلى الشمس أن تعود من حيث غربت ، فتظهر له على الأفق الغربى من جديد ، حتى يؤدى الصلاة التى فاتته ، فى وقتها . .

ثم يختلف المفسرون فى هذا الأمر ، وهل كان متجهاً به إلى الله ، وأن ضمير الجمع للتعظيم ، أم أنه أمر اتجه به إلى أعوانه وأتباعه كاللائم لهم أن لم ينبهوه إلى وقت الصلاة ، وأن عليهم — وقد قصّروا — أن يعملوا المستحيل لإصلاح ما أفسدوا ، وأن يعيدوا الشمس التى غربت ! .

ولا يختلف المفسرون الذين يقولون بأن الضمير فى ردوها يعود إلى الشمس — وهم جمهور المفسرين — لا يختلفون فى أن الشمس قد رُدّت إليه ، فظلت على الأفق الغربى حتى أدى الصلاةَ فى وقتها . .

ومن المفسرين من ذهب إلى أن الشمس لم تُردّ ، وإنما حُبست ، عن أن تغرب ، وقد لامست الأفق ، فظلت فى مكانها حتى أدى الصلاة . . ولهذا تأويلات وتعليلات أكثر من أن تحصر . .

ثم إنهم يأتون لعودة الشمس من مغربها ، أو إمساكها على الأفق بشواهد لمثل هذا الحدث ، فى زمن النبوة ، وفى غير زمن النبوة —

تساق إليها كثير من الأحاديث والأخبار مسندةً إلى ابن عباس وغيره من أعلام الصحابة ..

وثالثاً : يذهب المفسرون لقوله تعالى : « فطفق مسحاً بالسوق والأعناق » إلى أن سليمان بعد أن تنبه إلى مغيب الشمس ، وطلب ردها إليه ، اتجه إلى الخيل ، وأخذ يضرب بالسيف في سُوقها وأعناقها ، ليكفّر بذلك عن خطيئته فى اشتغاله بها حتى فاته وقت الصلاة ..

فهذه الخيل هى التى شغلته ، وهى التى يجب أن يتخلص منها ، وأن يقدمها قرباناً لله يأكل من لحمها الفقراء والمساكين ! .

ولم يسأل الآخذون بهذا الرأى أنفسَهم : ما ذنب هذه الخيل حتى تلاقىَ هذا المصير ، وهى فى موضع الاحتفاء والتكريم ؟ .

ورابعاً : اختلف المفسرون فى تأويل قوله تعالى : « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً » ..

فمن قائلٍ ، إن سليمان قال لنفسه مرة : لأطُوفَنّ الليلة على سبعين امرأة من نسائى فيولد لى منهن سبعون ولداً يجاهدون فى سبيل الله .. !! قالوا ، ولم يقل إن شاء الله ، فلم تحمل من نسائه فى تلك الليلة غيرُ واحدة ، والذى ولدته جاء مَسْخاً ، على صورة نصف إنسان ، فلما وُلد جاءت به القابلة ، وسليمان على كرسى مملكته ، فوضعته بين يديه ! .

والقصة كما ترى — تفضح نفسها بهذا الخبال الصبيانى المريض .. !

ومن قائل ، إن سليمان دخل الحمام ، وكان جُنباً — ودائماً النساء وما يتصل بالنساء ! — فخلع خاتم الملك فأخذه الشيطان ، ولَبِسه ، وظهر فى

صورة سليمان ، وجلس على كرسىّ الملكة ، واتصل بنسائه ، وسليمان ينادى فى الناس معلناً أنه سليمان ، فلا يصدّقه أحد ، حتى زوجاته .. وقد ظل سليمان هكذا زمناً لا يجد مكاناً يؤويه ، أو لقمة عيش يتبلغ بها ، وهو دائبُ التوبة والاستغفار .. قالوا ، وكان الشيطان قد خاف أن يقبل الله توبة سليمان ، وأن يعيد إليه الملك ، فأمسك بالخاتم ورمى به فى البحر .. قالوا ، ولما قَبِل الله توبة سليمان ، وأراد ردّ ملكه إليه ، دفع به إلى شاطىء البحر ، فاصطاد سمكة فلما شقّ بطنها وجد خاتمه .. فلبسه ، وعاد إلى ما كان عليه .. !!

ثم تمضى القصة فتقول : إن سليمان أخذ هذا الشيطان فحبسه فى قمقم ، ثم ختم عليه بالرصاص وألقاه فى البحر .. فهو فى هذا القمقم إلى يوم الدين ! .

وهذه القصة أيضاً أكثر من سابقتها سخافةً وسذاجة ، وتناقضاً ، وفساداً ، فى كل حدث من أحداثها ..

وهكذا تمضى الروايات حول تأويل هذا الجسد الذى ألقى على كرسى سليمان ، وكلها من هذا العالم الخرافى ، الذى لا مكان فيه للعقل ، أو المنطق ، إذ كل ما ينبُت فى هذا العالم هو أطياف وأشباح ، يموج بعضها فى بعض ، ويضرب بعضها وجه بعض !! .

الآيات : (٤١ — ٤٤)

* « وَاذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا

لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « واذكر عبدنا أيوب إذ نادَى ربَّهُ أنى مسَّنِيَ الشيطانُ بِنُصْبٍ وعذابٍ » . .

هو دعوة أخرى إلى النبي الكريم من الله سبحانه وتعالى ، أن يذكر هذا الذى يذكره له ربُّه من أمر عبد من عباده الصالحين ، ونبى من أنبيائه المقربين ، هو أيوب عليه السلام..

والذى يُدعَى النبى — عليه الصلاة والسلام — إلى تذكره ، والوقوف على موضع العبرة والعظة منه ، من أمر أيوب — عليه السلام — هو ضراعته لربه ، ولجوؤه إليه ، فيما مسه من ضُرٍّ . .

وأيوب — عليه السلام — إنما يقف على حدود هذا الأدب النبوى الرفيع، حين يرفع إلى الله ـ سبحانه ـ شكواه مما به ، ولا يسأل العافية ، وكشف الضر.. فذلك إلى الله سبحانه وتعالى ، حسب مشيئته وإرادته فى عبده . . فقد يكون هذا البلاء خيراً له من العافية .. وإنه كبشر ، يشكو إلى ربه ما يجد من آلام ، ويفوض الأمر إليه سبحانه فيما يريد به . . ولو أنه استطاع ألا يشكو لفعل ، فالله سبحانه وتعالى أعلم بحاله ، ولكنها ، أنات موجوع ، وزفرات محموم ! « إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ».. والنُّصب ، كالنَّصب ، وهو الرهَقُ والتعب ، والعذاب : الألم الناجم عن هذا التعب .

وفى إسناد المسّ إلى الشيطان ، إشارة إلى أن هذا الّذى نزل بأيوب ، هو من الأسباب المباشرة ، التى تجىء من النفس الأمارة بالسوء ، ومثل هـذا ما كان من موسى عليه السـلام ، حين قتل المصرى فقال : « هذا من عمل الشيطان » .

قوله تعالى :

* « اركض برجلك هذا مُغْتَسَل باردٌ وشراب » .

وهذا جواب الحق سبحانه وتعـالى على ما سأله أيوب ، ولم يفصل بين السؤال والجواب فاصل، للإشارة إلى أن الإجابة كانت متصلة بالسؤال والطلب ، من غير تراخ . . فما هو إلا أن سأل ، حتى وجد ما طلب حاضراً . . وهذا يشير إلى أن أيوب صبر زمناً طويلًا لا يشكو ، فلما شكا ، أزال الله سبحانه شَـكَاته . .

والركض : الجرى ، والمراد به الضرب بالرجل على الأرض بقوّة ، حيث أن الرّجل تَخُدُّ الأرض وتضربها أثناء الجرى . .

وقد ضرب أيوب برجله الأرض ، كما أمره ربّه ، فتفجر نبعٌ من الماء !

وماذا يعمل أيوب بهذا الماء ؟ هكذا وقف عليه متسائلا . . فـكشف له ربّه عمّا وراء هذا الماء ، فقال له : « هذا مغتسل بارد وشراب » . . إنه ماء عذب ، باردٌ سائغ للشاربين . . فاغتسل به ، واشرب منه .

قوله تعالى :

* « ووهبنا له أهلَه ومثلَهم معهم رحمةً منّا وذكرى لِأُولى الألباب » .

أى وهبنا له أهله ، الذين كانوا قد نفروا منه ، وتخلّوا عنه أثناء محنته . فلما لبس ثوب العافية ، وخرج من ضباب المحنة ، عاد إليه أهله ، وعاد إليه الغرباء ، فـكانوا له مثلَ أهله ، تقرّباً إليه ، وتودّداً له ، إذ أفاض الله سبحانه

وتعالى عليه من الخير، ما جعل العيون تتطلع إليه، والآمال تتجه نحوه . . وهكذا الناس .

والناس من يَلْقَ خيراً قائلون له ما يشتهى ولأمِّ المخطىء الهَبَلُ

وفى التعبير بالهبة عن عودة أهله وغير أهله إليه فى قوله تعالى : « ووهبنا له أهله ومثلهم معهم » ـ فى هذا التعبير إشارة إلى أن هـذا التحول فى حال « أيوب » من تلك العزلة الموحشة بينه وبين أهله وغير أهله ، إلى إقبـال القريب والبعيد عليه ، وتوددهم له ـ إنما كان هبةً من هبات الله له ، ورحمة من رحماته ، على هذا العبد الذى ابتُلى هذا الابتلاء العظيم ، فصبر راضياً بأمر الله سبحانه وتعالى فيه . . والله سبحانه وتعالى يقول : « إنّما يوفّى الصـابرون أجرهم بغير حساب » (١٠ : الزمر) . . وفى ذلك ذكرى وموعظة لأولى الألباب ، الذين يأخذون العبر من الأحداث التى تمر بهم ، أو بالناس من حولهم .

قوله تعالى :

* « وخُذْ بيدك ضِغْثاً فاضرب به ولا تَحْنَثْ . . إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّابٌ » .

الضِّغْث : الخليط من كل شىء . . والمراد به هنا ، مجموعة من العيدان الدقيقة ، من حطب أو غيره . . والحِنث : الذنب المؤثم ، واليمين الغموس .

والآية معطوفة على قوله تعالى : « ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمةً منا وذكرى لِأُولى الألباب » الذى هو اعتراض بين الآيتين اللتين يحملان خطاباً من الله سبحانه وتعالى إلى « أيوب » . . فالأمر الموجّه من الله سبحانه وتعالى إلى « أيوب » هو : « اركُضْ بِرِجْلِكَ هـذا مغتسل باردٌ وشرابٌ . . . وخذ بيدك ضِغثًا فاضرب به ولا تَحْنَثْ » . . وقد جاء قوله تعالى : « ووهبنا

له أهله ومثلهم معهم » بين الأمرين ـ إشارة إلى أن هذه الأوامر ليست تكليفاً، كما هو الشأن فى الأمر ، وإنما هى دعوة إلى تناول هذا العطاء الكريم من ربٍّ كريم ، إلى عبده الصابر الشكور . . فهذان الأمران ، يحملان هبات من عند الله ، كما يحمل الخبر فى قوله تعالى : « ووهبنا له أهله ومثلهم معهم » . . فإن قوله تعالى : « اركض برجلك » يحمل إليه الشفاء والعافية ، وقوله تعالى : « وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث » يحمل إليه الوفاء بيمينه ، ويدفع عنه الحرج . . إذ كان قد حلف وهو فى حال مرضه أن يضرب امرأته ، مائة سَوْط على أمرٍ خرجت به عن رأيه . . وكان من لطف الله به وبامرأته، أن جعل تحلّةَ يمينه بأن يضربها بعرجون يحمل مائة أو أكثر من الشماريخ !!

الآيات : (٤٥ — ٥٤)

* « وَاذْكُرْ عِبَادَنَآ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ (٤٨) هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « واذكر عبادنآ إبراهيم وإسحاق ويعقوبَ أولِي الأيدى والأبصار » .

أى واذكر ـ أيها النبىّ ـ وأنت تدعو نفسك إلى الصبر على ما تكره من قومك ـ اذكر فيمن تذكر من عبادنا الصالحين ، إبراهيم وإسحاق ويعقوب . . فهؤلاء من ذوى الأيدى العاملة فى كل مجالٍ للخير والإحسان ، ومن ذوى الأبصار الكاشفة عما فى هذا الوجود من بعض جلال الله ، وعظمته ، وعلمه ، وقدرته . . إنهم لم يُؤْتَوْا ملكاً وإنما أوتوا نبوّةً ، وهم لهذا إنما يعملون بأيديهم ، ويَسعون فى تحصيل معاشهم بأنفسهم ، لايملكون سلطاناً يعمل لهم العاملون فيه . . ثم إن لهم إلى جانب هذه الأيدى العاملة فى الدنيا ، أبصاراً عاملة فى التدبّر فى ملكوت الله ، والتسبيح بحمده .

قوله تعالى :

* « إنَّا أخلصناهم بخالصةٍ ذكرى الدار » .

هو بيان لقوله تعالى : « أولى الأيدى والأبصار » . . أى إننا أخلصناهم لعبادتنا ، إذ أخلينا أيديهم من المُلك والسلطان ، فلم يُشغلوا بتدبير ملكهم وحراسة سلطانهم ، عن ذكرنا ، وذكر لقائنا .

فقوله تعالى : « بخالصة » متعلق بقوله تعالى : « أخلصناهم » . . أى نجيناهم من الفتنة بمنجاة ، هى إقامتهم على تذكر الدار الآخرة . . وقوله تعالى : « ذكرى الدار » بدل من (بخالصة) . .

قوله تعالى :

* « وإنهم عندنا لمن المصطفَيْن الأخيار » . .

أى ، فهم لِمَا أخلصناهم به ، فى مقام عظيم عندنا ، إنهم من المصطفين الأخيار من عبادنا . .

هذا ، ويلاحظ أن ذكر إبراهيم وإسحق ويعقوب ، قد جاء متأخراً عن ذكر داود وسليمان وأيوب ، مع أن إبراهيم ، هو الأب الأكبر لهم ، كما أن إسحق ويعقوب ، من آبائهم الأولين . .

فما سر هذا الترتيب الذى جاء عليه النظم القرآنى ، مخالفاً الترتيب الزمنى ؟

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ هو :

أولا : أن داود وسليمان ، وأيوب ، كانوا أصحاب دنيا عريضة ، إلى جانب النبوة . .

فقد كان داود وسليمان ملكين ، يقومان على مُلك عظيم ، على حين كان أيوب ذا ثراء كبير ، ومال وبنين ، إلى جانب نبوته أيضاً . .

وهذا الملك ، وذلك الثراء ، هما ابتلاء وفتنة حيثما وجدا ، سواء أكان ذلك مع الأنبياء ، أو غير الأنبياء . . وهذا يقتضى ممن يبتلى بهما أن يكون على حذر دائم ، ومراقبة متصلة لنفسه ، فى كل ما يأتى وما يذر من عمل . . إنه فى مواجهة الفتنة أبداً ، فإذا لم يكن على حذر منها ، جرفه تيارها ، فكان من المغرقين . .

ثانياً : لم يكن إبراهيم وإسحق ويعقوب ، أصحاب مال أو سلطان ـ كما قلنا ـ ولهذا فقد خلصت نبوتهم من عوائق الفتن الدنيوية ، فأخلصوا لله وجودهم ووجوههم ، فلم تكن منهم زلة أو هفوة . .

وثالثاً : فى هذه الصورة التى تفرّق بين الأنبياء الملوك أو أشباه الملوك ، وبين الأنبياء المخلَصين للنبوة ـ يرى النبىّ صلوات الله وسلامه عليه ـ أين منزلته التى جعله الله فيها . . فهو صلوات الله وسلامه عليه ـ نبى خالص النبوة ، لا تشغله الدنيا ، ولا تعرض له بفتنة من فتنها . . ومن ثَمّ فهو فى عصمة من نبوته . فلا

يَذكر غير الله ، ولا يلتفت إلى غير الرسالة التى فى يديه ، يحوطها ، ويرعاها ، ويحتمل الضر والأذى فى سبيلها . .

قوله تعالى :

* « واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكلٌ من الأخيار » .

وهؤلاء ثلاثة آخرون من أنبياء الله ، هم على شاكلة إبراهيم وإسحق ويعقوب .. أنبياء لم يكن لهم مع النبوة مُلك أو سلطان . . فهم « من الأخيار » كما أن إبراهيم وإسحق ويعقوب من (الأخيار) . .

وليس يعنى هذا أن داود وسليمان وأيوب ، لا يدخلون فى هذا الوصف الجليل .. وكلاّ .. فهم أنبياء لله قبل أن يكونوا ملوكا .. ولكن الخيرية درجات .. وأنبياء الله فى مقامهم العظيم ، هم درجات أيضاً . . « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » (٢٥٣ : البقرة) . .

واليسع : هو إلياس ، وهو الياسين . .

وذو الكفل : هو ـ والله أعلم ـ زكريا عليه السلام ، لأنه هو الذى كفل مريم ، كما يقول الله تعالى : « وكَفَلَها زكريا » (٣٧ : آل عمران) . .

قوله تعالى :

* « هذا ذكر وإن للمتقين لحسنَ مآب » .

الإشارة هنا إلى ما ذُكر من حديثٍ عن هؤلاء الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وفى الحديث ذِكر وموعظة لمن يتذكر ويتعظ ، فيكون بهذا من المؤمنين المتقين . .

قوله تعالى :

* « جنات عدن مفتحةً لهم الأبواب » . .

هو بدل من « حسن مآب » . . فالمآب الحسن ، هو جنات عدن ، أى جنات خلود ، يجدها المتقون ، وقد فتحت أبوابها لهم ، يدخلونها من أى باب شاءوا ، دون أن يحجبهم عنها حاجب . .

قوله تعالى :

* « متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب » . .

الاتكاء هنا كناية عن الراحة من السعى وراء المطالب المعيشية . . فهم لا يعملون عملا فى سبيل ما يريدون . . بل إن كل شىء حاضر عتيد بين أيديهم ، وما عليهم إلا أن يطلبوا فيجدوا ما طلبوا حاضراً . . إنهم يأكلون ما يشاءون، ويشربون ما يشتهون ، مما كان قد فاتهم من حظوظ الدنيا . . هذا إلى ما أعدّ الله لهم ، مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بشر . .

قوله تعالى :

* « وعندهم قاصرات الطرف أتراب » . .

قاصرات الطرف : أى غاضّاتُ البصر ، حياء ، وخفراً ، وعفّة . .

الأتراب : جمع ترِب ، والترب الشبيه والمثيل . .

أى وبين يدى أهل الجنة حور عين ، قاصرات الطرف ، أى خاشعات الأبصار ، حياء وخفرا ، على صورة كاملة فى الجمال ، والشباب . . كلهن على ميزان واحد فى الجمال ، ليس فى أىّ منهن زيادة لمستزيد .

قوله تعالى :

* « هذا ما توعدون ليوم الحساب » .

أى هذا النعيم الخالد ، بألوانه ، وأشكاله ، هو ما وعد الله به المؤمنين ، حيث يلقونه يوم الحساب ، والجزاء .

قوله تعالى :

* « إن هذا لرزقُنا ماله من نفاد » .

أى هذا النعيم الخالد ، هو الرزق الذى يرزقه الله أصحابَ الجنة ، وهو رزق لا ينفد أبداً ، ولا ينقص منه شىء أبداً ، على كثرة الواردين عليه .

الآيات : (٥٥ — ٦٤)

* « هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَئَابٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ (٦٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « هذا وإن للطاغين لشرَّ مآب ، جهنمَ يصلونها فبئس المهاد » .

هذا هو الوجه المقابل لأصحاب الجنة ، الذين ينعمون بهذا النعيم الخالد ، ويَتَهنَّئون بما أفاء الله سبحانه عليهم من رحمته ورضوانه .

فقوله تعالى : « هذا » إشارة إلى المؤمنين وأحوالهم فى الجنة ، أى هذا شأن . . وشأنٌ آخر ، هو شأن الطاغين ، من رءوس أهل الكفر والشرك والضلال . . فهؤلاء لهم شرّ مآب ، وسوء منقلب ، هو هذا العذاب الذى يلقونه فى جهنم ، التى هى المهاد الذى يجدون فيه متكأهم وراحتهم . . إن لهم فى دارهم هذه مهاداً ومتكأً ، كما للمتقين فى دارهم مهاداً ومتكأً ا وشتان بين مِهادٍ ومهاد !

* « هذا فليذوقوه حميم وغساق » .

هو فى مقابل لقوله تعالى فى المؤمنين : « يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب » ، فأهل الجنة يطلبون ما يشتهون ، فيجدونه حاضرا . .

أما أهل النار ، فإنهم لا يطلبون شيئاً . . وماذا يطلبون من النار ، إلا النار ؟ . .

ومع هذا ، فإنهم لا بد أن يطعموا من ثمر جهنم ، ويُسْقَوا من شرابها ، كما طعم أهل الجنة من فاكهة الجنة ، وشربوا من شرابها . .

وإنه إذ لم يطلب أصحاب النار طعاماً ولا شرابا . فهذا طعام وشراب حاضر بين أيديهم .. هذا حميم وغساق . فليذوقوه ا .

والحميم : اللهب ، ومنه الحم وهو قطع الجمر .

والغساق : القيح والصديد .

وإذا كان لأهل الجنة حور عين : «قاصرات الطرف أتراب» فإن لأهل النار كذلك أزواجاً من شكل هذا الحميم والغساق « وآخر من شكله أزواج»

أى وعندهم إلى جانب هذا الطعام والشراب ، من الحميم والغساق ، أزواج مشكلة على شاكلة هذا الحميم والغساق . . ! !

وليس هذا فحسب . . !

إن أهل الجنة يدخل عليهم الملائكة من كل باب ، يؤنسونهم ، ويحيونهم قائلين « سلام عليكم » . .

وإن هؤلاء الطاغين ، ليَرِدُ عليهم بين حين وحين ، مَن يصبّ عليهم اللعنات ، من أتباعهم وأشياعهم : « هذا فوج مقتحِم معكم » . .

إنهم قد سبقوا إلى النار ، وتقدموا أتباعهم ، فهم أئمتهم فى الدنيا والآخرة.. فإذا أخذوا أماكنهم من جهنم ، دُفع إليهم « فوج » أى فريق من أتباعهم، « مقتحم » أى يقتحم عليهم مكانهم الضيق الذى هم فيه ، ليأخذ له مكاناً . . فيلقاهم الذين سبقوهم قائلين : « لا مرحباً بهم، إنهم صالوا النار » . . ويجيئهم ردّ التحية من أتباعهم : « بل أنتم لا مرحباً بكم . . أنتم قدمتموه لنا » أى أنتم الذين دفعتم بنا إلى هذا المصير المشئوم . . « فبئس القرار » الذى استقر بنا وبكم . .

ولا يقف الأتباع عند هذا مع سادتهم ، بل يَدْعون الله عليهم أن يقتصّ لهم منهم ، وأن يضاعف لهم العذاب ، إذ كانوا هم الذين زينوا لهم الضلال الذى أوردهم هذا المورد .. « قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً فى النارِ » . .

وفيما هم فى هذا التلاحى والتخاصم ، ينظرون فى وجوه مَن حولهم من أهل النار ، باحثين عن أناس كانوا يعرفونهم فى الدنيا ، ويرونهم أهل سوء ، وأنهم أولى بالنار منهم . .

* « وقالوا مالنا لا نرى رجالاً كنّا نعدّهم من الأشرار » ؟ فأين فلان وفلان ، وفلان .. من الفقراء والضعفاء والعبيد والإماء ؟ ألاَ ينزلون هـذا المنزل ؟ وإذا لم ينزله هؤلاء ، فمن ينزله ؟ .

* « أتخذناهم سخريا ؟ » أى أاتخذناهم سِخريا ، وكنا على خطأ فى استهزائنا بهم ، وسخريتنا منهم فى الدنيا ؟

* « أم زاغت عنهم الأبصار » ؟ أم أننا كنّا على صواب فى سخريتنا واستهزائنا ، وأنهم على ما كنا نقدّر ، فهم موجودون هنا فى جهنم ، ولـكن أبصارنا زاغت عنهم ؟ لا ندرى ! .

* « إن ذلك لحقٌّ تخاصم أهل النار » .

أى إن هـذا التخاصم والتلاحى بين أهل النار ، هو حق واقع .. فمن كذّب ، فلينتظر ، وسيرى ..

الآيات : (٦٥ — ٨٨)

* « قُلْ إِنَّمَآ أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٤)

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « قل إنما أنا منذرٌ وما من إله إلا الله الواحد القهارُ » .

بعد هذه المشاهد التى وقف فيها النبى صلوات الله وسلامه عليه ، على أخبار بعض أنبياء الله ورسله ، ممن ابتلاهم الله ، ومَن عافاهم ، وبعد أن رأى المؤمنون ما أعد الله لهم فى جناته من نعيم خالد ، ورضوان مقيم ، ورأى المشركون جهنم وما يلقاه أهل الضلال والطغيان فيها من بلاء عظيم — بعد هذا كله — والمشاعر متوفزة والقلوب واجفة — يلتقى النبى مرة أخرى مع المشركين ، يذكرهم برسالته فيهم ، وشأنه بهذه الرسالة معهم . وأنه « إنما

هو منذر » أى مبلّغ ما أمر به من ربه ، وليس له عليهم من سلطان . .

وقوله تعالى : « وما من إله إلا الله الواحد القهار » هو من مقول القول ، الذى يقوله النبيّ للمشركين ، وينذرهم به ، وهو أن يؤمنوا بإله واحد ، قهار، يذل الجبابرة ، ويقصم ظهور الظالمين . .

قوله تعالى :

* « ربُّ السمواتِ والأرض وما بينهما العزيز الغفار » . . هو من مقول القول أيضاً ، وهو عطف بيان على قوله تعالى : « الواحد القهار » . . أى ما من إله إلا الله الواحد القهارُ خالق السموات والأرض وما بينهما العزيزُ الغفار . . فهذه بعض صفات الإله المتفرد بالألوهة ، المستحق للعبادة . .

قوله تعالى :

* « قل هو نبأ عظيم * أنتم عنه معرضون . » .

النبأ العظيم ، هو ما حدثتهم به الآيتان السابقتان عن الله سبحانه وتعالى ، وعما يليق له — سبحانه — من صفات الفردية والقهر والجلال ، والعزة والمغفرة .. فهذا نبأ عظيم ، يطلع على الناس بالهدى ، ويقيمهم على طريق الفلاح ، لو استقاموا عليه . . ولكن المشركين معرضون عنه ، مستخفون به ، لا يعطونه آذاناً مصغية ، ولا يفتحون له قلوباً واعية ..

قوله تعالى :

* « ما كان لى من علمٍ بالملأ الأعلى إذ يختصمون » .

أى هـذا النبأ العظيم الذى حدثتكم به ، ليس من عندى ، وإنما هو من عند الله ..

ولكنكم لا تصدقون أنى رسول الله ، وأنى أتلقى ما يوحى به إلىّ من آياته وكلماته . .

أنتم لا تصدّقون هذا ، وتستكثرون فضلَ الله علىّ ، أو تستكثرون أن يتصل الله ببشر . .

فإذا كان هذا ظنكم بربكم ، وهذا رأيكم فىّ . . فما قولكم فى هذه الأخبار السماوية ، وتلك الأحداث التى وقعت فى العالم العلوى غير المنظور أو المسموع - ما قولكم فى هذه الأخبار التى تحدثكم بها آيات الله وكلماته ؟ أهى من عندى أيضاً ؟ إنه « ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون » . . فأنا معكم على هذه الأرض . . وهل لمن كان من عالم الأرض أن يتصل بالعالم العلوى ، ويعلم ما يدور هناك ، إلا إذا كان موصولا بهذا العالم ، مدعوًّا إليه من ربه ؟ .

والذى يختصم فيه الملأ الأعلى ، هو ما ستعرضه الآيات التالية ، من موقف الملائكة ، وإبليس من خلق آدم ، ومِن أمْرِ الله سبحانه ، بالسجود له . .

قوله تعالى :

* « إن يوحَى إلىّ إلا أنما أنا نذيرٌ مبين » .

فهذا الذى أحدثكم به ، أو تحدثكم به آيات الله عن الملأ الأعلى ، هو وحى من عند الله ، وما أنا إلا بشر مثلكم ، وما « يوحى إلىّ إلا أنما أنا نذير مبين » . . لا شىء أكثر من هذا . . إنى أبلّغ ما يوحَى إلىّ به ، لا أدخل عليه بشىء من عندى . .

قوله تعالى :

* « إذ قال ربُّك للملائكة إنى خالقٌ بَشَراً من طينٍ * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلّهم أجمعون * إلاّ إبليس استكبر وكان من الكافرين * قال يا إبليس ما منعك أن تَسجُدَ لما خَلَقْتُ بيدىّ أستكبرتَ أم كنت من العالمين * قال أنا خير منه خَلَقْتَنِى من نارٍ وخلقته من طين * قال فاخرج منها فإنك رجيمٌ * وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين * قال ربِّ فأنظِرنىَ إلى يوم يُبْعَثُون * قال فإنك من المُنْظَرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغوينّهم أجمعين * إلاّ عبادك منهم المخلصين * قال فالحقُّ والحقّ أقول * لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » .

هذا ما كان من اختصامٍ فى الملأ الأعلى ، وهو مما لم يكن للنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ علم به ، كما لم يكن لبشر أن يعلمه . . ولكن الله سبحانه وتعالى أخبره به وحياً من عنده ، بهذه الآيات التى يتلوها على العالمين . .

وفى التعبير عما كان بين الله سبحانه وتعالى ، وبين إبليس — لعنه الله — فى التعبير عنه بالاختصام — إشارة إلى تطاول هذا اللعين ، وإلى موقفه من ربه موقف جدل واختصام ، وذلك لشقوته التى غلبت عليه ، بما سبق من قضاء الله فيه ..

وأنه إذا كان فى الملأ الأعلى من يكفر بالله ، ويعمَى عن طريق الهدى وهو فى عالم النور والصفاء والطهر ، فإن فى العالم الأرضى ، عالم الظلام والكثافة ، كثيرين وكثيرين ، ممن يكفرون بالله ، ويركبون مراكب

الضلال . . وأنه إذا كان الكفر بالله ، والخروج عن طاعته ، لا يعصم أهلَ الملأ الأعلى من أن يُرَدّوا إلى عالم الظلام ، وأن يكونوا فى الدَّرك الأسفل من مخلوقات الله ، فإن الكفر بالله والخروج عن طاعته ، لا يعصم من كان فى العالم الأرضى ، أن يُرَدّ إلى ما دون هذا العالم ، وأن يُلقى به فى عذاب السعير . .

ثم إنه ـ من جهة أخرى ـ إذا كان فى الملأ الأعلى ملائكة مقرّبون ، لا يعصون الله ما أمرهم ، فيزدادون بذلك قربًا من الله ـ فإن فى العالم الأرضى من يرتفع عن هذا العالم ، بإيمانه بالله ، وولائه له ، وينزل منازل الرحمة والرضوان ، فى جنات النعيم . .

وهكذا . . رجيم من العالم العلوى يهوى إلى الأرض ، وشُهُب من الأرض ، تصعد إلى السماء ، وتتألق بين كواكبها ونجومها . . !

فأىٌّ من هذين الفريقين من أهل الأرض يكون هؤلاء المشركون ؟ أيظلون على كفرهم بالله ، فيهوى بهم كفرهم إلى قرار الجحيم ، أم يؤمنون بالله ، ويسعوْن إلى مرضاته ، فيرتفعون عن هذا التراب ، ويصعدون إلى الملأ الأعلى ، ويصبحون من أهله ؟ .

وقوله تعالى : « قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ » ـ هو قسم من الله سبحانه وتعالى بأن تمتلىء جهنم من إبليس ، وممن شايعه واتبع سبيله من الناس . . وفى هذا وعيد شديد من الله ، بأن لجهنم أهلَها من بنى آدم ، وهم كثير تمتلىء بهم على سعتها . . فليطلب كل إنسان السلامة لنفسه منها ، والنجاة من أن يكون من أهلها ، فإن لها أهلا ـ نعوذ بالله أن نكون منهم ـ وأنه لا نجاة إلا بالإيمان بالله ،

والعمل الصالح .. فاللهم اجعلنا من المؤمنين بك ، الساعين فى مرضاتك ، الفائزين برضاك ورضوانك ..

قوله تعالى :

* « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين * إن هو إلا ذكرٌ للعالمين * ولتعلمنّ نبأه بعد حين » .

بهذه الآيات تُختم السورة ، ويلتقى ختامها ببدئها .. فقد بدأت بالقسم بالقرآن الكريم ، ذى الذكر ، تعظيما له ، وإلفاتاً إلى ما فيه من هدى ورحمة .. وخُتمت بالتذكير بالنبىّ ، وبرسالته ، وبالكتاب الذى بين يديه ..

فالنبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ليس إلا رسولا من عند الله يبلغ ما أرسل به ، وإنه لا يسأل الناس على مايدعوهم إليه أجراً ، ولا يتكلف لدعوته ما يخرج به عن حدود التبليغ ، فلا يَقْهرُ أحداً ، ولا يَخْتِله أو يَخدعه ، حتى يستجيب له : « إن هو إلا ذكر للعالمين » .. أى ما هذا القرآن الذى بين يديه إلا ذكر للعالمين ، والذكر مكانه العقول ، وما يقع فيها من اقتناع بما تُذَكَّر به .. « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلُّ عليها » ..

وقوله تعالى : « ولتعلمن نبأه بعد حين » .. تهديد للمشركين ، ووعيد لهم ، بما يلقون من عذاب شديد ، يوم يكشف لهم الغطاء عما حجبه العناد والضلال عنهم .. ويومئذ يرون أنهم كانوا فى عمًى وضلال ، وأن ما فاتهم لا يمكن تداركه أبداً .. « ويوم يَعضُّ الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً » يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا »

* * *

٣٩ - سورة الزُّمَر

نزولها : مكية .

عدد آياتها : خمس وسبعون . آية

عدد كلماتها : ألف ومائة وسبعون . . كلمة

عدد حروفها : أربعة آلاف وسبعمائة وثمانية أحرف .

مناسبتها لما قبلها

ختمت سورة « ص » بما بدئت به ، من تنويه بشأن القرآن الكريم ، وما فيه من هدًى ورحمة . وكانت السورة كلها معرضاً لمواقع الهدى من الناس ، على مختلف منازلهم ، من أنبياء أخلصهم الله بخالصة النبوّة ، وأنبياء جمع الله لهم بين النبوة والملك ، ومؤمنين اقتبسوا من هدى النبوّة ، وكافرين ، ضلّوا عن سواء السبيل ، فكفروا بالله . .

وهنا تبدأ سورة « الزمر » بذكر القرآن الكريم ، والمتنزّل العالى الكريم تنزل منه . . ثم بدعوة النبىّ الكريم إلى الأخذ بهذا الكتاب الذى نزل عليه ، وبإخلاص العبودية لله ، لا يشغله عن ذلك ما يسوق إليه المشركون من كيد وأذًى . .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٧)

« تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » .

هو جواب عن سؤال أو أسئلة كثيرة ، كانت تدور فى رءوس المشركين وتجرى على ألسنتهم : من أين جاء محمد بهذا الذى يحدثنا به ؟ ومَن علّمه هذا ؟ ومن أى الكتب أخذه ؟ إلى غير ذلك مما كانوا يحدثون به أنفسهم ، ويتحدث به بعضهم إلى بعض فى شأن القرآن . . وقد جاء فى آخر السورة السابقة « ص » ما يجيب ـ إجابة غير مباشرة ـ عن تلك الأسئلة ، فقال تعالى على لسان نبيه الكريم : « ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون » . . ثم جاء بعد هذا من آيات الله ، ما يحدّث عن هذا الاختصام ، الأمر الذى يقطع بأن النبىّ على صلة بالملأ الأعلى ، حتى يكون له أن يأتى ببعض ما يقع هناك من أمور . .

وهنا فى قوله تعالى : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » إجابة مباشرة عن تلك الأسئلة التى يسألها المشركون عن المصدر الذى جاء منه القرآن . . وإذ كان سؤالهم أو أسئلتهم ، تنحصر فى هذا المحتوى : من أين هذا الكتاب ؟ فكان الجواب : من الله العزيز الحكيم تنزيلُه . .

وقد جاء النظم القرآنى هكذا : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » بتقديم الجهة التى نزل منها على الذات التى أنزلته ـ إشارة إلى أنه صادر من جهة عالية ، وأنه ليس مما على هذه الأرض ، ومافيها من جهات وذوات . . وبهذا ينعزل القرآن عن أن يكون من العالم الأرضى . إنه نور خالص ، لمن نظر فيه ، والسماء هى مصدر كل نور على هذه الأرض . . فإذا تقرر ذلك ، كان البحث فى طبيعة هذا النور ، وهل هو نور إلٰهى ، أم من ذلك النورَ الذى تشعّه

الكواكب والنجوم؟ وإمعان النظر فى القرآن يكشف للناظر عن أنه نور إلهى، لا ينكسر ضوؤه ، ولا تغرب شمسه أبداً . . وإذن فهو نور من الله . . « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » .

قوله تعالى :

* « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ فاعبد الله مخلصاً له الدين » أى قد نزل إليك أيها النبي هذا الكتاب من ربك شائبة بالحقّ .. الذى لا يَعْلَق به باطل . . فهو يحمل إليك الحق خالصاً من كل شائبة ، فمن نظر فى آياته ، وتدبر فى كلماته ، عرف طريق الحق واضحاً مشرقاً . . وإذ كان ذلك هو ماعرفت من آيات الله وكلماته من حق ، فاعبد الله على هذه المعرفة ، عبادةً خالصة ، تملأ القلب ، وتملك المشاعر ، وتستولى على الوجدان .. فلا ترى غير الله الحق . .

وإذ كان الله سبحانه، هو الحق، وما سواه ـ بالإضافة إليه ـ باطل ، فكل ولاء لغيره ، باطل ، وكل تعبّد لسواه ، ضلال . . فالعبودية الخالصة له وحده سبحانه وتعالى . .

قوله تعالى :

* « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . . إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . . إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار » . .

أى وأما الذين لم يخلصوا عبوديتهم لله لم يجعلوا ولاءهم خالصاً له . واتخذوا من دونه أولياء ، قائلين : ما نعبدهم إلا لنتقرب بهم إلى الله ، ونَزْلُف بهم إلى مرضاته ـ هؤلاء سيحكم الله بينهم يوم القيامة ، فيما هم فيه يختلفون من أمر الله ،

وفى وتصورهم الباطل لذاته ، وجعْل معبوداتهم شفعاء لهم عند الله ، لأنهم — كما يزعمون — أبناؤه ، أو بناته ، أو شركاء له فى الخلق والتصريف !

وفى قوله تعالى : « إن الله لايهدى من هو كاذب كفار » حكم على مدّعيات هؤلاء المشركين ، بأنها من ملفقات الأكاذيب ، وأن الكفر هو صفة من يَدين بهذا الإفك ، ويقيم معتقده على هذه الأكاذيب ، وأن من سلك هذا الطريق ، ولم يراجع نفسه ، ويصحح معتقده ، فإن الله سيخلى بينه وبين الضلال الذى هو فيه ، فلن يهتدى أبداً . .

قوله تعالى :

* « لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء . . سبحانه ، هو الله الواحد القهار » .

أى لو أراد الله سبحانه أن يتخذ له ولدا ـ كما يزعم هؤلاء الضالون ـ لاختاره هو سبحانه ، وخلقه على ما يشاء ، لا أن يختاره له هؤلاء الضالون ، كما يقول سبحانه عنهم : « وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم » (١٠٠ : الأنعام) .

وقوله تعالى : « سبحانه .. هو الله الواحد القهار » تنزيه لله عن أن يكون له ولد .. فهو سبحانه « الواحد » الذى لا شريك له .. والولد شريك للوالد ، وهو سبحانه « القهار » أى القوى الذى لا يُغلب . . فليس به إلى الولد حاجة ، مما يبغيه الوالدون من الأولاد . .

قوله تعالى :

* « خلق السموات والأرض بالحق . . يكوِّر الليل على النهار ويكوِّر النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر . . كل يجرى لأجل مسمى .. ألا هو العزيز الغفار » .

ذلك هو بعض سلطان الله ، وتلك هى بعض قدرته .. فالسموات والأرض صَنعةُ يده .. وبعضُ خلقه .. وقد خلقهما سبحانه بالحق ، الذى هو صفته .

وقوله تعالى « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » . . يشير إلى أمور :

أولها : أن النهار والليل يكوّر كل منهما على الآخر ، فى حركة دائبة .. حيث لا يكون نهار إلا كُور عليه الليل ، ولا يكون ليل إلا كور عليه النهار . .

وثانيها : أن التكوير يعنى الحجْبَ والتغطية من الأعلى للأسفل ، إذ أن أصله من تكوير العمامة على الرأس . . يقال كَرَّ العمامة ، وكورها ، أى لفها على رأسه ، حتى صارت مثل الكرة .

وثالثها : أن هذه الصورة من التكوير ، تشير إلى كروية الأرض ، وإلى أن الليل والنهار يتحركان فوق كرة ، أشبه بالعمامة التى تعلو الرأس .

ورابعها : أن لفظ « يكور » يشير إلى أن الأرض متحركة ، وأن هذا التكوير الذى يجرى على الكرة ، إنما يقع حالا بعد حال ، ووقتا بعد وقت ..

وخامسها : تقديم تكوير الليل على النهار ، إشارة إلى اتجاه حركة الأرض ، بعد لإشارة إلى شكلها الكروى وإلى حركتها ـ فإن هذه الحركة من الغرب إلى الشرق ، حيث يكون النهار أولا ، ثم يتلوه الليل فيتكور عليه ، ثم يعقبه النهار ، فيعلوه متكوراً عليه كذلك . . وهكذا . .

قوله تعالى : « وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى » .

أى وأجرى الشمس والقمر ، وسخرهما بقدرته ، وأقامهما على نظام محكم

لا يخرجان عنه . . فلكلٍّ فلكهُ الذى يجرى فيه . . لا يتعداه . .

وقوله تعالى : « ألا هو العزيزُ الغفّارُ » . . إشارة إلى عزّة الله وقوته ، وأنه القهّار الذى يخضع كل موجود لسلطانه . . ومن كان هذا شأنه فإن نسبة الولد إليه ضلال مبين ، وسفَه جَهول . . لأن الولد إنما يَسدّ نقصاً ، ويُشبع رغبة ، ويرضى عاطفة . . وتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

والله سبحانه وتعالى مع عزّته وقوته ، فهو غفار للسيئات ، غفور للمذنبين ، إذا هم تابوا إلى الله ، واستغفروا لذنوبهم ! « ومن يغفر الذنوب إلا الله » (١٣٥ آل عمران)

قوله تعالى :

« خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواجٍ . . يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خَلْقٍ فى ظُلُماتٍ ثلاثٍ . ذٰلكم الله ربكم له الملك لآإله إلاّ هو فَأَنّى تُصْرَفُونَ »

هو كشف لوجه آخر من وجوه قدرة الله سبحانه .. تلك القدرة المتمكنة من كل شىء ، المتصرفة فى كل شىء ، المستغنية عن كل شىء . .

ومن دلائل تلك القدرة خلقُ الناس جميعاً من نَفْسٍ واحدة ، أى طبيعة واحدة ، أو جرثومة واحدة ، هى الجرثومة الأولى التى تخلّق منها الكائن الحىّ . .

وفى قوله تعالى: « ثم جَعَلَ منها زوجها » . إشارة إلى أمرين :

أولهما : أن الجعل غير الخَلْق . فالخلق إيجاد المخلوق ، والجعل ، إظهار لما فى المخلوق من خصائص ، وإبراز ما اشتمل عليه من صفات . . وهذا مثل قوله تعالى : « ومن آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها » . . وهذا يعنى أن الجرثومة الأولى للحياة ، كانت ذكراً وأنثى معاً . . ثم حصل

التوالد بانقسام الكائن الحىّ على نفسه . . كلٌ قسم يحوى جرثومةً ذكراً وأنثى .. وهكذا تتوالد الخلايا بانقسامها على نفسها .

وثانيهما : أن انفصال الذكر عن الأنثى جاء فى مرحلة متأخرة ، بمعنى أنه كان بين الخلق والجعل آماداً طويلة ، وأزماناً ممتدة ، وهـذا هو السرّ ــ والله أعلم ــ فى العطف بحرف « ثم » الذى يفيد الامتداد والتراخى فى الزمن .

قوله تعالى: « وأنزل لـكم من الأنعام ثمانية أزواج » .

التعبير بالإنزال دون الخَلْق . إشارة إلى أنها نِعَمٌ منزلة من عند الله . .وأن شأنها فى حياة الإنسان عظيم ، أشبه بالغيث الذى ينزل من السماء . .

والأنعام الثمانية ، هى ما أشار إليها سبحانه وتعالى فى قوله : « ثمانية أزواج من الضـأن اثنين ومن المعز اثنين . . قل آلذكرين حرّم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئونى بعلم إن كنتم صادقين * ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكَرَيْن حرّم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا » (١٤٣ ــ ١٤٤: الأنعام) .

فهى أربعة أصناف : الضأن ، والمعز ، والإبل ، والبقر . . وكل صنف منها ذكر وأنثى ، فهى ثمانية متزوجة ، ذكر وأنثى . كلٌ منها زوج للآخر . .

وقوله تعالى : « يخلقـكم فى بطون أمهاتـكم خلقاً من بعد خلقٍ فى ظلمات ثلاث » . .

أى أن هذا التوالد ، هو خلق جديد لـكل كائن يولد ، وليس عملًا آليًا يتم بغير حساب وتقدير .. بل إنه ليس خلقاً واحداً ، وإنما هو خلق بعدخَلق ، وأطوار بعد أطوار ، يلبسها الـكائن إلى آخر مرحلة الخلق، حتى يستوى خلقه ويصبح على الصورة التى قدّر الله سبحانه إخراجه عليها . . وهذا الخلق يقع فى عالم خفىّ محجّب بحجب ثلاثة ، تلفّه فى كيانها ، واحداً بعد واحد .. هى البطن ،

فالرّحِم ، فالمشيمة التى يغلّف فيها الجنين داخل الرحم !!

فنى هذا الكون الضيق المظلم ، تجرى عمليات الخلق والتكوين ، والتصوير، بيد المبدع ، الخلاق العليم !

وقوله تعالى : «ذلكم الله ربكم له الملك .. لا إله إلا هو فأنّى تُصرفون» .

« ذلكم » إشارة إلى من خلق هذا الخلق وأبدعه ، وأخرجه على هذا النظام المحكم . . واللام للبعد ، وهى إشارة إلى علو مقام المشار إليه ، وهو الله سبحانه .. والكاف حرف خطاب للمخلوقين . . فهذا الخالق العظيم ، هو الله ، وهو رب كل مخلوق ، خلقاً ورزقاً ، وهو المتفرد بملكية الوجود ، وهو ـ سبحانه ـ بهذه الصفات ، ينبغى أن يكون الإله المتفرد بالألوهة . .

« لا إله إلا هو » . . تتجه إليه وحده الوجوه ، وتفوض إليه وحده الأمور . .

فإلى أين يولّى المشركون وجوههم ، إذا هم صرفوها عن الله ؟ إنه لا وجه إلا الضلال والخسران !

قوله تعالى :

* « إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون . . إنه عليم بذات الصدور » .

هو تعقيب على تلك الدعوة التى دعا بها الله سبحانه وتعالى عباده إليه بقوله تعالى : « ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو » .. بعد أن بيّن لهم ـ سبحانه ـ آياتٍ بينات من دلائل قدرته ، وآثار رحمته . . فمن استجاب لهذه الدعوة ،

وآمن بالله إلها واحداً لا شريك له ، فقد اهتدى إلى طريق الخير والفلاح ، ومن كفر فإن الله غنىّ عن العالمين ، لا ينفعه إيمان من آمن ، ولا يضره كفر من كفر . « ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد » (١٢ : لقمان) .

« ولا تزر وازرة وزر أخرى » أى لا تحمل نفس وزر نفس أخرى ، بل « كل نفس بما كسبت رهينة » (٣٨ : المدثر) .

— « ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون .. إنه عليم بذات الصدور » فلا تخفى على الله منكم خافية ، فيجزى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته . .

وهنا أمور :

فأولا : قوله تعالى : « ولا يرضى لعباده الكفر » :

ما معنى رضا الله هنا ؟ وإذا كان سبحانه لا يرضى شيئاً فكيف يقع مالا يرضاه ؟

المراد بالرضا هنا ، القبول ، ويكون معنى أن الله لا يرضى لعباده الكفر ، أنه ـ سبحانه ـ لا يقبله منهم ، لأنه تعالى ، طيب ، لا يقبل إلا طيباً .. والكفر نَجَس ، وخَبَث . .

ووجه آخر فى هذه الآية : وهو أن المراد بالعباد هنا ، هم المؤمنون ، ولهذا أضافهم لله سبحانه وتعالى إليه فى قوله تعالى : « لعباده » ، ويكون معنى الرضا على حقيقته ، وهو أن الله سبحانه لا يرضى لعباده الذين أراد لهم الإيمان أن يكفروا ، فهو سبحانه يهديهم إلى الإيمان ، وييسر لهم السبيل إليه — وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ورضيتُ لكم الإسلام ديناً » (٣ : المائدة) .

وعلى هذا يكون قوله تعالى : « ولا يرضى لعباده الكفر » دعوةً للمؤمنين - وكلهم عباد الله - أن يكونوا بالمكان الذى يرضاه الله لهم ، ويقبله منهم ، وأن ينأوا عما لا يرضاه الله لهم ، فإنهم عباده !

وثانياً : قوله تعالى : « وإن تشكروا يرضه لكم » .

ما المراد بالشكر هنا ؟ وهل هو الإيمان المقابل للكفر ؟ أم هو أمر آخر وراء الإيمان ؟

الشكر هنا - والله أعلم - هو أمر مترتب على الإيمان . . وهو مطلوب من المؤمنين الذين هداهم الله إلى الإيمان ، ويسر لهم سبله .. فكانوا فى المؤمنين ، ويجب بعد هذا أن يكونوا من الشاكرين ، أن هداهم الله إلى الإيمان . .

وثالثاً : ماذا عن الذين كفروا ؟ أرضى الله لهم الكفر ، وذلك بمفهوم المخالفة لقوله تعالى : « ولا يرضى لعباده الكفر » — على أن المراد بعباده هم المؤمنون خاصة ؟

الجواب - والله أعلم - أن كفر الكافرين وإن كان إرادةً لله سبحانه فيهم، ومشيئةً له غالبة عليهم - فإنه مطلوب منهم أن يُعملوا إرادتهم ، ويحركوا مشيئتهم إلى الإيمان ، لأنهم لا يدرون ما إرادة الله فيهم ولا مشيئته بهم . . وتلك هى الحجة القائمة عليهم .

أما أن مشيئة الله هى النافذة ، وإرادته هى الغالبة ، فهذا أمر لم يمنع العقلاء من أن يعملوا فى كل ميدان من ميادين العمل . . ثم هم صائرون حتما إلى مشيئة الله وقَدَره « لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون » (٢٣ : الأنبياء) .

وهذا هو موضوع قد عرضنا له أكثر من موضع من هذا التفسير ، وأفردناه ببحث خاص ، تحت عنوان « القضاء والقدر[١] » .

---

(١) الكتاب الثامن ص ٦٧٢ وما بعدها .

الآيات : (٨ — ١٨)

* « وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٩) قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى

ما كان يدعوا إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار » .

خوله نعمة : أى ساق إليه نعمة ، وألبسه إياها . . وأصل اللفظ من الخال الذى يزين المرأة . . ومن حق نعم الله التى تلبس عباده أن تكون زينةَ كمالٍ وجمال لهم . .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة عليها ، قد حثّت عباد الله المؤمنين ، على أن يطلبوا رضا الله بالشكر له ،على ما أنعم عليهم من نعم ، أجلُّها الإيمان الذى هداهم إليه . .

وفى المؤمنين ، من لا يشكر الله ، ولا يؤدى ما لنعم الله عليه من واجب الشكر المنعم . .

وفى المؤمنين ، من لا يذكر الله وهو فى حال من النعمة والعافية ، ولكن إذا مسّه ضر ضَرَع إلى ربه ، ورجع إليه ، ودعاه لكشف الضر عنه . . فإذا استجاب الله سبحانه له ، وكشف ما به من ضر ، نسى هذا الضر الذى كان يدعو الله إلى كشفه من قبل ، ونسى ربه ، وإحسانه إليه .

وهذا الإيمان ، على صورته تلك — هو ضرب من النفاق ، وصورة من صور المكر بالله . . والله سبحانه وتعالى قد توعد الذين يمكرون بآياته ، وفى هذا يقول سبحانه : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة . . ذلك هو الخسران المبين » (١١ : الحج) .

وقوله تعالى : «قل تمتع بكفرك قليلا . . إنك من أصحاب النار» — تهديد ووعيد بالعذاب الأليم فى الآخرة ، لهذا الذى يعرف الله فى الشدة ، وينكره فى الرخاء . . فهو فى الشدة يعرف ربًّا يطرق بابه ، وهو فى الرخاء لا يعرف وجه ربه .. وفى الأثر : «من عرف الله فى الرخاء عرفه الله فى الشدة» ..

وحَسَنٌ أن يعرف الإنسانُ ربه فى الشدة ، ويفزع إليه ، ويطرق باب فضله وإحسانه ، ويدعوه لكشف الضر عنه . . فذلك من إيمان المؤمن بربه وثقته فيه ، وطمعه فى رحمته ..

وأحْسَنُ الحسن أن يعرف الإنسان ربه فى الرخاء ، ويسبح بحمده ، ويشكر له ، ويذكر نعمه وإحسانه إليه . . فذلك إقرار من المؤمن بسلطان ربه ، وبقيومته على هذا الملك ، وعلى كل ما يجرى فيه . .

وذلك هو الإيمان ، وتلك هى حال المؤمن حقاً ، إن أصابه خير حمد وشكر ، وإن أصابه ضرّ رضى وصبر ، وفى الأنبياء والمصطفين من عباد الله الأسوة والقدوة . .

والتمتع بالكفر ، هو الحياة معه على ذلك الوجه الذى يزين فيه الكفر لأهله ، كل منكر ، فلا يتقيد صاحبه بأى قيد ، ولا يرتبط بأى التزام أدبى ، أو خلقى ، أو إنسانى ، قِبلَ الله أو قِبلَ الناس . .

فليتمتع الكافر بهذه الحياة البهيمية التى يدعوه إليها كفره .. إنه من أصحاب النار .. وإنه لا بأس أن ينال من يُقدَّم للقتل ما تشتهى نفسه ؟؟

قوله تعالى :

* «أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجوا

رحمة ربه قل هو يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . إنما يتذكر أولوا الألباب » ..

أى أهذا الذى يكفر بالله ، فإذا أصابه ضرٌ لجأ إليه ، وإذا كشف الضرُّ عنه نسى ربه ، ومرّ كأن لم يدعه إلى ضرّ مسّه — أهذا ، أم ذلك الذى هو على ذكر دائم لربه فى السراء والضراء جميعاً ؟ ..

أهذا الذى لا يذكر ربه إلا عند الشدّة ، أم هذا القانت فى محراب صلاته بين يدى ربه ، القائم فى ولاء وخشوع ، يقطع الليل ساجداً ، وقائماً ، وهو بين خوف من عذاب الله ، وطمع فى رحمته . فإذا ذكر عذاب الله طلب السلامة من هذا العذاب بالاستغفار ، وإذا ذكر رحمة الله ، أنِسَ بالرجاء فى مغفرته ورضوانه فلهج بالحمد والشكر ؟ .. أيستوى هذا الحامد الشاكر فى السّراء والضراء ، وهذا الجاحد الغافل ؟

وفى توقيت القنوت بالليل ، إشارة إلى المعاناة التى يجدها المؤمن فى طاعة ربه ، حيث يهجر النوم بالليل ويقهر سلطانه .. وفى هذا يقول الله تعالى : « إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقومُ قيلا » (٦ : المزمل) ويقول سبحانه فى الثناء على عُبّاد الليل ، وما لهم من جزاء عظيم عنده : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون » (١٧ — ١٨ : الذاريات) .

* وقوله تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ..

كان مقتضى السياق أن تجىء المفاضلة بين المؤمن والكافر ، أو بين من يذكر الله ومن لا يذكره ، فيقال مثلا : هل يستوى المؤمنون

والكافرون ؟ أو هل يستوى من يذكر الله ويشكر له ، ومن يكفر بالله ويمكر به ؟ .

ولكن جاءت المفاضلة بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، للإشارة إلى أن العلم ، هو الذى تقوم عليه قِيَم الناس ، وتثقل أو تخفّ به موازينهم ، فى أى أمر من أمور الدنيا ، أو الدين . .

ففى الإيمان بالله ، تكون التفرقة بين المؤمن وغير المؤمن قائمة أساساً على العلم وعدم العلم ، فمن آتاه الله علماً ، انكشف له بالعلم الطريق إلى الله ، فآمن واتقى . . وإنه بقدر علمه يكون مبلغ إيمانه وتقواه . . والله سبحانه وتعالى يقول : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء » (٢٨ : فاطر) . . ومن جَهِل ، فمن أين تأتيه المعرفة بربه ؟ ومن أين يقع فى قلبه الخشوع لجلاله والولاء لسلطانه ، والخشية من بأسه وعقابه ، وهو لا يعرف لله جلالا ، ولا سلطاناً ولا بأساً ؟ .

وليس المراد بالعلم هنا ، هو العلم النظرى التجريدى ، وإن كان لهذا العلم خطره وأثره ، فى توسيع المدارك ، وشحذ الملكات ، وإنما المراد هو العلم الذى يجلو عمَى البصائر ، ويرفع الغشاوة عن القلوب . . فهذا العلم هو ثمرة كل علم نافع ، وحصيلة كل معرفة طيبة . .

وقوله تعالى : « إنما يتذكر أولوا الألباب » — هو تعقيب على هذا الحكم الذى تضمنه قوله تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » الذى يفرق بين من يعلم ومن لا يعلم . فمن علم ، كان ذا لُبّ وفهم ، وكان على بصيرة من أمره ، فيتذكر ويتدبر ، ويهتدى إلى الحقّ ، وإلى سواء السبيل . . ومن جَهل ، كان فى ضلالٍ وعمًى ، فلا

يقف عند عبرة ، ولا يلتفت إلى موعظة ، بل يمضى فى طريق الضلالة إلى غايته . .

والله سبحانه وتعالى يقول : « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحقّ كمن هو أعمى .. إنما يتذكر أولوا الألباب » (١٩ : الرعد) .

قوله تعالى :

* « قل ياعبادِ الذين آمنوا اتقوا ربّكم . . للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعةٌ . . إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب » . .

هو نداء من رب كريم إلى عباده الذين آمنوا به ، واستجابوا لرسوله ، بعد أن سمعوا آيات ربّهم ، وعرفوا مواقع الحق منها .. وفى هذا النداء الكريم يستدعيهم ربهم إليه بالتقوى التى تقربهم منه ، وتدنيهم من رحمته وإحسانه ..

فالإيمان هو أول خطوة إلى الله . . والوقوف عند هذه الخطوة تقصير بالإيمان وتعطيل لمعطياته التي كان جديراً بالمؤمن أن يحصل عليها بإيمانه . . والعمل بهذا الإيمان ، والغَرْس فى مغارسه هو الذى يحقق للمؤمن الوصول إلى الله ، وإلى مواقع رحمته ورضوانه . . وفى هذا يقول سبحانه : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم » (٩ : يونس) .. فالإيمان مصباح يضىء للمؤمن الطريق إلى ربه .. والعمل الصالح هو الزيت الذى يُمدّ هذا المصباح بالوقود الذى تظلّ به شعلته متقدّة مضيئة أبداً . .

وقوله تعالى : « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة » ـ إشارة إلى أن الأعمال ، الحسنة، تعطى ثمرة حسنة معجلة فى هذه الدنيا إلى ما تعطيه من حسنات كثيرة فى الآخرة . . فالعمل الحسن هو حسن فى ذاته ، لا يجىء منه إلا ما هو حسن . . وهذا من شأنه أن يضمن للمحسنين حياة طيبة معه فى الدنيا ـ مع صرف النظر ـ عما يكون له من آثار طيبة فيما وراء هذه الدنيا . . وبهذا . الحساب يرى المحسنون أنهم غير مغبونين فى تعاملهم بالإحسان فى دنياهم ، وأنهم ـ وبصرف النظر عن الحياة الأخرى ، وبمعزل عنها ـ ينالون بإحسانهم حياة طيبة ، ويجدونها فى راحة الضمير ، وصفاء النفس ، وإن لم يجدوها فيما يحصّلون من متاع مادى ، وشهوات عاجلة لا تلبث أن تخمد ، فلا يجد المرء لهـــا أثراً . .

وفى إفراد كلمة « حسنة » وتنكيرها ، إشارة إلى أن ما يُجزى به المحسنون بإحسانهم فى الدنيا ، هو قليل قليل بالإضافة إلى ما يجزون به فى الآخرة . .

وقوله تعالى : « وأرض الله واسعة » ـ إشارة إلى أن المؤمن قد لا يجد فى مكانٍ ما سبيلا إلى العمل ، وإلى الغرس فى مغارس الإحسان ، حيث تـكون الأرض التى يعيش فيها أرضاً خبيثة ، لا تمسك ماء ، ولا تنبت نباتاً . . وهنا ينبغى على المؤمن أن يتحول عن هذه الأرض ، إلى غيرها ، مما هو طيب صالح . . فأرض الله واسعة ، وكما أن فيها الخبيث النـكد ، ففيها الطيب الـكريم . .

وفى هـذا ، دعوة للمؤمنين الذين كانوا يعيشون فى مـكة قبل الهجرة ، محاصرين من المشركين ، لا يستطيعون أن يعطوا إيمانهم حقه ، ولا أن يفجروا ينابيع الخير منه ـ فى هذا دعوة لهم أن يتحولوا عن هذا الموقع من الأرض إلى أرض أخرى ، حيث تطيب فيها مغارسهم ، وحيث يرفعون مصابيح الهدى التى بين أيديهم ، فتملأ الدنيا من حولهم هدى ونوراً . . وقد كان ، فهاجر المؤمنون

إلى المدينة ، وفى هذا المكان الطيب من الأرض سطع نور الإسلام ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً . .

وقوله تعالى : « إنما يُوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب » ـ دعوة المؤمنين إلى الصبر ، الذى هو مِلاك كل أمر يراد منه الخير الكثير الدائم الذى لا ينقطع . . إن كل ثمرة إنما تكون قيمتها بقدر ما يُبذل فيها من جهد ، وما يحتمل فى سبيلها من عناء ومعاناة . . ومن طلب ثمرة بلا عمل ، فقد طلب رِيًّا من سراب !

وفى قوله تعالى : « بغير حساب » ـ إشارة إلى أن جزاء الصبر جزاء عظيم ، وأن ميزان العمل الذى يجىء فى أعقاب الصبر يرجح بجميع الأعمال كلها ، حيث ينال الصابر جزاء صبره ، ما يشاء من فضل وإحسان ، بلا حساب !

قوله تعالى :

« قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين . وأمرت لأن أكون أول المسلمين » هو بيان لحال النبى فى هذه الدعوة التى حملها إلى الناس من ربه ، وأنه مأمور من الله ، بما يأمر الله به عباده جميعاً . . فهو والناس فى هذا الأمر السماوى على سواء ، فلا استثناء لأحد فى هذا القانون ، كما يقع ذلك فى القوانين الوضعية ، التى ترفع السلطان عن الخضوع للقانون العام الذى تخضع له الرعية . . بل وأكثر من هذا ، فإن صاحب الدعوة ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يتلقى هذه الدعوة من ربه فى صورة أمر وإلزام ، على حين يتلقاها الناس مجردَ دعوة لا إلزام فيها ، ولا إكراه معها . . « إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين » .

وفى قوله تعالى : « وأمرت لأن أكون أول المسلمين » ـ إشارة إلى أن رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هو أول المسلمين : خضوعاً لسلطان

الله ، وامتثالا لأمره ، يُسْلِم إليه وجوده ، وتخاص له ولاءه .. وأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ القدوة للمسلمين فى طاعة ربه ، وفى اتقاء حرماته ، وأنه ـ وهو سلطان المؤمنين ـ أكثر المؤمنين عبادة لله ، واجتهاداً فى عبادته ، واتقاء لحرماته ، وخوفاً من عقابه . إنه عبد من عباد الله . وأفضل عباد الله ، وأكرمهم عنده ، وأقربهم إليه ، من كان أعرفهم به ، وأكثرهم طاعة وولاء له .. فمن أراد من المؤمنين أن يكون أقرب إلى الله ، فليكن فى طاعة لله ، فإنه كلما ازداد طاعة ازداد قربا . .

قوله تعالى :

* « قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم »

وشأن عباد الله فى طاعته ، شأنهم فى معصيته . . فكما أنه من ازداد طاعة لله ، ازداد قربا منه ، كذلك من أقام أمره مع الله على معصيته ، والخروج عن أمره ، والاجتراء على محارمه ـ كلما ازداد معصية لله ، ازداد بعداً عنه ، وتعرضاً لسخطه وغذابه . . حتى الأنبياء ، وحتى سيد الأنبياء ، رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إنه لو عصى الله ـ وحاشاه ـ فهو محاسب بهذا الحساب . .

وهكذا شريعة الله . . وهكذا عدل الله : « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » (٣١ : النجم)

قوله تعالى :

* « قل الله أعبد مخلصاً له دينى . . فاعبدوا ما شئتم من دونه »

هذا هو حال النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مع ربه . . إنه على العبادة الخالصة لله ، لا يلتفت إلى غيره . ولا يدين لسواه . أما أنتم أيها

المشركون فلكم ما تشاءون من معبودات تعبدونها من دون الله . . « لكم دينكم ولى دين » (٦ : الكافرون) فكلٌ محاسب بما يدين به ، وكل مجزىٌ بما يعمل : « لا تُسألون عما أجرمنا ولا نَسأل عما تعملون » (٢٥ : سبأ)

قوله تعالى :

* « قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة .. ألا ذلك هو الخسران المبين »

إن العبرة فى الربح أو الخسارة ، هى فى الحساب الختامى ، الذى يُسوّى فيه حساب الإنسان . . أما هذا الحساب اليومى فى هذه الدنيا ، فإنه لا يكشف عن المركز الصحيح للإنسان . .

هكذا يعرف الناس شئونهم فى هذه الدنيا . إنهم يقيمون موازين حياتهم لا على لحظة عابرة ، ولا على يوم يعيشون فيه ، وإنما ينظرون إلى الغد ، وما بعد الغد .. وحياتهم الدنيوية ، هذه ـ لو عقلوا ـ لحظة من لحظات حياتهم الممتدة إلى ما وراء هذه الحياة ، وأنها ليست إلا يوماً ، أو بعض يوم . . وإنه لضلال مبين أن يقيم المرء حسابه كله على ميزان يوم أو بعض يوم ، حتى إذا طلع عليه صبح يوم جديد ، ولم يكن قد عمل له حسابا ، وجد نفسه ولا شىء معه . وهنا يكون الندم ، ويكون الخسران . .

والخاسرون حقاً ، هم أولئك الذين أقاموا ميزانهم على هذه الحياة الدنيا ، ولم يجعلوا للآخرة حساباً .. إنهم يجيئون إلى الحياة الآخرة ، وقد صَفِرَت أيديهم من كل خير يجدونه فى هذا اليوم ، بل سيجدون ديوناً كثيرة هم مطالبون بها ، ولا يقدرون على أداء شىء منها ، إلا الحبس فى جهنم ، وفاء لهذه الديون !

والسؤال هنا : إذا خسر المجرمون أنفسهم ، وأوردوها موارد الهلاك يوم

القيامة ، فكيف تكون خسارتهم لأهليهم فى هذا اليوم ؟

والجواب ـ والله أعلم ـ من وجهين :

الوجه الأول : أن أهل الضلال لا يلتقى بعضهم ببعض يوم القيامة إلا على عداوة وخصام ، وإلا على قطيعة ونفور .. كما يقول الله تعالى : « ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين » . (٢٥ : العنكبوت) .

فأهل الضلال بعضهم فتنة لبعض ، ومن هنا يقع بينهم يوم القيامة هذا الخصام ، وتلك العداوة ، ومن هنا يلتفت الضالّ ، فلا يجد حوله فى جهنم إلا وجوها كالحة تلعنه ، وترمى إليه بالعداوة ، ممن كانوا هم أقرب الناس إليه فى الدنيا من أهل وصديق .

والوجه الثانى : أن خسارة الضال لأهله يوم القيامة ، هو تفرقهم عنه ، فلا يلتقى بهم إذا كانوا فى الجنة ، أما إذا كانوا فى جهنم فإن لقاءه بهم حسرة وبكاء وعويل . . على خلاف لقاء المؤمنين ، حيث يجمعهم الله بأهليهم ، وبإخوانهم من أهل الجنة ، فيتضاعف لذلك سرورهم ، نعيمهم ، كما يقول سبحانه : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم » (٢١ : الطور) وكما يقول سبحانه عن أهل الإيمان : « ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون » (٧٠ : الزخرف) .

قوله تعالى :

* « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل . . ذلك يخوف الله به عباده . . ياعباد فاتقون » هذا هو الذى يلقاه أهل الضلال فى الآخرة تغشاهم النار ، وتشتمل عليهم ، من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم . . كما يقول سبحانه :

« لهم من جهنم مهادٌ ومن فوقهم غواش » (٤١ الأعراف) والظلل جمع ظلة ، وهى ما يستظل به

وفى التعبير عن النار بالظلل ، مع أن الظلل يُتَّقَى بها وهج الشمس ـ إشارة إلى أن النار المسلطة على أهل النار لا تُتَّقى هناك إلا بنار من النار . . إذا استصرخ أهلها ، كان الصريخُ لهم بعضاً منها ، وقطعاً من شواظها . . وفى هذا بلاء إلى بلاء ، وعذاب إلى عذاب . . حيث تتضاعف البلوى بهذا الطارق الجديد ، الذى كان موضع أملٍ ورجاء . . وفى هذا يقول المتنبىء :

إذا استشفيتَ من دَاء بداء فأقتلُ ما أعلّك ما شَفَا كا

والظلل التى من تحت أهل النار هى نار ، يمشون على شواظها ، فلا ينتقلون إلا من نار إلى نار ، فحيثما وضعوا أرجلهم كانت النار تحتها ، فلا ظلّ يمشون عليه إلا هذه النار الجاحمة التى يضعون أقدامهم عليها .

وقوله تعالى : « ذلك يُخَوِّف الله به عباده » . . أى هـذا العرض لأهوال جَهَنَّم — أعاذنا الله منها — وما يلقى فيها أهلها من هذا العذاب الأليم — هو تحذير من الله لعباده ، وتخويف لهم من هذا المورد الوبيل ، وهم فى هذه الدنيا ، ليأخذوا لذلك حذرهم ، وليعملوا على توقّيه ، بالإيمان بالله واتقاء محارمه ، ولهذا جاء قوله تعالى : « يا عباد فاتقون » تعقيباً على هـذا التحذير ، وإلفاتاً إلى طريق السلامة والنجاة من هذا البلاء الراصد ، وذلك بتقوى الله . فالتقوى هى مركب النجاة من هذا الطوفان الجهنّمى ، الذى يحتوى بأمواجه المتلاطمة كلّ من لم يكن فى هذا المركب !

وفى قوله تعالى : « ياعباد » نداء من رب كريم إلى عباده ، ليأخـذوا طريقهم إليه سبحانه وتعالى ، حيث الأمن والسلامة والنعيم والرضوان .

والفاء فى قوله تعالى : « فاتقون » هى فاء الفصيح ، والتفريع ، وهى تفصح عن كلام محذوف . . أى قد بينتُ لكم ما ينتظر الذين لا يؤمنون بى ، ولا يتقون محارمى ، من بلاء شديد وعذاب أليم ، فاتقون ، أنتم حتى لا تقعوا تحت طائلة نقمتى وعذابى . .

قوله تعالى

* « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله . . لهم البشرى . . فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله أولئك هم أولوا الألباب »

هو تعقيب أيضاً على هذا العرض الذى عُرضت فيه جهنم وأهلها ، وما يلقون فيها . .

وفى هذا التعقيب بيان شارح للطريق الذى يعدل بالناس عن الطريق الجهنمى ، إلى طريق النجاة والفوز بجنات النعيم . .

فمن اجتنب الشرك بالله ، وأخلى يديه ، وقلبه ، من هذه المعبودات المخلوقة لله ، أو المصنوعة بأيدى الناس — من اجتنب هذه المعبودات ابتداء ، أو تاب إلى الله من بعد شركه ، وأخلص لله عبادته ، فله البشرى بالنجاة والفوز برضوان الله . .

وقوله تعالى : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » أى أن هذه البشرى بالنجاة والفلاح إنما ينالها عباد الله الذين يستضيئون بنور الله ويتدبرون ما يقع لأسماعهم من كلمات ، فيميزون الخبيث من الطيب ، والضلال من الهدى ، ثم يؤدّيهم هذا إلى أن يستجيبوا لكل ما هو طيب ، وأن يتبعوا كل ما هو هدى ورشاد . . فإنهم إن فعلوا ذلك كانوا من عباد الله المهتدين ، الذين إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وأخذوا طريقهم المستقيم ، السالك بهم إلى جنات

النعيم .. ثم كانوا مع هذا — أو قبل هذا — أصحابَ عقول ، يعيشون بها فى صورة بشرية كريمة ..

والطاغوت : هو كل ضلال . . وأصله من الطغيان ، الذى يعدل بصاحبه عن طريق الحق والخير ، إلى متاهات الضلال والهلاك . .

وفى التعبير عن الضلال بكلمة « الطاغوت » — تشنيع على الضلال ، وعرض له فى تلك الصورة ، التى تتمثل فى هذه الأحرف المتنافرة ، التى تشكلت منها هذه الكلمة ، كما يتشكل الضلال من وجوه الآثام والشرور ..

وقوله تعالى : « أن يعبدوها » مصدر مؤوّل ، وقع بدلا من الطاغوت فى قوله تعالى : « والذين اجتنبوا الطاغوت » . . أى اجتنبوا عبادة الطاغوت . .

وفى تأنيث الطاغوت ، إثارة لمشاعر البغضاء والكراهية ، التى عند الجاهليين للأنثى ، ليلتقوا بهذه المشاعر مع معبوداتهم ، ولينظروا إليها فى صورة أنثى يعبدونها ، ويخرون للأذقان سجّداً بين يديها . .

وهكذا من المتناقضات التى تعيش فى عقولهم الفاسدة ، إذ كيف يستقيم لذى عقل أن يحقِّر الأنثى ، ويكره وجهها فى صورة ابنة هى فِلذة من كبده ، ثم إذا هو عبد ذليل بين يدى أنثى سوّاها بيده من ، حجر ، أو خشب ؟ .

الآيات : (١٩ — ٢٦)

* « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ (١٩) لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي

مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ (٢٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَابِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَامًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٢) ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٢٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « أفمن حقّ عليه كلمة العذابُ أفأنت تُنقذُ من فى النّار » ؟.

هو تهديد ووعيد لأولئك الذين استولى الضلال عليهم ، فحجب عقولهم عن رؤية النور الذى يشعّ من حولهم ، وأصمّوا آذانهم عن داعى الهدى الذى يدعوهم إليه ، ليخرجهم مما هم فيه من ضلال . .

والخطاب لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وأنه لا يملك

أن يردّ قضاء الله ، فى هؤلاء المشركين ، الذين حَقّت عليهم كلمة العذاب ، وأنهم من أصحاب النار ، فإيدَعْهم الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — لمصيرهم هذا ، بعد أن أعذر إليهم ، وبلّغهم رسالة ربه ..

وقوله تعالى : « أفأنت تنقذ من فى النار » استفهام يراد به النفى ، وهو جواب للشرط قبله . . « أفمن حق عليه كلمة العذاب » أى أفمن حق عليه كلمة العذاب ، ينتفع بالهدى الذى بين يديك أيها النبىّ ، ويتحول من الشرك إلى الإيمان ؟ ذلك محال . . « أفأنت تنقذ من فى النار » ؟ إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب . .

قوله تعالى :

* « لكن الذين اتقوْا ربهم لهم غُرَفٌ من فوقها غُرَفٌ مبنية تجرى من تحتها الأنهارُ وعدَ الله لا يخلفُ الله الميعاد »

هو إشارة إلى أن قضاء الله فى خلقه ، ليس حجـةً لأهل الضلال على ما هم فيه من ضلال ، وأن عليهم أن يعملوا بمعزل عما لِله من مشيئة فيهم ، لأنهم لا يدرون ماتلك المشيئة .

فهؤلاء المؤمنون من عباد الله ، المتقون لحرماته ، قد أخذوا بالأسباب التى من شأنها أن تدنيهم من الله ، وتبلغ بهم منازل رضوانه ، دون أن يعلموا مشيئة الله فيهم . ولـكنهم مع هذا قد أخذوا بالأسباب .. إنهم لم يستسلموا للقَدَر إلا وهم على طريق العمل . . وهذا هو مايقضى به العقل .. إن العاقل لا يُلقى بنفسه بين مخالب حيوان مفترس ، أو يضع يده فى فم حيّة . . بل إنه ليفر من وجه هـذا الخطر ، وإن كان هذا لا يمنع القَـــدَر المقدور له ! . .

إن الجنة لا يدخلها إلا مؤمن .. فمن كان على غير الإيمان ، وطلب الجنة فقد غَبَن نفسه ، وأضلّها وغرّر بها .. فليطلب المرء رضوان الله من بابه ، وهو الإيمان .. ثم يدع ما وراء ذلك ، فإن كان ممن أراد الله لهم الهدى والرشاد ، أذن له بالدخول ، ووفقه للعمل الصالح ، وإن كان ممن أراد الله له الضلال والشقاء ، حجبه عنه ، وحلّى بينه وبين ما هو فيه من ضلال ! ..

إن المرء لا يحاسب على إرادة الله فيه ، وإنما يحاسب على إرادته هو لنفسه ، على ما تجرى عليه أموره فى الدنيا .. فهو إن سرق أخذ بجريرة السرقة ، وإن قتل أخذ بمن قتل .. وهكذا .. إن العقل يقضى بأن يسأل الإنسان نفسه إزاء كل أمر يعرض له : ماذا أريد ، لا ماذا يريد الله بى ، أولى ؟ لأنه يعرف يقيناً ماذا يريد هو ، ولا يعرف قطعاً ماذا يريد الله به ، أوله ..

وفى وصف الغرف بأنها مبنية — إشارة إلى أنها ثابتة ، تطيب فيها الحياة بالسكن والاستقرار . وأنها ليست خياماً مضروبة ، لا يستقر المقيم فيها إلا ريثما يتحول بها إلى أماكن أخرى ..

ونعود مرة ، بعد مرة ، لنقرر أن هذه الصور التى لنعيم الجنة ، مما هو من حياة البادية ومطالب النفس فيها — هذه الصور ، هى مما يشتهيه أهل الجنة الذين حُرموا منه فى دنياهم ، وقصُرت أيديهم عن تناوله ، فهى بالنسبة للمحرومين منها نعيم عظيم ، لا يكمل نعيمهم إلا بتحقيقه ، وإن كان لا يُعدّ شيئاً إلى ما فى الجنة من ألوان النعيم .

وقوله تعالى : « وَعْدَ الله » منصوب على الإغراء ، أى انتظروا وعد الله ، أو صدّقوا وعدَ الله .

قوله تعالى :

* « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فَسَلَكَه ينابيع فى الأرضِ ثم يُخرج به زرعاً مختلفاً ألوانُه ثم يَهيجُ فتراه مُصفرًّا ثم يجعله حطاماً إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب » . .

هو عرض لقدرة الله ، وتذكير بآلائه ، ونعمه على عباده . .

فهذا الماء ، ينزل من السماء بقدرة القادر ، ثم يأخذ مسالكه فى ظاهر الأرض ، وباطنها ، فيكون على ظهر الأرض جداولَ وأنهاراً ، ويكون فى باطنها شرايين ، تتجمع ، ثم تتفجر منها العيون ، ومن ماء الأنهار والعيون ، يخرجَ الزرع مختلفَ الألوان ، والثمار . . وهذا الزرع يأخذ دورة فى الحياة كدورة الكائن الحى ، ينتقل من طور الطفولة إلى الشباب ، فالكهولة ، فالشيخوخة ، فالموت . .

وهيجان النبات : فَوَرانه ، وبلوغ أشدّه . . أشبه بفوران الشباب وهيجانه . .

وفى العطف بالفاء فى قوله تعالى : « فتراه مصفراً » . إشارة إلى قصر الزمن بين شباب الزرع وشيخوخته . .

وفى العطف بثم فى قوله تعالى : « ثم يجعله حطاماً » — إشارة إلى الزمن بين اصفرار النبات ، وجفاف ماء الحياة منه ، وهو زمن أطول بالنسبة إلى الزمن بين هيجانه واصفراره . .

والحطام: القطع المحطّمة من كلّ شيء قابل للكسر .. مثل حطام الآنية، أو قطع الخشب ونحوها، وهذا ما يكون من النبات بعد أن يجفّ وييْبس.

وقوله تعالى: «إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب» .. إشارة إلى أن هذه المشاهد التى تعرضها الآية الكريمة لقدرة الله، لا يراها، ولا يذكر ما فيها من دلالات دالة على تلك القدرة، إلاّ أصحاب العقول السليمة، التى لم يُغطّ عليها الجهل والضلال ..

قوله تعالى:

* «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه .. فويلٌ للقاسية قلوبُهم من ذكر الله أولئك . فى ضلال مبين».

جواب الشرط (مَن) محذوف دل عليه المقام، وتقديره: أيستوى من شرح الله صدره للإسلام، فأشرقت نفسه بنور الحق، واستبان له الطريق إلى الله، ومن ختم الله على قلبه، فلم يقبل ما ساق الله إليه من نور، فضلّ سواء السبيل؟ وهذا مثل قوله تعالى: «أفمنْ كان على بيّنةٍ من ربّه كمن زيّن له سُوء عمله واتبعوا أهْوَاءهُمْ» (١٤: محمد).

قوله تعالى: «فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله» .. تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين الضالين، الذين إذا ذُكّروا بآيات ربّهم اشمأزّوا ونفروا .. وهذا هو بعض السرّ فى تعدية اسم الفاعل «قاسية» بحرف الجرّ (مِن) وذلك لتضمنه معنى (نافرة)، أى فويل للنافرة قلوبهم من ذكر الله .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «وإذا ذُكر الله وَحْدَه اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون»: (٤٥: الزمر) ..

قوله تعالى :

* « اللّه نزّل أحسنَ الحديث كتاباً متشابهاً مثانِىَ تقشعرّ منه جلود الذين يخشوْن ربّهم ثم تلين جلودهم وقلوبُهم إلى ذكر اللّه ذلك هُدَى اللّه يهدى به من يشاء من عباده ومن يضلل اللّه فما له من هاد » .

هو إلفات إلى نعمة جليلة من نعم اللّه ، إلى جانب ما ينزل سبحانه من نعم . . فهو سبحانه الذى أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج منها حباً ونباتاً ، تغتذى منه الأجسام ، وإنه بغير هذا الماء ، وبما يُخرج من الأرض من ثمرات ، لا يكون للإنسان ولا لكائن حىّ حياة . . ثم هو سبحانه بعد أن كفَلَ للإنسان حياته ، وللجسم حاجته ـ أنزل له من السماء ما يحيا به الجانب الروحىّ منه . . فالإنسان ليس جسداً وحسب ، مثل سائر الأحياء ، وإنما هو جسدٌ ورُوح ، وهو بهذا الجسد وحدُه حيوان ، ولا تتحقق إنسانيته إلا بالجسد والروح معاً . .

وقوله تعالى : « اللّه نزّل أحسنَ الحديث » . . هو بيان للغذاء الروحى الذى أنزله اللّه ، وهو القرآن الكريم . . إنه حديثُ اللّه إلى عباده ، وكلماته إليهم . . فأى حديث أحسنَ من حديث اللّه ؟ وأى كلام أكرم وأطيب من كلامه ؟ .

وقوله تعالى : « كتاباً متشابهاً مثانِى » . . هو بدل من قوله تعالى : « أحسن الحديث » . .

وهو وصف لأحسن الحديث ، وبيان له . . فأحسن الحديث ، هو هذا الكتاب ، أى القرآن الكريم ، وهو كتاب متشابِه فى جلال قَدْره ، وعلوّ منزلته ، وسموّ معانيه . . إنه الحق فى آياته وكلماته . . فهو على درجة واحدة

فى كماله وجلاله ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » : (٨٢ : النساء) .

والثانى : جمع مثنى ، وذلك بما فيه من بيانٍ للأمور وأضداد . . كالإيمان والكفر ، والحق والباطل ، والهدى والضلال ، والخير والشر ، والحسنات والسيئات، والجنة والنار . . والقرآن الكريم فى الحالين ، هو على مستواه العالى من الكمال والجلال . . فالحديث عن الكفر مثلاً ، معجز إعجازَ الحديث عن الإيمان ، لأن هذا وذلك من كلام الله . .

وقوله تعالى : « تقشعرّ منه جلود الذين يخشوْن ربّهم » .

الاقشعرار ، والقُشَعْريرة ، حال تعترى الجسد من أثر رهبة أو خوف ، فيموج الجلد بموجات أشبه بمسّة الكهرباء .

واقشعرار جلود الذين يخشون ربّهم من هذا الحديث المنزل من عند الله ،هو لما يقع فى قلوبهم من رهبة وجلال لما يسمعون من كلام الله ، الذى يقول الله سبحانه وتعالى فيه : « لو أنزلنا هذا القرآن على جَبَلٍ لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » (٢١ : الحشر) . فإذا نزل هذا القرآن على القلوب المؤمنة اهتزت لجلاله ، وزُلزلت أقطارها لرهبته . . أما غير المؤمنين ، الذين لا يعرفون الله ولا يَقْدُرونه قَدْره ، فلا تمس قلوبَهم نفحةٌ من آيات الله، ولا تصوبُها قطرة من سماء كلماته . .

وقوله تعالى : « ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » إشارة إلى حالٍ أخرى من أحوال المؤمنين الذين يخشون ربّهم فى لقائهم مع آيات الله . . إنهم فى أول لقائهم مع آيات الله ، وفى مفتتح كلّ استماع إليها ، تغشاهم حال من الخوف والرهبة ، فتقشعرّ لذلك جلودهم . . ثم إذا هم أطالوا النظر فى آيات

الله ، وامتدّ جلوسهم فى حضرتها ، أخذ هذا الخوف وتلك الرهبة يُزايلانهم شيئاً ،شيئا ، حيث تعلوهم السكينة وتظللهم الطمأنينة وبغشاهم الأنس ، فتسكن قلوبهم الواجفة ، وتهدأ أوصالهم الراجفة ، وإذا جلودهم التى عَلَتْهَا أمواج القشعريرة ، وشدّتها رعدة الخوف ، قد استرخت ولانت !

وفى تعدية الفعل « تلين » بحرف الجرّ إلى ـ إشارة إلى تضمين الفعل معنى الميل ، بمعنى أن قلوبهم تميل وتهفوا إلى مواصلة الحياة مع كتاب الله . .

وقوله تعالى : « ذلك هدى الله » الإشارة إلى القرآن الكريم ، وأنه هُدًى الله ، الذى أنزله على رسوله ، ليكون هدًى للعالمين . .

وقوله تعالى : « يهدى به من يشاء من عباده » . . أى أن هذا الهدى لا يهتدى به إلاّ من وفّقه الله ، وشرح صدره للإيمان . .

وقوله تعالى : « ومن يضلل الله فما له من هادٍ » . . أى أمّا من أضلّه الله وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ـ فلن يهتدى أبداً ، ولن تجدى معه الحجج التى تساق إليه . . « من يهد الله فهو المهتد ومن يُضلل فلن تجد له وليّاً مرشداً » (١٧ : الكهف)

قوله تعالى :

* « أفمن يتّقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة . . وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون » .

أى أفمن يُلقى فى جهنم فيتقيها بوجهه ، كمن عافاه الله من هذا البلاء ، وقيل له ادخل؟ الجنة كلاّ . . « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة . . أصحاب الجنة هم الفائزون » (٢٠ : الحشر) .

وقوله تعالى : « وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون » معطوف على

محذوف ، هو بيان لحال المؤمنين الذين اتقوا سوء العذاب بإيمانهم ، فقيل لهم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ، « وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون » .

وفى اتقاء العذاب ودفعه بالوجه ، إشارة إلى شدّة هذا العذاب ، حتى أن الوجه الذى تقوم جوارح الإنسان على حراسته ودفع الأذى عنه ، يصبح هو الأداة التى يُدفع بها هذا العذاب . .

قوله تعالى :

* « كذّب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » .

هو مواجهة للمشركين بما ينتظرهم من عذاب مباغت ، يطلع عليهم من حيث لا يشعرون ، كما وقع ذلك للذين كذبوا رسلَ الله من قبلهم .. فتلك هى عاقبة المكذبين ، ولن يفلت هؤلاء المشركون من هذه العاقبة . .

قوله تعالى :

* « فأذاقهم الله الخزىَ فى الحياة الدنيا والعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .

هو بيان للعذاب الذى حلّ بالمكذبين . . إنه عذاب فى الدنيا ، بما أصابهم فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، وعذاب فى الآخرة ، حيث تكون النار مأواهم .. وهذا العذاب الأخروى أكبر من كل عذاب يراه الناس فى هذه الدنيا . . ولكن المكذبين فى غفلةٍ من هذا ، فهم لا يعلمون سوء هذا المصير الذى ينتظرهم .

الآيات : (٢٧ — ٣١)

* « وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ

يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كلّ مَثَلٍ لعلهم يتذكرون ».

المراد بالناس هنا ، هم المشركون ، الذين وُوجِهوا بالرسالة الإسلامية . . ثم هو خطاب عام للناس جميعاً إلى آخر الدهر . .

وقوله تعالى : « من كلّ مثل » أى من كل مثل فيه عبرة وعظة . .

قوله تعالى :

* « قرآنا عربياً غير ذى عوج لعلهم يتقون » .

قرآنا : منصوب على المدح ، وعربياً صفة لقرآن ، وغير ذى عوج صفة ثانية له . . أى أن هذا القرآن الذى ضرب الله سبحانه فيه الأمثال للناس ، هو قرآن عربّى مبين ، واضح المعنى ، بيِّن الدّلالة ، ليس من سجع الكهان ، ولا من رطانة الرهبان . .

وقوله تعالى : « لعلهم يتقون » هو تعليل لنزول القرآن بلسان عربّى مبين ، فبهذا اللسان العربّى المبين ، يقع منه العلم ، ومن العلم يكون الإيمان والتقوى ، ومثل هذا قوله تعـالى : « وكذلك أنزلناه قرآنا عَرَبِيًّا

وَصَرَّفْنَا فيـه من الوعيد لعلهم يتقون أو يُحـدثُ لهم ذكراً » : (١١٣ : طه) .

قوله تعالى :

* « ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلمـاً لرجلٍ هل يستويان مثلاً . . الحمد لله . . بل أكثرهم لا يعلمون » .

هذا المثل ، هو من تلك الأمثال التى ضربها الله سبحانه وتعـالى للناس فى القرآن . .

وفى هذا المثل تُعرض صورة لرجلين مملوكين . .

أمّا أحد الرجلين فهو فى مِلْـكة شركاء ، متشاكسين ، أى مختلفين طباعاً ، ونوازع ، وتفـكيراً . . فهم على خلافٍ فى أمر هذا الرجل المملوك لهم . . هذا يأمره بأتيان أمرٍ ، وهذا ينهاه عن إتيان هذا الأمر . . وثالث يطلب منه عملاً ، ورابع يطلبه فى نفس الوقت لعمل . . وهـكذا يصبح هذا الإنسان موزّع المشاعر ، ممزّق الـكيان . . لا يدرى ماذا يأخذ وماذا يدع ، ولا يستطيع أن يقرر أيتقدم أم يتأخر . . إنه ريشة فى مهبّ ريح هوجاء . .

وأما الرجل الآخر فهو فى مِلك يد واحدة . . فهو مع ما لـكه على أمر معلوم ، ووجه مفهوم . . إنه يجـد كيانَه كلّه حاضراً معه ، أينما أقبل أو أدبر . .

فهل يستوى هذان المملوكان فى حظهما من الحياة ؟

إن الأول شقىّ ، تمزّقه الأيدى الممسكة به ، والمختلفة فيه . . كلّ يد تريد أن تذهب به مذهباً . .

أما الآخر ، فهو على حال من الأمن والاستقرار . .

ومن هذا المثل تبدو العبرة والعظة لمن اعتبر واتعظ .

فالذى يعبد آلهة شتى ، هو صورة من هـذا الرجل الذى تملكه تلك الأيدى الكثيرة المتشاكسة . . إنه يقطع أنفاسه لاهثاً ، وراء كل إله يريد أن يكسب رضاه ، بالملق والرياء ، والدّس على الآلهة الآخرين . .

وأما الذى يعبد إلهاً واحداً ، هو الله ربّ العالمين ، فهو صورة لهـذا الرّجل الذى هو سَلَمٌ لرجل ، أى خالص له ، لايدين بالولاء لغيره . إنه إذ يعبد الله وحده ، فهو على حال من الأمن والطمأنينة ، مادام مطيعاً له ، مخلصاً فى عبادته .

وقوله تعالى : « الحمد لله » . . هو التعقيب على هـذا المثل ، الذى تنكشف به الطريق إلى الحق ، وإلى الإيمان بإله واحد لا شريك له .. وهذا الحمد ، هو منطِق كل مؤمن ، ولسان كل عاقل ، نظر فى هذ المثل ، وأخذ العبرة منه . .

قوله تعالى : « بل أكثرهم لا يعلمون » ـ هو إضراب عن الحمد المطلوب من المشركين والضالين ، والذى يقتضيه العقل منهم ، وهم فى مواجهة هذا المثل المضروب . . فالناس جميعاً مطالبون من عقولهم بأن يحمدوا الله الذى ضرب لهم الأمثال ، ليبين لهم الطريق إلى الحق والخير . . ولـكن أكثر الناس ، ـــ وهم أهل الضلال والشرك ـــ لا يعلمون شيئاً ، ومن ثم فلا يحمدون الله على هذا المثل المضروب لهم ، إذ لم يعلموا ما ينطوى عليه من هدًى ونور .

قوله تعالى :

* « إنك ميتٌ وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون »

هو إحالة لما بين النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وبين المشركين ، إلى ما بعد هذه الحياة الدنيا ، إذ قد استنفد النبي جهده معهم، فى إبلاغهم رسالة ربه إليهم ، كما استفرغوا هم جهدهم معه ، فيما كانوا يرمونه به من ضر وأذى ، وفيما كانوا يكيدون له وللمؤمنين معه . .

وفى قوله تعالى : « ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » ـ إشارة إلى أن هذا الموت المقضىّ به على النبىّ وعلى الناس جميعاً ، ومنهم هؤلاء المشركون — هذا الموت ليس هو خاتمة الأمر بينه وبينهم ، وإنما هو بدء مرحلة جديدة ، يكون فيها الفصل بينه وبينهم فيُوفىّ كلٌ جزاءه . .

وفى التسوية بين النبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — وبين الناس ، فى الموت ، ثم فى التسوية بينه وبينهم فى مجلس القضاء والفصل بين يدى الله — فى هذا إشارة إلى أن الناس جميعا على سواء عند الله ، وإنما هى أعمالهم التى تُنزلهم منازلهم عنده . . « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » (٤٦ : فصلت) .

* * *

الآيات : (٣٢ — ٤٠)

* « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « فمن أظلم ممن كذَبَ على الله وكذّب بالصدق إذ جاءه . أليس فى جهنم مثوى للكافرين »

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الله سبحانه وتعالى قد أنذر المشركين بالموت ، المقضىّ به على الناس جميعاً فى هذه الدنيا ، ثم أنذرهم بالحساب ، المحكوم به على الناس جميعاً فى الآخرة . . ثم جاءت هذه الآية لتكشف

للمشركين عن المصير الذى هم صائرون إليه يوم الحساب ، وهو مصير مشئوم ، حيث تكون النار هى مثواهم . .

والاستفهام فى قوله تعالى : « فمن أظلم من كذب على الله وكذّب بالصدق إذ جاءه » — مراد به النفى ، أى أنه لا أظلم ممن جمع بين هذين المنكرين ، وهما الكذب على الله ، بنسبة الولد إليه ، أو اتخاذ تلك المعبودات التى عبدوها شفعاء عنده . . ثم التكذيب بالصدق ، وهو القرآن الذى أنزله الله على النبى ، فما كان قولهم فيه إلا أنه حديث مفترى ، وأنه أساطير الأولين اكتتبها محمد ، وتلقاها من علماء أهل الكتاب . .

فهؤلاء الذين كذبوا على الله ، وكذّبوا بالحق الذى بين أيديهم — هم أكثر الظالمين ظلماً ، لأنهم قطعوا على أنفسهم كل عُذر يعتذرون به عن هذا الكفر الذى هم فيه . وذلك أنه إذ كان لهم عُذر بالكذب على الله لجهلهم ، فإنه لا عذر لهم بتكذيب الحقّ الذى جاءهم . . إذ كان من البيان والوضوح بحيث لا يكذّب به إلا كل معاند مكابر . .

قوله تعالى : « أليس فى جهنم مثوى للكافرين » — هو استفهام يراد به الإثبات ، على طريق الإلزام والتوكيد ، حيث لا جواب لهذا الاستفهام إلا التسليم بالمستفهَم عنه ، وإلا أن يجيب المستفهَم منه بقوله : « بلى فى جهنم مثوى الكافرين » . . فهى منزلهم المعدّ لهم ، لا منزل لهم سواه . .

قوله تعالى :

* « والذى جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون »

الذى جاء بالصدق ، هو رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ والصدق الذى جاء به ، هو القرآن الكريم ، الذى تلقاه وحياً من ربه . .

والذى صدق بهذا الصدق هم المؤمنون ..

وقوله تعالى : « أولئك هم المتقون » هو وصف شامل ، للذى جاء بالصدق ، وللذين صدّقوا به.. وفى الإشارة إليهم بقوله تعالى : « أولئك » — إشارة إلى علو منزلتهم ، وأنهم بهذا المقام العالى الذى تتقطع دونه الأعناق. . وفى ضمير الفصل « هم » — إشارة أخرى إلى اختصاصهم وحدهم بهذا المقام الرفيع الكريم الذى هم فيه . .

قوله تعالى :

* « لهم ما يشاءون عند ربهم .. ذلك جزاء المحسنين » .

هو بيان لما يلقى هؤلاء المتقون من أجر عظيم ، ورزق كريم ، وهم فى هذا المقام الرفيع الذى هم فيه « لهم ما يشاءون عند ربهم » . . حيث يجدون كل ما يشتهون من نعيم الجنة ، ، حاضراً بين أيديهم . .

وقوله تعالى : « ذلك جزاء المحسنين » — إشارة إلى أن هذا الذى للمتقين عند ربهم من فضل وإحسان ، هو الجزاء الذى يجزى الله به المحسنين من عباده . . كما يقول سبحانه : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قترٌ ولا ذِلةٌ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون (٢٦ : يونس) .

قوله تعالى :

* « ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسنِ الذى كانوا يعملون » ..

هو تعليل لهذا الجزاء الذى يُجزاه المحسنون من الله . . وهو جزاء

يضاعَف فيه الإحسان إلى المحسن ، حتى ليسأل السائلون : مابال هؤلاء المحسنين يجزَون الحسنة أضعافاً مضاعفةً ، على حين يُجزَى المسيئون السيئة بمثلها ؟ أليس العدل يقضى بالتسوية فى الجزاء ، فيجزى المحسنون الحسنةَ بالحسنة ، كما يُجزَى المسيئون السيئة بالسيئة ؟ فيجاب على هذا التساؤل : إن جزاء السيئة بالسيئة ، عدل ، وإن جزاء الحسنة بأضعافها ، إحسان . . فالمسيئون مأخوذون بعدل الله ، والمحسنون مجزيّون بإحسانه ، وذلك « ليكفّر الله عنهم أسوأ الذى عملوا » أى بهذا الإحسان المضاعف يمحو الله عنهم أسوأ مافى صحفهم من أعمال ، وهى السيئات التى تقع منهم وهم على طريق الإحسان ، حتى تصبح صحفهم كلها إحسان ، فيكون جزاؤهم الإحسان بهذا الإحسان . . وهذا مثل قوله تعالى : « أولئك الذين نتقبّل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعدَ الصدْق الذى كانوا يوعدون » (١٦ : الأحقاف) . .

قوله تعالى :

* « أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَالَهُ مِنْ هَادٍ » .

الكافى : الكافل ، والحافظ . .

وعبده : هو رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه . . وفى الإشارة إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، بضمير الغيبة دون ذكره . . تنويه بشأنه وإعلاء لذكره ، وأنه — صلوات الله وسلامه عليه — هو وحده المعنىّ بهذا الحديث ، وأنّه وحده الجدير بهذه الإضافة بالعبودية الخالصة إلى ربّه . .

والاستفهام هنا ، للوجوب . . أى أن الله سبحانه وتعالى ، هو الذى يكفى

عبده محمداً ويكفله ، ويحفظه من كل سُوء يراد به . . إذ كيف يعجز سبحانه عن أن يحمى حماه هذا ، ويدفع المكروه عنه ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . .

وقوله تعالى : « ويخوّفونك بالذين من دونه » . . هو معطوف على مضمون قوله تعالى : « أليس الله بكاف عبده » ـ أى الله هو الذى يرعاك ويحفظك ، والمشركون يخوفونك بآلهتهم ، وما يقدّرون أن يلحقوه بك من سوء . . فهل يقع فى نفسك شىء من هـذا الخوف الموهوم ، وأنت فى حراسة الله ورعايته ؟ . .

وقوله تعالى : « ومن يضلل الله فماله من هادٍ » أى هذا ضلال من ضلال المشركين ، إذ يحسبون أن آلهتهم تلك تملك ضرًّا أو نفعاً . . إنهم فى ضلال مبين . فقـد أضلهم الله وطمس على عقولهم ، فلم يرَوْا إلا ظلاماً وضلالا : « ومن يُضلل الله فماله من هادٍ » .

وقوله تعالى : « ومن يهد الله فماله من مُضِلٍّ . . أليس الله بعزيزٍ ذى انتقام » . .

أى الله سبحانه وتعالى ، هو وحده ، الذى يملك الضرّ والنفع . . وهو سبحانه الذى أضلّ هؤلاء المشركين ، وهو سبحانه الذى هدى المهتدين . وأن آلهتهم تلك لا تملك من هذا الأمر شيئاً ، فلا سبيل لها إلى هداية عابديها الذين أضلهم الله ، كما لا سبيل إليها إلى ضلال المؤمنين الذين يحقرونها ويستخفّون بها . . « أليس الله بعزيزٍ » فيحمى بعزته أولياءه « ذى انتقام » « ينتقم لأوليائه ممن يكيدون لهم ؟ بلى . . إنه سبحانه عزيزٌ يُعز بعزّته من يلوذ به ، ذو انتقام ، ينتقم بقوته ممن يخرجون عن طاعته ، ويؤذون أولياءه ، وأهلَ وُدّه . .

قوله تعالى :

* « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله . . قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضرّ هل هُنّ كاشفاتُ ضُرّه أو أرادنِى بِرَحمةٍ هل هُنّ ممسكات رحمته . . قل حسبي الله . . عليه يتوكلُ المتوكلون » أى أن هؤلاء المشركين الذين يتهدّدون النبيّ صوات الله وسلامه عليه . . ويخوفونه بآلهتهم ، وما يمكن أن يريدوه به من سوء ، إذا هو أصرّ على إعراضه عنها ، أو التعرض لها ـ هؤلاء المشركون إذا سئلوا عمن خلق السموات والأرض ، ما كان لهم جواب إلاّ أن يقولوا ، خلقهن الله . . إذ كانت هذه الحقيقة من الجلاء والظهور ، بحيث لا يستطيع مكابر أو معاند أن ينكرها ، فهى من الأمور المسلّمة التى لا اختلاف عليها .

وقد كان مقتضى هذا التسليم بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض ـ أن يقيم للمشركين منطقاً سليماً مع اعتقادهم فى الله ، فلا يجعلوا لغيره شركة معه فى تصريف هذا الوجود ، وفيما يجرى فيه . . ولكنهم ـ مع تسليمهم بهذا السلطان المطلق لله ـ يجعلون لآلهتهم شركة معه فى تدبير هذا الملك ، وسلطاناً مع سلطانه فى تصريفه . .

وفى قوله تعالى : « قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضرّ هـــل هن كاشفاتُ ضُرّه أو أرادنى برحمةٍ هل هُنّ ممسكات رحمته ؟ » . .

هذا هو السؤال المطلوب من المشركين أن يعطوا له جواباً . . هل هذه الآلهة التى يتهددون بها النبيّ تملك ضرًّا أو نفعاً ؟ وهل لهـا إرادة مع إرادة الله ، وسلطان مع سلطانه ؟ وهل إذا أراد الله بالنبيّ ضرّاً هل يمكن أن تردّه

عنه ؟ وهل إذا أراد الله بالنبى خيراً ورحمة ، هل تستطيع أن تمسك هـذا الخير وتلك الرحمة عنه ؟ إن يكن ذلك مما يقولون ، فـكيف يتفق هذا مع تسليمهم بأن الله خالق السموات والأرض ؟ وهل من يخلق السموات والأرض يكون مقهوراً من تلك الدُّمَى التى يعبدونها ؟ أيتفق هذا مع ذاك ؟ .

وقوله تعالى : « قل حسبى الله » هو أمر للنبى بما يلقى به ضـلالَ هؤلاء الضّالين ، وما يتهددون به من أوهام وأباطيل . . إن الله هو حسبه وكافيه من كل ضر يراد به ، وهو حسبه وكافيه ، من كل خير يرجوه . .

وقوله تعالى : « عليه يتوكل المتوكلون » أى أن الله وحده ، هو الذى يتوكل عليه المتوكلون ، الذين يؤمنون به ، ويضيفون وجودهم إليه ، فيجدون فى ظله الأمن ، والسلامة ، والخير . .

وفى الحديث عن الآلهة بضمير المؤنث « هُنَّ » تشنيع على هؤلاء المشركين ، وتسخيف لعقولهم المريضة ، التى تتخذ من هذه الدُّمَى آلهة تعبد من دون الله ، ثم تقيم منها — بهذا الخيال السقيم — كائنات عاقلة ، فيخاطبونها ، ويلقون إليها بآمالهم وآلامهم ، وهى - بين أيديهم — صمّاء لا تسمع ، خرساء ، لا تجيب ! .

قوله تعالى :

* « قل ياقوم اعملوا على مكانتـكم إنى عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذابٌ مقيم » . .

المـكانة : المنزلة ، والحال التى يكون عليها الإنسان . .

وقوله تعالى : « اعملوا على مكانتـكم » أى اعملوا على ما أنتم عليه من ضلالٍ ، ومن معتقد فاسد مع آلهتـكم تلك . .

وقوله تعالى : « إنى عامل » أى وأنا أعمل على ما أنا عليه ، من إيمانى بالله ، وولائى له وحده . .

وقوله تعـالى : « فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم » أى وسيأتى اليوم الذى ينكشف فيه الأمر بيننا ، وسترون يومئذ من الذى سينزل به العذاب الذى يخزيه ، ويفضح ما كان عليه من ضلال . . ثم ما يكون له وراء هذا من عذاب مقيم ، يعيش فيه أبداً . .

وعذاب الخزى هو ما يقع للمشركين فى الحيـاة الدنيا ، يوم يرون بأعينهم نصر الله للمؤمنين ، وخذلانه للـكافرين ، وتحطيمَ هذه الأصنام ، ووطأها بالأقدام . .

والعذاب المقيم ، هو عذاب يوم القيامة ، الذى يخلد فيه أهل الـكفر والضلال . .

الآيات : (٤١ — ٤٦)

* « إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْـكِتَابَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَـكَّرُونَ (٤٢) أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِـكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ

اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها وما أنت عليهم بوكيل » ..

هو بيان لمهمة النبي ، وأنه رسول من الله للناس ، يبلغهم ما أنزل إليه من ربه .. فمن اهتدى بهذا الكتاب فإنما يهتدى لنفسه ، ويعمل الخير لها ، ومن ضلّ فإنما ضلاله واقع عليه ، ومجزىٌّ به ، وليس النبي وكيلاً على أحد ، يؤدّى عنه حسابَه .

وفى تعدية الفعل « أنزلنا » بحرف الجر (على) — إشارة إلى علوّ المتنزل الذى نزل منه القرآن على رسول الله ، وأنه من الله رب العالمين ، القائم بسلطانه على هذا الوجود ..

وفى قوله تعالى : « للناس » — إشارة إلى أن هذا القرآن هو خيرٌ مَسُوق من الله سبحانه للناس جميعاً ، ورحمة منزلة منه سبحانه إليهم ، وأنه إذا كان النبيّ — صلوات الله وسلامه عليه — هو الذى تلقّ هذه الرحمة من ربه — فإن الناس جميعاً شركاء له فيها ، ولكل واحد منهم نصيبه منها ، سواء دُعى إلى أخذ نصيبه أم لم يدع إلى ذلك .. وفى هذا ما يفتح

الطريق لهؤلاء المعاندين المستكبرين ، إلى كتاب الله .. فكثير من هؤلاء المشركين كانوا يأنفون أن يتفضّل عليهم النبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — بهذا القرآن الذى بين يديه . وفى حسابهم أنه قرآنه ، يعطى منه من يشاء ، ويمنع من يشاء .. وفى قوله تعالى : « للناس » ما يعزل عن القرآن هذه المشاعر التى تحول بين المشركين وبين الاتصال به .. إنه ليس قرآنَ « محمد » وليس ملك « محمد » وإنما هو كلام الله إلى عباد الله ، ورحمة الله لخلق الله .. وما محمد — صلوات الله وسلامه عليه — إلا حاملُ هذه الرحمة ، وداع إليها ، وآخذ بنصيبه الذى قدّره الله له منها .. وإنها لرحمة واسعة لا حدود لها ، ولكل إنسان حظه الذى يستطيع أن تَطوله يده منها ..

قوله تعالى :

* « الله يتوفّى الأنفس حين موتها والتى لم تمتْ فى منامِها فيمسك التى قضَى عليها الموتَ ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة ، قد جاء فيها ذكر القرآن الكريم ، الذى أنزله الله تعالى على نبيه — صلوات الله وسلامه عليه — هدى ورحمة للناس ، وروحًا وحياةً للنفوس ..

وفى هذه الآية بيان لمصير النفس الإنسانية ، وأنها صائرة إلى الله ، بما تحمل من هدى أو ضلال ، وبما معها من نور القرآن ، أو ظلام الشرك ..

فقوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » أى يردها إليه ، ويوفّيها حسابها ، حين يجىء أجلها ، وتستوفى حياتها المقدورة لها فى الدنيا ..

وقوله تعالى : « والتى لم تمت فى منامها » أى ويتوفى الأنفس فى منامها . . فالجار والمجرور فى منامها متعلق بقوله تعالى : « يتوفى » . . وعلى هذا يكون معنى الآية : « الله يتوفى الأنفس ويردها إليه حين يقبضها بالموت ، أو بالنوم . .

وقوله تعالى : « فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » هو بيان للأنفس التى يردها الله سبحانه وتعالى إليه ، حين يغشى النوم أصحابَها . . فهذه النفوس ، إن كانت قد استوفت أجلها فى الدنيا أمسكها الله عنده فلا تعود إلى الجسد مرة أخرى، وإن كان قد بقى لها فى الحياة أجل، أرسلها لتعود إلى الجسد مرة أخرى ، حتى ينتهى أجلها المقدور لها فى الدنيا . .

فالله سبحانه وتعالى يردّ الأنفس إليه حين الموت ، وحين النوم ، إلا أنه فى حال الموت يمسكها عنده إلى يوم القيامة ، أما فى حال النوم ، فإن كانت النفس قد استوفتِ أجلها فى الدنيا أمسكها الله عنده ، وإن لم تكن قد استوفت أجلها ، أرسلها لتعود إلى جسدها ، حتى ينتهى أجلها فى الدنيا.

ومن هذا يرى المرء أنه يموت كل يوم ، وأن نفسه التى تلبسه تُردّ إلى الله عند النوم، ثم يُبعث من جديد فى اليقظة حين تعود إليه نفسه التى فارقت بدنه . . وهكذا تتكرر عملية الموت والبعث كل يوم فى ذات الإنسان . . ومع هذا ينكر الضالون البعث بعد الموت ، وهم يرون هذه الحقيقة فى أنفسهم . . فهل بعد هذا الضلال ضلال؟ وهل بعد هذا السفه سفه ؟ « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون» ولكن أين من يتفكر ؟ إنهم قلة قليلة فى هذا المحيط الصاخب المضطرب بالضالين السفهاء !

[بين النفس . والروح . . والجسد]

وهنا نود أن نقف قليلا بين يدى قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين

موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » .

فقد أشارت الآية الكريمة إلى أن في الإنسان نفساً ، وأن هذه النفس تُرَدّ إلى الله ، على حين يُترك الجسد لمصيره في التراب . .

فالإنسان إذن نفس وجسد . . وهما طبيعتان مختلفتان . . فالنفس من العالم العلوى ، والجسد من عالم التراب ، وأنهما إذ يجمع الله بينهما بقدرته ، فيجعل منهما ـ سبحانه ـ كائناً سوياً هو الإنسان ، فإنه ـ سبحانه ـ بقدرته كذلك يحفظ لكل منهما طبيعته ، حتى إذا انتهى الأجل الذى قدره الله لاجتماعهما ، افترقا ، فلحق كل منهما بعالمه ، الذى هو منه .. النفس إلى عالمها العلوىّ ، والجسد إلى عالمه الترابىّ .

وقبل أن نتحدث عن ماهية النفس ، وعن الآثار التى تتركها فى الجسد ، أو يتركها الجسد فيها . حين اجتماعهما ـ نود أن نشير إلى كائن آخر ، يعيش مع الجسد والنفس ، هو الروح . فقد أشار القرآن الكريم إلى الروح ، فقال تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » (٨٥ الإسراء) وإذن فهناك : الجسد ، والروح ، والنفس ، وثلاثتها هى الإنسان .

فما الجسد ؟ وما الروح ؟ وما النفس ؟

وليس ثمة خلاف فى أن الجسد ، هو هذا الكيان من اللحم ، والعظم ، والدم ، والذى هو المظهر المادى للإنسان . .

أما الروح ، وأما النفس فهما قوتان غيبيتان تسكنان إلى هذا الجسد ، فيكون بهما معاً هذا الإنسان الحى ، السميع ، البصير ، العاقل المميز بين الخير والشر ، والنافع والضار . .

والسؤال هنا : هل الروح والنفس حقيقة واحدة ، أم هما حقيقتان ؟ وإذا كانتا حقيقتين ، فهل هما من طبيعة واحدة أم من طبيعتين مختلفتين كالاختلاف الذى بينهما وبين الجسد ؟

إن القرآن الكريم يحدثنا عن الروح ، وعن النفس . .

وفى حديث القرآن عن الروح . نجد أنها نفحة الحياة فى الإنسان ، وأنها من روح الله ، فيقول سبحانه فى خلق آدم : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (٢٩ الحجر) ويقول سبحانه : « ثم سواه ونفخ فيه من روحه » (٩ : السجدة) ويقول سبحانه فى خلق عيسى عليه السلام : « ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » (١٢ : التحريم) .

فالروح هى مبعث الحياة فى الإنسان ، وهى التى تخرج هذا الجسد الهامد إلى عالم الحياة والحركة . .

والإنسان فى هذه الحدود ، لا يخرج عن كونه حيوانا ، ذا جسد حىّ ، يتنفس ، ويتحرك ويطلب الغذاء الذى يحفظ حياته . .

فهل للحيوان روح كهذه الروح التى تلبس الإنسان ، وتكسوه حياة وحركة ؟

إننا إذا رجعنا إلى قوله تعالى عن الروح : « قل الروح من أمر ربى » — نجد أن الروح التى تلبس الكائن الحى — من إنسان أو حيوان — هى روح ، وهى من أمر الله !

ولكننا إذ ننظر فى قوله تعالى فى خلق آدم : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى » وقوله سبحانه : « ثم سواه ونفخ فيه من روحه » ـ نجد مزيداً من الله لإحسان والتكريم للإنسان ، بإضافة روحه إلى الله سبحانه وتعالى . .

وهذه الإضافة تُضفى على روح الإنسان صفاء إلى صفاء، وقوة إلى قوة . .

وإنه إذا كان لا حديثَ للعلم فى هذا الأمر الغيبىّ ، فإن المشاهدة تدعونا إلى القول بأن الأرواح التى تلبس الكائنات الحية - بما فيها الإنسان - ليست على درجة واحدة من القوة التى تنبعث منها فى الكائن الحى ، وفى الآثار التى تحدثها فيه . .

ففى عالم الحيوان مثلا . . نجد من الحيوانات مالا تكاد تُحَسّ فيه الحياة ، كالديدان مثلا ، كما نجد حيوانات تكاد تعقل ، كالقردة . . وبين هذه وتلك أنماط كثيرة من الحيَوَات التى تلبس عالم الحيوان . .

وهذا يعنى أن اختلافاً ما بين روح وروح ؛ إن لم يكن فى النوع ففى القدر ، وفى الدرجة .

ومن جهة أخرى ، فإننا نجد فى عالم البشر أناساً لا يبتعدون كثيراً عن عالم الحيوان ، بينما نجد الذكاء والألمعية والعبقرية فى أناس آخرين .

وهؤلاء وأولئك جميعاً يلبسون أرواحاً من مورد واحد ، هى نفخة الله سبحانه وتعالى فى الإنسان . . وهذا يعنى أن الاختلاف فى الأرواح البشرية ليس فى النوع،وإنما فى القدر والدرجة..أيضاً . . بمعنى أن الاختلاف بين إنسان وإنسان فى العقل ، والذكاء ، والبصيرة ، هو اختلاف فى القدر الذى كان للجسد من عالم الروح ، وفى الكمية — إن صح هذا التعبير — التى فاضت عليه من هذا العالم ! !

وهذا أيضاً ما يشير إليه الفلاسفة فى حديثهم عن الروح ، وأن كل جسد إنما تلبسه روح خاصة به ، مقدرة بحسب استعداده الفطرى ، وقدرته على احتمال ما يفاض عليه منها . .

وإذن فهذا الاختلاف بين الكائنات الحية ومنها الإنسان ـ هو أثر من آثار الروح التى لبسته ، وأنه بقـــدر حظه من الروح ـ قدراً لا نوعاً ـ يكون حظه من الترقى فى سلم الحياة .

وإذا كان لنا أن نشبه عالم الروح بمولد كهربائى عظيم ، وكان لنا أن نشبه الأجسام بلمبات الكهرباء ، على اختلاف قوتها، مما هو دون الشمعة ، إلى آلاف الشمعات ـ كان لنا أن نتمثل الأجسام ، أو اللمبات الكهربائية ، وقد اتصلت بالمولد الكهربائى العظيم ، فأخذ كل جسم أو كل لمبة بقدر قوته من النور الكهربى ، أو من عالم الروح ! . .

وعلى هـذا نرى أن الكائن الحى ، جســد وروح ، وأن الإنسان كذلك جسد وروح ، وإن كان حظه من عالم الروح ـ قدراً لا نوعاً ـ أكبر من أى كائن حى آخر فى غير عالم الإنسان .

إذن فما النفس ؟

أهى الروح الإنسانية ، سميت بهذا الاسم ، للتفرقة بين روح الإنسان ، وروح الحيوان .. إذ كان للإنسان النصيب الأوفى من هذا النور العلوى المفاض على الأحياء ؟ أم هى شىء مضاف إلى خَلْق الإنسان ، به صار الإنسان إنساناً ، بعد أن أصبح بالروح حيواناً ؟

يحدث القرآن الكريم عن النفس ، على أنها كائن له وجود ذاتى مستقل ، وبمعنى آخر ، إن القرآن يخاطب الإنسان فى ذات نفسه ، باعتبار أن النفس هى القوة العاقلة المدركة فيه ، فيقول سبحانه : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » . . ويقول جل شأنه : « يأأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » (٢٧ ـ ٣٠ الفجر) ويقول

سبحانه : « وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء » (٥٣ يوسف) ويقول : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً » (١٨ : يوسف) ويقول سبحانه : « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه» (١ : الطلاق) ويقول سبحانه: « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا » (٦ : التحريم) .

فالنفس هنا ، وفى مواضع أخرى كثيرة من القرآن ، هى الإنسان العاقل ، المكلف ، وهى الإنسان الذى يُتوقع منه الخير أو الشر ، والهدى أو الضلال .. ثم هى الإنسان بجميع مشخصاته ، جسداً وروحاً ! . .

ومرة أخرى . . ما هى النفس ؟

والجواب الذى نعطيه عن هذا السؤال هو مستمد من القرآن الكريم ، بعيداً عن مقولات الفلاسفة ، وغير الفلاسفة ممن لهم حديث عن النفس[1] .

وعلى هذا نقول :

يُشَخّص القرآن الكريم النفسَ ، ويجعلها الكائن الذى يمثل الإنسان أمام الله ، بل وأمام المجتمع أيضاً . .

فالقتل الذى يصيب الإنسان هو قتل للنفس ، كما يقول سبحانه : « ولا تقتلوا أنفسكم » (٢٩ : النساء) ويقول جل شأنه : « من قتل نفساً بغير نفس أو فسادٍ فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » (٣٢ : المائدة) .

وفى مقام القصاص تحسب « النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن » (٤٥ : المائدة) .

---

(١) من أراد النظر فى هذا الموضوع على الآراء المختلفة فى النفس أو الروح ، أو العقل ، فليرجع إلى كتابنا قضية الألوهية (الجزء الثانى) . . (الله والإنسان) .

وفى مقام التنويه بالإنسان ، ودعوته ليلقى الجزاء الحسن ، تخاطب النفس ، وتدعى ، فيقول سبحانه : « يـأيتهـــا النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » (٢٧ ـ ٣٠ : الفجر) .

والنفس فى القرآن هى الإنسان المسئول المحاسب : « ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها » (٧ ـ ١٠ : الشمس) « بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره » (١٤ـ١٥ : القيامة)

وإن بالفهم الذى يستريح إليه العقل فى شأن النفس ، هو أنها شىء غير الروح ، وغير العقل . . وأنها هى الذات الإنسانية أو الإنسان المعنوى ، إن صح هذا التعبير . . إنها تتخلق من التقاء الروح بالجسد ، إنها التركيبة التى تخلق فى الإنسان ذاتية يعرف بها أنه ذلك الإنسان بأحاسيسه ووجدانه ومدركاته . . النفس هى ذات الإنسان ، أو هى مشخصات الإنسان التى تنبىء عن ذاته . .

ولا نريد أن نذهب إلى أكثر من هذا . . وحسبنا أن نؤمن بأن الروح من أمر الله ، فلا سبيل إلى الكشف عنها كما يقول سبحانه : « قل الروح من أمر ربى » وأن النفس ، جهاز خفى عامل فى الإنسان . . هى الإنسان المعنوى ـ كما قلنا ـ ولهذا كانت موضع الخطاب من الله تعالى ، كما أنها كانت موضع الحساب والثواب والعقاب . .

قوله تعالى :

* « أم اتخذوا من دون الله شُفَعَاء قل أَوَلَو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون » ؟ .

هو بيان لضلالة من ضلالات المشركين ، بعد إقرارهم بأن الله — هو الذى خلق السموات والأرض — فهم مع إقرارهم هذا — يتخذون من

الأصنام وسائل يتوسلون بها إلى مرضاة الله ، ويرجون بها الشفاعة عنده ، ويقولون لمن يحاجّهم فيها : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَى » (٣ : الزمر) فهم — مع اعترافهم بأن هذه الأصنام ليست الإله الخالق الرازق ، المالك لما فى السموات والأرض — مع اعترافهم هذا — لا يوجهون وجوههم إلى الله مباشرة ، بل يجعلون بينهم وبين الله من يتولى الاتصال بالله عنهم ، والشفاعة لهم فيما يريدون من الله ، من جلب خير ، أو دفع ضرٍّ .. وهذا ضلال من وجوه :

فأولا : أن الإنسان — من حيث هو إنسان — مخلوق كريم عزيز بين مخلوقات الله .. قد أحسن الله خَلْقَه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وأقامه خليفةً له فى الأرض ..

وهذه منزلة عالية ، ودرجة رفيعة ، جدير بالإنسان أن يقيم وجوده فيها ، ويطلب من الله الاستزادة منها .. وذلك بدوام الاتصال بالله ، وطلب القرب منه ، بالولاء المطلق لله ، والإخلاص فى عبادته ، والاجتهاد فى طاعته .. وفى تخلّى الإنسان عن هذا المقام ، وإسلام زمامه لغيره ، من دُمًى وأشباه دُمًى ، لتقوده إلى الله — فى هذا نزول بالإنسان عن منزلته ، واعتراف منه بأنه ليس أهلاً لها ..

وثانياً : أن الله — سبحانه — الذى كرم الإنسان ، جعل طريقه إليه مفتوحاً ليس عليه خَزَنةٌ أو حجابٌ وذلك حتى يتحرر الإنسان من التبعية لأى مخلوق ، تلك التبعية التى يُسلم فيها وجوده العقلى والروحى لغيره ، فيفقد بذلك ذاتيته ، ويصبح كائنا مسلوب الإرادة ، يتحرك بإرادة غيره ، فيقاد ، كما يقاد الحيوان .

وقد حررت الشريعة الإسلامية الإنسان تحريراً كاملا ، وأطلقت كل قواه وملكاته من كل قيد ومن كل تبعية ، حتى أن الولاء الذى يعطيه المؤمن للنبى ليس ولاء أعمى ، بل المطلوب منه شرعاً أن يكون ولاء مستنداً إلى العقل ، وإلى الاقتناع . . حتى ينبع هذا الولاء عن نفس راضية وقلب مطمئن . . ولهذا كانت دعوة الإسلام دعوةً قائمة على مجرد البلاغ ، والعرض لما بين يديها من هدى . . ثم إن للناس أن يعرضوا هذا المعروض عليهم ، على عقولهم . . ثم إن لهم مع هذا إرادتهم المطلقة ، فى قبول ما عرض عليهم ، أو رفضه . .

وفى هذا يقول الله تعالى : « وقل الحق من ربكم . . فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٢٩ : الكهف) ويقول سبحانه لنبيه الكريم : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٩٩ : يونس) ويقول جل شأنه : « لا إكراه فى الدين . . قد تبين الرشد من الغى » (٢٥٦ البقرة)

وثالثاً : هؤلاء المشركون ، الذى يتعاملون مع تلك الأصنام ، قد ضلوا ضلالا بعد ضلال . . فهم ضلوا أولا ، لأنهم لم يوجهوا وجوههم إلى الله مباشرة ، بل جعلوا بينهم وبين الله من يقودهم إليه ، وضلوا ثانياً لأنهم أسلموا زمامهم لتلك الدمى التى لا تعقل ، ولا تسمع ولا تبصر ! ! فكيف يكون لهذا الدمى أن تتجه بهم إلى متجه ، وهى قابعة فى أماكنها لا تملك تحولا من حالٍ إلى حال ، أو من مكان إلى مكان ؟ وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون »؟ أى أيتعاملون مع هذه المعبودات ويسلمون أمرهم إليها ، ولو كانت لا تملك شيئاً ولا تعقل أمراً ؟ فإذا كان الإنسان على ضلال إذا أسلم نفسه لإنسان عاقل مثله ، أو لمن هو أعقل منه ، فإنه يكون على ضلال مبين ، وسفه غليظ ، إذا هو أسلم نفسه لحيوان أو حجر ! !

قوله تعالى :

* « قل لله الشفاعة جميعاً له مُلك السموات والأرض . . ثم إليه ترجعون »

هو تقرير لتلك الحقيقة المطلقة التي غفل عنها المشركون ، وعمِىَ عنها الضالون ، وهى أن الشفاعة جميعها لله وحده ، لا يملك أحد مع الله شيئاً منها . . فهو سبحانه مالك السموات والأرض ، وإليه يُردّ كل ما يجرى فيهما ، وما يقع للمخلوقات من نفع أو ضر . .

وقوله تعالى : « ثم إليه ترجعون » هو دعوة إلى الناس أن يرجعوا إلى الله، وأن يُسلموا أمرهم إليه وحده يوم الحساب والجزاء . . فهو — سبحانه — الذى يتولى حساب الناس وجزاءهم . . فمن السفه والجهل معاً أن يكون هناك عَمَل يُتجه به إلى غيره . . إنه عمل ضائع ، لايقام له وزن ! بل هو وِزر يحمله الإنسان معه ، لأنه حجبه عن الله ، وقَصّر به دون العمل لمرضاته . .

والشفاعة هنا : هى ما يُجاب به الخير ، ويدفع به الضر . . أى أن كل ما هو مطلوب للإنسان من جلب خير أو دفع ضر ، هو بين يدى الله ، وهو سبحانه المتصرف فيه وحده . . فمن طلب فليطلب من الله وحده . . ومن طلب من غيره شيئاً ، فقد ضل سعيه وخاب رجاؤه . .

قوله تعالى : « وإذا ذُكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة . وإذا ذكر الذين من دونه إذاهم يستبشرون »

هو فضح لحال من أحوال المشركين ، وكشف لضلالة من ضلالاتهم . . فهم إذا ذكر الله وحده ، من غير أن تُذكر معه آلهتهم — اشمأزت قلوبهم ،

أى نفرت ، وجزعت ، وهلعت . . وإذا ذكرت آلهتهم ، وما لها من شفاعة عند الله ، فرحوا واستبشروا . .

وفى قوله تعالى : « الذين لا يؤمنون بالآخرة » — إشارة إلى أن الإيمان بالآخرة ، لا يكون إلا بعد الإيمان بالله . . فالإيمان بالآخرة ، إيمان بها وبالله . . وقد يكون إيمان بالله وكفر بالآخرة ، كما كان عليه إيمان المشركين . . فهم يعرفون الله ، ويؤمنون بأن على هذا الوجود إلها واحداً . . ولكنهم يتخذون معه آلهة أخرى ، هى — عندهم — دون الله جلالا وقدراً . . إنها قربان يتقربون بها إلى الله . . ثم هم لا يؤمنون بالآخرة ، إذ يستبعدون أن يُحيىَ اللهُ الناسَ بعد أن يصيروا ترابا . . وهذا قصور فى فهمهم، لجلال الله وقدرته . .

قوله تعالى :

* « قل اللّهُمَّ فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » .

هو دعوة للنبى — صلوات الله وسلامه عليه — أن يعلن الناس بهذه الحقيقة ، وهى أن الله سبحانه ، هو فاطر السموات والأرض ، أى خالقهما ابتداء على غير مثال سبق . .

وأنه سبحانه عالم الغيب والشهادة ، أى ماغاب عنّا ، وما ظهر لنا . . وهو سبحانه الذى يحكم بين عباده فيما اختلفوا فيه من الحق ، فيُحقّ — سبحانه — الحق ويبطل الباطل . . « ليجزى الصادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم » . .

وقد جاء هذا الخبر فى صورة النداء والدعاء ، لبيان أن النبى — صلوات الله وسلامه عليه — قد بلّغ رسالة ربه ، كما أمره ربه ، وأنه أفرغ جهده كلّه فى الدعوة إلى الله . . ولم يبق بعد هذا إلا الحساب والجزاء .

الآيات : (٤٧ — ٥٤)

* « وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٤٨) فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولو أن الذين ظلموا ما فى الأرض جميعا ومثلَه معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة عليها قد كانت دعاء من الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — إلى ربه أن يفصل بينه وبين قومه ، فيما اختلفوا فيه عليه ، وفى تكذيبهم إياه — فجاءت هـذه الآية ، وكأنهـا استجابة لدعوة الرسول .. فها هو ذا يوم الفصل ، وها هم أولاء الذين ظلموا يُساقون إلى جهنم ، ويطلبون الشفعاء فلا يجـدون شفيعـاً ، ويستصرخون ولا صريخ لهم إلا زبانية جهنم ، يدعُّونهم إلى النار دعا .. فلو أنه كان بين يدى أحدهم ما فى الأرض جميعـاً ، ومثل ما فى الأرض مضافا إليه ، لافتدى به نفسه من عذاب هذا اليوم ، ولوَجَد ذلك صفقة رابحة له .. وهذا مثل قوله تعالى : « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يُقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به » (٩١ : آل عمران) ..

وقوله تعالى : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » — إشارة إلى ما ينكشف للمشركين والضالين فى هذا اليوم ، مما لم يكن يقع فى حسبانهم.. فى هذا اليوم يرون أن ما كانوا يعبدون من دون الله ، هو ضلال فى ضلال ، ويرون أعمالهم التى زينها لهم الشيطان ، وجوهاً منكرة ، تطلع عليهم بالويلات والحسرات .. وأكثر من هذا ، فإنهم يرون هذا الهول الذى يلقاهم من جهنم ، مما لم يقع فى خيال ، أو يخطر على بال ..

كما يرون أناساً كانوا يسخرون منهم ويستهزئون بهم قد لبسوا حلل النعيم ، ونزلوا منازل الرحمة والرضوان ، على حين يشهدون سادتهم وكبراءهم ممن كانوا يُنزلونهم منازل الآلهة ، وقد قُطِّعت لهم ثياب من نار ، يُصبّ من فوق رءوسهم الحميم .. يصهر به ما فى بطونهم والجلود .. ولهم مقاطع من جديد .. كلما أرادوا أن يخرجوا منهـا من غم أعيدوا فيها . . .

إن معارف الناس ، وتصوراتهم وأخيلتهم فى هذه الدنيا ، لا تكاد تلتقى مع شىء من أمور الآخرة ، وإن كان المؤمنون بالله أكثرَ تصوراً لها ، وأقربَ إدراكا لمجملها ..

روى أن بعض الصالحين حين حضره الموت ، فزع واضطرب ، فسئل فى هذا ، فقال : ذكرت قول الله تعالى : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » فما أدرى ماذا يبدو لى من الله وأنا مُقدم عليه ! .

قوله تعالى :

* « وبدا لهم سيئاتُ ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

هو معطوف على قوله تعالى : « وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون » ـ من عطف الخاص على العام .. فما يبدو للظالمين — مما لم يكونوا يحتسبونه ـ هو سيئات ما كسبوا ، حيث يبدو كسبهم الذى كسبوه ، وعملهم الذى عملوه فى الدنيا ، ضلالا فى ضلال ، وسوءاً إلى سوء . وخسراناً إلى خسران ، مع أنهم كانوا يحسبون أن هذا الذى يعملون ، هو الحق ، وهو الخير .. والله سبحانه وتعالى يقول : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » .. (١٠٣ ـ ١٠٤ : الكهف)

وقوله تعالى : « وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » ..

حاق بهم : أى نزل بهم ، واشتمل عليهم .. وأصله من الحقّ ..

ومعنى هذا ، أن الحق الذى كانوا يستهزئون به قد جاء ليحا كمهم ، وليقتصّ منهم لجنايتهم التى جنوْها عليه ، بالانتصار للباطل ، ومحاربة أولياء الحق ..

قوله تعالى :

* « فإذا مسّ الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمةً منا قال إنما أوتيته على علم . . بل هى فتنة . . ولكن أكثرهم لا يعلمون » . .

خولناه نعمة : أى آتيناه نعمة ، صار بها من أصحاب الوجاهة والرياسة . . وأصلها من الخيلاء والعجب . . ومنها « الخال » وهو الشامة السوداء التى تزين الوجه الحسن ، وتزيده حسناً . .

والفاء فى قوله تعالى : « فإذا مس الإنسان ضُرٌّ دعانا » —

هى فاء العطف ، للتفريع على قوله تعالى : « وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » ، أى فكان من استهزائهم بالحق أن الإنسان منهم إذا أصابه ضر دعا ربه . . ثم إذا كشف الله الضرّ عنه ، وخوله نعمة من نعمه ، تنكر لله ، ولم يذكر أن هذه النعمة من عند الله ، بل قال إنما أوتيت ما أوتيت عن علم منّى . . إن ذلك كان بحولى وحيلتى . . وهذا من ضلال العقل ، وخداع النفس . . فلو أن هذا الجهول كان يملك أن يجلب لنفسه نفعاً ، لكان يملك أن يدفع عن نفسه كل ضر ينزل به ، ولمّا كان له أن يدعو الله عند كل ضر يقع له . . فهل يظن هذا الجهول أن الله يملك الضر ولا يملك النفع ؟ ولكنها سكرة النعمة تلبس الأحمق الجهول ، فإذا هو فيها مارد جبار يخيل إليه أنه يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولا ! ثم إن هذا الجبار ، يُشاك بشوكة أو يحتبس له بول ، ليومٍ أو بعض يوم ، فإذا هو ذليل مهين ، يصرخ صراخ الأطفال ، ويئنّ أنين الثَّكلى !

وقوله تعالى : « إنما أوتيته على علم » . . الضمير فى أوتيته ، يعود إلى المال الذى جمعه ، فهو لا يرى النعمة إلا مالاً ، أما غير المال من نعم الله ، فلا يلتفت إليه . .

وقوله تعالى : « بل هى فتنة » أى هذه النعمة ، هى فتنة وابتلاء ، فكما يَبْتَلِي الله بالشر ، يبتلى كذلك بالخير ، كما يقول سبحانه : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » (٣٥ : الأنبياء) .

قوله تعالى :

* « قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » .

أى قد قال مثل هذه القولة الضالة الآثمة أقوام كثيرون قبل هؤلاء المشركين . . قد قالها قارون ، إذ قال : « إنما أوتيته على علم عندى » بل وقال أشنع منها ، ذلك الذى حاجّ إبراهيم فى ربه : « إذ قال إبراهيم ربّى الذى يحيى ويميت .. قال أنا أحيى وأميت » ! (٢٥٨ : البقرة)

فماذا كان وراء هذا الضلال فى الرأى ؟ لم يكن إلا الخيبة والخسران ، فقد أهلك الله الضالين ، وأخذهم البلاء من حيث لا يشعرون .. فما كان لهم من هذا الذى بين أيديهم ولىٌّ ولا نصير . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

* « فأصابهم سيئات ما كسبوا ، والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا .. وما هم بمعجزين » .

وفى قوله تعالى : « والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا » تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين الظالمين من قريش ، وأنهم سيقع بهم ما وقع بالظالمين قبلهم « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » (٦٢ : الأحزاب) .

فالله سبحانه لا يبدل سنته مع هؤلاء الظالمين « وماهم بمعجزين » أى لن يُعجِزوا الله ، ولن يفلتوا من عقابه ، وهو القوىّ العزيز .

وفى الإشارة إلى مجتمع الجاهليين جميعاً ، وفيهم المؤمنون والمشركون - فى الإشارة إليهم بهؤلاء ، بدلا من أن يقال من قومك ، أو من المشركين أو نحو هذا - ما يدل على أن الظالمين معروفون لكل من ينظر إليهم ، وأنهم بحيث يشار إليهم باليد ، واحداً واحداً . .

قوله تعالى :

* « أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر .. إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

أى ألم يكن لهؤلاء الضالين نظر فى تصريف الله وتدبيره ؟ إنهم لو نظروا نظراً عاقلا مستهدياً ، لعلموا أن الله سبحانه «يبسط الرزق لمن يشاء» أى يوسعه ويكثره لمن يشاء ، « ويقدر » أى يقبضه ويقلله لمن يشاء ، بحكمة الحكيم ، وتدبير العليم . . !

وهذا الاختلاف فى حظوظ الناس من الرزق ، هو الذى يضبط ميزان الناس فى الحياة ، ويجعل لحياتهم هذه الطعوم المختلفة ، وتلك الألوان المتباينة ، التى بغيرها لا تكون الحياة حياة ، ولا الناس ناساً . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين . . إلا من رحم ربك . . ولذلك خلقهم » (١١٨ — ١١٩ هود) .

فهذا الاختلاف بين الناس فى الرزق ، هو الذى يدفع موكب الحياة ، ويبعث الناس إلى الجدّ والتحصيل . . ولو كانوا على درجة واحدة ، لماتت نوازع التنافس بينهم ، وخمدت روح الابتكار والتجديد ، ولركدت الحياة الإنسانية كما تركد المياه فى المستنقعات !

وقوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » - أى فى هذا التفاوت

فى الرزق ، والاختلاف فى حظوظ الناس منه ـ آيات وشواهد للمؤمنين بالله ، يشهدون منها حكمة الخالق ، وقدرته ، وسلطانه ، وعلمه . .

الآيات : (٥٣ — ٦١)

* « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا . . إنه هو الغفور الرحيم » .

فى وسط هذا الظلام المتراكم من الكفر ، ومن خلال هذا الدخان المتصاعد من معاقل الضلال ، ومواقع الشرك ـ تشرق الأرض بنور ربها ، وفى سنا هذا النور القدسى يؤذّن مؤذّن الحق ، بين ظلام هذا الكفر المتراكم ، ودخان هذا الضلال المتصاعد ، داعياً هؤلاء الغرقَى فى بحار الكفر والضلال :

* « يا عبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً . . إنه هو الغفور الرحيم » :

إن الغرقى إذ يسمعون هذا النداء الكريم ليروْن بأعينهم رأى العين ، مراكبَ النجاة تخفّ إليهم من كل جهة ، وليس عليهم إلا أن يتعلقوا بها ، ويشدوا أيديهم عليها ، لتحملهم إلى شاطىء النجاة والسلامة . .

ولكن ما أكثر الذين يرون الخير ولا يتجهون إليه ، ويشهدون النور ولا يفتحون أعينهم عليه . . وفى ابن نوح مثل يشهد لهذا ، فقد كان يرى بعينيه الطوفان يهجم عليه ، ويكاد يبتلعه فيمن ابتلع من الضالين والغاوين ، وأبوه يناديه : يا بنىّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . . فيأبى إلا أن يركب رأسه ، ويُلقىَ بيده إلى التهلكة !

وهؤلاء هم أبناء نوح ، يناديهم ربّ العزّة هذا النداء الرحيم : «ياعبادى». ويضيفهم سبحانه وتعالى إليه إضافةَ رحمة ورعاية ، وإحسان ، تعلو على إضافة الأبناء إلى الآباء ، حناناً ورحمة وإحساناً . .

وهؤلاء الذين ينادوْن من ربهم هذا النداء الرحيم الكريم ، ويضافون إلى عزته وجلاله إضافة الرحمة والإكرام ـ هم العصاة ، الخارجون على حدود الله ، المعتدون على حرماته ، الجاحدون لنعمه . .

إنهم الذين أسرفوا على أنفسهم ، وجاروا عليها بهذه الأوزار التى حمّلوها إياها .. فيالطف الله ، ويالسعة كرمه .. وعظيم مِنّه ، وجليل إحسانه !!

وقوله تعالى : « لا تقنطوا من رحمة الله » هو اليد البرة الرحيمة الحانية التى يَرْبِتُ الله بها على هؤلاء المذنبين العصاة ، بمجرد أن يلتفتوا إلى هذا النداء الرحيم اللطيف : « لا تقنطوا من رحمة الله » .. إنها قريبة منكم ، دانية لأيديكم .. فهيا أقبلوا عليها ، واستظلوا بظلها ، واقطفوا ما تشاءون من ثمرها ..

وفى قوله تعالى : « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » .. شحنة من النور تضىء ظلام هذه النفوس التى تنظر إلى الله سبحانه وتعالى من خلال هذا الضباب المنعقد من اليأس حولها ، وهى تذكر بشاعة جرائمها ، وشناعة آثامها ، وتحسب — جهلا وضلالا — أن ذنوبها أكثر من أن تغفر ، وأن جرائمها أكبر من أن يُتجاوز لها عنها .. وكلاّ .. فإن ذلك ظن سيء بالله: « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » مهما تكن بشاعتها وشناعتها .. « إنه هو الغفور الرحيم » فما أعظم مغفرته ، وما أوسع رحمته .. والله سبحانه وتعالى يقول : « ورحمتى وسعت كل شىء » (١٥٦ : الأعراف) !!

فأى عذر لمذنب بعد هذا البلاغ المبين ، إذا هو لم يسعَ إلى الله ، ويغتسل فى بحر رحمته ، من أدرانه ، ويتطهر من ذنوبه ؟

وأى عذر لمجرم بعد هذا النداء الكريم الرحيم ، إذا هو لم يمدّ يده إلى ربّه ، ليُقيل عثرته ، ويحمل عنه وزره ؟

« يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ..

« لا تقنطوا من رحمة الله ..

« إن الله يغفر الذنوب جميعاً ..

« إنه هو الغفور الرحيم .. »

إنها ضيافة كريمة فى ساحة رب كريم ..

وإنها نُزُل مهيأة ، بكل أسباب الهناءة والرضوان ، يُستقبل فيها على طريق الحياة ،أولئك الذين أضناهم السفر الطويل ، وأكلَت وجوههم لوافح الهجير .. فيجدون حيث ينزلون ظلا ظليلا ، وطعاماً هنيئاً ، وشرابا بارداً .

فقل لمن يرى هذا المنزل الكريم ويعدل عنه : ألا ما أعظم غباءك ، وما أشأم حظك ، وما أولاك بالذئاب تفترسك ، وبالحيات تنهشك ، فلا يرحمك راحم ، ولا يبكيك باك .. من قريب أو صديق !

قوله تعالى :

* « وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له .. من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون » ..

إنه دعوة إلى رحاب الله ، بعد أن فتحت الأبواب،ومدت موائد رحمته .. فلم يتبق إلا أن يمد المدعوون أيديهم إلى هذه الموائد ، وأن ينالوا منها ما يشتهون..

ومن عظيم لطف الله بعباده ، وسابغ برّه بهم ، وسعة رحمته لهم ،أن لقيهم ، وهم على طريق الضلال ، وبين مراعى الإثم والمعصية ، وأراهم منه — سبحانه — ما بين يديه من رحمة ومغفرة ، وأنهم مع ماهم فيه من محاربة له ، وعصيان لأمره ، واعتداء على حرماته — لا يزالون من عباده ، الذين لا تُغلق دونهم أبوابه ، ولا تحجب عنهم رحمته — ذلك كله قبل أن يطلب — سبحانه وتعالى — إليهم أن يرجعوا إليه ، وأن يلقوا الأسلحة التى يحاربونها بها .. إنهم

على ماهم عليه عباده ، وأبوابه لن تغلق دونهم ، ورحمته لن تُحجب عنهم ، ماداموا في هذه الدنيا . .

ألاَ خَسِيء من لا يستحى من ربه ، فيظـل قائمـاً على حربه ، على حين يبسط إليه ربه يده ، ويظلله بربوبيته ، ويُمده بنعمه وفضله !

فقوله تعالى : « وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون » ـ هو رحمة من رحمة الله ،وإفساح لطريق النجاة ، بالعودة إلى الله والمصالحة معه ،فى أية لحظة من لحظات الحياة ، قبل أن تدنو ساعة الموت ، وينقطع العمل ، وينتقل الإنسان إلى الدار الآخرة بما مات عليه فى الدنيا . . وعندئذ ينزل الإنسان منزله فى الآخرة ، بآخر منزل كان عليه فى الدنيا . . « فأما إن كان من المقربين فروْحٌ وريحان وجنّة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين فَنُزُلٌ من حميم ، وتَصْلية جحيم » (٨٨ — الواقعة) .

قوله تعالى :

* « واتّبعوا أحسن ماأنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون » .

أحسنُ ما أنزل إلى العباد من الله ، هو كلمات الله ، وهى القرآن الكريم . . فقد أنزل إلى العباد من الله نعمٌ كثيرة ، وخيرات موفورة ، وأرزاق لا تحصى ، ولكن أحسن ما أنزل إليهم من هذه النعم وتلك الخيرات ، وهذه الأرزاق ، هو هذا الكتاب ، الذى به يَعرف الإنسان قدرَ هذه النعم ، وطعم هذه الخيرات . . فهو الميزان العدْل الذى يقيم هذه النعم وتلك الخيرات على طريق الحق والإحسان ، وبغير هذا الميزان تتحول هذه

النعم إلى نقم فى يد أصحابها ، تفسد عليهم وجودهم ، وتحرمهم الثمرة الطيبة المرجوّة منها .

وفى قوله تعالى : « من قبل أن يأتيكم العذابُ بغتةً وأنتم لا تشعرون » . .

إشارة إلى المبادرة بالرّجوع إلى الله ، والتخلّى الفورى عن مشاعر الإهمال والتسويف ، من يوم إلى يوم ، إذ لا يدرى المرء متى يحينُ حينه ، ويأتيه أجله . . فقد يؤخّر المرء التوبة إلى غدٍ ، ثم لا يأتى الغد إلاّ وهو فى عالم الموتى . وقد يؤخر التوبة من صبح يومه إلى مسائه ، فلا يكون فى المساء بين الأحياء . فالمراد بإتيان العذاب هنا ، هو وقوع الموت بالعصاة والمذنبين قبل التوبة . . فإتيان الموت لهم وهم على تلك الحال ، إتيان بالعذاب الذى يبدأ دخولهم فيه منذ لحظة الموت . . وهنا تكون الحسرة والندامة ، حيث لا تنفع حسرة ، ولا تجدى ندامة ! . . وهذا ما يشير إليه ـ

قوله تعالى :

* « أن تقول نَفْسٌ يا حسرتَى على ما فرّطتُ فى جَنْبِ اللهَ وإن كنتُ لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هدانى لكنتُ من المتقين * أو تقول حين ترَى العذابَ لو أن لى كرّةً فأكون من المحسنين » .

فهذه مقولات ثلاث ، للذين أدركهم الموت وهم على كفرهم وضلالهم . . وهى بدل من قوله تعالى : « أن يأتيكم العذاب » . . أى واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن تقولوا فى حسرة وندم هذه المقولات . .

وكل مقولة من هذه المقولات الثلاث ، يقولها الكافر الضال ، فى مرحلة من مراحل الآخرة . . من الموت . . إلى البعث . . إلى الحساب والجزاء . .

فعند الموت ، يرى أهلُ الضلال مصيرهم المشئوم الذين هم صائرون إليه ، فيعرف الضالّ منهم أنه كان من أمره على ضلال ، فيقول : « ياحسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين » .

والتفريط ، معناه : التقصير ، وجنب الله : هو مالله ، وما ينبغى له من طاعة وولاء من عباده . . و « إنْ » هى المخففة من إنّ الثقيلة المؤكدة . . أى وإنى كنت لمن الخاسرين ، إذ بُصِّرت فلم أبصر ، وجاءنى الهدى ، فلم أهتد ، وقد اهتدى الناس وضللت ، وربح المؤمنون وخسرت . .

والمقولة الثانية ، وهى قوله : « لو أن الله هدانى لكنت من المتقين » يقولها عند ما يُبعث من قبره ، ويساق إلى المحشر . . حيث يأخذ مكاناً ضيقاً بين المجرمين ، على حين يرى أهل الإيمان والإحسان فى سعة ، فى موكب كريم ، تحفّ به البشريات من كل جانب . .

والمقولة الثالثة . . يقولها حين يرى العذاب ، ويُساق إليه ، فيقول : «لو أن لى كرةً فأكونَ من المؤمنين » . . ؟

و « لو » هنا للتمنّى . . حيث يفزع أهل النار إلى هذه الأمانىّ الباطلة ، قائلين : « ربنا أخرِجنا نعملْ صالحاً غير الذى كنا نعمل » (٣٧ : فاطر) .

قوله تعالى :

* « بلى قد جاءتك آياتى فكذّبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين»

هو جواب على سؤال ، مقدّر ، هو والسؤال ؛ ردٌّ على هذا الذى يتمناه الضالّ يوم القيامة ، من العودة إلى الحياة الدنيا ، ليؤمن بالله ، ويكون من المهتدين . .

والسؤال المقدرّ هو : « ألم يأتك رسولى ؟ ألم يُسمعك الرسول كلامى ؟

ألم يتلُ عليك آياتى ؟ « بلى قد جاءتك آياتى . . فكذبت بها واستكبرت، وكنت من الكافرين » . . فمالك تطلب العودة إلى الدنيا مرة أخرى ؟ وهل تكون فى هذه المرة على حال غير حالك الأولى ؟ إنك لن تكون من المهتدين أبداً . . إنك من أصحاب النار . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ولو رُدُّوا لَعَادوا لما نُهُوا عنه وإنهم لكاذبون» (٢٨ : الأنعام) .

قوله تعالى :

* « ويوم القيامةِ ترى الذين كذبوا على الله وجوهُهم مُسودّةٌ . أليس فى جهنم مثوًى للمتكبرين » .

ما أشأم هذا الإنسان الذى يُدْعى من ربّه بهذا النداء الكريم : « يا عبادىَ الذين أسرفُوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . . إن الله يَغفرُ الذّنوبَ جميعاً . . إنه هو الغفورُ الرحيم » . . ثم لا يستجيب لهذا النداء ، ولا يَحثُّ الخطا إلى ربّه ، ثم يظلُّ جامداً فى مكانه ، مُسرفاً على نفسه فى مواقع الضلال ، حتى تُطوى صفحته من هذه الدنيا ، ثم إذا هو يُساق إلى جَهنّم ، لتكونَ له مأوًى ، يذوق فيه العذاب طعوماً وألواناً !

وقوله تعالى : « ترى » بمعنى تبصر ، فالرؤية رؤية بصرية ، لا علمية ؛ وقوله تعالى : «وجوهُهم مسودةٌ » جملة من مبتدأ وخبر ، وقعت حالاً من الاسم الموصول « الذين » أى تبصرهم يوم القيامة ، وهم على تلك الحال : « وجوهُهم مسودّة » .

واسوداد الوجوه ، كناية عن الكرب العظيم الذى أحاط بهؤلاء الكافرين ، إذ كانت الوجوه هى الصفحة التى يبدو عليها ما يجرى فى كيان الإنسان ، من مشاعر وعواطف وأحاسيس، سواء أكان فى حال نعيم ، ومسرة،

ورضوان ، أم كان فى حال بلاء ، ونـكد ، وشقاء !

وقوله تعالى : « أليس فى جهنم مثوًى للمتكبرين » . . استفهام يُراد به الخبر على جهة التقرير والتوكيد . . أى إن فى جهنم مأوى ومنزلاً لـكل متكبِّر كافر بالله . .

قوله تعالى :

* « ويُنَجِّى الله الذين اتَّقَوْا بمفازتهم لا يَمَسُّهم السوء ولا هم يحزنون »

المفازة : الطريق المخوف ، الذى يجتازه المنتقل من مكان إلى مـكان ، وسمى مفازة على سبيل التفاؤل ، كما يقال للملدوغ . السليم .

ويذهب المفسّرون إلى أن « بمفازتهم » جار ومجرور متعلق بالفعل « ينجّى » على تقدير أن المفازة بمعنى الفوز ، والباء للسببية . . أى بسبب فوزهم . . ويكون المعنى : وينجى الله الذين اتقوا بهـذا الفوز الذى حصلوا عليه فى الآخرة . .

والرأى عندنا ـ والله أعلم ـ أن متعلق الجار والمجرور هو قوله تعالى : « وينجى » ولـكن وتبقى المفازة على معناها الذى صار حقيقة لغوية عليها ، والباء للملابسة . . ويكون المعنى : وينجى الله الذين اتقوا وهم ملتبسون بهـذه المفازة ، سائرون فى هذا الطريق المخوف بالخطر « لا يمسهم السوء » حيث تحرسهم عناية الله ، وتحفّ بهم ألطافه . . « ولا هم يحزنون » على فائت فاتهم من أمر الدنيا . .

ويجوز كذلك ـ والله أعلم ـ أن يتعلق الجار والمجرور بقوله تعـالى : « لا يمسهم السوء » ويكون المعنى : وينجى الله الذين اتقوا ، لا يمسهم السوء وهم بمفازتهم التى يجتازونها إلى موقف الحساب والجزاء ، ولا هم يحزنون

على فائت ، إذا هم رأوا ما أعدّ الله لهم من نعيم ورضوان ، فى جنة عرضها السموات والأرض ، أعدت للمتقين . .

الآيات : (٦٢ — ٦٦)

* « ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٦٥) بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) »

التفسير :

قوله تعالى .

« الله خالقُ كلّ شىء وهو على كل شىء وكيل » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، أنّها تذكّر بالله ، وتكشف عمّا له سبحانه وتعالى من كمال وجلال ، ومن مُلك وسلطان ، وذلك بعد أن كانت الآية السابقة دعوةً إلى الله ، وتحذيراً للكافرين والضالين من عذاب الله ، وما تكون عليه حالهم فى الآخرة ، من الندم والحسرة ، وسوء المصير . .

ألاَ فليذكرْ هؤلاء الكافرون بالله ، الذين لم يفتحوا آذانهم وعقولهم إلى ندائه الكريم الرحيم : « يا عبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من

رحمة الله » — ألاَ فليذكروا أن الله هو خالق كل شىء ، وقائم على كل نفسٍ بما كسبت ، لا يملك أحد معه من الأمر شيئاً .. فمن ولّى وجهه إلى غير الله ، فقد خاب وخسر ، وأورد نفسه موارد الهلاك . . وهذا ما يشير إليه :

قوله تعالى :

* « له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون » .

ومقاليد السموات والأرض : أزِمّتها التى تُقاد منها ، كما يقاد الحيوان من عنقه ، وهو موضع القلادة . . وهذا تشبيه وتمثيل ، يراد به خضوع السموات والأرض لله ، وانقيادهما لقدرته . .

قوله تعالى :

* « قل أفغير الله تأمرونّى أعبد أيها الجاهلون » .

هو تعقيب على هذا العرض الذى كشفت فيه الآيتان السابقتان عن بعض ما لله سبحانه من سلطان مطلق فى هذا الوجود ، لا يملك أحد معه مثقال ذَرّة منه . .

وهذا التعقيب هو وإن كان تلقيناً من الله سبحانه وتعالى لنبيه — صلوات الله وسلامه عليه — إلا أنه دعوةُ العقل ، تَلْتقِى مع أمر الله ! .

فالعقل بمنطقه ، لا يجد أمام هذا العرض لقدرة الله ، وبين يدىْ تلك الدلائل الدالة على وحدانيته — لا يجد إلا الإذعان لله ، والولاء له ، وإخلاصَ العبادة له وحده ، غير ملتفت إلى ما يدعو إليه أهل الجهالة والضلالة ، من عبادة ما يعبدون من ضلالات . .

والاستفهام إنكارى .. والأمر ليس أمراً على حقيقته ، وإنما هو دعوة من دعوات الضالين للنبي بعبادة غير الله ، وذلك بإنكارهم عليه أن يَعبد الله .. ومفهوم المخالفة لهذا الإنكار ، هو أن يعبد غير الله ..

وفى قوله تعالى : « أيها الجاهلون » توبيخ لهؤلاء الداعين إلى عبادة غير الله ، وفضح للداء الذى أوقعهم فيما هم فيه من ضلال ، وهو الجهل .. فلو أنهم كانوا على شىء من العلم ، لَمّا ركبوا هذا الطريق المظلم ، وبين يديهم طريق مستقيم مضىء .

قوله تعالى :

« ولقد أُوحِىَ إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين » هو تشنيع على الشرك ، وعلى ما يحيق بالمشركين من غضب الله ونقمته ، وأنه أمر إن وقع فيه أحد ، فلا شفاعة له عند الله ــ حتى ولو فرض ــ وهو مستحيل ــ إن كان الذى يشرك بالله ، من أقرب المقربين إلى الله ، وهم أنبياء الله ، أو كان من أكرم خلق الله على الله ، وهو رسول الله !

قوله تعالى :

* « بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » ..

هو تأمين على ما قررته الآية السابقة ، وتوكيد لما حملت من إنكارٍ على الكافرين دعوتَهم النبىَّ إلى عبادة غير الله .. فهم يدعون النبى إلى عبادة غير الله ، والله سبحانه وتعالى يدعوه إلى عبادته .. وفى هذا إبطال لدعوة المشركين ، وإهدار لها ..

وفى الجمع بين العبادة والشكر ، إشارة إلى أن هذه العبادة ليستْ عبادةَ قَهرٍ وقسرٍ ، بل هى عبادة حمد وشكر ، وولاء ، وحبّ لله سبحانه وتعالى ، الذى خَلَق فسوَّى ، والذى قدّر فهدى ، والذى أخرج المرعى ، فجعله غثَاء أحوى ..

قوله تعالى :

* « وما قَدَروا الله حقّ قدره .. والأرض جميعاً قبضتُه يوم القيامة والسّموات مطويّاتٌ بيمينه .. سبحانه وتعالى عما يشركون » ..

ى أن هؤلاء الذين كفروا بالله ، إنما كفروا به لأنهم لم يتعرفوا إليه ، ولم يعرفوا بعض كمالاته ، وصفاته .. !

وقوله تعالى : « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة » — جملة حالية ، من لفظ الجلالة ، أى أن هؤلاء الكافرين لم يَقْدُروا الله حق قدره ، والحال أن الأرض تكون فى قبضته يوم القيامة ، فأنّى لهم المهرب من حسابه وعقابه ؟ .

وقوله تعالى : « والسموات مطوياتٌ بيمينه » حال أخرى معطوف على قوله تعالى : « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة » .. وطىّ السماء بيمين الله سبحانه وتعالى ، هو استجابتها لقدرته ، وخضوعها لسلطانه ، يطويها وينشرها ، كما شاء سبحانه .. ومثل هذا قوله تعالى : « يوم نطوى السماءَ كطىِّ السجل للكتب » ((١٠٤:الأنبياء) .

وقوله تعالى : « سبحانه وتعالى عما يشركون » .. هو ردّ المؤمنين على الكافرين ، والضالين ، الذين لم يقدروا الله حق قدره، فأشركوا به ، وجعلوا ولاءهم لغيره .. والمؤمنون — وقد قدروا الله حق قدره — ينزّهون الله سبحانه وتعالى عن أن يكون له شركاء ، وينكرون على المشركين ما هم فيه من ضلال ، وكفر بالله .

الآيات : (٦٨ — ٧٥) .

* « وَنُفِـخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِـخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ

ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ وَجِىٓءَ بِٱلنَّبِيِّينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ٱدْخُلُوٓا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى ٱلْمَلَآئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٧٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » .

تُحدّث هذه الآية والآيات التى بعدها إلى آخر السورة، عن مشاهد القيامة، وإرهاصاتها، وما يلقى الكافرون من بلاء وعذاب، وما يُستقبل به المؤمنون من حفاوة وتكريم وترحيب، فى جنات النعيم . .

والصور : هو البوق الذى يُنفخ فيه ، كنذير بإعلان حرب ، أو وقوع غارة ، ونحو هـذا . . وأصله من الصُّوَار ، وهو قرْن الحيوان ، وقد كان البوق يتخذ عادة من قرن ثور ، أو وَعَل أو نحوهما . . والصوار أعلى الشىء ، وجمعه صَوارٍ ، ومؤنثه صارية . .

والنفخ فى الصور من قِبَل الله سبحانه وتعالى ، هو الأمر الذى يصدر منه سبحانه ، إلى ما يشاء من عالم الخلق ، فيستجيب له من وقع عليه الأمر ، بلا تردد أو مَهَل . . ولهـذا شبه الأمر بالنفخ فى الصور ، حيث يفزع كل من سمع النفخة ، فيخفّ مسرعاً ، متخليـاً عن كل شىء ، ليتوقى هذا الخطر الداهم . .

والصعق : حال من الفزع تعترى الـكائن الحى ، فتشلّ حركته ، وتهدّ كيانه ، أشبه بما يكون من صعقة الصاعقة ، ومسة الـكهرباء . .

وقوله تعالى : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض » هو إشارة إلى النفخة الأولى ، وهى نفخة الموت . . فى هذه النفخة يُصعق ، أى يموت ، من فى السموات والأرض من عالم الأحياء . .

وقوله تعالى : « إلا من شاء الله » — هو استثناء لمن لا تقع عليهم هـذه الصعقة ، أى الذين لا يقضى بموتهم فيها ، أو الذين لا تمسهم زلزلة منها . .

والسؤال هنا هو : هل العالم العلوى مشترك مع العالم الإنسانى فى هذا الذى يجرى على الناس ، من موت ، وبعث ، وحساب وجزاء ؟ .

وإذا لم يكن مشتركا مع العالم البشرى ، فـكيف يصعق من فى السموات؟ وما تأويل قوله تعالى : « فصعق من فى السموات ومن فى الأرض ؟ » .

والجواب على هذا ــ والله أعلم ــ أن القيامة وأهوالها ، وما فيها من حساب وجنة ، ونار ، هى مما يقع على أبناء آدم وحدهم ، على تلك الصورة التى جاءت بها الكتب السماوية ، وأنذر بها رسل الله أقوامهم ، الذين أرسلوا إليهم . . وقد تكون هناك أحوال للعوالم الأخرى ، ولكن ليس من شأننا أن نبحث عنها ، أو نُشغل بها ، إذ كان لا يعنينا من أمرها شىء ، سواء أوقعت أو لم تقع ، وسواء أوقعت على تلك الصورة ، أو غيرها . .

وإذن ، فإن كل ماتحدث به القرآن الكريم مما يتصل بالموت ، والبعث ، والحساب، والجزاء ، هو مما يتصل بعالمنا نحن ، لا يتجاوزه إلى العوالم الأخرى . .

وعلى هذا يكون قوله تعالى : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله » ــ هو مقصور على أبناء آدم ، وما يتصل بهم فى عالمهم الأرضىّ . .

وقد تحدث القرآن الكريم عن أن لأبناء آدم صلة بالسماء ، وأن النفس الإنسانية هى من العالم العلوى ، وأنها حين تفارق الجسد لا تموت بموته ، بل تلحق بعالمها العلوى ، وتأخذ مكانها فيه . .

فالموتى من بنى آدم ، إذ تكون أجسامهم فى عالم التراب ، تكون نفوسهم فى السماء ، أو العالم العلوى . . وإنه حين ينفخ فى الصور نفخة الموت العام لأبناء آدم ، يفزع ويصعق من فى السموات ومن فى الأرض . . أما من فى السموات ، فهم الناس فى أرواحهم ونفوسهم تلك التى سبقت إلى العالم العلوى ، وأما من فى الأرض ، فهم الذين كانوا لا يزالون فى عالم الأحياء لم يموتوا بعد ، فتدركهم النفخة ، فيصعقون ويموتون . . وأما الصعقة التى تقع على الأرواح والنفوس ، فهى صعقة فزع ، وخوف من لقاء هذا الوعد ، يوم الحساب والجزاء الذى كانت هذه الصعقة إرهاصاً بقرب موعده . .

ويكون قوله تعالى : « إلا من شاء الله » استثناء واقعاً على نفوس الأخيار المصطفين من عباد الله ، وأولهم رسله ، وأنبياؤه وأولياؤه ، حيث لا يمسهم السوء ولاهم يحزنون . .

وقوله تعالى : « ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » — هو إشارة إلى نفخة البعث ، بعد نفخة الموت . .

وقوله تعالى : « فإذا » ـ للمفاجأة . . أى أن هذا البعث يجىء على فُجاءة ، دون أن يعلم أحد موعدَه . .

وقوله تعالى : « فإذا هم قيام ينظرون » ـ إشارة إلى آن البعث يقع للناس جميعاً فى لحظة واحدة ، حيث يولدون جميعاً ميلاداً كاملا ، على صورة كاملة . . يجد فيها كل إنسان حواسّه ومدركاتِه ، ووجودَه كله .

قوله تعالى :

* « وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون »

وإشراق الأرض بنور ربها ، هو تجلّى الله سبحانه وتعالى عليها في هذا اليوم ، يوم القيامة ، حيث يُعرض الناس على ربهم للحساب والجزاء . .

وقوله تعالى : « ووضع الكتاب » أى الكتاب الذى سجلت فيه أعمال الناس ، حيث يرى الناسُ أعمالَهم ، ويأخذ كل إنسان كتابه من هذا الكتاب . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » (٢٩: الجاثية)

وقوله تعالى :

« وكلَّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » (١٣ : الإسراء)

وقوله تعالى : « وجىء بالنبيين والشهداء » . . أى دعى النبيون ليحضروا

محاسبة أقوامهم، وليشهدوا على ما كان منهم، من إيمان أو كفر..

وفى هذا يقول الله تعالى: «يوم ندعو كل أناس بإمامهم» (٧١: الإسراء).

ويقول سبحانه: «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً» (٤١: النساء).

والشهداء: هم الذين يشهدون على الناس، من أنبياء وملائكة، وعلماء وهداة، ودعاة إلى الله، وكذلك ما فى كيان كل إنسان من أعضاء، تشهد عليه، كما يقول الله تعالى: «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» (٢٤: النور) وكما يقول سبحانه: «وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد» (٢١ ق).

والصورة تمثل محكمة عليا تقضى بين الناس، وتحدد لكل إنسان مصيره الذى هو صائر إليه.. والقائم على هذه المحكمة، هو أحكم الحاكمين رب العالمين.. والكتاب هو صحيفة الدعوى، والأنبياء والشهداء هم الشهود.. والمحامون، هم المحاكمون، والمحاسَبون، كما يقول الله سبحانه: «يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها» (١١١: النحل).

ثم بعد هذا تصدر الأحكام من رب الأرباب: «وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون».

قوله تعالى:

* «ووفيت كل نفس ما عملت وهو علم بما يفعلون».

هو تعقيب على هذه المحاكمة، وأن كل نفس قد قُضى لها أو عليها بالحق والعدل، ووفّيت جزاء ما عملت من خير أو شر.

وقوله تعالى : « وهو أعلم بما يفعلون » ـ احتراس من أن يقع فى الوهم أن هذه المحاكمة التى أحضر فيها الكتاب ، واستُدعى لها الشهود ، قد جاءت على هذه الصورة لتكشف عن أعمال الناس ، وكلاّ ، فإن الله سبحانه وتعالى عالم بكل ما يعملون ، لا تخفى على الله منهم خافية . . ولكن ذلك ليرى الناس بأعينهم ما كان منهم ، وليحاكموا أنفسهم ، وليشهدوا عدل الله المطلق فيما أجرى عليهم من أحكام !

قوله تعالى :

* « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً . . حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا .. قالوا بلى . . ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين » .

وإذا قُضى بين الناس بالحق ، وعرف كل إنسان ما قَضَى به الله سبحانه وتعالى فيه ، وامتاز أصحاب النار من أصحاب الجنة ـ عندئذ يُساق الكافرون إلى جهنم زُمرًا ، أى جماعات . . كل جماعة تنزل منزلها المعدّ لهم فى جهنم.. وكلما وصل فوج إلى جهنم فتحت أبوابها ، فيلقاهم خزنتها سائلين فى لوم وتوبيخ : « ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربّكم وينذرونكم لِقاء يومكم هذا ؟ » فلا يجد الكافرون إلا أن يقولوا فى حسرة ، وندم ، وذلة : « بلَى . . ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين » أى بلى قد جاءت رسل ربِّنا ، وتَلَوْا علينا آياته ، ولكن حقّ علينا قضاء الله فينا أن نكون من أصحاب النار . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى على لسانهم : « فحقّ علينا قول ربِّنا إنا لذائقون » (٣١ : الصافات) .

وفى قوله تعالى : « حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها » . . إشارة إلى

أن هذه الأبواب مغلقة على من فيها ، وأنها لا تفتح إلا عند ورود فوج من الأفواج المساقين إليها ، وكلما دخل فوجٌ أغلقت عليه أبوابهـا ، فإذا جاء فوج جديد فُتحت له ، ثم أغلقت عليه.. وهكذا . . إنها سجن مطبق على من بداخله ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: « إنها عليهم مؤصدة * فى عَمَـدٍ ممدّدة » (٨ ـ ٩ الهمزة)

وفى إقامة الظاهر ، مقام المضمر فى قولهم ، « ولـكن حقت كلمة العذاب على الـكافرين» بدلاً من أن يقولوا : ولـكن حقت كلمة العذاب علينا ـ فى هذا إشارة إلى أنّهم قد شهدوا على أنفسهم بالـكفر ، بعد أن رأوا بأعينهم صحائف أعمالهم . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وشهـدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » (١٣٠ : الأنعام).

قوله تعالى :

* « قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتـكبرين » .

هو تعقيب على جواب الـكافرين عن سؤال خزنة جهنم لهم ، حين سألوهم هذا السؤال :

« ألم يأتـكم رسل منكم يتلون عليـكم آيات ربكم وينذرونـكم لقاء يومكم هذا » فـكان جوابهم : بلى ! وكان التعقيب على هذا الجواب : « ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتـكبرين » . .

وفى قوله تعالى : « ادخلوا أبواب جهنم » بدلا من أن يقال : ادخلوا جهنم كما هو الواقع فعلاً ـ فى هذا إشارة إلى أن لأبواب قطعة من جهنم ، وأن الذى يدخلها ، إنما هو فى جهنم فعلاً .

وقوله تعالى : « فبئس مثوى المتـكبرين » بيان للداء الذى كان منه

كفرهم ، وهو الاستكبار ، والاستعلاء ، عن أن ينقادوا للحق ، وأن يُذعنوا للآيات البينات منه .

والمثوى : المنزل ، والمقرّ الذى يستقر فيه الإنسان . .

قوله تعالى :

* « وسيق الذين اتقوا ربّهم إلى الجنّة زُمَرًا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتُها سلام عليكم طبتُم فادخلوها خالدين » .

عُبّر عن السيْر بالمتقين إلى الجنة ، بالسّوق ، كما عبّر به عن دفع الكافرين إلى جهنم ، وذلك للمشاكلة بينهم فى الحال التى كانوا عليها فى موضع الحساب ، وأنه لم يكن يدرى أحد منهم ما الله صانع به ، حتى إذا حُوسبوا جميعا ، ولم يبرحوا الموقف بعد ، انقسموا إلى فريقين ، كل فريق يأخذ اتجاها لا يدرى ما هو . . فهذا يساق ، وذاك يساق . . ولا يعلم أحد إلى أين المساق . . ثم ينكشف الحال ، فإذا الكافرون إلى جهنم ، وبين يدى أبوابها ، وإذا المؤمنون المتقون إلى الجنّة ، وعلى مشارف ظلالها . . وفى هذا مضاعفة للسرور الذى يلقاهم بهذا الفوز العظيم بعد أن ذهبت بهم الظنون . كل مذهب .

وفى قوله تعالى : « وفتّحت أبوابها » الواو هنا واو الحال ، والجملة حال من فاعل جاءوها ، على تقدير الحرف « قد » أى حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها ، وهذا يعنى أنهم يجدون أبوابها مفتحة لهم ، كما يقول سبحانه وتعالى : « جَنّاتِ عَدْنٍ مفتحةً لهم الأبواب » (٥٠ : ص) .

فهم لا يقفون عند أبواب الجنة ، بل يمضون إلى حيث أراد الله لهم من نعيمه ورضوانه . . ويلقاهم عند هذه الأبواب خزنة الجنة وحرّاسها ، وحجابها ، رسلا من الله ، لاستقبال ضيوفه ، والترحيب بهم ، قائلين لهم : « سلام

عليكم طبتم . . فادخلوها خالدين » أى لكم سلام من الله .. طبتم وطهرتم من كل دنس ، فاهنئوا بهذا المقام الطيب ، الذى لا يحلّ به إلا كل طيب .

وجواب إذا محذوف ، دل عليه السياق ، وتقديره : حتى إذا جاءوها وقد فتحت لهم أبوابها وتلقوْا هذه التحية الطيبة من ملائكة الرحمن ، ودخلوا الجنة — وجدوا ما لا يستطيع وصفه الواصفون من نعيم ورضوان . .

قوله تعالى :

* « وقالوا الحمد للهِ الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وأورثنَا الأرضَ نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين » .

هو معطوف على جواب « إذا » المحذوف ، أى حتى إذا دخلوا الجنة ، بَهَرَهم هـــذا النعيم الذى لم يكن يخطر لهم على بال ، وقالوا بلسان الحمد والشكران : الحمد لله الذى صدَقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ منَ الجنة حيث نشاء .

والوعد الذى صَدَقهم الله إياه ، هو ما وعدهم على لسان رسله ، كما يقول الله سبحانه وتعالى : « ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك » . . وهذا الوعد هو ما وعد الله به المؤمنين من جناتٍ ونعيمٍ فى الآخرة كما يقول سبحانه : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جَنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبةً فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » (٧٢ : التوبة)

وقوله تعالى : « وأورثنا الأرض » . . الأرض هنا هى أرض الحيـــاة الدنيـا ، وميراثها هو التمكين منها والانتفاع بها . . والمؤمنون أيـًّا كان حظهم من هذه الدنيا ـ هم الوارثون لهذه الدنيا ، لأنهم هم الذين قطفوا أطيب ثمراتها ، وهو الإيمان بالله ، والعمل الصالح . . أما ما أخذه غيرهم من

أهل الكفر والضلال ، فهو ـ وإن كثر ـ لا وزن له ، ولا نفع لهم منه . .
وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم » (٥٥ : النور) وقوله سبحانه : « ولقد كتبنا فى الزّبور من بعد الذّكر أن الأرض يرثها عبادِىَ الصالحون » (١٠٥ الأنبياء) . . فالمؤمنون بالله ، هم ورثة هذه الأرض ، وهم خُلفاء الله عليها . . أما غيرهم فَهَمَلٌ لا حساب له . .

وقوله تعالى : « نَتَبَوَّأُ من الجَنَّة حيث نَشَاء » أى ننزل من الجنة حيث نشاء ، غيرَ مضيّق علينا بحدود أو قيود فيها . . والجملة معطوفة على محذوف ، أى الحمد لله الذى أورثنا الأرض فى الدنيا ، وأورثنا الجنة فى الآخرة نتبوأ منها حيث نشاء . .

وقوله تعالى : « فنعم أجر العاملين » . . هو تعقيب على ما لَهِج به أصحاب الجنة من حمد الله ، ومن التحدث بما أفاض عليهم من نعم فى الدنيا والآخرة . .
وهذا التعقيب ، قد يكون من الملائكة ، الذى شهدوا حمدهم وتسبيحهم ، وقد يكون بلسان الحال ، فهو منطق كل من يرى هذا النعيم ، وما يُساق إلى أهله منه ، مما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين . .

قوله تعالى :

* « وترى الملائكة حَافِّينَ من حول العرش يسبّحون بحمد ربِّهم وقُضى بينهم بالحق وقيل الحمدُ لله ربِّ العالمين » .

الخطاب هنا للنبى صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو بعدَ هذا خطاب لكل من يشهد موقف القيامة . . فى هذا اليوم يرى الناس الملائكة ، وقد حفّوا بعرش الرحمن ، يسبحون بحمد ربّهم ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

« ويحمل عرش ربك فوقَهم يومئذٍ ثمانية » (١٧ : الحاقة) وقوله تعالى : «وجآء ربُّكَ والمَلَكُ صفًّا صفًّا » (٢٢ : الفجر) وهـذه حال لا يمكن أن نتصورها فى عالمنا الحسّى ، وعلينا أن نصدّق بوقوعها ، على أية صورة تقع ، دون أن نطلب الصورة التى تقع عليها ، فهذا ما لا يمكن أن تبلغه مدركاتنا ، أو تتمثله خواطرنا .

وقوله تعالى : « وقُضى بينهم بالحق » . . أى وقضى بين الناس بالحق ، فى هذا اليوم ، فلم تُظلم نفسٌ مثقال ذرّة .

وقوله تعالى : « وقيل الحمدُ لله ربِّ العالمين » . . هو قول الوجود كلّه ، ومعهم أهل المحشر من أصحاب الجنة ، وأصحاب النار ، فقد كان القضاء قضاء عادلاً عدلاً مطلقاً ، فلم يؤخذ أحد بجريرة لم يقترفها ، ولم يُدَن أحد بشهادة زور . .

٤٠ - سورة غافر

وتسمّى سورة المؤمن

نزولها : مكية .

عدد آياتها : خمس وثمانون آية .

عدد كلماتها : ألف ومائة وتسع وتسعون كلمة .

عدد حروفها : أربعة آلاف وتسعمائة وستون حرفا .

مناسبتها لما قبلها

كان فيما اشتملت عليه سورة « الزمر » قوله تعالى : « قل يا عبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعا . . إنّه هو الغفور الرحيم » . . ثم كان ختامها القضاء والفصل بين الناس ، وإنزالَ الكافرين منازلهم من النار ، وإنزالَ المؤمنين منازلهم من الجنة . .

وبدء هذه السورة - غافر - يلْقَى الناس جميعا ، بعد أن شهدوا الحساب والجزاء ، ورأوا جزاء المحسنين ، والمسيئين - يلقاهم بكتاب الله ، الذى هو هداية كل ضالّ ، ومنارة كل سالك إلى طريق النجاة ، ثم يلقاهم مع كتاب الله بغفران الله ورحمته ، وقبول توبة التائبين المنيبين إليه ، وشدّة عقاب المحادّين له ، المكذبين برسله .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٦)

* « حمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) »

التفسير :

قوله تعالى : « حم »

هذه أول سورة من سور الحواميم السبع ، وقد عدّها بعضهم ثمانىَ سور ، وجعل الزّمر واحدة منهن ، مع أنها لم تبدأ بالحاء والميم كما بُدئن ، وإنما بدئت بذكر الكتاب ، والقرآن ، كما بدئن ، فكان ذلك قرينةً على أنها واحدة منهن .

وأيًّا كان ، فإن هذا البدء بالحاء والميم لسبع سور من القرآن ، يجعل منهن وَحدة واحدة ، فى أسلوب النظم ، وفى مضمونه .

وتسمى مجموعة هذه السور : « آل حمٓ » أو « الحواميم » ويُروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « آل حمٓ ديباج القرآن » وقال ابن عباس : « إن لكل شىء لباباً ولباب القرآن آل حمٓ .. » ويروى عن ابن مسعود

أيضاً : « إذا وقعتُ فى آل حم فقد وقعتُ فى روضات أتأنق فيهن » .

قوله تعالى :

* « تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم »

أى منزّل الكتاب ، ومصدره ، هو من الله العزيز العليم .. وكتابٌ يكون إلى الله نسبته ، هو ما هو فى رفعة الشأن ، وعلوّ المقام .. إنه كلام الله ، وكلام الله صفة من صفاته ..

وفى وصف الله بالعزّة والعلم ، إشارة إلى بسطة سلطانه على الوجود ، وتمكنه من كل موجود ، مع إحاطة علمه بكل شىء ، فيعلم خائنةَ الأعين وما تخفى الصدور .

وفى الجمع بين العزة والعلم هنا ، والجمع بين العزة والحكمة فى سورة الزمر - مراعاة للمقام هنا ، وهناك ..

ففى سورة « الزمر » ناسبت الحكمة دعوةَ النبى إلى التمسك بهذا الكتاب الحكيم ، والاهتداء بهديه ، وعبادة الله على ضوئه ..

وهنا ، ناسب العلم دعوةَ الناس إلى التوبة ، والإقبال على الله بنية خالصة .. لأن الله يعلم ما تكن السرائر ، وما تخفى الصدور ..

قوله تعالى :

* « غافر الذنب وقابلُ التوْب شديد العقاب ذى الطول * لا إله إلا هو إليه المصير »

هو عرض لبعض صفات الله سبحانه وتعالى ، إلى ما عرض فى الآية السابقة .. فمن صفاته سبحانه أنه « غافر الذنب » يغفر للمذنبين ، الذين يدرءون بالحسنة ، ذنوبَهم ، كما يقول سبحانه : « إن الحسنات يذهبن السيئات » (١١٤ : هود)

ومن صفاته سبحانه ، أنه « قابِلُ التوب » أى يقبل التائبين ، ويتجاوز لهم عما كان منهم . .

ومن صفاته سبحانه : أنه « شديد العقاب » . . أى أن عذابه للعاصين ، والضالين ، شديد ، يلقى منه المذنبون الوبال والنكال . .

فمع سعة رحمة الله ، ومع سوابغ فضله وإحسانه ، فإن عقابه شديد راصد . . فالرحمة والفضل والإحسان للمحسنين ، والعذاب والنكال للضالين المكذبين . .

وبهذا يعتدل ميزان العدل بين الناس .. فلا يسوى بين الأخيار والأشرار ، بل ينزل كل من هؤلاء وهؤلاء منزله : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار » (٢٨ : ص)

ومن صفاته سبحانه ، أنه « ذو الطول » أى البأس والعزة والغلبة ، فلا يفوته ـ سبحانه ـ مطلوب ، ولا يدفع بأسه دافع .

ومن صفاته سبحانه : تفرده بالألوهة . . « لا إله إلا هو » لا إله غيره ، ولا ربَّ سواه . .

ومن صفاته سبحانه : أن مصير كل شىء إليه .. منه البدء ، وإليه المنتهى ..

قوله تعالى :

* « ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبُهم فى البلاد »

هذا الكتاب الذى نزل من الله العزيز العليم . هو نور من نور الله ،وعلم من علم الله،وسلطان من سلطان الله ، بحجته الساطعة ،وآياته البينة ـ هذا الكتاب ما يجادل فيه أحد ، إلا الذين كفروا . . فهم لظلام بصائرهم، وضلال عقولهم، ومرض قلوبهم ، قد استغلق عليهم هذا الكتاب ، فلم يهتدوا إلى ما من فيه

حق ، فجملوا يلقونه بالجدل ،سخرية واستهزاء ،لا طلبا لعلم ، ولا التماساً لمعرفة.

وقوله تعالى : « فلا يغررك تقلبهم فى البلاد » ـ هو إحقار لشأن هؤلاء الكافرين المعاندين ، ولما بين أيديهم من مال وسلطان . . والمراد بالذين كفروا هنا ، المشركون .. وتقلبهم فى البلاد ، هو تنقلهم فى تجاراتهم ،إذ كانوا أصحاب تجارات ، مع أهل الشام شمالا ،ومع اليمن جنوباً .. فى رحلتى الشتاء والصيف ..

قوله تعالى :

* « كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمّت كل أمة برسولها ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقابِ »

هو تهديد لهؤلاء المشركين بعذاب الله ، الذى يقع بالضالين المكذبين . فهم ليسوا أولَ من كذب بالله ، فقد كذبت من قبلهم أقوام بعد أقوام . . كذبت قبلهم قوم نوح ، وكذلك كذب الأحزاب من بعد قوم نوح . . « وهمت كل أمة برسولها ليأخذوه » أى أرادت كل أمة من هذه الأمم الضالة ،أن تُلحق الأذى برسولها ، أو أن تفتك به . . « وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق » أى وأقبلوا بالباطل الذى معهم ليبطلوا به الحق الذى بين يدى النبى ، ويقيموا لهذا الباطل حججا من السفه والضلال .. فماذا كان مصيرهم ؟ لقد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر : كما يقول سبحانه: « فكلاًّ أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٤٠ : العنكبوت)

وقوله تعالى : « فكيف كان عقابِ؟ » استفهام يراد به التقرير ، والإلفات إلى هذا العذاب الشديد . .

والأحزاب ،هم جماعات الضالين المكذبين بالرسل ،على اختلاف أزمانهم

وأوطانهم . . وسُمّوا أحزاباً ، لأنهم تحزبوا على تكذيب رسلهم ، واجتمعوا على الوقوف فى وجه دعوتهم ، وسوق الأذى إليهم .. وفى هذا يقول الله تعالى: « كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة . . أولئك الأحزاب » (١٢ ـ ١٣ : ص)

قوله تعالى :

* « وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار »

حقت : أى وجبت ، ولزمت

وكلمة ربك : هى حكمه وقضاؤه ، الذى قضى به على الكافرين ، وهو أنهم أصحاب النار .. وهذا ما يشير إليه سبحانه وتعالى فى كثير من آيات الكتاب الكريم ، مثل قوله تعالى « إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً » (١٤٠ : النساء) وقوله سبحانه : « إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآباً . » (٢١ ـ ٢٢ : النبأ) وقوله تعالى : « وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (١١٩ : هود)

الآيات : (٧ — ٩)

* « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة عرضت أهلَ الكفر والضلال ، وربطت بينهم بتلك الجامعة التى تجمعهم على الباطل ، لمحاربة الحق ، والوقوف فى وجه دعاته ، وأخذهم بالبأساء والضراء . . فهم أحزاب متناصرة على الشر ، متساندة فى حَجْب الهدى عن أبصارهم . .

وفى قوله تعالى : « الذين يحملون العرش ومن حوله . . الآية » عرضٌ لجبهة الخير ، وأرباب الهدى . . وأنهم أحزاب متناصرة على الحق ، متعاونة على البر والتقوى ، يأخذ بعضهم بيد بعض إلى ما يُرضى الله ، ويُنزلهم منازل رحمته ورضوانه . .

فالملائكة ، وهم من عالم غير عالم البشر ، تَصِلُهم بالمؤمنين المتقين صلاتٌ وثيقة من المودة والألفة ، وتجمعهم على طريق واحد ، هو الطريق المتجه إلى الله . .

وإذا كان للملائكة — وهم من عالم النور — أقربَ إلى الله ، وأدنى من رحمته ورضوانه — فإنهم يستغفرون ربهم للذين آمنوا ، ويدعونه لهم ، ويطلبون إليه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم ، وأن يدخلهم الجنة مع من صَلَح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، لينعموا جميعاً بما ينعم به الملائكة ،

وليكونوا رُفقاء لهم فى الملأ الأعلى ، يأنسون بهم ، ويسعدون بصحبتهم . .

وفى قوله تعالى : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم » — إشارة إلى أن الملائكة وهم أقرب المقربين إلى الله من خلقه ، لا يقطعهم ذلك عن التسبيح بحمده ، وهم فى أمن وعافية وسلام . . بل إنهم لأكثر خلق الله تسبيحاً لله ، وحمداً له ، لأنه أعرف بجلاله وعظمته .

وفى قوله تعالى : « ويؤمنون به » — إشارة إلى تلك الصلة الجامعة التى تصلهم بالمؤمنين ، وهى الإيمان بالله . . ومن هنا كان دعاؤهم للمؤمنين ، واستغفارهم له . . والله سبحانه وتعالى يقول : « إنما المؤمنون إخوة » (١٠ : الحجرات) . . ويقول سبحانه : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » (٧١ : التوبة) . .

وقد علّم الله المؤمنين أن يدعوَ بعضهم لبعض ويستغفرَ بعضهم لبعض ، إذ يقول سبحانه على لسانهم كما علمهم : « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم » (١٠ : الحشر) .

وفى قوله تعالى : « ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً » هو من تسبيح الملائكة لله ، ومن استمطارهم من واسع رحمته للمؤمنين . . فمن رحمة الله التى وسعت كل شىء ، يطلب الملائكة الرحمة للمؤمنين ، الذين تابوا واتبعوا سبيل الله بالإيمان به . .

وفى قرن الرحمة بالعلم ، إشارة إلى أن رحمة الله إنما تقع حيث علم الله موقعها من عباده . .

وفى قوله تعالى : « ومن صَلَح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم » — إشارة إلى أنه لا يلحق بأهل الصلاح إلا الصالحون ، وأنه لا نسب بينهم أوثق من هذا النسب ، الذى يجمع بينهم فى جنات النعيم ..

وقوله تعالى : « وقهم السيئات » أى ادفع عنهم السيئات ، وباعد بينهم وبينها ، بالمغفرة ، والمحو ، حتى إذا حوسبوا لم يكن فى ميزان حسابهم ما يُثقله من سيئات . .

وقوله تعالى : « ومن تَقِ السيئات يومئذ فقد رحمته » . . أى أن مغفرة السيئات والتجاوز عنها ، إنما هو رحمة من رحمة الله الذى وسع كل شىء رحمة وعلماً . .

وقوله تعالى : « وذلك هو الفوز العظيم » — الإشارة إلى غفران السيئات والوقاية من شرها . . فمن وُقِىَ الشر فقد فاز فوزاً عظيما ، والله سبحانه وتعالى يقول : « فمَنْ زُحْزِحَ عن النار وأدخلَ الجنة فقد فاز » (١٨٥ : آل عمران) ..

الآيات : (١٠ — ١٢)

* « إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ (١٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

● « إن الذين كفروا ينادَوْن لمَقْتُ الله أكبر من مقتكم أنفسَكُم إذ تُدْعَوْن إلى الإيمان فتكفرون » .

أى أنه حين يستغفر الملائكة ربّهم ، ويطلبون إليه سبحانه ، الرحمةَ للمؤمنين والتجاوز عن سيئاتهم ، وإدخالهم الجنة هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم — إذ يفعل الملائكة كل هذا من أجل المؤمنين ، فإنهم يَلْقَوْن الكافرين بما يسوءهم ، ويضاعف آلامهم ، إذ ينادونهم بمالهم عند الله من مَقت وطرد من رحمته ، وأن مقت الله لهم أكبر من مقتهم هم لأنفسهم ، حين دعوا إلى الإيمان ، فلم يقبلوه ، ولّجوا فيما هم فيه من كفر وضلال .. فهم بكفرهم ، وبإعراضهم عن الإيمان قد مقتوا أنفسهم ، وأبعدوها عن مواطن الخير ، والله أشد مقتاً ، وإبعاداً لهم من مواطن الخير ..

قوله تعالى :

● « قالوا ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين .. فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل » .

هو حكاية لمقولة من مقولات الكافرين ، وهم فى النار ، إذ يمنّون أنفسهم بالخروج من النار ، وبالعودة إلى الحياة الدنيا مرة أخرى ليؤمنوا بالله ، ويصلحوا ما أفسدوا من أمرهم ..

وقوله تعالى : « أمتنا اثنتين » — إشارة إلى الأدوار التى مرّ بها الإنسان،

وهى أربعة أدوار .. فقد كان ميّتا ، قبل أن يُخلق ، ثم كان حيًّا بعد أن خُلق ، ثم كان الموت ، وكان البعث .. فهما موتان ، وحياتان .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « كيف تكفرون بالله ، وكنتم أمواتا فأحياكم .. ثم يميتكم ثم يحييكم .. ثم إليه ترجعون » .. (٢٨ : البقرة)

قوله تعالى :

* « ذلكم بأنه إذا دُعى الله وحده كفرتم وإن يُشرك به تؤمنوا .. فالحكم لله العلىّ الكبير » .

الإشارة إلى هذا العذاب الذى يلقاه أهل الكفر والضلال فى جهنم ، وأنه إنما كان بسبب كفرهم وعنادهم ، وأنهم كانوا — فى دنياهم — « إذا دعى الله وحده » أى إذا عُرض عليهم الإيمان بإله واحد لاشريك له ، كفروا ، ولم يقبلوا هذا الإيمان .. « وإن يشرك به » أى إن جعل مع الله شركاء ، قبلوا الإيمان على الصورة التى تجعل مع الله إلها مع هذه الآلهة التى يعبدونها .. وهذا مثل قوله تعالى : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » (٤٥ : الزمر) .

وقوله تعالى : « فالحكم لله العلى الكبير » إشارة إلى أن الحكم المسلّط عليهم الآن ، هو حكم الله ، العلى الكبير ، الذى لا يشاركه أحد فى علوّه ، ومقامه ، وسلطانه .. فإذا كان لآلهتهم التى أضافوها إلى الله ، وأشركوها معه — إذا كان لهذه الآلهة شىء مع الله ، فليطلبوا إليها هذا الذى يطلبون اليوم من الله .. وإنه لضلال فى منطقهم أن يشركوا آلهتهم مع الله فى الدنيا ، ثم لا يشركوهم معه فى الآخرة ، لينقذوهم من النار التى يُساقون إليها ..

الآيات : (١٣ — ٢٠)

* « هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِى بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « هو الذى يريكم آياتِه وينزل لكم من السماء رِزقاً وما يتذكر إلا من ينيب » . .

هو لقاء مع الناس ، بهذا العرض الكاشف لقدرة الله ، وتفرّده بالخلق والأمر ، بعد أن شهدوا صوراً من مشاهد القيامة ، وما يلقى المؤمنون من إحسان ورضوان ، وما يلقى الكافرون من خزى وعذاب . . فمن كان من المؤمنين ازداد بهذا اللقاء إيماناً ، وتمسكا بما هو فيه، من طاعةوهدى ، ومَن كان من أهل الكفر والضلال ، فليطلب لنفسه النجاة والسلامة ، وليَهدْ إلى الله من

قريب . . فهذه هي الفرصة التي كان يتمناها أهل النار ، ولا يجدون سبيلا إليها .

وقوله تعالى : « هو الذى يريكم آياته » — إشارة إلى هذه الآيات التى كشفت عن أحوال الناس ، وبينت لهم ما هم فيه من استقامة وعوج ، فيعرف كلٌّ ما يأخذ وما يدع ، مما هو خير له ، وأصلح لشأنه . .

وقوله تعالى : « وينزل لكم من السماء رزقاً » إشارة إلى ما يسوق الله سبحانه وتعالى إلى العباد من رزق ، وأن خير هذا الرزق وأعظمه هو هذا الكتاب الكريم ، الذى بين يدى هذا النبي الكريم . .

وقوله تعالى : « وما يتذكر إلا من ينيب » أى لا ينتفع بهذا الرزق ، ولا يحصّل منه ثمراً طيباً إلا من يرجع إلى هذا الكتاب ، ويعرض نفسه عليه ، فيكون له فيه نظر واعتبار . .

قوله تعالى :

* « فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » .

هو دعوة إلى المؤمنين أن يمضوا فى طريقهم الذى استقاموا فيه على عبادة الله ، وعلى إخلاص العبودية له وحده ، دون أن يلتفتوا إلى موقف هؤلاء الكافرين وإلى كراهيتهم لهذا الطريق أن يسلكه المؤمنون .

قوله تعالى :

* « رفيع الدرجات ذو العرش » ـ خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره هو ، الله سبحانه وتعالى . . أى أن الله سبحانه وتعالى هو الكبير المتعال ، ذو العرش والسلطان ، المتفرد بهذا المقام العالى ، والسلطان العظيم ، لا يشاركه أحد ، ولا ينازعه سلطان . .

« يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده» الروح ، هو القرآن الكريم ، وإلقاؤه : نزوله . . أى أن الله سبحانه هو الذى ينزل هذا القرآن

وحياً منه بأمره ، على من يشاء من عباده ، والمراد هنا ، هو رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ..

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » (٥٢ : الشورى) .

وقوله تعالى : « لينذر يوم التلاق » أى لينذر الرسول الناس ، « يومَ التلاق » ، وهو يوم القيامة ، الذى يكون فيه لقاء الله ، للحساب والجزاء .

قوله تعالى :

« يومَ هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء . . لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » .

هو بيان ليوم التلاق ، وهو يوم القيامة يوم هم بارزون » أى ظاهرون ، ظاهراً وباطناً ، قد انكشفت سرائرهم ، وظهر مستورهم : « لا يخفى على الله منهم شيء » . . كما يقول سبحانه : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » (١٨ : الحاقة) .

والمراد ببروز الناس ، وظهور خفايام فى هذا اليوم ، هو ما يشهدون بأنفسهم مما انطوت عليه سرائرهم ، وما أخفاه بعضهم عن بعض . . ففى هذا اليوم ينكشف كل مستور منهم ، لهم ، ولغيرهم ، كما يقول سبحانه : « يوم تُبلى السرائر» (٩ : الطارق) .

أما علم الله سبحانه وتعالى ، فهو علم كامل شامل ، لا يَحدّه زمان ولا مكان . .

وقوله تعالى : « لمن الملك اليوم ؟ » هو سؤال بلسان الحال ، حيث يظهر سلطان الله عياناً لأهل الحشر ، مؤمنهم وكافرهم .

وقوله تعالى : « لله الواحد القهار » — هو جواب بلسان الحال أيضاً . . حيث لا جواب غيره .

وفى وصف الله سبحانه وتعالى بالوحدانية والقهر ـ إشارة إلى هاتين الصفتين اللتين يتجلى بهما الله سبحانه وتعالى فى هذا الموقف ، حيث يتصاغر كل سلطان ويخفت كل صوت ، ويذلّ كل جبار . ، كما يقول سبحانه : « وعَنَتِ الوجوه للحىّ القيوم وقد خابَ من حَمَل ظلماً » (١١١ : طه) .

قوله تعالى :

* « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم . . إن الله سريع الحساب » . .

ومع تفرد الله سبحانه وتعالى فى هذا اليوم بالوحدانية المطلقة ، والسلطان القاهر ، فإنه سبحانه ، لا يسلط سلطانه وقهره وجبروته على أحد من خلقه ، بل إن عدله ليقوم إلى جانب قهره وجبروته ، فلا يظلم أحداً ، « لا ظلم اليوم » . . بل إن كل نفس بما كسبت رهينة . . « إن الله سريع الحساب » . . لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يعوقه حساب أحد عن أحد ، حتى يُتصور أن يقع ظلم ، أو خطأ فى حساب هذا الجمع العظيم من المحاسبين . : وهذا — والله أعلم — هو السر فى ذكر هذا القيد الوارد على نفى الظلم « لا ظلم اليوم » . . حيث هذه الحشود الكثيرة التى تحاسب فى هذا اليوم . . فإنه مع هذه الحشود من الأمم فى هذا اليوم ، فإنها تحاسب حساباً سريعاً ، بلا معوِّق . . إذ كان الله سبحانه وتعالى يعلم بعلمه كل شىء . . قبل الحساب ، وأثناء الحساب ، وبعد الحساب .

قوله تعالى :

* « وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » .

هو خطاب للنبى الكريم بإنذار قومه ، بما أُوحى إليه عن يوم التلاق ، وهو يوم الآزفة . . أى يوم الساعة الآزفة ، أى القريبة .

وقوله تعالى : « إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين » .

« إذ » ، ظرف.. بدل من يوم الآزفة . . والحناجر : جمع حنجرة ، وهى الغلصمة فى أعلى الزور ، والـكاظم : المأخوذ من كَظَمِه ، أى من مخنقه . . يقال كظم القربة أى ربط فمها ، ومنه كظْم الغيظ : أى حبسه فى الصدر .

والمعنى : وأنذر النـاس ـ أيها النبي ـ وحذرهم يوم القيـامة وقد أزف ، وهو يوم عظيم ، تختنق فيـه الأنفاس ، وتضيق الصدور ، وتجِفُ القـلوب وتضطرب ، حتى لتبلغ القلوب الحناجر فى خفقها واضطرابها ..

وقوله « كاظمين » حال من أصحاب القلوب .

وقوله تعالى : « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » .. أى ليس للظالمين فى هذا اليوم العظيم ، من صاحب أو صديق يعين ، أو من شفيع تُقبـل شفاعته فيهم . .

قوله تعالى :

* « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . . والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء .. إن الله هو السميع البصير » .

خائنة الأعين : أى نظرة العين تـكون عن خِلسة ، لا يراها الناس ، ولا يعلم بها المنظور إليه .

وقوله تعالى : « يعلم خائنـة الأعين وما تخفى الصدور » هو تعليل لمـا فى الآية السابقة من وعيد للظالمين الذين أُنذروا بيوم القيامة ، وما فيه من أهوال، وأن الذى سيحاسبهم هنـاك هو الله سبحانه ، الذى يعلم ما يبدون وما يكتمون، لا تخفى عليهم منهم خافية ، ولا يَردّ عنهم بأسَه أحد ، ولا تقبل فيهم عنده شفاعة من أحد . .

وقوله تعالى : « والله يقضى بالحق » أى أنه سبحانه ـ مع بأسه ، وسلطانه

لم يظلمهم ، بل وفّاهم جزاء أعمالهم ، ولم يُظلموا مثقالَ ذرة ، لأن الذى قضى بهذا الحكم فيهم ، هو الله ، والله لا يقضى إلا بالحق . .

قوله تعالى :

* « والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء » أى أن هؤلاء الذين يعبدهم المشركون من دون الله ، لا يقضون بشىء ، أى لا يحكمون بحق أو باطل . . لأن الذى يحكم ، هو الذى يملك ، وهم ـ أيّاً كانوا ـ لا يملكون من الأمر شيئاً « والأمر يومئذ لله » (١٩ : الانفطار)

وقوله تعالى : « إن الله هو السميع البصير » أى إن الله سبحانه ، إذ يقضى فإنما يقضى عن علم . .

وإذ كان السمع والبصر ، هما المصدران لكل علم ومعرفة يحصّلها الإنسان ، فإن الله سبحانه وتعالى هو « السميع » الذى إليه يَرجع كل مسموع . . « البصير » الذى يُردّ إليه كل مَا يُبصر .

الآيات : (٢١ — ٢٧)

* « أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا ٱقْتُلُوٓا أَبْنَاءَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَٱسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ

ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ (٢٧) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوة وآثاراً فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق » .

أى ما شأن هؤلاء المشركين ، وكيف يقفون هذا الموقف المتادىَ الذى هم فيه مع النبى ؟ ألم يعلموا ما أخذ الله به الظالمين قبلهم ؟ وألم يسيروا فى الأرض ، وينظروا كيف كانت عاقبة هؤلاء الظالمين ، وكيف نزل بهم بلاء الله ، وقد كانوا أقوى قوةً من هؤلاء المشركين ، وأكثر أثاثاً ورِئْياً ، وأعز سلطاناً ونفراً ؟

والآثار فى الأرض : التأثير فيها بالعمل فى وجوه العمران .. فيكون ذلك آثاراً باقية بعدهم .. والواقى : المدافع ، والحامى

قوله تعالى :

* « ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب »

« ذلك » ـ إشارة إلى هذا البلاء المهلك ، الذى أخذ الله به الظالمين ، وأنه بسبب أنهم كانت تأتيهم رسلهم « بالبينات » أى بالآيات البينة المعجزة ، فكذبوا بهذه الآيات ، وكفروا بالله ـ فكان هذا الهلاك جزاء لهم على كفرهم ..

وقوله تعالى: « إنه قوىٌّ شديد العقاب » ـ إشارة إلى أن قوة هؤلاء الأقوياء ، هى ضعف وخذلان ، أمام قوة الله التى لا تُدفع ، وأن عذابه شديد لا يُعَدّ هذا العذاب الذى يسوقه الظالمون إلى ظالميهم ، شيئاً ، بالنسبة إلى عذاب الله الذى يسوقه إليهم . .

قوله تعالى :

* « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب »

وهذا مَثَل من أمثلة الظالمين ، الذين لو نظر هؤلاء المشركون إلى الوراء قليلا لرأوا صورتهم ممثلة فيهم . . فهم وفرعون على سواء فى الغطرسة ، والكبر ، والعناد . .

والقرآن الكريم يجمع كثيراً فى قصصه ، بين المشركين من قريش ، وبين فرعون ، لما بينهم وبينه من مشابه كثيرة ، من كِبر ، وأنفة ، وجاهلية مغرورة حمقاء . .

والآيات البينات : هى المعجزات التى كانت مع موسى ، من العصا ، واليد . .

والسلطان المبين : هو الاعجاز القاهر الذى بين يديه من هذه المعجزات . .

هذا ، « وقارون » وإن كان من قوم موسى ، إلا أنه أُضيف إلى فرعون ، إذ كان على شاكلته ، فى الاستعلاء ، والطغيان . .

قوله تعالى :

* « فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيُوا نساءهم » . .

أى أن فرعون وشيعته ، حين استقبلوا هذه الآيات التى طلع بها موسى عليهم ، لم يتوقفوا عندها ، ولم ينظروا فيها ، بل أسرعوا بهذا الاتهام الذى رموها به ، فقالوا ساحر كذاب . .

ثم إنه لما جمع فرعونُ السحرة ، ليُبطل بهم سحر موسى - كما زعم - والتقى موسى والسحرة ، وأبطل كيدهم ، فلم يملكوا إلا الإذعان للحق ، والإيمان به - عندئذ لم يجد فرعون إلا أن يفزع إلى قوته وسلطانه ، بعد أن سقطت حجته ، وبطل اتهامه ، فأقبل على من آمن بموسى من السحرة وغيرهم ، يصبّ عليهم سياط النقمة والبلاء ، فيقتل أبناءهم أمام أعينهم ، ويستبيح حرماتهم باستحياء نسائهم ، فلا يرعى لحرّة حرمة . .

فقوله تعالى : « فلما جاءهم بالحق من عندنا » إشارة إلى ظهور الحق عيانا لهم ، بحيث لا تنفع معه المكابرة

وقوله تعالى : « وما كيد الكافرين إلا فى ضلال » - إشارة إلى أن ما يكيد به الكافرون المؤمنين ، وما يأخذونهم به من ألوان البلاء والعذاب ، هو من الأباطيل ، التى لا يجد لها المؤمنون أثراً إلى جانب ما ملكوا من إيمان ، هم معه فى عزة فى الدنيا ، وسعادة وفوزٍ برضوان الله فى الآخرة .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى على لسان السحرة ، بعد أن دخل الإيمان فى قلوبهم : « قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياةَ الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى » (٧٢ - ٧٣ طه)

قوله تعالى :

* « وقال فرعون ذَرُونى أقتلْ موسى ولْيَدْعُ ربَّه إنى أخاف أن يبدِّل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد » :

فى الآية السابقة سلّط فرعون وهامان وقارون أعوانَهم وجنودَهم على المؤمنين ، يقتلون أبناءهم ويستحيون نساءهم : « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم » .

أما موسى نفسه ، فإن فرعون وحـده ، هو الذى سيتولى أمره ، وذلك ليظهر للناس أنه القادر على ما عجزت عنه السحرة مجتمعين ، وأنه إذا كان السحرة ـ وما معهم من سحر ـ قد خافوا موسى ، وأسلموا له ، فإن فرعون سيقتله قتلا ، لا يخشى ما معه من سحر .. بل إنه لا يخشى ربه الذى يقول إنه رسول من عنده ، وأن ربه هو الذى وضع بين يديه هذا الذى سحر الناس به ! .. إنى سأقتله ، فليلْقَنِي بما معه من سحر ، وليدْعُ ربه ليخلصه من يدِى .

« وقال فرعون ذرونى أقتلْ موسى » .. أى دعوا موسى لا تقتلوه أنتم ، بل إننى أنا الذى سأتولى قتله ..

والسؤال هنا : إن أحداً لم يَعرِض لفرعون ، ولم يَحُلْ بينه وبين ما يريد فى موسى .. فما السر فى أن يقول هذا القول : « ذرونى » أى اتركونى ؟ وهل أراد فرعون شيئاً يفعله بموسى ثم عَرَض له أحد دونه ؟ وهل يجرؤ أحد أن يعترض طريق فرعون إلى ما يريد ؟ .

ما السرّ إذن فى قوله هذا : « ذرونى أقتل موسى » ؟ .

الجواب ـ والله أعلم ـ أن هذا القول من فرعون يكشف عن خوف كان مستولياً عليه من موسى ، ومن أن خطراً داهماً يتهدده من جهته .. فلقد كان يعلم ـ بعد أن رأى ما رأى من المعجزات ـ أن موسى يستند إلى قوة لا قِبَل لأحد بها ، وأنه لو أراد بموسى شرًّا لما استطاع ، ولأصابه

هو بلاء عظيم .. إنه كان على يقين بأن موسى على حق ، ولكن الغطرسة ، والكبر ، وحب التسلط والسلطان ـ كل أولئك قد جعله يؤثر ما هو فيه من ضلال على هذا الحق الذى يُدعَى إليه . .

فقول فرعون : « ذرونى أقتل موسى » ـ يشير إلى أن شيئاً ما بداخله ، يمسك به ، وأن مشاعر خفية تلقاه بالتخويف والتحذير كلما هم أن يبطش بموسى ، ويَخلُص من هذا الخطر الذى يتهدده منه ومن سحره .. وكأن فرعون بقوله : « ذرونى أقتل موسى » إنما يتحدث إلى هذه المشاعر التى تَغُلّ يده ، وتحول بينه وبين ما يشتهى من الانتقام من هذا العدو المخيف ! .

وفى قوله : « وليدعُ ربه » ما يشير إلى هذا الخوف الذى يملأ كيان فرعون ، أكثر مما يشير إلى الاستخفاف ، وعدم المبالاة .

وفى قوله : « إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد » ـ ما يكشف عن وجه من وجوه المخاوف التى تعيش مع فرعون من جهة موسى .. ولهذا فإنه يريد أن يتحمل هذه المخاطرة ، ويُقدم على قتل موسى .. أيًّا كان الثمن الذى يقدمه من أجل هذا .

قوله تعالى :

* « وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » .

هذا ما يَلْقَى به موسى تهديدَ فرعون له بالقتل . . إنه يلوذ بحمى ربه من طغيان هذا الطاغية ، فهو ـ سبحانه ـ القادر على أن يرد بأس هذا الجبار المتكبر ، الذى لا يؤمن بالله ، ولا يخشى حسابه وعقابه . .

وخطاب موسى فى قوله : « وربكم » ـ هو خطاب للمؤمنين ، الذين يتهددهم فرعون كما يتهدده . . فهو بهذا يدعوهم إلى أن يعوذوا بالله من هذا الجبار ـ المتكبر ، وأن يُسلموا أمرهم إليه ، وأن يصبروا على ما يلقون من أذى وضر . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا » (١٢٨ : الأعراف) .

الآيات : (٢٨ — ٣٥)

* « وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ ٱللَّهِ إِنْ جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ ٱلَّذِىٓ آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا

كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) »

التفسير :

[مؤمن آل فرعون . . أنبيٌّ هو ؟]

ذكرنا فى سورة « يس » عند تفسير قوله تعالى : « فعززنا بثالث » ـ أن هذا الثالث يرجح ـ فى رأينا ـ أن يكون هو مؤمن آل فرعون ، وأن موسى وهارون هما الإثنان المشار إليهما فى قوله تعالى : « إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما » . .

ونريد هنا أن نستشهد لذلك بما تحدث به هذه الآيات من أمر هذا العبد المؤمن من آل فرعون . . ففى الآيات دلالات كثيرة ، تشير إلى أن هذا المؤمن ، كان إلى جانب إيمانه ، داعيةً يدعو إلى الله ، معزّزاً ومؤيداً الدعوةَ التى يدعو بها موسى وهرون . .

* ففى قوله تعالى :

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربىَ الله . . وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » .

فى هذا ما يكشف عن وجه هذا المؤمن :

فهو ـ أولا ـ « من آل فرعون » . . أى من آل بيته ، ومن الرءوس

البارزة فى دولة فرعون . . فقد يكون أميراً ، أو وزيراً ، أو قائدَ جند . . ونحو هذا . .

وهو ـ ثانيا ـ « يكتم إيمانه » .. وكتمان الإيمان هنا ، ليس عن ضعف أو خوف ، حتى يُحمل إيمانه على أنه كان مجرد إعجاب بموسى ، وميل إلى الطريق الذى هو عليه ، إذ لو كان غير منظور فيه إلى شىء آخر ، لآمن كإيمان السحرة ، ولما منعه بطش فرعون وجبروته أن يعلن هذا الإيمان ، متحدياً فرعون ، مستخفًّا بكل ما يلقى فى سبيل الحق ، والجهر به .. وكلا .. فإن إيمان هذا المؤمن كان إيمانا راسخاً وثيقاً ، قائمـا على اقتناع بلغ مبلغ اليقين القاطع .. وإنما كان كتمان هذا الإيمان عن سياسة حكيمة ، وتدبير محكم .. كما سنرى . .

فالرجل لم يكن يريد الإيمانَ لنفسه وحسب ، بل إنه كان يريد أن يكون داعيةً لفرعون وقومه جميعاً إلى الإيمان بالله . . ولو أنه أعلن إيمانه ، وجاء إلى فرعون يدعوه إلى أن يؤمن كما آمن هو ، لمـا استمع فرعون إلى كلمة منه ، ولأخذته العزّة بالإثم ، وأبى عليه كبره وعناده ، أن ينقاد لداعية يدعوه إلى أى أمر ، ولو فتَح له أبواب السماء . . وهل أتى المكذبون برسل الله إلا من دعوة الرسل إلى متابعتهم ، والإيمان بالإله الذى سبقوهم إلى الإيمان به ؟ وهل كانت مقولة المكذبين برسل الله إلا ترجمة لهذه المشاعر ، التى تملأ صدور المكذبين أنفةً وكبراً أن يكونوا متابعين لغيرهم ، مسبوقين غيرَ سابقين ؟ وهذا ما يشير إليه قوله تعالى على لسان هؤلاء المكذبين : « إن هو إلا رجل مثلكم يريد أن يتفضل عليكم » (٢٤ : المؤمنون) وقوله سبحانه : « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » (١١١ : الشعراء) . وقوله جل شأنه على لسان فرعون : « أنؤمن لبشرَيْن مثلِنا وقومهما لنا عابدون » (٤٧ : المؤمنون) .

ثم ماذا لو أعلن الرجل المؤمن إيمـــانه ، ثم جاء إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان ؟ أكان شأنه معه إلا كشأن موسى وهرون ؟ بل إن موسى وهرون معهما من آيات الله المعجزة القاهرة ما يؤيد دعوتهما . . أما الرجل فلم يكن معه إلا منطق العقل ، وحجة الـكلمة . . وهل لفرعون عقل يقبل منطقاً ، أو أُذُن تُصغى إلى حجة ؟

لقد كان من تدبير الرجل المؤمن ، وهو رجل سياسة ومُلك ـ أن يجلس إلى فرعون المجلس الذى اعتاده منه . . مجلس إبداء الرأى ، وعرض النصيحة ، فى معرض تبادل الآراء ، وتقليب وجوهها . . لا أكثر ولا أقلّ . . ومن هنا يكون للرجل أن يقول ما يشاء من آراء ، ويبدى ما يرى من حجج ، وأن يجد لذلك من فرعون أذناً تسمع ، وعقلا يعقل .. وإنه لابأس على فرعون أن يأخذ بالرأى الذى يَخلُص به من بين تلك الآراء . . إنه حينئذ يكون هو الذى يعطى الرأى ولا يأخذه ، ويصدر الحـكم ، ولا يتلقاه ! !

ومن هنا نجد الرجل المؤمن ـ بهذا التدبير الحـكيم ـ قد استطاع أن يعرض قضية الإيمان بالله، فى وضوح وجلاء ، وأن يقدمها إلى فرعون فى جو هادىء ، لاتعكر صفوه الأعاصير المحملة برجوم الردع والتحدّى . .

وفى هذا يقول تعالى على لسان الرجل المؤمن :

* « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول ربىّ الله ؟ وقد جاءكم بالبينات من ربكم » .

إن فرعون وملأه يأتمرون بموسى ليقتلوه . . وهم يعدّون التهمة التى يأخذونه بها . والتهمة عند فرعون ، أن موسى يريد أن يبدّل دين القوم ، وأن يفسد المجتمع ، بما يثير فيه من فتنة وانقسام وفرقة ، إزاء هذا الدين الجديد . .

وهنا يُبدى هذا الرجل المؤمن ـ وقد كتم إيمانه ـ يبدى رأيه ، فيقول :

وأية جناية جناها موسى؟ إنه يقول : ربىّ الله . . هذا دينه الذى يدين به ، ويدعو إليه ، بلا قهر ولا قسر . . فهل هذه الدعوة تستوجب قتله وسفك دمه؟ لا أرى ذلك .. !

ثم إن هذه القولة التى ينادى بها موسى ، تستند إلى آيات بينات ، قد رأيناها رأى العين ، وقد بطل بها سحر الساحرين . . وهذا يعنى أنها من عند إله قوىّ فوق آلهتنا كلها .. فإذا آمن موسى بهذا الإله ، وتلك حجته القاهرة بين يديه على قوة معبوده الذى يعبده ـ فهل نستحلّ لذلك دمه ؟ « وقد جاءكم بالبينات من ربكم » الذى آمن به . . فهو يؤمن بإله له دليله عليه ، ويدعو إلى عبادة إله وضع بين يديه الحجة التى تؤيد دعواه .. فكيف نُدينه ، وهو برىء؟

ثم ماذا لو تركناه وشأنَه ؟ إنه : « إن يك كاذباً فعليه كذبه » . . إنه يسير فى طريق اختاره لنفسه ، فإن يَهلِك فلن يهلك إلا هو ، وجنايته على نفسه وحده ،لا تصيب أحداً غيره ! . .

ثم ـ من يدرى ؟ ـ فقد يكون الرجل صادقا فيما يقول ، وشواهد الصدق بادية فيما نرى . . فماذا لو انتظرنا ، ثم نظرنا فى دعوته هذه ، وعرضناها معرض الدراسة والبحث . . فقد نجد فيها خيراً ، وقد ينكشف لنا منها هدى ونور . . وهل ثمّةَ من بأس علينا إذا وجدنا خيراً فأخذنا بحظنا منه ؟ أو رأينا هدى ونوراً فاتجهنا نحو هذا الهدى والنور ؟ « وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم » . إنه لا بأس إذن من أن نَدَعَ موسى ، ولا نَعرِض لقتله وسفك دمه ، سواء أخذنا بما يدعو به أو لم نأخذ .. فلنَدَعْه يمضى فى طريقه ، فإن كان كاذباً مدّعياً فإنه لن يفلح أبداً . . فما كان الكذب مركباً إلا إلى البلاء وسوء المصير.. فكيف إذا كان يكذب على الله الذى يقول إنه رسول من عنده ؟ « إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » . .

ويمضى الرجل المؤمن فى عرض رأيه ومشورته ، فيحذّر القومَ من أن يُقْدِموا على ماهم عازمون عليه ، فى شأن موسى . . فقد يكون الرجل صادقاً ، ودلائل الصدق بادية فيما جاءهم به ، وفيما حذرهم به من عذاب الله فى الآخرة .. فإن هم أنفذوا أمرهم فيه وقتلوه ، أيتخلّى عنه ربه هذا الذى رأينا بعض قوته فيما جاءهم به موسى من عنده ؟ فكيف تكون الحال إذا قتلناه . . وهذا ربه ، وتلك قوته ؟ وهذا ما يشير إليه قوله تعالى على لسان هذا المؤمن : « يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض .. فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟ »

ونعم . . نحن أولو قوة قادرة ، وملك عظيم ، وسلطان ظاهر غالب . . هذا ما نحن فيه الآن . .

ولكن أيكون لنا من كل هذا مايدفع عنّا بأسَ هذا الإله القوى ، ويحول بيننا وبين نقمته ؟

هذا رأيى ، وتلك نصيحتى للملك ، كما يقضى بذلك واجب الولاء والإخلاص ، للملك ، وللرعية . . ! !

وهكذا استطاع الرجل المؤمن ، بحكمته وسياسته فى كتم إيمانه ، أن يلقَى فرعون والملأ من حوله ، بهذا المنطق الرزين الهادىء ، فى غلاف رقيق من النصح والمناصحة !

ويُطرق الملأ من آل فرعون ، وقد دارت رءوسهم من هذا المنطق الواضح وما بين يديه من حجة وبرهان . . ثم تتحرك بعد ذلك شفاه ، وتنطلق كلمات ، تعلّق على هذا الحديث ، بين آخذٍ به ، ورادٍّ له . . ويَدَع فرعونُ القومَ يجادل بعضهم بعضاً ، ويفنّد بعضهم مقولات بعض .. حتى إذا فرغوا مما عندهم : جاء

إليهم من علٍ ، فى سلطانه ، وما يحفّ به من جلال وهيبة ، فيُلقِى إليهم بهذا الأمر المَلَكى :

* « قال فرعون : ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ».

إنه ليس لكم عندى فى هذا الأمر إلا ما رأيته من قبل ، وما سمعتموه منى حين قلت لكم : « ذرونى أقتلْ موسى وليدع ربه » . . تلك هى كلمتى الأولى والأخيرة .. وإنها الكلمة التى فيها رشادكم ، وحمايتكم من هذا الشر الذى يهبّ عليكم : « وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » ! فهل تشكّون فى حمايتى ، وحرصى على حفظكم ورعايتكم ، وارتياد مواقع الخير لكم ؟

وتُؤْذِن هذه الكلمة بانفضاض مجلس المشورة ، وما يكاد القوم يَهمّون بالانصراف ، حتى تمسك بهم نظرة من الرجل المؤمن ، تريد أن تقول شيئاً . . فيتلكأ بعضهم ، ويهمّ آخرون ، حتى إذا تكلم الرجل المؤمن ، عاد المجلس إلى ما كان عليه . .

وهنا يتابع الرجل المؤمن حديثه ، ويصل ما انقطع منه ، وكأنّ فرعون لم يقل شيئاً ، وكأن هذه الكلمة ليست الكلمةَ الأخيرة فى هذا الأمر . وتخرج الكلمات من فم الرجل المؤمن ، متدفقة هادرة ، تحمل نبرة عالية من الأسى والحزن والإشفاق . .

* « وقال الذى آمن . . ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثلَ دأب قوم نوح وعادٍ وثمودَ والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد * ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد * يوم تولّون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد * ولقد جاءكم يوسف من قبلُ بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا »

بهذا الإيمان الذى يملأ قلب المؤمن ، يجد الرجل منطقاً يتسع له مجال القول ، وتتداعى إليه الأدلة والبراهين ، وتنحلّ به عُقَد الخوف والجلجلة فى هذا المقام الرهيب ! .

« ياقوم » بهذه الكلمة يمسك الرجل المؤمن جماعةَ المجلس حيث هم . . إنه يريد أن يقول شيئاً ، وإن قال فرعون كلمته ، وأصدر حكمه ! وما اعتاد القوم أن يسمعوا بعد حكم فرعون تعليقاً ولا تعقيباً . . فماذا فى الأمر ؟ ألاَ فليسمعوا .

« إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب » . . إن هذا الحكم الذى أصدره فرعون ، وقال لهم فيهم : « وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » هو حكم إن أخذوا به ، لم يَسلموا من عواقبه . . إن وراءه شراً مستطيراً . . إنهم يدبرون ليقتلوا رسولا من رسل الله ، وإن عندهم لخبراً عما حلّ بالأقوام الذين آذوْا رسل الله من قبلهم . . فإن هم مضوا على ماهم فيه من إلحاق الأذى بموسى ، فلن يسلموا من أن يحلّ بهم يوم كيوم هؤلاء الأحزاب : قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم . وإنه ليوم عسير ، لقى فيهم المكذبون برسل الله الدمار والهلاك . ويلاحظ هنا أنه سَمّى يومَ الأحزاب يوماً ، مع أنه أيام ، إذ كان لكل قوم يومهم الذى لاقوْا فيه هلاكهم ، وذلك لأن جريمة القوم واحدة ، والحكم الذى أخذوا به حكم واحد . . فكأنهم أدينوا فى يوم واحد ، وإنْ تراخى الزمن بينهم ، فى إيقاع الحكم الواقع على كل من هؤلاء الأقوام

والدأب : الشأن ، والحال . .

هذا ، ما أُخذ به المكذبون برسل الله من عقاب فى الدنيا . . إنه الهلاك

الجماعى ، والدّمار الشامل لكل ما عمّروا وجمعوا . .

وهناك عذاب آخر أشدّ وأنكى ، ينتظر هؤلاء المكذبين .. هو عذاب الآخرة . .

* « ويا قوم إنّى أخافُ عليكم يوم التناد * يَوْمَ تُوَلُّون مدبرين مالكم من الله من عاصم . . »

ويوم التّنادِ هو يوم القيامة ، وهو اليوم الذى يُنَادَى فيه الموتى من قبورهم ، فإذا هم قيام ينظرون . . وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : « واستمع يومَ ينادى المناد من مكانٍ قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج » (٤١ - ٤٢ : ق) .

و « يومَ تُولّون مدبرين » أى تلقون جهنم ، فترتدون على أعقابكم ، جلعاً وفزعاً . . ولكن لا عاصم لكم من أمر الله . .

وقوله تعالى : « ومن يضلل الله فماله من هادٍ » . هو تعقيب على كلام الرجل المؤمن ، وتصديق لما يقول . . نطق بذلك الحق ، لسانُ الوجود كلّه . .

ويَمضى الرجل المؤمن يذكّر القوم ، بنبىّ كريم ، كان فيهم ، هو يوسف عليه السلام . .

* « ولقد جاءكم يوسف من قبلُ بالبينات فما زِلْتُمْ فى شَكٍّ مما جاءكم به حتى إذا هَلَكَ قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً » . .

إن ليوسف عليه السلام شأنا ، وذكراً ، فى الحياة المصرية ، وقد رأى القومُ من آياته ما سمّوه من أجلها صدّيقاً ، فيقول له صاحب السجن : « يوسف أيها الصدّيق » (٤٦ : يوسف) . . ثم يَرَى منه فرعون والقوم معه

هذه المعجزة التى كشف بها عن حُلم فرعون ، والتى قرأ عليهم فيها من صحف الغيب ما سيطلع عليهم من أحداث . . ثم رأوا منه هذه الآيات المعجزة فى هذا التدبير المحكم الذى ساس به البلاد ، وقاد به سفينتها إلى شاطىء الأمن والسلام ، وهى فى متلاطم الأمواج العاتية ، وقد كانت وشيكة أن يبتلعها اليمّ . .

ذلك هو يوسف ، وتلك هى آياته البينات التى رآها آباؤهم منه . . ومع هذا فقد كانوا فى شك منه . . بين مصدّق بدينه الذى يدعو إليه من عبادة الله الواحد القهار ، وبين مكذّب متّهم له فيما عنده من علم ، لا يتجاوز به فى تقديرهم أن يكون ساحراً عليماً . . وهكذا يمضى القوم مع يوسف ، حتى يهلك ، دون أن يجتمعوا على رأى فيه . . فلما هلك يوسف ، وأفلت من أيديهم هذا الخير الذى كان ينبغى أن ينالوه على يديه ، تطلعوا إلى هذه الشمس الغاربة من أفقهم فى أسًى وحسرة . . وانتظروا أن تطلع عليهم شمس أخرى فى صورة يوسفَ جديد . . فلما طال انتظارهم جيلا بعد جيل ، استيأسوا وصرفوا أبصارهم عن ترقبه ، وقالوا فى يأس وحسرة : « لن يبعث الله من بعده رسولاً » !

وهاهو ذا قد جاء الرسول ، الذى كانوا يتطلعون إليه . . أفلا يرون فى موسى وجهاً كوجه يوسف ، فيما يدعو إليه من عبادة إله واحد ، وفيما بين يديه من آياتٍ بينات ؟ وأيقفون من موسى موقف الشك والارتياب الذى وقفه آباؤهم من يوسف ؟ ثم هل ينتظرون رسولاً آخر بعد أن يمضى موسى ؟ .

ذلك هو الواقع الذى هم فيه الآن . . فماذا هم فاعلون ؟ وإلى أىّ متجه يتجهون ؟ أإلى الشك والارتياب ؟ أم إلى التصديق والإيمان ؟ ذلك لهم . . ولهم ما يشتهون !

وقوله تعالى : « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب * الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم . . كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا . . كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » . . هو تعقيب على هذا الموقف الذى بين الرجل وبين القوم . . وهو حكم على فرعون وملائه أنهم لن يهتدوا ، ولن يخرجوا عماهم فيه من عمًى وضلال . . إنهم فى ارتيابٍ شديد مسرف ، فأسلمهم الله سبحانه إلى ارتيابهم ، وتركهم فى ظلمات يعمهون . . وإنهم ليجادلون فى آيات الله ، وليس بين أيديهم سلطان من حقّ يجادلون به ، وكل ما معهم هو باطل وضلال ، يأتون به آيات الله . . !

وقوله تعالى : « كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا » . . أى كبر مقتاً وبغضاً هذا الجدل بالباطل ، عند الله سبحانه الذى يكره الباطل ويمقت المبطلين ، وكذلك المؤمنون ، يمقتون الباطل وأهله . .

وقوله تعالى : « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » . . أى بمثل هذا الطبع والختم على قلب المتكبرين والجبارين ، من فرعون وقومه ـ يطبع الله على قلب كل متكبر جبار من أهل الشرك ، الذين يلقون محمداً بالشك والارتياب والتكذيب !

وهكذا ينفضّ المجلس ، دون أن ينتهى القوم إلى رأى فى موسى ، بعد أن لبستهم حال من البلبلة والاضطراب ، من هذا النذير الذى طلع عليهم به الرجل المؤمن.. الذى يكتم إيمانه ! !

الآيات : (٣٦ — ٤٦)

* « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ

زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) * وَيَا قَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ (٤٥) ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ (٤٦) »

التفسير :

وإذ ينفضّ المجلس الذى ضمّ فرعونَ وآلَه ، ومنهم الرجل المؤمن الذى يكتم إيمانه ـ إذ ينفض المجلس على تلك الحال التى اضطرب فيها الرأى ، ودارت برءوس القوم فيها عواصف البلبلة والحيرة ـ لم يجد فرعون طريقاً يحفظ به ناموس سلطانه ، ويستر به الحال التى استولت عليه من الرهبة والفزع ؛ إلا أن يُلقِىَ بهذا الأمر الطائش ، يتخبط به كما يتخبط الغريق بين الأمواج . .

* « وقال فرعون . . يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب * أسباب

السموات . . فأطلع إلى إله موسى . . وإنى لأظنه كاذبا ! » .

والأمر ـ كما ترى ـ هزل ، ليس فيه شيء من الجدّ . . وإنما هو تُكَأة يتكئ بها فرعون على كرسىّ سلطانه الذى يكاد يسقط من فوقه ! إذ كيف يبنى « هامان » صرحاً يرتفع به إلى السماء ؟ وفى كم من الزمن يتمّ بناؤه ، إن كان ذلك الأمر مستطاعاً ، وكان محمولاً على محمل الجدّ ؟ وهل ينتظر فرعون بموسى هذا الزمن المتطاول حتى يتم بناء الصرح ، ويصل به إلى أبواب السماء ، ثم يطرقها ، ويبحث عن إله موسى هناك ؟ إنها مما حكات وتَعِلّات يتعلل بها فرعون ، ليخلص من هذا المأزق الذى أوقع فيه نفسه ، بإعلان رأيه فى قتل موسى والخلاص منه !

وما نحسب أن « هامان » بنى هذا الصرح ، وإن تَلَقّى أمرَ فرعون فى حينه بالامتثال والطاعة !

وفى قول فرعون : « وإنى لأظنه كاذبا » ما يشير إلى أنه لم يكن جادًّا فيما يقول . . فلقد أصدر حكمه على هذا الأمر الذى يريد التحقق منه ، وهو أن موسى كاذب فيما يدعيه من أن له إلٰها فى عالم غير هذا العالم الأرضى الذى تفرد فيه فرعون بالألوهية ! فما الداعى إلى التحقق من أمرٍ واضح الكذب ؟

وقوله تعالى : « وكذلك زُين لفرعون سوء عمله وصُدّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب » بيان للحال التى انتهى إليها أمر فرعون ، وأنه مضى فى طريق الضلال إلى غايته . . فقد زُين له بضلاله ، واستكباره ، سوء عمله هذا ، فرآه حسناً ، فمضى فيه ، وصد عن سبيل الله ، بما يحمل فى كيانه من أباطيل وضلالات . . « وما كيد فرعون » الذى يكيد به للمؤمنين « إلا فى تباب » أى فى فساد ، وضياع . .

قوله تعالى :

* « وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد * يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار »

لقد كشف الرجل المؤمن عن حاله ، وأعلن ما كان يخفيه من إيمانه ، وخرج عن سلطان فرعون ، وانطلق يلقى الناسَ مواجهةً بالدين الذى دان به ، ويحاجّهم بمنطق الحق الذى استقام عليه . .

وهذه المقولات التى يقولها الرجل المؤمن ، هى خارج هذا المجلس الذى ضمه وفرعونَ والملأُ من قبل . . إنه امتداد إلى خارج إلى هذا المجلس ، حيث يلقاه الناس فى كل مجتمع وناد . .

قوله تعالى :

* « من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يُرزقون فيها بغير حساب »

هو مقولة من مقولات الرجل المؤمن ، يعرض بها موازين الناس عند الإله الذى يدعوهم إليه . . إنه إله عادل ، حكيم ، عالم بكل شىء . . « من عمل سيئة فلايجزى إلا مثلها » . . إن عمله هذا مردود عليه ، ومجزىٌّ به ، مثقالا بمثقال ؛ «ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن.. فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » فالمحسن — من ذكر أو أنثى — لا يلقى جزاء الحسنة بمثلها وحسب ، بل إنه يُضاعف له الجزاء الحسن أضعافاً مضاعفة ، بلا حساب . . فالجنة التى يُجزى بها أهلُ الإحسان ، لا يقدّر لها ثمن ، ولا يبلغها إحسان محسن ، ولكنها فضل من فضل الله ، وإحسان من إحسانه ، إلى من أحسنوا واتقوا، « والله يحب المحسنين » وليس بين المحب والمحبوب حساب !

وفى قوله تعالى : « وهو مؤمن » — إشارة إلى أن العمل الصالح لا يقُبل ، ولا يدخل فى الأعمال الصالحة — إلا مع الإيمان بالله .

قوله تعالى :

* « ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ؟ * تدعوننى لأكفر بالله وأشركَ به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار »

مناظرة بين موقف وموقف ، ودعوة دعوة . . موقف الرجل المؤمن من قومه ، وموقفهم منه . .

إنه يدعوهم إلى الخلاص والنجاة من نقمة الله فى الدنيا ، وعذابه فى الآخرة . . وهم يدعونه إلى نقمة الله فى الدنيا ، وإلى عذاب النار فى الآخرة . . إنهم يدعونه ليكفر بالله الواحد الأحد ، وأن يعبد مع الله آلهة أخرى لا يعلم لها حقيقة يطمئن إليها عقله ، ويستسيغها منطقه . . وهو يدعوهم إلى إله يقوم على هذا الوجود ، ويمسك كل ذرة منه ، حفظاً وعلماً .. فهو سبحانه ـ « العزيز » الذى تذل لعزته الجبابرة . . « الغفار » الذى يغفر ذنوب المسيئين ، ويقبل توبتهم ، إذا هم رجعوا إليه ، ووجهوا وجوههم له . .

فهل تستوى دعوة ودعوة ؟ وهل يستوى الضلال والهدى ؟

وقد جاء النظم القرآنى على غير النسق الذى يقتضيه النظم الكلامى ، فى تقديرنا . . إذ بدأ الرجل المؤمن بما يدعوهم إليه : « أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار » وكان مقتضى النظم الكلامى أن يقول بعد هذا : وأدعوكم إلى العزيز الغفار، وتدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم .. ولكن جاء النظم القرآنى على تلك الصورة المعجزة ، التى جمعت بين دعوتيهم فى نسق واحد هكذا : « تدعوننى إلى النار . . تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم » ثم كان من هذه الصورة المعجزة من النظم ـ أن بُدئت وختمت بالدعوة التى يدعو بها المؤمن إلى الإيمان . . هكذا :

« أدعوكم إلى النجاة . . وأنا أدعوكم إلى العزيز « الغفار » . . ثم كان

منها ــ كذلك ــ أن سوّت بينه وبينهم، فقدّم نفسه أولا، ثم قدّمهم هم ثانياً . . هكذا :

« أدعوكم إلى النجاة . . وتدعوننى إلى النار .. »

« تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم . . وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار »

هذا ما ينكشف من هذا النظم للنظرة الأولى . . ووراء هذه النظرة نظرات ومعطيات . . لا حدود لها . .

قوله تعالى :

* « لاجرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردّنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار »

هو تعقيب من الرجل المؤمن، على هذا الموقف الذى بينه وبين قومه . . إن ما يدعونه إلى عبادته من آلهتهم: « ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ».. إنه لا يسمع دعاء داع ولا يستجيب له، سواء أكان ذلك فى هذه الدنيا، أو فى الآخرة .. وأصل لاجرم من الجرم..وهو بهذا التركيب،النهى : أى لا تُجرموا، مثل قوله تعالى : « لامساس » ومثل الحديث الشريف : «لاضرر ولاضِرار ».

وقوله تعالى : « وأن مردنا إلى الله » ــ أى مرجع جميع المخلوقات إلى الله، فهو المالك لها وحده، يبسطها ويقبضها، وينشرها ويطويها . . وأن الناس جميعاً سيرجعون إلى الله، للحساب والجزاء فى الآخرة .. « وأن المسرفين هم أصحاب النار » . . حيث يلقون جزاء كفرهم، وضلالهم، وإسرافهم على أنفسهم . .

هذا، ولم يُذكر هنا جزاء المحسنين، وهو الفوز بالجنة ونعيمها . . وذلك

لأن الموقف موقف إنقاذ، وتخليص ، لهؤلاء الملكَي من هذا الضلال الذى هم فيه .. فإذا خلصوا من النار ، فذلك كسب عظيم لهم .. ثم يكون لهم بعد هذا أن يتطلعوا إلى المنزل الذى ينزلونه ، بعد أن خَلَصُوا بجلدهم من هذا البلاء المحيط بهم . . إن الذى تَعْلَق به النار، لا يعنيه شىء أكثر من أن يتخلص من هذا الثوب الذى أمسكت به النار ، وليس يعنيه فى شىء أن يفكر فى الثوب الذى يلبسه بعد أن ينزع هذا الثوب عنه ، ويتركه وقوداً للنار تأكله . . إن دفع المضارّ مقدم على جلب للمصالح ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » (١٨٥ آل عمران)

قوله تعالى :

* « فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله . . إن الله بصير بالعباد » . .

أى ستعلمون علم اليقين ما أحدثكم به ، وما أدعوكم إليه من الإيمان بالله الواحد الغفار ، وما أحذركم به من عذابه يوم القيامة ، إذا أنتم لم ترجعوا إلى الله ، وتَدَعوا عبادة ما تعبدون من آلهة ، ليس لها حول ولا طول ، فى الدنيا ولا فى الآخرة . . إنكم ستذكرون هذا ، وترونه عياناً ، يوم القيامة ، يوم لا ينفع تذكّر ، ولا يغنى علم .

وقوله : « وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد » هو خاتمة المطاف . فيما بينه وبين قومه ، لقد دعاهم إلى الهدى ، وأراهم طريق النجاة ، فإن استجابوا له ، واتبعوا سبيله نجوا معه،وإن هم أبوا أن ينزعوا عما هم فيه ، تركهم وشأنَهم ، وأخذ هو طريقه الذى استقام عليه ، مفوضاً أمره إلى الله ، مسلماً له وجهه ، مستعيناً به وحده ، فهو الذى يكفيه ، ويحميه « إن الله بصير بالعباد » يعلم مَن هم أولياؤه ، ومنهم هم أعداؤه : « ولينصرن اللهُ من ينصره . . إن الله لقوى عزيز » (٤٠ : الحج)

قوله تعالى :

* « فوقاه الله سيئاتِ ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب » الفاء للتعقيب، أى أنه عقب قوله : « وأفوض أمرى إلى الله» استجاب الله له ، فوقاه وحفظه مما كانوا يدبرون له من كيد عظيم ، بعد أن أعلن إيمانه ، وتحدّى فرعون ، وخرج عن سلطانه ، منحازاً إلى جبهة موسى . .

وقوله تعالى : « وحاق بآل فرعون سوء العذاب » أى نزل بفرعون وآله سوء العذاب ، فقد وجب عليهم وهم فى الدنيا ، هذا العذاب الذى سينزل بهم فى الآخرة . . فهو حكم معلّق فى أعناقهم ، وهم فى هذه الدنيا

قوله تعالى :

* « النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب »

هو بيان لسوء العذاب الذى حاق بآل فرعون ، وهو النار . .

وقوله تعالى : « يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا » ـ أى يعرضون على هذه النار فى الغدو ، أى أول النهار ، وفى العشى ، أى آخر النهار . . وهذا العرض على النار هو فى حياتهم البرزخية ، الواقعة بين الموت والبعث . . فهم فى هذه الفترة يُفزّعون بالنار التى سيصيرون إليها يوم القيامة ، فيرِدُونها صبحاً وعشياً ، ليروا بأعينهم المنزل الذى سينزلونه يوم القيامة . .

وقوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » أى فإذا كان يوم القيامة دُفعوا إلى تلك النار التى كانوا يَغْدُون عليها ويروحون . . وليست النار فحسب ، بل الدرك الأسفل منها ، حيث يلقون أشد وأنكى ما يلقى أهل النار من عذاب . .

بقى هنا سؤال ، وهو : هل كان مؤمن آل فرعون نبياً مرسلا من عند الله إلى فرعون ؟

وليس بالمستبعد أن يكون نبياً لم يذكره القرآن فى عِداد الأنبياء الذين ذكرهم الله ، فكثير من الأنبياء لم يذكرهم الله سبحانه فى القرآن كما يقول سبحانه « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك » (١٦٤ : النساء)

ولكن يرجّح عندنا أنه غير رسول ، إذ لو كان نبياً ذا رسالة ، لكان بين يديه حجة من الله على رسالته إلى من أرسل إليهم ، ولم يذكر القرآن أن بين يديه تلك الحجة التى يحاجّ بها فرعون . . ومن جهة أخرى ، فإنه كان يكتم إيمانه فى مرحلة من مراحل دعوته . . والنبى إنما يَرَى الناس نبوته ممثلة فى إيمانه بالدين الذى يدعو إليه ، قبل أن يدعو أحداً إليه . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى للنبى الكريم : « قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين * وأمرت لأن أكون أول المسلمين » (١١ - ١٢ الزمر)

ومؤمن آل فرعون ، إن لم يكن نبياً رسولا ، فهو داعية من دعاة الله إلى الحق ، وهو صوت العقل ، وحجته ، التى تقوم إلى جانب المعجزة المادية وحجتها . .

فلقد جاء موسى إلى فرعون بآيات مادية قاهرة ، كان من شأنه أن يؤمن بها إيمانَ قهر وإذعان ، إن لم يؤمن بها إيمانَ عقل ومنطق . . فلما لم يؤمن بها هذا الإيمان أو ذاك ، جاءه من يدعوه بالعقل والمنطق ، فلم يَرْض لعقله ومنطقه أن يلتقى بعقل أو منطق ! ومن هنا قامت عليه الحجة من كل وجه ، فكان كفره أغلظ الكفر ، وكان عذابه أشد العذاب .

وننظر فى رسالة موسى إلى فرعون، فنجد أن موسى هو صاحب الدعوة والقائم عليها، وأن هارون، كان وزيراً له، أى سنداً ومعيناً، كما يقول سبحانه وتعالى: «وجعلنا معه أخاه هرون وزيراً» (٣٥: الفرقان) ويقول سبحانه: كما أرسلنا إلى فرعون رسولا * فعصى فرعون الرسول *» (١٥ ـ ١٦ المزمل)..

فموسى عليه السلام، رسول، وهارون ـ عليه السلام ـ نبى، يقوم ردءاً لهذا الرسول وسنداً.. ثم يقوم من وراء الرسول والنبى، الممثلين لدعوة السماء ـ ثالث، يمثّل دعوة الإنسان وما أودع الخالق فيه من فطرة، وعقل.. وبهذا تلتقى السماء بالأرض، ويرتفع من الأرض هذا الإنسان، الذى يمثّل كرامة الإنسان، ويحتفظ للإنسانية بمكانها فوق عالم الحيوان..! وهذا يعنى أن الإنسانية قادرة على أن تلد الهداة والمصلحين الذين يمكن أن ترى عقولهم نور الحق، وتستضىء به، وتسير على ضوئه، وتتعرف إلى الله الواحد الأحد، بمنقطَع من دعوات السماء، ورسالات الرسل!.

وهنا نشير إلى ما ذكرناه من قبل فى سورة يس عند تفسير قوله تعالى:

«واضرب لهم مثلا أصحابَ القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون»..

الآيات: (٤٧ — ٥٣)

* «وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَآءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ (٤٧) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ

فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ (٤٩) قَالُوٓا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَٱدْعُوا وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ (٥٠) إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ (٥٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار » ..

هو عرض لأهل النار جميعاً ، وما يقع بين التابعين والمتبوعين ، من ملاحاة ، ومخاصمة ..

وفى هذا الموقف من مواقف الملاحاة ، يسأل التابعون سادتهم ورؤساءهم الذين كانوا أصحاب الكلمة عليهم فى الدنيا — يسألونهم أن يخففوا عنهم شيئاً من هذا العذاب الذى هم فيه . . فقد كان هؤلاء السادة مفزعهم فى الدنيا ، يفزعون إليهم ، ويحمون ضعفهم بقوتهم . . إنهم أقوى منهم قوة ، وأقدر على احتمال الثقال من الأمور . وهذه جهنم وأهوالها ، . فهل يجد الضعفاء فى قوة الأقوياء ، معيناً يحمل عنهم بعضَ ما حملوا ؟ .

* « قال الذين استكبروا إنا كلٌّ فيها .. إن الله قد حكم بين العباد » .. وهل لأحدٍ بهذا البلاء يدان ؟ إن قوة الأقوياء لا تقوم بحمل بعض ما ألقى عليها من عذاب ، فهل هم فى حاجة إلى مزيد منه ؟ .

وفى قوله تعالى : « إن الله قد حكم بين العباد » — إشارة إلى أن كلاًّ من التابعين والمتبوعين قد اتى الجزاء الذى يستحق .. فالذى حكم بينهم هو الله سبحانه وتعالى، وقضاؤه الفصل، وحكمه العدل . . وأنه إذا كان المتبوعون قد غرروا بأتباعهم، وساقوهم سوقا إلى الكفر، فإنهم قد نالوا ما يستحقون من عذاب فوق ما نال أتباعهم، وفى هذا يقول الله تعالى : « وليحملُنَّ أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » (١٣ : العنكبوت) .

قوله تعالى :

* « وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب » .

وإذ ييأس أهل النار من أن يُغْنى بعضهم عن بعض شيئاً، فإنهم يمدون أيديهم إلى خزنة جهنم، وإلى حراس هذا السجن الجهنمى المطبق عليهم، يسألونهم أن يَدْعوا ربهم، ويسألوه تخفيفَ العذاب عنهم، ولو يوماً واحداً، ليجدوا نسْمة من نسمة الحياة، تدخل إلى صدورهم المكظومة بلهيب السعير ! . .

* « قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا بلى ! قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » .

ويَلْقَى خزنةُ جهنم أصحابَ النار بهذا السؤال، ردًّا على طلبهم : « أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات » ؟ أو لم يبعث الله فيكم رسلا ؟ وألم يحمل إليكم الرسل بين أيديهم آيات بينات من عند الله، تكشف لكم الطريق إلى الحق والهدى ؟ « قالوا بلى ! » قد جاءنا رسل ربنا بالحق ! .

وإذ يتلقى خزنة جهنم هذا الاعتراف من أفواههم، والإقرار على

أنفسهم بأنهم كانوا ظالمين ـ يقولون لهم فى استهزاء وسخرية : لِمَ لا تدعون أنتم ؟ فادعوا إن كان ينفعكم الدعاء ، ويُستجاب لكم بما تدعون . . « فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » . .

قوله تعالى :

* « إنا لننصر رُسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يومَ لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » .

وإذ يَلْقَى الكافرون الخذلانَ فى جهنم ، فلم يقبل منهم قول ، ولم يُستجب لهم دعاء ـ فإن شأنَ رسل الله ، والمؤمنين بالله ، غيرُ هذا .. إنهم أهلُ كرامة على الله فى الدنيا وفى الآخرة . . إنه سبحانه وليّهم فى الدنيا وفى الآخرة . . ففى الدنيا ، يؤيدهم بنصره ، وفى الآخرة ، يؤمّنهم من فزع هذا اليوم ، وينزلهم منازل رحمته ورضوانه فى جنات لهم فيها نعيم مقيم . .

وقوله تعالى : « ويوم يقوم الأشهاد » أى يوم القيامة ، حيث يقوم على الناس من يؤدى شهادته عليهم ، من رسل الله ، ومن جوارحهم التى تقوم شاهدة عليهم . .

الآيات : (٥٣ — ٥٩)

* « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ

فِى آيَاتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) »

التفسير :

قوله تعالى .

* « ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب » .

هو استكمال لقصة موسى ، ولرسالته كرسول من عند الله . . فقد ذكرت الآيات السابقة رسالةَ موسى إلى فرعون وهامان وقارون ، وهى جزء من رسالته إلى بنى إسرائيل ، فلما انتهت قصة موسى مع فرعون ، اقتضى المقام الإشارة إلى رسالة موسى ، وهى أنها لبنى إسرائيل فى عمومها . .

والهدى الذى آتاه الله موسى ، هو التوراة ، كما يقول الله سبحانه : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور » (٤٤ : المائدة) .

وفى قوله تعالى : « وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب » ـ إشارة إلى أن بنى إسرائيل لم يرثوا هذا الهدى الذى تحمله التوراة ، والذى حمله إليهم موسى فيها . وإنما ورثوا الكتاب ، أى هذه الكلمات المكتوبة فى كتاب . . !

قوله تعالى :

* « هدى وذكرى لأولى الألباب » .. أى أن هذا الكتاب ، هو هدى وذكرى لمن يطلب الهدى ، وينتفع به . . وفى هذا تعريض ببنى إسرائيل ، وأنهم لم يستقيموا على ما فى هذا الكتاب من هدى ، ولم يذكروا ما فيه من وصايا وعظات . .

وقوله تعالى :

* « فاصبر . . إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشىّ والإبكار » .

الخطاب هو من الله سبحانه ، لنبيه الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ومناسبة هذا الخطاب هنا ، هو ما جاء فى الآيات السابقة من موقف فرعون ، ومكابرته ، وعنـــاده ، وتحديه لآيات الله . . وهو نفس الموقف الذى يقفه المشركون من دعوة النبى ، ومن آيات الله يتلوها عليهم ، وإن النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ليَلْقَى من عنادهم واستكبارهم ما ينوء به كاهله ، وتضيق به نفسه . . فكان هذا الخطاب الكريم له من ربه ، مدداً من أمداد السماء ، يجد فى ظله أرواح الطمأنينة والرضا .

ويحمل إليه هذا الخطاب الكريم أكثر من دعوة . .

فأولا : دعوته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى أن يصبر لحكم ربه ، وينتظر ما يقضى به الله سبحانه وتعالى فيما بينه وبين قومه .. وفى هذا إشارة إلى ما يلقى النبىّ من قومه من عنت وضيق ، وأنه لابد أن يقيم أمره على الصبر ، حتى يستطيع أنه يمضى بدعوته إلى غايتها . .

ثم إن مع هذه الدعوة إلى الصبر ، وما يحمل النبىّ الكريم من أعبائه

الثقال ـ فقد حملت معها من ألطاف الله سبحانه ، ما يشدّ عزم النبيّ ، ويثبت خطوه على طريق الصبر الطويل ، فهو على موعد مع نصر الله : « إن وعد الله حق » ووعد الله هو ما جاء فى قوله تعالى : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويومَ يقوم الأشهاد » .

وثانياً : دعوة النبيّ إلى أن يستغفر ربه لذنبه . . « واستغفرْ لذنبك » . .

وهنا سؤال : وهل للنبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ذنوب ؟ أو بمعنى آخر هل يتفق أن يكون نبيًّا ويذنب ؟

والجواب ، أن النبي ـ أى نبي ـ تقع منه ذنوب ، ومع هذا فإن تلك الذنوب لا تُنزل من قدره عند ربه ، ولا تدخل على نبوّته ضيما ..

وإذا قلنا إن النبي تقع منه ذنوب ، فذلك مما يقرره القرآن فى قوله : « واستغفر لذنبك » .. فهذا صريح فى أن للنبيّ ذنوبا ، يستغفر ربه لها ، ويطلب منه مغفرتها له . .

على أن الذى ينبغى أن يكون مفهوماً فى هذا المقام ، هو أن ذنوب الأنبياء من الصغائر ، واللّمم ، المعفوّ عنه بالنسبة لغير الأنبياء ، ولكنها تعتبر ذنوبا فى مقام الأنبياء . . فالصغيرة من النبي كبيرة ، وما لا يعد ذنباً عند بعض الناس هو ذنب عند آخرين . . فالذنب إنما يقاس بالنسبة لقدر من يقع منه . . فيكبُر أو يصغر بحسب قدر مرتكبه . .

والرسول الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هو صفوة خلق الله ، وأقربهم إليه ، تُحسب عليه ذنوب قد لا تُعدّ ذنوبا على بعض الأنبياء .. فهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ درجات ، وهم فى درجاتهم العالية فوق الناس جميعاً .

وسؤال آخر . . ما الذنوب التى يستغفر لها النبي ربه ، وقد غفر الله له سبحانه ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟

والجواب أن غفران ما تقدم وما تأخر من الذنوب ، هو وعد من الله سبحانه وتعالى ، كما جاء فى قوله سبحانه : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .. وهذا الوعد وإن يكن واقعاً محققاً من غير شك ، فإن الأمر بالاستغفار للذنب ، أمر مطلوب من النبي ، وهو واقع محقق كذلك . .

وإذن فغفران الذنوب للنبي ــ ما تقدم منها وما تأخر ــ مرتبط باستغفاره لذنوبه ، واستغفاره لذنوبه واقع محقق منه ، فيكون غفران ذنوبه واقعاً محققاً كذلك .. ! وإذن لا تعارض بين الوعد المحقق بغفران ذنوب النبي ــ ما تقدم منها وما تأخر ــ وبين أمره باستغفاره لذنوبه . .

هذا ، والإشارة إلى أن للنبي ذنوباً ، مطلوباً منه الاستغفار لها ــ يُشعر بأن الإنسان مهما بلغ من الكمال ، فلن يتخلص من الجلد البشرى الذى يلبسه .. فهو إنسان قبل كل شيء ، وكماله البشرى هو محصور فى هذا الحد لا يتجاوزه ، فلا يكون من عالم الملائكة بحال أبداً ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » .. لم يستثن الرسول الكريم فى هذا أحداً من أبناء آدم .. والأنبياء من أولاد آدم بلاشك ، وإن كانوا الصفوةَ المتخيرة من بين هؤلاء الأبناء ، وإن كان رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ صفوةَ هؤلاء الصفوة ! ! ولنذكر هنا فى هذا المقام ، أن ما يحسب من ذنوب المصطفين من عباد الله ، هو مما يعد من حسنات غيرهم ، كما يقال : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » » .

ثالثاً : دعوته ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يسبح بحمد ربه بالعشىّ والإبكار ، أى أول الليل ، وبواكير النهار .. أى قبل أن تطلع الشمس .

وليس ذكر هذين الوقتين حصراً لتسبيح الرسول ربَّه فيهما ، فهو صلوات

الله وسلامه عليه ـ على ذكر دائم لربه ، مسبحاً ، وحامداً ، ومستغفراً . . وإنما خُصَّ هذان الوقتان بالذكر ، لأنهما أثقل وقتين ، يشق على النفس فيهما العمل ، وتَعْرِض فيهما الغفلة ، حيث يستقبل الإنسان أولَ الليل بالخلود إلى الراحة ، وإعطاء الجسد حاجته من الليل ، وحيث يكون الإنسان فى أواخر الليل وأوائل النهار مستغرقا فى سكونه وراحته ، فيثقل عليه أن ينخلع عن تلك الحال . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقومُ قِيلاً » (٦ : المزمل) .

ومن جهة أخرى ، فإن حمد الله فى هذين الوقتين ـ وقد خلت النفس من شواغل الحياة ومن الاتصال بالعالم الخارجى ـ يجد فيهما القلب طمأنينته وسكينته فيتجه بوجوده كله إلى الله .

وهذا ما يعطى للذكر فى هذه الأوقات طعماً لا يجده الذاكر فى غيرها ، حيث تكثر الشواغل والمعوقات .. ومن هنا كان الليل خَلْوَةَ العابدين، ومَسْبَح المسبحين ، وملتقى العاشقين . .

قوله تعالى :

* « إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إنْ فى صدورهم إلاّ كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير »

هو خطاب للمشركين ، بعد خطاب النبى . . وهو تهديد وعيد لهم ، وأنهم لن يبلغوا شيئاً مما يريدون به النبى ودعوته من سوء . . إذ أن الله سبحانه وتعالى سيقضى بينهم وبين النبى ، وسيكون هذا القضاء إدانةً لهم ، وخذلاناً لجمعهم ، على حين يكون نصراً للنبى ، وللمؤمنين ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى فى الآية السابقة : « فاصبر لحكم ربك » . .

وقوله تعالى : « إن فى صدورهم إلاّ كبر ماهم ببالغيه »

« إن » هنا نافية ، بمعنى « ما »

والكبر الذى فى صدور المشركين : هو هذا الغرور الذى زينه الشيطان لهم ، وأنهم على الحق ، وأن الغلبة آخر الأمر لهم. وفى هذا يقول سبحانه : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم » (٤٨ : الأنفال) . فهذا الكبر الذى يملأ صدورهم ، ما هو إلا دخان من الباطل ، وإنهم لن يبلغوا به ما يطمعهم فيه من آمال ..

فالضمير فى « بالغيه » يعود إلى الكبر ، بمعنى أنهم لن يبلغوا ما ينطوى عليه هذا الكبر من أمانىّ وآمال . . !

وقوله تعالى : « فاستعذ بالله .. إنه هو السميع البصير » - دعوة إلى النبى الكريم من ربه سبحانه وتعالى ، أن يَلقَى كبر هؤلاء المتكبرين ، وتطاول هؤلاء المتطاولين المدلّين بجمعهم ، المغرورين بقوتهم - أن يَلقَى ذلك منهم باللّجأ إلى الله ، والّلياذ بقوته ، فهو سبحانه « السميع » الذى يسمع للنبى ما يدعو به ويستجيب له ، وهو « البصير » الذى يرى أين تنزل مواقع رحمته وإحسانه ، وأين تقع صواعق نقمه وبلائه . .

قوله تعالى :

* « لَخلْق السموات والأرض أكبر من خلق الناس .. ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى : أن الآية السابقة ، أشارت إلى ما يملأ صدور المشركين من كبر وغرور واستعلاء ، وأنهم يحسبون بما ملكوا من كثرة فى المال والرجال - أنهم لن يُغلبوا . . فجاء قوله تعالى : « لَخَلْقُ السموات والأرض أكبر من خلق الناس » - ليريهم أنهم ، وإن كانوا - كما يَرَون فى

أنفسهم ـ أصحابَ قوة وبأس ، فإن قوتهم وبأسهم لا يغنيان عنهم من الله شيئاً ، ولا يردّان عنهم بأسه إذا جاءهم . . فأين هم من الناس ؟ وأين الناس من السموات والأرض ؟ إن كل ذلك من خلق الله ، وفى قبضة الله . . فهل مَن خَلَق هذا الوجود ، وقام بسلطانه عليه ، يُعجِزه قهرُ هؤلاء المتكبرين ، وإذ لالهم والتنكيلُ بهم ؟

وفى قوله تعالى : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ـ إشارة إلى جهل هؤلاء المشركين ، وغيرهم من الضالين ، بقدرة الله وسلطانه القائم على كل شىء . وأنهم ما استعظموا ما هم فيه من قوة إلا عن جهل بقدرة الله ، بل وعن جهل بقدرة مخلوقات الله ، التى إذا وضعوا أنفسهم إزاءها كانوا أشبه بالذرّ أو النمل تحت سفح جبل شامخ . . !

قوله تعالى :

* « وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء قليلا ما تتذكرون »

هو تعقيب على قوله تعالى : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وذلك أنه إذا كان أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقائق التى تكشف لهم عن قدرة الله سبحانه وتعالى ، وقوة سلطانه القائم على هذا الوجود ـ فإن بعضاً من الناس ـ وهم أقلهم ـ يعلم من جلال الله ، وعظمته ، وقدرته ، ما يملأ القلب هدى وإيماناً .. ومن هنا يختلف الناس ، إيماناً وكفراً ، وهدًى وضلالاً ، وإحساناً وإساءة . وإنه كما لا يستوى الأعمى والبصير ، كذلك لا يستوى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، والذين كفروا وعملوا السيئات . . إن الاختلاف بينهما واضح لا يحتاج إلى بيان . .

وقد جاء النظم القرآنى على نسق يخالف ما يجىء عليه النظم الكلامى . . فلم يلتزم القرآن الترتيب الذى يردّ الإعجاز على الصدور ـ كما يقول أهل البلاغة ـ إذ كان من مقتضى هذا أن يجىء النظم هكذا : وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا المسىء والمحسن . . ولكن جاء النظم القرآنى كما ترى . . فقدّم الأعمى على البصير ، ثم عاد فقدم المحسن على المسىء فلم تقع بذلك المقابلة المطلوبة عند علماء البلاغة حيث يقتضى النظم عندهم ، أن يُقدّم المسىء على المحسن ، ليقابل المسىء الأعمى ، والمحسن البصير . .

وهذا التدبير من النظم القرآنى يخفى وراءه أسراراً ، ولطائف ، هى من بعض الدلائل على إعجازه . .

فمن بعض هذه الأسرار هنا ، هو أن القرآن قد جمع بين البصير ، وبين الذين آمنو وعملوا الصالحات ، حتى لكأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الامتداد الطبيعى لهذا البصير . . « وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات » . . فهذا هو أصل القضية : الأعمى والبصير . . ثم مع البصير كان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لأنهما طبيعة واحدة . . إذ قلّ أن تكون بصيرة لا يتبعها إيمان وعمل صالح . . وهذا هو السر فى التعبير بالبصير دون المبصر . .

أما الأعمى ، فقد يكون أعمى عين ، فهو من جهة النظر لا يستوى مع المبصر . . وقد يكون أعمى قلب ، فلا يهتدى إلى هدى . . وهو من هذه الجهة لا يستوى مع صاحب البصيرة . .

ولهذا لم يقترن المسىء بالأعمى ، ولم يقابله مقابلة توافق ، وتوازن . . إذ ليس مع كل عمًى إساءة ، وإنما تكون الإساءة مع عمى البصيرة . . ومن هنا

جاء النفى بعدم التسوية واقعاً على المسىء : « ولا المسىء » وكأن القضية من وجهة نظر أخرى هى هكذا : « وما يستوى البصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء » . .

وقوله تعالى : « قليلا ما تتذكرون » أى قليل منكم أيها الناس من يتذكر ويعقل هذه الأمثال . . وقليل تذكُّرُ من يتذكر منكم ، إذ النسيان غالب عليكم.

قوله تعالى :

* « إن الساعة لآتية لاريب فيها ولكن أكثر الناس لايؤمنون »

وإذا كانت القضية قضيةَ تفرقة بين المؤمنين ذوى البصائر ، والكافرين الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم ، وإذ كان هناك مؤمنون وكافرون ــ فقد حَسُنَ أن تُعرض هذه الحقيقة التى هى المحكّ الذى يعرف به إيمان المؤمنين وكفر الكافرين ، وتلك القضية ، هى قضية البعث والحساب والجزاء . . فمن آمن باليوم الآخر . فهو المؤمن حقاً ، لأنه لا يؤمن مَن يؤمن باليوم الآخر إلا إذا كان مؤمناً بالله إيماناً خالصاً ، مبرّأً من كل شرك . . ومن كَفَرَ بالآخرة ، فهو كافر بالله ، أو مشرك به . .

ومن هنا ، جاء هذا الإعلان فى قوله تعالى : « إن الساعة لآتية لا ريب فيها » ليكون فى ذلك اختبار لإيمان المؤمنين ، وكفر الكافرين . . فمن تقبّل هذه الحقيقة ، وصدّقها ، واستيقن بها ، فهو من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ومن كذب بها ، أوشكّ فيها ، فهو من الضالين المسيئين . .

وقوله تعالى : « ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » هو بيان لما ينكشف عنه امتحان الناس بهذا الإعلان ، وبتصديقهم به ، أو تكذيبهم . . وقد كشف هذا الامتحان عن أن أكثر الناس لا يؤمنون ، لأن أكثر الناس كذلك لا يعلمون ولا يتذكرون . . كما يقول تعالى فى الآية السابقة : « قليلا ما تتذكرون »

الآيات : (٦٠ — ٦٥)

* « وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٦٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين »

هو التفات بعين الرضا والرحمة والإحسان من الله سبحانه وتعالى ، إلى عباده المؤمنين ، الذين آمنوا به ، واستيقنوا أن الساعة آتية لا ريب فيها . . فهؤلاء المؤمنون يدعوهم الله سبحانه إلى ساحة فضله وإحسانه ، قائلا لهم : « ادعونى أستجب لكم » . . اسألوا تُعْطَوْا . . « إن رحمة الله قريب من المحسنين »

وفى الدعاء رَغَبٌ إلى الله ، ووقوف بين يدى رحمته وإحسانه . وفى

الاستجابة إظهار لما للعبد عند ربّه من احتفاء وتكريم ، وأنه بموضع الرضا والقبول . .

والدعاء ، هو عبادة المؤمنين ،وهو ولاء ، وتسبيح ،وصلاة لله رب العالمين..

ومن هنا عُرّف الدعاء بأنه مخّ العبادة . . لأنه مفزع العبد إلى ربه ، وفيه يتجلى ضعف العبد وانكساره ، وذلّه ، أمام قدرة الله وعظمته وجلاله . . فهو ـ فى صميمه ـ عبادة خالصة ، وابتهال خاشع ، وولاء واستسلام . .

ولكل إنسان دعاؤه الذى يدعو به ربه . . فنهم من يطلب الدنيا ، ويجعلُها همّه فيما يدعو به ربه ، ومنهم من يطلب الآخرة ويرجو بدعائه رحمة ربه ، ومنهم من يقول: ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، فيجمع بين الدنيا والآخرة . .

وكثير من الناس ، لا يذكرون الله بالدعاء إلا عند الشدة والضيق . . فهم فى غفلة عن ذكر ربهم ، حتى إذا نزل بهم مكروه ، أو أحاط بهم بلاء ضَرَعوا إلى الله ، وأسلموا إليه أمرهم ، . فإذا زايلتهم تلك الحال ، مضوْا إلى ما كانوا فيه من شغل عن الله ، واشتغال بدنياهم ، وتقلبهم فى لعبهم ولهوهم.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وإذا مسّ الإنسانَ ضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرّ مسه » (١٢ : يونس)

هذا ، وقد عرضنا موضوع الدعاء فى بحث خاص ، ذكرنا فيه ماهيّة الدعاء ، ومواقع الإجابة ، ومواطنها ، وهل يَردّ الدعاء القضاء ؟ وهل يجاب كل دعاء ؟ ثم عرضنا بعضاً من أدعية الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأدعية الصحابة ، وغيرهم من صالحى المؤمنين .. وذلك فى كتابنا : « الدعاء المستجاب » . .

قوله تعالى: « إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » الداخر : الذليل المهين..

وفى هذا إشارة إلى أن الدعاء عبادة، وولاء، وخضوع لله، واعتراف بجلاله وقدرته .. وأن الذين لا يدعون الله، ولا يوجهون وجوههم إليه، هم أهل كفر بالله، وضلال عنه .. إذ يمنعهم كبرهم واستعلاؤهم عن أن يَذلّوا لله، ويَمدوا أيديهم سائلين من فضله، طالبين من رحمته .. إنهم سيدخلون جهنم أذلاء، مُحقَّرين، بعد أن صرفوا وجوههم عن الله مستعلين مستكبرين .. إنه الهوان والإذلال، هو جزاء كل متكبر جبار.

وفى قوله تعالى: «عن عبادتى» بدلا من «دعائى» — إشارة إلى أن الدعاء من العبادة، بل إنه — كما قلنا — مخّ العبادة ..

قوله تعالى:

* «الله الذى جَعَلَ لكم الليل لتَسْكُنوا فيه والنهارَ مبصراً إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون» ..

مناسبة هذه الآية لما قبلها، هى أن الآية السابقة قد حملت دعوةً إلى الناس أن يدعوا الله ربهم، وأن يوجّهوا وجوههم إليه .. كما توعدت الآية الذين يستكبرون عن عبادة الله ودعائه، بالإلقاء فى النار، فى ذلة وصَغَارٍ ..

فجاءت هذه الآية والآيات التى بعدها، تَعرض بعض مظاهر قدرة الله ورحمته وإحسانه إلى عباده، ليرى هؤلاء المستكبرون أين يقع استكبارهم من جلال الله وعظمته ..

فقوله تعالى: «الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً» أى أن الله الذى يدعوكم إليه، ويستضيفكم إلى ساحة فضله وإحسانه، ثم تأبوْن أن تستجيبوا له أيها المستكبرون ـ الله الذى

لا تقدرونه حقّ قدره ، هو : « الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً » . . إنه سبحانه جعل لكم ذلك من غير طلب أو دعاء ، فالله سبحانه يعطى من غير طلب ، ويجود من غير سؤال . . وما الدعاء الذى تدعونه به ، إلا عبادة وولاء لله رب العالمين . .

وفى قوله تعالى : « والنهار مبصراً » إشارة إلى أن النهار وضوءه هو الذى يعطى العيون وظيفةَ الإبصار ، وأنه لولا هذا الضوء لما كان للعين أن ترى شيئاً ، فالتقاء الضوء بالعين هو الذى يعطيها القدرة على الإبصار ، وأنه لولا هذا الضوء لكان البصير والأعمى على سواء . . وإلى هذا يشير المعرى بقوله :

وبصيرُ الأقوام فى مثل أعمى فهلمّوا فى حِندسٍ نتصادم

والحندس : الظلام الشديد . .

وقوله تعالى : « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » إشارة إلى موقف كثير من الناس من فضل الله ونعمه عليهم ، حيث يلقونها بالجحود والكفران ، فلا يشكرون لله ، بل ولا يؤمنون به . .

قوله تعالى :

* « ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو فأنّى تؤفكون » .

فى الإشارة إلى الله سبحانه وتعالى ، إلفات لهؤلاء الغافلين عنه ، المشركين به ، العاكفين على عبادة ما يعبدون من أوثان وغير أوثان ، مما صنعت أيديهم ، أو تصورت أوهامهم . . فالله سبحانه هو خالق كل شىء ، وما يعبده هؤلاء المشركون من معبودات ، هى مخلوقات لله ، والمنطق

يقضى بداهةً بألاّ تكون عبادةٌ إلا لخالق وحده سبحانه وتعالى ، وأن عبادة غيرِه سبحانه ، ضلال مبين .

وقوله تعالى : « فأنى تؤفكون » ـ استفهام إنكارى ، ينكر على هؤلاء المشركين أن يولوا وجوههم إلى غير الله الواحد ، الخالق لكل شىء .. والإفك : العدول عن الحق إلى الباطل ، وعن الهدى إلى الضلال .

قوله تعالى :

* « كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون » .

أى بمثل هذا الإفك ، والافتراء على الله سبحانه بنسبة الشركاء إليه ، يأفك ويفترى كلِ من يجحد بآيات الله ، ولا يعرف ما فيها من دلائل الكمال والجلال لذات الله سبحانه وتعالى .. إن آفة الضالين والمشركين ، هى جهلهم بآيات الله ، وعدم وقوفهم عليها ، الأمر الذى ينتهى بهم إلى إنكارها ، ثم إلى إنكار الله ..

قوله تعالى :

* « الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صُوَرَكم ورزقكم من الطيبات . . ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين » . .

وهذه آية من آيات الله . . فهل لأهل الضلال والإفك أن ينظروا فيها ، وأن يخرجوا من هذا الظلام الذى هم فيه ، وأن يصافحوا بأبصارهم هذا النور المشع من آيات الله ، ليروا على ضوئه الحق الذى ضلوا عن طريقه ..

وكأنّ سائلا سأل : وما الله الذى بآياته يجحدون ؟ فكان الجواب :

« الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات .. ذلكم الله ربكم » الذى أقامكم على هذه الأرض ، وجعلها لكم مستقراً ومقامًا ، وجعل فوقكم السماء سقفاً محفوظاً ، تمسكه قدرته .. فإذا نظرتم فى أنفسكم رأيتم كيف أخرجكم الله فى تلك الصورة الكريمة من الخلْق ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة .. ثم ساق لكم من الرزق ما يقيم حياتكم ، ويحفظ وجودكم .. « ذلكم الله ربكم » إن كنتم تريدون التعرف إليه ، والإيمان به .. « فتبارك الله رب العالمين ».. أى علا ، وعظم . ربكم هذا ، إنه رب العالمين ..

قوله تعالى :

« هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين » .

أى ذلكم الله ربكم « هو الحى » حياة أبدية سرمدية .. وكل شىء هالك إلا وجهه .. « لا إله إلا هو » وإذ تفرد سبحانه بالحياة الدائمة السرمدية ، فهو المتفرد كذلك بالألوهية .. وإذ تفرد سبحانه بالألوهية ، فمن حقه أن يتفرد وحده بالعبودية له من جميع خلقه « فاعبدوه مخلصين له الدين » لا تشركوا معه معبوداً آخر ، واجعلوا الحمد له ، مفتتحَ عبادتكم ومختتمها .. فهو ـ سبحانه ـ المستحق للحمد ، أولا وآخراً ..

الآيات : (٦٦ — ٦٨)

* « قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا

ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنىَ البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين » .

هذا هو موقف الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، من آيات ربه ، تلك الآيات التى تلقاها وحياً من ربه ، ثم بلغها ـ كما أمره ربه ـ إلى الناس ، فاهتدى بها من اهتدى ، وكفر بها من كفر !.

والنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يمثل النموذج الأمثل والأكمل فى الأخذ بآيات ربه ، والامتثال لما تأمر به ، واجتناب ما تنهى عنه . .

فهو صلوات الله وسلامه عليه ، قد نُهِىَ من ربه أن يعبد ما يعبد المشركون من دون الله .. وقد اجتنب ما نُهى عنه . .

وهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد أُمر أن يعبد الله وحده ، ويُسلم وجودَه لله رب العالمين ، فامتثل ما أُمر به . .

هذه هى سبيل النبى . . فمن أراد أن يكون مع النبى ، فهذه سبيله : أن يجتنب عبادة ما يعبد المشركون ، وأن يُخلص العبادة لله وحده . .

وهنا سؤال :

كيف يُنهى النبيّ عن عبادة ما يعبد المشركون ، وهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يسجد لصنم ، ولم يوجّه وجهه إلى غير الله ، قبل أن تأتيه الرسالة ، إذ كان له من فطرته السليمة ما عصمه به الله من أن يشتهى هذا الطعام الخبيث ، الذى كان يقتات منه قومه . . ؟

والجواب على هذا من وجهين :

فأولا : ليس النهى عن الشيء بالذى يَلْزَمُ منه أن يكون الموجَّه إليه النهى مواقعاً له ، أو متلبساً به . . بل يصح أن يكون النهى واقعاً على ذات الشيء المنهىّ عنه وحده ، أشبه بلافتة تشير إلى الخطر الكامن فيه ، وتنبه إلى الحذر منه . . فإذا نُهى النبي عن الشرك ، فإنما يُنْهى عن أمرٍ ، ينبغى عليه أن يحذره ويتوقاه أبداً ، كما يقول الله سبحانه وتعالى : « لئن أشركت ليحبطنّ عملك » (٦٥ : الزمر)

وثانياً : أن هذا النهى ـ وإن كان موجهاً إلى النبيّ ـ هو فى حقيقته موجه إلى كلّ مدعوّ إلى الإيمان بالله . . فمن أراد أن يدخل فى الإيمان ، فلينزع ثوب الشرك أولاً ، ولينفض يديه ، ويُخْلِ نفسه من كل ما يصله بتلك المعبودات التى تُعبد من دون الله . . ثم ليدخل بعد هـذا إلى ساحة الإيمان نقيًّا ، طاهراً من الشرك ورجسه . .

وفى قوله تعالى : « لما جاءنى البينات من ربّى » . . إشارة إلى أن هذا الذى تلقاه النبيّ من نهيٍ عن الشرك ، وأمرٍ بالإسلام لربه ، إنما كان بعد بعثته ، واصطفائه لرسالة ربه ، وتلقيه ما ينزل عليه من آياته وكلماته . . فهذا النهى وذلك الأمر ، إنما هو من محامل الرسالة التى أُرسل بها من ربه ، وأمر

بتبليغها ، وإلاّ فإنه قبل أن يتلقى هذه الرسالة ، لم يكن منهيًّا عن شىء أو مأموراً بشىء . . وإنما كان يأخذ الأمور بما تهديه إليه فطرته ، ويدعوه إليه عقله . .

قوله تعالى :

* « هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثمّ لتبلغوا أشدّكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفّى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمًّى ولعلكم تعقلون » .

هو بيان لِمَا لربّ العالمين الذى دُعى النبى والمؤمنون معه إلى الإسلام له ـ من قدرة ، وعلمٍ ، وحكمة ، يراها ذوو الأبصار فى هذا الإنسان ، وفى مادة خلقه ، وكيف تنقّل من طور إلى طور ، حتى كان هذا الكائنَ العجيب ، الذى يحارب الله ، ويكفر به ! !

فالمادة الأولى للإنسان ـ أى إنسان ـ هى هذا التراب . . إذ كان غذاء أبويه من نبات الأرض المتخلّق من التراب ، وكانت النطفة متخلقةً من هذا الغذاء . . وهذه هى جرثومة الحياة للإنسان . . ثم تنتقل هذه النطفة فى الرّحم ، فتكون علقة ، فمضغة ، فعظاماً ، فلحما يكسو هذه العظام . . حتى إذا اكتمل الجنين فى بطن أمه ، وُلد طفلا ، هو الصورة المصغرة لهذا الإنسان الذى سيكونه يوم يكبر ، ويبلغ أشدّه . .

هذه هى مراحل الحياة الإنسانية . . من التراب . : إلى الإنسان . . ثم إلى التراب . . !

وفى قوله تعالى : « ثم يخرجكم طفلا » عطف وجُودٍ ذى خصائص مميزة للإنسان على وُجودٍ آخر ، له خصائصه ومميزاته . . فالإنسان فى بطن أمه ،

يعيش فى عالم ، ثم ولد فكان فى عالم آخر ، يختلف عن عالمه الذى كان فيه . . فكأن هذا الميلاد إخراج جديد له من وجود إلى وجود ، ولهذا جاء التعبير القرآنى : « ثم يخرجكم طفلا » بالعطف بثم التى تفيد التراخى، ثم بفعل الإخراج الذى يدل على المغايرة ، بين ما كان قبل هذا الإخراج ، وبعده . .

وقوله تعالى : « ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً » ـ ثم هنا زائدة ، والغرض منها الدلالة على أن هنا زمناً ممتداً بين خروج الإنسان من بطن أمه طفلا ، ثم بلوغه أشده . .

فقوله تعالى : « ثم لتبلغوا أشدكم » هو تعليل لخروج الإنسان من بطن أمه ؛ إذ لولا هذا الخروج ، لما بلغ الإنسان هذه الغاية . . وكأنّ النظم هو : ثم يخرجكم طفلا لتبلغوا أشدكم ولتكونوا شيوخاً » . . وبين بلوغ الإنسان أشده ، وبين شيخوخته مسافة زمنية ، يملأ فراغها حرف العطف « ثم » . .

وقوله تعالى : « ومنكم من يتوفى من قبل » احتراس ، يراد به تقييد هذا الإطلاق فى قوله تعالى : « ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً » أى ومنكم من يتوفى من قبل أن يبلغ أشده ، أو من قبل أن يكون شيخاً . .

وقوله تعالى : « ولتبلغوا أجلا مسمى » معطوف على قوله تعالى : « ومنكم من يتوفى من قبل » بتقدير محذوف يدل عليه ما قبله : : أى ومنكم من يُمدّ فى أجله، لتبلغوا الأجل المكتوب لكم . .

قوله تعالى :

* « هو الذى يحيى ويميت . . فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون »

أى أن من قدرة الله سبحانه ومن تدبيره فى خلقه ، أنه « يحيى » أى

يخلق الأحياء ، ويمسك عليهم الحياة « ويميت » أى يميت الأحياء ، التى ألبسها ثوب الحياة . .

وعمليات الإحياء والإماتة ، ليست بالأمر الذى يتكلف له الله ـ سبحانه ـ جهداً ، أو يبذل فيه عملا . . إذ أن كل شىء فى هذا الوجود خاضع لسلطانه ، مستجيب لقدرته . منفذ لمشيئته ، من غير تأبّ أو انحراف . . « إذا قضى أمراً . . فإنما يقول له كن فيكون » أى أنه سبحانه إذا شاء أمراً ، كان هذا الأمر ، وجاء كما شاءت مشيئته . .

« إنْ كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » (٩٣ : مريم)

الآيات : (٦٩ — ٧٧)

* « أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِٱلْكِتَابِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ ٱلْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَافِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ٱدْخُلُوٓا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون » ..

بعد هذا الاستعراض الرائع لقدرة الله ، وآثاره فى خلقه ، لا يزال هناك كثير من أهل الضلال ، يقفون من هـذه الآيات موقف العنـاد والتـكذيب . .

فإلى أين يُصرفون عن هذا الحق الذى بين أيديهم ؟ وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ . .

وفى تعدية الفعل « يجادلون » بحرف الجر « فى » إشارة إلى أنهم يجادلون بغير علم ، لجاجةً وسفهاً وتطاولا .. ولهذا ضمن الفعل معنى الخوض .

قوله تعالى :

* « الذين كذبوا بالـكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون » .

هو بيان يكشف عن الذين يجادلون فى آيات الله . . إنهم هم هؤلاء الذين كذبوا بهذا الـكتاب ، أى القرآن الـكريم ، وهم هؤلاء الذين كذبوا من قبلهم بما أرسل الله به الرسل من آيات ومعجزات .. فهؤلاء الذين يجادلون فى القرآن الـكريم ، هم وأولئك الذين سبقوهم من المـكذبين ، الذين جادلوا فى آيات الله التى جاءهم بها رسل الله — هؤلاء وأولئك جميعاً سوف يعلمون ما ينتظرهم من بأس الله وعذابه ، وسوف يرون ما أنذرهم به رسلهم من عذاب ، فلم تغنهم النذر ! .

قوله تعالى :

* « إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يُسحبون * فى الحميم ثم فى النار يُسجرون » .

« إذ » ظرف متعلق بقوله تعالى : « فسوف يعلمون » أى فسوف يعلمون الحق الذى أنكروه ، حين يساقون إلى جهنم يسحبون على وجوههم ، والأغلال فى أعناقهم ، والسلاسل فى أيديهم وأرجلهم . .

وقوله تعالى : « فى الحميم » متعلق بقوله تعالى : « يسحبون » أى يسحبون بالأغلال التى فى أعناقهم ، فى الحميم . . والحميم هو ما يغلى من السوائل . .

وقوله تعالى : « ثم فى النار يسجرون » أى يربطون على النار ، لتُشوَى عليها أجسامهم ، بعد أن غرقت فى هذا الحميم . .

قوله تعالى :

* « ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون * من دون الله . . قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً . . كذلك يضل الله الكافرين » .

فى قوله تعالى : « قيل لهم » بدلا من : يقال لهم ، حيث نسق النظم الذى جاء معلقاً الأمر بالمستقبل ، فى الأفعال « فسوف يعلمون » . . « ويسحبون » « ثم فى النار يسجرون » — فى هذا حكاية لما يقال لأصحاب النار يومئذ ، وكأنه قيل بالفعل ، وذلك لتقرير وقوعه وتوكيده ، ثم ليسمع هؤلاء المشركون ما قيل لمن سبقوهم من أهل الضلال ؛ فهذا خبر من أخبارهم ، وأنهم إنما يُسألون عن معبوداتهم الذين عبدوهم من دون الله ، فيلتفتون فلا يجدون لهم ظلاً . . فيقولون : لقد ضلوا عنا ، أى تاهوا فى هذا المزدحم . . ثم إذ يتبين

لهم أن ما كانوا يدعونه من دون الله ، باطل ، وضلال ، يقولون : « لم نكن ندعوا من قبل شيئا » أى شيئاً يعتدّ به ، ويستند عليه .. تلك هى حال المشركين الذين سبقوا هؤلاء المكذبين من قريش ، وهذا ماسئلوا عنه ، وذلك هو جوابهم .. فماذا يكون جواب هؤلاء المكذبين المشركين من قريش حين يسألون هذا السؤال ؟ أيجدون ما يقولون غيرَ هذا القول ؟ وهل يرون لمعبوداتهم وجهاً يوم الحساب ؟ وإذا رأوا لهم وجهاً فهل يُغنون عنهم من عذاب الله من شىء ؟ .

وقوله تعالى : « كذلك يضل الله الكافرين » أى كما أضل الله المكذبين برسل الله ، كذلك يضل الله هؤلاء المشركين الذين يكذبون رسول الله .. لأنهم جميعاً ظالمون كافرون ، إذ خرجوا عن سَنَن العدل والإنصاف بإنكارهم الصبح المبين ، وتكذيبهم الحق الواضح ..

قوله تعالى :

* « ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون » . .

أى ذلكمُ الذى أنتم فيه من بلاء وعذاب فى الآخرة ، هو بسبب ما كنتم عليه فى الدنيا ، من غرور ، بما ملكتم فيها ، وزهو وعجب بما بين أيديكم من زخرفها ومتاعها ، فصرفكم ذلك عن أن تنظروا إلى ما وراء يومكم الذى أنتم فيه ، فقطعتم حياتكم فى فرح ومرح ، ولهو وعبث . .

وفى قوله تعالى : « بغير الحق » إشارة إلى أن الفرح المذموم ، هو الفرح الذى ينبع من استرضاء عواطف خسيسة ، وإشباع شهوات بهيمية ، كما يقول الله تعالى : « فَرِح المخلفون بمقعدهم خلافَ رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا

بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لاتنفروا فى الحرّ » (٨١ : التوبة) . .
أما الفرح الذى يقع فى نفس الإنسان ، ويهزّ مشاعره ، من انتصار حق ، أو استعلاء على شهوة ، فهو فرح محمود ، بل ومطلوب ، كما يقول الله تعالى : « ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله » (٤ ـ ٥ : الروم) .

والمرح : الفرح الشديد ، الذى يصحبه عبث ولهو . .

قوله تعالى :

* « ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » ـ

هو دعوة إلى أهل الكفر والضلال ، أن ينزلوا منازلهم التى أُعدت لهم فى الآخرة .. فلكل جماعة بابُها الذى تدخل منه إلى منزلها المعدّ لها فى جهنم ، كما يقول الله سبحانه : « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » .(٤٤ : الحجر)

ودخول الأبواب — كما قلنا من قبل — هو دخول فى جهنم ذاتها ، إذ كانت تلك الأبواب قطعة من جهنم ، مطبقة على أهلها ..

قوله تعالى :

* « فاصبر . . إن وعد الله حق . . فإما نرينك بعضَ الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون » ..

هو دعوة إلى النبى الكريم بالصبر على مايلقى من عَنَت قومه ،وتكذيبهم له ، والتربص لدعوته ، وللمؤمنين بها . . وفى الدعوة إلى الصبر ، مع كل موقف ، وفى أعقاب كل مواجهة بين النبى وقومه — فى هذا ما يشير إلى ما كان يَلْقَى النبىُّ من أذى وما يحتمل من ضُرّ ، وأنه ليس له إلا أن يصبر

ويحتمل، حتى يحكم الله بينه وبين قومه .. «إن وعد الله حق» وهو أن الله سينصره، ويعزّ المؤمنين الذين آمنوا به، ويمكّن لهم فى الأرض، وأنه — سبحانه — سيخزى الضالين المكذبين، ويوقع بهم البلاء فى الدنيا، والعذاب الشديد فى الآخرة ..

وقوله تعالى: «فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون» أى أن هؤلاء الضالين المكذبين، لن يفلتوا من قضاء الله فيهم، ومما يتوعدهم الله به من عذاب. سواء أرأيت هذا أيها النبى، فى الدنيا، أو مُتّ قبل أن ترى قضاء الله فيهم، فإنهم راجعون إلينا فى الآخرة، وما فاتك أن تراه من قضاء الله فيهم فى الدنيا، سترى أضعافه فيهم الآخرة . .

الآيات: (٧٨ — ٨٤)

* «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا

آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون » .

كانت الآية السابقة دعوةً للنبى الكريم ، من ربه سبحانه وتعالى ، أن يصبر على أذى المشركين له ، وأن ينتظر وعد الله وحكمه . . فإن وعد الله لآت لا شك فيه ، ولكنّ لهذا الوعد أجلا موقوتاً عند الله ، لا يجىء إلا فى وقته الموقوت له ..

وفى هذه الآية ردّ على تحديات المشركين بإنزال العذاب الذين أُوعدوا به . . فقد كانوا يقولون ، فيما حكاه القرآن الكريم عنهم : « اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » (٣٢ : الأنفال) .

كما أن فى هذه الآية دفعاً لما يساور بعضَ نفوس المؤمنين من قلق ، حتى إنهم ليقولون تحت وطأة البلاء الواقع عليهم من المشركين : « متى نصر الله ؟ »

ففى هذه الآية ، يخبر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم ، بأنه سبحانه ، قد أرسل رسلا كثيرين من قبله ، منهم من قص عليه أخبارهم ، ومنهم من لم

يقصصهم عليه . . وأن هؤلاء الرسل جميعاً لم يأت أحد منهم بآية من تلك الآيات المعجزة أو المهلكة التى أخذت أقوامهم ؛ إلا بإذن الله ، فهو سبحانه الذى أمدهم بهذه الآيات . . وأن هذه الآيات لم تأت من عند الله بطلبٍ من الرسل ، أو استجابة لتحدّى أقوامهم ، وإنما هى بتقدير العزيز الحكيم . .

وقوله تعالى : « فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون ».

أمْرُ الله : هو وعده . . ومجيئه : هو وقوعه فى وقته الموقوت له . . أى إذا جاء الوقت الموقوت لقضاء الله ، « قضى بالحق » أى حكم بالحق ، بين الرسول وقومه المكذبين به . . وفى هذا القضاء بالحق تقع الواقعة بالمبطلين ، وينزل بهم بلاء الله ، على حين يُنجّى الله الرسول والذين آمنوا معه . .

قوله تعالى :

* « الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون »

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة تهددت المشركين بوقوع ما توعدهم الله به ، إن عاجلا ، أو آجلا ، إذا هم ظلوا على ما هم عليه من ضلالٍ وعناد . . فجاءت هذه الآية ، تفتح طريقاً لهؤلاء المشركين إلى الهدى ، إن كان بهم متجه إليه ، بعد أن سمعوا هذا التهديد . .

ففى قوله تعالى : « الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون » تذكير لهم بنعم الله فيهم ، وإحسانه إليهم ، وأنه سبحانه ـ لا أصنامهم ـ هو الذى سخر لهم هذه الأنعام ، ليركبوا منها ، ما يركبون ، ويأكلوا منها ما يأكلون . .

« ومن » هنا تبعيض ، أى لتركبوا بعض هذه الأنعام ، وتأكلوا بعضها . .

ويجوز أن تكون « من » للتعدية ، أى ليكون من هذه الأنعام ركوبكم ، ويكون منها أكلكم .. بمعنى أن هذه الأنعام مادة صالحة للركوب ، كما هى مادة صالحة للأكل .. كالإبل مثلا . .

وقوله تعالى : « ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم » إشارة إلى فوائد أخرى لهذه الأنعام غير الركوب ، وغير الأكل ، فيما ينتفع به من أصوافها وأوبارها ، وجلودها ، وفيما يحقق به الإنسان من اقتنائها ، وتربيتها وتثميرها من آمال وغايات ورغائب فى صدره ، فيقتنى من ثمنها ما يشاء من أثاث ومتاع .. وفى تعدية الفعل « تبلغوا » بحرف الاستعلاء « على » إشارة إلى أنها المطية إلى تحقيق هذه المطالب . .

وقوله تعالى : « وعليها وعلى الفلك تحملون » إشارة أخرى إلى ما يُنتفع به من هذه الأنعام ، وهى حمل الأثقال ، كما يقول سبحانه : « وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . » وقد قُرنت بها الفلك ، التى هى نعمة أخرى فى حمل الأثقال والناس إلى أماكن بعيدة فوق ظهر الماء ، الذى لاسبيل إلى اجتيازه بالإبل ، أو الخيل ، ونحوها من دواب الركوب . . فهذه للبر ، وتلك للبحر . . وهكذا تتم النعمة !

قوله تعالى :

* « ويريكم آياته فأىّ آيات الله تنكرون »

أى ويريكم الله من هذه النعم آياتِه الدالة على قدرته ، وفضله وإحسانه . . فأىّ آية من هذه الآيات ترون أنها ليست من عند الله ، وأنها ليست ذات فضل عظيم عليكم . ؟

قوله تعالى:

* «أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشدّ قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون»

هو تهديد للمشركين، بعد هذا العرض الذى رأوا فيه آيات الله، وما أمدهم الله به من نعم.. فكما أن لله سبحانه وتعالى نعمَه وفضلَه وإحسانه، كذلك له - سبحانه - نقمه، وسطواته، بالمكذبين الجاحدين.. ولو أنه كان لهؤلاء المشركين عيون تبصر، وعقول تعقل، لرأوا ما أنزل الله سبحانه وتعالى من بلاء ونقم بالمكذبين الضالين قبلهم، وقد كانوا أكثر منهم مالا وولداً، وأشد منهم قوة وبأساً، وأعظم منهم آثاراً وعمراناً فى الأرض.. فلما أخذهم الله ببأسه لم يغن عنهم شىء مما كان فى أيديهم، من مال، ورجال، وما أقاموا من دوَر وقصور وحصون..

قوله تعالى:

* «فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون»

الفاء فى «فلما» للسببية، ولمّا، بمعنى حين.. أى فإنه حين جاءتهم رسلهم بالبينات، استخفوا بهم وبما معهم، واغتروا بما فى أيديهم من أباطيل، وفرحوا بها، واطمأنوا إليها.. فأحاطت بهم خطيئتهم، ووقع بهم البلاء، جزاء لاستهزائهم بهذه الآيات البينات..

وفى قوله تعالى: «فرحوا بما عندهم من العلم» إشارة إلى قوله تعالى: «ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون».. فهم قد فرحوا بهذا الباطل الذى بأيديهم، وعدوه كل حظهم من الحياة..

قوله تعالى :

« فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين »

البأس : العذاب ، والبلاء الواقع بالمكذبين .

أى وحين رأى هؤلاء المكذبون برسل الله نُذر العذاب تطلع عليهم آمنوا بالله ، وقالوا : آمنا بالله وحده ، لا شريك ، وكفرنا بتلك المعبودات التى كنا بسبب عبادتها مشركين بالله .. فالباء فى « به » للسببية .

قوله تعالى :

* « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون » ..

بهذه الآية تختم السورة الكريمة ، وفى هذا الختام عرض لموقف الضالين جميعاً ، حين يرون بأس الله يحيط بهم .. إنهم إذ ذاك يقولون : آمنا بالله ولكن لا يقبل منهم هذا الإيمان ، وقد حل بهم البلاء . فتلك هى سنة الله .. إنه لا ينفع إيمان فى غير وقته ، وإنما الذى ينفع هو حين يكون الإنسان فى سعةٍ من أمره ، وفى قدرة على امتلاك الأمر فيما يختار من إيمان أو كفر .. أما هذا الإيمان الذى يقع تحت حكم الاضطرار والقهر ، فهو إيمان باطل ، لا إرادة للإنسان فيه .. ومن ثَمّ فلا يُحسب له ، ولا يُعدّ من كسبه .. وفى هذا يقول الله تعالى: « يوم يأتى لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً » .. (١٥٨ : الأنعام)

* * *

٤١ - سورة فصلت

وتسمى : « السجدة »

نزولها : مكية . . بلا خلاف.

عدد آياتها : أربع وخمسون آية .

عدد كلماتها : سبعمائة وست وتسعون .

عدد حروفها : ثلاثة آلاف وثلثمائة وخمسون .

مناسبتها لما قبلها

كان مما ختمت به سورة غافر ، قولُه تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله » .. ثم جاءت الآيات بعد هذا لتذكّر بآيات الله الممثلة فى نعمه التى أنعم الله بها على عباده من الأنعام .. وتلتها آيات أخرى ، تذكر بآيات الله فيما أخذ به الظالمين المكذبين من نقم ، وقد كانوا أشد قوة وأكثر جمعاً من هؤلاء المشركين ، فما أغنى عنهم ذلك من بأس الله من شىء ، وأنهم حين رأوا بأس الله فزعوا إلى الإيمان ، ولكن بعد فوات الأوان ،فلم يكن ينفعهم إيمانهم هذا . .

ثم جاءت سورة فصلت ، لتصل هذا الحديث ، الذى يذكّر بآيات الله ، وينذر المكذبين الضالين بعذاب شديد ، فتبدأ السورة بذكر القرآن الكريم وما يحمل من آيات بينات ، فُصّلت بلسان عربى مبين . . فإذا كان المشركون قد عَمُوا عن أن ينظروا فى هذه النعم التى بين أيديهم ، والتى تتمثل فى الأنعام ، التى منها ركوبهم ، ومنها يأكلون ، ثم عَمُوا كذلك عن أن يروا ديار القوم

الظالمين ، وما نزل بها من نقم ، الله وأنها قد أصبحت ترابا يمشون عليه ، وقد اختلط فيه الآدميون بالحيوان ، والنبات ، والأثاث — إذا كان للشركون قد عميت أبصارهم عن أن ترى هذه الآيات ، أو تلك ، فليسمعوا بآذانهم هذه الآيات ، التى هى كلمات الله إليهم ، تدعوهم إليه بلسان عربى مبين ، وتكشف لهم معالم الطريق إلى الهدى ودين الحق . .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٨)

* « حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) »

التفسير :

* « حم . تنزيل من الرحمن الرحيم »

« حم » مبتدأ ، وخبره « تنزيل من الرحمن الرحيم » . . أى أن « حم » هذه ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، أى هى من كلمات الله وآياته . . وفى هذا ردّ على

من يقول إن الحروف التى بدئت بها أوائل السور ليست من القرآن ، وإنما هى إضافات ألحقت ببعض السور فى الدور المكى من نزول القرآن ، وقد وُضعت على رأس هذه السور ، لتدلّ على عدد آياتها ، محسوبةً بحساب « الجمل » للحروف ، الذى كان معروفاً للعرب . . فقد كان من تدبير النبى ـ كما يزعمون فى هذا الدور من نزول القرآن أن يضبط عدد آيات السورة ، ويقيّدها بهذه الحروف التى توضع على رأسها ، حتى لا تختلط بغيرها ، وذلك أن عملية كتابة الوحى لم تكن قد انتظمت ، ورتب لها كتابها ، وأدواتها فى هذا الدور المبكّر من نزول القرآن . .

وهذا الزعم ، باطل من وجوه :

فأولا : أنه إن أُخذ به ، لا يحقق الغاية التى قيل إنه جاء من أجلها ، وهو ضبط عدد آيات السورة . . وذلك أنه ليس كل سور القرآن المكى بدئت هذا البدء بالحروف المقطعة ، حتى يمكن حصر كل سورة فى العدد الذى تدل عليه هذه الحروف القائمة على رأس كل سورة . . وعلى هذا يمكن إذا سقطت آية أو آيات من السورة التى ضبط عددها أن يستجلب لها ما سقط منها من سورة أخرى من السور التى لم يضبط عددها . . وإذن يكون هذا التدبير ، غير محقق للغرض الذى قصد منه . .

وثانيا : لو صحّ هذا الزعم بأن تلك الحروف كانت لضبط عدد آيات السور فى القرآن المكى ـ لكان من تمام التدبير أن يشمل ذلك القرآن المكى كله ، بل كان أولى به ، تلك السور التى كانت أول القرآن نزولا ، وهذا غير وارد فى القرآن ..

وثالثاً : إذا صح هذا الزعم أيضاً ، بالنسبة للقرآن المكى الذى قيل

إن عملية كتابة القرآن فيه لم تكن مستكملة ، ولا متوفرة الكتاب ، ولا أدوات الكتابة ـ فإنه لا يصح فى القرآن المدنى ، وفيه كثير من السور بدئت بالحروف المقطعة ، كسورة البقرة ، وآل عمران . . مثلا .

قوله تعالى :

* « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيًّا لقوم يعلمون » . .

هو بدل من قوله تعالى : « تنزيل من الرحمن الرحيم » بدل كل من كل . . أى هذا الذى نزل من الرحمن الرحيم ، هو كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . .

وفى قوله تعالى : « من الرحمن الرحيم » إشارة إلى أن منزل هذا القرآن هو الله سبحانه وتعالى ، تجلى به سبحانه على العباد ، رحمة لهم ، وإحسانا إليهم . .

وفى قوله تعالى : « كتاب » ـ إشارة إلى أن هذه الرحمة المنزلة من عند الله كتاب ، يقرأ ، ويدرس ، وتُتَلَقَّى منه الحكمة والمعرفة ، فهو من حظ العقول والقلوب والأرواح ، وليس متاعاً كالأنعام ونحوها ، مما هو من حظ الأبدان ، والجوارح ، والبطون ! .

وفى قوله تعالى : « فصلت ايانه » ـ إشارة ثالثة ، إلى أن هذا الكتاب ليس ذا موضوع واحد ، شأن الكتب المعروفة ، فهو ليس كتاب فلك ، أو حساب ، أو قصص ، أو تاريخ ، أو نحو هذا مما هو موضوع كل كتاب .. وإنما هو كتاب الوجود كله ، يحمل بين دفتيه كل علم ، وكل فن ، حيث هو جامعة العلوم والمعارف كلها ، لمن آتاه الله عقلا مبصراً ، وبصيرة مشرقة ، وقلباً سليما ، وروحاً صافية . . ففى هذا الكتاب قطوف دانية من

كل علم ، وثمار شهية طيبة ، مختلفة الألوان والطعوم من كل فن . . وفيه يقول الله تعالى « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » (٩ : الإسراء) .

ويقول الرسول الكريم : « القرآن مأدبة الله .. فتعلموا من مأدبته » .. إنه مأدبة سماوية ، لا ينفد عطاؤها ، ولا ينقص ما عليها ، مهما كثرت الأيدى المتناولة منها ..

وقوله تعالى : « قرآنا عربيا » ـ حال من الكتاب ، وهى حال واصفة لهذا الكتاب ، وهو أنه قرآن عربى ، أى يُقرأ بلسان عربى ..

وفى هذا امتنان من الله سبحانه وتعالى على الأمة العربية ، وتنويه بها ، ورحمة من الله اختُصّت بها ، إذ كانت هذه المأدبة ممدودة للعرب فى ساحتهم ، وكانوا هم أهلها ، والداعين إليها ..

وفى قوله تعالى : « لقوم يعلمون » ـ حثّ للأمة العربية ، أصحاب هذه المأدبة ، أن يأخذوا نصيبهم الأوفَى منها ، وإنه لا سبيل إلى الإفادة من خيرها الممدود ، إلا بالعلم ، فمن كان على علم ومعرفة ، كان حظه من هذا القرآن أوفى وأعظم .. ومن حُرم العلم والمعرفة ، فلا نصيب له منه ..

قوله تعالى :

* « بشيراً ونذيراً » ..

حال أخرى ، من هذا الكتاب ، تكشف عن موضوعه ، بعد أن كشفت الحال الأولى : « قرآنا عربيا » عن صفته .. فهو بشير ، ونذير ، بشير لأهل الإيمان والتقوى ، بالفوز برضوان الله ، والخلود فى جنات النعيم ،

ونذير للكافرين والضالين والمكذبين، نذير لهم بسخط الله، والخلود في نار الجحيم..

وقوله تعالى:

* « فأعرضَ أكثرهم فهم لا يسمعون » ..

بيان لما تكشّفت عنه الحال من أمر هؤلاء الذين أنزل الله سبحانه عليهم هذه الرحمة، ومدّ مائدتها بين أيديهم.. « فأعرض أكثرهم » عنها، وأبى أن يمد يده إليها.. « فهم لا يسمعون » إذ قد أصموا آذانهم عن دعوة الداعى، فلم يلتفتوا إلى ما يُدْعَوْن إليه من خير، وما يُمَدّ لهم من إحسان..

قوله تعالى:

* « وقالوا قلوبنا فى أكنّة مما تدعونا إليه، وفى آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب، فاعمل إننا عاملون ».

الأكنّة: جمع كِن، وهو ما يُستكنّ فيه ويستتر عن الأعين، والوقر: الصمم.

ومن ضلال هؤلاء الضالين المعرضين عن دعوة الخير التى يدعوهم هذا القرآن إليها، على لسان النبى الكريم — أنهم أحكموا إغلاق الطرق والنوافذ، بينهم وبين هذا الرسول، فلم يدَعوا منفذاً تنفذ منه كلماته إليهم..

ولقد أحكموا إغلاق قلوبهم حتى إذا سمعت آذانهم شيئاً من هذا القرآن — عَرَضاً من غير قصد — لم تنفذ إلى قلوبهم، التى هى موطن الوعى

والإدراك ، ثم — زيادة فى الاحتياط ، وحراسة لآذانهم من أن يقع فيها شىء من القرآن عَفْواً — جعلوا بينهم وبين النبي حجاباً ، بالبعد عنه ، واجتناب أىِّ مكان يكون فيه ، حتى يأمنوا أن تطرق كلمة من كلماته أسماعهم . . !

وقد يبدو ـ فى ظاهر الأمر ـ أن النظم الذى جاء عليه القرآن فى ترتيب هذه المغالق ـ أنه قد جاء بهـا على غير الترتيب الطبيعى ، الذى يألفه الناس ، فى التدبير لما يحرصون عليه ، ويعملون على صيانته وحراسته ، من الآفات ، والعوارض التى تعرض له . . حيث يتجه الإنسان أولَ ما يتجه إلى إقامة سور حول بيته ، ثم يتخير فى داخل هذا السور المكانَ الذى يقيم فيه البيت ، ثم يتخير من هذا البيت المكان الأمين الذى يحفظ فيه الغالىَ الثمين ، مما يحرص عليه من مال ومتاع . . ! هكذا يبدو وجه التدبير فى مثل هذه الحال . .

ولكن القرآن الكريم ، بدأ — كما نرى — من حيث انتهى التدبير البشرى . . فتحدث عن القوم بأنهم أحكموا إغلاق ما بداخلهم ، قبل أن يُحكموا إغلاق المنافذ الخارجية التى يمكن الوصول منها إلى هذا الذى فى الداخل :

« وقالوا قلوبنا فى أَكِنَّةٍ مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجاب »

فما سر هذا ؟

السر فى هذا ـ والله أعلم ـ هو أن القوم لم يكونوا مع القرآن الكريم فى سَعة من أمرهم ، وفى فسحة من الوقت للاختيار ، والتدبير . .

فلقد كان لهم مع القرآن الكريم لقاء من قبل أن يُحكموا أمرهم معه ، و يَلْقَوْه بالتدبير الذى يرونه . . وكانت الكلمات التى سمعوها من القرآن الكريم ذات قوة نفاذة هزت قلوبهم من أقطارها ، وكادت تستولى

عليهم ، وقد وقع كثير منهم تحت سلطانها القوىّ الآسر ، وأحس الهزيمة تـكاد تنزل به ، وتحطم صخرة كِبره وعناده .. فـكان همه حينئذ أن يمسك قلبه ، وأن يدفع عنه هذا الخطر الذى يتهدده .. إن المعركة هنا بينهم وبين النبى ، وما دخل على قلوبهم من كلمات الله التى سمعوها منه . . وإذن فلتُغْلَق هذه القلوب ، ولتقم عليها حراسة قوية منهم . . « قلوبنا فى أكنّة مما تدعونا إليه » . . فهذه قلوبنا التى رميتَها بما رميتها به من سهام ، قد وضعناها فى أكنّة من إرادتنا المتحدية ، بما أصابها من جراح . . وإن الزمن لـكفيل بأن تلتئم معه جراحُها ! .

هذا أول ما ينبغى أن يكون من القوم ، فى دفع هـذا الخطر الذى دهمهم .. وهذا هو أول ما يكون ممن يدهمه خطر يتهدد وجودَه ؛ أو يتهدد الشىء الذى يحرص عليه . . إن همـه الأولَ هو الدفاع عن هـذا الذى يتهدده الخطر منـه ، سواء أكانت حياته ، أو كان متاعه ! حتى إذا استشعر النجاة من هذا الخطر ، كان له بعد ذلك أن ينظر فى المنافذ الأخرى التى يهبّ عليه الخطر منها ، فيبدأ بالقريب منها أولا ، ثم بالذى يليه ، وهكذا . .

ومن هنا كان نظرهم بعد هذا إلى أقرب شىء يجىء منه الخطر إلى قلوبهم ، وهى آذانهم ، فأحكموا إغلاقها ، ووضعوا عليها سداً يحول بين الـكلمات ، وبين النفاذ منها إلى القلوب : « وفى آذاننا وقر » .. ثم كان التدبير بعد هذا ، أن يَبْعُدوا بأنفسهم — وما معهم من آذان وقلوب — عن مواطن الخطر جملة .. « ومن بيننا وبينك حجاب » .. فذلك هو الذى يقطع كل صلة بينهم وبين موطن الخطر .. !

وقد جاء النظم القرآنى : « ومن بيننا وبينك حجاب » بزيادة حرف الجر « من » ولم يجىء : « وبيننا وبينك حجاب » وذلك للمبالغة فى أن ما بينهم وبين النبى قد سُدّ بحجاب كامل ، ملأ المسافة التى بينهم وبين النبى ، فكل ما بينهم وبين النبى حجاب غليظ كثيف .. ولو جاء النظم القرآنى: « وبيننا وبينك حجاب » لما أدّى هذا المعنى ، ولكان مفهومُ الحجاب هنا أنه مجرد سِتر بينهم وبين النبى !.

واقرأ الآية مرة أخرى ، وانظر إليها نظرة مجدّدة ، على ضوء هذا الفهم الذى فهمناها عليه .. وإنك لتجد لتلك الآية فى هذا الترتيب إعجازاً من إعجاز القرآن الكريم ، وآية من الآيات التى تشهد له ، بأنه من تنزيل من حكيم حميد . .

« وقالوا قلوبنا فى أكنّة مما تدعونا إليه . . وفى آذاننا وقر . . ومن بيننا وبينك حجاب . » ! فسبحان مَن هذا كلامه ، وتلك آياته ! .

وقوله تعالى : « فاعمل إننا عاملون » . .

لقد أمن القوم ، أو هكذا خُيّل إليهم أنهم قد أمنوا . . إذ قد فرّوا من وجه هذا النهار ، ودفنوا رءوسهم فى الرمال ! .

« فاعمل » ما تشاء ، واقرأ من قرآنك ما تقرأ . . فلن تجد لما تقرأ أذناً تسمع ، أو قلباً يقع فيه شىء مما تقرأ « إننا عاملون » . . ولقد عملنا ما ترى ، من إقامة هذه الحواجز بيننا وبينك . . فافعل ماشئت ! .

قوله تعالى .

* « قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحَى إلىّ أنما إلٰهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين » .

وماذا يعمل النبى ؟ إنه لا يملك شيئا لرفع هذه الحواجز التى أقاموها على أنفسهم ، وإنه لن يستطيع أن يخرجهم من أجحارهم تلك التى دفنوا أنفسهم أحياء فيها . .

وفى قوله تعالى : « إنما أنا بشر مثلكم » — إشارة إلى خطأ ما يظنه المشركون فى النبى ، وأنه إنما يستعلى عليهم بما فى يديه من هدى ، وما يتلوه عليهم من آيات ربه .. فهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بشر مثلُهم قبلَ كل شىء ، وأن هذا الذى آتاه الله من فضله لن يخرجه عن بشريته .. إن الإنسان هو إنسان قبل كل شىء ، وما يُؤتاه من الله سبحانه ، من بسطة فى فى الجسم ، أو سعة فى الرزق ، أو روعة فى الجمال والحسن ، أو نفاذ فى البصيرة والإدراك — لن يخرجه ذلك عن أن يكون إنسانا .. وفى هذا عزاء للناس الذين لم يكن لهم حظ موفور ، من هذا الذى مع غيرهم ، من ماديات الحياة ومعنوياتها ، إذ أنهم ـ لو عقلوا ـ لعلموا أنهم شركاء فى هذا الذى يرون أنفسهم أنهم حرموا منه وهو البشرية .. إنه ملك الإنسانية كلها ، يضاف إلى رصيدها ، مما هو مرغوب فيه عندها .. كما أن مافى بعض الناس من نقص وعيب ، هو مما يحسب على الإنسانية كلها ، ومما تخفّ به موازينها . .

وإذن ، فإن الذى ينبغى أن يأخذ به الإنسان نفسه ، ليكون عضواً فى هذه الشركة العامة ، هو أن يدخل فيها برصيد طيب ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، حتى يأخذ بمقدار ما يعطى .. وإلا كان معتدياً ظالماً . .

والنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هو بشر مثلهم ، وقد أكرمه الله بهذا الرزق السماوى العظيم ، الذى بين يديه من كتاب الله ، والذى يدعو إليه الناسَ جميعاً ، ليشاركوه فيه ، وليأخذوا ما استطاعوا حمله منه .. وإن الشقى من حَرَم نفسه من هذا الغذاء الذى هو حياة الأرواح ، وغذاء العقول والقلوب .

وقوله تعالى : « يوحَى إلىّ أنما إلٰهكم إلٰه واحد »

هو صفة أخرى للنبي ، إلى جانب صفته البشرية ، وهو أنه رسول يوحى إليه من ربه ، وأن موضوع هذا الوحى ،هو تقرير وحدانية الله ، وأنه لا إلٰه إلا هو ، وأن كل محامل الوحى هو تقرير هذه الحقيقة ، وتأكيدها ، والعمل فى ظلها . .

وقوله تعالى : « فاستقيموا إليه ، واستغفروه ، وويل للمشركين »

هو تعقيب على هذه الحقيقة التى جاءت بها رسالة الرسول ، ونزلت بها آيات الله ، وحياً إليه من ربه . . « فاستقيموا إليه » أى اتجهوا إلى إلٰهكم الواحد دون أن تلتفتوا إلى وراء ، أو يمين ، أو شمال ،نحو ما تعبدون من آلهة . . بل اجعلوا وجوهكم إلى الله وحده ، واسمَوْا إليه فى استقامة وجِدّ « واستغفروه » لما كان منكم من ضلال عنه ، وشرك به .

وقوله تعالى : « وويل للمشركين » وعيد للمشركين الذين يمسكون بشركهم ، ولا يتحولون عنه إلى الإيمان بالله وحده . . وهو معطوف على محذوف ، تقديره : فإن استقمتم واستغفرتم ربكم ، غفر لكم ونجاكم من عذابه ، والويل للمشركين الذين لا يتحولون عن شركهم .

قوله تعالى :

* « الذين لا يؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم كافرون »

هو وصف لهؤلاء المشركين ، الذين تهددهم الله سبحانه وتعالى بالويل ، وسوء المصير . .

وفى اختيار عدم إتيان المشركين الزكاة ، وجعلها الصفة البارزة فيهم ـ ما يسأل عنه ، وهو : كيف تكون الزكاة المَعْلَمَ الأول للإيمان بالله ، حتى

يكون عدم أدائها المَعْلَمَ البارزَ من معالم المشركين ؟ ثم كيف يكون هذا شأنَ الزكاة فى هذه المرحلة من الدعوة، التى لم تكن الزكاة قد فُرضت فيها على المسلمين، إذ أن السورة مكية ، والآية مكية كذلك ، والزكاة إنما فرضت فى المدينة ! فكيف هذا ؟

والجواب ــ والله أعلم ــ من وجوه :

فأولا :ليس المراد بالزكاة ، هو الزكاة المفروضة ، وإنما المراد بها الإنفاق فى سبيل الله ، وفى وجوه الخير ابتغاء وجه الله . . فكل ما ينفق فى سبيل الله وابتغاء وجه الله ، هو زكاة ، وطُهرة للمنفق . .

وثانياً : أن الزكاة بهذا المعنى لم تجىء صفة أصلية ، وإنما جاءت حالا من أحوال الذين لا يؤمنون بالآخرة . . « الذين لا يؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم كافرون » . . فهذه الحال ــ وهى عدم إيمان المشركين بالآخرة ــ هى التى جعلتهم لا يؤتون الزكاة .. فلو أنهم كانوا يؤمنون بالآخرة ، لأعدوا لها عدتها ولسخت أيديهم بالإنفاق فى وجوه الخير ، ليكون لهم من ذلك زاداً مايتزودون به لهذا اليوم ..

وثالثاً : أن الإتيان للزكاة ، يشمل الإتيان لكل طيب ، ولكل ما يتطهر به الإنسان ، ويزكو ، ولا طُهر ولا زكاة ، مع الشرك .. فيكون من المعانى التى يشير إليها قوله تعالى : « الذين لا يؤتون الزكاة » أى الذين لا يؤمنون بالله . . ويكون « الإتيان» هنا بمعنى التسليم ، وإعطاء الولاء لله ولرسول الله .. ويروى عن ابن عباس فى هذا : « أنهم لا يقولون : لا إله إلا الله »

قوله تعالى :

* « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون »

هو فى مقابل قوله تعالى : « وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون » . فإذا كان الويل للمشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فإن الثواب العظيم ، والجزاء الكريم للذين آمنوا وعملوا الصالحات . . فهؤلاء لهم أجر غير ممنون . . أى جزاء حسن ، متصل لا ينقطع أبداً حيث جنات النعيم، هم ، فيها خالدون .

الآيات : (٩ — ١٢)

* « قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ (١٠) ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (١٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « قل أئنكم لتكفرون بالذى خَلَق الأرضَ فى يَوْمَيْنِ ، وتجعلون له أنداداً ذلك ربّ العالمين . . وَجَعل فيها رواسِىَ من فوقِها ، وبارَكَ فيها ، وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيامٍ سواء للسّائلين » .

بعد أن تهددت الآيات السابقة المشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم

الآخر - جاءت هذه الآيات لتلقاهم بما لله سبحانه وتعالى من علم وقدرة وسلطان، حتى يكون لهم من ذلك ما يفتح مغالق عقولهم، فينظروا إلى جلال الله، ثم لينظروا إلى آلهتهم على سَنَا هذا الجلال، ثم ليحكموا عليها، ماذا تكون هذه الدّمى إزاء ربّ الأرباب، خالق الأرض والسموات!

وفى قوله تعالى: « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين .. الآية » . .

تهديد لهؤلاء المشركين، الذين يكفرون بالله، ويعبدون هذى الدّمى الجاثمة على التراب! والاستفهام إنكارى . . أى ما كان لكم أن تكفروا عن هذه قدرته، وتلك آثاره . .

وفى قوله تعالى: « خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواءً للسّائلين »

قلنا فى أكثر من موضع فى تفسيرنا للآيات التى تشير إلى زمن محدّد لِمَا خلق الله من مخلوقات، مثل قوله تعالى: « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام » (٥٤ : الأعراف) - قلنا إن هذا الزّمن إنما هو منظور فيه إلى طبيعة المخلوق لا إلى قدرة الخالق.. وإلى أن هذا الزمن، هو الذى قدّره الخالق سبحانه وتعالى لينضج فيه المخلوق، ويستوفى فيه تمام خلقه، كالجنين فى الرحم، حيث يتم تكوينه فى تسعة أشهر، فى عالم الإنسان، وفى زمن أقل أو أكثر فى العوالم الأخرى من الأحياء . . فالزمن جزء من وجود كلّ موجود، وفى تطوره من حالٍ إلى حال . . سواء فى هذا، الحيوان، والنبات، والجماد . .

فقوله تعالى: « خلق الأرض فى يومين.. وجعل فيها رواسى من فوقها

وبارك فيها وقدّرَ فيها أقواتها فى أربعةِ أيامٍ سواء للسائلين » .. إشارة إلى الزمن الذى نضجت فيه الأرض ، وتمّ تكوينها ، وتهيأت لاستقبال الحياة فيها . .

والأيام هنا هى أيام الله . . أى الأيام التى يحويها فلك هذا الوجود ، فكل فلك له زمن معلوم ، تتم فيه دورته ، وتلك الدورة هى يوم ، كيوم عالمنا الأرضى . . ففى يومين من أيام الله . . ولا يعلم قَدْرَ هذا اليوم إلا الله ـ تمّ تكوين جُرم الأرض ، فكانت أشبه بالعلقة فى رحم الأم . . ثم بعد ذلك بدأت تظهر عليها الجبال ، وتجرى فيها الأنهار ، وتتحدد عليها كميات الهواء ، والحرارة ، إلى أن أصبحت صالحة لأن تلد الكائنات الحيّة ، وأن تمدّها بالغذاء الذى يحفظ عليها حياتها . . وذلك فى مدى يومين آخرين من أيام الله .. فكانت حَضَانة الأرض فى كيان الكون أربعةَ أيام ، من أيام الله ، قبل أن تتهيأ لاستقبال الحياة ، وظهور الكائنات الحية على ظهرها . .

وقوله تعالى : « وبارك فيها » إشارة إلى توالد الأحياء على الأرض ، وتكاثرها بما توالد فيها من عوالم النبات والحيوان والإنسان » . . فهذا من بركة الله سبحانه وتعالى على هذه الأرض !

وقوله تعالى : « وقَدّر فيها أقواتها » . . أى وقدّر على هذه الأرض الأقوات التى تضمن الحياة لهذه المواليد المتكاثرة فيها . . وذلك بما أودع فيها من هواء ، وماء ، وطعام . .

وقوله تعالى : « سواء للسائلين » هو حال من الأقوات ، أى أن هذه الأقوات مقدّرة بقدر معلوم ، وموزونة بميزان دقيق . . فالهواء مثلا ، لو زادت نسبة الأوكسجين فيه عن قدر معلوم لاحترق الأحياء ، ولو نقصت تلك النسبة عن قدر معلوم كذلك لاختنق الناس والحيوان والنبات.. وهكذا كلّ مافى هذه

الأرض ، وما عليها . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » (١٩ : الحجر) والسائلون هنا ، هم أصناف الأحياء ، الذين يَسألون ، أى يطلبون ما يمسك عليهم حياتهم . . فكل حىّ يَسأل ، ويطلب ما تطلبه حياته ، سواء أكان هذا إنساناً أو حيواناً أو نباتاً .

وفى التعبير بالسائلين ، إشارة إلى أن هذه المخلوقات — ومنها الإنسان — إنما تقف جميعها سائلة من فضل الله وإحسانه ، الذى بثّه فى هذه الأرض ..

هذا ، وقد رأى بعض المفسرين أن مدة خلق الأرض هى ستة أيام ، أخْذاً بما ذكر فى هذه الآية ، من اليومين ، والأربعة الأيام .. ولما كانت مدة خلق السموات يومين ، فتكون مدة خلق السموات والأرض ، هى ثمانية أيام .. والقرآن الكريم صريح الدلالة فى أن خلق السموات والأرض كان فى ستة أيام ، وذلك بما نطق به فى أكثر من موضع منه . . ولا يمكن أن يقع هذا الاختلاف فى كتاب الله .. « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » . .

والذى ينظر فى قوله تعالى : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين » — الذى ينظر فى هاتين الآيتين ، يرى أن مدة خلق الأرض هى أربعة الأيام ، وهى التى ذكرت فى الآية الثانية ، ويدخل فيهما اليومان اللذان ذُكرا فى الآية الأولى .. ولهذا عُطف قوله تعالى : « وجعل فيها رواسى » على قوله تعالى : « خلق الأرض » . . أى خلقها وجعل فيها رواسى من فوقها

وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام .. منها يومان كان فيهما خلق جِرم الأرض .. أما ذكر اليومين فللدلالة على أن الخلق غير الجعل .. فخلق الأرض ، كان له زمن تمّ فيه هذا الخلق .. ثم كان لتلك الإضافات التى دخلت على الأرض بعد خلقها ، زمن آخر ، ومجموع هذا وذاك هو أربعة أيام من أيام الله . وهذا مثل قوله تعالى : « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » (١٥ : الأحقاف) وقوله فى آية أخرى : « وفصاله فى عامين » (١٤ : لقمان) .

قوله تعالى :

* « ثم استوى إلى السماء وهى دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » .

استوى إلى السماء : أى نظر إلى السماء ، نظر تمكن واستعلاء ..

وهى دخان : أى بخار .

أى أنه بعد أن تمّ خلق الأرض ، وتهيأت لاستقبال الحياة ، بعد هذا نظر سبحانه وتعالى إلى السماء ، نظرة تمكن واستعلاء ، وكانت دخاناً ، أى بخاراً غير متماسك ، « فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » — أى دعا الأرضَ والسماء أن يأتياه ، أى يستجيبا له ، ويخضعا لمشيئته ، ويستقيما على ما أراد منهما ، إما طائعتين أو مكروهتين أى أن تأتيا إما مستسلمتين بلا إرادة ، أو مكرهتين ، فتكون إرادتهما تبعاً لإرادة الله سبحانه وتعالى : « قالتا أتينا طائعين » أى مستسلمين ، دون أن نخرج على النظام الذى أقمتنا عليه .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

« إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » (٧٢ : الأحزاب) .. فقد خيرت السموات والأرض فى أن تأتيا طوعاً أو كرهاً ، فاختارتا أن تأتيا طائعتين ، وذلك معناه ، إباؤهنّ قبولَ الأمانة التى عُرضت عليهن ، وتلك الأمانة هى أن يُوكل إليهن تصريفُ شئونهن بإرادتهن . . فأبين ذلك ، وأسلمن الأمر كله لله . .

أما الإنسان ، فهو وحده الذى حمل الأمانة ، وهو الذى يأتى ما أراد الله منه سواء أكان طائعاً أو عاصياً ، لأن إرادة الله تعلو إرادته ، وكل ما يفعله الإنسان وإن كان بإرادته ، هو من إرادة الله له ، ومشيئته فيه .. فهو مكره فى صورة مريد ! .

قوله تعالى :

« فقضاهن سبعَ سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيحَ وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم » .

أى فدبّر أمرهن وقضى فيهن بما شاءت إرادته ، فكنّ سبع سموات .. والضمير فى « قضاهن » هو للسبع السموات ، وقد قدم الضمير هنا للدلالة على أن التدبير والقضاء قد وقع عليهن بعد أن خُلقن ، وكنّ سموات سبعاً .. فالضمير يعود إلى وجود قائم ، وإن لم يجر له ذكر ، وذلك أدل على وجوده وتحققه .. وسبع سموات بدل من هذا الضمير ، كما تقول : أكرمتُه علياً ، وأكلته عنباً ..

وقوله تعالى : « وأوحى فى كل سماء أمرها » أى أوحى ، وأنزل فى كل سماء ما أمرها به ، وما قدره لها من نظام تجرى عليه .

وقوله تعالى : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً » . . السماء الدنيا ، هى السماء التى تعلو هذه الأرض ، وهى السماء الأولى ، وفوقها بقية السموات . .

والمصابيح ، هى الشمس ، والقمر ، والنجوم ، التى تظهر ليلا ، فتبدو وكأنها معالم زينة فى هذا السقف المطّل على العالم الأرضى . .

وقوله تعالى : « وحفظاً » معطوف على محذوف ، هو مفعول لأجله ، وتقديره « زينةً » أى زينا السماء الدنيا بمصابيح للزينة والحفظ ، أو زينة ، وحفظاً . .

والحفظ ، هو ما تقوم به النجوم من حراسة السماء من الشياطين ، إذا أرادوا التسمع لما فى الملأ الأعلى ، كما يقول سبحانه : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين » (٥ : الملك)

وقوله تعالى : « ذلك تقدير العزيز العليم » أى هذا النظام الذى قام عليه الوجود فى أرضه وسماواته ، هو من تدبير « العزيز » ، أى ذى العزة والقوة « العليم » الذى يحيط علمه بكل شىء . . فلا يقضى بأمر إلا عن علم كاشف لكل أمر . .

الآيات : (١٣ — ١٨)

* « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقةً مثلَ صاعقة عاد وثمود » .

أى فإن أعرض هؤلاء المشركون ، بعد أن عُرضت عليهم هذه الآيات ، ونُصبت لهم تلك المعالم الدالة على قدرة الله ، وعلى تفرده — سبحانه — بالملك والسلطان — إن أعرضوا فقل لهم معذراً : إنى أتوعدكم بعذاب الله ، وأن يحلّ بكم ما حل بعادٍ وثمودَ من قبلكم ، وقد رماهم الله بالصواعق فأُهلكوا ، فلم تبق منهم باقية .

رُوى أن قريشاً — وقد ضاقت بالنبى ، وبدعوته — جاءت إلى النبى تَعِدُه وتمنّيه ، وتَعرض عليه ما قدّرت أنه يطلبه من هذه الدعوة القائم عليها ، من مال وسلطان ، فانتدبت لذلك عتبة بن ربيعة ، فجاء عتبة إلى النبى ، يقول له : إنك قد أحدثت فى قومك ما ترى من فرقة وشقاق ، فإن كنت تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا ما تشاء حتى تكون أكثر

رجال قريش مالا ، وإن كنت تريد مُلكا ملّكناك علينا ، وإن كنت تريد وتريد . . فلك عندنا ما تريد ، على أن تدع آلهتنا ، ولا تعرِض لها بذكر ! فقال له النبي صلوات الله وسلامه عليه : وقد قلت ، فاسمع منّى ، فقال هات :

فقرأ عليه النبي — صلوات الله وسلامه عليه — : « حم . تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » . . . حتى إذا بلغ النبي قوله تعالى : « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فَزِع عُتبة واضطرب ، وقام فوضع يده على فم الرسول الكريم ، خوفاً من أن يقع هذا النذير به وبقومه . . !

إن القوم كانوا يعرفون صدق النبي ، ولكنهم كانوا يكابرون ويعاندون ، ويأبى عليهم كبرهم وعنادهم أن يُذعنوا للحق . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

« فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » (٣٣ : الأنعام) . .

قوله تعالى :

* « إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون » .

« إذ » ظرف ، هو قيد للوقت الذى وقعت فيه الواقعة بعاد وثمود . . فالصواعق التى رُموا بها إنما كانت بعد أن جاءتهم رسلهم بالبينات ، فكذبوهم ، وأعرضوا عنهم . .

وقوله تعالى : « من بين أيديهم ومن خلفهم » أى جاءوهم من كل ناحية ، والتقوا بهم بكل سبيل ..

وقوله تعالى : « ألا تعبدوا إلا الله » أى أن رسلهم التقوا بهم من كل وجه بهذه الدعوة ، يعرضونها عليهم ، ويقيمون لهم الحجج عليها ، وهى ألا يعبدوا إلا الله ..

وقوله تعالى : « قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون » ..

هو بيان لما استقبل به القوم دعوة الرسل ، وهو أنهم ردوهم ، وكذبوهم ، وقالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تتفضلوا علينا ، ولو شاء ربنا أن يبعث رسلا لبعث ملائكة من عنده ، فهم أولَى بهذا الأمر منكم ، وهم أهل لأن نقبل منهم ، ونصدق أنهم رسل من عند الله ، وإذن فنحن بما أرسلتم به كافرون .. لا نقبل منكم ما جئتم به ، ولا نصدقه ..

قوله تعالى :

* « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون » ..

هو بيان كاشف لما كان عليه القوم من ضلال ، حتى عُمّيت عليهم السبل إلى الله ، واستبد بهم منطق سفيه ..

فهؤلاء عاد .. استكبروا فى الأرض ، وتطاولوا على العباد ، بغير الحق ، إذ لم يكونوا أهلا لما رأوا فى أنفسهم من هذا الرأى الفاسد ، وهم

غارقون فى هذا الضلال .. لقد غرتهم هذه القوة الجسدية الحيوانية التى وجدوها فى كيانهم ، فطاروا بها فرحاً وزهواً ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ إنها القوة الجسدية وحدها، هى التى يملكونها .. فماذا عندهم من تلك القوة؟ أو لم يروا أنهم مخلوقون من هذا التراب؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة، إن كانوا لا يرون فى مخلوقات الله ، مَن هو أشد منهم قوة؟ إنهم لو نظروا لوجدوا أن قوتهم تلك لا وزن لها بين تلك القوى الهائلة التى يرونها فى مخلوقات الله . . فكيف بقوة الله سبحانه وتعالى؟

وفى قوله تعالى : « وكانوا بآياتنا يجحدون » هو معطوف على قوله تعالى : « وقالوا من أشد منا قوة » .. ويصح أن يكون معطوفاً على محذوف هو جواب لهذا الاستفهام الإنكارى : « أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة » ؟ أى لم يروا هذا ولم ينظروا فيه « وكانوا بآياتنا يجحدون » . .

قوله تعالى :

« « فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » .

هذا مصير عاد ، وتلك عاقبة تكذيبهم لرسلهم وكفرهم بآيات الله » لقد أرسل الله سبحانه وتعالى عليهم ريحاً صرصراً ، أى شديدة عاتية ، ذات صرير وزئير . . « فى أيام نحسات » أى فى أيام طلعت عليهم بالشؤم ، والبلاء ، على حين طلعت على غيرهم بالعافية والخير . . وذلك « لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا » حين يعصف بهم هذا البلاء ، وتقهرهم الريح ، التى كانت تهب عليهم نسيما عليلا ، وتصفعهم هذه الصفعة

التى تُذِل كبرياءهم وتفضح قوتهم ، وهى خلق ضعيف لين ، من خلق الله ! ..

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى موضع آخر :

« وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً * فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية » (٥ ـ ٨ : الحاقة) ..

« ولعذاب الآخرة أخزى » أى والعذاب الذى ينتظرهم فى الآخرة أشد خزيا لهم، وأوقع نكايةً بهم من هذا العذاب الدنيوى .. إن هذا العذاب الدنيوى ما هو إلا جرعة يتجرعونها قبل أن يعبوا عبًّا من عذاب يوم القيامة « وهم لا ينصرون » بقوتهم تلك التى طَغَوْا بها ، ولا بأية قوة أخرى يستنصرون بها ..

* « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون » ..

وهذه ثمود .. هداهم الله ، أى دعاهم إلى الهدى ، ونصب لهم معالمه بما بعث فيهم من رسول كريم ، يحمل بين يديه أقباس الهدى والنور ، فأغمضوا أعينهم ، واستحبوا العمى على الهدى ، ومضوا فى ظلمات يتخبطون .. « فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون » أى رماهم الله بصاعقة من عذاب ، أذلّهم بها ، وجعلهم عبرة ومثلا للظالمين المكذبين ، جزاء ما كسبوا من سيئات ، وما لجوا فيه من ضلال ..

قوله تعالى :

* « ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » .

أى أنه حين أخذ العذاب هؤلاء المكذبين الضالين ، نجى الله الذين آمنوا ، وكانوا يتقون الله ، ويخشون بأسه ، فلم يصبهم من هذا المكروه شىء ، بل سلموا من كل سوء .

الآيات : (١٩ — ٢٤)

* « وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ (٢٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون » .

الواو للاستئناف ، وانتقال من حال إلى حال .. فالحال الماضية هى حال عاد وثمود .. وهذه حال أعداء الله جميعاً فى الآخرة . .

وسُمّى الكافرون والمشركون أعداء الله ، لأنهم حرب على الله بحربهم أولياءه ، ورسله ، والحقّ الذى جاءوهم به ..

وفى وصفهم بالأعداء تهديد لهم ووعيد من الله سبحانه الذى يقف منه هؤلاء موقفَ الأعداء المحاربين . . فليأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وسيرون ما يطلع عليهم من هذه الحرب ، من خزى وهوان ، وما ينتهى إليه أمرهم من هلاك ودمار ، ثم من عذاب أليم فى جهنم خالدين فيها ..

فقوله تعالى : « ويوم يُحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون » . . عرض لما يلقى أعداء الله من عذاب الله يوم البعث ، يوم يحشرون إلى النار حشراً ، ويساقون إليها سوق الأنعام « فهم يُوزَعون » أى يزجرون ، فلا يشرد منهم شارد إلا زُجِر زجراً عنيفاً ، ليأخذ مكانه بين هذا القطيع المتدافع ، الذى يركب بعضه بعضاً . .

قوله تعالى :

* « حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعُهُم وأبصارهم وجُلودهم بما كانوا يعملون » .

« حتى » غاية إلى ما يحشر إليه أعداء الله ، وهى النار . . أى أنهم يساقون هذا السوق العنيف إلى النار ، حتى إذا ما جاءوها ، وبلغوا مشارفها ، نصبت لهم موازين الحساب ، وعرضت عليهم أعمالهم فى كتاب يلقاه كل واحد منهم منشوراً . . ثم قام من كيان كل منهم شهود يشهدون عليه بما كان منه من منكر وضلال . . وكلّ شىء فيهم ينطق شاهداً عليهم إلا ألسنتهم التى لم تنطق فى دنياهم غير الكفر والشرك . . فهذه الألسنة تخرس عن أن تقول شيئاً ، كما يقول تعالى « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » (٦٥ . يس) .

فالأيدى ، والأرجل ، تتكلم ، ولا تقول اليوم إلا حقًّا . . والأيدى إنما تشهد بما أخذ بها أصحابها من حقوق وما سلبوا من أموال ، وما أوقعوا بها من أذى فى عباد الله : . والأرجل تشهد بما كان منهم من سعى إلى كل مأثم ومشى إلى كل باطل . .

وفى قوله تعالى : « شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » . . بيان لشهود آخرين ، غير الأيدى والأرجل ، يقومون من كيان الإنسان نفسه ، ليؤدوا شهادة الحق عليه . . فهناك السّمع ، وهو يشهد بما سمع من آيات الله ، فلم يجد لها عند صاحبه مجيباً ، وما سمع من منكر القول وضلال الحديث ، فوجد السامع المستجيب !

وهناك البصر . . الذى رأى مارأى من آيات الله الكونية ، فلم يجد عند صاحبه الوعاء السليم الذى يحفظ فيه ما رأى ، بل إنه كان يرى ما يرى ، فيُلقى بما رأى فى إناء مخروق لا يمسك شيئاً ، ولا يحتفظ بشىء . . على حين كان هذا البصر إذا علق بشىء من الباطل ، وجد من صاحبه المشاعر التى تجسد هذا الباطل ، وتقيمه تمثالا يعبده من دون الله !

ثم هناك « الجلد » وهو هذا الثوب الذى يكسو الإنسان ، ويحوى كيانه كله ، وهو موضع الإحساس فيه ، ويمثل حاسة اللمس ، إلى جوانب الحواس الأخرى ، من السّمع ، والبصر ، والذوق ، والشم ، التى يحويها كلها الوعاء الجلدى . .

وقد فسر بعض العلماء « الجلد » بالفرج ، وهو تأويل بعيد ، لا تساعد عليه اللغة ، وإن كانت الفروج من الجوارح التى تهدد الناس بأفدح الأخطار وأشنعها . . فكان حمل الجلود عليها منظوراً فيه إلى إقامة أفصح الشهود

وأ كثرهم دلالة على جرم المجرمين . . وهذا ما نرى أن القرآن الكريم لم يقصد إليه هنا ، وإلا لأنطق القلوب التي هي موطن الفساد ، وقائدى الضلال عند أهل الفساد والضلال والكفر !

كذلك فسرّ بعض العلماء المحدَثين « الجلد » ببصمات الأصابع ، حيث لكل إنسان بصمة أصابعه التي لا يشاركه فيها إنسان غيره ! ! وهذا التأويل محمول فيه الجلدُ على أنه الذي يكشف عن شخصية الإنسان ، وينادى عليه أن هذا هو فلان « المجرم » فخذوه . . وهذا المعنى أيضاً غير وارد فيما سِيقت الآية الكريمة له ، وهو أن الله سبحانه وتعالى أقام على الكافرين والمشركين والضلّال شهوداً عليهم من الجوارح التي كانت فى الدنيا من القوى المسخرة لهم ، والتي كانت نعماً من نعم الله الجليلة عندهم ، لو أنهم أحسنوا الانتفاع بها . . ولكنهم وجّهوها غير وجهتها التي خلقها الله لها . . وكان ذلك عدواناً على هذه الجوارح ذاتها ، بتكليفها ما لو كانت لها إرادة لأبت أن تفعله . . فلما جاء يوم الحساب ، ولم يكن للإنسان سلطان عليها فى هذا اليوم ، لأن إرادته قد تعطلت ـ تمثلت هذه الجوارح شخوصاً ، تقف من صاحبها موقف الخصومة ، وتنطق بما ارتكب بها صاحبها من منكرات ، ليقتص لها الله سبحانه من صاحبها ، المعتدى عليها . .

والجلود هنا هى ـ كما قلنا ـ الثوب الذى يكسو الكيان الإنسانى كله ، ويحوى فى داخله هذا الهيكل البشرىّ ، وما حوى من مشاعر ، وأحاسيس ووجدانات . . فشهادة الجلد ، شهادة شاملة لكل ما شهدت به هذه الجوارح من الألسنة ، والأيدى ، والأرجل ، تستدرك ما فات هذه الجوارح أن تشهد عليه ، مما لم يكن داخلاً فى نطاق وظيفتها . . ولهذا فإنهم ـ أى أهل الضلال ـ يتجهون إلى جلودهم وحدها بالاستنكار عليها أن تؤدّى هذه

الشهادة التى تُدينهم وتُدين جلودهم معهم . .

* « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا ٱللَّه الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرّة وإليه ترجعون » .

والجلود قد أنطقها الله سبحانه الذى أنطق كل شىء . . فكل شىء ناطق لله سبحانه وتعالى ، كما أن كل شىء مسبح بحمده ، كما يقول سبحانه : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » (٤٤: الإسراء) .. فليس المراد بالنطق ، هنا ، نطقَ اللسان ، وإنما المراد هو إفصاح الموجود عن وجوده ، والإبانة عن ولائه لخالقه ، بأية صورة من الصور ، ومن هذه الصور انتظامُ الموجود فى نظام الوجود ، وجريانه على ما أقيم عليه . .

وقوله تعالى : « وهو خلقكم أول مرة » . . يجوز أن يكون هذا من قول الله سبحانه وتعالى لهم ، تعقيباً على مقول الجلود لهم ، وتقريراً لهذا القول . ويجوز أن يكون ذلك من مقول الجلود ، ويكون ذلك من شهادتها على أصحابها ، الذين لم يلتفتوا إلى هذه الحقيقة ، بل غفلوا عنها ، فلم يؤمنوا بأن لهم خالقاً واحداً هو الذى خلقهم ، وخلق كل شىء . . إذ لو عرفوا هذه الحقيقة ، لآمنوا بالله وحده ، ولما عبدوا هذه الآلهة التى عبدوها من دونه ، ولَمَا صاروا إلى هذا المصير المشئوم الذى ألقى بهم فى جهنم . .

والمراد بالخلق أول مرة ، هو الخلق الذى كان عليه الإنسان ، قبل الموت ، وهو ميلاده فى الحياة الدنيا . . وفى هذه إشارة إلى خلق آخر ، وهو البعث . . فالبعث ، وهو نشر الموتى من القبور ، هو خلق جديد ، كما يبدو للأنظار وخاصة أنظار الذين ينكرون البعث ، ويظنون أن الموت هو رحلة فى محيط الفناء الأبدىّ ، ولهذا كانوا يقولون فى أسلوب إنكارى ما حكاه القرآن

عنهم فى قوله تعالى : « أإذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد » :(٥ : الرعد) ..

وفى قوله تعالى : « وإليه ترجعون » .. إشارة إلى هذا الخلق الآخر ، وهو البعث بعد الموت .

قوله تعالى :

« وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون » .. يجوز أن يكون هذا من قول الله سبحانه وتعالى ، كما يجوز أن يكون من قول الجلود لأصحابها ، على نحو ما أشرنا إليه فى قوله تعالى : « وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون » .

وقوله تعالى : « أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم » .. هو فى تأويل مصدر مجرور بلام التعليل ، أى لشهادة سمعكم وأبصاركم وجلودكم وهو تعليل لنفى استتارهم ، أى ما كنتم تستترون عن الله بأفعالكم المنكرة حتى استدعى هؤلاء الشهودَ منكم ليشهدوا عليكم ، « ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون » فأراكم الله سبحانه وتعالى من هؤلاء الشهود بعض مظاهر علمه وقدرته ؛ وأن له سبحانه وتعالى جنوداً فى كلّ ذرّة فيكم ، هى ألسنة تنطق بكل ما تعملون من صغيرة وكبيرة ..

وفى قوله تعالى : « ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون » .. هو إشارة إلى سوء ظنهم بالله ، وأنهم كانوا يظنون أن الله سبحانه لو كان يعلم ما يعملون فى جَهْر ، فإنه لا يعلم ما يُسرّون من أقوال ، وأعمال .. ولهذا استتروا وهم يأتون المنكرات من أعمالهم وأقوالهم ، ظنًّا منهم بأن الله سبحانه

لا يرى . ولا يسمع ما كان منهم فى خَفاء وستر .

ولهذا أراهم الله سبحانه كذب هذا الظن وبطلانه ، فأنطق سبحانه وتعالى جلودهم التى لا يبدو منها أى عمل ، فكانت ألسنةً فصيحة، تنطق بكل ما كان منهم من مشاعر وأحاسيس ، وخلجات . .

فإنطاق الجلود هنا ، هو فى مواجهة هؤلاء الذين يظنون بالله سبحانه وتعالى هذا الظنّ ، الذى يقوم عندهم بأن الله يعلم جهرهم ولا يعلم سرّهم ، وهذا ما يشير إليه سبحانه فى موضع آخر : « وأَسِرُّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذاتِ الصدُور » (١٣ : الملك) . . ولهذا لم يَجْرِ ذكر للألسنة هُنَا ، وهى من الجوارح التى تشهد على أصحابها ، كما يقول الله تعالى : « يومَ تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » (٢٤ : النور) . . إذ كانوا ـ حسب ظنهم هذا ـ يظنون أن الله يعلم ما ينطقون به . . وهو ظَنٌّ لا يبلغ مرتبة اليقين عندهم . .

هذا ، ويجوز أن يكون المعنى ، وما كنتم لتستتروا لو أنكم علمتم أن معكم شهوداً يشهدون عليكم ، وهى أقرب شىء إليكم ، بحيث لا يفوتها همسة خاطر ، أو قشعريرة جلد ، أو ذوق لسان ، أو حركة يد أو رجل . . ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ، فلذلك اجتراؤكم على اقتراف المنكرات سرًّا ، وما دَرَيتم أن لله جنوداً قائمين عليكم يسكنون بين العظم والجلد منكم !

قوله تعالى :

* « وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربّكم أرداكُمْ فأصبحتم من الخاسرين » . .

أى هذا الظن الذى ظننتموه بربكم من أنه قد يعلم ما تبدون ، ولا يعلم ما تكتمون . هذا الظنّ هو الذى أفسد عليكم معتقدكم فى ربّكم ، فلم تروْه سبحانه إلا على ما ترَوْن به بعض أصحاب الجاه والسلطان ، ممن لهم جنود وعيون ، يروْن القليل ، ولا يرون الكثير .. فكانَ إيمانكم بالله هو هذا الإيمان الفاتر الفاسد ، الذى لا يُفرده بالألوهية المطلقة ، والعلم المطلق .

قوله تعالى :

* « فإن يصبروا فالنّار مثْوًى لهم وإن يستعتبوا فماهم من المعتَبين »

أى فإن يصبر هؤلاء المشركون على هذا البلاء الذى هم فيه من ظنهم بالله هذا الظنّ السيء ، فالنّار هى موعدهم ، وهى مأواهم الذى يأوون إليه . . وإن يستعتبوا أى يطلبوا العُتبى فى طلب الصفح وإصلاح ما أفسدوا ، فلن يُعتبوا ، ولن يقبل منهم تصحيح معتقدهم ، بعد أن فات الوقت ، وأفلتت الفرصة من أيديهم ؛ وهم فى الدنيا . أما اليوم ـ يوم الحساب ـ فلا يقبل عمل ، ولا تنفع مَعْذِرة ! كما يقول الله سبحانه : « لا تعتذروا اليوم . . إنما تُجْزون ما كنتم تعملون » ٧ : التحريم

الآيات : (٢٥ — ٢٩)

* « وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ

ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ (٢٩) »

التفسير :

* « قوله تعالى :

« وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجنّ والإنس إنهم كانوا خاسرين » .

قيضنا : أى هيأنا ، ويسرنا ، وسلطنا . .

قرناء : جمع قرين ، وهو الصاحب الملازم ، كأنه وصاحبه فى مقود واحد أى أن الله سبحانه وتعالى ، جمع هؤلاء الضالين ، بأهل الضلال ، فالتقوْا بهم على طريق الضلالة ، فلم يجدوا منهم ناصحاً ، بل وجدوهم دعاة سوء يدعونهم إلى المنكر ، ويزينونه لهم ، ويغرونهم به . : وهذا من خذلان الله . . نعوذ بالله منه . . إذ لو أراد الله سبحانه بهم خيراً لجمعهم بأهل الاستقامة والصلاح ، فانتفعوا باستقامتهم وصلاحهم ، وأفادوا من هديهم وإيمانهم .

وقوله تعالى : « فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم » أى أن هؤلاء القرناء قد زيّنوا ، وحبّبوا إلى هؤلاء الضالين الوافدين عليهم «ما بين أيديهم» أى ماهم فيه من ضلال « وما خلفهم » أى ما كان عليه آباؤهم من منكرات وضلالات ورثوها عنهم حتى لقد كادت تكون طبيعة لازمة لهم .

وقوله تعالى : « وحق عليهم القول » أى وجب ولزم أن يحلّ بهم ما قضى الله سبحانه وتعالى به فيهم من قوله تعالى : « لأملأنّ جهنم من الجنّة والناس أجمعين » فهو حكم عام على أصحاب النار ، أنهم أصحاب النار قبل أن يُخلقوا .

وقوله تعالى : « فى أمم قد خلت من قبلهم من الجنّ والإنس » متعلق بمحذوف هو حال من هؤلاء الضالين . . أىّ حالة كونهم داخلين فى أمم الضالين الذين خَلَوْا ومضوْا من قبل ، من الجنّ والإنس . . ويجوز أن يكون « فى » بمعنى مع ، أى حق عليهم العذاب مع أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، وفى تعدية الفعل بحرف الجر « فى » الذى يفيد الظرفية ـ إشارة إلى أنهم وأهل النار جميعاً مظروفون فى ظرف واحد يحتويهم جميعاً . .

وقوله تعالى : « إنهم كانوا خاسرين » ـ الضمير فى « إنهم » يعود إلى هؤلاء الضالين ، بمعنى أن الله سبحانه قد أضلهم ، وقيض لهم هؤلاء القرناء الضالين ، لأنهم كانوا خاسرين ، أى لا يقبلون إيماناً ، ولا يطلبون هدى . . ويجوز أن يكون الضمير للضالين جميعاً .. من سابقين ولاحقين ، من جن وإنس .

قوله تعالى :

* « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » : .

أى أن هؤلاء الضالين من المشركين ، وقد اجتمع بعضهم إلى بعض ، وتلاقوا على طريق الضلال ـ تشكل منهم هذا الكيد الذى أجمعوا أمرهم عليه ، ليكيدوا به للنبى الكريم ، وللقرآن الذى يتلوه عليهم ، وهو أن

يشوّشوا على النبي وهو يتلو القرآن ، ويكثروا من اللغط ، واللغط ، حتى لا تنفذ كلماته إلى الآذان ، ولا تصل إليها إلا مختلطة مضطربة .. وقد ظنوا أنهم بهذا العبث الصبيانى يسدون منافذ الضوء من تلك الشمس الساطعة إذا هم مدّوا أيديهم إليها ، وحجبوها عن عيونهم ..!

قوله تعالى :

* « فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون » . .

هو تهديد ، ووعيد لهؤلاء الذين يكبدون لآيات الله ، ويلقونها هازئين ساخرين .. وفى إقامة الظاهر مقام المضمر فى قوله تعالى « الذين كفروا » بدلا من قوله تعالى : « فلنذيقنهم » — إشارة إلى سوقهم مع جريمتهم ، وهى الكفر ، إلى جهنم ، وفى هذا مضاعفة لآلامهم ، حيث يرون وجه جريمتهم يصحبهم فى كل مكان . . إنهم أشبه بالقاتل الذى يحمل جثة قتيله وهو مسوق إلى ساحة الإعدام . .

وقوله تعالى : « ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون » — إشارة إلى أن أعمالهم سيئة كلها ، وأنها درجات متفاوتة فى السوء ، وأن الكبائر منها تجمع الصغائر فى كيانها ، وأن الكفر وهو رأس الخطايا كلها هو الذى يُدانون به ، ويلقون أشد العذاب عليه ، فإنه ليس بعد الكفر ذنب ، ولا وراء عذاب الكافر عذاب .. ولهذا سِيقوا إلى جهنم بجريمة الكفر ، « فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً » ! .

قوله تعالى :

ذلك جزاء أعداء الله النارُ لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون » .

والكافرون هم أعداء الله ، بل هم أعدى أعدائه ، وليس لهم جزاء عند الله إلا النار ، حيث تكون دار خلود لهم ، لا يخرجون منها .. إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، ويكذبون رسله ، ويكفرون بربهم ..

قوله تعالى :

* « وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذَين أضلانا من الجن والإنس نجعلْهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين » .

هو عرض لمشهد من مشاهد القيامة لأهل الضلالة جميعاً ، من تابعين ومتبوعين .. وفى هذا المشهد ، حيث النار وقد احتوتهم جميعاً ، وأوصدت عليهم أبوابها — لا يرى التابعون سبيلا للانتقام من الذين اتبعوهم ، إلا أن يَدْعوا الله سبحانه أن يريهم إياهم ، ويجمعهم بهم ، ويمكنهم منهم ، ليجعلوهم تحت أقدامهم ! وفى هذا شفاء لما فى صدورهم من موجِدة ونقمة عليهم .. وإن كان ذلك لا يخفف عنهم من العذاب شيئاً ! .

الآيات : (٣٠ — ٣٥)

* « إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » .

هو عرض للوجه الآخر ، من وجوه الإنسانية ، وهو وجه المؤمنين بالله ، المستقيمين على طريق الهدى ، بعد أن عرضت الآيات السابقة أهلَ الضلالة والكفر ، وما أعد الله لهم من عذاب أليم .

فالذين قالوا ربنا الله ، وحده ، لا شريك له ، ولا نعبد إلها غيره ، ولا نتخذ معه شركاء ، ثم إنهم مع إيمانهم هذا ، قد عملوا بمقتضى هذا الإيمان فاستقاموا على ما يدعو إليه الإيمان بالله ، من امتثال ما يأمر به ، واجتناب ما ينهى عنه ـ هؤلاء المؤمنون تتنزل عليهم الملائكة بالرحمات والبركات من ربهم ، فيلقونهم عند كل مطلع من مطالع القيامة ، وعند كل شدة من شدائدها ، بما يملأ قلوبهم أمنا وسكينة ورضا ، قائلين لهم : ألاّ تخافوا مما أنتم مقدمون عليه من حساب وجزاء ، ولا تحزنوا على فائت فاتكم فى الدنيا ، فقد أخذتم خير ما فيها ، وهو الإيمان بالله ، والعمل

الصالح الذى تقبله الله منكم، وأعد لكم الجزاء الطيب عليه، وهو الجنة التى وعدكم.. والله منجز وعده..

قوله تعالى:

* « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون ».

وإنه لكى يأنس المؤمنون بالملائكة الذين يلقونهم لأول مرة، يكشف لهم الملائكة عن تلك العلاقة التى كانت بينهم فى الدنيا، إذ كان الملائكة ـ من غير أن يشعر المؤمنون ـ أولياء لهم، تجمع بينهم جامعة الولاء لله، والطاعة له.. فهم والملائكة كانوا إخوانا فى الله، ومن هنا كانوا يستغفرون للمؤمنين، كما يقول الله سبحانه: « الذين يحملون العرش ومَن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » (٧: غافر).

ثم إن الملائكة كانوا فى الدنيا جنداً من جنود الله، يقاتلون فى سبيل الله مع المقاتلين فى سبيله من المؤمنين، كما يقول سبحانه: « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » (١٢: الأنفال)..

قوله تعالى: « ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تَدّعُون ».

الضمير فى « فيها » للجنة التى جاء ذكرها فى قوله تعالى: « وأبشروا

بالجنة التي كنتم توعدون » . . أي أبشروا بهذه الجنة التي لكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، أي ما تتمنون ، مما يطوف بخيالكم ، ويقع في عالم الأماني ، فكل ما تتمنونه تجدونه حاضراً بين أيديكم . .

وإنه ليس أهدأ للإنسان ، ولا أسعد لقلبه ، من أن يجد كل ما يتمناه حاضراً بين يديه ، فتلك هي السعادة المطلقة ، الخالية من كل شائبة من شوائب الحرمان ، الكلي أو الجزئي . .

قوله تعالى :

« نُزُلاً من غفور رحيم » أي منزلا من غفور رحيم ، قد أعده الله لكم وقد غفر لكم ذنوبكم ، وأنزلكم منزل رحمته . . ومن نزل هذا المنزل فهو في ضيافة رب كريم ، ينال من فضل الله ما يشاء . .

وفي هاتين الصفتين الكريمتين من صفات الله سبحانه — إشارة إلى أن المغفرة والرحمة ، هما اللتان أنزلتا المؤمنين هذا المنزل الكريم . . أما الإيمان والأعمال الصالحة ، فهي وسائل يتوسل بها المؤمنون إلى مرضاة الله . . وفي الحديث « لا يدخل أحد الجنة بعمله » قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته » . . فاللهم تغمدنا برحمتك يا أرحم الراحمين . .

قوله تعالى :

* « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين » . .

الاستفهام هنا مراد به الخبر ، أي أنه لا أحد أحسن في الناس قولا ممن دعا إلى الله ، وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين . .

والآية تنويه بالمؤمنين ، الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا .. فقولهم ربنا الله ، هو أحسن قول نطق به لسان ..

والمراد بالدعاء إلى الله ، الاتجاه إلى الله ، بأن يدعو الإنسان نفسه إلى ربه ، وأن يَخلُص بها من مواقف الضلال ، ومجتمع الضلالة ، وهذا ما يشير إليه سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم : « وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين » (٩٩ : الصافات) .

وفى عطف العمل الصالح ، على الدعاء إلى الله : « دعا إلى الله وعمل صالحاً » إشارة إلى أن الدعاء إلى الله ، وهو الإيمان به ، لا يؤتى ثمره الطيب ، إلا بالعمل الصالح .. فإذا اجتمع الإيمان بالله ، والعمل الصالح ، فقد أمسك المؤمن بالخير من طرفيه ، واستمسك بالعروة الوثقى من صميمها ، وفى هذا يقول الرسول الكريم لمن جاءه يسأله عن طريق النجاة : « قل ربى الله .. ثم استقم » ..

وفى قوله تعالى : « وقال إننى من المسلمين » — إشارة إلى أن ثمرة الإيمان بالله والعمل الصالح ، إنما تظهر آثارها فى المجتمع الإنسانى ، وفى العطاء والأخذ بين الناس .. فالإيمان والعمل الصالح إذا أمسك بهما إنسان ثم عاش بهما فى نفسه ، منعزلا عن الناس ، منقطعاً عن الحياة ، فذلك إنسان قد عطل الخير الكثير الذى معه ، وأمسك به عن أن ينمو ويزدهر فى مزرعة الحياة ، وخير منه ذلك الإنسان الذى يعيش بإيمانه وبعمله الصالح مع الناس ، فيتبادل معهم الخير ، الذى يخصب وينمو بهذا التبادل !

وهذا ما تشير إليه الآية التالية :

قوله تعالى :

* « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم » .

فهذه الآية تشير إلى التطبيق العملى للإيمان والعمل الصالح ، حيث يحتسب الإنسان نفسه واحداً من جماعة المسلمين ، فيعيش معهم ، ويلقاهم بإيمانه وبعمله الصالح ، فلا يجزى السيئة بالسيئة ، بل يلقى السيئة بالحسنة . . إذ لا تستوى الحسنة ولا السيئة . . ومن شأن المؤمن أن يأخذ بالأحسن دائمـــاً . .

وقوله تعالى : « ادفع بالتى هى أحسن » أى رُدّ السيئة بالتى هى أحسن ، وهى الإحسان فى مقابل الإساءة . . فإن من حقّ الانسان إذا أسىء إليه أن يَردّ السيّئة بالسيئة ، كما يقول الله تعالى : « وجزاء سيئةٍ سيئة مثلها » ثم يُعقِب ذلك بقوله : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » . . فرَدّ السيئة بمثلها ، ليس حَسَنًا ولا سَيّئا ، والعفو عن السيئة حسَن ، وأحسن من هذا الحسن أن تَرُدّ السيئة بالحسنة . . فهذه درجات ثلاث ، والمؤمن بالخيار فيها . . وخير المؤمنين من أخذ بالدرجة الثالثة ، وهى دفع السيئة بالحسنة . .

وقوله تعالى : « فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » بيان للأثر الطيب ، الذى يجىء من هذا العمل الطيب ، وهو دفـع السيئة بالحسنة ، وهو أنه بالإحسان إلى المسىء ، تنطفىء نار الفتنة التى كان يمـكن أن تشتعل من احتكاك السيئة بالسيئة . . ثم إن هذا المسىء الذى كان يتوقع الإساءة ممن أساء إليه ـ حين يرى أن اليـد التى مدّها بالإساءة قد عادت إليه ملأى بالإحسان ممن أساء إليه ، يستخزى من نفسه وتخفّ موازينه حين ينظر إلى فعله ، وفعل المحسن إليه ، فيذلّ ، وينقاد . . إن لم يكن عاجلا فآجلا .

والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو خطاب لكل مؤمن بالله ورسوله . وقد كان النبي صلوات الله وسلامه عليه المَثَلَ الكامل فى امتثال هذا الأمر الإلهى ، وتطبيقه على أكمل صورة وأتمها ، وحياة الرسول كلها مليئة بالشواهد لهذا . فعلى كل خطوة من خطواته الشريفة على طريق دعوته ، يقوم شاهد يحدّث بإحسان الرسول الكريم إلى من يسيئون إليه ، ويؤذونه وحسبنا أن نذكر هنا موقفه فى أحد ، وقد أثخنه المشركون جراحاً ، فما زاد صلوات الله وسلامه عليه ، على أن قال : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ».. ثم يحسبنا أن نذكر موقفه يوم الفتح ، وقد أصبح المشركون فى قبضته ، وفيهم كثيرون ممن آذوه بالقول وبالعمل ، بل إن فيهم « وحشيًّا » قاتل عمّه حمزة .. وقد لقى الرسول الكريم هؤلاء المشركين جميعاً بالصفح الجميل ، وقال لهم قولته الخالدة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

قوله تعالى :

* « وما يُلَقَّاهَا إلاّ الذين صَبَرُوا وما يلقّاهآ إلاّ ذو حظ عظيم » .

فى الآية الكريمة إشارة إلى أن هذا العمل ، وهو دفع السيئة بالحسنة ، ليس بالأمر الهيّن الذى تستطيع كل النفوس احتماله ، وإنما هو من صنيع النفوس الكبيرة ، التى آتاها الله قوة على الصبر والاحتمال ، فلا يعكّر صفوها هذا المكروه الذى ورد عليها . .

ما يَضيرُ البحرَ أمسَى زاخراً أن رَمَى فيه غلام بحجر !

وفى قوله تعالى : « وما يلقاها » . . إشارة إلى هذه الدرجة من العظمة الإنسانية ، وإلى أن متنزلها من علٍ ، وأنها هبة من هبات الله سبحانه ، وعطاء من عطاياه . « وما يلقّاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » من فضل الله وإحسانه . .

وهنا سؤال : إذا كان المؤمن فى مجتمع المؤمنين مطالباً بأن يدفع السيئة بالحسنة ، حتى ينال درجة الكمال والإحسان . . فهل يتوقع أن يُرى - فى مجتمع المؤمنين ، من يأتى بالسيئة ابتداء ، فيسىء إلى من لم يسىء إليه ؟

والجواب على هذا ، من وجهين :

أولا : أن القرآن الكريم حين دعا إلى دفع السيئة بالحسنة ، إنما خاطب بذلك مؤمناً فى جماعة المسلمين ، وليس فى جماعة المؤمنين ، وذلك فى قوله تعالى : « ومن أحسنُ قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » . . فالمسلمون أعمّ من المؤمنين ، وقد يكون الإسلام باللسان دون القلب ، وقد يكون باللسان والقلب وليس معه عمل ، أما الايمان ، فهو قول باللسان ، واستيقان بالقلب ، وتصديق بالعمل . . وعلى هذا يكون كل مؤمن مسلماً ، وليس كلّ مسلم مؤمناً . .

فقوله تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » - وإن كان دعوةً عامة المسلمين جميعاً ، إلاّ أنه منظور فيه إلى القمة العالية فيهم ، وهم الذين أشار إليهم قوله تعالى : « وما يُلقّاها إلا ذو حظ عظيم » .

وثانياً : أن المؤمنين ليسوا درجة واحدة فى مقام الكمال والإحسان . . ففى بعضهم من يسىء ابتداء ، وفى بعضهم الآخر من يردّ الإساءة بالإساءة ، وفيهم من يردّ الإساءة بالعفو ، وفيهم من يردّ الإساءة بالإحسان ، وهذا أعلى درجات الإيمان . .

الآيات : (٣٦ — ٤٣)

« وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

« وإما يَنزَغنك من الشيطانِ نَزغٌ فاستعذ باللهِ إنه هو السميع العليم » . .

النزغ : المسّ والنخس ، ويراد به ما يكون من لَمّةٍ يدخل بها الشيطان على الإنسان ليَعدِل به عن سواء السبيل . .

ومناسبة الآية لما قبلها أن الآية السابقة دَعت إلى دفع السيئة بالحسنة ، وإنه لن يقوم بالوفاء بهذه الدعوة إلاّ من كان على درجة عالية من وَثاقة الإيمان وقوة العزيمة . . والشيطان هنا مداخل يدخل بها على من يُجْمِعُ أمره على دفع السيئة بالحسنة ، فيكون له نَخَسات ينخس بها فى صدر المؤمن ، كى يخرج به عن هذا الموقف الكريم . . وهنا لا يكون المؤمن ـ كى يردّ كيد الشيطان ويخزيه ـ إلا أن يستعين بالله منه .. فالاستعاذة بالله من الشيطان خِزْى الشيطان ، ودحْرٌ له ، إذ يرى المؤمنَ وقد دخل فى هذا الحمى الذى لا يُنال ، فيرتدّ مذموماً مدحوراً .

قوله تعالى :

* « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خَلَقَهُنّ إن كنتم إيّاه تعبدون » .

هو معطوف على قوله تعالى : « إنه هو السميع العليم » . أى وإن من آيات الله السميع العليم ، الليلُ والنهار والشمس والقمر . .

فهذه العوالم ، هى بعض الآيات التى تشهد بجلال الله ، وقدرته ، وأن المستعيذ بالله إنما يستعيذ بمالك الملك ، ربّ الأرباب ، فلا يصل إليه أذًى ، ولا يناله مكروه . .

و « من » هنا للتبعيض . . أى ومن بعض آيات الله الليل والنهار والشمس والقمر . . وهناك آيات كثيرة لا تحصى ، وإنما خصت هذه الآيات بالذكر لأنها تجمع الناس جميعاً تحت لوائها ، وكل إنسان داخل تحت سلطانها طوعاً أوكرهاً . .

وقوله تعالى : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر » نهى عن عبادة هذين

الكوكبين ـ الشمس والقمر ـ واختصاصهما بالذكر لأنهما أظهر الكواكب وأكثرها أثراً فى العالم الأرضى . .

فهما بهذا السلطان ، قد فتنا كثيراً من الناس ، حتى لقد اتخذهما بعض الشعوب آلهةً يعبدونها من دون الله ، فى صور وأشكال شتّى من المراسم والطقوس .

وقوله تعالى : « واسجدوا لله الذى خَلَقَهنّ » أمرٌ بعبادة الإلهَ المستحق للعبادة ، وهو الخالق ، لا المخلوق . . فالشمس والقمر مما خلق الله ، وعبادتهما ضلال . .

وفى عوْد الضمير على الشمس والقمر جمعاً للمؤنث العاقل فى قوله تعالى : « الذى خلقهن » ـ فى هذا أكثر من إشارة :

فأولا : الإشارة ضمناً إلى النهى عن عبادة الليل والنهار ، لأن النهى عن عبادة الشمس والقمر ، يتضمن ـ من باب أولى ـ النهىَ عن عبادة الليل والنهار ، إذ كان الليل والنهار من مواليد الشمس ، فهذا أشبه بالمخلوقين التابعين لها ، فإذا وقع النهى على عبادتهما ، شمل ذلك النهى عن عبادة توابعهما ، ولهذا جاء الضمير جمعاً : « الذى خلقهن » .

وثانياً : الإشارة إلى أن هذه المخلوقات الليل والنهار والشمس والقمر ، وإن بدت جماداً صامتاً فى نظر الإنسان ، فإنها عند الله سبحانه وتعالى تسمع ، وتبصر ، وتعقل ، وتتلقى أمر الله سبحانه وتستجيب له فى ولاء مطلق . . ولهذا جاء الضمير للعقلاء .

وثالثاً : الإشارة إلى أن هذه العوالم من ليل ونهار ، وشمس ، وقمر ، وإن بدت ذات سلطان قائم على الناس ، إلا أنها إلى جانب قدرة الله مستسلمة

لا تملك من أمرها شيئاً . . ولهذا لبست ثوب الأنوثة ، الذى يدل غالباً على الضعف ، وخاصة عند الجاهلين . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ، فى موضع آخر : « أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » (١٨ : الزخرف)

وقوله تعالى : « إن كنتم إياه تعبدون » - إشارة إلى أن إخلاص العبادة لله وحده ، هو الذى يعتبر عبادة مقبولة . . أما أن يُعبَد الله فى صورة هذه المخلوقات ، أو أن تعبد معه هذه المخلوقات تقرباً بها إليه ، فهذا ليس من عبادة الله فى شىء .

قوله تعالى :

* « فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون »

أى إن استكبر هؤلاء المشركون عن عبادة الله ، وأبوا أن يعطوا ولاءهم خالصاً مطلقاً له ، فالله سبحانه وتعالى فى غنًى عنهم ، وإن استكبارهم هذا سيوقعهم تحت غضب الله ، الذى لا يرجون له وقاراً ، ولا يخشون له بأساً .. وهذا ضلال مبين منهم ، باستخفافهم بقدرة الله وبأس الله . . فالملائكة الذين هم أقرب خلق الله إليه سبحانه - وهم الملائكة المقربون - لم يكن لهم من هذا القرب ما يُخليهم من خوف الله وخشيته لحظة واحدة ، بل لقد كان خوفهم من الله وخشيتهم لله على قدر قربهم منه . . فكلما ازدادوا قرباً من الله ازدادوا خوفاً وخشية ، لأنهم يرون من جلال الله ، ويشهدون من عظمته وقدرته مالا يشهده غيرهم . . وإنه على قدر المعرفة والشهود ، تكون الخشية ويكون الولاء ، ولهذا فهم يسبحون الليل والنهار ، فى صورة متصلة دائمة ، « لا يسأمون » من هذا التسبيح ، ولا يملّون ، بل يزدادون مع دوام التسبيح نشاطاً وقوة ، لما يجدون من

لذة ورضا بهذا الذكر المتصل الذى لا ينقطع به أنسهم وحبورهم فى مناجاة ربهم ..

قوله تعالى :

* « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شىء قدير »

هو معطوف على قوله تعالى : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر » أى ومن آيات الله الدالة على بسطة سلطانه ، وكمال قدرته ، ما تراه العين من هذه الحياة التى تلبس الأرض الميتة .. فبينما تقع العين على عالم فسيح من الأرض الجديب ، والأصقاع الموات الهامدة ، إذا هى ــ وقد أصابها الغيث ، وجرى على وجهها الماء ــ حياة تموج فى أعصابها ، ودماء تتدفق فى شرايينها ، وإذا هى جنات وزروع ونخيل وأعناب .

وقوله تعالى : « ترى الأرض خاشعة » ــ إشارة إلى ضراعة الأرض ، فى جدبها ، ومواتها ، وما تكون عليه من شحوب الفقر والمسغبة . إنها أشبه بالكائن الحىّ حين تنقطع عنه موارد حياته ، فيضرع ويخشع ، ويذل .. !

وقوله تعالى : « فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » ــ إشارة إلى تلك التفاعلات العجيبة ، التى يحدثها التقاء الماء بالأرض الميتة .. فهذا الاهتزاز هو فرحة الحياة التى تسرى فى هذا الجسد الهامد ، وهذا الرباء والنماء هو من فعل تلك الحرارة التى تملأ كيان هذا الجسد المنكمش المقرور ..

وقوله تعالى : إن الذى أحياها لمحيي الموتى .. إنه على كل شىء قدير » ــ هو تعقيب على هذه الحقيقة التى يشهدها الناس من أمر الأرض الميتة ، وما يلبسها من حياة دافقة ، وشباب ناضر .. وإن هذه القدرة التى أحيت تلك الأرض الميتة ، لا يعجزها أن تعيد الأجسام الميتة الهامدة إلى الحياة مرة أخرى .. فهذا

من ذلك سواء بسواء : فالله سبحانه الذى « يخرج الحى من الميت » بقدرته . . « إنه على كل شىء قدير » .

قوله تعالى :

* « إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة : اعملوا ما شئتم . . إنه بما تعملون بصير »

هو تهديد لأولئك الذين أشار إليهم سبحانه فى قوله تعالى : «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » . . وقد هُدّدوا من قبل بعذاب الله، فى قوله سبحانه:«فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون » . . ثم ها هم أولاء يتهددهم عذاب الله مرة أخرى بعد أن تليت عليهم آيات الله ، وفيها معارض كثيرة لقدرة الله سبحانه ، وما تملك هذه القدرة من اقتدار على البعث الذى ينكرونه ، ولا يعملون له حسابا . .

« إن الذين يلحدون فى آياتنا » أى الذين يستخفون بها ، ويسخرون منها ويتعابثون عند الاستماع إليها ـ هؤلاء : « لا يخفَون علينا » بل إن علم الله سبحانه محيط بكل ما يسرون وما يعلنون ، لا تخفى على الله منهم خافية . . ثم إنهم لمحاسبون ، ومجزيون بأسوأ ما كانوا يعملون . .

« أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة » ـ أى أهذا العذاب وهذا البلاء ، الذى يلقاه هؤلاء المجرمون ـ خير ، أم جنات الخلد التى وعد المتقون ؟ لا يستويان أبداً ؟

وفى النظم الذى جاء عليه القرآن هنا من الاختلاف بين المتعادلين ، ما يحمل هذا النظم على إيجازه يتسع لكثير من المعانى ، حيث يُرى فى المعادل

الأول ، أن الذين يُلقَوْن فى النار لم يُلقوا فيها إلا بعد أن قطعوا طريقاً طويلا مضنياً إليها ، تطلع عليهم فيه المخاوف من كل جانب .. على حين يُرى فى المعادل الآخر ، أن من يأتى آمناً يوم القيامة قد انتهى به هذا الأمن إلى أمن دائم ، وهو الجنة التى طابت لأهلها مستقراً ومقاماً : « لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون » (١٠٣ : الأنبياء) . . « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار » (١٢ : الحديد) .

وقوله تعالى : « اعملوا ما شئتم . . إنه بما تعملون بصير » ـ هو تهديد بعد تهديد لهؤلاء المشركين، الذين لا يريدون أن يتحولوا أبداً عن هذا الموقف الضال من آيات الله ، ومن رسول الله . . فليعملوا ما شاءوا . . إن الله بما يعملون بصير . . وإنهم لمحاسبون على ما يعملون ، ومجزيّون بأسوأ الذى كانوا يعملون .

قوله تعالى :

* « إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »

الذكر : هو القرآن الكريم : وسمى ذكراً ، لأنه يذكّر بالله ، ويكشف طريق الهدى إليه .

وخبر « إن » محذوف ، وفى حذفه إشارة إلى أن يفسح المكان لكل وارد من واردات العذاب ، والبلاء ، ولكل صورة من صور الانتقام والنكال فيمكن أن يقال : « إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم » سيحشرون على وجوههم إلى جهنم .. لهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ـ ويمكن أن يقال هنا، كلُّ ما جاء فى القرآن من صور العذاب والنكال لأهل الكفر ، والإلحاد . . .

وقوله تعالى: « وإنه لكتاب عزيز » جملة حالية، تكشف عن هذا القرآن الذى يكفر به الكافرون، ويُلحدون فى آياته.. أى أنهم يكفرون بهذا القرآن مع أنه كتاب عزيز، أى منيع: « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » وكيف يُلم به الباطل من أية جهة، وهو « تنزيل من حكيم حميد » ؟ فالحكيم لا يدخل على عمل من أعماله دَخَل أو فساد، فكيف بأحكم الحاكمين رب العالمين ؟ والحميد المستحق لأن يحمد ويمجد، لا يكون حمده وتمجيده إلا لما هو قائم على الحكمة والسداد.. فكيف بمن هو المحمود وحده، حمداً مطلقاً فى السراء والضراء ؟

قوله تعالى:

* « ما يقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك.. إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم »

أى أنك أيها النبى لست بدعا من الرسل، وإنما أنت رسول الله إلى عباد الله، تحمل دعوة الحق إليهم، أن يؤمنوا بالله وحده، وألا يشركوا به شيئاً.. فهذا هو مجمل رسالة رسل الله جميعاً، وهو مجمل رسالتك، وعنوانها، وصميمها.. فالقول هنا بمعنى الوحى: أى ما يوحى إليك إلا ما أوحى إلى الرسل من قبلك، كما يقول الله سبحانه: « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبوراً * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما (١٦٣ - ١٦٤ : النساء)

ويجوز أن يكون معنى قوله تعالى: « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » أى ما يقال ذلك من هؤلاء المشركين من قومك، من تكذيب لك

وإتهام بالسحر والجنون إلا مثل ما كان يقال للرسل من قبلك من أقوامهم..
وفي هذا عزاء للنبي صلوات الله وسلامه عليه.. ودعوة له إلى الصبر على ما يكره من قومه، كما صبر الرسل على ما رماهم به أقوامهم من سوء..

وقوله تعالى: «إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم» - هو تعقيب على هذا الخبر، وهو أن الرسول ليس بدعاً من الرسل، وأنه إنما يدعو بما دعا به رسل الله من قبله، من الإيمان بالله وحده، من غير شريك له.. وفي هذا التعقيب دعوة إلى المشركين إلى الإيمان بالله، وأنهم إذا آمنوا، وتابوا إلى الله، ونفضوا أيديهم مما يعبدون من آلهة، وما يفعلون من منكرات، تقبل الله توبتهم، وغفر لهم ما كان منهم.. وفي هـذا التعقيب مع هذه الدعوة إلى الإيمان، والإغراء بالمغفرة تهديد بالعذاب الأليم، والعقاب الشديد، لمن لم يستجب لدعوة الإيمان، ولم يرجع إلى الله منيباً، تائباً..

ويجوز أن يكون قوله تعالى: «إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم» هو مقول القول لله سبحانه وتعالى: «ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك» أي ما يقال لك إلا هذا القول، وهو: «إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم» وهو ما قيل لكل رسول من قبل.. فهذا هو الإله الذي يدعو إلى الإيمان به كل رسول من رسل الله.. إنه ذو مغفرة لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، وذو عقاب أليم لمن صد عن سبيل الله، وكفر به، وسعى في الأرض فساداً..

الآيات: (٤٤ — ٤٦)

* «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصّلت آياته ؟ أأعجمى وعربى ؟ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمًى أولئك يُنادوْن من مكان بعيد » .

مناسبة هـــذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة ذكرت القرآن الكريم ، ونوهت به ، وأشارت إلى علو متنزله ، وأنه عزيز من عزيز حكيم ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتوعدت الذين كفروا به ، وألحدوا فيـه ، فناسب ذلك أن يذكر عن المشركين الذين كفروا بهذا الذكر بعضُ إلحادهم فيه ، وتعِلاّتهم عليه ، مما كان سبباً فى صدهم عنه ، وبجافاتهم له . .

فمن ضلالاتهم أنهم كانوا ينكرون أن يكون الرسول الذى يُرسل من عند الله إليهم رجلا منهم ، يتكلم باللسان الذى يتكلمون به . . إن ذلك ممكن أن يدعيه كل واحد منهم ، فما يحدثهم به الرسول على أنه كلام الله هو من جنسٍ ما يتكلمون به . .

فهل كلام الله من جنس كلامهم ؟ أهذا مما يعقل ؟ وما الدليل على أن هذا كلام الله ؟ ثم ما الدليل على أن هذا الإنسان هو رسول الله ؟ وما الجديد الذى جاءهم به ؟ إن بضاعته كلها كلام من كلامهم ! فإذا كان

ثمة كلام من الله إليهم ، فليكن بلسان غير لسانهم حتى يكون ذلك شاهدَ صدق على أن ما يحدثهم به محمد ليس من كلامه هو ، بل من كلام الله .. فهذا أقرب إلى التصديق !! هكذا كان شعورهم نحو القرآن الكريم أول الأمر .. ما إن سمعوه كلاماً عربياً مما يتكلمون به ، حتى قامت تلك التهم عندهم له ، وللرسول الذى جاء به .. ولهذا جاءهم القرآن الكريم بما يكشف عن فساد منطقهم هذا ، وذلك فى قوله تعالى : « ولو نزلناه على بعض الأعجمين ، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين » (١٩٩ : الشعراء) أى أنه لو جاءهم أعجمى لا يتكلم العربية أبداً ، فجعله الله سبحانه وتعالى رسولا إليهم ، يتلو عليهم هذا القرآن بلسان عربى مبين لكان موقفهم معه كوقفهم مع النبى العربى ، ولقالوا فيه مقالا ، ولما كان نطقه باللسان العربى ـ وهو الأعجمى ـ شاهداً يشهد له عندهم بأنه رسول الله . . ففى مجال المماحكة والجدل متسع لأهل الزيغ والضلال !.

ومن جهة أخرى ، فإن هؤلاء الضالين ، لو استمعوا إلى آيات الله ، وعَقَلوها ، ووزنوا كلامهم على ميزانها لوجدوا أن كلامهم بالنسبة إليها أشبه بلكنة الأعاجم ورطاناتهم . .

إن الشبهة قائمة عندهم ، لا تزول ، لو جاءهم القرآن باللسان الأعجمى ، كما أنها قائمة عندهم كذلك لو كان الرسول إليهم ملكا لا بشراً . . وفى هذا يقول الله تعالى :

« ولو جعلناه مَلَكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » (٩ : الأنعام) ..

فلو جاءهم القرآن الكريم بلسان أعجمى لكانت علتهم عليه ، أنه ليس بلسانهم ، وأنهم لا يفهمون هذه الرطانة ، ولقالوا : « لولا فصلت آياته » أى هلا وضحت آياته ، واستبانت مغالق كلماته ، حتى نعلم منطوقها

ومفهومها ؟ وإن لهم فى هذا القول لمنطقا لو كانوا يطلبون الحق أو يبتغون المدى .. وقد رَدّ الله سبحانه عليهم بقوله : « أأعجمى وعربى » ؟ أى كيف يتفق أن يكون اللسان الأعجمى مُفصحاً مبيناً عند من لا يحسن إلا العربية ؟ فإما أن يكون الكلام بغير العربية التى لا يحسنونها ، أو بالعربية التى هى لسانهم . . أما أن يكون الكلام غير عربى ، ثم ينطق بما يفهمه العربى ؛ فهذا مالا تحتمله طبيعة اللغة ، أى لغة .. !

وقوله تعالى : « أأعجمى وعربى » استفهام إنكارى لهذا المقترح الذى يقترحونه على النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو أن يكون اللسان الذى يخاطبهم به لسانا أعجميا عربيا معاً ! . أى بلغة غير لغتهم ، ثم تكون تلك اللغة مفهومة لهم ! !

قوله تعالى : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » أى هذا القرآن هو هدى وشفاء للذين آمنوا ، يجدون فى آياته وكلماته ما يهديهم إلى الحق والخير ، وما يذهب بما فى عقولهم وقلوبهم من زيغ وضلال . .

وقوله تعالى : « والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى » أى أن الذين لا يقبلون الإيمان ، ولا تستجيب طبيعتهم له ـ هؤلاء لاحظ لهم من القرآن ، إلا الصمم فى آذانهم ، وإلا العمى فى أعينهم ، فلا يسمعون ما يُتلى عليهم منه ، ولا تستضىء أبصارهم بما فيه من هدى ..

فقوله تعالى : « فى آذانهم وقر » متعلق بمحذوف ، هو خبر الذين لا يؤمنون .. أى والذين لا يؤمنون يقع فى آذانهم صمم عند سماع القرآن . .

وقوله تعالى : « وهو عليهم عمى » أى ويرد عليهم من القرآن عمى يصيبهم فى أبصارهم وبصائرهم . .

وقوله تعالى : « أولئك ينادون من مكان بعيد » . .

الإشارة هنا إلى هؤلاء الذين لا يؤمنون . . وفى الإشارة إليهم مناداة

عليهم بما يسوءهم ، وإعلامهم بهذا الحكم على مشهد من الناس ..

وقوله تعالى : « ينادون من مكان بعيد » ـ إشارة إلى أن هؤلاء الذين لايؤمنون ، لا تتقبل طبيعتهم الإيمان ولا تستجيب له .. إذا تلى عليهم القرآن لم يقع لآذانهم التى أصموها عنه إلا كما يقع الصوت الوارد من مكان بعيد ، خافتاً ضعيفاً ، غير واضح الدلالة ، فلا يتبين السامع شيئاً لما سمع .

قوله تعالى :

* « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب » .

هو عزاء للنبى ، وتسرية لهمومه التى يعالجها ، من خلاف قومه عليه ، وإعراضهم عما يتلو عليهم من آيات ربهم .. فهذه ليست حال هؤلاء القوم وحدهم ، بل هى حال كثيرين من أهل الضلال ، فى كل أمة وكل جيل مع رسل الله وآيات الله .. وأقرب مثل لهذا مالقى موسى من قومه هؤلاء الذين يرام المشركون بينهم من اليهود ..

فلقد آتى الله موسى الكتاب ، أى التوراة ، فيها هدى ونور ، « فاختُلف فيه » أى فاختلف القوم فى هذا الكتاب ، ولم يستقيموا على طريق واحد معه ، بل تفرقت بهم السبل ، فسلك كل فريق شعبة من شعب الضلال ، وإذا هم ثلاث وتسعون فرقة ، كما جاء فى الحديث الشريف ..

وفى هذا يقول الله تعالى : « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة » (٤ : البينة) ويقول سبحانه : « وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » (١٩ : آل عمران) .. وإذن فلا يحزن الرسول الكريم إذا رأى خلاف قومه على هذا الكتاب الذى بين يديه ، فكان منهم المؤمنون ، وكان منهم الكافرون فتلك هى سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا « ولو شاء الله لجمعهم على

المدى » (٣٥ : الأنعام) . . ثم لا يحزن النبي إذا وقع الخلاف بين المؤمنين ، فكانوا فرقاً فيما بعد ..

فتلك هي سنة الله في خلقه . .

قوله تعالى : « ولولا كلمة سبقت من ربك » تلك الكلمة هي ما وعد الله تعالى به النبي صلى الله عليه وسلم ألا يعذب قومه وهو فيهم ، كما يقول الله تعالى : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » (٣٣ : الأنفال) .

وقوله تعالى : « لقضى بينهم » أى لولا هذه الكلمة لأخذهم الله بعاجل عذابه ، ولأوقع بالظالمين المكذبين بأسه الذى حلّ بالمكذبين من قبلهم .

وقوله تعالى : « وإنهم لفى شك منه مريب » أى أن هؤلاء المشركين فى شك وارتياب من أمر هذا القرآن ، فلم تقع آياته وكلماته موقع اليقين منهم ، لأنهم لم يفتحوا آذانهم له ، ولم يوجهوا عقولهم وقلوبهم إليه ، فلم يستمعوا إليه إلا بآذان صماء ، ولم يلقوه إلا بقلوب مريضة ، وعقول سقيمة ، فكان حكمهم عليه هذا الحكم الفاسد ، الذى ملأ قلوبهم شكا وارتيابا . .

قوله تعالى :

* « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » . .

هو عزاء بعد عزاء من الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم ، ودعوة إليه من ربه سبحانه أن يتخفف من هذا الحزن الذى يجده فى نفسه من خلاف قومه عليه ، ومن تهافتهم على موارد الهلاك وهو يمسك بحُجُزهم ، ويشدهم إليه ، ليأخذ بهم إلى طريق النجاة ، وهم يتفلتون منه ، ويلقون بأنفسهم بالنار ، ويتساقطون فيها تساقط الفراش .. فلا على النبى من بأس ، إذا هو بلّغ دعوته فلم يستجب لها هؤلاء المشركون . . « من عمل صالحاً

فلنفسه ومن أساء فعليها » — فإنهم لو آمنوا وعملوا الصالحات فإنما ذلك لخيرهم ، وسعادتهم ، وإن هم أمسكوا بكفرهم وضلالهم فذلك لشؤمهم وشقائهم . . فكل إنسان مجزى بما عمل « لا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

وقوله تعالى : « وما ربك بظلام للعبيد » أى أنه سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة ، كما يقول سبحانه : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما » (٤٠: النساء) كما أنه سبحانه لا يأخذ المطيع بذنب العاصى . . « ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء » (٥٢ : الأنعام) .

وفى التعبير بصيغة المبالغة فى قوله تعالى : « بظلام » ـ إشارة إلى أمور . .

أولا : أن كثرة الناس هلكى ، وقليل منهم هم الناجون . . هكذا قضت مشيئة الله فى عباده ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وما أكثرُ الناس ولو حرصتَ بمؤمنين » . . فلو نظر ناظر إلى كثرة الواردين على جهنم ، لداخله شعور بأن هؤلاء الناس واقعون تحت سلطان مستبدّ قاهر ـ فجاء قوله تعالى : « وما ربك بظلام » ليدفع ذلك الشعور الخاطىء . .

وثانيا : أن العذاب الواقع بأهل الضلال ، عذاب شديد ، لم يقع فى تصور إنسان ، فإذا اطلع مطلع على ما يلقى أهل النار من بلاء ، خُيل إليه أن لا ذنب يستحق هذه العقوبة التى لا يعرفها أحد . . فجاء قوله تعالى « وما ربك بظلام » ليدفع هذا التصور الخاطىء كذلك . .

وثالثا : أن الله سبحانه وتعالى يملك التصرف المطلق فى عباده ، وأنه قادر على أن يضاعف عقاب المذنبين أضعافا كثيرة ، وأن يجزى السيئة بعشر أمثالها ، كما يجزى الحسنة بعشر أمثالها ، ولو فعل ذلك لما كان ظالما ، ولا ظلاما ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . . فإن

الظالم ، أو الظلاّم ، هو من يعتدى على حقوق الغير ، والله سبحانه إنما يتصرف فيما يملك ، وليس لأحد مُلك معه . .

ورابعاً : تقرر فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم أن الله لا يظلم مثقال ذرة. كما فى قوله تعالى : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنةً يضاعفها » (٤٠ : النساء) وكما يقول جلّ شأنه : « ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون » (١٦٠ الأنعام) ..

فالظلم منفىٌّ قطعاً عن الله سبحانه وتعالى ، لأن الذى يظلم إنما يكون فى حاجة إلى مزيد مما هو فى يد غيره . . والله سبحانه وتعالى مالكُ كل شىء ، وبيده كل شىء . . فإلى من يتجه بالظلم وكل شىء مِلكه وصنعة يده ؟ . .

« ألاَ له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . .



فهرس الموضـــوعات

تم الجزءان : الثالث والعشرون والرابع والعشرون ، ويليه الجزءان :
الخامس والعشرون والسادس والعشرون .. إن شاء الله ، والله الموفق والمعين ؟